مَوسوعةُ التَّفسيرِ البلاغيّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

المُجَلَّدُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الحَادِي عَشَرَ

سُورَةُ يُونُسَ

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ [يونس: 15]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العـلاقـةُ بين هلاكِ المُكذِّبين، وبـين مطالبةِ الرّسولِ الأكرمِ بما لم يكلَّفْ به

لَمّا تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّ مَنْ قَضَى اللّه بشقاوته لا يَتأتَّى إيمانُه بآيةٍ منَ الآياتِ، حتَّى تنزلَ به سَطوتُهُ وتُذيقه بَأسَهُ ونقمتَهُ، وكانَ القرآنُ أَعظمَ آيةٍ أُنزِلَت إلى النّاسِ لِما لا يَخفى، أَتبعَ النّظمُ الكريمُ بيانَ اللّه عطفًا على قولِه: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ بقولِه بيانًا لذلكَ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ بناءً للمفعولِ إيذانًا بتكذيبِهم عندَ تلاوةِ أيِّ تالٍ كان، قالوا في تلكَ الآياتِ - مع أنَّها بيِّناتٌ - ما لا معنًى له بدافعِ التَّلاعُبِ والعِنادِ، فطلبوا من رسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِ هذا في نَظمِه ومعناه، أو يبدِّلَه بغيرِه، فأمرَه اللّه تعالى أن يبيِّنَ لهم أنَّه مُتبعٌ لِما يوحَى إليه منَ اللّه، وليس بيدِه تَغييرُ شيءٍ أو تبديلُه، وأنَّه يَخافُ أن يفعلَ شيئًا لم يأمرْه به اللّه، فيكونُ حينئذٍ قد عصاه، ويكونُ مصيرُه العذابَ الأليمَ[1].

ومنَ المناسبةِ أيضًا أنّ السّورةَ لـمّا بدأت "بذكرِ الكتابِ الحكيمِ وإنكارِ المشركين الوحيَ على رجلٍ منهم، ثمّ أقامَ الحجّةَ على الوحيِ والتّوحيدِ والبعثِ بخلقِ العالمِ علويّه وسفليّه، وبطبيعةِ الإنسانِ وتاريخِه وغرائزِه - أعاد هنا الكلامَ في شأنِ الكتابِ نفسِه، وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرّسولِ ﷺ بشأنه، وحجّته البالغة عليهم في كونه وحيًا من عندِ اللّه تعالى"[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/86 - 88.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/78.

❁ شَرْحُ المفْرَداتِ:

1) ﴿تُتۡلَىٰ﴾: تلو الشّيءَ الّذي يتلوه، وتِلوُ النّاقةِ: وَلَدُها الّذي يتلوها، وتلوت القرآنَ تلاوةً. وتَلَوتُ الرّجلَ أَتلوهُ تُلوّاً، إذا تَبعتَهُ. يقال: ما زلت أَتلوهُ حتى أَتليَتُهُ؛ أي: حتَّى تقدّمته وصار خلفي(1). والتِّلاوةُ تختصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللّه المنزَّلةِ، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسامِ لما فيها من أمرٍ ونَهي، وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتوهَّمُ فيه ذلك، وهو أخصُّ منَ القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، لا يُقالُ: تلوتُ رقعتَك، وإنَّما يُقالُ في القرآنِ في شيءٍ إذا قرأتَهُ وجبَ عليكَ اتِّباعُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: 2] فهذا بالقراءة، وقولُه تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] فاتِّباعٌ له بالعلمِ والعمل(2).

وقولُه هنا: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا﴾؛ أي: قرأَ عليهمُ القارىءُ آياتِ اللّه في القرآنِ وحُجَجِه الواضحة(3).

2) ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: البيِّنة: هي الدّلالةُ الواضحةُ، عقليّةً كانت أو محسوسةً، وسُمّيت شهادةُ الشّاهدين بيّنة لقوله ﷺ: «البيّنةُ على المدَّعي، واليمينُ على مَن أنكر»، والجمعُ بيّنات، وفي المحصول: البيّنة: الحجّة الواضحة(4)، يُقالُ: بانَ واستبانَ وتبيَّنَ، وقد بيَّنتُه، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، ويُقال: آيةٌ مبيَّنةٌ، اعتبارًا بمَن بيَّنَها، وآيةٌ مُبَيِّنةٌ اعتبارًا بنَفسِها، وآياتٌ مُبيَّناتٌ ومُبيِّنات. والبَيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ عقليّةً كانَت أو مَحسوسةً. والبَيانُ: الكشفُ عنِ الشَّيء، وسُمِّيَ الكلامُ بيانًا لكشفِهِ عنِ المعنى الَّذي قُصِدَ إظهارُه، نحو: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138](5).

وقولُه هنا: ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: الواضحات، الدّالّة على إثباتِ التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّركِ، حالَ كونِها واضحةَ الدَّلالةِ على المطلوب(6).

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (تلو).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (تلو).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/605.
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بين).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بين).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/605.

3) ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾: الرّجاء: ممدود، وهو نقيضُ اليأسِ، والفعلُ منه، رجا يرجو[1]، والرَّجاءُ ظنٌّ يقتضي حصولَ ما فيه مسرّة، وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: 13]، قيل: ما لكم لا تَخافونَ، ووجه ذلك أنّ الرَّجاءَ والخوفَ يتلازمان، قال تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النِّساء: 104][2].

وقولُه تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يأمُلونَ لقاءَنا ولا يخافونَه؛ لأنَّهم مُنكِرونَ له وجاحدون[3].

4) ﴿بَدِّلۡهُۚ﴾، ﴿أُبَدِّلَهُۥ﴾: بَدَلَ: الباءُ والدّالُ واللّامُ أصلٌ واحد، وهو قيامُ الشَّيءِ مقامَ الشَّيءِ الذّاهب، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، وكذلك هو: الإبدالُ والتَّبديل، والتَّبَدُّلُ والاستبدالُ، ويقولونَ: بدَّلتَ الشّيءَ: إذا غيَّرتَه وإنْ لم تأتِ له بِبَدَلٍ، وأبدَلتُه: إذا أتيتُ له ببَدَل، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ [النَّحل: 101]، وقالَ سُبحانه: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: 95][4].

ومعنَى قولِه هنا: ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾؛ أنَّهم طَلبوا من رسولِ اللّه ﷺ: إمّا الإتيانَ بقرآنٍ غيرِ هذا القرآنِ مع بقاءِ هذا القرآنِ على حالِه، وإمّا تبديلَ هذا القرآنِ بِنَسْخِ بعضِ آياتِه أو كلِّها، ووضعِ أُخرَى مكانَها ممّا يُطابقُ إرادتَهم ويُلائمُ غَرَضَهم، فأجابَهم بأمرِ اللّه: ما يَنبغي لي ولا يَحِلُّ لي أن أُبدِّلَهُ من تلقاءِ نَفسي، فَنَفَى عن نَفسِه أحدَ القِسمَين، وهو التَّبديلُ؛ لأنَّه يمكنُه لو كان جائزًا، بخلافِ الإتيانِ بقرآنٍ آخَرَ، فإنَّ ذلكَ ليس في وُسعِه ولا يَقدِرُ عليه. ويمكنُ أن يُرادَ بأنَّه ﷺ نَفَى عن نَفسِه أَسهلَ القِسمَينِ ليكونَ دليلًا على نَفيِ أصعبِهما بالطَّريقِ الأَولى[5].

5) ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾: أَصلُ الوَحيِ: الإشارةُ السَّريعةُ، ويتضمَّنُ السُّرعة، قيل: أَمرٌ وَحيٌّ، وذلكَ يكونُ بالكلامِ على سبيلِ الرَّمزِ والتَّعريضِ، وقد يكونُ بإشارةٍ ببعضِ الجوارحِ،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رجا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رجا).
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/605.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بدل).
(5) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/605.

وبالكتابةِ، كما قالَ تعالى في شأن زكريا عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: 11]، ويُقالُ للكلمةِ الإلهيَّةِ الَّتي تُلقَى إلى أنبيائه ورُسُله: وَحي؛ قالَ تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشّورى: 51]؛ وذلك إمّا برسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُه ويُسمَعُ كلامُه، كتبليغِ جبريلَ عليه السلام للنَّبيِّ ﷺ في صورةٍ مُعيَّنة، وإمّا بسماعِ كلامٍ من غيرِ مُعايَنةٍ كسماعِ موسى عليه السلام كلامَ اللّه تعالى، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوع، وإمّا بمنامٍ، والوحيُ صلةُ الرُّسُلِ باللّه الَّذي أرسلَهم لعبادِه، ومنَ الوَحيِ المختصِّ بالنَّبيِّ ﷺ قولُه هنا في الآية: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1].

6) ﴿عَصَيْتُ﴾: عَصَى عِصيانًا: إذا خرجَ عنِ الطّاعةِ، قالَ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: 121][2]، ويُقالُ فيمن فارقَ الجماعةَ: فلانٌ شقَّ العَصا[3]، وقد قيلَ في الأثر: «ومَن عصى اللّه لم تَقِهِ منه واقيةٌ»، و المعاصي: جمع معصية، وهي كلُّ ما عُصِيَ اللّه به[4]، قال ذو الرّمة:

يا قابِضَ الرّوحِ عَن جِسمٍ عَصَى زَمَنًا *** وغافِرَ الذَّنبِ، زَحزِحني عَنِ النّارِ[5]

ويكون معنَى قولِه تعالى هنا: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾؛ أي: خَرَجتُ عن طاعةِ ربِّي بفعلِ ما يطلبونَ بأنَّ أتقوَّلَ في القرآنِ من عندي، أو أبدِّلَ في قرآنه، أو أَفتريَ على اللّه بما لم يأمرْني به[6].

۞ المعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ سبحانه وتعالى عن تعنُّتِ الكفّارِ ومُشركي قُرَيْش، الجاحدينَ المعرضينَ عنه، أنَّهم إذا قرأَ عليهم الرَّسولُ ﷺ كتابَ اللّه وحُجَّتَه الواضحة، قالوا له: ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا بردِّه، وجئْنا

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(2) الرّاغب، المفردات: (عصا).
(3) أبو الفضل الميدانيّ، مجمع الأمثال: 1/364.
(4) شمس الدّين البعليّ، المُطلع على ألفاظ المُقنع، ص: 140.
(5) البيت مذكور في ملحق ديوان ذي الرّمّة، ص: 1875، وابن منظور، لسان العرب: (زحح)، والزَّبيدي، تاج العروس (زحح)، وذكره أبو العبّاس الشّريشيّ، شرح مقامات الحريريّ: 1/49.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.

استنكارُ طلبِ المشركين قرآنًا آخرَ؛ لأنّ الرّسولَ مُبلِّغٌ يخافُ الله ولا يعصيه

بغيرِه من نَمَطٍ آخر، أوْ بدِّلْه إلى وضعٍ آخر، فأجابَهمُ اللّه قائلًا لنبيِّه ﷺ: قلْ يا محمَّدُ ﷺ لأولئك المعاندين: ليسَ هذا إليَّ إنَّما أنا عبدٌ مأمورٌ، ورسولٌ مُبلِّغٌ عنِ اللّه، وإنّي أخافُ منَ اللّه، فإنْ عصيتُه أصابَني يومَ القيامةِ عذابٌ عظيمٌ من لَدُنْه سبحانه وتعالى[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو في: ﴿وَإِذَا﴾:

طلبُ المشركين تَغييرَ القرآنِ أو تَبديلَه، سفهٌ وضلالةٌ

قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ معطوفٌ على قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾، فوردَ هذا العطفُ؛ باعتباره ناشئًا عن قولِهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: 32]، وذلكَ أسلوبٌ من أساليبِ التَّكذيبِ، الّتي تنافسوا فيها، وأوحى بعضُهم إلى بعض زخرفَ قولها غرورًا، وأردفَ ببيانِ أسلوبٍ آخرَ من أساليبِ تكذيبِهمُ النَّبيَّ ﷺ، وهو نفي أن يكونَ القرآنُ موحًى إليه منَ اللّه تعالى، زاعمين أنَّ القرآنَ وضَعَهُ النَّبيُّ ﷺ من تلقاءِ نَفسِه، ولذلكَ جَعلوا من تكذيبِهم أنْ يقولوا له: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾؛ إطماعًا له بأن يؤمنوا به مُغايرًا أو مُبَدَّلًا، إذا وافقَ هواهم[2]، ونسوا أنّ ذلك سيكون ضربةً قاضيةً لمصداقيّةِ القرآنِ وصدقيّتِه، وعليه فقد أخبرَهم الرّسولُ ﷺ، بأنّه مُبلِّغٌ عنِ اللّه بأمانةٍ، وأنّه لا دخلَ له في التّنزُّلِ ولا في التّغييرِ.

دَلالةُ ﴿وَإِذَا﴾ الظَّرفيَّةِ الشَّرطيَّة:

الاهتمامُ بذكرِ الظّرفِ تعجيبًا من تهافتِ أُمنياتِهم الّتي لن تتحقَّق

جاءَت ﴿وَإِذَا﴾ الظَّرفيَّةُ الشَّرطيَّةُ مُتقدِّمةً على عاملِها، وهو: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ للاهتمامِ بذكرِ الوقتِ الَّذي تُتلى فيه الآياتُ عليهم، وربطًا بين جزأيِّ الجملةِ الشَّرطيَّة ﴿تُتۡلَىٰ﴾ و ﴿قَالَ﴾، والتّقدير: فإذا تُتلَى عليهم آياتُنا فَحينئذٍ يقولونَ فيه هذا القولَ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/87، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/115 - 116.

تَعجيبًا من كلامهم وَوَهنِ أَحلامِهم، ولَمّا كانَ العاملُ في الظَّرفِ فعلًا ماضيًا ﴿قَالَ﴾ عُلِمَ أنَّ قولَهم هذا واقعٌ في الزَّمنِ الماضي[1]، وأنّه أباطيلُ، لا يسندُها عقلٌ حصيفٌ، ولا مقصدٌ شريفٌ، كما يدلُّ التّعبيرُ بـ(إذا) على تكرار الجوابِ بتكرار فعلِ الشّرطِ، فطلبُهم تغييرَ القرآنِ لم يقعْ مرّةً واحدةً بل كان مُتكرّرًا، وفي ذلك إيماءُ شدّة تمسكِّهم بضلالِهم.

سرُّ إيثارِ لفظِ: ﴿تُتۡلَىٰ﴾:

خصوصيَّةُ مصطلحِ التِّلاوةِ لجمعه بين العلمِ والعملِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا﴾ التّعبيرَ بلفظ التّلاوةِ على لفظِ القراءةِ، لخصوصيَّةِ مُصطلحِ التِّلاوة، فإنَّ التِّلاوةَ تختصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللهِ المنزَّلةِ، وأخصُّها القرآنُ الكريمُ لِما فيه من أمرٍ ونَهيٍ وتَرغيبٍ وترهيبٍ، فهي أخصُّ منَ القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، والتِّلاوةُ تَستدعي الاتّباعَ لِما يُتلَى بالعلمِ والعملِ، وكانَ المشركون يَعونَ هذه الحقيقيةَ، ولكنَّهم يُعاندونَ، فلا يُريدونَ الاتِّباعَ والعمل، ولذلك طلبوا قرآنًا على ما يناسبُ أحلامَهم ومعتقداتِهم، وكذلك فإنَّ التِّلاوةَ تكونُ في الكلماتِ يَتبعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدةِ إذ لا يصِحُّ فيها التُّلُوُّ؛ لأنَّ أصلَ التِّلاوةِ إتباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، ودلَّ على ذلكَ الجمعُ في قولِه تعالى: ﴿ءَايَاتُنَا﴾؛ أي: آياتُنا الّتي تُتلَى عليهم تِباعًا[2].

دَلالةُ بناءِ الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ على ما لم يُسمَّ فاعلُه:

الاهتمامُ بالمتلوّ أعلقُ بالسّياقِ مِنَ التّصريحِ التّالي

جاءَ فعلُ التِّلاوة ﴿تُتۡلَىٰ﴾ مَبنيًّا للمفعولِ مُسنَدًا إلى الآياتِ دونَ بنائِه للفاعل الّذي هو في الحقيقة الرّسول ﷺ؛ للإشعارِ بعدمِ الحاجةِ لتعيينِ التّالي، وللإيذانِ بأنَّ كلامَهم في نَفسِ المتلوِّ دونَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140، والرّاغب، المفردات: (تلو)، والكفويّ، الكلّيّات: 2/95، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 46.

التّالي وبتكذيبِهم عند تلاوةِ أيِّ تالٍ كان[1]، وهو بهذا كأنّه يطوي تعيينَ من تلا، لتصلحَ الآيةُ لكلّ زمانٍ يأتي، ويكون ذلك بعدَ انتقالِ رسولِ اللّه ﷺ إلى الملأ الأعلى، ووقوعِ التّلاوةِ من غيره، فإنّه لا مانعَ من تَكرارِ المقولةِ الّتي يتضمّنُها السّياقُ، بملابساتٍ أخرى، ولهذا لم يُسَمَّ فاعلُها لتعبّرَ عن هذا التّأبّي على اللّه، وتحدّي رسوله ﷺ، وليطلب المنكِرون من كلّ داعيةٍ ما يعجزُهُ في زمانِه، كما طلبَ من رسولِ اللّه في أوانِه.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

الاهتمامُ بمَن تُتلَى عليهِمُ الآياتُ بالتّلَقّي عن طريقِ البلاغِ

قدّم النّظمُ الجليلُ شِبهَ الجُملةِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على نائبِ الفاعلِ ﴿ءَايَاتُنَا﴾؛ للاهتمامِ بأنَّ هذه الآياتِ أُنزلَت عليهم رحمةً منَ اللّه بهم؛ لتَرفعَ عن كواهلِهم ثِقَلَ الوثنيَّةِ وظُلمَها وظُلُماتِها، الَّتي تعفَّنَت بها عقولُهم، وغَشَى الرّانُ بها قلوبَهم، ولاختصاصِ التِّلاوةِ والبيانِ لتلك الآياتِ بهم، وخصّهم بكونِ التّلاوةِ واقعةً عليهم دون غيرِهم مبالغةً في شدّةِ البيانِ، فهم أقربُ النّاسِ إلى رسولِ اللّه ﷺ، فمنهمُ الرَّحِمُ والقرابةُ والجِوارُ والصُّحبةُ، ولكنَّهم قابَلوا ذلكَ بالتَّكذيبِ والعِنادِ، وطَلبوا تغييرَ القرآنِ أو تبديلَه.

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

تمكّنُ التّبليغِ منهم بإيصالِ التّلاوةِ إليهم يُفصِحُ عن كمالِ تعنّتِهم

في قوله جلّ شأنه: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا﴾ عبّر النّظمُ الجليلُ بحرفِ الاستعلاءِ (على)، مُستعملًا إيّاه للاستعلاءِ المجازيِّ، وهو تمكّنُ الفعلِ الّذي تعلَّقَ به منهم، فالتّلاوةُ عليهم تدلُّ على بلوغِ الدّعوةِ إليهم واضحةً بيّنةً.

سرُّ التّقييدِ بالحالِ في قوله: ﴿ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾:

توصيفُ بيانِ اللّه آياتِ القرآنِ بأنَّها بيِّناتٌ؛ لزيادةِ التَّعجيبِ من

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/86، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

طَلبِهم تبديلَها، لا بطلبِ تبديله، إذ لا طَمَعَ في خيرٍ منَ القرآن[1]، و"وصفُ الآياتِ بأنّها بيّناتٌ، يدلُّ على أنّ مَن عندَه أدنى نظر، يستطيعُ أن يبصرَ وجهَ الحقِّ في هذه الآياتِ البيّنةِ المشرقة، وأن يهتدي بها، ولا يجادل فيها، أو يقف موقفَ الشّكِّ والعنادِ منها"[2].

البيانُ والوضوحُ في التّبليغ أوقعُ في إقامةِ الحجّةِ، وأدلُّ على التّعجبِ من سوءِ طلبِهم

دلالةُ الإضافةِ في: ﴿ءَايَاتُنَا﴾:

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿ءَايَاتُنَا﴾ عظّم النّظمُ الكريمُ الآياتِ بإضافتها إلى ضمير التّعظيم مُسنَدَةً إلى من أَنزَلَها ﷻ؛ أي: على ما لها منَ العظمة المُكتَسَبَة بإسنادِها إلينا؛ أي: إلى اللّه بسُلطانه وحُكمِه وحِكمتِه، وهي مَتلوَّةٌ مَسموعةٌ مَرئيَّةٌ منَ القوم، فإنَّه مع ما اشتملَت عليه ممّا لزمَهم به الإقرارُ بحقيقته من حقيَّة التَّوحيد وبُطلانِ الشِّرك، قالوا فيه ما لا معنًى له إلّا التّلاعبُ والعِنادُ، ولولا ما عَلِموه وعايَنوه من إعجازِ القرآنِ في بلاغتِه ولغتِه ومناحي كلامِه، وعدم قدرتِهم على الإتيانِ ولو بأقصرِ سورةٍ منه ما طلبوا من رسولِ اللّه ﷺ تغييرَ القرآنِ أو تبديلَه، مع أنَّ آياتِ اللّه البيِّنات في كونِه تصدَحُ بوحدانيَّةِ اللّه وهم يَرَونَها، والقرآن يُحدّثُهم عنها، ولكنَّها لا تواجهُهم كآياتِ القرآنِ الّتي تأمرُهم بنَبذِ عبادةِ الأصنام، والتزام عبادةِ الرَّحمن[3].

إعجازُ آياتِ القرآنِ في منظومةِ تشريعِها وبلاغتِها ولغتِها

كما أنّ إضافةَ الآياتِ إلى ضمير الجلالةِ يدلُّ على أنّ هذه الآياتِ جديرةٌ بإحداث البيانِ، وأنّها في الغاية من إقامةِ الاحتجاج وتبيينِ الاستدلالِ على ما سِيقَت له.

بلاغةُ الالتفاتِ منَ الخطابِ إلى الغَيبةِ:

بيانُ مكابرتِهم بالتّحدّي والتّعجيز، ومجانفتهم للمهمّة الاستخلاف في الأرض

بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 14]، وهي الآيةُ السّابقةُ لها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/116.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/072.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/87.

مباشرة، أسلوبُ التفاتٍ، وهو تنوُّعٌ في أساليبِ البيانِ الّتي تُعَدُّ من معالم البلاغةِ العربيَّة وأفانينِها، و بها يبرزُ المعنى في سياقِ النَّصِّ الَّذي تُلحَظُ به ملمحيّةُ هذا الأسلوبِ، فقد تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 14] بأسلوبِ الخطابِ، ثمَّ تلاهُ قولُه هنا: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ بأسلوبِ الغَيبةِ، وهذا الالتفاتُ منَ الخطابِ إلى الغَيبة، جاء مَسوقًا في إطار التّنديدِ بمطالبِهم اللّاعقلانية، بالإتيان بغير القرآنِ أو تبديلِه بغيره؛ وذلك بتوجيه الخطابِ إلى رسولِ اللّه ﷺ أن يفعلَ ذلك الفعلَ الشّنيعَ، وهو محضُ اعتداءٍ على صلاحيّاتِ المولى سبحانَه في الإنزالِ والاستبدالِ، بعد أن ذكّرَ بهلاك الأقوام السّابقي، وتطبيقِ مبدأ الاستخلاف؛ لمراقبة حصائلِ أعمالِهم، ونتائجِ تصرّفاتِهم، الّتي كانت على شاكلة السّابقينَ وأسوأ؛ لأنّها اتّسمَت بتكذيبِ الرَّسولِ ﷺ والكفرِ بالآياتِ البيِّناتِ، ممّا أبانَت عنه هذه الآية من نكرانٍ وكفرانٍ، كدأبِ الأقوامِ مِن قبلِهم منَ القرونِ المُهلَكةِ، فكانَ في ذلك إيضاحٌ للإعراضِ الحاصلِ منهم، بنأيهم عن مهمّة الاستخلافِ الّتي أُنيطَ بهم القيامُ بها في الأرض[1]، وهي مهمّةٌ في غاية القداسةِ والأهمّيّةِ.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارعِ في: ﴿تُتۡلَىٰ﴾:

تجدّدُ مطالبِهم الغريبةِ بتجدّدِ التّلاوةِ عليهم

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالفعلِ المضارع ﴿تُتۡلَىٰ﴾ للدَّلالةِ على التَّكرُّرِ والتَّجدُّد؛ أي: تجدُّدِ جوابِهم الآتي حَسبَ تجدُّدِ التِّلاوة[2]، وقد وقع التّكذيبُ والتّحدّي الصّارخُ في محطّاتٍ كثيرةٍ منَ الدّعوةِ النّبويّةِ المباركةِ، وتجدّدَ التّحدّي في مكّةَ والمدينةِ، فلم يتركِ المشركون ومَن لفَّ لفّهم من أهل الكتابِ والمنافقين فرصةً إلّا اهتبلوها، للإنكار

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117.

الصّراحِ، والكفرِ البواحِ، طيلة فترةِ التّنزُّلِ إلى أن جاء نصرُ اللّه والفتحُ، ودخل النّاسُ في دين اللّه أفواجًا بعد فتح مكّةَ.

بلاغةُ الفصلِ بفعلِ القولِ في: ﴿قَالَ﴾:

جوابُ الشّرطِ يفصلُ لشِدَّةِ الاتّصالِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ فُصِل عن سابقه ولم يُعطف؛ لأنّه وقعَ جوابًا للشّرط، فإنّ الرّبطَ بين الجملتين مُتحقّقٌ لا يحوجُ إلى العطف، فعند تلاوة القرآنِ عليهم يكون فعلُهم إزاءَ ذلك أن يطلبوا تغييرَه، فيقولون ذلك مجاهرةً، فحُكِيَ في جملةِ الجوابِ أسلوبٌ آخرُ من أساليبِ تكذيبِهم[1].

سرُّ حذفِ المقول له في: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ﴾:

تكذيبُ اللّه ورسولِه ﷺ، والصّدُّ عمّا يتلوه من أكبر السّفهِ والطّيشِ

في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ﴾ بيّنَ النّظمُ الجليلُ اجتراءَهم على آياتِ اللّه وتكذيبَهم بها؛ لعدم خوفِهم من عقابِ اللّه يومَ اللّقاءِ به؛ لإنكارِهم للبعثِ والمعادِ منَ الأساس، فكانَ ذلك الملمحُ ذمًّا لهم، وتشنيعًا بمسلكهم الاعتقاديِّ المنحرفِ عن نورِ الهدى، وجادّةِ الصّوابِ، حيث كذَّبوا مَن يتلوها عليهم، وهو رسولُ اللّه ﷺ، وإنّما لم يُذكرْ إيذانًا بتعيينِه[2]؛ لأنّه هو المكلَّفُ بالتّلاوةِ والبلاغِ عنِ اللّه، وقد واجهوه بأعنفِ التّصرُّفِ، وأسمعوه ما لا يرضى منَ القول، وهو غايةٌ في الضّلالِ والتّهوّرِ، وعدمِ التّبصُّرِ بالعواقب.

دَلالةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الّذين يُنكرونَ البعثَ، ويطلُبون تغييرَ القرآنِ، قومٌ معروفون معهودون

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ للدّلالة على عموم المشركينَ الّذين كانوا على هذه الحالِ، كما ذكرَه القرآنُ، أو أنّه يعبّرُ عنِ العتاةِ الطّغاةِ الّذين ذُكِروا في السُّنَّة المطهّرة،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/115.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

وهم خمسةٌ طلبوا هذا الطَّلبَ، وكانوا أشدَّ إنكارًا للبعثِ من عموم المشركين، وأكثرَهم مُماحَكةً وتعجيزًا لرسولِ اللّه ﷺ في طلبِهم ذاك، ويجمعُهم في التماسِهمُ المُعلَنِ وجهان: أحدُهما: أنّهم ذكروا ذلك على سبيلِ السُّخريةِ والاستهزاءِ، وثانيهم: أن يكونَ المقصودُ: أنَّ هذا القرآنَ مُشتملٌ على ذمِّ آلهتِهم والطَّعنِ في طرائقِهم، وهم كانوا يتأذَّون منها، فالتمسوا كتابًا آخرَ ليس فيه ذلك(1).

سرُّ التَّعبيرِ بالموصولِ دونَ الضَّميرِ في الآيةِ:

الصِّلةُ عَلَمٌ على مجموعِ مَن أنكرَ البعثَ، وآذى الرّسولَ الأكرمَ

في قولِه تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ عبّرَ عنهم بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بعد أن ذكرَهم بالضّمير في قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم هُم أنفسُهم، فكانَ ذلك المقامُ مقامَ إضمارٍ، فما كانَ الإظهارُ بالموصوليَّةِ إلّا لأنَّ الّذينَ لا يَرجون لقاءَ اللّه، اشتهرَ به المشركونَ فصارَت هذه الصِّلةُ كالعَلَم عليهم(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بصلة الموصولِ في: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

لا يُنكرُ القرآنَ المنزَّلَ، إلّا مَن أنكرَ لقاءَ الله المؤمَّلَ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بعدَ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ إشعارًا بعلِّيَّةِ الوصفِ بعدَمِ رجائِهم لقاءَ اللّه، بعد سماعِهم آياتِ اللّه تُتلَى عليهم من رسولِه ﷺ، فلمّا لم يتفاعلوا مع تلاوةِ تلكَ الآياتِ، لعدمِ إيمانِهم بلقاءِ اللّه قالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾؛ إنكارًا لوحيِ اللّه بالقرآنِ المنزَّلِ على رسولِ اللّه ﷺ(3)، والّذين يفعلون ذلك لا يخافون العذابَ، ولا يصدّقون بيوم الحسابِ، وهم يعتمدون على عزوتِهم الدّنيويّةِ، ومكانتِهم المادّيّةِ، فصاروا في سكرتِهم يعمهون، ولذلك فقد كان انقطاعُ رجائِهم في الآخرة سببًا لازمًا

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/223 - 225. وذكر في رواية ابن عبّاس رضي الله عنهما أنَّ الخمسةَ هم: الوليدُ بن المغيرة المخزوميّ، والعاص بن وائل السَّهميّ، والأسوَد بن المطَّلب، والأسوَد بن يغوث، والحارث بن حنظلة، فقتل الله كلَّ رجلٍ منهم بطريقٍ آخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر: 95].

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/87، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

لازبًا لطغيانهم الجارفِ، وتحدّيهم العاصفِ، فعبّر السّياقُ عن ذلك كلّه بواقعيّةٍ وعمقٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَرۡجُونَ﴾:

عـدمُ رجائِهـم وانقطاعُ أملِهم بـلـقـاء الـلـه تعالى مُستمرٌّ لا ينقطعُ

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع المنفي للدّلالة على استمرار النّفي، فانتفاءُ رجائهم دائمٌ لا ينقطع؛ وهذا يفصحُ عن إصرارهم على كفرِهم واستكبارِهم عن آياتِ اللّه تعالى.

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾:

مَـن لا يَـرجـو لقاءَ الله الأعلى لا يخافُ عقابَه الأوفى

دلَّ قولُه: ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾ على أنّهم إنّما اجترؤوا على آياتِ اللّه لعدم خَوفِهم من عقابِه، والرَّجاءُ لا يُستعمَلُ إلّا في المنافع، لكنَّه قد يدُلُّ على المَضارِّ من بعضِ الوجوهِ؛ لأنَّ مَن لا يرجو لِقاءَ ما وعدَ ربُّه به منَ الثَّوابِ، وهو القَصدُ بالتَّكليفِ، لا يخافُ أيضًا ما يوعِدُهُ به منَ العقابِ، فصارَ ذلكَ كنايةً عن جَحدِهِم للبَعثِ والنُّشورِ[1]، والّذين لا يعتقدون أنّ لهم باللّه لقاءً، ولا يرجون له وقارًا، هم مَن لا يؤمنون بإلهٍ، ولا ببعثٍ؛ فقد قالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾ [المؤمنون: 82]، وهذا هو الّذي ذكرته الآيةُ، حين لمّحَتْ إلى أنّهم سيُفاجؤون بخلاف ما كانوا يعتقدون، وسيجدون أنفسَهم بمواجهة الحقيقةِ، فيندمون ولاتَ ساعةَ مندمٍ، وهو ما عبّرَ عنه القرآنُ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النّور: 39][2].

سرُّ الإضافةِ في: ﴿لِقَآءَنَا﴾:

أضافَ النّظمُ الجليلُ لفظَ اللّقاءِ إلى ضمير التّعظيم (نا)

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/224، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5799.

إضافةُ تشريفٍ بلقاءِ اللهِ، وترغيبٍ في الإيمانِ به، وترهيبٍ عن تكذيبِه

للدّلالة على تشريفِ ذلك اللّقاءِ وتعظيمِه، والتَّرهيبِ عن تكذيبِه، والتَّخويفِ منَ الجُرأةِ عليه، ممّا حكَتهُ أحلامُهم وأوهامُهم في تغييرِ القرآنِ أو تبديلِه[1]، واللّه غنيٌّ عنهم لا يضرُّه تبديلٌ ولا تكذيبٌ، ولكنّه يطلبُ من عباده العبوديّةَ له وطاعتَه، تماشيًا مع مقام التّكريم الّذي أرادَه للإنسان؛ كي ينسجمَ مع الكونِ المطيعِ له، فيدركَ عظمةَ اللّه الّتي لا يعجزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وينتفعَ بما أعدَّ اللّه لعباده الصّالحين، من تكرمةٍ وعطاءٍ، ويسلمَ ممّا أوعدَ اللّه به المُكذِّبينَ من هلاكٍ وشقاءٍ.

دلالةُ فعلِ الأمرِ: ﴿ٱئۡتِ﴾:

مَن طالبَ بتغيير القرآنِ على هواه فقد بلغَ في الجهل منتهاه

في قولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ - وهو قرآنٌ لا ينكرُ عليهم عبادتَهم، ويُقرُّهم على سوء عقيدتِهم، بعدمِ رجائِهم لقاءَ اللّه - بيانٌ أنَّ القومَ أشاروا بهذا إلى القرآنِ المشتَمِلِ على تلكَ الآياتِ لا إلى نَفسِها، قَصدًا إلى إخراجِ الكُلِّ منَ البَين؛ أي: ائْتِ بكتابٍ آخرَ نقرؤُهُ ليس فيه ما نَستبعِدُه من البعثِ والحسابِ والجزاءِ، وما نكرهُهُ من ذمِّ آلهتِنا ومعايبِها، والوعيدِ على عبادتِها، فهم بذلك يُقيمونَ أنفُسَهم حُكّامًا على اللّه، أو آلهةً من دونِ اللّه بيدِها الأمرُ والنَّهي، وهذا غايةُ الجُرأةِ على اللّه ﷻ، تعالى اللّه عمّا يريدون عُلوًّا كبيرًا[2]، ويدلُّ الأمرُ بالإيتاء على مبلغ جهلِهم، وبطرِهم فهم قالوا ذلك مُتدلِّلين[3]، أو أنّهم قصدوا من ذلك إظهارَ تكذيبِ النّبيِّ ﷺ بنسبة المجيءِ بالقرآن من عندِه.

الغرضُ من طلبِهم تغييرُ القرآنِ في: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾:

بيانُ سفاهةِ المشركين في اقتراحِهم تغييرَ القرآنِ أو تبديلَه

أرادَ المشركونَ بطلبِهم التَّعجيزيِّ تغييرَ القرآنِ بآخرَ، ليس فيه

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3532.

ذمُّ آلهتِهم وتركُ عبادتِها وتسفيهُ أحلامِهم، وليس فيه حديثٌ عن البعثِ والحسابِ والجزاء، أو تبديلُ ما فيه من الآياتِ، بتحليلِ ما حرَّمَه أو تحريمِ ما أحلَّه، ممّا يناسبُ أهواءَهم، وسواءٌ أكانوا جادِّينَ بما طلَبوا أم مُستهزئينَ، فإنَّ القرآنَ الكريمَ قد سجَّل سفاهتَهم فيما أرادوا، وتعجيبَه الشَّديدَ من كلامِهم، وَوَهَنِ أحلامِهم[1]. وهم في قولهم ذلك "لا يحتجّون على أنّ المعجزةَ قرآنٌ يُتلَى، وإنّما يطلبون غيرَه من غير حكمةٍ يقدّرونها، ولا أمرٍ يتعلَّقُ بالقرآن يريدون خلافَه، كأنّهم لا يريدون تكليفاتِه، ولا يريدون ما فيه من محاربةِ عقائدِهم وشركِهم"[2].

سرُّ استعمالِ فعلِ الأمرِ من مادّة الإيتاءِ في: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ﴾:

زيفُ زعمِهم أنَّ الرّسولَ له أن يأتيَ بغيرِ القرآنِ أو يبدّلَه

يدلُّ الإتيانُ على المجيءِ بسهولةٍ[3]، فحكايةُ القرآنِ أنّهم طلبوا المجيءَ بقرآنٍ آخرَ بالفعل ﴿ٱئۡتِ﴾ إيماءً إلى ظنّهم أنّ المجيءَ بالقرآن سهلٌ ومتاحٌ؛ لأنّه تأليفُ النّبيِّ ﷺ بحسب ظنِّهم. فجاءَ فعلُ الأمرِ ﴿ٱئۡتِ﴾ بناءً على ما كانوا يقولون: أَفترى على اللّه كذبًا؟ فيزعُمونَ أنَّ هذا القرآنَ من صياغةِ محمَّدٍ ﷺ، فينسُبونَه إليه، ويزعمونَه قادرًا عليه وعلى مثلِه، أو أنَّهم أرادوا بقولهم: ﴿ٱئۡتِ﴾؛ أي: ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْه من جهةِ الوحيِ، كما أتيتَ بالقرآنِ من جهتِه[4].

نكتةُ حذفِ جوابِ الطَّلبِ لفعلِ الأمرِ ﴿ٱئۡتِ﴾:

قطعُ الطَّريقِ على المستهزئين، بعدمِ مجاراتِهم في سفاهتِهم

أضمرَ النّظمُ الجليلُ جوابَ الطّلبِ الواقعِ بفعل الأمر: ﴿ٱئۡتِ﴾؛ أي: إنْ تأتِ بقرآنٍ غيرِ هذا نَتّبعْك؛ وحَذَفَ ذلك للإيجاز اعتمادًا على ظهورِ المعنى، وإنّما دلَّ على أنّ الجوابَ محذوفٌ أنّ طلبَهم

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3532.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.

الإتيانَ بقرآنٍ جديدٍ، إنّما كان لإظهار استعدادِهم أنّهم يتّبعونه في حال تغييرِ القرآنِ، ولم يكنِ التّغييرُ لأجلِ لا شيء.

دلالةُ تنكيرِ لفظِ القرآنِ في قوله: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ﴾:

الإشـارةُ منهم أنَّ محمَّدًا ﷺ قادرٌ على الإتيانِ بقرآنٍ جديدٍ

حكى النّظمُ الجليلُ طلبَهم تغييرَ القرآنِ بتنكيرِ لفظِ القرآنِ، فقال: ﴿بِقُرۡءَانٍ﴾ دلالةً على المغايرة؛ لأنّ النّكرةَ تدلُّ على العموم، فيصلح اللّفظُ أن يقعَ على كلّ أفرادِ الجنسِ، وليس المرادُ منَ التّنكير هنا التّكثيرَ ولا التّهوينَ بل مُطلَقَ المغايرة، فدلّ التّنكيرُ على أنّهم طلبوا المجيءَ بـ " أيِّ كلام مجموعٍ جامعٍ لما تريد"[1]. ففي اقتراحِهم إبدالَ قرآنٍ بقرآن إيماءٌ بأنَّ هذا القرآنَ من عندِك، وأنَّكَ قادرٌ على مثلِه، كما قدَرتَ على الأوَّل، فأبدِلْ مكانَه آخر، وفيه ما لا يَخفَى مِنَ الكَيدِ والمكرِ من أولئكَ المعاندين[2]، وهو يردُّ على طلبِهم بالاستنكارِ والرّفضِ، ويقول لرسوله ﷺ: "إذا اقترحوا عليك بأن تأتيهم بما لم نأمرْك به، أو تريهم ما لم نظهرْ عليك منَ الآياتِ..فأخبرْهم أنّك غيرُ مُستقلٍّ بك، ولا موكولٍ إليك، فنحنُ القائمُ عليكَ، المُصرِّفُ لك، وأنتَ المُتَّبعُ لِما نُجريهِ عليكَ، غير مُبتدِعٍ لِما يحصلُ منكَ"[3].

التّعبيرُ عنِ القرآن باسم الإشارة:

ظهرَ شأنُه حتّى كـأنّه شخصٌ يُشارُ إليه

ذكرَ النّظمُ الكريمُ أنّهم أشاروا إلى القرآن باسم الإشارةِ هذا فقالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، وأنّهم أعرضوا عن تَسميتِه بلفظ القرآنِ أو الكتابِ؛ وذلك لبيان أنّهم أرادوا التّقليلَ من شأنِه، كما أنّ التّعبيرَ باسم الإشارةِ يدلُّ على ظهورِه وشدّةِ حضورِه، بحيث إنّه يُشارُ إليه، فأنزلوه منزلةَ المشارِ إليه القريبِ المشخّصِ.

دَلالةُ طلبِ المشركين التَّغييرَ والتّبديلَ:

كما جاء في: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، فطلبُ المشركين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/87.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/84.

طلبُ التَّغيير وَفقَ أهواءِ البشرِ كفرٌ بالوحي، وطلبُ الإهلاكِ للنّبيِّ، والسّخريةُ منه

من رسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِ الَّذي يتلوه عليهم تصريحٌ منهم بأنَّ هذا القرآنَ غيرُ مُنزَّلٍ من عندِ اللّه، وأنَّ الَّذي جاءَ به غيرُ مُرسَلٍ منَ اللّه، وهذا يعني بحسب زعمِهم أنَّ بقدرةِ محمَّدٍ ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ آخرَ، يُناسبُ أهواءَهم، ويُحقّقُ أحلامَهم، كما أنّ في اقتراحِهم ذلك يفصحُ عن خبثِ مقصدِهم، فإنّه إنْ وُجِدَ تبديلٌ وتغييرٌ؛ فإمّا أن يُهلِكَه اللّه تعالى - وحاشاه ذلك - فهو لا محالةَ ينجو منه، أو لا يُهلِكَه فيسخَروا منه، ويَجعلوا التَّبديلَ والتَّغييرَ حُجَّةً عليه وتَصحيحًا لافترائِه على اللّه[1].

ولفظُ التّبديلِ "يحتملُ التّبديلَ في الذّاتِ والتّبديلَ في الصّفات، يعني: اجعلْ آيةَ عذابٍ مكانَ آيةِ رحمةٍ، فإن قيل: يَلزَمُ على الأوّلِ التّكرارُ في قوله: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، فالجوابُ أنّ معنى الأوّل: ائتِ بقرآنٍ غيره مع بقائِه، أو بَدِّله بأنْ تُزيلَ ذاتَه بالكلّيّة، فيتغاير المطلوبان"[2].

غرضُهم في طلب التّبديل؛ إمّا إهلاكُ الله لنبيِّه ﷺ وإمّا السُّخريةُ منه

زيَّنَ المشركونَ مكرَهم وكيدَهم، وغلَّفوه بما لا يُفصِحُ عن خبيئتِه، فجاءَ اقتراحُهمُ التَّبديلَ والتَّغييرَ طمعًا منهم واختبارًا للحالِ الَّتي يصيرُ إليها ذاكَ المقترَح، وذلكَ أنَّه إنْ وُجِدَ منه تبديلٌ وتغييرٌ؛ فإمّا أن يُهلِكَه اللّه تعالى - وحاشاه ذلك - فهو لا محالةَ ينجو منه، أو لا يُهلِكَه فيسخَروا منه، ويَجعلوا التَّبديلَ والتَّغييرَ حُجَّةً عليه وتَصحيحًا لافترائِه على اللّه[3].

طلبُ التَّغيير وَفقَ أهواءِ البشر تقزيمٌ للأثَر، وتحريفٌ للخبرِ

وفي طلبِ المشركينَ من رسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِ هذا الَّذي يتلوه عليهم، تصريحٌ منهم بأنَّ هذا القرآنَ غيرُ مُنزَّلٍ من عندِ اللّه، وأنَّ الَّذي جاءَ به غيرُ مُرسَلٍ منَ اللّه، وهذا يعني - كما

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/163.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.

هو في زعمِهم - أنَّ بقدرةِ محمَّدٍ ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ آخرَ، يُناسبُ أهواءَهم، ويُحقِّقُ أحلامَهم، ولهذا جاءَ الجوابُ على مقترحِهم الفاسدِ بجوابَين: أحدُهما: ما أمرَ به رسولَه ﷺ بقولِه: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾، وهو جوابٌ صريحٌ عن اقتراحِهم، وثانيهما: ما لقَّنَه إيّاه بقولِه: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ [يونس: 16]، وهو جوابٌ عن لازمِ كلامِهم[1].

توجيهُ المعنَى في: ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾:

التَّبديلُ إمّا بغيرِه وإمّا بتغييرِه، وكلاهما مُمتنِعٌ على رسولِ الله ﷺ

يدلُّ التّبديلُ الّذي طلبوه في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ على أمرَين اثنين: الأوَّلُ: الإتيانُ بغيرِه؛ أي: بقرآنٍ آخَر، وهذا غيرُ مقدورٍ عليه للإنسان. والثّاني: ما كانَ تحتَ قُدرةِ الإنسان، وهو أن يضعَ مكانَ آيةِ عذابٍ آيةَ رحمةٍ ممّا أُنزلَ، وما كان على شاكلةِ ذلك، وأن يُسقِطَ ذكرَ الآلهةِ الَّتي يعبدونها من دونِ اللّٰه.

وإذا كانَ التَّبديلُ - الَّذي هو تغييرُ كلماتٍ منه، أو إحلالُ آيةٍ مكانَ آية وَفقَ أهوائِهم - مُمتنعًا كان إبطالُ جميعِه والإتيانُ بغيرِه أجدَرَ بالامتناع، ولذلكَ جاءَ الجوابُ بأبلغِ صِيَغِ النَّفيِ بقولِه: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾؛ أي: ما يكونُ التَّبديلُ مِلكًا لي[2].

بلاغةُ فصلِ الجملةِ في: ﴿قُلۡ﴾:

تلقينُ الجوابِ أبلغُ في الإيفاءِ بالبيان

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ مُستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ "لأنّ ما تقدّمَ يثيرُ سؤالًا مفاده: فماذا قالَ لهم عندما طلبوا ذلك، فقيل: قال له: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾".

سرُّ التّعبيرِ بفعلِ الأمرِ: ﴿قُلۡ﴾:

افتتاحُ الخطابِ بفعلِ القولِ تنبيهٌ على أهمّيّةِ المُقالِ

في قوله عزّ ذكرُه: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ افتتحَ النّظمُ الجليلُ الآيةَ بفعلِ الأمرِ (قل)، فآثرَ إخبارَهم بهذا الأسلوبِ دون أن يقولَ: (إنّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/117 - 118.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/228 - 229، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/118.

تبديلَ القرآن ليس لي) إيماءً إلى أنّ الوحيَ تكفّلَ بالرّدِّ على اقتراحِهم ذلك، وهذا يصرّحُ بكون النّبيِّ ﷺ ليس له حتّى أن يجيبَ على طلبِهم ذلك، فيكون هذا نفيًا أن يكون القرآنُ من قوله من باب أولى. ويُضافُ إلى ذلك الاهتمام بمضمون الخطابِ المُفتتَحِ بفعل القولِ؛ حيث إنّ ذلك يقتضي التّكرارَ للمقول، مرّةً بالوحي، ومرّةً أخرى بامتثال النّبيِّ ﷺ بأنْ سيقولُ لهم ذلك حالَ مخاطبتِهم به مجدّدًا.

دلالةُ النّفي في: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾:

نفيُ الإمكانِ والقدرةِ على الفعل أبلغُ من نفي الفعلِ

جاء النّفيُ في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ بصيغة الكونِ المنفيِّ للدّلالة على المبالغة في النّفي، "أي: ما يصحُّ وما يستقيمُ لي، ولا يمكنني أصلاً"[1]، وهو أبلغُ من أن يقولَ: (لن أبدّلَه، أو لا أستطيعُ إبدالَه)؛ لأنّه نفى وجودَ الاستحقاقِ والقدرةِ من أصل، بمعنى: أنّ التّبديلَ لم يكن ضمنَ ملكي وقدرتي.

دلالةُ تقديمِ شبه الجملةِ:

تخصيصُ النّفي أبلغُ في الدّلالة على الخلوّ منَ القدرةِ على التّغيير

قدّم النّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ المسندَ شبه الجملة على المسند إليه للدّلالة على الاختصاص، فالنّفيُ بوجود القدرةِ والإمكانِ مختصٌّ بالمتكلِّم؛ مبالغةٌ في نفي هذه الصّفةِ والقدرةِ عنه، فلمّا طالبوه بالتّغييرِ والتّبديلِ بالغَ لهم في نفي قدرتِه عن ذلك؛ تأكيدًا لكون ذلك من حقّ اللّه تعالى وحدَه.

سرُّ الاكتفاءِ بنفي التّبديلِ:

كلُّ أمرٍ منفيٍّ بنصٍّ منَ القرآن فهو ذو أهمّيّةٍ ومكانٍ

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ التَّبديلُ أَقرَبُ إلى الإمكانِ منَ المجيءِ بقرآنٍ غيرِ هذا القرآنِ، فجوابُهُ هنا عنِ الأَسهلِ يكونُ جَوابًا عنِ الأَصعَبِ، فلمّا أنْ نفى ﷺ الأَسهلَ، عُلِمَ بطريقِ المخالفةِ أنَّ الأصعبَ أوقعُ في النَّفيِ وأقربُ لإجابةِ المُحالِ المُحال[2].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/158.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/225.

علّةُ نَفيِ التَّبديلِ دونَ التَّغيير:

نَفيُ التَّبديلِ المقدور عليه، دلالةٌ على امتناعِه عن الرَّسول ﷺ

جاءَ نَفيُ التَّبديلِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾، بعدَ قولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾؛ ليدُلَّ على أنَّ الإتيانَ بقرآنٍ غيرِ هذا، لا قدرةَ للإنسانِ على القيامِ به، فالقرآنُ الكريمُ وحيٌ منَ اللهِ، فأنَّى لرسولِ اللهِ ﷺ أن يأتيَ بقرآنٍ غيرِه، وأمّا التَّبديلُ بوضعِ آيةٍ مكانَ آية، أو تبديل بعضِ تراكيبِه أو كلماتٍ منه، وإنْ كانَ هذا مُمتنِعًا، لكنَّ الإتيانَ به متاحٌ وداخلٌ تحتَ قدرةِ الإنسانِ من حيثُ مُقارنتُه بالتَّغييرِ والإبدالِ الكُلِّيِّ، ولذلكَ جاءَ النَّفيُ بقولِه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ على أنَّه إذا كان هذا مُمتَنِعًا كانَ إبطالُ جميعِه والإتيانُ بغيرِه أجدَرَ بالامتناع[1]. وقَصرَ الجوابَ ببيانِ امتناعِ ما اقترحوهُ على اقتراحِهمُ الثّاني للإيذانِ بأنَّ استحالةَ ما اقترحوه أوّلًا، منَ الظُّهورِ بحيث لا حاجةَ إلى بيانِها؛ لأنَّ التَّصدِّيَ لمثل ما طلبوُه من أَصلِه يُعدُّ من قَبيلِ المجاراةِ مع السُّفهاءِ في سفاهتِهم، ومُداراتِهم فيما لا سبيلَ إلى مُداراتِهم به، ولذلكَ جاءَ أمرُ اللهِ له بقولِه: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾[2].

نكتةُ العدولِ إلى المصدرِ المؤوّلِ: ﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾:

تجدّدُ الخلقِ منَ القدرةِ على التّبديلِ مبالغةً في النّفي

عبّر النّظمُ العزيزُ بالمصدر المؤوّلِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ دون المصدرِ الصّريح، فلم يقُل: (ما يكون لي تبديلُه)؛ للدّلالة على أنّ ذلك مُمتنِعٌ عنه امتناعًا دائمًا مُستمرًّا، وذلك لِما في الفعل من دلالةٍ على الزّمن المتجدِّدِ، وهذا أبلغُ في نفي إمكانِ التّبديلِ من نفسِه.

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/328 - 229، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/118.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640.

دلالةُ التّعبيرِ بالتّبديلِ في: ﴿أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾:

التَّبديلُ يَشملُ الإتيانَ بغيرِ القرآنِ الموحَى به، وتبديلَ بعضِ كلماتِه أو تراكيبه أو أيَّ تغييرٍ جزئيٍّ فيه، "بتغيير ترتيبه، بأن تجعلَ مكانَ الآيةِ المشتملةِ على ما نستبعدُه منَ البعثِ والحسابِ والجزاءِ، وما نَكرهُهُ من ذمّ آلهتِنا، ومعايبِها، والوعيدِ على عبادتِها، آيةً أخرى خاليةً عنها"(1)، ولكنْ لّمّا كانَ كلاهما مُمتنِعًا تمامَ الامتناعِ، عبَّر عنه بقولِه: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾؛ أي: ما يكونُ التَّبديلُ مِلْكًا بيديّ، وما يَصِحُّ وما يستقيمُ لي، فما أنا إلّا مُبلِّغٌ عن ربِّي(2).

التَّبديلُ مُمتنِعٌ عنِ الرَّسولِ ﷺ جزئيًّا كانَ أو كُلِّيًّا

دَلالةُ ﴿مِن﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بنفي أن يكونَ ابتداءُ تبديلِ ما في القرآنِ من جهةِ النّبيِّ ﷺ بقولِه تعالى: ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾، فأدخلَ (مِن) الابتدائيّة لنفي كونِ التّبديلِ بادئًا منه؛ لأنّ التّبديلَ واقعٌ في القرآنِ بالنّسخِ، فهذا التّبديلُ ابتدأَ من جهةِ الوحي، فإمكانُ وقوعِ التّبديلِ بالنّسخِ واردٌ، ولكنّه ليس إلّا منَ الوحي.

التّبديلُ والنّسخُ مشيئةُ اللهِ تعالى، مراعاةً لمصالحِ العبادِ

فقولُه تعالى: ﴿مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ تأكّدَ معناه بقولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾؛ أي: لا آتي ولا أَذَرُ شيئًا - من نحوِ ذلكَ الَّذي تَطلُبون - إلّا مُتَّبِعًا لوحي اللهِ وأوامرِه، إنْ نُسِختْ آيةٌ تَبعتُ النَّسخَ، وإنْ بُدِّلَتْ آيةٌ مكانَ آيةٍ تَبعتُ التَّبديل، وليسَ إليَّ تبديلٌ ولا نَسخٌ، فالكُلُّ بمشيئةِ اللهِ تعالى وأمرِه(3)، وفي ذلك إشارةٌ واضحةٌ إلى الرَّدِّ عليهم، في إنكارِ تبديلِ الَّذي أنزلَه بالنَّسخِ بحسَبِ المصالحِ، كما أنزلَ أصلَه لمصلحةِ العبادِ مع نَسخِ الشَّرائعِ الماضيةِ به(4).

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/128.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/640، وابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/118.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/88.

دَلالةُ لفظِ المصدرِ ﴿تِلۡقَآيِ﴾، وسرُّ إضافتِه:

الـرّسـولُ ﷺ هو جهةُ البلاغِ والـتّـلـقّـي لا جـهـةُ الإرسـالِ والتّصرُّفِ

في قولِه ﷺ: ﴿مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ﴾ جاءَ ﴿تِلۡقَآيِ﴾ بصيغةِ المصدرِ على وزن تِفْعال، وقياسُ وزنِ التِّفعالِ الشّائع، هو فتحُ التّاء، وقد شذَّ عن ذلك تِلقاءٌ، وتِبيانٌ، وتِمثالٌ، بمعنَى اللِّقاءِ والبَيانِ والمُثولِ، فجاءَتْ بكسرِ التّاءِ لا رابعَ لها، ثمَّ أُطلِقَ التِّلقاءُ على جهة التَّلاقي، ثمَّ أُطلِقَ على الجهةِ والمكانِ مُطلَقًا، كقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 22]، فمعنَى ﴿مِن تِلۡقَآيِ نَفۡسِيٓۖ﴾: من جهة نَفسِي. وهذا المجرورُ ﴿مِن تِلۡقَآيِ﴾ في موضع الحالِ المؤكِّدةِ لجملة: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾، وهي المُسمّاةُ مُؤكِّدةً لغيرِها، إذِ التَّبديلُ لا يكونُ إلّا من فعلِ المُبدِلِ، فليسَتْ تلكَ الحالُ للتَّقييد، إذ لا يجوزُ فَرضُ أنْ يُبَدَّلَ من تِلقاءِ اللّه تعالى التَّبديلَ الّذي يرَوْنَه، فالمعنَى أنَّ الرّسولَ مُبلِّغٌ لا مُتَصرِّفٌ ﷺ[1].

الموقعُ البيانيُّ للجملة في: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾:

عـلّـةُ الإمـكـانِ لـيـس امـتـنـاعَ الـقــدرةِ، بـل محضَ الاتّباعِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ استئنافيّةٌ استئنافًا تعليليًّا، فلمّا نفى قدرتَه وإمكانَه على التّبديل بقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ أتبعَ ذلك ببيان علّته؛ " أي: ما أتبعُ إلّا الوحي، وليس لي تصرّفٌ بتغيير"[2].

دلالةُ النّفي بـ ﴿إِنۡ﴾:

حشدُ المؤكّدات لقطع الأوهامِ وسيّءِ الظّنونِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ النّفيَ بحرف النّفي ﴿إِنۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾؛ لأنّه أبلغُ في النّفي، ولذا غلبَ مجيؤه مع (إلّا) للحصر المرادِ منه تأكيد مضمونِ الكلامِ؛ "أي: ما أتّبِعُ في شيءٍ ممّا آتي وأذَرُ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/118.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/118.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/128.

بلاغةُ المجاز في التّعبير بالفعل ﴿أَتَّبِعُ﴾:

الاتّباعُ يقتضي الاقتصارَ على التّبليغ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالفعل ﴿أَتَّبِعُ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾؛ للدّلالة على أنّه إنّما يبلّغ ما وصلَه منَ الوحي ليس أكثرَ من ذلك، والاتّباعُ هنا "مجازٌ في عدم التّصرُّف، بجامعِ مُشابَهَةِ ذلك لِلاتّباعِ الّذي هو عدمُ تجاوزِ الاقتفاءِ في المَشي"(1).

بلاغةُ الحصرِ: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾:

قطعُ آمالِهم بتأكيد اقتصارِه على الاتّباع

أكّدَ النّظمُ الجليلُ اقتصارَ النّبيِّ ﷺ على التّبليغ بأسلوب الحصرِ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾، فاقتضَت "(إن) النّافيةُ وأداةُ الاستثناءِ قَصرَ تعلُّقِ الاتّباعِ على ما أوحى اللّه وهو قَصرٌ إضافيٌّ، أيْ: لا أُبَلِّغُ إلّا ما أوحيَ إليَّ دونَ أن يكونَ المُتَّبَعُ شيئًا مُختَرَعًا حتّى أتَصرَّفَ فيه بالتّغييرِ والتّبديل، وقرينةُ كونِه إضافيًّا وقوعُهُ جوابًا لردِّ اقتراحِهم"(2)، وهو قَصرُ قلبٍ لأنّهم ظنّوا عكسَ ذلك، وباعتبار طرفي القصرِ هو قصرُ موصوفٍ على صفةٍ؛ حيث قَصرَ نفسَه على صفة الاتّباعِ للمبالغة.

دلالةُ ﴿مَا﴾، وعلّةُ التّعبيرِ بـ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾:

تضمينُ الرّدِّ تصريحًا بكون القرآنِ وحيَ حقٍّ ثابتٍ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ في ما حكاه عنِ النّبيِّ ﷺ عنِ القرآن بالاسم الموصول ﴿مَا﴾، فقال تبارك اسمه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾؛ تصريحًا بأنّ القرآنَ الكريمَ وحيٌ منَ اللّه تعالى، وأنّه لا يملكُ التّصرّفَ فيه من جهته، وهذا المعنى سيفوتُ لو قيل: (إن أتّبعُ إلّا القرآن).

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

الإصرارُ على الاتّباعِ وعدمِ الانفكاكِ عنه تأييسًا للمشركين

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾؛ للدّلالة على أنّه دائمُ الاتّباع لا يتوقّفُ بحالٍ، وهذا أبلغُ في إظهار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/119.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/119.

امتناعِه عنِ اتّباعهم فيما طلبوا، فهو مُصِرٌّ في كلّ حين على متابعة هذا الوحي الكريمِ، لا ينفكُّ عنه.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل المبنيِّ للمفعول: ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

الوحيُ جديرٌ بالاتّباع لذاته، بلا نظرٍ لكونه موحًى بهِ من معيّن

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمفعول في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾؛ اهتمامًا بالموحَى به لا بالنّظر لكونه من معيّن؛ إذ هو جديرٌ بالاتّباع لذاته، لكونه كافيًا في بيان الحقّ لِما فيه منَ البيان. وفي هذا منَ المدح والثّناء على القرآن ما يردُّ به عليهم ضمنًا لمّا طلبوا تغييرَهُ وتبديلَهُ، فكأنّه قال: أَنا أتّبعُه لأنّه جديرٌ بالاتّباع فماذا سيكون أفضل منه؟! كما أنّ عدمَ التّعبيرِ عنِ الفاعل اكتفاءً بمعرفته أدلُّ على الإيجاز.

دلالةُ التّقييدِ بشبهِ الجملةِ: ﴿إِلَيَّۖ﴾:

الثّقةُ بصدقِ الوحي أصلُها ثقةُ الرّسولِ به

قيّدَ النّظمُ الكريمُ الاتّباعَ الّذي عبّرَ عنه النّبيُّ ﷺ في ما حكاه عنه ﷺ بقوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ بشبه الجملةِ ﴿إِلَيَّۖ﴾، ولم يقُل: (إنْ أتّبعُ إلّا ما يوحَى)؛ لبيان أنّه مأمورٌ باتّباع الوحي الّذي ينزلُ إليه خاصّةً، فلو لم يكن هذا القيدُ لدلَّ على أنّه يتّبعُ كلَّ ما أوحِي به، فيشمل كلَّ الرّسالاتِ السّابقةِ، وهذا ليس المرادَ في السّياق، كما أنّ فيه تأكيدًا على أنّه واعٍ ومدركٌ لِما يوحَى به إليه، ردًّا على ما افتروه عليه منَ الجنونِ والشِّعرِ والسّحرِ.

الموقعُ البيانيُّ للجملة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

تعليلُ الثّباتِ على الوحي بالخوف منَ الله تعالى

جاءَتِ الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ مُستأنفةً استئنافاً تعليليًّا، كأنّه إجابةٌ عن سؤالٍ يثيرُه السّياقُ، فيقال: لمَ تتّبعُ ما يوحَى ولا تأتِ بقرآنٍ غيرِه؟ فقيل: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، فالجملةُ "تعليلٌ لمضمونِ ما قبله مِن امتناعِ التّبديلِ واقتصارِ أمرِهِ ﷺ على اتّباعِ الوحي؛ أي: أخافُ إنْ عصيتُهُ تعالى بتعاطِي ما ليس لي منَ التّبديلِ من تلقاءِ نفسي والإعراضِ عنِ اتّباعِ

الوحي عذابَ يَوم عَظِيم"[1]. فلمّا كانت تعليليّةً اقتضى ذلك أن تأتيَ مفصولةً بلا عطف.

دلالةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّةِ المؤكَّدةِ في: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، ومجيءُ المسند فعلًا:

خوفُ المقرّبين من ربّ العالمين ثابتٌ مُتجدِّدٌ

افتتحَ النّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميّةَ الدّالّةَ على التّأكيد بـ (إنّ) المؤكِّدة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾؛ لزيادة تأكيدِ مضمونها، وجاء المسندُ فيها فعلًا مضارعًا ﴿أَخَافُ﴾؛ للدّلالة على تجدّد المعنى بالإضافة إلى ثباتِه المدلولِ عليه باسميّةِ الجملة.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارعِ في: ﴿أَخَافُ﴾:

وجلُ قلوبِ الأنبياءِ والصّالحين دائمٌ لا ينفكّون عنه بحالٍ

جاءَتْ صيغةُ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار؛ أي: تجدُّدِ واستمرارِ الخوفِ من عصيانِ اللّه ﷻ[2]، وهو "تعليلٌ لمضمونِ ما قبلَهُ مِن امتناعِ التّبديلِ واقتصارِ أمرِه ﷺ على اتّباعِ الوحي؛ أي: أخافُ إن عصيتُه تعالى بتعاطِي ما ليس لي منَ التّبديل من تلقاءِ نفسي، والإعراضِ عن اتّباعِ الوحي، عذابَ يَومٍ عَظِيمٍ"[3].

دلالةُ الجملة الاعتراضيّة بين الفعلِ ومفعولِه:

بيانُ خطورةِ عصيانِ اللّه، وخصوصًا في المساسِ بالقرآنِ وقداستِه

دلَّتْ جملةُ ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ مع اعتراضِها بينَ ﴿أَخَافُ﴾ و﴿عَذَابَ﴾، على بيانِ خُطورةِ الوقوعِ في معصيةِ اللّه، والتَّنفيرِ من عِصيانِ اللّه تعالى؛ لأنَّه سببُ العذابِ يومَ القيامة، والمرادُ هنا على وَجهِ الخصوصِ ما يتعلَّقُ بالسِّياق؛ أي: عصيتُه بالإتيانِ بقرآنٍ آخَرَ، وتبديلِه من تِلقاءِ نَفسي[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/129.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/88.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/129.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/641، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿إِنۡ﴾ الشّرطيّة:

المعصيةُ في حقّ النّبيّ ﷺ تُذكَرُ على سبيل الفرضِ

آثَرَ النّظمُ الكريمُ في قوله عزّ ذكرُه: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ أن يأتي الشّرطُ بـ (إن) دون (إذا)؛ لأنّه أراد ذكرَ ذلك من باب الفرض؛ إذ لا يُتصوَّرُ منَ النّبيّ ﷺ ذلك إلّا افتراضًا، إذ الشّرطيّةُ المبدوءةُ بـ(إنْ) يعبَّرُ بها عمّا شأنه ألّا يقعَ[1]..

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ: ﴿رَبِّي﴾:

تهويلُ عصيانِ اللهِ تعالى، وإظهارُ نزاهةِ الرَّسولِ ﷺ عن المعصية

آثَرَ النّظمُ الجليلُ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ التّعبيرَ بعنوانِ الرَّبوبيَّةِ مُسندةً للضَّميرِ المَعنيِّ به رسولُ اللّه ﷺ؛ لتهويلِ أمرِ العِصيان، وإظهارِ كمالِ نَزاهتِه ﷺ [2]، وفي ذكر الرّبِّ في سياق المعصيةِ إظهارٌ إلى أنّ خوفَ المعصيةِ صادرٌ منَ الحياء، فكيف يُعصَى مَن سَبَقَ منه الإحسانُ والتّفضّلُ بجميل الإنعامِ.

فائدةُ التّعبيرِ بـ ﴿إِنۡ﴾:

النّبيُّ ﷺ محفوظٌ منَ العصيان

وقوله: "﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾؛ بمعنى: أيُّ عصيانٍ كان، عذابُ يومٍ عظيمِ الشّأنِ، وهو يومُ القيامةِ، فكيف إذا عصيتُه بتبديل كلامِه اتّباعًا لأهوائكم؟ وقوله: إن عصيتُ من باب الفرضِ، إذ الشّرطيّة المبدوءة بـ (إنْ) يعبّرُ بها عمّا شأنُه ألّا يقعَ"[3].

علّةُ إيرادِ: ﴿يَوۡمٍ﴾ بالتّنكير، ووصفه بـ ﴿عَظِيمٍ﴾:

تفخيمُ شأنِ يومِ القيامةِ، وتهويلُ عذابِه أدلُّ على بيانِ الخوفِ

إيرادُ اليوم بالتَّنوينِ لتفخيم شأنِه وخطورةِ أحوالِه، ووصفُه بالعِظَمِ لتهويلِ ما فيه منَ العذابِ وتفظيعِ ما يَنالُ المُكذِّبينَ والمعانِدينَ والّذينَ يُغيِّرونَ في دينِ اللّه وأحكامِه، ويبدِّلونَ به ما ليس منه[4].

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/262.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/641.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/262.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/641.

دلالةُ التّشابهِ اللّفظيِّ بين آيتي: يونس، والأحقاف:

بيانُ حالِ الكفرة الّذين لا يرجون لقاءَ الله، مع الوحي المنزَلِ

المتشابهُ بين قولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧﴾ [الأحقاف: 7]، حيث جاءَ في سورةِ يونُسَ كما في الأحقافِ تلاوةُ الآياتِ البيِّناتِ على الكافرين، وهمُ الَّذين لا يَرجونَ لقاءَ اللّه؛ أي: الَّذين كذَّبوا بالبعثِ وكفروا بلقاءِ اللّه، كما في (يونس)، وهم الَّذين قالَ اللّه عنهم في سورة الأحقاف: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [الأحقاف: 7]؛ أي: هم كافرونَ بالحقِّ الَّذي جاءَهُم من عندِ اللّه، ولذلك طلبوا من رسولِ اللّه ﷺ أن يأتيَهم بقرآنٍ آخَرَ غيرِ هذا القرآنِ الَّذي يتلو عليهم منه آياتِ اللّه البيِّناتِ، أو أن يُبدِّلَ هذا القرآنَ بكامِله، أو يُبدِّلَ ما فيه من آياتٍ بما يناسبُ عقيدَتَهمُ الوثنيَّةَ، ولا يُحرِّمُ عليهمُ الحرامَ؛ بل يحلُّه لهم، ولا يُحلُّ لهم الحلالَ؛ بل يُحرِّمُه عليهم.

وهذا يُعدُّ منهم طعنًا بالقرآنِ وآياتِه البيِّناتِ وإلّا ما طلبوا تغييرَه أو تبديلَه، وهذا مُؤدَّى ما قالوه في سورة الأحقاف: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧﴾ [الأحقاف: 7]، فهذا كذلك يُعدُّ طعنًا بالقرآن، ومُؤدَّى ذلكَ كلِّه عندَهم هو الطَّعنُ في نُبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ حكاها اللّه تعالى في الآيتَينِ بأسلوبَينِ مختلفين، ولكنَّ مؤدّيهما واحدٌ، وأجابَ عنها ﷻ خيرَ الجواب، ففي (يونُس) قالَ تعالى موجِّهًا رسولَه ﷺ بالجوابِ الحقِّ الفاصلِ: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وقالَ في (الأحقاف): ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۚ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: 8]، ثمَّ قالَ بعد ذلك: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩﴾ [الأحقاف: 9][1].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/223 - 224.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلاوة و القراءة:

التِّلاوةُ أخصُّ مِنَ القراءة، وكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً

التِّلاوةُ لا تكونُ إلّا لكلمتَينِ فصاعدًا، والقراءةُ تكونُ للكلمةِ الواحدة، يُقالُ: قرأَ فلانٌ اسمَه، ولا يُقالُ: تلا فلانٌ اسمَه؛ وذلكَ لأنَّ أصلَ التِّلاوةِ إتباعُ الشَّيءِ الشَّيءَ، يُقالُ: تلاه: إذا تبعَه، فتكونُ التِّلاوةُ في الكلماتِ يتبعُ بعضُها بعضًا، ولا تكونُ في الكلمةِ الواحدة، إذ لا يَصِحُّ فيه التُّلوّ. وكذلكَ فإنَّ التِّلاوةَ تختصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللّه المنزَّلةِ تارةً بالقراءة وتارةً بالارتِسام، لِما فيها من أَمرٍ ونَهيٍ وترغيبٍ وتَرهيبٍ، أو ما يُتوهَّمُ فيه ذلك، وهي أخصُّ منَ القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، فقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ فهذه بالقراءة، وقولُه تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121] المرادُ به الاتِّباعُ له بالعلمِ والعملِ، وإنَّما استَعملَ التِّلاوةَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ [البقرة: 102] لِما كانَ يَزعُمُ الشَّياطينُ أنَّ ما يتلونَه هو من كُتُبِ اللّه[1].

البيِّنات والهُدَى:

البيِّناتُ الدَّلالاتُ الكاشفةُ عنِ المرادِ، والهُدَى بيانُ طريقِ الرُّشدِ

البيّناتُ جمعُ بيّنة، وهي عند أهلِ الاصطلاحِ "الدّلالةُ الواضحةُ الكافيةُ عقلًا لإتمامِ الحجّةِ"، وقد وردَ في القرآنِ قولُه تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾ [الأنفال: 42]، وجاء عند ابن كثيرٍ في قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٖ﴾: "ودلائل وحجج بيّنة واضحة جليّة، لِمن فهمَها وتدبّرَها، دالّة على صحّة ما جاء به منَ الهدى المنافي للضّلالِ، والرّشدِ المخالفِ للغيّ"[2]، والبيانُ في الحقيقة: إظهارُ المعنَى للنَّفسِ كائنًا ما كان، فهو في الحقيقةِ من قَبيلِ القول، وسُمِّيَ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140، والرّاغب، المفردات: (تلو)، والكفويّ، الكلّيّات: 2/95، وهنري لامنس، الفرائد، ص: 46.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/502.

الكلامُ بيانًا لكشفِه عنِ المعنَى الَّذي يُرادُ إظهارُه. والبيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ عقليَّةً كانت أو مَحسوسةً، وأمّا الهُدَى فهو بيانُ طريقِ الرُّشدِ ليُسلَكَ دونَ طريقِ الغيِّ هذا إذا أُطلِقَ، فإذا قُيِّدَ استُعمِلَ في غيرِه، فقيل: هُدِيَ إلى النّارِ وغيرِها(1).

(يَرجو) و(يتمنَّى):

الـرَّجـاءُ الأمـلُ بوقوعِ الأمرِ مع خوفٍ، والتَّمنِّي معنًى في النَّفسِ يقعُ عندَ الفَوتِ

الرَّجاءُ: الأمَل، رَجَوتُ الأمرَ أَرجوه رجاءً، ثمَّ يُتَّسعُ في ذلك، فربَّما يُعبَّرُ به في مقامِ الخوف، ويمكنُ أن يقعَ بمعنَى المبالاة، فيُقال: ما أرجو؛ أي: ما أُبالي. ويمكنُ أن يعبَّرَ عنِ الأملِ والخوفِ معًا، كما في الآيةِ هنا: ﴿لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: لا يأمُلونَ لقاءنا ولا يخافونَه، لذا قد يقعُ التَّلازمُ بينَ الرَّجاءِ والخوفِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ﴾ [النِّساء: 104](2)، وأمّا التَّمنِّي فهو معنًى في النَّفسِ يقعُ عندَ فَوتِ فعلٍ كان للمُتمنِّي في وقوعِه نَفعٌ أو في زوالِه ضررٌ، مُستقبَلًا كانَ ذلك الفعلُ أو ماضيًا.

والتَّمنِّي هو قولُ القائلِ: ليتَ الأمرَ كذا فيكونَ قولًا كما في قولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤﴾ [البقرة: 94]، ويمكنُ أن يكونَ مع القولِ إضمارُ معناه في القلب، ويأتي التَّمنِّي بمعنى التِّلاوة، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحجّ: 52](3)، فجاءَ في الآيةِ نفيُ الرّجاءِ للدّلالةِ على أنّهم لا يأملون ذلك ولا ينتظرونه، ولم يخبرْ أنّهم لا يتمنّون لقاءَ اللّٰه تعالى؛ لأنّ نفيَ التّمني ليس قطعيًّا في الدّلالة على الكراهة، أمّا نفيُ الرّجاءِ والأملِ فهو دليلٌ على أنّهم لا ينتظرون لقاءَ اللّٰه لعدمِ توقّعِهم ذلك لكفرِهم بالبعث.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109، والرّاغب، المفردات: (بين)، وابن منظور، لسان العرب: (بين) و(هدي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة (رجى)، المعجم: 2/494 - 495، والرّاغب، المفردات: (رجا).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 142 - 143، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (منا).

﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾ [يونس: 16]

سفاهةُ طلبِهم أن يبدّلَ الرّسولُ القرآنَ، مع أنّه نشأَ بينهم لا يقرأُ ولا يكتبُ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بيَّنَ اللّه ﷻ في الآيةِ السّابقةِ، أنَّ القومَ إنَّما التمسوا منه ذلكَ الالتماسَ؛ لأجلِ أنَّهمُ اتَّهموهُ بأنَّه هو الَّذي يأتي بهذا الكتابِ من عندِ نَفسِه، على سبيلِ الاختلاقِ والتّزييفِ، لا على سبيلِ كونِه وَحيًا من عندِ اللّه الخبيرِ اللّطيفِ، فلهذا المعنَى احتجَّ النَّبيُّ ﷺ على فسادِ هذا الوَهمِ بما ذكَرَهُ اللّه تعالى في هذه الآية، وتَقريرُه أنَّ أولئكَ الكفّارَ كانوا قد شاهدوا رسولَ اللّه ﷺ من أوَّلِ عُمُرِه إلى ذلكَ الوقت، وكانوا عالمِينَ بأحوالِه، وأنَّه ما طالَعَ كتابًا ولا تتلمَذَ لأُستاذ، ولا تعلَّمَ من أحدٍ، ثمَّ بعدَ انصرام أربعينَ سنةً على هذا الوَجهِ جاءَهم بالكتابِ العظيمِ المُشتَمِلِ على نفائسِ علم الأصول، ودقائقِ علم الأحكام، ولطائفِ علم الأخلاق، وأسرارِ قَصَصِ الأَوَّلِينَ، وعَجزَ عن مُعارضتِه العلماءُ والفُصحاءُ والبُلَغاء، وإنّ كلَّ من له عقلٌ سليمٌ، يعرفُ أنّ مِثلَ هذا لا يحصُلُ إلّا بالوَحيِ والإلهامِ، مِنَ اللّه تعالى ذي الجلالِ والإكرامِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَدۡرَىٰكُم﴾: الدِّرايةُ: المعرفةُ المُدرَكةُ بِضَربٍ منَ الحِيَل، يُقالُ: دَرَيْتُه، ودَرَيْتُ به، دِرْيةً، قالَ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الشّورى: 52]، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ في القرآن: (وما أَدراكَ) فقد عقَّبَ ببيانِه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/225 - 226، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/88 - 89.

﴿ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: 2-3]، وما في الآيةِ هنا: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ من قولِهم: دَرَيْتُ، وكلُّ موضعٍ ذُكِرَ فيه: (وما يُدريكَ) لم يُعقِّبْه بذلك نحو: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾ [عبس: 3]، والدِّرايةُ لا تُستعمَلُ في اللّٰه تعالى؛ لأنَّه يسبقُها الجهلُ. وتدرَّيْتُ؛ أي: تعلَّمتُ لِدَرْيَتِه أين هو، يُقال: دَريتُ الشَّيء، وفُلانٌ حَسَنُ الدَّريَة، كقولكَ: حسَنُ الفِطنة[1]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾؛ أي: ولا أَعلَمَكُم به[2].

2) ﴿لَبِثۡتُ﴾: أصلٌ يدلُّ على تمكُّثٍ، يُقالُ: لَبِثَ بالمكان: أقامَ به ملازمًا له، اللّبث: المكث. والفعل: لبث، قال اللّٰه تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾ [النبأ: 23][3]، وما لبثَ أن أنْ فعلَ كذا وكذا؛ أي: ما نكل، وفي التّنزيل: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩﴾ [هود: 69][4]، ومنه هنا قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾؛ أي: نَشأتُ وأَقَمتُ فيما بينكم عُمُرًا من قبلِه[5].

3) ﴿عُمُرٗا﴾: العَمرُ والعُمُرُ: اسمٌ لمدَّةِ عِمارةِ البَدَنِ والحياة، فهو دونَ البقاء، فإذا قيل: طالَ عُمُرُه، فمعناه: عِمارةُ بدنِه بروحِه، والتَّعميرُ: إعطاءُ العُمُرِ بالفعل، أو بالقولِ على سبيلِ الدُّعاء، قالَ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ [فاطر: 37]. وعَمَّرَكَ اللّٰه؛ أي: سألتُ اللّٰه عُمُرَك، وخُصَّ ههنا لفظُ عُمُرٍ لَمّا قُصِدَ به قصدُ القَسَمِ[6].

وقولُه تعالى هنا: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾؛ أي: أَقَمتُ فيما بينَكم زمانًا طويلًا أربعونَ سنةً من قَبلِ القرآنِ، تعرفونني بالصِّدقِ والأمانةِ، لستُ ممَّن يقرأُ ولا ممَّن يكتُبُ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّٰه ﷻ نبيَّه ﷺ آمرًا إيّاه أنْ يردَّ على المشركين: قلْ لهم يا محمَّدُ ﷺ: إنَّ هذا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (درى).
(2) السِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 106، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/110.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لبث).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (لبث).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عمر).
(7) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/606.

الكلامَ ليس من قِبَلي ولا من عندي، ولا أَقدِرُ أن أَفْتريَه على اللّه، ولو كانَ ذلكَ مقدورًا لي لكانَ مقدورًا لِمن هو من أهلِ العلمِ والكتابةِ ومخالطةِ النّاسِ والتَّعلُّمِ منهم، ولكنَّ اللّه بعثَني به، ولو شاءَ سُبحانَه لم يُنزِلْه ولم يُيَسِّرْه بلساني، فلم يدَعْني أَتْلوهُ عليكم، وأن أُعلمكم به أَلْبَتَّةَ، لا على لساني ولا على لسانِ غيري، ولكنَّه أَوحاهُ إليَّ، وأَذِنَ لي في تلاوته عليكم، وأَدراكم به بعدَ أن لم تكونوا دارينَ به، فلو كانَ كَذِبًا وافتراءً كما تقولونَ لأَمكنَ غيري أنْ يتلوَه عليكم، وتَدرونَ به من جهتِه؛ لأنَّ الكذبَ لا يَعجَزُ عنه البشرُ، وأنتُم لم تَدروا بهذا ولم تَسمعوه إلّا منِّي، ولم تَسمعوه من بشرٍ غيري[1].

لولا مشيئةُ الله ما نزلَ الوحي، ولو كان الرّسولُ مدّعيًا لتنبّأ فيما لبثَه قبلَ ذلك

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الفصلِ في: ﴿قُل﴾:

استـقـلالُ الـجـوابِ من حكمة البيانِ القرآنيّ؛ لإبرازِ بعضِ المعاني

لَمّا جاءَ الجوابُ هنا مُستقلًّا عن معنًى قصدَه المشركونَ من كلامِهم، جاءَ الأمرُ به مفصولًا عن الأوَّلِ: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، غيرَ معطوفٍ عليه، تنبيهًا لاستقلالِه، وأنَّه ليس بتكملةٍ للجوابِ الأوَّلِ، وفي هذا الجوابِ استدلالٌ على أنَّه مُرسَلٌ من اللّه تعالى، وأنَّه لم يَختلقِ القرآنَ من عندِه.

كذلك فإنَّ في هذا الأمرِ المُستقلِّ مع كونِه داخلًا تحتَ الأمرِ السّابقِ، إظهارًا لكمالِ الاعتناءِ بشأنِه، وإيذانًا باستقلالِه مفهومًا وأسلوبًا، فإنَّه برهانٌ دالٌّ على كونِه بأمرِ اللّه ومشيئتِه[2].

سرُّ استعمالِ فعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

بـلاغُ الـقـرآنِ لا يمكنُ إلّا بمقولِ الرّسولِ ﷺ

افتتحَ النّظمُ الكريمُ الجملةَ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾؛ للدّلالةِ على الاهتمامِ بالمقول، تأكيدًا على أنَّه لم يَختلقِ القرآنَ من عندِه، كذلك فإنَّ في هذا الأمرِ المستقلِّ مع كونِه داخلًا تحتَ الأمرِ السّابقِ،

(1) ابن القيّم، التِّبيان في أقسام القرآن، ص: 116 - 117، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/372.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119 - 120.

إظهارًا لكمالِ الاعتناءِ بشأنِه، وإيذانًا باستقلالِه مفهومًا وأسلوبًا، فإنَّه برهانٌ دالٌّ على كونِه بأمرِ اللّه ومشيئتِه(1).

تقديرُ النّداءِ المتضمَّنِ في فعل الأمرِ ﴿قُل﴾:

المـبـالـغـةُ في التَّبرئةِ من سفهِ المشركين، وأنَّ بـلاغَ الـقـرآنِ بمشيئةِ الرّحمن

تقديرُ النِّداءِ المتضمَّنِ في فعل الأمرِ ﴿قُل﴾؛ أي: (قلْ يا محمَّدُ ﷺ)، فيه مبالغةٌ في التَّبرئةِ ممّا طلبوا، وتأكيدٌ لأمرٍ في غايةِ الأهمّيَّة، وهو أنَّ تلاوتَه هذا القرآنَ عليهم، إنَّما هو بمشيئةِ اللّه تعالى، وإحداثِه أمرًا عجيبًا خارجًا عنِ العادات؛ أنْ يخرجَ رجلٌ لم يتعلَّم، ولم يخالطِ العلماءَ؛ بل نشأَ في بلدةٍ خَلَتْ منهم، فيقرأُ عليهم كتابًا فصيحًا يُبهرُ عقلَ كلِّ فصيحٍ، ويَعلو على كلِّ مَنثورٍ ومَنظوم، مشحونًا بعلومِ شتّى من نحو: علومِ الأصولِ والفروع، وأخبارِ ما كانَ وما يكون، ناطقًا بالغُيوبِ الَّتي لا يعلمُها إلّا اللّه تعالى، وقد بلغَ بين ظَهرانيهم أربعينَ سنةً لا يَخفَى عليهم شيءٌ من أَحوالِه وأَسرارِه، وما سمعوا منه حَرفًا من ذلك(2).

دَلالةُ حرفِ الشَّرطِ: ﴿لَّوۡ﴾:

تـلاوةُ الـرَّسـولِ ﷺ لـلـقـرآنِ مُتعلِّقةٌ بالمشيئةِ الإلـهيَّةِ وجـودًا وعَدَمًا

افتتحَ النَّظمُ الكريمُ قولَه: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ بـ(لو) الشّرطيّة، وهي حرفُ شرطٍ غير جازم، ويُعرفُ عند النّحاةِ بأنّه حرفُ امتناعٍ لامتناع؛ أي: امتناعُ نَفيِ التِّلاوة بامتناع مشيئةِ اللّه؛ أي: لو شاءَ اللّه أن لا أَتلوَه عليكم ما تلَوتُه، وبُنيَ الاستدلالُ هنا على عدم مشيئةِ اللّه على نفيِ تلاوتِه؛ لأنَّ ذلك مُدَّعَى الكفّارِ لزعمِهم أنَّه ليس من عندِ اللّه، وكأنَّه قالَ لهم: لو شاءَ اللّه أنْ لا آتيَكم بهذا القرآنِ لما أرسلَني به ولا تلوتُه عليكم، ولكنَّ اللّه شاءَ أن يوحيَ إليَّ بهذا القرآنِ، وأنْ أتلوَه عليكم(3).

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119 - 120.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/25.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.

نكتةُ جوابِ لازم اقتراحِهم من قَبْلُ بمقول الفعلِ ﴿قُل﴾:

الجوابُ هنا جوابٌ عن لازمِ اقتراحِهم، وكنايتِهِ عن رميهِمُ الرَّسولَ ﷺ بالكذبِ عنِ اللّه فيما ادَّعى من إرسالِه وإنزالِ القرآنِ عَليه. ولذلك جاءَ الاستقلالُ بالمفهومِ والأسلوبِ في هذا الأمرِ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ عنِ الأمرِ السّابقِ؛ ليكونَ بُرهانًا دالًّا على كونِه بأمرِ اللّه تعالى ومشيئتِهِ فَحَسْب، وما سبقَ مجرَّدُ إخبارٍ باستحالةِ ما اقترَحوه[1]، وهو يخاطبُهم بقوله: "لو شاء اللّه ألّا يُنزلَ عليَّ قرآناً من عنده، وألّا أُبلِّغَكم به، ما أنزلَهُ، وما تَلَوْتُهُ عليكم، ولا أعلَمَكم اللّه به. لكنّه نزلَ، وأرسلَني به، وتلوتُه عليكم كما أمرَني"[2].

البرهانُ بأنَّ النُّبوَّة وإنزالَ الفرقان بأمرِ الّذي علّمَ القرآنَ

دَلالةُ الجملةِ الشّرطيّةِ المفتتحةِ بـ﴿لَّوْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ جوابٌ حَملَ معه استدلالًا جَليًّا على أنَّه ﷺ مُرسَلٌ منَ اللّه تعالى، وأنَّه لم يَخْتلقِ القرآنَ من عندِه، بدليلِ التفَّتَ في مطاويهِ أدلَّةٌ، وقد نُظِّمَ فيه الدَّليلُ بانتفاءِ نقيضِ المطلوبِ على إثباتِ المطلوبِ؛ إذ قولُه: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ﴾ تقديرُه: لو شاءَ اللّه أنْ لا أَتلوهُ عليكم ما تَلَوْتُهُ، فجاءَ إثباتُ المطلوبِ في تلاوةِ القرآنِ عليهم مُعتمِدًا ومُرتكزًا على عَدَمِ مشيئةِ اللّه تعالى، في نَفيِ تلاوتِه، فكانَ تحقيقًا وتأكيدًا على أنَّ تلاوةَ الرَّسولِ للقرآنِ عليهم، هو بمشيئةِ اللّه وحدَه[3].

لو شاءَ اللّه عدمَ تلاوتِه ﷺ للقرآنِ، ما استطاعَ ذلك دون المشيئةِ

سرُّ مجيءِ السّياقِ بأسلوبِ التَّأكيدِ:

جاءَ النّظمُ الجليلُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تعقيبًا على زعمِ الكفّارِ أنَّ القرآنَ الكريمَ ليسَ من عندِ اللّه تعالى، فجاءَ البيانُ الإلهيُّ بإبطالِ دَعواهم تلكَ ابتداءً وإثباتًا

التّأكيدُ أنَّ القرآنَ من عندِ اللّه إبطالٌ لدَعوَى أنَّه من عندِ غيرِه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/119.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 288.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120.

لدَعواه مآلًا، فأمّا الابتداءُ فبتقدير: (لو شاءَ اللّه أنْ لا أَتلوَه عليكم ما تلوتُه)، فبُنيَ الاستدلالُ على عدَم مشيئةِ اللّه نفيَ تلاوته، تأكيدًا بأنَّ القرآنَ من عندِ اللّه، وأمّا الثّانيةُ؛ وهي إثباتُ دعواه في المآل، فبتقدير: (لو شاءَ اللّه ما تَلَوتُهُ لكنَّني تَلَوتُهُ عليكم)، فتلاوتُه دليلُ تأكيدٍ في إثباتِ الرِّسالةِ تتضمَّنُ إعجازَ القرآن، وأنَّه من عندِ اللّه، إذْ لو لم يكنْ ذلكَ كذلكَ، فأنَّى لرجلٍ أُمِّيٍّ لم يكنْ من أهلِ العلم أن يتقنَ القراءةَ والكتابةَ، فضلًا عنِ البلاغة، ثمّ أنْ يأتيَهم بكتابٍ رأسٍ في العلمِ والحكمةِ والبلاغة، لو اجتمعَتْ جُهودُ بُلَغاءِ وفُصَحاءِ الخَلْقِ كلِّهم، لكي يأتوا، ولو بآيةٍ قصيرةٍ مثلِه، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا[1].

نكتةُ حذفِ مفعولِ المشيئة: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

لا يبرزُ زمانُ الوحي ولا رسولُه إلّا بمشيئة اللّه وأمرِه

جاءَ فعلُ المشيئةِ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ بلا مفعول، وتقديرُه: لو شاءَ اللّه أنْ لا أتلوَه عليكم ما تَلوتُه، فإنَّ مفعولَ المشيئةِ إنَّما يُحذَفُ إذا وقعَتْ شرطًا، وكانَ مفعولُها مضمونَ الجزاءِ، ولم يكنْ في تعلّقِها به غرابةٌ، والمُستَلزِمُ للجزاءِ هنا، وهو عدمُ تلاوته ﷺ للقرآنِ عليهم، إنَّما هو مشيئتُهُ تعالى له، لا مَشيئتُه لغيرِ القرآن، والمعنَى: أنَّ الأمرَ كلَّه مَنوطٌ بمشيئتِهِ تعالى، وليس للرّسولِ الأكرمِ ﷺ منه شيءٌ قطُّ، فكأنّه يقول: ولو شاءَ عدمَ تِلاوتي له من تِلقاءِ نَفسي؛ بل لو لم يُنزِلْه عليَّ ولم يأمُرْني بتلاوتِهِ - كما يُنبِئُ عنه إيثارُ التِّلاوةِ على القراءةِ - ما تلوتُهُ عليكم[2].

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾:

انفساحُ اللّفظِ لمعانٍ دلاليّةٍ مُتعدّدةٍ، تستوعبُ الغرضَ بشموليّةٍ ودقّةٍ

لكلمةِ ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ منَ الوَقعِ ما ليس لغيرِها؛ لأنَّها تتضمَّنُ عناصرَ الإرسالِ الثّلاثةَ: (التّالي

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/120.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/120.

والمَتلوّ والباعث)؛ فبالأوَّل: تُشيرُ إلى معجزةِ المقدرةِ على تلاوةِ الكتابِ مع تحقُّقِ الأُمِّيَّة؛ لأنَّ أُسلوبَ الكُتُبِ الدِّينيَّةِ غيرُ الأسلوبِ الَّذي عرَفَه العربُ من شُعرائِهم وخُطبائِهم، وهو يقوم على ثقافةٍ شفويّةٍ محضة، أساسُها الحفظُ، وقوامُها الذّاكرةُ المستنسخةُ لكلِّ ما تسمعُه الأذنُ، أو تجودُ به القريحةُ، ومع أنّ الرّسولَ ﷺ كان أمّيًّا لا يقرأُ ولا يكتبُ، إلّا أنّ اللّه ألهمَه منَ العلم ما جعلَه أعلمَ البشرِ قاطبةً، وقد أوتِي جوامعَ الكلِمِ، وخُصَّ بالبيان البليغِ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ١١٣﴾ [النّساء: 113]، وبالثّاني: تُشيرُ إلى القرآنِ الَّذي هو معجزةٌ دالَّةٌ على صِدقِ الآتي به، لِما فيه منَ الحقائقِ والإرشادِ الدِّينيِّ الَّذي هو من شأنِ أنَبياءِ الأَديانِ وعلمائِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت: 48 - 49]. وبالثّالث: تُشيرُ إلى أنّه كلامٌ من عندِ اللّه تعالى، فانْتظمَتْ بهذا الاستدلالِ دَلالةُ صدقِ النَّبيِّ ﷺ في رسالتِه عنِ اللّه تعالى.

والتِّلاوةُ: قراءةُ المكتوبِ أوِ استعراضُ المحفوظِ، فهي مُشعِرَةٌ بإبلاغِ كلامٍ من غيرِ المُبَلِّغ(1).

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل الماضي ﴿تَلَوۡتُهُۥ﴾:

لـو شـاء الله تعالى لم تقع التّلاوةُ من أصلِها

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل الماضي ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ دونَ المضارع؛ لأنّه لـمّا علّقَ التّلاوةَ بمشيئة اللّه تعالى كان نفيُ الفعلِ الماضي دالًّا على أنّ الحدثَ لم يكن ليكونَ من أصلِه، فتكونُ التّلاوةُ ليسَت واقعةً، ولو جاء النّفيُ بالمضارع لكان المرادُ أنّه لم يشأِ الدّوامَ، فيكونُ المنفيُّ هو الدّوامَ، وهذا ليس المرادَ، إذ إنّه أرادَ أن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/121.

يقولَ أنّ اللّه تعالى لو شاءَ لم يقع فعلُ التّلاوةِ أصلًا، فكان التّعبيرُ بالماضي لذلك.

براعةُ الاستدلالِ:

التِّلاوةُ دليلٌ على تميّزِ الرِّسالةِ، بإعجازِ المتلوِّ، وصِدقِ التّالي

في هذا الجوابِ البليغِ في قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ استدلالٌ بليغٌ على أنَّ محمَّدًا ﷺ مُرسَلٌ منَ اللّه تعالى، وأنَّه لم يَختلِقِ القرآنَ من عندِه، وقد تبيَّنَ في الوجوهِ البلاغيَّةِ الثَّلاثةِ السّابقةِ، ما يوضِّحُ حقيقةَ أنَّ القرآنَ وَحيٌ منَ اللّه تعالى على رسولِه ﷺ، وأنْ ليس للرَّسولِ ولا لغيرِه أيُّ يدٍ في تأليفِ هذا القرآنِ ونظمِه المعجِزِ، وجاءَ قولُه: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ تأكيدًا لتلكَ الحقيقة، فالتِّلاوةُ هنا دليلُ الرِّسالة؛ لأنَّ تلاوتَه تتضمَّنُ إعجازَه، إذْ جاءَ به من لم يكنْ له سبيلٌ للعلمِ والمعرفةِ، لا من تلقاءِ نَفسِه ولا من تلقاءِ غيرِه، وقد عرفَ القومُ ذلكَ، وعايَشوهُ، وعايَنوهُ في شخصيَّةِ محمَّدٍ ﷺ، عن قُربِ مُصاحبةٍ، ومخالطةِ جِوارٍ، حتَّى بلغَ أربعينَ سنةً من عُمُرِه بين ظَهرانيهم على هذه الشّاكلة، فلمّا جاءَ بكلامٍ أعجَزَ أهلَ اللُّغةِ والفصاحةِ والبلاغةِ والبيانِ، على تَفاوتِ مراتبِهم، وتبايُنِ مناهلِهم، قالوا ما قالوا منَ الافتئاتِ عليه، والتَّزويرِ لحقيقتِه، والتَّكذيبِ لدعوتِه! إذْ لو كانَت حالتُه بعدَ الوَحي حالًا مُعتادًا، وكانَت بلاغةُ الكلامِ الَّذي جاءَ به كذلك، لكانَ له منَ المُقدِّماتِ من حينِ نشأتِه ما هو تَهيئةٌ لهذه الغاية، وكانَ التَّخلُّقُ بذلكَ أطوارًا وتدرُّجًا، فلا جَرَمَ أنْ دلَّ عدمُ تشابُهِ الحالَينِ على أنَّ هذا الحالَ الأخيرَ حالٌ ربّانيٌّ مَحضٌ، وأنَّ هذا الكلامَ موحًى إليه من عندِ اللّه ليس له بذاتِه عملٌ فيه.

فما كانَ هذا الكلامُ دليلًا على المشركينَ وإبطالًا لادِّعائهم إلّا لِما بُنِيَ على تلاوةِ القرآنِ، فكانَ ذكرُ القرآنِ الكريم في الاستدلالِ هو مناطُهُ، وله أبلَغُ الأثرِ في تأكيدِ رسالتِه ﷺ وإبطالِ

محاولاتِ المشركين في النَّيلِ من رسالتِه، والاستهانةِ بمعجزتِه، وإزهاقِ دَعوتِه[1].

نكتةُ الإلحاحِ في: ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾:

الجمعُ بين الأُمِّيَّةِ والبلاغ المُتفرِّدِ معجزةٌ في حدِّ ذاتِها

قوله تعالى: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ فيه إيماءٌ إلى بُعدِ الكافرينَ عنِ الحقِّ، وتمكُّنِ الضَّلالِ من أفئدتهم، إذ لو نظروا إلى أنّ الجمعَ بينَ الأُمِّيَّةِ والإتيانِ بهذا الكتابِ البديع، في بلاغتِه ومعانيه، لا يكونُ إلّا حالَ مَن أفاضَ اللّه عليه رسالتَه، وأنزلَ إليه معجزتَه، وأمرَه بتلاوةِ كتابِه، ولم يكُ من قبلُ في عيشِه بينَهم وتقلُّبِه في أحوالِه معهم على شيءٍ من ذلك البتَّة، وهو قد صدحَ بقولِه للمكذِّبين بما مفاده: "لقد عشتُ طوالَ عمري معكم، ولم تكن لي قوّةُ بلاغةٍ، أو قوّةُ شِعرٍ، أو قوّةُ أدبٍ، فمَن له موهبةٌ لا يكتمُها إلى أن يبلغَ الأربعين، ورأيتم أنّه ﷺ لم يجلس إلى معلِّم، بل عندما اتّهمتموه وقلتم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النّحل: 103] فضحَكم الحقُّ سبحانَه بأنْ أنزلَ في القرآن قولَه تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ١٠٣﴾ [النّحل: 103]، ولم يخرجِ النّبيُّ ﷺ من شبه الجزيرةِ العربيّةِ، ولم يقرأ مؤلَّفاتِ أحدٍ، فمن أين جاء القرآنُ إذن؟"[2]، وكيف يتأتّى لِمن هذا حالُه أنْ يطالعَهم ما بينَ عَشيَّةٍ وضُحاها بهذا الكتابِ الّذي فيه منهجُ حياةِ الفردِ والأُمَّةِ، والمُتَّسم بالتّوازنِ والتّكاملِ في أحكامِه وحِكَمِه، وقد أخبرَهم بخبرِ مَن قبلَهم، ونبأِ من بعدَهم، وبغيوبٍ منَ الماضي السَّحيقِ، والمستقبلِ القريبِ والبعيدِ، ممّا لا يمكنُ أن يتاحَ، لولا أنَّ اللّه أخبرَ محمَّدًا ﷺ بذلك كلِّه، فتلاه عليكم وأعلمَكم به[3]؟!.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/120 - 121.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5805.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.

دلالةُ التّعبيرِ بشِبهِ الجملة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تعلُّقُ مشيئةِ اللهِ بتلاوةِ القرآنِ على المشركين وجودًا وعدمًا

في قولِه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، جاءَ شِبهُ الجملةِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ تعبيرًا على أنَّ مشيئةَ اللّه تعلَّقت بتلاوةِ رسولِ اللّه ﷺ القرآنَ على المشركين، والتَّقدير: فلو شاءَ اللّه عدمَ تلاوتي له عليكم ما أنزلَه عليَّ، وما أَمَرَني أنْ أتلوَه عليكم، فلو شاءَ لم يُنزلْه عليَّ، ولم يأمرْني بتلاوتِه عليكم، فأنا لم أَتْلُه عليكم من تلقاءِ نفسي، إنَّما هو أمرُ اللّه لي أنْ أتلوَه عليكم؛ لأنَّكم أنتُمُ المقصودونَ بتلاوتِه عليكم ودِرايةِ ما فيه[1].

إيثارُ الإضمارِ: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾:

عودُ الضَّميرِ على ماتقدَّمَ من ذكرِ القرآنِ أغنَى عن إعادتِه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ﴾ بهاءِ الضَّميرِ، دونَ التَّصريحِ بالاسمِ الظّاهرِ، وهو القرآن، وذلكَ لذكرِه في الآيةِ السّابقة، بقولِه تعالى: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، وفي ذلكَ كذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ الّذي أتْلوه عليكم بمشيئةِ اللّه، هو نفسُه القرآنُ الَّذي تطلبون منّي - بغيرِ وجهِ حقٍّ - أنْ آتيَ بغيرِه أو أبدِّلَه.

فائدةُ تعليقِ التّلاوةِ بالمشيئةِ:

اقتضَتْ مشيئةُ اللهِ تعالى أن يُصطفَى نبيُّه ﷺ لاستقبالِ الوحي وبلاغه

في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، بيانٌ أنَّ مثلَ هذا الكتابِ العظيمِ المُعجزِ الَّذي لم يأتِ على يدِ مَن علَّمه إيّاه منَ البشر؛ بل جاءَ على من لم يتعلَّم ولم يَتَتَلمَذْ على أحدٍ؛ بل لم يُطالعْ كتابًا، ولم يَخُطَّ كلمةً واحدةً، ولم يُمارسْ مجادَلةً ولا محاورةً ولا مُناظَرةً علميَّةً مع أحدٍ من قبلُ، إنَّما ذلكَ كلُّه يُنبِئُ بالضَّرورةِ أنَّه لا يكونُ إلّا على سبيلِ الوحي هبةً من اللّه خالصةً، ليس فيها شِرْكٌ من أيِّ طَرَفٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨﴾ [العنكبوت: 48]، وذلك على خِلافِ ما كانَ لبعضِ الأنبياءِ خاصَّةً من بني إسرائيلَ فقد كانوا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/642.

يتعلَّمون ويتناقلون ما تعلَّموه ممَّن سبقَهم منَ الأنبياءِ من كتُبِهم وصحائفِهم، قبلَ أن تُسنَدَ إليهم مهمَّةُ الرِّسالةِ والنُّبوَّة[1].

عدمُ الإعلامِ بالقرآنِ هو بمشيئةِ الله تعالى

دَلالةُ العطفِ مع النَّفي: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ بحرفِ النَّفي عطفًا على قولِه تعالى: ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: لو شاءَ اللّٰه ما أَمَرني بتلاوةِ القرآنِ عليكم ولا أَعلَمَكُمُ اللّٰه به[2]؛ "والمعنى: أنّه الحقُّ لا شكَّ فيه، لو لم أُرْسَل به أنا لأُرسِلَ به غيري. وحاصل المعنى: أنّ الأمرَ بمشيئة اللّٰه لا بمشيئتي، حتّى أجعله على نحو ما تشتهون"[3]، وإرادةُ اللّٰه غالبةٌ على كلِّ البشرِ، لا يتأبّى عليها غاشمٌ بجبروتِه، ولا كافرٌ بجحودِه، ولا مُنكِرٌ بنكرانِه؛ لأنّها تسري على الخلقِ كلِّهم، لا ينفكُّ عنها أحدٌ، ولا يعجزُها شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

الرَّسول ﷺ مُبلِّغٌ عنِ الله، لا يعلمُ شيئًا منَ الوَحي إلّا بتعليم الله

دلالةُ التّعبيرِ بالدّراية، وكونها على لسانِ نبيٍّ أمّيٍّ:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ الدّرايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ إظهارًا للمعجزة؛ فالدِّرايةُ بمعنى العلم، والمعنَى هنا في بيانٍ لو شاءَ اللّٰه ما تَلَوْتُه أنا عليكم، ولو شاءَ اللّٰه ما أَنزلَه عليَّ وما أَوحى به إليَّ، ولا أَعلَمَكُمُ اللّٰه به، ولا أَخبرَكم بما فيه، ولو شاءَ اللّٰه لأَعلمَكم به بلا واسطة، ولكنَّه تعالى يمنُّ على مَن يشاءُ من عبادِه، فخصَّني بهذه الكرامةِ، ورآني أهلًا لها دون سائرِ النّاس، فما أنا إلّا مُبلِّغٌ عن ربِّي مُعجزتَه إليكم، ولا أُعلِمُكُم إلّا بما أَعلَمَنيه ربِّي دون زيادةٍ أو نقصانٍ، قالَ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشّورى: 52][4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/122.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/458.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والعكبريّ، التّبيان: 2/26.

توجيهُ القراءاتِ، وأثرِها في المعنى:

رُسوُّ المعنى باختلافِ القراءةِ الّتي تسهمُ في انسجامِ السّياقِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ قراءتان متواترتان[1]: الأولى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ بحرف النَّفي عطفًا على ﴿مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ أي: لو شاءَ اللّه ما أَمَرني بتلاوةِ القرآنِ عليكم، ولا أَعلَمكُمُ اللّه به. والثّانيةُ: (وَلَأدراكم به) بلامِ ابتداءٍ، بالقَصْرِ على الإيجاب، في موضعِ (لا) النّافية؛ أي: بدونِ أَلِفٍ بعدَ اللّام، فتكونُ هنا عطفًا على جوابِ (لو)، فتكونُ اللّامُ لامًا زائدةً للتَّوكيدِ كشأنِها في جوابِ (لو)، والمعنَى عليه: لو شاءَ اللّه ما تَلَوتُه عليكم، ولو شاءَ لَجَعلَكم تَدرونَ معانِيَهُ فلا تُكذِّبوا، أو يكونُ المعنَى: ولَأَعلَمَكُم به من غيرِ قراءتي عليكم[2].

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَقَدۡ﴾:

تعليلُ استحالةِ تلاوتِه بلا وَحيٍ، بالاستشهادِ لا بالاستدلال

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ مُصدَّرًا بالفاءِ التَّفريعيَّةِ الَّتي تفيدُ التَّعليلَ، وهو تعليلٌ للملازمةِ المُستَلزمةِ لكونِ تلاوتِه بمشيئةِ اللّه تعالى وأَمرِه حسبما تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾، لكنْ لا بطريقِ الاستدلالِ عليها بعدمِ تلاوتِه ﷺ فيما سبقَ بسببِ مشيئتِهِ تعالى إيّاه؛ بل بطريقِ الاستشهادِ عليه بما شاهدوا منه ﷺ في تلكَ المدَّةِ الطَّويلةِ منَ الأمورِ الدّالَّةِ على استحالةِ كونِ التِّلاوةِ من جهتِه ﷺ بلا وَحيٍ منَ اللّه ﷻ[3].

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ التَّحقيقِ (قد) في: ﴿فَقَدۡ﴾:

المبالغةُ في تبرئتِهِ ﷺ ممّا طلبوا منه، دليلٌ على صدقِ ما تلاه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ مُصدَّرًا بحرفِ التَّحقيقِ؛ وذلكَ لإفادةِ المبالغةِ في التَّبرئةِ ممّا طلبوا

---

(1) القراءةُ الأولى للجمهور، والثّانية لقُنبل عن ابن كثيرٍ بلا خلافٍ عنه، وقرأَ البزِّيُّ بالوجهين، قال أبو عمرو الدّاني في التَّيسير، ص: 121: "قُنبل: (ولَأَدْراكم به) بغير ألفٍ بعداللّام، وكذلك روى النَّقّاش عن أبي ربيعة عنِ البزِّيّ، وبذلك أقرأني أبو القاسم عنه، والباقون بالألف". يُنظر: ابن خلف، العنوان في القراءات السَّبع، ص: 104، وابن مهران، المبسوط في القراءات العشر، ص: 199، وعبد الفتّاح القاضي، البدور الزّاهرة، ص: 141.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، والعكبريّ، الإملاء: 2/26، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/25.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/130.

منه، وقد عاينوا أحوالَه معهم منَ الصِّدقِ والأمانةِ وغيرِها من محاسنِ الأخلاقِ، ولم يُخبِرْهم بخبرِ السَّماءِ لا بوَحيٍ ولا بغيرِه[1]، "ولـمّا كانَ ذِكرُ ذلك أتبعَهُ السّببَ الـمُعَرِّفَ به فقال: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾"[2].

دَلالةُ التفريعِ: ﴿فَقَدۡ﴾:

الـدَّلـيـلُ الـبـيِّنُ على ثُـبوتِ نبوَّةِ مـحـمَّـدٍ ﷺ، وأنَّ الـقـرآنَ معجزةُ اللهِ إلى خَلْقِه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ مُصدَّرًا بالفاءِ التَّفريعيَّةِ الَّتي تفيدُ التَّعليلَ على جملةِ الاستدلالِ: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾، هو تفريعُ دليلِ الجملةِ الشَّرطيَّةِ ومُلازَمتِها لِطرفَيها؛ والمعنَى: قد أقمتُ بينكم أربعينَ سنةً قبلَ نزولِ القرآنِ يافعًا وكهلًا، فلم تعرفوني متعاطيًا شيئًا من نحوِه، ولا قَدَرتُ عليه، ولا كنتُ مُتواصفًا بعلمٍ وبيانٍ، فتتَّهموني باختراعِه، فكيفَ أَتْلو عليكم كتابًا هو من وَحيِ اللّه لي، لولا أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي شاءَ أن أَتْلوَه عليكم، فتعلموا ما فيه من أوامرَ ونواهٍ وعلومٍ وأخبارٍ، عمّا سلفَ، وعمّا هو آتٍ[3].

دلالةُ الإخبارِ باللُّبثِ: ﴿لَبِثۡتُ﴾:

الاستـقـامـةُ في فترةِ الأشدِّ دليلٌ على نبلِ الخُلُقِ وكرمِ المحتِدِ

اللُّبْثُ معناه الإقامةُ في المكانِ مُدَّة، والعُمُرُ: الحياةُ، اشتُقَّ منَ العُمران؛ لأنَّ مدَّةَ الحياةِ يُعمِّرُ بها الحيُّ العالَمَ الدُّنيَويَّ، ويُطلَقُ العُمُرُ على المدَّةِ الطَّويلةِ الَّتي لو عاشَ المرءُ مقدارَها لكانَ قدْ أخذَ حقَّه منَ البقاءِ، وهذا هو المرادُ هنا بدليلِ تنكيرِ ﴿عُمُرٗا﴾، وليس المرادُ لبثتُ مُدَّةَ عُمُري؛ لأنَّ عُمُرَه ﷺ لم يَنْتَه؛ بل المرادُ: مُدَّةٌ قدرُها قدرُ عُمُرٍ مُتعارَف؛ أي: بقدرِ مُدَّةِ عُمُرِ أحدٍ من النّاس؛ والمعنى هنا: لبثْتُ فيكم أربعينَ سنةً قبلَ نزولِ القرآن، تطَّلعونَ على أحوالي، ولا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/88.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229 - 230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89.

يَخفَى عليكم شيءٌ من أسراري، وما سمعتُم منِّي حَرفًا منَ القرآن، ولا عرَّفَكم به أحدٌ من أَقربِ النّاسِ إليَّ"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل الماضي: ﴿لَبِثۡتُ﴾:

تحقيقُ اللّبثِ أوثقُ صلةً بسياق التّأكيدِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ تحقيقًا للمعنى، فجرى السّياقُ على التّأكد في هذا الاستدلالِ، فكان التّعبيرُ بالماضي أنسبَ لهذا التّأكيد، فالقطعُ بأنّ النّبيَّ ﷺ لابثٌ فيهم، هو موطنُ الاحتجاج.

نكتةُ التّنكيرِ في: ﴿عُمُرٗا﴾:

السّيرةُ الصّالحةُ مع طول العمرِ دليلُ الصّدقِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظ التّنكيرِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ لِما في التّنكير من دلالةٍ على التّكثير؛ "أي: فقد مكثتُ بين ظهرانيكم عمرًا طويلًا من قبله، وهو أربعونَ سنةً لم أتلُ عليكم سورةً من مثله، ولا آيةً تشبهُ آياتِه، لا في العلمِ والهدايةِ، ولا في البيانِ والبراعةِ"[2].

فائدةُ الإخبارِ عن حال الرّسولِ ﷺ بعد البعثةِ وقبلها:

عمرُ رسولِ الله ﷺ تهيئةٌ واجتباءٌ، ثمّ تكليفٌ بالبلاغ وأداءٌ

الحالُ الأولى عبَّر عنها بيانُ اللّه تعالى بقولِه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾؛ أي: أربعونَ سنةً أقمتُ فيها بينَكم، هي حالُ الأُمِّيَّةِ لم يقرأْ فيها رسولُ اللّه ﷺ ولم يكتبْ، ولم يطالعْ فيها الكُتُبَ السّالفةَ، ولم يناظرِ العلماءَ، ولم يحاورْ أهلَ البلاغةِ والخطابةِ والشِّعرِ، ثمَّ انتقلَ إلى الحالةِ الثّانيةِ، وهي حالةُ الوحيِ والدَّعوةِ، إلى هذا الكتابِ البديعِ في بلاغتِه ومعانيه، أفاضَ اللّه عليه به، وكلَّفَه برسالتِه إلى النّاسِ جميعًا، ولولا أنَّ اللّه أمرَه بتلاوتِه عليهم ما تلاه، ولا علموا شيئًا منه، وإنَّما هو الوَحيُ الصّادقُ منَ اللّه[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/25، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/79.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/229 - 230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/643.

تنزّل القرآن بمشيئة الرّحمن، و لا يقدرُ عليه إنسٌ ولا جانٌّ

براعةُ الاستدلالِ: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾:

لَما كانَ قولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ تعليلًا للملازمةِ المُستلزِمةِ لكونِ تلاوتِه بمشيئةِ اللّه وأمرِه، عَوْدًا على قولِه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾، فجاءَ هذا البيانُ هنا استدلالًا بعدمِ تلاوتِه ﷺ فيما سبقَ بسببِ مشيئتِه ﷻ، ولكنَّه استدلالٌ قائمٌ على طريقِ الاستشهادِ عليها، بما شاهدوا منه ﷺ في تلكَ المدَّةِ الطَّويلةِ منَ الأمورِ الدّالَّةِ على استحالةِ كونِ التِّلاوةِ من جهتِه ﷺ بلا وَحيٍ، وما يتَّبَعُ ذلك من عدمِ درايتِهم بما تَضمَّنه هذا القرآنُ من عقيدةٍ وشريعةٍ وأخلاقٍ[1].

المصاحبةُ ميدانٌ لمعرفةِ خُلُقِ الرّجلِ وبيانِ صدقِه

دَلالةُ الظّرفِ، وصلتُه بشبه الجملة:

في قولِه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾: (قَبۡلُ) ومعها (بَعۡدُ) تأتي للدَّلالةِ على الظَّرفيَّة، وإذا أُضيفا للذَّواتِ كانَ المرادُ بعضَ أحوالِ الذّاتِ، ممّا يدُلُّ عليه المَقامُ؛ أي: من قبلِ نُزولِ القرآنِ، أي: في المدَّةِ الَّتي قضاها رسولُ اللّه ﷺ فيهم، و ﴿فِيكُمۡ﴾ تُفيدُ الظَّرفيَّة؛ أي: في جماعتِكم؛ أي: بينَكم[2]، "فمَن نظرَ في حال محمّدٍ ﷺ قبلَ الرّسالةِ وبعدَها، ومَن طالعَ وجوهَ هذه الآياتِ السّماويةِ الّتي نزلَت عليه، لم يقم عنده أدنى شكٍّ في أنّ محمّدًا ﷺ هو رسولُ اللّه، وأنّ ما يُحدِّثُ به عن اللّه هو من عندِ اللّه، ومن كلماتِ اللّه.."[3].

اللّبثُ المحتجُّ به عليهم مُقيّدًا بالزّمن السّابقِ لنزول القرآنِ

دلالةُ: ﴿مِّن﴾:

أدخلَ النّظمُ المعجِزُ حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾؛ للدّلالة على ابتداء القبليّةِ، فلمّا "كان عمرُهُ لم يستغرقْ زمانَ القَبلِ قال: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ مقدارَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/643.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/974.

أربعينَ سنةً"[1]، فالعمرُ الّذي لَبِثَهُ فيهم مُقيَّدٌ بالزّمان السّابقِ لنزول القرآنِ، وليس لمطلقِ القبليّةِ؛ لأنّه لا حاجةَ لمطلقِ القبليّةِ هنا، فالاحتجاجُ جاء لتوثيق نزولِ القرآنِ منَ اللّه تعالى؛ "أي: منْ قبلِ نزولِ القرآن لا أتعاطى شيئاً ممّا يتعلَّقُ به لا من حيث نَظمُهُ المُعجِزُ ولا من حيثُ معناهُ الكاشفُ عن أسرارِ الحقائقِ وأحكام الشّرائعِ"[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بالاستفهامِ والفاءِ والنّفي في: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

إنـكـارُ حـالِ المـشـركـين والتّـعـجُّبُ من سفاهاتِهم دليلٌ عـلـى أنَّـهـم لا يعقلون

جمعَ النّظمُ الجليلُ الاستفهامَ والنّفيَ والفاءَ في تركيبٍ واحدٍ ﴿أَفَلَا﴾، فأدخلَ الاستفهامَ الإنكاريَّ على الفاء التّفريعيّة فقال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ تفريعًا على جملةِ الشَّرط، وما تفرَّعَ عليها بصيغة الاستفهام، وهو تفريعٌ للإنكارِ والتَّعجُّبِ على نُهوضِ الدَّليلِ عليهم، إذْ قد ظهرَ من حالِهم ما يجعلُهم كمَن لا يَعقِلُ[3].

سرُّ استعمالِ فعلِ العقلِ في: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾:

العقلُ الحصيفُ يُفضي إلى إدراكِ الـدّلـيـلِ على النُّبوّةِ الصّادقةِ

آثرَ النّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بلفظ العقلِ فقال جلّ شأنُه: ﴿تَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ العقلَ هو أوّلُ درجاتِ الإدراك، والمعنى: أفلا تعقلونَ أنَّ مثلَ هذا الحالِ منَ الجمع بين الأُمّيَّةِ والإتيانِ بهذا الكتابِ البديع في بلاغتِه ومعانيهِ لا يكونُ إلّا حالَ مَن أفاضَ اللّه عليه رسالتَه، إذْ لا يتأتّى مِثلُه في العادةِ لأحدٍ، ولا يتأتّى ما يُقاربُه إلّا بعدَ مُدارسَةِ ومُطالعةِ الكُتُبِ السّالفة، ومُناظَرةِ العلماءِ، ومُحاورةِ أهلِ البلاغة منَ الخُطباءِ والشُّعراءِ زَمنًا طويلًا وعُمرًا مَديدًا، فكيف تأتّى ما هو أعظمُ من ذلكَ المعتادِ دفعةً واحدةً لِمن قضَى عُمُرَه بينَهم في بلادِهِ يعايشونَه ويَعرفونَ أحوالَه وأَسرارَه، ويَرقبون تقلُّباتِه صباحَ مساءَ، وقد خلَتْ ديارُهم ممَّن يزاولُ العلومَ، وما أقامَ فيهم من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/89.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/130.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/122.

أهلِ الكتابِ مَن يُعلِّمُهم ما في كُتبِهم من شريعةٍ وأخلاقٍ وأخبارٍ وعِظاتٍ؟ أَفَلا تكونونَ عاقلين فتعرفوا أنَّ مثلَ هذا الحالِ لا يكونُ إلّا من وَحيٍ صادقٍ مُنزَّلٍ من عندِ اللّه؟[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(شاءَ) و(أرادَ):

المشيئةُ منَ اللهِ الإيجادُ، والإرادةُ العزمُ على الفعلِ أوِ التَّركِ

الإرادةُ: هي العزمُ على الفعلِ أوِ التَّركِ بعدَ تَصوُّرِ الغايةِ المترتِّبةِ عليه من خيرٍ أو نفعٍ أو لذَّةٍ ونحوِ ذلك، والإرادةُ تكونُ لِما يَتراخى وقتُه ولِما لا يتراخَى، وأمّا المشيئةُ فهي إيجادُ الشَّيءِ وإصابتُه لِما لم يتراخَ وقتُه، فهي منَ اللّه تعالى تعني الإيجاد، والشّاهدُ أنَّكَ تقولُ: فعلتُ كذا شاءَ زَيدٌ أو أبَى، وذلكَ إنَّما يكونُ عندَ محاولةِ الفعل، وكذلكَ مشيئتُه إنَّما تكون بدلًا من ذلكَ في حالِه، وعلى هذا فالإرادةُ أخصُّ منَ المشيئة؛ لأنَّ المشيئةَ ابتداءُ العَزمِ على الفعل، فَنسبتُها إلى الإرادة نسبةُ الضَّعفِ إلى القوَّة، والظّنِّ إلى الجَزْم، فإنَّك ربَّما شئتَ شيئًا ولا تُريدُه لمانعٍ عقليٍّ أو شرعيّ، وهذا في حقِّ النّاس، وأمّا الإرادةُ فمتى حصلَتْ صَدَرَ الفعلُ لا محالَةَ، وقد يُطلَقُ كلٌّ منهما على الآخَرِ توسُّعًا[2].

(لَبِثَ) و(مَكَثَ):

اللَّبثُ الإقامةُ بالمكانِ مع الملازمةِ له، والمُكثُ ثباتٌ مع انتظار

لَبِثَ بالمكانِ: أقامَ به مُلازمًا له، قالَ تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14][3]، واللّبث في القرآن الكريم يرتبطُ بالزّمن غالبًا؛ لأنّه لا معنى للبث بلا ظرفٍ، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: 42]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ [البقرة: 259].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/26، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 35، والرّاغب، المفردات: (رود)، والكفويّ، الكلّيّات: 1/105، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 130.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (لبث).

والمُكثُ: ثباتٌ مع انتظارٍ، قالَ تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النّمل: 22]. والتَّمكُّثُ: التَّلَبُّثُ[1]، وهو الاستقرارُ المطلقُ في المكان؛ أي: هو استقرارٌ غيرُ مُحدَّدٍ بأمدٍ، وقد وردَ في القرآن في مَواضعَ منها قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106]، وقوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النّمل: 22]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: 29]، وقد آثرَ السّياقُ في هذه الآيةِ استعمالَ لفظِ (اللّبث)؛ لأنّه أبلغُ في التّعبير عنِ المعنى المراد.

وإنّما آثرَ التّعبيرَ في الآية بـ(اللّبث)؛ لأنّه أقامَ فيهم مُلازِمًا لهم وصحبَهم ذلك العمر على طولِه، ولم يعبّرْ بـ (المكث)؛ لأنّه لم يكنْ في إقامتِه هناك مُنتظِرًا، فكان الواقعُ يقتضي التّعبيرَ بما جاءَ في الآية.

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (مكث).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾ [يونس: 17]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين تبرئة الرّسولِ من اختلاقِ القرآنِ، وكونِهِ أعظمَ الظّلمِ، وأقبح الجرمِ

لَما التمسوا من رسولِ اللّه ﷺ قرآنًا يَذكُرُه من عندِ نفسِه، ونَسبوه إلى أنَّه إنَّما يأتي بهذا القرآنِ من عندِ نَفسِه، ثمَّ إنَّه أقامَ البُرهانَ القاهرَ الظّاهرَ على أنَّ ذلكَ باطلٌ، وأنَّ هذا القرآنَ ليس إلّا بوَحيِ اللّه تعالى وتنزيله، فعندَ هذا قالَ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، والمرادُ أنَّ هذا القرآنَ لو لم يكنْ من عندِ اللّه، لَما كانَ في الدُّنيا أحدٌ أَظلمَ على نَفسِه منِّي، حيث افْتريتُهُ على اللّه، ولَما أَقَمتُ الدَّلالةَ على أنَّه ليس الأمرُ كذلك؛ بل هو بوَحي من اللّه تعالى وَجَبَ أن يُقال: إنَّه ليس في الدُّنيا أحدٌ أجهلَ ولا أظلمَ على نَفسِه منكم، حيث كذَّبتُم بآياتِ اللّه فصرتُم في عدادِ المجرمين الَّذين لا يُفلحون[1]، فـ "مناسبةُ هذه الآيةِ لِما قبلَها، أنّها تكشفُ عن افتراءِ المشركينَ على اللّه وتكذيبِهم بآياته"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَظْلَمُ﴾: الظُّلمةُ: عدمُ النّور، وجمعُها ظُلُمات، قالَ تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: 257]، ويعبَّرُ بها عنِ الجهلِ والشِّركِ والفِسقِ والنِّفاقِ، فلا أحدَ أظلمُ من أهلِ هذه الصِّفات. والظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعِه المختصِّ به، إمّا بنقصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بعدولٍ عن وقتِه أو مكانِه، والظُّلمُ: يُقالُ في مجاوزةِ الحقِّ، وفيما يكثُر وفيما يَقِلُّ منَ التَّجاوزِ، ولهذا يُستعملُ في الذَّنبِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/975.

الكبيرِ، وفي الذَّنبِ الصَّغيرِ[1]. ومن هذا المعنَى قولُه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: لا أحدَ أظلَمُ ولا أشدُّ إجرامًا ممَّن تقوَّلَ على اللّه، وزعَمَ أنَّ اللّه أرسلَه، ولم يكن كذلك، أو بقولٍ أو بعملٍ تجاوزَ فيه حدودَ اللّه، فكلُّ ذلكَ ظلمٌ[2].

2) ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: الفَرْيُ: رقعُ الجلدِ للخَرزِ والإصلاحِ، والإفراءُ للإفساد، والافتراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثر، وكذلكَ استُعمِلَ في القرآنِ في الكذِبِ والشِّركِ والظُّلم، نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النّساء: 48]، وقولُه تعالى: ﴿لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: 27]؛ أي: كَذِبًا عظيمًا وعجيبًا[3]، ومن هذا قولُه تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّـهِ كَذِبًا﴾؛ أي: كذَبَ على اللّه بنسبةِ القرآنِ إلى غيرِ اللّه تعالى[4].

3) كذَّب: الكذبُ ضدُّ الصِّدقِ، ويُقالُ في المقالِ والفعالِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النّحل: 105]، وقد يكونُ الكذبُ في الاعتقاد، كحالِ المنافقينَ الَّذين كذبوا في اعتقادِهم لا في مقالهم، ومقالُهم كانَ صِدقًا، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: 1]، ويُقال للمبالغةِ في الكذب: رجلٌ كذّابٌ، وكذوبٌ[5]، وقولُه تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾؛ أي: نَسبَ القرآنَ إلى غيرِ اللّه، وقالَ: إنَّ آياتِ اللّه ليستْ من عندِ اللّه، والمفترونَ على اللّه الكذبَ بذلك همُ المشركونَ نَسبوا إلى اللّه الشَّريكَ والوَلَدَ، والمكذِّبونَ بآياتِ اللّه هم أهلُ الكتاب[6]، ويمكنُ أن يكونَ كِلا الفريقينِ على ذلكَ في الافتراءِ على اللّه وتكذيبِ آياتِه فإنَّ مَنِ افْترى على اللّه الكَذِبَ كذَّبَ بالقرآنِ وبآياته، وأهلُ الكتابِ لَمّا كفروا بنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ فقد كذَّبوا بالقرآنِ وبآياته.

4) ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾: فلح: أصلٌ يدلُّ على فَوزٍ وبَقاءٍ، الفاءُ واللّامُ والحاءُ أَصلانِ صحيحان، أحدُهما يدُلُّ على شَقٍّ، والآخَرُ على فَوْزٍ وبَقاء. فالأَوَّلُ: فَلَحتُ الأرضَ: شَقَقْتُها. والثّاني: الفَلاحُ: وهو الظَّفَرُ والبقاءُ والفوزُ، قالَ تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: 1][7]. وَقَولُ

(1) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (ظلم).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/373، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/6، وابن المبارك، غريب القرآن وتفسيره، ص: 238، والرّاغب، المفردات: (فرى).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كذب).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (فلح).

النّاسِ: لا يُفلحُ فلانٌ بعدَها، يُريدونَ بعد فَعْلتِه الَّتي فَعَلَ أَو بعد هَذِه المرَّة[1]، وفي القرآن قوله: ﴿وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾ [القصص: 82]، وبهذا المعنَى الأخيرِ جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ أي: لا يَظفَرونَ بمَطلوبٍ وبُغيةٍ ولا يفوزون بخيرٍ[2].

5) ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾: أَصلُ الجَرْمِ: قطعُ الثَّمرةِ عنِ الشَّجَر، يُقال: ثَمَرٌ جَريمٌ؛ أي: مقطوع. وأَجْرَمَ: صارَ ذا جَرَم، نحو: أَثْمَرَ وأَلْبَنَ، واستُعيرَ لكلِّ اكتسابٍ مَكروهٍ، ومنه الإجرامُ. والجريمةُ: الذَّنْبُ، وارتكابُ ما حرَّمَ اللّه أو كرِهَهُ، ومنه قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطفّفين: 29][3]، ومنه قولُه هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

وأعظمُ الجُرْمِ: الإشراكُ باللّه والتَّكذيبُ بآياتِه بعد بيانِها؛ أي: لا يفوزونَ بسببِ شركِهم وتكذيبِهم بأيِّ خيرٍ، فما اعتقَدوه وقالوه وعَمِلوه ممّا سبقَ أعظمُ جُرْمٍ على اللّه، وأكثرُ استشرافٍ إلى عذابِه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا أظلمَ ممّن كذَبَ على الله أو كذَّبَ بآياته، ولا أشدَّ إجرامًا منه

يخبرُ اللّه تعالى في بليغِ نظمِه أنّ: لا أحدَ أظلمُ ولا أعتَى ولا أشدُّ إجرامًا، ممَّن تقوَّلَ على اللّه، وزَعَمَ أنَّ اللّه أرسلَهُ، ولم يكنْ كذلك، فليس أحدٌ أكبرَ جُرْمًا ولا أعظمَ ظلمًا من هذا، ومِثْلُ هذا لا يَخفى أمرُه على الأغبياءِ فكيفَ يُشتَبَهُ حالُ هذا بالأنبياءِ؟! فإنَّ مَنْ قالَ هذه المقالةَ صادقًا أو كاذبًا، فلا بُدَّ أنَّ اللّه ينصِبُ عليه منَ الأدلَّةِ على برِّه أو فُجورِه ما هو أظهرُ منَ الشَّمس، ولَمّا كذَّبَ أولئكَ المشركونَ بآياتِ اللّه، فقد تعيَّنَ فيهم الظُّلمُ، ولن ينالوا الفلاحَ

(1) ابن سيده، المخصّص: 5/169.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (جرم).
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/90.

والظَّفَرَ بما يتطلَّعونَ إليه من وراء كَذِبهم وكُفرِهم، والظّالمون هم المجرمونَ المرتكِبونَ لأشنَعِ الذُّنوبِ وأقبحِها، والتَّي سيأخذُهم اللّه بها إلى عذابِ النّارِ وبِئسَ المصير[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الجملةِ البيانيُّ في: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾:

الشِّركُ أعظَمُ الظُّلمِ، وعنه يتفرَّعُ الافتراءُ على اللّه والتَّكذيبُ بآياتِه

لَمّا قامتِ الحجَّةُ عليهم بما لا قِبَلَ لهم بالتَّنصُّلِ منه، أَعقبَ ذلك بالتَّفريعِ على افترائِهمُ الكَذِبَ، وذلكَ ممّا عُرِفَ من أحوالِهم من اتِّخاذِهمُ الشُّركاءَ له، كما أشارَ إليه قولُه من قَبلُ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: أشركوا، إلى قولِه تعالى: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: 13، 14]، وتكذيبِهم بآياتِ اللّه في قولِهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾، فالشِّركُ باللّه ظلمٌ، والافتراءُ على اللّه ظلمٌ، والتَّكذيبُ بآياتِه ظلمٌ، إذ أساسُ ذلكَ كلِّه الشِّرك، فهو أظلمُ الظُّلم، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: 13]، وما يتبعُه ويتفرَّعُ عنه هو كذلك[2].

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَمَنْ﴾:

مُجاراةُ الخَصمِ حتَّى يُسكَتَ بالحُجَّةِ القائمةِ، والدّليلِ المُفحِمِ

افتتحَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بالفاءِ التّفريعيّة، فلمّا عرَّضوا بنسبتِه إلى الافتراءِ على اللّه حين قالوا: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ [يونس: 15]، وصرَّحوا بنَفيِ أنْ يكونَ القرآنُ من عندِ اللّه، فلمّا أقامَ الحُجَّةَ عليهم، بأنَّ ذلكَ من عندِ اللّه، وأنَّه ما يكونُ له أن يأتيَ به من تِلقاءِ نَفسِه، فرَّعَ عليه أنَّ المُفتريَ على اللّه كَذِبًا والمكذِّبينَ بآياتِه، كلاهما أَظلمُ النّاس، لا أحدَ أظلمُ منهما، وذلكَ من مُجاراةِ الخَصمِ ليَعثُرَ؛ يُخيَّلُ إليه من الكلامِ أنَّه إنصافٌ بينهما، فإذا حَصحَص

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/273، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 311.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.

الحقُّ وظهرَ المعنَى وُجِدَ انصبابُهُ على الخَصْمِ وَحدَه، فَأُسقطَ بينَ يَدَيْهِ وأفْحَمَه(1).

دَلالةُ الاستفهامِ في: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

أشدُّ الظُّلمِ الكذبُ على الله، أو التّكذيبُ بهداه

جاءَ الاستفهامُ في قولِه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ أحدَ الأَمرَينِ أشدُّ الظُّلم؛ لأنَّه اعتداءٌ على الخالقِ بالكَذبِ عليه وبتكذيبِ آياته بعدَ بيانِها، وذلك أعظمُ جُرمٍ على اللّه، وأكثرُ استشرافٍ إلى عذابِه(2)، "والاستفهامُ في قولِه: فَمَنْ أظلَمُ للإنكارِ والنّفي؛ أي: لا أحدَ أشدُّ ظلمًا عندَ اللّه، وأجدرُ بعقابه وغضبِه، ممّنِ افترى عليه الكذبَ، بأن نسبَ إليه سبحانه ما هو بريءٌ منه، أو كذّبَ بآياتِهِ وحججِهِ الّتي أنزلها لتأييدِ رسلِه"(3).

لا أحدَ أظلَمُ من كلِّ ظالمٍ افترى على الله كذبًا

إذا كانَ سَبْكُ التَّركيبِ مُفيدًا لإنكارِ أن يكونَ أحدٌ أظلمَ ممَّن افْتَرى على اللّه الكَذِب أو كذَّبَ بآياته من غيرِ تعرُّضٍ لإنكارِ المساواةِ ونَفيِها، فإنَّه إذا قيل: مَنْ أفضلُ من فُلانٍ؟ أو لا أحدَ أعلمُ منه، يُفهَمُ حتمًا أنَّه أَفضَلُ من كلِّ فاضلٍ، وأَعلَمُ من كلِّ عالمٍ، ويكونُ المعنَى هنا قائمًا على الجَحْدِ؛ أي: لا أَحَدَ أظلَمُ من أيِّ ظالمٍ(4).

بلاغةُ النّفي والتّقرير بالاستفهام:

أشارَ الاستفهامُ والتَّقريرُ على عِظَمِ جُرمِ إنكارِ التَّنزيل

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ استفهامٌ وتقريرٌ؛ أي: لا أحدَ أظلمُ من هذينِ الصِّنفَين، فذلكَ أعظمُ جُرْمٍ على اللّه، وإنَّما كانَ أحدُ الأمرَينِ أشدَّ الظُّلم؛ لأنَّه اعتداءٌ على الخالقِ بإنكارِ التَّنزيلِ الإلهيِّ لهذا القرآنِ، فهو أعتَى الافتراءاتِ وأشنَعُها مآلًا(5).

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/123.
(2) ابن عطيَّة: المحرَّر الوجيز: 3/111، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/42.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.
(5) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.

دَلالةُ صيغةِ (أَفْعل) في: ﴿أَظْلَمُ﴾:

دلَّت صيغةُ (أَفْعَل) في ﴿أَظْلَمُ﴾، وهي من أَفعُلِ التَّفضيلِ، وهي في سياقِ التَّشنيعِ على المشركينَ الَّذين افتروا على اللهِ الكَذِبَ أو كذَّبوا بآياتِه، أنَّه لا أحدَ أعظمُ جُرْمًا عندَ اللهِ، ولا أَعتَى ولا أكثرُ استشرافًا إلى عذابِ اللهِ من أولئك المفترينَ على اللهِ، المكذِّبينَ بآياتِهِ بعدَ بيانِها[1]، ومن هنا يُقال: بأنّه " لا أحدَ أظلمُ ممّنِ افترى على اللّه سبحانَه كذباً؛ لأنّ الكاذبَ إنّما يكذبُ ليدلِّسَ على مَن أمامه، فهل يكذبُ أحدٌ على مَن يعلمُ الأمورَ على حقيقتِها؟ لا أحدَ بقادرٍ على ذلك، ومَن يكذب على البشر المساوين له يظلمهم، لكنّ الأظلمَ منه هو مَن يكذبُ على اللّه سبحانَه"[2].

المشركون أعظمُ جُرْمًا عندَ الله بتكذيبهم القرآن، وتنزّلِه منَ الرّحمن

سرُّ استعمالِ الاسمِ الموصولِ (مَنْ) في: ﴿مِمَّنِ﴾:

جاءَ اسمُ الموصولِ (مَنْ) في قولِه: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ لأمرَين اثنَين: الأوَّلُ: للمبالغةِ في وَصفِ هذا الَّذي افترَى على اللّه كَذِبًا بما حَمَلَه منَ الشَّناعةِ والقَباحةِ؛ لخطورةِ ذاكَ الافتراء، فهو افتراءٌ على اللّه ﷻ، فإذا كانَ الافتراءُ على المخلوقِ شديدَ الشَّناعةِ فكيفَ يكونُ الافتراءُ على الخالقِ ﷻ؟!. والثّاني: تعميمُ هذا الوصفِ لكلِّ مَنْ صَدَرَ منه هذا الافتراء، فهو يفيدُ كلَّ أحدٍ افترَى على اللّه كذِبًا.

دلالــةُ الاسم الموصولِ (مَنْ) على المبالغةِ والتَّعميم

غرضُ حذفِ الفاعلِ مع الفعلِ الماضي: ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾:

حُذِفَ الفاعلُ مع الماضي ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ للاستهانةِ والازدراءِ به، فهو أقلُّ شأنًا من أنْ يَظهرَ أو يُذكَر؛ لافترائِه على اللّه كذبًا أو تكذيبه بآياته، فهذا الافتراءُ هو أَظلَمُ الظُّلم.

حذفُ الفاعل لازدرائِه والتَّقليلِ من شَأنِه

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ في ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾:

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بصيغةِ الافتعالِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾؛

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/111.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5811.

كذَّبَ المشركونَ بالقرآنِ وبآياتِه، فافتروا بذلكَ الكذبَ على الله

للدّلالة على الكلفة، ويفيدُ ذلك أنّهم قد تعمّدوا الكذِبَ على اللّه تعالى كذِبًا صريحًا مُتعمَّدًا بتكذيبِهم للقرآنِ وحَملِهم على أنَّه من جهتِه ﷺ بقولِهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، وظُلمِهمُ الفادِح، وتكذيبِهم بآياتِه تعالى بقولِه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾، وكأنَّ بيانَ اللّه يقولُ لهم: إنَّ قائلَ ما قلتُم مُكذِّبٌ بآياتِ اللّه، وفاعلَ ما طلبتُم كاذبٌ على اللّه، وكلُّ ذلكَ منكم ظلمٌ مُتعمَّدٌ مقصودٌ، فلذلكَ كانَ أظلمَ الظُّلم[1].

سرُّ وضعِ الاسمِ الظّاهِرِ: ﴿ٱللَّهِ﴾ موضعَ المُضمَرِ:

الافتراءُ على اللّه ظلمٌ وتطاولٌ على مقامِ الألوهيّةِ الأسمى

كانَ الأصلُ في قولِه تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أنْ يُقال: افترى عليه، على تقدير: أنْ لا يكونَ هذا القرآنُ من عندِ اللّه كما زعمتُم، ولكنَّه وُضِعَ هذا الظّاهر، وهو لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، مكانَه تعميمًا وتعليقًا للحُكمِ بالوصف؛ للدَّلالةِ على خطورةِ ظُلمِهم وشناعةِ افترائِهم، فهو افتراءٌ على اللّه المعبودِ بحقٍّ دون سواه[2]، "ويكون النّصُّ على هذا إثباتَ أنّ القرآنَ الّذي تلاه عليهم، هو من عند اللّه؛ لأنّه ليس بظالمٍ، فضلًا عن أن يكون أظلمَ النّاسِ، إذ هو الصّادقُ الأمينُ الّذي عرفتموه، وهو تنديدٌ بالمشركين؛ فهم أظلمُ النّاسِ؛ لأنّهم افتروا على اللّه تعالى إذ أشركوا به غيرَه، وأيُّ افتراءٍ أكبرُ من ذلك، ثمّ هم قد سفّهوا النّبيَّ ﷺ، وافتروا عليه الكذبَ"[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿كَذِبًا﴾:

تنكيرُ اللّفظِ في الآيةِ ليفيدَ العُمومَ، ويصفَ قائلَهم المشؤومَ

جاءَ لفظُ ﴿كَذِبًا﴾ نكرةً ليصدُقَ على أيِّ كذبٍ كان؛ أي: على عُمومِ الكذبِ على اللّه بأيِّ وَجهٍ أو صفةٍ أو قولٍ أو فعلٍ[4]، والكذبُ

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89 - 90.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3536.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/89.

أسوأُ أخلاقِ الإنسانِ، وهو مُستبشَعٌ في كلّ الشّرائعِ، ومُستنكَرٌ في كلّ الأحكامِ الشّرعيّةِ، والقوانينِ الوضعيّةِ، لكنّه إذا ارتبطَ بالافتراء على اللّه كان أبشعَ وأقبحَ، ولذلك لـمّا طلبَ منه المشركون أن يكذبَ على اللّه، بأن يأتي بغير ما أنزلَ اللّه، أو أن يبدّلَه، ردَّ عليهم بحزمٍ وإنكارٍ، واستعظمَ أن يقولَ على اللّه ما لم يأمرْه به؛ لأنّ ذلك يتنافى مع الإيمانِ، ناهيك عنِ النّبوّةِ والرّسالةِ، وقد قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النّحل: 105].

دَلالةُ الجمعِ بين لفظي ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ و ﴿كَذِبًا﴾:

الجمعُ بين لفظِ الكذبِ مع مرادفِه، يؤكّدُ أنّه كَذِبٌ في ذاتِه، لا في الإسنادِ فقط

جَمَعَ النّظمُ الجليلُ بين لفظي الافتراءِ والكذبِ في قوله تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ مع أنَّ الافتراءَ لا يكون إلّا كَذِبًا؛ وذلكَ للإيذانِ بأنَّ ما أضافوه إليه ضِمنًا، وحَمَلوه ﷺ عليه صريحًا، مع كونِه افتراءً على اللّه تعالى، هو كذبٌ في نَفسِه، فَرُبَّ افتراءٍ يكونُ كَذِبُهُ في الإسنادِ فقط، كما إذا أُسنِدَ ذَنبُ زيدٍ إلى عَمرٍو، وهذا للمبالغةِ منه ﷺ في التَّفادي عمّا ذُكِرَ منَ الافتراءِ على اللّه سبحانه وتعالى[1].

دَلالةُ الحرفِ: ﴿أَوۡ﴾:

الافتراءُ والتّكذيبُ كلاهما ظلمٌ شديدٌ

لَمّا صرَّحَ المشركونَ بنَفيِ أن يكونَ القرآنُ من عندِ اللّه بقولِهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾، وأقامَ النّظمُ الكريمُ الحُجَّةَ عليهم، بأنَّ ذلكَ من عندِ اللّه، وأنَّه ما يكونُ له أنْ يأتيَ به من تلقاءِ نَفسِه، فَرَّعَ عليه أنَّ الـمُفترِيَ على اللّه كَذِبًا والـمُكذِّبين بآياته كلاهما أَظلمُ النّاسِ لا أحدَ أَظلمُ منهما، فجاءَ محلُّ ﴿أَوۡ﴾ على الوجهينِ بمعنَى التَّقسيم، وهو إمّا تَقسُّمُ أَحوالٍ، وإمّا تَقسُّمُ أنواعٍ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.

المجاورةُ بين المصدرِ وفعلِ التَّكذيبِ في قوله (كَذِبًا أو كَذَّبَ)

الفرقُ الدّلاليُّ بين ﴿كَذِبًا﴾ و ﴿كَذَّبَ﴾:

لَمّا قالَ المشركونَ: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ كان في ضِمنه أنَّهم ينسبونَهُ إلى أنَّه ليس من عندِ اللّه، وإنَّما هو اختلاقٌ واختلافٌ وتردّدٌ، فَبولِغَ في ظُلم مَنِ افْترى على اللّه كذبًا، فجاءَ بالمصدرِ ليُعبِّرَ عن هذه المبالغةِ بتأكيدِ افترائهم على اللّه، ولَمّا أنْ قامَ الدَّليلُ القاطعُ على أنَّ هذا القرآنَ هو من عندِ اللّه، وقد كذَّبتُم بآياته بعد بيانِها، وقد حصلَ منكم هذا التَّكذيبُ منذُ بدايةِ نُزولِ القرآنِ بالوَحي على رسولِ اللّه ﷺ، فلم تؤمنوا بها وكذَّبتُم ما جاءتكم به ممّا لا يناسبُ عقيدتَكمُ الوَثنيَّةَ وأحوالَكم وأحلامَكم المخالفة، جاءَ بيانُ اللّه تعالى بقولِه: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ بصيغةِ الفعلِ الماضي، وعند ذلك فلا أَظلمَ منكم كذلك[1].

لفظ (كَذِبًا) أبلغُ في معناها من لفظ (كَذَّبَ)، وهما من اشتقاقٍ واحدٍ

دَلالةُ جِناسِ الاشتقاقِ: ﴿كَذِبًا﴾، ﴿كَذَّبَ﴾:

وقعَ الجِناسُ الاشتقاقيُّ[2] بين كلمتي ﴿كَذِبًا﴾ و ﴿كَذَّبَ﴾؛ لأنَّ أصلَ الكلمتَين واحدٌ، ولكنَّ ﴿كَذِبًا﴾ فيها مبالغةٌ في المعنَى وزيادةُ دَلالةٍ على ما وصلَ إليه المشركون من مبالغتِهم في الكذِب، ولبيانِ أنَّ هذا مع كونِه افتراءً على اللّه هو كذِبٌ في نَفسِه، وهذا المعنَى لا يظهرُ بجلائِه وقوَّتِه إلّا في المصدرِ ﴿كَذِبًا﴾ دونَ الفعلِ الماضي ﴿كَذَّبَ﴾[3].

تحريفُ ما أنزلَ اللهُ يجعلُ الظّلمَ والافتراءَ والكذبَ في بوتقةٍ واحدةٍ

بلاغةُ الإخبارِ عن التّكذيبِ بـ: ﴿أَظۡلَمُ﴾، ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾، ﴿كَذِبًا﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ جاءَ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/26.

(2) الجِناسُ في اللُّغة: مصدرُ جانسَ الشَّيءَ بالشَّيء، أي: شاكلَهُ واتَّحدَ معه في الجِنس، ومنه المجانسة والتَّجنيس، ويقالُ: هذا يجانسُ هذا، أي: يشاكلُه. وفي الاصطلاح: هو اتِّفاقُ اللَّفظَين في وجهٍ مِنَ الوجوه مع الاختلافِ في المعنَى، فهو من حيث المضمون يزيدُ مِنَ الانسجامِ في المعاني عن طريق الأسلوبِ السَّلِسِ والمحبَّب. وأمّا جناسُ الاشتقاق: فهو نوعٌ من أنواعِ الجِناسِ، ويعني: أن يكون اللّفظان لهما أصلٌ واحدٌ في اللُّغة، ويتوافقان في الحروف الأصليَّةِ في التَّرتيب والاتِّفاق في أصل المعنَى مع اختلافٍ في حركاتِهما وسكناتِهما، وهو هنا مثل: (كذِبًا) و(كذَّب). يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (جنس)، جميل عيّاش، نماذج من جناس الاشتقاق في القرآن الكريم، ص: 114 - 115.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/644.

اسمُ التّفضيلِ ﴿أَظْلَمُ﴾ في سياقِ الاستفهام، ثمّ جاءَ من بعده الفعلُ ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾ تعبيرًا عن عظيم جُرم المشركين؛ بل عن أعظم فِريةٍ اختلَقوها، وهي إنكارُهم لتنزيلِ اللّه للقرآنِ على نبيِّه محمَّدٍ ﷺ، ثمّ جاء المصدرُ ﴿كَذِبًا﴾ ليحدّدَ نوعَ الافتراء، فلمّا حصلَ منهم هذا الإنكارُ الشَّنيعُ وجبَ وصفُهم بأنَّهم أَظلمُ النّاسِ، وهذا الوصفُ لهم المقصودُ منه نفيُ الكَذِبِ عن نَفسِه، وإيعازٌ بإلحاقِ الوعيدِ الشَّديدِ بهم حيثُ أنكَروا دلائلَ اللّه، وأعظمَ معجزةٍ من معجزاتِه تعالى، وكذَّبوا بآياتِ اللّه ﷻ[1].

بلاغةُ التَّذييلِ في: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

شمولُ الإجرامِ وعدمِ الفلاحِ لِمَن كذَّبوا بآياتِ الله

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تذييلٌ، وموقعُه يقتَضي شُمولَ عُمومِه للمذكورينَ في الكلامِ المُذَيَّل، ويقتَضي أنَّ أولئكَ مُجرِمونَ، وأنَّهم لا يُفلِحون[2]، وهو تذييلٌ تعليليٌّ، فهو تعليلٌ لكونه لا أظلم ممّن افترى على اللّه كذبًا أو كذّبَ بآياتِه، وإنّ واسمها وجملة ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ خبرها، و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ فاعل"[3]، فالجملةُ تذكيرٌ بالعاقبةِ السّيّئةِ لهؤلاء الّذين كذّبوا بالوحي، وآذوا الرّسولَ، وهم في نشوةِ القوّةِ، وسكرةِ المغالبةِ والمطالبةِ، لا يدركون ما سيؤولونَ إليه، ليلفتَ السّياقُ انتباهَهم إلى أنّهم مُجرمون، وأنّ المجرمين لا يفلحون.

سرُّ التَّوكيدِ بـ (إنَّ)، واسميّةِ الجملةِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾:

تأكيدُ الآيةِ شمولَ صفةِ الإجرامِ، لجميعِ المخاطَبينَ المفترِينَ

تأكيدُ الجملةِ بحرفِ التّأكيدِ (إنَّ)، واسميَّتِها ناظِرٌ على عمومِ المجرمينَ للمخاطَبين؛ لأنَّهم يُنكرونَ أنْ يكونوا منَ المجرمين[4]، و(المجرمون): هم الّذين اجترموا منَ الكفر؛ أي: اكتسبوه، وتأكيدُ السّياقِ بجملة المؤكِّداتِ يشيرُ إلى أنّ ذلك الأمرَ واقعٌ لا محالةَ، وأنّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/226، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/219.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.

مَن ضلَّ سعيُه في الحياة الدّنيا، وهو يظنُّ أنّه يُحسنُ صُنعًا، سيجدُ كلَّ سعيه في الدّنيا ويوم القيامة آيلًا إلى الخسران، ومُفضياً إلى البوار، وبئسَ القرارُ، والعِبرةُ بالخواتيم.

نُكتةُ افتتاحِ الجملةِ بضميرِ الشَّأنِ: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

ضميرُ الشَّأنِ لقصدِ الاهتمامِ بمضمونِ الجملةِ

صُدِّرَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ بضميرِ الشَّأنِ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ لقَصدِ الاهتمامِ بمضمونِها، وللتَّنبيهِ على خطورةِ الإجرامِ وبيانِ سوءِ عاقبةِ أصحابِه(1).

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ونفيِهِ: ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾:

عدمُ الفلاحِ مُستمرٌّ مع المجرمين، ومصاحبٌ لهم في جميعِ أحوالِهم

استعملَ البيانُ الإلهيُّ صيغةَ الفعلِ المضارعِ في قولِه: ﴿لَا يُفۡلِحُ﴾؛ لأنَّ الفعلَ المضارعَ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ، فأخبرَنا اللّه تعالى هنا أنَّ المجرمينَ لا يمكنُ أنْ يُفلِحوا، وعدمُ الفَلاحِ مُستمرٌّ معهم مُصاحِبٌ لهم في أحوالِهم كلِّها، حتَّى وإنْ تراءى لبعضِ قاصري النَّظرِ أنَّهم مُفلحونَ في معايشِهم وأمورِ دينِهم، فهم عندَ اللّه مجرمون، يأكلونَ ويتنعَّمونَ كالأنعام، ولكنّ مثواهم النّارُ وبِئْسَ المصيرُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد ﷺ: 12]، وكيف لا يكونُ هذا حالُهم ومصيرُهم، وهم قد وقعوا في أَظلمِ الظُّلم؛ افترَوا على اللّه كذِبًا وكذَّبوا بآياته.

العلاقةُ بين اشتقاقِ اللّفظِ، ودَلالتِه في سياقِ الآيةِ:

انتفاءُ الفَلاحِ بعمومِه لعمومِ المجرمين، وخصوصًا مَن ذكرَهم السِّياقُ

الفَلاحُ: الفوزُ وصلاحُ الحالِ، فيكونُ في أحوالِ الدُّنيا والآخرة، والمرادُ به في اصطلاحِ الدِّينِ: الفوزُ بالنَّجاةِ منَ العذابِ في الآخرة. والفعلُ منه: أفلَحَ، يُفلِحُ؛ أي: صارَ ذا فَلاحٍ، وإنَّما اشتُقَّ منه الفعلُ بواسطةِ الهمزةِ الدّالَّةِ على الصَّيرورةِ؛ لأنَّه لا يقعُ حَدَثًا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 6/971.

قائمًا بالذّات؛ بل هو جنسٌ تحُفُّ أفرادُه بمَن قُدِّرتْ له[1]، وهنا في قولِه تعالى: ﴿لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ نفيٌ للفَلاح، أيِّ فَلاحٍ في أيِّ صورةٍ منه.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وعدم تحديدِهم:

اختيارُ الأسلوبِ الأكثرِ إقناعًا للعقولِ، باللّطفِ لا بالعنفِ

اختارَ الأسلوبَ الّذي يُهذِّبُ ويؤلِّفُ القلبَ، ولو كان عدوًّا مخاصمًا، أو مبغضًا شانئًا، مُتجانفًا عن أسلوب التّقريعِ والتّهييجِ والصّدام، وهذا منَ الحكمةِ الجليلةِ، حتّى لا يستمرَّ الجدلُ بلا طائلٍ، ولذلك قال الحقُّ سبحانَه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وهذا الأسلوبُ عامٌّ غيرُ مُقيّدٍ، وينطبقُ باعتباره حكمًا على كلِّ الممارساتِ الّتي يشوبُها الكذبُ، أو يخالطُها الإفكُ، ممّا يكونُ فيها الكذبُ على اللّه ورسولِه ودينِه، وتُطبَّقُ على كلِّ مَن يصدرُ منه ظلمٌ، وسياقُ الآيةِ يقولُ: "فإذا كان الظّلمُ من جهتي فسوف يحاسِبُني اللّه عليه، وإن كان من جهتِكم فاعلموا قولَ الحقِّ سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، ولم يحدّد مَنِ المُجرمُ، وتركَ الحكمَ للسّامعِ، كما تقول لإنسانٍ له معك خلافٌ: (سأعرضُ عليك القضيّةَ واحكم أنت)، وساعة تفوّضُه في الحكم؛ فلن يصلَ إلّا إلى ما تريد، ولو لم يكن الأمرُ كذلك لما عرضتَ الأمرَ عليه"[2].

إيثارُ لفظِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

لفظُ (المجرمون) أوفى في الدّلالةِ، من حيث المعنَى ومن حيث العموم

كانَ الأصلُ أن يُقالَ في ذيلِ الآيةِ: الكاذبون، جَرْيًا على نَسَقِ السِّياقِ؛ أي: فمَن أظلمُ ممَّنِ افترَى على اللّه كَذِبًا أو كذَّب بآياته إنَّه لا يُفلِحُ الكاذبون، لكنَّ بيانَ اللّه تعالى آثَرَ لفظَ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ على لفظِ (الكاذبون) للدَّلالةِ على شناعةِ وعِظَمِ ظُلم المفترينَ على اللّه كَذِبًا أو المُكذِّبين بآياته، والتَّعبيرُ بالإجرامِ هنا أقوى وأشدُّ مناسبةً

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/124.

للسِّياق، ثمَّ إنَّ لفظَ المجرمين - كما تقدَّم - عامٌّ يصدُقُ على المكذِّبين وغيرِهم ممَّن يحادّون اللّه ورسولَه، ويسعونَ في الأرضِ فَسادًا، ويرتكبونَ كبائرَ الذُّنوبِ، ولا يتوبونَ منها، فهو أَوفَى للعُموم من لفظِ (الكاذبون)، وأيضًا لشمولِ عموم المجرِمينَ للمُخاطَبينَ؛ لأنَّهم يُنكرونَ أن يكونوا منَ المُجرمين[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

عدمُ الفلاح ثابتٌ لكلِّ مُجرِمٍ مُنتهِكٍ لحرمات الله

جاءَ التّعبيرُ بـ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ معرّفًا بـ(أل) الدّالّة على الجِنْس؛ أي: جِنْس المجرِمين، وإنْ كانَ هنا معهودًا بمنِ افْترَى على اللّه كَذِبًا أو كذَّبَ بآياتِه بحسبِ ظاهرِ السِّياق، لكنَّ إسنادَ عدم الفَلاح إليه، يقتضي عمومَ عدمِ الفَلاحِ لعمومِ المجرِمينَ؛ أي: لا يُفلحُ بأيِّ وجهٍ منَ الوجوهِ المجرمونَ، بأيِّ وجهٍ من وجوهِ الإجرام، وأخصُّهم مَنْ جاءَ السِّياقُ بذكرِهم، وهم الَّذين افتروا على اللّه الكَذبَ أو كذَّبوا بآياته.

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آيتي يونس، والأنعام:

لا أظلَمَ ولا أجرَمَ ممّن افترى على الله كذبًا، ولن يُفلحَ في ظلمِهِ ولا جرمِهِ

التَّشابهُ بين قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾ [يونس: 17]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21].

قالَ تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]، وقال في سورة يونس: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، وختَمَ الآيةَ في سورة الأنعام بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]؛ لأنَّ الآياتِ الَّتي تقدَّمَتْ في هذه السّورة عُطِفَ بعضُها على بعضٍ بالواو، وهو قولُه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124.

﴿تُشۡرِكُونَ ١٩﴾ [الأنعام: 19]، ثمَّ قالَ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ [الأنعام: 21]، وختَمَ الآيةَ بقولِه: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ٢١﴾ [الأنعام: 21]؛ ليكونَ آخرُ الآيةِ لَفْقًا لأوَّلِ الأولى.

وأمّا في سورةِ يونس فالآياتُ الَّتي تقدَّمتْ عُطِفَ بعضُها على بعضٍ بالفاءِ، وهو قولُه: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، ثمَّ قالَ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ بالفاءِ، وختمَ الآيةَ بقولِه: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أيضًا موافَقةً لما قبلَها، وهو قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣﴾ [يونس: 13] فوصفَهم بأنَّهم مُجرمون، وقال بعدَه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ [يونس: 14]، فختمَ الآيةَ هنا بقولِه: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّ سبيلَ هؤلاءِ سبيلُ مَن تقدَّمَهم(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَذِب والافْتِراء والبُهتان:

الكَذِبُ عدمُ مطابقةِ الخَبرِ للواقعِ، وفي حقِّ غيرِك افتراءٌ، ومع المكابَرَة بهتانٌ

الكَذِبُ: هو عدمُ مطابقةِ الخبرِ للواقعِ، أو لاعتقادِ المُخبِرِ لهما على خلافٍ في ذلك. والافتراءُ: أخصُّ منَ الكَذِبِ؛ لأنَّه الكَذِبُ في حقِّ الغيرِ بما لا يَرْتَضيه، بخلافِ الكَذِبِ، فإنَّه قد يكونُ في حقِّ المتكلِّمِ نفسِه، ولذا يُقالُ لِمن قالَ: (فعلتُ كذا ولم أفعلْ كذا) مع عدمِ صدقِهِ في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفْتَرٍ، وكذا مَنْ مدحَ أحدًا بما ليس فيه، يُقالُ: إنَّه كاذبٌ في وصفِه، ولا يُقالُ: هو مُفْتَرٍ؛ لأنَّ في ذلكَ ممّا يرتَضيه المقولُ فيه غالبًا. وقالَ ﷻ: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لزعمِهم أنَّه أتاهم بما لا يرتضيهِ اللهُ سُبحانه مع نسبتِه إليه، وأيضًا قد يَحسُنُ الكَذِبُ على بعضِ الوجوه، كالكَذِبِ في الحرب، وإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ، وعِدَةِ الزَّوجةِ، بخلافِ الافْتراءِ.

وأمّا البُهتانُ فهو الكَذِبُ الَّذي يواجَهُ به صاحبُهُ على وَجهِ

(1) الكرمانيّ، البرهانُ في توجيه متشابه القرآن، ص: 106.

المكابَرةِ له، قالَ تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦﴾ [النِّساء: 156][1]، والبهتان: هو الكذبُ الّذي يُبهِتُ سامعَهُ لفظاعتِهِ[2].

الكَذِب والإفْك:

الكَذِبُ الخبرُ المخالفُ للواقع، والإفْكُ الكَذِبُ الفاحشُ القُبْح

الكَذِبُ: اسمٌ موضوعٌ للخَبَرِ الَّذي لا مُخبِرَ له على ما هو به، وأصلُه في العربيَّة: التَّقصير، وسواءٌ أكانَ الكَذِبُ فاحشَ القُبح أم غيرَ فاحشِ القُبْح. وأمّا الإفكُ فهو الكَذِبُ الفاحشُ القُبح، مِثلُ الكَذِب على اللّه ورسولِه أو على القرآن، ومِثلُ قَذْفِ المُحصَنَةِ وغيرِ ذلكَ، ممّا يَفحُشُ قُبْحُه، وجاءَ في القرآنِ على هذا الوجهِ قولُه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧﴾ [الجاثية: 7]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النّور: 11]، وأصلُه في العربيَّة: الصَّرف، وفي القرآن: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥﴾ [المائدة: 75]؛ أي: يُصرَفون عنِ الحقِّ، وتُسمَّى الرِّياحُ: المؤتَفِكاتُ؛ لأنَّها تَقلِبُ الأرضَ فتصرفُها عما عُهِدَتْ عليه، وسُمِّيتْ ديارُ قومِ لوطٍ عليه السلام المؤتَفِكات؛ لأنَّها قُلِبَتْ بهم[3]. ولمّا كان المقصودُ في الآيةِ بيانَ الادّعاءِ الكاذبِ والتّكذيبِ عبّرَ عن ذلك بالكذبِ والتّكذيبِ دون (الإفك)؛ لأنّه في سياقِ الحديثِ عنِ الصّرفِ عنِ الحقِّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449، والكفويّ، الكلّيّات: 1/249 - 250، 3/109، 4/74، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 92.

(2) الرّاغب، المفردات: (بهت).

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 540 - 541، والرّاغب، المفردات: (أفك)، والكفويّ، الكُلّيّات: 3/109، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 92.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾

[يونس: 18]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مناسبةُ طلبِ قرآنٍ مُغيَّرٍ؛ لبيانِ أنّ الأصنامَ الباطلةَ لا تُقدِّمُ ولا تُؤخِّرُ

لَمّا ذكرَ بيانُ اللّه أنَّ القومَ التمَسوا منَ الرَّسولِ ﷺ قرآنًا غيرَ هذا القرآنِ أو تبديلَه؛ لأنَّ هذا القرآنَ مُشتَمِلٌ على شَتْمِ الأصنامِ الَّتي جَعلوها آلهةً لأنفُسِهم، فلهذا السَّببِ ذكرَ اللّه تعالى في هذا الموضعِ ما يدُلُّ على قُبْحِ عبادةِ الأصنامِ، وأنَّ تحقيرَها والاستخفافَ بها أمرٌ حقٌّ وطريقٌ مُتيَقَّنٌ، فلذلكَ نبَّهَ هنا على أنَّ ما اتَّخذوه شفعاءَ عندَ اللّه فاسدٌ، وذلكَ بأنَّ تلكَ الآلهةَ المزيَّفةَ لا تَضرُّهم ولا تنفعُهم؛ بل زادَ على ذلك تَسْفيهَه لهم وسُخْريتَه بهم، إذ كيف يُعقلُ وجودُ تلك الآلهةِ، واللّه ﷻ لا يعلمُها؟!! واللّه خالقُ السَّماواتِ والأرضِ، وهو أعلمُ بما فيهما، وحيث لم يكن معلومًا للّه، دلَّ ذلكَ على عدمِ وجودِها، ولذلكَ جاءَ تنزيهُ اللّه تعالى عن أباطيلِهم تلكَ، وشِركِهمُ الواضحِ الفاضحِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾: العُبوديَّةُ: إظهارُ التَّذلُّلِ، والعبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غايةُ التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا من له غايةُ الإفضالِ، وهو اللّه تعالى؛ ولهذا قالَ: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]. والعبادة: الطّاعة، والنّاسُ كلُّهم عبادٌ للّه؛ بلِ الأشياءُ كلُّها كذلك، بالتَّسخيرِ أو

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/228، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/90 - 91.

بالاختيار. وعَبَدَ يعبُدُ عِبادَةً، فلا يُقالُ إلّا لِمن يعبُدُ اللّه تعالى، وتعبَّدَ يتَعَبَّدُ تَعَبُّدًا، ويُقالُ للمسلمين: عُبّادٌ يعبُدونَ اللّه تعالى، ويُقالُ للمشركين: عَبَدَةُ الطّاغوتِ والأوثان[1]، وهم المرادون بقولِه هنا: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾.

2) ﴿لَا يَضُرُّهُمۡ﴾: الضُّرُّ: سوءُ الحال، إمّا في نفسِه لقلَّةِ العلمِ والفضلِ والعِفَّةِ، وإمّا في بَدَنِه لعدمِ جارحةٍ ونَقْصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّةِ مالٍ وجاهٍ، قالَ تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ [الأنبياء: 84]. يُقالُ: ضرَّهُ يضرُّه ضُرًّا: جَلَبَ إليه ضُرًّا، وهو ضدُّ النَّفْعِ. وقولُه هنا: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، المرادُ به: الضُّرُّ والنَّفعُ اللّذان بالقَصدِ والإرادةِ، تنبيهًا أنَّه لا يَقصِدُ في ذلكَ ضَرًّا ولا نفعًا لكونِه جمادًا[2].

3) ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾: النَّفعُ: ما يُستعانُ به في الوصولِ إلى الخَيْرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فالنَّفعُ خَيْرٌ، وضِدُّه الضُّرُّ، يقال: نَفَعْتُهُ بكذا فانْتَفَعَ به، والاسمُ المنفعة. ومنه قولُه هنا في الآية: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، على الوجهِ الَّذي تقدَّمَ آنفًا بقَصدِ إرادةِ الضُّرِّ والنَّفعِ من تلكَ الأصنامِ الصَّمّاء[3].

4) ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾: شفع: الشِّينُ والفاءُ والعَينُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على مقارنةِ الشَّيئَين، من ذلكَ الشَّفعُ خِلافُ الوَتْرِ. ومن الشَّفاعة: شَفَعَ فلانٌ لفلان: إذا جاءَ ثانيَهُ مُلْتمسًا مَطْلَبَه ومعينًا له، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في انضمامِ مَن هو أعلى حرمَةً ومرتبةً إلى مَنْ هو أَدنَى، ومنه الشَّفاعةُ في القيامة، قالَ تعالى: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ٨٧﴾ [مريم: 87][4]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: أنَّ تلكَ الآلهة تنفعُهم شفاعتُها، فيلتمسونَ عونَهم عندَ اللّه فلا يعذِّبُهم بذنوبِهم[5].

5) ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾: أصلُ النَّبَأِ الإتيانُ من مكانٍ إلى مكان. والنَّبأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غَلَبةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخَبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتَّى يتضمَّنَ ذلك، وحقُّ الخَبَرِ الَّذي يُقالُ فيه نَبَأٌ أن يتعرَّى عنِ الكذِبِ، كالتَّواتر، وخبرِ اللّه تعالى، وخَبَرِ النَّبيِّ ﷺ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ضرر)، والرّاغب، المفردات: (ضر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (نفع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شفع).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/607.

ولتضمُّنِ النَّبَأِ معنَى الخبرِ يُقالُ: أَنْبأتُه بكذا، كقولِكَ: أخبرتُه بكذا، ولِتّضمُّنِه معنَى العلمِ قيل: أَنْبأتُه كذا، كقولك: أعلمتُه كذا، قالَ اللّه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النَّبأ: 1 - 2][1]. وقولُه تعالى هنا: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: أَتُخبرونَ اللّه بكونِهم شفعاءَ عندَه هذا الخبرَ العظيمَ الَّذي لا يعلمُه، وأنتم تعلمونه[2]؟

6) ﴿يُشْرِكُونَ﴾: الشِّرْكَةُ والمُشارَكَةُ: خلطُ المِلْكَيْنِ، وقيل: هو أنْ يوجَدَ شيءٌ لاثنَينِ فصاعدًا، عَيْنًا كانَ ذلكَ الشَّيءُ أو معنًى، كمشاركةِ الإنسانِ والفَرَسِ في الحيوانيَّةِ. يُقال: شَرِكْتُهُ، وشارَكْتُهُ، وتَشارَكوا، واشْتَرَكوا، وأَشْرَكتُهُ في كذا، قالَ تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢﴾ [طه: 32]. وجمعُ الشَّريك: شُركاء، قالَ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ [الإسراء: 111]، والشِّركُ في الدِّين ضَرْبان: أحدُهما: الشِّركُ العظيمُ، وهو إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أَعظمُ كُفْرٍ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النِّساء: 116]. وهنا في الآية: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٨﴾؛ أي: في اتِّخاذِ الأصنامِ شفعاءَ لهم عندَ اللّه. والثَّاني: الشِّركُ الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ اللّه معه في بعضِ الأمورِ، وهو الرِّياءُ والنِّفاقُ المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾ [الأعراف: 190][3].

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الإنـكـارُ على عبادةِ المشركينَ للأصنامِ، وأنّهم لا شفاعةَ لهم عنـدَ الـخـالـقِ العلّامِ

يُنكرُ اللّه تعالى على المشركينَ الَّذين عَبَدوا مع اللّه غيرَه، ظانِّينَ أنَّ تلكَ الآلهةَ تَنفعُهم شفاعتُها عندَ اللّه، فأخبرَ تعالى أنَّها لا تَضرُّ ولا تَنْفَعُ، ولا تملِكُ شيئًا، ولا يقعُ شيءٌ ممّا يزعُمونَ فيها، ولا يكونُ هذا أبدًا، ولهذا نَعَى عليهم فقالَ: أَتُخبِّرونَ اللّه بما لا يكونُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نبأ).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/608.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرك).

السَّماواتِ ولا في الأرضِ؟! فنزَّه نفسَهُ الكريمةَ تعالى عن شركِهم وكُفرِهم وتَماديهم في الضَّلالة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الواوِ بين الاستئنافِ والعطفِ والحالِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

بيانُ جناياتِ المشركين في عبادتِهم لغير ربِّ العالمين

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ استئنافيَّةٌ، وجملتُها مُستأنَفةٌ لحكايةِ جنايةٍ أُخرى من جناياتِهم السّابقةِ من طلبِهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾، وافترائِهم على اللّه كذبًا والتَّكذيبِ بآياتِه، بيانًا لشدَّةِ تعنُّتِهم وكُفرِهم حتَّى أنَّهم يعبُدونَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، فأعقبَ تلك الجناياتِ جنايةً أخرى تشنيعًا عليهم.

ويحتملُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً لقوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ على الجملةِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾، وهي عطفُ قِصَّةٍ على قِصَّة، فهذه قِصَّةٌ أُخرى من قَصصِ كُفرِهم أنْ قالوا: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ﴾ حين تُتْلَى عليهم آياتُ القرآن، ومن كُفرِهم أنَّهم يعبدونَ الأصنامَ، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، أو يكون العطفُ على جملة: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ فإنَّ عبادتَهم ما لا يضُرُّهم ولا ينفَعُهم من الافتراء[2]، ويحتملُ في الواو وجهٌ ثالثٌ بأن تكون حاليّةً من قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾؛ أي: قالوا ذلك حالَ كونِهم عابدينَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم[3]، وكلُّ هذه الوجوهِ مُحتملَةٌ تؤدّي دورَها في البيانِ المعجزِ، كما جرَت عادةُ القرآنِ في التّوسّعِ في التّعبيرِ.

سرُّ تصديرِ الآيةِ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

استمرارُ المشركينَ في ضلالتِهم القائمة؛ لتكريس ممارساتِهم الآثمةِ

آثَرَ النَّظمُ الجليلُ التّعبيرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى:

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/124 - 125، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/220.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/90، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.

﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ للدّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ استحضارًا للحالةِ العجيبةِ من استمرارِهم على عبادتِها؛ أي: عَبَدوا الأصنامَ ويعبُدونَها، تعجيبًا من تَصميمِهم على ضلالِهم، ومن قولِهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فاعْترَفوا بأنَّ المتَصرِّفَ هو اللّه(1).

استعمالُ الضَّميرِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

معرفةُ عَودِ الضَّميرِ منَ السِّياقِ، وأصحابُه أقلُّ شأنًا من أن يُذكَروا

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ ذكرَ الضَّميرَ العائدَ على المشركينَ دونَ الاسمِ الظّاهرِ لدلالةِ السِّياقِ عليه ممّا تقدَّمَ، ولازدرائِهم وعدمِ الاهتمامِ بهم، فهم أقلُّ شأنًا من أن يُذكَروا باسمِهمُ الظّاهرِ؛ وذلك لأنّهم بعبادتِهم لغيرِ اللّه قد خرجوا عن فطرةِ اللّه الّتي فطرَ النّاسَ عليها، وغرقوا في حمأةِ الشّركِ، وعبدوا مَن لا يملكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا، وقد أغفلَهم السّياقُ اسمًا ظاهرًا، وألمَحَ لهم بالضّميرِ المتّصلِ؛ ازدراءً لأفعالِهم المشينةِ، وعبادتِهم الذّميمةِ، وذلك مَلمَحٌ منَ البيانِ المُبين، الّذي يجلّي المعنى في استعمالِ الضّميرِ عوضَ الاسمِ الظّاهرِ.

علّةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن دُونِ﴾:

تقديمُ شِبهِ الجملةِ لأهمّيَّةِ المقدَّمِ، ودورِه في السّياقِ

في قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على الفعلِ ومفعولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾؛ تنبيهًا على أنّ ما كانَ من دونِ اللّه، بعدمِ مالكيَّتِه للضُّرِّ والنَّفعِ والتَّأثيرِ بضُرٍّ أو نفعٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ الحقَّ هو عبادةُ اللّه وحدَه؛ لأنَّه هو الَّذي يضرُّ وينفعُ، واعتقادُ الضُّرِّ والنَّفعِ في غيرِه كفرٌ باللّه تعالى، وهذا ما كانَ عليه المشركون، فأرادَ بيانُ اللّه أنْ يلفتَ انتباهَهم إلى ضرورةِ عبادةِ اللّه وحدَه، ونَبْذِ عبادةِ الآلهةِ المزيَّفةِ الّتي لا تملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ لِنفسِها فضلًا عن أن تملكَهُ لهم(2)، فتقديمُ شبهِ الجملةِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.

(2) فضل عبّاس، أساليب البيان، ص: 101 - 107.

المتضمّنةِ لفظَ الجلالة أبلغُ في بيان الاهتمام باستحقاق العبادةِ قبلَ الاهتمام بتحقيق النّفعِ والضّرِّ؛ حيث إنّ كونَ العبادةِ حاصلةً من دون اللّه فهو أشدُّ خطرًا من كونه نافعًا أو ضارًّا، فالأصلُ هو تجريدُ العبادةِ للّه تعالى حتّى في حالةِ تحقُّقِ الضّرِّ والنّفعِ من غيرِه على سبيلِ الافتراضِ.

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ باسم الجلالةِ: ﴿ٱللَّهِ﴾:

جلالُ الله تعالى يثيرُ التّعجُّبَ أن يُشرَكَ به

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بلفظِ الجلالةِ، وكان السّياقُ يحتملُ الإضمارَ؛ فقد سبقَ ذكرُهُ ﷻ حيث قال: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فلم يقُل: (ويعبدون من دونه)؛ إظهارًا لقبحِ عبادتِهم، فإنّ اسمَ الجلالةِ حيثما عُبِّرَ به كان لغرض تعظيمِ مضمونِ السّياقِ بوجهٍ ما.

سرُّ استعمالِ الاسمِ الموصول: ﴿مَا﴾:

التّنبيهُ على أنّ مَن عَبَدَ غيرَ الله فهو مُشرِكٌ خاطِئٌ

استعملَ النّظمُ الكريمُ اسمَ الموصولِ ﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ صفةَ هذه الأصنامِ - باعتبارِها جَمادًا - أنّها لا تقدرُ على ضرٍّ ولا نَفْعٍ، فإنْ عبَدوها لم تنفعْهم، وإنْ تركوا عبادتَها لم تضرَّهم، ومن حقِّ المعبودِ أن يكونَ مُثيبًا على الطّاعة، مُعاقِبًا على المعصية، وفي هذا تنبيهٌ وتأكيدٌ على أنَّ مَنْ عبدَها فهو خاطِئٌ في عبادةِ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ[1].

نكتةُ إفرادِ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾، وجمعِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾:

(ما) الموصولة عائدةٌ إلى الأصنام، وبيانُ دلالتِها في السّياق

﴿مَا﴾ الموصولة في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ راجعةٌ إلى الأصنامِ؛ ولذلكَ فإنَّ البيانَ الإلهيَّ راعَى لفظَها، فأفردَ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، وراعَى معناها في قولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ فجمعَ[2]، وهم في عبادتِهم لغيرِ اللّه يعبدون ما لا نفعَ له يُرتجَى، ولا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/220.

ضررَ منه يُخشَى؛ أي: ما ليس من شأنِه الضّرُّ والنّفعُ منَ الأصنام الّتي هي جمادات، وتبريرُ عبادة الأصنام الآلهةِ أنّهم شفعاءُ عند اللّه، "قيل إنّهم كانوا يعتقدون أنّ المُتولّي لكلّ إقليم روحٌ معينٌ من أرواح الأفلاكِ، فعيّنوا لذلك الرّوحِ صنمًا مُعَيَّنًا منَ الأصنام، واشتغلوا بعبادتِه، ومقصودُهم ذلك الرّوحُ، ثمّ اعتقدوا أنّ ذلك الرّوحَ يكونُ عندَ الإلهِ الأعظمِ مُشتَغلاً بعبوديَّتِه"(1).

فائدةُ صلةِ الموصولِ في: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾:

تحقيرُ رأي المشركين من رجاءِ شفاعةِ الأصنامِ يومَ الدّينِ

آثَر النّظمُ الكريمُ ذكرَ اسم الموصولِ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾، لِما تُؤذِنُ به صلةُ الموصولِ منَ التّنبيهِ على أنَّهم مُخطِئونَ في عبادةِ مالا يضُرُّ ولا ينفعُ، وفيه تمهيدٌ لطيفٌ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾؛ لتحقيرِ رأيهم من رجاءِ الشّفاعةِ من تلكَ الأصنام، فإنَّها لا تقدرُ على ضَرٍّ ولا نَفعٍ في الدُّنيا فهي أضعفُ مَقدِرَةً في الآخرة(2). وقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾قد يكونُ في إصلاحِ معاشِهم في الدُّنيا لأنَّهم لا يقرّون بالبعث(3).

نكتةُ تقديمِ نفيِ الضُّرِّ على نفيِ النّفعِ:

الأصنامُ المعبودةُ لا قدرةَ لها على جلبِ نفعٍ، ولا دفعِ ضررٍ

قدّمَ النّظمُ الجليلُ ذكرَ الضُّرِّ على النّفعِ في قولِه: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾؛ ذلك أنّ هذه الأصنامَ المعبودةَ لا قدرةَ لها على جلب نفعٍ فيُرتجَى نفعُه، ولا دفعِ ضررٍ فتُخشَى غوائلُه، ويُخافُ بطشُه، ولَمّا كانَ السِّياقُ للتَّهديدِ والتَّخويف، قدَّمَ الضُّرَّ، وفيه تنبيهٌ لهم على أنَّهم مغمورونَ في نِعَمِه الَّتي لا قدرةَ لغيرِه على منعِ شيءٍ منها، فعليهم أن يُقيِّدوها بالشُّكرِ، فقال: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾ أصلًا منَ الأصنامِ وغيرِها(4).

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/132.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 492.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/91.

وقد كان سَدَنتُها يُخوِّفونَ عَبَدَتَها، بأنَّها تُلحِقُ بهم وبصبيانِهمُ الضُّرَّ، فأُريدَ الابتداءُ بِنَفي الضُّرِّ لإزالةِ أوهامِ المشركينَ في ذلكَ الصّادَّةِ لكثيرٍ منهم عن نَبْذِ عبادةِ الأصنامِ[1]، ويمكنُ أن يكونَ هذا التَّقديمُ لنَفي الضَّررِ؛ لأنَّ أحكامَ العبادةِ دفعُ الضَّرَرِ الَّذي هو أوَّلُ المنافعِ، والعبادةُ أمرٌ حادثٌ مسبوقٌ بالعدَمِ الَّذي هو مَظِنَّةُ الضَّرَرِ، فحيثُ لم تقْدِرِ الأصنامُ على الضَّرَرِ لم يوجَدْ لإحداثِ العبادةِ سَبَبٌ[2].

دَلالةُ اتِّصالِ ضمائرِ الجمعِ بالأفعالِ: ﴿يَضُرُّهُمْ﴾، ﴿يَنفَعُهُمْ﴾:

المخلوقاتُ من غيرِ الله لا تأثيرَ لها بضُرٍّ يقرعُ أو نفعٍ يطرأُ

جاءتِ الضَّمائرُ المتَّصلةُ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ للتَّحذيرِ من هَوْلِ ما يتَّخِذُه النّاسُ منِ اختراعاتٍ في حياتِهم، يَعتقدونَ فيها الضُّرَّ والنَّفعَ، مجرَّدةً عن قدرةِ اللهِ فيها وقَدَرِهِ في إيقاعِ الضُّرِّ والنَّفعِ بأمرِه ﷻ، بأنَّ لها تأثيرًا ذاتيًّا قويًّا في دفعِ الضُّرِّ وجَلْبِ النَّفعِ، وهذا ما كانَ عليه المشركون، حيث صنَعوا أصنامًا عبَدوها من دونِ اللهِ، وأَضفَوا عليها صفةَ القداسةِ والإلهيَّةِ والتَّأثيرِ على النّاس، حتَّى أنّ سَدَنتَها كانوا يُخوِّفونَ عَبَدَتَها بأنَّها تُلحِقُ بهم وبصبيانِهم الضُّرَّ، كما قالتِ امرأةُ طُفيلِ بن عَمرٍو الدّوسِيِّ حين أخبرَها أنَّه أسلمَ ودَعاها إلى أن تُسلِمَ فقالَت: "أما تَخشى على الصِّبيَةِ من ذي الشَّرَى"، وهو صنمٌ كان يعبُده بنو دَوْس، كانَ بين مكَّةَ والطّائفِ، وما هذه الأصنامُ إلّا مجرَّدُ جماداتٍ غيرِ عاقلةٍ من صناعةِ البشرِ، ولكنَّهم لَمّا اعتقدوا فيها التَّأثيرَ بدفعِ الضُّرِّ وجَلْبِ النَّفعِ، وهي لا تملِكُ لنفسِها ولا لغيرِها ضَرًّا ولا نَفعًا، وقعوا في الشِّركِ الجليِّ والكفرِ الظّاهرِ باللهِ ﷻ، وظلموا أنفُسَهم فخَسِروا الدُّنيا والآخرةَ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.

دَلالةُ (لا) النّافية:

عبادةُ مَن نُفيَ عنه النّفعُ والضّرُّ دليلٌ على سفاهةِ مَن يعبدُه

وردَ في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ بإعادةِ حرف (لا) مع العطفِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾؛ وذلكَ لتأكيدِ النّفي السّابقِ في ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ﴾، فهم إنْ عَبَدوها لم تنفعْهم كما أنَّهم إنْ تركوا عبادتَها لم تضرَّهم، فَمَن لا يملِكُ دفعَ الضُّرِّ لا يملِكُ جَلْبَ النَّفعِ، ولكن هو التَّأكيدُ كذلكَ في إيغالِهم في البُعدِ عنِ الحقِّ، وسفاهةِ عقولِهم وعَدَمِ إدراكِها[1].

نكتةُ نَفيِ صفتَيِ النَّفعِ والضُّرِّ على المعبودينَ من دونِ الله:

مَن لا يملكُ النّفعَ والضُّرَّ على وجه الحقيقةِ لا يستحقُّ أن يُعبَدَ

في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ بيانٌ أنَّ عبادتَهم للأصنامِ من دونِ اللّه عبادةٌ لِمن لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، وهو منَ الافتراءِ الَّذي تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، وإذا كانَ ذلك كذلكَ، فإنَّ بيانَ اللّه تعالى أرادَ أنْ ينبِّهَهم على أنَّهم مُخطئونَ في عبادةِ ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، وفيه كذلك ازْدراءٌ بعبادةِ مَن لا يملكُ الضُّرَّ والنَّفعَ، حيث إنَّ الضُّرَّ والنَّفعَ قادحٌ في العبادةِ أصلًا[2]، وهذه الأوثانُ جمادٌ تتّصفُ بأنّها لا تقدرُ على نفعٍ ولا ضُرٍّ، فإن عَبدوها لم تنفعْهم، وإنْ تركوا عبادتَها لم تضرَّهم، ومن حقِّ المعبودِ أنْ يكونَ مُثيبًا على الطّاعةِ مُعاقِبًا على المعصيةِ، وهذه من خصائصِ المعبودِ بحقٍّ أن يكونَ مُثيبًا ومُعاقِبًا، ويقابلُها ما هو من خصائصِ العابدِ، وهو أن يكونَ مُثابًا أو مُعاقَبًا[3].

دَلالةُ ﴿مِن﴾:

كانَ المشركونَ بلا عقولٍ في عبادتهم الأصنامَ من دون الله

في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دلَّتْ ﴿مِن﴾ البيانيَّةُ على أنَّهم كانوا يَعبدونَ الأصنامَ، ولا يعبُدونَ اللّه، حيث إنَّ قولَه: ﴿مِن دُونِ﴾

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230.

مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾[1] مِنْ دونِ اللّه؛ أي: غيره، وَيَقولونَ عن هؤُلاءِ الأوثان شُفَعاؤُنا تشفعُ لنا فيما يهمُّنا من أمور الدّنيا وفي - إن يكن بعثٌ - ولكنّها بحكم عبادتِها من دون اللّه، فعبادتُها طارئةٌ مُحدثةٌ، وعبادةُ اللّه قديمةٌ أصيلةٌ، يؤيّدها الإيمانُ، وتسندُها الفطرةُ، وتنسجمُ مع مقتضياتِ التّوحيدِ، ومتطلّباتِ الدّينِ الحقِّ الّذي يُعبَدُ به اللّه، ولا تُعبَدُ به الأصنامُ من دون اللّه.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿دُونِ﴾:

جعلُ عبادةِ الله قرينًا لعبادةِ من دونه من الضّلالِ المبينِ

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾، ومَحَلُّهُ النَّصبُ على الحاليَّةِ من فاعِله؛ أي: مُتجاوزينَ اللّه ﷻ، لا بمعنَى تركِ عبادتِه بالكُلِّيَّة؛ بل بمعنَى عدم الاكتفاءِ بها، وجعلها قَرِينًا لعبادةِ الأصنامِ، كما يُفصِحُ عنه النَّظمُ الكريمُ[2].

دَلالةُ العطفِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

مَنْ عَبَدَ ما لا يضرُّه ولا ينفعُه خسرَ الدّنيا والآخرة

دلَّ عطفُ جملةِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ على جملةِ ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ على أنَّ قولَهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ من لوازمِ ومقتضياتِ عبادتِهم لغير اللّه، وكما أنّهم يعبُدونَ من دونِ اللّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، فهم كذلكَ يقولونَ عن تلكَ الأصنامِ أنَّهم شفعاءُ لهم عندَ اللّه، وفي هذا وذاكَ تحقيرٌ لهم ولعبادتِهم لتلكَ الآلهةِ المزيَّفةِ الَّتي لا تضرُّ ولا تنفعُ، وتحقيرُ رأيِهم من رجاءِ الشَّفاعةِ من تلكَ الأصنامِ، فإنَّها لَمّا لا تَقدرُ على ضُرٍّ ولا نَفعٍ في الدُّنيا لعابِديها فهي عن شفاعتِها لهم لَأَضعَفُ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/645.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.

دلالةُ استعمالِ الأفعالِ المضارعةِ:

المشركون لا يفتأون مُستمرِّينَ في ضلالِهم وأوهامِهم

وُرودُ الأفعالِ المضارعةِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ﴾ في سياقِ النَّصِّ القرآنيِّ، وفي حديثِه عنِ المشركين الَّذين ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، دليلٌ جَليٌّ على استمرارِهم على عبادةِ تلكَ الأصنامِ الَّتي هي مستمرَّةٌ كذلكَ في عدمِ قُدرتِها على ضُرِّهم ونفعِهم، وهم مستمرّون في قولِهم أنَّها تشفعُ لهم عند اللّه، وفي هذه الاستمراريَّةِ لتلكَ المشائنِ تعجيبٌ وأيُّ تعجيبٍ، من تَصميمِهم على ضلالِهم في عبادةِ الأصنامِ، وانجرافِهم وراءَ أوهامِ شفاعتِها لهم، فهم مُستمرّون في تخبُّطِهم في كفرِهم وعنادِهم، غارقونَ في مستنقعِ التِّيهِ والضَّلالِ، تقودُهم أحلامُهم إلى سرابٍ بقيعةٍ لا وجودَ فيها لشيءٍ ممّا يتوهَّمون[1].

سرُّ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للمعبوداتِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

تبكيتُ المشركين بأنَّ معبوداتِهم لا قيمةَ لها ولا شَفاعة

اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منَ المعارف، وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ تعريفٌ منهم بشفائِعهم واستنصارٌ بهم، لكنَّهم لّما عرَّفوا بشفائِعهم عرَّفوا بغير مُعرَّفٍ، فكانَ ذلك تبكيتًا لهم، وردًّا عليهم في دَعواهم أنَّها تشفعُ لهم عندَ اللّه، إذْ كيف يدَّعون شفعاءَ لا تضرُّ ولا تنفعُ، وبالتّالي فإنَّ تعريفَهم بشفعائِهم لا اعتبارَ له ولا قيمةَ[2].

سرُّ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على القريبِ في: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

لا يأمنُ الكافرون إلّا بآلهةٍ ظاهرةٍ لمرآهُم

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على القربِ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾؛ وذلك للدّلالةِ على أنَّهم يشاهدونَهم بأعينِهم، إشارةً إلى أنَّهم لا يؤمنونَ إلّا بما يشاهدون.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/27.

دلالةُ الإضافةِ: ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا﴾:

اختصَّ شفعاؤُهم بهم ظنًّا منهم بحظوتهم

عبّر النّظمُ الكريمُ حكايةً عنهم بإضافة الشّفعاءِ إلى ضمير المُتكلِّمين في قوله جلّ ذكرُه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾؛ للدّلالة على أنّهم شفعاؤُهم الّذين يختصون بهم، لا يشفعونَ لغيرهم، وإنّما ذكرَ ذلك من جملةِ أقوالِهم الّتي قالوها؛ لأنّه منَ الأقوالِ الآثمةِ الّتي استوجبوا بها أن يكونوا منَ الظّالمين.

دلالةُ التّقييدِ بالعنديّةِ: ﴿عِندَ﴾:

لا تزكية أعلى منَ الانتسابِ إلى الله تعالى

قيّدَ النّظمُ الجليلُ فيما حكاه من قولهم تقييدَ الشّفعاءِ بكونهم شفعاءَ كائنين عند اللّه تعالى، فقال جلّ شأنه: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، وأرادوا بذلك تزكيةَ الشّفعاءِ، رادّين بذلك بحسب ظنّهم على النّبيّ ﷺ أنّ اللّه الّذي أرسلَكَ يا محمد؛ هؤلاء شفعاؤنا عنده، فلا بأسَ علينا، وهذا إقرارٌ منهم بأنّ شفعاءَهُم الّذين يعبدونَهم يرجعونَ إلى اللّه تعالى، وهذا يبيّنُ مدى ضلالِهم؛ إذ ينسبون إلى اللّه تعالى ما ينقضُه بوحيه إلى أنبيائه.

دلالةُ فصلِ الجملةِ في: ﴿قُلۡ﴾:

الاستشفاعُ بمَن لا قدرةَ له على الشّفاعة طلبٌ من غير مُطيقٍ

لَما حكى اللّه تعالى عنِ المشركينَ قولَهم عنِ الأصنام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ تقريرًا منهم لهم واعتمادًا على شفاعتِهم، ردَّ عليهم بقولِه: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾، إذ كيف تتَّخذونَ شفعاءَ لكم لا وجودَ لهم أصلًا كآلهة، فهذا تناقضٌ عجيبٌ ومُحالٌ غيرُ صحيحٍ ولا سَديدٍ(1).

دَلالةُ أسلوبِ الاستفهامِ في: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

الاستفهامُ تقريعٌ للمشركينَ الّذين يدَّعونَ المُحالَ

دلَّ الاستفهامُ في قولِه: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ بما يدَّعونَه منَ المُحالِ في اتِّخاذِ شفعاءَ لهم من دونِ اللّه، لا يعلمُهم اللّه،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

الَّذي لا يكاد يدخلُ تحتَ الصِّحةِ والإمكانِ[1]، والمعنى: "أتخبرون بما لا يَعْلَمُ، وهو أنّ له شريكًا، إذ لو كان له شريكٌ لَعَلِمهُ، إذ لا يخفى عليه شيءٌ سُبْحانَهُ، تنزيهًا له عَمّا يُشْرِكونَ عن إشراكِهم"[2].

غرضُ اجتماعِ ﴿قُلۡ﴾ وهمزةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

أمرَ اللّه سبحانه وتعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم أن يَردَّ عليهم بتهكُّمٍ بقولِه: ﴿قُلۡ﴾ يا محمَّدُ بأنَّهم قد أَخبروا اللّه بأنَّ لهم شفعاءَ لهم عندَه، ومعنَى ذلك: أنَّ هذا لّما كان شيئًا اخترعوه، وهو غيرُ واقعٍ جعلَ اختراعَه بمنزلةِ أنَّهم أَعلموا اللّه به، وكان لا يعلمُه، فصارَ ذلكَ كنايةً عن بُطلانِه؛ لأنَّ ما لم يعلمِ اللّه وقوعَه فهو مُنْتَفٍ، فاللّه تعالى هو العالمُ المحيطُ بجميعِ المعلوماتِ؛ لأنَّ الشَّيءَ ما يُعلَمُ به ويُخبرُ عنه، فكانَ خبرًا ليس له مُخبِرٌ عنه، فقولُه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ تهكُّمٌ بهم وبما ادَّعوهُ من المُحالِ الَّذي هو شفاعةُ الأصنامِ[3].

بُطلانُ ما لم يعلمِ اللهُ وقوعَه؛ لانتفائِه عقيدةً وشرعًا

دلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارعِ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارعِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ الدّالّ على التّجدّدِ والدّوامِ؛ للدّلالة على أنْ بيّن أنّ سيرتَهم وشأنَ دينِهم هو التّقوّلُ على اللّه بتلك الأقوالِ العظيمة، تنويهًا على جرأتِهم في الافتراء، ودأبِهم على ذلك، فهم لا ينقطعونَ عن ذلك.

سيرتُهم وديدنُهم التّقوّلُ على الله تعالى ما لا علمَ لهم به

بلاغةُ الإظهارِ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾:

آثرَ النّظمُ الكريمُ تكرارَ لفظِ الجلالةِ بالإظهار مَوضعِ الإضمارِ حيث قالَ جلّ شأنُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾، ولم يقُل: (عند

أشنعُ الافتراءِ أن يتعالى الكاذبُ ليخبرَ اللهَ شيئًا، وهو العليمُ بكلِّ شيءٍ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/27، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/132.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف، ص: 230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

اللّه، قل أتنبّئونه)؛ وذلك تنويهًا بشناعةِ ما اقترفوه، فهم لم يُنبِئوا من يُتصوَّرُ في حقِّه أنّه يحتاج إلى الإنباءِ، بل إنّهم يتعالون بغرورِهِم لإنباءِ اللّه تعالى عن كيفيّةِ العبادةِ، وهذا بلغَ منَ الشّناعةِ أعلاها، فكانَ التّعبيرُ بلفظ الجلالة تهويلًا لِما قاموا به.

دلالةُ النّفي: ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾:

ما لم يعلمِ اللّه وقوعَه فهو مُنتَفٍ عقلًا وواقعًا

دلَّ النّفيُ في النّظمِ الكريمِ في قوله جلّ شأنُه: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ نفيَ وجودِ ما لا يعلمُهُ اللّه تعالى، وبيانَ أنَّه لا وجودَ له البتَّة، وذلك لأنَّه لو كان مَوجودًا لكانَ معلومًا للّه، وحيثُ لم يكنْ مَعلومًا للّه تعالى وجَبَ أنْ لا يكونَ مَوجودًا، وهكذا أمرُ أولئك الشُّفعاءِ الَّذين اخترعوا وجودَهم، وجعلوا وجودَهم بمنزلةِ أنَّهم أعلموا اللّه به، وكانَ لا يعلَمُهُ، فصارَ ذلكَ كنايةً عن بُطلانِه وعدم وجودِه؛ لأنَّ ما لم يَعلَمِ اللّه وُقوعَهُ فهو مُنتَفٍ، وبالتّالي فإنَّ أولئكَ الشُّفعاءَ المزعومين لا وجودَ لهم أَصلًا(1).

دلالةُ تعليقِ الفعلِ بحرف الجرِّ: ﴿يَعۡلَمُ فِي﴾:

بيانُ كونِ اللّه تعالى عالِمًا بالجزئيّات أشنعُ في بيانِ جهلِ الكافرين بسعةِ علمِه

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جاء الفعلُ ﴿يَعۡلَمُ﴾ مُتعلِّقًا بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾؛ للدّلالة على العلم بالجزئيّات، وهذا أبلغُ في بيان العلم.

علّةُ تكريرِ النّافي (لا) في: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

تكريرُ النّافي لتأكيدِ النَّفي، والاستخفافِ بعقولِ المشركين

لَمّا كانَ الحالُ مقتضيًا لغايةِ الإيضاحِ - كما تقدَّم آنفًا - كرَّرَ النّظمُ الكريمُ حرفَ النّفي تصريحًا فقالَ: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، وذلكَ لأمرين: أحدُهما: زيادةُ التّنصيصِ على النّفي، والتّأكيدُ له. والثّاني: الاستخفافُ بعقولِ المشركينَ ممّا لا يقدِرونَ على الطَّعنِ فيه بوجهِ ما يُخجِلُ الجَمادَ، فإنَّ ما لا يكونُ مَعلومًا للّه لا يكونُ له

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/227، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

وجودٌ أصلًا، فلا نَفْيَ أَبْلَغُ من هذا، كما أنَّك إذا بالغْتَ في نَفْيِ شيءٍ عن نفسِكَ تقولُ: هذا شيءٌ ما عَلِمَه اللّه منِّي[1].

دَلالةُ ذكرِ (السَّماواتِ والأرضِ) في الآيةِ الكريمةِ:

غرضُ تعميمِ الأمكنةِ إيضاحٌ بعلمِ الله بكلِّ شيءٍ

المقصودُ من ذكرِ السَّماواتِ والأرضِ في قولِه ﷻ: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تعميمُ الأمكنةِ، كما هو استعمالُ الجمعِ بين المتقابلاتِ، مثلَ المشرقِ والمغربِ، وهذا غايةُ الإيضاحِ في أنَّ اللّه تعالى لا يفوتُه علمُ شيءٍ في أيِّ مكانٍ كان، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ[2].

بلاغةُ الفصلِ في: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

ينزِّهُ الله تعالى عن سوءِ ظنِّهم وجهالةِ معتقدِهم

الجملةُ في قوله جلّ شأنُه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ مُستأنَفةٌ؛ لأنّها جاءَت لغرضِ إنشاءِ تنزيهٍ للّه ﷻ، فهي مُنقطعةٌ عنِ الَّتي قبلَها في التّركيب والمعنى، فلذلك فُصِلَت[3]، كما أنّ فيه تنبيهًا على شناعةِ ما دلَّ عليه الكلامُ السّابقُ، وأنّه ممّا لا يليقُ ذكرُهُ إلّا على سبيلِ الاحتجاجِ والإنكارِ.

علَّةُ حذفِ فعلِ المفعولِ المطلَقِ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

تأكيدُ تنزيهِ الله ﷻ عن أنْ يخفَى عن علمهِ شيءٌ

جاءَتْ جملةُ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ إنشاءَ تنزيهٍ للّه ﷻ، فهي مُنقطعةٌ عنِ الَّتي قبلَها، فلذلك فُصِلَت، وحُذِفَ عاملُ المفعولِ المطلَقِ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، وهو الفعلُ (أُسبِّحُ) فجاءَ المصدرُ وهو المفعولُ المطلَقُ (سُبحانَ) بدلًا عنه، حيث لا يجوزُ الجمعُ بين البَدَلِ والمبدَلِ عنه. وقد جاءَ هنا قبلَه ما يدلُّ عليه منَ الاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ بقولِه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقد وقعَ بعدَ جملةٍ لا تحتملُ غيرَه، فكانَ مؤكِّدًا لنَفسِه، ومُؤكِّدًا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

لمفهوم الإنكارِ لمضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَه، فجاءَ السِّياقُ في غايةِ التَّأكيدِ لتنزيهِ اللّه عمّا لا يليقُ به ﷻ من أنْ يَنِدَّ عن علمِه شيءٌ في السَّماواتِ والأرضِ[1].

دلالةُ العطفِ في ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾:

تأكيدُ تنزُّهِ الله تعالى عن سوءِ ظنونِهم، فهو المتعالي رفيعُ الدّرجاتِ

عطفَ الوصفَ بالارتفاعِ الّذي أرادَ به التّعالي عن كلِّ نقصانٍ، والشّركُ لا يليقُ باللّه تعالى لكونه الخالقَ لهذا الكون، فهو رفيعُ الدّرجاتِ تعالى أن يوصَفَ بأنّ له شريكًا، وكان هذا المعنى مُقاربًا لمدلولِ التّسبيحِ (سبحان) الدّالّ على التّنزيهِ، فيكون العطفُ للتّأكيدِ بجمعِ الألفاظِ الّتي تفيدُ تنزيهَ اللّه تعالى عن ما يجوزُ أن يلحقَهُ من أوصافٍ.

دلالةُ (ما) بين الموصوليّة والمصدريّة في: ﴿عَمَّا﴾:

السّياقُ يشيرُ إلى تنزيهِ الله تعالى عمّا لا يليقُ به وبعلمِه

قولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يصحُّ في (ما) في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أن تكونَ مصدريَّةً؛ أي: عن إشراكِهِمُ المُستلزِمِ لتلكَ المقالةِ الباطلة؛ أي: تعالى اللّهُ وتنزَّهَ عن أن يكونَ ذلكَ ثابتًا له، أو أن تكونَ موصولةً؛ أي: عن شركائِهم الَّذين يعتقدونَ أنَّ لهم شُفعاءَ عندَ اللّه تعالى يشفعونَ لهم عندَه[2].

توجيهُ قراءةِ حمزةَ والكِسائيِّ وخَلَف بالتّاءِ: (تُشْرِكونَ):

قراءةُ التّاءِ تتمَّةٌ للقولِ المأمورِ به في سياقِ الآيةِ الكريمةِ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ قراءةُ (تُشركونَ) بالتّاءِ[3]، وهي قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ وخَلَف، على أنَّه من جملةِ المقولِ المأمورِ به، وهي تتمَّةٌ للخطابِ الَّذي قبلَها، وهي مُستحقَّةٌ للفَصْلِ لكمالِ الانقطاعِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126، وابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك: 1/570.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

(3) هي قراءةُ حمزةَ والكِسّائيِّ وخلف، وقرأ الباقون منَ العشرة بالياءِ (يُشركون). يُنظر: الهمذانيّ، غاية الاختصار في قراءة العشرة أئمة الأمصار: 2/514، وابن الجزريّ، النَّشر: 2/282.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم:/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/126.

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعل المضارعِ في: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

استمرارُ المشركين على شِركِهم ضلالةٌ عنِ الصّراطِ

وردَ الفعلُ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ بصيغةِ المضارع، ولم يأتِ: عمّا أشركوا؛ للدَّلالةِ على استمرارِ حالِهم، كما جاءَ يعبُدون، وإنَّهم على الشِّركِ في المستقبل، كما كانوا عليه في الماضي[1]، ويخلعُ مجيؤُه مع التّسبيحِ والتّنزيهِ على دوام ذلك التّنزيهِ لجلاله تعالى في كلِّ وقتٍ ظهرَ منهم الإشراكُ وسوءُ الاعتقاد.

بلاغةُ أسلوبِ التَّذييلِ في الآية:

المبالغةُ في تنزيهِ الله تعالى عن كلِّ نقصٍ وافتراءٍ

الجملةُ في قولِه جلّ شأنُه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ؛ تنزيهًا له ﷻ عن إشراكهم المُستلزمِ لمقالتِهمُ الباطلة: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فلمّا بيَّن تعالى ما هُم عليه من سخافةِ العقولِ وركاكةِ الآراءِ، ختمَ ذلكَ بتنزيهِ نَفسه بقولِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾؛ أي: تنزَّه عن كلِّ شائبةِ نَقْصٍ، تنزُّهًا لا يُحاطُ به. ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ أي: وفعلَ بما له منَ الإحاطةِ بأوصافِ الكمالِ فِعْلَ المبالغِ في التّنزُّهِ.﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، أي: يوجِدونَ الإشراكَ به[2].

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آيات سور: يونس، والأنبياء، والفرقان:

تقديمُ ما يضرُّ وما ينفعُ أو تأخيرُه مرتبطٌ بالسّياقِ في السّورِ الثّلاث

بين قولِه تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾ [الأنبياء: 66]، وقولِه سبحانه: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ [الفرقان: 55]، حيث قدَّم في سورةِ يونس ما أُخِّرَ في سورة الأنبياء والفرقان، فما العلَّةُ في ذلك؟

الجوابُ عنه: أنَّ الموجبَ لتأخيرِ ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ في سورةِ يونس ما وصلَ به من قولِهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فكأنَّه قد قيل: ويعبُدونَ من دونِ الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم، ويزعُمونَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/28.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/92، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

أنَّ ذلك ينفعُهم، لم يكنْ ليناسبَ لو قيل: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾، فلمّا كانَ الاتِّصالُ فيما ذكرَ أنسبَ وردتِ الآيةُ بحسَبِ ذلكَ، فإنَّما قدَّم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى؛ لأنَّ العبادةَ تُقامُ للمعبودِ خوفًا منَ العقابِ أوَّلًا، ثمَّ رجاءً للثّوابِ ثانيًا، وقد تقدَّمَ في المكانِ ما أوجبَ تقديمَ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ في الآيةِ الأولى، وهو قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ [يونس: 15]، فكأنَّه قال: ويعبدونَ من دونِ اللّه مالا يخافونَ ضرَرًا في معصيتِه، ولا يرجونَ نفعًا في طاعتِه، فلهذا حصَل هذا التَّقديم. أمّا آيةُ الفرقانِ فإنَّ قبلَها ذكرَ دلائلَ وشواهدَ من مصنوعاتِه تعالى يهتدي المُعتبِرُ بالنَّظَرِ فيها، تخلِّصُه من وَرطاتِ الشُّكوك، ويستقيمُ له دينُه، وذلكَ أعظمُ النَّفعِ وأجلُّه، قالَ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ إلى قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ٥٤﴾ [الفرقان: 54]، فلمّا تقدَّمَ التَّنبيهُ بهذه الآياتِ الواضحاتِ الموقظاتِ من سِناتِ الغفَلاتِ، والمحصِّلاتِ أعظمَ النَّفعِ في امتثالِ الواجباتِ والنَّجاةِ منَ الضَّلالاتِ، ناسبَها تقديمُ ما قُدِّمَ في الآيةِ من قولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْۗ﴾، وصارَ الكلامُ بقوَّتِه مجاوبًا لقولِه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ [النحل: 17]، وورِدَ كلٌّ على ما يجبُ في هذه السّورِ الثّلاثِ، وَفقَ علمِ اللّه وحكمتِه ﷻ[1].

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الضَّرَر والأَذَى:

الضَّرَرُ ضدُّ النَّفعِ، ويُعبَّرُ بِه عن سوءِ الحالِ، وفيه إيقاعُ الضَّرَرِ بغيرِ الفاعل

الضَّرَرُ والضُّرُّ: ضدُّ النَّفعِ، وهو سوءُ الحال، والضُّرُّ: ابتداءُ الفعل، وهو ما تضرُّ به صاحبَك وتنتفعُ به أنت. والضُّرُّ يكونُ من

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/240، والإسكافيّ، درَّة التَّنزيل: 2/733 - 234.

حيث لا يعلمُ المقصودَ به، يُقال: ضرَرتُ فلانًا من حيث لا يَعلم(1).
والأَذَى: ما يصلُ إلى الإنسانِ منَ الضَّرَرِ إمّا في نَفسِه أو جسمِه أو تَبعاتِه، دُنيويًا كانَ أم أُخرَويًّا، قالَ تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التّوبة: 61]، و ﴿وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ [الأنعام: 34]. يُقالُ: آذَيْتُه أو أَذَيْتُهُ إيذاءً وأَذِيَّةً وأذًى، ومنه الآذيُّ: وهو المَوجُ المؤذي لركّابِ البحرِ(2)، وبهذا يظهرُ أنّ الضّررَ أعمُّ منَ الأذى، فكان التّعبيرُ به في نفي صفةِ الضّرِّ عن آلهتهم أبلغَ في بيان ضعفِها وعجزِها.

الإنباء والإخبار:

الإنـباءُ الخبرُ العظيمُ الَّذي ينتُجُ عنه علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، والأصلُ فيه الصِّدقُ

النَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا بدَّ من اجتماعِ هذه الثّلاثة حتَّى يُطلَقَ على الخبرِ نَبَأ. والنَّبأُ في هذه الحالِ لا بدَّ عن أنْ يتعرَّى عنِ الكذبِ، كالتَّواتُرِ، وخبرِ اللّٰه تعالى، وخبرِ رسولِه ﷺ ، قالَ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢﴾ [النّبأ: 1 - 2](3). والإخبارُ: هو إظهارُ الخبرِ، عُلِمَ به أو لم يُعلم(4)، والإخبارُ عنِ الشَّيءِ يكونُ بالزِّيادةِ في صفتِه والنُّقصانِ منها، ويكونُ الإخبارُ بخلافِ ما هو عليه كَذِبًا، فلمّا كان الإخبارُ عنِ الشّفاعةِ الّتي اتّخذوها ذريعةً للشّرك باللّه تعالى إخبارًا عن عظيمٍ، ناسبَ التّعبيرَ عنه بالإنباء.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 328 - 329، والرّاغب، المفردات: (ضرّ)، والكفويّ، الكلّيّات: 3/147.
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (أذي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ)، والرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 59، والكفويّ، الكلّيّات: 1/84.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩﴾ [يونس: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العـلاقـةُ بين تـنـزيـهِ الـلـه عــن مـفـاسـدِ الشّركِ، ودوافع الاخـتـلافِ بعد الاتّفاقِ

لَمّا بيَّنَ اللّه ﷻ ضلالةَ المشركينَ بعبادةِ غيرِ اللّه، وخَتَمَ بِتَنزيهِه وكمالِه، بيَّن أنَّ هذا الدِّينَ الباطلَ حادِثٌ، وبيَّن نزاهتَهُ وكمالَهُ تعالى ببيانِ أنَّ النّاسَ كانوا أوَّلًا مجتمعينَ على طاعتِه، ثمَّ خالفوا أمرَهُ فلم يقطَعْ إحسانَه إليهم؛ بلِ استمرَّ في إمهالِهم مع تَماديهم في سوءِ أعمالِهم ما سبَقَ في علمِه ومضَى به قضاؤُهُ، ولولا أنَّ اللّه كتبَ في الأزَلِ أنّه المحسنُ إليكَ يا محمَّد ﷺ برحمةِ أمَّتِكَ بإمهالِهم، لعجَّل بإهلاكِهم بأيسرِ أمرٍ وأسرَعِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةً﴾: الأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كانَ ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أوِ اختيارًا، وجمعُها أُمَم، وتأتي كلمةُ الأُمَّة بمعنَى الصِّنفِ الواحدِ في الضَّلالِ والكفر، قالَ تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213]، وتأتي بمعنَى الجماعة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104][2].

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ أي: حُنفاءَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.

(2) ولها معانٍ أخرى بعيدة عن معنى سياق لفظِ الأمّةِ، في الآية المفسّرة هنا، منها: معنَى الدِّين، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزُّخرف: 22]، ومعنَى حينٍ من الزَّمن، كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، ومعنَى الإمام، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النَّحل: 120]. ومعنَى الجماعةِ من النّاس، كما في قولِه تعالى: ﴿۞لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ [آل عمران: 113]. الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/458، والرّاغب، المفردات: (أمّ)، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).

متَّفقينَ على مِلَّةٍ واحدةٍ موحِّدةٍ للّه ﷻ من غيرِ أنْ يختلفوا بينَهم، فصارَ بعضُهم كافرًا، وبقيَ الآخرُ مُؤمنًا يُخالفُ بعضُهم بعضًا[1].

2) ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾، ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾: الاختلافُ والمخالفةُ: أن يأخُذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخرِ في حالِه أو قولِه، والخلافُ أعمُّ منَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّيْن مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّيْن، ولمّا كانَ الاختلافُ بينَ النّاس في القولِ يَقتضي التَّنازُعَ استُعيرَ ذلكَ للمنازَعةِ والمجادَلة، قالَ تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [مريم: 37][2]، ومنه قولُه تعالى: ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾؛ أي: تنازَعوا فيما بينَهم فصارَ البعضُ يُخطِّئُ مَن ليس على مِلَّتِهِ ودينِه، ولكنَّ اللّه تعالى أجَّلَ موعدَ القضاءِ بينَهم ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ منَ التَّنازعِ والتَّناحُرِ إلى يومِ القيامة[3].

3) ﴿سَبَقَتۡ﴾: أَصلُ السَّبْق: التَّقدُّمُ في السَّيْر، نحو: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النّازعات: 4]. والاستباقُ: التَّسابُقُ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17]، ثمَّ يُتجوَّزُ به في غيرِه منَ التَّقدُّم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أي: المتقدِّمونَ إلى ثوابِ اللّه وجنَّتِه بالأعمالِ الصّالحةِ[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: نَفذَتْ وتقدَّمتْ بتأجيلِ الحكمِ فيهم إلى يومِ القيامة، أو بأن جعلَ للدُّنيا مُدَّةً، ولكلِّ أُمَّةٍ أجلٌ لا يُقدَّمُ، أو أنَّ اللّه لا يُهلِكُ أمَّةً إلّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليها، وتلك الأقوالُ كلُّها سائغةٌ مقبولةٌ[5].

4) ﴿لَقُضِيَ﴾: قضي: القافُ والضّادُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتّقانِه وإنفاذِه لجهتِه، والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ اللّه تعالى: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: 72]؛ أي: اصْنعْ واحْكُم، والقضاءُ: على وجهَيْن: إلهيٌّ وبشريٌّ، قوليٌّ وفعليٌّ؛ فمنَ القولِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أمرَ بذلك، ومنَ الفعلِ الإلهيِّ قولُه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فُصِّلت: 12] إشارةٌ إلى إيجادِه الإبداعيِّ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/609.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن المنظور، لسان العرب: (خلف).
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 4/127، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/609.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(5) الرّاغب، المفردات، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 14/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكامِ القرآن: 8/323.

والفراغِ منه، ومنَ القولِ البشريِّ، نحو: قضَى الحاكمُ بكذا، فإنَّ حُكْمَ الحاكمِ يكونُ بالقول، ومنَ الفعلِ البشريِّ قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: 200][(1)].

وفي قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: مُيِّزَ المُحِقُّ منَ المُبطِلِ في الدُّنيا، فأُدخِلَ المؤمنونَ الجنَّةَ بأعمالِهم، والكافرون النّارَ بكفرِهم، ولكنَّه سبقَ منَ اللّه الأجلُ، فجعلَ موعدَهم يومَ القيامة[(2)].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ أنّ النّاسَ كانوا على ملّةٍ واحـدةٍ ثـمّ اختلفوا، والله يُمهِلُ ولا يُهمِلُ

أخبرَ تعالى أنَّ هذا الشِّركَ حادثٌ في النّاسِ كائنٌ بعد أن لم يكنْ، وأنَّ النّاسَ كانوا على دينٍ واحدٍ وهو الإسلام، قالَ ابن عبّاس رضي الله عنهما: "كان بين آدمَ ونوحٍ عليهما السلام عشرةُ قرونٍ كلُّها على الإسلام"[(3)]، ثمَّ وقعَ الاختلافُ بين النّاسِ، وعُبِدَتِ الأصنامُ والأندادُ والأوثانُ، فبعثَ اللّه تعالى الرُّسُلَ بآياتِه وبيِّناتِه وحُجَجِهِ البالغةِ وبراهينِه الدّامغةِ، ولولا أنَّ اللّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلّا بعدَ قيامِ الحُجَّة عليه، وأنَّه عز وجل قد أجَّلَ الخلقَ إلى أجلٍ معدودٍ لقَضَى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعَدَ المؤمنينَ وأشقَى الكافرين[(4)].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا﴾:

الإسـلامُ ديـنُ اللـه الـواحـد، وهو دينُ الفطرةِ الموحّدةِ

افتتحَ النّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بالواو الدّالّة على الاستئنافِ؛ للدّلالة على متابعةِ بيانِ اللّه للتّوبيخ والتَّقريعِ الَّذي سبقَ في قولِه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي)، والرّاغب، المفردات: (قضى).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/323.

(3) أخرجه الحاكم في المستدرك: 2/442 عن ابن عبّاس موقوفًا، وتمامه: "كان بين آدمَ ونوحٍ عليهما السلام عشرة قرون كلّهم على شريعةٍ منَ الحقّ، فاختلفوا على عهد نوحٍ عليه السلام، فبعثَ الله عز وجل إليهم نوحًا عليه السلام"، وقال الحاكم: "صحيحٌ على شرط الشَّيخَين ولم يُخرِّجاه"، ووافقَه الذَّهبيُّ.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/373 - 374.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 18]؛ وذلك لأنَّ عبادةَ الأصنامِ واختراعَ ضُلّالِ البشرِ في العقيدةِ السَّليمةِ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها في أوَّلِ النَّشأة[1]، "وأنّ النّاسَ كانوا جميعًا أمّةً واحدةً على فطرة الإسلام، ثمّ وقعَ الاختلافُ بين النّاسِ، وعُبِدَتِ الأصنامُ والأوثانُ والأندادُ، فبعثَ اللّه الرّسلَ بآياته وبيّناتِه وحججِه البالغةِ، وبراهينِه الدّامغةِ؛ لهدايتِهم وإزالةِ الاختلافِ بينهم"[2].

دَلالةُ أسلوبِ الحَصرِ:

المبالغةُ في تأكيدِ الخبرِ تبريزٌ لمضمون الآيةِ الكريمةِ

صيغةُ القَصرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾؛ للمبالغةِ في تأكيدِ الخبرِ؛ لأنَّه خبرٌ مُهِمٌّ عجيبٌ، وهو منَ الحِكَمِ العُمرانيَّةِ والحقائقِ التّاريخيَّةِ بالمكانِ الأسْمَى، إذِ القصرُ هنا تأكيدٌ على تأكيدٍ، باعتبارِ اشتمالِه على صيغتي إثباتٍ لِلمُثبَتِ، ونَفيٍ عمّا عداه، فهو أقوى من تأكيدِ ردِّ الإنكارِ، ولذلكَ يُؤذِنُ بردِّ إنكارٍ شديدٍ[3].

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

الإشـادةُ بما كـانَ عليه عمومُ النّاسِ مِنَ التَّوحيدِ الخالصِ لله

النّاسُ: اسمُ جمعٍ للبشَر، وتعريفُه للاستغراق، وهذا يعني عمومَ النّاسِ جميعِهم، فتعيَّن أنَّ النّاسَ في معرفةِ اللّه تعالى كانوا أُمَّةً واحدةً متَّفقينَ على التَّوحيد؛ لأنَّ اللّه لَمّا فَطَرَ الإنسانَ فَطَرَه على عقلٍ سليمٍ موافقٍ للواقع، ووضعَ في عقلِه الشُّعورَ بخالقٍ، وبأنَّه واحدٌ وضعًا جبلِّيًّا، كما وضعَ الإلهاماتِ في أصنافِ الحيوانِ، وتأيَّدَ ذلكَ بالوَحْيِ لأبي البشر، وهو آدمُ عليه السلام، فتعيَّن بذلكَ أنَّ المرادَ في هذه الآيةِ، أنَّ النّاسَ كانوا أُمَّةً واحدةً على الحقِّ، وأنَّ المقصودَ مَدحُ تلكَ الحالة؛ لأنَّ المقصودَ من هذه الآيةِ بيانُ فسادِ الشِّركِ وإثباتُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 11/127.

(2) : أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1384.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/127.

خطأِ مُنتَحِليه، بأنَّ سَلَفَهُمُ الأوَّلَ لم يكنْ مِثلَهم في فسادِ العُقولِ، وفي ذلكَ تعظيمٌ للنّاسِ الَّذين كانوا على تلكَ الشّاكلةِ، منَ الفطرةِ السَّليمةِ، وهي فطرةُ التَّوحيدِ الخالصِ للّه، ودفعٌ للنّاس المُخاطَبين أنْ ينتهجوا نهجَهم، ويَقتدوا بهَدْيِهم[1].

دَلالةُ الجملةِ الاعتراضيّةِ:

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ اعتراضيّةٌ بين قولِه السّابق: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: 18]، وقولِه اللّاحق: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾، ومُناسبةُ الاعتراضِ قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾؛ وذلكَ لبيانِ أنَّ عبادةَ الأصنامِ هي مجرَّدُ اختراعٍ بَشَريٍّ، وكذلك صفةُ الشَّفاعةِ الَّتي منحَها المشركونَ لأصنامِهم هي افتراءٌ منهم على اللّه، وكلُّ ذلكَ هو من قَبيلِ الاختلافِ الَّذي ابتدعَه ضُلّالُ البشرِ، وأَحدثوه في العقيدةِ السَّليمةِ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها في أوَّلِ نشأتِهم، وفي ذلك كلِّه توبيخٌ وتقريعٌ لأولئكَ الَّذين شملَهم قولُه تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2].

عبادةُ الأصنامِ اختراعٌ من ضُلّالِ البشرِ، لم يكن له وجودٌ من قبل

دَلالةُ التّعبيرِ بالفعل المنفيّ في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

أشارَ النَّظمُ الجليلُ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، بنفي ﴿كَانَ﴾ وأداةِ الحصرِ ﴿إِلَّآ﴾ إلى أنَّ النّاسَ كانوا على طريقةٍ واحدةٍ وملَّةٍ واحدةٍ، وهي طريقةُ وملَّةُ التَّوحيدِ الخالصِ للّه، وهي الفطرةُ الَّتي فطرَ اللّه النّاسَ عليها، فالتَّوحيدُ والإسلامُ ملَّةٌ قديمةٌ وشرعةٌ تليدةٌ أجمعَ عليها النّاسُ قاطبةً[3].

جَبَلَ الله النّاسَ على التّوحيدِ الخالصِ منذُ بدايةِ خلقِ أبيهم آدمَ

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

جاءتِ الفاءُ العاطفةُ الَّتي تفيدُ التَّعقيبَ لبيانِ أنَّ بعضَ النّاسِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/128.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/127.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646.

كَفرَ وثَبَتَ آخرون على ما هُم عليه، فخالفَ كلٌّ منَ الفريقينِ الآخرَ، لا أنَّ كلًّا منهما أَحدَثَ مِلَّةً على حِدَةٍ من مِلَلِ الكفرِ مخالفةً لمِلَّةِ الآخرِ، فإنَّ الكلامَ ليس في ذلكَ الاختلافِ إذْ كلٌّ منهما مُبطِلٌ حينئذٍ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يُقضَى بينَهما بإبقاءِ المُحقِّ وإهلاكِ المُبطِلِ، ولذلكَ فإنَّ الفاءَ التَّعقيبيَّةَ هنا لا تُنافي امتدادَ زمانِ الاتِّفاقِ، إذِ المرادُ بيانُ وقوعِ الاختلافِ عَقِيبَ انْصرامِ مُدَّةِ الاتِّفاقِ لا عَقِيبَ حدوثِ الاتِّفاقِ[1].

وقوعُ الاختلافِ بينَ النّاسِ عقيبَ انصرامِ مدَّةِ اتِّفاقِهم على التَّوحيد

علّةُ ذكرِ الاختلافِ بعدَ الوحدةِ في: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

دلَّ الحَصرُ - كما تقدَّمَ آنفًا - على أنَّ النّاسَ كانوا على ملَّةِ التَّوحيد، وأنَّهم في وحدةٍ اعتقاديَّةٍ قائمةٍ فيما بينَهم، ولذلكَ عبَّرَ عنِ التَّفرُّقِ الطّارئِ عليها بالاختلافِ المُشعِرِ بالمذمَّةِ والمعقِّب بالتَّخويفِ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾؛ وذلكَ أنَّ الشِّركَ وفروعَهُ جَهالاتٌ ابْتدعَها الغواةُ الضّالّونَ المُضِلّون خلافًا للجمهورِ وشقًّا لعصا الجماعةِ.

الشِّركُ غوايةٌ مُستحدَثةٌ، فرّقتِ النّاسَ أوزاعًا وأشتاتًا

وأمّا حملُ اتّخاذِهم على الاتِّفاقِ على الضَّلالِ عند الفَتْرةِ، واختلافِهم على ما كانَ منهم منَ الاتِّباعِ والإصرارِ فيما لا احتمالَ له؛ أي: وما كانَ النّاسُ كافَّةً من أوَّلِ الأمرِ إلّا مُتَّفقينَ على الحقِّ والتَّوحيدِ من غيرِ اختلافٍ، وذلك من عهدِ آدمَ عليه السلام إلى عهدِ نوحٍ عليه السلام[2].

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بـ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

آثرَ النّظمُ المعجزُ التّعبيرَ بقولِه جلّ شأنُه: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ لما فيه من تشنيعٍ على عبادةِ الأصنامِ، إذ كيف يعبدُ هؤلاءِ المشركونَ الأصنامَ، والنّاسُ جميعُهم فيما سَلَفَ على التَّوحيدِ الخالصِ للهِ، ولمّا كان الاختلافُ بسببِ الكفرِ؛ أي: كان النّاسُ على الإسلامِ، فحصلَتِ

الاختلافُ تفرّقٌ طارئٌ في التّوحيد، مُشعِرٌ بالمذمَّةِ والتَّقريعِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/646، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/127.

النُّفرةُ من اتِّباع غيرِ ما كانَ النّاسُ عليه، وترتَّبَ على ذلك الوعيدُ، فدَلَّ على أنَّ هذا الاختلافَ حصلَ بعد الوحدةِ الاعتقاديَّةِ، ولا أدلَّ على هذا الوضعِ القائمِ من كلمةِ (اخْتلفوا)؛ لأنَّه تعبيرٌ عنِ التَّفرُّقِ الطّارئِ على وحدةِ الاعتقادِ القائمةِ آنذاك، باعتبارِ الاختلافِ الّذي يُشعرُ السّامعَ بالمذمَّةِ والتَّقريعِ لما حدَث، فهو في أمرٍ جَلَلٍ مُتعلِّقٍ بعقيدةٍ ودينٍ - الأصلُ فيه الاجتماعُ وعدمُ الاختلاف - لا بعاداتٍ وتقاليدَ وأمورٍ فرعيَّةٍ، قد يتفرَّقُ فيها النّاسُ ويتنازعون، ولمّا كانَ ذلك كذلك عقَّبَ بيانُ اللّه الاختلافَ بالتَّخويفِ المنذرِ بالعقوبةِ الصّارمةِ، بقوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[1].

الاستغناءُ بالضَّميرِ: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾:

استغنِي عن الضَّميرِ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، وتهوينِ شأنِ المخالفينَ للحقِّ

الأصلُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ أن يُقالَ: كانَ النّاسُ أُمَّةً واحدةً فاختلفَ النّاسُ، أو فاختلفَ هؤلاءِ النّاس، لكنَّ بيانَ اللّه استغنى عن ذاكَ الظّاهرِ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، فاكتُفيَ به عن إعادةِ الضَّمير، فلم يُذكَرِ اختصارًا[2]، فلم يُظهِرِ الاسمَ؛ لأنَّ القضيَّةَ مُتعلِّقةٌ بأمرٍ مُهمٍّ، وهو أمرُ الأُمَّةِ ودينُها الّذي قامَت عليه، والاختلافُ أمرٌ طارئٌ مُحدَثٌ، مخالفٌ لما كانَ عليه سَلَفُ عمومِ النّاسِ، فلم يكرِّر ذكرَ النّاسِ المختلفينَ رعايةً لحقِّ المتقدِّمينَ، ورفعًا لشأنِهم، وتهوينًا لشأنِ مَن اختلفوا في دينِ اللّه، واخترَعوا الضَّلالاتِ.

مفهومُ لفظِ ﴿أُمَّةٗ﴾:

الشِّركُ طارئٌ على الأُمَّةِ، والأصلُ قيامُها على التَّوحيد

الأُمَّةُ: الجماعةُ العظيمةُ الّتي لها حالٌ واحدٌ في شيءٍ ما. والمرادُ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾: أُمَّةٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/28 - 29، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/137.

(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 139.

واحدةٌ في الدِّين، والسِّياقُ يدُلُّ على أنَّ المرادَ أنَّها واحدةٌ في الدِّينِ الحقِّ، وهو التَّوحيدُ؛ لأنَّ الحقَّ هو الَّذي يُمكنُ اتِّفاقُ البشرِ عليه؛ لأنَّه ناشئٌ عن سلامةِ الاعتقادِ منَ الضَّلالِ والتَّحريفِ، والإنسانُ أُنشِئَ على فطرةٍ سليمةٍ كاملةٍ بعيدةٍ عنِ التَّكلُّفِ والتَّعقيدِ، وإنَّما يُتَصَوَّرُ ذلكَ في معرفةِ اللّه تعالى دونَ الأعمال؛ لأنَّها قد تختلفُ باختلافِ الحاجاتِ، فإذا جازَ أنْ يحدُثَ في البشرِ الضَّلالُ والخطأُ فلا يكونُ الضَّلالُ عامًّا على عقولِهم، فتعيَّن أنَّ النّاسَ في معرفةِ اللّه تعالى كانوا أُمَّةً واحدةً متَّفقينَ على التَّوحيدِ؛ لأنَّ اللّه تعالى لَمّا فَطَرَ الإنسانَ فطرَه على عقلٍ سليم موافِقٍ للواقع، ووضعَ في عقلِهِ الشُّعورَ بخالقٍ، وبأنَّه واحدٌ وضعًا جِبلِّيًّا، كما وضعَ الإلهاماتِ في أصنافِ الحيوانِ، وتأيَّدَ ذلك بالوَحْيِ لأبي البشرِ وهو آدمُ عليه السلام، ثمَّ إنَّ البشرَ أدخَلوا على عقولِهمُ الاختلافَ البعيدَ عنِ الحقِّ بسببِ الاختلافِ الباطلِ والتَّخيُّلِ والأوهامِ بالأَقيسَةِ الفاسدةِ، فتعيَّنَ بذلكَ أنَّ المرادَ في هذه الآيةِ، بكونِ النّاسِ أُمَّةً واحدةً، الوحدةُ في الحقِّ، وأنَّ المقصودَ مدحُ تلكَ الحالةِ؛ لأنَّ المقصودَ من صدرِ هذه الآيةِ على وَجهِ الخُصوصِ بيانُ فسادِ الشِّركِ وإثباتُ خطأِ مُنتَحِليه بأنَّ سَلفَهُمُ الأوَّلَ لم يكنْ مِثْلَهم في فسادِ العُقولِ، ووقوعُه عقِبَ ذِكْرِ مَن يعبُدونَ من دونِ اللّه أصنافًا لا تضُرُّهم ولا تنفعُهم، يدُلُّ على أنَّهم المقصودُ بالإبطالِ، وهو إبطالُ زعمِ مَنْ يزعُمُ غيرَ ذلك[1].

دَلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّةِ في: ﴿وَلَوۡلَا﴾:

لولا لطفُ الله بإمهالِ البشرِ لعمَّهم بعذابٍ مُستطرٍ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالجملةِ الشّرطيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ ذلكَ الاختلافَ مَذمومٌ، وأنَّه لولا أنَّ اللّه أرادَ إمهالَ البشرِ إلى يومِ الجزاءِ لَأَراهُم وَجهَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/128.

الفَصلِ في اختلافِهم باستِئصالِ المُبطِلِ وإبقاءِ المُحِقِّ[1]، فعلّقَ انتفاءَ الاستئصالِ والقضاءَ عليهم في الدّنيا بوجودِ عهدٍ سابقٍ وضعَه اللّه تعالى، وذلك يؤكّدُ عدمَ وقوعِ الاستئصالِ في مستقبلِ الأيّامِ.

دَلالةُ حرفِ الشَّرطِ غيرِ الجازمِ في: ﴿وَلَوۡلَا﴾:

لولا إمهالُ الله البشرَ ليومِ المعادِ لفصلَ بينَهم في الدُّنيا

حرفُ الشَّرط ﴿وَلَوۡلَا﴾ هو حرفُ امتناعٍ لوجود، فلولا أنَّ اللّه أرادَ إمهالَ البشرِ إلى يومِ الجزاءِ لَأَراهم وجهَ الفَصلِ في اختلافِهم، باستئصالِ المُبطِلِ، وإبقاءِ المحقِّ[2]، "ويجوز لقَضَى بينهم؛ أي: لولا أنَّ اللّه جلَّ وعزَّ، جعل لهم أجلاً في القضاءِ بينهم، لفَصَلَ بينهم في وقتِ اختلافِهم"[3].

دَلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿كَلِمَةٞ﴾:

الكلمةُ هي القضاءُ والحكمُ، الّذي يفصلُ اللهُ به بين العبادِ

قولُه: ﴿كَلِمَةٞ﴾ هنا في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾ تعني: تأخيرَ القضاءِ والحُكمِ بينَهم، أو بتأخيرِ العذابِ الفاصلِ بينَهم إلى يومِ القيامة؛ فإنَّه يومُ الفَصْل، أو أنَّ المرادَ بالكلمةِ قضاؤُه وتقديرُه لبني آدمَ بالآجالِ المؤقّتة[4]، "قد اقتضَت مشيئةُ اللّه أن يُمهِلَهم جميعًا الى أجَلٍ يستوفونَه، وسبقَت كلمتُه بذلك لحكمةٍ يريدُها، ولولا ذلك لعجَّلَ لهم الهلاكَ، بسببِ الخلافِ الّذي وقعوا فيه"[5].

توجيهُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿سَبَقَتۡ﴾:

اقتضَتْ سنَّةُ اللهِ تأجيلَ الثَّوابِ والعقابِ ليومِ الحسابِ

المرادُ بالسّبقِ في قولِه: ﴿كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾ أنّها سبقَت في قضاءِ اللّه وتقديرِه بأنْ لا يُعجِّلَ عذابَ أُمَّةٍ قبلَ بيانِ دينِه ورسالتِه مع أنبيائِه ورُسُلِه، فيمدَّ بني آدمَ بالآجالِ المؤقَّتة[6]، ويحتملُ أن يُرادَ: أنَّ اللّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/12.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111، والنَّسفيّ، مدارك التَّنزيل: 2/13، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/185.
(6) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/111.

أَبقى تكليفَه على عبادِه، وإنْ كانوا به كافرين؛ لأنَّه لو أهلَكهم لكانَ ذلك سببًا لزوالِ التَّكليفِ، فأبقاهم، وأخَّرَ عقابَهم إلى يومِ القيامة، وفي ذلكَ تصبيرٌ للمؤمنين على احتمالِ المكارِه من قِبَلِ الكافرينَ والظّالمينَ، ويحتملُ أن يُرادَ: أنَّ اللهَ لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالعقوبةِ إنعامًا عليهم؛ لَقُضِيَ بينهم في اختلافِهم، بما يمتازُ به المُحِقُّ منَ المُبطِلِ، والمُصيبُ منَ المُخطِئِ، ويحتملُ أنَّ المرادَ هو أنَّه لمّا كانتْ رحمةُ اللّه غالبةً اقتضَتْ تلكَ الرَّحمةُ الغالبَةُ إسْبالَ السَّترِ على الجاهلِ الضّالِّ، وإمهالَه إلى وقتِ الحسابِ[1].

دَلالةُ تجاورِ فعل ماضٍ مع مضارعٍ: ﴿لَقُضِيَ﴾ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

تجاورُ الفعلَينِ هنا لحكايةِ الحالِ الماضيةِ، وللدَّلالةِ على الاستمرار

جاءَ ﴿لَقُضِيَ﴾ بصيغةِ الماضي، و ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ بصيغةِ المضارعِ الَّذي يفيدُ الاستقبالَ؛ ليُفيدا معًا حكايةَ الحالِ الماضية، وللدَّلالةِ على الاستمرار[2]، والدّلالةُ يتقابلُ فيها معنى فعليّة القضاءِ الافتراضيّ المُحتَملِ في سياق الشّرطِ بقوله: ﴿لَقُضِيَ﴾، ومعنى الاختلاف بين النّاسِ، الّذي هو مَلمَحٌ واقعيٌّ معيشٌ، تشهدُهُ البشريّةُ على مدارِ الزّمانِ بقوله: ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾، "وفيه وجهان: أحدهما: ولولا كلمةٌ سبقَت من ربِّكَ في تأجيلِهم إلى يوم القيامةِ لقُضِي بينَهم من تعجيلِ العذابِ في الدّنيا، قالَهُ السُّدِّيُّ. الثّاني: ولولا كلمةٌ سبقَت من ربِّكَ في أن لا يُعاجِلَ العُصاةَ إنعاماً منه يَبتليهم به، لقَضَى بينَهم فيما فيه يَختَلفونَ، بأن يَضطرَّهُم إلى مَعرفَةِ المُحِقِّ مِنَ المُبطِلِ"[3].

دَلالةُ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

مصدرُ الرَّحمةِ والإحسانِ بالعبادِ هو الرَّبُّ الرَّحمنُ

في قولِه تعالى: ﴿سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾، جاءَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تعبيرًا عن إحسانِ اللّه وفضلِه ورحمتِه بأُمَّةِ نبيِّه محمَّدٍ ﷺ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/229 - 230، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/127، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/323.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/429.

في إمهالِهم، ودلّت ﴿مِن﴾ الابتدائيّة على أنّ مصدرَ تلك الكلمةِ أنّها ابتدأَت منَ اللّه تعالى لبيانِ محضِ رحمتِه، وأنّها لم تكن مفروضةً من أحدٍ، بل اللّه تعالى تفضّلًا منه وكرمًا ابتدأَ أن وضعَ على نفسِهِ أن لا يُعجِّلَ العقابَ لأحدٍ.

المحسنُ إليك هو مَن أرجأَ العقابَ برحمتِهِ

دلالةُ الإضافةِ: ﴿رَّبِّكَ﴾:

أضافَ النّظمُ الجليلُ لفظَ الرّبوبيّةِ إلى الضّميرِ العائدِ على النّبيِّ ﷺ بيانًا لعظيمِ شأنِه، وبيانَ أنّ ذلك من رحمةِ اللّه بعبادِهِ عمومًا في إرجاءِ عذابِهم بعد مَنحِهمُ الإمهالَ؛ ليعودوا إلى اللّه بالتَّوبةِ قبلَ حلولِ الآجالِ[1].

قضاءُ اللّه مُبْرَمٌ، وسُنَّتُه في خَلْقِه باقيةٌ، ورحمتُه بهم جاريةٌ

نكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿لَقُضِيَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

في قولِه تعالى: ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ جاءَ الفعلُ ﴿لَقُضِيَ﴾ مَبنيًّا على ما لم يُسمَّ فاعلُه، تعويلًا على ما سبقَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾، ولبيانِ أنَّ هذا الأمرَ الَّذي دَعَوًا إليه أمرٌ طارىءٌ حادثٌ، فيكونُ بحيث يُتوقَّفُ فيه للنَّظرِ في عواقبِه، والتَّأمُّلِ في مَصادرِهِ ومَوارِدِهِ، بل هو مع ظهورِ دلائلِهِ واستقامةِ مناهجِهِ وصِحَّةِ مذاهبِهِ، وإلقاءِ الفِطَرِ أَزِمَّةَ الانْقيادِ إليه، أصلُ ما كانَ العبادُ عليه، وما هم فيه الآن، هو الطّارىءُ الحادثُ مع ظُهورِ فسادِهِ ووضوحِ سَقَمِهِ، وقضاءُ اللّه السّابقُ فيما بيَّنَه لنا هنا مُبْرَمٌ، وهو مع كونِه مُبرَمًا لكنَّ رحمةَ اللّه بعبادِه فيه واضحةٌ وأَلْطافَهُ فيهم جَليَّةٌ[2]، فلمّا ذكرَ لفظَ الرّبوبيّةِ الـمُشعِرَ بالإحسانِ مع إضافتِهِ إلى ضميرِ النّبيِّ ﷺ بنى الفعلَ الدّالَّ على نقيضِ الإحسانِ للمفعول إعراضًا عن ذكرِ مَن سبقَ ذكرُهُ بالإحسانِ أن يُعادَ ذكرُهُ في سياقِ العقابِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/93.

عِلَّةُ ورودِ اسمِ الموصولِ (ما):

أفادَ اسمُ الموصولِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ﴾ تأكيدَ وَصفِ ما هم عليه مِنَ الاختلافِ، والتَّنبيهَ على أنَّه لا بدَّ من تمييزِ الحقِّ مِنَ الباطلِ، وذلك بإبقاءِ الحقِّ وأهلِه، وإهلاكِ الباطلِ وأهلِه[1]، كما أنّه يفيدُ الدّلالةَ على أنّ الحكمَ كائنٌ في عمومِ ما اختلفوا فيه؛ فالكتابُ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها.

تأكيدُ وجودِ الاختلافِ، والإيماءُ إلى إبقاءِ الحقِّ وإزهاقِ الباطل

دَلالةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾، ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ جاءَ في نهايةِ هذا الشَّطرِ الفعلُ ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾، وفي نهايةِ الآيةِ جاءَ في قولِه تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ الفعلُ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ وهذا ما يسمَّى في علم البديع بردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[2]، وهو مِنَ المحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ الَّتي تُعطي المعنَى قوَّةً وتأكيدًا، وهذه هي الدَّلالةُ هنا: في أنَّ اختلافَ النّاسِ بعدَ أن كانوا رِدْحًا طويلًا مِنَ الزَّمنِ على عقيدةِ التَّوحيدِ الخالصِ للّه اختلفوا، فمنهم مَن بقيَ على إيمانِه، ومنهم مَن كَفرَ، وهذا لنْ يبقى عندَ اللّه بلا حسابٍ، ولكنَّ اللّه لنْ يحاسبَهم على اختلافِهم ذاك في الدُّنيا، وَفقَ حكمتِه تعالى؛ بل أجَّل حسابَهم فيما كانوا فيه يختلفونَ إلى يوم القيامة، فالعلَّةُ في هذا الحسابِ هو اختلافُهم السّابقُ فيما بينَهم، فأكَّدَ بيانُ اللّه أنَّه كما حصَلَ الاختلافُ في الدِّين ما بين مُؤمنٍ وكافر، فسيُعقَدُ الحسابُ للَّذين اختلفوا، بتمييزِ أهلِ الحقِّ من أهلِ الباطل،

تأكيدُ اختلافِ النّاسِ في الدِّين، وتأكيدُ حسابِهم يومَ الدِّين

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(2) وهو من فنونِ البديع، ويُسمَّى (التَّصدير)، وهو ثلاثةُ أقسامٍ: الأوَّل: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه آخرَ كلمةٍ في نصفِه، وهو كما في الآية في المتن، والثّاني: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه أوَّلَ كلمةٍ في نصفِه الأوَّل، كما في قولِ الشّاعر:

سَريعٌ إلَى ابنِ العَمِّ يَشتُمُ عِرْضَهُ *** وَلَيسَ إلَى داعِي النَّدَى بِسَرِيعِ.

والثّالثُ: ما يوافقُ آخرُ كلمةٍ فيه بعضَ ما فيه، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾ [الإسراء: 21]. يُنظر: ابن المعتزّ، البديع، ص: 47.

فَيُقضَى بينَهم يومَ القيامةِ، فينالُ أهلُ الحقِّ النَّعيمَ المقيمَ، وأهلُ الباطلِ العذابَ الأليمَ[1].

دَلالةُ توسُّطِ الجارِّ والمجرورِ بينَ الاسمِ الموصولِ وصلتِه: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾:

أهمّيَّةُ ما وقعَ فيه الاختلافُ، ومراعاةُ الفاصلة

في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وردَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ مُتوسِّطًا بين الاسم الموصولِ (ما) وصلتِه ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾، والأصلُ أن يقولَ: فيما يختلفونَ فيه، وهذا التَّوسُّطُ وتقديمُ ما حقّه التَّأخيرُ يشيرُ إلى أمرَين: الأوَّلُ: بيانُ أهمّيَّةِ ما وقعَ فيه الاختلاف، فهو اختلافٌ في الدِّين، ما بين إيمانٍ وكُفرٍ. والثّاني: مراعاةُ الفاصلةِ القرآنيَّةِ[2]، وذلك اهتمامًا بموضوعِ الاختلافِ؛ لأنّه السّببُ في الحكمِ بينهم، فقدَّمَ ما سبّبَ الاختلافَ على فعلِ الاختلافِ.

التّشابهُ اللّفظيُّ بين آيتي سورة يونس، وسورة الشّورى:

تأكيدُ سبقِ كلمةِ الله بتأجيلِ العقابِ مع اختلافٍ في بعضِ جزئيّاتِ المعنى

وردَ تشابهٌ في النّظمِ بينَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤﴾ [الشّورى: 14]، فما وجه ذلك التّشابه؟

والجواب: في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ جاءَ في [الشّورى: 14] بزيادةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾، وزادَ فيها أيضًا ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ المعنَى تفرّقُ قولِ اليهودِ في التَّوراة، وتفرُّقُ قولِ الكافرين في القرآن، فكانَ تقديرُ الكلامِ: ولولا كلمةٌ سَبَقتْ من ربِّك بتأخُّرِ العذابِ إلى يومِ الجزاءِ لقُضيَ بينَهم بإنزالِ العذابِ عليهم.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.

وخُصَّتْ في الشّورى بزيادةِ قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ لأنَّه ذكرَ البدايةَ في أوَّلِ الآية، وهو ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، وهو مبدأُ كُفرِهم، فَحَسُنَ ذكرُ النِّهايةِ الَّتي أُمهِلوا إليها ليكونَ محدودًا منَ الطَّرَفَيْن[1]. وفي الآيةِ هنا [يونس: 19] وردَ قولُه تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ وفي [الزُّمر: 3] وردَ قولُه تعالى: ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ بزيادَةِ (هم)؛ لأنَّ في هذه السّورةِ تقدَّمَ ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ فاكتُفيَ به عن إعادةِ الضَّميرِ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الأُمَّة والقَوْم:

الأُمَّة جماعةٌ يجمعُهم رابطٌ، والقومُ الرِّجالُ يقومُ بعضُهم مع بعضٍ

الأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامع تسخيرًا أوِ اختيارًا، وجمعُها أُمَمٌ، قالَ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ [الأنعام: 38][3]، والقومُ: همُ الرِّجالُ الَّذينَ يقومُ بعضُهم مع بعضٍ في الأمور، ولا يقعُ في النِّساءِ إلّا على معنَى التَّبَع، كما قالَ : ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشُّعراء: 105]، والمرادُ: الرِّجالُ، والنِّساءُ تَبَعٌ لهم[4]. فجاءَ التّعبيرُ في الآية بلفظِ الأمّةِ؛ لأنّه يريدُ الأمّةَ الّتي يجمعُها أمرُ الدّينِ، وليس المرادُ مجموعةً منَ الرّجال يقومون مع بعض.

الاخْتلاف والخِلاف:

الاختلافُ المخالَفةُ في الوجهة أو الرّأي قولًا وحالًا، والخِلافُ أعمُّ منَ الاختلافِ

الاختلافُ: أنْ يأخذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريقِ الآخَرِ، في حالِه أو في قولِه، ويكون في الرّأيِ والفهمِ والذّوقِ، والاختلافُ بين النّاسِ

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 222.
(2) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 139.
(3) الرّاغب، المفردات: (أمّ)، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 427، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).

في القولِ يقتضي التَّنازُعَ، ومنَ الاختلافِ ما ليس بمذموم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ [المؤمنون: 80]، فهذا الضَّربُ منَ الاختلافِ ليس كما في البشر، فهو يكونُ على سَنَنٍ واحد، وهو دالٌّ على علمِ فاعلِه، والاختلافُ قد يكونُ في المذاهبِ وفي الأجناسِ؛ فالاختلافُ في المذاهب: هو ذهابُ أحدِ الخَصمَين إلى خلافِ ما ذهبَ إليه الآخرُ، والاختلافُ في الأجناسِ: امتناعُ أحدِ الشَّيئين من أن يَسُدَّ مَسَدَّ الآخر، ويجوزُ أنْ يقعَ الاختلافُ بين فريقين، وكلاهُما مُبطِلٌ كاختلافِ اليهودِ والنَّصارى في المسيح(1).

والخِلافُ أعمُّ منَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضِدَّيْن مختلفان، وليس كلُّ مختلفَين ضدَّين، فهو أعمُّ منَ الاختلاف. والخِلافُ: هو المخالفة، وقولُه تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 81]؛ أي: مخالفةَ رسولِ اللّه ﷺ، والاختلافُ قد يؤدِّي إلى الخِلافِ؛ أي: المنازعةِ والمجادَلةِ ولذلكَ استُعيرَ لهما، كما قالَ تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ [مريم: 37] فوقعَ بينَهمُ الخلافُ والتَّخاصُمُ(2).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 28 - 128، والرّاغب، المفردات: (خلف). ص 295.

(2) الرّاغب، المفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (خلف).

﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعـدَ الإشـراكِ والاسـتـكـبـارِ والـتّـقـوّلِ على الـلـه مطالـبـةٌ بالآيات على وفقِ الأهواءِ

بعد أن حكى اللّه تعالى "عنِ المشركين إنكارَهم للوحي إلى بشرٍ مثلهم، وردَّ عليهم مقالتَهم بالحججِ الّتي تثبتُ بطلانَ شركِهم وإنكارِهِم للبعثِ، ثمّ حكى عنهم مطالبةَ الرّسولِ ﷺ بالإتيان بقرآنٍ غيرِ هذا الّذي يدلُّ في نظمِهِ وأسلوبِهِ وعلومِهِ وهدايتِهِ على أنّه وحيٌ من كلام اللّه؛ حكى عنهم في هذه الآية الاحتجاجَ على إنكار نبوّتِه بعدمِ إنزالِ آيةٍ كونيّةٍ غير القرآنِ مع ما فيه منَ الآياتِ العلميّةِ والعقليّةِ الدّالّةِ على النّبوّةِ والرّسالةِ، ثمّ ردَّ على ذلك"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾: النُّزولُ في الأصلِ هو انحطاطٌ من عُلوٍّ، يُقال: نزلَ من دابَّته، ونزلَ في مكانٍ كذا: حطَّ رَحْلَهُ فيه، وأنزلَه غيرُهُ، قالَ تعالى: ﴿أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩﴾ [المؤمنون: 29]. ونَزَلَ بكذا، وأنزلَه بمعنًى، وإنزالُ اللّه تعالى نِعمَه ونقمَه على الخَلْق، وإعطاؤُهُم إيّاها، وذلك إمّا بإنزالِ الشَّيءِ نَفسِه كإنزالِ القرآن، وإمّا بإنزالِ أسبابِه والهدايةِ إليه، كإنزالِ الحديدِ واللِّباس، ونحو ذلك، قالَ تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1]، وقالَ سبحانَه: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25]، وقالَ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان: 48][2].

وقولُه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾؛ أي: هلّا أَنزلْنا

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/84.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزل).

عليه آيةٌ منَ الآياتِ الَّتي نقترحُها عليه، ونطلبُها منه كإحياءِ الموتَى وجَعْلِ الجبالِ ذهبًا ونحوِ ذلك[1]؟

2) ﴿ءَايَةٌ﴾: الآيةُ: هي العلامةُ الظّاهرةُ، وحقيقتُه لكلِّ شيءٍ ظاهرٍ، وهو ملازمٌ لشيءٍ لا يَظهَرُ ظُهورَهُ، فمتى أدركَ مُدرِكٌ الظّاهرَ منهما عُلِمَ أنَّه أدركَ الآخرَ الَّذي لم يُدرِكْهُ بذاتِه، إذْ كانَ حكمُهُما سواء، والآيةُ مُشتقَّةٌ منَ التَّأيِّي الَّذي هو التَّثبُّتُ والإقامةُ على الشَّيء، يُقال: تأيَّ؛ أي: ارْفِق، أو من قولِهم: أوَى إليه، وقيل للبناءِ العالي آيةٌ، نحو: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨﴾ [الشُّعراء: 128]، ولكلِّ جملةٍ منَ القرآنِ دالَّةٌ على حكمٍ آيةٌ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الجاثية: 3]، فهي منَ الآياتِ المَعقولةِ الَّتي تتفاوَتُ بها المعرفةُ بحسبِ تفاوتِ منازلِ النّاسِ في العلم[2]. والآيةُ (هنا) في قولِه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: الآياتُ العظامُ الَّتي كانوا يقترحونَها، كإنزالِ الملائكةِ وجعلِ الجبالِ ذهبًا.. ونحوِ ذلك[3].

3) ﴿ٱلْغَيْبُ﴾: الغَيْنُ والياءُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ، يدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عنِ العيون، ثُمَّ يُقاسُ، من ذلك الغَيب: ما غابَ، ممّا لا يعلمُه إلّا اللّه، قالَ اللّه تعالى في قصَّةِ يوسف عليه السلام: ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: 10]، واستُعمِلَ الغيبُ في كلِّ ما غابَ عنِ الحاسَّةِ وعن علمِ الإنسان[4].

وقولُه تعالى (هنا): ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: هو المختصُّ بعلمِ الغيبِ المتأثِّرِ به، لا علمَ لي ولا لأحدٍ به؛ يعني: أنَّ الصّارفَ عن إنزالِ الآياتِ المقترَحةِ أمرٌ مغيَّبٌ، لا يعلمُهُ إلّا اللّه وحدَه سبحانه وتعالى[5].

4) ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ﴿ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾: النَّظَرُ: الانتظارُ، يُقالُ: نَظَرْتُه وانْتَظرتُه وأَنْظَرْتُه؛ أي: أخَّرْتُه، قالَ تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ۝١٢٢﴾ [هود: 122]، وفي قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 53]؛ أي: مُنتظرين[6].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/610.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (أيي).
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/610.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غيب).
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230 - 231، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/610.
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نظر).

وفي قولِه تعالى (هنا): ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾؛ أي: فانتظِروا نزولَ ما اقْترحتُموه منَ الآيات، إنَّي معكم منَ المنتظِرينَ لِما يفعلُ اللّه بكم لعنادِكُم وجحودِكمُ الآيات، ويجوزُ أن يكونَ المعنَى: انْتظِروا قضاءَ اللّه بيني وبينَكم بإظهارِ الحقِّ على الباطل(1).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

طلبُ المشركين آيـــةً ســوى القرآن، وحكمةُ الله تأبى ذلك قبلَ الأوانِ

يخبرُ اللّه تعالى أنّ هؤلاءِ الكَفَرَةُ المكذِّبونَ المعانِدون يقولون: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ ﷺ آيةٌ من ربِّه، كما أعطَى اللّه ثمودَ النّاقةَ، أو أنْ يُحوِّلَ لهم الصَّفا ذهبًا، أو يُزيحَ عنهم جبالَ مكَّةَ، ويَجعلَ مكانَها بساتينَ وأنهارًا، أو نحوَ ذلكَ ممّا اللّه قادرٌ عليه، ولكنَّه تعالى حكيمٌ في أفعالِه وأقوالِه، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ [الإسراء: 59]، ولكنَّ سنَّتي في خَلْقي أنّي إذا آتيتُهُم ما سَألوا، فإنْ آمنوا وإلّا عَجَّلْتُ لهمُ العقوبةَ، ولذلك حَلُمَ عليهم رسولُ اللّه ﷺ غيرَ مرَّةٍ، واخْتارَ إنظارَهم خوفًا من تعذيبِهم، ولذلك أرشدَ اللّه تعالى نبيَّه إلى الجواب عمّا سألوا: فقلْ لهم يا محمَّدُ إنَّما الغيبُ للّه؛ أي: الأمرُ كُلُّه للّه، وهوَ يَعلمُ العَواقبَ من الأمورِ(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ عطفِ الجملةِ بالواوِ في: ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

نَفْيُ البُهتانِ في النُّبوَّةِ معطوفٌ على نَفْيِ الافْتِراءِ في الإلهيَّة

الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ﴾ عطفٌ على جملةِ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس: 18]؛ وذلكَ أنَّه بعدَ أنْ ذكرَ افتراءَهم في جانبِ الإلهيَّةِ نَفَى بُهتانَهم في جانبِ النُّبوَّة، فلمّا أتتهُمُ البيِّناتُ قالوا: ائْتِ بقرآنٍ غيرِ هذا،

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/231، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/610.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/374.

كافرينَ بمنزِلِّها، عابدينَ من دونِه ما لا يرضى عاقلٌ بتَسويتِهِ بنَفسِه فكيفَ بعبادتِه[1].

دَلالةُ ﴿لَوۡلَآ﴾:

طلبُ إنـزالِ آيةٍ حسّيّةٍ، كما أُنزِلَ على الأممِ القبليّةِ

﴿لَوۡلَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ حرفُ تَحْضيضٍ وشأنُ التَّحضيضِ أنْ يواجَه به المُحَضَّضُ؛ لأنَّ التَّحضيضَ منَ الطَّلب، وشأنُ الطَّلبِ أنْ يواجَهَ به المَطلوبُ، وقد كانَ طلبُهم إنزالَ آيةٍ حسِّيَّةٍ كما عندَ اليهودِ والنَّصارَى والأقوامِ السّابقةِ[2]، "يقولون: لولا أنزلَ اللّه عليه آيةً من ربّه غيرَ ما نزلَ عليه منَ الآياتِ الباقياتِ البيّناتِ، وهي آياتُ القرآنِ الكريم، حكى القرآنُ عنهم في أكثرِ من مَوضِعٍ هذا الطّلبَ، وردَّ عليهم تارةً بالإجمال، كما هنا، وطورًا بالتّفصيل"[3]، الرّسل ﷺ" قد بُعِثَ كلٌّ منهم لأمّةٍ محدودةٍ زمانًا ومكانًا؛ ولذلك كانتِ الآياتُ الّتي اصطحبوها آياتٍ حسّيّةً، وكلُّ آيةٍ كانَت من جنسِ ما نبغَ فيه القومُ المبعوثُ إليهم، أمّا رسالةُ محمّد ﷺ فهي لعامّةِ الزّمانِ، وعامّةِ المكانِ، فلو جعلَ اللّه سبحانَه له آيةً حسّيّةً لآمن بها مَنْ شاهدَها، ولَصارَتْ خبراً لِمن لم يشاهدْها..لقد شاءَ اللّه سبحانَه أن يُرسلَ الرّسولَ ﷺ بمعجزةٍ باقيةٍ إلى أن تقومَ السّاعةُ، وهي معجزةُ القرآنِ"[4].

دَلالةُ بناءِ الفعلِ ﴿أُنزِلَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعلُه:

لا يُنزِلُ الآياتِ إلّا القادرُ العظيمُ، الّـذي لا تجهلُ ذكرَه العقولُ

عبّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ بالفعلِ المبنيّ للمفعولِ إيجازًا في التّعبير؛ لكفايةِ دلالةِ السّياقِ على الفاعلِ، حيث دلَّ على ذلك قولُه: ﴿مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾، كما أنّ مُنزِلَ الآياتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/94، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/94، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/129.
(3) الحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/50.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5831.

معروفٌ لا يحوجُ ذكرُه، فاكتُفِيَ بحضورِه في الأذهان عنِ التّصريحِ به بالألفاظ.

سرُّ التّعبيرِ بضميرِ الغيبةِ في قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾ دون ضميرِ الخطابِ:

سعةُ البيانِ بحكايةِ القولِ وجماليّةُ الخطابِ بالالتفاتِ

عبّر النّظمُ الجليلُ بضميرِ الغيبةِ في قوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ دونَ الخطابِ، وذلك لدَلالتَيْن: الأوّلى: إمّا أن يكونَ التفاتًا، وأصلُ الكلامِ: (لولا أُنزِلَ عليك)، وهو من حكايةِ القولِ بالمعنَى، كقولِه تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31]، أي: قلْ لهم أقيموا، ونكتةُ ذلكَ نكتةُ الالْتفاتِ لتجديدِ نشاطِ السّامعِ. والثّانيةُ: أنْ يكونَ هذا القولُ صدَرَ منهم فيما بينَهم ليبيِّنَ بعضُهم لبعضٍ شُبهةً على انْتفاءِ رسالةِ محمَّدٍ ﷺ، أوْ ما صدَرَ منهم للمسلمينَ طمعًا في أنْ يَردّوهم إلى الكُفْرِ(1).

علّةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ على المسندِ في: ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾:

تخصيص إنزال الآيات لبيان إظهار مكانة سيّد الكائنات، وإبطال لزعم أصحاب الشبهات

قدّمَ النّظمُ الكريمُ في قولِه عزّ ذكرُه: ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ شبهَ الجملةِ على المسندِ، وأصلُ الكلامِ أن يُقالَ: (أُنزِلَت آيةٌ عليه)؛ تخصيصًا لنزولِ الآيةِ على النّبيِّ ﷺ؛ لأنّه - بزعمِهِم - هو منِ ادّعى نزولَ القرآنِ عليه.

نكتةُ توسُّطِ الجارِّ والمجرورِ بينَ الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ ونائبِ الفاعلِ:

الاعترافُ الضِّمنيُّ بمَن أَنْزَلَ القرآنَ، ومَن أُنزِلَ عليه القرآنُ

يُلاحَظُ توسُّطُ الجارِّ والمجرورِ بين لفظ﴿أُنزِلَ﴾ و لفظ﴿ءَايَةٞ﴾؛ لاختصاصِ المُنَزَّلِ عليه القرآنُ، وهو محمَّدٌ ﷺ بالإنزالِ، وهذا اعترافٌ ضمنيٌّ بنبوَّتِه ﷺ، دونَ التّصريحِ بها، واعترافٌ يسبقُه كذلكَ بأنَّ المنزِّلَ للقرآنِ هو اللهُ ﷻ، ولكنَّهم يجحدونَ ذلك بألسنتِهم ظُلمًا وعُلوًّا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/130.

سرُّ عودةِ الضَّميرِ في ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ على النَّبيِّ ﷺ:

وضوحُ مَنْ أُسنِدَ إليه الطَّلبُ، وقصدُهم إحراجَهُ ﷺ

عادَ الضَّميرُ الهاءُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النَّبيِّ ﷺ لبيان شدّةِ حضورِه في أذهانِهم، فهم لم يقولوا: (لو أُنزِلَت آيةٌ من اللّه) بلا ذكرِ مَن تُنَزَّلُ عليه، ولأنّ مدارَ تكذيبِهم هو شخصُ النّبيِّ ﷺ، كما صرّحوا بذلك في ما حُكي عنهم بقوله جلّ شأنُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: 31]؛ لوضوحه، حيث أنَّ هذا الطَّلبَ منهم كانَ لإفحامِ الرَّسولِ ﷺ - حسَبَ زَعمِهم وَوَهمِهم - فهم يعلمونَ أنَّ طلبَهم لن يُلَبَّى؛ لأنَّه قائمٌ على التَّعجيزِ، وليس طلبًا للهدايةِ إلى الحقِّ.

توجيهُ لفظِ ﴿ءَايَةٞ﴾:

الآيةُ الحسّيّةُ الخارقةُ الّتي يريدون لونٌ منَ السّفهِ التّافهِ المفتونِ

الآيةُ: علامةُ الصِّدق، تؤيِّدُ من أتَى بها، وتدفعُ مَنْ حولَه للإيمانِ بصدقِ صاحبِها واتّباعِه، وقد أرادَ القومُ خارقًا للعادةِ على حَسَبِ اقتراحِهم مثلَ قولِهم: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الإسراء: 93]، وقولِهم ﴿لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ﴾ [القصص: 48]، وهذا من جَهلِهم بحقائقِ الأشياء، وتحكيمِهمُ الخيالَ والوهمَ فيها، فهم يفرِضونَ أنَّ اللّه تعالى أرادَ إظهارَ صدقِ رسولِه ﷺ، وأنّه يَستفزُّهُ تكذيبُهم إيّاه، فيغضبُ ويُسرِعُ في مُجاراةِ عنادِهم ليكُفّوا عنه، فإنْ لم يفعلْ فقد أَفْحَموهُ وأعجَزوهُ وهو القادرُ، فتوهَّموا أنَّ مُدَّعِيَ الرِّسالةِ عنهُ غيرُ صادقٍ في دَعْواهُ، وجعلوا ذلك دليلًا على أنّه غيرُ مُؤيَّدٍ منَ اللّه، فاستدلّوا بذلكَ على انتفاءِ أنْ يكونَ اللّه أرسلَهُ؛ لأنّه لو أرسلَهُ لأيَّدَهُ بما يوجِبُ القَبولَ عندَ المُرسَلِ إليهم، وما درَوْا أنَّ اللّه قدَّرَ نِظامَ الأمورِ تقديرًا، ووضَعَ الحقائقَ وأسبابَها، وأَجْرى الحوادثَ على النِّظامِ الَّذي قدَّرَهُ، كلُّ ذلكَ يَجري على نُظُمٍ اقْتضَتْها الحِكمَةُ لا يَحمِلُهُ على تبديلِها سُؤالُ سائلٍ ولا تَسفيهُ سَفيهٍ، وهو الحَكيمُ العَليمُ، ولكنَّ القومَ جعلوا إتْيانَ الرَّسولِ ﷺ بآيةٍ توافقُ مُقترحاتِهم

علَّةً لإيمانِهم بالرَّسولِ ﷺ أو عدم إيمانِهم به، فإنْ جاءَهُم بها آمنوا وإلّا فلا، فاستدلّوا بلفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ كما يريدونَ على انتفاءِ أن يكونَ اللّه أرسلَهُ، ذلكَ أنّه لم يأتِهم بآيةٍ كما طلبوا، فلو أنَّ اللّه أرسلَه لأيَّدَهُ بما يوجبُ القَبولَ عند المُرسَلِ إليهم، وما درَوْا أنَّ اللّه تعالى إنَّما أرسلَ الرَّسولَ ﷺ رحمةً بهم، وطلبًا لصلاحِهم، وأنّه لا يضرُّه عَدَمُ قَبولِهم رحمَتَهُ وهِدايتَهُ[1].

سرُّ تنكيرِ لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾:

لفظُ (آيةٌ) يفيدُ عمومَ ما طلبوه، وهو تحدٍّ غيرُ معقولٍ

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بصيغة التّنكيرِ في لفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾ لما في التّنكير من دلالةٍ على التّكثيرِ والتّعظيمِ، وهي هنا تُفيدُ عمومَ الآياتِ الّتي اقْترحوها مُتحدِّينَ فيها رسولَ اللّه ﷺ، فإنْ أَتَى ﷺ بآيةٍ من تلكَ الآياتِ الّتي تمالأَ القومُ على طلبِها، كفَى ذلكَ سببًا لإيمانِهم بنبوَّتِه، ولكنَّ اللّه يعلمُ كِذبَهم وعنادَهم، ولو علمَ صدقَ نيَّتِهم لأَنْزلَ لهم آياتٍ كما أنزلَ على الأوَّلين، ولكنَّ طلباتِهم تعجيزًا ومماحكةً ومُماطلةً في عدمِ الاستجابةِ للّه تعالى ولرسولِه ﷺ.

العدولُ عن اسمِ الجلالةِ إلى لفظِ الرَّبِّ: ﴿رَّبِّهِۦ﴾:

الإيماءُ إلى ربوبيَّةِ الله المُصطَفِي، لرسولِه المُصطفَى الوفِيّ

عدل النّظم الجليل عن اسم الجلالةِ إلى لفظِ الرَّبِّ المضافِ إلى ضميرِ الرّسولِ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إيماءً إلى الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ بالتَّعلُّقِ بالرَّسولِ ﷺ، وهي ربوبيَّةُ المُصطفي (بصيغةِ اسم الفاعلِ) للمُصطفَى (بصيغةِ المفعول) من بين بقيَّةِ الخَلْقِ المُقتضيةِ الغَضَبَ لغَضَبِه، لِتوهُّمِهم أنَّ غضبَ اللّه مِثْلُ غضبِ الخلائقِ يَستدعي الإسراعَ إلى الانتقام، وما عَلِموا أسرارَ الحكمةِ الإلهيَّةِ والحُكْمِ الإلهيِّ والعِلمِ الأَعلَى[2]، فأشاروا بذلك إلى أنّ المُحسنَ إليك بالنّبوّةِ قادرٌ على أن يُحسنَ إليك وإلينا بإنزالِ الآيةِ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/130 - 131.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

سؤالُ المعاندِ يتفرّعُ ويترتّبُ عليه إعطاءُ الجوابِ الكافي لأولئكَ المعاندين

دلالةُ الفاءِ ﴿فَقُلۡ﴾:

لَمّا أمرَ اللّه رسولَه ﷺ بأنْ يُجيبَ عن اقتراحِهم بما هو الحقيقةُ المرشدةُ - وإنْ كانت أعلَى من مداركِهم - جوابًا فيه تعريضٌ بالتَّهديدِ لهم، وهو قولُه: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾، فجاءَ بفاءِ التَّفريعِ هنا دونَ بعضِ نظائرِه؛ للإشارةِ إلى تعقيبِ كلامِهم بالجوابِ، شأنَ المُتمكِّنِ من حالةِ المتثبِّتِ في أمرِه[1].

أقوالُهم ومقترحاتُهم لا تنقطعُ بفعلِ الكِبْرِ والعنادِ

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ المضارعِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾، نجد الفعلَ المضارعَ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ الّذي يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرارَ؛ لبيانِ أنَّ هذا القولَ مُستمرٌّ من جهتِهم، فهم لا يَعدَمونَ وسيلةَ المناكفَةِ والمُماحكةِ في اقتراحاتِهم المتكرِّرةِ الّتي لا يبتغونَ من ورائها إلزامَهمُ الحُجَّةَ ليؤمنوا، ولكن يَعرِضونَ ما عندَهم من أساليبِ التَّسويفِ والمُماطلَةِ قضاءً للوقتِ واستنزافًا لِما يمكنُهم أنْ يصِلوا من خلالِه إلى مزيدٍ من التَّعنُّتِ والعنادِ.

تثبيتٌ للرّسولِ ﷺ، وتعريضٌ بالمعاندين لنهجه وهداه

دَلالةُ فعلِ الأمرِ ﴿فَقُلۡ﴾:

قولُه تعالى لنبيِّه ﴿فَقُلۡ﴾ أمرٌ ربّانيٌّ بأنْ يُجيبَهم عنِ اقتراحِهم - بالمجيءِ بآيةٍ من ربِّه - بما هو الحقيقةُ المُرشِدةُ لهم والمُسْكِتةُ لتخرُّصاتِهم وأوهامِهم في مقترحاتِهم، وهي تحملُ في طيّاتِها أمرَين اثنَين: الأوَّلُ: بيانُ رعايةِ اللّه لرسولِه ﷺ وعنايتِه الخاصَّةِ به وبرسالتِه، مصحوبًا ذلك بتثبيتِه وتأييدِه في دعوتِه أمامَ أولئكَ المتكبِّرينَ المتعنِّتين. والثّاني: تَعريضٌ بالتَّهديدِ لهم والوعيدِ الشَّديدِ جرّاءَ مقترحاتِهم الَّتي يصدِّرونها تعجيزًا ومماطلةً واستنكافًا عن طريقِ الحقِّ والإيمانِ، وإيغالًا في طريقِ الباطلِ والضَّلالِ[2].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5831.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

دَلالةُ أسلوبِ القَصرِ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾:

الآياتُ غيوبٌ مختصَّةٌ بالله، ولا أحدَ يصرِّفُها سواه

جاءَ البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ القَصرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾؛ للرَّدِ عليهم في اعتقادِهم أنَّ في مُكْنَةِ الرَّسولِ الحقِّ، أنْ يأتيَ بما يسألُه قومُه منَ الخوارقِ، فَجَعلوا عدمَ وقوعِ مُقترحِهم علامةً على أنَّه ليس برسولٍ منَ الله، فلذلكَ ردَّ عليهم بصيغةِ القصرِ الدّالَّةِ على أنَّ الرَّسولَ ليس له تصرُّفٌ في إيقاعِ ما سألوهُ ليعلَموا أنَّهم يَرْمونَ بسؤالِهم إلى الجراءةِ على الله تعالى بالإفحام، وليَرْعَووا عمّا هُم عليه من طلبِ الآياتِ الَّتي لم يقترحوا على الرَّسولِ إنزالَها إلّا تعجيزًا واستنكافًا عن قَبولِ وَحيِ الله بالقرآنِ الَّذي يُعدُّ أعظمَ معجزةٍ أوتيَها رسولٌ مُبلِّغٌ من عندِ الله[1].

والقصرُ هنا باعتبارِ حالِ المخاطَبِ قصرُ إفرادٍ لظنِّهم أنَّ معرفةَ الغيبِ مُشتركةٌ بين كثيرين، فردَّ عليهم بنقضِ ذلك، وباعتبارِ الطّرفين هو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ؛ حيث قَصَرَ صفةَ العلمِ بالغيبِ على الله تعالى، وهو قَصرٌ حقيقيٌّ باعتبارِ الحقيقةِ والواقعِ؛ حيث إنّ علمَ الغيبِ مُختَصٌّ بالله تعالى حقيقةً وواقعًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ في: ﴿ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾:

علمُ الغيبِ ثابتٌ مؤكَّدٌ لله وحدَه دونَ غيره

الجملةُ الاسميَّةُ تدُلُّ على ثباتِ الأمرِ الَّذي ورَدَتْ بشأنِه وتوكيدِه، وهنا جاءَتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ أنَّ الغيبَ ثابتٌ قائمٌ للّه وحدَه دونَ سواه، مُختَصٌّ بعلمِ الله المُطلَقِ، ليس ذلك لنبيٍّ مُرسَلٍ ولا لملَكٍ مُقرَّبٍ، ويؤيِّدُ هذا قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾، فكلُّ آياتِ الله تعالى، وما غابَ عن حواسِّ الإنسانِ ومداركِه وعلمِه في الدُّنيا والآخرةِ، إنَّما هو مُستقرٌّ معلومٌ للّه وحدَه ﷻ[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

دلالةُ مُتعلّقِ الجارِّ والمجرورِ المحذوفِ في جملة الحصر: ﴿لِلَّهِ﴾:

الحذفُ بعدَ أداةِ الحصرِ أقوى في الدّلالة على الاختصاصِ

جاءَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ محذوفًا، تقديره: إنَّما الغيبُ كائنٌ أو قائمٌ أو مُختصٌّ للّه، وهذا الحذفُ للخبرِ أقوى في الدَّلالةِ على الاختصاص، وخاصَّةً بعد أداةِ الحَصرِ (إنَّما)، فكلُّ ذلكَ أفادَ حصرَ علم الغيبِ واستئثارِه باللّه وحدَه دون سواه[1].

دَلالةُ اللّامِ في: ﴿لِلَّهِ﴾:

اختصاصُ علمِ الغيبِ باللّه، فهو وحدَه الَّذي يملِكُه ويقدِرُ عليه

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ لامُ المِلك، وهي تدُلُّ على ملكيَّةِ الأمورِ المغيَّبةِ للّه واختصاصِه ﷻ بها دونَ سواه، ومَنْ ملَكَ شيئًا قدَرَ عليه، فهي للاختصاصِ العلميِّ دونَ التّكوينيّ، فإنَّ الغيبَ والشَّهادةَ في ذلكَ الاختصاص سيّان، والمعنَى: أنَّ ما اقترحتُموهُ وعَلِمتُم أنَّه من لوازمِ النُّبوَّةِ وعلَّقتُم إيمانَكم بنزولِه، هو منَ الغُيوبِ المُختَصَّةِ باللّه تعالى لا وُقوفَ لي عليه[2].

عِلَّةُ ورودِ فعلِ الأمرِ في: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

تَذْييلٌ على اختصاصِ علمِ الغيبِ باللّه وحدَه

في قولِه تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أمرٌ بالانتظارِ موجَّهٌ للمشركين؛ أي: فانْتظِروا نزولَ ما اقترحتُموه، ومع ما حملَه هذا الأمرُ من تهكُّم بهم وتسفيهٍ لاقتراحاتِهم، فإنَّه كذلكَ جعلَ ترتيبَ الأمرِ بالانتظارِ دليلًا على اختصاصِ علمِ اللّه بالغيبِ دونَ سواه[3].

دلالةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ المؤكَّدةِ بـ (إنّ) في: ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾:

تأكيدُ وقوعِ عقابِ اجترائِهم على اللّه باقتراحاتِهم الضّالّة

تأكيدُ الجملةِ الاسميَّةِ ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ المُصدَّرةِ بـ ﴿إِنِّي﴾ لإفادةِ التَّأكيدِ لما يفعلُ اللّه بكم لاجْترائِكم على مثلِ هذه العظيمةِ من جُحودِ الآياتِ، واقتراحِ غيرِها تكبُّرًا وعنادًا واستزادةً منَ الجحودِ والكفرِ، والصَّدِّ عن سبيلِ اللّه، ولقد جاءَ تحقُّقُ الوعيدِ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/230.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/231، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

بهذا الانتظارِ في أوَّلِ غزوةٍ ومعركةٍ بين أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ، فانتصرَ جنودُ الحقِّ على جنودِ الباطلِ، وقُتِلَ رؤوسُ الكُفرِ والطُّغيانِ الَّذين كانوا يقترحونَ نزولَ الآياتِ كِبْرًا وعنادًا، وأُبيدَتْ مقترحاتُهم الزّائفةُ وضلالاتُهمُ الواهمةُ[1].

نكتةُ ردِّ العجُزِ على الصّدرِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾:

تأكيدُ حُصولِ المنتظَرِ المنصوصِ عليه في الآيةِ الكريمةِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ بردِّ العَجُزِ ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ على الصَّدرِ ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، وهو منَ المحسِّناتِ اللَّفظيَّةِ[2] الَّتي تمنحُ المعنَى قوَّةً وتأكيدًا لمضمونِ ما وردَتْ بشأنِه هنا منَ الأمرِ بانتظارِ عاقبةِ أولئكَ الجاحدينَ أصحابِ المقترحاتِ الضّالّةِ والأغراضِ الخبيثةِ، وسوءِ الأدبِ مع اللّه ورسولِه ﷺ، والأمرُ كلُّه بقدرةِ اللّه وعلمِه، حتَّى أنَّ رسولَ اللّه ﷺ ليسَ له من الأمرِ شيءٌ، فسيكونُ منَ المُنتظِرينَ لِما سيحلُّ بهم من عقابِ اللّه وعذابِه.

دلالةُ الفاءِ والجملةِ بعدَها: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾:

الرَّسولُ ﷺ وقومُه كلاهما مُنتظِرٌ ما سوف تقضي به المشيئةُ

جملةُ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ صُدِّرَتْ بالفاءِ الَّتي تُفيدُ التَّفريعَ، فهذه الجملةُ تفريعٌ على جملة: ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾؛ أي: ليس دَأبي ودَأْبُكم إلّا انتظارَ ما يأتي به اللّه إن شاءَ، وهذا كقولِ نوحٍ عليه السلام لقومِه: ﴿إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣﴾ [هود: 33]، فأنا وإنْ كنتُ رسولَ اللّه، لكنَّني لا أملِكُ لنَفسي نفعًا ولا ضَرًّا، ولا حولَ ولا قوَّةَ لي إلّا باللّه[3].

سرُّ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾:

تهديدُ المشركينَ بعاقبةِ عنادِهم

التّعبيرُ باسمِ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ فيه تعريضٌ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/647.

(2) تقدّمَ أنّ ردَّ العجُزِ على الصّدرِ من فنون البديع، وسبقَ بيانُ أقسامِه، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩﴾ [يونس: 19]. يُنظر: ابن المعتزّ، البديع، ص: 47.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/131.

بالتَّهديدِ والوعيدِ لأولئكَ المقترِحينَ المعاندينَ، أنَّ ما يأتي به اللّه لا يترقَّبونَ منه إلّا شرًّا لهم جزاءً وِفاقًا على كبرِهم وعنادِهم وتكذيبِهم للحقِّ مع ظُهورِ دلائِلِه وآياتِه، كقولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام: 8]، فدلَّ التّعبيرُ باسمِ الفاعلِ على ثباتِه وشدّةِ ثقتِه بربِّهِ ﷻ، فهو ثابتٌ على الانتظارِ لا يزولُ حتّى يتحقّقَ الوعيدُ، وهذا يدلُّ على شدّةِ التّهديدِ.

دَلالةُ المعيَّة في: ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾:

المعيَّةُ مَجازيَّةٌ لـلاشـتراكِ في مُطلَقِ الانتظارِ

المعيَّةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾ مَعيَّةٌ مجازيَّةٌ لا حقيقيَّةٌ، وذلكَ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ ليس معهم فيما هُم فيه، وما هُم عليه من المقترحاتِ الّتي تدلُّ على مزيدِ الكِبرِ والجحودِ للحقِّ، ولذلكَ فهي معيَّةٌ مجازيَّة مُستعمَلَةٌ هنا في الإشراكِ في مُطلَقِ الانتظارِ[1].

تشابهٌ لفظيٌّ بين آيتي سورة يونس، وسورة الرّعد:

كلتاهما تبيّنُ رجاءَ الكافرين أن يـنـزلَ على الرّسولِ آية من ربّه، مع اختلافٍ في فحوى جوابِ كلٍّ منهما

التَّشابهُ بين قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧﴾ [الرَّعد: 27].

في سورة يونس: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ والسِّياقُ يدلُّ على أنَّ المرادَ الكافرون، وهنا في سورة الرَّعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صرّح بهم، وفي كلتا السّورتين جاءَ بيانُ مُقترحِهم، وهو إنزالُ ﴿ءَايَةٞ﴾، ففي الرَّعد المرادُ: آيةٌ ممّا اقترحوا، نحوُ ما في قولِه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، وقولِه: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: 21].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/132.

وفي يونس: آيةٌ ما؛ لأنَّهم لم يهتدوا إلى أنَّ القرآنَ آيةٌ فوق كلِّ آيةٍ، وأنكروا سائرَ آياتِه ﷺ، وفي يونس جاءَ فعلُ الأمرِ ﴿قُلْ﴾ مُصدَّرًا بالفاءِ ﴿فَقُلْ﴾ الواقعةِ في جواب ﴿لَوْلَآ﴾، وهي فاءُ التَّفريعِ؛ لأنَّ ما بعدَها بيانُ حقيقةٍ تُسكِتُ الكافرينَ وتهدِّدُهم لعنادِهم، وهو قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾، وليس الأمرُ كذلكَ في سورةِ الرَّعد[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أُنْزِلَ عَلَيْه) و(أُنْزِلَ إِلَيْه):

(عليه) تُفيدُ الاستعلاءَ والقوَّةَ والشِّدّةَ، و (إليه) تُفيدُ الوصولَ مع القُربِ والمباشرةِ

تأتي (على) في الغالبِ في العقوبات، كما في قولِه تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذّاريات: 41]، وفيها معنَى الاستعلاء، ولذلك كانَ فيها معنَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ، أمّا (إلى) فليستْ كذلك، وإنَّما تُفيدُ منتهَى الغايةِ فقط.

وهناك كذلك فرقٌ بين (إليه) و (عليه)، قالَ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨﴾ [الأنعام: 8]، فيوجدُ هنا في السِّياقِ تهديدٌ ووعيدٌ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾ [الفرقان: 7] لا يوجَدُ في هذا السِّياق تهديدٌ، وكذلك فإنَّ (على) فيها معنَى نوعٍ منَ الاستعلاءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ [القصص: 79]، و(إلى) فيها معنَى القُربِ والمباشرةِ، كما يُقالُ: أُرسِلَ إليه أو أُرسِلَ إلينا، كأنَّه قريبٌ منّا ومباشِرٌ لنا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: 136].

فجاءَ التّعبيرُ في الآية بلفظِ ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾؛ للدّلالة على أن تكون تلك الآيةُ مُتمكّنةً مُستعليةً، والاستعلاءُ هنا يُفهمُ أنّها بحيث ليسَت من فعلِ البشرِ.

---

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 151.

الآية والبيّنة:

الآيةُ عـلامةٌ ظـاهـرةٌ ثـابـتـةٌ، والبـيّـنـةُ دلالـةٌ واضــحــةٌ، عقليَّةً كانتْ أو محسوسةً

الآيةُ: هي العلامةُ الثّابتةُ من قولكَ: تأيَّيْتُ بالمكانِ إذا تَحبّسْتُ به، وتَثبَّتُّ[1]. والبَيِّنةُ: من بانَ واسْتبانَ وتبيَّنَ، وقد بيَّنتُه، قالَ اللّه سُبحانه: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 38]. والبيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ عقليَّةً كانَتْ أو محسوسةً، قالَ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17][2]، فعبّرَ في الآية بلفظِ ﴿ءَايَةٌ﴾؛ لأنّهم أرادوا آيةً ثابتةً برهانًا على صدقِه، ولم يطلبوا مزيدًا منَ البيانِ والإيضاحِ، فكلُّ شيءٍ بَيّنٌ لهم وواضحٌ، ولكنّهم طلبوا ذلك للتّعجيزِ بحسب ظنِّهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 368، والرّاغب، المفردات: (أي)، وابن منظور، لسان العرب: (أيا).

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بين).

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ٢١﴾ [يونس: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبْلَها وجهان:

عـادةُ المشركين المكرُ والجحودُ والعِنادُ وعدمُ الإنصافِ وكفرانُ الإحسانِ

الأول: بعد أنّ ردّ اللّه تعالى على المشركين الطّالبين إنزالَ آية كونيّةٍ غيرِ القرآن بأنّ هذا منَ الغيبِ المستأْثَرِ به بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، ذكرَ جوابًا آخرَ، وهو أنّ أولئك المشركين لا يَقنَعون بالآيات إذا رأوْها بأعينِهم؛ لأنّ عادتَهم المكرُ والجُحودُ والعِنادُ وعدمُ الإنصاف، فكثيرًا ما رأوْا الآياتِ الدّالّةَ على وَحدانيّة اللّه ثمّ يَمكرون فيها، فهم إن أصابتْهمُ الشّدّةُ تضرّعوا، وإن جاءتهمُ الرّحمةُ بطِروا وكفروا، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾.

الثاني: لمّا كان طلبُ الكفّار الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ [يونس: 20] مُحرِّكًا لنفوس الخيّرين إلى ترجّي إجابةِ سؤالهم، أتبعَه سبحانه بما يُبيّنُ أنّ ذلك غيرُ نافعٍ لهم؛ لأنّ طلبَهم محضُ تعنّتٍ مبيِّنًا أنّ رحمته محقّقةُ الوجود كثيرةُ الورودِ إليهم، وأنّ لهم آيةً عُظمى من أنفسِهم لا يحتاجون معها إلى التّعنُّتِ بطلبِ آيةٍ؛ وهي دالّةٌ على نتيجةِ مقصودِ السّورة الذي هو الوَحدانيةُ وأنّ إشراكَهم هو كفرانٌ للإحسان، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/95.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذَقْنَا﴾: الذّال والواو والقاف أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشّيءِ من جهة الطّعمِ، وأمرٌ مُستذاقٌ: أي مجرّبٌ معلومٌ[1]، والذّوقُ هو وجودُ الطّعم بالفم، وأصلهُ فيما يقلُّ تناوُلُه دون ما يَكثرُ منهُ[2]، والذّوقُ يكون فيما يُكره ويُحمدُ، ومعظمُ ما جاء في القرآن الكريم من تركيب (ذوق) مجازيٌّ؛ ذوقُ عذابٍ، أو ذوقُ نعمةٍ ورحمةٍ[3]. وأَذَقْنا: أصبْنا، وهو هنا مجازٌ في إدراكٍ معنويٍّ، وهو الرّحمةُ والنّعمةُ التي أصابتْهم بعد الضّرّاء[4].

2) ﴿ضَرَّآءَ﴾: الضّرّ: خلافُ النّفعِ، يقال: ضرّه ضرًّا: ألحقَ به أذًى أو مكروهًا[5]، والضُّرّ والضّرَرُ: سوءُ الحال إمّا في النّفس؛ لقلّةِ العلم والفضل والعفّة، وإمّا في البدن؛ لفُقدانِ جارحةٍ ونقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلّةِ مالٍ وجاهٍ[6]، والضّرّاء: النّقصُ في الأموالِ والأنفسِ، والسَّنَةُ (أي الجدْبُ والقحْطُ) وغيرها، وكلُّ ما يقابل السّرّاء بالنَّعماء[7].

والضّرّاء هنا موافقةٌ لمعناها اللّغويّ، وتعني: الشّدّةَ والبلاءَ والقحْط، والجوعَ والفقر والمرضَ، والخوفَ وغيرَها[8].

3) ﴿مَسَّتۡهُمۡ﴾: الميم والسّين أصلٌ واحدٌ يدلّ على جَسّ الشّيء باليد[9]، والمسّ: مباشرةُ الجسم، والمسُّ يُقال فيما يكون منه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ، فالمسُّ كاللّمسِ، لكنّ اللّمسَ قد يُقال لطلبِ الشّيء وإن لم يوجَد، والمسّ يُقال في كلّ ما ينالُ الإنسانَ من شرٍّ[10]، وحقيقةُ المسّ: وضعُ اليد على شيءٍ ليُعرف وجودُه أو يُختبرَ حالُه، ثم يُسمّى كلُّ ما يصلُ إلى الشّيء ماسًّا على سبيل التّشبيه، فيقال: فلانٌ مسّهُ التّعبُ والنّصَبُ، وقدِ استُعمل المسُّ في أكثرِ ما ورد في القرآن الكريم بمعنى الإصابة بمكروه، وإيقاعِ الضّرّ ونحوهِ، ويُكنّى أيضًا بالمسّ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذوق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ذوق).
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/109، والحجازي، التفسير الواضح: 2/51.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضرر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ضرر).
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 2/13، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/109، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مس).

عنِ الجماع، وعنِ الجنون[1]. ومسَّتْهم: أصابَتْهم وخالطَتْهم حتى أحسّوا بسوءِ أثرِها فيهم[2].

4) ﴿مَّكۡرٌ﴾: الميم والكاف والراء كلمتان متباينتان: إحداهما المكرُ: الاحتيالُ والخِداع، والأخرى المكرُ: خَدالةُ السّاق[3]، ومادّة الكلمةِ فيها معنى الاختزانِ الرّقيق، أوِ اللّطيفِ الذي لا يَبرزُ مُتميّزًا، فالمكرُ: هو تدبيرٌ (يُخْفَى ويُخْتَزَن) لأَحْداثٍ أو أُمور لتقعَ في المستقبل على نحوٍ ما، والمكرُ احتيالٌ في خُفيةٍ[4]، وعرّفه الراغب بأنّه: "صرفُ الغَير عمّا يقصِده بحيلةٍ، وذلك ضربان: مكرٌ محمودٌ؛ وذلك أنْ يتحرَّى بذلك فعْلَ جميلٍ، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]، ومكرٌ مذمومٌ؛ وهو أن يتحرَّى به فعْلَ قبيحٍ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: 43]"[5]. والمكر هنا: يشملُ الكفرَ والجُحودَ والنّفاقَ والاستهزاءَ والتّكذيبَ[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

سوءُ طبْعِ الكفّارِ يجعلُهم يُسرعون بالمكْرِ في مقامِ الشُّكرِ

يبيّن اللّه تعالى تنكُّرَ المشركين للأدلّةِ العقليّةِ والحسّيّةِ والقواعدِ الخُلُقيّةِ التي تقتضي شُكرَ النّعمةِ الإلهيّةِ، فإذا أذاقهمُ اللّه رحمةً من بعد ضرّاءَ مسّتْهم، كالرّخاء بعد الشّدّة، والخصْبِ بعد الجدْبِ، والمطرِ بعد القحْطِ، إذا هم يُسرعون بالمكر في مقام الشّكر استهزاءً بآيات اللّه، وتكذيبًا، وتنكُّرًا، فيردُّ اللّه عليهم على لسان رسوله بأنّه أسرعُ استدراجًا وجزاءً لهم على مكائدِهم قبْلَ أن يُدبّروها؛ لأنّه لا يخفَى عليه شيءٌ من مكرِهم، فله حَفظةٌ منَ الملائكة يَكتبون جميعَ ما يَمكرُه الكفّارُ، ويَعرضونه على عالِم الغيب والشّهادةِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مس).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 4/127، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر).
(5) الراغب، المفردات: (مكر).
(6) الماوردي، النكت والعيون: 2/430، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/258.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَإِذَآ﴾:

في العطفِ زيادةُ بيانٍ لتعنُّتِهم، وفي الاستئنافِ تقريرٌ لهذا التّعنُّت

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ [يونس: 20]، وفائدة العطف: زيادةُ بيانٍ بذكرِ جوابٍ آخرَ على طلبِهم المعجزاتِ؛ بأنّ رحمته سبحانه محقّقةُ الوجود كثيرةُ الورود إليهم، وأنّ لهم آيةً عُظمى من أنفُسِهم لا يحتاجون معها إلى التّعنّتِ بطلَبِ آية[1].

الآخرُ: أن تكون الواو استئنافيّةً و(إذا) ظرفٌ لِمَا يُستقبلُ منَ الزّمان خافضٌ لشرطِه منصوبٌ بجوابه، وفائدتُه: تقريرُ المعنى السّابقِ؛ وهو تعنّتُهم بجملةٍ شرطيّةٍ تستحضرُ نَموذجًا لحالة تعنّتٍ حصلَ فيما مضى منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ في الحال.

معنى ﴿وَإِذَآ﴾ ودلالةُ دخولها في: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾:

(إذا) لِتحقُّق الوقوعِ، فمكرُ الكافرين وانقلابُهم على الفطرةِ أمرٌ مقطوعٌ بوُقوعِه

استعمل القرآنُ ﴿وَإِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ دونَ (إن) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 9]؛ لأنّ من شرطِ (إذا) أن يكونَ التّعليقُ بها على أمرٍ معلوم مقطوعٍ بوقوعِه، أو كثيرِ الوقوع، بخلاف (إنْ) فإنّها لا يكونُ التّعليقُ بها إلّا في مُبهمٍ مشكوكٍ فيه[2]، أي لِما هو أقلُّ عموم الشّرط، أو لِما هو نادرٌ، أو لِما ليس له وجودٌ أصلًا، وقد يكون آكدَ، وقد يكونُ مستحيلًا، وقد يكونُ قليلًا.

والحديثُ هنا عن طِباع الكفّار وعادتِهم في الانقلاب على الفطرة، والمسارعةِ في المكرِ، ولذا ناسبَ استخدامَ (إذا) دون (إنْ) للإشارةِ إلى ذلك.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/95.

(2) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/309.

أو أنْ يكون سرُّ الاستعمال في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾ هو كونُ رحمةِ الله محقّقةً تصيبُ عمومَ الناس، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 9] فالحديث عن واحدٍ، وقوله: ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ [هود: 9] هي حالة أقلُّ من الأولى، وهي حالةُ تربيةٍ[1].

دَلالةُ الجملةِ الشّرطيّةِ وفائدتُها في: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ﴾:

اسْتِحضارُ حالةِ فـعْـلٍ حَـصـلَ فيما مضى منزلةَ الـواقـع المشاهَدِ في الحال

المشهورُ أنَّ الشّرطَ والجزاءَ لا يتعلّقان إلّا بالمستقبل، فإنْ كان ماضيَ اللّفظ كان مستقبلَ المعنى[2]، ولكنْ جيء بعده في نظم الكلامِ بالحرف الدّالِّ على المفاجأة، التي من حقِّها أن تكونَ حاصلةً زمنَ الحال لا الاستقبالِ، وبالتّالي تكونُ فائدةُ دلالةِ الجملةِ الشّرطيّةِ التي دخلت عليها (إذا) الفُجائيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ استحضارَ حالةِ فعلٍ حصلَ فيما مضى ﴿أَذَقۡنَا﴾ منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ في الحال[3].

بَلاغةُ الاسْتعارةِ في التّعبيرِ بالإذاقةِ في: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا﴾:

رحمةُ الله تعالى لا تُـذاقُ بالفمِ وإنّما تُحَسُّ

الإذاقةُ في الأصل تَناوُلُ الشّيء القليلِ بالفم لإدراك الطّعامِ واختبارِه، ثم استُعيرت للإحساسِ بالرّحمة، حيث شُبِّه ذلك الإحساسُ بذوقِ الطَّعم بجامعِ سُرعةِ اتّصالِ الإحساسِ بالإدراك، وسُرعةِ زوالِه كما تزولُ الطُّعومُ[4]، فالمشَبَّهُ هو إصابةُ المشركين بالرّحمة، والمشبَّهُ به هو الإذاقةُ بالفمِ، ووجهُ الشَّبه هو سرعةُ الإحساس بالشّيء القليلِ واختبارِه، والاستعارةُ تصريحيةٌ لحذفه المشبّهَ، والتّصريحِ بالمشبَّهِ به.

(1) السامرائي، لمسات بيانية: 5/339.

(2) إبراهيم الشمسان، الجملة الشرطية عند النحاة العرب، ص: 150.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/34.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/133.

وفي هذه الاستعارةِ إشارةٌ إلى إسراعِهم بالمكرِ؛ أي من بدايةِ مُخالطتِهم للنّعمةِ كفروا بصاحبِها سبحانه، إذِ الذّوقُ هو أوّلُ المخالطةِ[1]، وتنبيهٌ على أنّ الإنسانَ بأدنى ما يُعطَى منَ النّعمةِ يَأشَرُ ويَبطَرُ، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: 6 - 7][2]، ودلالةٌ على أنّهم تَمتّعوا بعد الحِرمانِ[3].

نُكتةُ الإضافةِ: ﴿أَذَقۡنَا﴾:

تعظيمُ ما عظَّمَ اللهُ، وإسنادُ الرّحمةِ إليه والضّرّاءِ إلى غيرِه من كمالِ الأدبِ معه

أسندَ الفعلَ إليه سبحانهُ في مقام العظَمةِ إشارةً إلى سَعةِ جودِه؛ فرحمتهُ وسعتْ كلَّ شيءٍ، وإشارةً إلى عدم القُدرة على مخالفته، أي: أذقنا بعظَمتِنا التي لا يمكنُ مُخالفتُها[4].

كما أنّ في إسناد إذاقتِه الرّحمةَ إلى ضمير الجلالةِ، بخلاف المساسِ الذي أسنده إلى الضرّاء، ﴿ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾؛ رعايةً للأدب مع اللّه تعالى؛ لأنّه وإنْ كان كلُّ شيءٍ من عنده تعالى إلّا أنّ الأدبَ معه سبحانه يقتضي إسنادَ الخيرِ إليه، والشّرِّ إلى غيرِه كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء: 80][5]، وفي الحديث: «والخيرُ كلّه في يديك، والشرُّ ليس إليك»[6].

معنى (أل) في: ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

استحضارُ المعهودِ الذِّكْريّ؛ وهمُ المشركون أو جميعُ الكفّارِ

المرادُ بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ النّاسُ المعهودون (المشركون) المتحَدَّثُ عنهم بقرينةِ السّياقِ على الوجهَيْن المتقدّمَيْن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾[7]، وقيل: إنّ لفظَ النّاس عامٌّ لجميع الكفّارِ[8].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.
(2) الراغب، المفردات: (ذوق).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3542.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 5/4.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/48.
(6) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ص: 201.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/132.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/89.

وحتى على القولِ بأنّ المرادَ همُ المشركون فإنّ هذا لا يمنعُ من أنْ يكونَ التّهديدُ عامًّا يشملُ كلَّ من جَحد نِعمَ اللّه سواء أكان الجحودُ منَ المؤمن أم منَ الكافر، قبل الضرّاء أم بعدها.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ و﴿ضَرَّآءَ﴾:

رحمةٌ عظيمةٌ بعد ضرّاءَ عظيمةٍ تَستوجبُ دوامَ الشُّكرِ لا المَكرَ

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظِ (الرّحمة) و(الضّرّاء) في قوله تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ﴾ بصيغةِ النّكرةِ؛ لإفادة التّفخيم، أي: أكرمَهمُ اللّه رغْمَ عدم استحقاقِهم لرحمةٍ عظيمة لا يُحدُّ حَدُّها، ولا يُقدّرُ قدرُها، وخاصَّة أنّها أُضيفت إلى ضمير الجلالةِ، وكان ذلك بعد ضرّاءَ عظيمةٍ نزلت بهم، وظهرت آثارُ ضُرّها عليهم.

وفي هذا التّنكير للّفظتَين الذي أفاد التّفخيمَ بيانٌ لشدّةِ جهلِهم وحُمقِهم؛ إذ إنّ عِظمَ الرّحمةِ التي حلّت بهم بعد ضرّاءَ عظيمةٍ يَستوجبُ دوامَ الشّكرِ لا السّرعةَ في المكرِ والكفرِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿رَحۡمَةٗ﴾:

الكفرُ بالرّحمةِ الإلهيّةِ رغْمَ عدمِ استحقاقِهم لها دَلالةٌ على فرْطِ قُبحِهم

التّعبيرُ بالرّحمة في موضعِ السَّراء؛ للإشارةِ إلى أنّها منَ الرّحمةِ الإلهيّةِ من غير أن يَستوجِبوا ذلك، أي "نعمةٌ رحمناهُم بها من غيرِ استحقاقٍ"[1]، فكان منَ الواجب عليهم أنْ يقوموا بحقّ اللّه، ويَخضَعوا لما تَدعو إليه الآيةُ، وهو توحيدُ ربّهم وشُكرُ نعمتِه.

معنى ﴿مِّنۢ﴾:

دلالةُ (مِنْ) على الابتداء بيانٌ لإسراعِ الكافرين بالمكرِ

حرفُ الجرّ (من) للابتداء، وغرَضُ القرآن مِن استعمالِه أنْ يَشتركَ مع التّعبير بالإذاقةِ، ومع (إذا) الفُجائيّةِ في الدّلالةِ على إسراعِ الكافرين بالمكرِ؛ فمن بدايةِ مخالطتِهم للرّحمةِ يَفجأون بالمكر، أي يوقعونه على جهة الفجأةِ والسّرعةِ، أي: وجودُ النّعمةِ لا يَستغرقُ الزّمانَ الذي يتعقّبُ النّقمةَ[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالمسّ في: ﴿مَسَّتۡهُمۡ﴾:

بيانُ الاستعارة تشبيهُ مُقاساةِ الشّدّةِ بالمسِّ الذي يَشعرُ به الإنسانُ وبسببِه يتألّمُ

الاستعارةُ في قوله تعالى: ﴿مَسَّتۡهُمۡ﴾ هي استعارةُ محسوسٍ لمعقولٍ بوجْهٍ عقليٍّ؛ استُعير المسُّ وهو حقيقةٌ في الأجسام وهو محسوسٌ؛ لمقاساةِ الشّدّة، وهو معقولٌ، وهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ ذُكرَ في تركيبها (المشبَّهُ به) الذي هو المستعارُ منه - وهو المسُّ - صريحًا، وحُذف (المشبَّهُ) الذي هو المستعارُ له - وهو مقاساةُ الشّدّة - ويتمثّلُ جمالُ هذه الاستعارةِ في الصّورة التي تُحدثُها في المُخَيّلةِ؛ إذ إنّها عبّرت عن مقاساة الشّدّة بسببِ الضّرّاء؛ وهو إحساسٌ نفسيٌّ غيرُ محسوسٍ بصورةِ محسوسٍ يَشعرُ به الإنسانُ ويتألّمُ بسببه، وهو المسُّ الذي هو التصاقٌ على وجهِ الإحساس، ولذلك فسّر المفسّرون ﴿مَسَّتۡهُمۡ﴾ بأنّها أصابتْهُم وخالطتْهُم حتى أحَسّوا بسوءِ أثرِها فيهم[1]، واعتبروه قيدًا جيء به للمُبالَغَة في بيان كمالِ خُبثهم وشدّةِ شكيمتِهم[2]، أي رغْمَ هذا الذي أحَسّوه سارعوا في الكفرِ والمكرِ.

نُكتةُ دخولِ ﴿إِذَا﴾ على جوابِ الشّرطِ:

جُحودٌ قدِ استَبْطَنوه سَترتْهُ الشّدّةُ وسُرعانَ ما كشفتْهُ الرّحمةُ

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ﴾ أعطت فائدتَيْن:

الأولى: سرعةُ المكرِ في مقام الحمدِ والشّكرِ؛ أي "في الحالِ أقدَموا على المكرِ وسارَعوا إليه"[3]، وذلك كونُ (إذا) للمفاجأة، ومن معانيها أنّها حاليّةٌ، وتأتي جوابًا للشّرطِ بمنزلةِ الجوابِ بالفاء والفعلِ، أي لأنّ حرفَ المفاجأة يدلُّ على البدارِ والإسراعِ بمضمونِ الجملةِ، فيُفيدُ مُفادَ فاءِ التّعقيبِ التي يُؤتَى بها لربط جوابِ الشّرطِ بشرْطِه، فإذا جاء حرفُ المفاجأة أغنَى عنها[4]، والمعنى:

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/127، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/140.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/425.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/132.

أنّهم فاجؤوا المكر، أي: أوقعوه على جهة الفُجاءةِ والسّرعةِ، قال الزّمخشريُّ: "فإنْ قلتَ: ما وصفَهُم بسرعةِ المكرِ، فكيف صحّ قوله: ﴿أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾؟ قلتُ: بلى، دلّت على ذلك كلمةُ المفاجأةِ"(1).

الثّانية: جماليّةُ المجانسةِ؛ فقد تشابه اللّفظان (إذا) الشّرطيّةُ و(إذا) الفُجائيّةُ، وهو جناسٌ تامٌّ من نوعين؛ إذِ اتّفقتِ اللّفظتان في أنواع الحروف وأعدادِها، وهيئاتِها، لكنّهما من نوعين، فـ(إذا) الأولى شرطيّةٌ وهي اسمٌ، والثّانية فُجائيّةٌ وهي حرفٌ(2)، وتتجلّى فائدةُ هذه المجانسةُ في الميلِ إلى الإصغاءِ، والتّشوُّفِ إلى المعنى الذي يحملُه الكلامُ، فاللّفظُ المشتركُ إذا حُملَ على معنًى ثم جاء والمرادُ به معنًى آخرُ كان للنّفس تشوّفٌ إليه(3)، والمعنى هو أنّهم في بَأْسائِهم كان ينخفضُ وراءَ خضوعِهم الظّاهرِ جحودٌ قد استبْطنوه، سترتْهُ الشّدّةُ وكشفتْهُ الرّحمةُ، فظهر مكنونُ نفوسِهم، وهو مكرُهم في آياتنا(4).

معنى اللّام في: ﴿لَهُم﴾:

لا يَنْفكُّ المشركون عنِ المكْرِ في آياتِ الله

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّكۡرٌ﴾ حرفُ الجرّ متعلّقٌ بخبرٍ محذوفٍ تقديرُه: (مستقرٌّ)، وهي لام التّبْيين، وقد بيّنت هنا أنّ مكرَهم مُستقرٌّ في آيات اللّه.

فائدةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُم﴾:

تلويحٌ للمؤمن بعِظَمِ مكرِ الكافرين ليحذرَ منه وليُسرعَ في مواجهتِه

قدّم البيانُ الإلهيُّ المسندَ ﴿لَهُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّكۡرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٌ﴾؛ لبيانِ مدى عِظَمِ ذلك المكرِ، وسُرعتِهم في إعمالِه، وليكونَ المؤمنُ على حذرٍ منه، فيتجهّزَ له ويُسرعَ في مواجهتِه، كما أنّ في التّقديمِ إشارةً منَ اللهِ للكافرين بأنّه يعلمُ بحالِهم، وبخفايا نفوسِهم، وبمكرِهم قبل أنْ يفعَلوه.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/6.
(2) السيوطي، التحبير في علم التفسير، ص: 77.
(3) ابن الأثير، شروح التلخيص: 4/411.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3543.

نُكتةُ تنكير ﴿مَّكۡرٞ﴾:

عظمُ مكرِ الباغين وكثرتُه دليلٌ على شدّةِ خُبْثِ نفوسِهم

أتى البيانُ الإلهيُّ بلفظِ المكرِ في قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ بصيغةِ النّكرةِ؛ لإفادة التّكثيرِ والتفخيم[1]، وهذا من معاني التّنكيرِ، أي: لهم مكرٌ كبيرٌ كثيرٌ في آياتنا، وهذا يدلُّ على شدّةِ خُبث نفوسِهم.

معنى ﴿فِيٓ﴾:

دَلالةُ الحرف (في) إيذانٌ بملابسةِ ومُصاحبةِ مكْرِ الكافرين لآياتِ الله

دَلالة ﴿فِيٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ للظّرفية المَجازيّةِ بمعنى (مع)، أي المرادُ منها الملابسةُ، أي لهم مكرٌ مصاحبٌ لآياتنا لا ينفكُّ عنها، ومعنى مكرِهم في الآيات أنّهم يمكرون مكرًا يتعلّقُ بها، وذلك أنّهم يوهِمون أنّ آياتِ القرآن غيرُ دالّةٍ على صدْقِ الرسول ﷺ، ويَزعمون أنّه لو أُنزلت عليه آيةٌ أخرى لآمنوا بها؛ وهم كاذبون في ذلك، وإنّما هم يُكذّبونهُ عنادًا ومُكابرةً وحِفاظًا على دينِهم في الشّركِ[2].

ويمكنُ أن تكونَ للظّرفيّةِ؛ لتُفيدَ تغلْغُلَ مكْرِهم في جميع آياتِنا القُرآنيّةِ أوِ الكونيّةِ وفي جميع ما تَشتملُ عليه الآياتُ.

نُكتةُ الإضافةِ: ﴿ءَايَاتِنَاۚ﴾:

المكرُ بآياتِ العظيمِ أمرٌ عظيمٌ

أضاف البيانُ الإلهيُّ الآياتِ إلى ضميرِ العظَمةِ: (نا)، فقال: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾؛ لتعظيمِ المضافِ وهو الآياتُ، وذلك لإدخالِ المهابةِ والطّمأنينةِ في نفوس المؤمنين بأنّ اللّه كافيهم مكرَ الكافرين، والمهابةِ والخوفِ في قلوب الكافرين، وبيانًا لشناعة مكْرِهم بآيات اللّه؛ إذِ المكرُ بالعظيم عظيم، وتوبيخًا لهم؛ إذ رغْمَ أنّهم لا يَنفكّون عن آياتِه العظامِ لا يَنتفعون بها، فلو كانوا مُنْتفعين بالآيات اهتدَوا بها، ولكنّ حالَهم أنّهم إذا أتتْهُم رحمةٌ من بعد نِقمةٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 11/132.

لم يَعدّوها آيةً دالّةً على من أرسلَها لهم، مع أنّهم يعترفون بأنّه لا يقدرُ على إرسالِها وصرفِ الشّدّةِ إلّا هو سبحانه(1).

دلالة فعل الأمر ﴿قُلِ﴾:

رسولُ اللهِ هو المبلِّغُ عن اللهِ، والمكرُ بهِ مكرٌ باللهِ سبحانه

عبَّر القرآنُ بفعْلِ الأمرِ ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ رسولَ اللّه ﷺ هو المبلِّغُ عنِ اللّه، وأنّ مكرَهم به هو كفرٌ باللّه، وليعلمَ هؤلاء الذين يَمكرون برسولِ اللّه أنّ اللّه ناصرُه، ومَكرُه بهم أسرعُ من مكرِهم بالنّبيِّ ﷺ، وللتّنبيهِ: "على أنّه تعالى قادرٌ على أنْ يُزيلَ عنهم تلك النِّعمَ، ويجعَلَهم مُنقادين للرّسولِ ﷺ مُطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضاتِ الفاسدةِ"(2)؛ فطاعةُ رسولِ اللّه من طاعةِ اللّه.

فائدةُ العُدولِ عنِ الإضْمارِ:

التَّصريحُ باسْمِ الجليلِ تَرهيبٌ للكافرين وطُمأنينةٌ للمؤمنين

أظهرَ البيانُ الإلهيُّ الاسْمَ الجليلَ ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾، وعدلَ به عن إضمارٍ؛ لأنّ اسمَ (اللّه) هو اسمُ الذّاتِ الذي يجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال، أي: قل لهم يا محمّدُ إنّ اللّه الذي لهُ الإحاطةُ الكاملةُ بكلّ شيءٍ هو أسرعُ مكرًا(3). وفي ذلك ترهيبٌ للكافرين من مكْرِ اللّه العظيم، وطُمأنينةٌ للمؤمنين بنصرِه سبحانه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّة: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾:

سُرعةُ مكْرِهم لا تُضاهي سُرعةَ مكْرِ اللهِ بهم

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بالجملةِ الاسميةِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾؛ للإشارةِ إلى الثُّبوتِ والدّوام، أي: أسْرعيّةُ مكْرِه سبحانهُ بالكافرين ثابتةٌ دائمةٌ، وجعلَ خبرَ الجملةِ الاسميةِ منَ المشتقّات؛ وهو اسمُ التّفضيلِ ﴿أَسۡرَعُ﴾ بما يوضحُ المعنى ويحدّدُ الدّلالةَ بشكلٍ أدقَّ، وذلك للإشارةِ إلى تميُّزِ سرعةِ مكْرِهِ بالكافرين؛ فمَكْرُهُ ليس كمكْرِهم بل هو أسرعُ من مكْرِهم؛ فقد دبّرَ عقابَهم قبل أن يُدبّروا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/231.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.

كيدَهم[1]، فأعدّ لهم يومَ القيامةِ منَ العذاب الشّديدِ، وفي الدنيا منَ الفضيحةِ والخِزيِ والنَّكالِ، وجعلَ الحفظةَ يَكتبون مكْرَهم ويحفظونَهُ؛ لتكونَ حُجّةً عليهم يومَ القيامة وفضيحةً لهم[2].

فائدةُ اسمِ التّفضيلِ في: ﴿أَسۡرَعُ﴾:

مهما أسرعَ الماكرون فقد سَبقَ مكرُ الله مَكرَهم

دلّ استعمالُ فعْلِ التّفضيل ﴿أَسۡرَعُ﴾ على أنّ مكرَهم كان سريعًا، ولكنّ مكرَ اللّه أسرعُ منه، والمعنى أنّ اللّه أعجلُ مكرًا بهم منهم بمكْرِهم بآياتِ اللّه[3]، وقد "قضى بعقابِهم قبل تدْبيرِهم مكايدَهم"[4].

وقد جاء ذلك مُتوافقًا مع أوجهٍ أخرى تفيدُ أنّ مكرَهم كان سريعًا، وهي التّعبيرُ بالذّوقِ الذي هو أوّلُ المخالطةِ ولفظُ (من) التي هي للابتداء و(إذا) الفُجائيّةُ؛ كأنّه قيل: أسْرَعوا جُهدهم في المكرِ[5].

بَلاغةُ المشاكلةِ في: ﴿ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾:

مكرُ الله سبحانه يُقابلُ مكرَ الكافرين ويُبطلُه

سمّى القرآنُ عقوبةَ اللّه للكافرين وإبطالَ مَسعاهم مكْرًا، وردَّ مكرهم، وجاءتِ التّسميةُ بالمكرِ لوقوعِها في مقابلة مكْرِهم وجودًا وذِكرًا، والمعنى: اللّه أعجلُ عقوبةً وأشدُّ أخذًا وإخزاءً وأقدرُ على الجزاء، أي: عذابُه وتدبيرُه أسرعُ وصولًا إلى الكافرين مما يأتي منهم في دفعِ الحقّ[6].

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ عن إمهالِ الله لهم بالمكْرِ:

تصويرُ المعنَى للقارئِ بصورةٍ يَعرفُها يُنقشُ المعنَى في قلبِه

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، حيث أطلقَ البيانُ القرآنيُّ على تأجيل اللّه عذابَهم وعلى إبطال اللّه تعالى مساعِيَهم في حال ظنِّهم أنْ قد نجحت اسْمَ المكْرِ، فكأنّ هيئةَ ذلك

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/109.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/133.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/97.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/96.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.

التأجيلِ وهيئةَ الإخفاقِ في خفائِهما عنهم كهيئةِ فعلِ الماكرِ الذي يدبّرُ في خفاءٍ، وقد حسّنتِ المشاكلةُ اللفظيّةُ هذا التّصويرَ وزادته حُسنًا[1].

والقصدُ الذي حملتّه الاستعارةُ التّمثيليّةُ عبْرَ إيحاءاتِها وثَرائِها الدّلاليِّ تصويرُ ضعْفِ مكرِهم، ومن ثمّ إخفاقُه أمام مكْرِ اللّه سبحانه.

غَرَضُ الفصْلِ: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾:

تهديدٌ للمشركين بأنّ ما يَظنّونَه من مكْرِهم خافيًا لا يخفَى على الله

لم يُعطفْ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾، وإنّما فُصِلَ بينهما؛ لِما بين الجُملتَين من كمالِ الانقطاعِ؛ لاختلافِهما إنشاءً وخبرًا، فالجملةُ الأولى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ إنشائيّةٌ، والجملةُ الثّانية: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ﴾ خبريّةٌ، ولهذا تعيّن الفصلُ بينهما.

وقد جاءت جملةُ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ﴾ "استئنافَ خطابٍ للمشركين مباشرةً تهديدًا منَ اللّه، فلذلك فُصِلت عنِ التي قبْلَها لاختلاف المخاطَبِ"[2]، وهو استئنافٌ تعليليٌّ؛ إذ كانوا يَحسبون أنّهم يَمكرون بالنّبيّ ﷺ، وأنّ مكْرَهم يتمشّى عليه ولا يشعرُ به؛ فأعلمَهم اللّه بأنّ الملائكة الموكَّلين بإحصاءِ الأعمالِ يَكتبون ذلك[3].

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ في: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾:

نصرُ الله وتأييدُه لنبيّه ﷺ قدَرٌ محقّقٌ لا ريْبَ فيه

تتابعتِ المؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ من ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ التّوكيدَ، والجملةِ الاسميةِ التي تفيدُ الثُّبوتَ والدّوامَ، والاستئنافِ البيانيِّ الذي أكّدَ أسرعيّةَ مكرِه سبحانَهُ لتقريرِ نصْرِ اللّه وتأييدِه لنبيِّه ﷺ، وإبطالِه لمكْرِهم به، وبالقرآنِ وبالمؤمنين، وتحقيقِ الانتقامِ، وللتّنبيهِ على أنّ ما دبّروا في إخفائه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.

لم يخْفَ على الحفَظةِ فضلًا أن يخفَى على اللّه تعالى[1]؛ إذ إنّهم كانوا يعتقدون خلافَ ذلك؛ فيَحسبون أنّهم يمكرون بالنّبيّ ﷺ، وأنّ مكْرَهم يتمشَّى عليه ولا يشعرُ به، فأعلمَهمُ اللّه بأنّ الملائكة الموكّلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك[2]، فهو عالمٌ بأمورِهم وهم جاهلون بأموره، لا يدعُهم يُدبّرون كيدًا إلّا وقد سبّب له ما يجعلُه في نحورهم[3].

نُكتةُ إضافةِ الرُّسلِ إلى ضمير العظَمة في: ﴿رُسُلَنَا﴾:

تدبيرٌ عظيمٌ من ملائكةٍ يَستمِدّون عظَمتَهم منَ العظيم سبحانه

أضاف القرآنُ إلى لفظة الرّسلِ، وهم "الحفظةُ بلا خلافٍ"[4] ضميرَ العظَمة (نا) فقال: ﴿رُسُلَنَا﴾، ولم يقل رسُلَه، أو رسُلَ اللّه، لكونِ ذلك أبلغَ في تصويرِ تسخيرِ اللّه للملائكة في كتابةِ الأعمالِ منَ التّعبير بضميرِ الغَيبةِ (إنّ رسُلَه يكتبون) أو (إنّ رسُلَ اللّه يكتبون)؛ لأنّ في ضمير الجمعِ من تصويرِ العظَمةِ في هذا التّدبيرِ العظيم، والنّظامِ الدّقيقِ ما يشعرُ به كلُّ من لهُ ذوقٌ؛ إذَنِ النّكتةُ البلاغيّةُ هي:

أوّلًا: تعظيمُ اللّه ﷻ واختصاصهُ في تسخيرِ الملائكةِ في كتابة أعمالِ النّاس.

ثانيًا: تعظيمُ الملائكةِ الحفظةِ والكَتَبةِ، وتشريفُهم[5]، والمعنى: "إنّ رسُلنا أي على ما لهم منَ العظَمة بإضافتِهم إلينا"[6].

غرَضُ التّعبيرِ بالأفعالِ المضارعةِ ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ و﴿تَمۡكُرُونَ﴾:

مكْرُ الكافرين مُستمرٌّ متجدّدٌ مُتكرّرٌ ولكنّ الحفَظةَ لهُ بالمرصادِ

عبّرَ القرآنُ بصيغة المضارعِ في الفعلَين: ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ و﴿تَمۡكُرُونَ﴾؛ للدّلالةِ على الاستمرارِ والتّجدُّدِ والتّكرار؛ ففي الأوّل:

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/109.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/97.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/31.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.

تدلُّ صيغةُ المضارع على أنّ كتابةَ الحفَظةِ الكَتَبةِ هي كتابةٌ مُتجدّدةٌ على سبيل الاستمرارِ باستمرارِ المكتوب[1]، وفي الثّاني: تدلُّ صيغةُ المضارع على استمرار مكْرِهم وتجدُّدِه، وأنّه طبعٌ من طبائعِهم، أي: تتكرّرُ كتابةُ الحفَظةِ كلّما يتكرّرُ مكْرُ الكافرين[2].

معنى: ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَمۡكُرُونَ﴾ تحتمل وجهَيْن:

(مـــا) بـين الموصوليّةِ والمصدريّةِ دَلالةٌ على كمالِ الضَّبطِ والحِفظِ والعِناية

الأوّل: اسْمُ موصولٌ مبنيٌّ في محلّ نصبٍ مفعولٍ به ﴿تَمۡكُرُونَ﴾ أيَ: ما تمكرونه على تضمين تمكرُ معنى تعملُ في خفاءٍ، وغرضُ التّعبير بالاسم الموصولِ إرادةُ العُموم، للدّلالة على أنّ الحفظةَ يَكتبون كلَّ الذي تمكرونَه صغيرًا كان أو كبيرًا، متعلِّقًا بالقرآن أو بالنّبيّ ﷺ أو بالمؤمنين، وللإشارة إلى دقّةِ ما يعلمُه عنهم، وإلى أنّ ما يُدبّرونَه يعلمُه ﷻ في وقتِه فيكتبُه[3].

الثّاني: مصدريّةٌ، أي: يَكتبون مكرَكُم، ويُشير التّعبيرُ بالمصدر إلى تأكيدِ كتابةِ المكْرِ المستمرِّ للماكرين في أيِّ زمنٍ كان.

بَلاغةُ الالتفات: ﴿تَمۡكُرُونَ﴾:

تلوينُ الخطابِ بالالتفاتِ إليهم مُبالغةٌ في الإعلامِ بحالِ مكْرِهم

قرأه الجمهورُ ﴿تَمۡكُرُونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ روحٌ عن يعقوبَ (ما يمكرون) بياء الغائب[4]، بكوْنِ الكلامِ موجَّهًا إلى النَّبيِّ ﷺ.

وفي الآية التفاتٌ منَ الغَيبة إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ على قراءة (تَمكرون) بتاء الخطاب، وهو من عجيب الالتفاتِ الواقعِ في القرآن، ولعلّ النّكتةَ فيه المبالغةُ لهم في الإعلام بحال مَكرِهم[5]، والتّشديدُ في توبيخِهم[6]، من خلال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/278.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3543.
(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/31.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133.

تصوير معنى قولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾؛ كأنَّه تعالى لما قال لنبيّه ﷺ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ أراد أنْ يوضّحَه لهم عِيانًا، ففاجأَهُم بتَجلّيهِ لهم دفعةً، فكلّمَهُم وأوضحَ لهم السّببَ في كونِه أسرعَ مكرًا؛ وهذا من لطيفِ الالتفاتِ.

فائدةُ الختم بالجملة الخبرية:

الإخـبـارُ بـأنّ انتقامَ الله منَ الكافرين مُحقَّقٌ ومـكـرَهـم لا يخفَى عليه

ختمتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ وهي جملةٌ خبريّةٌ تحملُ معانيَ التّعليلِ من جهتِه تعالى لأسرعيّةِ مكْرِه، والتأكيدَ في كلّ مفرداتِها ونظْمِها تحقيقًا للانتقام منهم، وتنبيهًا على أنّ مكرَهم الخفيَّ غيرُ خافٍ على الحفَظة منَ الملائكة فضْلًا عنِ الخالقِ ﷻ الذي لا تخفَى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السّماء[1].

كما أنّ فيها تهديدًا، بأنّ المَلائكةَ الحفظةَ يَكتبون مَكْرَكم ويُحصون أعمالَكم؛ للحِسابِ عليها في الآخرةِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المسُّ والإصابةُ والإذاقةُ:

الإصابةُ تمكّنٌ في الـشّيء، والمسُّ خِـفّـةُ الإصـابـةِ، والإذاقـــــــةُ إحـسـاسٌ بـأدنَى إصابةٍ

تتقاربُ معاني المسِّ والإصابةِ والإذاقةِ، وتأتي مع العذابِ ومع الرّحمةِ، فليس هنالك تقييدٌ في الاستعمالِ[3]، ولهذا فُسّرَ المسُّ بالإصابة، وفُسّرتِ الإذاقةُ بالإصابة[4]، إلّا أنّه عند الرّجوعِ إلى المعنى اللُّغويِّ نلْحظُ بعضَ الفروقِ الدّقيقةِ بين هذه الألفاظِ:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/133، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/49.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/274.
(3) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: 3/115 - 116.
(4) يقول ابن عاشور: "والمسّ: الإصابة، ولا يختصّ أحدهما بالخير والآخر بالشر، فالتعبير بأحدهما في جانب الحسنة، وبالآخر في جانب السيئة تفنن"، التحرير والتنوير: 4/68، وقد سبقه إلى ذلك الزمخشري الذي رأى أنّ المسّ مستعارٌ لمعنى الإصابة، فكان المعنى واحدًا، الكشاف: 1/436.

المسّ: جسُّ الشّيء باليد[1]، أو مباشرةُ الجسم، والمسُّ يُقال فيما يكونُ منه إدراكٌ بحاسّةِ اللّمسِ وحقيقتُه: وضعُ اليدِ على شيء ليُعرفَ وجودُه أو يُختبرَ حالُه[2].

والإصابةُ: الصّاد والواو والباء أصلٌ صحيحٌ يدلّ على نزول شيءٍ واستقرارِه قرارَه[3]، والإصابةُ: منَ الصّواب الذي هو ضدُّ الخطأ، وأصابَ السّهمُ: إذا لم يُخطئ، وأصابَ الشّيءَ: وجدَه، وأراده، وأصابتْه مصيبةٌ: أخذته[4]، والإصابةُ: النّزولُ بالشّيء، واللَّحاقُ به خيراً كان النّازلُ أو شرّاً[5].

والإذاقةُ: الذّالُ والواو والقافُ أصلٌ واحدٌ، وهو اختبارُ الشّيءِ من جهة الطّعم، وأمرٌ مُستذاقٌ: أي مجرّبٌ معلومٌ[6]، والذّوقُ: هو وجودُ الطّعمِ بالفمِ، وأصلهُ فيما يقلُّ تناوُلُه دونَ ما يكثُرُ منهُ[7].

إذن: يشتركُ المسُّ والإذاقةُ في معنى الاتّصالِ الخفيفِ، والإدراكِ والاختبارِ.

ويتميّزُ المسُّ بأنّه: اختبارُ حالِ الشّيء باليد أو بالجسمِ، بينما الإذاقةُ: اختبارُ حال الشّيءِ من جهة الطّعم.

وأمّا الإصابةُ فإنّها تتميّزُ بالتّمكّن، وهو نزولُ شيءٍ واستقرارُه قرارَه.

فالمَسّ يُستعارُ للإصابة في إيصال الإدراك؛ إذ حقيقةُ المسِّ: الالتصاقُ الخفيفُ بين شيئين على وجهِ الإحساس، وللإشارة إلى خفّةِ الإصابة؛ فالمسّ أقلُّ تمكّنًا منَ الإصابة، وكأنّه مِن مقدّماتِها، أو أقلِّ درجاتِها، وأمّا الشّيءُ المصيبُ لشيء، فهو متمكّنٌ منه أو فيه، فالمسّ أخفُّ منَ الإصابة[8].

والإذاقةُ تُستعارُ للإصابة بجامعِ الإحساسِ في إيصال الإدراك؛ إذ حقيقةُ الإذاقة: إحساسُ طرفِ اللّسان بأحوال الطُّعوم، وتكونُ بأقلِّ ما يوجدُ به الطّعمُ، وتُستعملُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مس).
(2) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (صوب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صوب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ذوق).
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/77، والشهاب، عناية القاضي: 3/59، والقاسمي، محاسن التأويل: 2/396.

الإعطاء القليلِ، وتشيرُ إلى الإحساس بأدنَى إصابةٍ، كإصابة اللّسان؛ فالإذاقةُ هي الإدراكُ والإحساسُ بأدنى إصابة[1].

الضّرّاءُ والضّرُّ:

الـضُّـرُّ خـلافُ الـنَّـفـعِ وهـو شـدّةٌ مـاديّةٌ أو مـعـنـويّةٌ، والـضّـرّاءُ ضدُّ الـسّـرّاءِ وهـي مضرّةٌ ظاهرةٌ

لم تُفرّقِ المعاجمُ اللّغويّةُ بين الضُّرِّ والضّرّاء، ويظهر ذلك من خلال الرّجوعِ إلى معانيهما:

الضُّرّ والضَّرّ لغتان، فالضَّرّ المصدر، والضُّرّ الاسم، والضَّرّ: خلافُ النفع[2]، والضُّرّ: كلّ ما كان من سوءِ حالٍ وفقرٍ، أو شدّةٍ في بدن[3]، ضرّه: ألحقَ به أذًى أو مكروهًا، وكذا ضرّ به وأضرّه، وضارّه: سبب له نقصًا أو ضِيقًا، وهو عامٌّ في المادّيِّ والمعنويِّ[4].

والضرّاء: نقيضُ السّرّاء، وهي الشّدّةُ والفقرُ والعذابُ، وقيل: الضرّاء: النّقصُ في الأموال والأنفُسِ[5].

إذن: تتقاربُ دلالةُ الضّرّاء والضُّرّ، إذ يشتركان بالشّدّةِ والأذى الذي يلحقُ الإنسان في بدنِه وأموالِه.

إلّا أنّه عند إمعان النَّظرِ في المعنى اللُّغويِّ، وفي الاستعمالِ القرآنيِّ لهما، يُلاحظُ أنّ لكلّ منهما مَلمحًا دلاليًّا يميّزُه عنِ الآخر؛ فالضّرّاءُ يقابلُها السّرّاء والنّعماءُ، والضُّرّ يقابلُه النّفعُ، والضُّرُّ أعمُّ منَ الضّرّاء؛ إذِ الضُّرُّ يشملُ المادّيَّ والمعنويَّ، فيكونُ الضّرّ أذًى ظاهرًا كالفقرِ أوِ المرض، ويمكنُ أن يكونَ معنويًّا كالضّيق، وهذا ما أشار إليه العسكريُّ فقال: "الضّرّاء هي المضرّةُ الظّاهرةُ، وذلك أنّها خرجت مخرجَ الأحوالِ الظّاهرةِ، مثل: الحمراءِ، والبيضاءِ"[6].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/23.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ضرر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرر).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 198.

المكرُ والكيدُ:

المكرُ والكيدُ متقاربان دَلاليًا، إذ يُعرَّفُ كلٌّ منهما بالآخرِ في اللّغة[1]، وكلٌّ منهما يكونُ محمودًا ومذمومًا، وإن كان استعمالُهم في المذموم أكثرَ، وكلاهما لا يكون إلّا مع تدبّرٍ ونظرٍ.

الكيدُ أقوَى منَ المكرِ فهو دونَ علْمِ المكورِ به، بينما الكيدُ قد يكونُ بعلْمِه

إلا أنّ لكلٍّ منهما بعضَ الملامح التي تُميّزُه؛ فالكيدُ أقوَى منَ المكرِ، والشّاهدُ أنّ الكيدَ يتعدَّى بنفسِه، بينما المكرُ يتعدَّى بحرفٍ، فيقال: كادَه يكيدُه، ومكرَ به، ولا يقال مكَرَهُ، والذي يتعدّى بنفسِه أقوَى.

والمكرُ تقديرُ ضررِ الغير من غير أن يُعلمَ به سواءً كان على وجهه أو لا، أي لا يكون إلّا في خفاءٍ، وأمّا الكيدُ فاسْمٌ لإيقاع المكروه بالغير قهرًا، سواءً علمَ أو لا، والشّاهدُ قولك: فلانٌ يُكايدُني، فسمّى فعلَه كيدًا وإنْ عَلمَ به[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مكر)، (كيد).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 259 - 260، وعلي فهمي النزهي، الفروق اللغوية في تفسير الكلّمات القرآنية، ص: 205.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مثالٌ واقعيٌّ يفضحُ نفوسَ الكافرين الماكرة المسارِعةَ إلى الكفرِ في مقامِ الشُّكرِ

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبْلَها وجهان:

الأوّل: لمّا قال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ كان هذا كلامًا كلّيًّا لا ينكشفُ معناه تمامَ الانكشاف إلّا بذكر مثالٍ كاملٍ، فذكر اللّه تعالى لنقْلِ الإنسان منَ الضّرّ الشّديدِ إلى الرّحمة مثالًا، ولمكْرِ الإنسان مثالًا، حتى تكون هذه الآيةُ كالمفسّرةِ للآية التي قبلَها، وذلك لأنّ المعنى الكلّيَّ لا يصلُ إلى أفهام السّامعين إلّا بذكر مثالٍ جليٍّ واضحٍ يكشفُ عن حقيقة ذلك المعنى الكلّيّ[1].

الثّاني: لمّا قال اللّه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ﴾ أخذ سبحانه يبيِّنُ ما يتّضح به أسرعيّةُ مكرِه، في مثالٍ دالٍّ على نَقْلِه سبحانه لعبادِه مِنَ الضّرّ إلى النِّعمةِ، ومن سُرعةِ تَقلُّبِهم فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسَيِّرُكُمۡ﴾ السّين والياء والرّاء أصلٌ يدلُّ على مُضيٍّ وجَريانٍ، يقال سار يسير سيرًا: إذا امتدّ به السّيرُ في جهةٍ توجّهَ لها، وذلك يكون ليلًا ونهارًا، والسَّير: الذّهابُ، والانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ[3]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/232.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سير).

والسّيرُ: المُضيُّ في الأرض، ثمَّ استُعملَ في هيئة الحياةِ (الأسفارِ والأعمالِ والمعيشةِ إلخ)، والتّسييرُ ضربان: تسخيرٌ، كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ: 20]، واختيارٌ، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، وسيّر الشّيءَ: حرّكه وجعلَه يسيرُ، وسيّر المحرّكُ القاربَ: دفعَه بقوّة، ومنه قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1].

وَ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾: يجعلُكم تسيرون بتسخيره تعالى، وإعطائكم ما تسيرون عليه منَ الدّابّة وغيرِها في البَرّ، ومنَ الفُلك والسّفنِ في البحر[2].

2) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: الفاء واللّام والكاف أصلٌ صحيحٌ يدلّ على استدارةٍ في شيءٍ[3]، والفُلْك: السّفينةُ، يُذكَّر ويؤنَّث، ويُستعمَل ذلك للواحد والجمع، ويُجمعُ على الفُلوك أيضًا، ولعلّها سميّت فُلكًا؛ لأنّها تُدارُ في الماء، أو لأنّها تعودُ بعد ما تذهبُ في البحر، إذِ الذّهابُ في البحر مظِنّةُ عدمِ الرّجوع، وربما نُظرَ إلى شكل السّفينةِ مع التّجاوزِ عن تمام الاستدارةِ، مثلما يُسمّون ما تحت وَتَرةِ الأنف دائرةً، ويُقال للموجِ إذا اضطرب وجاء وذهبَ: فَلَك[4].

3) ﴿طَيِّبَةٍ﴾ الطّاء والياء والباء أصلٌ واحدٌ يدلّ على خلاف الخبيث[5]، وتتّسعُ معانيه، فيقال: أرضٌ طيّبةٌ للتي تصلحُ للنّبات؛ وريحٌ طيّبةٌ إذا كانت ليّنةً ليست بشديدةٍ؛ وطُعْمةٌ طيّبةٌ إذا كانت حلالًا..[6].. وريحٌ طيّبةٌ: ليّنةُ الهبوبِ رقيقةٌ لا عاصفةٌ ولا ضعيفةٌ، فهي مناسبةٌ لسيرِ السّفن، وموافقةٌ لغرضِهم ورغبتِهم ومنفعتِهم[7].

4) ﴿عَاصِفٌ﴾: العين والصّاد والفاء أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلّ على خفّةٍ وسرعة[8]، وريحٌ عاصفٌ: الشّديدةُ الهبوبِ، فهي تستخفُّ الأشياءَ فتذهبُ بها، أي تعصفُ بها[9]. وريحٌ عاصف: هي الرّيحُ الشّديدةُ القويّةُ التي تعصفُ بالأشياء وتذهبُ بها[10].

---

(1) الراغب، المفردات: (سير).
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/87.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلك).
(4) الصاحب بن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فلك).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صيب).
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طيب).
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 2/14، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/36، والمراغي، تفسير المراغي: 11/87.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصف).
(9) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عصف).
(10) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/113، والحجازي، التفسير الواضح: 2/52.

5) ﴿ٱلْمَوْجُ﴾: الميم والواو والجيم أصلٌ واحدٌ يدلّ على اضطرابٍ في الشّيء[1]، ماجَ يموجُ: إذا اضطرب وتحيّرَ، وكلُّ شَيءٍ اضطربَ فقد ماج، والموجُ: ما ارتفع منَ الماء فوق الماء، وهو موجُ البحر، والجمعُ أمواج، وسُمّي بذلك لاضطرابه[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

صورةٌ للنّفسِ الكافرةِ يُحيط بها ما تكرهُ فتلجأُ إلى الله واعدةً بالشُّكرِ إذا نجتْ

امتنّ اللّه على النّاس جميعًا بنعمةِ تسْييرهم بقدرتِه ورحمتِه في أيّ برٍّ وبحرٍ بما وهبَهم من قدرةٍ على السّير، أو ما سخّر لهم من دوابٍّ وسُفنٍ، وغيرِهما، تسخيرَ استقرارٍ وتمكّنٍ، حتى إذا كانوا في السُّفن، وسارت بهم سيرًا آمنًا لا خوفَ فيه ولا اضطرابَ بريحٍ لطيفةٍ ملائمةٍ لقصدِهم تحمِلُ الرّخاءَ الآمنَ، وإذْ بريحٍ عاصفةٍ شديدةِ السُّرعة والتقلّبِ ومعها الموجُ يحْدِقُ بهم ويُطوّقهم من كلّ جهةٍ، وسُدَّت المنافذُ الممكنةُ كلُّها، وأيقَنوا أنْ لا نجاةَ لهم إلّا باللّه فتوجّهوا إليه وحدَه، مؤكّدين دعاءَهم بالقسَم: لئن أنجيتَنا من هذه الأهوالِ التي نحن فيها لنكوننَّ البتّة بعد ذلك منَ المؤمنين الشّاكرين لك، المطيعين لأمرك، المتّبِعين لشرعك.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾:

مثالٌ آخرُ للامتنانِ على المشركين بالنّعمةِ وتسجيلٌ لسرعةِ كُفْرانِها

فَصَل البيانُ الإلهيّ بين هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ والتي قبلَها ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لما بين الجملتَيْن من كمال اتّصالٍ أي اتّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ بسبب كوْنِ هذه الآية بدلَ اشتمالٍ من جملةِ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ إلى آخرها؛ لأنّ البغيَ في الأرض اشتملَ عليه المكرُ في آيات اللّه، وقد عدّ ابنُ عاشورٍ موقعَ الآية موقعًا رشيقًا جدَّ الرّشاقة؛ إذ إنّ المقصودَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (موج).
(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (موج).

فيها هو قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وما سواه تمهيدٌ وإدماجٌ[1] للامتنان عليهم بالنّعمة، وتسجيلٍ لكفرانها، ولتوارُدِ الآيات عليهم، ولكيلا يغترّوا بالإمهال، فيحسَبوه رضًى بكفرِهم، أو عجزًا عن أخذهم[2].

فائدةُ الالتفاتِ بالضّمائرِ منَ الخطابِ إلى الغيْبةِ: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾:

من يقابلُ الإحسانَ بالكُفرانِ يليقُ بمقامِه الغَيبةُ والتّبعيدُ لا الحضورُ والتّقريبُ

التفتَ البيانُ الإلهيُّ منَ الخطابِ بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ﴾ إلى الغَيبة بقوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾، والأصلُ (وجرين بكم)، و(وفرحتم بها) و(وجاءكم الموج من كلّ مكان) و(ظننّتم أنّكم..) وذلك لأمور:

الأوّلُ: أنّه لمّا كان قولُه ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ خطابًا شاملًا يَنطوي على الامتنان للمسَيَّرين في البرّ والبحر مؤمنين وكفّارًا، حَسُنَ خطابُهم بذلك، ليستديمَ الصّالحُ الشُّكرَ، ولعلّ الطّالحَ يتذكّرُ هذه النّعمةَ فيتهيّأُ قلبُه لتذكُّرِ مُسْديها وشُكرِه، ولكنْ لمّا كان في آخر الآيةِ ما يقتَضي أنّهم إذا نجَوا بغَوا في الأرض عدلَ عن خطابهم بذلك إلى الغَيبةِ؛ لئلّا يُخاطبَ المؤمنين بما لا يليقُ صدورُه منهم، وهو البغيُ بغير الحقّ، ولَوْ تتابع الكلامُ وَفْقَ أُسْلوب الخِطاب دون ما حصلَ في النّصّ منَ الالتفات لكان التّأنيبُ موَجّهًا لكلّ النّاسِ مع أنّ فيهم صالحين لا تظهرُ منهم هذه الظّاهرةُ القبيحةُ منَ الظّواهر المُنافيةِ للسّلوك الدّينيّ المطلوبِ منَ العباد.

الثّاني: قصدُ المبالغةِ في المقْتِ والتّبعيدِ لهم بالانتقال من مقام الحضورِ الذي هو مقامُ التّقريب والتّشريفِ وعُلوِّ الدّرجة إلى مقام الغيبةِ الذي هو مقامُ المقْتِ والتّبعيدِ والطّرد اللّائقِ بمن كانت

(1) الإدماج: أن يُضمَّنَ كلامٌ سِيق لمعنًى معنًى آخر.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/134.

صفتُه أن يقابلَ إحسانَ اللّه تعالى بالكُفران[1]، وكأنّه يذكرُ لغيرهم حالَهم، ليُعَجِّبَهُم منها، كالمُخبِر لهم، ويَستدعي منهمُ الإنكارَ عليهم والتّقبيحَ لما اقترَفوه، وفي ذلك مبالغةٌ ومقتٌ وتأنيبٌ وتبعيد[2].

الثّالثُ: لفتُ الانتباه إلى الاتّساقِ المشهودِ في السّياق؛ فالتّطابقُ بين الحضور والغَيبةِ، وبين التّحوّلِ من طرفٍ إلى طرفٍ، بمثابةِ صورةٍ مصغَّرةٍ لمضمون الآياتِ التي أكّدت على معنى التّضادِّ بين: ﴿ٱلۡبَرِّ﴾ [يونس: 22] و﴿وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [يونس: 22] ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: 22] و﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: 22] ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: 22] و﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 23] ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ [يونس: 22] و﴿أَنجَىٰهُمۡ﴾ [يونس: 23] ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 23] و﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس: 23].

كما أنّ الانتقالَ منَ الحُضور إلى الغيبةِ بتلك السّرعةِ الفُجائيّةِ يُنشئُ عند المتلقّي نوعًا منَ التّوتّر، ويَستدعيه للوقوف والتّأمّلِ لصورة الانتقالِ المعنويِّ المفاجئَ للبحر الهادئ يهيجُ على غير توقُّعٍ... أهو التفاتٌ للبحر! وللإنسانِ يوحّدُ اللّه ثمّ يشركُ.. أهو التفاتٌ للمكلّف!! وللإنسان يعاهدُ بكلّ صدْقٍ وقوّة ثم ينقضُ عهودَه عند أوّل شعورٍ له بالأمان.. أهو التفاتٌ للقلْبِ!!!، ويشحذُ عنده الإحساسَ بحدّة التّحوّل، لِيحسَّ ويَعي، ويستعظمَ ما في سلوك النّاس منَ الانتقال من حالٍ إلى حالٍ، ومن مقامٍ إلى مقامٍ!.

فائدةُ تعريف طرفَيِ الإسنادِ في: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾:

وحدهُ سبحانه المستحِقّ للشُّكر فلا خالقَ ولا مُنعمَ إلّا هو

أفادَ تعريفُ طرفَيِّ الإسناد في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ قصْرَ القُدرةِ في تسخير البَرّ والبحر على اللّه وحدَه، أي هو لا غيرُه، وذلك بقصد الامتنانِ والتّعريضِ بإخلال الكافرين بواجبِ الشُّكرِ[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/338.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/135.

فالمقصورُ به: تعريفُ طرفَي الإسناد في الجملةِ الاسميّة؛ فالمسندُ إليه الضّميرُ المنفصلُ ﴿هُوَ﴾، والمسندُ: الاسمُ الموصولُ وصلتُه ﴿ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾، فالمقصورُ: الخبرُ، أي الاسمُ الموصولُ وصلتُه ﴿ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾ يَحملان صفةً تدلّ على معنًى قائم فيها، وهو القدرةُ على التّسيير في البَرّ والبحر، والمقصورُ عليه ﴿هُوَ﴾؛ أي اللّه تعالى، وهو الموصوفُ، والمقصور عنه: كلُّ شيءٍ ما عدا اللّه ﷻ، ونوعُ هذا القصْرِ باعتبار المقصور والمقصورِ عليه: قصْرُ صفةٍ على موصوف؛ فقد قُصرت صفةُ القُدرة على التّسيير في البَرّ والبحر أي تَسخيرُه على اللّه وحدَه سبحانه.

غرَضُ التّعريفِ بالاسْمِ الموصولِ وصلَتِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾:

تسخيرُ الكونِ وصلاحُه لا يكونُ إلّا منَ العظيمِ سبحانَه

عُرّف المسندُ إليه بالاسْمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ دونَ الاسمِ الظّاهرِ (اللّه)، فلم يقل: (هو اللّه يسيركم)؛ لغرضِ التّعظيم بأَنْ ذكّرَ بصلتِه المعظَّمةِ، وهي قدرتُه في تسخير البَرِّ والبحر؛ إذ هذا الفعلُ لا يكونُ ولا يصلحُ إلّا منه سبحانه، ولذلك لم يصرّح باسمِه، وإنّما اكتفى بالاسمِ الموصولِ.

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ في: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾:

تَنوّعُ فضلِهِ سبحانَه في تسخيرِ البَرّ والبحرِ يَستوجبُ الشّكرَ لا المسارعةَ في الكفرِ

في قوله تعالى: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ قراءتان متواترتان هما:

الأولى: قراءةُ ابنِ عامر، وأبي جعفر[1]؛ وهي (يَنْشُرُكم) مِنَ النَّشرِ ضدّ الطّيِّ، والمعنى: يُفَرِّقكم ويَبُثُّكم[2]، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

الثّانية: قرأ بها الباقون[3]، وهي: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ مِنَ التَّسيير، والتّضعيفُ فيه للتّعدية، وقال الفارسيّ: هو تضعيفُ مبالغةٍ لا

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.

(2) ابن مجاهد، السبعة: ص 325، وابن الجزري، النشر: 2/282.

(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/282.

تضعيفُ تعْديةٍ[1]، والمعنى: يَحمِلُكم على السّير، ويمكّنُكم منه، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٦٩﴾ [النمل: 69][2].

والقراءتان كآيتين جاءتا في سياق الامتنان؛ لتَدلّا على سَعةِ فضل اللّه سبحانه ورحمته بالإنسان، فقد نشرَهم وبثَّهم في البَرّ والبحر، وحملَهم فيهما، وهذا من أنواع التّسخير الذي قدّرَه سبحانه.

بَلاغةُ المجازِ العقليّ في: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾:

نِسبةُ التّسيير إلى الله مبالغةٌ في إظهارِ فضلِه وتقريرٌ أنّ كلَّ أمرٍ مرجعُه إليه

أسند اللّه التّسييرَ في الآية إلى ذاتِه سبحانه فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾، بخلافِ آياتٍ أخرى نُسبَ السّيرُ فيها إلى النّفس الإنسانيّة، منها قولُه تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: 69]؛ باعتبار أنّه ﷻ سببُ هذا التّسيير، فهو خالقُ الأسبابِ والمسبّباتِ، فالإسنادُ مجازٌ عقليٌّ[3]، يشيرُ إلى أنّ تحققَ أيِّ فعلٍ إنّما يعودُ إلى مشيئة اللّه سبحانه، وهذا فيه إظهارٌ لفضلِه ونعمتِه التي لا تقتصرُ على خلْقِ فعلِ التّسيير، وإنّما تشملُ كلَّ حركةٍ يتحرّكُها الإنسانُ، وأنّها تنتهي في الوجودِ إلى اللّه تعالى، فاللّه خالقُ الأرضِ والبحرِ وجسمِ الإنسان، وإلهامِ التّفكير، وقوَى الحركةِ العقليّةِ والجسديّةِ التي يَسيرون بها في البَرّ والبحر، وبسطَ لهم الأرضَ، وسخّر لهم ما يركبون في البَرّ والبحر، إذن: فكلُّ أمرٍ مرجعُه إلى اللّه سبحانه[4].

معنى: ﴿فِي﴾:

استعمالُ (في) مبالغةٌ في الدّلالة على الاستعلاءِ والاستقرارِ والتّمكّنِ من المُسَخَّرِ

أتى حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ بمعنى الاستعلاء؛ لأنّ الظّاهرَ هو العُلُوُّ على الأرض والفُلْكِ، أي يُسيّركم على البَرّ والبحر، وإنّما أعرضَ عن ذكر حرفِ

(1) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 6/168.
(2) محمد محيسن، المغني في توجيه القراءات العشر: 3/227.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/135، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3544.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5844.

الاستعلاءِ وهو (على)، وعدلَ عنه إلى حرف الوعاء وهو (في)؛ إعلامًا بأنّ حرف الوعاءِ أقعدُ وأمكنُ ههنا من حرف الاستعلاء؛ لأنّ (على) قد تُشعر بالاستعلاء من غير تمكّنٍ واستقرارٍ، و(في) تُشعر ههنا بالاستقرارِ والتّمكّن، ومن حقّ ما يكون مُستقرًا فيه متمكِّنًا أنْ يكونَ مُستعليًا له، فلمّا كانت تُؤْذِنُ بالمعنيَيْن جميعًا آثرَها وعدلَ إليها، وأعرضَ عن (على) دَلالةً على المبالغة التي ذكرناها(1).

معنى(أل) في: ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾:

من تمامِ النِّعمةِ أن يكونَ تسخيرُ البَرّ والبحرِ عامًّا شاملًا

(ألْ) التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ؛ تفيدُ العمومَ، أي: أنَّ تسخيرَه البَرَّ والبحرَ للإنسان عامٌّ شاملٌ، فلا يقتصرُ على بحرٍ دونَ بحرٍ، ولا مكانٍ في البرّ دون آخرَ، ولا على زمانٍ دونَ زمانٍ، أي: في كلّ وقتٍ وفي كلّ زمانٍ تسيرون فيه سيرًا عظيمًا لا تَقدرون الانفكاكَ عنه(2).

نُكتةُ تقديم البَرّ على البحر: ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾:

تقديمُ النِّعمةِ الأهمِّ والأعمِّ والأكثرِ في سياق الامتنانِ أَوْلى

السّيرُ في البرّ والبحر كلاهما مختلفٌ، وقد قدَّم القرآنُ البَرّ على البحر في قوله تعالى: ﴿يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ﴾؛ لأنّه الأنسبُ للسّياق الذي هو الامتنانُ؛ فنعمةُ التّسيير في البَرّ أكثرُ وأكبرُ وأعمُّ؛ فهي لكلّ النّاسِ بخلاف التّسيير في البحر الذي هو للبعضِ فقط، كما أنّ الإنسانَ حين يسيرُ في الأرض على اليابسة قد تنقطعُ به السُّبلُ، ولكنّ الخطورةَ أخفُّ فيُمكنُه أنْ يَستصرخ أحدًا منَ المارّة، أو يستريحَ وينتظرَ إلى أن يمرَّ عليه من يعاونُه، أمّا السّير في البحر فخطورتُه أكبرُ وأكثرُ؛ فلا توجدُ به سابلةٌ أو سالكةٌ كثيرةٌ؛ حتى يستصرخَهمُ الإنسانُ(3).

(1) المؤيد بالله، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 2/32.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/98.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5847.

نُكتةُ تخصيصِ ذكْرِ مثالِ البحر دون البَرّ:

لمّا كانت الخُطورةُ في البحر أشدَّ كانت نِعمةُ الإنجاءِ فيه أكبرَ

خصَّ القرآنُ البحرَ بالذّكرِ في سياقِ الحديثِ عن نعمة الإنجاءِ بعد الخوف دونَ البَرّ، لأنّ خطورته أشدُّ والعطبَ بأحواله أظهرُ، وبالتّالي السّيرُ فيه من أكبر الآياتِ، ونعمةُ الإنجاء فيه من أوضح البيّناتِ[1]، فالحديثُ عن إزالة الخطرِ للمُضطرّ في البحر يتضمّنُ الحديثَ عن إزالته عمّن يسيرُ في البَرّ من باب أَولى، فإذا ما جاء الدّليلُ الأقوَى فلا بدَّ أن ينضويَ فيه الدّليلُ الأقلُّ[2].

فائدةُ التّعبير بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالةُ ما يأتي بعدها:

مَجيءُ الرّيحِ العاصفِ هو غايةُ التّسْيير الهنيءِ المُنعَمِ به

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ تحتملُ وجهَين:

الأوّل: حرفُ غايةٍ للتّسيير، ولا يُؤثّرُ جعلُ قولِه سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ غايةً للتّسيير في البحر مع أنّه مقدّمٌ عليه، وغايةُ الشّيء لا بدّ أن تكونَ مُتأخّرةً عنه؛ لأنّه لا إشكالَ في جعْلِ ما ذُكرَ غايةً لما قبلَه، ووجهُ الغايةِ أنّ المعنى: يُسيرّكم في البَرّ والبحر إلى وقت حصولِ شدّةِ البحر، والظّنِّ والدّعاءِ، والرّجوعِ إلى الكفر، أو يُمكّنُكم منَ السّير حتى يحصلَ ذلك المذكورُ في قوله: ﴿إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾.

الثّاني: ابتدائيّةٌ تفريعيّةٌ لا للغاية، ولو تضمّنَ التّفريعُ معنى الغاية كأنّه قيل: فإذا كنتم في البحر واشتدّ أَمرُه عليكم، وظننْتُم أنّكم هَلكَى دعوتمُ اللّه، فإذا أَفرجَ عنكمُ اللّه رجعتُم إلى الشّرك.

ومعنى الغاية أنّ مجيءَ الرّيحِ العاصفِ هو غايةُ التّسيير الهنيءِ المُنعَم به؛ إذ حينئذٍ ينقلبُ التّسييرُ كارثةً ومصيبةً.

معنى ﴿إِذَا﴾، ونُكتةُ اختيارها:

استعمالُ (إذا) دَلالةٌ على قطْعيّةِ ما يُخبرُ اللهُ بهِ من حالِهمُ الباغيةِ الغادرةِ

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بحرف الشّرطِ ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ دونَ (إنْ)؛ لأنّ الأصلَ في استعمالِ (إذا) أنْ تدخلَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5848.

على الذي تُيقِّن وقوعُه أو رُجّح، والأصلُ في استعمالِ (إنْ) أن تدخلَ على المشكوكِ فيه، وبناءً على ذلك فإنّ استعمالَ (إذا) ناسبَ قطعيّةَ ما يُخبرُ اللّه به عن مرحلةٍ من مراحلِ إخبارِ اللّه ﷻ عنِ المعاندين لدعوةِ الإسلامِ، وعن حالِهم الباغيةِ الغادرةِ.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيّةِ:

استِحْضارُ الماضي المكرَّرِ منزلةَ الواقعِ المشاهَدِ يشيرُ إلى حِلْمِ الله

عبَّرَ القرآنُ في ضرب هذا المثلِ بالجملةِ الشّرطيّةِ، وضمّنَها ثلاثةَ قيودٍ في شرطِها، وثلاثةَ قيودٍ في جزائِها، أمّا القيودُ المعتبرةُ في الشّرط فأوّلها: الكونُ في الفُلْك، وثانيها: جريُ الفلك بالرّيح الطيبّةِ، وثالثُها: فرحُهم بها، وأمّا القيودُ المعتبرةُ في الجزاء، فأولها: قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، وثانيها: قولُه: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾، وثالثُها: قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ والمرادُ: أنّهم ظنّوا القُربَ منَ الهلاك، وأصلُه أنّ العدوَّ إذا أحاط بقوم أو بلدٍ فقد دنَوا منَ الهلاك[1]، وفي هذا استحضارٌ لصورة الماضي المكرّرِ منزلةَ الحاضرِ المشاهَدِ.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾:

الجمعُ المعرَّفُ بـأل يُفيدُ العُمومَ

الفُلك: اسمٌ لمَركَب البحر، وهو اسمُ جمع له بصيغةٍ واحدةٍ، يُطلقُ على الواحدِ فما فوق، أي استوى في اللّفظ المفردُ والجمعُ، والمراد هُنا الجمعُ بدليل: ﴿وَجَرَيۡنَ﴾.

و(أل) التّعريفِ في كلمة الفُلك جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، ومعلومٌ أنَّ الجمعَ المعرّفَ بأل الجنسيّةِ الاستغراقيّةِ يُفيدُ العمومَ، لتشملَ نعمةُ التّسيير في البحر حملَهم في أيّ فُلكٍ واستقرارَهم عليه.

معنى الواو في: ﴿وَجَرَيۡنَ﴾:

تعدّدُ صوَرِ النّعيم وتنوّعُه من أعلى صوَرِ الامتنانِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيۡنَ﴾ تحتملُ وجهَيْن:

أحدُهما: أن تكونَ عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُه سبحانه:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235.

﴿كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، والمعنى على هذا الوجهِ: حتى إذا كنتُم في الفُلك، وجرت بالنّاسِ بريح طيّبٍ، وفي هذا العطفِ زيادةُ بيانِ النّعم؛ فمع نعمةِ الحملِ في الفُلك والاستقرارِ عليها تأتي نعمةُ السّير السّريعِ للفُلك التي تتحرّكُ رخاءً.

الآخرُ: أن تكون الواو حاليّةً؛ والمعنى: حتى إذا كنتُم في الفُلك حالَ جَريانِها بالنّاس بريحٍ طيّبةٍ[1].

معنى الباء في: ﴿بِهِم﴾:

الباءُ تشيرُ إلى نعمةِ السّيرِ الآمنِ للرّاكبين في الفُلك؛ فهم مُصاحِبون لها

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ تحتمل معنيَيْن:

الأوّل: التّعديةُ؛ إذ تتعلّقُ الباءُ بـ ﴿وَجَرَيۡنَ﴾ تعلُّقَها بالمفعول نحوَ: مررتُ بزيد، أي (وأجريناهم)؛ لأَنّ إطلاق الجرْيِ عليهم مجازٌ، لأنّها الجاريةُ.

الآخرُ: الباءُ للمصاحبة، أي جرت وهم فيها، أي مصاحِبين لها.

وسواء كانت للتّعدية، أوِ المصاحبةِ فإنّ الإلصاقَ لا ينفكُّ عنها في المعنَيَيْن، والمعاني كلُّها تشيرُ إلى تحقُّقِ نعمةِ السّيرِ السّريع الآمنِ باتّجاه مقصدِهم.

بَلاغةُ التّعبيرِ بـ ﴿بِهِم﴾ بضمير الغيْبةِ بين الالتفاتِ والحقيقةِ:

فنٌّ منَ الإبداعِ في الإيجازِ بعرْضِ المشاهدِ الماضيةِ

الخطاب للذين يمكرونَ في آيات اللّه، الذين قد لا يكونون ممنّ ركِبوا البَحْرَ، وتعرَّضوا لمثل ما وصفَ النّصّ بعد ذلك، لكنّهُم لو تعرّضوا لمثلِه لكان حالُهُم مثلَ حالِ مَن وصفَهمُ اللّه، فاقتضى ذلك تشبيهَ حالِهم بحالِ أمثالِهم السّابقين لهم حكايةَ قِصّةٍ من قِصَص الكافِرين السّابقين، ولهذا توقّفَ النّصُّ عند الفِقْرةِ الأولى المتعلّقةِ بشأن المخاطَبين إبّانَ التّنزيل وبَعْدَه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، وانتقَل مباشَرةً إلى تصوير مَشْهَد قومٍ كافِرين جرَتْ بهِمُ الفُلْكُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

بريحٍ طيّبةٍ، باستخدام ضمير الغَيبةِ ﴿بِهِم﴾ وأسلوبِ الالتفات؛ فقال اللّه ﷻ بأسلوب حكايةِ خَبَرٍ عن حدَثٍ مضى: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾.

واكتَفَى النّصُّ بالمقدّمة الّتي وُجّهتْ للمخاطَبين، عن ذكْرِ نظيرها ممّا يخصُّ المتحدَّثَ عنهم بالغيبة، فكأنّه قال لهم: فسيكون حالُكُم كحال كافرين قبلَكم ركبوا في الفُلْك.

وحصل الاكتفاءُ بإشارةِ قول اللّه للمخاطَبين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ عن أنْ يقول لهم: (إنّكُم لو تعرَّضْتُّم لمثل ما تعرّض له أصحابُ هذه القصّة لكنتُم مثلَهُم، للتّشابُه بينكُم وَبينَهم في أصلِ الفِطرَةِ، وفي الدّوافع إلى الكفرِ والبغْيِ).

وهذا فنّ منَ الإبداع في الإيجاز بعرْضِ المشاهدِ الماضيةِ مع الإشارة التّعريضيّةِ الضِّمنيّةِ إلى أنّ المخاطَبين مثلُ أصحابِ هذه المشاهدِ.

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾:

ريـحٌ فَخمـةٌ لطيفةٌ مُلائمةٌ لـقـصْـدِهـم تحملُ الـرَّخاءَ الآمنَ والسُّرورَ الشّاملَ

ذكرَ القرآنُ الكريمُ مُفردةَ الرّيحِ في قوله: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ بصيغة التّنكير؛ لما في التّنكير من معانٍ توضّحُ النّعمَ التي امتنّ اللّه بها على الإنسان بما يُغني عنِ التّفصيل؛ ذلك أنَّ التّنكيرَ في (ريحٍ) يفيدُ التّفخيمَ والتّكثير، أي اجتمعَ لهم مع تسخير البحرِ، والحملِ في الفُلك ريحٌ فخمةٌ، ومع قوّتِها لطيفةٌ تحملُ الأمنَ والسّرورَ بتحقيق ما يطلبونَه منَ الوصولِ إلى مقصدِهم مع الشّعورِ بالمتعةِ بها، وهي كثيرةٌ تستوعبُ كلَّ مراحلِ الارتقاء في صناعةِ السُّفنِ، وتنسجمُ مع كلِّ تسْييرات البحر، خصوصًا وأنّ كلمةَ الرّيح قد وردت في القرآن الكريم بمعنى القوّة أيًّا كانت: من هواءٍ، أو مُحرّكٍ يسيرُ بأيّة طاقةٍ، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: 46].

غرَضُ وصْفِ الرّيح بأنّها طيّبةٌ في: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾:

ريحٌ شديدةٌ ملائمةٌ لحالِ الفُلكِ وحالِ الرّاكبين وطِيبِ أمنِهم وسرورِهم

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الرّيحَ بأنّها طيّبةٌ في قوله تعالى: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾، وغرَضُه من ذلك دفعُ وإزالةُ التّوهُّم أنْ تكونَ ريحًا عاصفةً؛ بل هي ممّا يُفرحُ بها لِطيبِها؛ لأنّ من عادة القرآن أنّه حيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتتْ مجموعةً، وحيثُ وقعتْ في سياقِ العذابِ أتتْ مُفردةً، إلّا أنَّ هذا لم يطَّرد هنا، ولهذا وصفَ سبحانه الرّيحَ التي أرسلَها عليهم بأنَّها طيّبةٌ[1].

كما أنّ فيها دَلالةً على تمام النّعمة؛ إذِ الطَّيّبُ هو الموصوفُ بالطِّيب الشّديدِ، وأصلُ مَعنَى الطَّيِّب المُلاءَمةُ فيما يُرادُ منَ الشَّيءِ، كقوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: 97]، ويقال: طاب له المقامُ في مكانِ كذا[2]، أي إنّها ريحٌ شديدةٌ فيها طيبُ الرائحة، وطيبُ الملاءَمة لحال الفُلك، وحالِ الرّاكبين، ومقاصدِهم، وطيِّبُ الأمنِ الذي تُحقّقُه بأمر اللّٰه سبحانه.

فائدةُ إفرادِ لفظةِ الرّيحِ في موضعِ الإنعامِ في: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾:

جمالُ المقابلةِ مع الملاءَمة كان تمامَ المعنَى

أفردَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ الرّيح في قوله تعالى: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ لوجهَيْن:

الأوّل: لفظيٌّ وهو المقابلةُ؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ جاء في مقابلة قولِه سبحانه: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾.

الثّاني: معنويٌّ، وهو أنّ تمامَ الرّحمةِ تقتضي هنا وَحدةَ الرّيح؛ فإنّ السفينةَ لا تسير إلّا بريحٍ واحدةٍ، ولو اختلفت عليها الرّياحُ، وتصادمَت وتقابَلَت هلكتْ، فالمطلوبُ هنا ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، ولذا أُكّدتِ الرّيحُ بوصفِ الطَّيّبة[3].

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/118، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/356.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.
(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/357.

الواو بين العطفِ والحالِ

معنى الواو في: ﴿وَفَرِحُواْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ تحتمل وجهَيْن:

أحدُهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوفُ عليه هو قولُ اللّه سبحانه: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾، والمعنى على هذا الوجه: (وجرت الفُلْك بالنّاس وفَرِحوا بالرّيح الطّيّبةِ التي يسيرون بها).

الآخرُ: أن تكون الواو حاليّةً؛ والمعنى على هذا الوجه: (وجرين بهم بريحٍ طيّبةٍ قد فرحوا بها)(1).

دَلالةُ حرفِ الباء على السّببيّةِ بيانٌ لأثَرِ النِّعمِ وترتُّبِها على بعضِها

معنى الباء في: ﴿بِهَا﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ للسّببيّةِ، والمعنى: وفرحوا بسببِ تلك الرِّيح وبالفُلك الجاريةِ بها.

في الاستئنافِ البيانيّ تصويرُ مشهدِ الرُّعبِ في الرّيحِ القويّةِ المدمّرةِ والموْجِ القاتلِ

نُكتةُ ترْكِ العطْفِ في: ﴿جَآءَتۡهَا﴾:

لم يَعطفِ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ على الجملةِ التي قبلَها ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾؛ لأنّها جاءت جوابَ (إذا) الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، وأمّا قولُه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ فهو بدلٌ من ظنّوا؛ لأنّ دعاءَهم من لوازم ظنِّهم الهلاكَ(2)، ومَجيءُ هذه الجملة جوابًا لفعلِ الشّرطِ في سياقِ الالتفات، والانتقالِ من مقام حضورٍ في بدايتها ﴿إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ إلى مقام الغيبةِ في جوابها ﴿جَآءَتۡهَا﴾ بتلك السّرعةِ الفُجائيّة، مع ما تحملُه صيغةُ هذا الجواب ﴿جَآءَتۡهَا﴾ وما عُطفَ عليه ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ و﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ كلُّ ذلك يُصوِّرُ مشهدَ حربٍ، كلُّه رعْبٌ في الرّيح المدمِّرة، والموجِ الذي أحاط بهم من كلّ اتّجاهٍ فلا مفرَّ منَ الموت.

الضّمائرُ وعودتُها إلى الفُلْك أوِ الرّيحِ الطّيّبةِ يَرسمُ مشهدَ حربٍ تحملُ الهلاكَ

عودُ الضّمائرِ في ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾:

ذكرَ المفسّرون في عوْدِ الضّمير في قوله: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ قولَيْن:

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234.

الأوّلُ: الضّميرُ عائدٌ إلى الفُلْك، ولا إشكالَ في كوْنِ الضّمير هنا هو ضميرَ الواحد، والضّميرِ في ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ العائدِ إلى الفُلْك هو ضميرَ الجمعِ؛ لأنّ لفظَ الفُلْك يصلحُ للواحد والجمع، فحَسُنَ الضّميران، وقد رجّحه أبو حيّانَ، قال: "والظّاهرُ عوْدُ الضّمير في ﴿جَآءَتْهَا﴾ على الفُلْك؛ لأنّه هو المحَدَّثُ عنه في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾"[1].

الثّاني: الضّميرُ عائدٌ إلى الرّيح الطَّيّبةِ المذكورةِ في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾، وقد قاله الفرّاءُ وبدأ به الزّمخشريُّ[2]، والمعنى: عارضتْها ريحٌ مضادّةٌ لها فذهبتْ هي، فإنّ العاصفةَ ضدُّ اللّيّنةِ، وهذا أَولى من عوْدِه إلى الفُلْك؛ لقُربِ الرّيحِ، ولتقدُّمِ الإضْمارِ له في قوله ﴿بِهَا﴾، ولأنّه لم يقلْ (جاءَتهن) كما قال ﴿وَجَرَيْنَ﴾.

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿رِيحٌ﴾:

ريحٌ قويةٌ شديدةٌ تحملُ الرُّعبَ والهلاكَ

ذكرَ القرآنُ الكريمُ مُفردةَ الرّيحِ في قوله: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ بصيغة التّنكير؛ لِما في التّنكير من معانٍ توضّحُ العذابَ الذي نزلَ بهم بما يُغني عنِ التّفصيل؛ ذلك أنَّ التّنكيرَ في ﴿رِيحٌ﴾ يفيدُ التّفخيمَ والتّكثيرَ، أي جاءت سُفنَهم، أوِ الرّيحَ الطّيّبةَ ريحٌ قويّةٌ كثيرةٌ عاصفةٌ حرّكتِ الأمواجَ، وأهاجتْها من كلّ مكانٍ، وزرعت في قلوبِهم الرّعبَ، ويقينَ الهلاك.

غرَضُ وصفِ الرّيحِ بأنّها عاصفٌ في: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾:

العاصفُ ريحُ عذابٍ شديدةُ الخِفّةِ والسّرعةِ تَستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الرّيحَ بأنّها عاصفٌ، ولم يَستخدم وصْفًا آخرَ كشديدةٍ أو قويّةٍ أو سريعةٍ؛ إشارةً إلى اتّساعِ دَلالةِ كلمة: ﴿عَاصِفٌ﴾ فهي تدلُّ على الشّدّةِ والخفّةِ والسّرعةِ، "عصفت الرّيحُ اشتدّت، وأصلُ العصْفِ السّرعةُ، كما أنّه استعمل اسْمَ الفاعل ﴿عَاصِفٌ﴾ مراعاةً للفْظِ الرّيحِ المذكّرِ، ولأنّه يُرادُ ذاتُ عصوفٍ،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/234، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

وذلك نظيرُ قولِ العرب للرّجل يكون عنده تمرٌ كثيرٌ: رجلٌ تامرٌ[1]؛ أي عنده تمرٌ كثيرٌ، والمعنى ريحٌ مدمّرةٌ مُغرقةٌ لا خيرَ فيها بل عذابٌ شديدةُ الهبوب ذاتُ خِفّةٍ وسرعةٍ، تستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها أي: تذهبُ بها.

العطفُ زيادةُ بيانٍ للعذابِ الذي نَزلَ بهم

معنى الواو في: ﴿وَجَآءَهُمُ﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قول اللّه سبحانه: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، والمعنى العامُّ الذي يجمعُ المعطوفَ والمعطوفَ عليه هو أنّ كلَيْهما منَ القيودِ المعتبرةِ في الجزاء، فهُما من أفراد العذابِ الذي قدّره اللّه عليهم، وإنْ كان عذابُ كلٍّ منهما يختلفُ عنِ الآخر، فلكلٍّ منهما دورُه في زرع الخوفِ في القلوب.

تصويرٌ يُظهرُ قوّةَ مجيءِ الموجِ وشدّتَه وسُرعتَه في الإحاطةِ بهم

بَلاغةُ المجازِ في إسنادِ المجيءِ إلى الموجِ: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾:

إسنادُ المجيءِ إلى الموجِ في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ مجازٌ؛ هو مجازٌ لغويٌّ؛ إذِ المجيءُ يحتاجُ إلى إرادةٍ، ومن وراء الإرادةِ قصْدٌ، والموجُ منَ الجمادات ليس له إرادةٌ، وغرَضُ ذلك تشخيصٌ للموج وتعقيلُه، وكأنّه عاقلٌ مُدركٌ، بما يفيدُ المبالغةَ في قوّة المجيءِ وسُرعتِه وشدّةِ إحاطتِه كالعدوِّ يحيطُ بالقبيلة، ويُطوّقُهم فلا مفرَّ ولا نجاةَ.

العَهديّةُ في لامِ التّعريف استحضارُ صورة مَوجٍ مُخيفٍ عرفوه رُؤيةً أو وصْفًا

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمَوۡجُ﴾:

أل التّعريف في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ عهديّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، والمعنى: وجاءهم الموجُ المعروفُ لكلِّ أحدٍ بالرّؤية أوِ الوصْفِ[2]، وهو الموجُ الذي يحملُ الإضرارَ والهلاكَ، لا جنسُ الموجِ الذي يشملُ الهادئَ والعنيفَ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.

كلُّ المنافذِ المكنةِ قد سُدّتْ ولم يبقَ للنّجاةِ إلّا التّوحيدُ

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ابتدائيّةٌ، والابتداءُ الذي تفيدُه ابتداءُ الأمكنةِ المتّجهةِ إلى الفُلك[1]، أي: ابتداءً من كلّ مكانٍ يمكنُ أنْ يجيءَ الموجُ منه، فالاستغراقُ هنا عُرفيٌّ وليس حقيقيًّا[2].

واستعمالُ ﴿مِن﴾ مع لفظ ﴿كُلِّ﴾ يُنبئُ بإحكامِ الحصارِ حولَهم؛ إذ ليس مقصدُ الآية تحديدَ سببِ الهلاك، وإلّا لكانت موجةٌ واحدةٌ من مكانٍ واحدٍ كفيلةً بإغراقِهم جميعًا، ولكنّ المقصودَ بيانُ أنَّ المنافذَ المكنةَ كلَّها قد سُدّت، ولم يَترك الموجُ للخيال فُسحةً أنْ يَتصوّرَ جهةً ما، تأتي منها إغاثةٌ، ولو على سبيل الفرْضِ والوهمِ، ولم يبقَ إلّا التّوحيدُ.

العطفُ زيادةُ بيانٍ واستكمالٌ لمشهدِ نُزولِ العذابِ

معنى الواو في: ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُه سبحانه: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾، وبهذا العطْفِ تكتملُ صورةُ نزولِ العذابِ بهم منَ الرّيح المدمّرةِ، والموجِ الذي جاءَهم من كلّ جهةٍ لتكتملَ بيقينٍ صورةُ الهلاكِ.

الإحاطةُ بهم ثابتةٌ ومُستمرّةٌ وظنُّهم بها ظنٌّ مؤكّدٌ

معنى الظّنِّ وبيانُ مفعولَيْه:

ذكرَ المفسّرون في بيان معنَى الظّنّ في قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أقوالًا:

الأوّلُ: المرادُ منه المقاربةُ منَ الهلاك والدّنوُّ منه والإشرافُ عليه[3].

الثّاني: بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أنّه الهلاكُ[4].

الثّالث: وظَنّوا على بابه في الظّنّ، لكنّه ظنٌّ غالبٌ مُفزعٌ بحسب أنّه في محذورٍ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/428.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/436.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 2/425، والبقاعي، نظم الدرر: 9/98.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/113.

وقد رجّحَ الماتريديّ كوْنَ المرادِ غالبَ الظّنّ لا اليقينَ، ولكنّه يُعاملُ معاملةَ اليقين ويأخذُ حُكمَه، ألا ترَى أنّ الله أباح الميتةَ في حال الضّرورةِ لغالب الظّنّ؛ إذ قد يجوزُ ألّا يَهلِكَ بذلك[1].

والتّعبيرُ بالظّنّ رغْمَ أنّ المرادَ به اليقينُ؛ للإشارة إلى أنّه ما زال عندهم أملٌ بالنَّجاة دفعَهم للدّعاء، وكذلك حرْصُهم على الدّنيا وتمسّكُهم بها، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ﴾ [البقرة: 96].

والمصدرُ المُؤوّلُ من أنّ وما بعدها ﴿أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ سدّت مَسدَّ مفعولَيّ (ظنّ)[2]، وقد عدلَ البيانُ القرآنيُّ عنِ التّعبير بالمصدرِ المُؤوّلِ (الإحاطة) إلى الجملةِ الاسميّةِ ﴿أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ التي تفيدُ الثّباتَ والاستمرارَ؛ للدّلالةِ على أنّ الإحاطةَ بهم ثابتةٌ ومُستمرّةٌ لا مهربَ منها، بما يفيدُ أنّ ظنَّهم كان ظنًّا مؤكّدًا جدًّا.

دَلالةُ التّعبيرِ بالإحاطةِ:

مَشهدُ حصارٍ أحاطَ بهم ليس لهم منهُ نجاةٌ وكأنّه حربٌ

عبّرَ القرآنُ بلفظِ الإحاطةِ من حيثُ مادّتُها وبناؤُها في قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ دون غيرِها، كالحصارِ مثلا، لاتّساعِ دَلالةِ هذه المادّةِ التي تعني عدمَ وجودِ مَنفذٍ للفرار؛ ولذلك نجدُ الحقَّ سبحانه يتكلّمُ عنِ الكافرين بقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾ [البقرة: 19]، أي: ليس هناك مَنفذٌ يُفلتون منه[3]، والمعنى: أحاطَ بهمُ البلاءُ من كلّ ناحيةٍ[4]، كما أنّ كلمةَ (الإحاطة) مرتبطةٌ في الوِجدان العربيِّ بأجواءِ الحروبِ والغارات، قال القرطبي مذكِّرًا بالأصل الحَماسيِّ للكلمة: "وأصلُ هذا أنّ العدوَّ إذا أحاط بموضعٍ فقد هلكَ أهلُه"[5]، إذن: من شأن التّعبير بالإحاطةِ أنْ توجّهَ المتلقّي

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/28.
(2) الخازن، لباب التأويل: 2/436.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5852.
(4) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/50.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/325.

إلى استحضارِ صورةِ معركةٍ، جنودُها الرّيحُ القويّةُ المدمّرةُ والموجُ الذي يُحدقُ بهم ويُطوّقُهم من كلّ مكانٍ بأمرِ اللّه سبحانه.

أمّا الصّيغة فقد جاءت مبنيّةً للمفعول ﴿أُحِيطَ﴾ لأنّ المخوِّفَ كان الهلاكَ، لا كونَه من معيَّنٍ[1]، فكان التّركيزُ عليه، وصُرِفَ الحدثُ عمدًا عن مُحدِثه، فلم يُسنِدْه إليه، تركيزًا للانتباه على الحدثِ ذاتِه، أي: المفعول وهو الإحاطةُ بهم، وحصْرُ الوعيِ فيه، فلا يتوزّعُ في غيرِه، لعدمِ تعلُّقِ غرَضِ الآياتِ بالمحيط.

كما أنّ هذه الصّيغةَ تشيرُ إلى العموم؛ إذ لو ذُكِرَ الفاعلُ لاقتصرَ عليه، ولكنْ بهذه الصّيغةِ شملَ الفاعلُ الموجَ والرّيحَ والفُلْكَ الذي يركبونَه، وما يحملُه من أُناسٍ وأمتعةٍ وغيرِ ذلك، فقد تجسّدَ الهلاكُ فيها كلِّها.

بَلاغةُ الاستعارةِ في التّعبيرِ بالإحاطةِ في: ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾:

استـعـارةُ الإحاطةِ للتَّعبيرِ عنِ الهلاكِ وتصويرِه وكأنّه مشهدٌ تمثيليٌّ

إنّ الإحاطةَ في قوله تعالى: ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ استعارةٌ لسدِّ مسالكِ الخلاصِ تشبيهًا له بإحاطةِ العدوّ، فالعربُ يقولون: أحاطَ العدوُّ بالقبيلة إذا تمكّن منها وغلبَها، لأنّ الإحاطةَ بها تدلُّ على الإحداقِ بها وتطويقِها، ولمّا كان ذلك هزيمةً وامتلاكًا لها صار ترتيبُ ﴿أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ استعارةً تمثيليّةً للهلاك[2]؛ إذ شُبّهتِ الهيئةُ المنتزَعةُ من شدّةِ هبوبِ الرّيحِ العاصفِ وظُهورِ الموجِ من كلّ مكانٍ، وحركةِ السّفنِ حركةً شديدةً بالهيئةِ المُنتزَعةِ منَ العدوِّ وإحاطتِه بشخصٍ من جميعِ جهاتِه بحيث لا يُرجَى خلاصُه، فاستُعملَ اللَّفظُ المركّبُ الموضوعُ للهيئةِ المشبَّه بها في الهيئةِ المشبَّهةِ[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/98.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/137.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/429.

ظنُّهُمُ الهلاكَ دفعَهُم إلى ارتفاعِ قلوبِهِم بالدُّعاءِ

نُكتةُ الفصْلِ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾:

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ عن سابقتِها، ولم يربطْ بينهما بالعاطف؛ لأحد أمرَيْن:

الأوّل: لكوْنِ جملةِ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ بدلًا من ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ بدلَ اشتمالٍ لِما بينهما منَ الملابسةِ والتّلازُم؛ ذلك لأنّ دعاءَهم من لوازمِ ظنِّهم الهلاكَ فهو مُلتبّسٌ به، أي أنّ بين الجملتين كمالَ اتّصالٍ.

أو لكونِها استئنافيّةً مبنيّةً على سؤال يخطرُ بالذّهن وهو: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعَوا اللهَ[1]، أي أنّ بين الجملتين شبَهَ كمال اتّصالٍ.

يأسهُم التّامُّ ويقينُهم بالهلاكِ أيقظَ فطرتَهم بإخلاصِ الدّعاءِ للخالقِ وحدَه

إعرابُ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾:

﴿مُخۡلِصِينَ﴾ حالٌ منَ الواو في ﴿دَعَوُاْ﴾[2]، والمعنى: أنّهم لم يدْعوهُ فقط، بل دعَوْه بإخلاصٍ، وأقرّوا بوَحدانيتِه، وألّا شريكَ له أبدًا؛ لأنّهم يعلمون أنّ مثلَ هذا الشّريكِ لن ينفعَهم أبدًا[3]، أي لم يَشوبوا دعاءَهم بشيءٍ منَ الشّوائب، كما جرت عادتُهم في غير هذا الموطنِ أنّهم يُشركون أصنامَهم في الدّعاءِ.

معنى اللّام في: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾:

خضوعُهُ بالألوهيّةِ رُجوعًا إلى الفطرةِ لمّا زالَ عنهم عوارضُها

اللّام في قوله تعالى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ والجارُّ ﴿لَهُ﴾ متعلّقٌ بـ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، هي لامُ التّبيين، أي بيّنتِ اللّامُ توجُّهَهم لله وحده دون أصنامِهم، قال الحسن: مخلصين لا إخلاصَ إيمانٍ لكنْ لأجل العلْمِ بأنّه لا يُنْجيهم من ذلك إلّا الله، فيكونُ ذلك جاريًا مجرَى الإيمانِ الاضطراريِّ[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/134، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/225.

(2) ابن آجرّوم، مشكل إعراب القرآن الكريم: 1/371.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5853.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/34.

نُكتةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿لَهُ﴾:

دُعاؤهمُ الله وحدَه في شدَّتِهم هي إقامةُ الحُجّة عليهم ببعض أحوالِهم

قدّمَ البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لإفادة الحصرِ والقصْرِ، أي قصَروا وحصَروا دعاءَهم للّه، "مُمحِضِينَ له العبادةَ في دعائِهم، أي دَعَوْه ولم يَدْعوا معه أصنامَهم، وليس المرادُ أنّهم أقلَعوا عنِ الإشراك في جميع أحوالِهم، بل تلك حالتُهم في الدّعاء عندَ الشّدائدِ، وهذا إقامةُ حُجّةٍ عليهم ببعض أحوالِهم"[1]، وتنبيهٌ على غاية قُبحِهم، إذ إنّهم لمّا شارفوا على الهلاكِ دعَوا اللّه دونَ أصنامِهم، ولمّا أنجاهُم وأنعم عليهم أشرَكوا معه أصنامَهم، واعتدَوْا على حقّ الخالقِ وهو أعظمُ اعتداءٍ.

غرَضُ فصْلِ جملةِ: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ كشَفَ مضمونَ دُعاءِ المشركين حالَ اضطِرارِهم

فَصلَ القرآنُ جملةَ ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ عنِ الجملة التي قبلَها ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ ولم يربطْهُما بعاطفٍ؛ لِما بين الجملتَين من كمال اتّصالٍ؛ إذ إنّ الجملةَ الثّانيةَ ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ جاءت بيانًا لجملةِ ﴿دَعَوُاْ﴾؛ إذ إنّ مضمونَها هو الدّعاءُ الذي دعَوا به حالَ اضْطرارِهم[2].

فائدةُ دخولِ اللامِ في ﴿لَئِنۡ﴾:

تأكيدُ وعْدِهم بالقسَم إظهارٌ لكمالِ رغبتِهم في الشُّكرِ حرصًا على النّجاةِ

اللامُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هي لامُ توطئةِ القسَم، وغرضُ استعمالِها تأكيدُ وعْدِهم بالشّكرِ إذا أنجاهُمُ اللّه منَ الهلاك[3].

فائدةُ المجيءِ بـ (إن): ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾:

عبّرَ القرآنُ بحرف الشّرطِ (إنْ) دونَ (إذا) في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾؛ للدّلالةِ على عدمِ صدْقِهم رغْمَ التّأكيداتِ المتواليةِ في قولِهم، بدايةً منَ القَسَم ثمّ نونِ التّوكيد ثمّ (من) الصّلةِ؛ لأنّ الأصلَ في استعمالِ (إن) أنْ تدخلَ على المشكوكِ فيه، أوِ المستحيلِ، أوِ النّادر بخلاف (إذا).

استعمالُ (إنْ) دلالةٌ على عدَمِ صدْقِهم وعلى كشْفِ حقيقتِهم

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملةِ الشّرطيّة: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾:

عبّر القرآنُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ حكايةً عنهم بالجملةِ الشّرطيّةِ التي من شأنها أنّها تتعلّقُ بالمستقبل، وبحرف الشّرطِ (إن) الذي يُستعملُ مع المشكوكِ فيه، أوِ النّادرِ، أوِ المستحيلِ، وكان المفترضُ منهم لو صدَقوا في إيمانِهم ودعائِهم ألّا يَشترِطوا، بل أنْ يُسارِعوا إلى الإيمان قبل خروجِ أرواحِهم، عسى أنْ يكفّرَ اللّه خطاياهُم، ولكنْ أبتْ ألسنتُهم إلّا أنْ تفضحَ حقيقةَ ما في قلوبهم.

فـي الـشّـرطِ والـجـزاءِ كـشْفٌ لحقيقتِهم التي شأنُها البغيُ والغدْرُ

نُكتةُ التّعبيرِ باسْمِ الإشارة ﴿هَٰذِهِۦ﴾:

عبّرَ القرآنُ باسم الإشارةِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الذي يُستخدمُ للقريبِ؛ للإشارة إلى حالةٍ حاضرةٍ لهم، وهي حالةُ إشرافِهم على الغرَقِ، فالمشارُ إليه هو الحالةُ المشاهَدةُ لهم، وهذا من فائدة الإضْمارِ وعدمِ التّصريح؛ لتشملَ هذه الحالةُ المشاهَدةُ الأمواجَ والرّيحَ والشّدائدَ كلَّها التي يعيشونَها.

الإشارةُ بالقريبِ لـلـتّـنـبـيـهِ على حالةٍ مُشاهَدةٍ لـهـم؛ وهـي إشـرافُـهـم على الغرَقِ

كما أنّه يومئُ إلى أنّ ما وصَلوا إليه منَ الخوفِ والضّعفِ واليأسِ الذي اضطرّهم إلى طلب رفعِ هذه الحالةِ منَ العذاب فقط، ووعدَهم بأنْ يكون دَيدنُهم الشُّكرَ الذي لا ينقطعُ.

وإلى نبضِ الفِطرة بشعورِهم، وأنّ اللّه يراهُم، ويرى ما نزلَ بهم من هذه الحالةِ التي يُشيرون إليها.

معنى اللّام في ﴿لَنَكُونَنَّ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ واقعةٌ في جواب القسَم المقدَّرِ، ومؤكّدةٌ له مع نون التّوكيدِ الثّقيلةِ؛ لأنّه جوابٌ لقسمٍ مقدّمٍ على الشّرط الذي حُذف جوابُه؛ لدلالة جوابِ القسَم عليه حسبَ القاعدةِ: إذا اجتمع قسَمٌ وشرْطٌ فالجوابُ للسّابق.

دَلالةُ توالي المؤكّدات في: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

تَوالي تأكيداتِهم دليلٌ على حالةٍ أيْقَنوا معها أنّه لا مجالَ للنّجاة إلّا بالتّوحيدِ

تميّزَ التّركيبُ في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بخصوصيّةٍ واضحةٍ؛ إذِ اجتمعت فيه عدّةُ مؤكّداتٍ تُبيّنُ تأكيدَ وعْدِ الكافرين بالشُّكر، أي الإيمانِ والثّباتِ عليه إنْ أنجاهم اللّه من مَهلكةِ البحر، والمؤكِّداتُ هي: لامُ توطئة القسَم ﴿لَئِنۡ﴾، واللامُ الواقعةُ في جواب القسَم ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ ونونُ التّوكيد الثّقيلةُ ﴿لَنَكُونَنَّ﴾[1]، أي كونًا لا ننفكُّ عنه، وكونُ جواب الشَّرط جملةً اسميّةً يُفيد الثّباتَ والدّوامَ؛ فقد عدلَ عن أنْ يقول (لنشكرن) إلى ما في النّظم الجليلِ؛ للمبالغةِ في الدّلالة على الثّبوت في الشُّكر والمثابَرةِ، أي: لَنكونَنّ البتّةَ بعد ذلك أبدًا شاكرين لنِعمك التي من جملتها هذه النّعمةُ التي سألوها[2]، وكذا التّعبيرُ بصيغة ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دونَ (لنكونن شاكرين)، أي من هذه الزّمرةِ التي دَيدنُها الشّكرُ[3].

وهذه المؤكِّداتُ المتتابعةُ تشيرُ إلى حالة الاضطرارِ التي وصلوا إليها، وعايَنوا فيها الهلاكَ، وتدلُّ على مبالغتِهم في الوعْدِ بالشُّكرِ، بما سيفْضحُهم، ويكونُ حجّةً عليهم عند كفرِهم.

معنى ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ حرفُ جرّ،

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/93.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.

نسبةُ كونِهم من زُمرةِ الشّاكرين هـي أبلـغُ من وصْفِهم بالشّكرِ

ودخولُها على لفظِ ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ليكونَ التّعبيرُ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ دون (لنكونن شاكرين) يفيدُ كونَهم من هذه الزُّمرة، زمرةِ الشّاكرين التي ديدنُها الشّكرُ[1]؛ لأنّ التّعريف في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ تعريفُ الجنس، فإخبارُ المتكلّمين عن أنفسِهم بأنّهم منَ الشّاكرين يفيدُ أنّهم من أفرادِ هذه الفئةِ التي تُعرفُ عند النّاس بفئةِ الشّاكرين.

وهذه الصّيغةُ ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ من قَبيل الكنايةِ التي هي إثباتُ الشّيءِ بإثباتِ ملزومِه، وهي أبلغُ منَ التّصريح، قال الزّمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ [الشعراء: 168]: "قولُك: فلانٌ منَ العلماء أبلغُ من قولك: فلانٌ عالمٌ، لأنّك تشهدُ له بكونه معدودًا في زُمرتِهم، ومعروفةٌ مساهمتُه لهم في العلم"[2]، وقال عند تفسير قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشعراء: 136]: "فإن قلتَ: لو قيل: أوعظت أو لم تعظ كان أخصرَ، والمعنى واحدٌ، قلتُ: ليس المعنى بواحدٍ، وبينهما فرقٌ؛ لأنّ المرادَ سواء علينا أفعلتَ هذا الفعلَ الذي هو الوعظُ، أم لم تكن أصلًا من أهله ومباشرتِه، فهو أبلغُ في قلّة الاعتداد بوعْظِه من قوله: أم لم تعِظْ"[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

الجنسيّةُ في أل التّعريف دليلٌ على المبالغةِ في وعْدِهم بالشّكرِ

(أل) التّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ تفيدُ العمومَ؛ لتشملَ كلَّ ما ينطبقُ عليه اسمُ الشّاكرِ، أي كلُّ أفرادِ هذه الفئة التي تُعرفُ عند النّاسِ بفئة الشّاكرين، والمعنى: لَنكونَنّ منَ الشّاكرين بأفعالِنا، والشّاكرين بأقوالِنا، والشّاكرين بألسنتِنا وقلوبِنا وجوارحِنا، المُديمين على الشّكرِ العَريقين في الاتّصافِ به[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/331.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/327، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/263.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/99.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

السّفينةُ والفُلْكُ والجاريةُ:

السّفينةُ الأصلُ والأشهرُ، والفُلْكُ إشارةٌ إلى اتّساعِها، والجاريةُ تجري بخفّةٍ وسرعةٍ

السّفينةُ والفلكُ والجاريةُ جميعُهم لمسمًّى واحدٍ، واسمُ السّفينة هو الأصلُ وهو أشهرُهم؛ إذ يُعرّفُ الفُلكُ بالسّفينة، وتُعرّفُ الجاريةُ بالسّفينة، إلّا أنّ بينَهم بعضَ الفروق في المعنى اللّغويِّ، وفي الاستعمال، وهي:

السّفينةُ: الجذرُ اللّغويُّ (سفن) تدلُّ على تنْحيةِ شيءٍ عن وجهِ شيءٍ، كالقِشْر، وسُمّيتِ السّفينةُ بذلك؛ لأنّها تسفنُ الماءَ كأنّها تقشرُه، (تغوصُ فيه وتزيحُه حين جرْيِها)[1].

والفُلْكُ: الجذرُ اللّغويُّ (فلك) تدلّ على استدارةٍ في شيءٍ، والفَلَك: موجُ البحر المستديرُ المضطربُ، والفُلْكُ: السّفينةُ، وسُمّيت بذلك لاستدارتِها، ولأنّها تُدارُ في البحر[2].

والجاريةُ: الجذرُ اللُّغويُّ (جرى) يدلّ على الانتقال بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متّصلةٍ، والجاريةُ: السّفينةُ، صفةٌ غالبةٌ، وجمعُها (الجواري)، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها تجري في البحر بسرعةٍ وخفّةٍ[3].

ويُفرّقُ بينها في استعمالِ القرآن الكريم لها، فوردَ لفظُ السّفينةِ في القرآن الكريم في ثلاثةِ مواضعَ، ويظهرُ أنّه أطلقَ اسْمَ السّفينةِ عندما أرادَ الإشارةِ إلى أصلِها، أوِ الإشارةِ إلى صغرِ حجْمِها، واقتصارِ استعمالِها على الأمور الهيّنةِ كحملِ المسافرين.

وورِدَ لفظُ الفُلك في القرآن الكريم في ثلاثة وعشرين موضعًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سفن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جري).

ويظهرُ أنّه أطلق لفظَ الفُلك؛ للدّلالةِ على سَعتِها وكبرِ حجْمِها، وامتلائِها بالرّكاب والبضائعِ، وجريِها في عرْض البحرِ مع تلاطُمِ الأمواج، ووردت في مقام تذكيرِ الإنسان بنِعَم اللّه، وقُدرتِه وكيف سخّرَ له الفُلكَ لتجريَ في البحر.

وورد لفظُ ﴿ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: 11] و﴿ٱلۡجَوَارِ﴾ [الشورى: 32] في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، ويظهرُ أنّه أطلقَ لفظَ الجارية؛ للدّلالةِ على سرعة سيْرِها، واختصارِ الطّرقِ للإنسان، وقد وردت في سياقِ الإنعامِ، والتّذكيرِ بقُدرةِ اللّه وعظَمتِه.

الريحُ العاصِفُ والقاصِفُ والعقيمُ والصّرْصرُ:

الرّيحُ العاصفُ تذهبُ بالأشياءِ، والقاصفُ تَكسرُها، والصّرصرُ شديدةُ البرودةِ، والعقيمُ لا خيرَ فيها بل عذابٌ

تتقاربُ معاني العاصفِ والقاصفِ والصّرصرِ والعقيمِ، فجميعُها صفاتٌ للرّيح التي تأتي للعذاب، إلّا أنّ هناك بعضَ الفروق بينها، وهي كالآتي:

الرّيحُ العاصفُ: أصلُ الجذرِ اللّغويِّ (عصف) يدلّ على خفّةٍ وسرعةٍ، وريحٌ عاصفٌ: شديدةُ الهُبوبِ، فهي تستخفُّ الأشياءَ فتعصفُ بها أي: تذهبُ بها.

والرّيحُ القاصفُ: أصلُ (قصف) يدلُّ على كسْرٍ لشيءٍ، والقصفُ: السّريعُ الانكسار، وريحٌ قاصفٌ: شديدةٌ تكسرُ كلَّ ما مرّت به من بناءٍ وشجرٍ وغيرِه[1].

والرّيحُ الصّرصرُ: قيل أصلُها منَ (الصِّر): وهو البردُ الشّديدُ الذي يجعلُ الأشياءَ تنقبضُ وتتجمّدُ، أو منَ (الصَّرَّة) وهي الضّجّةُ والصوتُ، وريحٌ صرصرٌ: شديدةُ البرودةِ وشديدةُ الصّوت[2].

(1) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس، وابن فارس، مجمل اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قصف).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرر).

والرّيحُ العقيمُ: أصلُ (العُقْم): اليُبسُ المانعُ من قَبولِ الأثر، وريحٌ عقيمٌ: غيرُ لاقحٍ، فلا تلقّحُ سحابًا، ولا شجرًا، إنّما هي ريحُ عذابٍ شديدةٌ وإهلاكٌ[1].

وقيل: إنّ الرّيح العاصفَ والقاصفَ في البحر، والصّرصرَ والعقيمَ في البَرّ[2].

(1) الراغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (عقم).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قصف).

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ [يونس: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ أكَّدوا وعْدَهم غايةَ التّأكيدِ أسْرعوا في نقضِهِ غاية الإسراعِ

لَمّا حكى عنهمُ التّضرّعَ الكاملَ والوعْدَ المؤكّدَ غايةَ التّأكيد: ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ بيَّن أنّهم بعد خلاصِهم ونجاتِهم من تلك البليّةِ والمحنةِ أقدَموا في الحال على البغي في الأرض بغير الحقِّ، بل أسرَعوا في نقضه غايةَ الإسراع، فقال: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡغُونَ﴾: الباءُ والغين والياء أصلان: أحدُهما طلبُ الشّيء، والثّاني جنسٌ منَ الفساد، فمنَ الأوّل: بغى الرّجلُ الخيرَ أوِ الشرَّ أي: طلبَه، ومنَ الثّاني: قولُهم بغى الجرح: إذا ترامى إلى فسادٍ[2]، والبغيُ: قصدُ الفساد، وتجاوزُ الحقّ إلى الباطل، والبغيُ: الظّلمُ، وقيل: كلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدار الذي هو حدُّ الشّيء بغيٌ[3].

والمعنى في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويّ.

2) ﴿ٱلۡحَقِّۗ﴾: الحاء والقاف أصلٌ واحدٌ يدلّ على إحكام الشّيءِ وصحّتِه، فالحقّ: نقيضُ الباطل[4]، وأصلُ الحقّ: المطابقةُ والموافقةُ، وجمعُه حُقوقٌ وحِقاق، وحَقَّ الأمرُ وجبَ، ومن معاني الحقِّ: الصّدق،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/235.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (بغي).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بغي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).

والعدلُ، والإسلامُ، وأمرُ النّبيّ ﷺ وما أتى به منَ القرآن[1]، أي كلُّ ما طابقَ ووافقَ تعاليمَ الإسلام، وهو المعنى المرادُ في الآية.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بعد نعمةِ الخلاصِ سارَعوا إلى بغيٍ كان عليهم وبالُه في الدّنيا والآخرة

فلمّا أنْجاهمُ اللّه تعالى بقُدرتِه وعظَمتِه ورحمتِه منَ الكرب العظيم الذي كانوا فيه، إذا هم يُسارعون إلى الفسادِ في الأرض فسادًا شملَ أقطارَها، ويَنسون وعودَهم بالشّكرِ، ويَرتكبون البغْيَ الفاضحَ السّافرَ الذي لا يخفَى قُبحُه على أحدٍ، بما يدلُّ على أنّهم قومٌ بلغَ بهمُ اللُّؤمُ والجحودُ كلَّ مبلَغٍ، فيخاطبُهم اللّه تهديدًا ووعيدًا: يا أيّها النّاس الذين تضرّعوا في ساعات الشّدّة اعقِلوا واحذَروا واعلَموا أنّ وبالَ بغْيِكم وجزاءَه على أنفسكم لا تضرّون به أحدًا غيرَكم، وما أنتم فيه متاعٌ قليل، ولذّةٌ فانيةٌ، ثمّ تعودون إلينا يومَ الحساب، فنخبرُكم بجميع ما كسبْتُموه، ونحاسبُكم عليه، ونوفّيكم حقَّه.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في: ﴿فَلَمَّآ﴾:

(الفاء) ما بين سُرعةِ إجابةٍ منَ الله وسُرعةِ نقضٍ للوعودِ من أهل اللُّؤمِ والجحودِ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ حرفُ عطفٍ يفيدُ التّرتيبَ والتّعقيبَ؛ فأمّا التّرتيبُ فقد رتّبَ ما بعدَه عَلَى ما قبلَه، والمعنى: أنّه بعد الشّكرِ الذي أقسموا عليه إذا أنجاهُم، إذا هم يَبغون[2]، ويُمكنُ أنْ يكون المعنى بما فسّره البيضاويُّ "فلمّا أنجاهم إجابةً لدعائِهم"[3].

وأمّا التّعقيبُ فللدّلالةِ على سُرعةِ الإجابة منَ اللّه سبحانه[4]، وعلى أنّهم قومٌ بلغَ بهم اللُّؤْمُ والجحودُ؛ إذ سارَعوا إلى الفساد في الأرض منذ شُعورهم بالأمانِ، وهذا باجتماعِها مع إذا الفُجائيّةِ، قال

(1) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حق).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/429.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.

البِقاعيّ: "ولما أبانتِ الفاء عنِ الإسراع في النّقض أكّد مُفاجأتهم لذلك بقوله: ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ﴾"[1].

دَلالةُ (لمّا):

(لمّا) حرفُ وجودٍ لوجودٍ؛ يترتّبُ ما بعدها منَ الجواب ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ﴾ على ما قبلها منَ الفعل الماضي لفظًا ومعنًى الذي بعد لمّا ﴿أَنجَىٰهُمۡ﴾، ولذا فقد أفادتِ التّرتُّبَ والتّعليقَ في المُضيّ[2]، والمعنى أنّهم رتّبوا بغْيَهم على إنجاء اللّه لهم، وأوجدوه عند حصولِه، ودخولُ (الفاء) على (لمّا) ودخولُ إذا على (جواب لما) أفاد سرعةَ هذا التّرتّبِ والتّعليق؛ فلم يتأخّرْ بغيُهم عن إنجاء اللّه لهم، بل بنفس ما وقع الإنجاءُ وقعَ البغيُ، بما يدلّ على سوء نفوسِهم[3].

تعلّقُ بغْيهم على إنجاء الله لهم دليلٌ على سوءِ نفوسِهم

وهناكَ من عدَّها ظرْفًا بمعنى حين، والمعنى: حين أنجاهمُ اللّه إذا هم يُسارعون في الفساد.

دلالةُ دخولِ ﴿إِذَا﴾ في جواب (لمّا):

أدخلَ البيانُ القرآنيُّ ﴿إِذَا﴾ الفُجائيّةَ في جواب (لمّا) التي تدلّ على أمرين:

البغيُ مُستكنٌّ في صدورِهم إذ يَفجأون النِّعمةَ بالتّرقّي في الجُرأةِ على الله

الأوّل: البِدارُ والإسراعُ بمضمون الجملةِ في جواب (لمّا)، أي: سرعةُ تعجيلِهم بالبغْيِ في الأرض عقِبَ النّجاة، ومسارعتُهم إلى ما كانوا عليه منَ الإشراك باللّه تعالى وعبادةِ غيره[4]، كأنّ البغْيَ مُستكِنٌّ في صدورهم لم تدحضْهُ الشّدّة؛ لأنّ فطرتَهم فاسدةٌ ومعدنَهم خبيثٌ، لم يتأثّر إلّا في ظاهر الأمرِ حالَ ضعفهم، وهم قومٌ لُؤّمٍ وجحودٍ؛ إذ إنّهم نَسَوا ما كانوا فيه من أهوالٍ، وما أبرَموه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/100.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/192، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.

من عهودٍ وأَيمانٍ، وسارعوا إلى الفساد في الأرض، دون أنْ يردعَهم رادعٌ، أو يصدَّهم ترغيبٌ أو ترهيبٌ[1].

الثّاني: المفاجأةُ من قيامِهم بنقيضِ ما كان يَنبغي أن يكونَ منهم؛ إذ كان قَسَمُهم يوجبُ عليهم أن يكونوا بعد النّجاةِ طائِعين مدرِكين قُدرةَ اللّه وسلطانَه، وأنّه قادرٌ على ردِّهم إليه كما كان قادرًا على إغاثتِهم في كربِهم[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ: ﴿هُمۡ يَبۡغُونَ﴾:

بغيُ الكافرين ثـابـتٌ دائـمٌ ومُستمرٌّ مُتجدّدٌ

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بالجملةِ الاسميّةِ التي خبرُها فعلُ ﴿يَبۡغُونَ﴾، ولم يقلْ (يبغون هم)؛ لإفادة تحقيقِ حصْرِ البغيِ بهم، فبغيُهم محّققٌ مؤكّدٌ لا شكَّ فيه.

وكذلك أفادَ التّعبيرُ بالجملةِ الاسميّةِ ﴿هُمۡ يَبۡغُونَ﴾ الثُّبوتَ والدّوام، وأفاد خبرُها الذي جاء بصيغة المضارعِ ﴿يَبۡغُونَ﴾ الاستمرارَ التّجدّديَّ؛ فبغيُهم ثابتٌ دائمٌ ومستمرٌّ متجدّدٌ.

نُكتةُ التّعبير بـ﴿يَبۡغُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

قـابَـلـوا نعمةَ الإنـجـاءِ بفسادٍ شاملٍ ومُتطوّرٍ ومـتـجـدّدٍ ومُستمرٍّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بمفردةِ: ﴿يَبۡغُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لاتّساع دلالتِها؛ فمادّةُ البغْيِ تعني الخروجَ عنِ الجادّة وسلوكَ طريق الفسادِ، ليشملَ كلَّ المعاصي من زنًى وخمرٍ وشركٍ، واعتداءٍ على الآحاد والجماعاتِ، والسّعيِ في الأرض، وليشملَ فسادَ النّفوسِ في الاعتقادِ والعملِ والتّمادي في هذا الفساد[3]، بل إنّ البغْيَ يعني التّرقّي في الفساد والانتشارِ من قولهم: بغى الجرحُ إذا ترقّى وترامَى في الفساد[4]، أي: أنّ فسادَهم بعد الإنجاء تجاوزَ ما كان عليه قبل ذلك؛ إذ "سارعوا إليه متراقين

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.
(2) ابو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545.
(4) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 6/174.

في ذلك متجاوزين عمّا كانوا عليه"[1]، ولذا كان بغْيُهم من "أعلى مراتبِ الظّلم[2]؛ فبالبغي تتعطّلُ حركةُ الحياة؛ لأنّ من يقعُ عليهم ظلمُ البغي يَزهَدون في الكدّ والعملِ الشّريف الطّاهرِ، وإذا ما زهدَ النّاس في ذلك تعطّلتْ حركةُ الحياة[3].

وأمّا صيغةُ ﴿يَبۡغُونَ﴾ فقد جاءت بالمضارع؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ واستمرارِ هذا البغيِ الشّاملِ المنتشرِ المترقّي في الفساد[4].

دَلالةُ مجيء ﴿فِي﴾:

التّعبيرُ بالظّرفيّةِ إيذانٌ بتغلْغُلِ وانتشارِ بغْيِهم وإفسادِهم في الأرض

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الظرفيّةُ، والمعنى: أنّ بغْيَهم وفسادَهم تغلْغَلَ في الأرض، وشملَ أقطارَها، ولم يقتصرْ على جانبٍ من جوانبِها، وفي الظرفيّةِ كذلك بيانُ تمكّنِ هذا البغْيِ في الأرض.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

عُمومُ فسادِهم في الأرض دليلٌ على نفوسٍ استكنّ فيها البغْيُ ولم تَدحضْهُ الشّدّةُ

(أل) التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ[5]، تفيدُ العمومَ، أي أنّ فسادَهم عمَّ واستغرقَ كلَّ أنحاءِ الأرض، ولم يقتصرْ على الأرض التي يَسكنونها، وإنْ كان فسادُهم فيها أكثرَ، وشملَ كلَّ ما فيها منِ اعتداءٍ على الآحادِ، واقترافِ المعاصي، والسّعْيِ بين النّاس، وارتكابِ كلِّ ما يكونُ من تخريبٍ وهدمٍ للقائم[6]، ممّا يدلّ على نفوسٍ استكنّ فيها الفسادُ ولم تدْحضْهُ الشّدّةُ.

فائدةُ مجيء شبْهِ الجملةِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الأرضُ التي كانت أثرَ نِعمةِ نجاتِهم جعلوها مكانًا لبغْيِهم

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بزيادة شبْهِ الجملةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وكان يمكنُ أن تُحذفَ، ولكنّ الأبلغَ ذكرُها؛ لِما في هذه الزيادةِ في اللّفظ من فائدةٍ هي:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5854.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5855.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/100.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3545، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.

أوّلاً: التّأكيدُ على تمكّنِهم منَ النّجاة؛ لأنّ الأرض بَرٌّ أمانٍ لهم منَ البحرِ الهائجِ، أي بعد أنْ هدأتِ العاصفةُ، وانخفضتِ الأمواجُ، ووصلتِ السّفنُ إلى شاطئ الأمانِ(1)، وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: 65]، فجعلوا مكانَ أثرِ نعمةِ نجاتِهم مكانًا للبغْيِ(2).

ثانيًا: الدّلالةُ على شُمول بغْيِهم لأقطارها(3).

معنى الباء في: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾:

دَلالةُ حرفِ الباء علـى الإلـصـاقِ والاستعانةِ بيانٌ لمدَى تماديهم في الشّرِّ والطّغيانِ

الباء في قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ تحملُ معنَيَيْن من أشهر معانيها: الإلصاقُ والاستعانةُ، بحيث يكونُ المعنى: إذا هم يبغون في الأرض مُلتصِقين بالباطل والكُفرِ والطّغيانِ لا ينفكّون عنه ومُستعينين به.

وقد تكونُ (من) للتّأكيدِ إذا اعتبرْنا البغْيَ بأحد معانيه اللّغويّةِ، وهو طلبُ الشّيء، والمعنى: إذا هم يَطلبون غيرَ الحقّ.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَقِّۗ﴾:

(أل) للجنسِ والاستغراقِ، فتشملُ كلَّ الحقوقِ

أل التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقِّۗ﴾ جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، تفيدُ العمومَ، والمعنى: أنّ بغْيَهم وإفسادَهم شملَ كلَّ الحقوقِ؛ حقوقِ اللّه، وحقوقِ العباد، أي كلُّ حقٍّ طابقَ ووافقَ ما جاء به الإسلامُ، فلا يزال الباغي مذمومًا حتى يكونَ على الحقِّ الكاملِ الذي لا باطلَ فيه بوجْهٍ(4).

موقعُ شبْهِ الجملةِ: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ وفائدتُها:

وصْفٌ كاشفٌ أوِ احترازٌ عنِ البغْيِ بحقٍّ

موقعُ شبْهِ الجملة: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ في الآية موقعُ الصّفةِ الكاشفةِ

---

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/138.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/100.

للواقع؛ للتّذكير بقُبحِ هذا البغْيِ وسوءِ حال أهلِه[1]، وفائدةُ الإطنابِ بذكرها - وكان يمكن أن تُحذفَ - أمورٌ:

أوّلها: التّأكيدُ على ما يفيدُه البغْيُ من تجاوزِ الحقِّ والتّعدّي والظّلم، فهو بغيٌ ظاهرٌ سافرٌ لا يخفَى قُبحُه على أحدٍ[2]، أي جاءت قيدًا كاشفًا لمعنى البغْيِ؛ إذِ البغْيُ لا يكونُ بحقٍّ[3].

ثانيها: الإشارةُ إلى أنّهم فعلوا ذلك بغيرِ شُبهةٍ عندَهم، بل تمرّدًا، وعنادًا، لأنّهم قد يفعلون ذلك لشُبهةٍ يعتقدونها حقًّا مع كونِها باطلةً[4].

ثالثها: الاحترازُ به عنِ البغْيِ بحقّ، كاستيلاءِ المسلمين على الكفّار، وتخريبِ دورِهم، وإتلافِ أموالِهم، كما فعل رسولُ اللّه ﷺ بقُريظةَ[5]، وهذا على اعتبار البغْيِ هنا وَفْقَ أحدِ المعنيَيْن اللُّغويّين وهو طلبُ الشّيء؛ فحينئذٍ ينقسمُ إلى طلبٍ بحقٍّ، وطلبٍ بغير حقٍّ[6].

ويرى أبو السُّعود أنّ هذا القولَ لا يُساعدُه النّظمُ الكريمُ؛ لابتنائِه على كوْنِ البغْيِ بمعنى إفسادِ صورةِ الشّيء، وإبطالِ منفعتِه دون ما ذُكرَ منَ المعنى اللّائقِ بحال المفسِدين[7]، وأيضًا "دفعُ البغْيِ لا يُسمّى بغيًا، وإنّما يُسمّى إنصافًا منَ الظّالم، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾ [الشورى: 41]"[8].

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

خطابُ تنبيهٍ زاجرٍ وتحذيرٍ وتهديدٍ شديدٍ

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عنِ الجملة

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/280.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/495.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/7، والصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 790.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(8) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/51.

قبلَها ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ ولم يربطْ بينَهما؛ لِما بين الجُملتَين من كمالِ الانقطاع؛ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً، فالجملةُ الأولى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾خبريّةٌ، والثّانيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إنشائيّةٌ، ولهذا تعيّن الفصلُ بينهما.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطابًا للمشركين، وهمُ الذين يبغون في الأرض بغير الحقّ[1]، تعقيبًا على سرعةِ بغْيِهم بما يحملُ التّنبيهَ الزّاجرَ، والمبالغةَ في التّهديد، وبيانَ سوءِ العاقبةِ.

فائدةُ النّداءِ بـ (يا) في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

النّداءُ بالبعيدِ إشارةٌ إلى التّبعيدِ ومبالغةٌ في التّهديدِ والوعيدِ

نادى الله الباغين بأداةِ النّداء التي تُستعملُ للمنادَى البعيدِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، إشارةً إلى بُعْدِهم عنِ الرّحمة والتّوفيق والهدايةِ، وتشديدِ التّهديد والمبالغةِ في الوعيد[2]، وعليهم أنْ يُصْغوا لِما يُنادَى به عليهم.

معنى (أيّ) في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

النّفسُ تَتشوّقُ لمعرفةِ ما فيه إبهامٌ

(أيّ) وصلةٌ إلى نداء ما فيه أل؛ لأنّ (يا) لا تدخلُ عليها في غير يا الله إلّا شُذوذًا، وهي نكرةٌ مقصودةٌ، تفيدُ هنا التّدرّجَ منَ الإبهام إلى التّوضيح.

معنى الهاء في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

دَلالةُ (الهاء) في (يا أيُّها) على التّنبيه إلى أهميّةِ المنادَى به

(ها) حرفُ تنبيهٍ، وهي لازمةٌ لأيّ، ويفصلُ بها بين (أيّ) في النّداء وبين المنادَى المرفوعِ بعدَه، وهي عِوضٌ عنِ الإضافة في (أيّ)، وتفيدُ هنا المشاركةَ مع (يا) و(أي) في التّنبيهِ، والتّأكيدِ على أهميّة المنادَى به.

معنى(أل) في: ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

أل التّعريفِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عهديّةٌ، معهودُها

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.

حُضوريٌّ ذِكْريٌّ، أي الخطابُ للذين أنجاهُمُ اللّه وبغَوا، والمعنى: (يا أيّها النّاسُ الجاحدون لإنعامِ اللّه عليكم النّاقضون لِما عاهدتُم ربَّكم عليه)، أو أنْ يكونَ معهودُها ذهنيًّا، أي الخطابُ لأهل مكّة، وهذا ما عليه جمهورُ المفسّرين، ويحتملُ أنْ تكونَ أل جنسيّةً تفيدُ العمومَ، ويدخلُ فيها أهلُ مكّةَ، والذين أنجاهُمُ اللّه وبغَوا[1].

دَلالـــةُ أل في (الـنّــاس) بين الـعـهْـدِيّـة والعُموم

مَظاهرُ التّوكيدِ في هذا النّداءِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

عِـظَـمُ جُـرمِـهـم وسوءُ عاقبتِهم استدْعَيا كمالَ التّنبيهِ الزّاجرِ

افتتح البيانُ القرآنيُّ الخطابَ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهي جملةٌ إنشائيّةٌ طلَبيّةٌ؛ نداءٌ يفيدُ تنبيهَ المنادَى إلى أمرٍ عظيمٍ يجدرُ به أن يكون على وعْيٍ به، وأخْذٍ بما فيه، ويحملُ أوجُهًا منَ التّوكيد، وأسبابًا منَ المبالغة، يحتاجُها المقامُ؛ منها ما في (يا) منَ التّأكيدِ والتّنبيه، وما في (ها) منَ التّنبيه، وما في (أيُّ) منَ التّدرّجِ منَ الإبهام إلى التَّوضيحِ، ثم كان هذا النّداءُ للنّاس بما يحملُه منَ التّأكيدِ والمبالغة.

وذلك كلُّه لاستصغاءِ أسماعِهم، والإشارةِ إلى فظاعةِ جُرمِهم، وهو الشّركُ باللّه، وإلى تعظيمِ الخبرِ الذي يحملُه هذا النّداءُ، واستثارةِ بواطنِهم وتحريكِ مشاعرِهم؛ للامتناعِ عن هذا البغْيِ في الأرض، إذ إنّه نداءٌ منَ الخالق إلى خلْقِه، وهذا وحدَه فيه فيضٌ منَ التّنبيه إلى أنّهم في علْمِه قائمون، وتحت قهْرِه نازلون، ومقصودُ هذا التّنبيهِ الزّاجرِ تحذيرُهم، وتهديدُهم وبيانُ سوء عاقبتِهم[2].

فائدةُ الالتفاتِ منَ الغيبةِ إلى الخطابِ:

الـتّـهـديـدُ بالمواجَهةِ أشدُّ مـنَ الـتّـهـديـدِ بالغَيْبةِ

في قوله ﷻ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ التفات إلى مخاطبةِ الباغين بعد أنْ كان الحديث عنهم بضميرِ الغَيْبة؛ للتّنبيهِ الشّديدِ والتّهديد بالمواجَهة والتّصَدّي لبيان شرِّهم[3]، إذِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/35.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3546.

التّهديدُ بالمواجَهةِ أشدُّ منَ التّهديد بالغَيْبةِ، وللإيماءِ بأنّ حالَهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

قضيّةٌ جرت مجرَى المثَل تجمعُ الإعجازَ والإيجازَ

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿إِنَّمَا﴾:

فصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ عنِ الجُملةِ قبلَها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ولم يُربَطْ بينَهما بالواو؛ لأنَّ قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداءٌ، والنّداءُ يحتاجُ جملةَ جوابِ النّداء، وهي جملةٌ استئنافيّةٌ لا تحتاجُ إلى (الواو)؛ إذ هي تقرّرُ قضيّةً جرتْ مجرَى المثَلِ في القرآن يُطْلقُها الحقُّ ﷻ، وتظلُّ إلى الأبدِ، وكأنّه يُخاطبُ الباغيَ: يا من تريدُ أَنْ تأخذَ حقَّ غيرك، اعلم أنّ قُصارَى ما يُعطيك أَخْذُ هذا الحقِّ هو بعضٌ من متاع الدنيا[1].

ذكرُ السَّببِ وإرادةُ المسبَّبِ كنايةٌ عنِ التّهديدِ

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ في: ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾:

أطلقَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ وأراد الوَبالَ؛ لأنّ البغْيَ لا يقعُ على الأنفس، وإنّما هو الوبالُ، ولّما كان البغيُ سببَ الوبالِ ذكرَه على طريق المجازِ المرسَلِ؛ والعلاقةُ سببيةٌ، فالسّببُ هو البغْيُ والمسَبَّبُ هو الوبالُ والإثمُ؛ وفي هذا كنايةٌ عن تهديدِهم، وقُبحِ فعْلِهم بأنّ بغْيَهم يرجعُ إليهم[2].

قصرُ قلْبٍ قلَبَ عليهم اعتقادَهم مُبيّنًا أنّ بغيَهم لا يَضرُّ إلّا بهم

بَلاغةُ أسلوبِ القصْرِ بـ﴿إِنَّمَا﴾:

المقصورُ به ﴿إِنَّمَا﴾، والمقصورُ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ وهو الموصوفُ، والمقصورُ عليه ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾، جارٌّ ومجرورٌ يحملان صفةً تدلّ على معنًى قائمٍ فيه، وهي صفةُ كوْنِ البغْيِ والاعتداءِ على أنفُس الباغين، والمقصورُ عنه (كلُّ الصّفات ما عدا صفةَ كوْنِ البغْيِ على أنفُسِ الباغين).

---

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5856.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/431.

ونوعُ هذا القصْرِ باعتبار المقصورِ والمقصورِ عليه: قصرُ موصوفٍ على صفة؛ فقد قُصِر البغْيُ على أنفُس الباغين، ونوعُه باعتبارِ الحقيقةِ والواقعِ: قصرٌ إضافيٌّ؛ فالمقصورُ عنه هو كلُّ الصّفات ما عدا صفةَ كونِها على أنفسِهم، لكنّ الكلامَ يجري في دائرةٍ خاصّةٍ، وهي موضوعُ البغْيِ على أنفسِهم، ونوعُه باعتبار حالِ المخاطَب: الخطابُ للكافرين، والقصرُ قصرُ قَلْب؛ إذ كان الكافرون يعتقدون أنّ بغْيَهم (أي شركَهم وعبادتَهم للأصنام) يَضرّون اللّه به، فقلبَ عليهم اعتقادَهم مُبيّنًا لهم بهذا القصْرِ أنّ بغْيَهم أي شركَهم مُضرٌّ بهم، أي مقصودُ القصْرِ هو أنّ التّحذيرَ منَ الشّركِ هو مراعاةٌ لصالِحهم، لأنّ اللّه لا تنفعُه عبادةٌ ولا تضرُّه معصيةٌ[1]، ولأنّهم إنْ أشاعوا البغْيَ فيما بينهم عمَّ الفسادُ، ولم تكن جماعتُهم فاضلةً، بل جماعةً متحلّلةً متقاطعةً متدابرةً تعمُّها الرّذيلةُ ويسودُها الشّرُّ[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

استعلاءٌ مَجازيٌّ مُـكـنًّـى بـه عن إضـرارِ بغْيِهم بأنفسِهم

معنى حرفِ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ الاستعلاءُ المجازيّ المُكنَّى به في الآية عنِ الإضرار؛ لأنّ المُستعْليَ الغالبَ يضرُّ بالمغلوبِ المُستعلَى عليه، ولذلك يكثرُ أنْ يقولوا: هذا الشّيء عليك، وفي ضدّه: هذا الشّيءُ لك، كقوله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: 46]، إذن يفيدُ حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾ التّنبيهَ على حقيقةٍ واقعيّةٍ وموعظةٍ لهم؛ ليعلَموا أنّ التَّحذير منَ الشّركِ والتّهديدَ عليه، لرعْيِ صلاحِهم لا لأنّهم يضرّونَه كقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [التوبة: 39][3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3546.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/139.

استئنافٌ بيانيٌّ بيّن حالَ الباغين المتمتّعين بالحياة الدّنيا

نُكتةُ الفصلِ في: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

لم يذكرِ البيانُ الإلهيُّ العاطفَ بين قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ وما سبقَها ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتَين من شبْهِ كمالِ الاتّصال؛ وذلك بعد أنّ خاطب الله تعالى المشركين بقوله: ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ كأنّ سائلًا سأل: ما حالُ هؤلاء؟ فجاء الجوابُ في قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، والتّقديرُ: مُتمتّعين متاعَ الحياةِ الدّنيا[1]، وهذا على قراءة نصْب ﴿مَّتَٰعَ﴾، وأمّا على قراءة الرّفع (متاعُ)، فيكونُ تقديرُ السّؤال: كيف يكونُ بغْيُهم على أنفسهم؟ فجاء الجوابُ: (متاعُ الحياةِ الدّنيا)، والتّقديرُ: بغْيُكم على أنفسكم متاعُ الحياةِ الدنيا.

جميعُ أوجُهِ الإعرابِ تقرّرُ أنّ متاعَ الحياةِ الدّنيا زائلٌ لا بقاءَ له

بَلاغةُ توجيهِ القراءاتِ في: ﴿مَّتَٰعَ﴾:

معلومٌ في علومِ القرآنِ أنّ تعدُّدَ القراءاتِ بمنزلةِ تعدُّدِ الآياتِ[2]، وقدِ اعتنى بها المفسّرون من خلال التّوجيهِ النّحويِّ والبلاغيِّ للقراءات، ومنها ما وردَ في ﴿مَّتَٰعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ إذ قُرِئَ بالنّصب ﴿مَّتَٰعَ﴾ وبالرّفع (متاعُ)[3]، فإذا رُفِعت (متاعُ)، كان المتاعُ خبرًا للمبتدأ الذي هو ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾، وكانت ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ صلتَه، ومعناه: إنّما بغيُ بعضِكم على بعض منفعةُ الحياةِ الدنيا، ولا يصلحُ زادًا لمعادِكم؛ لأنّكم تَستوجبون به غضبَ الله، ويجوزُ أنْ يكونَ الرّفعُ على معنى: هو متاعُ الحياة الدنيا، بعد تمام الكلام، وإذا نُصبت ﴿مَّتَٰعَ﴾ فيكونُ ﴿ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ خبرًا للمبتدأ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾، والمعنى: إنّما بغْيُكم وبالٌ على أنفسِكم، و﴿مَّتَٰعَ﴾ في موضع المصدرِ المؤكّدِ؛ إمّا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.

(2) السيوطي، الإكليل: ص 109.

(3) روى حفص بنصب العين، وقرأ الباقون برفعها، يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/283.

لفعلٍ مقدّرٍ بطريق الاستئناف، أي: بغيُكم على أنفسِكم تتمتّعون متاعَ الحياةِ الدنيا، وقيل: على أنّه مصدرٌ وقعَ موقعَ الحال، أي بغيُكم على أنفسِكم مُتمتّعين بالحياةِ الدّنيا[1]، وقيل: هو مفعولٌ لأجله، والمعنى: بغْيُكم على أنفسِكم لأجلِ متاعِ الحياةِ الدُّنيا، أي غايةُ ما تُؤمّلون ببغْيِكم، وشرودِكم عنِ الإخلاص لله أنْ تَنالوا شيئًا من حطامِ الدّنيا.

وفي هذا التّوجيه للقراءتين إشارةٌ إلى أنّ جميعَ أوجُهِ الإعراب عنِ المعنى تُقرّرُ أنّ الإمهالَ على البغْيِ هو مدّةُ الحياةِ الدّنيا، وأنّ متاعَها زائلٌ لا بقاءَ له، ولكن يوجدُ بلاغةٌ خاصّةٌ بكلّ قراءةٍ؛ فعلى قراءة الرّفعِ واعتبارِ (المتاع) خبرًا تكونُ "محطُّ فائدة الخبر إفادةَ كوْنِ البغْيِ المَذْكور متاعًا سريعَ الزّوال وسوءَ المآل"[2]، وفيه مبالغةٌ بإشعار ظهورِه بالتأمّلِ اليسيرِ[3]، وعلى قراءة النّصبِ تكونُ الفائدةُ هي التّأكيدُ بالمصدريّةِ، أوِ المفعوليّةِ.

وفي ذلك كلِّه ثراءٌ للمعنى، وتحقيقُ بلاغةِ الوفاءِ بالمعنى مع الإيجاز في اللفظ.

نُكتةُ الإضافةِ في: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

مـتـاعُ الـدّنـيـا بطريق البغْيِ قـلـيـلٌ سـريـعُ الـزّوالِ وشيكُ الاضْمحلالِ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ المتاعَ إلى الحياةِ الدّنيا إشارةً إلى أنَّ منفعةَ الحياةِ الدّنيا زائلةٌ لا تبقَى؛ لأنّ المتاعَ يُطلقُ على ما لا بقاءَ له أي عدمُ البقاء مُستفادٌ من كلمة المتاعِ، والمعنى أنّ غايةَ ما تُؤمّلون ببغْيِكم وشرودِكم عنِ الإخلاص لله أن تَنالوا شيئًا من حُطام الدّنيا الزّائلِ؛ ولذا سمّى القرآنُ متاعَ الحياةِ الدّنيا عَرَضًا، قال تعالى: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]؛ لأنّه عارِضٌ زائلٌ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/7، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/135.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/431.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/431.

غيرُ ثابت، وكلُّ شيءٍ يقلُّ لُبْثُهُ يُسمّى عرَضًا، وفي الحديث: «الدّنيا عَرضٌ حاضرٌ، يأكلُ منها البَرّ والفاجرُ»(1).

وأمّا بقاءُ عقابِها فمعلومٌ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾، فالمرادُ منَ المتاع في الآية إمّا البغْيُ نفسُه، أوِ المنفعةُ بطَريق البغْي، أوِ الجَور، وإلّا فمتاعُ الحياةِ الدُّنْيا لا يكونُ له عقابٌ على الإطلاق، بل قد يكون لبعضِه ثوابٌ دائمٌ وأجرٌ قائمٌ(2).

غايةُ ما يُؤمّلونَه ببغْيِهم حُطامٌ قليلٌ خسيسٌ سريعُ الانقضاءِ

غرَضُ وصْفِ الحياةِ بـ﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾:

وصفَ البيانُ الإلهيُّ الحياةَ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ للإشارةِ إلى قِصرِ نعيمِها، وقلّتِه وسُرعةِ زوالِها وانقضائِها، وكأنّها لم تكن، وما كان فيها من نعيم؛ إذ سُمّيتِ الدّنيا بهذا الاسم لدُنوِّها، وقيل: لدَناءتِها(3)، وبهذا تتميَّزُ عنها الحياةُ الآخرةُ الباقيَةُ، فالدّنيا نقيضُ الآخرة، ويَكفي هذا لبيانِ نقْصِها، فهي مشتقّةٌ منَ الدُّنوّ، والأصلُ في الدُّنوّ أن يكونَ إلى سُفْلٍ، ومن هنا استُعْمِلَ الدُّنوّ في الهبوطِ المعنويِّ (قلّةِ قيمةِ الشّيء) في مثل قوله تعالى: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ﴾ [البقرة: 61]، ومن هذا قالوا للخسيسِ السّاقطِ: إنّه لدَنيٌّ، من أدنياء، كما استُعْمِلَ الدّنوُّ في قلّةِ الكَمّ(4).

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

الرُّجوعُ إلى اللهِ للحسابِ أصرحُ تهديدًا من زوالِ منفعةِ دُنياهُمُ التي يَستطيلونَها

عطفَ البيانُ الإلهيُّ ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ على ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ بحرف العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيدُ التّرتيبَ والتّراخي؛ للإشارةِ إلى استطالةِ الكافرين للحياةِ الدّنيا(5)، وسمَّى ابنُ عاشورٍ

---

(1) البيهقي، السنن الكبرى، باب: كيف يستحب أن تكون الخطبة؟ الحديث رقم: (5873)، من حديث شداد بن أوس، مرفوعًا، وفي إسناده ضعف وانقطاع. ويروى موقوفًا على عدد من الصحابة.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/431.

(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/120.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دنو).

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3547.

هذا العطفَ بالتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مضمونَ هذه الجملةِ أصرَحُ تَهديدًا مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾[1].

كما أنّ العطفَ بالجُملةِ الاسميّةِ يفيدُ الثّباتَ، أي: الرّجوعُ إلينا للحسابِ والعقابِ أمرٌ ثابتٌ لا شكَّ فيه.

فائدةُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ: ﴿إِلَيۡنَا﴾:

الرّجوعُ إلى الله وحدَه حيثُ لا وليَّ للكافرين ولا نَصيرَ

قدّمَ القرآنُ المسندَ وهو الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيۡنَا﴾ على المُسنَد إليه ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ للدّلالة على الثّبات والقصْرِ[2]، وإفادةِ الاختصاص، أي: إلينا وحدَنا مآلُكم ومرجعُكم[3]؛ تنزيلًا للمخاطَبين منزلةَ من يَظنُّ أنّه يرجعُ إلى غير اللّه؛ لأنّ حالَهم في التّكذيب بآياتِه، والإعراضِ عن عبادتِه إلى عبادةِ الأصنامِ كحالِ مَن يَظنّ أنّه يُحشرُ إلى الأصنامِ، وإن كان المشركون يُنكرون البعْثَ من أصلِه[4].

فائدةُ الإضافةِ في: ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

إضافةُ رجوعِهم إلى الذّاتِ العُليا تهديدٌ كافٍ ووعيدٌ شافٍ

أضاف القرآنُ مآلَهم إلى الذّات العُليا في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ لما فيها منَ التّهديد، أيَّ تهديدٍ، ومُؤدّاهُ: إنْ كنتم قد كذّبتم في قَسَمكم في الدّنيا، فحسابُكم على ذلكم عندنا في الآخرة، وهي أبقَى وأدْوَمُ[5].

غرَضُ التّعبيرِ بالمصدرِ الميميِّ: ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾:

المصدرُ الميميُّ أوسعُ دلالةً إذ يشملُ مكانَ الرجوعِ وزمنَهُ وحدثَه

عبّرَ القرآنُ بالمصدرِ الميميِّ ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ دونَ المصدر القياسيّ الأصليّ (رجوعكم)، لاتّساع دلالتِه؛ فالتّعبيرُ بالمصدرِ الميميّ يتضمّنُ التّعبيرَ عن ثلاثة أمور:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/136.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3547.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3547.

دَلالةٌ على الزّمان أي زمانِ الرّجوع إلينا، ودلالةٌ على المكان أي مكانِ الرّجوعِ إلينا، ودلالةٌ على المصدرِ القياسيِّ وهو الرّجوعُ الحقيقيُّ.

معنى الفاءِ في: ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾:

ما بعدَ الفاءِ التّفريعيّةِ أرهبُ وأرقَى وعيدًا ممّا قبلَها

الفاء حرفُ عطفٍ، عَطَفَ جملةَ (ننبئكم) على جملةِ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾، وفي هذا العطْفِ تفريعُ ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ على جملة ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ وهو تفريعُ وعيدٍ على تهديدٍ[1]؛ لأنّ ما بعْدَ الفاء أرهبُ وأخوفُ وأرقى بالوعيدِ ممّا قبْلَها.

معنَى الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

دَلالةُ حرفِ الباءِ على السّببيّةِ والإلصاقِ بيانٌ لعدْلِه في الكافرين

الباء في ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسببيّة، والمعنى: فيحاسبُكم، ويجازيكُم بسبب أعمالِكم الكثيرةِ والمستمرّةِ في البغْيِ والإفساد، كما أنّ الإلصاقَ لا ينفكُّ عنها، فهي أعمالُ بغْيٍ لا تَنفكّون عنها.

معنَى(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

حسابُ اللهِ وجزاؤُه يَعمُّ كلَّ بغْيٍ للكافرين

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ موصولةٌ، تفيدُ العمومَ، أي عمومَ ما يعملونَه، والمعنى: فيحاسبُكم ويُجازيكم بكلِّ الذي كنتم تعملونَه منَ الإفسادِ.

وفي التَّعبيرِ بما الموصولةِ إشارةٌ إلى أنّ العقابَ من جنسِ العملِ، وأنّ كلَّ عملٍ يحملُ في ذاتِه عقابَه في الآخرةِ[2].

بَلاغةُ الكنايةِ في: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

الإنباءُ وعيدٌ بالعذابِ وإقامةُ الحُجّةِ عليهم، لا مُجرّدَ مجازاتِهم

الإنباءُ في قوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقتضي لوازمَ يدلُّ عليها الفكرُ وتدلُّ عليها النّصوصُ فهي كنايةٌ عنها، وهذه اللّوازمُ يدخلُ فيها الحسابُ وفصلُ القضاءِ وتنفيذُ الجزاءِ؛ فالإنباءُ يستلزمُ العلْمَ بأعمالِهم السّيئةِ؛ والقادرُ إذا علمَ بسوءِ صَنيعِ عبدِه لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3547.

يمنعُه من عقابه مانعٌ[1]، وهو وعيدٌ بالجزاء والعذابِ، كقول الرّجل لمن يتوعّدُه سأخبرك بما فعلتَ[2]، كما أنّ في التّعبير بالإنباءِ إقامةَ الحُجّةِ عليهم لا مجرّدَ مجازاتِهم.

وفي هذه الكنايةِ كذلك نُكتةٌ خفيّةٌ مبنيّةٌ على حِكمةٍ أبيّةٍ ذكرَها أبو السّعود؛ وهي أنّ كلَّ ما يظهرُ في هذه النّشأة منَ الأعيان والأعراضِ، فإنّما يظهرُ بصورةٍ مغايرةٍ لصورته الحقيقيّةِ التي بها يظهرُ في النّشأة الآخرةِ، فالبغيُ في هذه النّشأةِ وإنْ برزَ بصورة تشتَهيها البُغاةُ، وتَستحسنُها الغواة؛ لتمتُّعِهم به من حيث أخذُ المالِ والتّشفّي منَ الأعداء، ونحوُ ذلك، لكنْ ذلك ليس بتمتّعٍ في الحقيقة، بل هو تضرّرٌ من حيث لا يحتسبون، وإنّما يظهرُ لهم ذلك عند إبراز ما كانوا يعملونَه منَ البغْيِ بصورةِ الحقيقةِ المضادّةِ لما كانوا يُشاهدونَه على ذلك منَ الصّورة، وهو المرادُ بالتّنبئةِ المذكورة[3].

نُكتةُ دخولِ (كان) على المضارعِ في: ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾:

جـزاءُ الله العـادلُ لا يُفلتُ منه بغيُ الكافرين الثابتُ المتكرّرُ

في ذكْرِ﴿كُنتُمۡ﴾ والفِعلِ المضارعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دَلالةٌ على تكرُّر عملِهم، وتَمكُّنِه منهم[4]، لأنّها جملةٌ اسميّةٌ خبرُها فعلٌ فهي تفيدُ الثّبوتَ والدّوامَ، ويفيدُ خبرُها الذي جاءَ بصيغةِ المضارعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الاستمرارَ التَّجدُّديَّ؛ فعملُهم في الإفسادِ ثابتٌ متمكّنٌ منهم ودائمٌ ومُتكرّرٌ.

دَلالةُ مَجيء ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ من حيث المادّةُ والصّيغةُ:

من كمالِ عدْلِه سُبحانه أنّه لا يُحاسِبُ إلّا على ما صَدرَ من عاقلٍ وعن قصْدٍ

اختار البيانُ القرآنيُّ مُفردةَ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ دونَ غيرِها كلفظِ (فعل) مثلًا؛ لأنّ لفظَ العملِ أخصُّ منَ الفعل فلا يكونُ إلّا بقصدٍ وعن فكْرٍ ورويّةٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/136.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/136.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/140.

أي لا يكونُ إلّا من عاقل، وأمّا لفظُ الفعلِ فهو عامٌّ، فقد يكونُ بقصدٍ أو بغيْرِ القصدِ، من عاقلٍ وغيرِ عاقل، بعلْم أو بغيرِ علْم، ولذا كان الأنسبُ في سِياقِ الحسابِ والمجازاةِ وإقامةِ الحُجّةِ علىً الكافرين اختيارَ لفظِ (العمل)؛ لأنّ من عدلِ اللّه أنّه لا يحُاسِبُ إلّا على ما صَدرَ من عاقلٍ وعن قصْدٍ.

وأمّا التّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ الاستمرارِ والتّجدّدِ، واستحضارِ الحالِ في الدّلالةِ على إصرارِهم على الاستمرارِ في البغيِ والإفسادِ، وعلى كثرة هذه الأعمالِ، وعلى تصويرِ هذه الأعمالِ بما فيها من فسادٍ، وقُبح حاضرةً ماثلةً أمامهم، وفي ذلك إشارةٌ إلى عدْله وإقامة الحُجّةِ عليهم.

فائدةُ حذْفِ مفعولِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

حذفَ البيانُ الإلهيُّ مفعولَ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدّلالة على العُموم، والمعنى: أنّ اللّه سيُنَبّئُهم بكلّ ما عمِلوه من أعمالٍ إراديّةٍ نفسيّةٍ كالكفرِ، والنّيّاتِ، والحسدِ، وتدبيرِ مخطّطاتِ إضلالِ عبادِ اللّه، ومقاومةِ دعوةِ الحقّ الرّبانيّةِ، ومن أعمالٍ جسديّةٍ؛ كعبادة غيرِ اللّه، وارتكابِ محرّمات القتلِ، وأكلِ أموالِ النّاس بالباطلِ، والفواحشِ، إلى غير ذلك.

الإبهامُ الحاصلُ في الحذْفِ يدلُّ على تنوّعِ أعمالِهم الخبيثةِ

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البغيُ والاعْتداءُ والعُدوانُ والعُتوُّ والطّغيانُ والظّلمُ:

تتداخل معاني هذه الألفاظِ في اللّغة وتتقاربُ في دلالتها، وجميعُها فيها معنى مُجاوزةِ الحدِّ؛ فمعنى البغْيِ في اللّغة: الفسادُ والشّدّةُ، ثمّ أُطلقَ على التّعدّي ومُجاوزةِ الحدِّ بغيرِ حقٍّ، والظّلم[1].

والطُّغيان: مجاوزةُ الحدِّ في كلّ شيءٍ، ويُطلقُ على مُجاوزةِ الحدّ في المكروه مع غلبةٍ وقهرٍ، ومجاوزةِ الحدِّ في الظّلم[2].

الطّغيانُ غايةُ مجاوزةِ الحدِّ بغيرِ حقٍّ، ثمّ يَليه البغْيُ، ثمّ العُتوُّ، ثمّ العُدوانُ والاعْتداءُ، ثمّ الظّلمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (بغى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (طغى).

والظّلمُ: وضعُ الشّيءِ في غير موضعِه تَعدّيًا، والظّلمُ: تجاوزٌ عنِ المستحقّ بمنعِه وانتقاصِه[1].

والعُتوّ: الاستكبارُ والتّجبّرُ والعصيانُ، ومبالغةٌ في كبرٍ، أو فسادٍ، أو كفرٍ[2].

والاعتداءُ والعُدوان: تجاوزُ ما ينبغي أن يُقتصرَ عليه، وهو الظّلمُ الصّراحُ[3].

لا تُسعفُنا المعاجمُ اللّغويّةُ بفروقٍ واضحةٍ بين هذه الألفاظ، ولكنْ عند إمعانِ النّظرِ في الاستعمالِ القرآنيِّ لها يمكنُ ملاحظةُ بعض الفروقِ الدّلاليّةِ بينَها، وهي:

البغيُ: شدّةُ الطّلبِ لِما ليس بحقٍّ بالتغليب، وهو بذلك يتضمّنُ كلَّ أنواع الظّلم والتّعدّي والكِبر معًا[4].

والطّغيانُ: تجاوزُ الحدّ في المكروه مع غلبةٍ وقهر، والغُلوُّ في ذلك، ويشملُ الإفراطَ في المعصيةِ والكِبْر والكفرِ، فالطّواغيتُ: هم رؤوس الضّلالةِ؛ إذْ أَمروا النّاسَ أن يَعبدوهم من دون اللّه، وفي ذلك غايةُ مُجاوزةِ الحدّ، وهو بذلك أشدُّ منَ البغْي، وأشدُّ منَ العُتوّ[5].

والظّلمُ: هو المَيْلُ عنِ القصد، والتّعدّي سواءً أكان صغيرًا أم كبيرًا، حيث يتراوحُ الظّلمُ ما بين أكبرِ الكبائرِ وهو الشّركُ باللّه تعالى، وبين ارتكابِ أصغرِ الذّنوب[6].

والعُتوّ: المبالغةُ في المكروه، كالكِبْر أوِ الفسادِ أوِ الكفرِ، لكنّه لا يبلغُ مبلغَ البغيِ والطُّغيان[7].

والاعتداءُ: تجاوزٌ في الشّيء، وتقدّمٌ لما يَنبغي أن يُقتصرَ عليه، والعُدوان: التّعدّي في حدود اللّه والظّلمُ الصُّراحُ، وهو أسوأ الاعتداءِ[8].

إذن: أشدُّها الطّغيان؛ لاشتماله على غاية الإفراطِ في المعصية والكفرِ، ومجاوزةِ الحدّ في المكروه، وفي الظّلم والعُتوّ، ويليه في الشّدّة البغيُ؛ لاشتماله على التّعدّي والفسادِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عتو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومجمل اللغة: (دعو).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 232.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 230.
(6) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 147.
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 230.
(8) ابن فارس، مقاييس، ومجمل اللغة: (دعو).

والظّلمِ، ثم العُتوّ؛ لأنّه مبالغةٌ في المكروه من كبْرٍ أو فسادٍ أو كفرٍ، ثم يليه الاعتداءُ والعدوانُ؛ لأنّه تعدٍّ على حدود اللّه، وظلْمٌ صُراحٌ، ثمّ يأتي الظّلمُ؛ وهو أدناها، وتتفاوتُ درجاتُه من صغائر الذّنوب إلى كبائرِها وصولًا إلى الشَّركِ باللّه تعالى[1].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 143 - 148.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا قال الله تعالى في الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ وكان سببُ ما ذُكر منَ البغيِ في الأرض، وإفسادِ العمران هو الإفراطُ في حبِّ التّمتُّع بما في الدُّنيا منَ الزِّينة واللَّذّاتِ ضرَبَ مثلًا بليغًا عجيبًا للحياة الدُّنيا يصرفُ العاقلَ عنِ الغُرورِ والفسادِ في الأرض، وهو عبارةٌ عن تشبيهِ زينتِها ونعيمِها في افتتانِ النّاس بها، وسرعةِ زوالها بعد تمكُّنِهم منَ الاستمتاع بها، وأنّها بحالِ ما تُعزُّ وتَسُرُّ تضمحلُّ ويؤولُ أمرُها إلى الفناء، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1].

الإفراطُ في حبِّ التّمتُّعِ بما في الدُّنيا منَ الزِّينةِ واللَّذّاتِ هو سببُ البغْيِ في الأرضِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱخْتَلَطَ﴾: أصلُ الخَلْط: تداخلُ أجزاءِ الشَّيء بعضِها في بعضٍ، وخَلطتُ الشّيءَ بغيره فاختلطَ: امتزجَ[2]، والخلطُ: الجمعُ بين أجزاء الشّيئَين فصاعدًا، سواءً كانا مائعَيْن أو جامدَيْن، أو أحدُهما مائعًا والآخرُ جامدًا، والخلطُ أعمُّ منَ المزْجِ[3].

ومعنى ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: أي تلقُّفُ النّباتِ للماء

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/36.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (خلط).
(3) الراغب، المفردات، ص: 293.

النّازلِ منَ السّماء، وقبولُه له، فنبتَ بذلك الماء أنواعٌ منَ النّبات مختلطًا بعضُها ببعض، والْتفَّ وتكاثفَ[1].

2) ﴿زُخۡرُفَهَا﴾: الزُّخرُفُ: الزّينة، وأصلُه الذّهبُ، ثم أُطلقَ على كلّ ما يُتزيّنُ به؛ لأنّه الأصلُ في الزّينة، ثم شُبِّهَ كلُّ مموَّهٍ مُزَوَّرٍ به، وكلُّ ما زوِّق وزُيّنَ فقد زُخرف، وزُخرفُ الأرضِ: ألوانُ نباتها منَ الأنوار والزّهرِ[2]، وقيل: الزُّخرف كمالُ حُسن الشّيء، وزُخرفُ القول: ما زُيّن به ورُقِش بالباطل[3].

ومعنى زُخْرُفِها: حُسنُها وبهجتُها، وزينَتُها منَ الأنوار والزَّهَر من بين أحمرَ وأصفرَ وأبيضَ، وقيل: تمامُها وكمالُها[4].

3) ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾: الزّاء والياء والنّون أصلٌ صحيحٌ يدلّ على حُسْن الشّيء وتحسينه، فالزَّينُ: خلافُ الشَّين، وازَّيّنتِ الأرضُ وازدانت إذا حسّنَها عُشبُها[5]، والزّينةُ: تحسينُ الشّيء بغيره من لِبسةٍ، أو حِليةٍ، أو هَيئةٍ[6]، والزّينةُ الحقيقيّةُ: ما لا يَشين الإنسانَ في شيء من أحواله لا في الدُّنيا ولا في الآخرة[7]،، وأصلُه: وتزيّنت، فسُكّنت التاء، وأُدغمت في الزّاي، واجتلبت الألفُ ليصحَّ الابتداءُ[8].

وازيّنت الأرضُ: أي بنباتِها، وما أودع فيها منَ الحبوب والثّمار والأزهارِ[9].

4) ﴿قَٰدِرُونَ﴾: القافُ والدّال والرّاء أصلٌ صحيح يدلّ على مَبْلَغِ الشّيء وكُنهِه ونهايتِه، فالقَدَرُ: مبلغُ كلِّ شيءٍ، والقضاءُ والحكمُ[10]، والقدر: بفتح فسكون: الغِنى واليسارُ، وهما مأخوذان منَ القوّة؛ لأنّ كلًّا منهما قوّةٌ، وقادرٌ: اسمُ فاعلٍ منَ القدرة، وقدرَ على الشّيء واقتدر عليه: قويَ عليه[11].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/55، والبغوي، معالم التنزيل: 4/129.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زخرف).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/137.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 4/129.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (زين).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زين).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (زين)، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/38.
(9) أبو حيان، البحر المحيط: 6/38.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (قدر).

ومعنى قادرون عليها: أي مُتمكِّنون ومُستمِرّون من منفعتِها مُحصِّلون لثمراتِها، رافعون لغلّتِها(1).

5) ﴿حَصِيدًا﴾: أصلُ (حصد) يدلُّ على قطع الشّيء، ومنه قطعُ الزّرعِ، وجزُّ النّباتِ بعد جفافِه واكتمالِ حالِه، والحصيدُ: الزّرعُ المحصودُ بعدما يُحصدُ، وقيل: هو الذي انتزعتْهُ الرّياحُ فطارت به(2).

وحصيداً: أي محصودةً ومقطوعةً من منابتِها، فهو الحصادُ في غير إبّانِه على سبيل الإفساد(3).

6) ﴿تَغْنَ﴾: الغين والنّون والحرف المعتلّ أصلان صحيحان، أحدُهما يدلّ على الكفاية، والآخرُ صوتٌ، فمنَ الأصل الأوّل: الغِنى في المال الذي ضدُّ الفقر، ومنه: غنيَ في المكان إذا أقامَ فيه إقامةً وعمّرهُ، كأنّه استغنى به عن غيره، ومنه المغاني: المنازلُ التي يُعمّرها النّاسُ(4).

ومعنى كأنْ لم تغنَ: أي لم تكن عامرةً، ولم تعشْ ولم تنعم، وكأنْ لم تكُنْ قبل ذلك نباتًا على ظهرها، وما كانت حسناءَ قبل ذلك(5).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـصـويـرٌ بـليـغٌ لحقيقةِ الدُّنيا وسُرعةِ زوالِها بمثالٍ مَـرئيٍّ لا يغيبُ عن أحدٍ

هذه الآيةُ العظيمةُ تصويرٌ تمثيليٌّ؛ حيث شبَّه اللّه فيها حالَ الحياة الدُّنيا في سرعة تَقَضّيها وزوالِ نعيمِها بحالِ نباتِ الأرض، الذي يَنمو ويزدهرُ، بسبب مطرٍ نزلَ منَ السّماء، فنبت بذلك الماءِ أنواعٌ منَ النّبات ممّا يأكلُ النّاسُ، وممّا يأكلُ الأنعامُ، وما زال هذا

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/325، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حصد).
(3) القرطبي، أحكام القرآن: 8/328، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (غني).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/56، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

النّباتُ ينْمو ويزدهرُ حتى استوفتِ الأرضُ زينتَها وحُسنَها، وظنَّ أهلُها ظنًّا مُؤكّدًا أنّهم مُستمرّون في الانتفاع بثمراتِها متمكّنون من ادّخارِ غَلّاتِها، أتاها قضاءُ اللهِ إمّا ليلًا في وقتِ غفلتِهم أو نهارًا وهم لاهون، فأهلكَها واستأْصلَ ما عليها، فجعلَها مقطوعةً مقلوعةً من أصولها، كأنَّه لم يقم بها بهجةٌ وخضرةٌ نضِرةٌ تسرُّ أهلَها من قبلُ.

كهذا المَثل في جلالِه ووضوحِه وتمثيلِه لحقيقة الدُّنيا وغرورِ النّاس بها وسرعةِ زوالِها، وكما بينّا لكم أيّها النّاسُ مثلَ الدُّنيا وعرّفناكم حُكمَها وأمرَها، كذلك نُبيّنُ حُججَنا وأدلَّتَنا لمن تفكَّرَ واعتبرَ ونظرَ، فأهلُ الفكر أهلُ التّمييزِ بين الأمورِ، والفحْصِ عن حقائقِ ما يعْرِضُ منَ الشُّبَه في الصّدور[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ الفصْلِ في: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

فصلَ القُرآنُ هذه الآيةَ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ عن سابقتِها، ولم يربط بينهما بعاطفٍ؛ لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، لِما بين الجُملتين من كمالِ الاتّصال، واتّحادٍ في المعنى؛ وجاءت هذه الآيةُ لتوضّحَ إبهامَ جملة ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ في الآية السّابقةِ المُؤْذِنة بأنّ تمتّعَهم بالدُّنيا ما هو إلّا لمدّةٍ قصيرة، فبيَّنت هذه الآيةُ أنّ التّمتّعَ صائرٌ إلى زوالٍ، وأطنبتْ فشبّهتْ هيئةَ التّمتّع بالدُّنيا لأصحابها بهيئةِ الزّرعِ في نضارتِه، ثمّ في مصيره إلى الحصْد[2].

تَشبيهُ الحياةِ الدُّنيا بأطوارِ الزّرعِ بيانٌ لمتاعِ الحياةِ الدُّنيا سريعِ الزّوالِ

بَلاغةُ القصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ هي أداةُ قصْرٍ، قصرٌ يتناسبُ مع سياقِه؛ لأنّه تعالى ضربَ للحياة الدُّنيا أمثالًا غيرَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/56، والحجازي، التفسير الواضح: 2/55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/141، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.

هذا[1]، وصيغةُ القصْر؛ لتأكيد المقصودِ منَ التّشبيه وهو سرعةُ الانقضاء؛ ولبيانِ حقيقتها، وهي أنّها فانيةٌ عند ازدهارها، أي ليس بها صورةُ بقاءٍ قط، إنَّما حقيقتُها الفناءُ، والهلاكُ والزوالُ، ولتنزيلِ السّامعين منزلةَ من يحسِبُ دوامَ بهجةِ الحياة الدُّنيا وزينتِها؛ لأنَّ حالَهم في الانكبابِ على نعيمِ الدُّنيا كحالِ مَن يحسبُ دوامَه، وينكرُ أنْ يكون له انقضاءٌ سريعٌ ومفاجئٌ، والمعنى: قصْرُ حالةِ الحياة الدُّنيا على مشابهةِ حالةِ النّباتِ الموصوفِ، فالقصرُ قصْرُ قلْبٍ[2]، بُني على تنزيلِ المخاطبين منزلةَ من يعتقدُ عكسَ تلك الحالةِ[3].

حقيقةُ الحياةِ الدُّنيا الفناءُ كحالِ النّباتِ وأطوارِه تمامًا

بَلاغةُ التّشبيهِ المركّبِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ جرى مجرَى الأمثال[4] حيث شبَّه اللّه تعالى الحياةَ الدُّنيا في سرعةِ تَقَضّيها وانقراضِ نعيمِها بعد الإقبال، بحالِ نباتِ الأرض في جفافه وذهابِه حُطامًا ومصيرِه حصيدًا بعد ما التَفَّ وتَكاثَفَ، وزيَّن الأرضَ بخُضرته وألوانِه، وهذا منَ التّشبيه المركّبِ، وهو تشبيهُ حالةٍ مركّبةٍ بحالةٍ مركّبةٍ، ففي الآيةِ عشرُ جُمَلٍ وقعَ التَّركيبُ من مجموعها، بحيث لو سقَط منها شيءٌ اختَلَّ التَّشبيهُ[5]، "وهو من أبدعِ ما يجيءُ في بابه"[6]؛ فقد تضمّن تشبيهاتٍ مفرَّقةً من أطوارِ الحالَيْن المتشابهَيْن بحيث يصلح كلُّ جزءٍ من هذا التّشبيهِ المركّبِ لتشبيهِ جزءٍ من الحالَيْن المتشابهَيْن، ولذلك أطنبَ وصفَ الحالَين مِن ابتدائه، فقوله: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شُبّه به

تَشبيهُ أطوارِ الحياةِ الدُّنيا بأطوارِ النَّباتِ منْ أبلغِ التّشبيهِ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 12/228.
(2) قصر القلب: أن يكون الكلام المشتمل على القصر موجَّهًا لمن يراد إعلامه بخطأ تصوّره نسبة المقصور إلى غير المقصور عليه.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/141.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(5) السيوطي، الإتقان: 3/144.
(6) ابن الأثير، المثل السائر: 1/387.

ابتداءُ أطوار الحياةِ من وقت الصّبا، ووجودِ الأمل في نعيم العيشِ ونضارته، فذلك الأملُ يُشبهُ حالَ نزول المطرِ منَ السّماء في كونِه سببَ ما يُؤمَّل منه مِن زُخرف الأرض ونضارتها، وقولُه: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ شُبّه به طورُ ابتداءِ نضارة العيش، وإقبالِ زهرة الحياةِ، فذلك يُشبهُ خروجَ الزّرع بُعَيد المطرِ فيما يُشاهَدُ من بوارق المأمولِ، وقولُه: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ وصفٌ لنباتِ الأرض الذي منه أصنافٌ يأكلُها النّاسُ منَ الخُضروات والبُقولِ، وأصنافٌ تأكلُها الأنعام منَ العُشبِ والكلأ، وذلك يشبَّهُ به ما يَنعَمُ به النّاسُ في الحياة منَ اللَّذّات، وما ينعمُ به الحيوانُ، وقولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ هو غايةٌ شُبِّهَ بها بلوغُ الانتفاعِ بخيرات الدُّنيا إلى أقصاهُ ونضوجه، وتمامِه وتكاثُرِ أصنافه، وانهماكِ النّاس في تناوُلِها، ونسيانِهمُ المصيرَ إلى الفناء[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾:

حقيقةُ الحياةِ الدُّنيا وماهيّتُها أنّـها سريعةُ الانـقـضـاءِ والزَّوالِ

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ جنسيّةٌ، والمعنى أنّهُ مثَلٌ لبيان حقيقةِ الحياة الدُّنيا وماهيّتها، وأنها سريعةُ الانقضاء والزّوال، وأنّها بحالِ ما تُعزّ وتسرُّ تضمحلُّ، ويؤول أمرُها إلى الفناء.

نُكتةُ وصْفِ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

الدُّنيا حياةٌ فانيةٌ قـصـيرٌ نعيمُها سـريـعٌ زوالُـهـا كأنّها لم تكنْ

وصفَ البيانُ الإلهيُّ ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وليس هناك وَصفٌ أدنى من هذا الوصفِ[2]، فقد سُمّيتِ الدُّنيا لدُنوّها، وقيل: لدَناءتِها[3]، ونُكتةُ ذلك: تمييزُ الحياة الآخرة الباقية عنها، والإشارةُ إلى قلَّةِ نعيمها وقِصَرِه، وسرعةِ زوالِها وانقضائِها، وكأنّها لم تكنْ وما كان فيها نعيمٌ قطُّ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 13/8237.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 2/120.

الحياةُ الدُّنيا كالماءِ يجبُ الأخذُ منهما بقَدَرٍ

معنى الكافِ في ﴿كَمَآءٍ﴾:

الكافُ في كلمة ﴿كَمَآءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ هي حرفُ جرّ يفيدُ التّشبيهَ، أي: تشبيهَ الحياة الدُّنيا بالماء النّازل منَ السَّماء، ووجْهُ الشّبَه بين الحياة الدُّنيا والماءِ من جهتين: إحداهما: أنَّ الماء إذا أخذتَ منه فوق حاجتك تضرّرت، وإنْ أخذتَ قدْرَ الحاجة انتفعتَ به، فكذلك الدُّنيا، والثّانية: أنَّ الماء إذا أطبقتَ عليه كَفّكَ لتحفظَه لم يحصلْ فيه شيءٌ، فكذلك الدُّنيا[1].

تنكيرُ الماءِ تفخيمٌ لشأنِه فهو سَببُ الحياةِ ودوامِها

نُكتةُ تنكيرِ ﴿كَمَآءٍ﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿كَمَآءٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في سِياقِ الامتنان؛ لإفادةِ معنى التّكثير والتّفخيم لشأنِ الماء النّازل منَ السَّماء، فهو سببُ الحياة ودوامِها، أي: كماءٍ كثيرٍ أنزلناه من السّماء فاختلطَ به نباتُ الأرض.

ويجوز أن يكونَ التّنكيرُ لبيان النّوعيّة؛ أي: كماءٍ غيرِ ماءِ الأرض، وهو النّازلُ منَ السّماء، ولا تنافيَ بين الدّلالتَيْن؛ فإنّ هذا الماء ماءٌ نازلٌ منَ السَّماء، وهو كثيرٌ وفخمٌ عظيمٌ.

الحياةُ الدُّنيا في أصلِها تشبهُ ماءَ السّماءِ في طهارتِه ومكانتِه

معنى ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيّةٌ؛ "لأنّ ماءَ المطر يتكوّنُ في طبقاتِ الجوِّ العُليا الزّمهريريّةِ عند تصاعُدِ البُخار الأرضيِّ إليها، فيصيرُ البُخارُ كثيفًا، وهو السّحاب، ثم يستحيلُ ماءً"[2].

وكونُ الماء منَ السَّماء (وهو المطر)؛ للإشارة إلى طهارة هذا الماء ومكانتِه، ولأنّه لا تأثيرَ لكسْبِ العبد فيه بزيادةٍ أو نقصٍ،

(1) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 3/145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/398.

بخلاف ماءِ الأرض فيُنال بالآلات، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ الدُّنيا تأتي بلا كسْبٍ من صاحبها، أو لأنَّ ماءَ السّماء يَستوي فيه جميعُ الخلائقِ، فكان تشبيهُ الحياة به أنسبَ[1].

معنى (أل) في: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

العَهديةُ في أل التَّعريفِ استحضارُ صورة السَّماءِ التي يَعرفونَها

أل في كلمة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عهديَّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، أي السَّماءُ المعهودةُ، وهي السَّماءُ التي ينزلُ منها المطرُ، "فالسّماء اسمٌ لأعلى طبقات الجوّ حيث تتكوّنُ الأمطار"[2]، فالمرادُ بالسّماء: جهةُ العُلوّ، أي: ما علا الأرضَ وأحاطَ بها[3]، ويُراد بالماء النّازل منَ السَّماء: المطرُ النّازلُ منَ السَّحاب، أي من جهة السَّماءِ.

معنى الفاء في: ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾:

سرعةُ ظُهورِ النَّباتِ عَقِبَ نُزولِ المطرِ إشارةٌ إلى سرعةِ نماءِ الحياةِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ﴾عاطفةٌ، ومعناها: التّعقيبُ، والفوريّةُ بالنّظر إلى المبدأ، ولكنّ كلٌّ بحسَبِه، أي: ابتداءُ الاختلاطِ عقيبَ الإنزال، وإن كان منتهاه بزمانٍ طويلٍ[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى سرعة ظهورِ النّبات عقِبَ نزولِ المطر، ويُؤْذِنُ بسرعة نماء الحياةِ في أوّل أطوارِها[5].

معنى الباءِ في: ﴿بِهِۦ﴾:

دَلالـةُ البـاءِ علـى السّببيّةِ والمصاحبةِ يُنبئُ بأنَّ الماءَ سببُ الحياةِ

تحتملُ الباءُ من ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ﴾ معنيَيْن:

الأوّل: السَّببيَّةُ، والمعنى: فاختلط بسببِه نباتُ الأرض، أي التفّ النّباتُ، وتشابكَ بعضُه ببعضٍ بسبب الماءِ.

الثّاني: المصاحبةُ، والمعنى: فاختلط النّباتُ بالماء اختلاطَ

(1) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 791، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/55.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/398.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 12/92.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.

الذّرّات بالذّرّاتِ، فجاورَهُ وقارنَه[1]، ومخالطتُه له: تشبّثُه به، وتلقّفُه إياه، وقبولُه له؛ لأنَّه يجري له مجَرى الغذاءِ[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيّةٌ، أي جنسُ الأرض، والمعنى: اختلط بماء المطر كلُّ نباتِ الأرض، ويمكن أنْ تكون عهديَّةً، أي: الأرضُ التي يعرفونها وينبتُ فيها النّبات، أي: التي لها أهليّةُ الإنباتِ[3].

معنى (مِنْ) في: ﴿مِمَّا﴾:

دَلالةُ (مِنْ) بين البيانيّةِ والتّبعيضيّةِ

(من) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ﴾: حرفُ جرٍّ، تحتملُ وجهَيْن:

الأوّل: بيانيّةٌ؛ لبيان نتيجةِ الاختلاط[4]؛ لأنّه لَمّا كان النّباتُ ينقسمُ إلى مأكولٍ وغيرِه، بيّن بـ (مِن) أنَّ المرادَ أحدُ القسمَيْن، فقال: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾، كالحبوبِ والثّمارِ والبقولِ، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾، كالحشيشِ وسائرِ ما يُرعَى[5].

الثّاني: تبعيضيّةٌ؛ أي: بعضُ هذا النّباتِ هو مما يأكلُه النّاس؛ كالبقول والفواكهِ وغيرِها، وبعضُه ممّا تأكلُه الأنعامُ؛ كالحشائش والأعشابِ وغيرِها.

معنى (ما) في: ﴿مِمَّا﴾:

لكلٍّ منَ النّاس والأنعامِ حَظٌّ في نعيمِ الحياةِ بمقدارِ نطاقِ حياتِه

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ﴾ اسمٌ موصولٌ، وجملةُ ﴿يَأۡكُلُ﴾ هي صلتُه، وقد أفاد عمومَ ما يأكلُه النّاس والأنعامُ، والمعنى: فاختلط به نباتُ الأرض من كلِّ الذي يأكلُه النّاسُ والأنعامُ، فإنَّ لكلٍّ منَ النّاس والأنعامِ حَظًّا في نعيمِ الحياة بمقدارِ نطاقِ حياته.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/111، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/37.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3549.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/37.

بَلاغةُ حذْفِ المفعول في ﴿يَأۡكُلُ﴾:

كلُّ نباتٍ يأكلُه النّاس والأنعامُ له حظٌّ من ماء السّماءِ

إنَّ حذْفَ المفعول به في ﴿يَأۡكُلُ﴾ يُؤْذِنُ بالعموم، فيعمُّ كلَّ ما يأكلُه النّاسُ والأنعامُ من نبات الأرضِ، وهذا أبلغُ من ذكرِ المفعول به؛ لأنَّه يُؤدّي إلى تخصيصِ بعضٍ ممّا يأكلُه النّاس والأنعام دونَ بعضٍ، وهذا التّخصيصُ يتنافى مع حقيقةِ أنَّ كلَّ نباتٍ يأكلُه النّاسُ والأنعام هو ممّا اختلط به ماءُ السّماء.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع في ﴿يَأۡكُلُ﴾:

تشبيهُ الحياةِ الدُّنيا بصورةٍ متجدّدةٍ مُتكرّرةِ الحدوثِ أبلغُ في الاعتبارِ

عبّرَ القرآنُ بالفعل المضارعِ في قوله: ﴿يَأۡكُلُ﴾ لإفادة استمرارِ حدوثِ وتجدُّدِ فعلِ الأكل، وفي ذلك صورةٌ متجدّدةٌ متكرّرةٌ يراها النّاسُ في كلّ وقتٍ، وهي أكلُ النّاس والأنعام من نبات الأرضِ الذي يختلطُ بماء السّماء، ويَزهو ويَنضجُ، ثمّ يصبحُ حصيدًا كأنّه لم يكن، فيكونُ تشبيهُ الحياة الدُّنيا في هذه الصّورة أبلغَ؛ لكونها مُتجدّدةً مُستمرّةَ الحدوث باستمرارِ أكلِهم وتكرّرِه.

معنى(أل) في﴿ٱلنَّاسُ﴾ و﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾:

ضَـــرْبُ المثَـلِ بصورةٍ مُشاهَدةٍ لجميع النّاسِ أدْعَى إلى التّفكّرِ

(أل) في كلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ وفي كلمة ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾جنسيّةٌ استغراقيّةٌ، والمعنى أنّ النّباتَ الذي اختلط بماء السّماءِ يأكلُ منه كلُّ النّاس وكلُّ الأنعام، وفي ذلك مزيدٌ منَ الامتنان، ويكونُ تشبيهُ الحياة الدُّنيا بدورة الماء والنّباتِ في مُتناوَلِ جميع النّاس، ومشاهَدًا من خلال ما يأكلونَه أو تأكلُه الأنعامُ.

عِلّةُ عطفِ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ على ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

اغـترارُ الـنّـاس بالدُّنيا والسّعْيُ وراءَ سفاسِفِها يـجـعـلـهـم كالأنعامِ التي لا تعقلُ

عطَفَ البيانُ الإلهيّ ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ على ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ لأمورٍ؛ منها: مزيدُ الامتنان، وبيانِ أنّ نِعَمَ اللّه تعالى شاملةٌ، فكما وفّرَ للإنسان الغذاءَ من هذا النَّبات، كذلك وفّره للأنعام التي سخّرها اللّه تعالى له، والإشارةُ إلى أنَّ الدُّنيا لهم

وللأنعام، ولكنّ الله فضّلَهم عليها بالعقل، فيجبُ ألّا يغترّوا بالدُّنيا فيصبِحوا كالأنعام بل أضلَّ، وأنْ يعرفوا ما وراء هذه الحياةِ، وأنّهم لم يُخلقوا عبثًا[1].

والإشارةُ إلى تشبيهِ معالي الأمور من نِعَمِ الدُّنيا التي تسْمو إليها الهممُ العوالي بالنّبات الذي يقتاتُه النّاس، وتشبيهِ سفاسفِ الأمور بالنّبات الذي يأكلُه الأنعامُ، ويتضمّن تشبيه الذين يجنَحون إلى تلك السّفاسف بالأنعام، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ [محمد ﷺ: 12][2].

معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وبَلاغةُ الحذْفِ الذي تضمّنَتْه:

بينَ مبدأ ظُهورِ لَـذّاتِ الحياة وبـين بلـوغِها مُنتَهاها مراتبُ جـمّـةٌ وأطـوارٌ كثيرةٌ

عبّرَ القرآن الكريم بحرف ﴿حَتَّىٰٓ﴾ التي تفيدُ انتهاءَ الغاية، وهو غايةٌ شبَّهَ بها بلوغَ الانتفاعِ بخيراتِ الدُّنيا إلى أقصاه، وهذا التّعبيرُ يُؤْذنُ بأنَّ بينَ مبدأ ظُهور لذّات الحياة، وبين منتهاها مراتبَ جمّةً وأطوارًا كثيرةً، فذلك طويَ في معنى ﴿حَتَّىٰٓ﴾[3]، لأنَّ (حتى) تحتاجُ أن يكون الفعلُ الذي قبلها مُتطاوِلًا حتى تصحَّ الغايةُ، أو يُقدّرُ قبلَها محذوفٌ؛ أي: فما زال ينمو ويزدهرُ ويزْهو حتى إذا أخذت..، والمعنى: استوفتْ واستكملتِ الأرضُ زُخرفَها منَ النَّبات، وتمَّ سرورُ أهلِها بها، أو يكونُ المعنى: فدامَ اختلاطُ النّبات بالماء حتى إذا..[4].

معنى ﴿إِذَآ﴾ وفائدةُ الشّرطِ بها:

دَلالَـةُ الـشّـرطِ بِـ(إذا) تُفيدُ حَقّيةَ وقطعيّةَ ما مَثّلَ الله به

استعمل القرآنُ ﴿إِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، وهي ظرفٌ لِما يُستقبل منَ الزمان، وتتضمّنُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3550.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/38، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/55.

معنى الشّرط، وتختصُّ بالجملة الفعليّةِ، وتحتاجُ إلى جوابٍ، ومن شرطِها أنْ يكونَ التّعليقُ بها على أمرٍ معلومٍ مقطوعٍ بوقوعِه[1].

ولذا فإنّ فائدةَ الشّرط بها الدّلالةُ على حقّيّةِ ما مثّلَ اللّه به، واستحضارُ صورةِ هذا المثالِ الصّادق؛ لتكونَ بمنزلة الشّيءِ الحاضرِ المشاهَدِ، وهذا أدْعَى للاعتبار بالمثَل.

بَلاغةُ الجُملةِ الشّرطيّة وفائدتُها وجوابُها:

النّقضُ بعدَ الاكتمالِ في الحياة الدُّنيا سُنّةُ الله التي لا تتبدلُ

تتجلَّى بلاغةُ الجملةِ الشّرطيّةِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾، وجوابُها: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾؛ إذ إنَّ فائدةَ الجملةِ الشّرطيَّةِ هو تعليقُ وقوعِ أمرٍ على أمرٍ آخرَ، وهو أنّ الأرضَ إذا بلغت غايتَها منَ الزّينة والحُسْنِ والبهجةِ لابدّ وأنْ تعودَ حصيدًا كما كانت من قبل، وهذا هو حالُ الحياة الدُّنيا التي شبّهها اللّه بها، فإذا جمعَ الإنسانُ منها، وظنَّ أنَّه قد نال به مقصودَه أتاهُ الموت كأنَّه لم يكنْ ولم يَعِشْ في هذه الحياة، وهذه سُنّةُ اللّه التي لا تتبدّلُ ولا تتغيّرُ.

نُكتةُ المجازِ في إسنادِ الأخذِ والتّزيّنِ للأرض:

إسنادُ الأخذِ إلى الأرض مبالغةٌ في إظهارِ زينتِها وكأنّها تناولتْها عن إدراكٍ وعقلٍ

إسنادُ الأخذِ إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، هو مجازٌ لُغويٌّ؛ إذ نُسبَ للأرض إدراكٌ وليس لها عقلٌ أو إرادةٌ؛ إذِ الأخذُ هو التّناوُلُ والإمساكُ باليد، وهذا المجازُ لا يكاد يظهرُ لشيوعِ استعمالِه حتى صار كالحقيقة، فالعربُ يُطلقون على ذلك التّناوُلِ اسمَ الأخذِ.

وفي هذا المجاز من إسناد الأخذِ إلى الأرض مبالغةٌ في إظهارِ بهجةِ الأرض، ونضارتِها وزينتِها وزُخرفِها، وكأنّ الأرضَ هي التي تناولت زينتَها عن إدراكٍ وعقلٍ.

---

(1) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 84.

بَلاغةُ الاستعارةِ في تزيُّنِ الأرضِ:

بيانُ الاستعارة تشبيهُ الأرضِ بعروسٍ تزيّنت بالحُليّ والثّيابِ

جُعلتِ الأرضُ آخذةً زُخرفَها متزيّنةً، قال تعالى: ﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، وذلك على جهة التّمثيل بالعروس إذا أخذت الثّيابَ الفاخرةَ من حُليٍّ وألوانٍ، فاكتستْ وتزيّنتْ بأنواع الحُليّ، فاستُعير الأخذُ وهو التّناولُ باليد لاشتمال نباتِ الأرض على بهجةٍ ونضارةٍ وأثوابٍ مختلفةٍ، واستُعير لتلك البهجةِ والنّضارة والألوانِ المختلفةِ لفظُ الزُّخْرُف وهو الذّهبُ، لمّا كان منَ الأشياء التي تبعث البهجةَ والسّرورَ في النّفوس، وكأنّ هذا الأمرَ كلَّه فعلُ عاقلٍ حريصٍ على منتهى الإبداعِ والإتقانِ فيها، وهذا من بديع الاستعارة[1]، التي أعطتْ تصويرًا للمعنى وكأنّ القارئَ يَنظرُ إلى مشْهدٍ بارزٍ أمامَه.

معنى الواو في: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾:

بهجةُ الدُّنيا وزُخرفُها يَبعثُ على الاغترارِ بدوامِ مَلذّاتِها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾، والمعنى: أنَّه بعد أنْ أصبحتِ الأرضُ ناضجةَ الثّمارِ، دانيةَ القُطوفِ، ظنَّ أهلُها ظنًّا مؤكَّدًا جدًّا[2] أنّهم قادرون على التّمتّعِ بثمراتِها مُتمكّنون مِن ادّخار غَلّاتِها.

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾:

استعارةُ لفظِ القُدرةِ أبلغُ في الدّلالةِ على تمكّنِ أهلِها منها

أطلقَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ القُدرة في قوله: ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ وأراد به التّمكّنَ منَ الانتفاع ودوامِه، وذلك على وجْهِ الاستعارة، والمعنى: وظنَّ أهلُها أنّهم مُستمرّون على الانتفاع بها محصِّلون لثمراتِها[3]؛ وذلك لأنَّ لفظَ القُدرة فيه معنى القوّة، وذلك أبلغُ في إيصال معنى تمكُّنِ أهلِها منَ الانتفاع بها وتحصيلِ ثمراتِها وغَلّاتِها.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/340، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/38، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.

ظنُّ الكافرين باستمرارِ نَعيم الدُّنيا ولذّاتِها غُرورٌ وضلالٌ

نُكتةُ التّعبيرِ بالجملة الاسميّة: ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ أنّ وما بعدها سدّتْ مسدَّ مفعولَيْ ﴿وَظَنَّ﴾، والعُدولُ عن قُدرتِهم إلى أنّهم قادرون أفادَ ثباتَ قُدرتِهم لا نسبةَ القُدرة إليهم فقط، وأفادَ أنّ ظنَّهم كان ظنًّا مؤكَّدًا جدًّا[1]، فالتّعبيرُ بالجملة الاسميّةِ فيه مزيدُ بلاغةٍ؛ إذ دلّتْ على الثّباتِ والاستمرارِ، أي: ثباتُ قُدرتِهم على الأرض، والانتفاعِ بها، وتحصيلِ ثمراتِها، وغاب عنهم - لجهلِهم - علْمُ العاقبةِ؛ ومن ظنّ أنّه مستمرٌّ في الانتفاع بها لم يحسبْ حسابًا لتلفِها، وكذلك المتمسّكُ بالدُّنيا إذا ظنّ أنّه مستمرٌّ في العيش بنعيمِها لم يحسب حسابًا للموت، فيأتيه الموتُ بغتةً فيَسلبُ ما كان فيه من نعيم الدُّنيا ولذّاتِها، وفي هذا إشارةٌ إلى غرورِهم وضلالِهم.

إسنادُ الأمرِ إلى العظيمِ سُبحانه إنذارٌ بقوّةِ أخذِه للمُنشغِلين بالدُّنيا

فائدةُ الإضافة: ﴿أَمۡرُنَا﴾:

أضاف البيانُ الإلهيُّ الأمرَ إلى ضمير العظَمةِ في قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾؛ لتهويلِ الأمر وتربيةِ المهابة، وإدخالِ الرّوعة في قلوب المنشغِلين بالدُّنيا وزُخرفِها، والإنذارِ بالتّهديد؛ لإرادة الاستئصال، وللتّأكيدِ على أنَّ أمره ﷻ لا يقبلُ التّخلّفَ قطّ[2].

زوالُ نضارةِ الحياةِ مُتوقّعٌ في أيّ زمنٍ منَ الأزمنةِ

معنى ﴿أَوۡ﴾:

أفادت ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ عدّةَ معانٍ، منها: التّرديدُ في الوقت؛ لإثارة التّوقُّع من إمكان زوالِ نضارةِ الحياة في جميع الأزمنةِ؛ لأنَّ الشّيءَ الموقَّتَ بمعيّن من التّوقيت يكونُ النّاسُ في أمنٍ من حلولِه في غير ذلك الوقتِ[3]، وهذا التّرديدُ هو التّرديدُ بالنّسبةِ إلى وقوع الشّيءِ في نفسِ الأمر، لا بالنّظر إلى المتكلّمِ العالمِ بالمغَيَّباتِ والخَفيّات[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/433.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3551.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/143.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/434.

والإبهامُ وإخفاءُ الأمر على السّامع مع علمِ اللّه به، فهو سُبحانه يعلمُ متى يأتيها أمرُه، ولكنَّه أخفاهُ على النّاس ليأتيَهم فجأةً[1].

والتّنويعُ؛ لأنّ بعضَ الأرض يأتيها أمرُه تعالى ليلًا، وبعضَها نهارًا، ولا يخرجُ كائنٌ عن وقوعِه فيهما[2].

نُكتةُ التّنكيرِ في: ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾:

إبهامُ وقتِ نُزولِ أمرِ الله أدْعَى إلى الاستِعدادِ له وعدمِ الغفلةِ

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ (لَيْلًا) و(نَهارًا) في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾؛ لإفادةِ الإبهام؛ أي: إبهام الوقتِ الذي يأتي به أمرُ اللّه، وفي أيّ جزءٍ من أجزاء اللّيل أوِ النَّهار يكونُ، وذلك أدْعَى وأبلغُ في إثارةِ التّخويفِ والتّهويلِ والاستعدادِ وعدمِ الغفلةِ.

فائدةُ تقديمِ اللّيلِ على النّهارِ في الآية:

نزولُ الهلاكِ في اللّيلِ أكثرُ مُفاجأةً وأنسبُ مع وقتِ غفلَتِهم

قُدِّم اللّيلُ على النَّهار في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا﴾؛ لأنَّ اللّيلَ وقتُ ظلامٍ وسكونٍ، والغالبُ في اللّيل أنْ يكونَ الإنسانُ غافلًا نائمًا لا يتوقّعُ نزولَ العذاب، أوِ الهلاكِ فيه، وإتيانُ العذاب في هذا الوقت يكونُ بَغْتةً، والبَغْتَةُ تكونُ أهولَ وأفظعَ وأفزعَ، وأكثرَ مفاجأةً في وقوعِه، وأشدَّ وأصعبَ؛ إذ لا يتّسعُ لتداركِه، بخلافِ أنْ يكونَ قدِ استعدَّ له، وتهيَّأَ لحلوله، أو متنبِّهًا فيسعى لتداركه[3].

معنى الفاء في: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا﴾:

إيذانٌ بسرعة إمضاءِ أمرِه سُبحانه وبسرعةِ انقضاءِ الدُّنيا وزوالِ نعيمِها

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا﴾ عاطفةٌ ومعناها: التّعقيبُ الذي يُشعر بهلاك النّبات، وجعْلِه حصيدًا وانتهائِه إلى تلك الحال عَقبَ إتيان أمرِ اللّه، وفي معنى الفوريّةِ في الفاء إشارةٌ إلى سرعة إمضاءِ أمرِ اللّه، فإذا أراد اللّه سُبحانه أمراً فإنَّما يقول له كن

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/573.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/69.

فيكون، وفيه إيذانٌ بسرعةِ انقضاءِ الدُّنيا، وزوالِ نعيمِها بعد بهجتِها ونضرتِها متى أتاها أمرُ اللّه.

بَلاغةُ المجازِ والاستعارة في: ﴿فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾:

التّعبيرُ عن تلَفِ الـزّرعِ بحصيدِ الأرضِ بلاغةٌ في التّصوير وكأنَّ الآفـةَ حصدَتْه قبل أوانِه

الحصيدُ هو الزّرعُ المقطوعُ من منابتِه، وقدِ احتوت هذه المُفردةُ على المجازِ العقليّ، وعلى الاستعارة؛ أمّا المجازُ العقليُّ فهو الإخبارُ عنِ الأرض بحصيدٍ، وإنّما المحصودُ نباتُها[1].

وأمّا الاستعارةُ ففي التّعبير بحصيدٍ عنِ التّالفِ استعارةٌ؛ إذ جعلَ ما هلكَ منَ الزّرعِ بالآفة قبل أوانِه حصيدًا، وكأنَّ الآفةَ حصدَتْه قبل أوانِه[2]، لعلاقةِ ما بينهما منَ الطّرحِ على الأرضِ.

وقيل: يجوزُ أن تكونَ تشبيهًا بغير الأداةِ، والتّقديرُ: فجعلناها كالحصيدِ[3].

معنى ﴿كَأَن﴾، وفائدةُ التّشبيه:

المبـالـغـةُ في تـصـويـرِ تـلَـفِ الأرضِ وهـلاكِ زرعِـهـا حتى كـأنَّها لـم تكن عامرةً من قبلُ

﴿كَأَن﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ مخفّفةٌ من كأنّ، واسمُها ضميرُ الشّأن تقديرُه: كأنَّها؛ وجملةُ ﴿لَّمۡ تَغۡنَ﴾ خبرُها، أي: كأنّ ثمار تلك الأرضِ وزروعَها لم تغن بالأمس، ومعنى (كَأَنْ) التّشبيهُ وتقريبُ الصّورة، أي إنّ حالَ الأرض عندما أتاها أمرُ اللّه، وأصبحت حصيدًا بعدما كانت مُزخرفةً ومُزيَّنةً بالنّبات، كحال التي لم تكن عامرةً قبلَ ذلك بالأمس، ولم تكن تلك الزّروعُ والنّباتُ على ظهر الأرض نابتةً قائمةً، وفائدةُ هذا التّشبيه ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ هو المبالغةُ في تصوير التّلفِ والهلاكِ، وتأكيدٌ لهلاكها واستئصالِ ما عليها من نباتٍ بصورةٍ سريعةٍ حاسمةٍ حتى كأنّها لم يقُم بالأرض بهجةٌ وخضرةٌ نضرةٌ تسرُّ أهلَها من قبلُ[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/114.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/39.

معنى الباءِ في ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾:

الباءُ في كلمة ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ للظّرفيّة، أي بمعنى (في)، والمعنى: كأنْ لم تَغْنَ في الزّمن الماضي القريب.

معنى (أل) في ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾:

لِسُرعةِ زوالِ الدُّنيا ومُتعتِها كأنّها لم تكن موجودةً منذُ وقتٍ قريبٍ

اختلف العلماءُ في لام ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ على قولَيْن:

الأوّل: مزيدةٌ لتَملِيةِ اللّفظ مثل التي في كلمة (الآن)، والأمسُ هو اليوم الذي قبل يومك.

الثاني: عهديَّةٌ؛ أي: اليومُ المعهودُ بين المخاطَبين، وَلِيَه يومُك أم لا[1].

ولكنّ على كلا الرّأيين ليس المرادُ بالأمس في الآية خصوصَ اليوم الذي قبل يومك، وإنّما المرادُ الوقتُ الماضي القريبُ، فالأمس مجازٌ عنِ القرب، أي: جعلناها حصيدًا حتى لكأنَّها لم يكن بها منذُ وقتٍ قريبٍ الزَّرعُ النّضيرُ، والنَّباتُ البهيجُ، والنَّخلُ الباسقُ، والطَّلعُ النّضيدُ[2]، أوِ المرادُ بالأمس الوقتُ المعهود، وهو الوقتُ الذي ازّيّنت فيه[3].

معنى الكاف في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ وفائدةُ التّشبيهِ:

تشبيهُ حالِ النَّباتِ بحالِ الدُّنيا من الآياتِ الدّالّةِ على وَحدانيةِ الله وقُدرتِه

الكافُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ حرفُ جرٍّ يُستعملُ للتّشبيهِ، وفائدةُ التّشبيه قصدُ الحضِّ على التّفكير والاعتبارِ أي: كهذا المثلِ في وضوحِه وبيانِه لحال الحياة الدُّنيا، وقِصَرِ مدّةِ التّمتّع بها نفصّلُ الآياتِ ونضربُ الأمثالَ الدّالّةَ على وَحدانيتِنا وقُدرتِنا لقوم يَستعملون عقولَهم، فيُحسنون التّفكيرَ والتّدبّرَ في ملكوت السّماوات والأرض[4].

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/208.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/56.

(3) السامرائي، معاني النحو: 2/208.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/56.

الإشارةُ بالبعيدِ للتّنبيهِ على عِظَمِ المَثَلِ في إثارةِ التّفكُّرِ

نُكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ (ذلك):

استعملَ اسمَ الإشارة (ذلك) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾؛ لإفادتِه التّنبيهَ على عظم المَثَل الذي أتى به، وهو تشبيهُ الحياة الدُّنيا بنباتِ الأرض، فاختارَ ما يُشار به إلى البعيدِ، مع أنّ المرادَ قريبٌ وهو المَثَلُ الواردُ في الآية؛ وذلك للدّلالةِ على تفخيمِ وتعظيمِ وأهمِّيَّةِ تفصيل الآياتِ، وضربِ الأمثال في الاعتبارِ والتّفكّر.

آياتهُ عظيمةُ الدّلالةِ على علمِه وقُدرتِه وإتقانِ صُنعِه

غَرَضُ إسنادِ التّفصيلِ إلى ضمير العظَمةِ:

أسندَ البيانُ الإلهيُّ نونَ العظمةِ إلى فعل (فصّل) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ إشارةً إلى عِظم آياتِ الله، أي نبيّنُ الدّلالاتِ كلَّها الدّالّةَ على عموم العِلْمِ والقُدرةِ، وإتقان الصُّنع، فهذه آيةٌ منَ الآيات المبيَّنةِ، وهي واحدةٌ من عموم الآياتِ[1].

الآياتُ القُرآنيّةُ والتّكوينيّةُ أو عِبَرُ الأمثال تنبيةٌ وباعثٌ على التّفكّرِ في غُرورِ الدُّنيا

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾:

(أل) في: ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تحتمل أن تكون جنسيّةً، فتشملُ الآياتِ القرآنيّةَ والآياتِ التّكوينيّةَ، وتحتملُ أنْ تكون أل العهديّةَ، والمعهودُ فيها حضوريٌّ ذِكْريٌّ يعودُ إلى المعنى المستفادِ منَ المثَلِ الوارد في الآية، وهو ضرْبُ مَثَلِ الحياة الدُّنيا بالنَّبات والزّرعِ الذي ذُكر عِظةً وتنبيهًا لمن تفكّرَ[2]، والمعنى: كذلك نفصّلُ المواعظَ والعلاماتِ التي تدلّ على غرور الدُّنيا وزوالِها.

ضرْبُ الأمثالِ وتفصيلُ الآياتِ والأدلّةِ لأجلِ التّفكّرِ والاعتبارِ

معنى اللّام في ﴿لِقَوۡمٖ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هي لامُ الأجل[3]، وهي اللّام المبيِّنةُ سببَ الفعلِ الذي قبلها، بمعنى كي أو لأجل، أي: أنّ اللّه فصّل الآياتِ، وبيّن الحُججَ والأدلّةَ لأجل التّفكّرِ والاعتبارِ بها، فمن لم ينتفعْ بالآيات فليس من أهلِ التّفكّرِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/30.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿لِقَوْمٍ﴾:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿لِقَوْمٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لإفادة معنى التّفخيم والتّشريفِ، وذلك في سياقِ المدح للمتفكّرين المعتبِرين بالآيات، أي: إنَّ في ذلك المثَلِ وأشباهِه آياتٍ دالّةً على وَحدانية اللّه وقُدرته لأهل التّفكّرِ الذين يُعمِلون عقولَهم، وفيهم قوّةُ المحاولةِ لِما يريدون منَ الاستمرارِ في التّفكّر والوصولِ إلى الحقائق.

تنكيرُ القوم المتفكِّرين تفخيمٌ وتشريفٌ لمداومَتِهم على التّفكّرِ والنّظرِ

دَلالةُ التّعبيرِ بـ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

لفظُ التّفكّرِ في قوله تعالى: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يدلُّ على التّأمّلِ والنّظرِ وإعمال الفكرِ، وهو تفعّلٌ مشتقٌّ منَ الفكر، وقد اختار البيانُ الإلهيُّ لفظَ التّفكّر؛ تشريفًا لمنزلةِ التّفكّر، وحثًّا للتّسابقُ إلى هذه الرّتبةِ[1]؛ لأنّهم همُ المنتَفِعون بتَفصيلِ الآياتِ، قال الطّبريّ: "وخصَّ به أهلَ الفكر؛ لأنّهم أهلُ التّمييز بين الأمور، والفحْصِ عن حقائقِ ما يَعرِضُ منَ الشُّبَه في الصّدور"[2].

التّفكّرُ من أشرف المنازل، فعظمُ آياتِ اللّه لا يُدركُها إلّا الدّائمون على التّفكّرِ

وفيه تعريضٌ بأنّ الذين لم ينتفِعوا بالآيات ليسوا من أهل التّفكّر، ولا كان تفصيلُ الآياتِ لأجلِهم[3].

واختارَ صيغةَ المضارع؛ لدلالتِها على الاستمرارِ والتّجدّدِ، أي لا بدّ من دوام التّفكّرِ في آيات اللّه، فعِظمُ هذه الآياتِ لا يُدرِكُ إلّا بالاستمرارِ في التّفكّر فيها، بل يستلزمُ دوامَ التّفكّرِ فيها.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلْطُ والمَزْجُ:

هناك تقاربٌ دَلاليٌّ كبيرٌ بين المَزْجِ والخلْطِ إذ يُعرّفُ كلٌّ

الخلْطُ أعمُّ منَ المزجِ، إذِ المزْجُ يختصُّ بالسّوائلِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/115.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/57.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/144.

منهما بالآخرِ في المعاجم اللّغويّةِ، فالخلطُ: المزجُ، والمزجُ: الخلطُ[1].

إلّا أنَّ هناك بعضَ الفروقِ الدّلاليّةِ الدّقيقةِ بين اللّفظَين التي يمكنُ لحظُها من خلال الاستعمالِ القرآنيِّ:

استعملَ القرآنُ الكريمُ لفظَ (مزَج) في ثلاثة مواضعَ كلُّها جاءت مع الشَّراب[2].

بينما استعملَ لفظَ (خلَط) مع الأشياء الصّلبةِ، ومع الصّلبِ والسّائلِ، ومع الأشياءِ المعنويّةِ[3].

فالخلطُ: هو الجمعُ بين الشّيئين فأكثرَ، سواءً كانا مائعَين أو جامدَين، أو أحدُهما جامدًا والآخرُ مائعًا[4]، وكذلك في الأشياء المعنويّةِ، سواء كانتِ العناصرُ المختلطةُ من جنسٍ واحد، أو من أجناسٍ مختلفةِ.

بينما المزجُ: هو خلطُ مائعَين مختلفَين أو أكثرَ بعضِهما ببعض، وجعْلُهما شيئًا واحدًا، أو خلطُ مادّةٍ صلبةٍ بسائلٍ بحيث يصبحُ الخليطُ متجانسًا، أي لا بدّ أن يكون أحدُ عناصره مائعًا[5].

إذن: الخلطُ أعمُّ منَ المزج، كما أنّه يمكنُ الفصلُ بين عناصرِ الأشياء المختلطةِ، ولا يمكنُ الفصلُ بين عناصر الأشياء التي امتزجَتْ[6].

الزُخْرفُ والزّينةُ:

يوجدُ تقاربٌ دلاليٌّ بين لفظ الزُّخرف والزّينة، فكلاهما يَشتركُ في معنى تحسينِ الشّيءِ وتجميلِه، كما أنّ الزُّخرفَ يُعرّفُ بالزّينة،

الـزّيـنـةُ أعـمُّ منَ الـزُخْـرفِ إذِ الزُّخْرفُ هو حالةُ اكتمالِ الزّينـةِ وتمامِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (خلط)، (مزج).
(2) وردت في المواضع الآتية: [الإنسان: 5]، [الإنسان: 17]، [المطففين: 27].
(3) وردت في المواضع الآتية: [البقرة: 220]، [الأنعام: 146]، [التوبة: 102]، [يونس: 24]، [الكهف: 45]، [ص: 24].
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلط).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مزج).
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5859.

إلا أنّنا إذا رجعنا إلى الاستعمال القرآنيِّ للّفظَين نلحظُ بعضَ الفروق بينهما، وهي:

أوّلاً: الزّينةُ أعمُّ منَ الزُّخرف، فكلّ نوعٍ من أنواع التَّحسين يُسمّى زينةً، أمّا الزُّخرف فهو حالةُ اكتمال الزّينةِ وتمامِها، وكأنَّ الزُّخرفَ هو الزّينةُ الظّاهرةُ بوضوحٍ، أوِ المبالَغُ فيها.

ثانيًا: كلّ زُخرفٍ هو زينةٌ، ولكنْ ليس كلُّ زينةٍ زُخرفًا.

الأرضُ الحصيدُ والخامِدةُ والهامِدةُ:

الحصيدُ والخامدةُ والهامدةُ بينهم تقاربٌ دَلاليّ؛ إذ يشتركون في معنًى عامٍّ، وهو القحطُ، وعدمُ وجود النَّباتِ على الأرض، ولكنْ من خلال الرّجوعِ إلى الأصل اللُّغويِّ لهذه الألفاظ، وإلى الاستعمال القرآنيِّ لها يتبيّنُ أنّ بينها فروقًا دقيقةً يمكنُ بيانُها كالآتي:

الأرضُ الهامِدةُ يابسةٌ ميّتةٌ لا حياةَ فيها والخامِدةُ قاحلةٌ جدباءُ، والحصيدُ مقطوعٌ زرْعُها

أوّلًا: من جهة الأصل اللُّغويِّ: الحصيدُ: أصل الحَصْد: قَطْعُ الشّيء، ومنه قَطْعُ الزّرعِ.

أمّا الخامدةُ: أصل الخُمود: سكونُ الحركة والسّقوطُ، ومنه خمدتِ النّار سكن لهبُها ولم يُطفأ جمرُها، وخمَدَ المريض: أُغميَ عليه، وقومٌ خامدون: لا تسمعُ لهم حِسًّا، وكأنَّ أصلَ الخمود هو انقطاعٌ للشّيء مع بقاء القُدرةِ على رجوعِه[1].

وأمّا الهامدةُ: أصلُ الهُمود: الموتُ والهلاكُ، ومنه همدتِ النّارُ: ذهب نارُها البتّةَ، أي أُطفئَ لهبُها وجمرُها[2].

ثانيًا: من جهة الاستعمالِ القرآنيِّ: الأرضُ الحصيدُ: هي الأرض التي قُطع زرعُها من منابتِه بعد أنْ نضجَ، أوِ التي قُطع زرعُها على سبيل الإهلاك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خمد).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 300، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (همد).

أمّا الخامدةُ: لم يردْ في القرآن الكريمِ وصفُ الأرض بالخامدة، وإنّما وُصف بها القومُ الذين أهلكَهمُ اللّه منَ الأمم السّابقةِ، وهي استعارةٌ عنِ النّار الخامدةِ التي أُطفئَ لهيبُها، وإذا وُصفتِ الأرضُ بالخامدةِ فيمكنُ أن تعني: الأرضَ الجدباءَ الشَّبيهةَ بالميّتةِ التي لا نباتَ فيها، ولكنّها مازالت قابلةً للنَّبات إذا أتاها المطرُ.

وأمّا الأرضُ الهامدةُ: وردت في موضعٍ واحدٍ في سياق بعثِ الموتى، وتعني الأرضَ الميّتةَ التي لا حياةَ فيها ولا نباتَ، إلّا أنَّ القادرَ على إحياء الموتى قادرٌ على إنباتها من جديد بعد إنزال المطرِ عليها.

وكأنَّ أكثرَ الأرض قحطًا وجدبًا هي الهامدةُ التي تكونُ يابسةً ميّتةً لا حياةَ فيها البتّةَ، ثمّ الخامدةُ التي تكون شبيهةً بالميّتة، ثم الحصيدُ التي قُطع زرعُها وأصبحَ حُطامًا.

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا نفَّر سُبحانه الغافِلين عنِ الميْلِ إلى الدُّنيا بالمثَل السّابق، وبيَّن حالَها، وقِصَرَ مدّةِ التّمتّع بها، وسُرعةَ زوالها، وما فيها من آفاتٍ ونقصٍ أتبعَ ذلك بدعوةِ النّاس جميعًا إلى العمل الصّالحِ الذي يوصلُهم إلى الجنَّة، ورغَّبَهُم بها، وسمّاها دارَ السَّلام؛ لسلامتِها منَ الفناء، ومن كلّ مكروهٍ وآفةٍ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1].

شتّانَ بين دارٍ فانيةٍ مُحذِّرٍ منها، ودارٍ باقيةٍ سالمةٍ مُرغَّبٍ فيها

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: الدّار: المحلُّ والموضِعُ الذي يحِلُّ به النّاسُ من أرضٍ، أو بناءٍ، أوِ المنزلُ المسكونُ، أوِ البلدُ، أوِ القبيلة[2]، والسَّلامُ: من سلِم، والسَّلامةُ: أن يسْلَم الإنسانُ منَ العاهةِ والأذى، والله ﷻ هو السَّلام؛ لسلامته ممّا يلحقُ المخلوقين منَ العيبِ والنّقص والفناء[3].

ودارُ السَّلام: هي الجنَّةُ، وهي دارُ الله الذي هو السَّلام، وسُمّيت بذلك؛ لأنّها دارُ السَّلامة منَ الفناء، وجميعِ المكاره والآفات، أو لأنَّ الله يُسلّمُ على أهلها، أو لأنَّ تحيّةَ أهلها السَّلامُ، أو لأنَّ الملائكة تسلّمُ على من يدخلُها[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/238، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/228، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/137.
(2) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دور).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (سلم).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/536، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/138.

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةٌ عامّةٌ منه سُبحانه إلى الحياةِ الباقيةِ، وتوفيقٌ يختصُّ به من يشاءُ

يطلبُ اللّه ذو الجلال والإكرام منَ النّاس جميعًا الإيمانَ والعملَ الصّالحَ الذي يوصلُ صاحبَه إلى الجنَّة، ويُرغِّبُهم بها فيُسمّيها دارَ السَّلام، فيُضيفُها إلى اسمه تعظيمًا لها وترغيبًا فيها، وأصحابُها يَسْلَمون من جميع المتاعبِ والمخاوفِ، وتحيّتُهم فيها السَّلامُ، ثم يبيّنُ سُبحانه بعد دعوتِه العامّةِ لكلّ النّاس، أنَّه يَهدي من يشاء من عباده إلى صراطٍ مستقيم، أي: يوفّقُ من يشاء إلى طريق الجنَّةِ والوصولِ إلى دار السَّلام[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ العطْفِ في: ﴿وَٱللَّهُ﴾:

التّرغيبُ بعدَ التّرهيبِ عادةٌ قرآنيّةٌ

جملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ معطوفةٌ إمّا على مذكورٍ، وهو جملة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي نفصِّلُ الآياتِ التي منها آيةُ حالةِ الدُّنيا وتقضّيها، ونَدعو إلى دار السَّلام دارِ الخُلد. ولمّا كانت جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تذْييلًا، وكان شأنُ التّذييل أن يكونَ كاملًا جامعًا مُستقلًّا جُعلتِ الجملةُ المعطوفةُ عليها مِثْلَها في الاستقلال، فعُدلَ فيها عنِ الإضمار إلى الإظهار؛ إذْ وُضِع قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ موضِعَ ندعو؛ لأنَّ الإضمارَ في الجملة يجعلُها محتاجةً إلى الجملة التي فيها المعادُ.

أو على محذوفٍ دلّ عليه السّياقُ، أي على المعنى المستفادِ ذهنًا من جملة المَثَل، والتّقديرُ: الشّيطانُ يدعوكم إلى إيثار متاعِ الحياة الدُّنيا وزُخرفِها، واللّه تعالى يدعو النّاسَ جميعًا إلى الإيمان الحقِّ الذي يوصلُهم إلى دار كرامتِه[2].

وهناك من عدَّ الواوَ استئنافيّةً، وجملةَ ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ مُستأنفةً[3].

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 11/95، والحجازي، التفسير الواضح: 2/56.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/57، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/286.

(3) بهجت صالح، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل: 5/40، والهرري، حدائق الروح والريحان: 12/230.

فائدةُ التّعبيرِ بالجملةِ الاسميّةِ:

دعوةُ الله إلى دار السَّلامِ ثابتةٌ دائمةٌ متجدّدةٌ مستمرّةٌ لا انقطاعَ لها

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالجملةِ الاسميّةِ التي خبرُها فِعْلٌ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ ولم يقلْ (يدعو اللّه إلى دار السَّلام)؛ إذ عدَلَ عنِ الجملةِ الفعليّةِ فقدّم اسمَ الجلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾على الفعل ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾؛ لإفادة التّعظيم والتّحقيقِ والتّخصيصِ، فصار المعنى حصرَ هذا الدعاء من اللّه لا من غيره، فلا منهجَ إلّا منهجُه، ولا شرعَ إلّا شرعُه، وأنَّ دعاءَه إلى دار السَّلام محقّقٌ مؤكَّدٌ لا شكَّ فيه.

أضفْ إلى ذلك أنّ تقديم الاسْمِ الجليل حوّل الجُملةَ من جملةٍ فعليّةٍ إلى جملةٍ اسميّةٍ خبرُها فعلٌ؛ لتفيدَ الثّبوتَ والدّوام، ويفيدَ خبرُها الاستمرارَ التّجدّديَّ؛ فدعاءُ اللّه لجميع عباده دعاءٌ ثابتٌ ثباتًا دائمًا لا يُقيّدُه زمنٌ، مُستمرٌّ ومتجدّدٌ لا انقطاعَ له، وفي هذا التّعبيرِ (الجملة الاسميّة وخبرها فعل) منَ المبالغةِ والتّأكيدِ على الثّبوت والدّوامِ والاستمرارِ والتّجدّدِ ما فيه.

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾:

بابُ الجنَّة مفتوحٌ ودعوةُ الله إليها مُستمرّةٌ لا تنقطعُ

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغة المضارع ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ دعاءَه سُبحانه النّاسَ إلى دار السَّلام مُتجدّدٌ ومُستمرٌّ لا ينقطعُ، وهذا من كمالِ رحمتِه وفضلِه.

بَلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾:

دعوة الله عامّةٌ للجميع لكمالِ عدْلِه ولإظهارِ الحُجّة علَيْهم

حذفَ البيانُ الإلهيُّ مفعولَ ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾؛ لقصد التّعميم والاختصار، أي يدعو كلَّ أحد؛ أي كلَّ ممتَحَنٍ مُكلَّفٍ إلى دار السّلام عن طريق الإيمان والإسلام، فالدّعوة عامّةٌ، ولم تتقيّدْ بالمشيئة؛ لأنّ البابَ إلى الجنَّة مفتوحٌ للجميع، وهذا من عدْلِه سُبحانه، بخلاف الهدايةِ فإنّها خاصّةٌ بالمستعدِّين للعمل به، ولذا تقيّدت بالمشيئة، قال تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[1]، يقول

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/40.

البغويُّ: "عمَّ بالدّعوة لإظهارِ الحُجّة، وخصَّ بالهدايةِ استغناءً عن الخلْقِ"[1]، وقيل: "الدّعوةُ إلى دار السّلام عامّةٌ؛ لأنّها الطريقُ إلى النّعمة، وهدايةُ الصّراط خاصّةٌ؛ لأنّها الطريقُ إلى المُنعِم"[2].

وفي تعميم الدّعوة، وتخصيصِ الهدايةِ بالمشيئة دليلٌ على أنَّ الأمرَ غيرُ الإرادة، وأنّ المصِرَّ على الضّلالة لم يُردِ اللّه رشدَه[3].

فائدةُ الجُملةِ الخبريّةِ ﴿يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾:

دعـوةُ العظيم إلى دار السَّلام ترغيبٌ بالعمَلِ الصّالح وسلوكِ طريقِ الهُدى

أفادتِ الجملةُ الخبريّةُ ﴿يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ إخبارَ المخاطَبين بأنّ اللّه يدعوهم، ويطلبُهم إلى الجنَّة، ويرغّبُهم بها، فأضافَها إلى اسمه تعظيمًا لها، لأنَّ العظيمَ إذا استعظمَ شيئًا ورغّب فيه وبالغَ في ذلك التّرغيبِ دلَّ ذلك على كمال حالِ ذلك الشّيءِ، وسمّاها دارَ السَّلام؛ لأنَّ أصحابَها يَسْلَمون من جميع المتاعبِ والمخاوف، وتحيّتُهم فيها السَّلامُ، وفي ترغيبه سُبحانه ودعوتِه إلى دار السَّلام ترغيبٌ بالعمل الصّالح، وسلوكِ طريق الهُدى الموصلِ إلى دار السَّلام، والحياةِ الباقيةِ السّالمةِ منَ الآفات والمكاره والمنغِّصات[4].

نُكتةُ تخصيصِ اسْمِ الله السَّلامِ:

دارٌ صاحبُها السَّلامُ السّالمُ من كلِّ نقْصٍ هي دارٌ سكّانُها آمنون من جميع المكارهِ

دارُ السّلام هي الجنَّةُ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾، و(السَّلام) من أسماء اللّه الحسنى، وتَخْصيصُ هذا الاسمِ أي السّلامِ من بين الأسماء الحسنى حيث لم يقلْ دارَ الرّحمن أو دارَ الرّحيم أو دارَ الكريم؛ لأنَّ اسمَ اللّه السَّلامَ معناه: إمّا خالقُ السَّلامةِ، أو ذو السَّلامةِ، أي السّالمُ ممّا يلحقُ المخلوقين منَ العيب

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/417.

(2) الثعالبي، الكشف والبيان: 14/199.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/138.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/239.

والنّقص والفناء؛ لكمالِه في ذاته وصفاتِه وأفعالِه سُبحانه[1]، أو ذو السّلامِ الذي لا يقدرُ على السّلام إلّا هو، والسّلامُ عبارةٌ عن تخليصِ العاجِزين منَ المكاره والآفات[2].

فتخصيصُ اسمِ السّلام دون غيرِه؛ لمناسبةِ معنى هذا الاسم (السّلامُ الذي يدلّ على كمال التّنزيهِ والسَّلامة من كلّ ما لا يليقُ به سُبحانه) مع صفات هذه الدّارِ (الجنَّة) الآمنةِ السّالمةِ من كلّ مكروهٍ وآفةٍ، وفي هذا تنبيهٌ إلى أنّ من دخلَها سلّمه اللّه السّلامُ من كلّ الآفاتِ والنّقائصِ، والأكدارِ الموجودةِ في الحياة الدُّنيا، فإضافةُ الدّار إلى السّلام: تعظيمًا لشأنها، وتشريفًا لها، ولسُكّانِها السّالمين من جميع المكارهِ والآفاتِ[3].

نُكتةُ العطفِ في: ﴿وَيَهۡدِي﴾:

الــدّعــوةُ إلى الـجـنَّـة عـامَّـةٌ والـتّـوفـيـقُ لسلوك طريقِها خــاصٌّ بـمـنِ استعدَّ لإجابة الدّاعي

عطفَ البيانُ الإلهيُّ ﴿وَيَهۡدِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ على ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ بحرف العطفِ الواوِ؛ للدّلالةِ على اشتراكِهما في المعنى العامِّ؛ وهو الدّعوةُ إلى الخير، وللدّلالةِ أيضًا على تغايرِهما؛ فإنَّ دلالةَ الدّعوة إلى الجنَّة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ دلالةٌ عامّةٌ، وهي دلالةُ إرشادٍ وإقامةِ البرّاهين، إظهارًا للحجّة؛ ودلالةَ ﴿وَيَهۡدِي﴾ هي دلالةٌ خاصّةٌ، وهي دلالةُ هدايةٍ وتوفيقٍ ومعونةٍ إظهارًا للقُدرة[4]، ولهذا قيّدَها بمشيئته؛ وخصّ بها من يشاءُ من عباده؛ أي: واللّه يدعو كلَّ النّاس إلى دار السّلام، ويدلُّهم عليها، ولكنْ يَهدي ويوفّقُ إلى الطريق الموصلِ إليها من غير تعويقٍ منِ اسْتعدَّ لإجابة الدّاعي، وسلكَ طريقَ اللّه المستقيمَ، فحصلت المغايرةُ بين الدّعوتَين[5].

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/437.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/238، والخازن، لباب التأويل: 2/438.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/286.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 11/95، والحجازي، التفسير الواضح: 2/56.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/287.

أو أن يكونَ الجامعُ بين المتعاطفَين كونَ الهداية طريقَ الجنَّة؛ أي أنّ المَعْطوف سببٌ لما اشتمل عليه المَعْطوفُ عليه[1].

نُكتةُ حذْفِ فاعلِ ﴿وَيَهۡدِي﴾:

حذَفَ البيانُ الإلهيُّ فاعلَ ﴿وَيَهۡدِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ اختصاراً؛ لأنَّه سَبَقَ ما يدلُّ عليه، وهو فاعلُ يدعو؛ إذ جملةُ ﴿وَيَهۡدِي﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾، وكذلك لكون فعلِ الهدايةِ بمعنى (خلقها) لا يصلحُ إلّا للّه سبحانه، فلا ينصرفُ الذّهنُ في فعل (يهدي) إلا له سبحانه.

إذا تساوى الذِّكرُ والحذفُ فالاختصارُ أبلغُ فخَلْقُ الهدايةِ لا يكونُ إلّا له سُبحانه

فائدةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَهۡدِي﴾:

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالفعل: ﴿وَيَهۡدِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى أنّ هدايتَه ولُطفَه وتَوفيقَه ومَعونتَه للمؤمنين بخلْقِ الإيمان في قلوبهم مُستمرٌّ مُتجدّدٌ لا ينقطعُ، وهذا يبعثُ الأملَ في نفسِ من أرادَ سلوكَ طريقِ اللّه، واختارَ إجابةَ دعوته سُبحانه بأنَّ عنايةَ اللّه وتوفيقَه حاضرةٌ لا تغيبُ.

توفيقُ اللّه ومعونتُه ولُطفُه لمن يشاء من عباده مُستمرٌّ ومُتجدّدٌ لا ينقطعُ

دَلالةُ ﴿مَن﴾ وصلَتِها:

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ اسمٌ موصولٌ، وصلتُه جملةُ ﴿يَشَآءُ﴾، وغرضُهُ إفادةُ العُموم.

والمعنى: واللّه يهدي كلَّ من يشاءُ لهُ الهدايةَ، فيوفّقُه إلى الطريق المستقيم الموصِلِ إلى دار السّلام، هذا إنْ كان الضّميرُ في ﴿يَشَآءُ﴾ عائدًا إلى اللّه، وأمّا إنْ كان الضّمير عائدًا إلى الاسم الموصولِ ﴿مَن﴾، فالمعنى: واللّه يهدي كلَّ من يطلبُ لنفسه الهدايةَ وسلكَ السّبيلَ المستقيمَ إليها.

توفيقُ اللّه ومعونتُه يعمُّ كلَّ من أجاب دعوةَ الدّاعي واستعدَّ لسلوك الطريقِ المستقيمِ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/437.

نُكتةُ تَعْديةِ الهداية بـ: ﴿إِلَىٰ﴾:

الصّراطُ المستقيمُ وسيلةٌ توصِلُ إلى الغايةِ وهي دارُ السّلامِ

﴿إِلَىٰ﴾ حرف جرّ، ومعناه: انتهاءُ الغايةِ الزّمانيّةِ والمكانيّة، والفعلُ (يهدي) يتعدّى باللّام، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ [يونس: 35]، ويتعدّى بـ(إلى) كما في الآية هنا، وقد تعدّى هنا بـ(إلى)، ولم يتعدَّ باللّام؛ لتضمُّنِه معنى الانتهاءِ في الهداية، أي: يهدي من يشاء هُدًى منتهيًا في هدايته إلى صراطٍ مستقيم[1]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المهتَدي مازال في طريق الهداية، ولم يصلْ إلى الغاية؛ لأنَّ الصّراطَ المستقيمَ هو وسيلةٌ توصِلُ للغاية التي هي دارُ السّلام، ولهذا عُدِّيَ الفعلُ بـ(إلى) ولم يتعدَّ باللام؛ لأنَّ دلالتَها على منتهى الغايةِ، وهذا لا يناسبُ استعمالَها مع الصّراط؛ لأنَّه ليس الغايةَ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

الإسلامُ كالطَّريقِ الذي لا اعوجاجَ فيه الموصِلِ إلى الغايةِ المطلوبةِ

شبَّه البيانُ الإلهيُّ الإسلامَ في قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بالصّراط المستقيم، فحذفَ (المشبّه) وهو الإسلامُ، وصرّح بـ (المشبّهِ به) وهو الصّراطُ المستقيمُ، بجامعِ أنَّ كلًّا منهما موصِلٌ إلى المقصود، والاستعارةُ تصريحيةٌ.

وفي تشبيهِ الطّريقِ المعنويّ المدرَك بالعقول وهو الإسلامُ بالطريق الحسّيِّ المُدرَك بالبصرِ وهو الصّراطُ المستقيمُ الذي لا اعوجاجَ فيه تصويرٌ لاستقامة الإسلامِ، وكونِه موصِلًا إلى الغاية المرجوّةِ التي هي دارُ السّلام.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

دارُ السّلامِ، والغُرفاتُ، والفردوسُ، ودار القرارِ، وجنّةُ عدْنٍ، والحُسنى، والرّوضةُ:

للجنَّة أسماءٌ متقاربةٌ في الدّلالة؛ حيث تدلّ جميعُها على دار

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/112، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/143، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3665.

الثّواب التي ينالها المؤمنون الصّالحون في الآخرة، وتعدّدتْ أسماؤها للإشارة إلى معانٍ متنوّعةٍ على النّحو الآتي:

الجنَّة: إشارةٌ إلى كثرة أشجارِها، وكثافة ظلِّها، وما فيها من نعيمٍ مستورٍ عن أهل الدُّنيا.

دارُ السَّلام لسلامتها من كلّ مكروهٍ

ودارُ السَّلام: لإضافتها إلى اسم من أسماء اللّه الحسنى هو السَّلام، تشريفًا وتعظيمًا لها، أو لأنّها دارُ السّلام بمعنى السَّلامة من كلّ آفةٍ وكدَرٍ ومكروهٍ، أو لسلامِ اللّه عليهم، أو لانتشار تحيّةِ السَّلام بين أهليها، وتسليمِ الملائكة عليهم، ولفظُ (السَّلام) يحتمل هذه المعانيَ جميعًا.

الغُرفاتُ لعُلوّ درجتِها

والغُرفات: قيل: هي السّماء السّابعةُ، وقيل: أعلى منازلِ الجنَّة، وقيل: العُلُوُّ في الدّرجات، ولعلَّ أرجحَ الوجوهِ أنَّ الغُرفةَ: درجةٌ عاليةٌ في الجنَّة؛ بناءً على اشتقاقِها، فالغُرْفةُ في اللّغة تعني العُلَيَّة أوِ العِلِّيّة[1]، وفي كونها اسمًا من أسماء الجنَّة إشارةٌ إلى رفعتِها، وعُلوّ مقام أهلِها.

الفردوسُ لعِظمِها

والفردوسُ: في اللّغة: البستانُ الواسعُ الجامعُ لأصناف الثّمرة[2]، والمرادُ بجنّات الفردوس: بساتينُ حول الجنَّة، وهو ما اجتمع نخلُه وعرشُه، وقيل: هي أعلى منازلِ الجنَّة، وفيه إشارةٌ إلى سَعتِها، وتنوّعِ ثمارِها، وعظمةِ شأنها، وورد في الحديث أنّ الفردوسَ أعلى الجنَّة، أو أوسطُ الجنَّة[3].

دارُ القرار لنعيمِها الأبديّ

ودارُ القرار: القرارُ في المكان: هو الاستقرارُ والثّباتُ فيه[4]، ودارُ القرار هي دارُ المستقرِّ الثّابتِ، وسُمّيتِ الجنَّةُ بدار القرارِ؛ لأنّها دارُ الإقامةِ الدّائمةِ والاستقرارِ، والخلودِ والنّعيمِ الأبديِّ[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (غرف).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فردس).
(3) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (8067).
(4) أبو بكر الرازي، مختار الصحاح: (قرر).
(5) القرطبي، أحكام القرآن: 15/317، والقاسمي، محاسن التأويل: 8/310.

عدَنٌ لقصورِها

وجنَّةُ عدْنٍ: قيل: عَدَنَ أي أقام، وجنّاتُ عَدْن أي جنّاتُ إقامةٍ لمكان الخُلد[1]، وقيل: هي وسطُ الجنَّة، وقيل: نهرٌ في الجنَّة، وقيل: مدينةٌ في وسط الجنَّة لا يدخلُها إلّا النّبيّون والصّديقون والشّهداءُ، وقيل: قصورٌ منَ اللّؤلؤ والياقوتِ والزَّبَرْجَد، وقيل: أعلى درجةٍ في الجنَّة؛ وكلُّها أقوالٌ لا تخلو منَ الاضطراب والاختلاف، وقوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾ [التوبة: 72] يُرجِّحُ بأنَّها قصورٌ في الجنَّة، أو درجةٌ من درجاتها العاليةِ الرّفيعة.

الحسنى لحُسنِ ثوابِها

والحسنى: منَ الحُسْن، وهو الجمالُ، وكلُّ مُستحسَنٍ؛ والحُسْنُ ضِدُّ القُبح[2]، والحُسنى: الجنَّة، وقيل: سُمّيتِ الجنَّةُ بالحسنى إشارةً إلى أنّ أهلها إنَّما استحَقّوها بإحسانهم في الدُّنيا، وللإشارةِ إلى حُسْنِ ثوابِ اللّه تعالى.

الرّوضاتُ لجمالِها

والرّوضةُ: الأرضُ ذاتُ الخُضرة، والبستانُ الحَسَنُ[3]، والرّوضةُ: الجنَّة، وقيل: سُمّيتِ الجنَّةُ بالرّوضةِ للإشارةِ إلى الحُسْنِ والجمالِ والبهجةِ الظّاهرةِ[4].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عدن).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (حسن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (روض).
(4) معجم الفروق الدلالية، ص: 292 - 401.

﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ [يونس: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عاقبةُ الذين استجابوا لدعوته سبحانه هي الحسنى وزيادة

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها وجهان:

الأوَّل: لـمّا دعا اللّه تعالى عباده إلى دار السَّلام في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25]، ذكرَ في هذه الآية السَّعادات التي تحصل لهم فيها، فقال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[1].

الثّاني: لـمّا بيَّن سبحانَه في ختامِ الآيةِ السّابقةِ أنّه يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم، أي: يوفِّقُه ويَخلقُ في قلبِه الهدايةَ، وفُهِمَ من ذلك أنَّ مِنَ النّاسِ مَن يهديه، ومنهم مَن يُضلُّه، وأنَّ الكل فاعلون لما يشاء، كأنَّ أحدهم سألَ: هل هم واحد في جزائه، كما هم واحد في الانقياد لمراده؟ فقيل: لا، بل هم فريقان: فبدأ بالمَهْدِيين الذين استجابوا لدعوته واتبعوا صراطَه المستقيم، وما أعدَّه لهم من حُسْنِ العاقبةِ والجزاء على إحسانهم فقال: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[2].

شَرْحُ الْمُفْرَدات:

1) ﴿يَرۡهَقُ﴾: أصلُ الرَّهَقِ: غِشْيانُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ[3]، تقولُ: رَهِقَه ما يكرَهُ؛ أي: غَشِيَهُ ذلك[4]، وَأَرْهَقْتُ الصَّلاةَ: أَخَّرْتُها حتَّى غشيَها وقتُ الأُخرى[5]، والمُرَهَّقُ: الَّذي يَغْشاهُ السُّؤّالُ والضِّيفان[6]،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/240.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/104.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهق).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رهق).
(5) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفاظ: (رهق)، وابن الحدّاد، كتاب الأفعال: 3/46.
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (رهق).

والرَّهَقُ أَيْضًا: العَجَلَةُ والتَّأْخير[1]، تقول: رَهِقَ فلانٌ فلانًا، إذا تبعَه فقَرُب أن يلْحَقَهُ[2]، والمراد بالرَّهَق في الآية: الغَشَيانُ، أي: يغشى مع ذِلَّة وتضييق.

2) ﴿قَتَرٌ﴾: أَصْلُ القَتَرِ: ما يَغْشَى الوَجْهَ مِنْ كَرْبٍ[3]، والقَتَرَةُ: غَبَرَةٌ يَعْلوها سَوادٌ كالدُّخانِ، وكذلك: ما يَغْشى الوَجْهَ من غَبَرَةِ المَوْتِ والكَرْب[4]، والغُبار: ذراتٌ بالِغَةُ الدِّقَّة تنفُذُ مِنَ النّار شيئًا فشيئًا، لكنَّ تَجَمُّعَها يجعلُها طبقةً، نعوذُ باللّه منها[5]، والمقصود بالقَتَرِ في الآية: الغُبار المُسْوَدُّ.

3) ﴿ذِلَّةٌ﴾: الذُّلُّ والذِّلَّة: مَصْدَرُ الذَّلِيل، وأَصْلُه: الضَّعْفُ، والهَوانُ، والاسْتِكانَةُ[6]، وضِدُّه: العِزُّ والقوَّة، يُقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّةً وذَلالَةً ومَذَلَّةً: إذا ضَعُفَ وهانَ، فهو ذَليلٌ[7]، والجَمْعُ: أَذِلَّةٌ، ويُطْلَقُ على التَّذَلُّلِ، فيُقال: ذَلَّ وتَذَلَّلَ، أي: هانَ، وضِدُّهُ: الصُّعوبَةُ، يُقال: ذَلَّ الشَّيْءُ، أيْ: سَهُلَ ولانَ[8]، والذَّلُولُ: السَّهْلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ[9]، ويأْتي بمعنى الخُضوعِ والانْقِياد، وتَذَلَّلَ له، أيْ: خَضَعَ[10]. والمقصود بـ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ في الآية: الهَوان الَّذي يَبدو على وَجْهِ الذَّليل.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بقدر إحسانك في الدُّنيا تكون منزلتُكَ في الجنَّة وزيادة

يُبَيِّنُ اللّه ﷻ أنَّ الَّذينَ أحسَنوا في الدُّنيا بالإيمانِ، وأحسَنوا في طاعةِ الرَّحمنِ؛ امتثالًا لأمرِه، واجتنابًا لِنَهيه، على وَجهِ المُراقَبةِ له

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهق).
(2) الخليل، العين: (رهق)، وابن سيده، المخصَّص: 4/96.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قتر).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (قتر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قتر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذلّ).
(7) ابن سيده، المحكم: (ذلّ).
(8) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (ذلل).
(9) اللَّخميُّ، شرح الفصيح، ص: 110.
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللغة: (سكن).

سُبحانَه، وأحسَنوا إلى عبادِ اللّه تعالى؛ هؤلاء لهم الجنَّةُ، ولهم زيادةٌ على ذلك، وأعظمُ أنواعِها: النَّظَرُ إلى وجهِ اللّه ﷻ، ولا يغشَى وُجوهَهم غُبارٌ ولا هَوانٌ ولا صَغارٌ، أولئكَ أصحابُ الجنَّةِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة اللّام في المطلَع في: ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

العـطـاء لأجـل الإحسان

(اللّام) في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ﴾ حرف جرٍّ للمِلْك أوِ الاختصاص، أي: يعطيهم اللّه الجزاءَ عطاءً موفورًا لأجل إحسانهم[2].

وجهُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾:

كلُّ مَن أحسنَ فـلـهُ الحُسْنـى وزيادة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ في تعريفهم، ولم يقلْ: (والمحسنون لهم الحسنى)؛ لفائدتين؛ الأولى: لأنَّ الاسم الموصول يَدلُّ على العموم، فالتَّعبيرُ به يَشْمَل كلَّ مَن ثبتتْ له هذه الصِّلةُ ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، والمعنى: كلُّ مَن أحسن له الحُسنى وزيادة. والثّانية: لأنَّ في الموصول إيماءً إلى أنَّ سببَ فوزِهم بالحُسنى هو إحسانُهم في الحياة الدُّنيا.

سِرُّ التَّعبير عنِ الإحسان بالماضي: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾:

الإحسـانُ واقـعٌ مُتَحَقِّقٌ مِمَّن كتب اللـه لهم الهداية

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بفعل: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ بصيغة الماضي دونَ المضارع؛ للدّلالة على تَحقُّق وقوعِه، أي: وقوع فعلِ الإحسان منهم، باعتبار عِلْمِه سبحانَه بإحسانهم، وما سبقَ في قضاءِ اللّه لهم بالهداية، وفي هذا مناسبة لما ذُكر في الآية قبلَها: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ فمَنْ أحسنوا هم مَن كتبَ اللّه لهم الهداية، فكان إحسانُهم مُتَحَقّقًا، واستَحَقّوا الحُسنى؛ جزاءً على إحسانهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/156، 164، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 11/170، والبغويُّ، معالم التَّنزيل: 2/417، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/115، 116، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/330.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3552.

دلالة واو الجماعة في ﴿أَحۡسَنُواْ﴾:

الـتَّرغـيـبُ بالإحسانِ كونُه صفةَ أهلِ الجنَّة

أتى البيانُ القرآنيُّ بالفعل (أحسن) بإضافة واو الجماعة ﴿أَحۡسَنُواْ﴾؛ ليناسبَ الجمعَ في الاسم الموصول ﴿لِّلَّذِينَ﴾، ويناسبَ إرادةَ العُمومِ فيه، وللإشارة إلى كَثْرة عددِ المحسنين، والتَّرغيب في الإحسان الجماعيِّ الذي يُؤدِّي إلى رِفْعَة الأمَّة ورُقيِّها، وفي هذا إيذانٌ باشتراك جميع أهلِ الجنَّة بالإحسان؛ فكلٌّ منهم أحسنَ في نوع مِن أنواع الإحسان، فأفعالُ الإحسان متنوِّعة، ورحمةُ الله بعباده واسِعَة.

بلاغة حذفِ مفعول ﴿أَحۡسَنُواْ﴾:

الإبهامُ الحاصلُ في الحَذْف يدلُّ على تنوّع أعمال الإحسان منهم

إنَّ حذف مفعول ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، يُفْصِحُ عن حالهم المستغرِق في الإحسان، ويُؤْذِنُ بالعموم، فيَعُمُّ كلَّ نوعٍ مِن أنواع الإحسان الذي فعلوه، وهذا أبلغُ مِن ذكر المفعول به؛ لأنَّه يؤدِّي إلى تخصيصِ الإحسانِ بفعلٍ واحد مِن إحسانهم فيما بينهم وبين ربِّهم؛ بتوحيده وعبادته، أو إحسانهم فيما بينهم وبين خَلْقه؛ بجميع أنواع الإحسان إليهم، مِنَ الإحسان القوليِّ، والفِعليِّ: (الماليِّ والبَدنيِّ)، وغيرِ ذلك مِن وجوه الإحسان، والتَّخصيصُ مُخلٌّ بالإفصاح عن مكنون حالهم، ورفيع خصالهم؛ فقد أحسنوا كلَّ إحسان حتَّى استحقّوا لقبَ المحسنين.

سرّ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

جـزاءُ المحسنين الجنَّةُ الكاملةُ في حُسْنها، البالغةُ أعـلى درجـاتِ الحُسْن

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: على وزن (فُعْلَى)، مؤنثُ الأحسن، والعرب توقع هذه اللَّفظة على الحالة المحبوبة، والخَصْلة المرغوبِ فيها، ولذلك لم تُؤكَّد ولم تُنعَت بشيء[1]، وقيل: الحُسْنى صفةٌ لمصدر محذوف، تقديرُه: المثوبة الحُسنى[2]، أو الخَصْلة التي هي في غاية الحُسْن مِنَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/240.

(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/342، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

الجزاء[1]، والأكثرون على أنَّ الحُسنى في هذا الموضع صفةٌ غالبةٌ، أصبحت كالعَلَم على المقصود بها، وهي الجنَّةُ ونعيمُها مِن حصول الملاذِّ العظيمة، ولا تنافي بينَ الأقوال؛ إذِ الجنَّةُ هي أحسنُ جزاءٍ وأحسنُ مثوبةٍ يصير إليها الذين أحسنوا[2].

وقد أفاد التَّعبير بصيغة (فُعْلَى) المبالغةَ في الوَصْف، إذ صيغةُ (فُعْلَى) تدلُّ على قوَّة الوصف؛ لأنَّها مؤنثُ أفعل[3]، وهنا أفادت المبالغةَ في وصف الجنَّة، فهي البالغة أعلى درجات الحُسن؛ إذ تزيد في الحُسن على إحسانهم، وهي مأوى كلِّ حَسَنٍ على أفضل وجه، وهي الجزاء الأحسن الذي بلغ أعلى درجات الكمال في الحُسن، فلا شيءَ أحسنُ منها إلّا الزيادة المذكورة بعدها[4].

نوع (أل) في لفظ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

الحسنى هي مَجمَعُ كلِّ المنافعِ، ومأوى كلِّ حُسْنٍ

(أل) في قوله: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تحتمل أن تكون جنسيَّةً استغراقيَّةً؛ تُفيدُ العمومَ، والمعنى: للذين أحسنوا جِنسُ الأحوال الحُسنى عندهم، أي: لهم ذلك في الآخرة[5]، وتَحتَمِل أن تكون عهديَّةً، والمعهود فيها إمّا ذِكْريٌّ انصرف إلى المعهود السّابق، وهو دار السَّلام، وإمّا ذِهنيٌّ؛ إذِ المعروفُ بينَ المسلمين والمتقرِّرُ بينَ أهل الإسلام مِن هذه اللَّفظة هو الجنَّة، وما فيها مِنَ المنافع والتَّعظيم، وما أعدَّه اللّٰه تعالى لعباده فيها[6].

بلاغة تقديم الخبر: ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

الحُسنى جزاءٌ خاصٌّ بالمحسنين الذين استحقّوه بإحسانهم

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الخبرَ ﴿لِّلَّذِينَ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ لإفادة الحَصْر في الخبر، وهو اختصاصُهم بالحسنى، أي: هي

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 3/434.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/43.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 30/282.
(4) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفاظ: 1/411، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/213.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/146.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/240، والنَّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 3/575.

للذين أحسنوا خاصَّة، وليست لغيرهم، وكذلك للاهتمام بالخبر، وهم الذين أحسنوا، والتَّنبيهِ على أنَّ إحسانهم هو مَن أوصلَهم إلى الجنَّة، وأنَّ إحسانَهم أسبقُ مِن دخولهم الجنَّة، فاستحقّوا الحُسنى جزاءً على إحسانهم، وفي هذا مزيدٌ مِنَ التَّرغيب وتحفيز الهممِ لفعل الإحسان؛ ليكونوا مِنَ المستحقِّين لهذا الجزاء الحَسَن.

بلاغة الجِناس الاشتقاقيّ في ﴿أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

استـحـقّـوا الحسنى لأجل إحسانهم، فالجزاءُ مِن جنسِ العمل

في قوله: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، ولفظ: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وقد اجتمعتا في الأصل الاشتقاقيِّ، وهو (حسن)، وهذا يُسمَّى جناسَ الاشتقاق المُماثل، وفي هذا التَّعبير لونٌ مِن ألوان البديع، جاء على أحسن صورة، وأجمل موقع، والمناسبةُ بين لفظي: أحسنوا، والحسنى، فيه دلالةٌ على أنَّهم استحقّوا الحسنى على إحسانهم، أي: جزاؤهم يكون مِن جنس عملهم.

بيانُ معنى الزِّيادة في: ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾، ووجه التَّعبير بها:

عطاءُ العظيم عظيمٌ لا تُقدِّره العقولُ، ولا تَتَصَوَّرُه الأفهامُ والأوهام

ذكر المفسِّرون في معنى الزيادة في قوله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ عدَّةَ معانٍ، منها: أنَّها ما يزيدُ على تلك المثوبة تفضلًا، فالحسنى: مثلُ حسناتهم، والزِّيادةُ: عشْرُ أمثالها إلى سبعمائةِ ضِعْف وأكثر، أو أنَّها مغفرةٌ مِنَ اللهِ ورضوانٌ، أو أنَّها غُرْفَةٌ مِن لُؤْلُؤة واحدةٍ لها أربعة أبواب[1]. أو أنَّها اللِّقاءُ، أي: رؤيةُ المحسِن والنَّظر إلى وجهه الكريم سبحانَه[2]، وروى مسلمٌ في صحيحه عن صهيب عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، قال اللّه ﷻ: تريدونَ شيئًا أزيدُكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا، ألم تُدخِلْنا الجنَّة وتُنجِّنا مِنَ النّار؟! قال: فيكشفُ الحجابَ، فما أُعْطوا شيئًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/69 - 70.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

أحبَّ إليهم مِنَ النَّظر إلى ربِّهم ﷻ»[1]، وتفسيرُ الزِّيادة برؤية اللّه تعالى، هو قول الجمهور مِنَ السَّلف والخَلَف[2].

والزِّيادة: أنَّ تمرَّ السَّحابةُ بأهل الجنَّة فتقول: ما تريدون أن أُمطِرَكم؟ فلا يريدون شيئًا إلّا أمطرتهم[3]. ولا تنافي بينَ كلِّ هذه المعاني، ولا مانع مِنَ الجَمع بينَها، فتشمل الزِّيادة كلَّ هذه المعاني، ويمنّ اللّه تعالى عليهم بكلِّ ما ذُكر، ويصدق عليه أنَّه زيادة على ما مَنَّ به عليهم مِنَ الجنَّة[4]، إذِ التَّعبيرُ بلفظة (زيادة) التي هي مصدر بمعنى الزّائد مطلقًا، حيثُ جاءت نكرةً ومُبهمةً، فأفادتِ العمومَ، كما أفاد هذا التَّنكيرُ والإبهامُ التَّفخيمَ[5] والتَّكثيرَ والتَّعظيمَ لهذه الزِّيادة، أيًّا كان المعنى الذي فُسِّر بها.

وفي هذا التَّعبير إشارةٌ إلى أنَّ عطاءَ اللّه لهم ليس بمقدار إحسانهم؛ لأنَّه سبحانَه المُتَفَضِّل المُكْرِمُ، الذي لا يُعْطِي بمقدار ما قُدِّم، بل إنَّه كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: 173][6]، والعطاءُ مِنَ العظيم يكون عظيمًا؛ فهذه الزِّيادة لا تُقَدِّرها العقولُ، ولا تدركُها ولا تصوِّرها الأفهامُ والأوهام؛ كقوله ﷺ: «ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلب بشر»[7].

دلالة الواو في: ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾:

إكرامُ المحسنين بنعيمٍ زائدٍ على جزائهم بالحسنى مِن عظيمِ فضلِ الله عليهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَزِيَادَةٞۖ﴾ هي واو العَطْف، دَلَّت على مُطلق الجَمع بينَ الحُسنى والزِّيادة، في أنَّ كليهما جزاءٌ مِنَ اللّه تعالى

(1) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم ﷻ، الحديث رقم: (368).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/62 - 68، والقرطبيُّ، أحكام القرآن: 8/330.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/241.
(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/97.
(5) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/439.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3552.
(7) صحيح البخاريِّ، كتاب التَّفسير، باب: قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾، الحديث رقم: (4780).

للمُحسنين، فقد أكرمهم اللّه تعالى بنعيم الجنَّة، وتفضَّل عليهم بزيادة مِنَ النَّعيم، واستدلَّ بعضُ المفسِّرين بالعطف على المغايرة بينَ الحُسنى والزِّيادة، يقول الرّازيُّ: "يكون المرادُ مِنَ الزِّيادة أمرًا مُغايرًا لكلِّ ما في الجنَّة مِنَ المنافع والتَّعظيم، وإلّا لزمَ التَّكرار، وكلُّ مَن قال بذلك قال: إنَّما هي رؤية اللّه تعالى، فدَلَّ ذلك على أنَّ المراد مِن هذه الزِّيادة: الرُّؤية"[1].

وأيًّا كان تفسير الزِّيادة فقد دَلَّ العطفُ على إكرام المحسنين بنعيمٍ زائد على جزائهم بالحُسنى، وهذا مِن كَرَم اللّه تعالى، وعظيمِ فضلِه وإنعامه عليهم.

دلالة الواو في: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ﴾:

الواو بينَ العطف والاستئناف

الواو في قوله: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ﴾ تحتمِل أن تكون للاستئناف، والجملةُ مستأنَفَةٌ لبيان أَمنِهم مِنَ المكاره، إِثْر بيانِ فَوْزِهم بالمطالب، والثّاني وإن اقتضى الأوَّل إلّا أنَّه ذُكِرَ تذكيرًا بما ينقذهم اللّه تعالى منه برحمته[2].

وتحتمل أنْ تكون عاطفة، وجملة ﴿يَرۡهَقُ﴾ معطوفة على الحسنى، على تقدير (أنْ)، والمعنى: (ولا أن يرهق وجوههم)، وهي عطف جملةٍ فعليَّة على اسميَّةٍ، أو عطفُ مصدرِها على الحسنى على تقدير: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، وانْتِفاءُ رَهَقِ وُجوهِهم قَتَرًا)[3]، وفي ذلك مزيد تفضُّلٍ وإكرامٍ، بإتْباع صورِ التَّنعُّم بنفي مشاهد المكاره.

نُكْتَةُ تخصيصِ الوجوه بالذِّكْر: ﴿وُجُوهَهُمۡ﴾:

الـوجـه أشـرف أعضاء الإنسان، وسبيل تَبَيُّن أثرِ تغيير المشاعر

خصَّ البيانُ الإلهيُّ الوجهَ دونَ غيره مِنَ الأعضاء في قوله: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ﴾؛ لأنَّه أشرفُ الأعضاء، فالوجهُ هو مكانُ تشريفٍ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/240.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/236.

وكذلك لظهورِ أثرِ السُّرورِ والحُزن فيه، فإذا وقع بالإنسان مكروهٌ تبيَّن ذلك في وجهه، وتغيَّر وتَكَدَّر، فأوَّلُ ما يُشاهد مِنَ الإنسان وَجْهُه، فيُعْرَف بحاله المجرمون والمطيعون، فدلَّ نَفْيُ القَتَرِ والذِّلَّة عنِ الوجوه على انتفاء أنْ ينالهم مكروهٌ بوجه مِنَ الوجوه، ومِنْ ثَمَّ نفيُ ما يَعرِض لهم مِن سوء الحال[1].

جديرٌ بالوجوه المشرّفة بالنظر إلى وجهه تعالى أنْ لا يصيبها قترٌ

وفي تخصيص الوجوه تنبيهٌ على إكرام وجوههم بالنَّظر إلى وجه اللّه، على تفسير معنى الزِّيادة بالنَّظر إلى وجه اللّه، فهذه الوجوه النّاظرة إلى وجه اللّه جديرٌ بها أنْ لا يَرْهَقَها قَتَرُ البُعد، ولا ذِلَّةُ الحِجاب، عكس المحرومين المحجوبين[2].

سِرُّ تقديم المفعول على الفاعل:

وجوهُ المحسنين أشرفُ أعضائهم، وهي مصونةٌ مِنَ الرَّهَق والذُّلِّ

قدَّم البيانُ الإلهيُّ المفعولَ: ﴿وُجُوهَهُمۡ﴾ على الفاعل: ﴿قَتَرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ﴾؛ لعِدَّة أمور؛ أوَّلها: الاهتمام ببيان أنَّ المصونَ مِنَ الرَّهق أشرفُ أعضائهم، وهي الوجوه. وثانيها: التَّشويق إلى المؤخَّر، أي: الفاعل ﴿قَتَرٞ﴾، فإنَّ ما حَقَّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تبقى النَّفسُ مترقِّبةً لوروده، فعند وروده عليها يتمكَّن عندها أفضلَ تمكُّن. وثالثها: لأنّ في الفاعل ضربَ تفصيل ﴿قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾، كما في قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢﴾ [الرحمن: 22][3].

عِلَّة التعريف بالإضافة في: ﴿وُجُوهَهُمۡ﴾:

وجوهُ المحسنين خاصَّةً استحقَّت هذا التَّكريمَ بنفي القَتَرِ والذِّلَّة عنها

أتى البيانُ الإلهيُّ بلفظ الوجوه مُعرَّفةً بالإضافة في قوله: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾، حيث أضاف الوجوه إلى ضمير (هم)، العائد إلى (الذين أحسنوا)؛ ليُفيدَ التَّعيينَ والاختصاص والاستحقاق، أي: تعيينَ وجوهِ المحسنين خاصَّةً، وأنَّ القتَرَ لا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/44، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 362.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 6/20.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

يَرْهَق وجوهَهم، فيكون في ذلك مزيدُ اختصاصٍ وإنعامٍ عليهم، دونَ غيرهم، وأنَّ هذه الوجوهَ المحسنةَ استحقَّت هذا التَّكريمَ لإحسانهم، وفي هذا تعريضٌ بأنَّ وجوهَ الكافرين لا تستحِقُّ ذلك، فيَرهقُها قَتَرٌ وذِلَّة.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾، وتنوينِهما:

من كمالِ جزاءِ المحسنين نَفْيُ أدنى قَتَرٍ أو ذِلَّةٍ عن وجوههم

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ بصيغة النَّكِرة، وكذلك التَّنوين؛ لتَحْقيرِ أيِّ شيءٍ منهما[1]، فدَلَّ على خُلوصِها[2]؛ إذِ النَّكِرةُ في سياق النَّفي تُفيدُ العمومَ، أي: نَفْيُ أيِّ شيء مِنَ القَتر والذِّلَّة مهما كان قليلًا.

وفي هذا التَّنكيرِ والتَّنوين للفظَتين في سياق النَّفي الذي أفاد التَّحقير والتَّقليل، مبالغةٌ في نَفْي أيِّ قَتَر أو ذِلَّة تَرْهَقُ وجوهَ المحسنين، وأنَّه لا يجوز عليهم ما إذا حصل غَيَّرَ صفحةَ الوجهِ، وأزال ما فيها مِنَ النَّضارة والطَّلاقة.

سِرُّ عطفِ الذِّلَّة على القَتَر: ﴿قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾:

من تكريمِ الله للمحسنين أنَّ نعيمهم غيرُ مَشوبٍ بأيِّ مكروه

عطف القرآنُ لفظ ﴿ذِلَّةٌۚ﴾ على ﴿قَتَرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾؛ لِنَفْي هاتَينِ الصِّفتَين، والغَرَضُ مِنْ ذلك "نَفْيُ أسبابِ الخوفِ والحُزنِ والذُّلِّ عنهم؛ ليُعْلَم أنَّ نعيمهم الذي ذَكَرَهُ اللّه تعالى خالصٌ غيرُ مَشوب بالمكروهات"[3]، إذ بالعطف يحصُل الجمعُ بين نفي القَتَر؛ وهو الغَبَرة التي تغشى جِلْدَة الوجهِ مِن شِدَّة البُؤْس والشَّقاء والخَوف، وبين نَفْي الذِّلَّة: وهي الهوان، وأثرُه الذي يبدو على وجه الذَّليل مِنَ الخُضوع والانكسار، وفي هذا الجمع الذي أفاده العطفُ دلالةٌ على نفي كُلِّ أنواع المكَدِّراتِ، بنفي

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.
(2) الخفاجيُّ، عناية القاضي: 5/21.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/241.

آثارِهما عن وُجوه المحسنين، فهم مَصونون عنِ الآفات، ولا يَلْحَقُهم ما يَلْحَق وجوهَ أهل النّار، وهذا مِن تكريم اللّه للمحسنين في الجنَّة، وزِيدَت (لا) في قوله: ﴿وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ تأكيدًا للنَّفي، وتنبيهًا على أنَّ كلَّ واحدٍ منهما منفيٌّ، لا المجموعُ مِن حيث المجموعُ[1].

بلاغة الكناية في الآية الكريمة:

نفيُ آثارِ القَتَرِ والـذِّلَّـةِ عـنِ الـوجـوه، يَـلْـزَمُ مـنـه نَـفْـيُ مـا يوجبُهما

نفى البيانُ القرآنيُّ القَتَر والذِّلَّة عن وجوه المحسنين في قوله: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾، كنايةً عن عدم الألم والتَّأذِّي لأصحاب هذه الوجوه؛ لأنَّ عدمَ غَشَيان ذلك لازمٌ لعدم غشيان ما يوجبُهما، فَذَكر اللّازمَ ليُنْتَقَل منه إلى الملزوم[2]، يُقال للكئيب الحزين: كأنَّ على وجهه قَترًا وذِلَّة؛ كنايةً عنِ الشِّدَّة التي تُصيبُه، فتَظْهَرُ آثارُها في وجهه، فينطفئُ بريقُه، ويَجِفُّ ماءُ الحياة منه، وقيل لهم ذلك كنايةً عن حصول غايةِ مباغيهم، ونهايةِ سرورِهم، وخُلوصِ نعيمِهم مِن شوائب المكاره؛ لأنَّ الجنَّة مع نعيمها ومَلَذّاتها - عند العارف إذا لم يظفر بتلك النِّعمة الكبرى - مكانُ حُزْنٍ وكآبة[3]. قال الطَّبريُّ: "لا يغشى وجوهَهُم كآبةٌ، ولا كُسوفٌ، حتى تصيرَ مِنَ الحُزن كأنَّما علاها قَترٌ"[4].

ويرى ابن عاشور أنّ الكلام في الآية مستعملٌ في صريحه وكنايته، أي لا تتشوّه وجوههم بالقتر وأثر الذلّة، ولا يحصل لهم ما يؤثر القتر وهيئة الذلّة[5]، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر[6].

بلاغة التَّعريضِ في نفي القَتَر والذِّلَّة:

إنقاذُ المحسنين مِـن إرهـاقِ الـوجـوه ابـهـاجٌ ومَـسَـرَّةٌ لـهـم، وغَـمٌّ وحَـسْـرةٌ للكافرين

نفى البيانُ الإلهيُّ القَتَرَ والذِّلَّة عن وجوه المحسنين في قوله

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/440.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/97.
(3) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/469، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيِّ للقرآن: 6/994.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/72.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(6) الزُّحيليُّ، التَّفسير المُنير: 11/154.

تعالى: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾، مع أنَّ ذلك لا يخطر بالبال وقوعًا، بعد أن أثبتَ اللّه لهم الحُسنى وزيادة، وإنَّما ذَكَره لأنَّه لازمٌ مِن لوازم الجزاء الحَسَن الذي جوزوا به، فلم يكن هذا مديحًا لهم، بل المعنى: التَّعريضُ بالكافرين الذين لم يَهْدِهمُ اللّه إلى الصِّراطِ المستقيم، وهم الذين كَسَبوا السِّيئاتِ تعجيلًا للمَساءَة إليهم، بطريق التَّعريض قبلَ التَّصريح، الذي يأتي في قوله: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ [يونس: 27][(1)].

وليُذكِّرَ أهلَ الجنَّة بما أَنْقَذَهم اللّه منه، وهو إرهاقُ وجوهِهم، أي: غَشَيانُها غَبَرةٌ فيها سوادٌ، بسبب رحمته، وأنَّهم في عافية ممّا يَحلُّ بالكافرين مِن عذاب ونَكال، فإنَّهم إذا ذَكروا ذلك زاد فرحُهم وابتهاجُهم ومَسَرَّتُهم، كما أنَّ أهلَ النّار إذا ذَكَروا ما فاتهم مِنَ النَّعيم المقيم ازداد غَمُّهم وحَسْرتُهم[(2)].

بلاغة حذف حالهم في: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾:

الاكتفاءُ بنفي القَتَر والذِّلَّة عن وجوهِ المحسنين أبلغُ وأَدلُّ على تكريمهم

اكتفى القرآنُ بتخصيص نفي القَتَر والذِّلَّة عن وجوه المحسنين في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾، ولم يَذْكُر حالَهم كما ذَكَرهُ في الكافرين في الآية بعدَها بقوله: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾، إظهارًا للفارق الكبير بينَ الذين أحسنوا وبينَ الذين كسبوا السَّيِّئات؛ إذ نَفَى عنِ المحسنين أدنى مكروهٍ يُصيبهم، مِن خلال نفيه أيَّ قَتَرٍ أو ذِلَّة تَظْهَر على وجوههم، وهذا أبلغُ مِن نَفْي القَتَر والذِّلَّة عن حالهم، فكان عَدَمُ ذِكرِ حالِهم تكريمًا وتشريفًا لهم، وإشارةً إلى عظيم فضله سبحانَه عليهم، و"ترغيبًا للتَّوبة، وتشويقًا للطّاعة"[(3)].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيِّ للقرآن: 6/995.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/469، والآلوسيُّ، روح المعاني: 6/98.
(3) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/445.

وَجْهُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشارةُ بالبعيد تنبيهٌ على عُلوِّ مرتبةِ المحسنين وبُعْدِ دَرَجتِهم

استَعْمَل اسمَ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾، حيثُ اختارَ ما يُشارُ به إلى البعيد، مع أنَّ المشار إليه قريبٌ، وهم الذين أحسنوا، تعظيمًا وتفخيمًا وتشريفًا لهم، حتَّى أصبحَ يُشارُ إليهم بالإشارة الحِسِّيَّة التي للبعيد، وفي هذا إيذانٌ بعُلوِّ درجتهم، وسُموِّ طبقتِهم، وبُعْدِ منزلتِهم ارتفاعًا، أي: أولئكَ الموصوفون بما ذُكِر مِنَ النُّعوت الجميلة، الفائزون بالمثوبات، النّاجون عنِ المكاره، هم أصحاب الجنَّة خالدون فيها، وأنَّهم استحقّوا هذا لأجل إحسانهم[1].

نُكْتَةُ اختيارِ لفظِ الأصحاب وجمعِه:

المحسنون ملازمون للجنَّة، مُتَمَكِّنون مِن كلِّ ما فيها مِن نعيم

اختار البيانُ القرآنيُّ لفظَ الأصحاب في قوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾، دونَ غيره مِنَ الألفاظ المرادفةِ له؛ لما لهذا اللَّفظ مِن دلالات تميِّزُه من غيره؛ إذِ الصُّحبةُ تدلُّ على الملازمة، فهم ملازموها وملابسوها، بحيث لا يفارقونها، فسُكْناهم فيها ومقامهم فيها، وفي الصُّحبة معنى الوَصْلَة، فَسُمُّوا أصحابها لاتصالهم بها، ولكونهم فيها، ولِدَوام بقائِهم فيها، كأنَّهم مَلَكوها فصاروا أصحابَها، وفي وَصْفهم بأنَّهم أصحابُها إشارةٌ إلى التَّمكين لهم مِن كلِّ ما فيها مِن نعيم، بوَصْفهم أصحابُها المالكون لها، يَتصرَّفون فيها تَصَرُّف المالكِ فيما ملك، مِن غير مراجعة أو حساب، كما يقول ﷻ لهم: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٤٣﴾ [الأعراف: 43]، كما أنَّ لفظ (أصحاب) جاء بصيغة الجمع (جمع تكسير)؛ لموافقة ألفاظ الآية التي أتت بصيغة الجمع (أحسنوا، وجوههم، أولئك، هم، خالدون)، وللإشارة إلى أنَّ جميع المحسنين هم أصحاب الجنَّة، وكذلك للإشارة إلى وُجودِهم الجماعيِّ فيها، الذي يبعث على

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

المزيد مِنَ السُّرور، فمِنْ أحدِ أسباب السَّعادة للإنسان: وجودُ مَن يشاركُه سعادَتَهُ، ويَأْنسُ به.

فهذا الوصفُ وهذا الاختصاصُ وهذا الجمع (أصحاب الجنة)، هو فضلٌ مِنَ اللّه وإحسانٌ وتكريمٌ، ومزيدُ تشريفٍ، وسعادةٍ لهم[1].

نُكْتَةُ إضافة الأصحاب إلى الجَّنة:

أصحابُ الجنَّةِ هُم مَنِ استَحَقّوها واستَحَقّوا التَّصَرُّفَ فيها

أضاف القرآنُ لفظَ (الأصحاب) إلى الجنَّة في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ على جهَة المدح والتَّعظيم والتَّشريف لهم، وإشارةً إلى أنَّهم مُسْتَحِقّوها وأصحابُها حقًّا وباستيجابٍ، وإلى تمكُّنِهم وإقامتِهم فيها إقامَةَ المالكِ المُتَصَرِّف بمِلْكِه[2].

سِرُّ تعريف الجنَّة بأل:

الجنَّةُ معهودةٌ معروفةٌ للمُحسنين، فهُم أصحابُها

أتى لفظُ الجنَّة في قوله: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ معرفًا بـ (أل) العَهديَّة التي تدلُّ على أنَّ الجنَّة معهودةٌ ومعروفةٌ لَدَى المحسنين، فهي دارُ الجزاء والنَّعيم، وهي جنَّة الخُلد، والعهدُ فيها إمّا ذِهْنِيٌّ، وإمّا ذِكْرِيٌّ يعود إلى لفظ الحُسنى في الآية: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أو ﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ في الآية قبلَها، وهذا يناسب لفظَ (أصحاب)، إذ كيف لا تكون معروفةً لديهم وهم أصحابها؟ فهل هناك صاحب دارٍ لا يَعْرِفُ دارَه؟!.

فائدة الضَّمير ﴿هُمۡ﴾:

تخصيصُ الخلودِ في الجنَّة بالمحسنين تكريمٌ وتشريفٌ لهم

أتى البيانُ القرآنيُّ بضمير الفَصْل ﴿هُمۡ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادة التَّأكيد والحَصْر والتَّخصيص، أي: لبيان قَصْر الخلودِ فيها عليهم، واختصاصِهم وَحْدَهم بهذا المقام الكريم دونَ غيرهم، فالذين أحسنوا هم الخالدون في الجنَّة لا غيرُهم، وفي هذا تكريمٌ لهم بما خَصَّهم به

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3696، وعبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 8/10.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/116.

ربُّهم مِنَ الخُلود في جَنَّته، وفي الآية ما يُفيد المبالغةَ في تشريفهم أيَّ مبالغةٍ، إذ أشار إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: العالو الرُّتبة، وأنَّهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أي: سكانُها، ولمّا كانتِ الصُّحبة جديرةً بالملازمة، صَرَّحَ بها في قوله: ﴿هُمۡ﴾، أي: هم الخالدون لا غيرُهم[1]، وأيضًا: تقديمُ ﴿فِيهَا﴾ أي: في الجنَّة لا يَدْخلون غَيْـرَها.

بلاغةُ تقديمِ الجار والمجرور﴿فِيهَا﴾: على متعلقه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾:

خلودُ المحسنين هو في الجنَّةِ لا يخرجون منها

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على متعلقه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادة القَصْر والاخْتِصاص، أي: إفادَةِ اختصاص خلودِهم في الجنَّة لا في غيرِها، وللتَّنبيه على الاهتِمام بـ﴿فِيهَا﴾، أي: في الجنَّة، وأنَّ خلودَهم كائنٌ في الجنَّة، لا يُخرجون منها، ولا ينقطع نعيمها؛ إذ لا نَعيمَ بالخُلود لأهل الجنَّة إلّا في الجنَّة.

وجهُ التَّعبيرِ عنِ الخُلود باسم الفاعل مجموعًا:

الخُلودُ الدّائمُ والثّابتُ لأهل الجنَّة مِن كمالِ سعادتهم

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ بصيغة اسم الفاعل المفيد للثُّبوت والدَّوام؛ للإيذان بأنَّ خُلودَ الذين أحسنوا في الجنَّة ثابتٌ دائمٌ، ومُلازمٌ لهم، وفي تأكيد خلودهم في الجنَّة مزيدٌ مِنَ السَّعادة لهم، إذ لا خَوفَ لَدَيهم مِن زوال هذا النَّعيم الذي هم فيه، فالجنَّة دائمةٌ آمِنةٌ مِنَ الانقطاع لا تبيدُ فيخافوا زوالَ نعيمِهم، ولا هم بمخرجِينَ منها، فتُنَغَّصَ عليهم لَذّاتُهم[2]، لأنَّ "النَّعيم لا يَتمُّ إلّا بالدَّوام بالأمن مِنَ المضارّ"[3].

وافق نظمَ الآية، وراعى فاصلتها

وعبَّر باسم الفاعل: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ بصيغة الجمع؛ لموافقة نَظْم الآية، إذ جاءتْ مفرداتُها بصيغة الجمع: ﴿لِّلَّذِينَ﴾، ﴿أَحۡسَنُواْ﴾،

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/105.
(2) المراغيُّ، تفسير المَراغيِّ: 11/95.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/105.

﴿وُجُوهَهُمْ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ﴿هُمْ﴾، ﴿أَصْحَٰبُ﴾، فاجتماعُهم مبعثُ هناءِ العيش وأُنسِه، وفي التَّعبير بصيغة اسم الفاعل والجمع أيضًا مراعاةٌ للفاصلة القرآنيَّة الغالبةِ في آيات السّورة.

بلاغة الفَصْل في جملة الفاصلة:

المحسنون استحقّوا الخلودَ في الجنَّة لأجلِ إحسانهم

فَصَل البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ولم توصَل بما قبلَها بحرف عطف؛ لأنَّها جاءت نتيجةً للمُقدِّمَة، فبينها وبين التي قبلَها كمالُ الاتِّصال، ولذلك فُصِلَت عنها ولم تُعطَف، واسمُ الإشارة يَرْجِع إلى (الذين أحسنوا)، وفيه تنبيهٌ على أنَّهم استحَقّوا الخلودَ لأجل إحسانهم[1]، وهذا التَّذييلُ قُصِدَ به تأكيدُ مَدْحِهم ومَسَرَّتِهم[2].

بلاغةُ حَشْدِ المؤكِّدات في جملة الفاصلة:

تأكيدُ استحقاقِهم للجنَّة وخلودِهم فيها، يعطيهم مزيدًا مِنَ السَّعادة فوقَ سعادتِهم

أكَّد ﷻ قولَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بعِدَّة مُؤكِّدات؛ أوَّلُها: الجملة الاسميَّة؛ لأنَّها تدلُّ على الثَّبات والاستمرار، وقوَّة الحُكم وبقائه. وثانيها: تأكيدُ الملازمة بينَهم وبينَ الجنَّة، مِن خلال التَّعبير بلفظ ﴿أَصْحَٰبُ﴾ الذي يدلُّ على أنَّهم ملازمون لها. وثالثها: ضمير الفَصْل ﴿هُمْ﴾ الذي يدلُّ على القَصْر، ويُؤكِّد أنَّهم هم الخالدون فيها دونَ غيرهم. ورابعها: تقديمُ الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على متعلقه ﴿خَٰلِدُونَ﴾ الذي أفاد القَصْرَ، وأكَّد أنَّهم خالدون فيها لا في غيرها. وخامسُها: التَّعبير باسم الفاعل ﴿خَٰلِدُونَ﴾ الذي أكَّد دوامَ خلودِهم فيها، وثباته.

وكلُّ هذه المؤكِّدات مجتمعةً أفادتِ المبالغةَ في تأكيد استحقاقِهم للجنَّة، وأنَّهم خالدون فيها لا يُفارقونها، وأنَّ نعيمَها ثابتٌ دائمٌ لا ينقضي ولا يَنضُب، وفي هذا مَزيدٌ مِنَ السَّعادة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(2) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 7/59.

والطُّمأنينة لأصحاب الجنَّة، علاوة على نعيمهم فيها فضلًا منه وإحسانًا سبحانَه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّهَق، والقَتَر، والتَّعَب، والنَّصَب، واللُّغوب:

التَّـعَبُ نتيجةٌ حتميَّةٌ للرَّهَق والنَّصَب واللُّغوب

تتداخل معاني هذه الألفاظ في اللُّغة، وتتقارب في دلالتها، وجميعُها فيها معنى المشقَّةِ والكُلْفَة والإعياء؛ كما أنَّ بعضَ هذه الألفاظ قد فُسِّرت ببعضها الآخر:

و(الرَّهَق) في اللُّغة: غَشَيانُ الشَّيءِ الشَّيءَ، وهو غَشَيان بقَهْر، وذلك بأَن تحمِلَ الإنسانَ على ما لا يطيقه[1].

و(القَتَر): لونُ غَبَرةٍ فيها سوادٌ، يغشى جِلْدَةَ الوَجه من شِدَّة البُؤْس والشَّقاء والخَوف، وهو من آثار تهيُّجِ الكَبِد مِن ارتجاف الفؤادِ خوفًا وتوقُّعًا[2].

و(التَّعَب): الإعياءُ وشِدَّة العناء، وفيه مَشَقَّة وجَهْدٌ، يُقال: أَتْعَبَ فلانٌ نفسَه في عمل يمارِسُه، إذا أنصبَها فيما حَمَّلَها وأَعْمَلَها فيه[3].

و(النَّصَبُ) في اللُّغة: العناءُ، مأخوذ مِنَ الانتِصاب، وكأنَّ الإنسان لا يزالُ منتصِبًا حتَّى يصيبَهُ الإعياءُ، والنُّصْبُ: البلاء والشَّرُّ والتَّعب، وقيل: النّصبُ: التَّعب في البَدَن[4].

و(اللُّغوب): يدلُّ على ضَعْفٍ وتَعَب، واللُّغوب: التَّعَبُ والإعياء والنّصبُ[5].

الخلاصة: أنَّ هناك فروقًا دلاليَّةً دقيقة بين هذه الألفاظ، بيانُها في الآتي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (رهق)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/101.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (تعب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نصب)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 5/61.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (لغب)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/434.

الفَرْقُ بينَ الرَّهَق والتَّعَب: الرَّهَق لا يكون بإرادة الشَّخْص المُرْهَق، ولا بدَّ مِن جهة خارجة عنه، إذ هو حَملُ الإنسانِ على ما لا يُطيق، وهو غَشَيانٌ بقَهْر، كما أنَّ الرَّهَق يُسبِّب التَّعَب، أي: يحصُل التَّعبُ نتيجةَ الرَّهَقِ.

في حين أنَّ التَّعَب أعمُّ مِنَ الرَّهَق؛ إذ قد يكون بإرادة الشَّخص، فيُحَمِّل نفسَه ما لا يُطِيق، فيَحصُل التَّعَب، كما أنَّه قد يكون بأسباب أُخرى غيرِ تَحَمُّل ما لا يُطيق، إذ قد يكون بسبب مرض أو مَشَقَّةٍ أو جَهْدٍ متواصلٍ، أو أيِّ شيءٍ يُسَبِّب التَّعَب.

والفَرْقُ بينَ النَّصَب واللُّغوب: أنَّ النَّصَب: التَّعَب والإعياء والمشقَّة التي تُصيب المنتصِبَ المزاولَ له، وأمّا اللُّغوب: فهو ما يَلْحَقُه مِنَ الفُتور بسبب النّصب، فالنّصبُ نفسُ المشقَّة والكُلْفَة، واللُّغوب نتيجتُه، وما يحدث منه مِنَ الكَلال والفَتْرة[1]، وقيل: النّصبُ تعبُ البَدَن، فهو تَعَبٌ جسمانيٌّ، واللُّغوب تعبُ النَّفْس، فهو تَعبٌ نفسانيٌّ[2].

ولـمّا كان الرَّهَقُ غشَيانًا بقَهْر، وأنَّ القَتَر لونُ غَبَرةٍ فيها سوادٌ يَغْشَى جِلْدَ الوَجهِ؛ جمع بينَ اللَّفظين لخصوص دلالتهما ومناسبتهما وصفًا للوجه؛ فَحالُ وجوهِهم مَنفِيٌّ عنها غَشَيان غَبَرةٍ وسوادٍ، تُظهِر سوءَ عاقبتهم.

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/614.
(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (لغب).

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ [يونس: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لـمّا بيَّن حالَ الفضلِ فيمَن أحسن، بيَّن حالَ العدلِ فيمَن أساء

لـمّا أخبر تعالى عن حال السُّعداء في قوله: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ واستجابتهم لدعوة اللّه وما أعدَّ اللّه لهم مِنَ الحُسنى وزيادة، عَطَفَ بذِكْرِ حالِ الأشقياء الذين أقدموا على السَّيِّئات، ولم يستجيبوا لدعوة اللّه[1]، وشأنُه تعالى معَ الفريق الأوَّل الفضلُ والإحسان، ومعَ الفريق الثّاني المعاملةُ بالعَدْل، وهذه الموازنة شأنٌ غالبٌ في الأسلوب القرآنيِّ[2]، فمَجِيء المقابل للشَّيء يرسّخه في الذِّهن[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿عَاصِمٖۖ﴾: أَصْلُ العَصْم يَدُلُّ على إمساكٍ ومَنْعٍ ومُلازمَةٍ، ومِن ذلكَ العِصْمَةُ: وهي أَنْ يَعْصِمَ اللّه تعالى عَبْدَهُ مِنْ سوءٍ يَقَعُ فيه، واعْتَصَمَ العَبْدُ باللّه تعالى، إذا امتَنَعَ[4]، وأَعْصَمتُ فلانًا: هيَّأتُ له ما يَعتَصِم به[5]، واسْتَعْصَمَ: التَجأَ واسْتَمسَكَ، قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: 43]، أي: لا شيء يَعْصِمُ منه، ومن قال معناه: لا مَعْصومَ، فليس يعني أنَّ العاصِمَ بمعنى المَعْصوم، وإنَّما ذلك تنبيهٌ منه على المعنى المقصود بذلك؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/242.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/234، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 11/155.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5876.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عصم).
(5) الخليل، العين: (عصم).

وذلك أنَّ العاصِمَ والمَعْصومَ يتلازمان، فأيُّهما حَصَلَ، حَصَلَ معه الآخَرُ[1]، والاعْتِصامُ: الإمساكُ بالشَّيءِ افتِعال منه، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: 103][2]، والعاصِمُ: المانِعُ، والحافِظُ، وهو المراد في الآية.

2) ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾: أصلُ (غشي) يَدُلُّ على تَغْطِيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ أُغَشِّيه[3]، ويُقال: غُشِيَ عليهِ فهو مَغْشِيٌّ عليه، وهي الغَشْيَة[4]، والغِشاوَة: ما غَشِيَ القَلْبَ مِن رَيْنِ الطَّبْعِ[5]، وتَغَشَّى ثيابه واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى ولا يَسْمع: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7][6]، والغِشْيانُ - بالكَسْرِ - الإتيانُ، يُقالُ: غَشِيَهُ إذا أَتاهُ، ثُمَّ كُنِّيَ به عَنِ الجماعِ كما بالإتْيانِ، ومَنْ فَسَّرَهُ بالتَّغْطِيَةِ فَقد سَهَا[7]، وقولُه: ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾: مُعَدَّى غَشِيَ إذا أَحاطَ وغطّا، وهو المرادُ في الآيَة.

3) ﴿قِطَعٗا﴾: أَصْلُ القَطْعِ: فَصْلُ وإبانَةُ الشَّيءِ عَن شَيءٍ آخَرَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا وَقَطِيْعَةً، أَي: فَصَلْتُهُ، وضِدُّهُ الوَصْلُ[8]، والقَطْعُ: البَتْرُ، تقولُ: قَطَعْتُ العُضْوَ إذا بَتَرْتَهُ، وتَقاطَعَ الشَّيءُ: بانَ بعضُه مِنْ بعضٍ[9]، والتَّقاطُعُ: التَّهاجُرُ، والقِطَعُ - بِفَتْحِ الطّاءِ - جَمعُ قِطْعَةٍ، وهِي الجُزْءُ مِنَ الشَّيءِ؛ سُمِّيَ قِطْعَةً؛ لأَنَّهُ يُقتطَعُ مِنْ كُلٍّ غالبًا، فهي فِعْلَةٌ بمعْنى مفعولة نُقِلَتْ إلى الاسميَّةِ، والقِطْعُ - بِسُكونِ الطّاءِ - هو اسمٌ للجُزءِ مِن زَمَنِ اللَّيْلِ المُظْلِم[10].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ الحقُّ تعالى: والَّذين عَمِلوا السَّيِّئات كالكُفر والشِّرك، وما يتبعُهما مِنَ المعاصي، فلهُم جزاءٌ يسوءُهم بحسبِ ما عملوا مِنَ السَّيئاتِ، لا يزاد عليها، فلا تُضاعَف سيئاتُهم؛ عدلًا منه سبحانه، ويغشاهم هَوانٌ وذُلٌّ وخِزيٌ عند حَشْرِهم إلى النّار، ليس لهم مِنَ اللّه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (عصم).
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عصم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غشي).
(4) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (غشو).
(5) الخليل، العين: (غشو).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (غشو).
(7) المطرزيُّ، المُغْرب: (غشي).
(8) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قطع).
(9) ابن سيده، المحكم: (قطع).
(10) الفرّاء، معاني القرآن: 1/461، وأبو عُبَيْدَة، مجاز القرآن: 1/278، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/149.

جزاءُ العاصين البُعْد والهَوانُ، وتسْويدُ الوجوهِ والأبدان

مِن مانعٍ يمنَعُ عنهم سَخَطَه وعذابَه، ويُحشرون مُسْوَدَّة وجوهُهم، كأنَّما أُلبِسَت وجوهُهم - من شِدَّةِ سَوادِها - قِطَعًا كثيرةً مِنَ اللَّيل المُظْلم، أو قِطَعًا مُظلمًا مِنَ اللَّيل، أولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

حكمُ اللهِ في حَقِّ المحسنين الفَضلُ، وفي حَقِّ المسيئين العَدْلُ

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على جملة ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾، والمعنى: للذين أحسنوا الحُسنى، وللذين كسبوا السَّيِّئاتِ جزاءُ سيئةٍ بمثلها[2].

ويُشير هذا العطفُ إلى أنَّ الجُملتين وإن اجتمعتا في المعنى العامّ، وهو الجزاء على العمل، إلّا أنَّهما افترقتا بما يدلُّ على أنَّ اللّه يوصِل إلى المشتغلين في أعمال البِرِّ الثَّوابَ مع الزِّيادةِ، وأمّا في عمل السَّيِّئات فلا يجُازي إلّا بالمِثْلِ، أي: حكمُ اللّه في حَقِّ المحسنين ليس إلّا بالفَضْلِ، وفي حَقِّ المسيئين ليس إلّا بالعدل[3].

وجهُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

كَسْبُ المشركين السَّيِّئاتِ هو وَجْهُ استحقاقِهم لعقابِ اللهِ وسَخَطِه

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لم يقلْ سبحانه (والمسيئون)، أيْ: لم يُعرِّف المُسنَد إليه بالاسم الظّاهر، وإنَّما عَرَّفه بالاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقِهم لحُكم هذا الجزاءِ من عقوبة السَّيِّئة بمثلها، والذِّلَّة، والهَوانِ، وسَوادِ الوجوه، والخُلودِ في النّار، وهو اكتسابُهم للسَّيِّئات وارتكابُهم المعاصي، حتَّى صارت دُرْبةً عندَهم، وسَهُلَ الاعتيادُ عليها، فتحوَّلَتْ مِن اكتسابٍ إلى كَسْب.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/156، 164، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/466.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/242، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/242.

وفي إيراد الاسم الموصول جمعًا ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتمعَ على فِعْلِ السَّيئات، واتَّفقوا على ذلك، وزَيَّن بعضُهم لبعضٍ فِعْلَ المعاصيَ، والاستمرارَ عليها، والتَّمادِيَ فيها.

تعيينُ المراد بالموصول:

الـذيـن كَـسَـبـوا الـسَّـيِّـئـات هُـمُ الـمـشـركـون الـمـذكـورونَ في سياق الآيات

لا خِلافَ بينَ المفسِّرين أنَّ الاسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مِن ألفاظ العموم، ويرى القاضي عبدُ الجبّار - بناءً على ذلك - أنَّ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يتناولُ الكافرَ والفاسقَ.

ولكنَّ جمهور المفسِّرين على أنَّه عامٌّ أُريدَ به خصوصُ المشركين؛ لقوله تعالى بعدَه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، فإنَّ الخُلودَ في النّار لا يقع إلّا للكافرين[1]، ولأنَّ سوادَ الوجهِ مِن علامات الكُفر، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عمران: 106]، وقوله: ﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ۝٤٢﴾ [عبس: 40 - 42]، ولأنَّه تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ [يونس: 28]، والضَّمير في قوله: (هم) عائدٌ إلى هؤلاء، وقد وَصَفَهم تعالى بالشِّرك[2].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿كَسَبُواْ﴾:

لفرطِ ارتكابِهم السَّيئاتِ أُشربت بها قلوبُهم، وأَحَـلَّـتْـهـا نـفـوسُـهـم، فأصبحت كَسْبًا لهم

في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عبَّر البيانُ الإلهيُّ بـ ﴿كَسَبُواْ﴾ دون (اكتسبوا)، مع أنَّ الكَسْبَ يكون في الأمر الفطريِّ، ويناسب الطّاعات؛ فلا أحدَ يستحي أن يُصَلِّيَ، أو يتصدَّقَ، أو يصومَ، أمّا ارتكابُ الشَّيءِ المخالفِ ففيه افتِعالٌ، ويحتاج إلى اكتساب، ومُرتَكِبُه يمرُّ بتفاعلات نفسيَّةٍ متضاربةٍ، مِنَ الخوف والقلَق، فالتَّعبير بالفعل ﴿كَسَبُواْ﴾ هنا دَلَّ على أنَّ هذه الذُّنوبَ أُشْرِبَتْ بها نفوسُهم وكَسِبَتْها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/243.

قلوبُهم، حتَّى صارت وكأنَّها كالجبِلَّة لهم، إنْ لم تكنْ كالفِطرة منهم[1]، إذن: فالتَّعبير بـ ﴿كَسَبُواْ﴾ يدلُّ على أنَّ هؤلاء الكافرين استمرّوا في ارتكاب المعاصي حتَّى صارت دُرْبَة، وأَحَلَّتها نفوسُهم، وانجذبت إليها، وسَعَتْ في تحصيلها، بل وافتخرت بها، ودَعت إليها، وهذا يُرَجِّحُ كونَ المرادِ بالموصول ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ﴾ خصوصَ المشركين.

وعبَّر بمادَّة الكَسْب دونَ الإساءة، فقال: ﴿كَسَبُواْ﴾، ولم يقل: (أساؤوا) كما عبَّر في جانب الذين أحسنوا؛ للإشارة إلى أنَّ إساءَتهم مِن فعلهم ومِن سعيهم، وبسبب جنايتِهم على أنفسهم، فما ظَلَمَهمُ اللّه، ولكن أنفسَهُم يَظْلِمون[2]، وبالمقابل فإنَّ إحسانَ المحسنين هو بتوفيق مِنَ اللّه الذي يهدي مَن يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

التَّعبير عنِ الكَسْب بالفعل الماضي: ﴿كَسَبُواْ﴾:

مِن سُنَّة الله أنْ لا يُعاقبَ المسيءَ إلّا بعدَ تحقُّقِ كَسْبِه للسَّيِّئات

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن كَسْب الكافرين للسَّيِّئات بصيغة الماضي ﴿كَسَبُواْ﴾؛ للدّلالة على تَحقُّق وُقوعِ كَسْب السَّيِّئات منهم؛ لأنَّ الأصل في الماضي أنَّه يدلُّ على حَدَثٍ وقعَ وانقطعَ، ومَضَى وانقضى، وفي هذا إشارةٌ إلى سَبْقِ عِلْم اللّه فيهم، بأنَّهم الفريقُ الذي لم يستجب لدعوته سبحانَه إلى دار السَّلام، ولم يكونوا مِنَ الذين اختصَّهم بالهداية، وفيه إيذانٌ بأنَّ اللّه لن يعاقبَهم إلّا بعدَ تَحقُّق كَسْبِهم للسَّيِّئات، وانقضاءِ الحَدَثِ ومُضيِّه دونَ أن يتوبوا.

عِلَّة مَجيء صِلَةِ المؤمنين ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، وصِلَةِ الكافرين ﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

الإحسانُ يوافِقُ الفِطْرَةَ، واكتِسابُ السَّيِّئاتِ انحرافٌ عنها

جاءتْ صِلَةُ المؤمنين ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾، وصِلَةُ الكافرين: ﴿كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، تنبيهًا على أنَّ المؤمن لمّا خُلِقَ على الفِطرة وَصَلَها بالإحسان، وعلى أنَّ الكافر لمّا خُلِق على الفِطرة انتقل عنها وكَسَب السَّيِّئات، فجَعَلَ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3555.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.

ذلك مُحسِنًا، وهذا كاسِبًا للسَّيِّئات، لِيَدلَّ على أنَّ المؤمن سَلَكَ ما ينبغي، وهذا سَلَكَ ما لا ينبغي[1].

نُكْتَةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

جـزاءُ أيِّ سَيئةٍ مِـنَ الـسَّيِّئاتِ بمثلها

(أل) التَّعريفُ في كلمة ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ، ومعلومٌ أنَّ الجمعَ المُعَرَّف بـ (أل) الجنسيَّةِ الاستغراقيَّةِ يُفيد العمومَ، والمعنى: والذينَ كَسَبوا جميعَ أنواعِ السَّيِّئات المحيطةِ بهم مِنَ الكُفْر والشِّرْكِ والمعاصي جَزاءُ أيِّ سيِّئَةٍ بمثلها[2].

دلالة جمع ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وإفرادِها:

حِلمُ الله تعالى عـنـدَ كَـسْـبِ الـسَّـيِّـئـات، وعَدْلُه في مُجازاةِ كُلِّ سيِّئةٍ بمثلها

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بصيغة الجَمع؛ للدّلالة على كَثْرة كَسْبهم للسَّيِّئات، فلم تكن سَيِّئةً واحدةً، بل إنَّهم كَسَبوا سيِّئاتٍ كَثيرةً ومُتَنَوِّعةً، وفيه إشارةٌ إلى حِلم اللَّه تعالى عليهم وإمهاله لهم، أمّا في قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ فقد جاء لفظ ﴿سَيِّئَةِۭ﴾ بصيغة المفرد؛ للدّلالة على عَدْله سبحانَه، إذ إنَّه عند محاسبتهم على سيِّئاتهم أتى بها سيِّئَةً سيِّئَةً، وجازاهم على كُلِّ سيِّئَةٍ بمثلها، ولم يكن جزاؤه جُزافًا على مجموع سيِّئاتِهم.

وجهُ التَّعبير عنِ الجزاء بالمصدر: ﴿جَزَآءُ﴾:

دلالـةُ المـصـدر مبالغةٌ وتأكيدٌ على عَدْله ﷻ

جاء لفظُ ﴿جَزَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ مصدرًا للفعل المبني للمفعول (تُجازَى) لا اسمًا للعِوض، أي: جزاءُ الذين كَسَبوا السَّيِّئاتِ أنْ تُجازَى سيِّئَةٌ واحدةٌ بسيِّئةٍ واحدةٍ مثلِها، على معنى عدمِ الزِّيادة بمقتضى العَدْل[3]، فالتَّعبيرُ بالمصدر أفاد التَّأكيدَ والمبالغةَ في عَدْلِ اللّه سبحانَه، بأنْ جَعَل جزاءَ كلِّ سيِّئَةٍ بمثلها، لا أَكْثَرَ ولا زيادةً عليها.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/44.

(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 3/116.

(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/98.

من كمالِ عَدْلِهِ سبحانَه أنَّه جَعلَ جزاءَ أيِّ سيِّئةٍ بمثلها

سِرُّ تنكيرِ السَّيِّئةِ في: ﴿سَيِّئَةٍ﴾:

نكَّر البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿سَيِّئَةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍ﴾؛ لإفادة العموم، أي: جزاءُ كلِّ سيِّئة، أو أي سيِّئةٍ بمثلها، وهو وإنْ كان في سياق الإثبات، فالعموم مُستفاد مِنَ المقام، وهو مقام عموم المبتدأ[1].

السيئاتُ عنده بالمثل، والحسناتُ ضوعفت بالفضل

معنى الباء في﴿بِمِثۡلِهَا﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِمِثۡلِهَا﴾ تحتمل معنيَيْن؛ الأوَّل: التَّأكيد؛ أي الباء زائدة، وتقديره: وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلها، كما في آية أخرى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40][2]. الثّاني: ليست زائدة، وهذا قول الجمهور، ويتعلَّق الجارُّ والمجرور ﴿بِمِثۡلِهَا﴾ باستقرار محذوفٍ هو الخبر، وهي للإلصاق، والمعنى: جزاءُ سيِّئة مستَقِرٌّ بمثلها[3]، أي: التصق التَّقدير بالمثليَّة، وتُفيد كذلك معنى المقابلة، فإذا كان المحسنون يُجازَون بالحُسنى وزيادة، فَحَسْبُ المشرِكين أن تُجازَى السَّيِّئة بمثلها، كما يقول تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: 160][4].

إيثار لفظ (مثل): ﴿بِمِثۡلِهَا﴾:

مقابلةُ السَّيِّئة بمثلها مِن تمام عَدْلِهِ سبحانَه

في قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ آثرَ البيانُ الإلهيُّ اختيارَ كلمةِ ﴿بِمِثۡلِهَا﴾، أي: بمثل السَّيِّئة، دونَ غيرِها، كـ (نفسها)، و(شبهها) للإشارة إلى: المقابلة؛ إذ في هذا التَّعبير ﴿بِمِثۡلِهَا﴾ مقابلةٌ للشَّيء بما يماثله، ووجهُهُ: مقابلةُ المفردِ بالمفرد[5]، وفي هذا زيادةُ إيضاحٍ، وإضفاءُ رونقٍ، وتقويةُ علاقةٍ بينَ الألفاظ والمعاني.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/116، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 11/151.
(3) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل: 2/18، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/45.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3555.
(5) المؤيَّد بالله، الطِّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 2/202.

وللإشارة إلى المشاكَلة اللَّفظيَّة؛ فالجزاءُ ليس سيِّئةً، إنَّما هو العدالةُ التي ليست سيِّئةً في ذاتها، كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194][1].

توجيهُ إعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

بينَ عطفِ المفردِ علـى المـفـرد، وعطفِ الجملةِ على مثلها، ثراءٌ في المعنى

اختُلِف في توجيه إعراب جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بما يلتئم بما قَبلَها ويزيد المعنى ثراءً، على قولين؛ أحدهما: أنَّه مِن عطفِ المفرد على المفرد، ووجهُهُ: أنَّ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ﴾ مجرور؛ وهو خبرٌ لقوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ﴾، كما أنَّ المعطوف عليه، وهو ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ كذلك، نحو قولك: (في الدّار زيدٌ والحُجْرةِ عمرٌو)، أي: في الدّار زيدٌ وفي الحُجْرة عمرٌو. وثانيهما: أنَّه مِن عطف الجملة على مثلها، فلا يَلْزم العطفُ على عامِلَين مختلفَين، لكن لا بُدّ مِن تقدير محذوف، فيُقَدَّرُ مُضاف في جانب المبتدأ، أي: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ وجزاءُ الَّذينَ كسبوا السَّيِّئات جزاءُ سيِّئةٍ بمثلها)، أو مُضافٌ في جانب الخبر، أي: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادةٌ وللذين كسبوا السَّيِّئاتِ جزاءُ سيِّئةٍ بمثلها)[2].

العدول عنِ التَّعبير بالسّوءى:

جـزاءُ المحسنين الفضلُ، وجَـزاءُ المسيئين العَدْلُ

غيَّرَ البيانُ الإلهيُّ السَّبْكَ، فلم يَقُل: (وللذين كسبوا السَّيِّئاتِ السّوءى)؛ كما قال في الآية السّابقة: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وإنَّما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾؛ لمراعاة ما بينَ الفريقينِ مِن كمال التَّنائي والتَّبايُن[3]، ولبيان أنَّ حُكمَ اللّه في حساب الكافرين العدلُ، وهو جزاءُ السَّيِّئة بمثلها لا بزيادة عنها؛ إذِ السّوءى هو اسم تفضيل مِنَ السَّيِّئة، بخلاف حُكْم اللّه في

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3555.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/470، والقونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/442.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/138.

المحسنين، وهو الزِّيادَة والفَضْل، ولذلك عبَّر بالحُسنى، وهو اسمُ تفضيلٍ مِنَ الحَسَنَة.

وجهُ المقابلة بينَ ذِكْر عمّالِ الحسناتِ، وعمّالِ السَّيِّئات:

مقابلةُ جَزاءِ المحسنين بجزاء المسيئين تُظْهِرُ فَضلَ اللهِ وعَدْلَه

تتضمَّن الآيتان اقترانًا بينَ ذِكْر عُمّال الحسنات وعُمّال السَّيِّئات؛ فقد وَصَفَ المحسنين بأنَّ لهم حُسنى وزيادةً مِن جنسها (على قول مَن فَسَّر الحُسنى بالحَسَنة)، ووَصَفَ المسيئين بأنَّ لهم مثلَ السَّيِّئة، فتعادَلَ الكلامان. وهذه المقابلةُ تُرجِّحُ أنَّ المقصود مِنَ الحُسنى هي الحسنة، ومِنَ الزِّيادة تضعيفُ الحسنات، لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 261][1]، وفي هذه المقابلة زيادةُ إيضاحٍ للفَرْقِ بين عُمّال الحسنات وعمّال السَّيئات، وإضفاءُ رونقٍ على الكلام، وتقويةُ العلاقةِ بينَ الألفاظ والمعاني.

معنى الواو في: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾:

الواو بينَ مبالغةِ العطفِ وتصويرِ الحال

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ﴾ وجهين[2]: أحدهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوف عليه إمّا ﴿كَسَبُواْ﴾، وقولُه: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ جملةٌ اعتراضيَّةٌ، بيَّنت قدرَ جزائِهم، والمعنى: (والذين كسبوا السَّيِّئات والذين ترهقهم ذِلَّة)، وفي هذا العطف ما لا يخفى مِنَ المبالغة؛ إذ أخرج نسبةَ الرَّهَقِ إليهم يوم القيامة مخرجَ المعلوم، حيثُ جُعِلَ ذلك بوساطة صلةِ الموصول، أو أنَّه عُطِف على ما قبلَه بحسب المعنى، كأنَّه قيل: والذين كسبوا السَّيِّئات تُجازَى سيِّئَتُهم بمثلها وتَرْهَقُهم ذِلَّة[3].

والآخر: أن تكون الواو حاليَّةً، والجملة في موضع الحال مِن ضمير ﴿كَسَبُواْ﴾، والمعنى: والذين كسبوا السَّيِّئاتِ حالَ كونِهم تَرْهَقُهم ذِلَّةٌ.

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/116.
(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/99.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/242.

وجه التَّعبير عنِ الرَّهَق بالمضارع:

تصويرُ حالِ الكافرين في تجدُّد الهوان المحيط بهم، مَشهَدٌ يُنفِّر النَّفسَ

عبَّر القرآنُ الكريمُ عنِ الرَّهَق في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على استمرار الغشَيان، وتَجَدُّد الهَوان القاهرِ المحيطِ بالكافرين، ودَلَّ أيضًا على تصوير هذا المشهد بما يُؤلِمُ النَّفس ويُنفِّرُها مِن أسبابه.

عِلَّة الاكتفاءِ بالذِّلَّة: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾:

غَشَيانُ وجوه الكافرين بقِطَعٍ مِنَ اللَّيل، أَشدُّ مِن أنْ يَرْهَقَها قَتَرٌ

اقتصر البيانُ الإلهيُّ على الذِّلَّة لهم في قوله: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾، واكتفى بها دون زيادة (ويَرْهَقُهم قَتَر) كما نفاهما عنِ الذين أحسنوا في الآية قبلَها؛ لأنَّه أتى بما هو أشدُّ منه، وهو قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾[1].

دلالة تنوين: ﴿ذِلَّةٞۖ﴾:

أيُّ ذلةٍ وأيُّ هوانٍ يَرهَقُ الكافرين يوم القيامة

نَكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿ذِلَّةٞۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾؛ لإفادة معنى التَّفخيم والتَّرهيب والتَّخويف، أيْ: هوانٌ عظيمٌ، "كما يُنبئُ عنه التَّنوينُ التَّفخيميُّ"[2].

وجهُ إسنادِ الرَّهَقِ إلى أنفسهم:

الذِّلُّ والهَوانُ محيطٌ بالكافرين مِن كلِّ جانبٍ يومَ القيامة

في إسناد الرَّهَق إلى أنفسهم في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾، والعدولِ عن رَهَق الوُجوه، إيذانٌ بأنَّ الذِّلَّة محيطةٌ بهم مِن كلِّ جانب، غاشيةٌ لهم جميعاً[3]، وهذا أَدْعَى إلى التَّنفير مِن حالهم، وما وصلوا إليه مِنَ الذُّلِّ والهَوان.

بلاغةُ نفي العاصمِ بزيادة ﴿مِنۡ﴾:

المبالغةُ في نفي عصمةِ الكافرين مِن سَخَط الله تهديدٌ وتأييسٌ

﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ نافيةٌ لا عملَ لها، نفت عصمةَ الكافرين من سَخَط اللّه وعذابِه، وأمّا ﴿مِنۡ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/60.

فهي صِلَة، أي: حرف جرٍّ زائدٍ، جِيءَ به في الآيةِ لغرضين؛ الأوَّل: التَّنصيصُ على استغراقِ عمومِ النَّفي[1]؛ إذ لو قلتَ قبل زيادتها: ما جاءني رجل، احتمَل أن تكون نافيًا لرجلٍ واحد، وقد جاء أكثر منه، واحتمَل أن تكون نافيًا لجميع الجِنس، فإذا زدتَ (مِن) أخرجتَهُ مِن حيِّز الاحتمال إلى حيِّز التَّنصيص على عموم النَّفي، ومنه قولُه تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: 91]. والغرض الثّاني: توكيدُ عموم النَّفي؛ لأنَّها دخلت على تركيب هو نصٌّ في عموم النَّفي؛ إذِ النَّكِرةُ في سياق النَّفي تُفيد العمومَ، و﴿مَّا﴾ نافيةٌ قد دخلت على نكرة هي ﴿عَاصِمٍۖ﴾[2]، وبذلك أفادَ هذا التَّركيبُ عمومَ نفي عصمتِهم مِن عذاب اللّه، وتأكيدَ هذا العموم، أي عمَّمَتْ وأكَّدَتْ وبالغتْ في نفي عصمتهم مِن عذاب اللّه[3]، ولذا عبَّر ابنُ عاشور عن هذه المبالغة بقوله: "وهو تهديدٌ وتأييسٌ"[4].

إيثار النَّفي بـ ﴿مَّا﴾:

تـأكـيـدُ نـفـي عصمةِ الكافرين مِن عذابِ الله، رَدٌّ على ادِّعائهم بـأنَّ آلـهـتَـهـم تعصمُهم

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٍۖ﴾ النَّفيَ بـ ﴿مَّا﴾؛ لقوَّة النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكَدُ مِن (ليس) ومِن (لم)، فإنَّها تقع جوابًا للقَسَم، تقول: (واللّه ما هو بمنطلق)، بخلاف (ليس)، وبخلاف (لم).

والقَسَمُ توكيدٌ، وكذلك جوابُه، ويدلُّ على ذلك أيضًا أنَّ مَنفيَّها كثيرًا ما يقترن بـ (من) الاستغراقيَّةِ المؤكِّدَة، وهي التي يُسَمِّيها النُّحاةُ زائدةً، كما هو في هذه الآية، بخلاف (لم) و(ليس) و(لا)، ولا ينافسُها في ذلك إلّا (إنْ) النّافية، إلّا أنّها تفترق عنها بأنَّ (إنْ)

(1) الخفاجيُّ، عناية القاضي: 5/22.
(2) ابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 462.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139، والقونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/443.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.

لا بُدَّ مِن أن تقترن بـ(إلّا)، وليست في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾، ولذا آثرَ البيانُ الإلهيُّ هنا (ما).

وكذلك فإنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلام، أو ما نُزِّل هذه المنزلة، وقد جاءت في هذه الآية ردًّا على ما نُزِّلَ بمنزلة الجواب؛ إذ إنَّهم كانوا يَدَّعون أنَّ آلهتَهم تعصِمُهم مِن عذاب اللّه في الدُّنيا والآخِرة[1]، بل إنَّ شركاءَهم تَبرَّؤوا منهم، كما في الآية التي بعدَها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: 28].

وجهُ التَّعبيرِ بالتَّركيب: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

التَّـأكـيـدُ والمبالغةُ في نفي عصمتهم مِنَ الله تخويفٌ وترهيب

أفاد التَّعبير بـ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ المبالغةَ في نفي عصمتهم مِن انتقامه وجَزائه ﷻ[2]، أو نفي وجودِ مَن يُجيرُهم أو يَدْفَعُ عنهم عذابَه، وذلك مِن ناحتين؛ إحداهما: التَّعظيم، الذي أفاده الاسمُ الجليل (اللّه)، الذي يبعث في النَّفس المهابَةَ والتَّخويفَ والتَّرهيب لهم، أي: "ما لهم مِنَ اللّه مِن مانع يمنعُهم إذا عاقبَهم، يحول بينَه وبينَهم"[3]. الثّانية: التَّعجيب والتَّهويل على النُّفوس بحَذْف المضاف، ليُترك للمُخَيِّلة أن تعمل عملَها، وأن تذهبَ كلَّ مذهبٍ في تعديد أشياءَ لو ذُكِر بعضُها لما اكتمل المعنى، فكان الحذفُ مفيدًا للعموم وللمبالغة وللتَّهويل؛ ليكون المعنى: ما لهم مِن عذابِ اللّه وسَخَطِه وانتقامِه ونارِه وملائكة عذابِه، وغير ذلك.

التَّعبير عن ﴿عَاصِمٍۖ﴾ بصيغة اسم الفاعل:

نفيُ عصمتِهم مِن عذاب الله وانتقامِه أمرٌ ثابتٌ ودائم

جعل البيانُ الإلهيُّ المبتدأَ ﴿عَاصِمٍۖ﴾ في الجملة الاسميَّة: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ اسم الفاعل، وهو مِنَ المشتَقّات التي توَضِّحُ

(1) السّامُرائيُّ، معاني النحو: 4/191، 194.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/148.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/73.

المعنى، وتُحَدِّدُ الدّلالةَ عليه بشكل أَدَقّ، والذي يأتي في الجملة الاسميَّة للدّلالة على الثُّبوت والدَّوام والاستمرار في الغالب، ليَدُلَّ في الآية على ثبات ودوام نفيِ عصمتِهم مِن عذاب الله وانتقامه.

بلاغة التَّشبيه والاستِعارة في قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا﴾:

صورةٌ حسيَّةٌ للظَّلام النَّفسيِّ والكُدْرَةِ التي تغشى وَجْهَ المكروب المرعوب

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ تشبيهٌ واستعارةٌ، أمّا الاستعارةُ: فهي قوله تعالى: ﴿قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾، وفيها يبدو اللَّيلُ كأنَّه الثَّوبُ الأسود الذي قُطِّعَ قطعًا؛ إذِ اللَّيلُ على الحقيقة لا يوصَف بأنّ له قِطَعًا متفرِّقةً، وأجزاءً متنصِّفَةً، وإنَّما المراد أنَّ اللَّيل لو كان ممّا يتبعَّض وينفصل، لأشبهَ سوادُ وجوهِهم أبعاضَه وقِطَعَه[1]. وأمّا التَّشبيهُ: ففي قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾، أي: أُلبست وغُطِّيت بقِطَعٍ مُظْلِمةٍ، وهذا تصويرٌ لسَواد وجوهِهم بما اقترفوا، فقلوبُهم المظلمة تكسو وجوهَهم بالظَّلام، وفي هذا التَّصوير الحِسّيِّ، تصويرٌ معنويٌّ لنفوسهم المُظْلمة[2]، كما فيه تصوير للعُبوسَة والتَّحيُّر والدَّهشة والخوف الذي يصيبهم يومَ القيامة؛ إذ "أصل الكلام: ترى وجوهَهم مُسْوَدَّة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ [الزمر: 60]، ولمّا أُريدَ التَّتميم فيه، وانضمامُ العبوسةِ والتَّحيُّر مع الظُّلْمة، شُبِّهَت باللَّيل، وأَوْقعَ ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ حالًا منه؛ ليُتَصَوَّر من ذلك تُخْمَةَ السَّحابِ وتكاثفُ المطر، وما يَلْحَق لمَن حصل فيه مِنَ التَّحَيُّر والخوفِ والدَّهشة"[3].

وجهُ التَّعبير بـ﴿كَأَنَّمَآ﴾:

التَّصويرُ الحسيُّ لوجوهِ الذين كسبوا السَّيِّئات تصويرٌ معنويٌّ لقلوبهم المظلمة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿كَأَنَّمَآ﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، التي تُفيد التَّشبيه؛ إذِ الكاف حرفٌ يُفيد

(1) الشَّريف الرَّضيُّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/154.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3555.
(3) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/475.

التَّشبيه، و(أنّ) حرف مُشَبَّه بالفعل، ينصب الاسمَ ويرفع الخبرَ، ولمّا كانت (أنّ) لا تدخل إلّا على الجملة الاسميَّة، دخلت عليها (ما) التي كفَّت (أن) عن عملها، وهيَّأَتها للدُّخول على الفعل، إذِ المشبَّهُ به هنا جملةٌ فعليَّة صَوَّرتِ الحالةَ والهيئةَ التي تكون عليها وُجوهُ الذين كَسَبوا السَّيِّئات، وكأنَّها أُلبِسَت وغُطّيتْ بقِطَعٍ مِنَ اللَّيل الأسود المُظْلِم؛ لِفَرْط سوادِها وظُلمَتِها، والمقصود من هذا التَّشبيه: التَّهويلُ والتَّخويف والتَّنفير، بتصوير وجوهِهم بهذه الحالة المظلمة المُنَفِّرة.

سِرُّ التَّعبير بالفعل المبنيِّ للمَجهول: ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾:

الـتَّـركـيـزُ على غَشَيانِ الوجوهِ بالسَّواد تخويفٌ وتنفيرٌ

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ المبني للمفعولِ ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ لأمرين؛ الأوَّل: صَرْفُ الحَدثِ عمدًا عن مُحْدِثه، فلم يُسنده إليه، وذلك تركيزًا للانتباه على الحَدَث ذاته، أي: المفعول، وهو إلباسُ وجوههم قطعًا مِنَ السَّواد، وحَصْرُ الوَعْي فيه، فلا يتوَزَّعُ في غيره، وهي ظاهرةٌ بيانيَّة أُخرى مُطّردَة، قلَّ أنْ نُخطِئَها في أحداث اليوم الآخر[1]. الثّاني: إفادةُ العموم؛ إذ لو أتى بالمبني للمعلوم لقيَّده بمُغْشٍ واحدٍ فقط، وهو ليس بواحد، وإنَّما يشمل العقابَ مِنَ اللهِ بمثل عملهم، والهوانَ والذُّلَّ، وعدمَ نفعِ أصنامِهم، ومنعِها لهم مِن عذاب اللهِ، وغيرِ ذلك مِن أحوال يوم القيامة الشَّديدة، الذي تذهل فيه كُلُّ مُرضعة عمّا أَرضَعَتْ، ولذلك لم يُحَدِّد البقاعيُّ الفاعلَ (المغشي) فقال: "أي: أغشاها مُغَشٍ لشِدَّة سوادها لِما هي فيه مِنَ السّوء"[2].

نُكْتَةُ تخصيصِ الوجوهِ بالذِّكْر:

غَـشَـيانُ وجـوهِ الـكـافـريـن بالظُّلمة خَـوْفٌ وخِـزيٌ وذِلَّــةٌ لأصحابها

خصَّص البيانُ القرآنيُّ ذِكْرَ الوجوهِ في قوله: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ﴾؛ لأنَّها أشرفُ الأعضاء، فدَلَّ نفيُ القَترِ والذِّلَّة عنِ الوجوه

(1) بنت الشّاطئ، التَّفسير البيانيُّ للقرآن الكريم: 1/81.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/268.

على انتفاء أن ينالهم مَكْروهٌ بوجه مِنَ الوجوه، أو يعرضَ لهم شيءٌ مِن سوء الحال، فقد أعاد ذِكْرَ الوجوهِ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾؛ زيادةً في الخزي والصَّغار والإهانةِ والخوفِ للعِلَّة نفسها.

بلاغةُ المقابلة:

مقابلةٌ بينَ وجوهِ المحسنين المُكَرَّمَة، ووجوهِ المُسيئين المُظْلِمَة

في الآية بلاغةُ المقابلة؛ وهي مقابلة الشيء بضده من جهة معناه دونَ لفظِه، فقد قابل جزاءَ المحسنين: ﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ﴾، بجزاء الكافرين المسيئين: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾، وفي هذه المقابلة مبالغةٌ في الإيضاح وبيانِ شِدَّة عذابهم[1]؛ إذِ المعنى يتَّضح بضِدِّه، ومجيءُ المقابلِ للشَّيء يُرسِخُه في الذِّهن.

دلالة التّنكير، والتّنوين في: ﴿قِطَعٗا﴾:

المبالغةُ في سوادِ وجوهِ الكافرين وظلمتها تبعثُ على الرَّهْبَة والخَوف

نكَّر البيانُ الإلهيُّ ﴿قِطَعٗا﴾ ونوَّنها؛ للدّلالة على المبالغة في التَّكثير والتَّفخيم[2]، وأوقع (من الليل) بيانًا لهذا التَّكثير والتَّفخيم، والمعنى: كأنَّما أُخِذَ مِنَ اللَّيل المُظْلم، فقُطِّع رُقَعًا غُشِّيتَ بها هذه الوجوهُ؛ أي: "أُغشِيَت وَجْهَ كلِّ إنسانٍ منهم قِطعةٌ مِن سَواد اللَّيل"[3]، وهكذا يَغْشَى الوجهَ كلَّه ظلامٌ مِن ظَلام اللَّيل المُظْلِم، ورهبةٌ مِن رَهْبَتِه، تبدو فيه هذه الوجوه مُلَفَّعةً بأغْشِيَة مِن هذا اللَّيل البَهيم.

توجيه القراءتين في قوله: ﴿قِطَعٗا﴾ بينَ الإفراد والجمع:

ثراءُ المعنى في (قِطَعًا) بينَ قراءةِ الجمع والإفراد

اختلف القُرّاء في قراءة قوله تعالى: ﴿قِطَعٗا﴾ على قراءتين؛ بينَ الإفراد والجمع، ممّا زاد المعنى ثراءً؛ إذ قرأ الجمهورُ بفتح الطّاء: ﴿قِطَعٗا﴾، جمع: (قطعة)، وعلى معنى أنَّ تأويل ذلك: كأنَّما أُغشي وَجهُ كلِّ إنسان منهم قِطْعَةً مِن سواد اللَّيل، ثمَّ جَمَع ذلك فقيل:

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/442.
(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/475.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/76.

كأنَّما أُغشيت وجوهُهم قِطَعًا مِن سواد؛ إذ جَمَع (الوجه). وقرأ ابنُ كثير والكسائيُّ: (قِطْعا) بسكون الطّاء، وهو اسم مفرد للشَّيء المقطوع، أي: القِطْعة؛ وهي البعض، بمعنى: كأنَّما أُغْشيت وجوهُهم سوادًا مِنَ اللَّيل، وبقيَّةً مِنَ اللَّيل، ساعةً منه، كما قال تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: 81، الحجر: 65]، أي: ببقيَّة قد بقيت منه[1].

سِرُّ تقديم شِبه الجملة: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

قدّم البيانُ الإلهيُّ شِبهَ الجملة: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ على ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ وِفاقَ مَن أعرب ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ نعتًا لـ ﴿قِطَعٗا﴾، وذلك رعايةً للدِّقَّة في المعنى، ومنعًا للَّبس؛ لأنَّه لـمّا كان القِطَعُ مشتركًا بين ظُلْمة آخرِ اللَّيل وجَمع القِطْعةِ مِنَ الشَّيء، بيَّن أنَّ المقصود هو القِطَعُ مِن جنس اللَّيل، حالَ كونِه مُظْلِمًا[2].

القِطَعُ التي أَغْشَتْ وجوهَ الكافرين هي مِن جنسِ اللَّيل، وليست من شيءٍ آخر

توجيه إعراب ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ بينَ الوصف، والحاليَّة:

﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ تحتمل وجهين من الإعراب؛ الأوَّل: نعتٌ لقوله: ﴿قِطَعٗا﴾، أي: قِطَعًا مُظْلِمًا. والآخر: حالٌ مِنَ اللَّيل لا نعتًا للقِطَع، ولذلك لم يقل: مُظْلِمةً، كأنَّه قيل: أُغشيت وجوهُهم قِطَعًا مِنَ اللَّيل في حال ظُلْمَتِه[3]، أو قِطَعًا مِنَ اللَّيلِ المُظْلم[4]. وسواء كان نعتًا أو حالًا فإنَّ فيه زيادةَ معنًى؛ لأنَّ اللَّيل يُسمَّى ليلًا وإن كان مُقْمِرًا، فلمّا قال سبحانه: ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ دَلَّ على شِدَّة سواده، وانتفاءِ الضَّوء عنه، على أنَّ التَّشبيه إنَّما وقع أسودَ ما يكون جلبابًا، وأبهمَ أثوابًا.

وجوهُ الكافرين تُشْبهُ في حالها وصفتها اللَّيلَ المُظْلِمَ الشَّديدَ السَّوادَ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/76، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/243.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/105.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/243.
(4) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 2/418.

وصف اللّيل بالظُّلْمَة - وهو محلُّها - تقريرٌ لسوء حالهم، وسَوادِ وجوهِهم

وجه الإطناب في الوصف ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾:

أطنب البيانُ الإلهيُّ في وصف اللَّيل بـ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ وهو حالٌ مِنَ اللَّيل، واللَّيل زمنُ الظُّلْمَة، يقول الحسنُ البصريُّ: "ما خلق اللّه خَلْقًا أشَدَّ سوادًا مِنَ اللَّيل"[1]؛ لإفادة تمكُّنِ الوصف منه كقولهم: ليلٌ أَلْيَلُ، وظِلٌّ ظليلٌ، وشِعْرٌ شاعِرٌ، فالمراد مِنَ اللَّيل: الشَّديدُ الإظلامِ باحتجاب نجومه وتمكُّنِ ظُلْمته[2].

وَصْفُ اللّيل بالظُّلْمَة دليلٌ على فَرْطِ سوادِ وجوه الكافرين وظُلْمتِها

نُكْتَة إيثارِ وَصْف الظُّلْمة على السَّواد في: ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾:

آثر البيانُ الإلهيُّ في التَّعبير عن سواد وجوه الكافرين في الآخرة، وَصْفَ الظُّلْمَة على السَّواد في قوله تعالى: ﴿أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾؛ إذِ "الآيةُ إخبارٌ عن سواد وجوهِهم في الدّار الآخِرة"[3]؛ للدّلالة على "فَرْط سوادِها وظُلْمتها"[4]؛ إذ لو عَبَّر بالسَّواد لكان مجردَ تأكيدِ وجودِ سوادِ وجوهِهم؛ إذِ اللَّيل أسود، ولكن لـمّا عبَّر بالظُّلْمَة، وظُلْمَةُ اللَّيلِ هي نهايةٌ في سواده[5]؛ أفاد تمامَ السَّواد والظُّلْمَة، بما تتضمَّنُه مِنَ العبوسة والدَّهْشَة والتَّحَيُّر والخوف والقَلَق[6].

النَّتيجةُ الحتميَّةُ لـمَن أُغْشيت وجوهُهم السَّواد أن يكونوا أصحابَ النّار

بلاغة الفَصْل في جملة الفاصلة:

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ جملةَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عن سابقتها: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾، ولم يَرْبط بينهما بالعاطف؛ لأنَّ هذه الجملة هي نتيجةٌ للمُقدِّمة، فبينَها وبيْنَ التي قبلَها كمالُ الاتّصال، ولذلك فُصِلَت عنها ولم تُعْطَف[7].

---

(1) السِّيوطيُّ، الحاوي في الفتاوي، ص: 301.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/149.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/230.
(4) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 6/20.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/47.
(6) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/475.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.

عِلَّة التَّعبير باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في جملة الفاصلة:

استعمل البيانُ القرآنيُّ - وهو يشير إلى الذين كسبوا السَّيِّئاتِ - اسمَ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، الذي يُشار به إلى الجمع المذكَّر البعيد، وهم الذين كسبوا السَّيِّئاتِ، بغرض تمييزهم مِن أهل الحقّ بالإشارة المحسوسة، وتنزيلِ هذا الموقفِ غيرِ المشاهَدِ مِن أحداث يوم القيامة منزلةَ الأشياء المشاهَدَة، مع أهم غَرَض، وهو تحقيرُهم وتبعيدُهم، وبيانُ بُعْدِهم في الانحدار والانحطاط عن منزلة المُشِير، وهو اللّه سبحانَه، أي: أولئكَ "البُعداءُ البغضاء"[1].

الذين كسبوا الكُفْرَ والمعاصي هم جَمعٌ منبوذون بُعداءُ بُغضاءُ

وفي الإشارة إلى الذين كسبوا السَّيّئاتِ الموصوفين بما ذُكِرَ مِنَ الصِّفات الذَّميمَة؛ تنبيهٌ على أنَّهم استَحَقّوا الخلودَ في النّار لأجل كَسْبهم السَّيّئات[2]، إذِ الإشارةُ إلى موصوف تُفيد أنّ الصِّفة سببُ الحُكم[3].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾:

استعمل البيانُ الإلهيُّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ دون غيرها؛ للإشارة إلى خلودهم في العذاب، وملازمتِهم له؛ إذِ الصُّحْبَة تعني الملازمَة، قال ابن فارس: "الصّاد والحاء والباء أصلٌ واحد يدلُّ على مقارنة شيءٍ ومقاربته"[4]، والمعنى: أولئك أصحابُ النّارِ الذين يقيمون فيها إقامةَ المُلّاك في مُلْكِهم، يلازمونها ولا يخرجونَ منها[5].

الكفّارُ أصحابُ النّار، يقيمون فيها إقامةَ المُلّاكِ، لا يخرجون منها

فائدة ضمير الفصل: ﴿هُمۡ﴾:

أتى البيانُ القرآنيُّ بضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾ في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادة تأكيد ثبوتِ اتِّصافِ المبتدأ، وهو: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ

الذين كسبوا السَّيِّئات خلودُهم مُؤَكَّدٌ في النّار

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/105.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/147.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3553.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صحب).
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3553.

﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالخبر ﴿خَٰلِدُونَ﴾، وتقويتِه، وأحقيَّتِه به، أي: تأكيدِ خلودِهم بضمير الفَصْل ﴿هُمۡ﴾[1].

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿فِيهَا﴾:

الذيـن كسبوا الـسَّـيِّـئـاتِ لا غـيرُهـم، خالدون في النّار لا في غيرِها

قدَّم القرآنُ الجارّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على متعلقه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾، في قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختصاص، أي: هُم وَحْدَهم الخالدون فيها[2]، ولبيان قَصْرهم عليها لا يَدْخُلونَ غيرَها[3]، أي: هم وَحْدَهم دونَ غيرِهم خالدون في النّار لا في غيرِها، فلا يخرجونَ منها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

كسبوا، وربحوا، ونالوا:

الكسبُ تحصيلُ الـشَّيء على أيِّ وجـهٍ، والـرِّبـحُ ثـمـرةُ الـجـهـد، والـنَّـوالُ عطاءٌ مِن آخر

تحمل جميع هذه الألفاظ معنى تحصيلِ منفعة، إلّا أنَّ هناك بعض الفروق الدَّقيقة بينها، وتظهر مِن خلال الرُّجوع إلى الأصل اللُّغوي لهذه المفردات ومن خلال الاستعمال، وهي كالآتي:

(كَسَبوا): يدلُّ أصلُ (كسَبَ) على ابتغاءٍ وطَلبٍ وإصابةٍ[4]، والكَسْبُ وإن كان في الأَصل ما يتحرّاه الإنسان ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيلُ حظٍّ؛ ككسب المال، فإنَّه قد يُستعمل فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّه يجلب منفعةً، ثمَّ يَستَجلِب به مَضرَّةً[5]، فالكَسْبُ: تحصيلُ الشَّيءِ على أيِّ وجهٍ كان. وقيل: الكَسْبُ ما فُعِلَ بجارحة[6].

و(ربحوا): أصلٌ واحد، يدلُّ على شفٍّ في مبايعة، ورَبِحَ فلانٌ في بيعه يربح: إذا استشفَّ[7]، والرِّبحُ: هو الزِّيادة الحاصلة في المبايعة،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3556.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3556.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3553.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كسب).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/349.
(6) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 138.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ربح).

ثمَّ يُتَجَوَّز به في كلِّ ما يعود مِن ثمرة عمل[1]، فالرِّبحُ لا يُسمَّى ربحًا إلّا إذا كان فيه منفعةٌ، وقد يَحصُل الرِّبحُ بغير الجهد الشَّخصيِّ، فربحوا: حصلوا على منفعة، كما أنَّ الرِّبح: ثمرةُ العمل والجهد؛ كالتِّجارة.

و(نالوا) أصلٌ صحيح يدلُّ على إعطاء، وناوَلْتُه: أعطيتُه، وتناوُلُ الشَّيءِ: أَخْذُه، والنَّوالُ: العطاءُ والمعروفُ تُصيبُه مِن إنسان، ونالَ الشَّيءَ: إذا حصل عليه[2]. ويكون مِن طرفٍ آخر، أي: شخص يعطي شخصًا آخر، ويكونُ بغير جهد.

ولـمّا كان الكَسْبُ يُستعمل فيما يَظُنّ الإنسانُ أنّه يجلب منفعة، ثمّ يَستَجلِب به مَضرَّةً، وكان تحصيلًا للشَّيء على أيّ وجه، كان اصطفاء اللَّفظ هاهنا أنسبَ لسياق الآية.

عاصم، وواقٍ، وحافظ، وحامٍ، وصائِن:

العصمةُ منعٌ وإمساكٌ شديد، والوقايةُ صيانةٌ وسترٌ، والحفظُ حراسةٌ وحياطةٌ قويّة، والحمايةُ دفاعٌ ومنعٌ، والصَّونُ وقايةٌ ممّا يُفسِد

تتداخل معاني هذه الألفاظ وتتقارب في دلالاتها اللُّغويَّة، فجميعُها تحمل معنى الحفظِ والحماية، ويظهر هذا مِن خلال الرُّجوع إلى معناها في اللُّغة، إذ يُعَرَّف بعضُها ببعضٍ:

(عاصم): يدلُّ الفعلُ (عَصَمَ) على إمساكٍ ومَنْعٍ ومُلازمة، واعتصم العبدُ بالله تعالى: إذا امتنع، وعَصَمَ الشَّيءَ: مَنَعَه ووقاهُ وحَفِظَه، كأنَّما أحاطه بطبقة تحفظُه، أو أمسكَهُ شديدًا، أي: حَفِظَه، واستعصم: التجأ[3].

و(واقٍ): تدلُّ لفظةُ (وقى) على دفع شيء عن شيء بغيره، وَوَقاهُ يقيه: صانَه وسَتَره عنِ الأذى، وحماهُ وحَفِظَه ودَفَعَ عنه، والوِقاية: حِفْظُ الشَّيء ممّا يُؤذيه ويَضُرُّه[4].

---

(1) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/31.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (نول).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (عصم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والزَّبيدي، تاج العروس: (وقى).

و(حافظ): أصلٌ واحد يدلُّ على مُراعاة الشَّيء، فحفظتُ الشَّيءَ حِفْظًا؛ أي حَرَسْتُه، والمحافظة: المراقبة، وحِياطةٌ قويَّةٌ ضابطةٌ للشَّيء، فلا يضيع ولا يتفلَّت[1].

و(حامٍ): حماه يَحميه حمايةً: دفعَ عنه، ومَنَعَه[2].

و(صائِن): صانَ: كَنَّ وحَفِظَ، والصَّوْنُ: أن تقيَ الشَّيءَ ممّا يُفسِدُه، وأن تحفظَه[3].

ولمّا كان لفظ (عاصم) دالًّا على: المنع والإمساك الشَّديدَين في الحِفْظ؛ ناسبَ سياقَ النفي أنْ يقومَ أحدٌ بهذه المهمَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حفظ).

(2) أبو بكر الرازيّ، مختار الصّحاح: (حمي)، والزَّبيدي، تاج العروس: (حمو).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس: (صون).

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ [يونس: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

محاجَّةُ أهلِ الشِّركِ مع معبوداتِهم، إثْرَ بيانِ مصيرِ المحسنين والمسيئين

لـمّا ذُكِرَ في الآيتينِ السّابقتينِ ما يَختَصُّ به كلُّ فريقٍ - فريقِ المحسنين وفريقِ المسيئين - مِنَ الجزاء وسِماته، (الذين أحسنوا، والذين كسبوا السَّيِّئات)؛ جاءت هذه الآيةُ بإجمالِ حالةٍ جامعةٍ للفريقين، وهي الحَشْر، وتفصيلٍ يتعلَّق بالمشركين؛ تهديدًا وفضحًا وتقويَةً في النِّكاية لهم على سيِّئةٍ بلغوا بها الغايةَ في الإساءة؛ وهي الإشراك الذي هو أكبرُ الكبائر، وزيادةً في النِّعمة على المسلمين، بسلامتهم من تلك الحالة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾: أَصْلُ الزَّوْلِ يَدُلُّ على تَنَحِّي الشَّيءِ عَنْ مَكانِه، يُقالُ: أَزَلْتُهُ عَنِ المَكانِ وَزَوَّلْتُهُ عَنْهُ[2]، وزَيَّلَ: مُضاعَفُ زالَ المُتَعَدِّي، يُقالُ: زالَهُ عَنْ مَوْضِعِه يَزيلُه بِمَعْنَى أَزالَهُ، فَجَعَلوهُ يائِيَّ العَيْنِ؛ لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ زالَ القاصِرِ، الذي هو واوِيُّ العَيْنِ، فَزَيَّلَ فِعْلٌ للمُبالَغَةِ في الزَّيْلِ، مثلَ فَرَّقَ مُبالَغةً في فَرَقَ[3]، والتَّزايُلُ: التَّبايُن، تقول: زَيَّلْتُ بينَهم، أي: فَرَّقتُ[4]، ورَجُلٌ مِزْيالٌ ومِزْيَلٌ: يُزيلُ الشَّيءَ عنِ الشَّيْءِ[5]، والمراد بالتَّزْييل هُنا مَجازِيٌّ، فَيَشملُ اختلافَ القَوْلِ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/149، 150.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زول).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (زيل).
(5) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (زيل).

تخاصمُ أهلِ النّار، وتبادلُهم الأعذارَ

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يُخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه مُحمَّدًا ﷺ، قائلًا له: واذكرْ - يا مُحمَّدُ - يومَ نَجمَعُ الخَلقَ جميعًا لِمَوقفِ الحسابِ يومَ القيامةِ، ثمَّ نقولُ للذينَ أشرَكوا: الزَموا مَكانَكم أنتُم ومَن زَعَمتُم أنَّهم شُرَكاءُ للّه في العبادةِ، وفَرَّقْنا بينَ المُشرِكينَ وشُرَكائِهم، وقال لهم شُركاؤهم الذين كانوا يعبدونَهم مِن دونِ اللّه: ما كُنتم تَعبُدونَنا في الحقيقةِ، بل كُنتُم تعبدونَ أهواءَكم وشَياطينَكم الذين أمَروكم بعبادَتِنا(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الآيةُ بينَ الفَصْلِ، والوَصْلِ:

فــي العطـفِ بيانُ إجمالٍ ثمَّ تفصيـلٍ، وفي الاستئنافِ بيانُ أحـوالٍ أُخرى للمشركين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ تحتمل وجهين؛ أحدهما: أن تكون عاطفةً، والمعطوف عليه هو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ باعتبار كونها معطوفةً على جملة ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ فإنَّه لمّا ذُكِر في الجملتين السّابقتين ما يختصُّ به كلُّ فريقٍ مِنَ الفريقين مِنَ الجزاء وسِماتِه، جاءت هذه الجملةُ بإجمال حالةٍ جامعةٍ للفريقين، ثمَّ بتفصيلِ حالةٍ يمتاز بها المشركون؛ ليحصلَ بذلك ذكرُ أمرٍ فظيعٍ مِن أحوال الذين بلغوا الغايةَ في كَسْب السَّيِّئاتِ، وهي سيِّئةُ الإشراكِ، الذي هو أكبر الكبائر، وبذلك حصلتِ المناسبةُ مع الجملة التي قبلَها، المقتضيَةُ عطفَها عليها(2).

الآخرُ: أن تكون الواو استئنافيَّةً، والكلامُ مستأنفٌ مَسوقٌ لبيانِ بعضٍ آخرَ مِن أحوالهم الفظيعة، وتأخيرُه في الذِّكر مع تقدُّمه في الوجود على بعض أحوالِهم المحكَّيةِ سابقًا؛ للإيذان باستقلال كلٍّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/170، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/333، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/264، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150، 151.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/149.

مِنَ السّابق واللّاحقِ بالاعتبار، ولو روعِيَ التَّرتيبُ الخارجيُّ لَعُدَّ الكُلُّ شيئًا واحدًا، ولذلك فُصِلَ عمّا قبلَه[1].

وجه الإبهام في: ﴿وَيَوۡمَ﴾:

يومُ الحشرِ يومٌ عصيبٌ، وشِدَّتُه لا يُدرِكُ كُنْهها عقلٌ

أبهم البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿وَيَوۡمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾؛ لإفادة التَّفخيم والتَّعظيم والتَّهويل، فهذا اليوم عصيبٌ شديدٌ لا يمكن لعقل أن يُدرِكَ كُنْهَهُ أو يتصورَهُ.

وجهُ انتصاب اليوم، ودلالته:

(يوم) بينَ المفعوليَّةِ والظَّرفيَّة هو تذكيرٌ به، تهويلًا وموعظةً

يَحْتَمِل انتصابُ (يوم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ وجهين؛ الأوَّل: مفعول به لفعل محذوف تقديره: (اذكر)، أي: اذكر يومَ نحشرهم جميعًا، أو تقديره: (أنذرْهم أو ذكِّرْهُم)، أي: أنذرْهُم أو ذَكِّرْهُم يومَ نحشرهم جميعًا[2]. والآخر: ظرفُ زمانٍ لفعلٍ مُقَدَّرٍ، يدلُّ عليه قولُه: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ﴾، أي: ونقول للذين أشركوا الزموا مكانَكم يومَ نحشرُ النّاس جميعًا[3]، وعلى هذا الوجه: يكون تَقَدُّم (يوم) في صدر الجملة؛ للتَّذكير به تهويلًا وموعظةً؛ لأنَّه زمنُ الحشر، وفيه أعمالٌ عظيمةٌ[4].

التَّعبير عنِ الحشر بالمضارع في: ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾:

الحشرُ مشهدٌ حيٌّ يصوِّر حالَ النّاس مزدحمين مُتزاحمين

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الحشر في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ بصيغة المضارع، للدّلالة على تصوير هذا المشهد العظيم، واستحضارِ صورةِ حالهم يومَ الحشر، بما تحمله هذه الكلمةُ مِن معنى الازدحام والتَّزاحم ومتاعبهما.

توجيه الحاليَّة، والجمع المؤكَّد في: ﴿جَمِيعٗا﴾:

﴿جَمِيعٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ حالٌ مِن (هاء)

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.

حالُ الكافرين في الحشر هو الفضيحة التّامّة العامّة، بمرأى ومَسْمعٍ مِنَ المؤمنين

الضَّمير البارز في ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾، وهم الذين أحسنوا، والذين كسبوا السَّيِّئات، أي: نحشر الكُلَّ حالَ اجتماعِهم، وللحالِ والجَمعِ المؤكِّد في لفظ ﴿جَمِيعٗا﴾ أغراضٌ:

الأوَّل: التَّنصيصُ على إرادةِ عمومِ هذا الضَّمير؛ لأنَّ الحشر يَعُمُّ النّاس كلَّهم.

الثّاني: التَّنبيه على أنَّ فظيعَ حال المشركين وافتضاحَهُم يكون بمرأى ومَسْمَعٍ مِنَ المؤمنين؛ إذ يجمعُ اللّه العابدِين والمعبودِين، ويواجِهُهُم؛ لتكونَ الفضيحةُ تامَّةً وعامَّةً، بينَ عابدٍ عبدَ باطلًا، ومعبودٍ لم يَطْلُب مِن عابده أنْ يَعْبُده، أو معبودٍ طلبَ مِن عابده أنْ يَعْبُده، وبذلك تكون السَّلامَةُ مِن تلك الحالة زيادةً في النِّعمة على المسلمين، وتقويةً في النِّكاية للمشركين[1].

الثّالث: تهويلُ يوم الحشر؛ يقول أبو السُّعود: "الإخبار بحشر الكُلِّ في تهويل اليوم أَدْخَل"[2].

سِرُّ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

بينَ الحشرِ وخطاب التَّقريع أهوالٌ ماديةٌ ومعنويَّةٌ لا يعلم كُنهَها إلّا الله

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ عاطفةٌ تدلُّ على التَّرتيب والتَّراخي الزَّمانيِّ والمعنويِّ؛ أمّا الزَّمانيُّ: فهو أنَّ ذلك القول بعد الحشر، وبعد أنِ ارتكبوا في الدُّنيا ما ارتكبوا، وطَغَوا وبغَوا وأفسدوا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بينَ حَشْرِهم وبينَ ما يُقال لهم مواقفَ أُخرى، فيها مِنَ الأهوال ما فيها[3]، وأمّا المعنويُّ: فهو البُعْد بينَ حالِهم، وما كانوا فيه من إنكارٍ وطغيانٍ، وبين حالِهم وقد تبيَّن لهم ما أنكروه واقعًا، ونطقَ الذين عبَدوهم بالحقِّ وتبرَّؤوا منهم[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/61.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3556.

إيثار لفظ القول مضارعًا دالًّا على الجمع:

آثر البيانُ الإلهيُّ استعمالَ لفظِ القول مضارعًا ﴿نَقُولُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾؛ لإفادةِ تصوير هذا الموقفِ العظيم، الذي أشارت إلى عظمته نونُ العَظَمة، أي: نونُ المتكلِّم الدّالَّة على الجَمع.

خطابٌ عظيمٌ يَصْدُرُ من عظيمٍ، في موقفٍ عظيم، ويتعلّق بجُرمٍ عظيم

سِرُّ تخصيص ﴿أَشْرَكُواْ﴾ بالاسم الموصول وإيراده جمعًا ﴿لِلَّذِينَ﴾:

عبَّر القرآنُ الكريم عنِ المشركين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ بالاسم الموصول (الذين)، ولم يقل سبحانَه: (للمشركين)؛ للإيماء إلى وجهِ استحقاقهم لهذا التَّهديد والوعيد والتَّوبيخ والتَّقريع والافتضاح، وهو ارتكابُهم لأكبر الكبائر؛ الشِّركِ باللّه.

ارتكابُهم لأكبرِ الكبائر الشِّركِ بالله، هو وجهُ استحقاقِهم للتَّقريع والتَّوبيخ والإهانة

ولم يقل كذلك: (لهم)، على رأي مَن ذهب إلى أنَّ المضمَر في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ هم المشركون فقط، لا العابدُ ولا المعبودُ، ولا النّاسُ جميعًا مِنَ المؤمنين والكافرين، وهو مِن بلاغة وضعِ الـمُظْهَر مَوْضعَ الـمُضْمَر؛ تسجيلًا على إشراكهم، وتصريحًا به، وأنَّه سبب ما يلاقونه في هذا الموقف العصيب[1].

لمّا كان الاسم الموصول دالًّا على العموم، شمل التَّعبير به كلَّ مَن ثبَتَ له هذه الصِّلةُ (أشركوا)، ولو بأدنى شِرك، وليس بالضَّرورة أن يكون راسخًا فيه، والمعنى: نقول لكلِّ مَن أشرك منهم. وفي إيراد الاسم الموصول جمعًا ﴿لِلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم فريقٌ اجتمعوا على الشِّرك، واتَّفقوا عليه، وزيَّنَه بعضُهم لبعض.

يشمل الخطابُ بالموصول كلَّ مَن ثبت له أدنى شِرك

وجهُ التَّعبير عنِ المشركين بالماضي:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ المشركين في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ بصيغة الفعل الماضي؛ لأنَّه فعلٌ قد تحقَّق وقوعُه منهم، ولم يَعُدْ هناك مجالٌ للتَّوبة والرُّجوع عنِ الشِّرك في يوم الحساب والجزاء،

شِركُهُم أمرٌ تحقَّقَ وقوعُه منهم في دارِ التَّكليف، عاشوا عليه وماتوا عليه

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/446.

فالجميع يُؤمنُ في ذلك اليوم، ولكن لا ينفعُ نفسًا إيمانُها إن لم تكن آمنت مِن قبل.

عِلَّة تخصيصِ وَصْفِ إشراكهم بالذِّكر في حَيِّز الصِّلةِ في: ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾:

الـشِّـركُ أكـبرُ الـجـنـايـاتِ وأسـاسُ كـلِّ شَـرٍّ، والـعـبادةُ المشوبَةُ بالشِّرك لا اعتدادَ بها

خصَّصَ البيانُ الإلهيُّ وصفَ إشراكهم بالذِّكر في حيز الصِّلةِ مِن بين سائر ما اكتسبوه مِنَ السَّيِّئات، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾؛ لابتناء التَّوبيخِ والتَّقريعِ عليه، مع ما فيه مِنَ الإيذان بكون الإشراك مُعظَمَ جناياتِهم، وأكبرَها وعُمدَةَ سيِّئاتِهم، وأنَّ شِرْكَهم بالله ﷻ هو الذي أدَّى بهم إلى هذا المصير المُؤْلِم[1].

وجهُ التَّعبير بـ: ﴿مَكَانَكُمْ﴾، وإضافتِه:

كـلـمـةُ تـهـديـدٍ ووعيدٍ، وانتظارِ نتيجةٍ مخيفةٍ، لشِدَّتها يطول الزَّمن عنِ النُّطق بفعلها

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ ﴿مَكَانَكُمْ﴾ تهديدًا للمشركين؛ إذ إنَّها كلمةٌ مختصَّة بالتَّهديد والوعيد، فلا تُقال للتَّحيَّة، بل تُقال تهديدًا ووعيدًا، بانتظار نتيجة موقفٍ لن يكونَ في صالح مَن تُقال له[2].

والمراد أنَّه تعالى يقول للعابدين والمعبودين[3]: (الزموا مكانَكُم حتَّى تُسألوا)، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿۞ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: 22 - 24][4]، واستعمالُ هذا اللَّفظ (مكانَكَ) شائعٌ في كلام العرب في الأمر بالملازمة، مع التزام حذفِ العامل فيه، حتَّى صار بمنزلة أسماء الأفعال الموضوعة للأمر، نحو: صَهٍ، وأمرُهم بملازمة المكانِ حَبْسٌ، وإذ قد جُمِعَ فيه المخاطَبون وشركاؤهم، عُلِمَ أنَّ ذلك الحَبْسَ لأجل جريمة مشتركَة

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/61.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5884.

(3) يصدر مِنَ الله على لسان ملك لا مباشرة، يُنظر: حاشية الصّاويّ على الجلالين، ص: 794، أو أنَّ يوم القيامة مواقف ومواطن، ففي موقف لا يكلمهم، وفي موقف يكلمهم، أو أنَّ المراد أنَّه لا يكلمهم كلام إكرام، بل كلامَ توبيخ وتقريع. ينظر: أبو بكر الرازيّ، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 186.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/244.

بينَ الفريقين، وهي كونُ أحدِ الفريقين عابدًا والآخَرُ معبودًا، وهذا على القول: إنَّ المراد بشركائهم هم الأصنام(1).

ولشدَّة ما تحملُه هذه الكلمةُ مِن تهديدٍ ووعيد، حُذِفَ فِعْلُها؛ لأنَّ الزَّمانَ يطول بالنُّطْق به.

إيثارُ لفظِ المكان في: ﴿مَكَانَكُمۡ﴾:

تهديدُ الكافرين بأنْ يلزموا موضعَهم الذي هم فيه، وينتظروا ما يُفعَل بهم

أتى البيانُ القرآنيُّ بلفظ (مكان) في قوله: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾، ولم يقل مثلًا: (محلَّكُم)؛ لأنَّ لفظ المكان يناسب السِّياقَ هنا، ويدلُّ على المعنى المراد، إذ معنى المكان في اللُّغة: مِن مَكَن، وفيه معنى الرُّسوخِ والثَّباتِ(2)، والمكان: الموضع، والمكان: المنزلة والمكانة(3)، وهذا يناسب المعنى هنا، إذِ المعنى: اثبُتوا مكانَكُم، والزَموا موضعَكُم، لا تبرحوا حتَّى تنظروا ما يُفعَل بكم، والعربُ تقول: قُم مكانَكَ، وتتوعَّدُ بقول: مكانَكَ وانتَظِر(4)، أمّا المَحَلُّ: فهو المكان الذي تحلُّه وتنزلُ به، وهو نقيضُ الارتحال، وحُلَّ المكان: سُكِنَ(5)، والمقام هنا ليس مقامَ سَكَنٍ أو حُلولٍ بالمكان، بل هو مقامٌ مؤقَّتٌ، إذ هو موقفٌ مِن مواقف الحشر، وبعدَهُ إلى الجنَّة أو إلى النّار، فلا يناسبُه لفظُ (محلَّكُم) الدّالُّ على الحُلول والإقامة بالمكان.

نُكتَةُ الفَصل بينَ المتعاطِفَين بالضَّمير ﴿أَنتُمۡ﴾:

(أنتُم) تأكيدٌ يَحمِلُ في طيّاتِه التَّهديدَ بالمواجهة للمشركين، والأمرَ باللُّبث للمعبودِين

ذهب جمهورُ المفسِّرين إلى أنّ ﴿أَنتُمۡ﴾ في قوله: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ ضميرُ فصلٍ غرضُه تأكيدُ الضَّمير المستَكِنِّ في ﴿مَكَانَكُمۡ﴾، وهو المسوِّغُ للعطف عليه، وفيه مِنَ التَّهديدِ بالتَّصدِّي لهم ومواجهتِهم ما فيه، ﴿وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ عطفٌ على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (مكن).
(3) الزّبيديُّ، تاج العروس، والمعجم الوسيط: (كون)، (مكن).
(4) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 5/3258.
(5) ابن منظور، لسان العرب، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (حلل).

ذلك الضَّمير المستَكِن، "وبهذا العطفِ صار الشُّركاءُ مأمورين باللُّبث في المكان"[1].

ويرى ابن عطيَّة: ﴿أَنتُمۡ﴾ رُفِعَ بالابتداء، والخبر مخزيّون أو مُهانون ونحوه، فيكون: ﴿مَكَانَكُمۡ﴾ قد تمّ، ثمَّ أَخْبَرَ أنَّهم كذا[2]. وضَعَّفَه أبو حيّان؛ لِفَكِّ الكلامِ الظّاهرِ اتصالَ بعض أجزائه ببعض، ولتقدير إضمارٍ لا ضرورةَ تدعو إليه، ولقوله: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾؛ إذ يدلُّ على أنَّهم ثَبتوا هم وشركاؤهم في مكان واحد حتَّى وقع التَّزْييلُ بينهم، وهو التَّفريق. ولقراءة مَن قرأ: (أنتم وشركاءَكُم) بالنَّصب على أنَّه مفعول معه، والعاملُ فيه اسمُ الفعل، ولو كان (أنتم) مبتدأً وقد حُذِف خبرُه، لما جاز أن يأتيَ بعدَه مفعولٌ معه[3].

وجه عطفِ الشُّركاء على المشركين:

الجمعُ بينَ المشركين والشُّركاء في الأمر، إظهارٌ لضعف المعبودين، وحَسْرةٌ لعابديهم

عطفَ البيانُ القرآنيُّ الشُّركاء على المشركين في قوله: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾، الذي أفاد الجمعَ بينَ الشُّركاء والمشركين، في الأمر لهم بالانتظار حتَّى يُنظَر ما يُفعل بهم، وفي هذا الجمع إظهارٌ لضعفِ معبوداتهم وعجزها عنِ الإجابة، وقد كانوا يترجَّونها ويعبدونها مُتأمِّلين شفاعتَها لهم[4]، إذ لا يمكنها مخالفةُ الأمر حينَها، وفي هذا مِنَ الحسرة للمشركين ما فيه.

سِرُّ إضافة الشُّركاء إلى ضمير المخاطَبين:

في الإضافة تهكُّمٌ بالمشركين وبيانٌ لافترائهم

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الشُّركاء إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ تهكُّمًا بهم، لاعتقاد المخاطَبين ذلك، والمعنى: الزموا مكانَكُم أنتُم والذين زعمتُم أنَّهم شركاء[5]، وللإشارة إلى أنَّ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/150.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/117.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/50.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/107.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.

من عبدوهم لم يكونوا في يومٍ مِن الأيام شركاءَ للّه، وإنَّما المشركون هم الذين وصفوهم بذلك افتراءً وكذبًا[1].

معنى الفاء في: ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾:

التَّعقيبُ يُفيدُ كمالَ وَهْنِ العلاقةِ والوُصْلَةِ بينَ المشركين ومَن حسبوهم شفعاءَ لهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ عاطفةٌ، ومعناها: التَّعقيبُ الذي يقتضي التَّرتيبَ الزَّمنيَّ في حصول معطوفِها إثْرَ المعطوفِ عليه، أي: تدلُّ على وقوع التَّزييلِ ومباديه عَقيبَ الخطابِ من غير مُهلةٍ؛ إيذانًا بكمال رخاوةِ ما بينَ الفريقينِ مِنَ العلاقة والوُصلةِ، أي: فَفرَّقْنا بَيْنَهُم وقطَّعنا أقرانَهم والوُصَلَ التي كانت بينَهم في الدُّنيا، لكن لا مِنَ الجانبين، بل من جانب العَبَدةِ فقط؛ لعدم احتمالِ شمولِ الشُّركاءِ للشَّياطين في الآية، فخابت آمالُهم، وانصرمَتْ عُرَى أطماعِهم، وحصل لهم اليأْسُ الكُليُّ مِن حصول ما كانوا يَرجونه مِن جهتهم، وخاصَّةً بعد ما حصل لهم مِنَ اليقين بالمشاهدة والمشافهة[2].

إيثارُ لفظِ: (زيّلنا):

التَّزييلُ بينَ المشركين وشركائهم تباينٌ وتفريقٌ وتمييزٌ بينَهم، وتقطيعُ صِلةِ الوَصل بينَهم

أتى البيانُ الإلهيُّ بفعل (زيَّل) في قوله: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾، ولم يقلْ مثلًا: (باعدنا بينهم) أو (فرقنا بينَهم)؛ لأنَّ فعل زيَّل أنسبُ للسِّياق، وإيصالِ المعنى المراد ووصفِ حالهم؛ إذ إنَّ لفظ (زيَّل) يحملُ معانيَ إضافيَّةً على معاني الألفاظ الأُخرى، ففيه معنى التَّباينِ والتَّفريقِ والتَّمييزِ والتَّقطيع، وتباعدِ ما هو متَّصلٌ بالأصل، فدلَّ لفظُ التَّزييل على وقوع التَّفريق بينَ الفريقين، وتقطيعِ صِلةِ الوصلِ التي كانت بينَهم، فتباعدوا، وتباينوا، وتمايزَ كلُّ فريقٍ مِنَ الآخر.

(1) طنطاويٌّ، التَّفسير الوسيط: 7/61.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/61.

سِرُّ التَّعبير بالماضي:

ما حَكَمَ الله أنَّه سيكون هو كالكائنِ الرّاهنِ؛ فَتَفرُّقُهم أمرٌ مُحقَّقُ الوقوعِ

أتى البيانُ الإلهيُّ بالفعل الماضِي في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ بعد قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾، مع أنَّ المعنى: (فنزيِّلُ بينَهم)؛ لأنَّه معطوف على مستقبل؛ فالتَّزييلُ مُنتَظَرٌ لمّا يأتِ؛ إذ رَتَّبه زمنيًّا على إلزامهم اللُّبثَ في مكانهم، ولكنَّ البيانَ القرآنيَّ آثرَ التَّعبيرَ بالماضي للدّلالة على تحقُّقِ وقوعِ التَّفريق بينَ المشركين وما يعبدون من دون اللّه، لكون ما حَكَم اللّه فيه بأنْ سيكون هو كالكائن الرّاهن الآن، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 1]، وفيه - كذلك - زيادةُ توبيخٍ وتحسيرٍ[1].

ومثلُه في هذا تعبيرُه بالماضي في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾، إذ هو معطوفٌ كذلك على مستقبل[2].

عِلَّةُ التَّضعيف في الفعل (زَيَّلْنا):

الـكـافـرون مُـتـعـلِّـقـون بـأصـنـامـهـم وبأوهامهم فيها

مع أنَّ الفعل (زيَّل) مضاعف (زال) المتعدِّي، من قولهم: زِلْتُ الشَّيء أُزيلُه، إذا فَرَّقتُ بينَه وبينَ غيرِه وأبَنْتُه منه، إلّا أنَّ البيانَ الإلهيَّ عبَّر بفعل التَّزييل مُضعَّفًا، فقال سبحانه: ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾، ولم يقل: (فَزِلْنا بينَهم)؛ وعِلَّة هذا التَّضعيف تكثيرُ الفعل، وهو التَّفريق، وتكريرُه لا التَّعدِيَة[3]، "فَزَيَّل فعلٌ للمبالغة في الزَّيْلِ، مثلَ فَرَّقَ مبالَغةً في فَرَقَ، والمعنى: وقع بينَهم تفريقٌ قويٌّ بحيث انقطعتْ جميعُ الوُصَلِ التي كانت بينَهم"[4]، فَوَصْفُ التَفريق بالقويِّ الكثيرِ المتكرِّر إشارةٌ إلى شِدَّة تعلُّقِهم بأصنامهم وبأوهامهم في هذا الموقف بما يزيدُهم حَسْرةً.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/244، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/51.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/78، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/139.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.

دلالاتُ ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾:

دلالـةُ (بينَـهم) بـينَ الـتَّـفـريـقِ الـحِـسِّيِّ والـتَّـفـريـقِ المعنويِّ

اختلف المفسِّرونَ في دلالات ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ على ثلاثة آراء:

الأوَّل: فَرقْنا بينَهم وبينَ المؤمنين، ذكَرَهُ السّيوطيُّ في تفسير الجلالين، وقد ضَعَّفه الصّاويُّ في حاشيته على الجلالين فقال: "وهو بعيدٌ مِن سابق الكلام ولاحِقِه"[(1)]؛ إذ هو في ذِكْرِ مُحاجَّةِ أهلِ الشِّركِ مع معبوداتهم.

الثّاني: ميَّزنا بينَهم وبينَ معبوداتهم، وقَطعنا ما كان بينَهم مِنَ التَّواصل في الدُّنيا، وهذا الرَّأيُ هو الأقرب؛ لأنَّ الكلام فيه[(2)]، وهذا ما رجَّحَهُ ابنُ عاشور بقوله: "والتَّزييل هنا مجازيٌّ، فيشمَلُ اختلافَ القول"[(3)].

الثّالث: باعدنا بينَهم بعد الجمعِ في الموقفِ وتبرُّؤ شركائهم منهم ومِن عبادَتهم، أي: المرادُ بالتَّزييل التَّفريقُ الحِسيُّ، كما في قوله تعالى: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ۝٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [الزمر: 73 - 74]، والواو في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ على هذا التَّفسير حاليةٌ لا عاطفةٌ، كما في التَّفسير الأوَّل والثّاني، لاستدعاء المحاوَرةِ المحاضرةَ الفائتةَ بالمباعَدة[(4)].

فائدة الالتفات مِنَ الخطاب إلى الغيبة:

الـتَّـهـديـدُ بالمواجهةِ أشَدُّ مِـنَ الـغَـيـبـة، ومـقـامُ الـغَـيـبـة والتَّبعيدِ لائِقٌ بالمشركين

التفتَ البيانُ الإلهيُّ مِنَ الخطاب بقوله: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾، إلى الغَيبة بقوله: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾، والأصل: (فزيلنا بينَكم)[(5)]، لما في الخطاب - بداية مخاطبة المشركين - مِنَ التَّنبيه

(1) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 794.
(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 794.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.
(5) السّامرائيُّ، لمسات بيانيَّة لسور القرآن الكريم: 5/348.

الشَّديد لهم، والتَّهديد بالمواجهة والتَّصدِّي لبيان شِرْكهم؛ إذِ التَّهديدُ بالمواجهة أَشَدُّ مِنَ التَّهديد بالغَيبة، والإيماءُ بأنَّ حالهم لا يَغيبُ عنه سبحانَه، ثمَّ إنَّه التفتَ عنهم بعدَ هذه المواجهة إشارةً إلى مَقْته لهم وتبعيدِه إيّاهم؛ إذ إنَّ مقامَ الغَيبة الذي هو مقام المَقْتِ والتَّبعيدِ والطَّرد، لائقٌ بمن كانت صفتُه الإشراكَ باللّه.

نُكْتَة الإضافةِ: ﴿شُرَكَآؤُهُم﴾:

تهكمٌ وتحسيرٌ، فالشُّركاءُ الشُّفعاءُ ضِعافٌ، يطلبون البراءةَ والنَّجاةَ مِن إثم أتباعهم

أضاف البيانُ الإلهيُّ الشُّركاءَ إليهم في قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾، أي: سمّاهم شركاءَهم؛ لوجوه: الأوَّل: أنَّه يكفي في الإضافة أدنى تعلُّقٍ، فلمّا كان الكفّار هم الذين أثبتوا هذه الشِّركةَ وانتحلوها لهم فعلًا - وإن لم يقولوها قولًا - حَسُنَتْ إضافةُ الشُّركاء إليهم[1].

الثّاني: أنَّهم جعلوا نصيبًا مِن أموالهم لتلك الأصنام، فَصَيَّروها شركاءَ لأنفسهم في تلك الأموال.

الثّالث: أنَّه تعالى لـمّا خاطب العابدِينَ والمعبودِينَ بقوله: ﴿مَكَانَكُمۡ﴾ صاروا شركاءَ في هذا الخطاب[2].

وفي إضافة الشُّركاء إليهم تهكُّمٌ وتحسيرٌ؛ إذ إنَّ هؤلاء الذين اتَّخذوهم شركاءَ شفعاءَ يعبدونهم من دون اللّه، هؤلاءِ الشُّركاء هم ضِعافٌ، يطلبون البراءةَ مِن إثم أتباعِهم، ويجعلونَ اللّه وَحْدَه شهيدًا، ويطلبون النَّجاةَ مِن إثمٍ لم يُشارِكوا فيه!.

دلالة النَّفي بـ ﴿مَّا﴾:

نفيُ المعبودين عِلْمَهم باتِّخاذهم شركاءَ لله، نفيٌ مُؤكّدٌ قاطعٌ في الماضي والحاضر

النَّفيُ بـ ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ نفيٌ مؤكّدٌ قاطعٌ، وذلك لوجوه؛ الأول: لأنَّه نفيٌ في الماضي والمستقبل، إذ إنَّ (ما) تُستخدم لنفي كلٍّ مِنَ الفعل الماضي والمضارع على حَدٍّ سواء، بخلاف (لا)، فإنَّها تختصُّ بنفي الفعل الماضي، كقوله تعالى: ﴿فَلَا

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/244.

﴿صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: 31]، أي: (لا عبدتمونا)، وبخلاف (لم، لمّا) فإنَّهما يختصّان بنفي الفعل المضارع، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ [آل عمران: 142]، وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: 24]، أي: (لم تعبدونا، ولمّا تعبدونا). الثاني: لِقوَّة النَّفي بها؛ فإنَّها تقع جوابًا للقَسَم، تقول: (واللّه ما هو بمنطلقٍ)، والقَسَمُ وجوابُه يُفيدان التَّوكيد. الثالث: لأنَّ (ما) كثيرًا ما تكون ردًّا على كلام، أو ما نزل هذه المنزلة، وقد جاءت في هذه الآية تبرُّؤًا مِنَ الكافرين وادِّعائِهم أنَّهم رَضوا بعبادتهم، أو أمروهم بها.

والمعنى بناءً على ما سبق مِنَ النَّفي بـ(ما): أنَّ ما كانوا يُسَمّونَه عبادةً، ليس عبادةً مطلقًا، وأنَّ مَن خَصّوهم بالعبادةِ يُنكرونها، فليسوا أهلًا لأيَّةِ عبادةٍ، وقد قالوا لهم نافين نفيًا باتًّا: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، فما عبدتمونا، ولكن عبدتُم أوهامَكم، وما حسبتُموهُم آلهةً، بإيعاز الشَّيطان[1].

إيثارُ فعلِ الكَون ماضيًا مجموعًا:

اجتمعوا في الدُّنيا على الشِّركِ والإضلالِ، فجمعَهُم الله في الآخرة على الإذلال

آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ فعل الكَون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ على لسان الشُّركاء؛ للدّلالة على تأكيد نفي وقوعِ عبادتِكم إيّانا، وتحقُّقها بعِلْمنا وأَمرنا، وإن كان هذا الشِّركُ وهذه العبادة قد وقعا مِنَ المشركين بالفعل.

والجمع بينَ الماضي في ﴿كُنتُمْ﴾، والمستقبل في ﴿تَعْبُدُونَ﴾، والتَّعبير بالجملة الاسميَّة التي تُفيد الثُّبوت والدَّوام، دَلَّ على استمرار الفعل منهم، وأنَّهم كانوا ثابتين على الكفر.

وأتى بفعل الكَون مجموعًا؛ للإشارة إلى أنَّهم كانوا مجتمعين على الشِّرك، يَحثُّ بعضُهم بعضًا، ويُضِلُّ بعضُهم بعضًا، بالتَّرهيب

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.

وبالتَّرغيب، وللتَّناسب معَ ألفاظ الآية التي جاءت كلُّها بصيغة الجمع: ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾، ﴿جَمِيعٗا﴾، ﴿لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾، ﴿مَكَانَكُمۡ﴾، ﴿أَنتُمۡ﴾ ﴿وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ التي تُشير إلى أنَّهم كما اجتمعوا في الدُّنيا على الشِّرك والإضلال، فإنَّ اللّه يجمعُهم في الآخرة على المهانة والإذلال، فالمرءُ يُحْشَر مع مَن أحبَّ، وتشير أيضًا إلى أثر الصُّحْبة الفاسدة الضّالَّة في الفرد والمجتمع.

بلاغة المجاز في الآية:

عبادةُ المشركين كانت في الحقيقة لأهوائهم الآمِرة بالإشراك، وبإيعازٍ مِنَ الشَّيطان

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾ مجازٌ عن براءة المعبودين مِن عبادة الكُفّار، فإنَّهم إنَّما عَبَدوا في الحقيقة أهواءَهم الآمِرةَ بالإشراك[1]، وبيانُ ذلك: أنَّ كلامَ الأصنام يُفيد نفيَ أن يكونوا عَبَدوهم، بل عَبَدوا غيرَهم، وهذا لا يمكن حَملُه على الحقيقة؛ لأنَّ الواقع أنَّهم عَبَدوهم وعَبَدوا غيرَهم، فكيف أتى نفيُ عبادتِهم إيّاهم في كلام أصنامهم؟ وهو كلامٌ خَلَقَه اللّه فيهم، فكيف يكون كذبًا؟

والجواب: أنَّ قولَهم هذا مجازٌ؛ أي: أن يكون آخِر كلام الأصنام - وهو: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ - مبيِّنًا لِما أَجْمَلَه أوَّلُه، بأنَّهم نَفَوا أن يكونوا عَبَدوهم عبادةً كاملةً، وهي العبادة التي يَقْصِد منها العابدُ امتثالَ أمرِ المعبود وإرضاءَه، فتقتضي أن يكون المعبودُ عالمًا وآمِرًا بتلك العبادة، ولمّا كانتِ الأصنام غيرَ عالمين ولا آمِرين، استقام نفيُهم أن يكون عَبَدَتُهم قد عَبَدوهم تلك العبادةَ، وإنَّما عَبَدوا غيرَهم، ممَّن أَمَروهم بالعبادة، وهم الشَّياطين[2].

بلاغة نفي القَصْر بنفي ضمير النَّصب المُتَقدِّم:

دلالةُ نفي القَصْر هي نفيُ الشُّركاءِ المعبوديَّةَ عن أنفسهم

القَصرُ مفهومٌ من قوله: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾، بتقديم

(1) الزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 11/158.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/151 - 152.

المفعول ﴿إِيَّانَا﴾ على فعله ﴿تَعْبُدُونَ﴾، وظاهرُه: أنَّه قصرُ قَلْبٍ، ومِنْ ثَمَّ: فإنَّ البيانَ الإلهيَّ نفى القَصْرَ في الآية، والمعنى: نَفْيُ المعبوديَّة عن أنفسهم، وإثباتُها لغيرهم، أي ليس نفيًا لأصل العبادة، فإنَّهم يُثْبِتونها في قولهم: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، فإنَّ إضافة المصدر إلى معموله يُفيد الثُّبوتَ.

وجه التَّعبير عن عبادتهم بالمضارع المجموع:

عبَّر القرآنُ عن عبادتهم بالمضارع بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ليَسْتَحْضِرَ المشركون الحالَ التي كانوا عليها مِن عبادة الأصنام، ويُثيرَ في المخيلة صورةً لأفعالهم الشِّركيَّةِ المستمرَّة والمتجَدِّدَة، بما يُظْهِرُ لهم سوءَ فِعْلِهم وقُبْحَ جريمتهم.

استحضارُ أفعال الكافرين الشِّركيَّةِ المستمِرَّة المتجدِّدَة يُظْهِرُ قُبْحَ جريمتِهم

واستحضارُ الحال، أو ما يُعْرَف بحكاية الحال الماضيَة، إنَّما يكون في الأمر العظيم، وأيُّ أمرٍ أعظمُ مِنَ الإشراك باللّٰه وعبادةِ غَيْرِه سبحانَه.

وجاءتْ صيغةُ المضارع التي تُفيدُ الاستمرار والتَّجَدُّدَ؛ للإشارة إلى أنَّ شِركَهم وعبادَتَهم لهذه الأصنام كان أمرًا مُلازمًا لهم، ومستَمِرًّا منهم، وجاءت صيغةُ الجمعِ مناسبةً لحالهم، فقد اجتمعوا وأجمعوا على الشِّرك، وعبادةِ الأصنام، ودَعَوا إليها، وحاربوا الحقَّ في سبيلها.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّزييل، والتَّبعيد، والتَّفريق، والتَّمييز:

التَّزييلُ تباينُ ما هو مُتَّصِلٌ وتباعُدُه، والتَّبعيدُ تفريقٌ، والتَّفريقُ فَصْلٌ واصلٌ إلى العمق، والتَّمييز عَزْلٌ وفَرْزٌ

(التَّزييل): التَّباين، والتَّفريق، والتباعدُ بينَ ما هو متَّصِل في الأصل بعضُه عن بعض، والتَّمييزُ، والانصرافُ مِن حالٍ إلى حال[1].

و(التَّبعيد): البُعْد بالضَمِّ: خِلافُ القُرْبِ، وهو المجانبةُ والمجافاة،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فرق).

ومفارقةُ جِرم الشَّيء آخَر معيَّنًا بمسافة ممتدَّة تحجِزُه عن مُلاقاته، وباعد بينَ الشَّيئين: فرَّق بينَهما[1].

و(التَّفريق): يدلُّ على تمييز وتزييل بين شيئين، والفَرْقُ: فَصْلُ بعضِ الشَّيء، أو أشياءَ بعضِها من بعضها الآخَر فصلًا واصلًا إلى العُمق، وجعلُ الشَّيء مفارقًا لغيره، حتَّى يتباينا ماديًّا أو معنويًّا[2].

و(التَّمييز): تزيُّلُ شيءٍ مِن شيء، ومازَ الشَّيء: عَزلَهُ، وفَرَزَه، ونَحّاهُ، وفَصَلَ بعضَه عن بعض، وامتازَ وتمايزَ القومُ: تَنَحَّى بعضُهم عن بعضٍ وتفرَّقوا[3].

ممّا سبق: يتَّضِحُ أنَّ (التَّزييل) يحمل معنى التَّباينِ، والتَّفريق، والتَّمييز، والتَّقطيع، وتباعدِ ما هو مُتَّصِلٌ بالأصل، في حين يحمِل (التَّبعيد) معنى المجافاةِ والمفارقة، أمّا (التَّفريق) فيحمِل معنى التَّمييز والتَّذييل، والفَصْلِ الواصلِ إلى العمق، و(التَّمييز) يحمل معنى التَّزييل، والعَزل، والفَرْز، والفَصْل، والتَّنحيَةِ والتَّفريق.

ومن هنا: فخصوصُ معنى التَّزييل بما يَتَضَمَّنُه من دلالةٍ على التَّفريق، والتَّمييز، والتَّقطيع، وتباعدِ ما هو مُتَّصِل بالأصل، هو عِلَّة اصطفائه في سياق الآية؛ وذلك لكون الاتِّصال بينَهم وبينَ ما يعبدون مِن دون الله شديدٌ، حتَّى وُصِفوا بالشُّركاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (بعد).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فرق).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ميز).

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾ [يونس: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تأكيدُ التَّبرُّؤِ من عبادةِ المشركين بشهادةِ الله الحقِّ

بعدَ أن تَبرَّأَ الشُّركاءُ مِن عِبادةِ عابديهم في الآية السّابقة: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾، استشهدوا بالله على براءَتهم مِن عبادة المشركين، قائلين: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، أي: فحَسْبُنا الله شاهدًا بيننا وبينَكم أيُّها المُشرِكونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا مِن غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم إيّانا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَكَفَىٰ﴾: الكافُ والفاءُ والحَرْفُ المعتَلُّ أَصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على الحَسْبِ الذي لا مُسْتَزادَ فيه، يُقالُ: كَفاكَ الشَّيءُ يَكفيكَ، وقد كَفَى كِفايةً، إذا قامَ بالأَمرِ[2]، واستكفيتُه أَمرًا فكفانِيَه، وكفاكَ هذا، أي: حَسْبُكَ[3]، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي، والجَمعُ كُفًى[4]. والمقصود بـ (كَفى) في الآية: أَجْزَأَ وأَغْنَى عن غيره.

2) ﴿شَهِيدًا﴾: أَصْلُ شَهِدَ: يَدلُّ على حُضورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلامٍ[5]، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطْلَقُ بِمعنى الإِخْبارِ والإِعْلام، يُقالُ: شَهِدَ بِالأَمرِ، إذا أَخْبَرَ بِهِ وأَعْلَمَ غَيْرَهُ بِهِ[6]، فالشَّهادَةُ: إِخْبارٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/172، والواحديُّ، التَّفسير البسيط: 11/183، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/334.
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفى).
(3) الخليل، العين: (كفي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (شهد).

عن عِلْمٍ يَحْصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤْيَةِ، ونَحْوِ ذلك، والشَّهيدُ: الشّاهِدُ، وَهوَ المُؤَيِّدُ والمُصَدِّقُ لِدَعْوَى مُدَّعٍ[1]، وهو المراد هنا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين وانقطاعُ أملِهم في شفاعةِ المعبودين

يُخبر الله تعالى عن تأكيدِ شركاءِ المشركين براءَتَهم مِن عبادةِ عابديهم، بالرُّجوع إلى الشَّهادة الحَقِّ في ذلك، أي: باستشهادهم بالله على براءَتِهم مِن قول المشركين لهم في موقف الحشر: (إيّاكُم كنّا نعبد)، قائلين لهم: فحَسْبُنا الله شاهدًا بيننا وبينكم، أيُّها المُشرِكونَ؛ فإنَّه قد عَلِمَ أنَّكم عَبَدتُمونا من غيرِ أن نأمُرَكم، ومِن دونِ أن نَشعُرَ بعِبادتِكم لنا[2]، وفي هذا تبكيتٌ عظيمٌ للمشركين الذين عبدوا مَعَ الله غيرَه، ممَّن لا يَسمَعُ ولا يُبصِر، ولا يُغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك، ولا رَضِيَ به، ولا أراده، بل تَبرَّأ منهم في وقتٍ أحوجَ ما يكونون إليه[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصل في الآية:

كفى بشهادةِ الله شهادةً بينَ المعبودين والمشركين

هذه الآية كالتَّتِمَّة للآية السّابقة؛ فقدِ استشهد المعبودون في هذه الآية على ما قالوه للمشركين، في الآية السّابقة: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، وذلك بالشَّهادةِ الحَقِّ، شهادةِ العليم الخبير، الذي ليس بعد شهادته شهادةٌ.

دلالة العطف بالفاء:

فرَّعَ على غرابةِ خبرِ نفي أن يكونوا يعبدونهم، ما يُحقِّقُه ويُبَيِّنُه ويُؤَكِّدُه

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ عاطفة، والمعطوف عليه قوله تعالى: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، والغرضُ: هو تأكيدُ قولهم، وتبرُّئِهم من عبادةِ عابديهم[4]؛ لأنَّ هذه الفاء هي فاءُ التَّفريع،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/172، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/334، والشَّوكاني، فتح القدير: 2/500، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/62.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/231.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.

للدّلالةِ على أنَّ القَسَم مُتفرِّعٌ على الكلام المتقدِّم؛ لأنَّ إخبارَهم بنفي أن يكونوا يعبدونَهم خبرٌ غريبٌ مخالفٌ لما هو مُشاهَد، فناسَبَ أن يُفرِّعَ عليه ما يُحقِّقُه ويُبيِّنُه، مع تأكيدِ ذلك بالقَسَم.

والإتيانُ بفاء التَّفريع عند تعقيب الكلام بجملة قَسَمِيَّةٍ مِن فصيح الاستعمال، ومِن خصائصه: أنَّه إذا عطفَ بفاء التَّفريع كان مُؤكِّدًا لما قبلَه بطريق تفريع القَسَم عليه، ومُؤكِّدًا لما بعدَه بطريق جواب القَسَم به[1]، وهو قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾.

توجيه التَّعبير بلفظ: (كفى):

الله هو الحَسْبُ القائمُ بالأمر، الغنيُّ عن غيره

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ (كفى) في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا﴾؛ لأنَّ لفظ (كفى) يحمل معانيَ أبلغَ مِن غيره، وأنسبَ للسِّياق؛ إذ مِن معاني (كفى): الحَسْبُ الذي لا مُستَزادَ فيه، يقال: كفى كِفايَةً؛ إذا قام بالأمر[2]، وفيهِ أيضًا معنى الغِنَى والاستغناء عن غيره، وسَدِّ الخَلَة، وبلوغِ المُراد في الأمر، والتَّعبيرُ بهذا الفعل (كفى) لما فيه من تقويَةِ اتِّصافِ فاعلِه - وهو اللّٰه في الآية - بوصفٍ يدلُّ عليهِ التَّمييزُ المذكورُ بعدَهُ، وهو (شهيدًا)، أي: أنَّ فاعل (كفى) أجدَرُ مَن يتَّصِفُ بذلك الوَصْفِ، ولأجل الدّلالةِ على هذا؛ غَلَبَ في الكلام إدخالُ باءٍ على فاعل فعل (كفى)، وهي باءٌ زائدةٌ لتوكيد الكفاية، بحيث يحصل إبهامٌ يشوِّقُ السّامعَ إلى معرفةِ تفصيلِه، فيأتون باسم يميز نوعَ تلك النِّسبة؛ ليتَمَكَّنَ المعنى في ذِهْنِ السّامع[3].

معنى الباء في: ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الباءُ بينَ تأكيدِ ما بعدَها، والمبالغةِ في المدح

الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱللَّهِ﴾ تحتمل معنيين؛ الأوَّل: أنَّها دخلت توكيدًا للكلام؛ إذ سقوطُها ممكن، كما يقال: خُذْ بالخطام، وخُذِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفا).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/73.

الخطامَ[1]، أي: كونها زائدةً تُقوِّي معنى الشَّهادة، أي: كفانا اللّه تعالى شاهدًا في بُطلان ما تَدَّعوه مِن أنَّكم كنتم تعبدوننا، ثمَّ أكَّدوا أنَّهم كانوا لا يعلمون: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾[2]. والآخَر: أنَّها دخلت للمبالغة في المدح، كما قالوا: أظْرِفْ بعبد اللّه، وأَنْبِلْ بعبد الرَّحمن، وناهِيْكَ بأخينا، وحَسْبُكَ بصديقنا[3].

فائدة التَّعبير عن شهادته تعالى بصيغة (فعيل):

شهادتُهُ سبحانَه أبلغُ شهادة، وهي دائمةٌ ثابتةٌ

عبَّر القرآنُ عن شهادة اللّه تعالى في قوله: ﴿شَهِيدًا﴾ بصيغة (فعيل) بمعنى فاعل، أي: شهيد بمعنى شاهد، ولم يعبِّر بلفظ: (شاهد)؛ وذلك مبالغة في الشَّهادة؛ لأنَّ شهيدًا مِن صيغ المبالغة، فهي صفة مشبَّهةٌ تُفيد الثُّبوتَ والدَّوامَ، فشهادتُه ثابتةٌ دائمةٌ، وليست أمرًا عارضًا.

زِدْ على ذلك أنَّ لفظة (شهيد) أوسعُ دلالةً مِن (شاهد)؛ لذلك مِن أسماء اللّه الشَّهيد، لا الشّاهد، لأنَّه سبحانَه "المطَّلِعُ على ما لا يعلمه المخلوقون إلّا بالشُّهود، وهو الحضور، ومعنى ذلك: أنَّه وإن كان لا يوصَف بالحضور الذي هو المجاورة والمقاربة، فإنَّ ما يجري ويكون مِن خَلْقه لا يخفى عليه"[4]، فهو مطَّلِع على جميع الأشياء، سميعٌ لجميع الأصوات، خفيِّها وجَلِيِّها، ومُبصِرٌ جميعَ الموجوداتِ، دقيقِها وجليلِها، صغيرِها وكبيرِها، ومحيطٌ عِلْمُه بكلِّ شيء، الذي شَهِد لعباده وعلى عباده بما عملوه[5].

وجه نصب: ﴿شَهِيدًا﴾:

اللّه هوَ الشّاهِدُ الحقُّ، الكافي بينَنا وبينَكم لا غيرُه

انتصب ﴿شَهِيدًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على التَّمييز؛

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التَّفسير: 2/328.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/152.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3557.
(4) الحليميُّ، المنهاج في شُعب الإيمان: 1/200.
(5) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 948.

لنسبة الكفاية إلى اللّه، لما فيها مِنَ الإجمال[1] الذي يحتاج إلى بيان، ولذلك قالوا: انتصب على التَّمييز لقبوله (مِن)، أي: مِنَ الشُّهداء.

فائدة التَّوكيد بالقسَم في: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾:

قَسَمُ المعبودين باللّه إثباتٌ لبراءَتِهم مِن عبادةِ المشركين لهم

جملة: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ مُؤكَّدَة بالقسَم؛ لأنّ (كفى) صيغةُ خبرٍ مستعمَلٍ في إنشاءِ القَسَم؛ وذلك ليُثبِتَ المعبودون براءَتَهم ممّا أُلْصِقَ بهم، مِن أنّهم أَمَروا المشركين بعبادتهم، فهم ما أَمَروهم ولا عَلِموا بعبادتهم، أي: جواب القَسَم: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾، وليس قولُهم: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ قسمًا على كلامهم المتقدِّم، وهو ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ لأنَّ شأنَ القسَم أنْ يكون في صدر الجملة[2].

وجه التَّعبير بالبَيْنِيّة وإضافتِها إلى الضَّميرين: ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾:

الشُّركاءُ والمشركون في موقفِ مُخاصَمةٍ وشهادَةُ الله هي الحَكَم

عبّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ (بين) في قوله: ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ التي لا تكون إلّا بين مُتَعدِّد، ويكون بينهم مسافة؛ فأفاد التَّعبير بالبيْنِيَّة أنَّ الشَّهادة تكون بين فريق الشُّركاء وفريق المشركين، بعد أن زيَّل اللّه بينَهم، فهم في موقفِ مخاصَمةٍ ومحاكمة، وأنَّ الشّاهدَ بينهم هو اللّه تعالى، وأضاف الضَّميرين إلى لفظ (بين) في قوله: ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾؛ لأنَّ (بين) ظرفٌ مُبْهَمٌ لا يَتبيَّنُ معناه إلّا بإضافته إلى اسمين فصاعِدًا، أو ما يقوم مقامَهما، فأضافَه إلى الضَّميرين ليَتبيَّنَ أنَّ هذه البَيْنِيَّةَ هي بينَ الشُّركاء والمشركين. وعَبَّر بالضَّمير ولم يأتِ بالاسم الظّاهر؛ لأنَّ المتكلِّمين همُ الشُّركاء، وهذا ظاهرٌ مِنَ السِّياق، وأعاد لفظ (بين) في قوله: ﴿وَبَيۡنَكُمۡ﴾ بعد ﴿بَيۡنَنَا﴾؛ ليُفيدَ التَّأكيد، فتَتَحقَّقَ المقابلةُ بينَهم، ويتأكَّدَ أنَّ شهادةَ اللّه بينَهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

(إنْ) بين التّأكيدِ والحصْرِ والتّحقيق

معنى ﴿إن﴾:

﴿إن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ تحتمل معانيَ؛ الأوَّل: مُخفَّفَةٌ مِنَ الثَّقيلة، واللّامُ فارقةٌ بينَها وبينَ النّافية، أي: إنَّه الأمر والشَّأنُ كنّا عَنْ عِبادَتِكُم لَغافِلِينَ، وهذا قول أغلب المفسِّرين[1]، والمعنى: حسبنا اللّه شاهدًا بيننا وبينَكم؛ فهو يعلم أنّا ما عَلِمنا بعبادتكم لنا، ولا أَمَرْناكم بها، وأنّا كُنّا عنها غافلين. الثّاني: نافية، واللّامُ بِمعنَى إلّا، والمعنى: ما كُنّا عن عبادتكم إلّا غافلين، لا نبصرُها، ولا نسمعُ بها، ولا نعقلُها؛ إذ كنّا جمادًا، وهذا ما فسَّر به الفَرّاء والطَّبريُّ والبَغويُّ، وغيرُهم[2]. الثّالث: بمعنى لقد، يعني لقد كُنّا عن عبادتكم لغافلين[3].

تأكيدُ عدم عِلْمِ المعبودين، وعدمِ أَمرِهم للمُشركين بالعبادة

نُكْتَةُ افتتاحِ جوابِ القَسَم بـ ﴿إن﴾ المخفَّفة:

افْتُتِحَ جوابُ القَسَم، وهو قولُه تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ بـ ﴿إن﴾ المخَفَّفَة؛ لإفادة التَّوكيد؛ أي: توكيدِ جوابِ القَسَم، وهو عدمُ عِلْمِ المعبودين، وعدمُ أمرِهم للمشركين بالعبادة؛ لأنّ جوابَ القَسَم إن كان جملةً اسميَّةً مُثبَتَةً فإنَّه يُؤكَّد بـ (إن) و(اللّام) أو بـ(إنَّ) فقط.

المبالغةُ في تأكيدِ المعبودين غفلَتهم عن عبادة المشركين؛ للتَّبرُّؤ منهم

بلاغة حَشْدِ المؤكِّدات:

أكَّد المعبودون تبرُّؤهم مِنَ المشركين - الذي يعلمه اللّه - بعِدَّة مؤكِّدات؛ وهي:

﴿إن﴾ المُخَفَّفة مِنَ الثَّقيلة، واسمُها ضميرُ الشَّأن المحذوفُ، ويدلُّ عليه الخبرُ، وهو: ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾، "ومعناها التَّوكيدُ كالثَّقيلة"[4].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/344، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/19، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/80، والبغويُّ، معالم التَّنزيل في تفسير القرآن: 2/418.

(3) موسى الأعور، الوجوه والنَّظائر في القرآن الكريم، ص: 21، والدّامغانيُّ، الوجوه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز، ص: 26، وابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 67.

(4) ابن نور الدِّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 63.

و(اللّام): الفارقةُ المزحْلَقَةُ التي تدخل على الخبر، والتي مِن أغراضها التَّوكيد.

و﴿كُنَّا﴾: جملة اسميَّةٌ أفادت التَّوكيد بما تَدُلّ عليه مِن استمرارٍ وثُبوت.

فبهذه المؤكِّدات قد أكَّدوا أنَّهم ما كانوا يعلمون عبادتهم لهم، وأنَّهم بُرآءُ مِن هذه العبادة، وأنَّهم ما كانوا يشعرون بهم، ولا بما ارتكبوا مِن إثمٍ مبين، وهو الإشراك باللّه تعالى، وهذا بيانٌ لسوءِ عملِ المشركين، وفسادِ اعتقادِهم، وضلالِهم الواضحِ المبين، وقد أرسل اللّه تعالى رُسُلَه فبيَّنوه لهم، وكذَّبوهم حتَّى حَقَّت عليهم كلمةُ العذاب، واللّه بكُلِّ شيء عليم(1).

معنى ﴿عَنْ﴾:

دلالةُ (عَنْ) على المجاوزة؛ بيانًا لبراءة المعبودين

يدلُّ حرفُ الجرِّ ﴿عَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ على المجاوزة، وهو الأصل في (عن)، كقولهم: (رميتُ السَّهم عنِ القوس)، أي: تجاوز السَّهْمُ القوسَ وابتعدَ عنه.

والمعنى بناء على ذلك: أنَّ عبادتكم أيُّها المشركون تجاوزتنا، فنحن غيرُ عالمين بها ولا آمرين، أي: لم تعبدونا على الحقيقة، وإنَّما عبدتُم غيرَنا ممَّن أَمَروكم بالعبادة، وهم الشَّياطين.

نُكْتَةُ الإضافةِ: ﴿عِبَادَتِكُمْ﴾:

عبادةُ المشركين للشُّركاء عبادةٌ اخترعوها ولم يعلم بها المعبودون

أضاف البيانُ الإلهيُّ العبادةَ إلى ضمير المشركين، في قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ إشارةً إلى معنى تبرُّؤ المعبودين مِنَ المشركين، ومِن افتراءاتهم في عبادةٍ اخترعوها، فهي مِن مخترعاتهم التي لا دليلَ عليها ولا بُرهانَ، ولم يعلمِ المعبودون بها، ولم يأمروا بها.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.

ما زعمه المشركون من عبادةٍ، سببُ هلاكِ المشركين، وخوفِ المعبودين مِنَ الهلاك

عِلَّة تقديم شِبه الجملة: ﴿عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ﴾:

قدَّم البيانُ الإلهيُّ شبه الجملة: ﴿عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ على عامله ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾، ولم يقل: (إن كنّا لغافلين عن عبادتكم)؛ للاهتمام بما زعمه المشركون مِن عبادة؛ إذ إنَّها سببُ هلاكِ المشركين، وخوفِ المعبودين مِنَ الهلاك، فضلًا عن رعاية الفاصلة[1]، فإنَّ أغلبها ينتهي بالياء والنون، أو الواو والنون: (خالدون، تعبدون، لغافلين، يفترون).

الأصنامُ غافلون عن عبادةِ المشركين تمامَ الغَفْلة

حذف (لنا) في: ﴿عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ﴾:

حَذَفَ البيانُ الإلهيُّ لفظ: (لنا) في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ إذِ التَّقدير: (إن كنّا عن عبادتكم لنا لغافلين)؛ وذلك لظُهوره مِنَ السِّياق، وللإيذان بكمال الغَفْلَةِ عنها، والغَفْلَةُ عبارةٌ عن عدم الارتضاء، وإلّا فَعَدَمُ شعورِ الملائكةِ بعبادتهم لهم غيرُ ظاهرٍ[2].

الغفلةُ أوسعُ دلالةً وهي من الأصنام المعبودين الغافلين مستمرةٌ

سِرُّ التَّعبير عنِ الغَفْلة باسم الفاعل مجموعًا: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الغَفْلة في قوله تعالى: ﴿عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾؛ لاتِّساع دلالة مادَّة الغَفْلة؛ إذ هي أعمُّ مِنَ النِّسيان، وأتى به بصيغة اسم الفاعل الذي يدلُّ على الدَّوام، أي: دوام غفلتهم، ودلَّ على أنَّها ثابتةٌ غيرُ محدودة بزمنٍ، فقد كانوا غافلين طوالَ مُدَّة عبادة المشركين لهم، غيرَ عالمين بها.

وأمّا التَّعبير باسم الفاعل (غافلين) مجموعًا؛ فلمناسبةِ السِّياق، إذِ السِّياقُ هو خِطابُ جماعة الشُّركاء لجماعة المشركين، وللدّلالة على أنَّ المقصودَ بالمعبودين هنا جماعةٌ واحدة، وهمُ الأصنام دونَ الملائكة وعيسى بن مريم، وفرعونَ والجنِّ؛ إذ هؤلاءِ لم يغفلوا قَطّ عن عبادة مَن عبَدَهم.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

كَفَى وحَسْب:

الـكـفـايـةُ الاسـتـغـنـاءُ وعدمِ الاحتياج إلى الإضافة

لا يكاد يظهر الفرق بين (كفى) و(حسب)، إذ يُعَرَّف كلٌّ منهما بالآخر في معاجم اللغة:

فـ(كَفَى): أصلٌ صحيح يدلُّ على الحَسْب الذي لا مُسْتَزادَ فيه، والكُفْيَةُ: القوتُ الكافي[1]، يقال: كفاكَ هذا الأمر، أي: حَسْبُكَ[2].

والـ(حَسْبُ): الكفايةُ، وحَسْبُكَ دِرْهمٌ، أي: كافيكَ، وأحسبني الشَّيءُ، أي: كفاني[3].

ومع أنّ هذين اللَّفظين قد عُرِّفَ كلُّ واحدٍ منهما بالآخَر، إلّا أنَّ فعل (كفى) قد اختصَّ ببعض المعاني، وهي: الغنى والاستغناء وعدمُ الاحتياج إلى إضافة؛ إذ يدلُّ على بلوغ الامتلاء، أو النُّموّ إلى الكمال المناسبِ دونَ زيادة[4]، و"سَدِّ الخَلَّة، وبلوغِ المراد في الأمر"[5]، ومساواةِ الشَّيء لمثله؛ فـ"كفى الشَّيءُ يكفي كفايَةً، فهو كافٍ؛ إذا حصل بهِ الاستغناء عن غيره، واكتفيتُ بالشَّيء: استغنيتُ به، أو قنعْتُ به، وكلُّ شيء ساوَى شيئًا حتَّى صار مثلَه، فهو مكافِئٌ له"[6]. وخصوصُ هذا المعنى في (كفى) هو عِلَّة اصطفائه في الآية؛ لما يحمله الاكتفاءُ باللّه تعالى ربًّا ومعبودًا، من دلالةِ كمال الغنى، وتمامِ الاستغناء المنعدم معه الحاجةُ إلى غيره.

الغَفْلَةُ، والنِّسيانُ، والسَّهْو، واللّهو:

الغَفْلَةُ أعمُّ مِنَ النِّسيان وأحد أسبابِ اللّهو، والسَّهْوُ نسيانٌ مع غفلة

تتقارب معاني هذه الألفاظ، وقد يختلط بعضُها ببعض، إلّا أنَّه بالرُّجوع إلى اللُّغة وإلى الاستعمال نلحظُ بعضَ الفروقِ الدَّقيقة بينها مِن عدَّة جهات، وهي على النحو الآتي:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كفا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (كفى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (حسب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كفى).
(5) الرّاغب، المفردات: (كفى).
(6) الفيوميُّ، المصباح المنير: (كفى).

(الغفْلة): غيبةُ الشَّيء عن بالِ الإنسان، وعدمُ تذكُّره له، فغفَلَ عنِ الشَّيء: تَركَه وسَها عنه عمدًا أو غير عمد، فلم يلتفت أو يتنبَّه له، إمّا لانشغاله بغيره، أو تَرْكه إهمالًا مِن غير نسيان، والغفْلة: الذُّهولُ عنِ الشَّيء، وسَهْوٌ يعتري مِن قِلَّة التَّحَفُّظ والتَّيقُّظ[1].

و(النِّسيان): مُشتَرَكٌ بينَ معنيين؛ أحدهما: تَركُ ضَبطِ ما استودع على ذُهولٍ وغفْلة، وهذا ضِدُّ الحِفْظ والذِّكر، والثّاني: التَّركُ على تعمُّد، حتَّى ينحذفَ عنِ القلب، وكلُّ نسيانٍ ذَمَّهُ اللّٰه تعالى؛ هو ما كان عن تَعمُّدٍ مِنَ الإنسان[2].

و(السَّهْو): سَها عنِ الشَّيء: غَفَل عنه، وذهب قلبُه إلى غيره، والسَّهْو والسَّهْوَة: نسيانُ الشَّيء والغَفْلَةُ عنه، (يذهب مِن خلال الذِّهْن، ولا يضبطُه الذِّهن أو يُمسكه؛ فتخلو منه أثناؤه)، وإنَّ في السَّهو إهمالًا وتراخيًا في ضبط المَسْهوّ عنه، وإمساكِه في القلب؛ أي: مَنْشَؤُه قِلَّة التَّحَفُّظ والتَّيقُّظ، ولهذا فالسّاهي مسؤولٌ، وذَمُّ السّاهين في الآيتين: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ١١﴾ [الذاريات: 11]، ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥﴾ [الماعون: 5]، يُحقّق هذه الملاحظة، فمعناه: لاهون غافلون، وقال ابن الأثير: "سَها في الشَّيء: تَركَهُ عن غير عِلْم، وسَها عنه: تركَه مع العِلْم"[3].

و(اللّهو): كلُّ ما يُشْغِل الإنسانَ عمّا يَعنيه ويُهِمُّه، واللّهو يدلُّ على شُغْل عن شيء بشيء، ولها عنِ الشَّيء: غَفَلَ عنه ونَسِيَه، وتَركَ ذِكْرَه وتشاغَلَ بغيره، إذِ اللّهو مبنيٌّ على الغَفْلة[4].

وخلاصَة ما يمكن تحريره من فروق بين هذه الألفاظ:

أنَّ الغَفْلة غيرُ النِّسيان؛ فالغَفْلة أنْ تُهمِل مسألةً كان يجب ألّا تُهْمَل، وألّا تغيبَ عن بالك، فهو فقدُ الشُّعورِ بما حَقُّه أن يُشْعَر به، أو تَرْكُ الشَّيءِ فيما حَقُّه ألّا يُتْرَك، أمّا النِّسيان فبعضُه خارجٌ عن إرادتك[5].

والغَفْلة أعمُّ مِنَ النِّسيان؛ فالغَفْلة عبارةٌ عن عدم التَّفَطُّن للشَّيء، وعدمِ حضور

(1) الرّاغب، المفردات، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (غفل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والفيوميُّ، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (نسي).
(3) الفيوميُّ، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سهو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (لهو).
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 15/9476.

الشَّيء في البال بالفعل، سواءٌ بقيتْ صورتُهُ أو معناه في الخيال أو الذِّكْر، أو انمحت عن أحدهما. أمّا النِّسيان فهو عبارة عن عُزوب الشَّيء عنِ النَّفس بعدَ حضوره لها، معَ انمحاء صورةِ الشَّيء أو معناه عنِ الخيال أو الذِّكْر بالكليَّة، ولذلك يحتاج النّاسِي إلى تَجشُّم كَسْبٍ جديدٍ وكُلْفَةٍ في تحصيله ثانيًا(1).

والغَفْلَةُ غيرُ السَّهو؛ فالغَفْلة تكون عمّا يكون، والسَّهو يكون عمّا لا يكون، تقول: غَفَلْتُ عن هذا الشَّيء حتَّى كان، ولا تقول: سهوتُ عنه حتَّى كان؛ لأنَّك إذا سهوتَ عنه لم يكن، ويجوز أن تَغْفُل عنه ويكون، وفَرقٌ آخَر: أنَّ الغَفْلة تكون عن فعل الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلان، ولا يجوز أن يُسْهَى عن فِعْل الغَير(2).

والسَّهْوُ نسيانٌ مع غَفْلة، فالسَّهو غفلةٌ يسيرةٌ عمّا هو في القوَّة الحافظة يتَنبَّه بأدنى تنبيه، والنِّسيان زوالُه عنها بالكليَّة، بحيث يَحتاج إلى تحصيل جديد(3).

والغَفْلة غيرُ اللّهو؛ فاللّهو مبنيٌّ على الغَفْلة، إذِ الغَفْلة أحدُ أسبابِ اللّهو، كما أنَّه لا بُدَّ في اللّهو مِن تشاغل الإنسان عن أمر يَهُمُّه، بأمرٍ لا فائدةَ منه، بينما لا يُشْتَرط في الغَفْلة أن يكون مُنشَغِلًا بشيء.

ولـمّا كانتِ الغَفْلة إهمالَ مسألةٍ كان يجب ألّا تُهمَل، وألّا تغيب عنِ البال، ومِن معانيها الغَفْلة عن فعل الغير؛ اختيرتْ في فاصلة هذه الآية المباركة، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ لكون فِعْل عبادة اللّه الصّادر مِن غيرهم، لا ينبغي أن يُهمَل أو يُغْفَل عنه.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 388.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية: ص 388.
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (سهو).

﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٣٠﴾ [يونس: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ شهادةِ الحقِّ سبحانَه وَجَدَتْ كلُّ نفسٍ جزاءَ عملِها

لـمّا أخبر اللّٰه تعالى عن حال المشركين، وتبرُّؤ المعبودين منهم مستشهدين باللّٰه في قوله: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ تشوَّفت النَّفس إلى الاطِّلاع على حال غيرهم، فقال مستأنفًا مُخبرًا عن كِلا الفريقين: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾، أي: في ذلك الموقف مِنَ المكان والزَّمان العظيمِ الأهوالِ تبلو كلُّ نفس طائعةٍ وعاصية ما أسلفت[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبۡلُواْ﴾: أصلُ الابْتِلاءِ: الاختِبارُ والامتِحانُ، يُقال: بَلَوتُ الرَّجلَ، وابْتَلَيْتُه، أي: امتَحَنتُهُ واختَبَرتُهُ وجَرَّبتُهُ[2]. وبَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلَق، وكأنِّي أَخْلَقْتُه مِن كَثْرة اختباري له[3]، وأصلُ الابْتِلاءِ مِنَ البَلاءِ، وهو: التَّكلِيفُ بِالأمرِ الشّاقِّ، ويكون في الخَيرِ والشَّرِّ معًا، يُقالُ: أَبْلَيْتُهُ بَلاءً حَسَنًا، وَبَلاءً سَيِّئًا، وَنَزَلَتْ بَلاءً على الكُفّارِ[4]، وأكثر ما يُستَعمَلُ في المَكروهِ، والمراد من ﴿تَبۡلُواْ﴾ في الآية: تَخْتَبِرُ، وهو هنا كنايةٌ عنِ التَّحقُّق وعِلْم اليقين.

2) ﴿أَسۡلَفَتۡۚ﴾: أصلُ السَّلَفِ يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ وَسَبْقٍ[5]، وكلُّ

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) ابن سيده، المحكم: (بلو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (بلا).
(3) الرّاغب، المفردات: (بلى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (بلي، بلو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلف).

شيءٍ قَدَّمته؛ فهو سَلَفٌ، والفعل: سَلَفَ يَسلُفُ سُلوفًا[1]، إذا مضى وانقضى، وتقدَّم وسَبق، فهو سالِفٌ، وسَلَفُ الرَّجلِ: آباؤُه المتقدِّمون والرّاحلون، والأوَّلون السّابقون، وذَوو قَرابةِ الرَّجل الَّذين هم فوقَه في السِّن والفَضل[2]. ومن معاني السَّلَف: القَرْضُ، كلُّ ذلك لما فيه مِنَ التَّقدُّم، وهذا هو المراد مِنَ الآية.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

كلُّ امرئ مرهونٌ بعمله يومَ القيامة

في ذلك المَقام في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ، تَخْتَبِرُ كلّ نفسٍ مُؤمنةٍ أو كافرةٍ ما سَلَف منها من أعمالٍ، فترى ما كان نافعًا أو ضارًّا من هذه الأعمال، وترى الجزاءَ المناسبَ عن كلِّ عملٍ بعد أن عادَ الجميعُ إلى اللهِ مولاهم الحقّ؛ ليقضيَ بينَهم بقضائه العادل، وقد زال عن المُشركينَ وبطَلَ ما كانوا يختَلِقونَه مِنَ الكَذِبِ على اللهِ، بدَعواهم أنَّ له شُركاءَ يَنفَعونَ مَن عَبَدَهم، ويَدفَعونَ عنه الضُّرَّ، ويُقَرِّبونَه إلى اللهِ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّذييل والفَذْلَكة:

إيجازٌ بعدَ البَسْط؛ فالجزاءُ مناسبٌ لكلّ عملٍ، والبُطلانُ حليفُ افتراءِ المشركين

في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تذييلٌ وفَذْلَكةٌ للجُمَل السّابقة؛ مِن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25] إلى هنا، وهو اعتراضٌ بينَ الجُمَل المتعاطفةِ، والإشارةُ إلى المكان الذي أنبأ عنه قولُه: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ [يونس: 28]، أي: في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه[4].

---

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم: (سلف).
(2) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفّاظ: (سلف).
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/334، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/266، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن: ص 363، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/62.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.

فأتتْ هذه الآية كالخُلاصة والنَّتيجةِ لما تقدَّم مِن أحوال الفريقين؛ المحسنين والمسيئين، وتبرؤِ المعبودين مِنَ المشركين، وبيانِ مصيرهم في ذلك الموقف العظيم، الذي تُخْتَبَرُ فيه كلُّ نفسٍ مؤمنةٍ أو كافرةٍ، فتعاين ما عملتْهُ مِن قبل، ويُردّون جميعًا إلى مولاهم اللّٰه الحَقِّ، ويغيب عنِ المشركين أكاذيبُهم ومعبوداتُهم الباطلة.

وجه التعبير باسم الإشارة في: ﴿هُنَالِكَ﴾:

الموقفُ أمامَ الله شريفُ الحال عظيمُ الأهوال

الإشارةُ بـ: ﴿هُنَالِكَ﴾ لها عدةُ معانٍ؛ إمّا تشير إلى المكان الذي أنبأ عنه قولُه: ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾، أي: في ذلك المكان الذي نحشرهم فيه، وهو في محلِّ نَصْبٍ على الظَّرفيَّة، وعاملُه: ﴿تَبۡلُواْ﴾. وإمّا أن تُشير إلى الوقت؛ على معنى استعارة إطلاقِ اسمِ المكان على الزَّمان. وإمّا أن تُشير إلى المقام أو الموقف، أي: بما يشمل الزَّمان والمكان[1].

ومهما يكن المعنى فقد قُدِّمت الإشارةُ إليه باستعمال اسم الإشارة، الذي يُشار به إلى المكان البعيد، مع أنَّه مقامٌ يعيشونه ويعاينونه وليس بالبعيد عنهم؛ "للاهتمام به؛ لأنَّه الغرضُ الأهمُّ مِنَ الكلام؛ لعِظَم ما يقع فيه"[2]، فهو موقف مِنَ المكان والزَّمان، عظيمُ الأهوال، متوالي الزِّلزال[3]، ولِرِفْعَة الموقفِ أمامَ اللّٰه، وشَرَفِه وشَرفِ المكان والزَّمان[4]، وهو تهكُّم بهم؛ لكونهم يرون هذا المقامَ أو الموقفَ أو الزَّمان بعيدًا، أي: مستحيلًا، وهو قريب[5].

توجيه استعارةِ إطلاق اسم المكان على الزَّمان:

في الاستعارة إشارةٌ إلى إمكانية تدارك الأمر قبل يوم الحشرِ

﴿هُنَالِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ يُشار به إلى المكان البعيد، وقد أطلقَه

(1) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 2/441، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/111.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3558.

البيانُ الإلهيُّ على الزَّمان في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ استعارةً للزَّمان البعيد؛ لغرضين: حقيقي ومعنوي، تحريرهما:

الإشارة إلى أنَّ هناك وقتًا للتَّوبة والعودة إلى اللّه قبلَ يوم الجزاء، فالزَّمان ما زال بعيدًا، والعاقل مَن يَخْتَبر عملَه في الدُّنيا قبلَ أن يأتيَ ذلك الوقتُ البعيدُ، الذي تَخْتَبر فيه كلُّ نفسٍ، وتذوقُ وتعاينُ ما أسلفت، أو تتبع عملَها، أو تقرأُ صحيفةَ عملها، ولا مجال حينَها للاستدراك.

توجيه القراءات في الفعل ﴿تَبۡلُواْ﴾:

الإنسانُ في المحشر - على كلتا القراءتين - مُتَّبِعٌ ما أسلفَ من عمله، مختبرٌ له

في الآية قراءتان متواترتان؛ قراءةٌ بالتاء: ﴿تَتۡلُواْ﴾، قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلف، وقراءةٌ بالتاء والباء: ﴿تَبۡلُواْ﴾، قرأ بها باقي القُرّاءِ العَشَرة[1].

وفي معنى القراءة الأولى: ﴿تَتۡلُواْ﴾ ثلاثة أوجه؛ الأوَّل: بمعنى تقرأ؛ أي: تتلو كلُّ نفس ما أسلفَتْه مِن أعمال في كتابها الذي تحمله بيمينها أو شمالها، فتقرأ عملَها مُحْضَرا، كما قال تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 13 - 14]. والثّاني: بمعنى تتبع، أي: تتبَعُ كلُّ نفس ما قدَّمت في الدُّنيا لذلك اليوم؛ لقوله ﷺ في حديث طويل: «يجمع اللّه النّاسَ يومَ القيامة، فيقول: مَن كان يعبُد شيئًا فلْيَتّبَعْه، فيَتبَعُ مَن كان يعبُد الشَّمسَ الشَّمسَ، ويتْبَعُ مَن كان يَعبُد القَمَرَ القَمَرَ، ويَتْبَع مَن كان يعبُد الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ»[2]. والثّالث: بمعنى تعاين، ذكرَهُ الطَّبريُّ عن ابن زيد[3].

وأمّا معنى قراءة: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ بالباء، فهو: عند ذلك تَخْتَبر كلُّ نفسٍ ما قدَّمت مِن خيرٍ أو شَرٍّ[4].

(1) ابن الجزريِّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/283.

(2) صحيح البخاريِّ، كتاب: التَّوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾، الحديث رقم: (7437).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.

ومِن أَجملِ ما ذُكِرَ في توجيه هاتين القراءتين، بما يجمع المعانيَ كلَّها قولُ الطَّبريِّ رحمه الله: "والصَّواب مِنَ القول في ذلك أن يُقال: إنَّهما قراءتان مشهورتان، قد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما أئمَّةٌ مِنَ القُرّاء، وهما متقاربتا المعنى، وذلك أنَّ مَن تَبِعَ في الآخرةِ ما أَسْلَفَ مِنَ العملِ في الدُّنيا، هَجَم به على مَوْرِده، فيُخبَرُ هنالك ما أَسْلَفَ مِن صالحٍ أو سيِّئٍ في الدُّنيا، وإنَّ مَنْ خَبَرَ ما أسلفَ في الدُّنيا مِن أعماله في الآخرة، فإنَّما يَخْبُرُ بعدَ مصيره إلى حيثُ أحلَّه ما قدَّم في الدُّنيا مِن عمله، فهو في كلتا الحالتين مُتَّبِعٌ ما أسلف مِن عمله، مُختَبِرٌ له، فبأيتهما قرأ القارئ كما وصفنا، فمُصِيبٌ الصَّوابَ في ذلك"(1).

بلاغة الكناية في: ﴿تَبۡلُواْ﴾:

فــي الموقـف المكشوف تَختَبِرُ كلُّ نفسٍ ما عمِلَت، وتدركُ عاقِبَتَه

في القراءتين المتواترتين لقوله: ﴿تَبۡلُواْ﴾ كنايَةٌ:

أمّا على قراءة: ﴿تَبۡلُواْ﴾، أي: تَخْتَبِر، فهي كنايةٌ عنِ التَّحَقّق وعِلْم اليقين؛ إذِ الاختبارُ سَببُه، والتَّحَقّقُ واليقينُ لازمٌ له، والمعنى: أنَّ كلَّ نفسٍ تَخْتَبِرُ حالةَ ما أَسْلَفت وثَمرتَه، فتَعرِفُ ما هو حَسَنٌ ونافعٌ، وما هو قبيحٌ وضارٌّ؛ إذ قد وَضَحَ لهم ما يُفضِي بصاحبه إلى النَّعيم، أو إلى ضِدِّه(2).

وأمّا على قراءة: ﴿تَتۡلُواْ﴾، مِن التِّلاوة بمعنى: القراءة، والمراد: قراءةُ صُحُفِ ما أسلفت، فهي كنايَةٌ عن ظُهور الأعمال(3).

سِرُّ التَّعبير عنِ الفعل بصيغة المضارع:

لحظاتُ المحشر كلُّها لحظاتُ بلاءٍ مستمرٍ، وعلمٍ ويقينٍ

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الفعل ﴿تَبۡلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ بصيغة المضارع؛ للإشارة إلى أنّ هذا الاختبارَ والمعاينة لما عَمِلَتْ هو أمرٌ مستمرٌّ في هذا الموقف العظيم الدَّهِش،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.
(2) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/449، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/153.
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/103.

الذي يستلزم ذلك؛ سواءٌ وهي تُحشَر، أو تخاطَب خطابَ التَّقريع وإقامةِ الحُجَّة، أو وهي ترى تَبَرُّؤَ مَن زعمتهم شفعاءَ لها، أو وهيَ تقرأ كتابَها، أو تتبعُ أعمالَها وحالَها؛ إذ إنَّها "تعاينُه بكُنْهِه مستَتبَعًا لآثاره، مِن نَفْعٍ أو ضُرٍّ، وخيرٍ أو شَرٍّ، وأمّا ما علِمَتْ مِن حالها مِن حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ فأمرٌ مجمَلٌ"(1)، إذًا المعاينةُ التّامَّة التَّفصيليَّة التي هي أتمُّ المعاينة، تعني الاستمرارَ، كما أنّ هذا التَّعبير يُفيد تصويرَ هذا المشهد.

وجهُ التَّعبير بـ ﴿كُلُّ﴾:

العدلُ المطلقُ يُقيمُ الحُجَّةَ على الجميع؛ كافرٍ ومؤمن

عبَّر القرآنُ بلفظة: ﴿كُلُّ﴾ للدّلالة على العموم؛ إذ إنَّها مِن أقوى صيغِ العموم؛ إذ تشمَل العاقلَ وغيرَه (المذكَّرَ والمؤنَّث، والمفرد والجمع)، والمعنى: تَخْتَبِر وتذوقُ كُلُّ نَفْسٍ، مؤمنةً كانت أو كافرةً، سعيدةً أو شقيَّةً، ما أَسْلَفَتْ مِنَ العمل(2).

بيانُ الإضافة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾:

الابتلاءُ في الموقفِ العظيمِ لا يَخُصُّ نفسًا دون نفس، ولا تُفْلِتُ منه نفسٌ

أضاف البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿كُلُّ﴾التي هي مِن أقوى صيغ العموم، إلى لفظة ﴿نَفْسٍ﴾ التي أفادت العموم مع أنَّها نكرةٌ في سياق الإثبات، وذلك بسبب قرينة المقام؛ فليس علم النَّفس بما أحضرت، أو بما قدَّمت وأخَّرت - في مقام الحساب يومَ القيامة - أمرًا خاصًّا بواحدٍ دونَ الآخر.

وإضافَةُ لفظٍ عامٍّ إلى لفظ عامٍّ يُفيد زيادةَ العموم وتأكيدَه، فالابتلاءُ في موقف الجزاءِ والحساب والعَدْلِ المطلَق، لا يَخُصّ نفسًا دونَ نفس، ولا تُفْلِت منه نفسٌ، فهو يشمَل الإنسَ والجانَّ، والمؤمنَ والكافرَ، والذَّكَرَ والأُنثى.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/140.

موقفٌ وكتابٌ لا يغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها

إيثار الموصول ﴿مَّآ﴾:

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ الاسمِ الموصول ﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾؛ لإفادة العموم، والمعنى: تَخْتَبِر وتعاينُ كلُّ نفسٍ كلَّ ما عملَتْه مِن نَفْعٍ أو ضُرٍّ، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، وسواء كان مختصًّا بالجوانب العقديَّة، أو التَّشريعيَّة، أو الأخلاقيَّة، وسواء كان مختصًّا بنفسه أم بغيره.

يأسٌ وتحسُّرٌ يومَ لا ينفع ذلك، فقد عاينوا ثمرةَ ما أسلفوه

إيثار لفظِ ﴿أَسۡلَفَتۡ﴾ ماضيًا:

آثرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿أَسۡلَفَتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡ﴾، ولم يَقُل: (كَسَبت) أو (عَمِلَت) أو (قَدَّمَت)؛ لما في معنى مادة السَّلَفِ - فضلًا عنِ المُضي والانقضاء والتَّقدُّم والسَّبْق - مِن معنى القَرْض، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ما يلاقونه إنَّما هو مِن كَسْب أيديهم، وهم الذين قدَّموه لأنفسهم وأقرضوه، فهو عائدٌ إليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ [آل عمران: 117]، وفي هذا مِنَ التَّحَسُّر ما فيه.

ومجيء الفعل بصيغة الماضي - فضلًا عمّا تتضَمَّنُه مادةُ السَّلَفِ مِنَ المُضِي - يُفيد أنَّه أمرٌ وَقَعَ وانقضَى، ولا مجالَ للاستدراكِ والرُّجوعِ إلى الدُّنيا، فاليومُ يومُ الحساب.

أعرضوا عنِ المولى الباطلِ، ورجعوا إلى المولى الحقِّ

دلالة العطف بالواو في: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ عاطفةٌ، وقدِ اختُلِفَ في المعطوف عليه على قولين:

الأوَّل: المعطوف عليه (زيَّلنا) وما عُطِف على (زيّلنا)، وبناءً عليه: يكون الضَّمير (واو الجماعة) في ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ للذين أشركوا، وجملة: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ﴾ اعتراضٌ في أثناء الحكاية، مُقَرِّرٌ لمضمونها، والمعنى: فَفَرَّقْنا بينَ المشركين وأصنامِهم، وتَبرَّأتِ الأصنامُ مِنَ

المشركين" ورجع هؤلاءِ المشركون يومَئِذٍ إلى اللّه، الذي هو ربُّهم ومالكُهم الحَقُّ، لا شَكَّ فيه، دونَ ما كانوا يزعمون أنَّهم لهم أربابٌ مِنَ الآلهة والأنداد"[1].

الثّاني: المعطوف عليه هو: ﴿تَبۡلُواْ﴾، والضَّمير في (رُدّوا) للنُّفوس المدلولِ عليها بكلِّ نفس، ويكون غرضُ العدول إلى الماضي: الدّلالةَ على التَّحقُّق والتَّقرُّر[2]، والمعنى: تَخْتَبِر كلُّ نفسٍ وتذوقُ وتعاينُ ما أُسْلِفَ مِن عمل، وتُردُّ إلى ربِّها الحقِّ، لا إلى ما اتُّخِذَ ربًّا باطلًا.

عِلَّة التَّعبير بالفعل المبنيّ للمفعول مجموعًا في: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾:

المـرجِـعُ في اليومِ العصيبِ الـدَّهِـشِ، لا يَصْلُحُ ولا يكونُ إلّا لله الخالقِ المالك

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالفعل المبنيّ للمفعول بصيغة الجمع في قوله: ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ لأمور؛ أحدها: التَّركيز على الحَدَث، وهو رجوعُهم إلى مولاهم الحقِّ وعدمُ الالتفات إلى سواه، وذلك بصرف الحدث عن مُحدِثه وعدم إسناده إليه؛ ليَحْصُر الوعيَ في الحدث، فلا يتوزَّع في غيره، وهذا الحَدَث - الرَّدُّ الذي يعني: صرفَ الشَّيء إلى الموضع الذي ابتدأ منه - كافٍ في الرَّهبة لمَن له لُبٌّ[3]؛ إذِ الأمرُ يعود إلى أصله، فقد كانوا مع اللّه أوَّلًا، ثمَّ اتَّخذوا الشُّركاءَ، وفي هذا اليوم الآخِر يَرجعون لربِّهم سبحانَه، الذي قَهَرهم بسلطانه ورُبوبيَّتِه[4]. والآخر: أنّه في هذا الموقف العظيم لا أحدَ يملك ردَّهم إلّا هو سبحانَه، الملكُ الأعظمُ الذي لا مُلْكَ إلّا مُلْكُه، أي: أنَّ هذا الفعلَ لا يَصْلُح إلّا للّه سبحانَه، ولا يكون إلّا منه، فلا ينصرفُ الذِّهْن فيه إلّا إليه سبحانَه، ولذلك لم يُذْكَرِ الفاعِلُ.

سِرُّ التَّصريح باسم الله الأعظم في: ﴿ٱللَّهِ﴾:

المرجعُ في الموقف العظيم مكانًا وزمـانًـا وحدثًا إلى الـلـه الملكِ الأعظم

صرَّح البيانُ الإلهيُّ باسم اللّه الأعظم دون غيره مِنَ الأسماء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/82.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5903.

الحُسْنى؛ لأنَّه الاسمُ الجامِعُ لجميع صفاتِ الجلالِ والكمال، ولأنَّه الأنسبُ للسِّياق؛ إذِ الموقفُ عظيمٌ زمانًا ومكانًا وأحداثًا، ولذا عبَّر البقاعِيُّ بقوله: "إلى اللّه الملك الأعظم"[1].

نُكْتَةُ الوصف بـ: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾:

يومُ الحشر يومٌ يتبدَّى فيه سلطانُ الله حقًّا وتَتَبدَّدُ فيه أوهامُ أولياءِ الشِّيطان

﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾ صفةٌ أولى للاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ صفة ثانية، أو أن يكون ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾ بدلًا مِنَ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ صفةً لـ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾.

ومِن فوائد الصِّفة: أنَّها تُحدِّدُ ماهيَّة الشَّيء بدِقَّةٍ متناهيَةٍ، أو تَشْرحُ أهمَّ مِيْزةٍ فيه، وغرضُها في الآية: الاحترازُ عمّا ادَّعوا مِن أوثانٍ وأندادٍ اتَّخذوها، ففي هذا اليوم يَتَبدَّى سلطانُ اللّه تعالى حقًّا، فهو اللّه الخالقُ المالك، الثّابتُ ملكُهُ وسُلْطانه، "لا يقبلُ الزَّوالَ أزلًا ولا أبدًا"[2]، وتَتَبدَّد أوهامُهم عن أولياء الشَّيطان وما زعموه[3]، وما اتَّخذوه ربًّا باطلًا وليس لرُبوبيَّته حقيقة[4]، ومِن ثَمَّ لم يكن لهم قدرةٌ على قَصْدِ غيرِ اللّه سبحانَه، والالتفاتِ إلى سواه مِن تلك الأباطيل، بلِ انقطع رجاؤُهم مِن كلِّ ما كانوا يَدَّعونَهُ في الدُّنيا، وهو المراد بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾[5].

حقيقة (المولى) في: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾:

الله سبحانَه خالقُهم ومالكُم والمتصرِّفُ في شؤونهم

أتى القرآنُ بلفظ (المولى) في قوله تعالى: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ على حقيقته؛ فاللّه سبحانَه هو خالقُهم وربُّهم، والمالكُ الذي يتولَّى أمورَهم، فهو سبحانَه خالقُ الكلِّ، ومالكُ الكلِّ، ومتولِّي أمورِهم، والمُتَصَرِّفُ في شؤونهم[6].

---

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 796.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/111.
(6) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 2/418، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.

الفرق بينَ الولاية هنا ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾، وبينَ: ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾:

الولايَةُ العامَّة هي ولايَةُ رُبوبيَّةٍ ومُلْكٍ، والولايَةُ الخاصَّة هي ولايةُ نُصْرةٍ للمؤمنين

يُطلق المولى في اللُّغة على المالِك، ويُطلق على النّاصر، فمعنى المولى في قوله تعالى: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾: الرَّبُّ والمالِك، أي: ورجعوا إلى اللهِ ربِّهم ومالكهم، فاللهُ تعالى ربُّ كلِّ أحدٍ مِنَ النّاس ومالِكُهم، وأمّا معنى المولى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد ﷺ: 11] فهو النّاصر، أي: أنَّ الكافرين لا ناصِرَ لهم(1).

دلالة العطف: ﴿وَضَلَّ﴾:

مَفادُ الجملِ المعطوفة ظهورُ حقيقةِ الولايةِ الإلهيَّة، وأن ليس لغيره إلّا المملوكيَّة

الواو في قوله: ﴿وَضَلَّ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه قولُه تعالى: ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ المعطوفةُ على: ﴿تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٍ﴾، على القول بأنّ المقصود مِن كلِّ نفس: النَّفسُ المشْرِكَةُ.

والفقراتُ الثّلاث مِنَ الآية كلٌّ منها تُعينُ الأُخْرَيين على إفادةِ حقيقةِ معناها، وحاصلُ مفادِ المجموعِ: ظهورُ حقيقةِ الولايةِ الإلهيَّة يومَئذٍ ظهورَ عِيانٍ، وأن ليس لغيره تعالى إلّا الفقرُ والمملوكيَّة المحصَّنة، فتَبْطُل عند ذلك كلُّ دعوى باطلةٍ، وينهَدِمُ بنيانُ الأوهام.

وجه تعديَةِ الضَّلال بـ(عن): ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾:

المــولى الـحـقُّ لا يَـغـيـبُ عن مـوالـيـه، ولا يَـتَـخَـلَّ عنهم وقتَ حاجتهم إليه

أتى البيانُ الإلهيُّ بفعل الضَّلال مُعَدًّى بـ (عن) في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾؛ لأنَّ فعل (ضَلّ) هنا مستعارٌ لمعنى (غاب)، فلمّا كانت تلكَ الغيبةُ بحيث لا يمكن إحضارُ ما غاب، وأنَّه كالشَّيء الضّائع؛ قيل: ضَلَّ، ومِنَ المجاز: ضَلَّ عن كذا، ضاع(2)، وحرفُ الجرِّ (عن) يدلُّ على المجاوزة، فمعنى: (ضَلَّ عنهم): غابَ وذهب وضاع عنهم ما كانوا يفترونه مِنَ الكَذِب ومِن دَعْواهم أنَّ أصنامَهم يشفعون لهم، فلم يبقَ لهم أثرٌ، وكأنَّ هؤلاءِ الشُّركاء تجاوزوهم غيرَ مُكترثين بهم، فلم ينصروهم ولم يُنقذوهم، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ المولى الحقَّ

---

(1) الخازن، لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل: 2/442، والآلوسيُّ، روح المعاني: 6/103.

(2) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 12/105.

مِن شأنه أن يكون حمايَةً ووقايَةً لمواليه عندَ الحاجَةِ والشَّدائد، وأمّا المشركون فإنَّ ما كانوا يعبدونَهُ مِنَ الباطل، أصبح سرابًا خادعًا، غاب عنهم وتخلَّى عن حمايتهم ووقايتهم وَقتَ الحاجَة والشِّدَّة.

عـمـومُ ضـيـاعِ افـتـراءاتِ المشركين على المعبودين كذبًا لهم أو عليهم

إيثارُ الموصول: ﴿مَّا﴾:

آثَر البيانُ الإلهيُّ استعمالَ ﴿مَّا﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ ليشملَ المعنى أمرين وِفاقَ المقصودِ بها:

الأوَّل: الأصنام، فيكون قد حُذِفَ العائِدُ مع حرف الجرِّ بدون أن يَجرَّ الموصولَ بمثل ما جَرَّ به العائِدَ، والحَقُّ جوازُه، فالتَّقدير: ما كانوا يكذبون عليه أو له، وضَلالُه: عدمُ وجودِه على الوصف المزعوم له. الثّاني: نفسُ الافتراء، أي: وضلَّ، أي: ظهرَ نَفۡيُ الافتراءِ الذي كانوا يفترونه، وكَذِبُه[1].

إذًا، فائدةُ التَّعبير بـ ﴿مَّا﴾ الموصوليَّة هي العمومُ؛ إذ لو عَبَّر بقوله: (وضَلَّ عنهم أصنامُهم)، أي: لم يجدوها على الوَصْف الذي يريدونه، لما شَمَل المعنى الثّاني، وهو (ضَلَّ عنهم الافتراءُ الذي يفترونه) أي: ظَهَر كَذِبُه. ولو عبَّر بالمعنى الثّاني لَما شَمَلَ الأول. ويرى الآلوسيُّ: أنَّها تحتمل أن تكون مصدريَّة[2]، أي: (وضَلَّ عنهم افتراؤهم)، أي: ظَهَر كَذِبُهم.

بيانُ التَّعبير بفعل الكون ماضيًا مجموعًا: ﴿كَانُواْ﴾:

لا قيمة للباطل مـهـمـا كَـثُـرَ واستمرَّ وثَبَتَ عليه صاحبُه في أحواله الماضيَة والحاضِرَة

عبَّر البيانُ الإلهيُّ باستعمال فعلِ الكَونِ ماضيًا مجموعًا ﴿كَانُواْ﴾ في قوله: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم كانوا ثابتين على الافتراء؛ إذِ الجملةُ الاسميَّة تُفيد الدَّوامَ والثُّبوتَ، كما أنَّ الجمع بينَ الماضي في ﴿كَانُواْ﴾، والمستقبلِ في ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، يدلُّ على استمرار الفعل، أي: فعلِ افترائِهم على

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/156.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/103.

اللّه، ونسبتِهم الإلهيَّة إلى الأصنام، وغيرِ ذلك في جميع أحوالهم الماضية والحاضرة[1].

التَّعبير عن افترائهم بالمضارع مجموعًا: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

حكايةُ حالهم الماضية في الافتراء المستمرِّ تُظْهِرُ لهم قُبْحَ جريمتهم، وتزيدُهم تَحَسُّرًا

عبّر القرآنُ بصيغة المضارع في: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدّلالة على استمرار افتراءاتهم وتجدُّدِها وتكرارها، أي: غاب عنهم وبَعُد عن عقولهم ما كانوا يفترونه في عبادات باطلة، وافتراءٍ كاذب كانوا مستمرين عليه، يكرِّرونَه ليلًا ونهارًا، أي: لم يَجدوه على الوصف المزعوم له[2].

كما أنَّ التَّعبير بصيغة المضارع يفيد حكايةَ حالهم الماضية في الافتراء، ليثيرَ في المخيلة صورةً لافتراءاتهم المستمرّة والمتجدِّدَة، بما يُظْهِر لهم قُبْحَ جريمتِهم، وزيادةَ تحسُّرهم، باجتماع صورة افتراءاتهم في المخيلة، وما يرونه ويعانونه مِن عدم وجود ما زعموه في أصنامهم، أو ظهورِ نفيه وكَذِبِ هذه الافتراءات.

بلاغةُ حَذْفِ مُتعلّق ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

الإبهامُ الحاصلُ في الحذف يدلُّ على كثرة افتراءاتهم على الله، وتنوّعها

في قوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ حذفَ القرآنُ مفعولَ قولِه: ﴿يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدّلالة على العُموم، والمعنى: أن قد ضلَّ عنهم، وضاعَ كلُّ ما كانوا يفترونه مِنَ الآلهة وشفاعتِها، وما كانوا يتخرَّصونَه مِنَ الفِريَة والكذب على اللّه، بدعواهم أوثانَهم أنَّها للّه شركاءُ، وأنَّها تُقرِّبهم إليه زُلْفَى، وما كانوا يختلقونه في عبادات باطلة، ويفترونه في الدُّنيا مِنَ التَّكذيب.

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

الرّدُّ والرَّجعة والعَودُ:

الرّدُّ صَرفٌ ورجوعٌ بعارض، والرُّجوعُ العودُ إلى ما كان منه البَدء، والعَودُ تكرار الفعل

لم يُفرِّق اللُّغويون بين هذه الألفاظ، وتكاد تكون مترادفةً، ونجد

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3559.

هذا من خلال تعريفهم لها، إلّا أنَّه عند إمعان النَّظر في معاني هذه الألفاظ ودلالاتها، واستعمالها القرآنيّ نلحظ أنَّ كلًّا منها قد اختصَّ بملَمَح دلاليٍّ يميِّزُه عن غيره، بحسب ما سيأتي:

الرّدُّ: رَجْعُ الشَّيء[1]، وصَرْفُه بذاته، أو بحالة مِن أحواله، وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأنعام: 62]، الرّدُّ كالرَّجع في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[2]، والارتداد: الرُّجوع، وهو صَدُّ استرسالِ ما يمتدُّ أو ينتشر، ورَدُّه عن وجهه: صَرْفُه[3].

الرَّجْعَة: الرُّجوع: العَود إلى ما كان منه البَدءُ، وتقدير البَدء مكانًا كان، أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أو بجُزء مِن أجزائه، أو بفعلٍ مِن أفعاله، والرَّجْعُ: الإعادة[4]، وهو نقيض الذَّهاب، ورَجَعَ الشَّيء عنِ الشَّيء، ورجع إليه: صَرفَه ورَدَّه[5]، والرُّجوع: تَحوُّلٌ عنِ الاتّجاه أو الحال إلى عكسه، وكلُّ ما في القرآن مِنَ التَّركيب فهو بمعنى العَود[6].

العَودُ: يدلُّ على تثنية في الأمر، فهو تثنيةُ الأمر عَودًا بعد بَدْء، تقول: بدأ ثمَّ عاد[7]، وعاد عودًا وعودة: رَجَعَ وارتدّ، يُقال: رَجَعَ عودًا على بَدْء، ورَجَعَ عودَه على بَدئِه؛ لم يقطع ذَهابه حَتَّى وصلَه برُجوعِه[8]، والعَودُ: الرُّجوع إلى الشَّيء بعدَ الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[9]، والعَوْد: الرُّجوع، وهو تجدّدٌ وتكرّرٌ لوجود الشَّيء في المكان، أو لوجود الحال، والعَوْد بمعنى رُجوع الذّات نفسِها إلى المكان، ولو بحال مختلفة[10].

إذًا: يتميّز الرّدُّ: بأنّ فيه إشارةً إلى شيء خارج عن إرادة الشّخص الذي ارتّد، وكأنَّ أحدًا قطع عليه استرسالَه، وصَرفَه عن وُجهته، فينعكسُ اتجاهُه، ويرجع بذاته، أو بحالٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رد).
(2) الرّاغب، المفردات: (رد)، والزَّبيدي، تاج العروس: (ردد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ردد).
(4) الرّاغب، المفردات: (رجع).
(5) الفيوميُّ، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (رجع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عود).
(8) المعجم الوسيط: (عود).
(9) الرّاغب، المفردات: (عود).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (عود).

مِن أحواله، إلى الموضع الذي ابتدأ منه، وكأنَّ المرتدَّ لم يكمِل طريقَه إلى غايته، بل عرضَ له ما جعلَه يَرتدُّ مِن حيثُ أتى.

ومِن هنا اختير لفظُ الرّدِّ في الآية؛ لكون رجوعِهم إليه تعالى خارجًا عن إرادتهم، وليس لهم في العود رأيٌ؛ لأنَّ الرَّجعة: انصراف وعودة بإرادة الشَّخص، فيتحوّلُ عنِ الاتّجاه أو الحال إلى عكسه، سواء أتمّ الفعلَ أم لم يتِمَّه، والعَود: فيه معنى تكرار الفعل، أي: لم يقطع ذهابَه حتَّى يوصلَه برجوعه، وفيه معنى الرّجوع إلى نقطة البداية، أي: إلى سابق عهده، فلفظُ الرّدِّ أنسبُ للمقام، وأدعَى لسياق الكلام.

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١﴾ [يونس: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِنَ الحشْرِ الذي سقطتْ فيه الأباطيلُ إلى دلائلِ الواقعِ على فسادِ هذه الأباطيل

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلَها وجهان:

الأوّل: بعد أنْ بيّن اللّه فضائحَ عبدةِ الأوثان، ومعاينتَهم لما قدَّموه، وقراءةَ كتُبِهم، وأنَّه قد ضلَّ عنهم ما كانوا يفترون، أتبعَها بذكْرِ الدَّلائلِ على فسادِ مذهبهم، بما يوبِّخُهم ويَحُجُّهم، بما لا يمكن إلّا الاعترافُ به من حال رزقهم وحواسّهم، وإظهارِ القُدرة الباهرة في الموت والحياة، فبدأ بما فيه قَوامُ حياتهم، وهو الرِّزق الذي لا بُدّ منه[1]، وفي ذلك كلّه تهيئةُ نفوسهم للتَّوبة والإنابة إلى اللّه.

الثّاني: لـمّا قدَّم سبحانَه أنّ شركاءَهم مربوبون مقهورون، لا قُدرةَ لهم إلّا على ما يُقدرهم اللّه عليه، وأنَّه وَحْدَه المولى الحقّ، وبانت بذلك فضائِحُهم، أتبعَهُ بذكر الدّلائل على سوء معتقدِهم، بصيغة التَّبكيت والتَّقريع، بأنْ وجَّهَ السُّؤال إليهم عمّا هم مُعتَرفون بأنَّه مُختصٌّ به، ويدلُّ قطعًا على تَفَرُّدِه بجميع الأمر الموجبِ، مِن غير وَقفة لاعتقاد تَفرُّدِه بالإلهيَّة، فقال: ﴿قُلۡ﴾[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُدَبِّرُ﴾: أَصْلُ الكلِمَةِ مِن الدُّبُر، وهو النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأمر، وتَقْوِيمُه على ما يكون فيه صَلاحُ عاقِبَتِه، وأَدْبارُ الأمور: عَواقِبُها[3]،

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/112.

(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغوية، ص: 121، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (دبر).

يُقال: دَبَّرَ الأمرَ: إذا ساسَهُ ونَظَرَ في عاقِبَتِه، ليقَعَ على الوجْهِ الأَكْمَلِ[1]، والتَّدَبُّرُ: التَّفكُّرُ، أي: تَحْصيلُ المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصيل مَعْرِفة ثالِثَةٍ[2]. والمقصود مِنَ التَّدبير في الآية: الإيجادُ والعَمَلُ على وَفْق ما دُبِّرَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إقرار المشركين بتفرُّد الله تعالى بالخلق والرِّزق وبتدبير الأمر كلِّه

يأمُرُ اللّه نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يسألَ المُشرِكينَ: مَن الذي يرزُقُكم مِنَ السّماء والأرضِ؟ أم مَن يملِكُ السَّمع والأبصارَ؟ ومَن يُخرِجُ الشَّيءِ الحيَّ مِنَ الشَّيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، ويُخرِجُ الشَّيءِ الميِّتَ مِنَ الشَّيءِ الحيِّ؟ ومَن يُدبِّرُ أمرَ جَميع الخلائقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماء والأرض بما شاء؟ فسيقولُ المُشرِكونَ: اللّه وَحدَه مَن يفعَلُ ذلك، فقُل لهم يا محمد ﷺ: أفلا تتَّقونَه، وتخافونَ عِقابَه؟![3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفصل في الآية:

استئنافٌ بيانيٌّ يدلُّ على أنّ الله هو مستحقّ الولاية والإلهية

فُصِل قولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عمّا قبلَه؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًا؛ إذ إنَّه انتقالٌ مِن غرض إلى غرض في أفانين إبطال الشِّرك، وإثباتِ تَفَرُّدِ اللّه تعالى بالإلهيَّة، ويتنزَّل منزِلَةَ الاستدلالِ لما قبلَه، وهو قولُه: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّه بُرهان على أنّه المستحِقُّ للوَلايَة سبحانَه، فاحتجَّ على ذلك بمواهب الرِّزق الذي به قَوام الحياة، وبموهبة الحواسّ، وبنظام التَّناسُل والتَّوالُدِ الذي به بقاءُ الأنواع، وبتدبير نظامِ العالم، وتقديرِ المقدَّرات، فهذه كلُّها مواهبُ مِنَ اللّه، وهم كانوا يعلمون أنَّ جميع ما ذُكِر لا يفعلُه إلّا

(1) المعجم الوسيط: (دبر).
(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (دبر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/176، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/118، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/335، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/266.

اللّه؛ إذ لم يكونوا ينسِبون إلى أصنامهم هذه الأمورَ، فلا جَرَم أن يكون المختصّ بها هو مُستَحِقُّ الوَلاية والإلهيَّة(1).

سر التعبير بالأمر ﴿قُلۡ﴾، وإعادته في: ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

(قُلْ) بين خطابٍ يُظهِرُ أهميَّةَ المقولِ، ومَقامَ الرَّسولِ الأمين، وأسلوبَ القرآن الحكيم

عبّر البيانُ الإلهيُّ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾، وهو أسلوبٌ قرآنيٌّ وَرَدَ في كثيرٍ مِنَ الآياتِ في خطاب الحقِّ سبحانَه للخَلْق، وَرَدَ في كثيرٍ مِنَ الآيات، مثلِ قوله سبحانَه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الصّمد: 1]، ويختلف عن خطاب الخَلْق للخَلْق، إذ يكتفي ناقلُ الكلام بذكر منطوقِه دونَ التّعبير بكلمة (قل)؛ وذلك لأنّ مشيئة اللّه اقتضت أن يبلِّغنا رسولُه اللّه ﷺ القرآنَ كما نزل، والنّبيُّ ﷺ أمين في البلاغ عنِ اللّه تعالى، لا يترك كلمةً واحدةً مِنَ الوحي دونَ أن يبلِّغها للبشر، وما دام الحقُّ ﷻ هو الذي أمره، فهو يُبلِّغ ما أُمِرَ، وحتَّى لا يَحْرِمَ آذانَ خَلْقِ اللّه تعالى مِن كلِّ لفظٍ صدر عنِ اللّه سبحانَه(2).

وفي التّعبير كذلك بـ ﴿قُلۡ﴾ وإعادته ﴿فَقُلۡ﴾، إشارةٌ إلى أنَّ هذا الكلامَ هو من عند اللّه سبحانَه، وأنّ النّبيَّ ﷺ مُجَرَّدُ مُبلِّغٍ، ورسولٍ أمينٍ، لا يُغَيِّر ولا يُبَدِّل حرفًا مِن عنده، وإشارة إلى علو مقامِ الرِّسالة، ومقامِ النَّبيِّ ﷺ، وأنَّه هو الوحيدُ المكَلَّف بإبلاغهم وإنذارهم، لذلك جاء الأمر له بـ ﴿قُلۡ﴾.

تكرار فعلِ القولِ أمارَةُ العنايةِ، وإعمالِ الخطاب

وفيه كذلك دلالةٌ على الاهتمام بالمقول، يقول ابن عاشور: "وأُعيدَ الأمرُ بالقول لزيادة الاهتمام بالمقول، فإنَّ أصل الأمرِ بالقول في مقام التَّصدِّي للتَّبليغ دالٌّ على الاهتمام، وإعادةَ ذلك الأمر زيادةٌ في الاهتمام"(3).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/155.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5905.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 22/192.

ويَحْتَمِل أن يكون الأمرُ ﴿قُلۡ﴾ خطابًا للجميع، فأُمِرَ كُلُّ واحدٍ بأن يقول ذلك[1]، بما يَدلُّ على أسلوبٍ حواريٍّ استدلاليٍّ في إقامة الحُجَّةِ.

بلاغة حَشْدِ الاستفهامات في الآية:

الاستدلالُ بطريق الاستفهام، والجوابُ في صورة الحِوار، أوقَعُ في نُفوسِ السّامِعين

تميَّز النَّظمُ القرآنيُّ في هذه الآية الكريمة في إقامة الحُجَجِ على المشركين؛ لإثبات التَّوحيد والبعث، وفسادِ مذهبهم، باستخدام أسلوبِ السُّؤال والجواب، إذ حشَدَ سِتَّةَ استفهاماتٍ؛ الخَمسُةُ الأوّلَى منها: للتَّقرير بأنَّ فاعلَ ما سألهم عنه مِن مواهبِ الرِّزق الذي به قَوامُ الحياة، وموهِبَةُ الحواسّ، ونظامُ التَّناسل والتَّوالد الذي به بقاءُ الأنواع، وتدبيرُ نظامِ العالم، وتقديرُ المقدَّراتِ في العالم العُلْويِّ، وفي العالم السُّفْليِّ، وفي عالَمَي الأرواحِ والأجساد، ممّا لا نهايَةَ له، فاعلُ ذلك كلِّه هو اللّه رَبُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُهُ؛ إذ لا جوابَ غيرُه، وهم لا يجهلونَه، فالاستفهام عنه لحملهم على الإقرار به[2]؛ إذ إنّ هذا الاستفهامَ هو استفهامٌ تقريريٌّ؛ للتَّنبيه على الحقائق الثّابتة وتقريرها، وتوجيهِ النَّظر، وتقريرِ الحقائق، وفيه حَملٌ على الإقرار بما يعرفونَ ويُشاهِدون، فهم يعلمون عِلْمَ اليقين - بالمشاهدة والحِسِّ - أنَّ اللّه تعالى هو الذي يُنَزِّل الأمطارَ مِنَ السَّماء، ليَختلطَ بالأرض يَشُقُّها شَقًّا، ويوجِدُ فيها خِصْبًا ومَوادَّ مختلفةً، يتكَوَّنُ منها نباتٌ به حَبٌّ متراكِبٌ وأشجارٌ فيها ثمارٌ دانيَةُ القُطوف[3].

ثمَّ جاء الاستفهامُ السّادس، وهو قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بخلاف ما سبق مِنَ الاستفهامات الخمسة؛ إذ جاء استفهامًا توبيخيًّا يَتَضمَّن إنكارَ واقعِهم الذَّميم، وذلك بعد إقرارِهم الذي

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/247، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/293، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/155.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/356.

أثبتَه البيانُ الإلهيُّ بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: رتَّب توبيخَهم وتذكيرَهم على إقرارهم[1].

والحِكْمَةُ مِن هذا الاستدلال الذي جاء بطريق الاستفهام والجواب في صورة الحوار: أن يكون الدَّليلُ الحاصِلُ به أوقعَ في نفوس السّامعين، ولذلك كان مِن طُرق التَّعليم، ممّا يُرادُ رُسوخُه مِنَ القواعد العلميَّةِ، أن يُؤْتَى به في صورة السُّؤال والجواب[2].

توجيهُ معنى ﴿مِّنَ﴾:

اتساعُ دلالة (مِنْ) بين الابتدائيَّة والتَّبعيضيَّة والبيانيَّةِ دليلٌ على بلاغة الإيجاز

حرفُ الجرِّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، يحمل ثلاثةَ معانٍ[3]:

الأوَّل: ابتداءُ الغاية؛ أي: بدأ سبحانَه بما فيه قِوامُ حياتِهم، وهو الرّزق الذي لا بدّ منه، فمِنَ السَّماءِ بالمطر، ومِنَ الأرض بالنَّبات، وهيّأ الرِّزق في العالَم العُلْوِيِّ والعالَم السُّفْلِيّ، ولم يقتصر على جهة واحدة، توسعةً منه وإحسانًا.

الثّاني: التَّبعيضيَّة؛ أي: يرزقُكم مِن بعض ما في السّماء والأرض مِن أرزاق.

الثّالث: البيانيَّةُ، أي: ﴿مِّنَ﴾ لبيان ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾، على حَذْف المضاف، أي: مَن يرزقكم مِن أهل السَّماء والأرض، والمُراد بأهل السّماء والأَرْض غيرُ الله؛ لأنّه لإنكار رازقٍ سِواه، والكَلام المسوقُ للإنكار، هذا على اعتبار الاستفهام في ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ إنكاريٌّ لا تقريريٌّ، وأنَّ قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ إمّا جوابٌ لما بعدَ ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ دونَه، أو جوابٌ له أيضًا عنِ السّؤال المفهوم مِنَ الإنكار، كأنَّه قيل: إذا عُلِمَ أن لا رازقَ مِن أهل السَّماء والأَرْض، فمَن يَرْزُقُكم؟!

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/64.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/155.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.

وأمّا على اعتبار أنَّ الاستفهامات الخمسةَ في الآية كلّها تقريريَّة، وهو الأصَحُّ؛ لتُناسِبَ ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ أخواتِها، فتقديرُ مِن البيانيَّة هو: قل مَن يرزقُكُم مِن أهل السّماء والأرض على زَعْم العرب، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: 17][1].

فنّ تجاهُلِ العارف:

سَوقُ المعلومِ مساقَ المجهولِ أوقعَ المشركين في شَرَكِ المغلوبيَّةِ، مبالغةً في توبيخِهم

تجاهلُ العارفِ هو مِنَ المحسِّناتِ المعنويَّة، وهو سَوق المعلوم مساقَ المجهول[2] لنُكْتَةٍ يقصدُها البَليغ[3]، وقد ورد هذا المُحسِّنُ المعنويُّ في قوله تعالى: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وغرضُه البلاغيُّ: المبالغةُ في التَّعبير؛ إذ إنَّ الله سبحانَه يعلم مَنْ وهب الأرزاق في السَّماء والأرض؟ ومَن وَهَب السَّمع والبَصر؟ ومَن وَهَبَ الحياةَ وقوانينَها؟ ومَن يُدَبِّر كلَّ شيء؟ ولكنَّه أراد مِن الاستفهام أن يوقِعَ المشركين في شَرَكِ المغلوبيَّة؛ فقد استعمله تمهيدًا لتخطِئَتِهم، وإقامَةِ الحُجَّةِ عليهم، بعدَ أن يسمع جوابَهم، فهُم يَظنّونَهُ سائِلاً مُستَعْلِمًا، ولذلك أجابوا سؤالَه بقولهم، وِفاقَ تعبير البيان الإلهيِّ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، وفي هذا تعجيبٌ يصل إلى المبالغة في توبيخهم وتقريعهم، والتَّهكُّم بهم، في أن يتخذوا آلهةً سِواه، وفي الوقت ذاته فيه: تقرير لوحدانيَّة الله سبحانَه.

سِرّ إفراد السَّماء في (يونس) وجمعِها في (سبأ):

في إفرادِ السَّماء إقامةٌ للحُجّةِ عليهم بما يُقِرّون، وتحصيلٌ للمعنى مع الإيجاز

أفرد البيانُ القرآنيُّ السَّماء هنا في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، وجمعَها في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: 24]، لأحد أمرين:

الأوَّل: أنّ الآيات التي في يونس سِيقَت مَساق الاحتجاج عليهم بما

---

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/451.

(2) عَدَلَ السَّكاكيُّ بهذه التَّسمية (سوق المعلوم مساق غيره) عن تسميته بـ (تجاهل العارف)، وقال: لوقوعه في كلام الله تعالى، يُنظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/210.

(3) الخطيب القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 530.

أقرّوا به، ولم يمكنهم إنكارُه، فإنّه لـمّا قال سبحانَه: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ دلّ أنّه لا بُدَّ أنَّهم يُقِرّون بما ذُكر ولا يجحدونه، فلا بُدَّ أن يكون المذكور ممّا يُقِرّون به، والمُخاطَبون المُحْتَج عليهم بهذه الآية إنّما كانوا مُقِرِّين بنزول الرِّزق مِن قِبَل هذه السّماء التي يشاهدونها بالحِسِّ، ولم يكونوا مُقِرِّين، ولا عالمين بنزول الرِّزق مِن سماء إلى سماء، فأفرد لفظ السّماء هنا، فإنّه لا يمكنهم إنكارُ مجيء الرِّزق منها، لا سيَّما أنَّ الرِّزقَ هاهنا إن كان هو المطرَ فمَجِيئُه مِنَ السّماء التي هي السّحاب، فإنَّه يُسَمَّى سماء لِعُلوِّه، وقد أخبر سبحانَه أنّه بَسَط السَّحاب في السّماء بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: 48]، والسَّحاب إنّما هو مبسوط في جهة العُلوّ لا في نفس الفَلَك، وهذا معلوم بالحِسّ فلا يُلتفت إلى غيره.

فلمّا انتظم هذا بذِكْر الاحتجاج عليهم، لم يصلح فيه إلّا إفرادُ السَّماء؛ لأنَّهم لا يُقِرّون بما ينزل مِن فوقِ ذلك مِنَ الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، والرَّحمةِ والألطافِ، والموارِدِ الرَّبانيَّةِ، والتَّنَزُّلات الإلهيَّةِ، والوحي الذي به الحياةُ الحقيقيَّةُ الأبديَّةُ، وما به قِوام العالَم العُلويِّ والسُّفليِّ، وهو أَوْلى باسم الرِّزق مِنَ المطر؛ الذي به الحياةُ الفانيَةُ المُنْقَضِيَةُ، ولكنَّ القومَ لم يكونوا مُقرّين بذلك، فخوطِبوا بما هو أقربُ الأشياء إليهم، بحيث لا يمكنهم إنكارُه. وأمّا الآيةُ التي في سورة سبأ، فلم ينتظم بها ذِكْرُ إقرارهم بما ينزل مِنَ السّماوات؛ ولهذا أَمَر رسولَه بأنْ يتولّى الجوابَ فيها، ولم يذكر عنهم أنَّهمُ المُجيبون المُقِرّون، فقال: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: 24]، ولم يَقُل: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، وقد عَدَّ ابنُ القيّم هذا الفرقَ مِن أَدقِّ هذه المواضع، وأغمضِها وألطفِها(1).

الثّاني: إنَّ الإفراد الوارد في آية يونس مُحصِّلٌ للمعنى معَ الإيجاز، وأمّا الواردُ في سورة سبأ على الجمع فَروعيَ فيه ما تقدَّم مِن قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: 22]، والمراد بذلك: نفيُ الشُّركاء له تعالى، ثمَّ عاد الكلام إلى ذلك أيضًا، فقال تعالى: ﴿۞قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ على الجمع.

(1) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/117.

إذًا، هذه الآيةُ مِن سورة سبأ وما قبلَها في قضيَّة واحدة، وهي نفيُ الشُّركاء والأنداد، فجاءت على ما يناسب التي قبلَها[1].

سِرّ التَّعبير عنِ الخيرات بالرّزق، وتقديمُه على باقي النِّعم:

الـــرّزقُ قِـــوامُ الحياة والغايةُ المرجوّةُ والنّعمةُ الظّاهرةُ التي لا يستغني عنها أحدٌ

عبّر البيانُ الإلهيُّ عن خيرات السّماء والأرض بالرّزق مِنَ السّماء والأرض، وقدَّم سبحانَه هذه النِّعمة على باقي النِّعم؛ لأنَّ الرِّزق هو الغايَة المرجوّة؛ وهو النّعمة الظّاهرة التي أنعم بها ﷻ على عباده في حياتهم؛ مِن غذاءٍ ولباس ومأوى، وكلُّ ذلك كان في اختلاط ماءِ السّماء بالأرض[2]، أي: بدأ أوَّلًا "بما فيه قِوام حياتِهم"[3]وهو الأمرُ الجليُّ الواضحُ لكلِّ أحدٍ؛ لأنَّ كلّ أحدٍ يحتاج إلى الغذاء، ولا يستطيع الصَّبرَ على الجوع بوجهٍ، فيظهرُ له الافتقارُ إليه بالبديهة في كلّ زمان، بخلاف السّمع والأبصار، فإنّ دوامَها غالبٌ، وطُرقَ الإعراض عنها قليلةٌ، ليس في كلّ زمان ولا لكلّ النّاس، بل لبعضهم فقط[4]، فتقديمُ الرّزق مِنَ السّماء والأرض على باقي النِّعم لشِدّة احتياجِ النّفوس إليه[5].

عِلّة عدمِ اقتصار الرّزق على جهةٍ واحدة:

نـعـمـة الـلـه واسـعـةٌ لا يحيطها حَدٌّ

لم يَقْصِرِ البيانُ القرآنيُّ الرّزقَ على جهةٍ واحدة، إمّا السّماء وإمّا الأرض، وإنّما قال: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: يرزقكم منهما جميعًا؛ للإشارة إلى فَيْضِ نعمتِه، وسَعَةِ رحمتِه[6].

بلاغةُ الإطناب بذِكْر مَحلِّ الرّزق:

تـصـويـرٌ واسـتـحـضـارٌ ذِهـنـيٌ لأحـوال الرّزق بما يُحقّق الغايَةَ مِن ذِكْر النِّعمَة

أطنب البيانُ الإلهيُّ بذِكْر مَحلِّ الرّزق: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يَكْتفِ بقوله: ﴿يَرۡزُقُكُم﴾، مع أنّ الرّزق لا يكون إلّا مِنَ السّماء

---

(1) الغرناطيُّ، ملاك التَّأويل: 1/240، 241.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/356.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.
(5) المطعني، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/45.
(6) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/479، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.

والأرض؛ للتّذكير بأحوال الرّزق؛ ليكونَ أقوى حضورًا في الذّهن، فالرّزق مِنَ السّماء المطرُ، والرّزق مِنَ الأرض النّباتُ كلُّه مِن حَبٍّ وثمرٍ وكَلأ[1]، وهذا مِن شأنه أن يحقّق الغاية مِن ذِكْر هذه النّعم؛ وهو العِبْرةُ والعِظَة.

نُكْتَةُ تقديمِ رزق السّماء على رزق الأرض:

الـــرّزقُ مِـنَ السّماء أسبقُ وأهـمُّ وأعجبُ في الدّلالة على كـمالِ الـقُـدرة الإلهيّة

قدَّم البيانُ الإلهيُّ رزقَ السّماء على الأرض في قوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لأمور؛ الأوَّل: مُراعاةً للسّبق والأهميّة، فنزولُ الماء مِنَ السّماء هو أوّلُ أسباب الرّزق وأهمّها. الثّاني: لأنّ الأسباب السّماويَّةَ - مِن نزول المطر، وحرارةِ الشّمسِ، وأَثرِ القمر والكواكبِ - بمنزلة الفاعل، وأمّا الأسبابُ الأرضيّة - مِنَ التّربة وغيرِها - فهي بمنزلة القابل، فقَدَّم الفاعلَ على القابل[2]. الثّالث: لأنّ نزولَ الرّزق مِنَ السّماء أعجبُ وأدلُّ على كمالِ قُدرته سبحانَه. الرّابع: السّماء أسبق في الخَلق مِنَ الأرض؛ فقدَّم الأسبقَ خَلْقًا.

سِرُّ تخصيصِ عطفِ ملكِيّةِ السَّمع والأبصار بـ (أم):

في الإضـــراب تنبيهٌ على كفايةِ الاستـفـهـامِ في الـدّلالـةِ على إثباتِ قُدرةِ الله

﴿أَمَّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ هي: (أم) المنقطعة، و(مَنْ) الاستفهاميّة، وقد جاءت (أم) المنقطعة هذه بعد ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ الاستفهاميّة، وقبل ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ﴾ الاستفهاميّة، وأفادت معنى (بل) دونَ الهمزة؛ لأنَّه وَقَعَ بعدَها هنا اسمُ استفهامٍ صريح، وهو (مَنْ)، فلا يدخل استفهام على استفهام[3].

والسِرُّ في تخصيص عطف مُلْكِيّة السّمع والأبصار بـ(أم) دون الواو، هو إفادةُ معنى الإضراب، وهو هنا: إضرابٌ انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ؛ إذِ المقصودُ السّؤال عن كلٍّ منها؛ وذلك للتّنبيه على أنّ كلَّ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/155.

(2) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/451.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/220.

واحدٍ منها يكفي في إثبات التّوحيد، وفي أنّه لا يشارِكُه أحدٌ في شيءٍ من ذلك، فضلًا عنِ المجموع من حيث المجموعُ[1].

والمعنى: بل قل لهم: مَن يملكُ السَّمع والأبصار؟! ومَن يملك خَلْقَهما على هذا النَّمط البديع، والتَّركيبِ الغريبِ؟ ومَن يملك حِفْظَهما مِنَ الآفات مع كَثْرتِها، وسُرْعَةَ انفعالِهما مِن أدنى شَيءٍ يصيبُهما؟[2].

للسّمع والأبصار أهميّة في حياة النّاس أجمعين

و"السِّرُّ في عطف مُلْكِيَّة السّمع والأبصار بـ(أم)، وما عداهما بالواو؛ التّنبيهُ على ما للسّمع والأبصار مِن أهميّة في حياة المخاطَبين، فردًا فردًا، والصّنعِ الإلهيِّ العجيبِ الذي أخرجَهما فيه، فعَطَفَ بـ(أم) ليُنْتَقَلَ مِن نعمة جليلة إلى نعمة جليلة مثلِها"[3].

صَوغُ فعلِ الملكِ مضارعًا في: ﴿يَمۡلِكُ﴾:

حفظُه للحواسّ مستمرٌّ سبحانَه، وقيّوميَّتُه عليها لا تنقطعُ

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن فعل الملك بصيغة المضارع ﴿يَمۡلِكُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ للدّلالة على دوام مُلْكِه واستمرارِه للسَّمع والأبصار؛ فَحِفْظُه لها مستمرٌّ؛ إذ يعملان بقُدرته، وتصريفه، وسلطانه، وقيّومِيَّتُه عليهما لا تنقطع.

عِلّة ذِكْرِ السّمع والبصر عَقِبَ الرّزق:

في السّمع والبصرِ صَنعةٌ عجيبةٌ، وقُدرةٌ باهرةٌ، ونفعٌ عظيمٌ

خَصَّ الله السّمعَ والبصرَ بالذِّكْر عَقِبَ الرّزق، وأسند إليه سبحانَه مُلْكِيَّتَهما دونَ غيرهما لأمرين؛ الأوّل: لما فيهما مِنَ الصَّنعَة العجيبة، والقُدرةِ الباهرةِ العظيمة، أي: مَن يستطيع مُلْكَهُما وتسويتَهُما على هذه الصّفة العجيبة، والخِلْقة الغريبة، حتَّى ينتفعوا بهما الانتفاعَ العظيم؟[4]. الثّاني: خصّهما بالذِّكْر من باب التّنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمالِ شرفِهما ونفعِهما[5]، فهُما أشرف

(1) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/451.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141، والحجازيُّ، التَّفسير الواضح: 2/59.
(3) المطعني، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/45.
(4) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/504.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 363.

الحواسّ، وعليهما مَدارُ الحياة الحيوانيَّة، وكمالُ الحياةِ الإنسانيَّة؛ إذ بهما تحصيلُ العلوم الأَوليَّة(1)، فهما أظهَرُ حاسَّتين عامِلَتَين في الإنسان، فإذا فقدَهما كان كَومَةً متحرِّكَة مِن لحم، لا تَعْقِل ولا تَعِي شيئًا! فعن طريق السّمع والبَصر، جاءتِ المعرفةُ إلى الإنسان، وتكَوَّنت مَدارِكُه، وأَخيلَتُه، وتصوراتُه، وعن طريق السّمع والبصر، تتحوّل هذه المعرفةُ إلى قوًى دافعةٍ، تُحرِّك الإنسانَ، وتوجِّهُهُ إلى غاياته في الحياة(2).

وجهُ تقديم السّمع على الأبصار:

السّمعُ أشرفُ نِعمًا وأعظمُ نفعًا مِنَ البصر

قدَّم البيانُ الإلهيُّ السّمعَ على الأبصار في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ دلالةً على أهميّةِ السّمع؛ لأنّ السّمع أشرفُ نعمًا، وأعظمُ نفعًا مِنَ البصر(3)، فهو آلةٌ لتَلقّي المعارفِ التي بها كمالُ العقل، وهو وسيلةُ بلوغِ دعوةِ الأنبياء إلى أفهامِ الأُمم على وجهٍ أكملَ مِن بلوغها بوساطة البَصر(4)، وهذا يوافق سياقَ الآية التي تُقيم الحُجّة على المشركين بما أنعمَهُ اللّه عليهم، ويوافق ما جرى عليه اصطلاحُ القرآنِ مِن تقديم السّمع على البصر(5).

علّةُ توحيد السّمع وجمعِ الأبصار:

الصّوت شيءٌ واحدٌ، وهو في الأصل مصدرٌ دالٌّ على الجنس

وحّد البيانُ الإلهيُّ السّمعَ وجمعَ الأبصارَ في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ لأمور؛ أحدها: أفرد السّمع اعتبارًا بالأصل؛ فإنّ السّمع مصدرٌ في أصله، فهو دالٌّ على الجنسِ الموجودِ في جميع حواسِّ النّاسِ، وأمّا الأبصارُ فجيءَ به جمعًا؛ لأنَّه اسمٌ، فهو ليس نصًّا في إفادةِ العموم؛ لاحتمالِ توَهُّمِ بصَرٍ مخصوصٍ، فكان الجمعُ

(1) المراغيُّ، تفسير المراغيّ: 11/100.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1000.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/451.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/258.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/184.

أدَلَّ على قصدِ العمومِ، وأنفى لاحتمالِ العهدِ[1]. وثانيها: أفردَ السّمع بتقدير مضافٍ فيه، أي: مَن يملك حواسّ السّمع. وثالثها: أنّ ما يتعلّق بالسّمع واحد، وهو المسموعات، فإنّها منحصِرةٌ في الأصوات، بخلاف أخواته[2]؛ فالسّمع طريق إلى شيءٍ واحد هو الصّوت، والصّوت وإنِ اختلف قوّةً وضعفًا، ورقّةً وخُشونةً، فهو على أي حال شيءٌ واحدٌ في النَّوع، وإنِ اختلف في الدَّرجة، وأمّا البصرُ فتتعدَّدُ فيه أجناسُ المُبصَراتِ[3]؛ فهو طريق إلى هذا الكون كلّه، وما فيه مِن عوالم وأكوان، وما في كلّ عالَم وكَوْن مِن ناطق وصامت، ومتحرِّكٍ وثابت، وجامِدٍ وسائل[4].

توحيدُ السّمع وجمعُ الأبصار عادةٌ قرآنيةٌ

إنّ توحيد السّمع وجمعَ الأبصار جاء على عادة القرآن الكريم[5]؛ فالمتتبِّعُ لآيات اللّه، التي تتحدّث عنِ السّمع والبصر، يجد أنّ القرآن الكريم قد فرّق بينَ السّمع والبصر، في الصّورة التي عبّر بها عن كلّ منهما، فأمّا السّمع فقدِ التزم فيه القرآنُ الكريم الإفرادَ مطلقًا، سواء اقترن به البصرُ أم لم يقترن، وسواء جاء منكّرًا أو مُعَرّفًا بأل أو بالإضافة، ولم يقع في القرآن مجيءُ السّمع جمعًا في أيّ حالٍ من أحواله، ولم يرد في القرآن لفظُ الأسماع أبدًا[6].

نُكْتَة إطلاقِ مِلك السّمع والأبصار دون ذكر (خلقهما، حفظهما):

السّمع والبصر تـحت سلطان الخالق سبحانَه

عبّر البيانُ الإلهيُّ بملْكِيَّة اللّه للسَّمع والأبصار، لا بخلقهما أو حفظهما، فقال تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾؛ لأنَّ الملكيةَ تُطْلِقُ يدَ المالكِ في التّصرّف فيما مَلَكَ، "من إبقاءٍ وحفظ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/156.
(2) القونويّ وابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويِّ: 9/451.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/291.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1001.
(5) المقصود بذلك الأغلبيَّة، إذ ورد في سورة الإسراء البصر بلفظ المفرد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ﴾ [الإسراء: 36].
(6) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1001.

وإذهاب"[1]، ولا ينفي هذا أن يكون المالكُ هو الخالقُ، فهو يخلُقُ ويملك ما يخلقُ، فالتّعبير بملكية الله للسّمع والأبصار يدلُّ على أنّ الله سبحانه وإنْ تفضّل بهما على الإنسان، فهما لم يخرجا عن سلطانه، وأنَّهما - وهما يعملان في الإنسان - يعملان بقدرة الخالق، وبتصريفه لهما، وأنّه سبحانَه هو الذي يُمدُّهما بالقوى التي يعملان بها، ولولا هذا لبَطَلَ عملُهما، وهو القادر على أن يأخذ هذه القوى ويبطلَ عملَ السّمعِ والبصر، كما يقول سبحانه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾ [الأنعام: 46][2].

ملكيّة السمع والبصر تذكير بدقيق صنعه تعالى، ومديد نفعه

وفي التّعبيرِ بملكية الله للسّمع والبصر استدلالٌ وتذكيرٌ بأنفعِ صُنعٍ وأدقِه؛ لأنَّهما من صُنع الملك سبحانَه، وإشارةٌ إلى عموم التّفضّل بهاتين النّعمتين؛ إذ إنّ مِلْكَهما يعني خلقَهما وتسويتَهما على الحَدِّ الذي سوِّيا عليه مِنَ الفطرة العجيبة، وحمايتَهُما وعصمَتَهُما مِنَ الآفات، وغيرَ ذلك، أي: أنّ لفظة المِلك أوسعُ دلالةً من لفظةِ الخَلْق، أو لفظة الحِفظ، ولو عُبِّر بأحدهما لما دلَّ على هذا العموم.

وجهُ عطْفِ الاستفهامِ بالواو: ﴿وَمَن﴾:

العطفُ زيادةُ بيانٍ لأنواع النِّعَم التي تفضَّل بها الله، وأقامَها حُجَّةً على المشركين

عطفَ القرآنُ الاستفهامَ ﴿وَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ بالواو الذي يفيد مُطلق الجمع، لا التَّرتيبَ أو التَّعقيبَ؛ لأنّه لا يوجد بينَ المعطوفات ترتيبٌ ولا تعقيبٌ، فلذا قَدَّم رزقَ السّماء ورزقَ الأرض، وخَلْقَ السّمع والبصر، وحفظَهُما؛ لأنّها أوضحُ ما المشركون فيه وأقربُه، ثمَّ عطف عليها ما نبَّهَهُم به على ما قبلَ الرِّزق والسّمع والبصر، مِن بَدْءِ الخَلْق، فقال: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ﴾[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/52.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 6/1000.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/113.

إذًا، ليس مقصودُ العطفِ التَّرتيبَ أو التَّعقيبَ، وإنَّما زيادةُ بيانٍ لأنواعِ النّعمِ التي تفَضَّل بها الله، وأقام بها الحُجّة على المشركين.

نوع التَّعريف في: ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾:

أل التَّعريف في ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾ في المرّتين في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ جنسيّةٌ استغراقيةٌ[1]؛ تفيدُ العمومَ، أي: تشمل كلَّ حيٍّ وكلَّ ميّت، "وذلك أنَّ كلَّ حيٍّ فارقَه شيءٌ مِن جسده، فذلك الذي فارقَه منه ميّت، فالنُّطفة مَيِّتة؛ لمفارقتها جسدَ مَن خرجت منه، ثمَّ يُنشِئُ الله منها إنسانًا حيًّا، وبهائمَ وأنعامًا أحياءً، وكذلك حُكمُ كلِّ شيء حَيٍّ زايلَه شيءٌ منه، فالذي زايلَه منه ميّت"[2].

من تمامِ قدرته أنْ يكونَ خَلْقُه لـلـحـيّ والمـيّـت عامًّا شاملًا في كلّ حيٍّ وميّت

وجهُ البَدءِ بإخراجِ الحيّ دونَ الميّت:

قدَّم القرآنُ إخراجَ الحيّ مِنَ الميّت على إخراج الميّت مِنَ الحيّ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾؛ لأمور؛ الأوَّل: لشرفِ الحياة (شَرفِ الحيّ على الميّت)[3]. الثّاني: لقصدِ البَداءَة به والختم؛ اعتناءً بشأنه، إذ بدأ بالحيّ وختم بالحيّ، وهذا الاعتناء به؛ لأنّه أخفى، فلا يدركُه كلُّ أحد[4]. الثّالث: تقديم الحيّ على الميّت أعجب؛ لأنّه أكثرُ دلالة على كمال القُدرة؛ فإنّ خروج الحيّ مِنَ الميّت؛ كالدَّجاجة مِنَ البيضة، أعجبُ في القُدرة، مِن خروج الميّت مِنَ الحَيّ؛ كالبيضة مِنَ الدّجاجة، ولا سيما أنّ السّياق هو الاستدلال على ألوهيّته وقدرته سبحانّه.

تـقـديـمُ الـحـيّ عـلى المـيّتِ أكثرُ دلالة على كمال القُدرة

بلاغة الكناية في الآية:

في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾

الـكُـفْـرُ مـوتٌ، والإيـمـانُ حياةٌ يهدي الله إليها مَن طلبها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/156.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/308، وهو، وإن رأى أنَّ لهذا القول وجهًا مفهومًا، إلّا أنّه لم يرجّحه.
(3) السُّيوطيُّ، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/131.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.

كنايةٌ؛ على قولِ مَن فَسَّر الحياةَ والموتَ في الآية الكريمة بالشَّيء المعنويّ، وهو إخراجُ المؤمنِ مِنَ الكافر، والكافرِ مِنَ المؤمن[1]، وقد ذكر الطَّبريُّ مَن فسَّره بذلك مِنَ السّلف؛ كالحسن البصريّ[2]. وممّا يُؤيّد هذا الرّأي قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: 122]، وما ورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «سبحانَ الله، الذي يُخرج الحيَّ مِنَ الميّت»، وقد رأى امرأةً صالحةً ماتَ أبوها كافرًا، وهي خالِدَة بنتُ الأسود بن عبد يَغوث[3].

الإخــراج مـن فيوضات المنان وفـيـه التـكـاثـر وتعاقب الأجيال

وهو كناية عنِ الفيض الإلهيّ، والتّكاثُر، وتعاقبِ الأجيال، وتكمن بلاغةُ هذه الكناية في أنّها امتداحٌ للمؤمنين الأوائلِ الذين آمنوا برغم كُفْر آبائهم، ومَنْعِهم لهم مِنَ الإيمان، وذَمٌّ للكافرين الذين كفروا برغم إيمان آبائهم، وحِرْصِهم على إيمان أبنائهم، وأنّ فيها تبشيعًا للكُفْر؛ إذ وَصَفَه بالموت، وترغيبًا بالإيمان إذ وَصَفَه بالحياة.

براعةُ التّضاد بينّ الحيّ والميّت في الآية:

مِن باهرِ قُدرتِه سبحانَه إخراجُ الضِّد مِن ضدِّه

عَطَفَ القرآنُ قولَه: ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾، على قوله: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾؛ لأنّه إخبارٌ بضدِّ مضمونِ ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾، وصُنْعٍ آخرَ عجيبٍ دالٍّ على كَمال القُدْرَة، وَنافٍ تصرُّفَ الطبيعةِ بالخَلْقِ؛ لأنّ الفعل الصّادر مِنَ العالِم المختار يكون على أحوال متضادّة، بخلاف الفعلِ المتولّد عن سببٍ طَبْعيّ.

وقد نُظِّمَ هذا الاستدلالُ على ذلكَ الصُّنعِ العجيبِ بأسلوبِ الأحاجي والألغاز، وجُعِلَ بمُحَسِّنِ التَّضادِّ، كُلُّ ذلك لزيادةِ التَّعْجِيبِ منهُ[4].

---

(1) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 11/187، والزُّحيليُّ، التَّفسير المنير: 11/164.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 6/309.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/89، والحديث أخرجه الطَّبريُّ عن الزُّهري مُرسلًا: 6/308.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/388.

بلاغة الطّباق في: ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

تقابلُ رزقِ السّماء مع رزقِ الأرضِ يزيدُ الكلامَ حُسنًا، ويدلُّ على كمال القُدرة

جمع البيانُ القرآنيُّ بينَ لفظيْن متقابليْن في المعنى، هما: السّماء والأرض، ويُعرَفُ بالطّباق، وهو مِنَ المحسِّنات البَديعيَّة؛ إذ إنّ تقابلَ المعنيين ممّا يزيد الكلامَ حسنًا وطَرافة، ويَدُلُّ على كمال القُدرة التي تشمل الأشياءَ كلَّها، توافقت أم تقابلت، أمِ اختلفت، فهو لا يَرْزُق مِنَ السّماء فقط، أو مِنَ الأرض فقط، بل إنّ قدرَتَه تشمَل السّماء والأرض.

بلاغة ردِّ العَجُزِ على الصَّدر:

التصديرُ يزيدُ الكلامَ حُسنًا والمعنى تمكنًا

في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ ردَّ أحدَ اللَّفظَين المكرَّرَين، المتَّفقَين في اللّفظ والمعنى، على الآخر، فردّ لفظة ﴿ٱلۡحَيِّ﴾ في آخِر الجملة في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾، على لفظة ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ في أوّل الآية في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ﴾. وهذا مِنَ المحسِّنات البَديعيَّة، التي تُعْرَف بَرَدِّ العَجُزِ على الصَّدر، والتي تزيد الكلامَ حُسْنًا والمعنى تمكُّنًا.

بلاغة الإطناب بعطف العامّ على الخاصّ:

اهتمامٌ بشأنِ الخاصّ الذي ذُكِر، وتعميمٌ لتدبيرٍ إلهيّ لا نهايةَ له

أطنبَ البيانُ القرآنيُ بذكرِ العامّ؛ وهو قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ بعد الخاصّ؛ وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم﴾، أي: ما سبق مِن نِعَم الرِّزق والخَلْق، وحِفْظ السَّمع والأبصار، وغيرِ ذلك؛ إذ إنّ كلَّ ما سبق مِن نِعَمٍ يندرج فيها[1]؛ "فتدبيرُ الأمر عامٌّ في كلِّ شيء"[2].

وفائدةُ الإطناب هنا بذكر العامّ بعد الخاصّ واضحةٌ؛ وهي التّعميم بذكر العامّ، وأنّه ليس المقصودُ ما ذُكر فقط، فأقسامُ تدبير اللّه تعالى في العالم العُلْويّ والسّفليّ، وفي عالَمَي الأرواح

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/63.

(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 797.

والأجساد، أمورٌ لا نهايةَ لها، وذِكْرُ كُلِّها كالمُتَعَذِّر، فلمّا ذَكَر بعضَ تلك التَّفاصيل لا جَرمَ عَقَّبَها بالكلام الكلِّيّ؛ ليَدُلَّ على الباقي[1]، والاهتمامِ بشأنه الخاصّ الذي ذُكر؛ لذا أفردَه بالذِّكر[2].

نكتةُ التّعبير بالمضارع في: ﴿يُدَبِّرُ﴾:

تدبيرُ الله سبحانَه مُتجدّدٌ مستمرٌّ لا ينقطع، إذ بيده ملكوت كلِّ شيء

آثرَ القرآنُ التّعبيرَ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾؛ "للدّلالة على تَجَدُّد التّدبير واستمراره"[3] منه سبحانَه.

سِرُّ العدول مِن فعل الأمر، إلى المضارع:

جوابٌ لا يستطيعونَ إنكارَه؛ لأنّهم مُقِرّون معترفون بأنَّ الله هو الخالق المدبِّر

عَدَلَ البيانُ الإلهيُّ عنِ التّعبير بفعل الأمر: (قُل)، إلى المضارع: (سيقولون)، في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، أي: لم يقل: (قلِ الله)؛ مراعاةً للسِّياق، وهو إقامة الحُجَّة عليهم بما يُقِرّون به ولا يجحدونه؛ مِن نزول المطر مِن قِبَل هذه السّماء التي هي السَّحاب، ومن الأرزاقِ التي في الأرضِ حيث يعيشون عليها، ومِن نعمة حِفْظِ السّمع والأبصار، وإيجادِ الحَيِّ مِنَ الميّت، وإيجادِ الميّت مِنَ الحيّ، ممّا يُشاهدونه بالحِسِّ، وهو أقربُ الأشياء إليهم.

إذًا، فإقرارهم يناسبُه أن يكون اللّفظ القرآنيُّ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾، ولو عبّر بـ (قلِ الله)؛ لدَلَّ على أنّهم لم يكونوا مُقِرّين بما ذَكَره مِن أدلّة، ولذا أَمَر رسولَه بأن يتولّى الجوابَ فيها، كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ﴾ [سبأ: 24]؛ إذ إنَّهم لم يكونوا مُقِرّين بكُلّ ما في السّماوات من رزق التَّنَزُّلات الإلهيَّة، والوحي وما به قِوام العالَم العُلويّ والسُّفْليّ[4].

دلالةُ الفاء في: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

بينَ السّببيّة التي تُفيد اقترانَ الإقرارِ بالسّؤال، والتّعقيبِ الذي يُفيد الإسراعَ بالإقرار

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ تحتمل وجهين؛ الأوّل:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/247.
(2) السُّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/241.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/118.
(4) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/117.

فاء السّببيّة التي مِن شأنها أن تقترن بجوابِ الشّرط إذا كان غيرَ صالحٍ لمباشرة أداة الشّرط، وذلك أنّ القرآن قَصَدَ تَسَبُّبَ قولهم: (اللّه) على السّؤال المأمورِ به النّبيّ ﷺ، فَنُزّل فِعْلُ (فقل) منزلةَ الشّرط، فكأنّه قيل: (إنْ تَقُل مَن يُرزقُكم مِنَ السّماء والأرض فسيقولون اللّه)، ومنه قولُه تعالى: ﴿۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ﴾ [الإسراء: 50- 51]، ولو لم يُنَزّل الأمرُ منزلةَ الشّرط لما جاءت الفاء، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: 84- 85][1]. الثّاني: فاء التّعقيب، والمعنى: فَسَيَقولونَ بلا تلعْثُم ولا تأخيرٍ (اللّه)؛ إذ لا مجالَ للمُكابرَة لغاية وضوحِه[2].

دلالة السين في: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

جوابُ المشركين بالإقرار حالٌ مستمرٌّ منهم

السّين حرفٌ يختصّ بالمضارع، ويُخلّصُه للاستقبال، وهو حَرفُ تَوَسُّعٍ، أي: أنّ السّين بدخولها على الفعل المضارع الذي يُفيد الاستمرارَ (يقولون)، نقلتِ استمرارَ قولهم مِنَ الزَّمن الضّيّق - وهو الحال - إلى الزّمن الواسع، وهو الاستقبال، أي: أنّ إقرارَهم لا يَختصّ بالزَّمن الضّيّق، وهو الحال فقط، وإنّما هو مستمرٌّ منهم، إذ لا يستطيعون إنكارَ أنّ اللّه تعالى هو الذي خلقهم، وهو الذي يُدبِّر أمرَهم، وإنَّما كانوا يتّخذونَ الشُّركاء للزُّلْفَى، كما حكى القرآنُ عنهم في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزّخرف: 87]، وفي قوله سبحانَه حكايةً عنهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزّمر: 3][3].

ويمكن أن تكون السّين في الآية للاستمرار لا للاستقبال؛ إذ إنّ السّين قد تأتي للاستمرار لا للاستقبال، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/156.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/141.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/64.

﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾؛ لأنّ اعترافَهم بما ذكرتْهُ الآيةُ موجودٌ قبلَ نزولها، وقال ابن هشام: "وهذا لا يعرفه النّحويون، بل الاستمرار مُستفادٌ مِنَ المضارع، والسّين باقية على الاستقبال؛ إذِ الاستمرار إنّما يكون في المستقبل"(1).

وتفيد السين أنّ الجواب غيرُ حاضر في أذهانهم، ومِن ثَمَّ احتاجوا معه إلى مُحاجّةٍ ومناظرةٍ، بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، فإنّه تضمّن أنّ إيمانَهم بأنّ اللّه ﷻ هو الذي خلق السّماواتِ والأرضَ إيمانٌ حاضِرٌ في أذهانهم، وثابتٌ في عقيدتهم، لا يحتاج محاجّة ولا مناظرة، فجوابُ السّؤال عنه جاهزٌ لديهم، ولذا جاء التّعبير الذي يُعَبّرون به بصيغة: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

إيثار التّعبير عن فاعل ما تقدَّم باسمه الأعظم:

فِطْرتُهم نَطقتْ وأقرّتْ بأنَّ الله لهُ الكمالُ كلُّه بالحياةِ والقيّوميّة

في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ آثرَ البيانُ الإلهيُّ التّعبير عن فاعل ما تقدَّم بالاسم الأعظم الجليل (اللّه)، دونَ غيره مِنَ الأسماء الحُسنى؛ لأنّ اسمَ (اللّه) هو اسمُ الذّاتِ الذي يَجمَعُ كلَّ صفاتِ الكمال، أي: فسيقولون اللّه الذي له الكمالُ كلُّه بالحياة والقَيوميّة(2)، وهو الذي اختصّ به سبحانَه دونما سِواه، لأنّهم يقولون: (إله) و(ربّ) لغير اللّه.

توجيه إعراب لفظ الجلالة:

إذا تساوى الإثباتُ والحَذفُ، فالحَذفُ أبلغُ

الاسمُ الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ مبتدأٌ، والخبر محذوف، وقد حُذِف الخبرُ جوازًا؛ لأنّه جاء في جواب الاستفهام عنِ الأسئلة التي سبقت، وذلك للإيجاز والاختصار؛ إذ دَلَّ عليه دليلٌ، ولم يَتأثّرِ المعنى بحذْفِه، فكان الإيجاز أبلغَ، والتّقدير:

(1) السُّيوطيُّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/233.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/113.

فسيقولون اللّه وَحدَه هو الذي فعل كلَّ ذلك، أي: جاء الخبر مُتَعدِّدًا لكلّ الأسئلة التي مرّت.

دلالة فاء ﴿فَقُلۡ﴾:

إقرارُ المشركين بألوهيَّة الله يترتَّبُ عليه دَعوتُهم إلى تجنُّبِ الإشراكِ به

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ تحتمل ثلاثة أوجه؛ الأوَّل: التّعقيب، أي: لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، فَتَرَتَّبَ على إقرارِهم بقولهم: (اللّه) دعوتهُم إلى تقوى اللّه، والإحساسِ بجلاله، وتجنبِ ما لا يرضيه[1]. الثّاني: فاءُ الفَصيحَة؛ لأنّها أفصَحَتْ عن شرط مُقدّر، أي: إنْ قالوا ذلك فقلْ أفلا تتقون[2]. الثّالث: السّببيّة، "أي: فتَسبَّبَ عن ذلك أنَّنا نقول لك: قل لهم مُسَبّبًا عن جوابهم هذا الإنكار عليهم في عدم التَّقوى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾"[3].

وعلى الأوجه الثّلاثة هناك تَرتُّب أمرٌ على أمر، أي: تَرتّبَتْ دعوتُهم إلى تَجنُّبِ الإشراكِ به على إقرارِ المشركين بأُلوهيَّة اللّه سبحانَه.

توجيه التَّعبير بالاستفهام في: ﴿أَفَلَا﴾:

إنكارٌ حَمَلَ معنى التّبكيت والوعظ والتّذكير للمشركين؛ ليتداركوا سَخَطَ الله

الاستفهام في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ استفهامٌ توبيخيٌّ، يتضمَّنُ إنكارَ واقعِهم الذَّميم، وهمزة هذا الاستفهام الإنكاريِّ داخلةٌ على كلام مُقَدَّرٍ، والفاءُ عاطفةٌ على ذلك المحذوف، وتُعرَف بالفاء الفَصيحَة، تقديره: فقل لهم يا محمَّد عند ذلك تبكيتًا لهم، ووعظًا وتذكيرًا؛ أَتَعْلَمون وتَعْتَرفون بأنَّ اللّه تعالى هو الخالق لكلِّ ما سبق، ومع ذلك تُشْرِكون معَه آلهةً في العبادة، فلا تتَّقون سَخَطه وعقابَه لكم، بشركِكُم وعبادتِكُم لغيره، ممَّن لا يملك لكم ضَرًّا ولا نَفعًا[4]، وفيه - فَضْلًا عن إنكار عدم التَّقوى - الحَثُّ على التّقوى والتّرغيب بها[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3561.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/157.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/113.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/141، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/221، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/64.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/45.

وقد سمَّى ابنُ عاشور هذه الفاء فاءَ التَّفريع، والمعنى: يَتفرَّع على اعترافكم بأنّه الفاعلُ الواحد؛ إنكارُ عدمِ التَّقْوَى عليكم(1).

دلالة التّعبير عنِ التّقوى بالمضارع:

إقرارُ المشركين بنِعَم الله العظيمة يستلزمُ منهم التّقوى، وعدمَ الانفكاك عنها

عبَّر القرآنُ عن التّقوى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على وجوب الاستمرار والتّجدّد، والتّكرار للتّقوى منهم في كلّ ما يتعلَّقُ بهم؛ لأنّ التّقوى تستلزم الممارسةَ، فهي حالةٌ نفسيّة، وعادةٌ سلوكيَّة، تترسَّخ في القلب والنَّفس باستمرار الممارسة.

وجه حَذْفِ متعلّق التّقوى في: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

العمومُ يُفصِحُ عن كُنْهِ المطلوبِ منهم تَجنُّبُه

حَذفَ القرآنُ الكريم متعلّقَ التّقوى، أي: مفعولَ قولِه: ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لأمور؛ الأوّل: إفادةُ العموم، أي: يَعُمّ كلَّ ما يجب أن يتّقوه ويتجنّبوه من عذاب اللّه وغضبِه وسَخطِه في الدّنيا والآخرة، ومِن كلّ أنواع السّيّئات؛ مِنَ الكفر والمعاصي بأنواعها، وهذا أبلغ مِن ذِكْر المفعول به؛ لأنَّه يؤدّي إلى تخصيص بعضٍ ممّا يجب تجنُّبه، ولا سيَّما أنّ ألفاظ الآية الكريمة تمتاز بوفرة الدّلالة على نِعم لا بدَّ أن يتّقوا عذابَ الكفر بكلّ واحدةٍ منها. الثّاني: مراعاةُ الفاصلة التي قبلَها ﴿يَفۡتَرُونَ﴾، والتي بعدَها ﴿تُصۡرَفُونَ﴾، بما يُحقّق إحكامَ اللَّفظ، أي: التَّطريبَ وراحةَ النَّفس بنغمها الموافقِ للفاصلَتين المذكورتين؛ إذ خُتمتا بالواو والنّون، والواوُ من حروف المدّ التي هي مِنَ الحروف الطَّبيعيَّة في الموسيقى، وبما يُحقّق إحكامَ المعنى وإكماله؛ فضَياعُ ما كانوا يفترونَه يستلزمُ بعدَ إقامة الحُجَّة عليهم أن يكونوا مِنَ المتَّقين، لا أن ينصرفوا عنِ الحَقّ إلى الضَّلال بعد اعترافهم وإقرارهم. الثّالث: الاختصار؛ لشُهرته وظُهوره، فَذِكْره وحَذْفُه سواء، فيُحْتَرَزُ عن ذِكْره اختصارًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/157.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الخَلْق والجَعْل والمِلْك:

الخَلْقُ تقديرٌ وإبداعٌ، والجَعْلُ تصييرٌ وتهيئة، والمِلكُ قوّة وانفرادٌ بالتَّصرف

(الخلق): تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[1]، أي: إبداع الشّيء مِن غير أصل ولا احتذاء، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، ويُستَعمل في إيجاد الشَّيء مِنَ الشَّيء[2]، والجَعْلُ: التَّهيئَةُ والصُّنْعُ، وتصييرُ الشَّيء مِن حالة إلى حالة[3].

وقد ذهب جمهور المفسّرين إلى أنّ (جعل) بمعنى (خلق)، إلّا أنّ الزّمخشريّ فرّق بينَهما فقال: "والفرق بينَ الخَلْق والجَعْل: أنّ الخَلْق فيه معنى التَّقدير، وفي الجعل معنى التَّضمين، أي: إنشاء شيء مِن شيء، أو تصيير شيء شيئًا، أو نقلُه مِن مكان إلى مكان...، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1] لأنَّ الظّلماتِ مِنَ الأَجْرام المتكاثِفَة، والنّورَ مِنَ النّار"[4].

نخلص ممّا سبق: إلى أنّ الاستعمال القرآنيَّ لكلمتي (خَلَق) و(جعل) يُظْهِر أنَّهما يَشتركان في معنى إحداث الشَّيء مِنَ الشّيء، ويَتَميّز لفظُ (الخلق) بمعنى: التّقدير والإبداع والأوليّة، في حين يَتميّز الجَعْلُ بمعنى التّصيير والتّهيئة، وكونه محصَّلًا من آخَر.

أمّا (المِلك): فيختلف معناه عنِ الخَلْق والجَعْل، إذ معنى المِلك في اللّغة: يدلّ على قوّة في الشَّيء وصِحَّة[5]، ومَلَكَ الشَّيء: حازه، وانفرد بالتّصرّف فيه، فهو مالك[6]. فمَن يَخْلُق ويَجْعَل يَملُك وينفرد بالتَّصرّف، يقول الشَّعراويُّ في معنى الخَلْق والجَعْل والملك: "الحقُّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 296.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).
(4) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/3.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ملك).
(6) الزَّبيديُّ، تاج العروس، ومجمع اللُّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (ملك).

ﷻ قد خلق المادّة أوّلًا، ثمّ جعل من المادة سمعًا وبصرًا، وزاد من بعد ذلك: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ﴾، فمَن خَلَق هو اللّه تعالى، ومَن جَعَل هو اللّه تعالى، ومَن مَلَكَ هو اللّه تعالى"[1].

ومِن هنا فالتّعبير بملْكيّة اللّه للسّمع والأبصار، لا بخلقهما أو جَعْلِهما؛ لأنَّ الملكيّة تُطْلِقُ يدَ المالك في التّصرف فيما مَلَكَ، وأنّ اللّه سبحانَه وإنْ تفضّل بهما على الإنسان فهما لم يخرجا عن سلطانه، وأنّهما يعملان في الإنسان بقُدرة الخالق، وبتصريفه لهما[2]. فضلًا عمّا فيهما من استدلالٍ وتذكير بأنفعِ صُنعٍ وأدَقّه؛ لأنَّهما مِن صُنع المَلِك سبحانَه.

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5910.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1000.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ بيَّن القرآنُ فسادَ معتقداتِ المشركين وما سيلقونَهُ مِنَ الجزاء، وقفَّى على ذلك بإقامة الحُجَج عليهم في إثبات التَّوحيد والبعث بقوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أردفَ ذلك بإثبات منهجِ اللهِ الرَّبِّ الحَقِّ، فقال سبحانَه: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾[1].

بعد إقامة الحُجَج على المشركين حَكَم الله بأن لا رَبَّ ولا حَقَّ سِواه

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُصۡرَفُونَ﴾: الصّرف: رَجْعُ الشّيء[2]، وصَرَفَ الشّيء عن وَجْهه: ردَّهُ فانصرف، وصَرَفَ الشَّيء: أَعْمَله في غير وجهه، كأنّه يَصْرِفُه عن وجهٍ إلى وجه، وكلُّ (صَرَفَ) فيه معنى التّحويل، والحَرْفُ الذي تُعدَّى به يوجّه المعنى، والصّرف: الميل والتّقلُّب والحِيْلَة[3]، ومعنى ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ في الآية: تستجيزون العدولَ عنِ الحقّ الظّاهر، وتقعون في الضّلال[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن بَعُدَ عن الله بَعُدَ الله عنه

مِثل ما ثبتَ أنَّ الله تعالى هو الرَّبُّ الحَقّ، وأنّه ليس بعدَ الحقِّ إلّا الضَّلال، ثبتَ أيضًا الحُكْمُ والقضاءُ منه سبحانَه على الَّذين فَسَقوا عن أَمره، وعَموا وصَمّوا عنِ الحَقِّ، أنَّهم لا يؤمنون به؛ لأنَّهم إن يَروا سبيلَ الرُّشْدِ لا يتَّخذوه سبيلًا، وإن يروا سبيلَ الغَيِّ يتَّخذوه سبيلًا[5].

(1) المراغيُّ، تفسير المراغيّ: 11/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرف).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (صرف).
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 6/57.
(5) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/65.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَة بَدْءِ الآية بالفاء ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، وأهمّيتُها في الوصل:

اللّه هو الرَّبُّ وَحْدَه حقًّا وصِدقًا، ولا ربَّ سِواه

جاءتِ الفاءُ في بدايةِ الآية؛ لتكونَ صِلَةَ الوصل بينَها وبينَ الآيةِ التي قبلَها: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، ولِتُفيدَ التَّفريعَ على الإنكار الذي في قوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، فالمُفرَّعُ مِن جملةِ المَقول[1]، وكأنَّ الكلامَ متواصلٌ في الآيتين، أي: يأمرُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أن يطلبَ منهم أن يكونوا مِنَ المتَّقين، وأن يخبرَهم أنّ الذي يفعل هذا كلَّه مِن رزقٍ وإحياءٍ وتدبيرٍ إنَّما هو اللّه ﷻ، وأنَّه هو سبحانَه الرَّبُّ وَحْدَه حقًّا وصِدقًا، ولا ربَّ سِواه، والوصل بالفاء لتعقيب البيان المؤكِّد لصفات الجلال والجمال والكمال في الآية السّابقة[2].

هنا يأتي جمالُ التَّعبير القرآنيّ، فحيث ينفع الوصلُ يكون الوصل، وحيثُ ينفع الفصلُ يكون الفَصْلُ، فالفاء تحمل في طيّاتها معانيَ كثيرةً، وأسرارًا عديدة، وصَدقَ اللّه عندما قال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، فأُحْكِمت كلماتُه، وأُحكِمت حروفُه، وأُحكِم كلُّ شيء فيه.

بلاغة الفَذْلَكة في الآية:

الذي له الجلال والإكرامُ، هذه هي قُدرتُه وأفعالُه

أجملَ البيانُ الإلهيُّ في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ المعنى المرادَ في عبارةٍ موجزة، بعدَ بسْطِه في الآية السّابقة؛ ليكون هذا الإجمال تدليلًا على ما تقدّم؛ أي: ذلكم الذي اعترفتُم باتّصافه بالنُّعوت المذكورةِ مِنَ الرّزق، ومُلْكِ السّمع والأبصار، وإخراجِ الحيّ مِنَ الميّت، وإخراجِ الميّت مِنَ الحيّ، وتدبيرِ الأمر، إنَّما هو اللّه ربُّكم الحَقّ، أي: المربّي لكم بنِعَمِه، والمُدَبِّرُ لأموركم، الحَقُّ الثّابتُ بذاته؛ لأنَّه هو الحيّ القيّوم، الحيُّ بذاته، المحيي لغيره، القائِمُ بنفسه، المقيمُ لغيره[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.

(2) المطعني، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/46.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/293، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5914.

بلاغة استخدام اسم الإشارة في: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾:

التّنبيهُ إلى أنَّ نعمه ومواهبَه مِنَ الرّزق والخَلْق والتّدبير تنطِقُ بأحقيّةِ ألوهيّتِه وربوبيّتِه

اسمُ الإشارة (ذا) في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ عائدٌ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾؛ للتّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليه جَديرٌ بالحُكم الذي سيُذْكر بعدَ اسم الإشارة، وهو الحَقُّ الثّابتُ الرُّبوبيَّةِ المستوجِبَةِ للعبادة، لا أصنامُكم المربوبةُ الباطلة، مِن أَجْلِ الأوصافِ المتقدّمَةِ على اسم الإشارة، وهي كونُه الرّازقَ، الواهِبَ الإدراكَ، الخالقَ المدبرَ[1]. فضلًا عمّا فيه مِن بيانٍ لعلوِّ شأنه جلّ في عُلاه[2].

وفي مجيء اسمِ الإشارة بالجَمع إيماءٌ إلى أنَّ الحُكمَ الذي يأتي بعدَه مُعَلّلٌ بمجموع الأوصاف المتقدِّمَة[3]، وكذلك يمكن أن يُفَسَّرَ الخطابُ في اسم الإشارة للجمعِ؛ لأنّه لا يخاطَب به النَّبيُّ ﷺ وَحْدَه، إنَّما يُخاطَبُ به النّاسُ أجمعين، وخصوصًا المشركين؛ لأنَّهم الذين أَقرّوا بالخَلْق وضَلّوا في العبادة.

بلاغةُ التَّصريحِ باسمِ الجلالة والإخبار عنه بالرُّبوبيَّة:

تعريضٌ بالمشركين وأربابِهم الباطلةِ، وتقريرٌ بأنّه هو الرّبُّ الحقُّ المدبّرُ المُحْسِنُ

جاء الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ صريحًا ومنطوقًا به، وليس مُشارًا إليه أو مُضْمَرًا؛ زيادةً في الإيضاح، وتعريضًا بقوّةِ خَطَئِهم وضَلالِهم في الإلهيّة، ولِيُقَرِّر أنَّ فاعل ذلك كُلِّه هو اللّه الحَقّ، يَحقّ له الرُّبوبيَّةُ والأُلوهيَّة[4]، ولأنّه موقفُ مَهابةٍ وتعظيمٍ وانتصارٍ للحَقّ وحُجَجِه، فناسَبَه ذِكْرُ الاسم الأعظم الجامع لكلّ صفات الجلال والجمال والكمال؛ تربيَةً لمهابته في النّفوس[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3562.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3562.
(4) النّسفيُّ، التّيسير في التّفسير: 8/62، الآلوسي، روح المعاني: 6/105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/158، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3562.
(5) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

وسواء كان إعرابُ الاسم الجليل صِفةً لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمُ﴾ خبرًا، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبرًا بعد خبر، أو خبرًا لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمُ﴾ بدلًا منه، أو بيانًا لـ ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾، و﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفةَ الرَّبّ، أي: مالِكُكُم، فالمحصّلَة: أنَّ التَّصريحَ جاء بيانًا، وموضِحًا ومُزيِلًا لكلِّ لَبْسٍ، أو تَعارضٍ، أو تَداخُلٍ، مع مُسَمّياتٍ أُخْرَى يُطْلَق عليها اسمُ الرَّبِّ أو الإله.

وكما أنَّ البيانَ الإلهيَّ مع التَّصريح بالاسم الجليل، أخبرَ عنِ الاسم الجليل بأنَّه الرّبُّ الحَقّ؛ إشارةً إلى أنّ إطلاق المشركين لفظَ (الرّبِّ) على معبوداتهم المكذوبة مِنَ اللّات والعُزّى وهُبَل وغيرِها، وكذا إطلاقُ النَّصارى المُثَلِّثين هذا اللَّفظ على المسيح عليه السلام، هو ادِّعاءٌ كاذبٌ يدُلُّ على انحرافٍ في الفِكْر، وبُطْلانٍ في الاعتقاد، فالرَّبُّ حقًّا وصِدقًا هو اللّه تعالى وَحْدَه[1].

ولذلك رَجّح القونَويّ أنْ يكون اسمُ الجلال ﴿ٱللَّهُ﴾ صفةً، و﴿رَبُّكُمُ﴾ هو الخبر، فقال: "المستَحِقُّ للعبادة هو ربُّكُم، أشارَ - أي: البيضاويّ - إلى لفظةِ الجلالِ صفةً لا خبرًا، والخبرُ ﴿رَبُّكُمُ﴾ الثّابتُ رُبوبيّتُه؛ لأنَّهُ الذي أنشأكُم وأحياكُم ورزقَكُم ودَبَّر أمورَكم"[2].

بلاغةُ توكيدِ الوصْفِ بالمصدر المؤكِّد:

وَصْفُ الرُّبوبيةِ وَصْفٌ لله وَحْدَه، وهو وَصْفٌ ثابتٌ وواجبٌ

مِن وجوه توجيه كلمة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ من قول تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أنّها تأكيدٌ لمعنى الرُّبوبيّة، وأنّه جاء بصيغة المصدر لِيُفيدَ الاستمرارَ والخصوصيَّةَ والاستئثارَ بهذا الوَصفِ، ونسبةَ الحَقيَّةِ له لا لغيره، ولِيُدَلّلَ على أنَّ الرُّبوبيَّةَ والعبادةَ متلازمتان تلازُمًا لا يقبل الانفصالَ، فالرَّبُّ حقًّا هو المعبودُ وَحْدَه، المنفَرِدُ بالخَلْق، وهو المنفَرِد بالعبوديَّة، فلا إلهَ غيرُه[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3562.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/453.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.

وقد ثَبتَ عنِ ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا قام إلى الصّلاة مِن جَوْف اللَّيل قال: «اللهمَّ لكَ الحَمدُ، أنتَ رَبُّ السَّماواتِ والأرض، لكَ الحَمدُ، أنتَ قيِّمُ السَّماواتِ والْأَرْض وَمَنْ فيهنَّ، لَكَ الْحَمدُ، أَنْتَ نورُ السَّماوات والْأَرْض، قَوْلُكَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقاؤُكَ حَقٌّ، والْجَنَّةُ حَقٌّ، والنّارُ حَقٌّ، والسّاعَةُ حَقٌّ، اللهمَّ لَكَ أَسْلَمتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خاصَمتُ، وَإِلَيْكَ حاكَمتُ، فاغْفِرْ لي ما قَدَّمتُ وَما أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي، لا إِلَهَ لي غَيْرُكَ»[1]، "فقولُه: أنتَ الحَقُّ، أي: الواجبُ الوُجود، وأصْلُه من حَقَّ الشَّيءُ: إذا ثَبَتَ وَوَجَبَ، وهذا الوصفُ للّه تعالى بالحقيقة، إذ وُجودُه بنفسه لم يسبقْهُ عَدَمٌ، ولا يَلْحَقُهُ عدمٌ، وما عَداه ممّا يقال عليه هذا الاسمُ مسبوقٌ بعَدَمٍ، ويجوز عليه لحاقُ العَدَم، ووجودُه من موجِده لا من نفسه"[2].

نكتة الوصل بحرف الفاء في: ﴿فَمَاذَا﴾:

كلُّ معبود غير الخالق المدبر المحسن هو باطلٌ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ عاطفةٌ، تفيد التّعقيب، أي: جاءت لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، أي: إذا كان اللّه هو الخالق وَحْدَه، وهو المدبّر للكون، وخالقُ القوى الإنسانيّة وغيرِها وَحْدَه، فهو الرّبُّ حقًّا وصدقًا[3]، وكلُّ معبودٍ غيرِه باطلٌ، وكلُّ منهجٍ غيرِ منهجِه خسارٌ، وكلُّ طريق غيرِ طريقِ رسولِه ﷺ ضياعٌ.

بلاغة الاستفهام في: ﴿فَمَاذَا﴾:

مَن يُخطِئِ الحقَّ يقعُ في الضَّلال، ولا توسُّطَ بينَهما، حُكْمٌ لا يُنكِرُه عاقلٌ

أداةُ الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ تحتمل وجهين؛ الأوّل: أداة الاستفهام (ماذا)؛ تركَّبَتْ من (ذا) مع (ما)، فصار مجموعُهما استفهامًا، وإعرابها مبتدأٌ، كأنّه قيل: أيُّ شيءٍ؟ والخبر: ﴿بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾. الثّاني: أداة الاستفهام:

(1) صحيح البخاريّ، كتاب الدَّعوات، باب: الدُّعاء إذا انتبه باللَّيل، الحديث رقم: (6317).
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/64.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3561.

(ما)، وأمّا (ذا) فهي موصولة، ويكون ﴿بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ كذلك خبر ما الاستفهاميّة، كأنّه قيل: ما الذي بعدَ الحَقّ؟ و﴿بَعۡدَ﴾ صِلةٌ كذا، كما في قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ [البقرة: 26][1].

والاستفهام في الوجهين إنكاريٌّ، بمعنى: نفي الوقوع، وأنَّ ذلك فِكْرٌ لا يتصوَّرُه ويستنكِرُه العقلاءُ، ويُفيد التّقرير والتّوبيخ، والمعنى: أنَّه ليس بعد الحَقّ، وهو أنَّ الرّبَّ المعبود هو اللّه وَحْدَه، إلّا الضّلال، فالأمر إمّا حَقّ أو باطل، فمَن يُخطِئ الحقَّ يقع في الضَّلال، ولا تَوَسُّط بينَهما ممّا تَدَّعون مِن أوهام بأنّهم شُفعاءُ للّه، فإنّ ذلك باطلٌ في ذاته، وأنَّه سبحانه لا يتَّخِذُ عندَه شفعاءَ لا ينفعونَ ولا يَضرون، وإن لم يكونوا حجارةً، فإنّ منزلتَهم مِنَ اللّه هي منزلةُ غيرِهم على سواء[2].

سرّ التّعبير: ﴿بَعۡدَ﴾:

مَن تجاوَزَ حَقَّ اللّه - وهو عبادته - وقعَ في الضّلال، وهو عبادةُ غيرِه

دلَّت ﴿بَعۡدَ﴾ على أنّ الإنسان إذا تجاوز الحقّ وتخطّاه - أيَّ حقٍّ كان - وقع في الضّلال، فيُفْهَم منه أنَّ مَن تجاوز عبادةَ اللّه تعالى التي هي حَقٌّ مخصوصٌ وقعَ في الضَّلال الخاصّ، وهو عبادةُ غيرِ اللّه تعالى، إمّا على الانفراد وإمّا على الاشتراك، فإنّ عبادة اللّه تعالى مع عبادة غيره، هي عبادة غيرِه فقط، وبهذا البيان: ظهر ارتباط هذه بما قبلَها، وكذا الكلامُ في سائر الحَقّ المخصوص، فمن تَخطَّى ذلك الحَقَّ، وقع في الضَّلال الذي كان في مقابله[3].

بلاغة الاستعارة في: ﴿بَعۡدَ﴾:

تصويرُ المعنى للقارئ كأنّه ينظرُ إلى الحَقّ، فيُنْقَشُ معناه في قلبه

﴿بَعۡدَ﴾ هنا مستعملة في معنى (غير)، باعتبار أنّ المغاير يحصلُ إثْرَ مغايره وعند انتفائه. فالمعنى: ما الذي يكون إثْر انتفاء الحقّ؟

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3562.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 9/453.

واستعمل البيانُ القرآنيُّ كلمةَ ﴿بَعْدَ﴾؛ ليعطيَ تصويرًا بديعًا للسّامع؛ لأنَّ ﴿بَعْدَ﴾ التي فيها معنى الزّمانيّة والمكانيّة يتحقّق فيها البُعدُ الزّمانيّ والمكانيّ عند الذي اتّخذ الضّلال، وسلك مسالِكَه، وكأنّه باتّخاذه الضَّلال منهجًا قد ابتعدَ عنِ الحَقّ في زمانه ومكانه، وكذلك معَ الاستفهام الإنكاريّ الذي ابتدأت به الجملة، وعقَّب بعدَها بإلّا التي تُفيد الحَصْر، وهذا المعنى لا تُعْطيه كلمةُ (غير).

فاستعارةُ ﴿بَعْدَ﴾ لمعنى (غير) على سبيل الاستعارة التَّبعيّة؛ لأنَّ مَن تجاوز الحَقّ ارتمى في وادي الضَّلال[1].

براعة العدول إلى إظهار الحقّ دون إضماره:

غايةُ إظهارِ كلمةِ الحقّ تقريرُه وبيانُ عِظَمِ شأنِه بمقابلَتِه بضِدِه

إنّ النّاظر في الآية ربما يعتقد أنّ مجيء كلمةِ الحَقّ في قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ يُغني عن تكرارها ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ بأن يقول: فماذا بعده إلّا الضّلال؟ لكنَّ البيان القرآنيَّ عَدلَ إلى إظهار كلمة الحَقّ دون إضمارها؛ لأمرين:

الأوّل: مراعاةً للسّياق والسّباق؛ لأنَّ الآياتِ قبلُ وبعْدُ تتحدّث عنِ الحقِّ بكلّ أبعاده وإطلاقاته، ويُقابَلُ بِه الباطلُ بكلّ طُرقِه وضَلالاتِه، فكان الأبلغَ أن يُظهِر الحقَّ مِن حيثُ اللَّفظُ ومِن حيثُ الكلمات التي ترافِقُه والحُجَجُ، والآياتُ الدّامغة التي يحاجِجُ بها القرآنُ المشركين، وذلك زيادةً في تقريره وبيانِ أهميَّته، ومُراعاةً لكمالِ المقابلةِ بينَه وبينَ الضَّلالِ[2]، فاللّه الحَقُّ؛ فكلُّ معبودٍ سواه باطلٌ، ورسلُه الحَقُّ؛ فكُلُّ ما يناقض ذلك باطلٌ، ووحْيُهُ الحقُّ؛ فكلُّ ما خالفه باطل، والعبوديَّةُ له هي الحَقّ؛ فكلُّ عبوديَّةٍ لغيره باطلةٌ.

الثّاني: أن يكون المرادُ بلفظة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ الثّانيَة غيرَ الأولى، أي: الحقُّ الأوّل هو اللّه، والثّاني هو توحيدُه، وبذلك يكون المعنى: فماذا

---

(1) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.

بعدَ الحقِّ، وهو توحيد اللّه، أي: عبادة مَن هو منعوتٌ بما ذُكِرَ مِنَ النُّعوتِ الجميلةِ إلّا الضَّلال المحضُ، وهو ما عداها مِن عبادة الأصنام، وأمّا على اعتبار أنّ الحقَّ الثّاني عينُ الأوّل، فالمعنى: فماذا بعدَ الرَّبِّ الحَقِّ الثّابتِ رُبوبيَّتُه إلّا الضّلالُ، أي: الباطلُ الضّائعُ المضمَحِلُّ، وهو الأصنام(1).

بلاغة الاستثناء بـ: ﴿إِلَّا﴾:

دلالة (إلا) بعدَ الاستفهامِ الإنكاريّ هي حَصْرُ الضَّلال بانتفاءِ الحَقّ

الاستثناءُ بـ ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾؛ أفادَ معنى الحَصْر؛ لأنّه سُبق باستفهام إنكاريٍّ في معنى النَّفي، إذِ الاستفهامُ ﴿فَمَاذَا﴾ ليس على حقيقته؛ لأنَّه لا تَردُّدَ في المستَفْهَمِ عنه، كأنَّه قيل: ما بعدَ الحَقّ إلّا الضّلال، أو لا يكون إثْر انتفاءِ الحَقّ إلّا الضّلال؛ فالحَقّ والضّلال لا واسطةَ بينَهما، إذ هما نقيضان، فمَن يُخطِئِ الحقَّ وقعَ في الضّلال(2).

بلاغة الاستعارة في: ﴿بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾:

صورةٌ مُنَفِّرةٌ لتاركِ الحَقِّ الذي لا يتخطّاه إلّا وقعَ في شَرَكِ الضَّلال

تَكْمُنُ الاستعارةُ في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾، في ﴿بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ﴾ إذ إنَّ ﴿بَعۡدَ﴾ فيها معنى الزَّمانيّة والمكانيّة، أي: كأنّ الحَقَّ أخذَ حَيّزًا مِنَ المكان، وصار الذي يتركُهُ، وينتقلُ إلى غيره كأنَّه انتقل مِن مكان إلى غيره على سبيل الاستعارة، وليس الحقيقةِ، بمعنى أنَّ مَن تَخطَّى الحَقَّ الذي هو عبادةُ اللّه تعالى، وقعَ في الضَّلال(3). و﴿ٱلضَّلَٰلُ﴾ في الآية عبادةُ الأصنام، وإنّما سُمِّيَت ضَلالًا مع كَونها مِن أعمال الجوارح؛ باعتبار ابتنائها على ما هو ضلالٌ مِنَ الاعتقاد والرَّأي(4).

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/53، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/158 - 159.
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل: 3/112، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/43.

وجهُ القَصْر في: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾:

التَّأكيد على أنَّ المعبودَ الحقَّ واحدٌ لا يتعدَّد، وضِدَّه الباطلُ

القَصْر في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ هو قَصْرٌ بالنَّفي والاستثناء، ذلك أنَّ (ماذا) استفهامٌ إنكاريٌّ غيرُ حقيقيٍّ، في معنى النَّفي؛ إذ مِن أغراضِ الاستفهام البلاغيَّةِ النَّفيُ، أي المعنى: ما يكون بعدَ الحَقِّ إلّا الضَّلال.

والغرضُ البلاغِيُّ مِن هذا القَصْر: هو حَصْرٌ يؤكِّد أنّه ليس غيرُ الحَقِّ إلّا الضّلال، ونفيُ أن يكون غيرَ ذلك، ويترتّبُ على هذا القَصْر أنّه لـمّا كان الله هو الرّبَّ الحقَّ؛ تَعيَّن أنَّ غيرَه ممّا نُسبت إليه الإلهيَّة باطلٌ[1].

بلاغةُ الاحتباكِ في: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾:

الاحتباكُ حُسْنُ إيجازٍ في التّعبير، وبيانُ أنَّ الحقَّ والباطلَ نقيضان لا يجتمعان

الاحتباكُ فَنٌّ بديعيٌّ له أغراضٌ بلاغيّةٌ، يُحدِّدُها سياقُ الكلام، وتمثَّل الاحتباكُ في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾؛ إذ إنّ إثباتَ الحَقِّ أوّلًا يدلّ على أنّ ما يقابلُه هو الباطلُ الذي لم يَذْكُره، وإثباتُ الضّلال ثانيًا يدلُّ على أنَّ ما يقابله هو الهدى، والتَّقديرُ: فماذا بعدَ الحَقِّ إلّا الباطلُ؟ وماذا بعدَ الهُدى إلّا الضَّلال؟.

وتكْمُنُ بلاغةُ هذا الاحتباكِ في حُسنِ الإيجاز في التَّعبير وجماله؛ إذ حُذِف مِنَ المتقابلَين ما دلّ عليه مقابلُه في الآخر، ولو لم يكن هناك احتباكٌ في الآية لجاءت: (فماذا بعد الحقّ إلّا الباطل، وبعد الهدى إلّا الضّلال)، فيظهر الكلامُ ركيكًا ضعيفًا، تنزَّه كلامُ ربّنا عن ذلك.

ويُفيد هذا الاحتباك أيضًا أنّ الواسطة بينَ الطّرفين المتضادَّين المتناقضين ممنوعةٌ كالعقائد، فالذي يفعل الأمور التي سبق ذكرها، مِن أحوال الرّزق والخَلْق والتَّدبير، هو الرّبّ الحَقّ، فالقول بربوبيّة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/159.

ما سواه باطل، وهو الإله الذي يُعبد بحقّ، وعبادتُه وَحْدَه هي الهدى، فما سواها مِن عبادة الشّركاء والوسطاء ضلالٌ، فكلُّ مَن يعبد غيرَه معه فهو مُشركٌ مبطلٌ ضالٌّ.

وبذلك يكون أسلوبُ الاحتباكِ قد أفاد قاعدةً من قواعد العقائد الدّينيّة وأصولِ التَّشريع والعلم، وهي: أنّ الحقّ والباطل فيهما ضِدّان لا يجتمعان، وأنّ الهُدى والضّلال ضِدّان لا يجتمعان، ولهذا الأصل فروعٌ كثيرة في الدّين والعلم العَقليّ[1].

نكتة مجيء الفاء ودلالتها في: ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

بعدَ ظهورِ الحقِّ لا يَحْسُنُ التّأخّرُ عنِ الاعترافِ به، بل يقْبُحُ

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ عاطفةٌ تُفيد التّعقيبَ، جاءت لترتيب ما بعدَها على ما قبلَها، والبَدءُ بها هنا يعطي سُرعةً وحركةً في توبيخِ حال المشركين، واستبعادِ واقعهم المخزي وإنكارِه، وهذه السّرعة يستشعر بها القارئ.

والمعنى: إذا كان اللّه هو الرّبُّ حقًّا وصدقًا، وكلُّ معبودٍ غيره باطلٌ، فكيف بعد هذا تُصرفون عنه وتَبتعدون؟ هل هذا يفعله عاقلٌ يُعمل عقلَه.

بلاغة الاستفهام بـ (أنّى):

دلالـةُ (أنّى) الإنكارُ والاستبعادُ والتّعجّبُ من حال المشركين وواقعهم المخزي

(أنّى) في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ اسمُ استفهام بمعنى كيف، تدلّ على الحال، وقد تُشْرَب معنى الاستبعاد، بحسب اقتضاء المقام ذلك[2]، والاستفهامُ بها في الآية: إنكاريٌّ تعجّبيٌّ توبيخيّ؛ أي: لإنكار حالهم وواقعهم المخزي، واستبعاده والتّعجّب منه، والمعنى: فكيف تُصرَفون وتتحوَّلون عنِ الحقّ إلى الضّلال، بعد اعترافكم وإقراركم بأنّ خالقَكم ورازقَكم ومُدَبِّرَ أمرِكم هو اللّه وَحْدَه[3].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/293 - 293.
(2) ابن نور الدّين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 73.
(3) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/65.

ثُمّ إنّ في دخول أداة الاستفهام (أنّى) - التي أفادتِ الإنكارَ - على الفعل ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ الذي مادّتُه (صرف)، دون فعل (تَحوُّلهم) عنِ الحقّ إلى الضّلال، فيه مِنَ المبالغة ما ليس في توجيه الإنكارِ إلى الفعلِ نفسِهِ؛ لأنَّ كلَّ موجودٍ لا بدَّ من أن يكون وُجودُه على حال منَ الأحوال قطعًا، فإذا انتفى جميعُ أحوال وجودِه فقدِ انتفى وجودُه على الطّريق البُرهانيّ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارعِ المبني للمفعول: ﴿تُصۡرَفُونَ﴾:

الصّوارفُ كثيرةٌ، والانصرافُ عنِ الحقّ بَشِعٌ، والمنصرفون كَمَن لا عَقلَ له

في إيثارِ صيغةِ المبنيِّ للمفعول في قوله تعالى: ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ أمور؛ أحدها: إفادة أنَّ الانصرافَ مِنَ الحقِّ إلى الضَّلالِ ممّا لا يَصدُرُ عنِ العاقلِ بإرادته، وإنَّما يقَعُ عندَ وُقوعِه مِن جهةِ صارِفٍ خارجيٍّ[2]، وهذا فيه توبيخٌ لهم؛ إذ إنَّهم لـمّا عَطّلوا عقولَهم، واتّبعوا أهواءَهم أصبح حالُهم حالَ المقهورين في فعل ما هم عليه؛ لأنَّهم تابعون للهلاك المحض، تاركون للأدلّة التي لا خفاء في شيء منها، ومعلوم أنّه لا يترك أحدٌ الدّليلَ في الفيافي العَطِشَة - الذي إنْ تركه هَلَكَ - إلّا قَهْرًا[3]. وثانيها: تركيزُ الانتباه على الحدثِ ذاته، أي: المفعول وهو الانصراف عنِ الحقّ، وحصرُ الوعي فيه، فلا يتوزّع في غيره؛ وذلك لبشاعة هذا الفعل، وهو الانصراف عنِ اللّه وتوحيدِه، إلى عبادة شياطينهم. وثالثها: إفادةُ العموم، ليشمل الصّوارف كلّها، "من صارفٍ ما، كائنًا ما كان"[4]، من نفوسهم الخبيثة، أو من شياطين الإنس والجن. ورابعها: في البناء للمفعول وحذف الفاعل إشارةٌ إلى شناعة هذا الفعل، واستبعاده، لدرجة أنّه لا يكاد يوجد له فاعل يُنسَب إليه[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 16/459.
(4) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(5) المطعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/46.

وجه التّوفيق بينَ: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، وما جاء في سورتي: المدثر، والأعراف:

الخَلْقُ دائِرون بين عدلِ الله سبحانَه وحُجَّتِه عليهم

كيف يوجَّه إنكارُ اللّه على المشركين الانصرافَ عنه والإعراضَ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ أي: تتحوَّلون وتُعرضون عنِ الحَقّ، وقولِه: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر: 49]، وقولِه: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: 146]؟ من حيثُ أنّ الصّارف: هو مَن يَنْعَى عليهم ذلك؟

الجواب: بأنّه سبحانَه يَنْعَى عليهم إعراضَهم عنِ الحَقّ بعدَما مَكَّنهم وفتحَ لهم البابَ، ونهجَ لهم الطّريقَ، وهيّأَ لهمُ الأسبابَ؛ فأرسل إليهم رُسُلَه، وأنزل عليهم كُتبَه، ودعاهم على أَلسنةِ رُسُله، وجَعَلَ لهم عقولًا تُميِّز بينَ الخير والشَّر، والنّافع والضّار، وأسبابِ الرّدى وأسبابِ الفلاح، وجعلَ لهم أسماعًا وأبصارًا.

ولكنَّهم آثَروا الهوى على التّقوى، واستحبّوا العَمى على الهُدى، وقالوا: معصيتُكَ آثَرُ عندنا مِن طاعتك، والشّركُ أحبُّ إلينا مِن توحيدك، وعبادةُ سِواكَ أنفعُ لنا في دنيانا مِن عبادتك، فأعرضت قلوبُهم عن ربّهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبّته، فهذا عدلُه فيهم، وتلك حُجَّتُه عليهم. فهو لم يصرفهم عنِ الحَقِّ، بل دعاهم إليه، وأنكر عليهم إعراضَهم، فقال: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، وقال: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ۝٤٩﴾ [المدثر: 49].

ولكنَّه سبحانَه لـمّا سَدّوا عن أنفسهم بابَ الهدى إرادةً منهم واختيارًا، سَدَّه عليهم اضطرارًا، فخلّاهم وما اختاروا لأنفسهم، وأدخلهم مِنَ الباب الذي استَبَقوا إليه، وأغلق عنهم البابَ الذي تَوَلَّوا عنه، وهم معرضون، فلا أقبحَ مِن فعلهم، ولا أَحسنَ مِن فعله سبحانَه، فقال: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأعراف: 146][1].

(1) ابن القيم، التَّفسير القيّم، ص: 314.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الصّرف والإفك والكَذب:

الصّرفُ مطلقُ الرّدِّ والتّحويل، والإفكُ قلبُ الحقائق بالكذب، والكذبُ نقيضُ الصدق

تتقارب هذه الألفاظُ في دلالاتها، فجميعُها تشترك في معنى رَدِّ الشَّيء وتغييره، إلّا أنّنا إذا رجعنا إلى المعنى اللّغوي لكلٍّ منها، وإلى الاستعمال القرآنيِّ نَلْحَظ أنّ بينها فروقًا دقيقة تميِّز كلَّ لفظٍ مِنَ الآخر، بحسب ما سيأتي:

(الصَّرف): رَجْعُ الشّيء، وإعمالُه في غير وجهه، كأنّه يَصْرِفه عن وَجهٍ إلى وجه، وفيه معنى التّحويل، والحَرفُ الذي تعدَّى به يوجّه المعنى، وهو: الميل والتَّقلّب والحِيلَة[1].

أمّا (الإفك): فالصّرف عنِ الأمر بالكذب والباطل[2]، وقلبُ الشّيء وصَرفُه عن جهته التي يحقّ أَن يكون عليها[3]، كالصّرف عنِ الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومِنَ الصّدق في المقال إلى الكذب، ومِنَ الجميل في الفعل إلى القبيح[4]، وأُطلِق الإفكُ في الاستعمال القرآنيّ على الكذب المتعَمَّد الفاحش القُبْح، مثل: الكذب على اللّه ورسوله، ومثل: قذف المحصنات، وسُمِّي الكذبُ إفكًا؛ لكونه مصروفًا عنِ الحَقّ، ولأنّ الكاذب يُخبِر بقضيَّةٍ تُخالف الواقعَ، فيأتي بها على غير وجهها[5].

و(الكَذِبُ): خِلاف الصِّدق[6]، وكَذَبَ: أخبرَ بخلاف ما هو عليه في الواقع[7].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرف)، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (صرف).
(2) الخليل، العين: (أفك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 2/101.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 24.
(5) البغويُّ، معالم التَّنزيل: 3/392، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/11541.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كذب).
(7) مجمع اللُّغة العربيَّة في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).

فالصَّرف: يُسْتَعمل لمطلق التّحويل والرّدِّ، ولا يَلْزَم أن يكون الصّرف دائمًا هو الرّدُّ إلى الكذب أو الباطل؛ إذ قد يعني إعمالَ الشّيء في غير وجهه، ومن هنا اصطُفيَ في الآية الكريمة لدلالته على معنى: العدول عنِ الحقّ الظّاهر، والوقوع في الضَّلال، فهو توجيهٌ للعمل في غير وجهه.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٣﴾ [يونس: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَـن يـنـصـرفُ عـنِ الحَقِّ بعدَ إقـامـةِ الـحُـجّـة جديرٌ بالطَّرد من رحمة الله

لـمّا كان المشركون جديرين عند تقريرهم بالآية السّابقة: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾، وإقرارِهم بمضمونها بأن يقولوا: سَلَّمنا فأَسْلَمنا، ولا نُصْرَف عن الحقّ أبدًا، فلمّا لم يقولوا، كانوا حقيقين بأنْ يُقال لهم: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: حقّت عليكم كلمةُ اللّه؛ لفسقِكُم وزَوَغانِكم عن الحَقّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقَّتۡ﴾: أصلُ (حقَّ): يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[2]، يُقال: حَقَّ الشَّيْءُ، يَحِقُّ، حَقًّا: إذا ثَبَتَ ولَزِمَ[3]. ويأتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[4]. والحَقيقَةُ: الشَّيْءُ الصَّحيحُ يَقينًا[5]. وتَحَقَّقَ الأَمرُ: إذا صَحَّ. والمراد بـ ﴿حَقَّتۡ﴾ في الآية: وجَبَتْ وثبَتَتْ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كـلـمـةُ الـلـه سبحانَه حَقّةٌ بـعـدم إيـمـان الفاسقين

لَمّا ثبت أنَّ اللّه تعالى هو الرَّبُّ الحقُّ، وأنّه ليس بعد الحقِّ إلّا الضَّلال، ثبتَ أيضًا الحُكم والقضاء منه سبحانَه على الَّذين فسقوا عن أَمره، وعَمّوا وصَمّوا عنِ الحقِّ، أنَّهم لا يؤمنون به؛ لأنَّهم إنْ يروا سبيلَ الرُّشد لا يتَّخذوه سبيلًا، وإن يروا سبيلَ الغَيِّ يتَّخذوه سبيلًا[6].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(3) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (حق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حق).
(5) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (حق).
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/65.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة التَّشبيه في: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ﴾:

لما حَقّ اختيارُ الضّلالِ والعصيانِ منهم، حَقّت كلمةُ العذاب عليهم

ابتدأ قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالكافِ، وهي حرف جرّ، مِن أشهر معانيه التّشبيه؛ للدّلالة على أنّ الآية مرتبطةٌ وموصولةٌ بالآية التي قبلَها: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، وتُفيد التَّشبيه بأحد معنيَين؛ الأوّل: أنّه كما ثبتَ وحَقَّ أنَّه ليس بعدَ الحقّ الذي هو اللّه إلّا الضّلال، الذي هو أصنامهم، كذلك حَقّت كلمةُ ربِّك بأنّ الذين فسقوا لا يؤمنون. الآخر: كما حَقّ صدورُ العصيان منهم، كذلك حَقّتْ كلمةُ العذاب عليهم[1].

فالمشبه به إما أن يكون (أنّه ليس بعد الحق إلا الضلال) والمشبه هو (حقّت كلمة ربك..) أو أنّ المشبه به (هو حق صدور العصيان منهم)، والمشبه هو (حق العذاب عليهم)[2]، وكلما كان الانتقال بالتشبيه من الشيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه بعيدًا قليل الخطور بالبال، أو ممتزجًا بقليل أو كثير من الخيال، كان التشبيه أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها واهتزازها، وهذا ما نراه في هذه الآية جليًّا واضحًا.

لما تأبّوا عن تَرْك عبادةِ الأوثان، خُتِم عليهم بوصف عدم الإيمان

وفي هذا التّشبيه استمرارٌ وتطبيقٌ للقاعدة القرآنيّة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ [يونس: 27] التي مرَّت في الآيات السّابقة، فكَما أنّهم اختاروا الضّلال، وهو الأوثان، وكفروا بالحقّ سبحانه، وابتعدوا عنِ الهدى والإيمان، ولم يتركوا عبادةَ الأوثان، وهو أصل العصيان، فقد استَحَقّوا وَصْفَ عدم الإيمان وصار مُلازِمًا لهم، وخُتِم عليهم به، وصار قولًا حقًّا لا يأتيه الباطلُ، ولا يعتريه شَكٌّ، ومن ثَمّ فإنّ جزاء الذين لا يؤمنون النّارُ وبئسَ المصيرُ، لا لأنّه

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/274.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/159.

يمنعُهم مِنَ الإيمان، فهذه دلائِلُه قائمةٌ في الكون، وهذه مُقَدّماتُه قائمة في اعتقادهم، ولكن لأنَّهم يحيدون عنِ الطَّريق الموصِل إلى الإيمان، ويَجْحَدون المقدّمات التي في أيديهم، ويَصرفون أنفسَهم عنِ الدّلائل المشهودة لهم، ويُعَطّلون منطقَ الفطرة القويمِ فيهم.

فمعنى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: "أي: كما كانت صفاتُ اللّه كما وصف، وعبادتُه واجبةً كما تَقَرّر، وانصرافُ هؤلاء كما قُدِّرَ عليهم، واكتسبوا كذلك حَقَّت كلمةُ ربِّك"[1]، باستحقاقهم وَصَفَ عدمِ الإيمان وملازمته لهم، وخُتِم عليهم به، وصار قولًا حقًّا لا يأتيه الباطل.

دلالة اسم الإشارة في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

يحمل اسمُ الإشارة (ذلك) معنى الرِّزق، ومعنى ضلالِهم

اسمُ الإشارة (ذلك) في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يحمل معنيين وَفْقَ المشار إليه؛ الأوَّل: أنّه إشارةٌ إلى ما تقدّم من رِزقِ اللّه تعالى للبشر جميعًا، ومِن مِلْك السّمعِ والبصر، ومِن إخراج الحيّ مِنَ الميّت، وإخراجِ الميّت مِنَ الحيّ، ومِن تدبيرِ الأمرِ كلِّه، ذلك هو الإله الحقّ سبحانَه، الذي أثبته بسؤاله تعالى هذا السّؤال: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: 32] الذي عَلِم مُقدَّمًا ألّا إجابةَ لهُ إلّا بالاعترافِ به إلهًا حقًّا[2]. الآخَر: أنّه إشارةٌ إلى ضلالهم بعد أنْ قامتِ البيّناتُ القاطِعَةُ في الخَلْق والتّكوين، وإقرارِهم بأنّ اللّه الخالقُ وَحْدَه، لا خالقَ سِواه، ثمّ بعد ذلك ينحرفون مِن غير سبب إلى ضلالهم، أي: أنّه كهذه الحال التي رأيتموها: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[3].

سِرّ التّعبير عنِ (الحَقّ) بالماضي: ﴿حَقَّتۡ﴾:

لمّا أصَرّوا على فِسْقِهم وكُفْرِهم ثبتَ عليهم وصفُ الفسق ولازَمَهم

أتى التّعبير القرآنيُّ بلفظ (الحَقّ) بصيغة الماضي: ﴿حَقَّتۡ﴾؛ ليُدلِّل على أنّ الأمر قد تمَّ وانتهى، وأنّه لا رجعةَ فيه ولا تبديلَ ولا

(1) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/118، وينظر: الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 2/345.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5915.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3563.

تغيير، أي: كما أنَّهم أَصَرّوا على العِناد والكُفر، وإنكارِ هذه الآيات، وانحرفوا وفَسَقوا، واستمرّوا على فِسْقِهم وكُفْرِهم، ثبتَ عليهم وَصْفُ الفِسْق؛ ليناسبَ فِعْلَهم وعِنادَهم، وليكونَ الجزاءُ مساويًا فعلَهم، ومُتماشيًا مع جريمتهم، ولِيُفيدَ أنَّهم قد خرجوا عنِ الطّاعة، وكفروا وكذّبوا وتمرّدوا في فسقهم، حتَّى وصلوا إلى الحَدّ الأقصى فيه[1]، وبذلك حَقّتْ عليهم كلمةُ اللّه التي لا تبديلَ فيها، وهي ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أي: انتفاء الإيمان.

دلالة لفظ الكلمة في: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾:

كلمةُ اللّه هي علمُه وخبرُه بانتفاء إيمان المشركين، وحُجَجُه عليهم، وحُكْمُه بعذابهم

يحتمل المراد مِن كلمة اللّه في قوله: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أربعة أوجه:

الأوَّل: إخباره عن ذلك، وخبرُ اللّه صِدقٌ لا يقبل التّغيرَ والزّوالَ.

الثّاني: عِلْمُه بذلك، وعِلْمُه لا يقبل التّغيرَ والجهلَ. ومتعَلّق ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ سواء كان عِلْمَه أو خبَرَه هو انتفاء الإيمان عنِ المشركين؛ لأنّ قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بدلٌ من ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدلَ كلٍّ مِن كلّ؛ أي: حَقَّت كلمةُ ربِّك التي هي عدمُ إيمانهم، ولو حصل الإيمانُ لانقلبَ عِلْمُه سبحانَه جهلًا، وخَبرُه الصّدقُ كذبًا، وذلك محال[2].

الثّالث: حُكْمُ اللّه وقضاؤُه عليهم بالعذاب[3]. وعلى هذا المعنى: تكون الجملةُ تعليليَّةً لما قبلَها، بتقدير اللّام؛ أي: حَقَّت عليهم كلمةُ ربِّكَ، التي هي دخولُ جهنَّم؛ لأنَّهم لا يؤمنون[4].

الرّابع: حُجَجُ ربِّك وبراهينُه على الذين فَسَقوا[5].

وهذه المعاني التي تحملها لفظةُ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ تدلّ على اتّساع

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/340، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/142.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/247 - 248.
(3) لقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: 119]، يُنظر: الهرريّ، تفسير حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/222.
(4) الهرريُّ، تفسير حدائق الرّوح والرَّيحان: 12/222.
(5) الماتريديُّ، تأويلات أهل السنَّة: 6/39.

دلالةِ الكلمة القرآنيَّة، وهو وجه مِن أوجه الإعجاز؛ إذِ الإعجازُ في الإيجاز.

توجيهُ قراءةِ جمعِ (كلمة):

كلماتُ ربّكِ عظيمةٌ لا تنفَد، وهي متعدّدةٌ لا تَناقُضَ بينَها

قرأ نافع وابن عامر: (كَلِماتُ رَبِّكَ) بالجمع، وقرأَها الباقون بالإفراد: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[1]، وقراءة الجَمع ظاهِرة؛ لأَنَّ كَلماته تعالى مَتْبوعة بالنِّسْبة إلى الأمر، أي: متعدّدة بتَعَدّد الأمر والنَّهْي، والوَعْد، والوعيد[2].

ولا تناقُضَ بين قراءة الجمع: (كلمات)، وقراءة الإفراد: ﴿كَلِمَتُ﴾؛ لأنَّه لا شَيء مِن كلماتِه يُناقضُ الكلمةَ التي أَوجبت عذابَهم، بل كلُّها توافقُها، فالمرادُ واحد[3].

ولأنَّ الكلمةَ تُطْلَق على مجموع الكلام، كقوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: 100]، ويُراد بها الجِنْسُ، وهو نظير: (رسالته) و(رسالاته)[4].

ولأنّ الجمع يكونُ باعتبار تَعدّد الكلمات، أو باعتبار تكرّر الكلمة الواحدة بالنّسبة لأناس كثيرين[5]، وفي هذا إشارة إلى عظمته سبحانَه بتعدُّد كلماته التي لا تنفَد، قال تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: 27]، وعظمتُه بشمول كلمتِه للنّاس أجمعين.

بلاغة الكناية في قراءة جمع الكلمة في: (كَلِماتُ):

كلماتُ الله لا تَنفَدُ، وعذابُه للمشركين ولِمَن فعلَ فِعْلَهم دائمٌ لا يحول ولا يَزول

في قراءة الجمع: (كَلِماتُ رَبِّكَ) كنايَةٌ عن أنّ عذابَهم دائمٌ؛ فإنَّ كلماتِه لا تَنفَد، قال تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: 27]، أي: حقَّ عذابُ اللّه الدّائم على كلّ الذين فعلوا فعلَهم؛ لأنّهم فَسقوا،

(1) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/130.
(2) ابن عادل الدِّمشقيّ، اللُّباب في علوم الكتاب: 8/395.
(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(4) السَّمين الحلبيُّ، الدُّر المصون: 5/125.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/160.

أي: أوقعوا التَّرك لأمر اللّه، وأَوْجَدوا عصيانَه، وفعلوا الخُروجَ عن طريق الحَقّ، والخروجَ عن دائرة الصّلاح، وهو كونهم أُمَّةً واحدةً، إلى دين أبيهم آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1].

نُكْتَةُ نسبةِ الرُّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

نسب البيانُ القرآنيُّ الرّبوبيّة إلى كاف الخطاب؛ فقال: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: (كلمة اللّه)؛ لأمور التّنبيه على ما يريد اللّه بالنّبيّ ﷺ مِنَ التّشريف والإكرام والإحسان والتّدبير له، أي: المدبّر لأمرك، "المحسنُ إليك بإهلاك أعدائك"[2]. وذلك في ظِلّ الحديث عن إعراض المشركين، وتَعنُّتهم وتمسّكهم بمذهبهم الفاسد، برغم إقامة الحُجَج عليهم، وعن ملازمتهم الفِسقَ، الذي اقتضى حُكْمَ اللّه فيهم بالعذاب الدّائم.

في غَمرةِ التَّهديدِ والوعيدِ تأتي البُشْرى بالتَّأييد

والنُّكْتَةُ هنا: أنّه في غَمرة التَّهديد والوعيد للكافرين بحقيقة كلمة اللّه فيهم مِنَ العذاب والوعيد، وانتفاءِ الإيمان عنِ المشركين، والتَّأييس للكافرين مِن رحمته سبحانه، يكون التَّطمينُ والبُشرى بالتَّأييد والتَّسلية والتَّدبير للنَّبيّ الأعظم صلّى اللّه عليه وآله وسلّم.

دلالة: ﴿عَلَى﴾:

اصطُفِيَ حرفُ الجرّ ﴿عَلَى﴾ ليؤدّيَ معنى بلاغيًّا دقيقًا، وهو أنّ كلمةَ اللّه قد حقَّت عليهم مِن كلِّ جانب، واستعْلَتْ عليهم، وتمكّنَتْ منهم، بحيث لا تغادِر أحدًا، ولا يستطيع أحدٌ أن يُفلِتَ أو يُستَثْنَى مِن كلمة اللّه، أي: مِنِ انتفاءِ الإيمانِ عنهم، ومِن حُكْمه بالعذاب، ومِن حُجَجِه وبَراهينه.

كلمةُ اللّه مُتَمَكّنةٌ مِنَ الفاسقين، فلا يُفْلِتُ منها أَحدٌ

فائدة وَضْع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضع الضَّمير:

وضع البيانُ القرآنيُّ: ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ موضعَ الضَّمير

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/114.

فسقُهم عِلّةٌ في حقوقِ كلمةِ اللهِ عليهم، وهو حُكمٌ عامّ لكلِّ مَن استمرّ على فِسْقِه

في قوله: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾، فلم يقل (عليهم)؛ لأمرين:

الأوَّل: لإفادة العموم؛ إذ لو عبّر بـ (عليهم) لاختصّ بالمُتَحَدَّث عنهم في الآيات، ومن ثمَّ يكون المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ كلَّ مَن استمرَّ على فِسْقِه فلم يؤمِنْ، فتكون الجملةُ تذييلًا لِما فيها مِنَ العموم الشّامل.

الآخَر: يجوز أن يكون المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ المُتَحَدَّث عنهم خاصّةً، فيكون مِنَ الإظهار في مقام الإضمار؛ لإفادة أنّهم مع صفاتهم السّابقة قدِ اتّصفوا بالفِسْق، ولإفادة كَونِ فِسْقِهم عِلَّةً في أنْ حقّتْ عليهم كلمةُ اللّه[1].

سِرُّ التَّعبير عنِ الفِسق بالماضي المجموع:

لمّا تحقّق الكفرُ مِنَ المشركين، واجتمعوا عليه؛ استَحَقّوا كلمةَ الله فيهم

عبّر البيانُ الإلهيُّ عنِ الفِسْق في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ بصيغة الماضي؛ للدّلالة على تَحقُّقِ الفِسْقِ منهم، وأنّهم لا يتَجَدّدُ منهم إيمانٌ في الحاضر ولا في المستقبل، الذي دلَّت عليه صيغةُ المضارع في الجملة التي بعدَها: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[2].

وعبّر بصيغة الجمعِ لبيان أنّهم اجتمعوا واتّفقوا على هذا الفِسْق، يَحُثُّ بعضهم بعضًا، ويُضِلّ بعضُهم بعضًا، ترغيبًا وترهيبًا، وفيها إشارةٌ إلى أثر البيئة الفاسدة في فساد الأفراد والمجتمعات، وأنَّهم لـمّا اجتمعوا على الفِسْق استحقّوا كلمةَ اللّه فيهم كلِّهم، وهي انتفاءُ الإيمان عنهم جميعًا: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

ولذلك فَسَّرها البقاعيُّ بعِدَّة تعبيراتٍ تَدُلّ على تَحقُّق وقوعِ الفِسْق منهم، واجتماعِهم عليه، فقال: "﴿فَسَقُوٓاْ﴾ أي: أوقعوا التَّركَ

(1) حاشية الطِّيبيِّ على الكشّاف: 7/481، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/160.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115.

لأمر اللّه، وأَوْجَدوا عصيانَه، وفَعلوا الخروجَ عن طريق الحَقّ، والخروجَ عن دائرة الصّلاح"[1].

نُكْتَةُ التّعبير بالفِسْق: ﴿فَسَقُوٓاْ﴾:

بـانـحـراف المشركين عن فطرةِ الدّينِ الحقِّ استَحَقّوا مُسَمًّى تنفر النَّفسُ منه

عبّر النَّظْمُ القرآنيُّ عنِ الكفر بمادة الفسق في قوله تعالى: ﴿فَسَقُوٓاْ﴾؛ مراعاةً لسياقِ الآيات التي تتحدّث عن خروج المُتَحَدَّث عنهم، وهم المشركون عن دائرة الدّين الحَقّ، في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ [يونس: 19]، وهذا المعنى أَحَقُّ بالتّعبير للفِسْق الذي أَصْلُه الخروجُ عن محيطٍ، في قولهم: فَسَقَتِ الرُّطَبة عن قِشْرها، أي: خرجت عنِ المسلك الذي شأنُ الشّيء سُلوكُهُ، والمراد به: فسقوا عن تَلَقّي دعوةِ الرّسل وإعمالِ النَّظر[2]، وهذا هو الكُفْر بعينه.

وفي هذا التَّعبير إشارةٌ إلى انحرافهم عنِ الحَقّ، وعنِ الفطرة التي خلق اللّه الخَلْقَ عليها، ممّا فيه تنفيرٌ للنّفس السّليمةِ الطّباع.

جملة اسميّة خبرُها فِعْلٌ منفيٌّ في الآية:

انتفاءُ الإيمان عنِ المشركين ثابتٌ دائمٌ مُتَجَدّدٌ مُستَمِرٌّ لا انقطاعَ له

عبّر البيانُ الإلهيُّ بالجملة الاسميّة التي خبرُها فعلٌ مضارع منفيٌّ: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لإفادة تحقُّقِ نفي الإيمان عنِ المشركين، ودوام هذا النَّفي واستمرارِه؛ فقد أفاد التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة: ﴿أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الثّبوتَ والدّوامَ، وأفاد خبرُها الذي جاء بصيغة المضارع المنفي: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ الاستمرارَ التَّجَدّدِيَّ؛ فانتفاءُ الإيمان عنهم ثابتٌ دائمٌ ومُسْتَمِرٌّ مُتَجَدِّدٌ.

نُكْتَةُ نفي الفعل المضارع في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تجدُّدُ واستمرارُ انتفاءِ الايمان عند المشركين أمرٌ مُلازِمٌ لهم

أفاد دخولُ ﴿لَا﴾ النّافية على الفعل المضارع ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ استمرارَ انتفاءِ إيمانِ المشركين وتَجدُّده؛ لأنّ الفعل المضارع يُفيدُ الاستمرارَ،

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/160.

"أي: لا يَتَجَدَّدُ منهم إيمانٌ أصلًا"[1]، ولذا كان تَجَدُّدُ انتفاءِ الإيمانِ عنِ المشركين عِلّةَ استحقاقِهم كلمةَ اللّه فيهم[2]. فكما أنَّهم فَسَقوا وانحرفوا، وصار وَصْفُ الفِسْقِ مُلازمًا لهم، فإنّ عدمَ الإيمان صار قرينًا لهم، ولا ينفك عنهم.

بلاغةُ التَّذييل في الآية:

استمرارُهم على الكُفْر معَ ظهورِ الآيـات، يُـؤذِنُ بالعَجَبِ منهم، وبالتَّأييس مِن إيمانهم

تُعدُّ هذه الآية تذييلًا؛ للتَّعجيب مِنِ استمرار المشركين على الكُفر بعدَ ما ظَهر لهم مِنَ الحُجَجِ والآيات، وللتَّأييس مِن إيمانهم، بإفادة أنّ انتفاءَ الإيمان عنهم بتقدير مِنَ اللّه تعالى عليهم، فقد ظَهَر وقوعُ ما قَدّره مِن كَلِمَته في الأَزَل[3].

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/115.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/159.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤﴾ [يونس: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإحياءُ والإماتَةُ مِنْ شَأْنِ الله وحْدَهُ

الآيةُ الكريمَةُ احْتِجاجٌ آخَرُ على إثباتِ التَّوْحيدِ وبيانِ الدَّلائلِ على فسادِ عقيدتِهم ومذْهَبِهم: "لَمّا بَيَّنَ فضائحَ عبَدَةِ الأوثانِ، أتْبَعَها بذِكْرِ الدَّلائلِ على فسادِ مَذْهَبِهِم بما يوَبِّخُهم، ويَحُجُّهم بما لا يُمكِنُ إلّا الاعْترافُ بهِ مِن حالِ رِزْقِهم وحَواسِّهم، وإظْهارِ القُدْرَةِ الباهِرَةِ في المَوْتِ والحَياةِ"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُرَكَآئِكُم﴾: (شرك): يَدُلُّ أصْلُ المادَّة على المُقارَبَة(2). والشُّركاءُ: جمعُ شَريكٍ وأصْلُهُ الشَّرِكَةُ. والمُشارَكةُ: خَلْطُ المِلْكيْن. وقيلَ: هو أنْ يَشْتركَ اثْنانِ فأكْثر في شيْءٍ عيْنًا كانَ ذلك الشَّيْءُ أو مَعْنًى، كمُشارَكةِ الإنْسانِ والفَرَسِ في الحَيَوانيَّةِ، ومُشارَكةِ فرَسٍ وفَرَسٍ في بَعضِ الصِّفاتِ. والشِّرْكُ الأكْبرُ أنْ يُجْعَلَ للّه فيه نِدٌّ وشَريكٌ(3). والمُرادُ بالشُّركاءِ هُنا: الأوثانُ والأنْدادُ.

2) ﴿يُعِيدُهُۥ﴾: العَوْدُ: الرُّجوعُ إلى الشَّيْءِ بعدَ الانْصرافِ عنْهُ سَواءٌ كانَ انْصِرافًا بالذّاتِ، أو بالقَولِ والعَزيمَةِ(4). نَحْو قوله تَعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرّوم: 27].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرك).
(3) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (شرك).
(4) الرّاغبُ، المفردات: (عود).

3) ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: يَدورُ أصلُ المادَّةِ حَوْلَ الصَّرْفِ والقَلْبِ(1)، والأفّاكُ: الَّذي يَأْفِكُ النّاسَ أي يَصُدُّهُم عنِ الحَقِّ بباطِلِه. يُقال: أُفِكَ الرَّجلُ عنِ الخَيْرِ؛ أيْ: قُلِبَ عنْهُ وصُرِفَ. والمُؤْتَفِكاتُ: مَدائنُ لوطٍ عليه السلام، سُمّيَتْ بذَلِكَ لانْقِلابِها بالخَسْفِ. قال تَعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾ [النَّجم: 53]. والمعنى المُرادُ في الآيَةِ: فكَيْفَ تُصرَفونَ عنِ الحَقِّ إلى الباطِلِ؟

المَعْنى الإجْماليُّ:

أفادَ الاسْتِفْهامُ الإنْكاريُّ تَفرُّدَ اللهِ تَعالى بالإحْياءِ والإماتَةِ

يَأْمرُ اللّه تَعالى رَسولَهُ ﷺ بأنْ يَقولَ للمُشْرِكين: هلْ مِن أصْنامِكم ومَعْبوداتِكُم وأنْدادِكم مِن دونِ اللّهِ تَعالى مَن يُنْشِئُ الخَلْقَ على غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ، ثُمَّ يُعيدُهُ بَعد مَوتِه كَهَيْئَتِه الأولى؟ ويأْمرُ رَسولَهُ ﷺ بأنْ يُخْبِرَهُم بأنَّ اللّه تَعالى وحْدَه هوَ الَّذي يُنْشِئُ الخَلْقَ، ثمَّ يُفْنيه، ثمَّ يَبْعثُه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوْقِعُ الجُملَةِ مِمّا قَبْلَها ودلالَتُه:

الفَصْلُ للإيذانِ باسْتِقْلالِ الجُملَةِ في إثْباتِ المَطْلوبِ

وَقَعتْ جُملةُ ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ اسْتِئْنافًا نَحْويًّا جَديدًا؛ لتَقْريرِ المُشْرِكينَ بالأُلوهيَّةِ، ونَسْفِ عقيدَتِهمُ الباطِلَةِ في آلِهَتِهمُ المَزْعومَةِ مِنَ الأوثانِ على طَريقَةِ التَّكْريرِ لقولِه قَبْلَهُ: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: 31]. ولَم تُعْطَفْ على ما قَبْلَها، لكَمالِ الانْقِطاعِ إيذانًا باسْتِقْلالِها في إثْباتِ المَطْلوبِ(2).

سِرُّ التَّعْبيرِ بفِعْلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

إذا بَلَغَ المعنى الغايَةَ في الوضوحِ فلا حاجَةَ إلى إقْرارِ الخَصْمِ

﴿قُلۡ﴾ هذا القَوْلُ "إمّا على طَريقِ التَّلْقينِ للمُشْرِكين وتَوجيهِهِم كَيْفَ يُجيبونَ، وإرْشادِهِم إلى ما يَقولونَ، وإمّا لكَوْنِ هذا المعنى قد

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أفك).

(2) الآلوسِّي، روح المعاني: 11/113.

بَلَغَ في الوُضوحِ إلى غايَةٍ لا يُحتاجُ مَعَها إلى إقْرارِ الخَصْمِ ومَعْرِفَةِ جَوابِه، وإمّا لكَوْنِ المُشْرِكينَ لا يَنْطِقونَ بما هوَ الصَّوابُ في هذا الجَوابِ، فِرارًا مِنهُم عنْ أنْ تَلْزَمَهُمُ الحُجَّةُ، أو أنْ يُسَجَّلَ علَيْهِم بالعِنادِ والمُكابَرَةِ إنْ حادوا عنِ الحَقِّ[1]، ويَأْتي فِعْلُ الأمرِ هذا في القُرْآنِ الكَريمِ في قَضايا تَحْتاجُ إلى عِنايَةِ النَّبيِّ ﷺ ومُتابَعَتِه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاِسْتِفْهامِ المَجازيِّ بـ﴿هَلْ﴾:

كَشْفُ قَبيحِ ما انْطَوَتْ علَيْهِ عقائِدُ المُشْرِكينَ مِنْ عِبادَةِ ما لا يَصِحُّ مِنْهُ الخَلْقُ والإعادَةُ

الاسْتِفْهامُ مَجازيٌّ للإقْرارِ والتَّبْكيتِ، وقد أوثِرَتْ أداةُ الاسْتِفْهامِ ﴿هَلْ﴾ للإيذانِ باسْتِقْصاءِ التَّحْقيقِ مَعَ المُشْرِكينَ لدَحْضِ حُجَجِهِم، ونَسْفِ مَزاعِمِهِم في الأُلوهيَّةِ في سُرْعَةٍ خاطِفَةٍ وحَسْمٍ، السُّرْعَةُ الفَوْريَّةُ المُسْتَفادَةُ مِنَ الأمرِ بـ﴿قُلْ﴾، والحَسْمُ المُسْتَفادُ مِنْ أداةِ الاسْتِفْهامِ ﴿هَلْ﴾[2]، فالاسْتِفْهامُ إنْكاريٌّ تَوْبيخيٌّ لَهُم على اتِّخاذِهِمُ الشُّرَكاءَ.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ: ﴿مِن﴾:

تَوْجيهُ فِكْرِ المُخاطَبينَ؛ ليَخْتَبِروا مَعْبوداتِهِم فُرادَى وجَمْعًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم فسادُ مُعْتَقَدِهِم

أُثْبِتَ حَرْفُ الجَرِّ﴿مِن﴾ في قَوْلِه: ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾؛ للتَّعْميمِ لِيَشْمَلَ العَجْزُ كُلَّ شُرَكائِهِم فردًا فرْدًا حَتّى يَشْمَلَ جَميعَ الشُّرَكاءِ ويَسْتَقْصيَهُم، وفي هذا إيحاءٌ للمُخاطَبين مِنَ المُشْرِكينَ بتَوْجيهِ فِكْرِهِم؛ لِيَخْتَبِروا مَعْبوداتِهِم فُرادى وجَمعًا حَتَّى يَتَبيَّنَ لَهُم فسادُ مُعتَقَدِهِم، فتَلْزَمَهُم الحُجَّةُ أو يَهْتَدوا[3]، ويُمكِنُ أنْ تكونَ ﴿مِن﴾ بَيانيَّةً لبَيانِ عجزِهِم وعَجْزِ كلِّ مَعْبوداتِهِم عن نَفْعِهِم.

سِرُّ إضافَةِ الشُّرَكاءِ إلى ضَميرِ الخِطابِ:

زِيادَةُ التَّبْكيتِ والتَّقْريعِ

المُرادُ بالشُّرَكاءِ في قولِه: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾: الأصْنامُ. ووُصِفوا بالشُّرَكاءِ؛ لاعْتِقادِ المُخاطَبينَ ذَلِكَ؛ لذا أُضيفَ إلى

(1) الشّوكانيُّ، فتح القدير: 2/623.

(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/51.

(3) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/51.

ضَميرِهِم؛ أيْ: أنْتُم والَّذين زَعمتُم أنَّهُم شُركاءُ. فإضافَةُ (شُركاء) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ اسْتِهزاءٌ بعُقولِ المُشْرِكينَ وتَهَكُّمٌ بهِم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿مَّن﴾:

في الجُملةِ إبْطالٌ لدَعْوى المُخاطَبينَ فيما أشْرَكوا باللّه غَيْرَه، وعَبَدوا مِنَ الأصْنامِ والأنْدادِ. والتَّعْبيرُ بالاسْمِ المَوْصولِ للعاقِلِ في قولِه: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ دونَ (ما) جَرْيٌ وراءَ اعْتِقادِ المُشْرِكينَ في أصْنامِهِم بأنَّها تَنْفعُ وتَضُرُّ وتُدْرِكُ، وفي هذا تَبْكيتٌ لَهُم بإظْهارِ عجْزِها.

مُجاراةُ الخصْمِ بِمُعامَلَةِ أصْنامِهِم مُعامَلَةَ العُقَلاءِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَبۡدَؤُاْ﴾:

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾؛ لتَجَدُّدِ الخَلْقِ وحُدوثِهِ إلى قيامِ السّاعَةِ. و"لإفادَةِ اسْتِمرارِ البَدْءِ والإعادَةِ، كالزَّرْعِ في خَلْقِهِ وتَكْوينِهِ ثُمّ يَصيرُ حُطامًا، ثُمّ يُعادُ مَرَّةً أُخْرى"[1].

تَجَدُّدُ الخَلْقِ وحُدوثُهُ إلى قيامِ السّاعَةِ، واسْتِمرارُ البَدْءِ والإعادَةِ

عِلَّةُ إيثارِ كَلِمَةِ الخَلْقِ في: ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾:

أوثِرَ التَّعْبيرُ بـ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ في قَولِه: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ في هذا المَقامِ على نَظائِرِها - كالإنْشاءِ والجَعْلِ والصُّنْعِ والتَّدْبيرِ - لأنَّها أدَلُّ على كَمالِ قُدرَةِ اللّه تَعالى، وأقْوى في مَقامِ إثباتِ عجْزِ آلِهةِ المُشْرِكين المَزعومَةِ مِنَ الأنْدادِ والأصْنامِ، لأنَّ الخَلْقَ في لُغَةِ العَرَبِ على وجْهَيْنِ: التَّقْديرِ، والإنشاءِ على مِثالٍ أبْدَعَه. وكُلُّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللّه فهوَ مُبْتَدِئُهُ على غيرِ مِثالٍ سابِقٍ، وهوَ الّذي أوجَدَ الأشْياءَ جَميعَها بعدَ أنْ لَم تَكُنْ مَوْجودَةً.

كَلِمَةُ (الخَلْقِ) أدَلُّ على كَمالِ قُدْرَةِ اللّه تَعالى، وأقْوى في مَقامِ إثْباتِ عجْزِ الأصْنامِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالحَرْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

عُبِّرَ بحَرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، إمّا للتَّراخي الزَّمَنيِّ لوجودِ فاصِلٍ زَمنيٍّ بَيْنَ الخَلْقِ والإعادَةِ مِن خِلالِ مَراحِلِ تَكْوينِ الإنسانِ في بَطْنِ أُمِّه، وتَقَلُّبِه في مَراحِلِ عُمرِهِ إلى وفاتِه ثُمَّ إلى بَرْزَخِه، حَتّى إعادَتِه يومَ النُّشورِ، وإمّا للتَّراخي الرُّتَبيِّ لأنَّ

مَراحِلُ حَياةِ الإنْسانِ حَتَّى وفاتِه يُناسِبُها التَّعْبيرُ بحَرْفِ التَّراخي

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3564.

الإعادَةَ مُتَراخيَةٌ عن بَدءِ الخَلْقِ رُتْبَةً؛ لأَنَّ القياسَ العَقْليَّ والنَّصَّ النَّقْليَّ يَقْتَضيانِ أنَّ الإعادَةَ أَهْوَنُ مِنَ البَدْءِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالمفْعولِ بِهِ ضَميرًا في: ﴿يُعِيدُهُۥ﴾:

الضَّميرُ يوجِزُ العِبارَةَ، ويُصَفّيها

في التَّعبيرِ بالمَفْعولِ بهِ ضَميرًا في قوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ دونَ أنْ يُقال: مَن يَبْدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُ الخَلْقَ إيجازٌ للعِبارَةِ، وتَصْفيَةٌ لَها بعدَمِ تَكْرارِ لَفْظِ المَفْعولِ بهِ ثَلاثَ مَرّات؛ حَيْثُ أُعيدَتْ كَلِمةُ ﴿ٱلْخَلْقَ﴾ مرَّةً أُخْرى في الجَوابِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ﴾، فبَدَتِ الجُملةُ بهذا العُدولِ إلى الضَّميرِ رَشيقةً، تَسْتَعْذِبُ الآذانُ سَماعَها.

سِرُّ التَّلازُمِ بَيْنَ البَدْءِ والإعادَةِ مع إنْكارِهِمُ الإعادَةَ:

عِنادُ المُشْرِكينَ، وإصْرارُهُم على اللَّجاجِ

يَتَبادَرُ في قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ سُؤالٌ مَفادُهُ: كَيْفَ يُخاطَبُ المُشْرِكون بما يُنْكِرونهُ وهوَ الإعادَةُ؛ أيْ: البَعْثُ والنُّشور، وهُم غير مُقِرّين إلّا بالخَلْقِ؟ وقد أجابَ الزَّمَخْشريُّ عن هذا بقَولِه: "قد وُضِعَتْ إعادةُ الخَلْقِ لظُهورِ بُرْهانِها مَوضعَ ما إنْ دَفَعَهُ دافِعٌ كانَ مُكابِرًا رادًّا للظّاهرِ البَيِّنِ الَّذي لا مَدخَلَ للشُّبْهَةِ فيه، دلالَةً على أنَّهُم في إنْكارِهم لَها مُنْكِرونَ أمرًا مُسَلَّمًا مُعْتَرَفًا بِصِحَّتِه عندَ العُقَلاءِ"[1].

دلالَةُ الجَوابِ بـ﴿قُلِ﴾:

القَوْلُ المَأْمورُ بِهِ الرَّسولُ ﷺ قَطْعٌ لِلَجاجِ المُشْرِكينَ

أمَرَ اللّه تعالى رَسولَه ﷺ أنْ يُجيبَ عنِ المُشْرِكين في هذا المَوضعِ، قَطْعًا لِلَجاجِهِم وعِنادِهِم وجِدالِهِم، وإصْرارِهِم على المُكابرةِ عن قَولِ الحَقِّ فأجابَ عنهُم، وإمّا أنْ يكونَ هذا على طَريقِ التَّلْقينِ للمُخاطَبين وإرْشادِهِم إلى الجَوابِ الصَّحيح، والقَولِ السَّديد، وإمّا لكَوْنِ هذا الجَوابِ قد بَلَغَ في الوُضوحِ إلى غايَةٍ لا يُحْتاجُ مَعَها إلى إقْرارِ الخَصْمِ ومَعْرِفَةِ جَوابِهِ[2].

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/135، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويِّ: 4/568.
(2) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/623.

سِرُّ إعادَةِ غَيْرِ المَسْؤولِ عنْهُ ﴿يُعِيدُهُۥٓ﴾ في الجَوابِ المُلَقَّن:

الإيذانُ بتَعيُّنِ الجَوابِ وتَحقُّقِهِ

سِرُّ إعادَةِ غَيرِ المَسْؤولِ عنهُ في الجَوابِ في قوله تَعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ﴾ هوَ أنَّ القَوْلَ المَأْمورَ بِه الرَّسولُ ﷺ غَيْرُ ما أُريدَ مِنَ المُشْرِكين مِنَ الجَوابِ - وإنْ كانَ مُسْتَلْزِمًا لَه -، إذْ لَيْسَ المَسْؤول عنْه صراحةً ما نَصُّه: ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ﴾، كَما في قوله تَعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ [الرَّعد: 16] لِيُطابِقَ القَوْلُ المَأْمورُ بِه عيْنَ الجَوابِ الَّذي أُريدَ اسْتِنْطاقُهم بِه، ويَكون الرَّسولُ ﷺ نائِبًا عنْهم في ذَلِك الجَوابِ، بَلْ إنَّما المُرادُ هو وُجودُ مَن يَفْعَلُ البَدْءَ والإعادَةَ مِن شُرَكائِهِم هُم، فالجَوابُ المَطْلوبُ مِنْهُم: (لا)، لا غَيْر؛ لذا أُمِرَ ﷺ بأنْ يُضَمِّنَهُ مَقالتَهُ إيذانًا بتَعَيُّنِ الجَوابِ وتَحَقُّقِهِ، وإشْعارًا بأنَّهُم لا يَجْتَرِئونَ على التَّصْريحِ بِهِ مَخافَةَ التَّبْكيتِ وإلْقامِ الحَجَرِ(1).

سِرُّ المَجيءِ بالجَوابِ جُملَةً اسْميَّةً:

أُعيدَتْ كَلِمَةُ الخَلْقِ صَراحَةً في الجَوابِ بَعْدَ ذِكْرِها في السُّؤالِ؛ لأنَّها مَحَطُّ التَّحَدّي

جُملَةُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ جَوابٌ لقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾، وإنَّما أتى بالجَوابِ جُملَةً اسْميَّةً بتَمامِها، مُصَرَّحًا بجُزْأيها، مُعادًا فيها الخَبَرُ، مُطابِقًا لخَبَرِ اسْمِ الاسْتِفهامِ؛ للمُبالَغَةِ في التَّأكيدِ، والتَّثْبيتِ. ولما كانَ الاسْتِفْهامُ قَبْلَ هذا لا مَناصَ للمُشْرِكين عنِ الاعْتِرافِ بِه، جاءَ جُملَةً مَحْذوفًا مِنها أحَدُ جُزْأيها في قوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ [يونس: 31]، ولَم يَحْتَجْ إلى التَّأكيدِ بتَصْريحِ جُزْأيها كَما في هذه الآيةِ الكَريمةِ(2).

بَلاغَةُ الإدْماجِ في الحِجاجِ بإعادَةِ كَلِمَةِ ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾:

مَناطُ التَّحَدّي إعادَةُ الخَلْقِ

أُعيدَتْ كَلِمةُ الخَلْقِ صَراحةً مرَّةً أُخْرى في الجَوابِ بَعْد ذِكْرِها في السُّؤالِ؛ لأنَّها مَحطُّ التَّحدّي، ولِما في الإظْهارِ مِن قوَّةِ الإشارَةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/661، والآلوسيُّ، روح المعاني: 11/113.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/323.

على المعنى المُراد[1]. وأضافَ ابنُ عاشور أنَّ ذِكْرَ إعادَةِ الخَلْقِ في المَوْضعَيْنِ مَع أنَّهُم لا يَعْتَرِفون بها نَوعٌ مِنَ الإدْماجِ في الحِجاجِ[2].

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَأَنَّىٰ﴾:

إنْكارُ جَوازِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى على الإعادَةِ جُنوحٌ إلى الكُفْرِ

تَدُلُّ الفاءُ في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ على تَرْتيبِ ما بَعْدَها على ما قَبْلَها، أي: السَّبَبيَّة، والتَّقديرُ: بِسَبَبِ عجْزِ آلِهَتِكم، وعظيم قُدْرة الله تعالى فأيُّ اعْتقادٍ غيْرَ الإقرارِ بوَحْدانيَّته سبحانَه تَرْجَعونَ إليْه، وتُقْلبونَ؟ أو بَعْدَ أنْ عايَنْتُم مِن دلائلِ التَّوحيدِ القاهِرةِ فأيُّ مَكانٍ تَرْتَدّون إليه؟[3].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْتِفْهامِ المَجازيِّ في ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾:

أفادَ الاسْتِفْهامُ الإنْكاريُّ تَوْبيخَهُم والنَّعْيَ عليْهم

الاسْتِفْهامُ في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ للإنكارِ، و(أنَّى) بمعنى: كيفَ، والمعْنى: كَيْفَ تُقْلَبونَ مِنَ الحَقِّ إلى الباطِلِ؟ وأفَكَهُ: قَلَبَهُ، والقَلْبُ مَجازيٌّ، وهوَ إفْسادُ الرَّأيِ. شُبِّهَتْ به الحَقائِقُ الَّتي يُحَوَّلُ فيها التَّفْكيرُ. واسْتِعارَةُ المَكانِ إلَيْها مِثْلُ إطْلاقِ المَوْضوعِ علَيْها والمَجالِ أيضًا"[4].

وفي خِتامِ الآيةِ الكَريمَةِ بالاسْتِفْهامِ هَزٌّ آخَرُ لِمَشاعرِ المُخاطَبين، وإيقاظٌ لِعُقولِهم، وتَبْصيرهم بطَريقِ الهِدايةِ من خِلالِ إعْمالِ الفِكْرِ في القَضيَّةِ المَطْروحَةِ، لإقامَةِ الحُجَّةِ علَيْهِم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ المَبْنيِّ للمَفْعولِ: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾:

تَخَبُّطُ المُشْرِكينَ مُتَجَدِّدٌ مُسْتَمِرٌّ

وسِرُّ التَّعبير بالمُضارعِ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ هوَ الدَّلالةُ على اسْتِمرارِ تَخَبُّطِ المُشْركينَ، وحَيْرتهم، وضَلالِهم، وإصْرارِهم على ذلكَ بعِنادِهم وتَكَبُّرهم، وبُنيَ الفعلُ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ للمَفْعولِ؛ للإشارةِ إلى شَناعَةِ الفِعلِ وغَرابته حتّى لا يكادُ أن يكون له فاعلٌ يُنْسَب إليه، فهيَ دَعوَةٌ لانْشغالِهم بالفِعلِ عنِ الفاعِلِ.

---

(1) المطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/52.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/161.
(3) المطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/52.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/161.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

﴿تُؤْفَكُونَ﴾، و﴿تُصْرَفُونَ﴾:

الإفْكُ أعَمُّ والصَّرْفُ أخَصُّ

تَدورُ مادَّةُ الإفْكِ حَوْلَ الصَّرْفِ والقَلْبِ. والإفْكُ: كُلُّ مَصْروفٍ عن وجْهِه الَّذي يَلزَمُ أنْ يكونَ عليه، ومِنْهُ قيلَ للرّياحِ العادِلَةِ عنِ المَهابِّ: مؤتَفِكَة كَما في قَولِه تَعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقَّة: 9]، وقَولِه تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التّوبة: 30] أي: يُصْرَفونَ عنِ الحَقِّ في الاعْتِقادِ إلى الباطِلِ.

أمّا مادَّةُ الصَّرْفِ فتَدورُ حَوْلَ رَدِّ الشَّيْءِ مِن حالَةٍ إلى حالَةٍ، أو إبْدالِه بغَيرِه، يُقال: صَرَفْتُه فانْصَرفَ. ويُقال: انْصَرَفَ إلى الشَّيْءِ، بمعنى: أقْبَلَ إليه مُنْصَرِفًا عنْ غَيْرِه. ومِنْهُ: صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وانْصَرَفوا، إذا رَجَعْتَهُم فرَجَعوا. والصَّريفُ: اللَّبَنُ ساعَةَ يُحْلَبُ ويُنْصَرَفُ بِه. والصَّرْفُ في القُرْآنِ: التَّوْبَةُ؛ لأنَّهُ يُرْجَعُ بِه عن رُتْبَةِ المُذْنِبينَ[1] . وقد ورَدَتْ مادَّةُ (أفك) في القُرْآنِ الكَريمِ ثَلاثينَ مَرَّةً. ووَرَدَ لَفْظُ (صَرَفَ) في القُرْآنِ في ثَلاثينَ مَوْضعًا، والخُلاصَةُ: يَشْتَرِكُ الجَذْرانِ: (أفك) (صرف) في الدَّلالَةِ اللُّغَوِيَّةِ على معنى التَّحويلِ والرَّدِ والتَّغْييرِ، ويَخْتَصُّ (أفك) بأنَّ وسيلَتَه هي الكَذِبُ؛ لذا فهوَ أخَصُّ مِنَ الصَّرفِ[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أفك) و(صرف).

(2) داود، معجم الفروق الدَّلاليَّة: ص 64.

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٥﴾ [يونس: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بالهدايَةِ تَتِمُّ حِكْمَةُ الخَلْقِ

لَمّا بَيَّنَ تَعالى في الآياتِ السّابقةِ عجْزَ آلِهةِ المُشْرِكينَ المَزْعومَةِ عنِ الخَلْقِ والإعادَةِ، وهُما مِن أقوى أسْبابِ القُدْرَةِ، وأعْظَم بَراهينِ الأُلوهيَّةِ، بَيَّنَ عجْزَهُم عن هذا النَّوْعِ مِن صِفاتِ الإلَهِ، وهو الهِدايَةُ إلى الحَقِّ وإلى طَريقِ الرَّشادِ(1). كَما أشارَ البقاعيُّ إلى مُناسَبةِ هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ لما قَبْلَها بقَولِه: "فَلَمّا اعْتَرَفوا به كُلّه أعادَ السُّؤالَ عَنْ بَدْءِ الخَلْقِ ليقْرِنَ به الإعادَةَ؛ تَنْبيهًا على أنَّهُما بالنِّسْبَةِ إلى قُدْرَتِه على حَدٍّ سَواءٍ، فلَمّا فرَغَ ممّا يَتَعَلَّقُ بأحْوالِ الجَسَدِ أمَرَهُ أنْ يَسْألَهُم عَنْ غايَةِ ذَلِكَ والمَقْصودِ مِنهُ مِن أحْوالِ الرّوحِ في الهِدايَةِ الَّتي هي سَبَبُ السَّعادَةِ إمعانًا في الِاسْتِدْلالِ بالمَصْنوعِ على الصّانِعِ على وجْهٍ مُشيرٍ إلى التَّفْضيلِ فقال: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾"(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّا يَهِدِّيٓ﴾: هَدَّى فُلانٌ هُدًى وهَدْيًا وهِدايةً: استَرْشَدَ. والهِدايةُ: دِلالةٌ بلُطْفٍ(3). الهُدَى: الرَّشادُ والدَّلالةُ، يُذكَّر ويُؤنَّث. أصْلُه يَهْتَدي فأُدْغِمَتِ التّاءُ في الدّالِ. والمعنى: لا يَهْتَدي بنَفْسِه.

2) ﴿تَحۡكُمُونَ﴾: المعنى المِحْوَريُّ للمادَّة: ضَبْطٌ يَمنعُ التَّسَيُّبَ، ويُمَكِّنُ مِن جَعْلِ الشّيْءِ على ما يَنْبَغي ويُرادُ لَهُ كحَكَمَةِ اللِّجامِ تَتَحَكَّمُ

---

(1) أبو حَيّان، البحر المحيط: 6/54 - 55.

(2) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 8/115.

(3) الرّاغب، المفردات: (هدى).

في الدّابَّةِ وتَمنَعُها مِنَ التَّسَيُّبِ؛ أيْ: تُمَكِّنُ مِن إيقافِها وتَوْجيهِها حَسبَ مُرادِ راكِبِها[1]. والحُكْمُ كما قال الرّاغِبُ: القَضاءُ بالشَّيْءِ أنْ يكونَ كَذا أو لَيْس كَذا سَواءٌ أَلْزَمتَ ذلِك غَيرَه أو لَم تُلْزِمهُ[2]؛ والمعنى هُنا: تَقْضونَ بالباطِلِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أفادَ الاسْتِفْهامُ الإنْكاريُّ انْفِرادَ اللهِ ﷻ بالهِدايَةِ

قُل - يا أيُّها الرَّسولُ - للمُشْرِكينَ: هَل مِن آلِهَتِكُم المَزْعومَةِ الَّتي تَعْبُدونَها مِن دونِ اللهِ أحَدٌ يَهْدي مَن ضَلَّ عنِ الهُدى، ويُرشِدُ مَن انْحَرفَ عن جادَّةِ الحَقِّ؟ قُلْ لَهُم: اللهُ وحْدَه هو الهادي إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ. فهَل مَن يُرْشِدُ النّاسَ إلى الحَقِّ ويَدْعوهُم إلَيْه أَوْلَى بأنْ يُتَّبَعَ أمِ آلِهَتُكم الَّتي لا تَهْتَدي لشَيْءٍ ولا تَهْدي غَيْرَها بَلْ هيَ بحاجَةٍ إلى هادٍ يَهْديها؟ فما بالُكُم كَيْفَ سَوَّيْتُم بَيْنَ اللهِ وخَلْقِهِ؟ وهذا حُكْمٌ جائرٌ وباطِلٌ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ الفصْلِ ﴿قُلۡ هَلۡ﴾ ودلالَتُهُ:

الفَصْلُ لكَمالِ الانْقِطاعِ

وَرَدَ قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ﴾ في سياقِ الاحْتِجاجِ على إثْباتِ حَقِّيَّةِ التَّوحيدِ، وبُطلانِ الشِّرْكِ، وجيءَ بهِ إلْزامًا بَعد إلزامٍ، وإفْحامًا إثْرَ إفْحامٍ. وفَصَّلَهُ إيذانًا بفَضْلِه واسْتِقْلالِه في إثْباتِ المَطْلوبِ كَما في سابِقِه[3]، فالآيَةُ مُنْفَصلَةٌ عن سابِقَتِها لكَمالِ الانْقِطاعِ، للإشْعارِ باسْتِقْلالِها في حُصولِ المَقْصودِ، وإثْباتِ المَطْلوبِ، وصيغتِ الأدِلَّةُ بأُسْلوبِ الاسْتِفهامِ؛ لأنَّ الكَلامَ إذا كانَ في غايَةِ الوضوحِ والجَلاءِ، فهوَ سؤالٌ عنْ شَأنٍ آخَرَ مِن شؤونِ الرُّبوبيَّةِ المُقْتَضيَةِ لاسْتِحْقاقِ الأُلوهيَّةِ، وتَوْحيدِ العِبادَةِ

(1) جَبَل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حكم).
(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ: (حكم).
(3) الآلوسيُّ، روح المعاني: 6/107، ومجموعة من المؤلفين، التَّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 4/87.

الاعْتِقاديَّةِ والعَمَليَّة، وهو الهِدايَةُ الَّتي تَتِمُّ بها حِكْمَةُ الخَلْقِ[1]. سُؤالٌ لإقامَةِ الحُجَّةِ على المُشْرِكين في سياقِ مُحاوَرَةٍ لا يَجِدُ فيها المُعانِدُ - لَو أنْصَفَ - فِرارًا مِنَ التَّسْليمِ باسْتِحْقاقِ الخالِقِ سُبحانَهُ وحْدَه للأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّة.

دلالَةُ التَّكْرارِ في: ﴿قُلۡ هَلۡ﴾:

التَّوْقيفُ على قُصورِ الأصْنامِ وعَجْزِها، والتَّنْبيهُ على قُدْرَةِ اللهِ سُبْحانَهُ

في تَكْرارِ قولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ مَزيدُ إفْحامٍ للمُشْرِكين بإقامَةِ الحُجَجِ علَيهم، وتَعْرِيَةِ عُقولِهم، والنَّعْيِ على أحْلامِهم، وإثْباتِ عجْزِ آلِهَتِهِمُ المَزْعومَةِ عن فِعْلِ أيِّ شَيْءٍ بأدِلَّةٍ قاطِعَةٍ، وبَراهينَ ساطِعَةٍ، وحُجَجٍ دامِغَةٍ. وفي هذا زيادَةُ تَبْكيتٍ وتَحْسيرٍ للمُشْرِكينَ.

ودَلَّ التَّعْبيرُ بفِعْلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ على الاهْتِمامِ بالمَقولِ، وسُرعَةِ تَبْليغِه، والمواجَهَةِ به فَوْرَ تَلَقّيه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْتِفْهامِ المَجازيِّ:

تَقْريرُ التَّوْحيدِ بإبْطالِ الآلِهَةِ المَزْعومَةِ

الاسْتِفْهامُ في قولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ مَجازيٌّ، غَرَضُه النَّفْيُ والإنْكارُ، ويَتَفَرَّعُ عنْهُما التَّحْسيرُ والتَّبْكيتُ. والمعنى: هَل مِنْ آلِهَتِكم مَن يُرشِدُ الضّالَّ ويوَفِّقُه إلى مَعرِفَةِ الحَقِّ واتِّباعِه؟ والتَّعْميمُ ألْيَقُ بما يَقْتَضيه المَقامُ مِن كَمالِ التَّبْكيتِ والإلْزام.

الجَوابُ المُلَقَّنُ ودلالَتُهُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾:

عَدَمُ الاعْتِدادِ بإقْرارِ الخَصْمِ لوضوحِ الجَوابِ

يُلْحَظُ هُنا كما في الآيَةِ السّابِقةِ أنَّ الرَّسولَ ﷺ لُقِّنَ الجَوابَ لعِدَّةِ وُجوهٍ مِنْها: قَطْعُ لَجاجِ المُشْرِكين وعِنادِهم وجِدالِهم، وإصْرارِهم على المُكابَرةِ عن قَوْلِ الحَقِّ فأجابَ عنْهُم[2]، وإمّا أنْ يكونَ هذا على طَريقِ التَّلْقينِ للمُخاطَبينَ، وإرْشادِهم إلى الجَوابِ الصَّحيحِ، والقَولِ السَّديدِ، وإمّا لكَوْنِ هذا الجَوابِ قد بَلَغَ في الوُضوحِ إلى غايَةٍ لا يُحتاجُ معَها إلى إقْرارِ الخَصْمِ ومَعْرِفَةِ جَوابِه[3].

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/137.
(2) النَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/163.
(3) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/624.

حـذفُ مُتَعَلّقِ الـهدايـةِ لِيَدُلَّ على العُمومِ

توجيه تنوع التَّعْبيرِ في: ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، ﴿لِلْحَقِّ﴾، ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾:

الفِعلُ (هَدَى) يَتعدَّى بنَفْسِه كقَولِه تعالى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: 2] ويَتَعدّى بـ﴿إِلَى﴾ كقَولِه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٨٧﴾ [الأنعام: 87]، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾ [يونس: 25]، وبـ(اللّام) كَقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9] "فتَعْدِيَةُ الفِعْلِ بنَفسِه تُفيدُ اتِّصالَ الهِدايةِ بمُتَعلّقِها مُباشَرةً دونَ واسِطَةٍ، وتَدلُّ على القُرْبِ، وتَعْديَتُه بـ(اللّام) تُفيدُ التَّقْوِيَةَ أوِ العِلَّةَ، وبـ﴿إِلَى﴾ النّهايَةَ أوِ الغايَةَ الَّتي تَنْتَهي إليها الهِدايةُ، فهيَ تَشْمَلُ مُقَدِّماتِها وأسْبابَها من حَيثُ كَونُها موصِلَةً إلى المُنْتَهى المَقصودِ للهادي السّائقِ إلَيها[1]. وقَد جُمِع في هذهِ الآيةِ بَيْنَ تَعْدِيَةِ (هدى) بحَرْفَي الانْتِهاءِ والاخْتِصاص، وبَيْنَ تَعْدِيَتِه بنَفسِه مَعَ حَذْفِ مَعْمولِ الفِعلِ، وهوَ مَفْعولُ الهِدايَةِ الدّالُّ على العُمومِ في كُلٍّ. فعُدّيَ الفِعلُ ﴿يَهْدِىٓ﴾ بـ ﴿إِلَى﴾ في قولِه: ﴿مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وقَولِه: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾، وبـ(اللّام) في قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، وهذا للَفْتَةٍ بَلاغيَّةٍ هيَ أنَّ الهِدايَةَ لمّا أُسْنِدَت إلى الأصْنامِ عُدّيَ الفِعلُ بـ ﴿إِلَى﴾ الّتي تُشْعِرُ ببُعْدِ المَسافَةِ بَيْنَ البِدايَةِ (الأصنام) والنِّهايَةِ (الهِدايةِ)، وهذا تَوكيدٌ للإنْكارِ في صَدْرِ الآيَةِ الكَريمَةِ كَأنَّ الهِدايةَ ضِمنًا بَعيدَةٌ عنْهم، لَكِنْ لَمّا أُسْنِدَتِ الهِدايةُ إلى اللّه تعالى عُدّيَتْ بـ(اللّام) الّتي تُفيدُ القُرْبَ والاخْتِصاصَ، وكَأنّ الهِدايةَ مِن خَصائِصِه تعالى وحدَه، ومِلْكُ يَمينِه، وهو المُنْفَرِدُ بها على وجْهِ الدَّيْمومَةِ والكَمالِ. وفي نِسْبَةِ الهِدايَةِ العامَّةِ في جُملةِ الاسْتِفْهامِ: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ عُدّيَ الفِعلُ أيضًا بـ (إلى)، مَع أنّ اللّه تعالى هوَ الهادي إلى الحقِّ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ قَد قُرِّرَت نِسبةُ الحَقِّ للّه تعالى فاللّه سبحانَه هوَ الحقُّ، والحقُّ هو اللّه تعالى[2].

---

(1) رشيد رضا، تفسير المَنار: 11/138.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/245، والمطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/53.

ولِصاحبِ المَنارِ تَوْجيهٌ دقيقٌ في بيانِ سِرِّ تَعْدِيَةِ الفِعلِ (هدى) بـ (إلى) و(اللّام) حَيثُ قال: "عدّاه بـ ﴿إِلَى﴾ في حيِّزِ الاسْتِفْهامِ الإنْكاريِّ؛ للإيذانِ بأنَّهُ لا أحدَ مِن هؤلاءِ الشُّركاءِ المُتَّخَذينَ بالباطِلِ يَدلُّ النّاسَ على الطَّريقِ الَّذي يَنْتَهي سالِكُه إلى الحقِّ مِن عِلْمٍ وعَمَلٍ، وهوَ التَّشْريعُ، فهوَ يَنْفي المُقَدِّماتِ ونَتائجَها، والأسْبابَ ومُسَبّباتِها، ولَو عدّاهُ بنَفْسِه لَما أفادَ إلّا إنْكارَ هِدايَةِ الإيصالِ إلى الحَقِّ بالفِعلِ، دونَ هِدايةِ التَّشريعِ الموصِلَةِ إلَيه، ولو عدّاه بـ(اللّام) لَكانَ بمعنى تَعْدِيَتِه بنَفْسِه إنْ كانَتِ اللّامُ للتَّقوِيَةِ أو لإنْكارِ هِدايةٍ يُقْصَدُ بها الحَقُّ إنْ كانَتْ للتَّعْليلِ، والأوَّلُ أعمُّ وأبْلَغُ كما هو ظاهِرٌ"[1].

الغَرَضُ مِنْ حَذْفِ مُتَعَلّقِ الهِدايَةِ:

الهِدايَةُ موَجَّهَةٌ لِعُمومِ الخَلْقِ

حُذِفَ مُتَعَلّقِ الهِدايَةِ، فلَم يَكنْ: (يَهْدي النّاسَ) أوْ: (يهدي الخَلْقَ)؛ ليَدُلَّ على العُمومِ، وهذا أنْسَبُ لما يَقْتَضيه المَقامُ مِن كَمالِ التَّبْكيتِ والإلْزامِ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ: ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّأكيدُ على أنَّهُ سبحانه مَوْجودٌ، وأنَّهُ ذو الحَقِّ، وأنَّهُ مُحِقُّ الحَقّ

قُدِّمَ المُسنَدُ إليْهِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على خَبَرِه الفِعْليِّ في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾، وهذا أفادَ القَصْرَ، قَصْرَ الهِدايَةِ للحَقِّ على اللّه تَعالى وحدَه، مِن بابِ قَصْرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ قَصرًا إضافيًّا.

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

الإظْهارُ لتَفْخيمِ الحَقِّ والتَّأْكيدِ على أهَمّيَّتِهِ

عُدِلَ عنِ الإضْمارِ إلى الإظْهارِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾، حيثُ كانَ الظّاهِرُ أنْ يُقال: (يَهدي إلَيه)؛ لتَفْخيمِ الحقِّ، ولِلتَّأكيدِ على أهَمّيَّتِه بذِكرِه مَرَّتَيْنِ. وهذا أيضًا هوَ سِرُّ إعادَةِ غَيْرِ المَسْؤولِ عنْهُ في الجوابِ ودلالَتُهُ﴿يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾، حيثُ كانَ يُمكنُ الاقْتِصارُ على المَطْلوبِ مَثلًا: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/138.

الغَرَضُ مِن الاسْتِفْهامِ بالهَمزَةِ في: ﴿أَفَمَن﴾:

(الفاءُ) في قوله: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ عطَفتْ ما بَعدَها على جُملةٍ مَحذوفَةٍ تَوسَّطتْ بَيْنَ الهَمزةِ وبَيْنها، يُمكنُ أَنْ يَكونَ تَقْديرُها: أيَسْتَويانِ؟ فمَن يَهْدي إلى الحَقِّ؟ وعُبِّر بهذا الاسْتِفْهام؛ لبَيانِ أحَقّيَّةِ الاتِّباعِ لِمَن يُرْشِدُ ويُصْلِحُ بَدَلًا مِمَّن لا يَسْتَطيعُ الإرْشادَ ويَحْتاجُ كَغيرِهِ لهَدْيِه، فمَن لا يَحتاجُ أحَقُّ مِمَّن يَحْتاجُ لإرْشادِ غيرِهِ وهِدايَتِه[1]، وذلِكَ في صورَةِ قَضيَّةٍ عقْليَّةٍ مَنْطقيَّةٍ مُدعَّمَةٍ بالدَّليل؛ لتُلْجِئَ الخَصْمَ إلى الإقْرارِ والتَّسْليم بصِحَّةِ الدَّعْوى.

الَّــذي يَـهْـدي إلى الحَقِّ أحَقُّ بالاتِّباعِ مِمَّنْ لا يَهْتَدي إلا بغيره

وقَد بيَّنَ سُبحانَه بما هوَ مُسْتَقِرٌّ في الفِطَرِ السَّليمة أنَّ الّذي يَهْدي إلى الحَقِّ أحَقُّ بالاتِّباعِ مِمَّن لا يَهْتَدي إلّا أنْ يَهْديَهُ غيرُهُ، فلَزِمَ أنْ يكونَ الهادي بنَفسِهِ هوَ الكامِل، دونَ الّذي لا يَهْتَدي إلّا بغَيرِهِ، وإذا كانَ لا بُدَّ مِن وجودِ الهادي لغَيرِ المُهتَدي بنَفسِه، فهوَ الأكْمَلُ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ (مَنْ) وصِلَتِهِ:

الاهْــتِـداءُ إلى الـحَقِّ لا يَـكونُ إلّا بمَعونَةِ الله تَعالى وتَوْفيقِهِ وإرْشادِهِ

عُبِّرَ بالاسْمِ المَوصولِ للعاقِلِ (مَنْ) في قوله: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾؛ للتَّعْظيم، ولِأنَّ الهِدايةَ للحَقِّ لا يَتَّصِف بها إلّا عاقِلٌ حَكيمٌ، فما بالُنا والمَقْصودُ اللّه تعالى أحْكَمُ الحاكمين؟ وفي التَّعبيرِ بجُملةِ الصِّلَةِ فِعلًا مُضارِعًا إشارَةٌ إلى اسْتِمرارِ الهِدايَةِ وتَجَدُّدِها، وهذا لزِيادَةِ التَّبْكيتِ والإلْزام، حَيثُ إنَّ هِدايةَ اللّه تعالى للحَقِّ مُسْتَمِرَّةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ، ويُقابِلُها اسْتِمرارُ عدَمِ هِدايَةِ شُرَكاءِ المُخاطَبينَ.

تَنَوُّعُ القِراءاتِ المُتَواتِرَةِ الوارِدَةِ ﴿يَهِدِّيٓ﴾:

قِـراءَةُ (يَـهِـدّي) بتَشْديدِ الـدّالِ وأثرِها البالغ في الاحْتِجاجِ على المُشْرِكينَ

قُرِئَ الفِعلُ ﴿يَهِدِّيٓ﴾ بعِدَّةِ قِراءاتٍ هيَ:

الأولى: بفَتحِ الياءِ وسُكونِ الهاءِ وتَشْديدِ الدّالِ، جَمعًا بَيْنَ ساكِنَيْن، وهيَ قِراءَةُ أهْلِ المَدينَةِ، إلّا ورْشًا، والإدْغامُ دالٌّ على أنَّهُم

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3565.

(2) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 6/82.

لا يَملِكونَ أقلَّ هِدايَةٍ لأنفُسِهِم وهُم عن هِدايَةِ غَيْرِهِم أعْجَزُ، تَناسُبًا مَعَ الإدْغامِ الَّذي يُفيدُ الخَفاءَ والقِلَّةَ.

الثّانية: بفَتحِ الياءِ وسُكونِ الهاءِ وتَشْديدِ الدّال، جَمعًا بَيْنَ ساكِنَيْنِ، مَع اخْتِلاسِ الحَركةِ، وهي قِراءَةُ أبي عمرٍو، وقالونَ، وهذِهِ القِراءَةُ دالَّةٌ على أنَّهم لا يَملِكون أقلَّ قدْرٍ مِنَ الهِدايَةِ لأنْفسِهم، فهُم عنْ هِدايَةِ غَيْرِهِم أعْجَزُ.

الثّالثة: بِفَتحِ الياءِ والهاءِ، وأصْلُه: يَهْتَدي، فنُقِلَتْ حَركةُ التّاءِ إلى الهاءِ، وأُدْغِمَتِ التّاءُ في الدّالِ، وهيَ قِراءَةُ ابنِ عامرٍ، وابنِ كَثيرٍ، ووَرْش.

الرّابعة: بفَتْحِ الياءِ وكَسرِ الهاءِ، وهيَ لُغَةُ سُفْلى مُضَرَ، وبِها قَرَأ حَفصٌ، ويَعْقوبُ

الخامسة: بكَسرِ الياءِ، وهيَ قِراءَةُ حَمزةَ، والكِسائيِّ، وخلف[1].

السّادسة: قُرِئَ بالبِناءِ للمَجْهولِ مَع التَّشْديدِ بصيغَةِ التَّفْعيلِ؛ للدَّلالَةِ على المُبالَغَةِ في الهِدايَةِ[2].

دلالَةُ اسْتِخْدامِ (أفْعَل) التَّفْضيل: ﴿أَحَقُّ﴾:

صيغَةُ التَّفْضيلِ في الآيَـةِ لَيْسَتْ على بابِها

أفْعَلُ التَّفْضيلِ في قوله: ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ﴾ لَيْستْ على ظاهِرِها، بَلْ هيَ مَسْلوبَةُ التَّفْضيلِ، بمعنى جَديرٍ أو حَقيقٍ. وأوثِرَتْ لَفْظًا، لما فيها مِن نَفْيِ المُساواةِ المُقْتَضي لنَفْيِ الاشْتِراكِ أصْلًا بمَعونَةِ السّياقِ[3].

الغَرَضُ مِنَ الاسْتِفْهامِ في: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾:

التَّقْريرُ وإلْـزامُ الحُـجَّةِ ليَكونَ المُخاطَبُ أنْطَقَ بمُرادِ المُتَكلِّمِ

الاسْتِفهامُ في قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ للتَّقريرِ وإلزامِ الحُجَّةِ[4]. والمعنى: "أهذِهِ الهِدايَةُ أحَقُّ بالاتِّباعِ أمِ الَّذي لا يَهدّي؟، أي: لا يَهْتَدي بنَفْسِه أو لا يَهْدي غَيْرَه، إلّا أنْ يَهْديَهُ اللّه"[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/95، وإبراهيم الأبياريُّ، الموسوعة القرآنيَّة، ص: 321.

(2) الخفاجيُّ، حاشية الشّهاب: 5/28.

(3) المطعنيُّ، التَّفسير البلاغيُّ للاستفهام: 2/53. وفي المسألة تفاصيل ذَكرها السَّمين الحلبيُّ في كتابه الدُّرُّ المَصون: 6/193.

(4) الشَّوكانيُّ، فتْح القدير: 2/624.

(5) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/135.

وتَوْجيهُ وصْفِ الأصْنام بأنَّها لا تَهْتَدي إلّا أنْ تُهْدى، مع أنَّها لا تَهْتَدي وإنْ هُديَتْ، أنَّها عومِلَتْ في العِبادَةِ مُعامَلَتَهم في وصْفِها بأوصافِ مَن يَعْقِلُ(1).

دلالَةُ صيغَةِ الفِعْلِ ﴿يَهِدِّيٓ﴾:

في صيغَةِ الفِعْلِ ﴿يَهِدِّيٓ﴾ إعْلالٌ وإدْغامٌ، فأصْلُه (يَهْتَدي) وقُلِبَتِ التّاءُ دالًا؛ لقُرْبِها مِنْ حُروفِ الإطْباقِ، وأُدْغِمَتِ التاءُ في الدّالِ وكُسِرَتِ الهاءُ للتَّخَلُّصِ مِنَ السّاكِنَيْن. وتَدلُّ هذِهِ الصِّيغَةُ على صُعوبَةِ الاهْتِداءِ، بَلْ عدمِ الاهْتِداءِ أصْلًا، ولَكِنْ كانَ الفَرْضُ أنْ يَكونَ اهْتِداءً بَعدَ أنْ توجَدَ الهِدايَةُ الدّاعيَةُ المُرْشِدَةُ، وكُلُّ هذا فيه مِنَ التَّعْنيفِ والتَّسْفيه والتَّوْبيخِ والتَّبْكيتِ لَهُم ما فيه، وهُم عُقَلاءُ، فيهِم مَنْ نَطَقَ بالحِكْمةِ وأرادَها، ثُمَّ يَتَّبِعونَ مَن لا يَعْقِلُ ولا يَنْفَعُ ولا يَضرُّ ولا يَهْدي(2). ولِصاحِبِ (نَظْمِ الدُّرَرِ) تَوْجيهٌ لَطيفٌ في تَعْليلِ إدْغامِ تاءِ الافْتِعالِ، حَيْثُ رَأى فيها إشارَةً إلى انْتِفاءِ جَميعِ أسْبابِ الهِدايَةِ حَتّى أدانيها، فإنَّ التّاءَ عِنْدَ أرْبابِ القُلوبِ مَعْناها انْتِهاءُ التَّسَبُّبِ إلى أدْناهُ(3).

كَيْفَ يَتَّبِعُ مَنْ نَطَقَ بالحِكْمَةِ وأرادَها مَنْ لا يَرْشُدُ ولا يَهْدي؟

سِرُّ الفَرْقِ بَيْنَ نَفْيِ الاهْتِداءِ مَعَ أنَّ السّياقَ لنَفْيِ الهِدايَةِ:

الحِكْمَةُ مِن نَفْيِ الاهْتِداءِ - مَع أنَّ السّياقَ لنَفْيِ الهِدايةِ - هيَ أنَّ نفيَها مُسْتَتبِعٌ لنَفيه غالبًا، فإنَّ مَنِ اهْتَدى إلى الحَقِّ لا يَخْلو عنْ هدايةِ غيْرِه في الجُملَةِ(4).

مَنِ اهْتَدى إلى الحَقِّ لا يَخْلو عَنْ أنْ يَكونَ هاديًا غَيْرَهُ إلَيْهِ

المُرادُ مِن الاسْتِثْناءِ في: ﴿إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ﴾:

المُرادُ مِن الاسْتِثْناءِ بَيانُ أنَّ الَّذي يَهْدي إلى الحَقِّ مُطْلقًا هوَ اللهُ، والَّذي لا يَهْدي إلّا أنْ يُهْدى صِفةُ كلِّ مَخْلوقٍ، لا يُهدَى إلّا أنْ يَهْديَه

مَنْ لَمْ يَهْتَدِ بنَفْسِه لا يَهْدي غَيْرَهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/55.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3565.
(3) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 9/118.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/663.

اللّه تَعالى، وقدْ دَلَّ الاسْتِثْناءُ في قَوْلِه: ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ على التَّهَكُّمِ على طَريقَةِ تَأْكيدِ الشَّيْءِ بما يُشْبِهُ ضِدَّهُ[1]. والاسْتِثناءُ مُنْقَطِعٌ مُفَرَّغٌ مِنْ أعَمِّ الأحْوالِ، والمُرادُ: لا يَهْتَدي في حالٍ مِنَ الأحْوالِ إلّا في حالِ هَداهُ غَيْرُه. وكانَ مُقْتَضى المُقابَلَةِ أنْ يُقال: (أم مَن لا يَهْدي)، وإنّما خولِفَ إشارَةً إلى أنَّه إذا لم يَهْتدِ بنَفْسِه لا يَهْدي غَيْرَه[2].

وجَوَّز ابنُ عادلٍ الدِّمشْقيُّ أنْ يكونَ الاسْتِثناءُ مُتَّصِلًا؛ لأنَّه إذْ ذاكَ يَكونُ فيهم قابليَّةُ الهِدايةِ، بخِلافِ الأصْنام، كَما جَوَّزَ أنْ يكونَ الاسْتِثناءُ مِن تَمامِ المَفْعولِ لَهُ، أي: لا يهْدي لشَيْءٍ مِنَ الأشْياءِ، إلّا لأجْلِ أنْ يُهْدَى بغَيْرِه[3].

سِرُّ بناءِ الفِعْلِ ﴿يُهْدَىٰ﴾ للمَفْعولِ:

الآلِهَةُ المَزْعومَةُ لا تَقْبَلُ هِدايَةَ أيِّ هادٍ

بُنِي الفِعْلُ ﴿يُهْدَىٰ﴾ للمَجْهولِ؛ لعَدمِ تَعَلُّقِ غَرضٍ بذِكْرِ الفاعِلِ، ولِلإشارَةِ إلى أنّهُ لَيسَ المُرادُ هاديًا مُعَيَّنًا، فتِلْكَ الآلِهَةُ المَزْعومَةُ لا تَقْبَلُ هِدايَةَ أيِّ هادٍ كائِنًا مَن كانَ.

معنى الفاءِ في: ﴿فَمَا﴾:

الفاءُ في: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ عاطِفَةٌ لتَرْتيبِ كِلا الإنْكارَيْنِ السّابقيْنِ على ما ظَهَرَ مِن وُجوبِ اتِّباعِ الهادي إلى الحَقِّ[4].

بَلاغَةُ الاسْتِفْهامِ بـ (ما):

التَّعْيِي على عُقولِ المُشْرِكينَ

(ما) في جُملة: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ اسْتِفْهاميَّةٌ مُبْتَدأٌ، و﴿لَكُمْ﴾ في مَحلِّ رفْعِ خبَرٍ، والاسْتِفهامُ بـ (ما) للتَّعْجيبِ والتَّقْريعِ[5].

معنى حَرْفِ الجَرِّ اللّامِ ودلالَتُهُ في: ﴿لَكُمْ﴾:

مَنْ كانَ عاجِزًا عنْ هِدايَةِ نَفْسِه كانَ عنْ هِدايَةِ غَيْرِهِ أعْجَزَ

أفادَتِ اللّامُ الاخْتِصاصَ. والمعنى: أيّ شَيْءٍ ثَبَتَ لَكُم فاتَّبَعْتُم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/163.
(2) القنّوجيُّ، فتح البيان: 6/60.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 10/325.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/658.
(5) ابن جُزَيّ، التَّسهيل: ص 356.

مَن لا يَهْتَدي بنَفْسِه، فضْلًا عنْ أنْ يَهديَ غَيْرَه بأيِّ حالٍ مِنَ الأحْوالِ؟[1].

نُكْتَةُ الفصْلِ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾:

الفَصْلُ للإيضاحِ بَعْدَ الإجْمالِ

فُصِلَ قَوْلُه: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؛ لأنَّهُ جاءَ تَفْصيلًا للإجْمالِ في (ما) والمعنى: كَيْفَ تَحْكُمونَ بالباطِلِ، حَيْثُ تَزْعُمون أنَّهُم أنْدادُ اللّه؟[2].

الغَرَضُ مِن الاسْتِفْهامِ بـ﴿كَيْفَ﴾:

أفادَ الاسْتِفْهامُ الإنْكارَ والتَّعْجيبَ

الاسْتِفْهامُ بـ﴿كَيْفَ﴾ للإنْكارِ والتَّعَجُّبِ. أي: أيُّ شَيْءٍ لَكُم في اتِّخاذِ هَؤُلاءِ العاجِزينَ عنْ هِدايَةِ أنْفُسِهم، فضْلًا عن هِدايَةِ غَيْرِهم شُرَكاءَ بالباطِلِ حَيْثُ تَزْعُمونَ أنَّهُم أنْدادُ اللّه؟

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ: ﴿تَحْكُمُونَ﴾:

الإصْرارُ على المُكابَرَة، والحُكْمُ بغَيْرِ ما يَقْتَضيه العَقْلُ

في التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ في قَولِه: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ إشارَةٌ إلى اسْتِمرارِ غَفْلَةِ المُشْرِكينَ عنِ الحقِّ، وإصْرارِهم على الحُكْمِ بغَيرِ ما يَقْتَضيه الشَّرعُ والعَقلُ والفِطْرَةُ.

مَوْقِعُ الاسْتِفْهامِ مِمّا قَبْلَهُ:

جُملَةُ الاسْتِفْهامِ اسْتِئْنافيَّةٌ مُسْتَقِلَّةٌ

جُملةُ الاسْتِفهامِ بـ ﴿كَيْفَ﴾ في مَوْضِعِ نَصْبِ حالٍ، وهي جُملَةٌ مُسْتقلَّةٌ، والمعنى: على أيِّ حالٍ، وقدْ تمَّ الكَلامُ بالجُملةِ الاسْميَّةِ ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ فـ (ما) مُبْتَدأٌ، و﴿لَكُمْ﴾ خَبَرُها، ويوقَفُ علَيْه، والمعنى: أيُّ شَيْءٍ ثَبَت لَكُم في عِبادَةِ الأوثانِ؟

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/163.
(2) القاسميُّ، محاسن التَّأويل: 9/3348.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نَعْيٌ آخَرُ على أنَّ عِبادَتَهُم للأصْنامِ مَبْنِيَّةٌ على ظَنٍّ باطِلٍ

في الآياتِ السّابِقةِ أمَرَ اللّه تعالى رَسولَه ﷺ بأنْ يُحاجِجَ قومَه فيما جَعَلوهُم آلِهَةً، وهيَ أحْجارٌ لا تَصريفَ لَها، ولا تَدْبيرَ، ولا هِدايَةَ لَها، وفي هذِهِ الآيَةِ بَيانٌ إلَهيٌّ بأنَّ عِبادَتَهم إيّاها اتِّباعٌ لظَنٍّ باطِلٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّبِعُ﴾: يَدُلُّ أصْلُ المادَّةِ على التُّلُوِّ والقَفْوُ[2]. والاتِّباعُ: اقْتِفاءُ الأثَرِ. وقد يكونُ الاتِّباعُ بالجِسمِ، نَحوَ: تَبِعْتُه في الطَّريقِ واتّبعتُه فيها، وتارَةً بالامتِثالِ[3]. ومِنْه قَولُه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ [البقرة: 38]. واتَّبَعَ الشَّيْءَ: صارَ وراءَهُ وتَطَلَّبَه، واتَّبَعَ الإمامَ: حَذا حَذْوَهُ، واتَّبَعَ القُرْآنَ: عمِل بما فيه[4].

2) ﴿ظَنًّا﴾: الظَّنُّ كما قال الرّاغبُ: "اسْمٌ لما يَحْصُلُ عن أمارَةٍ، ومَتى قَوِيَتْ أدَّتْ إلى العِلْمِ، ومَتى ضَعُفَتْ جدًّا لَم يَتَجاوَزْ حَدَّ التَّوَهُّم. والظَّنُّ في كَثيرٍ مِنَ الأُمورِ مَذْمومٌ"[5]. والظَّنُّ: هوَ إدْراكُ الشَّيْءِ مَعَ تَرْجيحِه. والجَمعُ: ظُنونٌ، وأظانينَ. والظِّنَّة: التُّهَمَةُ. والظّنونُ: كُلُّ ما لا يوثَق بِه. ويُقال: رَجُلٌ ظَنونٌ: مُتَّهَمٌ في عقْلِه، أو خَبَرِه[6]. والظَّنُّ ينافي اليَقينَ، فإنَّه تَرْجيحُ أحَدِ طَرَفَي الحُكم على الآخَرِ مِنْ غَيْرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/164.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تبع).
(3) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (تبع).
(4) مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (تبع).
(5) الرّاغب، المفردات: (ظن).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ظن).

قَطْعٍ، والظَّنُّ يَدُلُّ على مَعْنَيَيْن مُتَناقِضَيْن: يَقين وشَكّ[1]. أمّا اليَقينُ فنَحْوَ قوله تَعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 249] أي: يوقِنون. والظَّنُّ بهذا المعنى شائِعٌ في كِتابِ الله تَعالى. وأمّا الشَّكّ، فنَحْو قوله تَعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾، ووَرَدَ أيضًا بمعنى سوءِ الظَّنِّ، نَحْو قوله تَعالى: ﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾، والمَقْصودُ هُنا: التَّخْمينُ والتَّوَهُّمُ.

3) ﴿يُغۡنِي﴾: غَني فُلانٌ غِنًى وغَناءً: كَثُر مالُهُ. وغَنيَ عنِ الشَّيْءِ: لَم يَحْتَجْ إلَيه[2]، والغَناءُ: النَّفْعُ. والغِناءُ مِنَ السَّماعِ. والغِنى: اليَسارُ. وتَغَنَّى الرَّجُلُ: اسْتَغْنى. وغَنِيَتِ المَرْأةُ بزَوْجِها غُنْيانًا، أيِ اسْتَغْنَتْ. والغانِيَةُ: الجارِيَةُ الَّتي اسْتَغْنَتْ بجَمالِها عنِ الزّينَة[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عِباداتُهُمُ الأصْنامَ لَم تَكُنْ عنْ بَيِّنَةٍ ودَليلٍ راجِحٍ

ما يَتَّبِعُ هَؤلاءِ المُشْرِكونَ في إشْراكِهِم باللهِ بعِبادَةِ أصْنامِهِم إلّا الظَّنَّ، فلا يَقينَ عِنْدَهُم ولا دَليلَ ولا بُرْهانَ في أنها حَقًّا آلِهَةٌ تَسْتَحِقُّ العِبادَةَ، ولَم يَكُن ذَلِكَ عَنْ بَصيرَةٍ، وذلِكَ لا يُغْني عنهُم شَيْئًا، فالظَّنُّ لا يُقْبَلُ في العَقائِدِ، بَلْ لا بُدَّ فيها مِنَ اليَقينِ الرّاسِخ. إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ علَيْهِم، ورَقيبٌ على أعْمالِهِم، وعَليمٌ بأفْعالِهِم، وسَيُجازيهِم علَيها يوم القيامَةِ بأشَدِّ العِقاب.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾:

لا يُقْبَلُ الظَّنُّ في العَقائِدِ، بَلْ لا بُدَّ مِنَ العِلْمِ اليَقينيِّ فيها

الواوُ في قوله تَعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّا﴾ اسْتِئْنافيَّةٌ، والكَلامُ مُبْتَدَأٌ غَيْرُ داخِلٍ في الأوامِرِ السّابِقَة، مَسوقٌ لبَيانِ السِّرِ في عدمِ انْصِياعِ المُشْرِكين للْحَقِّ، وفَهْمِهِم لمَضْمونِ البُرْهانِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غني).
(3) الجَوْهريُّ، الصِّحاح: (غني).
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/625.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ في: ﴿يَتَّبِعُ﴾:

استِمرارُ اتِّباعِ المُشرِكينَ الظَّنَّ

التَّعبيرُ بالمُضارِعِ المَنْفيِّ يُفيدُ استِمرارَ اتِّباعِ هؤلاءِ المُشْرِكينَ الظَّنَّ، وعَلَيه فالمُرادُ بالاتِّباعِ هُنا الإذعانُ والانْقيادُ، فإنَّ هذا الظَّنَّ، وهوَ مِن تَزْيينِ الشَّيْطانِ للإنْسانِ، أقْبَحُ البُهتانِ، وأضَلُّ الضَّلالِ حَتَّى اعْتَقدَ صاحِبُه ذلِكَ وألِفَهُ، وظَنَّه حَقًّا، وهوَ لا شَيْءَ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بأُسْلوبِ القَصْرِ:

كَراهيَةُ القَوْلِ بالظَّنِّ والعَمَلِ بِهِ

قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ﴾ أُسْلوبُ قَصْرٍ بالاسْتِثْناءِ بَعدَ النَّفْي، مِنْ بابِ قَصْرِ الصِّفةِ (الاتِّباع) على المَوْصوفِ ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ وهوَ قَصْرٌ إضافيٌّ. وأوثِرَ النَّفْيُ والاسْتِثْناءُ؛ لأنَّه أعْلى طُرُقِ القَصْرِ وأقْواها. ودَلَّ طَريقُ القَصْرِ بالاسْتِثْناءِ بَعْدَ النَّفْيِ الَّذي يُؤْتى بِهِ مَعَ المُنْكِرِ المُجاحِدِ؛ لأنَّهُم يَظُنّون خِلافَ ذلِك، وقد دَلَّ هذا على أنَّ المُشْرِكينَ لَيْسوا في عقائِدِهم الباطِلَةِ المُنافيَةِ للتَّوحيدِ على شَيْءٍ مِنَ الحَقِّ، رَدًّا على اعْتِقادِهم أنَّهُم على الحَقِّ[1].

سِرُّ الإضافَةِ في: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾:

المُعْتَبَرُ في هذا المَقامِ سوءُ الحالِ مِنْ حَيْثُ الفَهْمُ والإدْراكُ لا مِنْ حَيْثُ الكُفْرُ والعَذابُ

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ على (أكْثَرُ النّاسِ) اخْتِصارًا، ولِلعِلمِ بمَرْجِعِ الضَّميرِ، والضَّميرُ في ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ يَعودُ إلى المُشْرِكين، وهذا يَدلُّ على أنَّ هؤلاءِ المُشْرِكين يَجْمعُهم الكُفْرُ، وأنَّ أكْثرَهم اتَّبَعوا الظَّنَّ، لَكنَّهم كانوا مُتَفاوتينَ في جَحْدِ الحَقِّ وإنْكاره، فقد كانَ مِنْهُم الشّاكُّ فيه، وكانَ من بَيْنِهم مَنْ عَلِمَ الحَقَّ لَكنَّه عانَدَ وكابَرَ أنْ يَنْطِقَ بكَلِمة الحَقِّ[2]. إنَّ "أولَئِكَ أسْوَأُ حالًا من غَيْرِهم؛ لأنَّ المُعْتَبَرَ سوءُ الحالِ مِن حَيْثُ الفَهْمُ والإدْراكُ لا من حَيْثُ الكُفْرُ والعَذابُ[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/486.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/663.

سِرُّ قَصْرِ الحُكْمِ على: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾:

القُلوبُ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أصابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُها حَيْثُ يَشاءُ

في قَصْرِ الحُكْم على ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ وتَخْصيص هذا الاتِّباع بهم مَع مُشارَكةِ المُعانِدينَ لَهُم في ذلِك؛ للتَّلْويح بما سَيَكونُ مِن بَعضِهم مِن اتِّباعِ الحَقِّ، والتَّوبةِ، والدُّخولِ في الإسْلامِ. وقيلَ: المُرادُ بأكْثَرِهم: جَميعُهم[1]، وعُبِّرَ في مُقابِلِ هذا بالعُمومِ في قَولِه: ﴿فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾؛ لأنَّهُ في ذاكَ المَوضعِ أُريدَ مجابَهَتُهم مُشافَهَةً بالتَّوبيخِ والتَّقْريعِ والإنْكارِ.

الغَرَضُ مِنْ تَنْكيرِ: ﴿ظَنًّاۚ﴾:

المُشْرِكونَ مُقَلِّدون وتابِعونَ للأَهْواءِ

تَنْكيرُ ﴿ظَنًّاۚ﴾ للتَّحْقير، أي: إلّا ظَنًّا ضَعيفًا لا يَسْتَنِدُ إلى ما تَسْتَنِدُ إلَيْهِ سائِرُ الظُّنونِ[2]، وفي هذا تَنْبيهٌ على "أنَّهُم إنَّما هُم مُقَلِّدونَ وتابِعونَ للأَهْواءِ"[3].

مَوْقِعُ جُملَةِ ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ ودلالَتُهُ:

بَيانُ شَأْنِ الظَّنِّ وبُطْلانِهِ

وَقعتْ جُملَةُ ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ مَفْصولَةً عن سابِقَتِها للاسْتِئْنافِ البَيانيِّ، تَعْليلًا لما دَلَّ علَيْهِ القَصْرُ مِن كَوْنِهم لَيْسوا على شَيْءٍ مِنَ الحَقِّ، فكَيْفَ يَزْعُمون أنَّهُم على الحَقِّ؟[4].

فإنَّ هذا الظَّنَّ مِن تَزْيينِ الشَّيطانِ للإنسانِ يُعَدُّ أقبحَ البُهْتان، وأضَلَّ الضَّلال، لأنَّ صاحبَهُ اعْتَقَدَ ذلك وألِفَه، وظَنَّهُ حَقًّا، وهوَ عارٍ مِنْهُ، حَيْثُ سَمَّى المُشْرِكون أصْنامَهم آلِهةً، وعَبَدوها مَع اللهِ، وجَعَلوها شُرَكاءَ للهِ، ولَيْس للهِ شَريكٌ أصْلًا عقْلًا ولا نَقْلًا، لذا قال: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾[5].

وأفادت اللّامُ في قولِه: ﴿ٱلظَّنَّ﴾ العهد، والمَقْصودُ بِه الظَّنُّ السَّيِّئُ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/56.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.
(3) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 9/119.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.
(5) السَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 418.

دلالَةُ التَّأْكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾:

الظَّنُّ لا يَقومُ مَقامَ العِلْمِ ولا يُدْرَكُ بِهِ الحَقُّ

التَّأكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾ واسْميَّةِ الجُملةِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ وفي إعادة ذكرِ المُسنَدِ إليه مُضمَرًا في: ﴿يُغۡنِي﴾، دلالَةٌ على أنَّ أمرَ الدّين "إنَّما يَنْبَني على العِلْم، وبِهِ يَتَّضِحُ الحَقُّ من الباطِل، والظَّنُّ لا يَقومُ مَقامَ العِلْم ولا يُدْرَكُ بِهِ الحقُّ ولا يُغْني عنِ الحقِّ في شَيْءٍ مِنَ الأشْياءِ"[1].

بَلاغَةُ التَّضْمين:

عِبادَةُ الأصْنامِ مَبْنِيَّةٌ على ظَنٍّ باطِلٍ ولَيْسَ حَقًّا مَحْضًا

في قوله تعالى: ﴿لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾: عُدّيَ الفِعلُ ﴿يُغۡنِي﴾ بحَرفِ الجَرِّ ﴿مِنَ﴾ وهوَ لا يَتَعدَّى به هُنا إلّا بتَضْمينِ الفِعلِ ﴿يُغۡنِي﴾ الفِعلَ (يَدْفَع) أو (يَأْخُذ) على معنى أنَّ الظَّنَّ القائِمَ على الوَهْم لا يَدْفَعُ أو يَأْخذُ مِنَ الحَقِّ شَيئًا. وقيلَ: ﴿مِنَ﴾ بمَعنى (عَنْ)، وهيَ للْبَدَليَّةِ، أي: عِوَضًا عنِ الحَقِّ[2]. والحَقُّ بمَعنى العِلْم.

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

(أل) هُنا جِنْسيَّةٌ تُفيدُ عُمومَ الحَقِّ كُلِّه.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾:

بَيانُ الحَقِّ هو الغَرَضُ من العِلْمِ

قُدِّم الجارُّ والمَجْرورُ: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على المَفْعولِ المُطْلَقِ ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ لأنَّهُ الأهَمُّ بالبَيانِ، حَيثُ إنَّ أمرَ الدّين إنَّما يُبْنى على العِلْمِ، وبه يَتَّضِحُ الحَقُّ مِن الباطِل.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَفْعولِ المُطْلَقِ: ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾:

أمرُ الدّينِ إنَّما يُبْنى على العِلْمِ لا الظَّنِّ

﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ مَفْعولٌ مُطْلَقٌ مُؤَكِّدٌ لعامِلِه، أي: لا يُغْني شَيْئًا مِنَ الإغْناءِ[3]. وهوَ رافِعٌ للمَجازِ ودافِعٌ لهُ، ومن هُنا جاءَ التَّأكيدُ على عدمِ الغَناءِ، وأفادَ تَنْكيرُ: ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ التَّعْميمَ أوِ التَّقْليلَ، أي: إنَّ الظَّنَّ لا يُغْني عن الحَقِّ شَيئًا مَهْما قلَّ أو كَثُر.

---

(1) القنَّوجيُّ، فتْح البيان: 6/61.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/166.

مَوْقِعُ جُملَةِ التّذييل ودلالَتُهُ في الآية:

التَّهْدِيدُ والوَعِيدُ مَعْنًى تأْسيسيٌّ

جُملَةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ اسْتِئْنافيَّةٌ بيانيَّةٌ للتَّهْديد بالوَعيدِ لأفْعالِهم القَبيحَةِ الصّادِرةِ عن الكِبْرِ والعِنادِ والتَّعَنُّت والجَهْلِ، ولإعْراضِهم عن البَراهينِ الدّامِغَة، واتِّباعِهم الظُّنونَ الفاسِدَةَ، وخُتِمتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بهذهِ الجُملةِ؛ لتأكيدِ عِلْمِ اللّه تعالى بهِم في ظُنونِهم، وتَخَرُّصاتِهم، وأعْمالِهِم، وأفْعالِهِم، وحَرَكاتِ نُفوسِهم تأْكيدًا على سَعَةِ عِلْمِ اللّه تعالى.

نُكْتَةُ التَّذْييلِ للآيَةِ بِصِفَةِ العِلْمِ ﴿عَلِيمُۢ﴾:

في التَّعبيرِ بالاسْمِ الجَليلِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ إلْقاءٌ للمهابة على الخَبرِ، وزيادَةٌ في التَّرْهيبِ والوَعيدِ، وعُبِّرَ بصيغَةِ المُبالَغةِ ﴿عَلِيمُۢ﴾، للدّلالَةِ على إحاطَةِ عِلْمِهِ سُبحانَه، وجاءَتِ الصّيغَة بالتَّنْوينِ لإفادَةِ التَّعْظيم.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ مِنْ حَيْثُ المعنى والصّيغَةُ:

الباءُ للتَّعْديَة، و﴿بِمَا﴾ اسْمٌ مَوْصولٌ أفادَ مَعنى العُموم، وأوثِرَ التَّعْبيرُ بـ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ دونَ (يَعْمَلونَ)؛ لأنَّ الفِعلَ قد يَقعُ بنيَّةٍ أو بدونِ نيَّةٍ وقَصدٍ، وأفادَ هُنا أنَّ اللّه تعالى يَعْلَمُ كلَّ ما يَقعُ مِنْهُم، سواءً أكانَ مَقْصودًا أم لا، وفي هذا تَهْديدٌ ووَعيدٌ لَهُم، وأمّا التَّعبيرُ بالمُضارِعِ فإنَّما يَدلُّ على تَجَدُّدِ ما يَقعُ مِنْهُم وأنَّهُ لَنْ يَنْتَهيَ بزَمنٍ ما.

سِرُّ حَذْفِ المَفْعولِ بِهِ في: ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

المُبالَغَةُ في التَّهْديدِ والوَعيدِ

حُذِف مَفْعولُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ للتَّعْميم، أي أنَّ اللّه تعالى مُطَّلِعٌ على أفْعالِهم صَغيرِها وكَبيرِها، وسَيُجازيهِم عليها، وهذا للمُبالَغةِ في التَّهْديدِ والوَعيد.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَفْعَلون) و(يَعْمَلون):

الفِعْلُ: التَّأْثيرُ مِن جِهَةِ فاعِلٍ مُؤَثِّرٍ. وهوَ عامٌّ لما كانَ بإجادَةٍ أو

الفِعْلُ قد يَقَعُ بقَصْدٍ أو بدونِ قَصْدٍ بخِلافِ العَمَلِ فلا يَقَعُ إلّا مَقْصودًا

غَيرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بعِلْمٍ أو غَيرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيرِ قَصْدٍ، ولِما كانَ مِنَ الإنْسانِ والحَيَوانِ.

والعَمَلُ: إيجادُ الأثَرِ في الشَّيْءِ. يُقالُ: فُلانٌ يَعمَلُ الطِّينَ خَزَفًا، ويَعمَلُ الأديمَ سِقاءً، ولا يُقال: يَفعَلُ ذلِكَ؛ لأنَّ فِعْلَ الشَّيْءِ عبارَةٌ عمّا وُجِدَ في حالٍ كانَ قَبْلَها مَقْدورًا، سواءٌ كانَ عن سَببٍ أو لا. والفِعلُ قَد يُنْسَبُ إلى الحَيَواناتِ الَّتي يَقعُ مِنْها فِعْلٌ بغَيرِ قَصْدٍ، وقَد يُنْسَبُ إلى الجَماداتِ، والعَملُ قَلَّما يُنْسَبُ إلَيْهما[1]. فالفِعلُ أعَمُّ للإنْسانِ والحَيَوانِ، ويَكونُ بقَصْدٍ وبِغَيرِ قَصْدٍ. والعَمَلُ أخَصُّ، ويَكونُ بقَصْدٍ، ويُنْسَبُ للإنْسانِ غالِبًا، واخْتيارُ الأعَمِّ أنْسَبُ للتَّهْديدِ والوَعيدِ، والعَمَلُ يَمتَدُّ زَمانُهُ بخِلافِ الفِعْلِ الَّذي يَقَعُ دفْعَةً واحِدَةً.

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل) و(عمل).

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس: 37]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَدٌّ على شُبْهَةٍ أُخْرى مِنْ شُبُهاتِهِم تَتَعَلَّقُ بالقُرْآنِ

تَناوَلَ السِّياقُ السّابقُ لِتلكَ الآيَةِ الكَريمَةِ إثْباتَ الأدلَّةِ على وحْدانيَّةِ اللّه تعالى وإظْهارَ تَقَوُّلِ المُشْرِكين على القُرْآن الكَريم بأنَّ الرَّسولَ ﷺ اخْتَلقَه، وأنَّه لَيْس وحْيًا مِن عِند اللّه تعالى وهذا مِن ظَنِّهم السَّيِّئِ، فجاءَ الرَّدُّ عليهم هُنا بقَوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، حَيثُ ذُكِرَ في تلكَ الآيَةِ الكَريمةِ والَّتي تَليها بَعْضُ صِفاتِ القُرْآنِ الدّالَّةِ على أنَّهُ وحْيٌ من عِنْد اللّه، وتُحُدّيَ المُشْرِكون بالإعْجازِ عن الإتْيانِ بمِثْلِه.

وقد بَيَّنَ ابنُ عادِلٍ الدِّمَشْقيُّ وجهَ تلكَ المُناسَبةِ بقَوله: "لَمّا تَقدَّمَ قَولُ القَومِ: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: 20]، وذَكَروا ذلكَ؛ لاعْتِقادِهِم أنَّ القُرآنَ لَيْس بمُعْجِزٍ، وأنَّ مُحَمَّدًا إنَّما أتى بِهِ مِن عِند نَفْسه، افْتِعالًا واخْتِلاقًا، وذَكَر تعالى هُنا: أنَّ إتْيانَ مُحمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بهذا القُرآنِ، لَيْس افتراءً على اللّه تعالى وإنَّما هوَ وحْيٌ نازِلٌ علَيه مِن عِند اللّه، وأنَّهُ مُبَرَّأٌ عن الافْتِعالِ، والافْتِراءِ، ثُمَّ احْتَجَّ على صِحَّة هذا الكَلامِ، بقَولِه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُفْتَرَىٰ﴾: الفَرْيُ: قَطْعُ الجِلْدِ للخَرْزِ والإصْلاحِ[2]. والافْتِراءُ: على صيغَةِ (افْتِعال) مِنَ الفَرْي، أوِ الإفْراءِ، وهوَ أقْبَحُ الكَذِبِ، أوِ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 10/329.
(2) الرّاغب، المفردات: (فري).

الكَذِبُ مَع التَّعَمُّدِ[1]، ويُطْلَقُ الافْتِراءُ على الكَذِبِ والشِّرْكِ والظُّلْمِ، والمُرادُ هُنا الكَذِبُ.

2) ﴿تَصۡدِيقَ﴾: صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا وتَصْداقًا. والصِّدْقُ: نَقيضُ الكَذِب. والصِّدّيقُ: المُبالِغُ في الصِّدْق. ويَدلُّ المعنى المِحْوَريُّ على صَلابَةٍ أو قوَّةٍ في باطِنِ الشَّيْءِ مَعَ شِدَّةِ تَماسُكِه[2].

3) ﴿وَتَفۡصِيلَ﴾: يَدورُ أصْلُ المادَّةِ حَوْلَ تَمييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِه عنْهُ[3]. والتَّفْصيلُ: التَّبْيينُ. والفَيْصَلُ: الحاكِمُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نَفَتِ الآيَةُ فِرْيَةَ افْتِراءِ القُرْآنِ وأكَّدَتْ أنَّهُ مُصَدِّقٌ لنُبوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

لا يُمكِنُ لبَشَرٍ، ولا يستَقيمُ لذي لُبٍّ أنْ يَزْعمَ أنَّ هذا القُرآنَ مِن عِندِ غَيرِ اللهِ، وأنَّهُ مُفتَرًى مَكْذوبٌ على اللهِ؛ لأنَّهُ فوْقَ قُدْرةِ البَشَرِ وطاقَتِهم، لما فيه مِن عُلومٍ عاليةٍ، وحِكَمٍ ساميةٍ، وتَشْريعٍ عادِلٍ، وآدابٍ اجْتماعيَّةٍ، وإنْباءٍ بالغُيوبِ الماضيَةِ والمُسْتَقْبَلَةِ لَيْس في طَوْقِ البَشَرِ، ولا هوَ داخِلٌ تَحْتَ قُدْرتِهِ وفي حَيِّزِ مُكْنَتِه، لَكِنَّ اللهَ تعالى أنْزَلَ القُرآنَ الكَريمَ مُصَدِّقًا لما قَبْلَهُ مِن الكُتُبِ السَّماويَّةِ، وفيه تَفْصيلُ الشَّرائعِ والأحْكامِ الَّتي شَرَعَها اللهُ تعالى لعِبادِهِ. ولا شَكَّ في أنَّ هذا القُرْآنَ تَنْزيلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ العَطْفِ بالواوِ في: ﴿وَمَا كَانَ﴾:

التَّمهيدُ للتَّحدّي بإعْجازِ القُرْآنِ الكَريمِ

هذا الكَلامُ في تِلكَ الآيَةِ الكَريمَةِ وما بَعْدَها مَسوقٌ للتَّحَدّي بإعْجازِ القُرْآن، وتَحَدّي أرْبابِ الفَصاحَةِ والبَيانِ، ويَجوزُ في جُملة: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عِدَّةُ أوجُهٍ في العَطْفِ:

(1) السَّمين الحلبيُّ، عُمدة الحفّاظ: (فري).
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيُّ المُؤَصَّل: (صدق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).

الأوَّلُ: أنْ تكونَ مَعْطوفَةً على جُملَةِ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ﴾ [يونس: 37]، ووَجْهُ المُنَاسَبَةِ: اتِّباعُ المُشْرِكين الظَّنَّ في شَأنِ التَّوْحيدِ، وفي شَأنِ النُّبوَّة.

الثّاني: أنْ تَكونَ مَعْطوفَةً على مَجْموعِ ما تَقَدَّمَ عطْفَ الغَرَضِ على الغَرَضِ والقِصَّةِ على القِصَّةِ، وهو مُفيدٌ تَفْصيلَ ما أجْمَلَهُ ذِكْرُ الحُروفِ المُقَطَّعَةِ في أوَّلِ السّورَة.

الثّالِثُ: أنْ تَكونَ الجُملَةُ مَعْطوفَةً على جُملَةِ: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15] تَكْمِلَةً لِلْجَوابِ عنْ قولهم: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: 15][1].

وأوثِرَتِ الواوُ لِمُناسَبَةِ مَعْناها مَع تَعدُّدِ أوجُهِ العَطْفِ وأغْراضه في هذهِ الجملة، فالواوُ تُفيدُ المُشارَكَةَ بَيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه في الحُكْمِ، وعلى مطْلَقِ الجَمعِ، ولا توجِبُ التَّرتيبَ.

سِرُّ اسْتِخْدامِ أُسْلوبِ النَّفْي على وجْهِ الجُحود:

قَولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ﴾ بمَنزِلَةِ أنْ يُقالَ: ما كانَ ليُفْتَرى، بلامِ الجُحودِ، وحُذِفت لامُ الجُحودِ إيجازًا للاسْتِغناءِ عنْها بذِكْرِ فِعْلِ ﴿كَانَ﴾، و"هذا بَيانٌ لإعْجازِ القُرآنِ، وأنّهُ لا يَسْتَطيعُ البَشَرُ أنْ يَأتوا بمِثْلِه، ولا بعَشْرِ سوَرٍ ولا بسورَةٍ من مِثْلِه لأنَّه بفصاحَتِه وبَلاغتِه ووَجازتِه وحَلاوتِه واشْتِمالِه على المَعاني الغَزيرَةِ النّافعة في الدُّنْيا والآخرةِ، لا يَكونُ إلّا من عند اللّه ﷻ الّذي لا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ في ذاته ولا في صِفاته، ولا في أفْعالِه ولا في أقْوالِه، فكَلامُه لا يُشْبِهُ كلامَ المَخْلوقينَ، ولِهذا قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾"[2]، والنَّفْيُ في الجُملة بطَريقِ الكِنايَةِ، حَيثُ إنَّه للشَّأنِ الّذي هو أبْلَغُ في النَّفي، وأعمقُ في الدّلالَة

القُرْآنُ الكَريمُ
المُعجِزَةُ الكُبْرى

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/167، 168.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/363.

على أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللّه مِن نَفْي الشَّيْءِ في ذاتِه مُباشَرةً؛ أيْ: ولَيْس مِن شَأنِ هذا القُرآنِ المُعجِز، أنْ يَخْترِعَه أو يَخْتلقَه أحَدٌ مِنَ الإنْسِ أوِ الجِنِّ أو غيرِهما؛ لأنَّ ما اشْتَمَلَ عليه مِن إعْجازٍ وبَلاغةٍ وتَشْريعاتٍ حَكيمةٍ، وآدابٍ قَويمةٍ، وهِداياتٍ جامِعَةٍ يَشْهدُ بأنَّهُ مِن كلامِ خالِقِ القوى والقُدَرِ[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالكَوْنِ المَنْفيِّ:

نَفْيُ الكَوْنِ أبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الوُجودِ

أوثِرَ التَّعْبيرُ بالكَوْنِ المَنْفيِّ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾؛ لدلالَةِ فِعْلِ الكَوْنِ على الوُجودِ، أي: ما وُجِدَ أنْ يُفْتَرى، أي: وُجودُه مُنافٍ لافْترائِه، فدَلالَةُ وُجودِه كافيَةٌ في أنَّهُ غَيْرُ مُفْتَرًى، بمعنى: لو تَدَبَّر المُتَدَبِّرُ اليَقِظُ هذا الكِتابَ لَعَلِمَ أنَّه تَنْزيلُ رَبِّ العالَمينَ، وأنَّهُ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن وضْعِ البَشَرِ؛ لأنَّه فوقَ طاقَتِهم[2]. فلَم يَنْفِ مُجَرَّدَ فِعلِ الافْتراءِ، بَل نَفى احْتمالَ فِعلِه أصْلًا، وأخْبَرَ بأنَّ مِثلَ هذا لا يقَعُ، بَل يَسْتَحيل وقوعُهُ، فيَكونُ المعنى: ما يُمكِنُ ولا يَحْتَمِلُ ولا يَجوزُ أنْ يُفتَرَى هذا القُرآنُ مِن دونِ اللّه، فإنَّ الّذي يَفْتَريه مِن دونِ اللّه مَخلوقٌ، والمَخْلوقُ لا يقدِرُ على ذلِك[3]. ولَو قيلَ: وما هذا القُرآنُ مُفْتَرًى ما حَقَّقَ هذا المعنى.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ: ﴿هَٰذَا﴾:

تَفْخيمُ المُشارِ إلَيْهِ وتَعْظيمُهُ

دَلَّ اسْمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾ على اتِّصالِ السَّماءِ بالأرْضِ، وأنَّ هذا الكِتابَ المُشارَ إلَيه قريبُ عهْدٍ بوَحْيٍ، بلْ ما زالَ جبريلُ ينزلُ بِه على قَلْبِ مُحمَّدٍ ﷺ غَضًّا طَرِيًّا، كَما فيه "تفْخيمُ المُشارِ إلَيه وتَعظيمُه، وكونُه جامِعًا للأَوْصافِ الَّتي يَستَحيلُ وُجودُها فيه أنْ يَكونَ مُفترًى"[4].

(1) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 7/92.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/168.
(3) ابن تَيْميّة، الجواب الصّحيح: 5/425.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/57.

لَطيفَةُ إيثارِ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾:

قولُه: ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ خبرُ ﴿كَانَ﴾، والتَّقديرُ: وما كانَ هذا القُرآنُ افْتِراءً، أي: ذا افْتراءٍ، إذْ جُعِل نَفْسُ المَصْدرِ مُبالَغةً في المعنى[1]. وأوثِرَ التَّعبيرُ بالمَصدرِ المُؤَوَّلِ ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ على التَّعبيرِ باسْمِ المَفْعولِ (مُفتَرًى)؛ لتَصويرِ قُبْحِ أنْ يُصْنَعَ اصْطناعًا مِن عِنْدِ غيرِ اللهِ، وبَيانِ أنَّ ذلكَ مُستحيلٌ، وغيرُ مُتَصوَّرٍ[2]؛ لأنَّ المُفتَرى هوَ الَّذي يَأْتي بِهِ البَشَرُ، والقُرآنُ مُعْجِزٌ على كُلِّ حالٍ.

المُفْتَرَى هوَ الَّذي يَأْتي بِهِ البَشَرُ، والقُرآنُ مُعْجِزٌ على كُلِّ حالٍ

نُكْتَةُ بناءِ الفِعْلِ ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ للمَفْعولِ:

جاءَ الفِعلُ مَبنيًّا لما لَم يُسَمَّ فاعِلُه لدَعْوتِهم للانْشِغالِ بنَفْيِ تُهمةِ الافتِراءِ دونَ النَّظرِ للمُفْتَري، فالفِعلُ مَنْفيٌّ دونَ النَّظرِ لمَنْ يَقعُ مِنْه ذلكَ.

معنى حَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾، ودلالَتُه:

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابْتدائيَّةٌ مَجازيَّةٌ للتَّوكيدِ مُتَعَلِّقَةٌ بـ ﴿يُفْتَرَىٰ﴾، أي: أنْ يَفْتَريَه على اللهِ مُفْتَرٍ. ومعنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: غَيْرُ اللهِ[3]. والمُرادُ تَأكيدُ تَنْزيهِ الذّاتِ العليَّةِ.

تَأكيدُ تَنْزيهِ الذّاتِ العَليَّةِ عنِ التَّشبيهِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالقَيْدِ: ﴿دُونِ﴾:

﴿دُونِ﴾: اسْمٌ للمُغايِرِ، فهو مُرادِفٌ لسِوى[4]، "والدّونُ مَنزِلَةُ القَريبِ، فالقَريبُ مِن جِهَةِ سُفْلٍ، وقد عقلَتِ العَرَبُ أنَّ اسْمَ اللهِ لا يُطْلَقُ على ما نالَهُ إدْراكُ العَقْلِ، فكَيْفَ بالحِسِّ؟ فقد تَحَقَّقوا أنَّ كُلَّ ما أَدْرَكَتْهُ حَواسُّهم ونالَتْهُ عُقولُهم فإنَّه مِن دونِ اللهِ"[5].

التَّأْكيدُ على أنَّ القُرْآنَ كَلامُ الله لا سواهُ

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 6/201.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3569.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير:11/168.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/168.
(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 1/28.

بَيانٌ لكمالِ هِدايَةِ القُرآنِ الكَريمِ، وهَيمَنَتِهِ على الكُتُبِ السَّماويَّةِ السّابِقَةِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسْتِدْراكِ: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ﴾:

وَقَع الاستدراكُ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ﴾ في مَوْقِعِه المناسِبِ حيثُ اسْتدعاهُ السِّياقُ، إذْ وَقَع بَيْنَ نَقيضَيْن وهُما: الكَذِبُ والتَّصْديقُ المُتَضَمِّنُ الصِّدْقَ[1]. فـ"لَمّا كانَ إتْيانُ الأُمّيِّ - الَّذي لَم يُجالِسْ عالِمًا - بالأَخْبارِ والقِصَصِ الماضيَةِ على التَّحْريرِ دَليلًا قَطْعًا على صِدْقِ الآتي في ادِّعائِه أنَّهُ لا مُعَلِّمَ لَه إلّا اللّه، عبَّرَ بأداةِ العِنادِ فقال: ﴿وَلَٰكِن﴾؛ أيْ: كانَ كَوْنًا لا يَجوزُ غَيْرُهُ"[2]. "والتَّصديقُ في حَدِّ ذاتِه معجزةٌ مستقلَّةٌ؛ لأنَّ أقاصيصَه موافِقةٌ لما في الكُتُبِ السَّماويَّةِ المُتَقدِّمةِ، مع أنّ النَّبيَّ ﷺ لَم يَطَّلِعْ على ذلك، ولا تَدارسَه، ولا سأَلَ عنْه، ولا اتَّصلَ بمَن له عِلْمٌ بذلك"[3].

وأفادَ الاستِدراكُ بعدَ النَّفي أسلوبَ القصْرِ بالاستثناءِ بعدَ النَّفي، فهو من قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، ومؤدّاهُ قصْرُ القرآنِ على أنَّه تصديقُ الّذي بَيْنَ يَدَيْه.

القُرْآنُ الكَريمُ مُصَدِّقٌ ومُصَدَّقٌ في آنٍ واحِدٍ

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿تَصۡدِيقَ﴾:

التَّصْديقُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ يَحتملُ ثلاثةَ أوجُه:

الأَوَّل: شاهِدٌ بصِدْقِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الكُتُبِ السّابقةِ مِن التَّوْراةِ والإنْجيلِ والزَّبورِ.

الثّاني: تصديقُ الكُتُبِ الإلهيَّةِ المُنَزَّلةِ على الأنبياءِ قبلَه بما فيها مِن ذِكْرِه، والتَّبشيرِ ببِعْثَتِه ﷺ فيَزولُ عنْهُ الافْتِراءُ.

الثّالث: تصديقُه لما بَيْنَ يدَيْه مِنَ البَعْثِ والنُّشورِ والجَزاءِ والحِسابِ[4].

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 6/202.
(2) البِقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 9/121.
(3) القنّوجيُّ، فتْح البيان: 6/63.
(4) الماورديُّ، النُّكت والعيون: 2/345.

والمصدرُ في قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مضافٌ إمّا لفاعِلِه أو مَفْعولِه، وهذا يجعلُ القرآنَ الكريمَ مُصَدِّقًا ومُصَدَّقًا في آنٍ واحدٍ، فجَمَعَتِ الإضافةُ لهُ بيْنَ الوَصفيْن، بيانُ ذلكَ أنّه في جَعْلِ الإضافَةِ للمَفْعولِ مُبالَغَة في نَفْيِ الافْتِراءِ عنْه؛ لأنَّ ما يَثْبُتُ ويَظْهَرُ بِه صِدْقُ غَيْرِهِ فهو أوْلى بالصِّدْقِ. ووَجْهُ كَوْنِه مُصَدِّقًا لَها أنَّهُ دالٌّ على نُزولِها مِن عِنْدِ اللّه تعالى ومُشْتَمِلٌ على قَصَصِ الأوَّلينَ حَسْبَما ذُكِرَ فيها، وهو مُعْجِزٌ دونَها فهو الصّالِحُ لأنْ يَكونَ حُجَّةً وبُرْهانًا لغَيْرِهِ لا بالعَكْسِ[1]. لذا أوثِرَ التَّعبيرُ بالمصدرِ؛ لأنَّ الوصفَ به صالِحٌ للْأمرَيْن؛ حيثُ إنَّه يَقْتَضي فاعِلًا ومَفْعولًا، كما أنَّ التَّعبيرَ بالمصدرِ فيه تَنْويهٌ ببُلوغِ القرآنِ غايَةً في الصِّدْقِ ونَفْيِ الافتراءِ، وكذلك التَّفصيلِ والبيانِ حَتَّى اتَّحَدَ بأجْناسِها[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾:

التَّـصْـديـقُ هـوَ بَيانُ الصِّدْقِ

المُرادُ مِنَ المَوْصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ الجِنْسُ. وعَنى بالتَّصْديقِ بَيانَ الصِّدْقِ وهو مُطابَقَةُ الواقِعِ وإظْهارُه، والتَّعبيرُ بالاسم المَوصولِ يُبيِّنُ قوَّةَ ارتباطِ القرآنِ بالكُتبِ السَّماويَّةِ السّابقةِ عليْه، كما أنَّه يقْتَضي جملةَ صِلَةٍ تَأْتي بعدَه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ في: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾:

هَيۡمَنَةُ القُرْآنِ الكَريمِ عَلى الكُتُبِ السّابِقَةِ

قولُه: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ كِنايةٌ عن الكُتُبِ السَّماويَّةِ المُتَقَدِّمةِ على القُرآنِ الكريمِ. وفي التَّعبيرِ بهذِهِ الكِنايةِ إشارَةٌ إلى العَلاقةِ الوثيقةِ بَيْنَ هذه الكُتبِ مِن حيثُ كونُها مِن عندِ اللّه. وفي التَّعبيرِ أيضًا بقولِه: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ إشْعارٌ بهَيْمَنَةِ القرآنِ الكريمِ على هذه الكتبِ السّابقةِ، وفيهِ كذلك إيحاءٌ باتِّحادِ مَصدرِها، وتصديقِه للصَّحيحِ منها، "وقولُه: ﴿ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فيهِ نوعُ مَجازٍ لأنَّ ما بَيْنَ

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/118.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/169.

يَدَي الشَّيْءِ يكونُ أمامَه، فوَصَف سبحانه ما مضى من الكُتُب بأنَّها بين يَدَي القرآنِ؛ لشدَّةِ ظهورِها واشْتهارِها، ومعنى تصديقِ القرآنِ للكتبِ السّابقةِ: تأْييدُه لما اشتملتْ عليهِ من دعوةٍ إلى وَحدانيَّةِ اللّٰه ﷻ ومن أمرٍ باتِّباعِ الرَّسولِ ﷺ عند ظُهورِه"(1).

دلالَةُ عَطْفِ التَّفْصيلِ على التَّصْديقِ:

القُرآنُ الكَريمُ بَلَغَ الغايَةَ بَيانًا وتَفْصيلًا

المقصودُ بالتَّفصيلِ البيانُ، وقدْ دَلَّ عطْفُ التَّفصيلِ على التَّصديقِ في قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على بُلوغِ القرآنِ الغايَةَ في ذلك حَتّى اتَّحَدَ بجِنْسِها "ومعنى كَوْنِ القُرْآنِ تَفْصيلًا للكُتُبِ السّالفةِ أنَّهُ مُفَصِّلٌ لمُجْملها، وناسِخٌ لما لا مَصْلَحَةَ للنّاسِ في دَوامِ حُكْمِه، ودافعٌ للْمُتَشابِهاتِ الَّتي ضَلَّ بها أهْلُ الكِتابِ، فكُلُّ ذَلِكَ داخِلٌ في معنى التَّفْصيلِ، وهو معنى قوله تَعالى: ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾"(2).

دلالَةُ اللّامِ في: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

تَفْسيرُ المَقْصودِ مِنْ تَفْصيلِ الكِتابِ

اللّامُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للجِنْسِ، فيَشملُ الكُتُبَ السَّماويَّةَ كُلَّها، وهو الأَظْهَرُ لبيانِ منزلةِ الكتابِ العزيزِ لشُمولِ دلالتِه كلَّ الكتبِ المُنَزَّلةِ، وقيلَ: المُرادُ ما بُيِّنَ في القُرآنِ مِن الأحْكام، فيَكونُ المُرادُ بالكِتابِ: القُرْآنَ(3).

مَوْقِعُ الجُملَةِ: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، ودلالَتُهُ:

رَيْبُ المُرْتابينَ في القُرْآنِ رَيْبٌ مَزْعومٌ مُدَّعًى

جُملَةُ ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ تَحتملُ وجوهًا: فإمّا أنْ تكونَ حالًا من ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ داخلًا في حَيِّزِ الاستدراكِ كأنّهُ قيلَ: ولكنْ كان تصديقًا وتفصيلًا مُنْتَفيًا عنهُ الرَّيبُ كائنًا من رَبِّ العالَمين، وإمّا أنْ تكونَ مُعْترِضَةً بَيْن ﴿تَصۡدِيقَ﴾ وبَيْن ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إذ التَّقديرُ: ولكنْ

(1) طنطاويُّ، التَّفسير الوسيط: 7/92.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/169.

(3) الشَّوكانيّ، فتْح القدير: 2/626.

تصديقُ الَّذي بيْن يديْه وتفصيلٌ مِنْ ربِّ العالَمين لا ريبَ فيه[1]. وإمّا أنْ تكونَ مُسْتَأْنَفَةً لنَسْفِ تُرَّهاتِ المُتقوِّلين الَّذينَ زَعموا أنَّ القرآنَ الكريمَ مُفْتَرًى باقْتِلاعِ دَعْوى افْترائِه، وأنَّها مِمّا لا يَروجُ على أهْلِ الفِطَنِ والعُقولِ العادِلَة، فالرَّيْبُ المَنفيُّ عنْهُ هو أنْ يَكونَ مِن أحْوالِه في ذاتِهِ ومُقارَناتِهِ ما يُثيرُ الرَّيْبَ، ولِذَلِكَ كانَ رَيْبُ المُرْتابينَ فيه رَيْبًا مَزْعومًا مُدَّعًى، وهُم لو راجَعوا أنْفُسَهم لَوَجَدوها غَيْرَ مُرْتابةٍ[2] وفُصِلَت جُملَةُ ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ عمّا قَبْلَها؛ لأنّها مؤكِّدةٌ لهُ ومقرِّرةٌ لمضمونِه، فبيْنَها وبيْنَ ما قبلها كمالُ اتِّصالٍ، يُقوّي المعنى ويؤكِّدُه، وكلُّ ذلك يَتظاهَرُ على بيانِ مَنزلةِ القرآنِ ونفْيِ الافتراءِ عنهُ، وكلُّ وجهٍ مِن وُجوه مَوقعِ الجملةِ يُضيفُ مَعْنًى لا يَتعارضُ مع الوجهِ الآخَرِ، وهذا مِن ثَراءِ المَعنى وجلالِه تَناسُبًا مع جلالِ القرآنِ الكريمِ المعجزةِ الخالدةِ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ النّافي للارْتِيابِ مِنْ جَميعِ العالَمينَ:

تَنْزيلُ ارْتِيابِ المُعارِضينَ مَنْزِلَةَ العَدَمِ، وعَدَمُ الاعْتِدادِ بِهِ

قدْ يَسألُ سائلٌ: كَيف قيلَ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على سبيلِ الاسْتغراقِ وقد ارتابَ فيهِ كثيرٌ مِن الضّالّين والمُشْرِكين بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة: 23]؟

والجوابُ: أنَّه نُزِّل ارتيابُ هؤلاءِ الضّالّين المُنْكرين المُعارِضين مَنزلَةَ العَدَمِ، وعَدمُ الاعْتدادِ بهِ وكأنّه لَم يوجدْ أصلًا؛ لكونِه ممّا لا يَنبغي أنْ يكونَ لوجودِ ما يدلُّ على نَقْضِه ونَفْيِه؛ لأنَّ في دلائلِ كمالِ الكِتابِ المبينِ وإعجازِه ما لَو تأمَّلوه لَزال ريْبُهم، هذا توجيهٌ. ويُمكنُ أنْ يكونَ المعنى: أنّه لَيس في القُرآنِ الكريمِ ما يوجبُ الرّيبةَ في أنّه مِن عندِ اللّه تعالى فلا يوجدُ في القرآنِ كلامٌ يناقضُ بعضُه

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/169.

بعضًا، أو يخالفُ الحقيقةَ، "وتأويلُ هذا المعْنى على هذا الوجهِ فيهِ تعريضٌ بكُتُب أهلِ الكتابِ الّتي تَعَرَّضتْ للتَّحريفِ والتَّبديلِ على أَيْدي هؤلاءِ"[1].

مَوْقِعُ: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ودلالَتُهُ:

تتنوَّعُ الإعْراباتُ لهذِهِ الجُملَةِ لتَنَوُّعِ المَعاني

قولُه: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بيانٌ لمصدرِ القرآنِ الكريم، وأنَّه لا شَكَّ في كَوْنِه مُنَزَّلًا من رَبِّ العالَمين.

ويجوزُ فيهِ أوجُهٌ، أحدُها: أنْ يكونَ متعلِّقًا بـ ﴿تَصۡدِيقَ﴾ أوْ بـ ﴿وَتَفۡصِيلَ﴾، وتكون المسألةُ من بابِ التّنازع.

والوجهُ الثّاني: أنَّ ﴿مِن رَّبِّ﴾ حالٌ ثانيةٌ.

والثّالثُ: أنَّه متعلِّقٌ بفِعلٍ مُقَدَّر، أي: أُنْزِل للتَّصديقِ من ربِّ العالَمين[2].

وأضافَ ابنُ عاشور وجهًا رابعًا فقال: "ومَوْقِعُ قوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُحْتَمِلٌ وُجوهًا، أظْهَرها أنَّهُ ظَرْفٌ مُسْتَقِرٌّ في مَوْضِعِ الخَبَرِ عنْ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ هو ضَميرُ القُرْآنِ، والجُملَةُ اسْتِئْنافٌ ثانٍ، و﴿مِن﴾ ابْتدائيَّةٌ تُؤْذِنُ بالمَجيءِ، أي: هو وارِدٌ من رَبِّ العالَمينَ، أي: من وحْيِهِ وكَلامِه، وهذا مُقابِلُ قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾"[3]. والتَّقدير: هو مِنْ ربِّ العالَمين، والجملةُ استئنافٌ تعليليٌّ لنَفْيِ الرَّيبِ عَنِ القرآنِ الكريم.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

القُرْآنُ الكَريمُ لَيسَ بمَخْلوقٍ؛ لأنَّهُ كَلامُ الله

الإضافةُ مُشيرةٌ إلى أنّ القرآنَ هو كلامُ مَنْ عمَّتْ نِعَمُهُ المَخلوقين، وكما أنّه لا رَيبَ في كونِه مُنْعِمًا فلا رَيْبَ في كونِ القرآنِ كلامَهُ، وقدْ دَلَّت الإضافةُ في قوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على أنَّه تعالى فوقَ خَلْقه كُلِّهم، وأنَّ القرآنَ نَزَلَ مِن عندِه، وأنَّه تعالى تَكَلَّم بِه حقيقةً؛ لقولِه:

(1) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 25.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/203.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/169.

﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولَو كان غيرُه هو المُتكلِّمَ بِهِ لَكان مِنْ ذلكَ الغَيرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [النّحل: 102]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الزّمر: 1]، وقوله: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فُصِّلت: 42]. وما كان مِن اللّه فلَيس بمَخْلوقٍ لأنَّه كلامُ اللّه، وكلامُ اللّه قديمٌ أزَليٌّ(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(افْتَرى) و(اخْتَلَقَ):

الافْتِراءُ لا يَكونُ إلّا في الإفْسادِ

الفَرْي: قَطْعُ الجِلْدِ للخَرْزِ والإصْلاحِ. والإفْراءُ للإفْسادِ. والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفْسادِ أكْثَرُ، وكَذلكَ اسْتُعْمِلَ في القُرْآنِ في الكَذِبِ والشِّرْكِ والظُّلْمِ. نَحْو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النّساء: 48]، ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [النّساء: 50](2).

الخَلْقُ أَصْلُهُ: التَّقْديرُ المُسْتَقيمُ، ويُسْتَعْمَلُ في إبْداعِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ ولا احْتِذاءٍ، قالَ تَعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]. والخَلْقُ لا يُسْتَعْمَلُ في كافَّةِ النّاسِ إلّا عَلى وَجْهَيْنِ: أحدهما في معنى التَّقدير، والثّاني: في الكَذِب(3). واخْتَلَقَ القولَ: ادَّعاه وافتَراهُ، ويُقال: هذا خَبَرٌ مُختلَقٌ ولا أساسَ له مِن الصِّحَّة.

والفرقُ بَيْن الافتراءِ والاختلاقِ أنَّ الافتراءَ لا يكونُ إلّا في الإفسادِ، والاخْتلاقُ اسمٌ خُصَّ بهِ الكَذِبُ وذلك إذا قُدِّرَ تقديرًا يوهِمُ أنّه صِدْقٌ.

التَّفْصيلُ والتَّبْيينُ:

التَّبْيينُ يَكونُ بدَليلٍ وحُجَّةٍ دامِغَةٍ، ولا يُشْتَرَطُ هذا في التَّفْصيلِ

تَفْصيل: تَدُلُّ المادَّةُ عَلى تَمييزِ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ وإبانَتِه عنه. يُقالُ: فَصَلْتُ الشَّيْءَ فَصْلًا. والفَيْصَلُ: الحاكِمُ. والفَصيلُ: وَلَدُ

(1) ابن القيِّم، بدائع التّفسير: 6/128.
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (فري).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلق).

النّاقَةِ إذا افْتُصِلَ عنْ أُمِّه. والمِفْصَلُ: اللِّسانُ، لأنَّ بِهِ تُفْصَلُ الأُمورُ وتُمَيَّزُ[1]. وأصْلُ الفَصْلِ: إبانَةُ الشَّيْءِ مِن الشَّيْءِ وقَطْعُه حتَّى يَكونَ بَيْنَهُما فُرْجَةٌ[2].

تَبْيين: التَّبْيينُ: الكَشْفُ والإيضاحُ، يُقال: بانَ الحَقُّ، وأَبانَ، وتَبَيَّنَ: إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، وبَيَّنَ الشَّيْءَ، أي: جَعَلَهُ واضِحًا لا غُموضَ فيهِ ولا خَفاءَ. وضِدُّهُ: الكِتْمانُ والإخْفاءُ. والتَّبْيينُ أيضًا: الإفْصاحُ. ويَأْتي بمَعنى: الفَصْلِ والتَّمييزِ. وأَصْلُه مِن البَيْنِ، وهو: البُعْدُ والفِراقُ، فيُقالُ: بانَ الشَّيْءُ، أي: بَعُدَ. ومِن مَعانيهِ أيضًا: الإفْهامُ، والتَّفْسيرُ، والتَّفْصيلُ، والشَّرْحُ، والإظْهارُ، والتَّثَبُّت[3].

يَشترِكُ مدلولُ اللَّفظَيْنِ في الدّلالةِ على الإيضاحِ، ويَفترقانِ في أنَّ التَّفصيلَ أكثرُ إطنابًا مِن الإيضاحِ. كَما أنَّ التَّبْيينَ يكونُ بدليلٍ وحُجَّةٍ دامغةٍ، ولا يُشترطُ هذا في التَّفصيلِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فصل).

(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (فصل).

(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (بين).

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨﴾ [يونس: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانْتِقالُ مِنْ زَعْمٍ إلى زَعْمٍ لَجاجٌ وعِنادٌ مِنَ المُشْرِكِينَ

وَجْهُ مناسبَةِ الآيةِ الكريمةِ لما قبلَها أنَّه: "لَمَّا نفى اللّه تعالى أنْ يكونَ القُرآنُ مُفتَرًى، بل جاء مُصَدِّقًا لما بَيْنَ يَدَيه مِن الكُتُب، وبيانًا لما فيها، ذكَرَ هنا أعظَمَ دَليلٍ على أنَّه مِن عندِ اللّه، وأقامَ البرهانَ القاطعَ على ذلك، وهو الإعجازُ الَّذي اشتمَلَ عليْه، فتحدَّى جميعَ الخلْقِ بسورةٍ واحدةٍ مثلِه، فأبطلَ بذلك دعْواهم افتراءَه"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱدۡعُواْ﴾: دَعا إلى الأمرِ يَدعو دُعاءً: رَغَّب فيه. ودَعا إلى الصَّلاةِ دُعاءً: أذَّنَ. ودَعا لفُلانٍ: رَجا لهُ الخَيْرَ. ودَعا بالشَّيْءِ: طَلَبَ إحْضارَهُ، ودَعا اللّه: ابْتَهَلَ إلَيْه(2). ويَدلُّ المعنى المِحْوَريُّ للمادَّةِ على جَذْبِ الشَّيْءِ أوْ مُحاوَلةِ ضَمِّهِ إلى حَيِّزٍ أوْ أمرٍ، كَجَذْبِ اللَّبَنِ إلى حَيِّزِه، وجَذْبِ النّاسِ إلى الوَليمةِ والاجْتِماعِ، وكلُّ ما عُدّيَ بـ (إلى) أوْ باللّامِ فهوَ مِنَ الدَّعْوةِ إلى دينٍ أوْ عَمَلٍ. وقدْ يَأْتي بَعضُ ما هوَ بهذا المعنى مُعَدًّى بنَفْسِه(3). والمعنى المَقصودُ هُنا: النِّداءُ استِحْضارًا واسْتِنهاضًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَحَدَّتْهُمُ الآيَةُ بكُلِّ قوَّةٍ ووُضوحٍ أنْ يَأْتوا بسورَةٍ مِنْهُ ولو تَعاضَدوا واحْتَشَدوا

يقول المُكَذِّبون عنادًا وبَغْيًا: إنَّ النَّبيَّ ﷺ افْترى القرآنَ من عِنْدِ نَفْسه، واخْتَلَقه على اللّه، فقُلْ لَهُم على سبيلِ التَّبكيتِ والتَّحدّي: إنْ كنتُم صادِقين في ادِّعائِكم فلْتأتوا - وأنتم أهلُ الفصاحةِ والبلاغةِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: (دعو)، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/512.
(2) مجمع اللُّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الكبير: (دعو).
(3) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).

- بسورَةٍ واحدةٍ مِن جِنْسِ هذا القرآنِ في بلاغتِه وفصاحتِه وإعجازِه، واستعينوا بمَن يُعاونُكم على ذَلِك بكُلِّ مَنْ قَدَرْتُم علَيْهِ مِنْ إنْسٍ وجانٍّ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ ﴿أَمْ﴾ ومَعْناها في: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾:

"﴿أَمْ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، وهي مُقَدَّرَةٌ بِـ (بَلْ)، أي: بَلْ يَقولونَ، و(بَلِ) انْتقاليَّةٌ. وقيلَ: إنَّ ﴿أَمْ﴾ مُتَّصِلَةٌ ومُعادِلُها مُقَدَّرٌ، أي: أتُقِرّونَ به، أم تَقولونَ افْتَراهُ، وقيلَ: هي اسْتِفْهاميَّةٌ بمعنى الهَمزَةِ، وقيل: عاطِفَةٌ بمعنى الواوِ"[1]، والأرجحُ الأوَّلُ، وكونُ "(أَم) للإضْرابِ الانْتقاليِّ مِنَ النَّفْيِ إلى الاسْتِفْهامِ الإنْكاريِّ التَّعْجيبيِّ، وهو ارْتِقاءٌ بإبْطالِ دَعْواهم أنْ يَكونَ القُرْآنُ مُفْتَرًى مِن دونِ اللهِ، ومِن بَديعِ الأُسْلوبِ وبَليغِ الكَلامِ أنْ قُدِّمَ وصْفُ القُرْآنِ بما يَقْتَضي بُعْدَهُ عنِ الافْتِراءِ وبما فيه مِن أجَلِّ صفاتِ الكُتُبِ، وبِتَشْريفِ نِسْبَتِهِ إلى اللهِ تعالى ثُمَّ أعْقَبَ ذَلِكَ بالاسْتِفْهامِ عنْ دَعْوى المُشْرِكينَ افْتِراءً ليَتَلَقَّى السّامِعُ هذه الدَّعْوى بمَزيدِ الاشْمِئْزازِ والتَّعَجُّبِ مِن حَماقَةِ أصْحابِها"[2].

تَهْيِئَةُ السّامِعينَ ليَتَلَقّوا هذه الدَّعْوى بمَزيدِ الاشْمِئْزازِ والتَّعَجُّبِ مِنْ حَماقَةِ أصْحابِها

الاسْتِفْهامُ المَحْذوفُ ودلالَتُهُ:

الاستفهامُ المحذوفُ لإنكارِ الواقعِ واسْتبعادِه، والتَّقديرُ: وما كانَ ينبَغي ذلك، وأفادَ أيضًا التَّقْريعَ والتَّوْبيخَ والتَّعجيبَ، ولمَّا اخْتَصَّتْ ﴿أَمْ﴾ بعَطْفِ الاستفهامِ كانَ الاستِفهامُ مُقَدَّرًا مَعَها حَيْثُما وقَعَتْ، فالاستفهامُ الَّذي تُشْعِرُ به ﴿أَمْ﴾ استِفهامٌ تَعْجيبيٌّ إنكاريٌّ، والمعنى: بَلْ أيَقولونَ افْتَراهُ بعدما تَبَيَّنَ لَهم مِنَ الدَّلائلِ على صِدْقِه وبَراءَتِه مِنَ الافْتِراءِ. ثُمَّ أعْقَبَ ﴿أَمْ﴾ "بالاسْتِفْهامِ عنْ دَعْوى المُشْرِكينَ افْتِراءً ليَتَلَقَّى السّامِعُ هذه الدَّعْوى بمَزيدِ الاشْمِئْزازِ والتَّعَجُّبِ من

تَبَيُّنُ الدَّلائلِ وعَدَمُ اتِّباعِها يَقْتَضي التَّوْبيخَ والتَّقْريعَ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/119.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/170.

حَماقَةِ أَصْحابِها، فلِذلِكَ جُعِلَتْ دَعْواهُمُ افْتِراءَهُ في حَيِّزِ الاستفهامِ الإنْكاريِّ التَّعْجيبيِّ"[1].

نُكْتَةُ العُدولِ عَنِ الماضي إلى المُضارِعِ في: ﴿يَقُولُونَ﴾:

اسْتِحْضارُ الماضي تَبْشيعٌ للجَرائمِ

عُدِلَ عن التَّعبيرِ بالماضي (قالوا) إلى المضارعِ في: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؛ للدَّلالةِ على تَكْرارِ هذا القولِ مِن المُشْرِكين لغبائِهم، وبَلادةِ عُقولِهم، واستحضارًا للماضي تَسجيلًا عَلَيْهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِضَميرِ الغَيْبَةِ في: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾:

مُراعاةُ مَقامِهِ الشَّريفِ ﷺ

أوثِرَ التَّعبيرُ بضميرِ الغَيْبَةِ في ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ على ما لوْ قيلَ: افتريتَه بتاءِ الخِطابِ، مراعاةً لمقامه الشّريفِ ﷺ باجتنابِ مواجهتِه بأنَّه مُفْتَرٍ حتَّى في سياقِ النَّفي[2].

دلالَةُ الأَمرِ ﴿قُلْ﴾:

مُواجَهَةُ المُشْرِكينَ بما يَنْسِفُ مَقالَتَهُم

في التَّعبيرِ بالأمرِ: ﴿قُلْ﴾ أمرٌ إلهيٌّ للرّسول ﷺ بإجابةِ المُشْرِكين تَبْكيتًا لَهُم، وإظْهارًا لبُطْلانِ تَقَوُّلِهم، ومواجهَتِهم بما يَنْسِفُ مَقالتَهم، وهو فِعلٌ يكْثُرُ في القرآنِ الكريمِ في قضايا مهمَّةٍ تتطلَّب متابعةَ النَّبيِّ ﷺ بنفسِه.

مَعْنى الفاءِ ودلالَتُها في: ﴿فَأْتُواْ﴾:

الإشارَةُ إلى سُرْعَةِ الرَّدِّ عَلى دَعْوى المُشْرِكينَ، وإبْطالِ قولِهم، وتَحَدّيهِم في مَيْدانِ نُبوغِهِم

الفاءُ في قولِه: ﴿فَأْتُواْ﴾ فاءُ الفَصيحة، وهي تدلُّ على شَرْطٍ محذوفٍ تقديرُه: إنْ كنتُم تَزْعُمون أنّ محمَّدًا ﷺ اختلقَ القرآنَ وافْتراه فهو بَشَرٌ، وأنتُم بَشَرٌ مثلُه فأْتوا بسورةٍ من جِنْسِ ما افتراه. وفي الفاءِ إشارةٌ إلى سرعةِ الرَّدِّ على دَعْوى المُشْرِكين، وإبطالِ قَوْلِهم، وتَحدّيهم في مَيْدانِ نُبوغِهم وتَفَوُّقِهم وهُم أربابُ الفصاحةِ، وفرسانُ البيانِ. وفي التَّعبيرِ بالفاءِ أيضًا إلْماحٌ إلى فوريَّةِ تلقينِ الرّسولِ الكريمِ ﷺ لحُجَّتِه، وإلى مَعيَّةِ اللّه تعالى له ﷺ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/170.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ: 2/56.

دلالةُ فِعْلِ الأَمرِ في: ﴿فَأْتُواْ﴾:

المُشْرِكونَ عَجَزَةٌ عَنِ المُعارَضَةِ

الغرضُ من التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ التَّعجيزُ والتَّحَدّي، وإسكاتُ الخَصْم، ولكنَّ التّعبيرَ بفعلِ الأمرِ جعلَهم كالمأمورِ بالإتْيان، فيَعْمَدون إلى التَّنْفيذِ فلا يستطيعون، فيكون ذلك أشدَّ تبكيتًا وتقريعًا.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالإِتْيانِ في: ﴿فَأْتُواْ﴾:

تَناسَبَ التَّعْبيرُ بالإِتْيانِ مَعَ إِرْخاءِ العِنانِ في التَّحَدّي للمُنْكِرينَ

أوثِرَ التَّعبيرُ بمادَّةِ الإتْيان؛ لأنَّ الإتيانَ مَجيءٌ فيه سُهولةٌ كما قال الرّاغبُ[1]، وهذا المعنى يَتناسبُ مع إرخاءِ العِنانِ في التَّحَدّي للمُنكرين، فضلًا عَن أنّ الإيتاءَ يُستَعْمَلُ كثيرًا في القضايا المهمّةِ والعظيمةِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّنْكيرِ في: ﴿بِسُورَةٍ﴾:

اتِّساعُ مَجالِ المُعارَضَةِ، والتَّحَدّي أَمامَ الكُفّارِ

التَّنكيرُ في قوله: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ﴾ يُمكِنُ أنْ يكونَ للتَّعميم ليَشملَ أيَّ سورةٍ يَختارونها، ويُمكِنُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّنويع؛ للدّلالةِ على اتِّساع مجالِ المعارَضةِ والتَّحدّي أمامَ الكفّار، حيثُ طولِبوا بالإتيانِ بمثلِ بعضِ سوَرِه، أي: لا يطالبُهم بسورةٍ معيَّنةٍ، وإنّما أباحَ لهم أنْ يأتوا بأيّةِ سورةٍ منْ مثلِ سوَرِ القرآنِ، حتى ولَوْ كانت كأقلِّ سورةٍ منه. وهذا فيهِ ما فيهِ من التَّبكيتِ، والتَّخجيلِ لَهُم لارتيابِهم في القرآنِ.

مَدْلولُ الباءِ: ﴿بِسُورَةٍ﴾، ودلالَةُ الصِّفَةِ: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾:

اسْتِنْفارُ هِمَمِ المُعانِدينَ للتَّحَدّي بسورَةٍ مِنْ جِنْسِ القُرْآنِ الكَريمِ

تَجاوبتِ الباءُ بدلالتِها على المُلابسةِ واللُّصوقِ والالتزامِ مع التَّحدّي في الآيةِ الكريمةِ، حيثُ يُلْمَحُ فيها إرشادٌ لهؤلاءِ المُشْركين المُعاندين بدوامِ الوقوفِ أمامَ القرآنِ، وبمُعاودةِ عرْضِ سوَرِه الكريمةِ أمامَ عقولِهم، وتَقْليبِها سورةً سورةً؛ ليَختاروا منْها بَعْدَ عُكوفٍ وتَأنٍ طويليْن ما يستطيعون به معارضةَ القرآنِ الكريمِ، بَلْ لَيس منْه نفسُه بل بسورةٍ من جِنْسِه، أي: شَبيهَةٍ بهِ في البَلاغةِ وحُسْنِ النَّظْمِ كما تَدُلُّ عليه الصِّفةُ ﴿مِّثْلِهِۦ﴾، وفي هذا تبكيتٌ لَهُم

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).

وتخجيلٌ، حيثُ إنَّهم يوَجَّهون إلى الطُّرُقِ الّتي يُظَنُّ أنَّها تُعينُهم على المعارَضة[1].

بَلاغَةُ المتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

التَّرَقّي في إلْزامِ الحُجَّةِ وتَوْضيحِ المَحَجَّةِ

مَن يَتَأمَّلُ آياتِ التَّحدّي في سوَرِ: الإسْراء، وهود، ويونسَ، وهي سوَرٌ مَكّيَّةٌ، يَجِدْ أنَّ التَّحدّيَ تَدرَّجَ وتَرَقّى، فجاءَ أوَّلًا بمِثْلِ القرآنِ في الإسراءِ، ثُمَّ خُفِّفَ إلى عشْرٍ في هودٍ، ثُمَّ خُفِفَ إلى سورةٍ واحدةٍ منهُ في يونسَ. أمّا في آيةِ البقرةِ: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة: 23] فقدْ وصَلَ التَّرقّي إلى قِمَّتِه؛ لذا أُثْبِتَتْ ﴿مِّن﴾ فيها؛ لتدلَّ على التَّبعيضِ، فتُرْخي العنانَ، وليَصِلَ التَّساهلُ إلى ذُرْوتِه، وهذا يتناسبُ وجلالَ الخالقِ سبحانَه، وممّا يُساعِدُ على إدراكِ قوَّةِ هذا التَّحدّي وغايتِه في آيةِ البقرةِ ما أُتْبِعتْ به مِن قولِه: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾، فهذا نَفْيٌ وتأكيدٌ لعَدمِ القدرةِ على المعارضةِ حالًا ومآلًا[2]. فآيةُ البقرةِ تختلفُ عن مَثيلاتِها مِن حيثُ المُخاطَبون، فهي للنّاسِ كافَّةً، وتختلفُ من حيثُ السّياقُ والأسلوبُ، حيثُ جاءتْ ﴿مِّن﴾ فيها، وإلى مُجْمَلِ هذا أشارَ ابنُ كثيرٍ فقال: "وهذا هوَ المَقامُ الثّالِثُ في التَّحَدّي، فإنَّهُ تَعالى تَحَدّاهُم ودَعاهُم، إنْ كانوا صادِقينَ في دَعْواهُم، أنَّهُ مِنْ عِنْدِ مُحَمَّد، فلْتُعارِضوهُ بنَظيرِ ما جاءَ بِه وحْدَه واسْتَعينوا بمَنْ شِئْتُم، وأخْبَرَ أنَّهُم لا يَقْدِرونَ على ذَلِكَ، ولا سَبيلَ لَهُم إلَيْه، فقالَ تَعالَى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]، ثُمَّ تقاصَرَ معهم إلَى عشْرِ سوَرٍ مِنْهُ، فقالَ في أوَّلِ سورَةِ هودٍ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ

(1) الرّوينيّ، مِن غريب البلاغة القرآنيّة، ص: 117.

(2) الرّوينيّ، مِن غريب البلاغة القرآنيّة، ص: 119 - 118.

﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود: 13]، ثُمَّ تنازَلَ إلى سورَةٍ، فقالَ في هذه السّورَةِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وكَذا في سورَةِ البَقَرَةِ - وهيَ مَدَنيَّةٌ - تَحَدّاهُم بسورَةٍ مِنْهُ، وأخْبَرَ أنَّهُم لا يَسْتَطيعونَ ذَلِكَ أبَدًا، فقالَ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾ الآيَةَ. [البَقَرَة: 24][1].

بَلاغَةُ العَطْفِ في: ﴿وَٱدْعُوا۟﴾:

العطفُ هنا اقْتَضى تَرَقّيًا في التَّحدّي بأنْ يَدعوا مَنْ أرادوا مِن الإنْسِ والجنِّ، وأنْ يَحْتَشِدوا ويَتَعاضَدوا لأنْ يَفعلوا ذلك.

غَرَضُ فِعْلِ الأَمرِ في: ﴿وَٱدْعُوا۟﴾:

طَلَبُ دَعْوَةِ نُصَرائِهِم لِيَشْهَدوا كَذِبَهُم في ادِّعائِهِم، ولِبَيانِ كَمالِ التَّحَدّي

الأمرُ في قولِه: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾؛ لتوكيدِ كمالِ التَّحدّي، وإرخاءِ العِنانِ في قولِه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾، حيثُ أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأنْ يَأْذَنَ لهم بأنْ يَسْتَعينوا بمَنْ يَسْتَطيعون مُعاوَنَتَهم في هذا التَّحدّي. والغرضُ من الأمرِ التَّعجيزُ والإفحامُ "ودعوةُ هؤلاءِ النُّصراءِ لأمرَيْن: أوّلُهما: ليَشهدوا كَذِبَهم في ادِّعائِهم. وثانيهما: لينتصروا بهم ويكونوا قوَّةً معهم يُظاهِرونَهم فيما يَدَّعون، ولكنَّهم مع ذلك لا يُمكِنُهم أنْ يأتوا بقرآنٍ مثلِه كقولِه تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ٨٨﴾ [الإسراء: 88]"[2].

مَعْنى: ﴿مَن﴾:

اسمٌ مَوصولٌ أفادَ الإبهامَ والعمومَ؛ ليطْلَقَ لهُم العِنانَ في الاسْتعانةِ بمَنْ شاؤوا مِمَّنْ يستطيعُ اقْتحامَ هذه المَفازَةِ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/364.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3/3572.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ: ﴿مِّن﴾:

استفزازٌ لمَن يتحدّى شَهادَةَ رَبِّ الأَرْبابِ وإدْماجُ تَوْبيخِهم على الشِّرْكِ

﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةٌ، والمَعنى: ادْعوا إلى المُعارَضةِ مَنْ يُعاوِنُكم ويَنْصرُكم بزَعْمِكم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿دُونِ﴾:

﴿دُونِ﴾ نقيضُ (فَوْقَ)، وهو تقصيرٌ عن الغايةِ، والدّونُ: الخَسيسُ، ثُمَّ استُعيرَ للتَّفاوتِ في المَنازلِ المعنويَّةِ تشبيهًا بالمراتِبِ الحِسّيَّة، كقولِنا: مِن دونِ فلانٍ شَرَفًا، والمعنى في الآيةِ: مِن غَيْرِ اللّه[1]. وفي التَّعبيرِ بقولِه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ توبيخٌ للكُفّارِ؛ لأنّهم لم يرضوا بشهادةِ ربِّ الأربابِ سبحانه أنّ القرآن غيرُ مُفترًى، والمعنى: "ادعوهم مِن دونِ اللّه كدأبِكم في الفزعِ إليهم عند مُهمّاتِكم مُعرضين بدُعائِهم واستِنجادِهم عن دُعاءِ اللّه واللّجأ إليه، ففي الآيةِ إدماجُ توبيخِهم على الشِّركِ في أثناءِ التّعجيزِ عنِ المُعارضةِ"[2].

سِرُّ إيثارِ أَداةِ الشَّرْطِ ﴿إِن﴾:

التَّعْريضُ بالمُشْرِكينَ لإلْهابِ حَماسَتِهِم، ودَفْعِهِم لمُعارَضَةِ القُرْآنِ

(إذا) أداةُ شرْطٍ غيرُ جازمةٍ تدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الشَّرطِ بخلافِ ﴿إِن﴾ الّتي تدلُّ على الشَّكِّ في تحقُّقِ الشَّرطِ. وفي إيثارِ ﴿إِن﴾ الشَّرطيَّةِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تعريضٌ بكَذِبِ المُشْرِكين؛ لأنَّ صدقَهم غيرُ مُحْتَمَلِ الوقوعِ، وفي هذا التَّعريضِ إلهابٌ لحَماستِهم، إذْ عرَّضَ بعَدَمِ صِدْقِهم لتَتَوَفَّرَ دوافعُهم في مُعارضةِ القرآنِ. وفي هذا أيضًا زيادةٌ في التَّحدّي والتَّبْكيتِ والإلزامِ[3].

والمعنى: إنْ كُنْتُم صادِقينَ في دَعْواكم أنَّ القرآنَ مُفْترًى. فحُذِفَ مُتَعَلَّقُ ﴿صَٰدِقِينَ﴾؛ لدَلالَةِ ما تَقدَّمَ علَيْه، وجَوابُ الشَّرْطِ مَحْذوفٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/57.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/54.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/55.

تَدُلُّ عليه جُملَةٌ مُقدَّرَةٌ بَعْدَ جُملَة: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، إذِ التَّقديرُ: فتَأتونَ بسورَةٍ من مِثْله.

التَّفرِقةُ بَيْنَ: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾، ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾:

معنى قولِه: ﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ [البقرة: 23] أي: أعوانَكم وأنصارَكم على سبيلِ الكِنايةِ، فالشّاهِدُ يُؤَيِّدُ قَولَ المَشْهودِ فينصرُه على خَصْمِه. أمّا قولُه: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ أي: مِن خَلْقِ اللّه مِن إنْسٍ وجِنٍّ، وهذا أعَمُّ في طَلَبِ الاستعانةِ بالنُّصَراءِ كما تدلُّ عليه صيغةُ الطَّلَبِ مِن بَذْلِ الجُهْدِ، وإفراغِ الطّاقةِ في التَّنْقيبِ عمّا يُعينُهم في مُعارَضةِ القرآنِ الكريمِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(افْتَرى) و(كَذَبَ):

الافْــتِراءُ أَقْــوى أَثَرًا، وأَشَدُّ ضَرَرًا مِنَ الكَذِبِ

افْترى: افترى الكَذِبَ يفْتَريه: اخْتَلَقَه. والفِرَى: جَمعُ فِرْيَةٍ وهي الكَذِبَةُ. والافتراءُ: الكَذِبُ في حقِّ الغَيرِ بما لا يَرْتَضيه[1]. والافْتِراءُ أيضًا: هو العظيمُ مِن الكَذِبِ، يُقالُ لِمَنْ عمِل عملًا فبالَغَ فيه: إنّه لَيَفْري الفَرِيَّ. ومعنى افْتَرى: افْتَعَلَ، واختلقَ ما لا يَصِحُّ أنْ يكونَ[2].

كَذَبَ: كِذْبًا وكَذِبًا، فهو كاذبٌ وكذّابٌ وكَذوبٌ. الكَذِبُ: نقيضُ الصِّدْقِ. والكَذِبُ قدْ يقعُ على سبيلِ الإفسادِ ويكونُ في حَقِّ النَّفْسِ، وقد يكونُ على سبيلِ الإصلاحِ، كالكذبِ للإصلاحِ بَيْنَ المُتَخاصِمَيْنِ، والكذبُ في الحربِ[3]، وتَشْتَرِكُ الكَلِمتانِ: الافتراءُ والكَذِبُ في عدَمِ مطابقةِ الخبرِ للواقعِ، لكِنَّ الافتراءَ أقوى أثَرًا، وأشَدُّ ضَرَرًا من الكَذِبِ؛ لأنَّه أعظمُ الكَذِبِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فري)، والعسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 499.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (كذب).
(3) الرّاغب، المفردات: (كذب).

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٩﴾

[يونس: 39]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الدّافِعُ لإنْكارِ القُرآنِ هوَ العِنادُ لا الشُّبُهاتُ

ذكرَ القرآنُ حقيقةَ إنكارِ المُشْرِكين، فهو العنادُ لا الشُّبهاتُ، فإنَّه "لمّا أقامَ الدَّليلَ على أنّ القرآنَ كلامُه، وكان الدَّليلُ إنّما مِن شأنه أنْ يُقامَ على مَنْ عرَضَ له غَلَطٌ أو شُبْهَةٌ، وكان قولُهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ لا عنْ شُبهةٍ، وإنَّما هو مجرَّدُ عنادٍ، نبَّهَ سبحانَه على ذلك وعلى أنَّه إنَّما أقامَ الدَّليلَ لإظهارِ عنادِهم، لا لأنَّ عندَهم شُبهةً في كونِه حقًّا بالإضرابِ عن قولِهم، فقالَ: (بل)"[1].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحِيطُواْ﴾: حَوطَ: حاطَهُ يَحوطُهُ حَوْطًا وحَيْطةً وحياطةً: حَفِظَه وتعَهَّدَه[2]. وتَدُلُّ الكلمةُ على التَّمَكُّنِ مِنَ الشَّيْءِ والسَّيْطرَةِ عَلَيْه، وعَدَمِ تَفَلُّتِه. ومِن مَعاني الإحاطَةِ: المَنْعُ أيضًا، كما في قوله سبحانه: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66] والهَلاكُ، نَحَو قولِه تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: 42]، ومِنْه الحِفْظُ والجَمعُ، نَحو قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ [الإسراء: 60]؛ أيْ: حافِظُهم وجامِعُهم لا يَفوتونَه[3].

2) ﴿تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾: المعنى المِحْوَريُّ للمادَّة: حَقيقَةُ الشَّيْءِ المُتَحصّلةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/124.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حوط).
(3) السَّمين الحَلَبيّ، عُمدَة الحُفّاظ: (حوط).

منهُ، أي: صُلْبُ مادَّتِه الّتي تَخْلُصُ بعدَ تَنْحيَةِ ما يَشوبُها أو يُغَطّيها[1]. ويَدُلُّ التَّأْويلُ على تَبْيينِ مَغْزى الكَلامِ ومَراميه.

3) ﴿عَٰقِبَةُ﴾: تُطْلَقُ العاقِبةُ مُجَرَّدَةً فيما يختصُّ بالثَّوابِ، نَحْو قولِه: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قدْ تُستعمَلُ في العُقوبة، نَحْو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10]. والعُقوبَةُ والمُعاقبةُ والعِقابُ يختصُّ بالعذاب، نَحْو قولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾ [ص: 14]. والتَّعْقيبُ: الإتيانُ بشيْءٍ بَعْدَ آخرَ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في الآيَةِ إضْرابٌ عمّا تَقَدَّمَها إلى بَيانِ أسْبابِ تَكْذيبِهِم الحَقيقيَّةِ

لَمّا رَأى المُشْرِكون القرآنَ مُشْتَمِلًا على أمورٍ ما عرَفوا حقيقتَها، سارَعوا بجهلِهم إلى التَّكذيبِ أوَّلَ ما سمِعوه، وهُم لَم يُحيطوا بعلمِ ما فيه، وقبلَ أنْ يقعَ ما أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه آتيهم من العُقوبةِ الَّتي توعَّدَهم اللهُ بها على تكذيبِهم بالقُرآنِ، كذلك كذَّبَ الكافرون مِن الأُمَمِ الغابرةِ رُسُلَهم وأنبياءَهم، فانظُرْ يا مُحمَّدُ ﷺ ولا تحزَنْ، كيفَ كان مَآلُ المُكذِّبينَ بآياتِ اللهِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ، حيثُ أُخِذوا بالخَسْفِ، أو بالغرقِ، أوبالرّيحِ المُدَمِّرَةِ، أو بغَيرِ ذلك.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غَرَضُ الإضْرابِ: ﴿بَلۡ﴾:

قابَلَ المُشْرِكونَ الحَقَّ بالتَّكْذيبِ لتَقاصُرِ عُلومِهِم عَنِ التَّحْقيقِ

﴿بَلۡ﴾ في قولِه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ﴾ حَرْفُ إضرابٍ وعَطْفٍ، إضْرابٌ لبيانِ حقيقةِ تكذيبِهم، وأنَّ حالَهم في المُسارَعةِ إلى التَّكذيبِ بآياتِ اللهِ قَبْلَ تَدبُّرِها، وتأمُّلِها والنَّظرِ فيها، ومُراجعةِ مَراميها أشْنَعُ مِن التَّكذيبِ نَفْسِه وأعجبُ، إذ إنَّهم بادَروا إلى تَكْذيبِ القرآنِ الكريمِ قَبْلَ أنْ يفقهوه، وقَبْلَ أنْ يَتَدَبَّروه، ويَقفوا على تأويلِه لفَرْطِ نُفورِهم

(1) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أول).

(2) الرّاغب، المفردات: (عقب).

مِمّا يخالفُ عقيدتَهم الفاسدةَ، وكذلك دونَ نظَرٍ في أدلَّةِ صِحَّتِه الَّتي أشارَ إليها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، والغرضُ مِن الإضرابِ في ﴿بَلْ﴾ ذَمُّ المُشْرِكين على تَرْكِ النَّظَرِ في كِتابِ اللهِ وتَدَبُّرِه، ودراستِه مع تَيَسُّرِ ذلك، والتَّمَكُّنِ مِنْه، كأنَّه قيلَ: دَعْ عنك تَحَدّيَهم، وإلزامَهم، فإنَّهم ليسوا للخطابِ أهْلًا؛ لأنَّهم مُقلِّدون مُتهافتون في الأمرِ لا عنْ خُبْرٍ وتثبُّتٍ وتعَقُّلٍ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي في: ﴿كَذَّبُواْ﴾:

الكَذِبُ شَأْنُهم، والعِنادُ دَأْبُهم

عبّرَ بالماضي في قولِه: ﴿كَذَّبُواْ﴾ تحقيقًا لكَذِبِهم وبيانِ حقيقةِ أمرِهم، وفي ذلك بيانٌ بأنَّ أمثالَهم لاتُجْدي معهم حُجَّةٌ ولا تهديهم بَيِّنةٌ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إلَيْهِ ضَميرَ غَيْبَةٍ في: ﴿كَذَّبُواْ﴾:

الإعْـــراضُ عَـنِ المُـــشْـــرِكـــينَ لكَوْنِهم لَيْسوا أَهلًا للمواجَهَةِ بالخِطابِ

وقعَ المسندُ إليْه ضميرَ غَيْبةٍ إعراضًا عن مواجَهتِهم بالخِطابِ، لكَونِهم في مَنزِلةٍ أخَسّ مِنْ تكريمِهم بالخطابِ.

مَعْنى الباءِ في: ﴿بِمَا﴾:

أفادتِ الباءُ معانيَ التَّعديةِ فضلًا عن معاني الإلْصاقِ والملابَسةِ اللَّذيْن لا يفارِقانِها.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ: ﴿بِمَا﴾:

بَـيـانُ عُـمـومِ جَهْلِهم وتَقْبيحِ أمرِهم

عُبِّر عن القرآنِ بالاسم الموصولِ في قولِه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ لبيانِ عموم جهلِهم إذْ هو أعمُّ المَوْصولاتِ، وأدْخَلُها في الإبْهام، كما أنَّ التَّعبيرَ بالاسم الموصولِ يقْتَضي ذِكْرَ جملةِ صلَةٍ تتضمَّنُ علَّةَ الحُكم.

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ بالكِنايَةِ: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾:

قولُه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: بما لَم يُتْقِنوا عِلْمَه، وهي كِنايةٌ عن صِفةٍ هي السَّيْطرةُ على الشّيْءِ والتَّمكُّنُ مِنْه، والقبْضُ عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/171.

(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/572.

المُبالَغةُ في تَجهيلِ الَّذين بادَروا إلى التَّكْذيبِ مِنْ دونِ تأمُّلٍ في شَيْءٍ حَقيقٍ بالتَّأمُّلِ

وعَدمُ تَفلُّته. والكِنايةُ في قولِه: ﴿بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾؛ للمُبالَغةِ في وجوبِ التَّأمُّلِ في القرآنِ الكريم، والتَّأنّي قَبْلَ رَفْضِه، وعَدمِ الإيمانِ به، والنُّفورِ منْه. وفي الكِنايةِ أيضًا مُبالَغةٌ في تَجْهيلِ الَّذينَ بادَروا إلى التَّكْذيبِ من دونِ تأمُّلٍ في شَيْءٍ حَقيقٍ بالتَّأمُّلِ بَعْدَ التَّأمُّلِ، كما أنَّ في جملةِ الصِّلةِ إشعارًا بتعليلِ الحُكْم، أي: بيانُ سَببِ عدَمِ عِلْمِ المُكَذِّبين بالقرآنِ الكريمِ والإيمانِ به، فهُم لكمالِ جَهْلِهم به، وعِنادِهم وتعنُّتِهم، لَم يَعلَموه إلّا بعُنْوانِ عدمِ العلم به، وبأنَّ تكذيبَهم به إنَّما هو بسبَبِ عدمِ عِلْمِهم بما أُنْزِل على النَّبيِّ ﷺ[1].

نُكْتَةُ التعبيرِ بـ: ﴿بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾:

الكَشْفُ عَنْ إنْكارِهم بمُجَرَّدِ السَّماعِ بَداهَةً دونَ تَأمُّلٍ

عَدَلَ عنْ أنْ يُقال: بما لَم يُحيطوا به عِلْمًا أو بما لَم يُحِطْ عِلْمُهم به إلى: ﴿بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾؛ لِلْمُبالَغَة، إذْ جُعِل العِلْمُ مَعْلومًا. فأصْلُ العِبارَةِ قَبْلَ النَّفْيِ: أحاطوا بعِلْمِه، أي: أتْقَنوا عِلْمَهُ أشَدَّ إتْقانٍ، فلَمّا نُفيَ صارَ: لَم يُحيطوا بعِلْمِه؛ أيْ: وكانَ الحَقُّ أنْ يُحيطوا بعِلْمِه، لأنَّ تَوَفُّرَ أدِلَّةِ صِدْقِه يَحْتاجُ إلى زيادَةِ تَأمُّلٍ وتَدْقيقِ نَظَرٍ بحَيْثُ يَتَعَيَّنُ على النّاظِرِ عِلْمُ أدِلَّتِه، ثُمَّ إعادَةُ التَّأمُّلِ فيها وتَسْليطُ عِلْمٍ على عِلْمٍ، ونَظَرٍ على نَظَرٍ بحَيْثُ تَحْصُلُ الإحاطَةُ بالعِلْم. والمعنى أنَّهم سارَعوا إلى التَّكْذيبِ بالقُرْآنِ في بَديهَةِ السَّماعِ، قَبْلَ أنْ يَفْقَهوهُ، ويَعْلَموا كُنْهَ أمرِه، وقَبْلَ أنْ يَتَدَبَّروهُ، والباءُ للتَّعْدِيَة، وشَأْنُها مَعَ فِعْلِ الإحاطَة أنْ تَدْخُلَ على المُحاطِ به، وهو المَعْلومُ، وهو هُنا القُرْآنُ"[2].

دلالَةُ العَطْفِ في: ﴿وَلَمَّا﴾:

العِنادُ طَبيعَةُ المُشْرِكينَ وخُلُقُهُم فَلا تَفَكُّرَ ولا انْتِظارَ للتَّأويلِ

جملةُ: ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ﴾ إمّا أنْ تكونَ عَطفًا على الصِّلَة أوْ حالًا مِنَ المَوْصولِ، والمَعنى على العطفِ على الصِّلة: لَم يُحيطوا بعلمِه، ولمّا يأتِهم تأويلُه، فيكونُ في ذلك زيادةُ بيانٍ لعنادِهم،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/666.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/171.

ورفضِهم على البديهةِ دونَ أدْنى تَفَكُّرٍ، ولا أدْنى انتظارٍ، وعلى كونِها حالًا يكونُ المعْنى أنّهم قَرَنوا التَّكذيبَ بحالِ عدمِ انتظارِ التَّأويلِ، وفي كلٍّ ثراءٌ للمَعْنى.

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْلِيِّ في: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾:

التَّأويلُ ذو أثَرٍ بالِغٍ في إظْهارِ الحُجَّةِ

إسنادُ الإتْيانِ إلى التَّأويلِ مجازٌ عقليٌّ، وفيه مبالَغةٌ في بيانِ قدْرِ التَّأويلِ في إظهارِ الحُجَّةِ، وفي المرادِ بالتَّأويلِ وجْهانِ[1]: أحَدُهُما: عِلْمُ ما فيه مِنَ البُرْهانِ، والمعنى: ولَم يَقِفوا بَعْدُ على مَعانيه الوَضْعيَّةِ والعَقْليَّةِ المُنْبِئَةِ عنْ عُلوِّ شَأْنِه وسُطوعِ بُرْهانِه، والإتْيانُ كِنايةٌ عنِ المَعْرِفةِ والوُقوفِ، وأوثِرَ التَّعبيرُ به؛ للإشْعارِ بأنَّ تِلْكَ المَعاني مُتَوَجِّهَةٌ إلى الأذْهانِ، مُنْساقَةٌ إلَيْها بنَفْسِها انسياقًا تلْقائيًّا.

الثّاني: ما يَؤولُ إلَيْهِ أمرُهم مِنَ العِقابِ، والإتيانُ على هذا المعنى مَجازٌ عنْ تَبَيُّنِه وانْكِشافِه، أي: ولَم يَتَبَيَّنْ لَهم إلى الآنَ تَأْويلُ ما فيه مِنَ الإخْبارِ بالغُيوبِ حَتّى يَظْهَرَ أنَّهُ صِدْقٌ أم كَذِبٌ. والمعنى أنَّ القُرْآنَ مُعْجِزٌ من جِهَةِ النَّظْمِ والمعنى، ومِن جِهَةِ الإخْبارِ بالغَيْبِ وهم فاجَؤوا تَكْذيبَهُ قَبْلَ أنْ يَتَدَبَّروا نَظْمَهُ ويَتَفَكَّروا في مَعْناهُ أو يَنْتَظِروا وُقوعَ ما أخْبَرَ بِهِ مِنَ الأُمورِ المُسْتَقْبَلَةِ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ﴿وَلَمَّا﴾ وإيثارِه:

التَّعْبيرُ بـ(لَمّا) يومِئُ إلى حَسْمِ أعْذارِ المُشْرِكينَ، وتَحَقُّقِ بَوارِهِم

كَشَفَ التَّعبيرُ بـ﴿وَلَمَّا﴾ وإيثارُه على (لَم) في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ عنْ نفوسِ المُشْرِكين المريضةِ، وأفكارِهم اليابِسةِ، وعقولِهم المُتَحجِّرَةِ، حيثُ سارعوا إلى التَّكذيبِ بالقرآنِ الكريمِ قبْلَ عِلمِه المتوقَّعِ إتيانُه، وأبانَ صاحبُ الكَشّافِ عن سِرِّ التَّعبيرِ بـ ﴿وَلَمَّا﴾ في بيانٍ صافٍ فقال: "ما معنى التَّوقُّعِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾؟ قُلت: معناه أنَّهم كَذَّبوا بَه على البديهةِ قبلَ التَّدبُّرِ ومعرفةِ التَّأويلِ،

---

(1) الماورديُّ، النُّكَت والعيون: 2/436.

(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 11/119.

تقليدًا للآباءِ. وكَذَّبوه بَعْدَ التَّدَبُّرِ، تمَرُّدًا وعِنادًا، فذَمَّهم بالتَّسرُّعِ إلى التَّكذيبِ قَبْلَ العِلْمِ به، وجاء بكلمةِ التَّوقُّعِ ليُؤْذِنَ بأنَّهم علموا بُعْدَ عُلوِّ شأْنِه وإعجازِه لمّا كرَّر عليهم التَّحدِّي، ورازوا[1] قواهُم في المعارضةِ واستَيْقَنوا عجزَهم عنْ مثلِه، فكذَّبوا به بَغْيًا وحَسَدًا[2].

نُكْتَةُ النَّفْيِ بـ﴿وَلَمَّا﴾:

التَّعْبيرُ بـ (لَمّا) للاحْتِراسِ، ولِقَطْعِ أَعْذارِ المُشْرِكينَ

نَفْيُ إتْيانِ التَّأْويلِ بكَلِمَةِ ﴿وَلَمَّا﴾ الدّالَّةِ على التَّوقُّعِ بَعْدَ نَفْيِ الإحاطَةِ بعِلْمِ القرآنِ الكريمِ بكَلِمَةِ ﴿لَمْ﴾ في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾؛ لنُكْتةٍ هي تأكيدُ الغارةِ على المُشْرِكين، وذَمِّهم، وتَشْديدُ التَّشْنيعِ عليهم، والتَّشهيرِ بغبائِهم، حيثُ إنَّ الشَّناعَةَ في تَكْذيبِ الشَّيْءِ قَبْلَ عِلْمِه المُتَوَقَّعِ إتْيانُهُ أفْحَشُ منها في تَكْذيبِه قَبْلَ عِلْمِه مُطْلَقًا، والمعنى: أنَّهُ كانَ يَجِبُ علَيْهِم أنْ يَتَوَقَّفوا إلى زَمانِ وُقوعِ المُتَوَقَّعِ فلَم يَفْعَلوا. وأمّا أنَّ المُتَوَقَّعَ قد وقَعَ بَعْدُ وأنَّهُمُ اسْتَمَرّوا عِنْدَ ذلِك أيضًا على ما هُم علَيْهِ أوَّلًا فَلا تَعرُّضَ لهُ هَهُنا[3].

ورُبَّما كان التَّكذيبُ قبلَ إحاطتِهم بعِلْمِ القرآنِ الكريمِ يوهِمُ لَهُم عُذْرًا ما، فجاءَ التَّعبيرُ بـ﴿وَلَمَّا﴾ للاحتراسِ عن هذا، وللإشعارِ بأنَّهم قدْ أحاطوا بعِلْمِه حتَّى تَنْحَسِمَ أعذارُهم، ويتحقّقَ بَوارُهم[4].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المفْعولِ:

عَذابُ المُشْرِكينَ آتٍ لا مَحالَةَ، لأَنَّهُم المقْصودونَ

قُدِّم المفعولُ بِهِ (هُم) على الفاعلِ ﴿تَأْوِيلُهُۥ﴾ لأنَّهم هُم المَعْنيّون بنَفْيِ إتْيانهم تأويلَ القرآنِ، وأيضًا للمُسارَعةِ إلى ذَمِّهم.

مَوْقِعُ جُملَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾ ودلالَتُهُ:

تَسْليَةُ النَّبيِّ ﷺ

جملةُ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ استئنافيَّةٌ. والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ أو لِمَنْ يَتَأتَّى مِنْه السَّماعُ. و﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ

(1) أي: جرَّبوها وخَبَروها.

(2) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/137، والنَّسَفيُّ، مَدارك التَّنْزيل: 2/164.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/666 - 667.

(4) ابن المنَيرِّ، حاشية على الكشّاف: 3/137.

تقديرُه: مِثْلُ ذلك التَّكذيبِ كَذَّبت الأُمَمُ رُسُلَهم قَبْلَ النَّظرِ في مُعْجِزاتِ الأنْبياءِ، وقَبْلَ تَدَبُّرِها مِن غَيْرِ إنْصافٍ مِن أنْفُسِهِم، ولَكِنْ قَلَّدوا الآباءَ وعانَدوا الأنبياءَ عليهم السلام[1] لذا فرَّع على جملةِ التَّشبيه خطابَ النَّبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: عاقبةُ الأممِ الَّتي ظلمَت بتكذيبِ الرُّسلِ كما كَذَّب هؤلاءِ[2].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالتَّشْبيهِ: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ﴾:

التَّسْلِيَةُ بِأَحْوالِ السّابِقينَ تُذْهِبُ الحُزْنَ وتُثَبِّتُ القَلْبَ

الغرضُ من هذا التَّشبيه ثلاثةُ أمورٍ: الأوّلُ: أنّ هذهِ عادةُ المُعانِدين الكافِرين ليَعلمَ المُشْرِكون أنّهم مُماثِلون للأُمَمِ الّتي كذَّبت الرُّسلَ فيَعْتَبِروا بذلك، والثّاني: التَّعريضُ بالنَّذارةِ لهم بحلولِ العذابِ بهم كما حلَّ بتلكَ الأممِ الَّتي عرف السّامعون مصيرَها وشاهدوا ديارَها، والثّالثُ: تسليَةُ النَّبيِّ ﷺ بأنّه ما لَقيَ مِن قومِه إلّا مِثْلَ ما لَقيَ الرُّسُلُ السّابقون من أقوامِهم[3].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ المَوْضوعِ للبَعيدِ:

بَيانُ شِدَّةِ عاقِبَةِ التَّكْذيبِ

التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ ذلك التَّكذيبِ، والإشارةِ إلى خطورتِه، وشِدَّةِ عاقبتِه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْمِ المَوْصولِ:

تَشابُهُ الحالِ يُؤَدّي إلى تَشابُهِ النَّتيجَةِ

عُبِّرَ بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾؛ ليَتَأتّى تعليلُ الحُكْمِ بواسطةِ جملةِ الصِّلةِ، "وإنّ هذه الحالَ مِن المُشْرِكين هي الحالُ الّتي كانت في الأممِ السّابقةِ الّذينَ بُعِثَ فيهم الرُّسلُ وسارَعوا بتكذيبِهم قبلَ أنْ يتأمَّلوا ما أتَوْا به، وقبلَ أنْ يعرفوا قوَّةَ المعجزةِ، ثمّ لجّوا في تكذيبِهم حتّى نَفَّذَ اللهُ تعالى أمرَه فيهم كقولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ كهذه الحالِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/59.
(2) الجَمل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/350.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/173.

الَّتي كان عليها المُشْرِكون من العرب في مُسارَعتِهم إلى التَّكذيب واللَّجاجَةِ فيه، ثمَّ المعاندةِ والمقاومةِ بالعنفِ من غيرِ إدراكٍ سليم، وهذه الحالُ هي حالُ الّذين مِن قبلهم، فإذا تشابهتِ الحالُ فلا بدَّ أن تَتَشابَهَ النَّتيجةُ أو الأثرُ، ولذا قال سبحانه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾"[1].

دلالَةُ اسْتِخْدامِ ﴿مِن﴾ قَبْلَ الظَّرْفِ:

كُفّارُ مَكَّة ومَنْ حوْلَها يَنْتَهِجونَ نَهْجَ أَسْلافِهِم في العِنادِ والخُصومَةِ واللَّجاجِ والتَّكْذيبِ

أُثْبِتَ الجارُّ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ للإشارة إلى المُكَذِّبين مِن كُفّارِ الأُمَمِ الخاليَة، وأنّهم ظَلَموا فأُهْلِكوا بظُلْمِهم[2]. وعليه فمعنى ﴿مِن﴾ هُنا: التَّبعيض، فكُفّار مكَّة ومَن حَوْلها ينتهجون نَهْجَ أسلافِهم في العِناد والخصومةِ واللَّجاجِ والتَّكذيب. إنَّها سِلْسِلَةٌ طويلةٌ ومُتَّصِلةٌ من الكُفرِ يواجهُها أنبياءُ اللّه ﷺ على مَرِّ الأزمان بعزيمةٍ وثباتٍ وإصرارٍ على إبلاغِ دعوةِ اللّه تعالى، ومِن المُمكِنِ أنْ تكونَ ﴿مِن﴾ مشيرةً إلى مَن سبقَهم مِن الأممِ مباشرةً، وفيه من التَّرهيبِ ما فيه، لكَونِ مَن سبقَهم أقربَ زمانًا ومكانًا فيكونُ أقوى ردعًا وتخويفًا.

دلالَةُ الفاءِ وفِعْلِ الأمرِ في: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

الـخِـطـابُ لـلرَّسـولِ صَلّى الله تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ كَما قال الآلوسيّ لتَرْتيبِ ما بَعْدَها على كلامٍ مَحْذوفٍ يدلُّ عليه السّياقُ تقديره: فَأَهْلَكْناهم، فانْظُرْ[3]. والخِطابُ للرَّسول ﷺ ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ عامًّا لكُلِّ مَن يَصْلُحُ لَه. والأَوَّلُ أَوْلى؛ لدخولِه في بابِ تسليَتِه ﷺ، وأمّا دلالةُ الفعلِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾، فهي للتَّعجُّبِ والاعتبارِ.

دلالَةُ ﴿كَيۡفَ﴾ بَيْنَ اسْمِ المَصْدَرِ والاسْتِفْهامِ:

انْـفِـكـاكُ الاسْتِفْهامِ عَنْ (كَيف)

﴿كَيۡفَ﴾ هُنا إمّا أنْ تكونَ في مَوْضِعِ نَصْب خَبَر كانَ، وإمّا أنْ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3573 - 3574.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 9/125.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/120.

تكونَ اسمَ مَصْدرٍ، وفي هذه الحالةِ ينْفَكُّ عنها معنى الاستفهام، وهي هُنا تَحْتَمِلُ ذَلِكَ[1]. والمعنى: انظُرْ بعَينِك حالَةً صِفتُها: كان عاقبةُ المُكَذِّبين، ويجوزُ أن تكونَ ﴿كَيْفَ﴾ استفهاميَّةً والمعنى: فانظرْ هذا السّؤالَ، أي: تدبَّرْهُ وفكِّرْ فيه، ويكونُ غرضُ الاستفهامِ الإنكارَ والتَّعجيبَ من حالِهم.

سَبَبُ هَلاكِهِم هوَ رُسوخُهُم في الظُّلْمِ، وتَمَرُّدُهُم عَلى الحَقِّ

سِرُّ الإضافَةِ العاقِبَةِ: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

المُرادُ بالظّالمين: المُكَذِّبونَ من الأُمَمِ الغابِرةِ. وفي إضافةِ العاقبةِ إلى الظّالمين إشارةٌ إلى سَبَبِ هلاكِهم وهو رسوخُهم في الظُّلْم، وتَمرُّدُهم على الحَقِّ، وإعراضُهم عن التَّصديقِ والإيمان، وهذه الجُملةُ: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوَّةِ قولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [الشّعراء: 139][2].

تَبْشيعُ التَّكْذيبِ بوَصْفِهِ ظُلْمًا

الغَرَضُ مِنْ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

عُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حيثُ كان الظاهرُ أنْ يُقال: فانظرْ كيف كان عاقبتُهم؛ "لِلْإيذانِ بكَوْنِ التَّكْذيبِ ظُلْمًا بَيِّنًا، وبأنّه عِلَّةٌ لما حاق بهم مِن سوءِ العاقِبَة، وبدُخول هَؤُلاءِ الَّذينَ حَكى عنهم ما حَكى في زُمرَتِهم جُرْمًا ووَعيدًا دُخولًا أوَّليًّا، ولِبَيانِ أنّهم ظلموا أنفسَهم وظلموا الأنبياءَ الّذين أُرْسِلوا إليهم، وأنكروا حقائقَ ثابتةً قد خلتْ فيمَنْ ظَلموا[3].

مَعْنى (أل) في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الأفضلُ أنْ تكونَ (أل) هُنا جنسيّةً لتَعُمَّ جميع صُنوفِ الظّالمين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، بدلًا مِنْ أنْ يُرادَ بها صِنْفٌ مُحَدَّدٌ منهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/667.
(2) الجَمَل، الفتوحات الإلهيَّة: 2/350.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/667.

تَوْسيعُ النَّظَرِ في عاقِبَةِ السّابقِينَ أَشَدُّ تَخْويفًا

الغَرَضُ مِنْ حذفِ مُتَعَلّقِ: ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

معمولُ الأمرِ بالنَّظرِ محذوفٌ تقديرُه: فانظرْ على أيِّ حالٍ كانت عاقبةُ الظّالمين، والغرضُ من ذلك توسيعُ دائرةِ النَّظرِ للتَّخويف والاعتبارِ لتعدُّدِ عواقبِ السّابقين، فقد "كانت ريحًا صرصرًا عاتيةً، أو ريحًا فيها عذابٌ شديدٌ، أو جَعلَ أَرْضَهم دكًّا عاليها سافِلها أو خَسَفَ بهم الأرضَ أو غيرَ ذلك من آياتِ اللّه الكُبرى في الَّذين يَظلمون أنفسَهم ويَظلمون الحقَّ معهم، وإذا كان اللّه قد أمهلَ المُشْرِكين ولم يُنْزِلْ بهم ما أنزلَ بالَّذين مِن قَبْلَهم - مِن الخَسْفِ أو العذابِ الشَّديد - فلِكَي يستمرَ اختيارُهم، وعسى أنْ يُخْرِجَ اللّه مِن أصلابِهم مَنْ يَعْبُدُه"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العاقِبَةُ والمَصيرُ:

تَــأْتي كَـلِـمَـةُ (المَــصــير) في ســيــاقِ ســوءِ العاقِبَةِ غالِبًا

تَشتركُ الكلمتانِ في الدّلالةِ على الخاتِمَةِ أوالنَّتيجةِ، وتنفردُ كلمةُ المصيرِ بالدّلالةِ على سوءِ العاقِبةِ غالبًا، بخِلافِ كلمةِ العاقبةِ الَّتي تَحْتَمِلُ عاقبةَ الخَيْرِ أو العذابِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3574.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٤٠﴾ [يونس: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هـذِهِ الآيَـةُ تُمَثِّلُ اسْتِثْناءً واسْتِدْراكًا عَلى ما تَقَدَّمَهُ بِبَيانِ أَنَّهُم لَيْسوا سَواءً في الكُفْرِ

أماطَ الفخرُ الرّازيُّ اللِّثامَ عن وجهِ مناسَبةِ الآيةِ الكريمةِ لما قَبْلَها بقوله: "ولّما ذَكَرَ سُبْحانَهُ تَكْذيبَهُم، كان ذَلِكَ رُبَّما أيأسَ مِن إذْعانِهم وتَصديقِهم، وآذَنَ باسْتِئْصالِهم لتَكْمُلَ المُشابَهَةُ للأوَّلين، وكانَ ﷺ شَديدَ الشَّفَقَةِ علَيْهِم والحِرْصِ على إيمانِهم، فأتْبَعَه تعالى بقَوْلِه بَيانًا لأنَّ عِلْمَهُ بانْقِسامِهم أوجَبَ عدَمَ اسْتِئْصالِهم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: فَسَدَ يَفْسُدُ، ويَفْسِدُ، وفَسُدَ، فسادًا وفُسودًا، فهوَ فاسدٌ. والمَفْسَدَةُ: نَقيضُ المَصْلَحةِ والاسْتِفْسادُ: خِلافُ الاسْتِصْلاحِ[2]. والمعنى المِحْوريُّ: ذَهابُ نَفْعِ الشَّيْءِ المقصودِ منه (أي: تَلَفُهُ وهلاكُه) لحِدَّةٍ ضارَّةٍ تَسْري في أثنائِه كالجَدْبِ في الأرضِ[3]. والفسادُ: نَقيضُ الصَّلاحِ.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

تَوَعَّدَتِ الآيَةُ مَنْ لا يُؤْمِنونَ باللهِ ورُسُلِهِ بأَشَدِّ العَذابِ

مِن المُشْرِكين مَن سيؤمنُ بالقرآنِ قبلَ موتِه، ومنهم مَن لا يؤمنُ به عنادًا ومكابرةً حتّى يموتَ، وربُّكَ - أيُّها الرَّسولُ - أعلمُ بالمُصِرّين على كفرِهم، وسَيُجازيهم على كفرِهم، ومن قومِك - أيُّها الرّسول - مَن يصدِّقُ بالقرآنِ ويَتَّبِعُك، ويَنْتفعُ بما أُرْسِلتَ به، ومنهم مَن لا يُصَدِّقُ به حتّى يموتَ على ذلك ويُبْعَثَ عليْه، ورَبُّك أعلمُ بالمُفْسِدين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/104.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(3) جَبَل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).

الَّذين لا يؤْمنون به، ظُلْمًا، وعِنادًا، وفسادًا، فيُجازيهم على فسادِهم وكُفْرِهم بأشَدِّ العذابِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

تَخصيصُ العامِّ، أوْ بَيانُ المُجْمَلِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَمِنْهُم﴾ عاطفةٌ، حيثُ عطَفَت ما بَعْدَها على جملةِ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: 39] في الآيةِ السّابقة؛ "لأنَّ الإخْبارَ عنْ تَكْذيبِهم بأنَّهُ دون الإحاطَةِ بعِلْمِ ما كَذَّبوا بهِ يَقْتَضي أنَّ تَكْذيبَهم بهِ لَيْسَ عن بَصيرَةٍ وتأمُّلٍ. وما كانَ بهاتِهِ المَثابَةِ كانَ حالُ المُكَذِّبينَ فيه مُتَفاوِتًا حَتّى يَبْلُغَ إلى أنْ يَكونَ تَكْذيبًا مَعَ اعْتِقادِ نَفْيِ الكَذِبِ عنْهُ، ولِذَلِكَ جاءَ مَوْقِعُ هذه الآيَةِ عقبَ الأُخْرى مَوْقِعَ التَّخْصيصِ لِلْعامِّ في الظّاهِرِ أوِ البَيانِ لِلْمُجْمَلِ مِن عدَمِ الإحاطَةِ بعِلْمِهِ، كَما تَقَدَّمَ بَيانُهُ في قولِه: ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾.

مَعْنى (مِنْ) في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

(مِنْ) هُنا تبعيضيَّةٌ؛ لأنَّ الآيَةَ الكريمةَ جَعَلَتْهم في قِسْمَيْنِ: مَن يُؤمِنُ به، ومَن لا يُؤْمِنُ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الخَبَرِ عَلى المُبْتَدَأِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾:

التَّعْجيلُ بِتَبْشيرِه ﷺ

﴿وَمِنْهُم﴾ خبرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿مَّن﴾ مُبْتَدا مؤخَّرٌ، وجملةُ: ﴿يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ صِلَةُ المَوصولِ، وجملةُ: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ السّابقةِ، وقُدِّمَ الخبرُ على المبتدأِ؛ للتَّعجيلِ بتَبْشيرِه ﷺ بأنَّ مِن قومِه مَن سيشرحُ اللّهُ صدرَه للإسلامِ، ويُصَدِّقُ بالقرآنِ، لذا قُدِّمَ قولُه: ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ على قولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾.

مَرْجِعُ الضَّميرِ: (هم):

أَهلُ مَكَّةَ هُمُ المَقْصودونَ بالخِطابِ

يعودُ الضَّميرُ (هُم) على أهلِ مكَّةَ. أي: ومِنْ هَؤُلاءِ الَّذينَ بُعِثْتَ إلَيْهِم يا مُحَمَّدُ مَنْ يُؤْمِنُ بهَذا القُرْآنِ، ويَتَّبِعُكَ ويَنْتَفِعُ بما أُرْسِلْتَ

به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بَلْ يَموتُ على ذَلكَ ويُبْعَثُ علَيْه، وإنما عبَّرَ بالضمير لأنَّهم المَقْصودون بالخطابِ أوَّلًا لكَوْنِ رسولِ اللّه ﷺ بُعِثَ فيهم أوَّلًا فكانوا مُبتدَأ الخِطابِ.

التَّعْبير بالمُبْتَدَأِ اسْمًا مَوْصولًا في: ﴿مَّن يُؤْمِنُ﴾:

أَهْـلُ مَـكَّـةَ مِـنْ جِـهَـةِ الخِطابِ الـقُـرْآنيِّ كـانـوا عَلى فَريقَيْنِ

عَبَّرَ بالمُبْتَدَأِ اسْمًا مَوصولًا؛ ليَتَأتَّى بَيانُ المُرادِ بِهِ مِن خلالِ صِلتِه: ﴿يُؤْمِنُ﴾، وما جاء بعدَها بالعطفِ: ﴿لَّا يُؤْمِنُ﴾.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُضارِعِ في: ﴿يُؤْمِنُ﴾:

عبَّرَ بالمضارعِ في طرَفَي المُخاطَبين استحضارًا للحالِ الماضيةِ، وتنبيهًا إلى ما يكونُ عليه الحالُ دائمًا عند سماعِ القرآنِ في كلِّ زمنٍ، وعبَّرَ بالمضارعِ حالَ التَّنزيلِ إعلامًا بما سيكونُ من حالِ المُخاطَبين.

دلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ (الباء) في: ﴿بِهِۦ﴾:

الإلْصاقُ أَشْهَرُ مَعاني الباءِ

الباءُ المفردةُ حَرْفُ جَرٍّ، ولَها معانٍ كثيرةٌ تصل لأرْبعةَ عشَرَ معنًى، ومِن أشهرِ معانيها الإلصاقُ، وقيلَ: هو معنًى لا يفارقُها؛ لذا اقتصرَ عليه سيبَوَيْه. وكلام سيبَوَيْه يُفيدُ أنَّ معنى الإلصاقِ في (الباء) معنًى أصليٌّ، وغيْرُهُ من المعاني تابعٌ له(1).

والباءُ في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ للإلصاقِ، والمعنى: ومن قومِك يا مُحَمَّدُ ﷺ مَن سيؤمنُ إيمانًا راسخًا بالقرآنِ الكريم لا يَنْفَكُّ عنْه، ومنهم أيضًا مَن كُتِبَ عليه الشَّقاءُ فلا يُؤْمنُ بما جئتَ به.

الغَرَضُ مِنْ أُسْلوبِ طِباقِ السَّلْبِ:

تَـقْـسيـمُ أَهْـلِ دَعْوَتِهِ ﷺ

دَلَّ طباقُ السَّلْبِ بَيْنَ ﴿يُؤْمِنُ﴾ و﴿لَّا يُؤْمِنُ﴾ على تقسيمِ أهلِ دعوتِه ﷺ إلى فريقَيْنِ مُتَناقِضَيْن، فريقٍ كَتَبَ اللّهُ له السَّعادةَ بالهدايةِ للإيمانِ بالقرآنِ، وبرسالةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وفريقٍ كُتِبَ عليه الشَّقاءُ فأصَرَّ على كفرِه بالقرآنِ وبما جاء به النَّبيُّ ﷺ.

(1) ابن هشام، مُغْني اللَّبيب: 1/95.

دلالَةُ التَّرْتيبِ في تَقْسيمِ النّاسِ: ﴿وَمِنۡهُم﴾، ﴿وَمِنۡهُم﴾:

قُدِّمَ تَرْتيبُ المُؤْمِنينَ؛ لشَرَفِهِم، وعُلوِّ مَكانَتِهِم

جاءَ التَّرتيبُ في الجملةِ متساوقًا مع التَّعجيلِ بتبْشيرِ النَّبيِّ ﷺ فقدَّمَ ما يَسُرُّه، وأُخِّرَ ما يُحْزِنُه، كما قُدِّمَ ترتيبُ المُؤْمنين؛ لشَرفِهم ومكانتِهم.

دلالَةُ اخْتيارِ المُضارِعِ في القِسْمِ الثّاني:

إِصْرارٌ عَلى الكُفْرِ والعِنادِ

في إيثارِ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ في القِسْمِ الثّاني في قولِه: ﴿لَّا يُؤۡمِنُ﴾ إشارةٌ إلى إصرارِ هذا الصِّنفِ من النّاس على العِنادِ والمكابرةِ والكُفْرِ، وفي تجديدِ الإنكارِ تسجيلٌ للجريمةِ وبيانٌ عن ملازمتِها لهم.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَرَبُّكَ﴾:

اللهُ أعْلَمُ بما كانَ وما يَكونُ قَبْلَ الخَلْقِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ استئنافيَّةٌ، وهي بيانٌ لمَعْنًى تأسيسيٍّ أنَّ عِلْمَه سبحانه بالمُفْسِدين حقيقةٌ ثابتةٌ، وهي تأكيدٌ للإخبارِ بما يكونُ عليْه فريقٌ من النّاسِ من إنكارِ القرآنِ، أو ابتدائيَّةٌ فتكونُ تقريرًا للْمعنى السّابقِ، ويُمكِنُ أن تكونَ الواوُ حاليَّةً على معنى: والحالُ وهُم كذلك أنّ اللّه تعالى يعلمُ المُفْسِدين منهم، ويمكن أن تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً كذلك.

سِرُّ إضافَةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضَميرِ الخِطابِ:

مَكانَةُ الرَّسولِ ﷺ عِنْدَ رَبِّهِ

في إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ضميرِ الخِطابِ، حيثُ لم يَقُلْ: (وإلهك)، إيماءٌ إلى مكانةِ الرَّسولِ ﷺ عِنْدَ رَبِّه، فهو سبحانَه مُتَوَلّيه بالرِّعايةِ والإنعامِ واللُّطْفِ كما يوحي به معنى (رَبّ). وفيها أيضًا تشريفٌ له ﷺ.

الغَرَضُ البَلاغيُّ مِن التذييلِ بالاعْتِراضِ:

التَّعْريضُ بالوَعيدِ والإنْذارِ

جاءتْ جُملَةُ: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مُعْتَرِضَةً في آخرِ الكَلامِ؛ للتَّعْريضِ بالوَعيدِ والإنْذارِ، وبأنَّ غيرَ المُؤْمنين منَ المُفْسِدينَ[1]. وخُتِمتِ الآيةُ بقولِه: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ "لِلْعِلْمِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/175.

بأنَّهُ ما ذَكَرَ المُفْسِدينَ هُنا إلّا لأنَّ هَؤُلاءِ مِنهم، وإلّا لَم يَكُنْ لذِكْرِ المُفْسِدين مُناسَبَةٌ، فالمعنى: ورَبُّكَ أَعْلَمُ بهِم لأنَّهُ أَعْلَمُ بالمُفْسِدينَ الَّذينَ هم مِن زُمرَتِهِم"[1].

دلالَةُ صيغَةِ المُفاضَلَةِ: ﴿أَعۡلَمُ﴾:

يُمكِنُ أن تكونَ صيغةُ (أفعل) على بابِها في المفاضَلةِ على معنى أنَّ هناك مَن يعلمُ حالَ أولئِك المُفْسِدين، ولكنَّ اللّه تعالى هو أعلمُهم بهم، ويُمكِنُ أنْ تكونَ مَسْلوبَةَ المُفاضَلَةِ على معنى أنّ اللّه تعالى هو فقط مَن يعلمُ حالَهم دونَ غيرِه، وتكونُ صيغةُ (أفعل) للْمبالَغةِ في التَّأكيدِ.

مَعْنى الباءِ في: ﴿بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

الباءُ المفرَدةُ حَرْفُ جَرٍّ، ومِن أشهرِ معانيها الإلصاقُ، وقيلَ: هو معْنًى لا يُفارِقُها؛ لذا اقتصرَ عليه سيبَوَيْه. وكلامُ سيبَوَيْه يُفيدُ أنَّ معنى الإلصاقِ في (الباء) معْنًى أَصْليٌّ، وغيْرُهُ مِن المعاني تابعٌ له[2].

والباءُ في قوله: ﴿أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ للْإلصاقِ، والمعنى: وربُّك يا مُحمَّدُ أعلمُ بالمُفْسِدين عِلمًا لا يَنْفَكُّ عنه ويلتصقُ بهم لا يفارِقُهم أيضًا.

مَعْنى (أل) في: ﴿بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾:

(أل) هُنا الأفضلُ أنْ تكونَ جنسيَّةً استغراقيَّةً لتَشْمَلَ كلَّ صُنوفِهم، ولا تقتصرُ على نوعٍ محدَّدٍ منهم.

بَلاغَةُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في آية سورة يونس.

فورَدَتْ آيةُ آلِ عمرانَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63] في سياقِ الدَّعوةِ إلى المُباهلةِ بَعْدَ جدالِ وفْدِ نَجْرانَ مع النَّبيِّ ﷺ في شَأْنِ عيسى عليه السلام والمعنى: فإنْ أَعرضوا عنِ اتِّباعِك وتصديقِك بعدَ هذه الآياتِ البَيِّناتِ، والحُجَجِ النَّيِّراتِ الَّتي أَخْبَرْناك بها وقَصَصْناها عليك، فأنْذِرْهم بسوءِ العاقبةِ، وأَخْبِرْهم أنَّ اللّه سبحانه وتعالى عليمٌ بهِم، وبما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/175.
(2) ابن هشام، مُغني اللَّبيب: 1/95.

يقولونَه ويفعلونَه مِن فسادٍ في الأرضِ، وسَيُعاقِبُهم على ذلك العقابَ الأليمَ، وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63] قائمٌ مقامَ جوابِ الشَّرْطِ، أي: فإنْ أَعْرضوا عن تصديقِك والإيمانِ بدَعوتِك، فأخْبِرْهم بأنَّهم مُفْسِدون وأنَّ لهم سوءَ العاقبةِ؛ لأنَّ اللّه عليمٌ بإفْسادِهم، ولن يتركَهم بدونِ حِسابٍ، واسْتَدعى هذا السِّياقُ بما فيه مِن وعيدٍ مُزَلْزِلٍ لهؤلاء المجادِلينَ بالباطلِ في شَأْنِ عيسى عليه السلام ولِكُلِّ مَنْ أعْرَض عن الحَقِّ الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ استَدْعى إيثارَ التَّعبيرِ بوَصْفِ الأُلوهيَّة؛ لقَذْفِ الهَلَعِ في قلوبِ المُعارِضينَ، ولإضْفاءِ مزيدٍ مِن المَهابَةِ على هذا الوَعيدِ.

أمّا آيةُ يونسَ فقد وردتْ في مقام تحدّي المُشْرِكينَ بمعارَضةِ القرآنِ الكريم، وتَسْليَةِ الرَّسول ﷺ ؛ لذا كان من المُلائم إيثارُ التَّعبيرِ بوصفِ الرُّبوبيَّة، وإضافتِها إلى ضميره ﷺ ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ تشريفًا لَه، وتأكيدًا على مَعيَّةِ اللّه لرسولِه الكريم ﷺ، ووَعيدًا لِمَن لا يؤمِنُ بدَعوته، ﷺ.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ٤١﴾ [يونس: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ارْتَبَطَتِ الآيَةُ بما سَبَقَها في أَنَّها عَلَّمَتِ النَّبيَّ ﷺ بماذا يُجيبُهُم عِنْدَ تَكْذيبِهِم

يقولُ صاحبُ تفسيرِ المنارِ: "لَمّا أَنْبَأَ اللّٰه رَسولَه بأنَّ مِن قَومِه مَن لا يؤمِنُ بهذا القُرآنِ حالًا ولا استِقبالًا، إذ لا ينفَعُهم البيانُ مهْما يكُنْ ناصِعًا، ولا ينفَعُهم البُرهانُ وإنْ كان قاطِعًا، وأنَّ الَّذي علَيه في المُصِرّينَ على تكذيبِه منهُم بَعدما جاءَهم به مِن الآياتِ الَّتي دمَغَتْهم بالحُجَجِ البَيِّناتِ، أنْ يَتبَرَّأَ منهم، وينتظِرَ أمرَ اللّٰه فيهم - كان مِن شأنِ هذا النَّبأِ أنْ يُثيرَ عجَبَه؛ لغَرابتِه في نفسِه، وأنْ يَسوءَه؛ لما يشيرُ إليه مِن انتقامِ اللّٰه منهم، بَيَّنَ له مَثَلَ الَّذين فقَدوا الاستعدادَ للإيمانِ، وعَلَّمَه ما لَم يكُن يَعلَمُه مِن سُنَّةِ اللّٰه تعالى فيهم، وكَونِ مُصيبتِهم مِن أنفسِهم، فلا حولَ له ولا قوَّةَ على هدايتِهم"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَرِيٓـُٔونَ﴾: "أصلُ البُرءِ والبراءِ والتّبرّي: التّفصّي ممّا يُكرهُ مجاورتُه، ولذلك قيل: برأتُ من المرضِ وبرِئتُ من فلانٍ وتبرّأتُ، وأبرأتُهُ من كذا وبرّأتُه، ورجلٌ بريءٌ، وقومٌ بُرآء وبريئون"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْريةٌ وتَسْليَةٌ لِلنَّبيِّ ﷺ ووَعيدٌ وتَهْديدٌ لِلمُكَذِّبينَ

هذهِ آيَةُ مُناجَزَةٍ للمُشْرِكين ومُتارَكَةٍ لَهم، وفيها وفي الَّتي بَعْدَها تَسْليَةٌ للرَّسولِ ﷺ وتَسْريَةٌ عنه لتكذيبِ قومِه لهُ، وإعراضِهم عن دعوتِه، وفي ضِمنِها وعيدٌ وتَهْديدٌ. ومَدْلولُ هذه الآيَةِ اخْتِصاصُ كُلِّ واحِدٍ بأفْعالِه وبِثَمَراتِ أفْعالِهِ مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ، ومعناها: وإنْ

(1) رشيد رضا، تفسير المَنار: 11/280.
(2) الرّاغب، المفردات: (برأ).

أصَرَّ قومُك على تكذيبِك فقلْ لَهُم: لي جزاءُ عَمَلي، ولَكُم جزاءُ عَمَلِكم حَقًّا كان أم باطِلًا، ولا يُؤاخَذُ أحَدٌ بذَنْبِ الآخَرِ، فكُلُّ واحدٍ مُرْتَهَنٌ بعملِه.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَإِن﴾:

الواوُ عاطفَةٌ، عطَفَتْ ما تَلاها مِن توْجيهاتٍ على ما تقدَّمَها مِن وَصفِ حالِهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بأَداةِ الشَّرْطِ: (إنْ):

عَدَمُ الاعْتِدادِ بِتَكْذيبِ المُشْرِكينَ

الواوُ في قولِه: ﴿وَإِن﴾ عاطفَةٌ، والتَّعبيرُ بأداةِ الشَّرطِ المفيدةِ تقليلَ حصولِ مدخولِها (إنْ) في قولِه: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل﴾ لاستبعادِ وقوعِ التَّكذيبِ منهم بعد ظهورِ الأدلَّةِ القاطِعَةِ على صِدْقِه ﷺ واعتبارِ هذا التَّكذيبِ كَأنْ لَم يقعْ، وعَدمِ الاعْتدادِ بهِ، وفي هذا تثْبيتٌ له ﷺ.

عِلَّةُ التَّعْبيرِ بفِعْلِ الشَّرْطِ ماضيًا: ﴿كَذَّبُوكَ﴾:

دلالَةُ القَوْلِ عَلى جَوابِ الشَّرْطِ

التَّعبيرُ بفعلِ الشَّرطِ ماضيًا: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ يدلُّ على مُسارَعةِ القومِ إلى تكذيبِه ﷺ وإصرارِهم عَليه، ويدلُّ على تحقُّقِ هذا التَّكْذيبِ. ومَرْجِعُ الضَّميرِ (واوِ الجماعةِ) يعودُ على المُشْرِكينَ، وضميرُ الخِطابِ يعودُ على الرَّسولِ ﷺ والتَّقديرُ: وإنْ بَقيَ المُشْرِكون على تكذيبِك، وأصَرّوا عليه، ويَئِسْتَ من إذعانِهم لدَعوتِك فَقُلْ لي، فاكْتُفيَ به ﴿فَقُل لِّي﴾ للدّلالةِ على جوابِ الشَّرْطِ، وفي وقوعِ المفعولِ بهِ ضميرَ خِطابٍ إشارةٌ إلى تَرَصُّدِ المُشْرِكينَ بالرّسولِ ﷺ وتعمُّدِهم توْجيهَ التَّكذيبِ إلى شَخْصِهِ هو، وكأنَّه هدفٌ لتَكْذيبِهم لا يَرَوْنَ غيرَه.

مَعْنى الفاءِ في: ﴿فَقُل﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشّرْطِ، وهي تقعُ في جوابِ شرطٍ لا يصلحُ أن يكونَ جوابًا للشّرطِ، وإنّما يكونُ الجوابُ محذوفًا وهي عاطفةٌ عليه، والتّقديرُ هنا: وإنْ كذّبوك وآذَوك وافترَوْا عَلَيك، فقُلْ لَهم: لي عمَلي.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ باللّامِ في: ﴿لِّي﴾، ﴿وَلَكُمْ﴾:

المَقصودُ بقولِه: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ جزاءُ العملِ، فكُلٌّ بعَمِله مُرْتَهنٌ ومُحاسَبٌ حَقًّا كان أم باطِلًا، وهذا ما أَظْهَرَتْهُ المُقابَلَةُ بَيْنَ الجزاءَيْنِ. وهذا التَّعبيرُ فيه غايةُ الإنْصافِ لإسْكاتِ الخَصْمِ المُشاغِبِ؛ لذا أوثِرَ استخدامُ اللّامِ الدّالَّةِ على النَّفْعِ في الطَّرَفَيْنِ: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾، حيثُ لم يُقَلْ: لي عَملي، وعَليكم عمَلُكم، باستخدامِ حرفِ الاستعلاءِ الدّالِّ على المضارَّةِ، وهذا أدْخَلُ في إمحاضِ النُّصْحِ، وهذا التَّوجيهُ أَوْلى مِن حَملِ اللّامِ في: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ على المُشاكَلَةِ(1).

إنْصافُ الخَصْمِ، وإخْلاصُ النَّصيحَةِ

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الخَبَرِ عَلى المُبْتَدَأ: ﴿لِّي﴾، ﴿وَلَكُمْ﴾:

أفادَ تقديمُ الخبَرِ على المُبتدأ، والإضافةُ إلى الضَّميرِ في قولِه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾ القصْرَ، والمعنى: لي جزاءُ عملي وهو البلاغُ المُبينُ، والإنذارُ والتَّبشيرُ، وما يستلزمُه مِن العبادةِ والإصلاحِ لا يَتعدّاني إليكُم، ولَكُم مَغبَّةُ عَملِكم بمُقْتَضى تَكذيبِكم وشِرْكِكم، وهو الظّلْمُ والفسادُ، الّذي تُجْزَوْنَ بِه يومَ الحِسابِ لا تَتعدّاكم إليَّ، وقُدِّم ﴿لِّي عَمَلِي﴾ على ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ﴾؛ لأنَّهُ آكَدُ في التَّبَرُّؤِ منهُم، والمُباعَدةِ عنهُم.

كُلٌّ سَيَجْني جَزاءَ عَمَلِهِ، خَيْرًا كانَ أم شَرًّا

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إلَيهِ مَصْدَرًا:

في التَّعبيرِ بالمُسْنَدِ إليهِ مَصدرًا ﴿عَمَلِي﴾ و ﴿عَمَلُكُمْۖ﴾ إشارةٌ

(1) القونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/471.

كُلٌّ مَسْؤولٌ عَنْ عَمَلِهِ

إلى جزاءِ العملِ. ومعنى ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾: المُتارَكَةُ والمُباعَدَةُ. وهو مِمّا أُجْرِيَ مجْرى المَثَلِ، ولِذلِكَ بُنِيَ على الإيجازِ ووَفْرَةِ المعنى، فأُفيدَ فيه القَصْرُ، بتَقْديمِ المَعْمولِ وبالتَّعْبيرِ بالإضافَةِ إلى الضَّميرِ في ﴿عَمَلِي﴾ و﴿عَمَلُكُمۡۖ﴾، وخولِفَ فيهِ ما بَعْدَه، حيثُ عُبِّرَ في هذه الجملةِ بالمَصدرِ؛ للعِلَّةِ المذكورةِ، وعُدِلَ عن ذلك إلى التَّعبيرِ بالفعلِ في قولِه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ كما سَيَأْتي بيانُه[1].

نُكْتَةُ فَصْلِ: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾ ودلالَتُهُ:

التَّسْرِيَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ والتَّخْفيفُ عَنْهُ

جاءَتْ جُملةُ: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ بيانًا لجملةِ: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾؛ لذا فُصِلَتْ، "وهي أيضًا تأكيدٌ لما أفادَتْه لامُ الاختصاصِ مِن عدَمِ تَعَدّي جَزاءِ العمَلِ إلى غيرِ عاملِه"[2]. وهذا التَّرْكيبُ "لا يُرادُ بِه صَريحُهُ، وإنَّما يُرادُ بِه الكِنايَةُ عنِ المُباعَدَةِ، وقد جاءَ هذا المُكَنَّى بِه مُصَرَّحًا بِهِ في قوله تَعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢١٦﴾ [الشُّعراء: 216]."[3] والأمر بالتَّبَرُّؤِ من المُشْركين، مع أنَّ الرَّسولَ ﷺ مَبْعوثٌ بالدَّعوةِ والإرشادِ إلى الحقِّ، إنَّما يَصِحُّ ويكونُ بعد إلزامِ الحُجَّةِ، واليَأْسِ مِن إجابتِهم[4].

سِرُّ تَقْديمِ بَراءَتِهِم: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾:

إنْصافُ الخَصْمِ سيرَةُ أَهْلِ الحَقِّ ودَيْدَنُهُم

قُدِّمَتْ براءَتُهم على براءتِه ﷺ ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ "لأنَّ هذه الجُملَةَ جاءَتْ كالتَّوْكيدِ والتَّتْميمِ لما قَبْلَها، فناسَبَ أنْ تَليَ قولَه: ﴿وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾. ولِمُراعاةِ الفَواصِلِ، إذْ لو تَقَدَّمَ ذِكْرُ بَراءَةٍ كَما تَقَدَّمَ ذِكْرُ ﴿لِّي عَمَلِي﴾ لَم تَقَعِ الجُملَةُ فاصِلَةً، إذْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/668.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.
(4) القونويُّ، حاشية على البيضاويِّ: 9/471.

كانَ يَكونُ التَّرْكيبُ: وأنْتُم بَريئونَ مِمّا أعْمَلُ[1]، وفي هذا تأكيدٌ للقَصْر المُسْتَفادِ من تقديمِ الخبرِ على المبتدأ، وفيه إنْصافٌ للخَصمِ، حيثُ أَثْبَتَ البراءةَ عن عملِه لَهُم أوَّلًا مع أنَّ بيانَ ثُبوتِ جزاءِ العملِ لهُ ﷺ لا لغَيْرِه قُدِّم على بيانِ ثبوتِ جزاءِ عملِهم لهُم لا لغَيْرِهم[2].

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالجُملَةِ الاسْميَّةِ:

ثَباتُ الحُكْمِ ودَوامُهُ

أوثِرَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسْميَّةِ في قولِه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ﴾ و﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ﴾؛ للدّلالةِ على ثباتِ الحُكْمِ ودوامِه. والمعنى: لا تُؤاخَذونَ بعَمَلي، ولا أُؤاخَذُ بعَمَلِكم، ووُرودُها بالجملةِ الاسْميَّةِ لبيانِ أنَّها قاعدةٌ ثابتةٌ، فكلُّ واحدٍ يلحقُه أثرُ عملِه، ولا يتحمَّلُ واحدٌ عن واحدٍ شيئًا، والتَّعبيرُ بالاسْميَّةِ هنا هو الألْصَقُ بخِطابِ الإنْصافِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالمَجْرورِ اسْمًا مَوْصولًا:

إصْرارُ الرَّسولِ ﷺ عَلى إبْلاغِ دَعْوَتِهِ

عُبِّرَ بالمجرورِ اسمًا موصولًا في الجملتين: ﴿مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ و ﴿مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾؛ لبيانِ البراءةِ من خلالِ جملةِ الصِّلةِ الَّتي وقعتْ جملةً فعليَّةً، وقد جاء اسمُ الموصولِ بـ (ما) لأنَّها أعمُّ الموصولاتِ وأدخلُها في الإبهامِ، وهو الألْصَقُ بغرضِ العبارةِ الكريمةِ.

لَطيفَةُ إيثارِ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ:

البراءةُ مِنْ كُلِّ عَمَلٍ يَحْدُثُ في الحالِ والاسْتِقْبالِ

في التَّعْبير بالمُضارع في الطَّرَفَين فِعْلًا: ﴿أَعۡمَلُ﴾ و﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ إشارةٌ إلى عموم العملِ، واستمرارِه، وإلْماحٌ إلى إصرارِ الرَّسولِ الكريم ﷺ على تَأْديَةِ رسالتِه، وإصرارِ المُشْركين على تكذيبه ﷺ وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ في الطَّرَفَيْن صِلَةً لـ (ما) المَوْصولَةِ في ﴿أَعۡمَلُ﴾ و﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على التَّعبيرِ بالمصدرِ كالجملةِ السّابقة في قولِه: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾؛ "لِلدّلالَةِ على البَراءَةِ من كُلِّ عمَلٍ يَحْدُثُ في الحالِ والاسْتِقْبالِ، وأمّا العَمَلُ الماضي فلِكَوْنِه قَد

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/62.

(2) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/471.

انْقَضى لا يَتَعَلَّقُ الغَرَضُ بذِكْرِ البَراءَةِ مِنهُ. ولو عُبِّرَ بالعَمَلِ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ المُرادَ عمَلٌ خاصٌّ؛ لأنَّ المَصدَرَ المُضافَ لا يَعُمُّ، ولِتَجَنُّبِ إعادَةِ اللَّفْظِ بعَيْنِه في الكَلامِ الواحِدِ؛ لأنَّ جُملَةَ البَيانِ مِن تَمامِ المُبَيَّنِ، ولأنَّ هذا اللَّفْظَ أنْسَبُ بسَلاسَةِ النَّظْمِ؛ لأنَّ في (ما) في قوله: ﴿مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ مِنَ المَدِّ ما يَجْعَلُهُ أسْعَدَ بمَدِّ النَّفَسِ في آخِرِ الآيَةِ والتَّهْيِئَةِ للْوَقْفِ على قولِه: ﴿مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، ولِما في ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مِنَ المَدِّ أيضًا، ولأنَّهُ يُراعي الفاصِلَةَ"(1).

الغَرَضُ مِنْ حَذْفِ المَفْعولِ بِهِ:

القـــاعِـــدَةُ في البَـراءَةِ تَشْمَلُ كُلَّ عَمَلٍ بغَضِّ النَّظَرِ عَمّا وَقَعَ عَلَيْهِ العَمَلُ

أشارَ حذفُ المفعولِ به في في: ﴿أَعۡمَلُ﴾ و﴿تَعۡمَلُونَ﴾ إلى عُمومِ العملِ، فحُذِفَ المفعولُ به هُنا لتوفيرِ العنايةِ على الفعلِ والفاعلِ بغَضِّ النَّظَرِ عمّا يقعُ عليهِ الفعلُ، وهذا العمومُ أنْسَبُ بالمَقامِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(تَعْمَلون) و(تَفْعَلون):

الفِعْلُ لا يَمتَدُّ زَمانُـهُ بخِلافِ العَمَلِ، ويَقَعُ بقَصْدٍ وبِدونِ قَصْدٍ

الفعلُ لفظٌ عامٌّ، وهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثرِ في الشَّيْءِ مِن غيرِ انْقطاعٍ ولا بُطْءٍ، سواءٌ كان عن سببٍ، أو لا. ويُقال لما كان بإجادَةٍ وبدونِها، ولِما كان بعِلمٍ أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان مِن الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ. أمّا العملُ فهو عبارةٌ عن إيجادِ الأثرِ في الشَّيْءِ مع امتدادِ زمانٍ وتراخيه. ولا يُقالُ إلّا لما كان مِن عاقلٍ ولِما كان بقصدٍ وعِلمٍ دونَ ما لَم يكنْ عن قصدٍ وعلمٍ. يُقال: فلانٌ يَعْمَلُ الطّينَ خزَفًا، ويَعْمَلُ الأديمَ سِقاءً. ولا يُقال: يفعلُ ذلك؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك الشَّيْءِ هو إيجادُه مِن غيرِ بُطْءٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/176.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢﴾ [يونس: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَنْ أَصَمَّ قَلْبَهُ عَنِ الحَقِّ فَإِنَّ سَمْعَهُ لَنْ يَنْفَعَهُ

"لمّا قسَّم الكفارَ في الآيةِ الأولى إلى: مَن يُؤمنُ، ومَن لا يُؤمِنُ، قسَّمَ مَن لا يؤمنُ هَهُنا إلى قِسْمَيْن: مِنهُم مَن يكونُ في نهايةِ البُغْضِ والعداوةِ، ومنهُم مَن لا يكونُ كذلك، فوَصَفَ هَهُنا القِسْمَ الأوَّلَ، فقال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ مع أنَّه يكونُ كالأصَمِّ، من حيث إنَّه لا ينتفعُ البتَّة بذلك الكلامِ، فإنَّ الإنسانَ إذا قَويَ بُغْضُه لإنسانٍ آخرَ، كان مُعْرِضًا عن سماعِ كلامِه، ولا يلتفتُ إليه، كما أنَّ الصَّمَمَ في الأُذُنِ يمنعُ إدراكَ الصَّوتِ، والعَمَى في العينِ يمنعُ إدراكَ البَصَرِ، فكذا البُغْضُ الشَّديدُ يمنعُ مِن الوُقوفِ على محاسنِ كلامِه، ويمنعُ الوقوفَ على محاسنِ مَن يُعاديه"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾: المَعنى المِحوريُّ: نفاذُ مادَّةٍ لطيفةٍ أو دقيقةٍ إلى أثناءِ شَيْءٍ[2]. والسَّمعُ: حِسُّ الأُذُنِ به تُدْرَكُ الأصواتُ. ويُطْلَقُ السَّمعُ على الأُذُنِ، نَحو قولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، ويُطْلَقُ على فِعْلِ السَّماعِ، نَحو قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشَّعراء: 212]، ويُطْلَق أيضًا على الفَهْم، وعلى الطّاعة، نَحْو قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا﴾ [الأنفال: 31]، وقولِه: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [النّساء: 46]؛ أيْ: فهِمنا قَوْلَك، وعَصَيْناك[3].

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 10/337.
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (سمع).
(3) الرّاغب، المفردات: (سمع).

2) ﴿ٱلصُّمَّ﴾: صَمَّ صَمَمًا، وصَمًّا: تَعطَّلَ سَمعُه، فهو أصَمُّ، وهي صَمّاء، والجمعُ: صُمٌّ. يُقال: صَمَّ عن حديثِه: أعرَضَ، ولَم يرغبْ في سماعِه. والصَّمَمُ: فُقدانُ حاسَّةِ السَّمعِ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْرِيَةٌ وتَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ووَعِيدُ مَنْ عَطَّلَ نَوافِذَ المَعْرِفَةِ

المعنى: ومِن المُشْرِكين مَن يَستمعون إليك أيُّها الرَّسولُ ﷺ إذا قرأتَ القرآنَ استماعًا لا قبولَ فيه، أفَأنْتَ تَقْدِرُ على إسماعِ الصُّمِّ؟ فكذلك لنِ تقدرَ على هدايةِ هؤلاءِ المُنْكِرين المُعْرِضين الَّذين صُمّوا عن سماعِ الحقِّ سَماعَ مَن يَعْقِل، فلا تَبْتَئِسْ، ولا تحزنْ، فإنَّ إعراضَهم لا يعودُ إلى تقصيرٍ منْك، وإنَّما يعودُ إلى فسادِ فِطَرتِهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمِنۡهُم﴾:

الاهْتِمامُ بِبَيانِ حالِ المُقَدَّمِ

الواوُ في قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ﴾ عاطفةٌ، أتْبَعَ تقسيمَهم من حيثُ الإيمانُ بالقرآنِ تقسيمَهم من حيثُ سماعُه، فمِنهم قِسْمٌ يَحضرُ ويَسمعُ، وقِسْمٌ لا يحضرُ ولا يسمعُ.

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ الخَبَرِ في: ﴿وَمِنۡهُم مَّن﴾:

فِي التَّقْدِيمِ عِنايَةٌ واهْتِمامٌ بِمَنْ تَتَّجِهُ إِلَيْهِم دَعْوَةُ الحَقِّ

﴿وَمِنۡهُم﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ و﴿مَّن﴾ مُبْتَدأٌ مُؤَخَّرٌ، وتقديمُ الخبرِ على المُبْتَدأ؛ للاهتمامِ ببيانِ حالِ المُقَدَّمِ، وهُم هذا الصِّنْفُ مِن المَدْعوّين للإسلامِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسْمًا مَوْصولًا:

العاقِلُ مَنْ يَمْلِكُ الأَداةَ ويَعْمَلُ بِمُقْتَضاها

عُبِّرَ بالمُسْنَدِ إليْه اسمًا موصولًا ﴿مَّن﴾ لتعليلِ الحُكْم بأنَّ هؤلاءِ المُشْركين لا يَسمعون، ولبيانِ أنَّ العاقلَ هو مَن يَسمعُ ويَعْقِلُ ما سمعَ، لا مَن يَملِكُ أداةَ السَّمعِ، فأداةٌ بلا أثرٍ، وجودُها كَلا وجود وهذا كلُّه اقْتَضى اسمًا موصولًا لابْتِناءِ صِلَةٍ عليْه.

(1) مجمع اللّغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (صمم).

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمُسْنَدِ إِلَيهِ ضَميرَ جَماعَةٍ: ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾:

السَّمعُ أَكْثَرُ أَفْرادًا، وأَيْسَرُ وُقوعًا مِنَ النَّظَرِ

جُمِعَ فاعلُ ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ على معنى ﴿مَّن﴾ لا على لفظِها، والمعنى: "ومن هَؤُلاءِ الكُفّارِ مَن يَستَمِعُ إلى ما يَأْتي به مِنَ القُرْآنِ بأُذُنِه، ولَكِنَّهُ حينَ لا يُؤْمِنُ ولا يُحَصِّلُ فكَأَنَّهُ لا يَسمَعُ"[1]. والجَمعُ في ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾؛ لأَنَّ السَّمعَ أكثرُ أفرادًا وأيسرُ وقوعًا مِن النَّظرِ، فالإنسانُ كثيرًا ما يسمعُ مَن لا يراه، ومُحالٌ أنْ يَرى كُلَّ مَن يَسمعُ[2]، كما أَنَّ التَّعبيرَ بضميرِ الغَيْبَةِ إلاحَةٌ إلى عدمِ كونِهم لَيسوا أهلًا للخِطابِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْتِفْهامِ المَجازيِّ:

الهادي إلى الحَقِّ هِدايَةَ التَّوْفيقِ هوَ الله وَحْدَه دونَ ما سِواهُ

الاستفهامُ المجازيُّ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ لإنكارِ أَنْ يكونَ الرّسَولُ ﷺ قادِرًا على هِدايةِ مَنْ لا تتوفَّرُ لديْه أسبابُ الهِداية مهما بَذَل مِن جهْدٍ، إنكارِ أن يَهْدِيَ مَن لم ينتفعْ بما سمعَه من آياتِ التَّنزيلِ فصار كَمَن فقدَ السَّمعَ، بل فَقَدَ العقلَ أيضًا، فأنَّى للرَّسولِ ﷺ أنْ يَهْدِيَ مَن كانت هذه حالُه؟ و"هَمزَةُ الاسْتِفْهامِ إنْكاريَّةٌ، لا إنْكارًا لاسْتِماعِهم فإنَّه أمرٌ مُحقَّقٌ؛ بَلْ إنْكارًا لوُقوعِ الاسْتِماعِ عَقيب ذَلِك وتَرَتُّبِه علَيْه حَسَبَ العادَةِ الكُلِّيَّة، بَلْ نَفْيًا لإمكانِه أيضًا، كَما يُنْبِئُ عنْهُ وضْعُ الصُّمِّ مَوْضِعَ ضَميرِهِم ووَصْفُهُم بعَدَمِ العَقْلِ بقولِه تَعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ أيْ: ولَو انْضَمَّ إلى صَمَمِهِم عدَمُ عُقولِهم؛ لأَنَّ الأَصَمَّ العاقِلَ رُبَّما تَفَرَّسَ إذا وصَلَ إلى صِماخِه صَوْتٌ، وأمّا إذا اجْتَمَعَ فِقْدانُ السَّمعِ والعَقْلِ جَميعًا فقد تَمَّ الأَمرُ"[3].

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿أَفَأَنتَ﴾ ودلالَةُ حَذْفِ المَعْطوفِ:

الفاءُ عاطِفَةٌ على جملةٍ محذوفةٍ بَيْنَ همزةِ الاستفهامِ وحرفِ العطفِ، كَأَنَّهُ قيلَ: أَيَسْتَمِعونَ إلَيْك فأَنْتَ تُسْمِعُهم؟ والمعطوفُ عليه

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز، ص: 910.
(2) المَطْعَنيّ، التَّفسير البلاغيّ: 2/60.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/670.

محذوفٌ يدلُّ عليه ما بعدَه، وقد حُذِفَ تناسبًا مع واقعِ سماعِهم غيرِ المُجْدي ولا المُغْني.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِضَميرِ الخِطابِ:

ما عَلى الرَّسولِ إلّا البَلاغُ

في التَّعبيرِ بضميرِ خِطابِه ﷺ تخصيصٌ للخِطابِ به، ورفْعُ احتمالِ أنْ يُقصَدَ بالخطابِ غيرُهُ ﷺ وليَتَأتَّى أنْ يُقالَ لَه ﷺ: "أأنْتَ خصوصًا قد أوتيتَ أنْ تُسْمِعَ الصُّمَّ؟ وأنْ يُجْعَلَ في ظَنِّه أنَّه يَستطيعُ إسْماعَهم بمثابةِ مَن ظَنَّ أنَّه قد أوتي قُدْرَةً على إسْماعِ الصُّمِّ"[1].

الغَرَضُ مِنْ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ عَلى خَبَرِه الفِعْليِّ:

لَيْسَ إسْماعُ الصُّمِّ مِمّا يَدَّعيهِ أحَدٌ

قُدِّمَ المُسْنَدُ إليه على خبرِه الفِعْليِّ في: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾؛ لأنَّه مَحطُّ الإنكارِ، بيانُ ذلك أنَّه "لَيس إسماعُ الصُّمِّ ممّا يَدَّعيه أحَدٌ فيكونُ ذلك للإنكارِ، وإنَّما المعنى فيه التَّمثيلُ والتَّشبيهُ، وأنْ يُنَزَّلَ الَّذي يَظُنُّ بهم أنَّهم يُسْمَعون، أو أنَّه يستطيعُ إسْماعَهم، منزلةَ مَن يَرى أنَّه يُسْمِعُ الصُّمَّ، ويَهْدي العُميَ"[2]. وقُدِّمَ أيضًا المُسْنَدُ إليه على خبرِه الفعليِّ هُنا لإفادةِ القَصْرِ، والقَصْرُ للإفرادِ، حيثُ نُزِّلَ الرَّسولُ ﷺ لحِرْصِه الشَّديدِ على هِدايةِ النّاسِ منزلةَ مَن يَعتقدُ أنَّه قادِرٌ مع اللّه تعالى على هدايةِ المُنْكِرين لرِسالتِه.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿تُسۡمِعُ﴾:

تَكَرُّرُ اسْتِماعِ المُشْرِكينَ لآياتِ اللهِ

عُبِّرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ دون اسْمِ الفاعِلِ؛ للإشارةِ إلى تَكَرُّرِ استماعِ المُشْرِكين لآياتِ اللّه تعالى والرَّسول ﷺ يتلوها، وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ دلالةٌ على اجتهادِه ﷺ في البلاغِ.

الغَرَضُ مِنَ التَّعْبيرِ بالاسْتِعارَةِ في: ﴿ٱلصُّمَّ﴾:

تَعْليلُ عَدَمِ انْتِفاعِ المُشْرِكينَ بِما يَسْمَعونَ مِنَ القُرْآنِ الكَريمِ

شُبِّه المُشْرِكون الَّذين يَستمعون إلى آياتِ اللّه وهي تُتْلى غَضَّةً نَديَّةً منه ﷺ بالصُّمِّ؛ لعَدَمِ انتفاعِهم بما يَسمعون، وبلاغةُ

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 120.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 120.

الاستعارةِ الأصليَّةِ هُنا أنَّها جاءتْ تعليلًا لعدمِ انتفاعِ المُشْرِكين بما يَسمعون منَ القرآنِ الكريمِ، و"في هَذَيْنِ الاسْتِفْهامَيْنِ تَرْشيحٌ لاسْتِعارَةِ الصُّمِّ والعُمي لهَؤُلاءِ الكافرينَ، أي: أنَّ اللّه لمّا خَلَقَ نُفوسَهم مَفْطورَةً على المُكابَرَةِ والعِنادِ وبَغْضاءِ مَن أنْعَمَ اللهُ عليْهِ وحَسَدِهِ، كانَتْ هاتِهِ الخِصالُ حَوائِلَ بَيْنَهم وبَيْنَ التَّأَثُّرِ بالمَسْموعاتِ والمُبْصَراتِ، فجيءَ بصيغَةِ الاسْتِفْهامِ التَّعْجيبيِّ المُشْتَمِلَةِ على تَقَوّي الخَبَرِ بتَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ بقولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ﴾ وقولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (أتُسْمِعُ الصُّمَّ؟) و(أتَهْدي العُميَ؟)، فكانَ هذا التَّعْجيبُ مُؤَكَّدًا مُقَوًّى"[1].

نَوْعُ الواوِ في: ﴿وَلَوۡ﴾:

(لَوْ) الوَصْليَّةُ لِلدّلالَةِ عَلى المُبالَغَةِ في الأَحْوالِ

"الواوُ في قولِه: ﴿وَلَوۡ﴾ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ تقديرُها: أأنت تُسْمِعِ الصُّمَّ لَو كانوا يَعقلون، ولَو كانوا لا يَعقلون؟. وهي (لَو) الوَصْليَّةُ للدّلالةِ على المُبالغةِ في الأحوالِ حسبَ اقتضاءِ المقامِ"[2]. وهي الَّتي يكونُ ما بَعْدَها أقصى ما يَتَعَلَّقُ به الغرضُ مِن الكلامِ، ولذلك يُقَدِّرون قَبْلَها جملةً معناها ضدُّ الجملةِ الّتي دَخَلَت عليها (لَو).

دلالَةُ الخَتْمِ بِأُسْلوبِ الشَّرْطِ:

تَيْئيسُ النَّبيِّ ﷺ مِنْ هِدايَتِهِم

جملةُ الشَّرطِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ كنايةٌ عن التَّيْئيسِ مِن هدايةِ هؤلاءِ، حيثُ شَبَّهَهم أوَّلًا بالصُّمِّ في عدمِ اهتدائِهم بالقرآنِ، وبولِغ في بيانِ صُدودِهم فجعلَهم مَسْلوبي العقولِ؛ لأنَّ اجتماعَ هاتَيْنِ الآفتَيْنِ: الصَّمَمِ، وعَدَمِ التَّعقُّلِ والإدراكِ يَسْلبانِ عمَّن أُصيبَ بهما كُلَّ وسائلِ التَّأثُّرِ، فهُم كالدُّمى، أشكالُها أشكالُ الإنسانِ، وطبيعتُها طبيعةُ الجمادِ أو الحَيوانِ[3]. ومِمّا يلْفِتُ الانتباهَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير 11/178.

(2) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/58.

(3) المَطْعَنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/60.

في هذه الآيةِ الكريمةِ والَّتي تليها هو هذا التكثيفُ في إثباتِ عدَمِ هِدايةِ هؤلاءِ المُعْرِضين، لإعراضِهم عن الحقِّ الَّذي جاء به الرَّسولُ ﷺ ثُمَّ ارتقى الإنكارُ في بيانِ بُعْدِهم عن الحَقِّ فجُعِلوا مَسْلوبي العقولِ؛ لأنَّ اجتماعَ الصَّمم، وعدم التَّعقُّلِ يَسُدّان كُلَّ منافذِ التَّأثيرِ أمامَ مَن اتَّصفَ بهما. وفي الآيةِ أيضًا كنايةٌ عن تَيْئيسِه ﷺ من هدايتِهم. وفي هذه الآيةِ إدماجٌ بديعٌ، حيثُ جَمعت بَيْنَ أكثرَ مِن غرضٍ ولَونٍ بلاغيٍّ[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُضارِعِ في: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

دَلَّ المضارعُ على تجدُّدِ عدمِ انتفاعِهم بالحقِّ كُلَّما استمعوا للّه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَعْقِلون) و(يَفْقَهون):

يَتَمَيَّزُ الفِقْهُ بِمَلامِحَ دلاليَّةٍ فارِقَةٍ هيَ التَّأَمُّلُ، والاسْتِنْباطُ، والإحاطَةُ، والتَّرَيُّثُ قَبْلَ إصْدارِ حُكْمٍ

العقلُ في اللُّغةِ: الحبسُ، والمنعُ، يُقال: عقلتُ البعير أعقِلُه عقلًا: قيّدته بما يحبِسُه عن الانبعاثِ[2]. ومِن ذلِك العقل، وهو الحابِسُ عن ذميم القولِ والفِعلِ[3]؛ لذلك سُمّي العقلُ بهذا الاسم. والمرادُ بالعقلِ: الفهمُ والإدراكُ والتّدبُّرُ والوعيُ بِمرمى الأشياءِ وأغراضِها.

والفِقهُ في اللُّغةِ: العِلمُ بالشّيءِ، والفهمُ له، والفِطنةُ[4]. تشترِكُ الكلمتانِ: (العقلُ والفِقهُ) في الدّلالةِ على الفهم والوعي والإدراك، ويتميّزُ الفِقهُ بملامِح دلاليّةٍ فارقةٍ؛ هي: التّأمُّلُ، والاستنباطُ، والإحاطةُ، والتّريُّثُ قبل إصدارِ حُكمٍ[5]. والمُناسِبُ هُنا التّعبيرُ بـ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ لأنَّه المرحلةُ الأولى في الفَهْمِ.

---

(1) الروينيّ، البلاغة القرآنيّة في الحديث عن النّبيِّ ﷺ، ص: 709.
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفّاظ: (عقل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(4) مجمع اللُّغة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (فقه).
(5) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 362.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣﴾ [يونس: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَرَ اللّه ﷻ تَقسيمَ المُشركينَ باعتبارِ تَلقّيهم مِنَ النَّبيِّ ﷺ إلى قِسمَين:

العلاقة بينَ السّماعِ والمُعاينة، وبُلوغُ المُشرِكينَ غايَةَ الضَّلالِ، بتعاميهم عمّا يُسمعُ أو يُقالُ

أحدُهما: مَن يَحضرُ مَجلِسَهُ، ويَستَمِعُ كلامَهُ، وهُمُ المَذكورونَ في الآيةِ المتقدِّمةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢﴾ [يونس: 42].

والآخرُ: مَن لا يَحضرُ مَجلسَهُ، وإنَّما يَتوسَّمونَهُ، ويَنظرونَ سَمتَهُ، وهُمُ المذكورونَ في هذه الآيةِ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

وكلا الحالَين مِن مَسالِكِ الاهتداءِ؛ إِذْ سماعُ كلامِ النَّبيِّ ﷺ، والنَّظرُ في هَديه وسَمتِهِ؛ من أسبابِ الهِدايةِ، فلمّا ذَكَرَ اللّه سُبحانَه أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ قد بلَغوا الغايَةَ في الضَّلالِ؛ إِذْ أصرّوا على الكُفرِ مع سَماعِهِم كلامَ النَّبيِّ ﷺ؛ أتبعَهُ ببيانِ عدمِ انتفاعِهِم بمُعاينةِ ذاتِ النَّبيِّ ﷺ، وما ذاك إلّا لشدَّةِ بُغضِهِم إيّاه وحَسدِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾: أصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيَةٍ. من ذَلكَ العَمَى: ذهابُ البَصَرِ كُلِّه، والفعلُ منه عَمِيَ يَعمَى عَمًى[2]، يُقالُ: عَمِيَ الرَّجُلُ: إذا فَقَدَ بَصَرَه فلا يَرى شيئًا. ويُطلَقُ العَمَى على فَقدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/177.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).

البَصيرَةِ، يُقالُ: عَمِي فُلانٌ عَن رُشدِهِ، وعَمي عليه طريقُه إذا لم يهتدِ لِطريقِهِ، ورجلٌ عَمٍ، وقومٌ عَمون. وكلّما ذَكَرَ اللّه ﷻ العَمَى في كتابِه فذمَّه يُريدُ عَمَى القلبِ[1]، وهذا هو المقصودُ مِنَ العَمَى في الآيةِ.

2) ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: أَصلُ مفردة (البَصَر): وُضوحُ الشَّيءِ، وبَصُرَ الطَّريقُ؛ أي: استبانَ ووَضُحَ، والبَصيرَةُ: البُرهانُ[2]. ويُطلَقُ البَصَرُ على حاسَّةِ العينِ، تقولُ: جاءَ كَلَمحِ البَصرِ؛ أَي: كلمحِ العينِ، والجَمعُ: أبصارٌ[3]. والإبصارُ: الرُّؤيَةُ والنَّظَرُ بالعَينِ[4]. والبَصيرُ والمُبصِرُ: الناظِرُ لِغيرِهِ، وضِدُّه الأعمَى. ويأتي البَصَرُ أيضًا بمعنى: العِلم والإدراكِ، وهيَ الرُّؤيَةُ بالقلبِ، كقولِكَ: بَصُرتُ بالشَّيءِ إذا عَلِمتَه وأدرَكتَهُ، والبَصيرَةُ: قوَّةُ الإدراكِ والفِطنَةُ والعِلمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[5]. والمقصودُ بالبَصَرِ في الآيةِ: رُؤيَةُ العَينِ للأشياءِ المَحسوسَةِ. ويعني البصيرةَ أيضًا؛ وهي: نورُ القَلبِ الَّذي يُستبصَرُ بهِ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مَن نَظَرَ بعينِه، ولم يُبصِرْ بقلبِه، فإنَّه لا ينفعُه بلاغٌ، ولا تُؤَثِّر فيه مَوعِظةٌ

تشيرُ الآيةُ إلى جماعةٍ أخرى من المدعوّين، لها موقفٌ آخر مع النَّبيِّ ﷺ، وقد سَمعتِ القُرآنَ، ثمَّ جعلَت تنظرُ فيه بقلوبٍ مريضةٍ، وعقولٍ سَقيمةٍ، فلم تهتدِ إلى خيرٍ، ولم تتعرفْ إلى حقٍّ، فيخبرُ الحقُّ ﷻ عنهُم بأنَّ مِنهُم مَن ينظُرُ إليك - يا مُحمَّدُ - ولا يَنتفعونَ بذلك النَّظَرِ، أفأنتَ تستطيعُ أن تُرشِدَ العُميَ الَّذين لا بَصرَ لهم ينتَفِعونَ به؟! فكذلك لا تَقدرُ على هِدايةِ هؤلاء؛ لأنَّهُم وإنْ كانوا مُبصِرينَ بأعينِهِم في الظّاهِرِ، فَهُم غيرُ مُبصِرينَ بقلوبِهِم في

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عمي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/59.

الحقيقةِ، فلا تستطيعُ هِدايتَهُم لِفقدِهم نعمةَ البصيرةِ المُدرِكةِ والعقلِ المُدرِك: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحجّ: 46][1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الوصلِ في: ﴿وَمِنۡهُم﴾:

تَتميمُ ذِكرِ أحوالِ المُشرِكينَ في تَلَقِّيهِم مِنَ النَّبيِّ الأمينِ

جاءَت هذه الآيةُ معطوفةً على سابِقَتِها، وهي قولُه سبحانَه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾ [يونس: 42]، وبينَ الجملتينِ التَّوسُّطُ بينَ الكمالَين؛ إذ كِلتا الجملتَينِ خبريَّةٌ، وبينَهُما مُناسبَةٌ في اللَّفظِ والمعنى؛ فأمّا التَّناسبُ في اللَّفظِ فإنَّ كُلَّ واحدةٍ منَ الجملتينِ إسميَّةٌ، واشتركَتا في المُسنَدِ إليه ﴿مَّن﴾، وفي مُتعلَّقِ المُسنَدِ ﴿وَمِنۡهُم﴾، وإنَّما اختلفتا في مُتعلَّقِ ذلك، وأمّا التَّناسبُ في المعنى فلأنَّ مَضمونَ الجملتينِ في ذِكرِ أحوالِ المُشركينَ في تَلقّيهم مِنَ النَّبيِّ ﷺ، والمرادُ بيانُ كونِهم مطبوعًا على قُلوبِهم، بحيثُ لا سبيلَ إلى إيمانِهم، فانضمَّ إلى ذلكَ عَدَمُ البَصرِ والبَصيرَةِ، فإنَّ المَقصودَ مِنَ الإبصارِ الاعتِبارُ[2]، فانسَدَّ عليهم بابُ الهُدَى، ولِتَشريكِهم في الحُكمِ عليهم بعدمِ الانتِفاعِ وعدمِ الاهتِداءِ.

دِلالةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ) في شبه الجملةِ: ﴿وَمِنۡهُم﴾:

إنصافُ القرآنِ الكريمِ في الحُكمِ على المُخالِفينَ

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ أي: بعضُ هؤلاءِ المذكورينَ مَن يحضرُ مَجلسَكَ، ويستَمِعُ كلامَكَ، ولكنَّه لا ينتفِعُ.

وفي التَّعبيرِ بحرفِ التَّبعيضِ دلالةٌ على إنصافِ القرآنِ الكريمِ مع المُخالِفينَ، فلا يُعَمِّمُ الحُكمَ في مَقامٍ يَقتضي التَّخصيصَ، وفيه تعليمُ العبادِ الإنصافَ كذلكَ.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1020، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/184.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/148.

المُبالغةُ في الإنكارِ على مَن عايَنَ الأدلَّة، واستَمرَّ في ضلالِه

دِلالةُ تعريفِ المُسنَدِ إليه بالموصوليَّةِ في ﴿مَّن﴾:

﴿مَّن﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ اسمٌ موصولٌ مُشتَرَكٌ، وهو هُنا بمعنى (الَّذي) لِغيرِ واحدٍ، وفي التَّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِه تمهيدٌ لِلمُبالغةِ في الإنكارِ عليهم؛ حيث إنَّهم عاينوا أدلَّةَ النُّبوَّةِ وشواهِدَها، ولم تَسرِ الهِدايَةُ إلى قلوبِهم، لا لضعفِ الوارِدِ، وإنَّما لقوَّةِ المانعِ في قلوبِهم.

التَّمييزُ ابتداءً بينَ مَحالِّ الألفاظِ مِن بليغِ البيانِ

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَمِنۡهُم﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿وَمِنۡهُم﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾؛ مشاكلةً لأسلوبِ التَّقسيمِ الّذي صُدِّرَت به الآيةُ المُتقدِّمَةُ، وهي قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾، ولِلتَّنبيه مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه خَبَرٌ.

توبيخُ المُشرِكينَ على ضَعفِ بَصائرِهِم، وعدمِ قصدِهِمُ الانتفاعَ بالهدى

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَنظُرُ﴾:

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَنظُرُ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾؛ للدّلالةِ على تَجَدُّدِ النَّظرِ وحُصولِه مِنهُم شيئًا فشيئًا، فهو نَظَرٌ مُتجدِّدٌ، وفي هذا: النِّداءُ عليهِم بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ حيثُ تكرَّرتْ مِنهُم موجِباتُ الهِدايَةِ؛ وهي النَّظرُ في ذاتِ النَّبيِّ ﷺ ومُشاهَدَةُ هديِه وسَمتِه، ولم يكُنْ هذا التَّكرارُ موجِبًا لِهدايتِهم؛ لِشدَّةِ قساوَةِ قلوبِهم، وعدمِ قصدِهِمُ الانتفاعَ بهذا النَّظرِ المُتكرِّرِ. وفي التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ، وهو دالٌّ على الحالِ، مع أنَّ هذا النَّظرَ وَقَعَ مِنهُم قبلُ؛ لاستحضارِ الصّورةِ الماضيةِ كأنَّها واقعَةٌ في الحالِ؛ تذكيرًا بقساوةِ قلوبِهم وضعفِ بصيرَتِهم.

ولَم يقعِ التَّعبيرُ باسمِ الفاعِلِ، فلم يُردِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ومِنهُمُ النّاظرُ إليكَ)؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ دالٌّ على ثُبوتِ النَّظَرِ واستِمرارِه على حالٍ واحِدَةٍ.

النُّكتةُ في إفرادِ ضميرِ ﴿يَنظُرُ﴾:

قِلَّةُ النّاظِرينَ إلى النُّبوَّةِ مِنَ المُشرِكينَ مُقارَنَةً بالمُستَمِعينَ

جاءَ الضمير في ﴿يَنظُرُ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ مُفرَدًا حَملًا على لَفظِ (مَنْ)، والنُّكتَةُ في ذلك الإيماءُ إلى قِلَّةِ النّاظِرينَ أو عدم تَمَكُّنِهم مِنَ النَّظرِ إليكَ، بخلافِ الآيةِ المُتقدِّمة، وهي قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ﴾، فقد جُمِعَ الضَّميرُ ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ حَملًا على المَعنَى، وذلك للإيماءِ إلى كثرةِ المُستَمِعينَ إليه ﷺ[1].

قال الآلوسيُّ: "وجُمِعَ الضَّميرُ الرّاجِعُ إليه؛ رِعايَةً لجانبِ المعنى، كما أُفرِدَ فيما بَعدُ رِعايَةً لجانبِ اللَّفظِ، ولعلَّ ذلك للإيماءِ إلى كَثرةِ المُستَمِعينَ بناءً على عدم تَوَقُّفِ الاستماعِ على ما يَتَوَقَّفُ عليه النَّظرُ مِنَ الشُّروطِ العاديَّةِ أو العَقليَّةِ"[2].

بَراعةُ الحذف: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾:

طَيُّ ما دَلَّ السّياقُ عليهِ؛ اقتصادًا في اللَّفظِ، وإيجازًا في التَّركيبِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ إيجازٌ بالحذف، وقد دلَّ على المحذوفِ سياقُ التَّقسيمِ بالنِّسبَةِ للتَّلقّي منه ﷺ، والتَّقدير: (ومنهُم مَن ينظُرُ إليك، ولا يَنتفعونَ بذلكَ)، كما قال ابنُ عاشور: "وقد أفادَ سياقُ الكلامِ أنَّهُم يَستَمِعونَ إليهِ، ويَنظُرونَ إليهِ، ولا يَنتَفِعونَ بذَلِكَ مِن جِهَةِ أنَّ المُستَمِعينَ إليه والنّاظِرينَ إليه هُنا استَمَرّوا على الكُفرِ، كما دَلَّ عليه قوله: ﴿وَمِنۡهُم﴾ في المَوضِعَين، فَطويَت جُملَةُ: (وَلا يَنتَفِعونَ) أو نَحوها لِلإيجازِ بدلالةِ التَّقسيمِ"[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ مع تأخيرِ المُسنَدِ إليه:

استِمرارُ المُشرِكينَ على ضلالِهم، مَعَ تَوافُرِ أسبابِ الهِدايةِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ، تأخَّرَ فيها المبتدأُ، وفي التَّعبيرِ بِها إشعارٌ بأنَّهُم استمرّوا في النَّظرِ إليه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/161.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/177.

وإلى أدلَّةِ نبوَّتِهِ، إلّا أنَّه لم تحصلْ مِنهُم هِدايةٌ، بل استمرّوا على انحرافِهم وكُفرِهِم.

عِلَّةُ الفَصلِ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ﴾:

عـدمُ انـتِـفـاعِ مَـن عَـلِـمَ اللهُ تعالى موتَه على الـشِّـركِ، بما جاءَه مِنَ الحقِّ

فُصِلَت هذه الجملةُ عمّا قبلَها؛ لاختلافِهما خبرًا وإنشاءً، فبَينَ الجملتينِ كمالُ الانقطاعِ، والجملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ يُرادُ به نفيُ انتفاعِ المُشركينَ الّذين عَلِمَ اللهُ استمرارَهُم على الشِّركِ بشيءٍ مِنَ الأدلَّةِ والبراهينِ الّتي يُعاينونَها بعينِ البصَرِ، أو بعينِ البصيرَةِ، إن وُجِدَت فيهم بَقيَّتُها.

ويجوزُ أن يكونَ بينَ الجملَتينِ كمالُ الاتِّصالِ، وذلك إذا حُمِلَ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ﴾ على معنى النَّفي، فتكونُ الجملةُ إنشائيَّةً في لفظِها، ولكنَّها خبريَّةٌ في معناها، ومِنَ المُتقرِّرِ في بابِ الوصلِ والفصلِ أنَّ العِبرةَ في الجملِ بالمعاني، فيكونُ في الآيةِ تعقيبُ جملةٍ خبريَّةٍ على أخرى خبريَّةٍ، بينَهما اتِّحادٌ في أصلِ المَعنَى، وذلك لأنَّ في قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ﴾ محذوفًا، والتَّقديرُ: ومنهُم مَن ينظُرُ إليكَ فلا يَنتفِعونَ، ثُمَّ قوِّيَ هذا المعنَى، وأُكِّدَ بقولِه سُبحانَهُ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ﴾؛ أي: أنتَ لا تَهديهِم؛ إذ كانوا عُميَ القلوبِ.

دِلالَةُ الاستِفهامِ في: ﴿أَفَأَنتَ﴾:

انـعِـدامُ العقلِ والـتَّـبَـصُّـرِ عندَ المُشرِكينَ أودى بهِم إلى التَّهلُكَةِ

الهمزةُ في ﴿أَفَأَنتَ﴾ في قولِه تعالى ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ﴾ للاستفهامِ، والاستفهامُ ههنا ليسَ جاريًا على أصلِ دلالتِه مِن إرادةِ طلبِ العِلمِ بشيءٍ لَم يكُنْ مَعلومًا من قبلُ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه عليمٌ بكلِّ شيءٍ لا تَخفى عليه خافيَةٌ، وإنَّما الاستفهامُ يُرادُ به التَّعَجُّبُ مِن حالِهِم، حيثُ جَمَعوا مع عَماهُم عدمَ التَّبَصُّرِ، "وبُنِيَ على ذلكَ استفهامٌ عن التَّمَكُّنِ مِن إسماعِ هَؤُلاءِ الصُّمِّ وهَديِ هؤلاءِ العُميِ، مَعَ أنَّهُم قد ضَمّوا إلى صَمَمِهِم عدمَ العقلِ، وضَمّوا إلى عَماهُم عدمَ التَّبَصُّرِ...فينظرونَ أعمالَه وسيرتَهُ، ولا يَهتَدونَ بها"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/178.

ويجوزُ أن يكون الاستفهامُ مُرادًا به النَّفيُ؛ أي: أنتَ لا تَهدي العُميَ، ولا تنافيَ بين دلالةِ الاستفهام على التَّعجُّب ودلالته على النَّفيِ، فيُحمَلُ اللَّفظُ على المعنيينِ معًا؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

بلاغةُ الحذفِ في سؤالِه عن هِدايةِ العُمي:

عـدمُ اهـتِـداءِ المُشرِكينَ، ليسَ ضَعفَ الحَقِّ، وإنّما انغلاقُ مَنافذِ قُلوبِهم

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي﴾ إيجازٌ بالحذف، والتَّقدير: ومنهُم مَن ينظرُ إليكَ ولا يَنتفِعونَ، أفتلومُ نفسَكَ في أمرِ هِدايتِهم، وتَجِدُ في نفسِكَ مِن أجلِهم، أنت لا تهدي العُميَ، فعدمُ اهتداءِ هؤلاءِ الضَّربِ مِنَ النّاسِ ليسَ لقصورٍ في الوارِدِ عليهم، وإنَّما لخللٍ فيهم أنفُسِهم، وفي هذا تَسليةٌ لَه ﷺ، وألّا يَكترِثَ بعدم قَبولِهم، فإنَّ الهدايةَ إنَّما هي للّه تعالى، والمُرادُ "أنَّهم عُميٌ فلا تَقدِرُ على هِدايَتِهم؛ لأنَّ السَّبَبَ الَّذي يُهتَدَى بِه إلى رُؤيةِ الدَّلائلِ قد فَقَدوهُ، هَذا وَهُم مَعَ فَقدِ البَصرِ قَد فَقَدوا البَصيرَةَ، إذ مَن كانَ أعمَى فإنَّه مُهديه نورُ بَصيرَتِه إلى أشياءَ بالحَدسِ، وهذا قد جَمَعَ بيَنَ فقدانِ البَصرِ والبَصيرَةِ، وهذه مُبالَغةٌ عَظيمةٌ في انتِفاءِ قَبولِ ما يُلقَى إلى هؤلاءِ، إذْ جَمَعوا بينَ الصَّمَمِ وانتِفاءِ العقلِ، وبينَ العمى وفَقدِ البصيرَةِ"[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾:

المَقصودُ مِنَ الإبصارِ الاعتِبارُ والاستِبصارُ، ومَن لا يهتدي هو بِمَنزِلَةِ الأعمى

شُبِّهَ المشركونَ بالعُميِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾؛ لِتَعاميهِم عن الحَقِ وعدمِ انتفاعِهم بالبصَرِ، فحُذِفَ المشبَّه وصُرِّحَ بالمشبَّه به على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، "والمُرادُ تَسليَةُ النَّبيِّ ﷺ؛ أي: كما لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ مَن سُلِبَ السَّمعَ، ولا تَقدِرُ أنْ تَخلُقَ للأعمَى بَصَرًا يَهتَدي بِهِ، فكذَلِكَ لا تَقدِرُ أنْ توَفِّقَ هؤلاءِ للإيمانِ"[2]، وإنَّما قال: ﴿تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ تربيةً لإنكارِ هِدايَتِهم،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/161.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/346.

وإبرازًا لِوُقوعِها في مَعرِضِ الاستحالةِ، وقد أَكَّد ذلكَ حيثُ قال: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾؛ أي: ولَو انضمَّ إلى عدمِ البَصرِ عدمُ البَصيرَةِ، فإنَّ المقصودَ مِنَ الإبصارِ الاعتِبارُ والاستِبصارُ، والعُمدَةُ في ذلك هيَ البَصيرَةُ[1]، وفي جَعلهم عُميًا إيماءٌ إلى أنَّه لا يَقدِرُ على إسماعِهم وهدايَتِهم إلّا اللّه ﷻ، كما لا يَقدِرُ على رَدِّ الأصَمِّ والأعمَى، المَسلوبِي العَقلِ، حَديدي السَّمعِ والبَصَرِ، راجِحي العَقلِ، إلّا هو وحدَهُ[2].

دِلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾:

الانصِرافُ عن الحَقِّ ومَنهَجِ الصَّوابِ ضربٌ مِن ضُروبِ العَمى

اللّامُ في ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ للعهدِ العِلميِّ، والمُرادُ: المَعهودونَ بعَماهُم وانصِرافِهم عَن جادَّةِ الحَقِّ ومَنهَجِ الصَّوابِ، وهُم مَن خُلِقَتْ نُفوسهم مَفطورَةً على المُكابَرَةِ والعِنادِ وبُغضِ مَن أنعَمَ اللّه عليه وحدَهُ، فكانَت هَذه الخِصالُ مِن شيَمِهم، فحالَتْ بَينَهُم وبَينَ التأثُرِ بالمُبصراتِ.

نُكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ:

شِدَّةُ حِرصِ النَّبيِّ ﷺ على هِدايَةِ الخَلقِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَهۡدِي﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه (أَنْتَ) على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿تَهۡدِي﴾، تقويةً للإنكارِ المُستفادِ مِنَ الاستفهامِ وتأكيدًا له، ووجه ذلك أنَّ فيه تَكرارَ النِّسبَةِ؛ وذلك أنَّ فِعلَ الهِدايَةِ ﴿تَهۡدِي﴾ مُسنَدٌ إلى الضَّميرِ المنفصِلِ (أَنت)، ومُسنَدٌ أيضًا لِلضَّميرِ المُستَتِرِ فيه، وهذا وجه إفادَةِ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ التَّقويةَ والتَّأكيد، وفي هذا إيماءٌ إلى شدَّةِ حرصِ النَّبيِّ ﷺ على هدايتِهم.

دِلالةُ الواوِ في ﴿وَلَوۡ﴾:

تَعذُّرُ الهِدايَةِ عِندَ انعِدامِ البَصَرِ والبَصيرَةِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، الواوُ في ﴿وَلَوۡ﴾

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/148.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.

مِنَ الآيةِ الكريمةِ عاطفةٌ على ما سبقَ، والتَّقديرُ: أفأنتَ تهدي العُميَ، ولو انضمَّ إلى عدمِ البصرِ عدمُ البَصيرَةِ؟[1]، ولا مانعَ مِن حملِها على الحالِ على معنى: أفأنتَ تهدي العُميَ حالَ كونِهم عُميَ البصيرةِ أيضًا؟

معنى ﴿وَلَوۡ﴾ ودِلالَتُها:

تَحَقُّقُ أمـرٍ ما عِندَ وُجودِ مانِعٍ قَـويٍّ يَقتَضي تَحَقُّقَه مَعَ مانِعٍ ضَعيفٍ، أو دونَ مانِعٍ

﴿وَلَوۡ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ حرفُ شرطٍ غيرُ جازمٍ، وهي وصليَّةٌ تدلُّ على المُبالغةِ في الأحوالِ؛ وهي الَّتي يكونُ بعدَها أقصَى ما يتعلَّقُ بِهِ، والمعنَى: أفأَنتَ تَهديهِم على كُلِّ حالٍ مَفروضٍ، أو أنَّ التَّقدير: تَهديهِم ولَو كانوا لا يُبصِرونَ، والمعنى: "أفأَنتَ تَهدي العُميَ لو كانوا يُبصِرونَ، ولو كانوا لا يُبصِرونَ؛ أي: على كُلِّ حالٍ مَفروضٍ، وقد حُذِفَتِ الأولَى في البابِ حَذفًا مُطَّرِدًا؛ لِدلالةِ الثّانيةِ عليها دلالةً واضِحَةً، فإنَّ الشَّيءَ إذا تَحَقَّقَ عِندَ تَحَقّقِ المانِعِ أوِ المانِعِ القَويِّ؛ فَلَأَنْ يَتَحَقّقَ عِندَ عَدَمِه أو عندَ تَحَقّقِ المانِعِ الضَّعيفِ أَولَى"[2]، وفيها مِنَ التَّأكيدِ ما فيها.

بلاغةُ الكنايةِ في نفيِ البَصَرِ:

عَـمـى الأبـصـارِ أهـوَنُ مِـن عَـمى البصائِرِ

وَرَدَ نَفيُ البَصَرِ عن المشركين في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ كنايَةً عَن كَونِهم لا بَصائِرَ لَهُم؛ أي: لا بَصيرَةَ لَهُم يَتَبَصَّرونَ بها، والمُرادُ: لا يَتَأملونَ حَقائِقَ الأشياءِ، ولذلِكَ قيلَ: عَمَى الأبصارِ أهوَنُ من عَمَى البصائِرِ[3]، ودَلَّتِ الكنايةُ هُنا على تحقيقِ أنَّهُم لا يَنتَفعونَ بأبصارِهِم، وأنَّهُم لا يَعقِلونَ، ولا يَتَبَصَّرونَ حقائِقَ الأمورِ.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/251.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/149.
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (بصر).

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإبصارُ والرُّؤيَةُ والنَّظَرُ:

الإبصارُ دالٌّ على وُضوحِ الشّيءِ، والرُّؤيةُ تتَمَيَّزُ بالعِلمِ بصرًا أو بصيرةً، والنَّظرُ معقدُه التَّأمُّلُ

تَختَلِفُ هذه الألفاظُ الثَّلاثةُ في أصلِ دِلالتِها اللُّغويَّةِ؛ وذلك أنَّ أصلَ مادَّةِ البَصَرِ تدُلُّ على وُضوحِ الشَّيءِ، تقول: بَصُرتُ بالشَّيءِ؛ إذا صِرت به عالمًا بَصيرًا، وتَقولُ: أَبصرتُهُ؛ إذا رأيتَهُ. وأمّا أصلُ مادَّةِ الرُّؤيةِ فتدُلُّ على العِلمِ بالشَّيءِ، عِلمًا بواسطةِ العَينِ، أو عِلمًا قلبيًّا. وأمّا أصلُ النَّظرِ فهو تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، فالإبصارُ دالٌّ على الوُضوحِ، والرُّؤيةُ تَتَمَيَّزُ بالعِلمِ، والنَّظَرُ يتميَّزُ بالتَّأمُّلِ، فثَمَّ ثلاثَةُ مُستوياتٍ؛ أوَّلها: النَّظَرُ، وهو التَّأمُّلُ في الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ إبصارُهُ؛ أي: ظُهورُه لِلعينِ أوِ العقلِ، ثُمَّ رُؤيتُهُ؛ وهيَ العِلمُ به على جهةِ القَطعِ. ووردَت مادَّةُ الإبصارِ في القُرآنِ كثيرًا مُرادًا بها الإدراكُ بحاسَّةِ البَصَرِ أوِ الإدراكُ بالبَصيرَةِ، فَمِنَ الأوَّلِ قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩﴾ [السّجدة: 9]، ومِنَ الثّاني قولُه سُبحانَهُ: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف: 198].

وقد جُمِعَ بينَ النَّظَرِ والإبصارِ في قولِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، وهي تبيِّنُ تبيينًا لا لَبسَ فيه أنَّ النَّظَرَ مُباينٌ للإبصارِ، فالنَّظَرُ يَقَعُ مِنهُم، ولكنَّ الإبصارَ مَنفيٌّ عنهُم.

وذلك أنَّ النَّظَرَ يُرادُ به الصّورةُ الظّاهريَّةُ؛ فَهُم يُحَدِّقونَ بحاسَّةِ البصرِ نحوَ النَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ هذا لم يكُن مُؤدِّيًا إلى إدراكِ الحقائقِ الإيمانيَّةِ المُقتَضيَةِ انقيادَهُم واستِسلامَهُم للشَّرعِ المُنَزَّلِ.

والحاصِلُ أنَّ الإبصارَ والرُّؤيَةَ والنَّظرَ تَشتَرِكُ في تأمُّلِ الشَّيءِ بقصدِ إدراكِه، ولكنَّ درجاتِ الإدراكِ مُختَلِفَةٌ؛ فأعَلاها دَرجةً: الرُّؤيةُ؛ لاختِصاصِها بالقَطعِ واليَقينِ، ثُمَّ يَليها الإبصارُ؛ لِدِلالَتِه

على الوضوحِ والظُّهورِ، وأدناها النَّظَرُ؛ وهو تَوَجُّه العَينِ إلى الشَّيءِ مِن دونِ رُؤيةٍ، وإنْ كانَ قد يَرِدُ النَّظرُ مُرادًا به التَّدبُّرُ مع رُؤيةِ الشَّيءِ[1].

ولِذا أوثِرَ إثباتُ النَّظرِ إلى المُشركينَ؛ لِكَونِه أقلَّ مَراتِبِ الإدراكِ، ونُفيَ عنهُم أَشرَفُها في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

(1) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 133 - 137.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ مَن لا يَنتفعونَ بِسمعٍ ولا نظرٍ، ومَن ظلموا أنفسَهُم، دونَ أن يَظلِمَهُمُ الله

لَمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكين لا يَنتفِعون بِسمعِهِم ولا بنظرِهِم، وأنَّه لا طريقَ إلى هِدايَتِهِم؛ بيَّنَ سُبحانَه أنَّ ذلك واقعٌ لاستِحقاقِهِم إيّاه؛ بِسببِ ظُلمِهِم أنفُسَهُم، وأنَّ اللّه ﷻ لَم يَظلِمهُم ولَم يَظلِم أحدًا غيرَهُم، فقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَظۡلِمُ﴾: أصلُ (ظلم): وضعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، كقولِهم: ظَلَمَ الأرضَ: إذا حَفَرَها في غيرِ مَوضِعِ حَفرِها[1]. والظُّلمُ: الميلُ عنِ القَصدِ، والعربُ تقولُ: الْزَم هذا الصَّوبَ ولا تَظلِم منه شيئًا؛ أي: لا تَجُرْ عَنهُ[2]، وضِدُّه: العَدلُ. والظُّلامةُ: مَظلَمتُكَ تطلُبُها عندَ الظّالمِ، وظَلَّمتُه تظليمًا: إذا أنبَأتُه أنّه ظالمٌ. وظُلِمَ فلانٌ فاظَّلَمَ؛ أي: احتَمَلَ الظُّلمَ بطيبِ نفسِه[3]. والظُّلمُ في الآيةِ مَحمولٌ على ظاهِرِه، وهو نقصُ ما تقتضي الخلقةُ الكاملةُ وجودَهُ[4].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

اللهُ تعالى لا يَظلِمُ النّاسَ شيئًا، ولكنّ النّاسَ أنفسَهُم يَظلمون

بَيَّنَ اللّه ﷻ سُنَّةً من سننِه الَّتي لا تتخلَّفُ، فأخبرَنا في هذه الآيةِ: أنّه تعالى لا يفعلُ بخلقِه ما لا يَستحقّونَ منهُ؛ فلا يسلبُ أحدًا الإيمانَ، ولا يصرفُه عنِ الهدَى إلّا إذا استحقَّ ذلك؛ لكمالِ علمِه سبحانَه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظلم).
(3) الخليل، العين: (ظلم).
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/315.

وحكمتِه وعدلِه، وأيضًا فهو لا يُعاقِبُ مَن لَم يَستوجِبِ العقابَ، ولا يزيدُ في سَيِّئاتِ المُسيئينَ، ولا يَنقُصُ مِن حَسَناتِ المُحسِنينَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فُصّلت: 46]. ولكنَّ النّاسَ هُمُ الّذينَ يَظلِمونَ أنفُسَهم، ويَضُرّونَها بكُفرِهم باللّه ومَعصيتِه، فيستَحِقّونَ عقابَهُ، ولا يَضرّونَ اللّه شيئًا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصلِ في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ﴾:

أثَرُ الاستِئنافِ البيانيِّ في إبرازِ مُتابعةِ المُتَلَقّي وشَوقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجُملتينِ شِبه كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ هذه الآيةَ واردَةٌ جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الأولى، وذلك أنَّ اللّه سُبحانَه لمّا قال: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ أورثَ ذلك في نفسِ المتَلَقّي سؤالًا، وهوَ: لمَ حكمَ اللّه سُبحانَه عليهم بعدمِ الاهتداءِ، والأمرُ كُلُّه بيدِهِ؟ فجوابُ الجوابِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، وأنَّ ما فُعِلَ بهم كانَ بسببِ ظُلمِهم أنفسَهُم، ولم يكُنْ ناشِئًا عَن ظُلمِ اللّه تعالى لَهُم؛ إذ هو سُبحانَه لا يَظلِمُ النّاسَ شيئًا.

نُكتةُ تَوالي المُؤكِّداتِ في الجملةِ المُصدَّرةِ بالأداةِ ﴿إِنَّ﴾:

نَفيُ الظُّلمِ عن اللهِ تعالى، يَستَلزِمُ إثباتَ كمالِ عَدلِهِ سُبحانَهُ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، أُكِّدَ بجملةٍ مِنَ المُؤكِّداتِ؛ وهي: إنَّ، واسميَّةُ الجملةِ، وتأخيرُ المُسندِ الفعليِّ، والقصدُ مِنه المُبالَغَةُ في نَفيِ الظُّلمِ عن اللّه تعالى، والمعنى: "أنَّه تعالى ما ألجأَ أحدًا إلى هذه القَبائحِ والمُنكَراتِ، ولكنَّهُم باختيارِ أنفُسِهم يُقدِمونَ عليها ويُباشِرونَها"[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/187، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/316، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 365.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/259.

ونفيُ الظُّلم عن اللّه سبحانَه ليسَ لِكونِه يَتصرَّفُ في مُلكِه، ومَن كانَ كذلكَ لَم يكُنْ ظالمًا؛ كما ذهبَ إليه بعضُ المُتكلِّمينَ، الّذينَ يرَونَ حقيقةَ الظُّلم: تصرُّفُ الواحدِ في غيرِ مُلكِه، وإنَّما حقيقةُ الظُّلم: وضعُ الشَّيءِ في غير محلِّه اللّائقِ به، وهذا الّذي يكونُ نفيُه كمالًا في حقِّ اللّه ﷻ؛ لأنَّه يتضمَّنُ كمالَ ضِدِّه، وهو كمالُ عدلِه تعالى.

وفي هذا "وَعيدٌ للمُكَذِّبينَ؛ يعني: أنَّ ما يَلحَقُهُم يَومَ القيامَةِ مِنَ العَذابِ لاحِقٌ بِهِم على سبيلِ العَدلِ والاستيجابِ، ولا يَظلِمُهُمُ اللّه بِهِ، ولكنَّهُم ظَلَموا أنفُسَهُم باقترافِ ما كان سَبَبًا فيه"[1].

النُّكتةُ في تَوسُّطِ النَّفي بينَ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ الفعليِّ:

ظُلمُ النّاسِ أنفُسَهُم يكونُ بارتكابِ المُنكَراتِ

وُسِّطَ النَّفيُّ بينَ المُسندِ إليه والمُسندِ الفعليِّ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ؛ أي: أنَّ اللّه تعالى لا يَظلِمُ النّاسَ بِعِقابِ مَن لا يَستَحِقُّ، ولكِنَّ النّاسَ هُم الَّذينَ يَظلِمونَ أنفُسَهُم فَيستَحِقّونَ العِقابَ؛ والمعنى: يَظلِمونَ أنفُسَهُم بارتكابِ القبائِحِ والمُنكراتِ، فَيُعاقَبونَ عَدلًا منه تعالى بسببِ ظُلمِهِم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَظۡلِمُ﴾:

الظُّلمُ مَنفيٌّ عن اللّه تعالى نَفيًا مُستمِرًّا ودائمًا

في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾، الفعلُ المضارِعُ يُفيدُ في أصلِ دلالتِه على التَّجدُّدِ والحدوثِ، والفعلُ ﴿يَظۡلِمُ﴾ من قَولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾ دالٌّ على تجدُّدِ الظُّلمِ وحُدوثِه شيئًا فشيئًا، وتسلُّطُ النَّفي عليه أفادَ استِمرارَ هذا النَّفي لا نَفيَ الاستمرارِ؛ إذْ مِنَ الظّاهِرِ والبيِّنِ أنَّ المرادَ نَفيُ وقوعِ الظُّلمِ مِنَ اللّه ﷻ مُطلَقًا، في أيِّ زمنٍ مِنَ الأزمانِ، وليسَ المرادُ أنَّه إنْ وَقَعَ منه ظُلمٌ فإنَّ هذا الظُّلمَ لا يتجدَّدُ ولا يستمِرُّ، قال الآلوسيُّ: "وصيغةُ المُضارِعِ للاستِمرارِ نَفيًا وإثباتًا، أمّا الثّاني فظاهِرٌ، وأمّا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.

الأوَّلُ فلأنَّ حرفَ النَّفي إذا دخلَ على المُضارعِ يُفيدُ بِحسبِ المَقامِ استِمرارَ النَّفيِ لا نَفيَ الاستِمرارِ"[1].

دِلالةُ التَّعريفِ بـ(ال) في: ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

كَثرَةُ مَن يَظلِمُ نَفسَه مِنَ النّاسِ، نُزِّلَت مَنزِلَةَ الحُكمِ الشّامِلِ

مَجيءُ اللّامِ في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الأولَى مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾ يُفيدُ استغراقَ عُمومِ جنسِ النّاسِ، فيندرجُ تحتَه كُلُّ ما يتناولُه اللَّفظُ على سبيلِ الحقيقةِ، فهو استغراقٌ حقيقيٌّ، بخلافِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثّانيةِ الواردةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فاللّامُ فيها لِلاستغراقِ أيضًا، ولكنَّ هذا الاستغراقَ لم يَجرِ على حقيقتِهِ، وإنَّما المرادُ به الخصوصُ، وهُمُ الّذين وَقَعَ منهُم ظُلمٌ لأنفسِهم، فيكونُ هذا مَجازًا مُرسَلًا، بعلاقةِ العموميَّة، والنُّكتةُ في التَّعبيرِ بصيغةِ العُمومِ مع أنَّ المرادَ الخصوصُ: الإيماءُ إلى كثرةِ مَن يَظلِمُ نفسَه مِنَ النّاسِ، حتَّى جُعلَت هذه الكثرَةُ بمنزلةِ الأمرِ الشّامِلِ المحيطِ، كما قال ابنُ عاشورٍ: "وعُمومُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الأوَّلُ على بابِه، وعُمومُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثّاني مُرادٌ به خُصوصُ النّاسِ الَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهُم بقرينةِ الخبرِ. وإنَّما حَسُنَ الإتيانُ في جانبِ هؤلاءِ بصيغةِ العُمومِ تَنزيلًا لِلكَثرَةِ مَنزِلَةَ الإحاطَةِ؛ لأنَّ ذلكَ غالِبُ حالِ النّاسِ في ذلكَ الوقتِ"[2].

بلاغةُ تنكيرِ: ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

نَفيُ الظُّلمِ عن الله تعالى دالٌّ على كمالِ عَدلِهِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، وفيه جاءَت كلمةُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرَةً لِتَعُمَّ كلَّ ما تَتعلَّقُ به مصالِحُهُم وكَمالاتُهُم من أسبابِ العُلومِ، وأُسُسِ الإدراكاتِ، وإرشادِهِم إلى الحقِّ؛ مِن إرسالِ الرُّسُلِ عليهم السلام، وإقامةِ الأدلَّةِ والبراهينِ؛ تَكرُّمًا منه سبحانه وتعالى. ووجه إفادَةِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ العُمومَ كونُها نكرةً واردَةً في سياقِ النَّفيِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/126.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/180.

بيانُ بُطلانِ أعمالِ المُشركينَ، ورِقَّةِ عُقولهم وسَخافَتِها

نُكتةُ تقديمِ المفعولِ الأوَّلِ: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾:

قُدِّمَ المُفعولُ الأوَّلُ لـ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (ولكنَّ النّاسَ يَظلمون أنفسَهُم)، وذلك مَراعاةً لِلفاصلةِ مع ضميمةِ إرادةِ الاهتمام؛ إذِ التَّعليلُ بمراعاةِ الفاصلةِ وحدَه ليسَ مِنَ المذاهبِ المرضيَّةِ في البيانِ، وليسَ القصدُ مِن هذا التَّقديمِ قصرَ المَظلوميَّةِ عليهِم عندَ مَن لا يَرى التَّقديمَ موجبًا لِلقَصرِ.

ويجوزُ أن يكونَ التَّقديمُ لإرادَةِ قصرِ المظلوميَّةِ، عِندَ مَن يرى أنَّ التَّقديمَ موجِبٌ لِلقصرِ، وهُمُ الجُمهورُ.

وفي إيثارِ قصرِ المظلوميَّةِ على قصرِ الظّالِميَّةِ عليهم: المُبالغةُ في بيانِ بُطلانِ أعمالِهم، ورقَّةِ عُقولهم وسَخافتها، " على أنَّ قَصرَ الأولى عليهم مُستَلزِمٌ كما قيلَ لِما يَقتَضيه ظاهِرُ الحالِ مِن قَصرِ الثّانيةِ عليهم، فاكتفَى بالقَصرِ الأوَّلِ عن الثّاني مَعَ رِعايةِ ما ذُكِرَ مِنَ الفائِدة"[1].

عادةُ النّاسِ إيقاعُ الظُّلمِ على أنفسِهم

دِلالةُ الواوِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الواوُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: إنَّ اللهَ سبحانَه لا يَظلِمُ النّاسَ شيئًا، ولكنَّ الحالَ أنَّ النّاسَ أنفسَهُم يَظلمونَ، وفي التَّعبيرِ بجملةِ الحالِ اسميَّةً إيماءٌ إلى أنَّ هذا مِن دأبِ النّاسِ وعادَتِهم مع أنفسِهم أن يوقِعوا عليها الظُّلمَ.

تهديدُ المُشركينَ بحلولِ العُقوبَةِ عليهِم، كما حلَّت بالظَّلَمَةِ قبلَهُم

بلاغةُ التَّذييلِ في آخرِ الآيةِ الكريمةِ:

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مَجرَى المثَلِ؛ لِعدمِ استقلالِه، وتعلُّقه بما قَبلَه للكشفِ عن تمامِ معناهُ.

وهذا التَّذييلُ يشمَلُ عمومَ النّاسِ مِنَ المشركينَ الّذينَ يَستَمِعون،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/126.

ولكنَّهُم لا يَهتدونَ، ويَنظُرونَ ولَكِنْ لا يَتبصَّرونَ، "والمَقصودُ من هذا التَّذييلِ التَّعريضُ بالوعيدِ بأنْ سَيَنالُهُم ما نالَ جميعَ الَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهُم بتكذيبِ رُسُلِ اللّه"[1].

توجيه القراءاتِ في لفظِ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

مـن لـم ينـدم ويـسـتـدرك فـي الـدنـيـا جنى الحسرة والـنـدامـة في الأخرى

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، وفيه قرَأَ الجُمهورُ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ بتَشديدِ النّونِ ونَصبِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ اسمًا لها، وفي التَّشديدِ زيادَةٌ في معنى الظُّلم الَّذي ارتَكَبوه في حقِّ أنفُسِهِم، وتأكيدٌ شديدٌ، وبيانٌ لحالِ هذا الظُّلم بسببِ أنفسِهِم.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ البزّارُ بتخفيفِ النّونِ (وَلَكِن) ورَفعِ (النّاسُ)[2]، وقد ذَهَبَ جماعةٌ مِنَ النَّحويّينَ إلى أنَّ الاختيارَ في (لَكِن) إذا قُرِنَتْ بالواوِ أن تكونَ مُشَدَّدةً، وإذا خَلَت مِنَ الواوِ أنْ تكونَ مُخَفَّفَةً؛ وذلك لأنَّها إذا خَلَت مِنَ الواوِ أشبَهَت (بَلْ)، ولذا خُفِّفَتْ لِتَكونَ مِثلَها في الاستِدراكِ، وإذا جاءَت بالواوِ خالَفَتها فَشُدِّدَت[3].

دِلالةُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ ومَوقِعُها الإعرابيُّ:

النّاسُ مَجبولونَ عـلـى صُـدورِ الظُّلمِ مِنهُم

النَّفسُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ هيَ الرّوحُ الَّتي بينَ جوانِبِهِم، فيكونُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ مفعولًا مُقدَّمًا لـ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾.

ويجوزُ أن يكونَ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ تأكيدًا لـ﴿ٱلنَّاسَ﴾، والمَفعولُ به محذوفٌ، فيكونُ بِمَنزِلَةِ ضميرِ الفصلِ مع قَصرِ الظّالِميَّةِ عليهِم، ويحتمِلُ أن يكونَ الفعلُ المتعدّي - على هذا الوجهِ - نُزِّلَ مَنزِلةَ اللّازمِ؛ أي: أنَّ النّاسَ يصدُرُ مِنهُم ظُلمٌ، وأنَّ ذلك طَبعُهُم مِن غيرِ إرادَةِ تعلُّقِه بمفعولٍ به خاصٍّ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/180.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/219.
(3) ابن الأنباريّ، البيان في غريب القرآن: 1/413.

وفي التَّعبيرِ "عن فِعلِهم بالنَّقصِ مَعَ كَونِه تفويتًا بالكُلِّيَّةِ وإبطالًا بالمَرَّةِ؛ لِمُراعاةِ جانِبِ قَرينَتِه"(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾:

ظُلمُ النّاسِ أنفُسَهُم مُتَجَدِّدَةٌ أفرادُه حينًا بعدَ حينٍ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، عُبِّرَ بالفعلِ المُضارِعِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدّلالةِ على تَجَدُّدِ الظّلمِ وحُدوثِه منهُم دفعَةً دفعَةً وشيئًا فشيئًا، فهو عَملٌ دائِمٌ مُستمِرٌّ لا يَنقَطِعُ منهم، قال الآلوسيُّ: "المُضارِعُ المَنفيُّ للاستِقبالِ، والمُثبَتُ للاستِمرارِ، ومَساقُ الآيةِ الكريمةِ على الأوَّلِ لإلزامِ الحُجَّةِ، وعلى الثّاني للوعيدِ، وعلى الوجهينِ هيَ تَذييلٌ لِما سَبَقَ"(2).

توجيه المُتشابِه اللَّفظيِّ في آياتِ نَفيِ الظُّلمِ:

وَرَدَ في القرآنِ الكريمِ آياتٌ في نفيِ الظُّلمِ مع اختلافٍ في مُتعلّقِ الظُّلمِ، فقال اللّه ﷻ هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾ [النّساء: 40]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، وقال ﷻ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النّساء: 49]، وقال سبحانَه: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾ [النّساء: 124].

أمّا الآيتانِ الأوليانِ؛ وهُما قولُ اللّه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾ وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، فقدِ اتّحدَتا في التَّصديرِ بـ ﴿إِنَّ﴾، والمُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾، ونفيِ المضارِعِ المَبنيِّ للفاعِلِ، واختَلَفَتا في مُتعلَّقِ الظُّلم، ووجه ذلكَ: أنَّ آيةَ النّساءِ تقدَّمَها قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾ [النساء: 39]، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعَلِّقًا أكثرَ بصفاتِ اللّه سُبحانَه، وبالعُمومِ الّذي دلَّ عليه قولُ اللّه سبحانَه قبلُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: 36]، كانَ المناسِبُ نفيَ الظُّلمِ عنِ اللّه تعالى بنفيِ أقلِّ القليلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/149.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/126.

منه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾؛ حيث إنَّ الذَّرَّةَ مِن أصغرِ الأشياءِ، فهو كنايةٌ عنِ انتفاءِ الظُّلمِ بالكلِّيَّةِ بخلافِ آيةِ يونسَ، فقد تقدَّمَها قولُ اللّه سبحانَه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ﴾، فلمّا كانَ نفيُ الهدايَةِ عَن هؤلاءِ قد يوهِمُ أنَّ اللّه سبحانَه ظالمٌ لَهُم؛ ناسبَه نَفيُ الظُّلمِ عنه بأقلِّ ما يُعلَمُ ويُخبَرُ عنه، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾. وأمّا الآيتانِ الأُخرَيانِ، وهُما قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء: 49]، وقولُه ﷻ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ۝١٢٤﴾ [النساء: 124]، فقد اتَّفقَتِ الآيتان في نفيِ الظُّلمِ بصيغةِ المضارعِ المبنيِّ للمَفعولِ، واختلَفَتا في مُتَعَلَّقِ الظُّلمِ، ووجه المغايَرَةِ بينَهُما: أنَّ الآيةَ الأولى صُدِّرَت بقولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]، فلمّا كانَ قصدُ هؤلاء بتَزكيتِهم أنفُسَهُم تَعظيمَها، ونفَى اللّه ذلكَ عنهُم، وكانَ هذا النَّفيُ مُفيدًا حَقارتَهم، ناسبَه ذِكرُ الفَتيلِ؛ لأنَّه يُضرَبُ به المثلُ في الحقارَةِ. وأمّا الآيةُ الثّانيةُ فقد صُدِّرَت بقولِه ﷻ: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: 124]، فلمّا كانَ قولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُشيرًا إلى أقلِّ القليلِ، ناسبَه ذكرُ النَّقيرِ، فقال سبحانَهُ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ۝١٢٤﴾ [النساء: 124]؛ لأنَّه يُضرَبُ به المثلُ في القِلَّةِ؛ ولكونِ لفظِ ﴿نَقِيرٗا﴾ مُناسبًا للفاصلةِ الرّائيَّةِ الّتي وردَت عليها الآيةُ الّتي تقدَّمَتها، وهي قولُه ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ۝١٢٣﴾ [النساء: 123]، والتَّعليلُ بالتَّناسُبِ يورَدُ ههنا تبعًا للعلَّةِ المعنويَّةِ لا على جهةِ الاستقلالِ.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾

[يونس: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بينَ خُسرانِ الدُّنيا الزّائلةِ باقترافِ الشّركِ، وخسرانِ الآخرةِ بالعَذابِ المُقيمِ

لَمّا ذَكَرَ اللّه ﷻ ضَلالَ المُشرِكينَ، وطُرُقَ جِدالِهِم في باطِلِهِم، وكانَ مَن يفعَلُ ذلكَ - ممَّنْ لا يعتقِدُ حشرًا ولا جزاءً - مُستطيلًا الزَّمانَ، آمنًا من حوادِثِه؛ حَسُنَ أن يُعَقَّبَ ذلك بأنَّهم يُلاقونَ يومَ القيامَةِ مِنَ الأهوالِ ما يستَقصِرونَ معه مُدَّةَ بقائِهِم في الدُّنيا، فَخَسِروا دُنياهُم بجدالِهِم الباطِلِ ومخالفتِهِم الشَّرعَ المُنَزَّلَ، وخسروا آخرتَهُم بالعذابِ الدّائمِ الّذي لا انقطاعَ فيه، فقال ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلۡبَثُوٓاْ﴾: أصلُ (لبث): يدُلُّ على تَمَكُّثٍ، وانتظارٍ، واستبطاءٍ. قِيلَ: اللَّبثُ الاسمُ، واللُّبْثُ بالضَّمِّ: المَصدَرُ[2]، يُقالُ: لَبِثَ بالمَكانِ: أقامَ به مُلازِمًا له. وألبِثْ عن فلانٍ؛ أي: انتَظِرْه حَتّى يُبدي انتظارُكَ إيّاه خطأَ رأيِه[3]، واستَلبَثَهُ، إذا استبطَأَهُ، وهوَ استفعَلَ منَ اللّبثِ، وهوَ الإبطاءُ والتَّأَخُّرُ[4]. والمقصودُ باللَّبثِ في الآيةِ: الاستقرارُ في المَكانِ، وهو هنا مُستعارٌ للإبطاءِ.

2) ﴿سَاعَةٗ﴾: أصلُ (سوع): يدُلُّ على استمرارِ الشَّيءِ ومُضيِّه،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/131.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (لبث).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (لبث).

مِن ذلكَ السّاعَةُ سُمِّيَت بذلكَ. يُقالُ جاءَنا بَعدَ سَوعٍ مِنَ اللَّيلِ وسواعٍ؛ أي: بَعدَ هَدءٍ مِنهُ[1]. والسّاعَةُ في الأصلِ تُطلَقُ بمعنيين: أحدُهما: أن تكونَ عبارةً عَن جُزءٍ مِن أربعةٍ وعشرينَ جُزءًا هيَ مجموعُ اليومِ واللَّيلةِ. والثّاني: أن تكونَ عبارةً عَن جُزءٍ قليلٍ مِنَ النَّهارِ أوِ اللَّيلِ[2]، يُقالُ: جلستُ عِندَكَ ساعَةً مِنَ النَّهارِ؛ أي: وقتًا قليلًا منه، ثُمَّ استُعيرَ لاسمِ يَومِ القيامَةِ[3]. قال الزَّجّاجُ: معنى السّاعَةِ في كُلِّ القُرآنِ: الوَقتُ الَّذي تَقومُ فيه القيامَةُ، يُريدُ أنّها ساعَةٌ خَفيفَةٌ يَحدُثُ فيها أمرٌ عظيمٌ، فَلِقِلَّةِ الوَقتِ الَّذي تقومُ فيه سَمّاها ساعَةً[4]. والمرادُ بالسّاعةِ في الآيةِ: المِقدارُ مِنَ الزَّمانِ.

3) ﴿ٱلنَّهَارِ﴾: أصلُ (نهر): يدُلُّ على تَفَتُّحِ شيءٍ أو فَتحِه. وأنهَرتُ الدَّمَ: فَتَحتُه وأرسَلتُهُ. وسُمِّيَ النَّهرَ لأنَّه يَنهَرُ الأرضَ؛ أي: يَشُقُّها[5]. ومِنه النَّهارُ: وهو انفِتاحُ الظُّلمةِ عن الضّياءِ ما بَينَ طُلوعِ الفَجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ. وسُمِّيَ نَهارًا؛ لأنَّ الضّياءَ يَنهَرُ فيه؛ أي: يَبرُزُ كما يَبرُزُ النَّهرُ[6]، ورَجُلٌ نَهِرٌ: صاحِبُ نَهارٍ كأنَّه لا يَنبَعِثُ لَيلًا[7]. والمقصودُ بالنَّهارِ في الآيةِ: ما بَينَ الفَجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ.

4) ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾: أصلُ (عرف): يدُلُّ على السُّكونِ والطُّمَأنينَةِ، تقولُ: عَرَفَ فُلانٌ فُلانًا عِرفانًا ومَعرِفَةً. وهذا أمرٌ معروفٌ. وهذا يدُلُّ على ما قُلناه مِن سُكونِه إليه؛ لأنَّ مَن أنكَرَ شيئًا تَوَحَّشَ منه ونَبا عنهُ. ومِنَ البابِ العَرفُ، وهي الرّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ، وهي القياسُ؛ لأنَّ النَّفسَ تَسكُنُ إليها. يُقالُ: ما أطيَبَ عَرفَهُ!. قال اللّه ﷻ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ۝٦﴾ [محمد ﷺ: 6]؛ أي: طَيَّبَها. والعُرفُ: المَعروفُ؛ وسُمِّيَ بذلِكَ لأنَّ النُّفوسَ تَسكُنُ إليه[8]. والمقصودُ بالتَّعارفِ في الآيةِ: إدراكُ الشَّيءِ بتفَكُّرٍ وتَدبُّرٍ لأثرِه، ويضادُّه الإنكارُ، وهو تَفاعُلٌ من عَرَفَ؛ أي: يَعرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُمُ الآخرَ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (سوع).
(3) الرّاغب، المفردات: (ساعة)، وابن الأثير، النّهاية: (سوع).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/421، وابن الأثير، النّهاية: (سوع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (نهر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرف).

5) ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: أصلُ (لقي): يدُلُّ على طَرحِ شيءٍ. اللِّقاءُ: الحُضورُ نحوَ الغَيرِ بقصدٍ أو بغيرِ قَصدٍ وفي خيرٍ أو شرٍّ، ولَقيتُه لَقوَةً؛ أي: مرَّةً واحِدَةً ولِقاءَةً. ولَقيتُه لُقيًا ولُقيانًا. واللُّقيَةُ فُعلَةٌ مِنَ اللِّقاءِ، والجَمعُ لُقًى[1]. والالتِقاءُ: المُحاذاةُ، وصيغَةُ الافتِعالِ فيه للمُبالغةِ[2]. والمرادُ باللِّقاءِ في الآيةِ: حُضورُ أحدٍ عندَ آخَر، والمُرادُ لِقاءُ اللّه تعالى للحِسابِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكيرُ بمقدارِ ظُلمِ المُشركينَ لأنفُسِهِم في الدّنيا، وخسارتِهم لها في الآخرة

يقولُ تعالى: ويومَ يَجمَعُ اللّه الكافرينَ في مَوقِفِ الحسابِ، فيَستقِلّونَ حينذاكَ مُدَّةَ مُكثِهِم في الدُّنيا، كأنَّهم لم يَعيشوا فيها إلّا ساعةً من نَهارٍ، يتعارَفُ النّاسُ بينَهُم يومَ القيامةِ، كما كانوا يَتعارَفونَ في الدُّنيا، قد خَسِرَ ثوابَ اللّه وجَنَّتَه الجاحِدونَ لِلقاءِ اللّه يومَ القيامةِ، فاستحَقّوا دخولَ النّارِ، وما كانوا موفَّقينَ لِلحقِّ بتكذيبِهِم بالبعثِ بعدَ المَوتِ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَيَوۡمَ﴾:

افتِضاحُ شِركِ المُشرِكينَ في الحشرِ بمرورِ الحياةِ كساعةٍ مِنَ الدّهرِ

عُطِفَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ على قولِه سُبحانَهُ: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ﴾ [يونس: 28]، وهو من بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ؛ رجوعًا إلى المقصودِ مِنَ الكلامِ بعدَ بيانِه وتفصيلِه "وذَمِّ المَسوقِ إليهِم وتَقريعِهِم، فإنَّه لمّا جاءَ فيما مَضى ذِكرُ يَومِ الحَشرِ إذ هو حينُ افتِضاحِ ضلالِ المُشركينَ ببَراءَةِ شُرَكائِهِم منهُم؛ أتبَعَ ذلكَ بالتَّقريعِ على عِبادَتِهِمُ الأصنامَ مَعَ وُضوحِ بَراهينِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/437.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (لقي).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/187، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/215، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/348، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 365.

الوحدانيَّةِ للّه تعالى. وإذْ كانَ القرآنُ قد أبلَغَهُم ما كان يَعصِمُهُم مِن ذلكَ المَوقِفِ الذَّليلِ لَو اهتَدَوا بِهِ؛ أتبَعَ ذلكَ بالتَّنويه بالقُرآنِ، وإثباتِ أنَّه خارجٌ عَن طَوقِ البشرِ، وتَسفيه الَّذينَ كذَّبوهُ، وتفَنَّنوا في الإعراضِ عنهُ، واستوفيَ الغَرَضُ حَقَّهُ، عادَ الكَلامُ إلى ذِكرِ يَومِ الحَشرِ مرَّةً أُخرَى، إذ هوَ حينَ خَيبَةِ أولئكَ الَّذين كَذَّبوا بالبَعثِ، وهُمُ الَّذينَ أشرَكوا، وظَهَرَ افتِضاحُ شِركِهِم في يوم الحشرِ، فكانَ مِثلَ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ"[1].

نُكتةُ تقديمِ الظَّرفِ ﴿وَيَوۡمَ﴾:

ظُهورُ خَسارَةِ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، مَعَ سَبقِ خسارَتِهِم في الدُّنيا

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾، قُدِّمَ فيه الظَّرفُ ﴿وَيَوۡمَ﴾ على عامِلِه لإرادةِ الاهتمامِ؛ إذِ المقصودُ الأهمُّ ههنا هو تذكيرُهُم بذلكَ اليومِ، وهو يومُ القيامَةِ، وإثباتُ وقوعِه، مع تهديدِهِم وتحذيرِهِم بما يكونُ فيه مِنَ الأهوالِ[2]. وانتصبَ قولُه: ﴿وَيَوۡمَ﴾ على الظَّرفيَّةِ، وفي ناصِبِه أوجُهٌ، أحدُها: أنَّه منصوبٌ بالفعلِ الَّذي تَضَمَّنَه قولُه: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾، وثانيها: أنَّه منصوبٌ بـ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾، وثالثها: أنَّه منصوبٌ بمقدَّرٍ؛ أي: اذكرْ يومَ[3]، وعلى هذا الأخيرِ، يكونُ التَّقديرُ: اذكرْ يَومَ يجمعُ هؤلاءِ المُشرِكينَ للحسابِ كأنَّهم ما أقاموا في الدُّنيا إلّا ساعةً مِنَ النَّهارِ لِهَولِ ما يَرونَ مِنَ الأهوالِ.

واستَظهَرَ ابنُ عاشورٍ أن يكونَ عامِلُه فِعلَ الخُسرانِ ﴿خَسِرَ﴾، "والتَّقديرُ: وقد خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبوا بِلِقاءِ اللّه يَومَ نَحشُرُهُم"[4].

سرُّ إضافةِ ﴿وَيَوۡمَ﴾:

نُكرانُ الكفّارِ ليومِ القيامةِ، لا يَمنعُ شِدَّةَ ما يُقاسونَه مِن شدائِدِ يومِ الحشرِ

أُضيفَ ﴿وَيَوۡمَ﴾ إلى الحَشرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ لِلَفتِ انتباهِهِم إلى هذا اليومِ العظيمِ الَّذي أنكروه وأنكَروا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/208.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.

وُقوعَهُ، ولهولِ ما يُقاسونَه مِن شدائدِ القيامةِ، وطولِ وُقوفِهِم فيه للحسابِ، ولأنَّه هوَ اليومُ المخصوصُ بوقوعِ الجزاءِ مَعَ نُكرانِهِم إيّاه واستبطائِهِم مجيئَه تهكُّمًا واستهزاءً به.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

إحضارُ صورةِ الحشرِ في نُفوسِ مُنكِريهِ؛ ليَكونَ ذلكَ أردَعَ في تَركِهِم إنكارَهُ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾، وفيه الفعلُ المضارعُ في أصلِ استعمالِه، دالٌّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ، وفي قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ إقامةَ اللّه سبحانَه العبادَ لأجلِ الحسابِ، وإنْ وَقَعَ دفعةً واحدةً، إلّا أنَّ حشرَهُم للجزاءِ يقعُ حالًا بعدَ حالٍ، فحشرُهُم مُتجدِّدٌ باعتبارِ أنَّ كُلَّ جماعةٍ مُتشاكِلةٍ في العملِ تُحشَرُ مع مُشاكِلِها، كما يدُلُّ لذلك قولُ اللّه ﷻ: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصّافات: 22].

كما أفادَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ استحضارَ صورةِ هذا الحشرِ في نُفوسِهِم حتَّى يكونوا على ذكرٍ منهُ، وإن كانوا يُنكِرونَه، "فالأفعالُ المضارِعةُ في الكلامِ الحُرِّ مرايا تَعكِسُ لكَ الصّورَ والأحداثَ، فلا تَسمَعُها بأذنِكَ فقط، وإنَّما تراها بعَينَيكَ أيضًا"(1).

توجيه القراءاتِ القرآنيّةِ في: ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾:

ما بينَ القراءةِ بالياءِ أو النّونِ بيانٌ لقدرةِ اللّه على التَّصرُّفِ في مُلكِه الظّاهرِ والمكنونِ

قَرَأَ حَفصٌ عَن عاصِم وحدَه مِن بينِ العشرةِ ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ بياءِ الغَيبَةِ؛ لِيشاكِلَ ذلك قولَه سُبحانَه قَبلُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾، فلمّا نَفَى اللّه ﷻ الظُّلمَ عن نَفسِه، وأثبَتَه لأنفُسِهِم، أبانَ لهم أنَّ هُناكَ يومًا يَحشُرُهُم فيه سُبحانَه لِلجزاءِ والحسابِ.

وقرَأَ باقي القرّاءِ (نَحۡشُرُهُم) بالنّونِ(2)، وهي نونُ العَظَمَةِ، وفي ذلك التفاتٌ مِنَ الغَيبَةِ إلى التَّكلُّم؛ لِما في أسلوبِ التَّكلُّم مِن إدخالِ

---

(1) محمّد أبو موسى، قراءة في الأدب القديم، ص: 32.

(2) الدّمياطيّ، إتحاف فضلاء البشر، ص: 313.

المَهابةِ على النُّفوسِ، وفي ذلكَ أيضًا مِنَ بيانِ عظيمِ قوَّةِ تصرُّفِه تعالى في مُلكِه وعُمومِ إرادَتِه.

دِلالةُ جملةِ: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾:

النّاسُ سوفَ يَستقلّونَ يومَ الحشرِ مُدَّةَ بقائِهم في الحياةِ الدُّنيا

قولُ اللّه ﷻ: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، يجوزُ أن يكونَ جملة اعتراضيَّة[1]بينَ جملةِ ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ﴾ وجملة: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، والتَّقديرُ: يتعارفونَ بينَهُم يومَ يحشرُهُم؛ لِكونِهم قد رأوا مُدَّةَ بقائِهم في الدُّنيا مِنَ القلَّةِ، بحيث لَم يكُنْ ذلك كافيًا لإيقاعِ التَّعارفِ فيها.

ويجوزُ أن تكونَ حالًا مِنَ الضَّميرِ المنصوبِ[2] في ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾ - وهوَ (هُم) -، ومالَ إليه الزَّمخشريُّ[3]؛ والمَعنى: ويومَ يحشرُهُم حالَ كونِهم مُشَبَّهينَ بِمَن لَم يلبثْ إلّا ساعةً.

دِلالةُ ﴿كَأَن﴾:

بيانُ أنّ طَيَّ اللَّفظِ الّذي دلَّ السّياقُ على تعيينِه اقتصادٌ في الكلامِ

﴿كَأَن﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، واسمُها ضميرُ الشَّأنِ محذوفٌ، وحذفُه هوَ الغالبُ في كلامِ العربِ، وتقديرُه ههنا: كأنَّهُم - أي: المشركون - لَم يَلبثوا إلّا ساعةً مِنَ النَّهارِ، وقد دلَّ على المحذوفِ تَقَدُّمُ الضَّمائرِ العائِدةِ عليهم.

بلاغةُ جملةِ التَّشبيه ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾:

حَسرَةُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ على ضياعِ أعمارِهم سُدًى

التَّشبيه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، "تَشبيه المَحشورينَ بَعدَ أزمانٍ مَضَتْ عليهم في القُبورِ بأنفُسِهم لَو لَم يَلبَثوا في القُبورِ إلّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ"[4]. قال الآلوسيُّ: "وليسَ المرادُ مِنَ التَّشبيه ظاهِرَه على ما قيلَ، وقد صرَّحَ في شرحِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/181.

المِفتاح أنَّ التَّشبيهَ كثيرًا ما يُذكَرُ، ويُرادُ به مَعانٍ أُخرُ تَترتَّبُ عليه، فالمرادُ: إمّا التَّأسُّفُ على عدمِ انتفاعِهِم بأعمارِهِم أو تَمَنِّي أن يَطولَ مُكثُهُم قَبلَ ذلكَ حتَّى لا يُشاهِدوا ما شاهَدوه مِنَ الأهوالِ، فمآلُ الجُملةِ في الآخرةِ نَحشُرُهُم مُتَأسِّفين أو مُتمنِّينَ طولَ مُكثِهِم قبلَ ذلكَ، ويَجوزُ أن يُرادَ (نحشُرُهُم) مُشَبِّهِينَ في أحوالِهِم الظّاهِرَةِ لِلنّاسِ بمَن لَم يَلبَثْ في الدُّنيا، ولَم يَتقَلَّبْ في نَعيمِها إلّا يَسيرًا"[1].

وجملةُ التَّشبيه خبريَّةٌ، يجوزُ أن يُرادَ بها إعلامُ المُخاطَبينَ بما تضمَّنَتْه، ويجوزُ أن يُرادَ بها التَّأسُّفُ والتَّحسُّرُ - على ما ذكرَه الآلوسيُّ قبلُ - ، فتكون الجملةُ مَجازًا مُرسَلًا مُركَّبًا، ولا مانِعَ مِن إرادَةِ الدّلالَتينِ معًا؛ لعدمِ تنافيهما بهذا الاعتبارِ.

قِصَرُ مُدَّةِ البَقاءِ في الدُّنيا، يُقابلُها طولُ الحسابِ في الآخرةِ

بلاغةُ القَصرِ بالاستثناءِ المفرَّغ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أسلوبُ قصرٍ، وهو مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهي صِفَةُ لُبثِهِم في الحياةِ الدُّنيا على موصوفٍ، وهي السّاعَةُ، أوِ الوقتُ الزَّمَنيُّ مِنَ النَّهارِ قَصرًا حَقيقيًّا ادِّعائيًّا، وطريقُ القصرِ ههنا: النَّفيُ والاستثناءُ، وهو مُستعمَلٌ في الأصلِ لِما يُنكِرُه المُخاطَبُ، ولا يُقِرُّ به.

قِلَّةُ لبثِ الكُفّارِ في الدُّنيا في مقابلِ ما يَحصُلُ لهُم مِنَ العذابِ في الآخرةِ

دلالةُ التَّعبيرِ باللُّبثِ ﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، وفيه لفظُ اللُّبثِ بالمَكانِ، وهو الإقامةُ فيه، إلّا أنَّها لَيسَت بالإقامةِ الدّائمَةِ المُتَّصِلَةِ، ولذلِكَ ورَدَت هذه المادَّةُ في القرآنِ الكريمِ مَقرونَةً بصفةِ القِلَّةِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ٧٦﴾ [الإسراء: 76]، وكما ورَدَت في هذا المَوضِعِ ﴿إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾، وغَيرُها كَثيرٌ.

ومَجيئُها هُنا مَضروبًا بها المَثَلُ في قلَّةِ لُبثِهِم في حياتِهِم الدُّنيا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/127.

أو في البَرزَخ، فاستعمالُ اللُّبثِ مَثَلٌ في القِلَّةِ والحقارَةِ في مُقابلِ ما يَحصُلُ لَهُم مِنَ العذابِ الشَّديد، وأفادَ التّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ استحضارَ صورةِ لبثِهِم في الحياةِ الدّنيا.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿سَاعَةٗ﴾:

إبطالُ دَعوى المُشركينَ في زَعمِهِمُ استِحالَةَ البعثِ بعدَ الموتِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ المرادُ مِنَ السّاعَةِ فيه؛ هي المِقدارُ المعلومُ مِنَ الزّمانِ الَّذي يَعيشُه الإنسانُ، والمرادُ: هُنا لِقِلّتِها وحَقارَتِها، وعادَةً ما يُعَبَّرُ بِها عن الزَّمَنِ القَصيرِ مَع وجودِ قَرينةٍ، ذكر ابنُ عاشور أنّ التّعريضَ بإبطالِ دَعوَى المُشركينَ إحالَتَهُمُ البَعثَ بِشُبهَةِ أنَّ طولَ اللُّبثِ وتَغَيُّرَ الأجسادِ يُنافي إحياءَها؛ والتَّعبيرُ بها كنايةٌ عَن قِلَّةِ الزَّمنِ الَّذي يُعاشُ تأسُّفًا على حالِهِم وما تَمَنَّوهُ، فضُربَ بها المثلُ: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١﴾ [النّازعات: 10، 11](1).

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾:

تَقليلُ مُدَّةِ لُبثِهِم في الدُّنيا وتَحقيرُها إمعانٌ في تهوينِ شأنِها

جاءَت ﴿مِّنَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ للدِّلالةِ على التَّبعيضِ، والمعنى: لم يلبثوا إلّا ساعةً، هي بعضُ النَّهارِ لا كُلُّه، وذلك مبالغةٌ في تقليلِ مُدَّةِ لُبثِهِم، ولازِمُ ذلك: تحقيرُ تلك المدَّةِ؛ لأنَّ التَّقليلَ يُجامِعُ التَّحقيرَ كثيرًا. و﴿مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ صفةٌ لقوله: ﴿سَاعَةٗ﴾، قال ابنُ عاشور: "وهو وصفٌ غيرُ مُرادٍ منه التَّقييدُ؛ إذْ لا فَرقَ في الزَّمنِ القليلِ بَينَ كَونِه مِنَ النَّهارِ أو مِنَ اللَّيل، وإنَّما هذا وصفٌ خَرَجَ مَخرَجَ الغالِبِ؛ لأنَّ النَّهارَ هوَ الزَّمنُ الَّذي تَستَحضِرُه الأذهانُ في المُتَعارَفِ"(2).

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾، ونُكتةُ التَّعبيرِ بالنَّهارِ:

ساعاتُ النَّهارِ أعرَفُ حالًا مِن ساعاتِ اللَّيلِ

اللّامُ في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/182.

﴿ٱلنَّهَارِۚ﴾ لِلعَهدِ الذِّهنيِّ بمعناه عِندَ البلاغيّين لا عندَ النُّحاةِ؛ وهو الدّالُّ على الحقيقةِ ضِمنَ فردٍ مُبهَم؛ والمعنى: لم يَلبَثوا إلّا ساعةً من نهارٍ غيرِ مُعيَّنٍ؛ ولا يُرادُ به العَهدُ العِلميُّ؛ إذ ليسَ المرادُ أنَّهم لبثوا ساعةً من نهارٍ معيَّنٍ، كما هو ظاهرٌ.

والنَّهارُ هو الزَّمنُ المعروفُ المُقابلُ لِزمنِ اللَّيلِ، وتخصيصُ النَّهارِ بالذِّكرِ في الآيةِ؛ لكونِ ساعاتِه أَعرَفَ حالًا من ساعاتِ اللَّيلِ[1].

المَوقِعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لـ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

أثرُ المعاني القُرآنيَّةِ في تنوُّعِ مَوقِعِ الجملةِ في السّياقِ

جملةُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ حالٌ أُخرى، والعاملُ فيها ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾، وهي حالٌ مُقَدَّرَةٌ؛ لأنَّ التَّعارُفَ لا يكونُ وقتَ الحَشرِ بل مُتأخِّرًا عنهُ، وقد جاءَتِ الجملةُ مَفصولةً على هذا الوجهِ؛ لأنَّ جملةَ الحالِ إذا صُدِّرَت بفعلٍ مُضارعٍ وَجَبَ خُلوُّها مِنَ الواوِ.

ويجوزُ أن تكونَ جملةُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ واقعةً جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الجملةِ السّابقةِ، فيكونُ فصلُها لوقوعِها استئنافًا بيانيًّا، وهو المُسمَّى: شبه كمالِ الاتِّصالِ، وذلك أنَّ قولَ اللّه سُبحانَه: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ يبعَثُ في نفسِ المتلقّي سؤالًا؛ وهو: ماذا يَحدُثُ لهُم بَعدَ الحشرِ وما هُم فيه؟ فجاءَ الجوابُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾. ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بيانًا للجملةِ قبلَها، فيكونُ بينَ الجُملتينِ كمالُ الاتِّصالِ؛ ووجه ذلكَ أنَّ جملةَ التَّعارُفِ وردَت بيانًا للتَّشبيهِ المُستفادِ من ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾، ودليلًا عليها، قال الآلوسيُّ: "وذلكَ أنَّه لو طالَ العَهدُ لَم يبقَ التَّعارُفُ؛ لأنَّ طولَ العَهدِ مُنسٍ مُفضٍ إلى التَّناكُرِ، لكنَّ التَّعارُفَ باقٍ، فَطولُ العَهدِ مُنتَفٍ، وهو مَعنى ﴿لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ﴾"[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/150.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/128.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾:

إبطالُ اعتِقادِ المُشركينَ استِحالةَ البعثِ والحشرِ، مِن مَقاصِدِ البيانِ القرآنيِّ

في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، نجدُ أنّ الفِعلَ المُضارعَ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يُفيدُ التَّجدُّدَ والحُدوث، كأنَّ التَّعارُفَ بينَهُم لا يَنقطِعُ، يُريدُ كُلُّ واحِدٍ منهُم أنْ يَعرِفَ صاحِبَه وحالَهُ، "والتَّعارُفُ: تَفاعُلٌ من عَرَفَ؛ أي: يَعرِفُ كُلُّ واحِدٍ مِنهُم يومَئذٍ مَن كانَ يَعرِفُه في الدُّنيا، ويَعرِفُه الآخرُ كذلك. والمَقصودُ من ذِكرِ هذه الحالِ كالمَقصودِ من ذِكرِ حالةِ ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾؛ لِتَصويرِ أنَّهُم حُشِروا على الحالَةِ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا في أجسامِهِم وإدراكِهِم، زيادةً في بيانِ إبطالِ إحالَتِهِم البَعثَ بشُبهَةِ أنَّه يُنافي تَمَزُّقَ الأجسامِ في القُبورِ وانطفاءَ العُقولِ بالمَوتِ"[1].

عِلّةُ الفَصلِ في: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾:

أثرُ الاستِئنافِ البيانيِّ في إبرازِ مُتابعةِ المُتلَقّي وشوقِهِ

فُصِلَ قولُ اللّٰه ﷻ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِكَونِه استِئنافًا بَيانيًّا، وذلكَ لِوقوعِه جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الجملةِ السّابقةِ، وهي قولُه سبحانَهُ: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، كأنَّه قيلَ: ما الَّذي يَحدُثُ لَهُم بَعدَما وقَعَ بَينَهُم مِن تَعارُفٍ؟ أو ما الحالُ الَّتي تَرَتَّبت على تعارُفِهِم؟ فجاءَ الجوابُ في قولِه ﷻ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، وقد سِيقَت لِلشَّهادَةِ منه سبحانَه على خُسرانِهِم والتّعجيبِ مِنهُ، وهي خَبريَّةٌ لفظًا إنشائيَّةٌ مَعنًى؛ أي: ما نَتيجَةُ مَن يُكَذِّبُ بلقاءِ اللّٰه[2].

نُكتةُ دُخولِ ﴿قَدۡ﴾ على الفعلِ ﴿خَسِرَ﴾:

تَحقُّقُ خُسرانِ المُكَذِّبينَ بلقاءِ اللّٰه ربِّ العالَمين

﴿قَدۡ﴾ في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ حرفٌ دالٌّ على التَّحقيقِ، وقد أفادَ تَحقُّقَ وُقوعِ الخُسرانِ لهؤلاءِ المُكَذِّبينَ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/183.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/128.

وأنَّه لا مَنجى ولا مَهرَبَ منه البَتَّةَ، فصارَ خُسرانُهُم أمرًا مُحققًا لا مَعدِلَ منهُ. ويُؤيِّدُ هذه الدّلالَةَ التَّعبيرُ عنِ الخسرانِ بالفعلِ الماضي ﴿خَسِرَ﴾ المفيدِ الجَزمَ بالوقوعِ.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّةِ في: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾:

عِظَمُ خسارَةِ المُشركينَ، وشِدَّةُ حالِهم الّتي آلَ إليها أمرُهُم

قولُ اللّه ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ، سيقَتْ للشّهادَةِ منه تعالى على خُسرانِهم؛ فبيَّنَ ﷻ أنَّ الذين كذَّبوا بلقائه خاسرونَ لا محالَةَ، ولذا قُرِنَ الإخبارُ عن خُسرانِهم بحرفِ التَّحقيقِ ﴿قَدْ﴾[1].

قال الزَّمخشريُّ: "وهو استئنافٌ فيه معنى التَّعجُّبِ، كأنَّه قيلَ: ما أخسرَهُم؛ لأنَّهُم وُضعوا في تِجارَتِهم وبَيعِهِم الإيمان بالكفر"[2].

فلفظُ الجملةِ خَبَرٌ، ومعناها الإنشاءُ؛ على إرادةِ معنى التَّعجُّبِ من خُسرانِهم، وما آلَ إليه أمرُهُم.

ويجوزُ أن تكونَ الجملةُ في محلِّ نصبٍ، وذلك بإضمارِ قولٍ؛ أي: قائلين: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾...، وعليه فهي مَقولٌ لِقولٍ مُقدَّرٍ وقع حالا من ضميرِ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ أو منَ الضَّميرِ في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالخُسرانِ، ودِلالَةُ حَذفِ مَفعولِه:

الكُفرُ والتَّكذيبُ بلقاءِ اللّه تعالى ماحِقٌ لِكُلِّ عملٍ صالحٍ

قَولُ اللّه تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، الفعل الماضي دالٌّ في الأصلِ على تحقُّقِ الشّيءِ وحصولِه، وهو كذلك في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، فخسرانُهُم مَقطوعٌ به. وفي الجملةِ حَذف لِمفعولِ الفعلِ، والتَّقديرُ: خَسِروا أنفسَهُم؛ وذلكَ لأنَّهُم تبدَّلوا الكفرَ الماحقَ لأعمالِهم بالإيمانِ المخلِّصِ لَهم منَ الضّياعِ والبوارِ، وحَذفُ المفعولِ (أنفسَهم) لقصدِ الإيجازِ، وللعِلمِ بِهِ، ولِلَفتِ الذِّهنِ إلى الأمرِ الأهمِّ مباشرةً؛ وهو تَكذيبُهُم بلقاءِ اللّه.

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/208.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/239.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/128.

بلاغةُ الاستعارةِ في تشبيه أعمالِهم:

مِن بلاغةِ القرآنِ إخـراجُ المعاني المعقولةِ بصورةِ المحسوسةِ

وفي التَّعبير بالخسران استعارةٌ؛ لأنَّ أصلَ الخسرانِ انتقاصُ رأسِ المالِ[1]، فشُبِّه محقُ الكُفرِ لأعمالِهم بمَنِ انتقَصَ رأسُ مالِه؛ بجامِعِ الضَّياعِ في كلٍّ؛ فحُذِفَ المشبَّهُ، وصُرِّحَ بالمشبَّه به، على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والمعنى: أنَّهم ضيَّعوا أعمالَهُم الَّتي عَمَلوها في دُنياهُم.

ويجوزُ أن تكونَ الاستعارةُ مكنيَّةً؛ وذلك بتشبيه لقاءِ اللّه والإيمانِ به بتجارةٍ تقومُ بالرّبحِ والخسرانِ مبالغةً فيما وصَلَ إليه حالُهُم مِنَ الضَّياعِ والبوارِ.

وعلى كلا الوجهينِ فيه إخراجٌ للمعاني المَعقولَةِ في قالبِ الصّورِ المحسوسةِ؛ ليكونَ ذلك أعلقَ بالذِّهنِ، وأوضحَ في تصوُّرِ ضياعِهِم في الآخرةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِه:

التَّكذيبُ بلقاءِ اللهِ تعالى مِن أعظمِ أسبابِ الخُسرانِ

قول اللّه ﷻ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، وفيه أنّ التَّعبيرَ عن المُشركينَ بالاسمِ الموصولِ مع أنَّ المقامَ مَقامُ إضمارٍ؛ وذلك لقصدِ ذمِّهِم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، ولِلإشعارِ بعلّيَّتِه لما أصابَهُم.

ومِنَ المعلوم أنَّ الاسمَ الموصولَ مِنَ الأسماءِ المُبهَمةِ، ولذا تأتي الصِّلةُ بَعدَه لإزالةِ هذا الإبهامِ، فكانَ في التَّعبير بالاسم الموصولِ زيادة تقرير للغرضِ المَسوقِ له الكَلامُ؛ وهو بيانُ حالِ هؤلاءِ المكذِّبينَ بلقاءِ اللّه، وما آلوا إليه مِن خُسرانٍ وبوارٍ.

بلاغةُ الكنايةِ في جملةِ: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾:

التَّخـويفُ مِن مـوافـاةِ الـلـه تـعـالى يـومَ القيامةِ، بقلبٍ مُكذِّبٍ كنودٍ

المرادُ بلقاءِ اللّه تعالى في قوله ﷻ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ يومَ القيامَةِ؛ لأنَّه يومُ لقاءِ اللّه تعالى لِلحسابِ والجَزاءِ، ففي

(1) الرّاغب، المفردات: (خسر).

قوله: ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾: كنايةٌ، ونُكتَةُ العدولِ عنِ التَّصريحِ بأنَّه يومُ القيامةِ إلى التَّعبيرِ بلقاءِ اللّه تعالى: ما في التَّعبيرِ الكنائيِّ مِنَ الرَّهبَةِ والجلالِ والتَّخويفِ؛ إذ هوَ اليومُ الّذي يَلقى العبدُ فيه مَن له جَميعُ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، فكيفَ يكونُ حالُ العَبدِ إذا وافَى اللّه تعالى، وهو مُكَذِّبٌ بلقاءِ مَن هوَ قائمٌ بَينَ يديه للحسابِ؟!

دلالةُ الإضافةِ في المُركَّبِ الإضافيِّ ﴿بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾:

شَناعَةُ اعتقادِ المُشركينَ في تكذيبِهم بلقاءِ الله تعالى

إضافةُ اللِّقاءِ إلى الاسمِ الأحسنِ في قولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا لهذا اللّقاءِ، وتنويهًا بشأنِه، ولازِمُ ذلك بيانُ شناعَةِ هذا التَّكذيبِ الصّادرِ مِنَ المُشرِكينَ؛ إذ كذَّبوا بأعظَمِ لقاءٍ وبأعظَمِ مَن يُلقَى ﷻ.

دلالةُ (الواوِ) في: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾:

لا هِدايةَ لِمَن خَسِرَ دُنياه وأعمالَهُ، ولم يتبْ إلى الله

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾عاطفةٌ جملةً على جملةٍ؛ وذلك أنَّها عطفَت جملةَ نفيِ الاهتداءِ عن هؤلاءِ على جملةِ ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، فلمّا خَسِرَ هؤلاءِ دُنياهُم وأعمالَهُم؛ جاءَت هذه الجملةُ لِتنفيَ هدايتَهُم بالكلِّيَّةِ؛ إذ لا هِدايةَ لصاحبِ خُسرانٍ، ويمكنُ أن تكونَ واوًا للحالِ على معنى: قد خَسِروا، والحالُ أنّهُم ما كانوا مُهتَدينَ.

بلاغةُ التَّذييلِ: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾:

المُبالغةُ في نَفيِ الهِدايةِ عن المُشركينَ بعدَ إثباتِ الخُسرانِ لَهُم

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، لمّا وَقَعَ مِنَ المُشركينَ التَّكذيبُ بلقاءِ اللّه تعالى، وما فيه مِنَ الحسابِ والجزاءِ، وثبتَ لهم الخسرانُ؛ جاءَت هذه الجملةُ تذييلًا مُتمِّمًا لبيانِ حالِهِم، فقُدِّمَ النَّفيُ مبالغةً وتوكيدًا في نَفيِ هِدايتِهِم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالهِدايةِ مادَّةً وصيغةً:

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾، الهِدايةُ: دَلالةٌ بلُطفٍ، وأمّا

قولُ اللّه تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23] فخُرِّجَ ذلك على أنَّه قد استُعمِل فيه لفظُ الهِدايةِ على جهةِ التَّهكُّمِ؛ مُبالغةً في المعنى.

التَّكذيبُ بلقاءِ الله سبحانَه مِن أعظَمِ أسبابِ حَجبِ الهِدايةِ

وهدايةُ اللّه تعالى للإنسانِ الَّتي عمَّ بِجنسِها كُلَّ مُكلَّفٍ مِنَ العقلِ، والفِطنةِ، والمَعارِفِ الضَّروريَّةِ، كلٌّ بحسبِه[1]. والمرادُ بنَفي الهِدايةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: أنَّ اللّه تعالى مَنَعَ هؤلاء تَوفيقَه الَّذي خُصَّ به المُهتدونَ الَّذين تَبَصَّروا حقائقَ الأمورِ، فالتزَموا أوامرَها، واجتنَبوا مَناهيَها، كما ناسبَ التَّعبيرُ بالهِدايةِ المنفيَّةِ هنا حالَ الخاسِرينَ الَّذينَ كذَّبوا بلقاءِ اللّه، وأنكَروا حصولَهُ، فَحَرَمَهُمُ اللّه هذه الهِدايةَ.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

اللُّبثُ والمُكثُ:

اللُّبثُ إقامةٌ مع مُلازمةٍ طالَت أم قَصُرت، والمُكثُ دالٌّ على ثباتٍ مع انتظارٍ

اللُّبثُ مِن قولِهم: لَبِثَ بالمكانِ؛ إذا أقامَ به مُلازِمًا له. قال اللّه تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ﴾ [العنكبوت: 14][2]، وقد يُرادُ به القليلُ والكثيرُ؛ ففي اللُّبثِ إقامةٌ مع مُلازَمةٍ طالَت أم قَصُرت، ووَرَدَت في قولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مُرادًا بها قِصَرُ الإقامةِ وعدمِ إطالتِها.

وأَمّا المكثُ فهو دالٌّ على ثباتٍ مع انتظارٍ، قال اللّه تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [النّمل: 22][3]، وفي المُكثِ معنى اللُّبثِ، والمرادُ بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزّخرف: 77]: لابِثونَ في العَذابِ لا تَتخلَّصونَ عنه بموتٍ ولا فتورٍ[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (هدى).
(2) الرّاغب، المفردات: (لبث).
(3) الرّاغب، المفردات: (مكث).
(4) النّسفيّ، مدارك التّأويل: 3/282.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُعايَنةُ هَلاكِ الأعداءِ في الدّنيا، وخسرانِهم في الآخرةِ، أقرُّ لِلعينِ، وأسَرُّ لِلنَّفسِ

لَمّا أخبرَ اللّه ﷻ بخُسرانِ المُشركينَ المُكذِّبينَ بلقائِه في قولِه سُبحانَهُ: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾، وكانَ إخبارُ الصّادقِ بهلاكِ الأعداءِ ممّا تقَرُّ به الأعينُ، وكانَ مشاهدَةُ هلاكِهم أقرَّ لَها؛ بيَّنَ سُبحانَه أنَّ إصابتَه هؤلاءِ الكفّارَ بما يُهلِكُهم، إمّا أن يكونَ في الدُّنيا، فيراه النَّبيُّ ﷺ بعينِه، وتقرُّ به نفسُهُ، وإمّا في الآخرةِ بعدَ مماتِه، فيرجعونَ إلى اللّه سُبحانَهُ، ويُري نبيَّه ﷺ في الآخرةِ ما هوَ أقرُّ لعينِه وأسرُّ لقلبِه، فقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: أصلُ (وفى): كلمةٌ تدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ، منه الوَفاءُ: إتمامُ العَهدِ وإكمالُ الشَّرطِ. ووَفَى: أَوفَى، فهو وَفيٌّ. ويقولونَ: أَوفيتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيتَه إيّاه وافيًا. وتَوَفَّيتُ الشَّيءَ واستَوفَيتُهُ؛ إذا أخذتَه كُلَّه حتَّى لم تَترُكْ منه شيئًا[2]. والوفاةُ: المَنيّةُ. وتوفّي فلانٌ. وتوفّاه اللّه، إذا قَبض نَفسه[3]، وتَوَفّي الميتِ استيفاء مُدَّتِه الَّتي وُفيتْ لَه وعَدَد أيامِه وشُهورِه وأعوامِه في الدُّنيا. وتَوَفَّيتُ المالَ منه واستوفَيته إذا أخذته كُلَّهُ[4]. والمقصودُ بالتَّوَفّي في الآيةِ: الإماتَةُ، سُمّيَت تَوفّيًا؛ لأنَّها تُنهي حياةَ المَرءِ أو تَستوفيها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/132.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (وفى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وفي).

2) ﴿شَهِيدٌ﴾: أصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلمٍ وإعلامٍ[1]، يُقالُ: شَهِدَ الشَّيءَ: إذا حَضَرَه وعايَنَهُ، وتُطلَقُ بمعنى الإخبارِ والإعلامِ، يُقالُ: شَهِدَ بالأمرِ: إذا أخبَرَ بِهِ، وأعلَمَ غَيرَه بِهِ[2]، فالشَّهادَةُ: إخبارٌ عن عِلمٍ يَحصُلُ عن طَريقِ الحُضورِ أو الرُّؤيَةِ ونحوِ ذلك، والشَّهيدُ: الشّاهِدُ، وهوَ المُؤَيِّدُ والمُصَدِّقُ لِدَعوَى مُدَّعٍ[3]، وهذا المرادُ في الآيةِ.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

عـذابُ الـكـفّـارِ مُـضـاعَـفٌ في الدُّنيا والآخرة، يراه النّبيُّ الأكرمُ في حياتِه أو بعدَ المماتِ

كانَ المشركونَ يُكذِّبونَ النَّبيَّ ﷺ في توعُّدِه لَهُم بالعذابِ، وكانوا يَستعجلونَ نزولَه تكذيبًا له واستهزاءً بِه، ويَتمنّونَ موتَه لِتموتَ دعوتُهُ، فردَّ اللّه تعالى عليهم مُخاطِبًا رسولَه ﷺ: إنَّ هؤلاءِ المشركينَ الَّذين ناصبوكَ العداوةَ أيُّها الرّسولُ الكريمُ لا يخفى علينا أمرُهُم، ونحن إمّا نُرينَّكَ ببصرِكَ بعضَ الَّذي نَعِدُهُم به مِنَ العذابِ الدُّنيويِّ، وإمّا نَتَوفَّينَّك، قبلَ ذلكَ، وفي كلتا الحالتين فإنَّ مَرجعَهُم إلينا وحدَنا في الآخرةِ، فنُعاقبهُم العُقوبةَ الَّتي يَستحقّونَها، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49][4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾:

إمهالُ الكُفّارِ في الدُّنيا؛ لا يُصَيِّرُهُم مُفلِتينَ مِنَ العِقابِ في الآخرة

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَها مُستأنفةٌ[5]، والمرادُ بها بَيانٌ لإمكانِ استِبقائِهِم والإيماءُ إلى إمهالِهِم، وهي واردةٌ أيضًا "إنذارًا بأنَّهُم إنْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (شهد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/152.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/79، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/192.
(5) الدّعّاس، إعراب القرآن: 2/29.

أُمهِلوا فأُبقيَ عليهم في الدُّنيا؛ فإنَّهُم غَيرُ مُفلِتينَ مِنَ المَصيرِ إلى عِقابِ الآخرةِ حينَ يَرجعونَ إلى تَصرُّفِ اللّه دونَ حائِلٍ"(1)، قال ابنُ عاشورٍ: "كانَ ذِكرُ تكذيبِهِمُ الَّذي جاءَ في صَدرِ السّورَةِ بقولِه: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾ [يونس: 2]، ثُمَّ الوَعيدِ عليه بعذابٍ يَحُلُّ بِهِم، والإشارةُ إلى أنَّهُم كذَّبوا بالوَعيدِ في قولِه: ﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ إلى قولِه: ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [يونس: 11 - 14] مُنذِرًا بترقُّبِ عَذابٍ يَحُلُّ بِهِم في الدُّنيا كما حَلَّ بالقرونِ الَّذينَ من قَبلِهِم، وكانَ مَعلومًا مِن خُلُقِ النَّبيِّ ﷺ رَأفَتُه بالنّاسِ ورَغبَتُه أنْ يَتِمَّ هذا الدّينُ، وأنْ يَهتَديَ جَميعُ المَدعوّينَ إليهِ، فرُبَّما كانَ النَّبيُّ يَحذَرُ أن يَنزِلَ بِهِم عَذابُ الاستئصالِ فَيَفوتَ اهتِداؤُهُم، وكانَ قولُه: ﴿۞وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١﴾ [يونس: 11] تَصريحًا بإمكانِ استِبقائِهِم، وإيماءً إلى إمهالِهِم"(2).

دلالَةُ ﴿وَإِمَّا﴾:

قَولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾، وفيه الأداة ﴿وَإِمَّا﴾ في أصلِها (إنْ) الشَّرطيَّةُ، و (ما) صِلَةٌ يُرادُ بها التَّوكيد، والمقصودُ: تأكيدُ مَعنى الشَّرطِ، ولذا زيدَ الفعلُ تأكيدًا بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلة، وفي تأكيدِ الفعلِ إيماءٌ إلى أنَّ رؤيةَ إهلاكِ الأعداءِ ممّا تُسَرُّ النَّفسُ بها، ولذا يقَعُ الحمدُ في مُقابِلِها، كما قال اللّه سبحانَهُ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٥﴾ [الأنعام: 45].

رُؤيةُ إهلاكِ الأعداءِ، ممّا تُسَرُّ النَّفسُ بها

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيّة ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ في التَّعبيرِ بجملةِ الشَّرطِ، في طَمأنَةِ النَّبيِّ ﷺ؛ والمعنى: إنْ أريناكَ يا نبيَّنا عذابَهُم

مِن إكرامِ اللّه سُبحانَه لِنبيِّه ﷺ، طَمأنَتُه وإيناسُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/183.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/183.

في الدُّنيا لتُقرَّ عينَك منهُم فذاكَ، وإنْ توفَّيناكَ قبلَ ذلكَ فمرجعُهُم إلينا في الآخرةِ، ولا بُدَّ منَ الجزاءِ عاجلًا أم آجلًا، وهذا مِن بابِ الإيناسِ وإلقاءِ الطّمأنينةِ في نفسِه ﷺ.

نُكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بِـ (إنْ) دونَ (إذا) في السّياقِ:

دِقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في اختيارِ أداةِ الشَّرطِ الملائمةِ للمقامِ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾، وفيه حرفُ الشَّرطِ (إنْ)، مُستعمَلٌ في الأصلِ لِما لا يُقطَعُ بوقوعِه، بل يُشكُّ في ذلك، بخلافِ (إذا)، فإنَّها في الأصلِ لِما يُجزَمُ بوقوعِه، وفي التَّعبيرِ بـ (إنْ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الشَّرطَ لمّا كانَ لَه حالانِ؛ لَم يُقطَعْ بوقوعِ أحدِهما؛ فاستُعمِلَت (إنْ) لكونِها أنسبَ لِلمقامِ، ويمكنُ أن تكونَ (إن) هنا خرجَت عن مُقتضَى الظّاهرِ دونَ مُقتضَى الحالِ، فالمحلُّ لـ(إذا)، وجاءَ بحرفِ التّشكيكِ؛ لِيُبيِّنَ أنّ كفرَهُم حريٌّ به ألّا يكونَ، وألّا يصلَ إلى هذه المَواصلِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الرُّؤيةِ مادَّةً وصيغةً:

إراءةُ الله تعالى نبيَّه الأكرمَ أنواعًا مِن خزيِ الكافرينَ في الدُّنيا

الرُّؤيةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ بصريَّةٌ، "وهذا يدُلُّ على أنَّ اللّه تعالى يُري رسولَه أنواعًا من ذُلِّ الكافرين وخِزيهم في الدُّنيا، وسيَزيدُ عليه بعدَ وفاتِه"[1]، والرُّؤيةُ هي إدراكُ المَرئيِّ، وقد رأى النَّبيُّ ﷺ ما وَقَعَ بالكثيرِ مِن أهلِ مكَّةَ، كما وَقَعَ في يوم بدرٍ وغيرِه، والرُّؤيةُ أقوى مِنَ النَّظرِ؛ لكونِ النَّظر تقليب العَينِ نحوَ مكانِ المَرئيِّ طلبًا للرُّؤيةِ، بخلافِ الرُّؤيةِ؛ فهي إدراكُ المَرئيِّ[2].

المُرادُ بكافِ الخطابِ في: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

تعذيبُ الله ﷻ للكُفّارِ في الدُّنيا مُتعَدِّدَةٌ صوَرُه وأفرادُهُ

كافُ الخطابِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، يُرادُ بها النَّبيُّ ﷺ؛ وذلك لأنَّه هو المقصودُ بفعلِ الإراءةِ والتَّوفِّي - ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ - ، وقد أراه اللّه تعالى أنواعًا من

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/110.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.

عَذابِ الكُفّارِ في الحياةِ الدُّنيا؛ قَتلًا وأسرًا، وأخذًا للأموالِ، وسَبيًا للنّساءِ والذَّراريِّ[1].

نُكتةُ الإسنادِ في: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾، و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

عَـظَـمَـةُ اللـه ﷻ وقُـدرتُـهُ، لا مُنتهى لِكمالِهِما

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وفيه أُسنِدَ فعلُ الرُّؤيةِ والتَّوفّي إلى ضميرِ العظمَةِ الدّالِّ على اللّه سُبحانَه في قوله: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾؛ أي: نَحنُ، ومثلهُ: ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وإنَّما يُقَدَّرُ الفاعِلُ: نَحنُ؛ لكونِ الفعلِ مَبدوءًا بالنّونِ، فلا يحسنُ تقديرُ ضميرٍ غير (نَحنُ)، وفي إسنادِ الفعلَينِ المذكورَينِ إلى ضميرِ العظمَةِ إيماءٌ إلى أنَّه لا يَقدِرُ على أنْ يُريَه أو يَتوفّاه إلّا اللّه تعالى، وأنَّه ﷺ لا يملِكُ مِن أمرِه شيئًا، وأنَّ اللّه ﷻ هوَ المُتَصَرِّفُ وحدَه في هذا الكونِ حسبَ إرادَتِه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ عظمَةَ اللّه سبحانَه وقُدرَتَه لا مُنتَهى لكمالِهِما.

نُكتةُ التوكيدِ في: ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾:

المُبالغةُ في بَيانِ عَظيمِ قُدرَةِ الله سُبحانَهُ، مِنَ البيانِ المُفصِحِ عنِ المُرادِ

الفعلُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ واقعٌ شرطًا لـ(إن) المؤكَّدةِ بـ(ما)، وفي هذه الحالِ يكونُ توكيدُ المضارعِ قريبًا مِنَ الواجبِ[2]، والقولُ في ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ كذلك؛ لكونِه معطوفًا عليه، وتأكيدُهَما بنونِ التَّوكيدِ الثَّقيلةِ زادَ المَعنى قوَّةً؛ إذ فيه مبالغةٌ في بيانِ عظيمِ قدرةِ اللّه سبحانَهُ.

بيانُ مَفعولَي الرُّؤيَةِ، ونُكتةُ تَرتيبِهِما:

بيانُ شَرَفِ النَّبيِّ ﷺ، ورِفـعَـةِ درجــتِــه في خطابِه

الكافُ في ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ مفعولٌ به أوَّلُ، و﴿بَعۡضَ﴾ مَفعولٌ به ثانٍ؛ لأنَّ فِعلَ الإراءةِ يتعدَّى إلى اثنينِ؛ لكونِ الإراءةِ بصريَّةً، فدخولُ الهمزةِ تُصيِّرُه مُعَدًّى إلى اثنينِ. وتَقديمُ كافِ الخطابِ المرادِ بِها النَّبيُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/164.

(2) الحملاويّ، شذا العرف، ص: 44.

ﷺ؛ لكونِه فاعِلًا في المعنى، والأصلُ في مَفعولَي الفعلِ تقديمُ ما كانَ فاعِلًا في المعنى، وفي تقديمِه ههنا مَعنًى آخرُ؛ وهو كونُه المخصوصَ بالخطابِ، فقُدِّمَ اهتمامًا بِهِ، وعنايةً بخطابِهِ، زيادةً في تشريفِه وبيانِ رفعةِ درجتِه.

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عَن تعجيلِ العذابِ بالرُّؤيةِ:

تعجيلُ عذابِ الكُفّارِ في الدُّنيا، يُرادُ بِه الانتصافُ للنَّبيِّ ﷺ

عُبِّرَ عن تعجيلِ العذابِ بإراءَةِ اللّه تعالى رسولَه ﷺ ذلك، فقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ المرادَ بحالِ تعجيلِ العذابِ هو الانتصافُ للنَّبيِّ ﷺ، بأن يُريَه اللّه تعالى عذابَ مُخالِفيه ومُعانِديه، ولهذا رُتِّبَ على ضدِّ ذلك ضدُّ التَّعجيلِ، فَكُنِّيَ عَن عدمِ تعجيلِ العذابِ بالتَّوَفّي، فيُؤَخَّرُ العذابُ لحكمةٍ يعلمُها اللّه سبحانَهُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿نَعِدُهُمۡ﴾:

تَجَدُّدُ الوعيدِ والإنذارِ، حَسَبَما تَقتضيه حِكمَةُ الواحدِ القهّارِ

قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾؛ أي: بعضًا مِنَ العَذابِ، وذلك بأنْ نُعَذِّبَهُم في حَياتِك، فتعاينُ ذلكَ، وفي العدولِ عن صيغةِ الماضي إلى صيغةِ المضارعِ، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (بعضَ الّذي وعدْناهُم)؛ لاستحضارِ الصّورةِ، أو للإشعارِ بالتَّجدُّدِ والاستمرارِ؛ أي: "نعِدُهُم وعدًا مُتَجدِّدًا حسبَما تَقتضيه الحِكمةُ مِن إنذارٍ بعد إنذارٍ، وفي تخصيصِ البَعضِ بالذِّكرِ رَمزٌ إلى العِدَةِ بإراءةِ بَعضِ المَوعودِ، وقَد أراه يومَ بدرٍ"[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ، وصِلَتِه:

ما وَعَدَ اللّه سُبحانَه بِهِ؛ فإنَّه كائِنٌ لا مَحالَةَ

في التَّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ دونَ أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وإمّا نريَنَّكَ تعذيبَهُم)؛ إشعارٌ بأنَّ ما وعدَ اللّه تعالى به لا بدَّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/184.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/150.

أن يَتحقَّقَ ويكونَ، بخلافِ ما لو عُبِّرَ بالعذابِ؛ فإنَّه لا يُعطي هذا المعنى. وفي التَّعبيرِ بالموصولِ أيضًا: زيادَةُ الغَرضِ المَسوقِ لَه الكَلامُ، والمعنى: كَيفَما دارَتِ الحالُ أَرَيناكَ بعضَ ما وعَدناهُم أوَّلًا، وهُم قَد وُعِدوا بعذابَي الدُّنيا والآخرةِ، والمُرادُ: إنْ وَقَعَ عذابُ الدُّنيا بهم، فعايَنتَهُ، ورأيتَه بنفسِكَ، أو لَم يَقَعْ، وتَوفّاكَ اللّه تعالى، فسيكونُ مصيرُهُم إلينا لا مَحالةَ، وفي ذلك إيماءٌ إلى تنفيذِ مَوعودِ اللّه فيهِم وبِهِم.

دلالةُ ﴿أَوْ﴾:

أثرُ تَعَدُّدِ معاني الحُروفِ في إثراءِ المَعاني القُرآنيَّةِ

قَولُ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وفيه ﴿أَوْ﴾ عاطِفَةٌ لجملةِ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ على سابِقَتِها ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ لِتشريكِها معها في حكمٍ إعرابيٍّ واحدٍ، و﴿أَوْ﴾ تدُلُّ في الأصلِ على التَّخييرِ أو الإباحةِ في الطَّلبِ، والشَّكِّ أو التَّشكيكِ أو الإبهامِ في الخبَرِ، وهي هُنا وارِدَةٌ في جملةِ الخبرِ، والمرادُ بها الإبهامُ، وإلّا فإنَّ اللّه سُبحانَه عالِمٌ بمَن يُري نبيَّه ﷺ تعذيبَهُم في الدُّنيا، ومَنْ يُريهم ذلكَ في الآخرةِ. وجائزٌ أن تكونَ ﴿أَوْ﴾ للتَّقسيم، وأنَّ أعداءَ النَّبيِّ ﷺ مُعذَّبونَ لا مَحالةَ، وسيرى تعذيبَ اللّه تعالى إيّاهُم، إمّا في الدُّنيا، وإمّا في الآخرةِ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَإِلَيۡنَا﴾:

تعذيبُ الكُفّارِ في الآخِرَةِ مُقَرَّرٌ وثابتٌ، سواءٌ عُذِّبوا في الدُّنيا أو لم يُعذَّبوا

الفاءُ في ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ رابطةٌ لهذه الجملةِ بما تقدَّمَها، وفي الكلامِ حذفٌ، والتَّقدير: فإلَينا مَرجِعُهُم فنُريكَ بعضَ ما نعِدُهُم في الآخرةِ، وقوله: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جوابٌ للشَّرطِ وما عُطِفَ عليه؛ والمعنى: إنَّ عذابَهُم في الآخرةِ مُقرَّرٌ وثابتٌ، سواءٌ عُذِّبوا في الدُّنيا أم لا. ويحتمِلُ أن يكونَ قولُه: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جوابًا لـ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، كأنَّه قيلَ: إمّا نَتَوَفَّيَنَّكَ فإلَينا مَرجِعُهُم فنُريكه

في الآخرةِ، وأمّا جوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ فمحذوفٌ، والتَّقديرُ: فإمّا نُرِيَنَّكَ فَذاكَ المرادُ أو المُتَمَنّى أو نحوُ ذلكَ[1].

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿فَإِلَيۡنَا﴾:

تهديدُ الكُفّارِ وتَخويفُهُم مِن أهوالِ يومِ القيامةِ مِن مَقاصِدِ آيِ القرآنِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فَإِلَيۡنَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾؛ لإفادةِ القَصرِ والتَّخصيصِ والاهتمامِ بالمُقدَّمِ؛ أي: إلينا لا لغيرِنا، فالمَرجِعُ إلى اللّه تعالى لا إلى غيرِه، وفي هذا مِنَ التَّهديدِ لِلكُفّارِ ما لا يَخفَى، ولا سيَّما وقد عُبِّرَ بضميرِ العظَمَةِ (نا) المُشعِرِ بعظمةِ هذا الرُّجوعِ وعظمةِ المَرجوعِ إليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾:

تهديدُ المُعانِدينَ المُخالِفينَ لِلشَّرعِ بالرُّجوعِ إلى الله تعالى يومَ القيامةِ

أصلُ الرُّجوعِ: هو العودُ إلى ما كانَ منه البدءُ، أو هو تقديرُ البدءِ فِعلًا كان أو قولًا أو مكانًا، وسواءٌ أكانَ الرُّجوعُ بذاتِه أو بجزءٍ مِن أجزائِه أو بفعلٍ مِن أفعالِه، "فالرُّجوعُ: العودُ، والرَّجعُ: الإعادَةُ"[2].

والمُرادُ بالرُّجوعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾: الوعيدُ بالعَودِ إلى اللّه تعالى يومَ القيامةِ للحسابِ، وفي التَّعبيرِ بالرُّجوعِ إيماءٌ إلى أنَّه لا مَفرَّ لَهُم مِنَ العَودِ إليه ﷻ، وكأنَّهم قَضَوا ما قَضَوا في الدُّنيا ثُمَّ يكونُ مصيرُهم إلى عذابِهم في الآخرةِ، وأنَّ هذا العذابَ مُقرَّرٌ لَهُم في الآخرةِ، وهذا الرُّجوعُ أبلغُ في الاستعمالِ مِنَ العَودِ؛ إذ هو كنايَةٌ عن المَصيرِ الَّذي يَنتَظِرُهُم، إلى جانِبِ ما فيه مِنَ الإيناسِ له ﷺ.

المَوقِعُ النَّحويُّ لـ: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾:

أثرُ التَّوجيهِ النَّحويِّ في إثراءِ المعاني وتكثيرِها مُفيدٌ غايةَ الإفادةِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جوابٌ لِلشَّرطِ في الجملتينِ السّابِقتَينِ، والمعنى: "إنَّ عَذابَهُم في الآخرةِ مُقَرَّرٌ، عُذِّبوا في الدُّنيا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/129.
(2) الرّاغب، المفردات: (رجع).

أم لا، وقيلَ: هو جَوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾كأنَّه قيلَ: إمّا نَتَوَفَّيَنَّكَ فإلينا مَرجِعُهُم فَنُريكَه في الآخِرَةِ، والجَوابُ محذوفٌ؛ أي: إمّا نُرِيَنَّك فَذاكَ المُرادُ أو المُتمنَّى فذاكَ حقٌّ وصوابٌ أو واقِعٌ أو ثابتٌ"[1].

دلالةُ مجيءِ جوابٍ واحدٍ لِفعلَي الشَّرطِ:

رُجوعُ المُشرِكينَ إلى الله تعالى، هو رُجوعُ إهانةٍ وتعذيبٍ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، وردَ فعلا شرطٍ؛ وهما ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ و﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، ونُصَّ على جوابٍ واحدٍ وهو ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، قال ابنُ عاشورٍ: "لمّا جُعِلَ جَوابُ الشَّرطَينِ إرجاعَهُم إلى اللّهِ المُكنَّى به عن العقابِ الآجِلِ؛ تَعَيَّنَ أنَّ التَّقسيمَ الواقِعَ في الشَّرطِ تَرديدٌ بَينَ حالتَينِ لَهُما مُناسَبَةٌ بحالةِ تَحَقُّقِ الإرجاعِ إلى عذابِ اللّه على كلا التَّقديرَينِ، وهُما حالةُ التَّعجيلِ لَهُم بالعذابِ في الدُّنيا، وحالةُ تأخيرِ العذابِ إلى الآخرة. وأمّا إراءةُ الرَّسولِ تَعذيبَهُم وتوفِّيه بِدونِ إراءَتِه؛ فلا مُناسبةَ لَهُما بالإرجاعِ إلى اللّه على كِلتَيهما، إلّا باعتبارِ مُقارَنةِ إحداهُما لِحالةِ التَّعجيلِ ومُناسبةِ الأُخرى لِحالةِ التَّأخيرِ"[2].

براعةُ الكنايةِ عن العذابِ في: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾:

عـذابُ الآخـرةِ أعظمُ مِن عذابِ الدُّنيا، وأكثرُ هولًا وألمًا

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ كنايةٌ عنِ العذابِ الأخرَويِّ، وورِدَ هذا التَّعبيرُ هُنا بَيانًا وتَحذيرًا لَهُم بأنَّ مَصيرَهُم إليه سُبحانَهُ، فإنَّهُم وإنْ كانَ اللّه قد أمهَلَهُم في الدُّنيا إلّا أنَّهُم لَن يُفلِتوا من عَذابِه سُبحانَه، وهذه الكنايةُ تَنخَلِعُ منها القُلوبُ العاصيَةُ حينَ تَتَخَيَّلُ أنَّ أمرَها مَوكولٌ إلى اللّه العزيزِ الجَبّارِ، وأنَّهُم ما تُرِكوا في الدُّنيا إلّا لعذابٍ أعظمَ وانتقامٍ أشدَّ.

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ حرفُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/184.

عطفٍ لتَرتيبِ الأخبارِ لا لِترتيبِ القصَصِ في أنفُسِها[1]. قال الزَّمخشريُّ: "فإنْ قُلتَ: اللّه شهيدٌ على ما يَفعلونَ في الدّارَين، فَما معنى ثُمَّ؟ قُلتُ: ذُكِرَتِ الشّهادَةُ، والمُرادُ مُقتَضاها ونَتيجَتُها؛ وهوَ العِقابُ، كأنَّه قال: ثُمَّ اللّه مُعاقِبٌ على ما يَفعَلونَ. وقَرَأَ ابنُ أبي عَبلَةَ: (ثَمَّ) بالفتح؛ أي: هُنالِكَ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: أنَّ اللّه مُؤَدٍّ شهادَتَه على أفعالِهِم يومَ القيامةِ، حينَ يُنطِقُ جُلودَهُم وألسنتَهم وأيديَهُم وأرجُلَهُم شاهِدَةً عليهِم"[2]. والأظهَرُ أنَّ شهادَةَ اللّه سُبحانَه عليهم - الواردةَ في الآيةِ - هيَ على جهةِ الحقيقةِ، وأمّا شهادَةُ الجلودِ ونحوها فهيَ ضربٌ آخَر مِنَ الشَّهادةِ في الآخرةِ.

شهادَةُ اللّه سُبحانَه على أفعالِ أهلِ الشِّركِ، تقتضي عِقابَهُم عليها

بلاغةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ إظهارٌ في مَوضعِ الإضمارِ؛ وذلك لأنَّ مُقتضى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ أنا شهيدٌ) أو على أسلوبِ التَّعظيم (ثُمَّ نحنُ شهداءُ على ما يَفعلون)؛ لِيتوافقَ مع قولِه قبلُ: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، وعُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لإدخالِ الرَّوعِ، وتَربيةِ المَهابَةِ في نُفوسِهم، وتأكيدِ التَّهديدِ بالوعيدِ الّذي تَوَعَّدَهُم به ﷻ.

إدخالُ المَهابةِ في النُّفوسِ، لعَلَّها تَرعَوي عَن باطِلِها

دلالةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه في: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾:

بَعدَ أن أخبرَ ﷻ أنَّ مَرجِعَ هؤلاءِ إليه ﷻ؛ تَشَوَّقَتْ نفسُ السّامِعِ: فماذا يكونُ منه سُبحانَهُ؟ فَجاءَ التَّعبيرُ بتقديمِ الاسمِ الأعظَمِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾، وهذه الجُملَةُ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في معناه الكِنائيِّ، إذ هو كِنايَةٌ عن الوعيدِ بالجزاءِ على جميعِ ما فعلوه في الدُّنيا بِحيثُ لا يُغادِرُ شيئًا[3].

تَوَعُّدُ اللّه سُبحانَه الكافِرينَ بمُجازاتِهِم على جميعِ أفعالِهِم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/256.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/256، والعكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/29.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/186.

بَراعةُ التَّعبيرِ بوصفِ ﴿شَهِيدٌ﴾:

المُرادُ بالشّهادةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ إمّا مُقتَضاها ونتيجتُها؛ وهي مُعاقَبَتُه تعالى إيّاهُم، وإمّا إقامَتُها وأداؤُها بإنطاقِ الجوارِحِ، والأوَّلُ أظهَرُ مع الإبقاءِ على المعنى الأصليِّ من كونِه سُبحانَه شهيدًا عليهم على وجه الحقيقةِ، ثُمَّ يُضافُ إليه مُقتضَى تلك الشَّهادةِ على سبيلِ التَّبَع.

و﴿شَهِيدٌ﴾ اسمُ مفعولٍ، بمَعنى فاعِلٍ؛ أي: شاهِد "وحقيقتُه: المُخبِرُ عَن أمرٍ فيه تَصديقٌ لِلمُخبِرِ، واستُعمِلَ هنا في العالِمِ عِلمَ تحقيقٍ"[1].

إحاطةُ عِلمِ الله تعالى بأفعالِ الخلائِقِ، دليلُ كمالِه وعظمتِه

نُكتةُ تنكيرِ ﴿شَهِيدٌ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿شَهِيدٌ﴾ من قَولِ اللّه سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ٤٦﴾؛ لإرادَةِ تعظيمِ الوصفِ الّذي تضمَّنه هذا الاسمُ الجليلُ، ولقصدِ المُبالَغَةِ في الشّهادةِ، وتَعميمِ الأمرِ فيها عليهم مِن كُلِّ جانبٍ، بالإضافةِ إلى ما في التَّنكيرِ مِنَ التَّعظيمِ والتَّشريفِ لهذه الشّهادةِ، وذلكَ حينَ تَصدُرُ مِنَ اللّه تعالى.

بيانُ عِظَمِ أوصافِ الله ﷻ وجَلالَتِها

دلالةُ ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ اسمُ موصولٍ بمعنى الَّذي، وجُملَةُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ صِلَتُهُ، والعائِدُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: الَّذي يَفعَلونَهُ. وفي التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ عدولٌ عن التَّصريحِ بأفعالِهم إلى الإبهامِ الّذي يقتضيه الاسمُ الموصولُ؛ وذلكَ لِشناعةِ تلك الأفعالِ مِن كُفرِهم باللّه سبحانَهُ، وتكذيبِهم رسولَه ﷺ، ونحوِ ذلك، وفي الاسمِ الموصولِ إشارةٌ إلى سعةِ عِلمِ اللّه تعالى؛ حيثُ إنَّه ﷻ شهيدٌ على جميعِ أعمالِهم؛ وذلك لأنَّ الاسمَ الموصولَ يدُلُّ على العمومِ، ويمكنُ أن تكونَ ﴿مَا﴾ مصدريّةً على معنى: شهيدٌ على فعلِهم.

شَناعَةُ كُفرِ المُشرِكينَ وتكذيبِهم، وإحاطَةُ عِلمِ اللهِ تعالى بجميعِ أفعالِهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/186.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

الفِعلُ لفظٌ عامٌّ، سواءٌ أكانَ بإجادةٍ أم بغيرِ إجادةٍ، أو كانَ بعلمٍ أم بغيرِ علمٍ، وقصدٍ أم غيرِ قصدٍ، ويكونُ مِنَ الإنسانِ والحيوانِ وغيرِهما. وأمّا العملُ فهوَ كُلُّ فِعلٍ يكونُ بقصدٍ؛ فَهوَ بهذا الاعتبارِ أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ وذلكَ لأنَّ الفعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فِعلٌ بغيرِ قَصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، بخلافِ العملِ؛ فقلَّما يُنسَبُ إلى ذلكَ، ولَم يُستعمل العملُ في الحيواناتِ إلّا في قولِهم: البَقَرُ العَوامِلُ، والعملُ يُستعمَلُ في الأعمالِ الصّالحةِ والسَّيِّئَةِ.

تنزيلُ المُشرِكينَ مَنزِلَةَ البَهائِمِ في عدمِ تمييزِهِمُ النّافِعَ مِنَ الضّارِّ

وجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ دونَ العملِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾؛ لأنَّه لَمّا كانَ هؤلاءِ قَدِ ارتَكَبوا الأعمالَ السَّيِّئَةَ والأفعالَ القَبيحَةَ؛ نُزِّلوا مَنزِلَةَ البهائمِ؛ لِعدمِ تمييزِهِم بينَ الصّالِحِ والطّالِحِ، والنّافِعِ والضّارِّ، فعبَّرَ عَمّا ارتَكَبوه بلفظِ الفعلِ دونَ العملِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

فَظاعَةُ أفعالِ المُشرِكينَ الإجراميّةِ، وشهادةُ اللّه عليها

الفعلُ المضارعُ ﴿يَفۡعَلُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ دالٌّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ واستِحضارِ صورةِ ما يَفعَلُه هؤلاءِ لِفظاعَتِه وشناعَتِه، وأنَّه واقِعٌ مُتجدِّدٌ منهُم لا يَنقَطِعُ. كما أفادَ التَّعبيرُ بهذا الفعلِ أنَّ اللّه تعالى عليمٌ بما ارتكبوهُ، وما يحدثُ مِن أفعالِهِم المنكرةِ وجرائِمِهِمُ القبيحةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَفاةُ والمَوتُ:

التَّـوفّي أعمُّ والموتُ أخصُّ، وكلاهما بمعنى انتهاءِ الحياةِ بخروجِ الرّوحِ مِنَ الجسدِ

التَّوفّي في الإنسانِ وغيرِه: قَبضُ النَّفسِ عن البَدنِ، بقطعِ تعلُّقِ التَّصرُّفِ فيها عنها، والموتُ إماتَةُ الأبدانِ وسلبُ صحّةِ أجزائها بالكلّيَّةِ، فلا تبَقى حيَّةً حسّاسةً درّاكةً كأنَّ ذاتَها قد سُلِبتْ، والتَّوفّي يكونُ مع النَّومِ وغيرِه، وفي حالةِ النَّومِ لا يتمُّ فيها إلّا سلبُ الصِّحّةِ،

وما يترتَّبُ عليها مِنَ الحركاتِ الاختياريَّةِ وغيرِها، فلا يُميِّزُ ولا يَتصرَّفُ إلّا بعدَ قيامِه، وفي الموتِ يُسلَبُ الإنسانُ جميعَ قواه وقدراتِهِ، فالتَّوفّي أعمُّ والموتُ أخصُّ، ومِن هُنا جاءَ التَّعبيرُ في القرآنِ عنِ الموتِ والنَّوم بالتَّوفّي، قال اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الزّمر: 42]، وفي الموتِ تزولُ القوّةُ الحيوانيَّةُ المستقرَّةُ في الإنسانِ وغيرِه، مع قطعِ الرَّوحِ وإبانتِها عنِ الجسدِ تمامًا، بعَكسِ التَّوفّي.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٤٧﴾ [يونس: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بَيَّنَ اللّه سبحانَه حالَ محمَّدٍ ﷺ مع قومِه، وأنَّ المُكذِّبَ المعانِدَ مِنهُم سَيَنالُه عذابُ الآخرةِ قطعًا، وهو العذابُ المؤجَّلُ، وقد يُضافُ إلى ذلكَ تعجيلُ العذابِ لَهُم في الدُّنيا، فقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾، بيَّنَ أنَّ حالَ كلِّ الأنبياءِ مع أقوامِهم كذلكَ؛ فقال سبحانَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، فأوضحَ ﷻ أنَّه إذا بعثَ رسولًا إلى أمَّةٍ، فصدَّقَه بعضُهُم وكذَّبَه آخرون؛ فإنَّه تعالى يقضي بينَهُم بالقِسطِ بنجاةِ أهلِ الإيمانِ، وإهلاكِ أهلِ الكُفرِ والتَّكذيبِ[1].

بيانُ أنّ سُنَّةَ اللهِ ماضيَةٌ بإرسالِ الرّسلِ، والتَّعهُّدِ بإنجاءِ أهلِ الإيمانِ، وإهلاكِ أهلِ الكُفرانِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قُضِيَ﴾: أصلُ (قضي) يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لِجهتِه، قال اللّه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]؛ أي: أَحكَمَ خَلقَهُنَّ[2]، والقَضاءُ: الحُكمُ والفَصلُ، يُقالُ: قَضَى في الأمرِ؛ أي: حَكَمَ وفَصَلَ فيه، والقَضاءُ: الأَمر. قال اللّه تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أَمرَ رَبُّكَ[3]، ويأتي بمعنى الأداءِ، تقول: قَضَى دَينَهُ؛ أي: أدّاهُ، والقضاءُ: الإنهاءُ والإتمامُ، يُقالُ: قَضَيتُ عَمَلي؛ أي: أَنهَيتُه وأتمَمتُهُ، وسُمِّيَ القاضي قاضيًا؛

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/261.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قضي).

لأنّه يَحكُمُ في الأشياءِ، ويُنهي الخِلافَ فيها[1]، والانقِضاءُ: فَناءُ الشَّيءِ وذَهابُهُ، وكذلك التَّقَضّي[2]، ومِن مَعانيه أيضًا: الإيجابُ والإنفاذُ والإتقانُ. وجَمعُ قضاءٍ: أَقْضيَةٌ[3]، والمقصودُ بالقضاءِ في الآيةِ: الفَراغُ والإتمامُ.

2) ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: أصلُ (قسط): يدُلُّ على مَعنَيَينِ مُتَضادَّين، والبناءُ واحدٌ، فالقِسطُ: العَدلُ، يُقالُ: أَقسَطَ الرَّجلُ يُقسِطُ فهو مُقسِطٌ؛ أي: عَدَلَ[4]، وأما القَسطُ - بفَتحِ القافِ - فهو: الجَورُ والظُّلمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ فهو قاسِطٌ، والقُسوطُ: العُدولُ عن الحَقِّ. يُقالُ قَسَطَ، إذا جارَ، يَقسِطُ قَسطًا[5]، ويأتي القِسطُ بمعنَى: الحِصَّةُ والنَّصيبُ، وجَمعُهُ: أقساطٌ، تقولُ: تَقَسَّطوا الشَّيءَ بَينَهُم؛ أي: تَقاسَموهُ[6]، والقِسطاسُ: الميزانُ[7]، والقُسوطُ: المَيلُ عنِ الحَقِّ[8]، والمقصودُ بالقِسطِ في الآيةِ: العَدلُ، وهو التَّسويَةُ بين شَيئَين في صفةٍ، والجَزاءُ بما يُساوي المُجزَى عليه[9].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

القضاءُ بينَ العِبادِ قائمٌ على العَدلِ، فلا يُعذَّبونَ بغيرِ ذنبٍ، ولا يُؤاخَذونَ بغيرِ حُجَّةٍ

يُبيِّنُ تعالى في الآيةِ أنَّ لكُلِّ أمَّةٍ رسولًا مِنَ اللهِ، يبلِّغُهُم ما أمرَه اللهُ بتبليغِه، ويشهدُ عليهم بذلك يومَ القيامةِ، فإذا جاءَ رسولُهُم وشهدَ؛ بأنَّه قد بلَّغَهُم ما أمرَه اللهُ به، قضى سبحانه بينَه وبينَهُم بالعدلِ، فَحَكَمَ بنجاةِ المؤمنِ وبعقوبةِ الكافرِ، ولا يَظلمُ ربُّكَ أحدًا[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضى).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قضى).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قضى).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(5) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(8) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/92.
(10) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/197.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بواوِ العطفِ في مَطلَعِ الجملةِ:

تكذيبُ الرُّسُلِ مِن أعظمِ أسبابِ استِحقاقِ العذابِ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ﴾ الآيةُ معطوفةٌ على قولِه قَبلُ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾، وهيَ بمَنزلَةِ السَّبَبِ لِمضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَها، وقد بَيَّنَت أنَّ مَجيءَ الرَّسولِ للأمَّةِ هوَ مُنتهَى الإمهالِ، وأنَّ الأمَّةَ إنْ كَذَّبَت رسولَها استَحَقَّتِ العِقابَ على ذلكَ، فكانَ ذلكَ إعلامًا بأنَّ تكذيبَهُمُ الرَّسولَ هوَ الَّذي يَجُرُّ عليهمُ الوعيدَ بالعقابِ، فهيَ ناظِرَةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15][1].

دلالةُ اللّامِ في: ﴿وَلِكُلِّ﴾:

أرسلَ اللهُ ﷻ لكلِّ أمَّةٍ رسولًا خاصًّا بها

اللّامُ في ﴿وَلِكُلِّ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ﴾ يجوزُ أن تكونَ لامَ الأجلِ؛ والمعنى: لأجلِ كُلِّ أمَّةٍ أرسَلنا رسولًا أو أُرسِلَ إليها رسولٌ، أو لِلاختِصاصِ؛ أي: لِكُلِّ أمَّةٍ مَخصوصَةٍ رسولٌ خاصٌّ بها.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَّةٖ﴾ و﴿رَّسُولٞۖ﴾:

أرسَلَ اللهُ سُبحانَه لِكُلِّ أمَّةٍ رسولًا منهُم؛ لِيَقَعَ لَهُم تَمامُ الإفهامِ والتَّبليغ

نُكِّرَ لفظُ ﴿أُمَّةٖ﴾ مِن قَولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ﴾ لِبيانِ النَّوعيَّةِ؛ أي: لكلِّ أُمَّةٍ مِن الأمَمِ لَها خُصوصيَّتُها ونوعيَّتُها الموسومَةُ بها.

والرَّسولُ المُرسَلُ إلى هذه الأُمَمِ كذلكَ خاصٌّ بِهِم؛ لِيقعَ تمامُ الإفهامِ والتَّبليغِ، فتنكيرُ ﴿رَّسُولٞۖ﴾ كذلك يُرادُ به النَّوعيَّةُ؛ لِيُشاكلَ ذلك تنويعَ الأمَمِ، وقد يفيدُ تنكيرُه التّعظيمَ.

سِرُّ تقديمِ المُسنَدِ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾:

براعةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّفِ بالألفاظِ، تقديمًا وتأخيرًا

قُدِّمَ مُتعلَّقُ الخبرِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ﴾؛ لِلتّشويقِ لِلمُسندِ إليه، فعندَ سماعِ صدرِ الجملةِ تتشوَّفُ النّفسُ لِمعرفةِ هذا الّذي كانَ لكلِّ أُمَّةٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/187.

أرسَلَ الله تعالى لِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ ذَواتِ الشَّرائِعِ رسولًا مَعروفًا

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَإِذَا﴾:

الفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾ مِن قَولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ عاطفةٌ على صفةِ (رسول)؛ والمعنى: يبعثُ إليهم ﴿فَإِذَا﴾، وهي تفريعٌ، قال ابنُ عاشورٍ: "وجملةُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞ﴾ لَيسَت هيَ المَقصود مِنَ الإخبارِ، بَل هيَ تمهيدٌ للتَّفريعِ المُفرَّعِ عليها بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ﴾ إلخ، فلذلكَ لا يُؤخَذُ مِنَ الجملةِ الأولَى تَعَيُّنُ أن يُرسَلَ رسولٌ لِكُلِّ أُمَّةٍ؛ لأنَّ تَعيينَ الأُمَّةِ بالزَّمنِ أو بالنَّسَبِ أو بالمَوطِنِ لا يَنضَبِطُ، وقد تَخلو قَبيلَةٌ أو شَعبٌ أو عَصرٌ أو بِلادٌ عن مَجيءِ رسولٍ فيها، ولو كانَ خُلوُّها زمنًا طويلًا، فالمعنى: ولِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ ذَواتِ الشَّرائِعِ رسولٌ معروفٌ جاءَها"[1].

تحذيرُ الكَفَرَةِ مِن مُخالَفةِ الرَّسولِ ﷺ ومُعانَدَتِه

نُكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بـ (إذا):

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ (إذا) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ لكونِ (إذا) مُستعملَةً في الأصلِ فيما يُقطَعُ بوقوعِه، وهيَ هنا "للظَّرفيَّةِ مُجرَّدة عن الاستِقبالِ، والمعنى: أنَّ في زَمَنِ مَجيءِ الرَّسولِ يكونُ القضاءُ بينَهُم بالقِسطِ"[2].ويجوزُ أن يكونَ معنى الاستقبالِ فيها باقيًا؛ لإرادَةِ حكايةِ الحالِ الماضيَةِ؛ ليكونَ ذلك تهديدًا شديدًا للكُفّارِ الّذين كانوا في زمنِ تنزيلِ القرآنِ الكريم.

إرسالُ كُلِّ رسولٍ إلى قومِه؛ لِكَونه أشدَّ في الحِرصِ على هِدايَتِهم

فائدةُ الإضافةِ ﴿رَسُولُهُمۡ﴾:

أُضيفَ لفظُ الرَّسولِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ للأمَّةِ في ﴿رَسُولُهُمۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ لِلتَّخصيصِ، فَهي أُمَّةٌ مَخصوصَةٌ، ورسولُهُم معروفٌ لَهُم؛ إذ هوَ مِن أنفُسِهم، ويهمُّه أمرُهُم، وهو شديدُ الحرصِ عليهم، والمرادُ: جاءَهُم رَسولٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/187.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/187.

خاصٌّ بِهِم يُبعَثُ إليهِم بِشريعَةٍ خاصَّةٍ مُناسِبَةٍ لأحوالِهِم لِيَدعوهُم إلى الحقِّ والهُدى.

دلالةُ جملةِ الجوابِ في ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾:

القضاءُ العَدلُ في الآخرةِ يؤولُ بأهلِ الإيمانِ إلى الجنَّةِ، وبأهلِ الكُفرِ إلى النّارِ

جملةُ جوابِ الشَّرطِ ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، يجوزُ أن تكونَ "إخبارًا عَن حالةٍ ماضيَةٍ فيَكونُ ذلكَ في الدُّنيا، ويكونُ المَعنى: أنَّه بَعَثَ إلى كُلِّ أُمَّةٍ رسولًا يَدعوهُم إلى دينِ اللّه، ويُنَبِّئُهُم على توحيدِه، فلَمّا جاءَهُم بالبيِّناتِ كذَّبوهُ، فَقُضِيَ بَينَهُم؛ أي: بينَ الرَّسولِ وأُمَّتِه، فأُنجيَ الرَّسول وعُذِّبَ المُكَذِّبونَ. وإمّا أن يكونَ على حالةٍ مُستَقبَلَةٍ؛ أي: فإذا جاءَهُم رسولُهُم يومَ القيامةِ للشَّهادةِ عليهم قُضِيَ بَينَهُم؛ أي: بينَ الأمَّةِ بالعدلِ، فصارَ قَومٌ إلى الجنَّةِ وقومٌ إلى النّارِ، فهذا هوَ القضاءُ بَينَهُم"[1].

نُكتةُ تقديمِ مَجيءِ الرَّسولِ:

تَطَلُّعُ أهلِ الإيمانِ إلى مَعرِفةِ جزاءِ المُكَذِّبينَ المُعانِدينَ للرُّسُلِ

قُدِّمَ ذِكرُ مجيءِ الرُّسلِ على ذكرِ القضاءِ بينَهُم في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (قُضِيَ بينَهُم إذا جاءَ رسولُهم)؛ لكونِ المُقدَّمِ في الآيةِ واقعًا شرطًا والآخر جوابًا، والأصلُ تقديمُ الشَّرطِ على جوابِه، وفي هذا التَّقديم أيضًا: تَشويقٌ إلى تَلَقي الخبَرِ؛ كأنَّ النَّفسَ تطلَّعَت إلى مَعرِفَةِ ما سَيَحدُثُ لهؤلاءِ المُكذِّبينَ المُعانِدينَ بعدَ مجيءِ الرَّسولِ الَّذي سَيَشهَدُ عليهم بالكُفرِ أو بالإيمانِ.

نُكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿قُضِىَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه:

قضاءُ اللّهِ سُبحانَهُ، هوَ القضاءُ العدلُ الّذي لا ظُلمَ فيه بوجهٍ مِنَ الوُجوهِ

بُنِيَ الفِعلُ ﴿قُضِىَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ لِلعِلمِ به، وهو اللّه تعالى، فالقضاءُ العدلُ الّذي لا ظُلمَ فيه بوَجهٍ مِنَ الوُجوه هو قضاءُ اللّه تعالى وحُكمُه،

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/67.

ويدخُلُ فيه قضاءُ أنبيائِهِ؛ لأنَّ ذلك في الحقيقةِ راجِعٌ إلى قضاءِ اللّه سُبحانَهُ، فكانَ إطلاقُ القضاءِ العَدلِ وانتفاء الظُّلم لا يُرادُ به إلّا قضاؤُه سبحانَهُ؛ إذ قضاءُ غيرِه يدخُلُ فيه الحيفُ والجَورُ.

دلالةُ الظَّرفِ (بَينَ):

قضاءُ الله تعالى بينَ الأُممِ ورُسُلِها؛ بإنجاءِ المؤمنينَ وإهلاكِ الكافِرينَ

(بَينَ) مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ظَرفٌ مُتَعَلِّقٌ بالفعلِ ﴿قُضِيَ﴾، وهي كلمةٌ تدُلُّ على: "تَوَسُّطٍ في شيئَينِ أو أشياءَ، فَتَعَيَّنَ أنَّ الضَّميرَ الَّذي أُضيفَت إليه هُنا عائِدٌ إلى مجموعِ الأُمَّةِ ورَسولِها؛ أي: قُضيَ بينَ الأُمَّةِ ورسولِها بالعدلِ؛ أي: قَضَى اللّه بَينَهُم بحَسَبِ عَمَلِهم مَعَ رَسولِهِم"[1].

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

إظهارُ عَدلِ الله ﷻ في قضائِه بينَ عبادِهِ

الباءُ في ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ يُرادُ بها المُصاحَبَة؛ أي: قُضِيَ بينَهُم قضاءً مَصحوبًا بالعَدلِ، مُبالَغَةً منه ﷻ في إظهارِ عَدلِه؛ أي: قضاءً مَعَ القِسطِ، وتُسَمَّى هذه الباءُ أيضًا: باء المُلابَسَة، أو باء الحالِ، والمعنَى: قُضيَ بينَهُم حالَ كَونِ اللّه تعالى عادِلًا بينَ الجميعِ.

دلالةُ (ال) في ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

كمالُ عَدلِ الله تعالى في القضاءِ بينَ الخلائِقِ

اللّامُ في ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ دالَّةٌ على الكمالِ؛ أي: أنَّ اللّه سُبحانَه يَقضي بينَ الخلائقِ مُؤمنِهم وكافرِهم، مُطيعِهم وعاصيهم بالقِسطِ الكاملِ الّذي لا ظُلمَ فيه بوجهٍ مِنَ الوجوهِ.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَهُمۡ﴾:

قضاءُ الله سُبحانَه ليسَ فيه شيءٌ مِنَ الظُّلمِ، فهو الحكمُ العدلُ

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ يجوزُ أن تكونَ عاطفةً لجملةِ نَفيِ الظُّلمِ على الجملةِ السّابقةِ، وهي قوله: ﴿قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾، ويجوزُ أن تكونَ حاليَّةً، والجملةُ بعدَه حالٌ، وهيَ حالٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/187.

لازِمَةٌ؛ لأنَّ قضاءَ اللّه سُبحانَه لا يشتَمِلُ على شيءٍ مِنَ الظُّلم في جميعِ الأحوالِ.

ويحتَمِلُ أن تكونَ الجملةُ تذييلًا للجملةِ السّابقةِ مُؤكِّدَةً لها في المعنى؛ لأنَّ القضاءَ بالقِسطِ معناهُ: القضاءُ بما لا ظُلمَ فيه، قال الآلوسيُّ: "لكلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأمَمِ الخاليَةِ رسولٌ يُبعَثُ إليهم بشريعةٍ اقتَضَتها الحِكمَةُ ليَدعوَهُم إلى الحَقِّ، فإذا جاءَ رسولُهُم فَبَلَّغَهُم ودَعاهُم، فكذَّبوه وخالَفوهُ؛ ﴿قُضِىَ بَيۡنَهُم﴾؛ أي: بينَ كُلِّ أُمَّةٍ ورسولِها بالعدلِ"[1].

سرُّ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

مَقامُ الانتِقامِ، كثيرًا ما يَقتَرِنُ بالتَّجاوُزِ في أخذِ الحقِّ

قُدِّمَ المسنَدُ إليه على المُسندِ الفِعليِّ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ تأكيدًا لنفي الظُّلم عنِ اللّه سُبحانَهُ، وتحقيقًا لإثباتِ عدلِه ﷻ، ووجه التّأكيدِ أنَّ فعلَ الظُّلم أُسنِدَ على وجه النَّفي مرَّتين؛ إحداهما إلى الضَّميرِ (هُم)، والأخرى إلى واوِ الجماعةِ في ﴿يُظۡلَمُونَ﴾، فكانَ في هذا تَكرارٌ للنِّسبةِ، وهيَ مِن مُؤكِّداتِ الجُملِ، وذلكَ مُناسِبٌ لِمقامِ التَّهديدِ؛ لأنَّ الانتقامَ كثيرًا ما يصحبُه تجاوزٌ في أخذِ الحقِّ في حقِّ البشرِ، فبيَّنَ اللّه سُبحانَه أنَّه مُنزَّهٌ عَن أن يظلِمَ أحدًا.

فائدةُ التَّعبيرِ عن نَفيِ الظُّلمِ بالفعلِ المضارعِ ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

أَمَدُ إمهالِ اللّه تعالى العبادَ، هو إبلاغُ الرُّسلِ مُرادَه منهم

الفعلُ المضارعُ ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ يُفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ، قال ابنُ عاشور: "والمعنى: أنَّ اللّه يُمهِلُ الأُمَّةَ على ما هيَ فيه مِنَ الضَّلالِ، فإذا أُرسَلَ إليها رسولًا، فإرسالُه أمارَةٌ على أنَّ اللّه تعالى أرادَ إقلاعَهُم عن الضَّلالِ، فانتَهَى أمَدُ الإمهالِ بإبلاغِ الرَّسولِ إليهم مُرادَ اللّه مِنهُم، فإنْ أطاعوه ﵃ ورَبِحوا، وإنْ عَصَوْه وشاقّوه قَضَى اللّه بينَ الجميعِ بجزاءِ كُلٍّ، قضاءَ حَقٍّ لا ظُلمَ فيهِ، وهو قَضاءٌ في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/129.

الدُّنيا"[1]، ثُمَّ ساعَةَ وُرودِهِم عليه في الآخِرَةِ قَرَّرَهُم بذُنوبِهِم الَّتي اقتَرَفوها، فاعتَرَفوا فَجزاهُم عليها بعَدلِه، ولَم يَظلِمهُم.

نُكتةُ بناءِ الفعلِ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه في ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

الظُّلمُ مَنفيٌّ عن اللهِ تعالى في قضائِه، ومَنفيٌّ عن الملائكةِ الكاتِبينَ أعمالَ العبادِ

بُنِيَ الفعلُ ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للإشعارِ بسُرعةِ القضاءِ مَعَ كامِلِ عَدلِه ﷻ، ولتعميمِ الفاعِلِ؛ فاللهُ سُبحانَه لَم يَظلِمهُم، ولَم تَظلِمهُمُ الملائِكَةُ المُوَكَّلَةُ بكتابةِ صحائِفِ أعمالِهِم.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

القِسطُ والعَدلُ:

العَدلُ المساواةُ في المكافَأةِ، والقِسطُ العَدلُ البَيِّنُ الظّاهِرُ

القِسطُ: هوَ العدلُ البَيِّنُ الظّاهِرُ، ومنه سُمّيَ المكيالُ قِسطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنَّه يُصَوِّرُ لكَ العَدلَ في الوَزنِ حتَّى تَراه ظاهِرًا، وقد يكونُ مِنَ العَدلِ ما يَخفَى، ولِهَذا يرِدُ القِسطُ بمعنى النَّصيبِ الَّذي بيِّنَت وجوهُه، وتقسّطَ القومُ الشَّيَء: تَقاسَموا بالقِسطِ[2]، قال الرّاغِبُ: "هو النَّصيبُ بالعدلِ كالنّصفِ والنّصفةِ. والقِسطُ: هو أَنْ يأخذ قِسطَ غَيرِه، وذلكَ جَورٌ، والإقساطُ: أَنْ يُعطيَ قِسطَ غيرِه، وذلك إنصافٌ، ولذلكَ قيلَ: قَسَطَ الرَّجُلُ: إذا جارَ، وأَقسَطَ: إذا عَدَلَ"[3].

أمّا العَدلُ فيُستَعمَلُ فيما يُدرَكُ بالبَصيرَةِ، كالأحكامِ، والعَدلُ هو المُساواةُ في المُكافأةِ إنْ خيرًا فَخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[4].

وفي التَّعبيرِ بالقِسطِ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ إشعارٌ بأنَّ عدلَ اللهِ تعالى في قضائِه بَينَ الرُّسلِ وأقوامِهِم عدلٌ بيِّنٌ لكلِّ أحدٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/188.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 248.
(3) الرّاغب، المفردات: (قسط).
(4) الرّاغب، المفردات: (عدل).

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ٤٩﴾ [يونس: 48 - 49]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

استِمرارُ أَهلِ الشِّركِ في باطِلِهِم، ومُضِيُّهُم في غَيِّهِم وانحرافِهِم

لَمّا ذَكَرَ اللّه سُبحانَه تهديدَه أهلَ الكُفرِ والشِّركِ بالعذابِ في الدُّنيا أو في الآخرةِ؛ بيَّنَ ﷻ حالَهُم مَعَ هذا التَّهديدِ، وأنَّهم مُستمِرّونَ في باطِلِهم، ماضونَ في غَيِّهم، فيسألونَ - على وجه الاستهزاءِ به - عن مَوعِدِ هذا العذابِ الّذي هُدِّدوا به، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ثُمَّ لَمّا كانَ هذا الكلامُ مُتضمِّنًا استعجالَ النَّبيِّ ﷺ بما يُهدِّدُهم به؛ أمرَه اللّه ﷻ أن يتبرَّأَ مِنَ القُدرةِ على شيءٍ لَم يُقدِّرْه اللّه سُبحانَه عليه، فقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرًّا﴾: أصلُ الضَّرَرِ: النُّقصانُ يَدخُلُ في الشَّيءِ، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في مالِه[2]، وضِدُّهُ: النَّفعُ والسَّعَةُ. والضَّرَرُ: المَكروه والأذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا إذا أَلحَقَ به مَكروهًا أو أذًى[3]، وكلُّ ما كانَ مِن سوءِ حالٍ وفَقرٍ في بدنٍ فهو ضُرٌّ، وما كانَ ضِدًّا للنّفعِ فهو ضَرٌّ[4]، والضُّرُّ المقصودُ في الآيةِ هو: الحالُ الَّذي يُؤلِمُ الإنسانَ والمُنافِر له[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/134.
(2) الخليل، العين، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (ضر)، وابن سيده، المخصّص: 4/103.
(3) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/537.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/163.

2) ﴿نَفْعًا﴾: أصلُ النَّفعِ: الخَيرُ، وخِلافُهُ: الضَّرُّ، يُقالُ: نَفَعَهُ، يَنفَعُهُ، نَفعًا؛ أي: قَدَّمَ له خَيرًا[1]. والنَّفعُ: ما يُستَعانُ به في الوُصولِ للخَيرِ[2]، أو هو: ما يَتَوَصَّلُ به الإنسانُ إلى مَطلوبِه مِن جَلبِ مَصلَحَةٍ أو دَفعِ مَضَرَّةٍ، يُقالُ: انتَفَعَ بالشَّيءِ: إذا وصَلَ به إلى مَنفَعَةٍ ما[3]. والانتِفاعُ: الاستِفادَةُ. ورجل نفّاعٌ: إذا كانَ ينفعُ النّاسَ ولا يضرُّهُم[4]، والنافِعُ: المُفيدُ، وكُلُّ ما يُستَفادُ مِنَ الشَّيءِ فهو مَنفَعَةٌ. والمقصودُ بالنَّفعِ في الآيةِ: ما يَتوصَّلُ به الإنسانُ إلى مَطلوبِه.

3) ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: أصلُ التَّأخيرِ: فِعلُ الشَّيءِ آخِرًا بَعدَ أجَلِه، والآخِرُ ضِدُّ الأوَّلِ، والتَّأخيرُ: التَّأجيلُ، يُقالُ: أَخَّرَ الشَّيءَ يُؤَخِّرُهُ؛ أي: أجَّلَهُ، وضِدُّ التَّأخيرِ: التَّقديمُ والتَّعجيلُ[5]، ويُطلَقُ التَّأخيرُ أيضًا بمعنَى: تفويتِ الشَّيءِ وتَضييعِهُ، يُقالُ: أخَّرَ سَفَرَهُ؛ أي: فَوَّتَهُ، ولَم يأتِ به في وقتِهِ. والمُؤَخَّرُ خلافُ المُقدَّمِ، ويأتي التّأخيرُ بمعنى: جَعلِ الشَّيءِ خَلفَ غَيرِهِ[6]، والتَّأَخُّرُ: التَّخَلُّفُ سواءٌ كان في المَكانِ أوِ الزَّمانِ، يُقالُ: تأَخَّرَ عن عَمَلِهِ؛ أي: تَخَلَّفَ عنهُ، وتأخَّرَ عن مُنافِسه إذا جاءَ بَعدَه في المكانِ أو الزَّمانِ، والاستِئخارُ مُبالَغَةٌ في التَّأخُّرِ، مثل: استِحباب، فالسّينُ والتّاءُ لِلمبالغةِ[7]. والأُخُرُ: الخَلفُ، والآخِرَةُ: الدارُ الّتي بَعدَ الدُّنيا[8]. والمقصودُ بالتَّأخيرِ في الآيةِ: ضِدُّ التَّعجيلِ، وقد أُطلِقَ على التَّمديدِ والتَّوسيعِ في أجلِ الشَّيءِ.

4) ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾: أصلُ (قدم): يدُلُّ على سَبقٍ ورَعفٍ[9]. فالقَدَمُ مِن لَدُن الرُّسغِ: ما يَطَأُ عليه الإنسانُ[10]، وجمعُه أقدامٌ، وبه اعتُبرَ التَّقدُّمُ والتَّأخُّرُ[11]، يُقالُ: ورَجُلٌ قَدَمٌ،

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(2) الرّاغب، المفردات: (نفع).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير، وأحمد رضا، معجم متن اللّغة: (نفع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نفع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(6) ابن سيده، المحكم، والزَّبيدي، تاج العروس: (أخر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/201.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(9) الخليل، العين: (قدم).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(11) الرّاغب، المفردات: (قدم).

وامرأةٌ قَدَمٌ: إذا كانا جَريئَين[1]، والقُدمَة والقَدَمُ: السّابقةُ في الأمرِ[2]، والقَدَمُ أيضًا: كلُّ ما قدَّمتَ مِن خيرٍ[3]، يُقالُ: لِفُلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ؛ أي: شَيءٌ مُتَقَدِّمٌ مِن أَثَرٍ حَسَنٍ[4] أو سابقةِ فضيلةٍ[5]، وقَدَّمتُ فلانًا أقدُمُه: إذا تَقدَّمتُه، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34]؛ أي: لا يريدونَ تأخُّرًا ولا تقدُّمًا[6]. والاستِقدامُ مُبالغةٌ في التَّقدُّمِ، فالسّينُ والتّاءُ للمبالغة.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّه تعالى أنَّ المُشركينَ يقولونَ مُخاطبينَ النَّبيَّ ﷺ ومَن اتَّبعه: متى سيأتينا عذابُ اللّه إنْ كُنتُم صادقينَ فيما تَعِدونَنا به مِنَ العَذابِ، فقُلْ لهم - يا مُحمَّدُ -: لا أقدِرُ على ضَرٍّ نَفسي ولا نَفعِها في ديني ولا دُنياي، إلّا ما شاءَ اللّه أن أملِكَه وأقدِرَ عليه، ولستُ قادرًا على الإتيانِ بما تسألونَني عنه مِنَ العذابِ، فلكلِّ قومٍ وقتٌ مُحدَّدٌ قدَّرَه اللّه لانقضاءِ مُدَّتِهم، فإذا جاءَ وقتُ انقضاءِ أجَلِ كلِّ أمَّةٍ، فلا يُؤخَّرونَ عن ذلكَ الوَقتِ الَّذي قدَّرَه اللّه لِهلاكِهم ساعةً، ولا يتقدَّمُ أجَلُهم عنه[7].

لا يعلَمُ مِيقاتَ السّاعةِ، ولا كُنهَها، ولا تصريفَ الآجالِ إلّا اللّه تعالى وحدَهُ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواوِ: ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

جاءَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ معطوفًا على قولِه سبحانَهُ: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾؛ وذلك لأنَّه لمّا بيَّنَتِ الآيةُ

الوَعيدُ الأتَمُّ، والعذابُ الأشدُّ، هو وعيدُ الآخرةِ وعَذابُها الّذي وَعَدَ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قدم).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قدم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق)، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قدم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/190، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/124، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/350، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273.

السّابقةُ أنَّ تَعجيلَ الوعيدِ في الدُّنيا لَهُم وتأخيرَه عَنهُم سواءٌ عندَ اللّه تعالى؛ إذِ الوَعيدُ الأتمُّ هو وعيدُ الآخرةِ، أُتبِعَت بهذِه الآيةِ حِكايَةً لِتَهَكُّمِهم على تأخيرِ الوعيدِ(1).

والجملتان كلتاهما خبريَّةٌ، وبينَهُما مُناسبَةٌ؛ لكونِهما قد سيقَتا في شَأنِ العذابِ، مِن جهةِ التَّهديدِ به عاجلًا أو آجلًا، ومِن جهةِ تهكُّمِ المُشركينَ به، فكانَ الوصلُ بينَ الجملتين؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾:

العِنادُ والمُماراةُ دَأبُ أهلِ الكُفرِ والباطِلِ

جاءَ الفعلُ المضارعُ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وكانَ مُقتضَى الظّاهرِ أن يرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقالوا متى هذا الوعدُ)، والنُّكتَةُ في العدولِ عنِ الماضي إلى المضارعِ الإيماءُ إلى استِحضارِ الحالِ الماضيَةِ؛ لكونِ ذلك دالًّا على تَكرُّرِ صُدورِه منهُم، وأنَّ العنادَ دأبُهُم وشأنُهُم.

مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿وَيَقُولُونَ﴾، وغَرضُ الإضمارِ:

تَقبيحُ المُشرِكينَ وإهانَتُهُم، وتَركُ الاهتمامِ بِهِم وبِمَقالاتِهِم

الضَّميرُ في ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عائدٌ على مُشركي قريش ومَن تابَعَهُم مِن مُنكري البَعثِ، وعُبِّرَ عَنهُم بالضَّميرِ دونَ التَّصريحِ بهم؛ لبيانِ عدمِ الاهتمامِ بذكرِهِم، أو أنَّه لا فائدةَ مِن التَّعرُّضِ لَهُم تَقبيحًا وإهانَةً لِشَأنِهم، أو أنَّ قولَهم هذا ليسَ ذا بالٍ حتَّى يُلتفتَ إليهم أو إليه، ولا بأسَ مِن إرادةِ هذه المعاني كُلِّها؛ إذِ النِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ ولا تتزاحَمُ.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾:

تكذيبُ الكُفّارِ، لِما هُدِّدوا به مِن عذابِ الدُّنيا

الاستفهامُ بـ﴿مَتَىٰ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مُستَعمَلٌ في "الاستبطاءِ، وهو كنايةٌ عَن عدمِ اكتراثِهم به، وأنَّهُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/188، وناجي، الأسماء المضمّنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 162.

لا يأبَهونَ بِه، ليَنتَقلَ من ذلكَ إلى أنَّهم مُكَذِّبونَ بحُصولِه بطريقِ الإيماءِ بقرينَةِ قولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: إن كُنتُم صادِقينَ في أنَّه واقِعٌ فعَيِّنوا لَنا وقتَهُ، وهُم يُريدونَ أنَّنا لا نُصَدِّقُك حتَّى نَرَى ما وعَدَتنا؛ كنايَةً عن اعتقادِهم عَدَمَ حُلولِه، وأنَّهُم لا يُصَدِّقونَ بِه، والوَعدُ المَذكورُ هُنا: ما هُدِّدوا بِه مِن عذابِ الدُّنيا"[1].

دلالةُ الاستفهامِ في سياقِ الكلامِ:

استِعجالُ الكُفّارِ العَذابَ، سَبَبُه إنكارُه واستِهزاؤُهُم بِهِ

الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ ليس جاريًا على حقيقتِه مِن طلبِ تعيينِ وقتِ مَجيئِه، وإنَّما الاستفهامُ مُستعمَلٌ في معنى الاستِعجالِ لِما وُعِدوا به مِنَ العَذابِ على طريقةِ الاستِهزاءِ بِه والإنكارِ حَسبَما يُرشِدُ إليه الجوابُ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾:

تَهَكُّمُ المُشرِكينَ بوعيدِ اللهِ تعالى، واستِبعادُهُم نُزولَهُ

أفادَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ المبالَغَةَ في تهكُّمِ المُشركينَ بوقوعِ العذابِ الّذي وُعِدوا به، واستبعادِ نُزولِه، واستبطاءِ حُصولِه تحقيرًا لَه وإهانَةً.

دلالةُ (ال) في: ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

وُعِدَ المُشرِكونَ بالاستِئصالِ في الدُّنيا أو بالعَذابِ في الآخرةِ

اللّامُ في ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ للعهدِ العِلميِّ؛ والمعنى: ويقولونَ متى هذا الوَعدُ الَّذي تَتَهَدَّدُنا به في كُلِّ وقتٍ وحينٍ؛ وهو إمّا الاستئصالُ في الدُّنيا، وإمّا العَذابُ الأخرَويُّ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾:

مُبالغةُ المُشرِكينَ في تكذيبِهِم وعدَ اللهِ تعالى

أُطلِقَ الوَعدُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وهو في الأصلِ مصدرٌ للفعلِ: وعَدَ، يَعِدُ؛ على الأمرِ الموعودِ بِه، فالسُّؤالُ عنه باسمِ الزَّمانِ مُؤَوَّلٌ بتقديرٍ يدلُّ عليه المقامُ؛ أي: متى ظُهورُهُ؟

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/189، وناجي، الأسماء المضمّنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 162 - 163.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151.

والتَّعبيرُ به مِن قبيلِ المجازِ المُرسَلِ بعلاقةِ التَّعلُّقِ الاشتقاقيِّ، والنُّكتَةُ في ذلك: المبالَغَةُ في نفيِ الأمرِ الموعودِ بِهِ؛ بإبطالِ أصلِهِ، وهو أن يكونَ الوعدُ صحيحًا.

سرُّ تعليقِ الشَّرطِ بالحرفِ ﴿إن﴾:

دِقَّـةُ البيـانِ القـرآنيِّ في استِعمالِ أدواتِ الشَّرطِ الملائِمَةِ لِسياقاتِها

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ ﴿إن﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، لإظهارِ عَدمِ تصديقِهِم؛ تَهَكُّمًا واستِبعادًا؛ وذلك لأنَّ ﴿إن﴾ تُستعمَلُ في الأصلِ لِلأمرِ المَشكوكِ فيه الّذي لا يُقطَع بِتَحقُّقِه، وقولُهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بِمَنزلةِ استبعادٍ لِما وُعِدوه مِنَ العَذابِ، كما يقولُ المنكِرُ للشَّيءِ لِمَن أمامَه: إنْ كنتَ صادِقًا فافعلْ كَذا وكَذا.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

استِعجالُ المُشرِكينَ بالعذابِ على وجهِ الاستهانَةِ والاستخفافِ بِهِ

حُذِف جوابُ الشَّرطِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ لدلالةِ المقامِ عليهِ؛ إذِ المرادُ: إنْ كُنتُم صادِقينَ في أنَّ اللّه توَعَّدَنا بالعذابِ؛ فليأتِنا بهذا العذابِ الآنَ أو عاجِلًا، أو يكونِ الجوابُ: فمتى هذا الوعدُ، فَحُذِفَ إيجازًا، لِيكونَ ذلك أنسبَ للدّلالةِ على استعجالِهِم بهذا العذابِ، ولِما في الحذفِ مِنَ الإشعارِ بكونِ إتيانِه بواسطَةِ النَّبيِّ ﷺ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ الجمعِ:

أهلُ الإيمانِ تابِعونَ للنَّبيِّ ﷺ فيما يقولُه

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، الخطابُ فيه بقولِهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ للرَّسولِ ﷺ، فضميرُ التَّعظيمِ صادِرٌ منهُم على سبيلِ التَّهكُّمِ، وهذا المحمَلُ هوَ المُناسبُ لجوابِهِم بقولِه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾، فأُمِرَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يُجيبَهُم بهذا لَمّا التَمَسوا تعجيلَ العذابِ أو تعجيلَ السّاعةِ أنْ يقولَ لَهُم: ليسَ ذلك إليَّ، إنَّما ذلكَ إلى اللّه تعالى، وإذا كنتُ لا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا، فكيفَ أملكُه لِغيري؟

ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ للنَّبيِّ وللمُسلمينَ، جَمَعوهُم في الخطابِ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبَرَ بِه، والمسلِمينَ آمَنوا بِه، فخاطَبوهُم

بذلِكَ جميعًا؛ لِتكذيبِ النّبيِّ ﷺ، وإدخالِ الشَّكِّ في نُفوسِ المُؤمنينَ بِهِ، وإنّما خُصَّ الرَّسولُ ﷺ بالأمرِ بِجَوابِهِم؛ لأنَّه الَّذي أخبَرَهُم بالوعيدِ، وأمّا المُؤمنونَ فَتابِعونَ لَه في ذلكَ[1].

عِلَّةُ الفصلِ في: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾:

بيانُ استِبعادِ المُشرِكينَ، أن يكونَ العذابُ الموعودُ صادِرًا مِنَ الله سُبحانَهُ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه واقعًا جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الأولى، فبينَ الجُملتينِ شِبه كمالِ الاتّصالِ، وهوَ المسمَّى: الاستِئنافَ البياني، وذلك أنّه لما حُكِيَت عنهم مقالتُهُم بـ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، يَبعثُ هذا في نفسِ المُتَلقّي سؤالًا، وهو: فماذا كانَ ردُّ النَّبيِّ ﷺ، فجاءَ الجوابُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾.

والآيةُ واردة على طريقةِ أُسلوبِ الحكيم؛ وذلك لأنَّهم ما أرادوا بالسُّؤال حقيقةَ الاستعلام، وإنّما مُرادُهُم استبعادُ أن يكونَ الموعودُ مِنَ اللّه تعالى، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو مَن يدّعي ذلكَ، فطلبوا منه تَعيينَ الوقتِ تَهكُّمًا وسخرية، فجاءَ الجوابُ ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾.

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾:

الرَّدُّ مِنَ الله سبحانَه يكونُ أشدَّ إفحامًا لِلخَصمِ، وأقوى في إبطالِ حُجَّتِهِ

صُدِّرتِ الآيةُ بفعلِ الأمرِ ﴿قُل﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾؛ ليكونَ الرَّدُّ منه تعالى عليهم، ولبيانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ، لم يُخوَّل له الرَّدُّ إلّا عن طريقِ اللّه تعالى؛ لِيَصيرَ أقوى في دَحضِ كلامِهِم وإبطالِ حُجَّتِهِم، وأنّه ﷺ ما كانَ لِيَرُدَّ أو يَصدُرَ في أمرٍ إلّا بإذنٍ مِنَ اللّه تعالى، وإذا كانَ الجوابُ مِن قِبَلِ اللّه تعالى كانَ أشدَّ إفحامًا للخصمِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿أَمۡلِكُ﴾:

تَبَرُّؤُ النَّبيِّ ﷺ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ إلّا بالله سُبحانَهُ

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿أَمۡلِكُ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾؛ لقصدِ استحضارِ الصّورةِ في أذهانِهِم، ولإفادةِ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/130، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/189، ناجي، الأسماء المضمّنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 163.

تجدُّدِ هذا النَّفيِ واستمرارِهِ، فقوله: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ﴾ يقتضي تَجَدُّدَ عدمِ مُلكيَّته لِنفسِه ﷺ نفعًا ولا ضرًّا إلّا ما شاءَ اللّه تعالى.

النَّفعُ والضَّرُّ بيدِ الله تعالى وحدَهُ

دلالةُ اللّامِ في شبه الجملةِ ﴿لِنَفۡسِي﴾:

اللّامُ في ﴿لِنَفۡسِي﴾ مِن قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ يُرادُ بها الاختِصاص؛ أي: لا أملِكُ مِن أمري شيئًا أخصُّ نفسي بِه مِن ضَرٍّ أو نَفعٍ، وإذا كانَ لا يملِكُ لِنفسِه ضرًّا ولا نفعًا، فعدمُ ملكِه نفعَ غيرِه أو ضُرَّه مِن بابٍ أَولى.

قَطعُ الطَّمعِ عنِ العبادِ في مُلكِهِمُ الضَّرَّ والنَّفعَ

سرُّ تقديمِ شبه الجملةِ ﴿لِنَفۡسِي﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِنَفۡسِي﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ على المفعولِ، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (لا أملِكُ ضرًّا ولا نفعًا لِنفسي)؛ لإفادَةِ الاهتمامِ، لا لإفادةِ القصرِ والتَّخصيصِ؛ إذْ لا يصحُّ أن يكونَ المرادُ: لا أملِكُ لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولكن أملِكُهُما لغيري، وإنَّما المرادُ مِنَ التَّقديمِ الاهتمامُ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، ولقَطعِ الطَّمعِ عَن غيرِه في ملكِ الضَّرِّ والنَّفعِ؛ لأنَّه إذا كانَ هو ﷺ لا يملِكُهُما لِنفسِه، فلا يملكُهُما لِغيرِه بطريقِ الأولَويَّةِ والأحرويَّةِ، ولا يَملِكُهُما غيرُه لنفسِه كذلكَ.

ويجوزُ أن تكونَ الآيةُ مِن بابِ الاكتفاءِ، فيكونُ معنى قولِ اللّه سبحانَه: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾؛ أي: لا أملِكُ لنَفسي ولا لغَيري.

نَفيُ مُلكِ النَّبيِّ ﷺ لِشيءٍ مِنَ النَّفعِ والضَّرِّ، ولو كانَ قليلًا

نُكتةُ تنكيرِ ﴿ضَرّٗا﴾ و﴿نَفۡعًا﴾:

نُكِّرَ ﴿ضَرّٗا﴾ و﴿نَفۡعًا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾؛ لإرادةِ التَّقليلِ والتَّحقيرِ؛ أي: لا أملِكُ لِنَفسي أقلَّ نفعٍ وأحقرَه فأنفعها به، أو أقلَّ ضَرَرٍ وأحقرَه فأردّه عنها، وإذا نُفِيَ النَّفعُ القليلُ والضَّررُ القليلُ؛ فانتفاءُ ما فوقَ ذلك مِن بابٍ أولَى؛ لأنَّ الَّذي يملِكُ النَّفعَ والضَّرَّ هوَ اللّه تعالى.

نُكتةُ تقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ:

تقديمُ الضَّرِّ على النَّفعِ مُلائِمٌ لاستبطاءِ المُشرِكينَ ما فيه مَضَرَّتُهم

قُدِّمَ الضَّرُّ على النَّفعِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾؛ لأنَّه أنسَبُ بالغرضِ الّذي سِيقَت الآيةُ لَهُ؛ لأنَّهُم أظهَروا استبطاءَ ما فيه مَضَرَّتُهم؛ وهو الوعيدُ، ولأنَّ استطاعَةَ الضَّرِّ أهوَنُ مِن استطاعَةِ النَّفعِ، فيكونُ ذِكرُ النَّفعِ بَعدَه ارتِقاءً، والمَقصودُ من جَمعِ الأمرَينِ الإحاطَةُ بجنسَي الأحوالِ[1]. وقُدِّمَ الضّرُّ أيضًا؛ لأنَّ مَساقَ النَّظمِ إظهارُ العجزِ عنهُ، وذكر النَّفع لِتوسيعِ الدّائرةِ تَكمِلَةً لِلعَجزِ[2]، وبَينَ الضر والنفع طِباقٌ، اقتضاه المقامُ، وطَلَبَه الحالُ.

توجيه المُتشابِهِ اللَّفظيِّ بينَ آيتي سورة يونس، والأعراف:

براعةُ البيانِ القرآنيِّ في التَّصرُّفِ بالألفاظِ تقديمًا وتأخيرًا

قال اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾، وجاءَ في سورةِ الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188]، ووجه المغايرةِ أنَّه قد تَقدَّمَ في سورةِ الأعرافِ النَّفعُ على الضّرِّ؛ للإشعارِ بأهمّيّتِه، والمقامُ مَقامُهُ، حيثُ سَبَقَ السُّؤالُ عن السّاعَةِ ووَقتِ وقوعِها، وجاءَ تفصيلُ السُّؤالِ بينَه ﷺ وبينَهُم، كأنَّه أوتيَ عِلمَها ودَرَى مَسارَها، فقال سُبحانَهُ: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧﴾ [الأعراف: 187]، فلمّا كانَ الأمرُ إثباتًا لملكيَّةِ المعرفةِ، وهيَ مِن بابِ المَنافِعِ قُدِّمَ النَّفعُ، والمرادُ في رَدِّه عليهم: لا أملِكُ شيئًا من شُؤوني رَدًّا وإيرادًا مَعَ أنَّ ذلك أقربُ حصولًا، فكيفَ أملِكُ شُؤونَكُم حتَّى أتَسَبَّبَ في إتيانِ عقابِكُم الموعودِ حَسبَما تُريدونَ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/189، وناجي، الأسماء المضمّنة معنى الاستفهام في القرآن الكريم، ص: 163.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/130.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/130، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151.

دلالةُ الاستثناءِ بالأداةِ ﴿إِلَّا﴾:

إذا عَجزَ المرءُ عمّا هـو اختـصـاصٌ بذاتِهِ؛ فهو عمّا سِواه أعجَزُ

الاستثناءُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ استثناءٌ مُنقَطِعٌ بمعنى (لَكِنْ)؛ أي: لَكِنْ نَفعي وضَرّي هو ما يشاؤه اللّه لي، وهذا الجوابُ يَقتَضي إبطالَ كلامِهم بالأُسلوبِ المُصطَلَحِ على تَلقيبِه في فنِّ البَديعِ بالمَذهَبِ الكلاميِّ، ويُسمَّى: البَحثَ أيضًا(1)؛ أي: بطريقٍ بُرهانيٍّ لأنَّه إذا كانَ لا يَستَطيعُ لِنَفسِه ضرًّا ولا نَفعًا؛ فعدَمُ استِطاعَتِه ما فيه ضَرُّ غيرِه بهذا الوعدِ أولَى؛ من حيثُ إنَّ أَقربَ الأَشياءِ إلى مَقدِرَةِ المَرءِ هو ما لَه اختِصاصٌ بذاتِه، فمعنى الجوابِ: أنَّ الوَعدَ منَ اللّه لا منّي، وأنا لا أقدِرُ على إنزالِه بكُم؛ لأنَّ لَه أجلًا عندَ اللّه(2).

ويحتَمِلُ أن يكونَ الاستثناءُ متَّصِلًا على معنى إلّا ما شاءَ اللّه تعالى أن أملِكَه، وتُعُقِّبَ بأنَّه يأباه مَقامُ التَّبَرّي عن أنْ يكونَ لَه ﷺ دَخلٌ في إتيانِ الوَعدِ؛ فإنَّ ذلكَ يَستَدعي بيانَ كونِ المُتنازَعِ فيه ممّا لا يشاءُ أنْ يَملِكَه ﷺ، وقال بعضُ أهلِ العلم: إذا كانَ المِلكُ بمعنى الاستِطاعةِ يكونُ الاستثناءُ مُتَّصِلًا، وإذا أُبقيَ على ظاهرِه تَعَيَّنَ الانقطاعُ، ولا يخفى أنَّ الأصلَ الاتّصالُ، ولا ينبغي العدولُ عنهُ، حيثُ أمكَنَ من دونِ تعسُّفٍ(3).

دلالةُ ﴿مَا﴾ في سياقِ اختصاصِ استثناءِ المشيئةِ بالله:

ما شـاءَ الله كـانَ، وما لَم يَشَأْ لَم يكُنْ

﴿مَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنى: الَّذي، وصِلَتُه جملةُ: ﴿شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾، والتَّقديرُ: إلّا الّذي شاءَه اللّه سُبحانَه مِنَ الضُّرِّ والنَّفعِ، أو: إلّا ما شاءَ اللّه سُبحانَه أنْ أقدِرَ عليه مِنهُما؛ فإنّي أقدِرُ عليه بمشيئتِه سُبحانَهُ.

(1) إذا ورد هذا الأسلوبُ في القرآنِ الكريمِ، فالأَولى تسميتُهُ: البحثَ، لأنَّ تسميتَه المذهبَ الكلاميَّ قد يوهِمُ مَعنًى غيرَ لائقٍ.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/190.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/130.

دلالةُ أسلوبِ القصرِ، وغَرَضُه:

قَصرُ المَشيئةِ على اللهِ سُبحانَهُ، هو كمالُ الإيمانِ، بمُطلَقِ تصرُّفِه في الأكوانِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ أسلوبُ قصرٍ، فقد قُصِرَ مُلكُ النَّبيِّ ﷺ الضُّرَّ والنَّفعَ على مشيئةِ اللّه سُبحانَهُ، وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، وقد وردَ بأقوى طرُقِ القصرِ؛ وهو النَّفيُ والاستثناءُ، فلا يملِكُ النَّبيُّ ﷺ - فضلًا عَن غيرِه - شيئًا مِنَ الضُّرِّ والنَّفعِ إلّا ما شاءَه اللّه سُبحانَهُ.

عِلَّةُ الفَصلِ في: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾:

مِن بدائعِ أساليبِ القرآنِ الكريمِ قَرنُ الأحكامِ بعِللِها

قولُ اللّه ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ "مِنَ المَقولِ المَأمورِ بِه، ومَوقِعُها مِن جملةِ ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ مَوقِعَ العِلَّةِ؛ لأنَّ جملة ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي﴾ اقتضَت انتفاءَ القُدرَةِ على حُلولِ الوَعدِ، وجملةُ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ تَتَضَمَّنُ أنَّ سببَ عدمِ المَقدرَةِ على ذلكَ هو أنَّ اللّه قدَّرَ آجالَ أحوالِ الأُمَمِ. ومِن ذلكَ أَجَّلَ حلولَ العقابِ بهم بحكمةٍ اقتَضَت تلكَ الآجالَ، فلا يَحُلُّ العقابُ بِهِم إلّا عندَ مَجيءِ في ذلكَ الأجلِ، فلا يَقدِرُ أحدٌ على تغييرِ ما حدَّدَه اللّه"[1].

دلالةُ اللّامِ في شبهِ الجملةِ ﴿لِكُلِّ﴾:

لكُلِّ أمَّةٍ مِنَ الأمَمِ أجلٌ خاصٌّ لا يَتجاوَزونَهُ

اللّامُ في ﴿لِكُلِّ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ تدُلُّ على التَّخصيصِ؛ والمعنَى: لكلِّ أُمَّةٍ ممَّن قُضِيَ بينَهُم وبينَ رَسولهِم أجلٌ مُعيَّنٌ خاصٌّ بهم لا يتعدَّى إلى أُمَّةٍ أُخرَى.

نُكتةُ تنكيرِ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٌۚ﴾:

بيانُ النَّوعيَّةِ لكلٍّ مِنَ الأمَّةِ والأجلِ

وردَت لَفظةُ ﴿أُمَّةٍ﴾ و﴿أَجَلٌۚ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾ نَكرتَينِ، والمرادُ بهما: نوعٌ مُعيَّنٌ خاصٌّ بِهِم لا يتعدّاهُم إلى غيرِهم مِنَ الأمَمِ الأخرَى، وأجلٌ خاصٌّ مضروبٌ لِعَذابِهم يَحلُّ بِهم عندَ حلولِه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/190.

سرُّ تقديمِ المسْنَدِ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾:

بيانُ الدّلالةِ على التَّخصيصِ في الأمَّةِ والأجلِ

قُدِّمَ المُسنَدُ على المُسندِ إليه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾؛ لإفادةِ قَصرِ المُسندِ إليه على المُسندِ، والتَّنبيه عليه مِن أوَّلِ الأمرِ أنَّه خبرٌ لا صفةٌ؛ والمعنى: لِكُلِّ أمَّةٍ مخصوصَةٍ أجلٌ خاصٌّ بِها لا يشركُها فيه غَيرُها.

عِلَّةُ الفصلِ في: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾:

بيانُ شأنِ الأجَلِ المضروبِ للأُمَمِ وأهمِّيَّتُهُ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ عمّا قبلَهُ، وهو قولُه سُبحانَهُ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ﴾؛ لِكَونِها مُبدلَةً منها، فبينَ الجُملَتينِ كمالُ الاتِّصالِ، وقد خَصَّ اللّه سُبحانَه مجيءَ الأجَلِ بعدَ ذِكرِه لِلعنايةِ بشأنِ هذا الأجلِ، ولِكونِه ألزَمَ للحُجَّةِ عليهِم، وكَونه أوفَى بالغرضِ المقصودِ مِن ذِكرِ هذا الأجلِ.

نُكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بِـ ﴿إِذَا﴾:

وَعدُ اللهِ تعالى مَقطوعٌ بوقوعِهِ، لا يَتَخلَّفُ أبدًا

عُلِّقَ الشَّرطُ بِـ ﴿إِذَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ وذلكَ لأنَّ ﴿إِذَا﴾ تُستَعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بوقوعِه، ولا تُستَعمَلُ في الأمرِ المَشكوكِ فيه، ولمّا ضُرِبَ لهَؤلاءِ أجلٌ مُحدَّدٌ مُعيَّنٌ مَعلومٌ؛ أبانَ عنِ القَطعِ بصحَّةِ وقوعِه وحصولِه، وأنَّه ممّا لا يرتابُ فيه مُرتابٌ أو ينكِرُه مُنكِرٌ.

بلاغةُ المَجازِ العقليِّ أو الاستعارةِ:

إبرازُ المَعقولاتِ في صورِ المحسوساتِ أعلَقُ بالذِّهنِ، وأوضحُ في الفَهمِ

أُسنِدَ المجيءُ إلى الأَجَلِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ من بابِ المجازِ العقليِّ لِعلاقةِ الزَّمانيَّة، والمرادُ: وقتُ وقوعِه وحُدوثِه، وزمنُ ذلك، ونكتةُ المجازِ: التَّنبيه على المُبالغةِ في حُصولِه. ويجوزُ أن يكونَ ذلكَ من قبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ؛ حيثُ شُبِّه الأجل بإنسانٍ - مثلًا - يقعُ منه المجيءُ، فحُذِفَ المشبَّه بِهِ، ودلَّ عليه بلازِمِه؛ وهو المجيءُ، وإثباتُ المجيءِ للأجَلِ تَخييلٌ، وهو قرينةُ المكنيَّةِ، وفي

التَّعبيرِ بالاستعارَةِ إبرازٌ للمعقولِ في صورةِ المحسوسِ؛ لأنَّ ذلك أثبَتُ في الذِّهنِ وأوضحُ.

سرُّ إضافةِ الأجلِ في ﴿أَجَلُهُمْ﴾:

بُلوغُ كُلِّ أُمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها أمرٌ واقِعٌ، ما له مِن دافعٍ

إن جُعِلَ الضَّمير للأمم المدلولِ عليها بـ (كُلِّ أُمَّة)، فإظهار الأجلِ مُضافًا إليه في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ لإفادةِ المعنى المقصود الَّذي هو بُلوغُ كلِّ أُمَّةٍ أجَلَها الخاصَّ بها، ومَجيئُه إيّاها بعَينِها مِن بينِ الأمم بواسِطَةِ اكتِسابِ الأجلِ بالإضافةِ عمومًا يفيدُه معنى الجمعيَّة، كأنَّه قيلَ: إذا جاءَت آجالُهُم؛ بأن يجيء كلّ واحدةٍ مِن تلكَ الأمَمِ أجلُها الخاصُّ بها، وإنْ جُعِلَ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ خاصَّةً، كما هو الظّاهِرُ، فتكونُ الإضافَةُ لإفادةِ كمالِ التَّعيينِ؛ أي: إذا جاءَها أجَلُها الخاصُّ بها[1].

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَلَا﴾:

بيانُ دِقَّةِ الآجالِ المضروبةِ، لكلِّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ

الفاءُ في ﴿فَلَا﴾ مِن قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرطِ (لا يَستأخِرونَ) بجملةِ الشَّرطِ ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ لبيانِ تَرتُّبِ الجوابِ على شَرطِه، و(لا) نافية، وجملةُ ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ جوابُ ﴿إِذَا﴾.

دلالةُ دُخولِ السّينِ في ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾:

غرضُ المُبالغةِ في نَفيِ التَّأَخُّرِ عنِ الأجَلِ أوِ التَّقَدُّمِ عنه

صيغةُ الاستفعالِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ للإشعارِ بِعجزِهم عَن ذلك مع طلبِهم لَه، والمعنى: لا يتأخَّرونَ عنه أصلًا، و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معطوفٌ على ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾؛ أي: لا يتقدَّمونَ عَليه، لَكِن لا لبيانِ انتفاءِ التَّقدُّمِ معَ إمكانِه في نفسِه كالتَّأَخُرِ، بَل للمبالغةِ في انتفاءِ التَّأَخُّرِ بنظمِه في سلكِ المُستحيلِ عَقلًا، وهذا هو السِّرُّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/131، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/152.

في إيرادِ صيغةِ الاستفعال؛ أي: إنَّه بَلغَ في الاستحالةِ مَبلَغًا: أنَّه لا يطلُبُ؛ إذِ المُحالُ لا يُطلَبُ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالأفعالِ المُضارِعةِ في جوابِ الشَّرطِ:

نَفيُ التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ عن كُلِّ أجلٍ قدَّرَه الله سُبحانَهُ

عُبِّر بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ في قولِ اللّٰه سُبحانَهُ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ في هذِه الأفعالِ وحُدوثِها شيئًا فشيئًا، وأنَّ كل أجلٍ قدَّرَه اللّٰه ﷻ فإنَّه يجري فيه هذا الحُكمُ مِن انتفاءِ التَّقدُّمِ عليه أو التَّأخُّرِ عنه.

وبينَ الفعلينِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ و﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ طِباقُ إيجابٍ؛ لِتضادِّ كُلِّ واحدٍ مِنهُما صاحِبَه.

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَاعَةً﴾:

دِقَّةُ الأجلِ المضروبِ للأُمَمِ، فلا يتأخَّرُ شيءٌ ولا يتقَدَّمُ، إلَّا بقدَرٍ مَعلومٍ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿سَاعَةً﴾ مُنَكَّرةً في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾؛ لإرادَةِ التَّقليلِ، والمرادُ: أنَّهُم لا يَستَقدمونَ شيئًا قليلًا مِنَ الزّمانِ، ولا يَستأخِرونَ مُطلَقًا، ولو مِقدارًا يَسيرًا منه، ولا سيَّما وأنَّ لفظَ (السّاعةِ) يُستَعمَلُ مثلًا في غايَةِ القِلَّةِ مِنَ الزَّمنِ.

و﴿سَاعَةً﴾ في الآيةِ ظرفٌ مُتعلِّقٌ بالفعلِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

نُكتةُ حَذفِ الظَّرفِ مع الفعلِ ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾:

القُرآنُ الكريمُ مُنَزَّهٌ عن ذكرِ الألفاظِ الّتي لا يُحتاجُ إليها

قولُ اللّٰه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، وفيه حُذِفَت كلمةُ ﴿سَاعَةً﴾ مع الفعلِ ﴿يَسْتَقْدِمُونَ﴾ إيجازًا واختصارًا؛ لِدلالةِ كلمةِ ﴿سَاعَةً﴾ المذكورةِ عليها، ولو أُعيدَ ذِكرُها بأن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (لا يَستأخِرونَ ساعةً ولا يَستقدِمونَ ساعةً، أو لا يَستقدِمونَ أخرى)؛ لكانَ حشوًا لا يُفيدُ معنًى جديدًا،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/131.

ومعلومٌ أنَّ الثّاني يُحذَفُ لِدلالةِ الأَوَّلِ عليه، وذِكره مَعَ عَدَمِ إفادَتِه نوعٌ مِنَ العَبثِ الَّذي نُزِّهَ عنه القرآنُ الكريمُ. ويُضافُ إلى النُّكتَةِ المعنويَّةِ لحذفِه فائدةٌ لفظيَّةٌ - على وجه التَّبع - وهي فواتُ التَّناسُبِ بينَ فواصلِ الآياتِ على تقديرِ ذِكرِها، فكانَ في حذفِها براعةٌ في المَعنى، وجمالٌ في اللَّفظِ.

توجيه المتُشابِه اللَّفظيِّ بين آيةِ يونس، والأعراف، والنّحل:

أهمِّيَّةُ التَّصرُّفِ بالألفاظِ ذِكرًا وحَذفًا، بما يُناسِبُ المَقامَ

قال اللّه ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34]، وقال ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النّحل: 61]. ووجه المغايرةِ بينَها: أنَّه قد قُرِنَت (إذا) بالفاءِ في ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ مَوضِعَي الأعرافِ والنَّحلِ، وسَقطَت مِن مَوضِعِ يونسَ ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾، "وذلك أنَّه لمّا سِيقَتِ الآيةُ جوابًا عن استِعجالِهِمُ العذابَ الموعودَ؛ اعتُنِيَ بأمرِ الشَّرطيَّةِ ولُزومِها كمالَ الاعتناءِ، فأتى بها غيرَ مُتفرِّعةٍ على شيءٍ، كأنَّها مِنَ الأمورِ الثّابتةِ في نَفسِها الغيرِ المُتفرِّعةِ على غَيرِها، وقَويَ لزوم التّالي فيها لِلمُقَدَّمِ بزيادةِ الفاءِ الّتي بها يُؤتَى للرَّبطِ في أمثالِ ذلكَ، ولا كذلكَ آيةُ الأعرافِ كما لا يَخفى... وقد يُقالُ: إنَّ إسقاطَ الفاءِ أوَّلًا؛ لِتكونَ الجملةُ في مَوضِعِ الصِّفةِ لـ(أجل)؛ تَهويلًا لِأمرِه، وتَنويهًا بشأنِه، حَسبَما يَقتضيه المَقامُ؛ أي: لِكُلِّ أمَّةٍ أجلٌ مَوصوفٌ بأنَّه إذا جاءَ لا يَستأخِرونَ عنهُ، ولا يَستقدِمونَ عليه البتَّةَ"(1).

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/131.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ٥١﴾ [يونس: 50 - 51]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

الرّبطُ بينَ تحديدِ آجالِ الأممِ وفقَ القدرِ، بالتَّحذيرِ مِـنِ استِعجالِ عذابِ الله تعالى

لَمّا ذكَرَ اللهُ ﷻ أنَّ قَصدَ المُشرِكينَ بسُؤالِهم عنِ مَوعِدِ العذابِ هوَ الاستِهزاءُ، وكانَ وقوعُ ما توعِّدوا به مُمكِنًا، وكانَ مِن شأنِ العُقَلاءِ أن يَبعُدوا عَن كُلِّ خطرٍ مُحتمَلٍ؛ أمَرَ اللهُ نبيَّه ﷺ بجوابٍ آخَرَ لِمَن استَبطَأَ الوعيدَ بالعذابِ في الدُّنيا أو الآخرةِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ والقصدُ بيانُ أنَّه إذا جاءَ أجلُهُم لا يَستأخِرونَ عنه ولا يَستقدِمونَ؛ فليحذَروا مِنَ الاستعجالِ بالعذابِ[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أصلُ (رأى): يدُلُّ على نَظرٍ وإبصارٍ بِعَينٍ أو بَصيرَةٍ. فالرَّأيُ: ما يَراه الإنسانُ في الأمرِ، وجَمعُه الآراءُ[2]. والرُّؤيةُ: إدراكُ المَرئيِّ، وذلك أضربٌ بحسبِ قِوَى النَّفسِ: والأوَّلُ: بالحاسَّةِ، وما يجري مَجراها، نحو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التّكاثر: 6 - 7]. والثّاني: بالوَهمِ والتَّخيُّلِ، نحو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: 50]. والثّالثُ: بالتَّفكُّرِ، نحو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ [الأنفال: 48]. والرّابعُ: بالعَقلِ، وعلى ذلكَ قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النّجم: 11]. والرَّأيُ: اعتقادُ النَّفسِ أحدَ النَّقيضَينِ عَن غَلَبَةِ الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/135 - 136، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 366.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).

عمران: 13]، والرُّؤيا: ما يُرَى في المنام[1]. والرُّؤيةُ بالعَينِ تَتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وبمعنى العِلمِ تَتعدَّى إلى مَفعولَين. والرُّؤيةُ في الآيةِ بمعنى التَّنبيهِ[2].

2) ﴿بَيَـٰتًا﴾: أصلُ (بيت): المَأوَى والمَآبُ ومَجمَعُ الشَّملِ. يُقالُ بَيتٌ وبُيوتٌ وأَبياتٌ. وبَيَّتَ الأمرَ إذا دَبَّرَه لَيلًا، قال الله تعالى: ﴿إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [النّساء: 108]؛ أي: حينَ يَجتمعونَ في بُيوتِهم. غَيرَ أنَّ ذلكَ يُخَصُّ باللَّيلِ. والبَيّوتُ: الأمرُ يُبَيِّتُ عليه صاحِبُه مُهتَمًّا بِهِ. والبَياتُ والتَّبييتُ: أنْ تأتيَ العَدوَّ لَيلًا، كأنَّكَ أخَذتَه في بَيتِه. وقد رويَ عن أبي عبيدةَ أنَّه قال: بُيِّتَ الشَّيءُ إذا قُدِّرَ، ويُشَبَّه ذلِكَ بتقديرِ بُيوتِ الشِّعرِ. وهذا ليسَ ببعيدٍ مِنَ الأصلِ[3]. والمقصودُ بالتَّبييتَ والبَياتِ في الآية: مُباغَتَةُ العَدوِّ ليلًا، وعَكسُه التَّصبيحُ: الغارَةُ في الصَّباحِ[4].

3) ﴿نَهَارًا﴾: أصلُ (نهر): يدُلُّ على تَفَتُّحِ شيءٍ أو فَتحِه. ومنه سُمِّيَ النَّهرَ لأنَّه يَنهَرُ الأرضَ؛ أي: يَشُقُّها[5]. والنَّهارُ: وهو انفِتاحُ الظُّلمَةِ عن الضّياءِ ما بَينَ طُلوعِ الفجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ؛ وسُمِّيَ نَهارًا؛ لأنَّ الضّياءَ يَنهَرُ فيه؛ أي: يَبرُزُ كما يبرُزُ النَّهرُ[6]. والمقصودُ بالنَّهارِ في الآيةِ: ما بَينَ الفَجرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ.

4) ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾: أصلُ (أين): تدُلُّ على القُربِ، يُقالُ: آنَ لكَ أنْ تَفعَلَ كذا، أَينًا؛ أي: حانَ[7]، ثمّ تَوَسَّعوا فَجَعَلوه اسمًا لزمانِ الحالِ، فقالوا: أنا الآنَ أفعَلُ كذا. قال أبو العباسِ: "قال قومٌ: آنَ يَئينُ أَينًا، والهمزةُ مَقلوبةٌ فيه عنِ الحاءِ، وأصلُه: حانَ يَحِينُ حِينًا، قال: وأصلُ الكلمةِ مِنَ الحِينِ"[8]. والآنَ: ظرفُ زمانٍ يدُلُّ على الوقتِ الحاضِرِ الَّذي أنتَ فيهِ، والَّذي يَفصِلُ بينَ زَمانَي الماضي والمُستَقبَلِ، والألِفُ واللّامُ فيه ليسَت للتَّعريفِ أو للعَهدِ الحُضوريِّ[9]. والمرادُ بـ (الآن) في الآيةِ: اسمُ ظرفٍ للزَّمانِ الحاضِرِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (رأى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رأي)، والزَّبيدي، تاج العروس: (رأى).
(2) الرّاغب، المفردات: (رأى)، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رأي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (بيت).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/283.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/179.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أين).
(8) الرّاغب، المفردات: (أين).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/69.

استعجالُ العذابِ لا نَفعَ فيه، وإنَّما النَّافعُ هو الإيمانُ قبلَ فواتِ الأوانِ

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

أمَرَ اللّه تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ أن يقولَ لِلمشركين: أخبِروني إنْ أتاكُم عذابُ اللّه ليلًا وقتَ نَومِكم، أو نهارًا وقتَ اشتغالِكُم بمَعاشِكُم، ماذا يَستعجِلُ المُشرِكونَ مِنَ العذابِ إلّا الشَّرَّ الَّذي لا يستطيعونَ دَفعَه عن أنفُسِهم، أإذا نزَلَ عذابُ اللّه بكُم آمَنتُم به حينَ لا ينفَعُكُمُ الإيمانُ، آلآنَ تُؤمِنونَ - أيُّها المُشرِكونَ - بعدَ أن وَقَعَ بكُمُ العذابُ، وقد كنتُم قبلَ مَجيئِه تَستعجِلونَه مُكَذِّبينَ بهِ؟[1]

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تأكيدُ الرَّدِّ على استهزاءِ المُشركينَ مُبالَغةٌ في إبطالِه

علَّةُ الفصل في: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

جاءَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾ جوابًا ثانيًا عن سُؤالِهِمِ المُتقدِّمِ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، فَفُصِلَتْ عَن قولِه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾؛ لِكَونِها مُبدلةً منها أو مُؤكِّدةً لمضمونِ الجملة المُتقدِّمَةِ عليها، فالفصلُ لِكمالِ الاتّصالِ؛ والمعنى: إذا حَقَّ الوعدُ الَّذي توعدُهُم به فسيؤمِنون، وهذا الجوابُ إبداءٌ لِخَلَلِ كلامِهِم، واضطرابِ استهزائِهِم، وقد جاءَ هذا الأمرُ بأنْ يجيبَهُم هذا الجوابَ بعدَما أُمِرَ أن يجيبَهُم بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾.

من كَرامةِ النَّبيِّ ﷺ على رَبِّه دِفاعُه تعالى عنه

دلالةُ تَصديرِ الآيةِ بفعلِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

جاءَ فعلُ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ في صدرِ الآيةِ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾ موجَّهًا للنّبيِّ ﷺ، إلزامًا منه تعالى، وإجابةً على لسانه ﷺ؛ لِتبرئةِ ساحتِه وتنزيهِ شَخصِه أن يكونَ الجوابُ منهُ، بل ليَكونَ تَلقينًا لَهُم بالحجَّةِ العلويَّةِ، والمرادُ: "قُلْ لهُم بعدما بَيَّنت لهم كيفيَّةَ حالِكَ وجريان سنّةِ اللّه تعالى فيما بينَ الأممِ على الإطلاقِ، ونبَّهتهم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/190، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/273، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/513، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 366.

على أنَّ عذابَهُم أمرٌ مُقرَّرٌ مَحتومٌ، لا يتوقَّفُ إلّا على مَجيءِ أجلِه المعلومِ؛ إيذانًا بكمالِ دُنوِّه، وتنزيلًا لَه مَنزِلةَ إتيانِه حقيقةً"[1].

بلاغةُ الاستِفهامِ ودِلالَتُه:

لا ينبغي استِعجالُ العذابِ، إذْ لا يَستَعجِلُ العذابَ ذو عقلٍ

الاستفهامُ في قول اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾ لا يُرادُ حقيقتُهُ؛ وهو طلبُ العلمِ بشيءٍ لَم يكُنْ مَعلومًا مِن قَبلُ، وإنَّما جاءَ الاستفهامُ ههنا على سبيلِ التَّلطُّفِ بِهِم، والتَّنبيه لَهُم أنَّ العذابَ لا ينبغي أن يُستعجَلَ. ويجوز أن تكونَ الجملةُ واردةً على سبيلِ التَّعجُّبِ والتَّهويلِ للعَذابِ؛ أي: أيُّ شيءٍ شديدٍ تستعجلونَهُ، والمعنى: قُل لَهُم يا محمَّدُ، أخبروني عَن عذابِ اللّه إن أتاكُم؛ أيُّ شيءٍ تستعجِلونَ منهُ، فَلَيسَ شيءٌ مِنَ العذابِ يَستَعجِلُه عاقِلٌ؛ إذِ العَذابُ كلُّه مُرُّ المذاقِ موجِبٌ لِنِفارِ الطَّبعِ منهُ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ عن العلمِ بالرُّؤيةِ بـ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

بيانُ إثباتِ حُلولِ العذابِ بالكُفّارِ وتَحقيقه

عُبِّرَ بالرُّؤيةِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾، ويجوزُ أن تكونَ بصريَّةً؛ لبيانِ أنَّ مجيءَ العذابِ ثابتٌ وحقٌّ، والدَّليلُ على ثبوتِه رؤيَتُه بالعينِ؛ وذلك ليكونَ أثبتَ لدى النَّفسِ، ويجوزُ أن تكونَ الرُّؤيةُ علميَّةً، فَيُخبرُ بها صادِقٌ لَم يُجرَّب عليه الكذبُ.

وسواء أكانَ المعنى: أخبروني أم أَعلِموني - لِما بَينَ الرُّؤيةِ والإخبارِ مِنَ السَّببيّةِ والمُسَبَّبيّةِ - فإنَّ التَّعبيرَ بالرُّؤيةِ فيه مِنَ القوَّةِ في الإثباتِ والقَطعِ في الإخبارِ ما لا يَخفى.

نُكتةُ تعليقِ الشَّرطِ بـ﴿إِنۡ﴾:

دِقَّةُ البيانِ القرآنيِّ في انتِقاءِ أدواتِ الشَّرطِ المُلائمَةِ لسياقاتِها

عُلِّقَ الشَّرطُ بـ ﴿إِنۡ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾؛ وذلك لأنَّ (إنْ) في الأصلِ تُستعمَلُ فيما لا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/132.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/165.

يُجزَمُ بحصوله ووُقوعِه؛ والمعنى: (إِنْ أتاكُم فأيُّ شيءٍ تستعجلونَ منهُ)، واستعمالُ ﴿إِنْ﴾ خرجَ عن مُقتضَى الظّاهِرِ، ولم يخرجْ عن مُقتضَى الحالِ، فالمحلُّ هنا لـ(إذا)، ولكنّه عَدَلَ إلى ﴿إِنْ﴾ مِن بابِ المُجاراةِ لَهُم في عدمِ جَزمِهم بوقوعِ هذا العذابِ[1].

سرُّ حذفِ جوابِ الشَّرطِ:

في الحذفِ إثراءٌ للمعاني القُرآنيَّةِ، وتوسيعٌ لدائِرَتِها

حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾، كما قال الزَّمخشريُّ: "فإِنْ قُلتَ: بِمَ تَعَلَّقَ الاستفهامُ؟ وأينَ جوابُ الشَّرطِ؟ قُلتُ: تَعَلَّقَ بـ ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾؛ لأنَّ المعنى: أخبروني ماذا يَستَعجِلُ منه المجرمونَ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ وهو: تَندَموا على الاستِعجالِ، أو تَعرِفوا الخطأ فيهِ"[2]، وحذفُ الجوابِ يوسِّعُ دائرةَ المعاني المُحتَمَلة، وفي ذلك إثراءٌ لِلمعاني القرآنيَّةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإتيانِ: ﴿أَتَىٰكُمۡ﴾:

إذا قضى الله سُبحانَه إنزالَ العذابِ؛ فإنَّه لا رادَّ له ولا نَجاةَ مِنه

قولُ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾ فيه لفظ ﴿أَتَىٰكُمۡ﴾ مِنَ الإتيانِ: وهو مجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قِيلَ للسَّيلِ المارِّ على وجهِه: أتِيٌّ وأَتاوِيٌّ، والإتيانُ يُقالُ لِلمَجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويُقالُ في الخَيرِ وفي الشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعراضِ، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40][3]. أمّا المجيءُ فهو وإِنْ كانَ كالإتيانِ، إلّا أنَّه أعمُّ منه، إذْ يُطلَقُ " اعتبارًا بالحُصولِ، ولِمَن قَصَدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا"[4]. ففي التَّعبيرِ بالإتيانِ في قولِه: ﴿أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ﴾ كنايةٌ عَن سُرعَةِ نُزولِه عليهِم، وإِنْ كانوا قدِ استبطَؤوا نُزولَه تَهكُّمًا واستهزاءً، فأخبرَهُم

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/132.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).

بعدمِ الاستعجالِ؛ لأنَّه سُبحانَه إذا أنزَلَه أنزَلَه كالسَّيلِ المنهَمِرِ، لا يُستَطاعُ ردُّه أو النَّجاةُ منه.

بلاغةُ المَجازِ أو الاستعارةِ:

بيانُ المُبالغةِ في إثباتِ وُقوعِ العذابِ، ونُزولِه بأهلِ الشِّركِ

أُسنِدَ الإتيانُ إلى العذابِ في قولِ اللَّه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾، والمُرادُ: إتيانُ زَمَنِ وقوعِه، وذلكَ على سبيلِ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ الزَّمانيَّةِ، أو هو مِن بابِ الاستعارةِ المكنيَّةِ تشخيصًا لهذا العذابِ بإنسانٍ يأتي مَعَ الرَّمزِ إليه بخاصيَّةٍ مِن خواصِّه، وهو الإتيانُ؛ مبالغةً في وُقوعِه ونُزولِه بِهِم.

فائدةُ الإضافةِ في ﴿عَذَابُهُۥ﴾:

الـرَّدُّ على استِعجالِ المُشركينَ وُقوعَ العذابِ المُتوَعَّدِ بِهِ

أُضيفَ العذابُ في ﴿عَذَابُهُۥ﴾ مِن قولِ اللَّه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ لبيانِ مصدرِ هذا العذابِ، وأنَّه يكونُ مِن ﷻ؛ رَدًّا على استعجالِهم وُقوعه، واستبطاءِ الوعدِ الَّذي أخبرَهُم به النَّبيُّ ﷺ، وتَهكُّمِهم وسخريَتِهم منه، وأنَّ أخذَه أليمٌ شديدٌ، وأنَّه هوَ المعذِّبُ به لا غيرُهُ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ الرّاجِعِ إلى الاسمِ الأحسنِ (الله):

المقصودُ بالزَّجرِ والتَّخويفِ رُجوعُ المُخَوَّفِ إلى جادَّةِ الحقِّ والصَّوابِ

عُبِّرَ بالضَّميرِ الرّاجِعِ إلى الاسمِ الأحسَنِ (اللَّه) في قولِه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾؛ تفخيمًا وتعظيمًا لَه ﷻ؛ لِئلّا يجريَ ذِكرُه هُنا مَقرونًا بالعذابِ مَعَ إمهالِهم ليذعنوا إليه بالرُّجوعِ، وليكونَ ذلكَ زجرًا وتخويفًا، فيَثوبوا إلى رُشدِهِم، ويعودوا إلى جادَّةِ الحقِّ.

سرُّ تنكيرِ ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿نَهَارًا﴾:

بـيـانُ شـدَّةِ العـذابِ، وقُربِه مِنهم، ومُفاجأتِه إيّاهُم

نُصِبَ كُلٌّ مِن ﴿بَيَٰتًا﴾ و﴿نَهَارًا﴾ في قولِ اللَّه ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ على الظَّرفيَّةِ؛ فمعنى ﴿بَيَٰتًا﴾: وقتَ بياتٍ، والبياتُ بمعنَى التَّبييتِ، كالسَّلامِ بمعنى التَّسليمِ، و﴿نَهَارًا﴾؛ أي: وقتَ انشغالِكُم بطلَبِ المعاشِ والكَسبِ[1].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.

ومَجيئُهما مُنكَّرَينِ مِن غيرِ تحديدِ أيِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ اللَّيلِ يأتيهم فيه العذابُ، ولا في أيِّ ساعةٍ مِن ساعاتِ النَّهارِ يأتيهم ذلك العذابُ، دليلٌ على مُفاجَأةِ العَذاب في أيِّ جزءٍ مِنهُما؛ تَهويلًا لِهذا العذابِ الموعودِ، قال ابنُ عاشورٍ: "وَقَعَ في خلالِ هذا الجوابِ تَفَنُّنٌ في تَخييلِ التَّهويلِ لِهذا العذابِ الموعودِ بقوله: ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾ تَخييلًا يُناسِبُ تَحَقُّقَ وُقوعِه، فإنَّ هذين الوَقتَينِ لا يَخلو حُلولُ الحوادِثِ عَن أحَدِهِما، على أنَّه ترديدٌ لِمعنى العذابِ العاجِلِ تَعجيلًا قريبًا أو أقلَّ قُربًا، أي: أتاكُم في ليلِ هذا اليومِ الَّذي سألتُموه أو في صبيحَتِه، على أنَّ في ذكرِ هذينِ الوقتَينِ تَخييلًا ما لِصورةِ وقوعِ العذابِ؛ استِحضارًا له لديهِم على وجهٍ يَحصُلُ به تَذكيرُهُمُ انتِهازًا لِفُرصةِ المَوعظةِ"[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿بَيَٰتًا﴾:

يكونُ العَذابُ أكثَرَ قساوَةً، إذا حَلَّ في أوقاتِ الغَفلاتِ

جاءَ التَّعبيرُ بالبياتِ في قولِ اللَّه ﷺ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارًا﴾ دونَ اللَّيلِ؛ "لِيَظهرَ التَّقابُلُ؛ لأنَّ المرادَ الإشعارُ بالنَّومِ والغَفلَةِ، والبَياتُ مُتكَفلٌ بذلك؛ لأنَّه الوقتُ الَّذي يَبيتُ فيه العدّو، ويوقِعُ فيهِ، ويغتَنِمُ فُرصة غَفلَتِه، وليسَ في مفهومِ اللَّيلِ هذا المعنى، ولَم يشتَهِرْ شُهرةَ النَّهارِ بالاشتغالِ بالمَصالحِ والمَعاشِ حتَّى يَحسنَ الاكتفاءُ بدلالةِ الالتزامِ كما في النَّهارِ، وقد يُقالُ: النَّهارُ كُلُّه مَحلُّ الغفلةِ؛ لأنَّه إمّا زمانُ اشتغالٍ بمَعاشٍ أو زمانُ قَيلولَةٍ بخلافِ اللّيلِ، فإنَّ مَحلَّ الغفلةِ فيه ما قارَبَ وسَطَهُ؛ وهوَ وقتُ البَياتِ، فلذا خُصَّ بالذّكرِ"[2].

وقال الزَّمخشريُّ: "فإن قُلتَ: هَلّا قيلَ ليلًا أو نهارًا؟ قُلتُ: لأنَّه أُريدَ: إنْ أتاكُم عذابُه وقتَ بياتٍ فبيَّتَكُم، وأنتُم ساهونَ نائِمونَ لا تَشعُرونَ، كما يُبَيّتُ العدوُّ المباغتُ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/191.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/133.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.

المَوقِعُ النَّحويُّ والبيانُي لجوابِ الشّرطِ في هذه الآيةِ:

قولُ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ جوابٌ للشَّرطِ؛ حُذِفَت منه الفاء؛ كما تقولُ: إنْ أتيتُكَ ماذا تُطعِمُني، والمرادُ هنا: إنْ حصَلَ هذا المطلوبُ؛ فأيُّ مقصودٍ تَستَعجِلونَه منه، "والجملةُ الشَّرطيَّةُ مُتَعلِّقةٌ بـ ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾، والمعنى: أخبِروني إنْ أتاكُم عَذابُه تعالى أيّ شيءٍ تَستَعجِلونَه منه سُبحانَهُ، والشَّيءُ لا يُمكِنُ استعجالُه بَعدَ إتيانِه، والمرادُ به المبالغةُ في إنكارِ استعجالِه بإخراجِه مِن حيِّزِ الإمكانِ، وتنزيلُه في الاستحالَةِ مَنزِلةَ استعجالِه بعدَ إتيانِه"[1].

المُبالغةُ في إنكارِ استِعجالِ العذابِ بيانٌ لِمُقتَضى الحالِ

وقدَّر الزَّمخشريُّ الجَوابَ بقولِه: "تَندَموا على الاستعجالِ، أَو تَعرِفوا الخطأَ فيهِ. فإنْ قُلتَ: فهلّا قِيلَ: ماذا تَستَعجِلونَ منه ؟ قلتُ: أُريدَتِ الدِّلالَةُ على موجِبِ تركِ الاستعجالِ، وهوَ الإجرامُ؛ لأنَّ مِن حَقِّ المُجرِمِ أنْ يخافَ التَّعذيبَ على إجرامِهِ"[2].

دلالَةُ ﴿مَّاذَا﴾:

احتِمالُ الألفاظِ لِمَعانٍ مُتعدِّدَةٍ، يوَسِّعُ الدّلالةَ، ويُبِينُ عنِ المرادِ

﴿مَّاذَا﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فيها قَولانِ:

أحدُهُما: أنَّ (ما) اسم استفهامٍ، مَوضِعُها رَفعٌ بالابتداءِ، و(ذا) بمعنى الَّذي، و﴿يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ صِلَةٌ له، والعائدُ محذوفٌ، والَّذي وصلتُه خبرُ المبتدَأ.

والآخَرُ: أنَّ (ما) و (ذا) اسمٌ واحدٌ للاستفهامِ، ومَوضِعُه نَصبٌ بـ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾، ولا ضميرَ في الفعلِ، والتَّقديرُ: أيُّ شيءٍ يَستَعجِلُ منه المُجرِمونَ[3].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.

(3) العكبريّ، إملاء ما منَّ به الرّحمن: 1/26.

مِن عجيبِ صَنيعِ المُشركِينَ استعجالُهُمُ العَذابَ بنيَّةِ الإيمانِ عندَ نُزولِهِ

دلالةُ الاستفهامِ:

الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ عليهم، وفي التَّعجيبِ مِن تَعَجُّلِهِمُ العَذابَ بنيَّةِ أنَّهُم يُؤمِنونَ به عندَ نُزولِهِ.

وفائدةُ الإشارةِ إليه بـ(ذا) - لأنَّها في الأصلِ اسمُ إشارةٍ - تَهويلُه أو تَعظيمُه أوِ التَّعجيبُ مِنه كقولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾ [البقرة: 26]؛ فالمعنى: ما هذا العذابُ العظيمُ في حالِ كَونِه يَستَعجِلُه المُجرِمونَ، فَجُملَةُ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارَةِ؛ أي: أنَّ مِثلَه لا يُستَعجَلُ، بل شأنُه أن يُستَأخَرَ[1].

الحامِلُ للكُفّارِ على الاستِعجالِ بالعَذابِ، هو الاستِهزاءُ والتَّهكُّمُ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾:

الفعلُ المُضارعُ في أصلِ استعمالِه دالٌّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، ولذا جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى هذا المعنى، مَعَ استحضارِ الصّورةِ الماضيةِ؛ دِلالةً على أنَّ استعجالَهُم بهذا العذابِ مُتجدِّدٌ منهم لا يَنقطِعُ، ودافعُهُم في ذلك هوَ الاستِهزاءُ والتَّهَكُّم.

كُلُّ العذابِ مُهلِكٌ، ولا يَصلُحُ شيءٌ منه لاستعجالِهِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ (مِنْ):

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ؛ "أيْ: لا شيءَ مِنَ العذابِ بصالحٍ لاستعجالِهِم إيّاهُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ منه مُهلِكٌ حائلٌ بَينَهُم وبينَ التَّمَكُّنِ مِنَ الإيمانِ وقتَ حُلولِهِ"[2].والجملةُ يجوزُ أن تكونَ على معنى "التَّعجيبِ؛ وهو مُستفادٌ مِنَ المقامِ، كأنَّه قِيلَ: أيُّ هولٍ شديدٍ يَستعجلونَ منهُ، فَتكونُ (مِن) بَيانيَّةً وتَجريديَّةً"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/192.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/192.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/133.

فرطُ تهكُّمِ المُشركينَ صَيَّرَهُم يَستعجِلونَ ما فيه حَتفُهُم

غَرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنۡهُ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿مِنۡهُ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّم، ولإفادةِ القصرِ؛ كأنَّهم لفَرطِ تهكُّمِهِم واستهزائِهِم واستِهتارِهِم لا يَستعجلونَ إلّا بالعذابِ.

أعظمُ الجرائِمِ جَريمَةُ الشِّركِ والكُفرِ باللهِ تعالى

دلالةُ (ال) في: ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ يُرادُ بها العهد العِلميُّ، والمرادُ بِهِم: أصحابُ جُرمِ الشِّركِ والتَّكذيبِ، وهُم القائِلونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وهُم مُشرِكو مَكَّةَ، ومَن كانَ على شاكِلَتِهِم مِنَ المُنكِرينَ الجاحِدينَ لرسالتِه ﷺ.

حقُّ المُجرِمِ أن يَهلكَ فَزَعًا مِن حُلولِ العذابِ، فضلًا عن أن يَستعجِلَهُ

نُكتةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، وضعٌ لِلمُظهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لأنَّ مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (ماذا يَستعجِلونَ مِنهُ)، ولكِنْ أُظهِرَ إبرازًا لهُم؛ "لِتأكيدِ الإنكارِ ببيانِ مُبايَنةِ حالِهِم للاستعجالِ؛ فإنَّ حقَّ المُجرِمِ أن يَهلكَ فَزعًا مِن إتيانِ العذابِ فضلًا عن استِعجالِهِ"(1).

قال ابنُ عاشورٍ: "فَوَقَعَ الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ عِوَضَ أن يُقالَ: (ماذا يَستَعجلونَ منهُ)؛ لِقصدِ التَّسجيلِ عليهِم بالإجرامِ، ولِلتَّنبيهِ على خَطَئِهِم في استعجالِ الوعيدِ؛ لأنَّه يأتي عليهِم بالإهلاكِ فَيَصيرونَ إلى الآخرةِ، حيثُ يُفضونَ إلى العذابِ الخالِدِ، فَشأنُهُم أن يَستأخِروا الوَعدَ لا أن يَستعجِلوهُ، فدَلَّ ذلكَ على أنَّ المعنى لا يَستَعجِلونَ منه إلّا شرًّا"(2).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/193.

عِلَّةُ الفَصلِ في: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾:

نُـزولُ العـذابِ المُستأصِلِ لأهلِ الشِّركِ مانِعٌ مِن صِحَّةِ إيمانِهم

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ عمّا قَبلَهُ، لكونِه واقِعًا ممّا قبلَه مَوقِعَ البيانِ؛ فالجملةُ مُفَسِّرةٌ لِسابِقَتِها لِقَصدِ الرَّدِّ على استعجالِهم، وقد جاءَت إنكارًا لإيمانِهم بنزولِ العذابِ بعدَ وقوعِه حقيقةً، مَعَ ما سَبَقَ مِن إنكارِ استعجالِهم به بعدَ إتيانِه حُكمًا؛ والمعنى: أَبَعدَ ما وقَعَ العذابُ، وحلَّ بكُم حقيقةً؛ آمنتُم به حينَ لا ينفَعُ الإيمانُ؟ وهذا الإنكارُ واردٌ لأجلِ أن يُقلِعوا عمّا هُم فيه مِنَ العِنادِ، ويَنصرِفوا إلى تَدارُكِ أمرِهم قبلَ فواتِ الأوانِ.

بلاغةُ توسُّطِ الجملةِ المحذوفةِ بينَ حرفِ العطفِ وبينَ الهمزَةِ:

بيانُ غَلَطِ أهلِ الشِّركِ، وإظهارُ فسادِ رأيِهم

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ مُرادٌ به زيادةُ التَّنديمِ والتَّجهيلِ؛ والمعنى: "أخبروني إنْ أتاكُم عذابُه آمنتُم به بَعدَ وقوعِه حينَ لا يَنفعُكُمُ الإيمانُ، وأصلُ الكلامِ على ما قِيلَ: إنْ أتاكُم عذابُه بياتًا أو نهارًا ووقَعَ وَتَحقَّقَ آمنتُم، ثُمَّ جِيءَ بحرفِ التَّراخي بَدَلَ الواوِ؛ دلالةً على الاستبعادِ، ثُمَّ زيدت أداةُ الشَّرطِ دلالةً على استقلالَه بالاستبعادِ"[1].

وقال ابنُ عاشورٍ: "والمُستَفهَمُ عنه هو حصولُ الإيمانِ في وقتِ وُقوعِ العذابِ، وهذا الاستِفهامُ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ بمعنى التَّغليطِ وإفسادِ رأيِهم، فإنَّهُم وعَدوا بالإيمانِ عندَ نُزولِ العذابِ؛ استِهزاءً منهم، فَوَقَعَ الجوابُ بمُجاراةِ ظاهِرِ حالِهم وبيانِ أخطائِهم؛ أي: أتؤمنونَ بالوعدِ عندَ وُقوعِه على طريقةِ الأسلوبِ الحكيم"[2].

دلالةُ حرفِ العطفِ (ثُمَّ):

إيمانُ المشركينَ بالعذابِ حينَ نُزولِه بعدَ إنكارِه أغرَبُ وأعجَبُ مِن استعجالِهم بِهِ

جِيءَ بحرفِ العطفِ (ثُمَّ) مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ المُفيدِ التَّراخيَ؛ دلالةً على الاستبعادِ، والمرادُ: استبعادُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/134.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/194.

وُقوعِ هذا العذابِ؛ و"لأنَّ إيمانَهُم بالعذابِ الَّذي كانوا يُنكِرون وُقوعَه حينَ وُقوعِه بِهِم أغرَبُ وأهَمُّ مِنِ استعجالِهِم بِهِ"(1).

دلالةُ ﴿إِذَا﴾:

إيمانُ المُشركينَ عِندَ نُزولِ العَذابِ إيمانٌ اضطِراريٌّ لا يُقبَلُ

﴿إِذَا﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ شرطيَّةٌ، وهي "دالَّةٌ على استقلالِه بالاستِبعادِ، وعلى أنَّ الأوَّلَ كالتَّمهيدِ لَهُ، وجيءَ بـ (إذا) مُؤكَّدةً بـ﴿مَا﴾ تَرشيحًا لِمَعنَى الوقوعِ وزيادَةً للتَّجهيلِ، وأنَّهُم لَم يؤمِنوا إلّا بعدَ أن لَم يَنفعْهُمُ الإيمانُ البتَّةَ"(2).

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

تقريرُ مضمونِ الاستِخبارِ في نفسِ السّامِعِ

الجملةُ الشَّرطيَّة في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، "اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمضمونِ الاستخبارِ، وقيلَ: الجوابُ قَولُه تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ إلى آخر الآية، والاستفهاميَّةُ الأولَى اعتراضٌ، والمعنى: أَخبِروني إنْ أتاكُم عَذابُه آمَنتُم به بعدَ وقوعِه، حينَ لا يَنفعُكُمُ الإيمانُ"(3).

نُكتةُ عدمِ التَّصريحِ بفاعلِ ﴿وَقَعَ﴾:

الاحترازُ عن العبثِ في الكلامِ مِن مَعالِمِ البلاغة

لَم يُصرَّحْ بفاعلِ الفعلِ ﴿وَقَعَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، بَل أُضمِرَ - وهو مُسنَدٌ إليه -، والمرادُ: العذابُ الموعودُ؛ وذلك لِعدمِ الفائدةِ مِنَ التَّصريحِ بِهِ؛ لكونِه مَعلومًا، وهو واقِعٌ في جوابِ الاستفهامِ، فتركُ التَّصريحِ به في هذا المقامِ هو من بابِ الاحترازِ عن العبَثِ في الكلامِ؛ وهوَ ممّا نُزِّهَ القرآنُ الكريمُ عنه.

مَوقِعُ جملةِ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾:

التَّصديقُ حالَ مُعاينةِ عذابِ الإهلاكِ غيرُ نافِعٍ آنئذٍ

جملةُ ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ؛ لِوقوعِها جوابَ شَرطٍ غيرِ جازمٍ(4)، والظَّرفُ مُتعلِّقٌ بـ﴿ءَامَنتُم﴾، وفي الكلامِ حذفٌ تقديرُهُ: أتُؤَخّرونَ إلى أن تؤمِنوا بها، وإذا وَقَعَ العذابُ وعايَنتُموه فما

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/194.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

(4) صافي، الجدول: 11/143.

فائِدَةُ الإيمانِ؟ وما نَفعُكُم فيه إذا كانَ لا يَنفَعُ حينذاكَ. قال ابنُ جريرٍ الطّبريّ: "أَهُنالِكَ إذا وَقَعَ عذابُ اللّه بِكُم - أيُّها المشرِكونَ - ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ يقولُ: صدّقتُم به في حالٍ لا يَنفَعُكُم فيها التَّصديقُ"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ الحكيمِ:

بيانُ تغليطِ المُشركينَ وإفسادِ رأيِهِم

الأسلوبُ الحكيمُ هو: تلقّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُهُ، ولما كانَ المُستَفهَمُ عنه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ "هوَ حُصولَ الإيمانِ في وقتِ وقوعِ العذابِ، وهذا الاستِفهامُ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ بمعنى التَّغليطِ وإفسادِ رأيِهِم، فإنَّهُم وعَدوا بالإيمانِ عندَ نُزولِ العذابِ؛ استِهزاءً مِنهُم، فَوَقَعَ الجوابُ بمُجاراةِ ظاهِرِ حالِهِم وبيانِ أخطائِهِم؛ أي: أتُؤمِنونَ بالوعدِ عندَ وُقوعِه على طريقةِ الأسلوبِ الحكيم"[2].

وجاءَ هذا ردًّا عليهِم مِن قَبيلِ مُجاراةِ الخَصمِ لِما يَبدو مِن ظاهِرِ حالِه، فَهُم قد استَعجَلوا نُزولَ هذا العذابِ، فأجابَهُم بغَيرِ ما يَتَوَقَّعونَ: أئِذا نزَلَ آمنتُم بِه، والإيمانُ لَم يرِدْ بخاطِرِهِم على الإطلاقِ.

دلالةُ الباءِ في: ﴿بِهِۦٓ﴾:

اختصاصُ العذابِ بِمَنْ قَدَّرَ اللّه تعالى نُزولَه بِهِم

قولُ اللّه تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾، الباءُ لا ينفكُّ عنها معنى الإلصاقِ، والتَّعبيرُ بها في هذه الآيةِ يفيدُ أنَّهُم آمنوا بهذا العذابِ الَّذي نَزَلَ بهِم، وصارَ مُلاصِقًا لَهُم، والضَّميرُ يَعودُ على وقوعِ العذابِ الموعودِ، واختصاصِه بهِم لا بغيرِهِم.

غَرَضُ الاستفهامِ ونوعُه:

إيغالُ المُشركينَ في التَّكذيبِ والاستهزاءِ

الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ "استفهامٌ إنكاريٌّ عَن حُصولِ إيمانِهِم عندَ حلولِ ما تَوَعَّدَهُم، فَعَبَّرَ عن وقتِ وقوعِه باسمِ الزَّمانِ الحاضِرِ وهو ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾؛ حكايةً للسانِ حالِ مُنكِرٍ عليهِم في ذلكَ الوقتِ استحضَرَ حالَ حُلولِ الوَعدِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/122.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/194.

كأنَّه حاضِرٌ في زمنِ التَّكلُّم، وهذا الاستحضارُ مِن تَخييلِ الحالةِ المُستَقبَلَةِ واقِعَةً"[1].

ويرى أبو السُّعود أنَّ قولَه تعالى: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾ استئنافٌ مِن جهتِه تعالى غيرُ داخلٍ تحتَ القَولِ المُلَقَّن، مَسوقٌ لِتقريرِ مَضمونِ ما سَبَقَ على إرادةِ القولِ؛ أي: قِيلَ لَهُم عندَ إيمانِهم بعدَ وقوعِ العذابِ: آلآنَ آمَنتُم بهِ؟ إنكارًا لِلتَّأخيرِ وتَوبيخًا عليه؛ ببيانِ أنَّه لَم يَكُن ذلكَ لِعَدَمِ سَبقِ الإنذارِ به، ولا للتَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ في شأنِه، ولا لِشَيءٍ آخرَ - ممّا عسى أنْ يُعَدَّ عُذرًا في التَّأخيرِ - بل كان ذلكَ على طريقِ التَّكذيبِ والاستعجالِ به على وجه الاستهزاءِ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيّةِ:

إبـرازُ المعـاني في صـورِ الأشـيـاءِ المُـشَـخَّـصـةِ، يُقَوّي ثُبوتَها في ذهنِ المُتَلَقِّين

الاستعارةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ مكنيَّةٌ، حيثُ شُبِّه فيها الزَّمنُ المستقبَلُ بزمنِ الحالِ استحضارًا لَهُ، ورُمِزَ إليه بذكرِ لازِمِه، وهو اسمُ الزَّمنِ الحاضِرِ ﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾، وإثباتُه له تخييلٌ، وهو قرينةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ الَّتي عَمِلَت على تشخيصِ الزَّمانِ المُستَقبَلِ وحُضورِه ووُقوعِه حالًا.

دلالةُ الواوِ على الحالِ: ﴿وَقَدۡ﴾:

اسـتِـعـجـالُ الكُفّارِ العذابَ كـان عـلى وجه التَّكذيبِ والإنكارِ مِنهُم

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ واوُ الحالِ، والجملةُ بعدَها حاليَّةٌ، قال الزَّمخشريُّ: "يعني: وقد كُنتُم به تُكَذِّبونَ؛ لأنَّ استعجالَهُم كان على جهةِ التَّكذيبِ والإنكارِ"[3].

قال السَّمينُ الحلبيُّ: "قلتُ: فَجَعَلَه مِن بابِ الكنايةِ؛ لأنَّه دِلالةٌ على الشَّيءِ بلازِمِه نحو: هو طويلُ النِّجادِ؛ كَنيتَ به عن طولِ قامتِه؛ لأنَّ طولَ نِجادِه لازِمٌ لِطولِ قامتِه، وهو بابٌ بليغٌ"[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/194.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/241.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/218.

فقولُه تعالى: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾؛ أي: تكذِيبًا واستهزاءً، وهي جملةٌ وقعَتْ حالًا مِن فاعِلِ ﴿ءَامَنتُم﴾ المقدَّرِ؛ لِتشدِيدِ التَّوبيخ والتّقريعِ وزيادةِ التَّنديم والتَّحسير[1].

استِعجالُ المُشركِينَ العذابَ، وسُرعةُ طَلَبِهِم وُقوعَهُ، دلالةٌ على عدمِ تقديرِ العواقِبِ

دلالةُ (قد) على التّحقيقِ في السّياقِ الدّقيقِ:

جاءَ الحرفُ (قَد) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ لبيانِ تحقيقِ استعجالِهِم، والحديثِ عَن سُرعَةِ طَلبِهِم وُقوعِ هذا العذابِ، وإذا دَخَلت (قد) على الأفعالِ؛ دلَّ ذلكَ على قوَّتِها، وزيادةِ تأكيدِ هذه الأفعالِ، وما نيطَ بها مِن مُتَعَلّقاتٍ ارتبطَت بها.

بيانُ الاهتمامِ بالوعدِ الّذي كذَّبَ به المُعانِدونَ

نُكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِهِۦ﴾:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، ولم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ: (وقد كنتُم تستَعجِلونَ بِهِ)؛ وذلكَ لإرادَةِ الاهتمامِ بالوعدِ الَّذي كذَّبوا بِهِ.

استحضارُ مَقالةِ المُشرِكينَ الشّنيعةِ، تدُلُّ على أنّ الزّيغَ فيهِم طبيعةٌ

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾:

في التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ استحضارُ الصّورةِ الماضيةِ - صورةِ استعجالِهِمُ العذابَ - وتَجدُّدُ هذا الاستعجالِ مِنهُم، والمُرادُ مِن ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: تُكذِّبونَ لا تَستعجلونَ، إلّا أنَّه وُضِعَ مَوضِعَهُ؛ لأنَّ المرادَ به الاستعجالُ السّابقُ، وهوَ ما حَكاه سبحانَه عَنهُم بقولِه تعالى: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾، وكانَ ذلكَ تَهكُّمًا منهم وتَكذيبًا واستِبعادًا، وفي العُدولِ استحضارٌ لِتلكَ المَقالةِ الشَّنيعَةِ، فَيَكونُ أبلَغَ مِن تُكذِّبونَ[2].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإتيانُ والمَجيءُ:

الإتيانُ: مَجيءٌ بسهولةٍ، ومنه قِيلَ لِلسَّيلِ المارِّ على وجهِهِ: أَتِيٌّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/153.

وأَتاوِيٌّ، والإتيانُ يُقالُ لِلمجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويُقالُ في الخيرِ وفي الشَّرِّ، وفي الأعيانِ والأعراضِ، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40][1]. أمّا المجيءُ وإنْ كان كالإتيانِ إلّا أنَّه أعمُّ منهُ، وهو "يُقالُ اعتبارًا بالحصولِ، ولِمَن قَصَدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا"[2]. وقال أبو هلال العسكريُّ: "الفرقُ بينَ قولِكَ: جاءَ فُلانٌ وأَتى فُلانٌ؛ أنَّ قولَكَ: جاءَ فُلانٌ، كلامٌ تام لا يحتاجُ إلى صِلَةٍ، وقولكَ: أتى فُلانٌ، يقتضي مَجيئَه بشيءٍ، ولِهذا يُقالُ جاءَ فلانٌ نَفسُه، ولا يُقالُ أتى فُلانٌ نفسه، ثُمَّ كَثُرَ ذلكَ حتَّى استُعمِلَ أحدُ اللَّفظَينِ في مَوضِعِ الآخرِ"[3].

المجيءُ يُقالُ لِمَن قَصَدَ مكانًا أو عملًا أو زمانًا، وهو أعمُّ مِنَ الإتيانِ

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 330.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾ [يونس: 52]

الـرّبـط بـينَ عـذابِ الدّنيا وعـذابِ الخلدِ في الآخرةِ، وهو أشدُّ وأنكى

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كانَ ما تقدَّمَ ذِكرُه مِنَ العذابِ هوَ العَذابَ الدُّنيويّ؛ أُتبِعَ بالإعلامِ أنَّ العذابَ الدُّنيويَّ ليسَ هوَ ما يُقتصَرُ عليه في جزائِهم، وإنَّما يَلحَقُهُم عذابُ الآخرةِ أيضًا، فقال اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخُلْدِ﴾: أصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازَمَةِ، فيُقالُ: خَلَدَ: أقامَ، وأخلَدَ أيضًا. ويقولونَ رَجُلٌ مُخلَدٌ ومُخلِدٌ، إذا أبطأَ عنه المَشيبُ؛ لأنَّ الشَّبابَ قد لازَمَه ولازَمَ هو الشَّبابَ[2]. ويُقالُ أخلَدَ إلى الأرضِ إذا لَصِقَ بها. والخُلْدُ: مِن أسماءِ الجِنانِ، والخُلودُ: البقاءُ فيها[3]. والخَلَدُ: البالُ، تقولُ: ما يَقَعُ ذلك في خَلَدي؛ وسُمِّيَ بذلك لأنَّه مُستَقِرٌّ في القلبِ ثابِتٌ[4]. والمقصودُ بالخُلدِ في الآيةِ: الثَّباتُ الدّائمُ والبقاءُ اللّازمُ الَّذي لا يَنقطِعُ[5].

2) ﴿تَكْسِبُونَ﴾: أصلُ (كسب): يدُلُّ على ابتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابةٍ. يُقالُ: كَسَبتُ الشَّيءَ؛ أي: طَلَبتُهُ[6]، ومِنه الكَسبُ: وهو ما يتَحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نَفعٍ، وتَحصيلُ حظٍّ، كَكَسبِ المالِ، وقد يُستعمَلُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّه يَجلِبُ مَنفعةً، ثمَّ استُجلِبَ به

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/138.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خلد).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/110.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).

مَضرَّةٌ. والكَسبُ يُقالُ فيما أخذَه لنَفسِه ولغيرِه؛ ولهذا قد يَتعدَّى إلى مَفعولَين، فيقالُ: كَسَبتُ فلانًا كذا. والاكتِسابُ لا يُقالُ إلّا فيما استفدتَه لنفسِكَ[1]. ويُطلَقُ الكَسبُ على الجرحِ؛ أي: فِعلُ الشَّيءِ بالجارحةِ، والكَواسِبُ: الجَوارحُ مِنَ الإنسانِ والطَّيرِ[2]. والمرادُ بالكَسبِ في الآيةِ: ما يُحصِّلُه المَرءُ بعلمِه لإرادةِ نَفعِ نفسِه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الجزاءُ لا يكونُ إلّا جزاءَ الكفرِ والعصيانِ

يُبَيِّنُ اللّه تعالى في الآيةِ أنَّه يُقالُ يومَ القيامةِ للَّذين ظلَموا أنفُسَهم: تجرَّعوا العَذابَ الدّائمَ الَّذي لا ينقَطِعُ، فهل يُجازيكم اللّه إلّا بما كُنتُم تَعملونَ في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي؟[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في السّياقِ:

بيانُ مَنزِلَةِ عذابِ الآخرةِ مِن عذابِ الدُّنيا، وأنَّه أعظَمُ وأشَدُّ

﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ عاطِفَةٌ على (قيلَ) المَقدَّرةِ قَبلَ ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾؛ لِتَوكيدِ التَّوبيخ، وهي مُستَعمَلَةٌ هُنا في معنى التَّراخي الرُّتبيِّ، فهذا عذابٌ أعظمُ مِنَ العذابِ الَّذي في قولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا﴾ [يونس: 50]، فإنَّ ذلِكَ عذابُ الدُّنيا، وأمّا عذابُ الخُلدِ فهو عذابُ الآخرةِ، وهذا أعظَمُ مِن عذابِ الدُّنيا، فذلِكَ مَوقِعُ عطفِ جُملَتِه بحَرفِ (ثُمَّ)[4].

دلالةُ التَّعبيرِ عن المُستَقبَلِ بالفعلِ الماضي: ﴿قِيلَ﴾:

ما أخبَرَ اللّه ﷻ بكونِهِ؛ فهوَ كائِنٌ لا مَحالَةَ

الفعلُ الماضي ﴿قِيلَ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ يُرادُ به المستقبَلُ، والمعنى: ثُمَّ يُقالُ للّذينَ ظلَموا، وفي

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كسب).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (كسب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/191، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/514، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 366.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/195، 194.

التَّعبيرِ بالماضي عنِ المستقبَلِ إشعارٌ بتحقُّقِ الوقوعِ، حيثُ نُزِّلَ ما يكونُ مَنزلَةَ ما هوَ كائنٌ بالفعلِ، وذلك مُشعِرٌ بصِدقِ القائِلِ، وعظيمِ قُدرَتِه على إيجادِ ما يُريدُ كَونَهُ، وقد وردَ هذا الأسلوبُ - وهو التَّعبيرُ عنِ المُستقبَلِ بالفعلِ الماضي - كثيرًا في القرآنِ الكريمِ، ومنه قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النّحل: 1].

نُكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿قِيلَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه:

ظُهورُ ظُلمِ أهلِ الشّركِ، ووُضوحُ استِحقاقِهِمُ العذابَ في الآخرةِ

بُنِيَ الفعلُ ﴿قِيلَ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُه لِلعِلمِ بِهِ؛ إمّا بنسبَةِ القولِ إليه ﷻ، أو بنسبَةِ القولِ إلى الملائكةِ الموكَّلةِ بحشرِهم ومُجازاتِهم. ويجوزُ أن يكونَ الفعلُ ﴿قِيلَ﴾ قد بُنِيَ للمَفعولِ؛ لإرادَةِ العُمومِ؛ أي: يقولُ لَهُم ذلكَ كُلُّ مَن يتأتَّى منه القولُ؛ لظهورِ ظُلمِهِم لكلِّ أحدٍ، ووُضوحِ استِحقاقِهِم هذا الجزاءَ.

دلالةُ اللّامِ في شبهِ الجملةِ ﴿لِلَّذِينَ﴾:

أشدُّ النّاسِ استِحقاقًا لِعذابِ الخُلدِ هُمُ المُشرِكونَ

اللّامُ في ﴿لِلَّذِينَ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أفادَتِ التَّخصيصَ؛ أي: قِيلَ لَهُم خاصَّةً لِتكذيبِهِم؛ إذْ هُمُ المَخصوصونَ بهذا التَّوبيخِ والتَّقريعِ لا أحَدَ سِواهُم.

والاسمُ الموصولُ (الّذين) دالٌّ على العُمومِ، والمَعنى: ثُمَّ قِيلَ لكلِّ الظّالِمينَ ذوقوا عذابَ الخلدِ، ويجوزُ أن يكونَ هذا العُمومُ مُرادًا به الخصوصُ، وهُمُ الظّالمونَ الكاملونَ في الظُّلمِ؛ وهُمُ المشرِكونَ الشِّركَ الأكبَرَ، لا عمومَ مَن وَقَعَ في أيِّ ظُلمٍ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصِلَتِه:

تَقريعُ المُشرِكينَ لِوَضعِهِم الكُفرَ مَوضِعَ الإيمانِ، والتَّكذيبَ مَوضِعَ التَّصديقِ

التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ لزيادَةِ تقريرِ الغَرضِ المَسوقِ له الكلامُ؛ وهوَ زيادةُ تقريعِهم وإهانَتِهم بَعدَ أن وضَعوا الكُفرَ والتَّكذيبَ مَوضِعَ الإيمانِ والتَّصديقِ، أو ظَلَموا أنفسَهم بتعريضِها لِلعذابِ والهلاكِ، فاستَحقّوا أنْ يُعبرَّ عَنهُم بما تضمَّنَته الصِّلَةُ، وهي ﴿ظَلَمُواْ﴾.

سرُّ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ:

الشِّركُ أعظَمُ أسبابِ سوءِ العاقِبَةِ في الآخرة

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾، وضعُ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ وذلك لأنَّ مُقتضَى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ قيلَ لَهُم ذوقوا عذابَ الخُلدِ)، والنُّكتَةُ في العُدولِ عنِ المُضمَرِ إلى المُظهَرِ: "تسجيلُ وصفِ الظُّلمِ عليهِم، وهو ظُلمُ النَّفسِ بالإشراكِ، ومعنى ظَلَموا: أشرَكوا"[1].وفيه إيذانٌ "بكونِ التَّكذيبِ ظُلمًا، أو بعلِّيَّتِه لإصابَةِ ما أصابَهُم مِن سوءِ العاقبةِ، وبدخولِ هؤلاءِ الظّالمينَ في زُمرتِهِم جُرمًا ووعيدًا دخولًا أوّليًّا"[2].

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ عن الإحساسِ بالعذابِ بتذوُّقِه:

عَذابُ المُشرِكينَ في الآخرةِ مُتَزايِدٌ لا حَدَّ لِمُنْتَهاهُ

الذَّوقُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ مُستعمَلٌ مجازًا في الإحساسِ بحاسَّةِ اللَّمسِ، وهو مُجازٌ مُرسَلٌ، بعلاقةِ الملزوميَّةِ؛ إذِ الإحساسُ لازِمٌ للذَّوقِ.

وجائزٌ أن تكونَ الآيةُ مِن قبيلِ الاستعارةِ؛ وذلك لكونِ الذَّوقِ أقوى الحواسِّ المباشِرَةِ للجسمِ، فيُشبَّه به إحساسُ الجلدِ، فيكونُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ.

وفي التَّعبيرِ بالذَّوقِ وعيدٌ عظيمٌ؛ حيثُ جُعِلَ ما هُم فيه مِنَ العذابِ الأليمِ الشَّديدِ بمَنزِلَةِ الذَّوقِ الّذي هوَ مُقدِّمَةٌ للطَّعامِ، فكذلكَ عذابُهُم الّذي يُقاسونَهُ، يَعقُبُه ألوانٌ مِنَ العذابِ أشدُّ ممّا هُم فيه، كما يُشيرُ إلى ذلكَ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النَّبأ: 30].

نُكتةُ إضافةِ العذابِ إلى الخُلدِ:

شِدَّةُ عذابِ المُشركينَ ودوامُهُ، مِن أشدِّ البلاءِ وأقساهُ

في إضافةِ العذابِ إلى الخُلدِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ إيماءٌ إلى استِمرارِهِ، فهو عذابٌ دائِمٌ مُؤلِمٌ لا يَنقَطِعُ عنهُم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/195.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/153.

أبدًا، كما قال الله سُبحانَهُ: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: 36].

والأمرُ بالذَّوقِ في قوله: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ دالٌّ على تَحقيرِ شَأنِهِم والتَّهَكُّمِ بِهِم، والمرادُ: هذا العَذابُ الَّذي كُنتُم تَستَعجِلونَه سُخريةً واستهزاءً ذوقوهُ؛ خالِدينَ فيهِ، لا يَنقَطِعُ عنكُم أبدَ الآبِدينَ.

علّةُ الفَصلِ في: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ﴾:

فَطاعَةُ عذابِ المُشركينَ في الآخرةِ، على قَدرِ ما اكتَسَبوه مِنَ الآثامِ في الدُّنيا

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِشِبهِ كمالِ الاتّصالِ، وهو المُسمَّى الاستئنافَ البيانيَّ، وذلكَ أنَّ قولَ اللّه سُبحانَهُ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ واردٌ جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ مِنَ الجُملةِ السّابقةِ؛ والمعنى: ماذا كانَ الرَّدُّ بَعدَ أن قيلَ لَهُم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾، وما السَّبَبُ الدّاعي لإذاقَتِنا هذا العذابَ، فكانَ الجوابُ والرَّدُّ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، قال ابنُ عاشورٍ: "وجملةُ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ جملةَ: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ تُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِهِم عَن مِقدارِ ذلكَ العذابِ، فيكونُ الجوابُ على أنَّه على قَدرِ فَظاعَةِ ما كَسَبوه مِنَ الأعمالِ مَعَ إفادةِ تعليلِ تسليطِ العذابِ عليهِم"(1).

دلالةُ الاستفهامِ في جملةِ الاستفهامِ ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ﴾:

الشِّركُ والتَّكذيبُ أعظمُ أسبابِ التَّعذيبِ

جاءَ الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ بحرفِ الاستفهامِ ﴿هَلۡ﴾، وهيَ هنا بمعنى النَّفيِ؛ والتَّقديرُ: ما تُجزَونَ هذا إلّا بِسببِ ما ارتَكبتموه مِن أعمالِ الشِّركِ والتَّكذيبِ واستعجالِ العذابِ.

فالاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/195.

استفهامٌ إنكاريٌّ؛ بمعنى النَّفي؛ أي: ما تُجزَون، فلمّا قيلَ لَهُم: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ كأنَّهم أنكروا وُقوعَه، فقالوا في أنفسِهم: ما سببُ هذِه الإذاقَة؟ فكانَ الرَّدُّ عليهم بهذا الاستفهامِ.

نُكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ:

تحقيرُ شأنِ المُشركينَ المُعذَّبينَ، والحَطُّ مِن أقدارِهِم جزاءَ أفعالِهِم

بُنِيَ الفعلُ المضارعُ ﴿تُجۡزَوۡنَ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ لِلعلم بمَن يجازيهم على أفعالِهم، وهوَ اللّه تعالى، أو الملائكةُ الموكَّلةُ بالعذابِ، ولكنَّها صادرةٌ عَن أمرِ اللّه سُبحانَهُ، ويجوزُ أن يُطوَى التَّصريحُ بالفاعلِ؛ تحقيرًا لأمرِهم وتنزيلًا لِشأنِهم.

وسُمّي الحسابُ والعقابُ جزاءً؛ لأنَّ مَن يَعملُ عَملًا إنَّما يُجازَى عليه، فأُطلِقَ المُسبَّبُ؛ وهوَ الجزاءُ، وأُريدَ السَّبَب؛ وهو ما ارتَكبوه مِنَ الشِّركِ والتَّكذيبِ.

بلاغةُ القَصرِ الحقيقيِّ:

العذابُ في الآخرةِ على قَدرِ الأعمالِ القبيحةِ، ومَن يعملْ سوءًا يُجزَ بِهِ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ قَصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حَقيقيًّا، وهو قَصرُ صفةِ الجزاءِ على كسبِ الأعمالِ القبيحةِ والأفعالِ الشَّنيعةِ مِنَ الشِّرك والتَّكذيبِ بالوعدِ معَ استعجالِ وقوعِه استهزاءً وسخرية عليهم، وهذا القصرُ واقِعٌ بالنَّفي والاستثناء، وهو أبلغُ طُرقِ القصرِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ اللّه سُبحانَه لم يظلِمهُم، وأنَّه إنَّما أوقَعَ عليهم مِنَ العذابِ ما يُقابِلُ قبيحَ أفعالِهِم.

دلالةُ الباءِ و(ما) في: ﴿بِمَا﴾:

الذُّنوبُ والمَعاصي يُعذَّبُ بِها الآخذُ بالنّواصي

الباءُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ لِلسَّببيَّة، و(ما) اسمُ موصولٌ بمعنى: الّذي، والعائدُ محذوفٌ، والمعنى: هل تُجزَونَ إلّا بِسببِ الَّذي كَسَبتُموه مِنَ المعاصي والذُّنوبِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالكَسبِ مادَّةً وصيغَةً:

جاءَ التَّعبيرُ بالكسبِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، و"الكَسبُ: الفعلُ العائِدُ على فاعِلِه بنفعٍ أو ضُرٍّ، وقال بعضُهم: الكَسبُ ما وقَعَ بمراسٍ وعِلاج، وقال آخرونَ: الكَسبُ ما فُعِلَ بجارِحَةٍ، وهو الجرحُ، وبه سُمّيَتْ جوارحُ الإنسانِ جَوارِحَ، وسُمّيَ ما يُصادُ به جَوارِحَ وكَواسِبَ"[1]، ولَمّا وقعَت من هَؤلاءِ الذُّنوبُ والمعاصي وُصِفَتْ هُنا بأنَّها مَكاسِبُ أيديهم وهوى أنفسِهم، ومُكتَسِبُ الشَّيءِ مَجزيٌّ به، والمرادُ: استمرَرتُم على كَسْبِه في الدُّنيا من أصنافِ الكُفرِ الّتي مِن جُملَتِها ما مَرَّ مِنَ الاستعجالِ، وزادَ غيرُ واحدٍ في البيانِ سائرَ أنواعِ المعاصي بناء أنَّ الكُفّارَ مُخاطَبونَ بفروعِ الشَّريعةِ، فَيُعذَّبونَ على ذلكَ[2]. فلمّا كانوا مُصرِّينَ على كفرِهم وعصيانِهم؛ جُعِلَ ذلك كَسبًا بالنِّسبةِ لَهُم.

الإصرارُ على الكفرِ والعصيانِ، جُعِلَ كأنّه كَسبٌ بالنِّسبَةِ لَهُم

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الكَسبُ والفِعلُ والعَمَلُ والصُّنعُ:

الكَسبُ: "ما يَتَحراه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نَفعٍ، وتَحصيلُ حَظٍّ، كَكَسبِ المالِ، وقد يُستَعمَلُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّه يَجلِبُ مَنفَعَةً، ثُمَّ استُجلِبَ به مَضَرَّةٌ. والكَسبُ يقالُ فيما أَخذَه لِنفسِه ولِغيرِه، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولَينِ"[3].

مِن سعةِ العربيّةِ اختِصاصُ كُلِّ لفظٍ بدلالةٍ تُمَيِّزُه عمّا يُقارِبُه

أمّا الفعلُ فهو "عبارةٌ عَمّا وُجِدَ في حالٍ كانَ قبلَها مَقدورًا، سواء كانَ عن سببٍ أو لا"[4].

وقال الرّاغِبُ: "الفِعلُ: التَّأثيرُ مِن جِهَةِ مُؤَثِّرٍ، وهوَ عامٌّ لِما كانَ

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 143.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/153.
(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 138.

بإجادَةٍ أو غَيرِ إجادَةٍ، ولِما كانَ بعلم أو غيرِ علمٍ، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كانَ مِنَ الإنسانِ والحيوانِ والجماداتِ، والعمل مثلُه، والصُّنعُ أخصُّ منهُما"[1].

(العَمَلُ): إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ، يُقالُ: فُلانٌ يَعمَلُ الطّينَ خَزَفًا، ولا يُقالُ: يَفعلُ[2].

وعندَ الرّاغبِ: "كُلُّ فِعلٍ يكونُ مِنَ الحيوانِ بقصدٍ، فهو أخصُّ مِنَ الفعلِ؛ لأنَّ الفِعلَ قد يُنسَبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يقعُ منها فِعلٌ بغيرِ قصدٍ، وقد يُنسَبُ إلى الجماداتِ، والعملُ قلَّما ينسَبُ إلى ذلكَ، ولَم يُستعمَلِ العملُ في الحيواناتِ إلا في قولهم: البَقَرُ العَوامِلُ، والعملُ يُستَعمَلُ في الأعمالِ الصّالحةِ والسَّيِّئَةِ"[3].

وأمّا الصُّنعُ فهو تَرتيبُ العملِ وإحكامُه على ما تقدَّمَ عِلمٌ بِهِ، وبما يوصِّلُ إلى المُرادِ منهُ، ولذلكِ قِيلَ للنَّجّارِ صانِعٌ، ولا يُقالُ للتّاجِرِ صانِع؛ لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ علمُه بما يُريدُ عَمَلَه مِن سريرٍ أو بابٍ، وبالأسبابِ الَّتي توصِّلُ إلى المُرادِ مِن ذلكَ، والتّاجرُ لا يَعلَمُ، فالعملُ لا يَقتضي العِلمَ بما يَعمَلُ له، والصُّنعُ أيضًا مُضَمَّنٌ بالجودَةِ، ولهذا يُقالُ: ثَوبٌ صنيعٌ وفُلانٌ صَنيعَةُ فلانٍ؛ إذا استخصَّه على غيره[4].

وفي مُفرداتِ الرّاغبِ: "الصُّنعُ: إجادةُ الفعلِ، فكلُّ صُنعٍ فِعلٌ، وليسَ كلُّ فعلٍ صُنعًا، ولا يُنسَبُ إلى الحيواناتِ والجماداتِ، كما يُنسَبُ إليها الفعلُ، قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [النّمل: 88]، يُقالُ للحاذِقِ المُجيدِ: صَنَعٌ، وكما قيل: يَدٌ صَناعٌ"[5].

(1) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 140.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 141.
(5) الرّاغب، المفردات: (صنع).

﴿۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِن مَقاصِدِ التَّهديدِ رَدُّ المُعانِدِ عن العِنادِ إلى مبادِئِ الانقيادِ

لمّا انقَضى ما اشتَمَلَت عليه الآيةُ المُتقدِّمَةُ مِنَ التَّهديدِ والوعيدِ؛ بيَّنَ اللّه سُبحانَه أنَّهم آلوا إلى ما هو حقيقٌ بسامِعِ ذلكَ مِنَ النُّزولِ عن ذلك العِنادِ إلى مبادِئِ الانقيادِ، فقال اللّه سُبحانَهُ: ﴿۞وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: أصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ. يُقالُ للَّذي يَنبَأُ مِن أرضٍ إلى أرضٍ نابئٌ. وسَيلٌ نابِئٌ: أتَى مِن بَلَدٍ إلى بَلَد، ورَجُلٌ نابِئٌ مِثلُه. ومِنه النَّبأُ: الخبرُ؛ لأنَّه يأتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ. والمُنبِئُ: المُخبِرُ. وأنبأتُه ونَبَّأتُه. والنَّبأةُ: الصَّوتُ؛ لأنَّ الصَّوتَ يجيءُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، ومَن هَمَزَ النَّبيَّ فلأنَّه أنبأ عن اللّه تعالى[2]. والنُّبوَّةُ: سِفارَةٌ بينَ اللّه وبينَ ذوي العُقولِ مِن عِبادِه لإزاحةِ عِللهم في أمرِ مَعادِهم ومَعاشِهم. وتَنَبَّأَ فلانٌ: ادَّعى النُّبوَّةَ[3]. والاستِنباءُ: الاستِخبارُ[4]، والمقصودُ بالاستنباءِ في الآيةِ: طلبُ النَّبأ، وهو الإخبارُ بأمرٍ غائبٍ[5].

2) ﴿إِي﴾: حرفُ جوابٍ يتعقَّبُه القَسَمُ، وهو بمعنى: نَعَم. ومنه قولهم: إي واللّه. ولو قِيلَ لكَ: أقامَ زيدٌ؟ قلتَ: إي وسكت، أو: إي قامَ زيدٌ لم يجز؛ لعدمِ وجودِ القسَمِ. وبعضُهم يُعبِّرُ عنها بأنَّها كلمةُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/139.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نبأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(4) الصّاغانيّ، التّكملة: (نبأ).
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1030.

موضوعةٌ لتحقيقِ كلامٍ مُتقدِّم، نحو: "إي وربّي". وقد كَثُرَ ورودُ هذه الكلمةِ حتّى حذفوا جملتي القَسَم وجوابِه، وأبقوا حرفًا موصولاً بإي، فيقولون: أي، ويريدون: إي واللّه[1]. والمرادُ بـ ﴿إِي﴾ في الآيةِ: حَرفُ جَوابٍ يُحَقَّقُ به المَسؤولُ عنهُ[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

يطلبُ المشركونَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ أخبارًا عَن هذا اليوم، يوم القيامة، وما يَلقى النّاسُ فيه، وما أعدَّ اللّه للأخيارِ منهُم مِن ثوابٍ، وما رصَدَ للأشرارِ من عقابٍ، فإذا تحدَّثَ النَّبيُّ إليهم بشيءٍ مِن هذا، عقَّبوا على ذلكَ مُستهزئِينَ ساخرينَ؛ بقولهم: (أحقٌّ هو؟) أي: أهذا الَّذي تُحدِّثُ به هو حقٌّ وجدٌّ؟ أم أنَّك تكذبُ وتهزلُ؟ إنَّهم لا يُصدِّقونَ بهذا اليومِ، ومع هذا فَهُم يَستنبِئونَ عن أخبارِه. متى هو؟ وأينَ هو؟ وكيفَ هو؟ وذلك كلُّه على سبيلِ الاستهزاءِ والسُّخرية. فقُلْ لهم يا محمَّدُ ﷺ: نَعَم، وأُقسِمُ بربّي إنَّ ما وعَدتُكم به لَحَقٌّ واقعٌ، لا شكَّ فيه، وما أنتُم بفائِتي اللّه؛ فهو قادرٌ عليكم[3].

وَعدُ الله تعالى حقٌّ ثابتٌ، وواقعٌ حاصِلٌ، لا يعجزُه شيءٌ، ولا يتأبّى عليه مَأمورٌ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواوِ في: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾:

عُطِفَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ على ما سَبقَ لِكونها "حِكايةَ فنٍّ مِن أفانينِ تكذيبِهم، فَمَرَّةً يتظاهرونَ باستبطاءِ الوَعدِ استخفافًا بِهِ، ومرَّةً يُقبِلونَ على الرَّسولِ في صورةِ المُستَفهِمِ الطّالِبِ فيسألونَهُ: أهذا العذابُ الخالدُ؛ أي: عذابُ الآخرةِ، حقٌّ. فالجملةُ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾"[4].

سُلوكُ الكُفّارِ أفانينَ مُختَلِفَةً في التَّكذيبِ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (إي)، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/191، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/351، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 366، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1030.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/195.

هلاكُ المُكَذِّبينَ في الاستهزاءِ والسُّخريةِ بالنّبيِّ الأمينِ

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاستِنباءِ:

يقولُ الآلوسيُّ: "الاستنباءُ: بمعنى طَلَبِ النَّبأ حقيقةَ، لكنْ لا عن الحَقيقةِ ومُقابِلِها بالمعنى المتَبادَرِ؛ لأنَّهُم جازِمونَ بالثّاني، بَلِ المُرادُ مِن ذلك الجِدُّ والهَزلُ، كأنَّهُم قالوا: إنّا جازِمونَ بأنَّ ما تقولُه كَذِبٌ، لكِنّا شاكّونَ في أنَّه جِدٌّ منكَ أم هَزلٌ، فأخبِرْنا عن حقيقةِ ذلكَ"[1].

فَلَم يقولوا: أنبِئنا، بَل حَكَى القرآنُ استِفهامَهُم واستِخبارَهُم عنه كثيرًا، فصارَ في الأسلوبِ مُفاعَلَةٌ مُستمرَّةٌ لا تَنقَطِعُ تهكُّمًا واستهزاءً، فَمُطالَبَتهم بالاستِخبارِ عنه دائمةٌ مُتجدِّدةٌ، فكأنَّهُم راجَعوه مرّاتٍ ومرّاتٍ: مَتَى هذا الوعدُ؟ والنَّبأ: "خبرٌ ذو فائدَة عظيمةٍ يَحصُلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ لِلخبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتَّى يتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الَّذي يُقالُ فيه نَبَأٌ أن يتعرَّى عنِ الكذبِ، كالتّواتُرِ، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﵊، ولتضمُّنِ النَّبَإِ معنى الخبرِ يُقالُ: أنبأتُه بكذا، كقولِكَ: أخبرتُه بِكَذا، ولِتضمُّنِه معنى العِلمِ قِيلَ: أنبأتُه كذا"[2].

ودخولُ السِّينِ والتّاءِ على فعلِ النَّبأ، فصارَ استنباءً على سبيلِ التَّهكُّمِ والاستهزاءِ، كما هو مَعروفٌ عنهُم وعن حالهم، كأنَّهُم أكثَروا مِن سُؤالِهم واستِخبارِهِم مِنَ النَّبيِّ ﷺ.

تَعيينُ مَرجِعِ الضَّمائِرِ، يُجَلِّي المعنى ويوَضِّحُ المقصودَ

مَرجِعُ الضَّمائرِ في الفعلِ ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾:

واو الجماعةِ في قولِ اللّه ﷿: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ راجِعَةٌ إلى المُستَنبِئينَ لا غَيرِهِم، والكافُ فيه ضميرُ خطابٍ للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه هوَ المسؤولُ عنِ الإخبارِ بهذا النَّبأ.

المَوقِعُ النَّحويُّ لجملةِ: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾:

الهمزةُ في قولِ اللّه ﷿: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ لِلاستِفهامِ الإنكاريِّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/153.

(2) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

أثرُ الإعرابِ في تبيانِ المعاني المُستترَة، يبرزُ الدّلالةَ، ويُفصِحُ عنِ المرادِ

استهزاءً وتَهَكُّمًا، و(حَقٌّ) خبرٌ مُقدَّمٌ، و﴿هُوَۖ﴾ مُبتدأٌ مُؤخَّرٌ، والجملةُ في محلِّ نصبِ مفعولٍ بِه لـ ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾، وقيلَ: في مَحلِّ نَصبٍ بـ﴿وَيَقُولُونَ﴾، وتكون جملةُ ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ مُتَعَدّيةً لمفعولٍ واحدٍ، والأصلُ في استَنبأَ تَعَدّيه إلى مفعولَين، الأوَّلُ: الكافُ، والآخرُ: جوابُ هذا السُّؤالِ.

بلاغةُ الاستفهامِ في: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾:

تعريضُ المُشرِكينَ الباطلُ ببُطلانِ مَوعودِ الله سُبحانَه لهم

الاستفهامُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ "على جهةِ الإنكارِ والاستهزاءِ، وقرأ الأعمش: (آلحقُّ هو)[1]، وهو أدخَلُ في الاستهزاءِ؛ لتضمُّنِه معنى التَّعريضِ بأنَّه باطلٌ، وذلكَ أنَّ اللّامَ للجِنسِ، فكأنَّه قِيلَ: أهوَ الحقُّ لا الباطلُ؟ أو أهو الّذي سَمَّيتُموه الحقَّ"[2].

يقولُ ابنُ عاشورٍ: "والحقُّ: الثّابتُ الواقِعُ، فهو بمعنى حاقٍّ؛ أي: ثابتٍ؛ أي: أنَّ وُقوعَه ثابتٌ، فأسندَ الثُّبوتَ لِذاتِ العذابِ بتقديرِ مُضافٍ يدُلُّ عليه السّياقُ؛ إذ لا توصَفُ الذّاتُ بثُبوتٍ، وجملةُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ استفهاميَّةٌ مُعَلِّقَةٌ فِعلَ ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ عن العملِ في المفعولِ الثّاني، والجملةُ بيانٌ لِجملةِ ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ﴾؛ لأنَّ مَضمونَها هوَ الاستثناءُ"[3].

سرُّ تقديمِ المُسنَدِ ﴿أَحَقٌّ﴾ على المسنَدِ إليه﴿هُوَۖ﴾:

براعةُ البيانِ القُرآنيّ في التَّصرُّفِ بالألفاظِ والمعاني

﴿أَحَقٌّ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ، و﴿هُوَۖ﴾ متبدأٌ مُؤخَّرٌ، وقُدِّمَ المسندُ للاهتمامِ بِهِ، والمعنى: أنَّ الحقَّ ما تقولُ أم خِلافُهُ؟ وجَعَلَه الزّمخشريُّ مِن قَصرِ المُسندِ إليه على المُسندِ، حيثُ قال: "كأنَّه قِيلَ: أهو الحقُّ لا الباطِلُ، أو أهوَ الّذي سمَّيتُموه الحقَّ[4]"، وأشارَ بالتَّرديدِ إلى أنَّ الغرضَ مِن هذا الوجه لا يَختلِفُ جَعلُ الحصرِ حَقيقيًّا تهكُّمًا أو

(1) ابن جنيّ، المحتسب في تبيين وجوه شواذِّ القراءات: 1/312.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/241.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/241.

ادِّعائيًّا، واعترُض ذلك بأنَّه مُخالِفٌ لِما عليه عُلماءُ المعاني في مثلِ هذا التَّركيبِ؛ "إذ المعنى هنا: حَصرُ العذابِ في الحقيقةِ لا حَصرُ الحقيقةِ في العذاب، وهوَ المُناسِبُ"[1].

علَّةُ الفصلِ في: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾:

أمرُ النَّبيِّ الأكرمِ بالبلاغِ مِن غَيرِ اكتراثٍ لاستهزاءِ المُعانِدينَ

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّ بينَ الجملتَينِ شبهَ كمالِ الاتّصالِ، وهوَ المسمَّى: الاستئنافَ البيانيَّ، وذلك أنَّ قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أثارَ سُؤالًا، وهو: فما كانَ جوابُ النَّبيِّ ﷺ، فقيلَ: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾، والمعنى: قُلۡ لَهُم غيرَ مُكترِثٍ باستهزائِهم مُغضيًا عمّا قَصدوا بانيًا للأمرِ على أساسِ الحكمةِ: نَعَم إنَّ ذلكَ العذابَ الموعودَ ثابتٌ لَكُم[2].

فائِدَةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿قُلۡ﴾:

إكرامُ النّبيِّ ﷺ بتَوَلّي الرَّدِّ على مَقالاتِ المُشرِكينَ

جاءَ فِعلُ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾ موجَّهًا للنَّبيِّ ﷺ على جِهَةِ الإلزامِ بالرَّدِ على سُؤالِهم واستخبارِهم عَن حَقيقَةِ هذا العَذابِ، وأنَّ الرَّدَّ منه ﷻ إكرامًا له ﷺ، ولَم يَكُنۡ مِن قِبَلِ نَفسِه، بَلۡ جاءَ الجوابُ تلقينًا لَهُ؛ ليَكونَ الرَّدُ حاسِمًا.

دِلالةُ: ﴿إِي﴾:

خُصوصِيَّةُ الواوِ بالقسمِ، وأثرُها في المعنى

﴿إِي﴾ مِن قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾ حرفُ جوابٍ وتصديق، بمعنى: نَعَم، ولا تُستعمَلُ إلّا في القسم خاصَّةً، والواوُ في ﴿وَرَبِّيٓ﴾ واوُ القسم، وتأتي إذا لَم يُذكَرۡ معها فِعلُ القسم، و(ربّي) مجرورٌ بها، وهُما مُتعلِّقانِ بفعلِ قسمٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: قُلۡ أُقسِمُ بربّي.

نُكتةُ توالي المؤكِّداتِ:

مُلاءَمَةُ قوَّةِ التَّوكيدِ؛ لِشدَّةِ إنكارِ المُشرِكينَ

أُكِّدَ الجوابُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ بأتمِّ وجوهِ التَّأكيدِ، حسَبَ شدَّةِ إنكارِهِم، "فأكَّدَ الجوابَ بالتَّوكيدِ اللَّفظيِّ؛ إذۡ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/136.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 11/136.

جَمَعَ بينَ حَرفِ ﴿إِي﴾، وهوَ حرفُ جوابٍ يُحَقَّقُ به المسئولُ عَنهُ، وبينَ الجملةِ الدّالَّةِ على ما دلَّ عليه حرفُ الجوابِ، وبالقسم، وإنَّ، ولامِ الابتداءِ، وكُلُّها مُؤَكِّداتٌ، والاعتبارُ الثّاني: اعتبارُ قَصدِهِم مِن استِفهامِهِم، فأُجِيبوا بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾"[1].

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ:

المُتَعَيِّنُ سُلوكُ طريقِ الاسترشادِ لا الاستهزاءِ

اشتَمَلَ الجوابُ المأمورُ به في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ على مُراعاةِ الحالَتَينِ، فاعتَبَرَ أوَّلًا ظاهِرَ حالِ سُؤالِهِم، فأُجيبوا على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، بِحَملِ كلامِهم على خلافِ مُرادِهِم؛ تنبيهًا على أنَّ الأَولَى بِهِم سؤالُ الاسترشادِ تَغليطًا لَهُم، واغتنامًا لِفُرصةِ الإرشادِ، بناءً على ظاهِرِ حالِ سؤالِهِم، والاعتبارُ الثّاني: اعتبارُ قصدِهِم مِنِ استفهامِهِم فأُجيبوا بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾[2].

دلالةُ الواوِ في ﴿وَمَآ﴾:

بيانُ عَجزِ أهلِ الشِّركِ والكُفرِ عن الخلاصِ مِن عذابِ الله تعالى

الواوُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ إمّا عاطفةٌ لهذه الجملةِ على جملةِ جوابِ القَسم، أو حاليَّةٌ، أو استئنافيّةٌ، والجملةُ مُستأنَفَةٌ سِيقَتْ لبيانِ عَجزِهِم عنِ الخلاصِ، مَعَ ما فيه مِنَ التَّقريرِ المذكورِ[3]، والخلاصُ هنا خُلوصُه من عذابِ اللّه بأيِّ وجهٍ مِنَ الوجوهِ؛ أي: إنَّ هذا العذابَ واقِعٌ لاحِقٌ بِكُم لا خلاصَ لَكُم منه أبدًا.

نُكتةُ تقديمِ النَّفيِ بالأداةِ ﴿وَمَآ﴾:

بيانُ أنّ لُحوقَ العذابِ أهلَ الشِّركِ، سيكونُ لُحوقًا لا مَهرَبَ لَهُم مِنهُ

قُدِّم النَّفيُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لإرادةِ تخصيصِهِم بالوصفِ الَّذي وُصِفوا بِهِ، ولو أُخِّرَ النَّفيُ لكانَ فيه إخلالٌ بالمعنى، فلا يكون لهُم، وإنَّما لِغيرِهِم، وهُمُ المخصوصونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/154.

بذلكَ مَعَ إفادَةِ الثّباتِ والدَّوامِ في نسبَةِ المسندِ إليه، وهيَ نِسبَةُ نفيه عن المسنَدِ إليهِ؛ لأنَّ الخُصوصيّاتِ الَّتي تُعتَبرُ في حالةِ الإثباتِ تُعتَبَرُ في حالةِ النَّفي، إذِ النَّفيُ إنّما هو كيفيّةٌ للنِّسبَةِ، والخصوصيّاتُ مُقتضياتُ أحوالِ التَّراكيب، وليسَ يختلفُ النَّفيُ عن الإثباتِ لا في اعتبارِ القُيودِ الزّائدَةِ على أصلِ التَّركيب، فإنَّ النَّفيَ يُعتَبَرُ مُتوجِّهًا إليها خاصَّةً، وهيَ قيودُ المُخالَفةِ وإلّا بطلَتْ خصوصيّاتٌ كثيرَةٌ مفروضةٌ مَعَ الإثباتِ؛ إذ صارَ الكلامُ المُشتَمِلُ عليها مَنفيًّا مِثل إفادةِ التَّجدُّدِ في المُسنَدِ الفِعليِّ، والمعنى: وما هُم بفائتينَ العَذابَ بِالهَرَبِ، وهو لاحِقٌ بهِم لا محالةَ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ (مُعْجِزينَ) مادَّةً وصيغَةً:

بيانُ دوامِ انتِفاءِ العجزِ عن الفِرارِ مِن عذابِ الله سُبحانَهُ

قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾، والباءُ دالَّةٌ على المُصاحبة، والمعنى: وما أنتُم بمصاحِبينَ العجزَ بالفواتِ أو الهربِ. و﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ مِنَ العَجزِ، و"أصلُهُ: التَّأَخُّرُ عن الشَّيءِ، وحُصولُه عِندَ عَجُزِ الأمرِ؛ أي: مُؤخَّرِه، وصارَ في التَّعارُفِ اسمًا للقُصورِ عَن فِعلِ الشَّيءِ، وهوَ ضِدُّ القُدرَةِ، وأَعجَزتُ فُلانًا وعَجَّزتُه وعاجَزتُهُ: جَعلتُه عاجِزًا"[2]. والهمزَةُ في فعلِ (أعجَزَ) الّذي اشتُقَّ منه (مُعجِزٌ) دالَّةٌ على التَّعديَةِ، وقوله: ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾، أي: جاعِلينَ مِن طَلَبِكُم عاجزًا عَنكُم غَيرَ قادرٍ على إدراكِكُم. وإيثارُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسم الفاعِلِ على المُستقبَلِ، فلم يَرِدِ النَّظمُ القرآنيُّ مثلًا: (وما أنتُم تعجزونَنا)؛ للإيذانِ بِكونِه حقًّا، ولِلدّلالةِ على الدَّوامِ الَّذي يفيدُه العدولُ عن الفِعليَّةِ إلى الاسميّةِ، وهذا الدَّوامُ مُتوجِّهٌ إلى النَّفي، فالمُرادُ: دوامُ انتفاءِ الإعجازِ، والمُعجِزونَ: الغالِبونَ؛ أي: وما أنتُم بغالِبينَ الَّذي طَلَبَكُم؛ أي: بِمُفلِتينَ[3].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/154، والآلوسيّ، روح المعاني: 11/136.

(2) الرّاغب، المفردات: (عجز).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/196.

فائدةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ (مُعْجِزِينَ):

تَعذُّرُ مُمانَعَةِ الرَّبِّ سُبحانَه ومُدافَعَتِهِ، عمّا أرادَه وقضاهُ

مفعولُ اسم الفاعلِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ محذوفٌ، والتَّقديرُ: بمُعجِزينَ اللّه تعالى، وقِيلَ: ما أنتُم ممَّن يُعجِزُ مَن يُعَذِّبُكُم.

ويجوزُ أن يكونَ قد استُعمِلَ استعمالَ اللّازمِ؛ لأنَّه قد كثُرَ فيه حَذفُ المفعولِ، حتَّى قالتِ العربُ: (أعجزَ فلانٌ)؛ إذا ذَهَبَ في الأرضِ، فَلَم يُقدَرْ عليهِ[1]، والغرضُ مِنَ المحذوفِ "التَّنبيه على أنَّ أحدًا لا يجوزُ أنْ يُمانِعَ ربَّهُ، ويُدافِعَه عمّا أرادَ وقضى، ثمَّ إنَّه تعالى بيَّنَ أنَّ هذا الجِنسَ مِنَ الكلماتِ، إنَّما يجوزُ عليهم ما داموا في الدُّنيا، فأمّا إذا حَضَروا مَحفِلَ القيامةِ، وعايَنوا قَهرَ اللّه تعالى، وآثارَ عَظَمَتِه تَركوا ذلكَ، واشتَغَلوا بأشياءَ أُخرَى"[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(يَستَنبِؤونَكَ) و(يَسأَلونَكَ):

حِكايَةُ حالِ أهلِ الشِّركِ في استنبائِهِم، وهو لفظٌ أبلَغُ مِن لفظِ السّؤالِ، في هذا السّياقِ

النَّبَأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصُلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ لِلخبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتَّى يَتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وحقُّ الخبرِ الَّذي يُقالُ فيه نبأٌ أَن يَتعرَّى عن الكَذِبِ، كالتّواتُرِ، وخَبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النَّبيِّ ﷺ، ولِتَضمُّنِ النّبأ معنى الخبرِ يُقالُ: أنبأتُه بكذا، كقولِكَ: أخبرتُه بكذا، ولِتضمُّنِه معنى العِلمِ، قِيلَ: أنبَأتُه كذا[3].

والاستِنباءُ: استفعالٌ مِن الإنباءِ، وهوَ الاستخبارُ مرّاتٍ ومرّاتٍ على جهةِ المُفاعَلَةِ؛ مُبالغةً في كثرةِ السُّؤالِ عَن وقوعِ العذابِ ووقتِهِ.

والسُّؤالُ: استِدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفةِ، واستِدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤدّي إلى المالِ، فاستِدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللِّسانِ،

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/221.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/117.
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

واليدُ خليفةٌ لَه بالكتابةِ أو الإشارةِ، واستِدعاءُ المالِ جوابُه على اليدِ، واللِّسانُ خليفةٌ لها إمّا بوعَدٍ أو بِرَدٍّ. فإنْ قِيلَ: كيفَ يَصِحُّ أنْ يُقال السُّؤالُ يكونُ للمعرفةِ، ومعلومٌ أنَّ اللّه تعالى يسألُ عبادَهُ، فالجوابُ: إنَّ ذلكَ سُؤالٌ لِتعريفِ القوم وتَبكيتِهم، لا لِتعريفِ اللّه تعالى، فإنَّه علّامُ الغيوبِ، فليسَ يخرجُ عن كونِه سُؤالًا عنِ المعرِفةِ، والسُّؤالُ للمعرفةِ يكونُ تارةً للاستعلامِ، وتارَةً للتّبكيتِ، والسُّؤالُ إذا كانَ للتّعريفِ تعدَّى إلى المفعولِ الثّاني تارَةً بِنَفسِه، وتارَة بالجارّ، تَقولُ: سَألتُه كذا، وسألتُه عَن كذا وبكذا، واستعمالُ (عَنْ) أكثرُ، وإذا كانَ السّؤالُ لاستدعاءِ مالٍ فإنَّه يتعدَّى بنفسِه، تقولُ: سألتُه مالًا أو عطاءً[1].

ومجيءُ الاستِنباءِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَيَسْتَنْبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ﴾ أبلغُ مِنَ السُّؤالِ حكايةً لِحالَتِهِمُ التَّكذيبيَّةِ واستهزائِهِمُ المتَكَرِّرِ لاستِعجالِ العذابَ، وكَونِه حقًّا لا مِراءَ فيه تهكُّمًا وسُخريةً، كما هوَ دأَبُهُم وهِجّيراهُم.

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل).

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٥٤﴾ [يونس: 54]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القيامةُ حقٌّ وعذابُ الظّالمين ثابتٌ؛ لأنَّه حقُّ المظلومين في رقابِ الظّالمين

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها وجهان:

الأول: لَمّا ذكر اللّه تعالى أنَّ العذاب حقٌّ في الآية السابقة، وأمر نبيَّه أن يُقسم على حقيقته ﴿وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾، وأنَّ المشركين لا يفلتون منه، إذ لا منجى لهم من اللّه، ولن يعجزوه هربًا، ولا شفاعةً من أحد ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ ذكر في هذه الآية بعضَ أحوال الظالمين في الآخرة، وامتناعَ افتداءِ كلِّ نفس من العذاب؛ لامتناع مُلْكِها لما تَفتدي به، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾[1].

الثاني: لَمّا أخبر اللّه بحقيقة يوم القيامة وأنَّه واقع لا محال، حسُن التَّذكير بما كان من النّاسِ من الظلم في الدنيا، وذلك عند معاينة العذاب وطلبِهم بالسماح لهم ببذل جميع ما في الأرض ليفتدوا أنفسهم دون غيرهم، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٱفۡتَدَتۡ﴾: الفاءُ والدالُ والحرف المعتلُّ كلِمَتانِ متباينتان جدًّا؛ فالأولى: أنْ يُجعلَ شيءٌ مكانَ شيءٍ حِمًى لهُ، والأُخرى: شيءٌ من الطعام[3]. والفِدى والفِداء: حفظُ الإنسان عن النّائِبَةِ بما يبذله

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/72، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5988.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فدي).

عنه[1]، ويقال: فَداه وفاداهُ؛ إذا أعطى فداءَه، فأنقذه، وفَداهُ من الأسر؛ إذا استنقذه بمالٍ أو غيره، فخلَّصه ممّا كان فيه، واسم ذلك المال: الفِديةُ، والفِدية والفِدى والفِداء كلُّه بمعنى واحد، وافتدى: قدَّم الفِدية عن نفسه، وتَفادى فلانٌ من كذا: إذا تَحاماه وانزوى عنه[2]، وتَفادى القومُ: فَدى بعضهم بعضًا، واستَتَرَ بعضُهم ببعضٍ مَخافةً[3]، وكلُّ ما في القرآن من التركيب من الفِداء أو الفِدية: هو ما يُقدَّم لدفع ضُرٍّ لَزِمَ، كالأسْر، والذَّبح، وعُقوبةِ الذنب[4]،ومعنى ﴿لَٱفۡتَدَتۡ﴾: لجعلتْ ما في الأرض من خزائنَ وأموالٍ ومنافعَ فديةً لها لتُنْقِذَ نفسها وتخلِّصها من عذاب الله.

2) ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾: النون والدال والميم: كلمةٌ تدلُّ على تَفَكُّنٍ[5] لشيء قد كان، يُقال: نَدِم على الشيء نَدَمًا ونَدامة: أسِفَ، فالنَّدم والنَّدامة بمعنًى واحد، والتَّنَدُّمُ: التَّحَسُّر[6]، ونَدِم على ما فعل: أَسِفَ وحَزن وَكَرِهَ الشيء بعد ما فعله، وتَنَدَّم على الأمر: تحسَّر عليه أو على فعله إيّاه[7]، فالنَّدم، غمٌّ يصحبُ الإنسان يتمنّى أنَّ ما وقع منه لم يقعْ، وحقيقةُ النادم أنْ يلومَ نفسه على تفريطٍ وقعَ منه، وأصل النَّدم: الإحساسُ بفقدِ مُعظَمِ شيءٍ أو كلِّهِ مع العجز عن استدراك ما فات[8].

ومعنى ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي.

3) ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: القافُ والسينُ والطاءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنيين متضادَّين والبناء واحد، يُقال: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فهو مُقْسِطٌ؛ إذا عدل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فهو قاسِطٌ؛ إذا جار، فالقِسْطُ بالكسر: العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42]، والمُقْسِطُ: في أسماء الله تعالى: هو العادل[9]، والقُسوط: الميل عن الحقِّ، والإِقْساطُ: العدل في القسمة والحكم، والقِسْطُ: الحصَّة والنّصيب، وتقَسَّطوا بينهم الشيء:

(1) الراغب، المفردات، ص: 627.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (فدي).
(3) الخليل، العين: (فدي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فدي).
(5) التَّفكُّنُ هو التَّندُّمُ.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ندم).
(7) الفيومي، المصباح المنير، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (ندم).
(8) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ندم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قسط).

اقتسموه بالتسوية والعدل(1)، والقِسْطُ أيضًا: المِيزانُ، سُمّي به؛ لأنَّه يعدل هذا الجانب منه بهذا، ومن ذلك جاء الإقساطُ: العدلُ في القسمة كأنَّما هو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه(2). ومعنى ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ في الآية: بالعدل، وبالحقِّ الذي يوزن فيه بميزانٍ دقيقٍ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها(3).

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مصيرُ الظّالمين في الآخـرةِ النَّدامةُ اللّازمةُ والعذابُ الشَّديد

يبيِّن اللّه تعالى أنَّ هول القيامةِ سيكون فوق ما تدركه عقول من كفروا بذلك اليوم، واستهزؤوا به، وأنَّه لو تحقَّق لكلِّ نفس ظلمت بالشرك والعناد، والاعتداء، والشهوات مُلكُ جميع ما في الأرض لبذلته يوم القيامة؛ لتفتديَ به من عذاب اللّه تعالى، ولن يكونَ لها ذلك، ولو قَدرتْ ما قُبِلَ منها(4)، ولشدَّة هذا العذاب الذي عاينه هؤلاء الكفارُ استسلموا، ولم يقدروا على الكلام؛ لأنَّهم بُهتوا؛ لِعِظَم ما دَهَمَهم، فلم يُطيقوا بكاءً ولا شِكايةً ولا شيئًا ممّا يفعله الجازع، وقضى اللّه فيهم بالعدل، وقضى بين الظالمين والمظلومين، والظالمين والأظلمين، فلا يُظلم في مملكتِه أحدٌ وإن كان كافرًا(5).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَلَوۡ أَنَّ﴾:

التحذير وبيان الأحـوال يعينان على الارتداع

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ عاطفةٌ؛ عطفتْ هذه الآية على قوله سبحانه: ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾، إذ إنَّ هذه الآية من بقيَّة القول؛ إعلامًا لهم بهولِ ذلك العذابِ عساهم أن يحذروه، ولذلك حُذِف المتعلَّقُ الثاني

(1) الخليل، العين، والزَّبيدي، تاج العروس: (قسط).
(2) الجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسط).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 11/120، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.

لفعل (افْتَدَتْ)؛ لأنَّه يقتضي مُفْدِيًا به، وَمُفْدِيًا منه، أي: لافتدت به من العذاب[1].

وتحتمل أن تكون الواوُ استئنافيةً على اعتبارِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ هو استئنافٌ في الحديث عن أحوال الظّالمين يوم القيامة، إثر الحديث عن إنكارهم له في الدُّنيا.

نكتةُ استعمال ﴿وَلَوۡ﴾:

امتناعُ افتداء كلِّ نفسٍ من العذابِ؛ لامتناعِ ملكها لما تفتدي به

﴿وَلَوۡ﴾ أداةُ شرطٍ تفيد التعليق في الماضي، وتختصُّ به، وتسميتُها بالشَّرط مجازٌ؛ لشبهها بالشرط من جهة أنَّ فيها ربطَ جملةٍ بجملة[2]، فقد ربطتْ جملة الشرط ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بجملة جواب الشرط ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: يدلُّ على امتناع الجواب لامتناع الشرط، والمعنى: امتنعَ افتداء كلِّ نفسٍ ظالمة لامتناع مُلْكِها لِما تفدي به ذاتها، وهو جميع ما في الأرض من أموالٍ ومنافع، ولامتناع قَبولِ ذلك منها فيما لو ملكته على سبيل الفَرْض[3].

دلالةُ استعمال ﴿أَنَّ﴾:

الظّالمُ يستهينُ بأهوالِ الحسابِ فتأكيدُها خطابًا يُثبتُها حجَّةً

استعمل البيانُ القرآنيُّ ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾؛ لغرضين:

الأول: إفادة توكيد الجملة الاسميَّة (ما في الأرض كائن لكلِّ نفس) بما يحقِّق إيجازًا؛ إذ إنَّها تقومُ مقامَ تكرير الجملة.

الثاني: توضيحُ المعنى المُراد منها، وهو أنَّه لو امتلكت كلُّ نفسٍ أشركت ما في الأرض ملكًا ثابتًا ثبوتًا مؤكَّدًا لا شكَّ فيه؛ لافتدت به من عذاب اللّه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

(2) ابن نور الدين، مصابيح المغاني في حروف المعاني، ص: 193.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/85.

معنى اللّام: ﴿لِكُلِّ﴾:

طلبُ الافتداءِ بملك الأرضِ جميعه برهانُ العذابِ الشَّديد

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾: هي لامُ الملك، والمعنى: ولو أنَّ ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها - على كثرتها - هو ملكٌ للنَّفسِ الظالمة؛ لافتدت به، أي: جعلته فديةً لها من عذابِ اللّه يوم القيامة، وهذا إشارةٌ إلى شدَّة العذاب يوم القيامة، فالنَّفس لا تفتدي نفسها بما تحقِّقُ مُلْكها له إلا عند شدَّة العذاب وتحقُّقه.

الغرضُ من تقديم الجارِّ والمجرورِ: ﴿لِكُلِّ﴾:

تفاهةُ الدُّنيا وما فيها؛ لأنَّها لا تُغني عن ساعةِ عذاب

قدَّمتِ الآيةُ المسندَ خبر ﴿أَنَّ﴾ وهو الجار والمجرور ﴿لِكُلِّ﴾ على المُسند إليه اسم ﴿أَنَّ﴾ وهو ﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، إذ ترتيب الكلام على مقتضى الظّاهر الصناعيِّ: (ولو أنَّ ما في الأرض لكلِّ نفس)؛ وسببُ تقديمِ الجارِّ والمجرور الاهتمامُ بالخبر، وبما فيه من العموم، بحيث ينصُّ على أنَّه لا تسْلَمُ نفسٌ أشركتْ من ذلك[1] السُّلوكِ لو تحقَّق لها يومَ القيامة، فإنَّ هولَ القيامةِ يجعل الظّالمين في رتبةٍ واحدةٍ من تمنّي الافتداء للخلاصِ، فليس لأحدٍ أن يخالف في رأيه؛ لما في الأمر من شديد العذاب، وكبير العقاب.

دلالةُ استعمالِ أداةِ العموم ﴿لِكُلِّ﴾:

عـدلُ اللـه مطلقٌ، فما يجري على نفسٍ واحدةٍ يجري على جميعها

استعملَ البيانُ القرآنيُّ أداةَ العموم ﴿لِكُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يقلْ: (ولو أنَّ لكم ما في الأرض؛ لافتديتم به) أو (لجميعهم ما في الأرض) لأمرين:

الأول: تهويلُ الأمر، وتفظيعُ الحال[2].

الآخر: الدَّلالة على العموم، أي: إنَّ "هذا العذاب لا تتحمَّله

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 3/298.

أيَّة نفسٍ على تفاوت الأنفس في احتمال الآلام"[1]، وعمومُ ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ يشمل نفوس المخاطَبين مع غيرهم[2]، وهذا العموم يشير إلى العدل الإلهيِّ المطلق، وإلى أنَّ الاستثناء في حقِّ الظّالمين يوم القيامةِ ممتنعٌ، فلا يُقبل من أيِّ نفسٍ ظالمة فديةٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ النَّفسَ الإنسانيَّة لا تتغيَّر بطرائقِ تفكيرِها، ولا بأساليب البحث عن خلاصِها، كما أنَّ فيه إشارةً إلى خبرٍ غيبيٍّ، فإنَّ هذا العمومَ يلفُّ جميعَ الأنفسِ من غير استثناءٍ، فما يجري على آحادِها يجري على جميعِها.

لفظُ (نفسٍ) يشملُ الإنسَ والجنَّ ويُشيرُ إلى قوَّة الإرادة التي حرّكتها في الدُّنيا

سرُّ استعمالِ: ﴿نَفْسٍ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿نَفْسٍ﴾ في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يأتِ بغيرها من الألفاظ المرادفة لها، فلم يقل مثلًا: (إنسان)، أو (امرؤ)، أو غيرها من الألفاظ، وذلك لأمرين اثنين:

الأوَّل: أنَّ لفظ ﴿نَفْسٍ﴾ أدلُّ على العموم؛ إذ يشمل كلَّ مكلفٍ من الإنس والجنِّ.

الآخر: أنَّ لفظَ نفسٍ يدلُّ على الذاتِ وقواها الداخلية من فعلٍ وإرادةٍ واختيار، وهو أنسبُ للسياق هنا؛ إذ الكلام عن يوم القيامة، وعذابِ النَّفس التي ظلمت بفعلها واختيارها وإرادتها، ومحاولتها الافتداء من عذاب اللّه بكلِّ ما تملك.

أقلُّ ما يصدق عليه لفظُ الظُّلمِ داخلٌ في الوعيدِ

سرُّ التَّعبير بالتَّركيبِ الوصفيِّ ﴿نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾:

عبَّر القرآن بهذا التركيب الوصفيِّ في قوله تعالى: ﴿نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾، ولم يقل: (لكلِّ ظالم)؛ للإشارة إلى النفس التي ظلمت بأيِّ نوعٍ من أنواع الظلم سواءٌ بالشِّرك، أم التعدِّي على الآخرين، أم غير ذلك من أصناف الظلم، ووقع منها هذا الظلم، ولو مرَّة واحدة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

حسبما يفيدهُ كون الصفة فعلًا[1]، فإنَّ التَّعبيرَ بالتَّركيبِ الوصفيِّ يدلُّ على عمومِ الظُّلم الصّادر عنها، ولو قال: (لكلِّ ظالم)؛ لاحتمل ذلك أن يُرادَ به ظالمٌ ذو مواصفات كاملة في الظُّلم، والمرادُ هو الظُّلم المتحقِّق بقطع النَّظر عن كثرته وتكراره، ففيه تحذيرٌ من وخيم أمر الظُّلمِ بذكر سوء عاقبتِه.

نكتةُ إيثارِ صيغة الفعل الماضي ﴿ظَلَمَتۡ﴾:

العادلُ المُقسِطُ سبحانهُ يعاقبُ على وقوعِ أدنى ظلمٍ مهما كان قليلًا

آثرَ البيانُ الإلهيُّ وصفَ ﴿نَفۡسٍ﴾ بصيغة الفعل الماضي ﴿ظَلَمَتۡ﴾، ولم يأتِ بالوصف اسمًا، فلم يقل: (ولو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظالمة)؛ للدَّلالة على الآتي:

الأوَّل: الإيماءُ إلى تحقُّقِ فعل الظُّلم وانقضاءِ مدَّته، وأنَّه قد حانَ وقتُ المحاسبة عليه في اليوم الذي لا ظلم فيه.

الثّاني: أنَّه سبحانه العادل المقْسِط يعاقب على وقوع أدنى ظلم مهما كان قليلًا، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: 8]، بخلاف ما لو أتى الوصفُ اسمًا؛ فإنَّه يُتوهَّم أنَّه لا يُحاسب على الظلم إلا من تحقَّق وصفه بالظالم، أي: من أصبح الظلمُ صفةً ملازمةً له.

الثّالث: للتناسب مع فعل ﴿لَٱفۡتَدَتۡ﴾، فالفعلان بصيغة الفعل الماضي، وهذا أكثرُ تناسبًا من أن يُقال: (ولو أنَّ لكلِّ نفس ظالمة ما في الأرض؛ لافتدت).

نكتةُ إيثار: ﴿ظَلَمَتۡ﴾:

الظلمُ سببُ الشِّركِ وفسادِ الحياةِ، وهو يشملُ الشِّركَ وغيرَه

آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمال لفظ ﴿ظَلَمَتۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ دون (أشركت) أو (كفرت) مع أنَّ الحديث عن المشركين؛ لثلاثة أمور:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

الأول: الدَّلالة على العموم، لتشمل كلَّ أنواعِ الظلم، وأوَّلها وأعظمها الشرك باللّٰه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، والمعنى: "ظلمت بالشركِ والعنادِ والاعتداءِ والشهوات، وغير ذلك من الظلم، وهو ظلماتٌ يومَ القيامة"(1)، ولو عبَّر بالشرك؛ لاقتصر الوصفُ عليه فقط.

الثاني: كون الظلمِ واختلالِ ميزانِ العدل سببًا لفسادِ الحياة، وتعطُّل حركتها، ونزول العقاب على الجميع، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: 25]، فإن لم يردع اللّٰه ﷻ الظالمَ في الدُّنيا قبل الآخرة؛ لاستشرى الظلم، وإذا استشرى الظلم في مجتمعٍ؛ أخذَ كلُّ إنسان حقَّ غيره، وفسدَ المجتمعُ كلُّه(2)، "فإنَّ اللّٰه يقيمُ الدولةَ العادلة، وإنْ كانت كافرة، ولا يقيمُ الدولةَ الظالمة، وإنْ كانت مسلمة"(3).

الثالث: مناسبة هذا اللفظ لفاصلة الآية ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾، للإشارة إلى أنَّهم رغم ظلمهم، فإنَّهم لا يُظلمون؛ فحُكمُ اللّٰه فيهم هو العدل؛ وجزاءُ سيئةٍ بمثلها.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول ﴿مَا﴾:

تـضـاؤلُ الـدُّنيا بجميعِ نعيمها إلى جانبِ عذابِ الله

استعملَ البيانُ القرآنيُّ الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لإفادة العموم، أي: كلُّ ما في الأرض؛ لأنَّ الظرفية هنا ظرفيةُ جمعٍ واحتواءٍ(4)، والمعنى: لو أنَّ لكلِّ نفسٍ ظلمتْ كلَّ شيءٍ في ظاهر الأرض وباطنها، وما في الدنيا كلّها من خزائنها وأموالها، وجميع نفائسها ومنافعها على كثرتها(5)؛ لافتدتْ به من عذاب اللّٰه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3591.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5989.
(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 28/146.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/352، والبقاعي، نظم الدرر: 9/140.

عند معاينتها له، وهذا بيانٌ لتضاؤل الدنيا بنعيمها وكلِّ ما فيها، إلى جانبِ عذاب الله تعالى[1].

دلالةُ حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾:

النَّظمُ القرآنيُّ يتناغمُ مع حقائق الوجودِ لا مع مُقتضياتِ العلومِ

دلَّ حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على الظرفيَّة، وهي ظرفيَّةُ جمعٍ واحتواء[2]، والمعنى: كلُّ شيءٍ تحتويه الأرض في ظاهرها وفي باطنها، ففيها إشارةٌ إلى ما في الأرض من معادنَ وطاقةٍ وخيراتٍ وكنوزٍ، وأنَّ الأمر ليس مقتصرًا على ظاهرِها، فدلَّ هذا الحرفُ على معنى العموم المتَّسق مع معنى عموم ألفاظ ﴿لِكُلِّ﴾ و﴿نَفْسٍ﴾ و﴿ظَلَمَتْ﴾ و﴿مَا﴾، وعدم تعبيرِ النَّظم بحرف الاستعلاءِ - وهو مقتضى الظّاهر للعلوم البشريَّة - دليلٌ على إعجاز القرآن، فإنَّ ما يقتضيه ظاهر النَّظر البشريِّ أنَّ الإنسان يفتدي بما يراه لا بما يختبئ في باطنِ الأرض، وهذا دليلٌ على أنَّ التَّعبير القرآنيَّ يتناغم مع حقائق الوجود، لا مع ما تدركه عقولُ أرباب الحِجى والنُّهى.

معنى التَّعريفِ في: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

الأرضُ بما فيها، أو الدُّنيا بماضيها لا تحجبُ عن نفسٍ عذابًا آتيها

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تفيد العموم؛ لتشمل جنس الأرض "أي: كلَّها من خزائنها ونفائسها"[3]، "ومن قليل أو كثير"[4]، "من معادنَ وزروعٍ وحدائقَ وجناتٍ ونعيم ثابتٍ وعارضٍ تملكه وما في الأرض جميعًا"[5]، وقد فسَّر أبو السعود الأرضَ بالدنيا فقال: "ما في الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة بما كثرت"[6]، وتكونُ اللّامُ في الأرضِ شبيهةً بتعريف الجنس، وعلى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/103.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3592.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

هذا التَّفسير يكون المقصودُ بالأرض الدُّنيا من خَلْقِها إلى بعثها، وهو تفسيرٌ قويٌّ يتَّسق مع الآيةِ في عمومِها، وهو أشدُّ تعبيرًا عن المرادِ من إياسِ الظّالمين من الافتداءِ.

سرُّ الاقتصارِ على ذكر الأرض دون السَّماء: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مقامُ التَّرهيبِ يُرادُ منه ثنيُ الظّالمين لا إشغالُ الجاهلين

اقتصرَ البيانُ الإلهيُّ على الأرض في قوله: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يذكر السماء؛ وذلك باعتبار ما عهدوه في الحياة الدنيا، فالذي يعرفونه هو ملكُ الإنسان لِما في الأرض من كنوزٍ وزروعٍ وجناتٍ ومعادنَ وغيرها ممّا تحتويه الأرض، ولم يسبقْ وأنْ ملكَ أحدٌ شيئًا من السماء (مِلْكَ تصرُّفٍ وبيعٍ وشراء) وإنْ كان سبحانه قد سخَّر للإنسان ما في السماء والأرض، ولكنَّه استخلفهُ على الأرض، فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30]، ولم يستخلفْه على السَّماء؛ ولهذا اقتصر على الأرض، كما أنَّ الأرض تُطلق ويُراد بها الحياة الدنيا، ولم تُطلق السماء على الحياة الدنيا.

ولقائلٍ أنْ يقولَ: لماذا لم يذكرِ السَّماء على سبيل المبالغةِ؟ والجواب: أنَّ ذلك سيكون مدعاةً للسُّخريةِ، والمقامُ مقامُ تهويل العذابِ لترهيب الظالمين، لا لفتح أبواب المناكفةِ، فكان مقتضى الحكمةِ ذكرَ الأرضِ دون السَّماء.

دلالةُ مفردة الافتداء في: ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾:

الافتداءُ إنقاذُ النَّفس بمالٍ أو غيره لتخليصها ممّا هي فيه

دلَّتْ مفردة ﴿لَٱفۡتَدَتۡ﴾ على طلبِ الخلاص من عذاب اللّه من خلال صيغتها ومادَّتها؛ أمّا صيغتها؛ فقد جاء التَّعبيرُ في القرآنِ بفعل (افتدى) دون (فدى)؛ لأنَّ في (افتدى) زيادة تاء الافتعال لتدلَّ على زيادة المعنى، أي: لتكلَّفتْ فداءها به طلبًا للخلاص[1]، كما أنَّ معنى افتدى: قدَّم الفِدْية عن نفسه[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.

(2) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (فدى).

وأمّا مادَّتها: الفِدى والفِداء؛ فهو حفظُ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه[1]، ويُقال: فَداه وفاداه؛ إذا أعطى فداءَه، فأنقذه، وفداهُ من الأسر؛ إذا استنقذه بمال، أو غيره فخلَّصه ممّا كان فيه، فالافتداء: إيقاع الشيء بدل غيره لرفع المكروه[2].

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

اجتمعَ في الواوِ معنى الاستئنافِ والعطفِ والحال

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ ثلاثة أوجه:

الأَوَّل: عاطفة، وهي عطفُ ما أسرّوه من النَّدامة على تمنّي الافتداءِ، فهي عطفُ الندمِ على التَّمني؛ لأنَّ معنى الجملة السّابقة التَّمنّي، ولمّا كان مستحيلًا؛ كان من نتيجته النَّدم عند معاينةِ العذابِ.

الثاني: استئنافية، ومعنى الاستئناف قريبٌ من معنى العطفِ، وبيان ذلك: أنَّ الاستئنافَ يُرادُ منه ابتداءُ معنًى جزئيٍّ جديد، وهذا المعنى الجزئيُّ في حقيقته معطوفٌ على كلام سابق، ولذلك قال ابن عاشور: "جملةٌ مستأنفةٌ معطوفةٌ عطْفَ كلامٍ على كلام، وضمير أسرّوا عائدٌ إلى ﴿لِكُلِّ نَفْسٍ﴾ باعتبار المعنى، وهو العموم مع تغليبِ المذكَّر على المؤنث"[3].

الثالث: حاليَّة، ذكره الآلوسيُّ بصيغة التَّضعيف، بتقدير قد[4].

وهذه الأوجه الثلاثةُ مقبولةٌ من حيث المعنى، فالاستئنافُ حاضرٌ باعتبارِه الجزئيِّ، والعطفُ حاضرٌ باعتبارِ المعنى، والحالُ حاضرٌ باعتبار مضمون المعنى، فحالُ أولئك النَّدامةُ يوم القيامة.

نكتةُ إيثار فعل: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

التَّهكُّم بالظّالمين فهم يتمنَّون إسرارَ النَّدامة لكن دون جدوى

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ دون (أخفوا)؛ لأنَّ الإسرار أوسعُ دلالةً من الإخفاء؛ إذ إنَّ الإسرار من الأضداد، فيأتي

(1) الراغب، المفردات، ص: 627.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فدي).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/197.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/130.

بمعنى أخفى، وهو المشهور، ويأتي بمعنى أظهر، ويحتمل هنا الوجهين: أمّا الإظهار؛ فإنَّه ليس بيوم تصبُّرٍ ولا تجلُّدٍ، ولا يَقْدِرُ فيه الكافر على كتمان ما نالَهُ، ولأَنَّ حالةَ رُؤيَةِ العذابِ يتحسَّرُ الإنسان على اقترافه ما أوجبه، ويُظْهِرُ النَّدامة على ما فاته من الفوز، ومن الخلاص من العذاب، وقد قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106]، قال الزمخشريُّ: "وقيل: أسرّوا النَّدامة: أظهروها، من قولهم: أسرَّ الشيءَ؛ إذا أظهره، وليس هناك تجلُّد"[1]، فيكون استعمالُ الإسرار من قبيل التَّهكُّم؛ إذ لا يستطيعون في ذلك الموقفِ إسرارَ النَّدامة، أي: إنَّهم لو استطاعوا ذلك لفعلوه، لكن ليس في ذلك اليوم شأنٌ للإسرارِ، ولا حضورٌ للإخفاءِ.

وأمّا الخفاء، فالمعنى: إخفاءُ النَّدامة هو من كونهم بُهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه، ولا خطر ببالهم، ومُعاينتِهم ما أوهى قواهم، فلم يطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صراخًا، ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار النَّدم والحسرة في القلوب[2]، وفي هذا مزيدُ ألم؛ لأنَّ "التعبير الحركيَّ لونٌ من التنفيس البدنيِّ، وحين لا يستطيعه الإنسان، فهو يتألَّمُ أكثر"[3].

ومن بلاغة هذه المفردة أنَّها تجمع بين موقفين: موقف يحصل فيه الإخفاء والكتمان، وهو قبل الاحتراق بالنار، وموقف يحصلُ فيه الإظهار، وهو أنَّهم إذا أحرقتهم النّار؛ ألهتهم عن هذا التصنُّع لمن كان يتبعهم في الدنيا، فتركوا هذا الإخفاء، وأظهروا النَّدامة، بدليل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: 106][4]، فهم في هذه الحال لا يكتمون ندمهم[5].

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمال الماضي في: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ و﴿قُضِيَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ الماضي في الفعلين: ﴿أَسَرُّواْ﴾ و﴿وَقُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾، و﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ مع أنَّ الإسرارَ لم يقعْ منهم بعدُ، فسيكون ذلك في الزَّمن المستقبل، وكذلك قضاء اللهِ سبحانه بينهم لم يقعْ بعدُ، وذلك تنبيهًا على تحقيق

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/252.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/72.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5991.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 11/225، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/352.

القيامةُ لمّا كانتْ واجبةَ الوقوع؛ أخبرَ عن مستقبلها كالإخبارِ عن الماضي

وقوعه حتى كأنَّه قد مضى، إذ القيامة لَمّا كانت واجبة الوقوع؛ جعل اللّه مستقبلها كالماضي[1]، والمعنى: وسيُسِرّون النَّدامة قطعًا، وسيُقضى بينهم قطعًا[2]، ففي الآيةِ استعارةٌ بتشبيه فعل المستقبل بالماضي على سبيل الاستعارة التَّبعيَّة.

فائدةُ العدول إلى صيغة الجمع ﴿وَأَسَرُّواْ﴾:

اجتماعُ الظّالمين في الدُّنيا فرحًا، يستحيل في الآخرة ندمًا

عدلَ البيانُ الإلهيُّ إلى صيغة الجمع ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ دون أن يقول: (وأسرَّت) العائد على ﴿لِكُلِّ نَفۡسٍ﴾ مع تحقُّق العموم في صورة الإفراد أيضًا (وأسرَّت)؛ وذلك لإفادة تهويلِ الخطب بطريق الاجتماع لَمّا رَأَوُا العذاب، ويكون الإسرارُ بطريق المعيَّة والاجتماع، ولم يراع ذلك فيما سبق؛ لتحقيق ما يتوخّى من فرض كون جميع ما في الأرض لكلِّ واحدة من النفوس[3].

والتعبيرُ بصيغة الجمع المذكَّر ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ من بابِ حمل لفظ النَّفس على الشخص، أو لتغليبِ ذكور مدلوله على إناثه[4]. ودلالةٌ أخرى وهي أنَّ الإسرارَ سيكون لمجموعاتِ الظّالمين، ذلك أنَّ الظّالم لا يتمكَّن من ظلمِه في الدُّنيا ما لم يكن له معينون وخَدَمة، فجاء التَّعبيرُ بالجمعِ لبيانِ أنَّ اجتماعَ الظالمين في الآخرة على النَّدامةِ سيكون كاجتماعِهم في الدُّنيا على الظُّلم، وفي ذلك زيادةُ تهويلٍ من شأنِ النَّدامةِ، يتناغم مع عدل اللّه تعالى، فكما اجتمع الظّالمون في الدُّنيا فرحين بصنيعهم، سيجتمعون نادمين على صنيعهم في الآخرة.

بلاغةُ تعليقِ ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ بـ: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾:

شدَّةُ النَّدامةِ عند معاينة العذابِ كتمتِ الأنفاسَ وأغلقتِ الأفواه

﴿لَمَّا﴾ بمعنى (حين) منصوب بـ ﴿أَسَرُّواْ﴾، أي: أسرّوا النَّدامة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/180.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154، والقاسمي، محاسن التأويل: 6/34.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

حين رأوا العذاب، أو حرفُ شرطٍ حُذِفَ جوابُه لدلالة ما تقدَّم عليه، وهو إسرارُ النَّدامة، أي: لَمّا رأوا العذابَ أسرّوا النَّدامة[1].

وعلى كلا الأمرين فقد علَّقَ البيانُ القرآنيُّ إسرارَ الظالمين للنَّدامة برؤية العذاب؛ إشارةً إلى شدَّة هذا العذاب، وأنَّ في رؤيتهم ومعاينتهم له من فظاعةِ الحال، وشدَّة الأهوال ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يقدروا على أن ينطقوا بشيء[2]، فأسرّوا النَّدامةَ، وحالُهم وعيونهم ونظرتهم يُظهرها من أوَّل البعث، فكيف عند رؤية العذاب، وعليه تكون الآيةُ قد أشارت إلى أنَّ إسرارَ النَّدامةِ عند رؤية العذابِ يماثل الكتمَ النَّفسيَّ واللفظيَّ عند الصَّدمةِ الأولى، فالأهوال من شأنها توريث النَّدامةِ، لكنَّ لحظة رؤية العذاب كان لها هولها الخاص، فاقتضى التَّعبير عنه بإسرار النَّدامة، فمن شدَّته كُتمت.

نكتةُ استعمال الرُّؤية: ﴿رَأَوُاْ﴾:

رؤيــةُ الـعـذابِ بـالـبـصـرِ عـيـنُ اليقين

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ الرؤية ﴿رَأَوُاْ﴾ في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾، ولم يقل: (لَمّا أحسّوا العذاب)، أو (لَمّا شاهدوا العذاب)، أو (لَمّا عاينوا العذاب)؛ لأنَّ لفظَ الرؤيةِ أنسبُ للسياق، إذ السياقُ هنا سياقُ تحقُّق وقوع العذاب عليهم، واستحقاقهم له، فناسبَ استعمالَ لفظ الرؤية، وهي الرؤية البصريَّة التي تفيد اليقين، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التكاثر: 6 - 7].

معنى الواو في: ﴿وَقُضِيَ﴾:

الـــــــواو بـيـن الاسـتـئـنـافـيَّـة والعاطفة

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ وجهين:

الأول: استئنافيَّة، والجملة هي "جملة أخبارٍ مستأنفة"[3]، وهو الظاهر[4].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/130، "وهذا عند مَنْ يرى تقديمَ جواب الشرط جائزًا"، ينظر: السمين الحلبي، الدر المصون: 6/222.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/154.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/73.

(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/222.

الآخر: عاطفة، والمعطوف عليه جملة ﴿رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ فتكون داخلة في حيِّز لما، والمعنى: أسرّوا النَّدامة حين رأوا العذاب وحين قُضي بينهم بالقسط[1]، وجملة: (قضي بينهم) عطف على جملة: (أسرّوا)[2].

سرُّ إيثارِ المبني للمفعولِ:

القـضـاءُ للّه وحـدهُ سبحانه الذي لا حكمَ إلّا حكمه

آثر البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالمبني للمفعول: ﴿وَقُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ ولم يأتِ بالمبني للفاعل؛ للتركيز على الحدث، وهو القضاءُ وحصرُ الوعي فيه، وللإيماء بأنَّه أوقِعَ على أيسر وجه وأسهله[3]، ولأنَّه في هذا الموقف العظيم لا أحدَ يملكُ القضاءَ إلا هو سبحانه الملك الأعظم الذي لا مُلْكَ إلّا مُلكه، ولا حكمَ إلّا حكمه، أي: إنَّ هذا الفعل لا يصلح إلّا للّه سبحانه، ولا يكون إلّا منه.

نكتةُ تقديم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾:

عدلُ الله مطلقٌ وقضاؤه يشملُ الجميع

قدَّم البيانُ القرآنيُّ ﴿بَيۡنَهُم﴾ على قوله: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾؛ للاهتمام به، وللاعتناء ببيان تعميم القضاء بينهم جميعًا؛ إذ السّياق يشير إلى العدل الإلهيِّ المطلق، فكما أنَّ الاستثناءَ في حقِّ الظّالمين يوم القيامةِ ممتنعٌ، فلا يُقبلُ من أيِّ نفسٍ ظالمة فِديَة، كذلك قضاؤه سبحانه بينهم شاملٌ للجميع، ولا يُستثنى منه أحد.

معنى البينيَّة في: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

منتهى العدلِ الإلهيِّ أن يقتصَّ للكافرِ المظلومِ مـن الـكـافـرِ الظالم

الكفّار وإنِ اشتركوا في العذاب، فإنَّه لا بدَّ وأنْ يقضي اللّه تعالى بينهم؛ لأنَّه لا يمتنع أنْ يكون قد خانَ، وظلمَ بعضهم بعضًا في الدُّنيا، فيقتصُّ اللّه سبحانه للكافر المظلوم من الكافر الظالم؛ لأنَّ الظالم الكافر إنَّما ظلم مخلوقًا للّه، فالحقُّ سبحانه ربُّ الجميع

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/130.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/180.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/140.

وخالقُ الجميع، وكما أعطاهم بقانون الرُّبوبيَّة كلَّ خير مثلما أعطى المؤمنين، فلا بدَّ أنْ يقضي فيه الحقُّ سبحانه بالفصل والحكم بالعدل[1]، ولا سبيل إليه إلّا بأنْ يخفِّفَ من عذاب المظلومين، ويثقِّلَ في عذاب الظالمين[2].

معنى الباء في: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾:

قضاءُ الله سبحانه بين الخلائقِ مصحوبٌ بالعدل وموزونٌ بميزانِ القسط

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: المصاحبة والملابسة، أي: قُضي بينهم قضاءً مصحوبًا ومتلبِّسًا بالعدل.

الآخر: الآلة والاستعانة، أي: قُضي بينهم بواسطة القِسْط، وكأنَّ القِسْط آلةٌ للقضاء بينهم بالعدل، وهذا المعنى يشبه قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: 47].

بلاغةُ التَّذييلِ في: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾:

تذييلٌ دلَّ على منتهى العدالةِ الإلهيَّة يومَ القيامةِ حتى مع الظالمين

ختمَ البيانُ الإلهيُّ الآية بقوله: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وأتتْ هذه الجملة اسميَّة تفيدُ الثبات والدوام على عدم ظلمهم، فكانتْ بمنزلةِ وعد منه سبحانه بأنَّهم لا يُظلمون، وهذا التذييل أفاد معانيَ جليلة منها: التَّأكيد؛ حيث أكَّدت عدم ظلمهم، فقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أفاد أنَّهم لا يظلمون؛ لأنَّه إذا قُضي بينهم بالعدل لا يظلمون.

ومنها: الدَّلالة على العدالة الإلهيَّة المطلقة يوم القيامة حتى إنَّ الذي ظَلم في الدُّنيا، فإنَّه لا يُظلم يوم القيامة، فاختيار ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ فيه تناسبٌ مع قوله: ﴿نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾، وفيه ملمحُ تعريضٍ بظلم الظالمين، ومزيد من النَّدامة والحسرة أمام عدلِ الله يوم القيامة.

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5991.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/265.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّدم والحَسْرة:

النَّدمُ إحساسٌ بالغمِّ، فإذا اشتدَّ ألمُه؛ فهو الحَسْرةُ

يتقارب معنى النَّدم والحسرة، ويُعرَّف كلٌّ منهما بالآخر في اللغة:

النَّدم: التَّحَسُّر من تغيُّر رأيٍ في أمرٍ فائت[1]، وتندَّمَ على الأمر: أسِفَ، وتحسَّر عليه، وكرهه بعدما فعله[2]، والنَّدامة: غمٌّ يصحب الإنسان يتمنّى أنَّ ما وقع منه لم يقع، وأصل النَّدم: الإحساس بفقد معظم شيءٍ، أو كلِّه مع العجز عن استدراك ما فات، فيلوم نفسه على تفريطٍ وقع منه[3].

ومعنى الحَسْرة: الحاء والسين والراء أصل واحدٌ، وهو من كشفِ الشيء، والحسرة: شدَّة التلهُّف والتأسُّف والحزن والغمِّ والنَّدم على الشَّيء الفائت، وكأنَّه انكشف أمره في جزعه وصبره حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه[4]، وحقيقة الحسرة أنْ يلحقه من النَّدم ما يصير به حسيرًا، والحَسير: الذي اشتدَّت ندامتُه على أمرٍ فاته، والحَسْرة: شعورٌ باطنيٌّ بالغُ الحدَّة بالنَّدم، مع عدم فرصة استدراك الأمر[5].

نلحظ أنَّ النَّدم والحسرة يشتركان في أنَّهما شعورٌ داخلي يصحبهُ غمٌّ على أمرٍ فائت، مع العجز عن استدراكه.

ويتميَّز لفظُ الحَسْرة بأنَّه أشدُّ النَّدم، ويكون شعور الحسير بالنَّدم بالغَ الحدَّة، وهو تألُّم القلب بانحساره عن مأموله، وكأنَّه لشدَّة ندمه وتلهُّفه على أمرٍ فائت انكشفَ حالهُ، وانحسر عنه قواه من فرط الغمِّ، أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرَّط منه[6].

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 796.

(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (ندم).

(3) الزّبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ندم).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (حسر).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسر).

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/65، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/407.

القِسْط والعَدْل:

العَدْلُ هو استواءُ الطَّرفين حكمًا، والقِسْطُ هو تحرّي العدل

بَيْن لفظي القِسْط والعَدْل تقاربٌ دلالي كبير؛ فكلاهما في أصل مادَّته يدلُّ على معنيين متضادَّين، وإذا نظرنا إلى المعنى الأول منهما؛ فكلاهما يعني: الإنصاف والمساواة، وخلاف الجَوْرِ، ولهذا لم يفرِّق علماء اللُّغة والمفسِّرون بين القِسْط والعَدْل، فجعلوهما كالمترادفين، إلا أنَّه عند إمعان النَّظر في المعنى اللغوي، والاستعمالِ القرآنيِّ لكلٍّ منهما تظهر بعض الفروق الدقيقة بينهما، ويتَّضح ذلك من خلال الآتي:

القِسْطُ في اللغة: أَقْسَطَ يُقْسِطُ، فهو مُقْسِطٌ؛ إذا عدَل، وقَسَطَ يَقْسِطُ، فهو قاسِطٌ؛ إذا جارَ، والقِسْط: العدل، والحصَّة والنصيب، وتقَسَّطوا الشيء بينهم: تقسَّموه على العَدْل والسَّواء، والإِقْساطُ: العدل في القسمة والحكم، والقِسْطُ: المِيزانُ، سُمّي به؛ لأنَّه يعدل هذا الجانب منه بهذا، ومن ذلك جاء الإقساطُ: العدلُ في القسمة كأنَّما هو إعطاءُ كلٍّ قِسْطَه[1].

والعَدْلُ في اللغة: العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنَّهما متقابلان كالمتضادَّين: أحدهما يدلُّ على استواءٍ، والآخر يدلُّ على اعوجاج[2]، فالأول: ضدُّ الجَوْرِ، تقول: هو يعدل أي: يحكم بالحقِّ والعدل، والعَدْلُ من النّاس: المرضيُّ قولُه وحكْمُه، والتَّعادُلُ التَّساوي، والعَدْلُ: الاستواء والاستقامة، وتعديل الشيء: تقويمُهُ؛ وإذا مالَ شيءٌ؛ قُلْتَ: عَدَلْتُه، أَي: أقمتَه، فاعْتَدَل، أي: اسْتَقامَ، والعَدْلُ: الفداء[3].

وقد جمع القرآن بينهما في آية واحدة في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قسط).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(3) الخليل، العين، والفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب: (عدل).

بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]، فيُفهم من الاستعمال القرآني أنَّ العدل هو الحكم بين النّاس بالعدل، وأمّا القسط؛ فهو تحرّي العدل.

وقد فرَّق بينهما العسكري، فقال: "القِسْط: هو العدلُ البيِّنُ الظاهر، ومنه سُمّي المكيالُ قِسْطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنَّه يصوِّر لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما يخفى، ولهذا قلنا: إنَّ القِسْط هو النصيب الذي بُيِّنت وجوهه"[1]. إذًا: القِسْط أخصُّ من العدل؛ لدلالة القِسْط على العدل في الحكم، وأمّا لفظ العدل؛ فأعمُّ من ذلك[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/225.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [يونس: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من ذكر الفرضيّات إلى تقرير الحقائق الواقعيّات

في مناسبةِ هذه الآيةِ لِما قبلها وجهان:

أحدهما: أنَّ الله تعالى لَمّا ذكر أنَّ كل نفسٍ كافرة، لو تملك ما في الأرض؛ لافتدتْ به بقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: 54]؛ فبيَّن أنَّها لا تستطيع ذلك؛ لعدم مُلْكِها، فليس لها شيءٌ تفتدي به؛ فإنَّ كلَّ الأشياء ملكٌ للّه تعالى، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾[1]، فهو انتقالٌ من بيانِ الفرضيّات إلى بيان الواقعيّات، بقصدِ تجلية المعاني، ومعرفةِ الدلائل، والخضوع للحقائق.

والآخر: لَمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنَّهم قالوا: أحقٌّ هو؟ وأمرَ الرَّسولَ ﷺ بأنْ يقول: ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾، وهذا جارٍ مجرى الإقناعيّات؛ أَتْبعهُ بما هو البرهان القاطع على صحَّته وتقريره، وهو أنَّ القول بالنُّبوَّة والقول بصحَّة المعاد يتفرَّعان على إثبات الإله القادر الحكيم، وأنَّ كلَّ ما سواه؛ فهو ملكه، فعبَّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعۡدَ﴾: الواو والعين والدال: كلمة صحيحة تدلُّ على ترجيةٍ بقول، يُقال: وَعَدْتُه أَعِدُه وَعْدًا، ويُستعمل في الخير والشرِّ، ويُعدّى بنفسه وبالباء، فيقال: وَعَدَهُ الخيرَ، وبالخيرِ، وغلب الوعد في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/266، الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 806.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/266.

الخير، والإيعادُ في الشرِّ، والوعيد لا يكون إلّا بِشَرٍّ[1]، ووعده الأمر: قال له: إنَّه يُجريه له، أو ينيله إيّاه، ووعده بالخير: منّاه به، وبالشَّرِّ: هدَّدَه به، والموعد: العهد[2].

ومعنى ﴿وَعۡدَ﴾ في الآية: يتضمَّن الأمرين، أي: في كلِّ وعد ووعيد عذابٌ أو رحمة؛ إذ هو وعدٌ بالقيامة، وجزاء العباد إنْ خيرًا؛ فخيرٌ، وإنْ شرًّا؛ فشرٌّ، فإنَّ ما وعد اللّه تعالى به - على ألسنة رسله - أنَّه سيُجريه، فهو حقٌّ كائنٌ لا محالة[3].

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

مالكُ كلِّ شيءٍ هو الحقُّ في الوعدِ والعدلُ في الحُكمِ

ألا إنَّ للّه ملكَ كلِّ ما في السّماوات وكلِّ ما في الأرض، لا شيء فيه لأحدٍ سواه، فليس لهذا الكافر باللّه يومئذٍ شيءٌ يملكه، فيفتدي به من عذاب ربِّه، وإنَّما الأشياء كلُّها للذي إليه الحساب، وقد حقَّ جميع ما وعد به سبحانه، وأَوَّلُه عذابه الذي أوعد به هؤلاء المشركين، فلا عليهم ألّا يستعجلوا به، فإنَّه بهم واقعٌ لا شكَّ، ولكنَّ أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقةَ وقوع ذلك بهم، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ استعمالِ حرفِ التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾:

إعلامٌ بأنَّ له الملكَ كلَّه، وأنَّ كلَّ الأسبابِ تتفاعلُ بعطاءٍ وتقديرٍ منه

في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ صدِّرتِ الجملةُ بحرف التَّنبيه والتحقيق ﴿أَلَآ﴾ الذي يُفتتح به الكلام؛ "للاعتناء بما بعدها"[5]، ولتنبيهِ الغافلين عن هذه الحقيقةِ والقضيَّة الكبرى، وحضِّهم على التذكُّر والاعتبار والعودة إلى طريق الحقِّ[6]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (وعد).
(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 6/53، والراغب، المفردات، ص: 875، والمراغي، تفسير المراغي: 11/114.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.
(5) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 806.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.

والتأكيد على استماعها، وإنْ كانوا يعرفونها؛ لكثرة ذهولِ النّاس عن تذكُّر أمثالها[1]، وهذه الحقيقة والقضيَّة الكبرى هي أنَّه سبحانه أَمَرَ الأسباب أنْ تخضعَ لمسبِّباتِ عمل العامل؛ فكلُّ من يأتي بالأسباب، فهي تعطيه، سواء أكان مؤمنًا أم كافرًا، فالذي نَسِيَ مسبِّبَ الأسباب، وارتبط بالأسباب مباشرة، ينال العذاب، فالحقُّ ينبِّههم، أي: تنبَّهوا أيُّها الجاهلون، وافهموا هذه القضيَّة الكبرى: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ وإيّاكم أنْ تغترّوا بالأسباب، أو أنَّكم بأسبابكم أخذتم غير ما يريدُهُ الله لكم، فهو سبحانه الذي أعطاكم، وقدَّر لكم، وكلُّ الأسباب تتفاعل لكم بعطاءٍ وتقديرٍ من الله ﷻ[2].

بلاغةُ التَّوكيدِ في: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾:

التَّوكيدُ تقريرٌ لقدرتِهِ تعالى على الإثابةِ والعقابِ

أكَّد البيانُ الإلهيُّ الخبر في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ بعد حرف التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾؛ للردِّ على المشركين؛ لأنَّهم لَمّا جعلوا لله شركاء؛ فقد جعلوها غيرَ مملوكةٍ له[3]، ولأنَّه لَمّا كان السَّببُ الحاملُ لملوكِ الدُّنيا على الكذبِ والجَوْرِ والظُّلم؛ العجزَ، أو طلبَ التزيُّد في المُلك، أشار إلى تنزُّهه عن ذلك بقولٍ مؤكَّدٍ: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ سَوقًا لهم مَساقَ المُنْكِرِ؛ لأنَّ فعلَهم في عبادة الأصنام فعلُ من ينكر مضمون الكلام[4].

معنى اللّامِ الدّاخلة: ﴿لِلَّهِ﴾:

الحَكَمُ العدْلُ من لَهُ الملكُ كلُّه

(اللام) في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للملك، أي: لَهُ مُلكُ السَّماواتِ والأَرض؛ فلا مانع يمنعه من إنفاذ ما وعده"[5]، والحاصل: أنَّه لا يظلم إلّا ناقص المُلك، وأمّا من له الملك كلُّه؛ فهو الحكم العدل؛ لأنَّ جميع

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/327.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/219، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5994.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/353.

الأشياء بالنسبة إليه على حدٍّ سواء، فذكرُ الملك له دون سواه تأكيدٌ لعدلِه تعالى.

غرضُ تقديم ﴿لِلَّهِ﴾:

قدَّم البيان القرآنيُّ خبر إنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ على اسمها ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ للاهتمام باسمه تعالى، ولإفادة القصر؛ لردِّ اعتقادهم الشركة[1]، أي: ألا إنَّ للّه وحده لا لغيره ملكَ ما في السّماوات وما في الأرض من مخلوقات[2]، فغرضُ التقديم إفادةُ القصر بقصد قلب اعتقاد أن يُشارِكَ اللّه أحدٌ في ملكه، أو تنزيل أحد منزلةَ من يُشارك اللّه في ملكه.

اختصاصُ الله بالملك يقتضي اختصاصَه بالحكم والجزاء

دلالةُ استعمالِ الاسم الموصولِ ﴿مَا﴾:

الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مفيدٌ لعموم كلِّ ما ثبتَت له صلة الموصول من الموجودات الظاهرة والخفيَّة[3]، أي: للّه كلُّ ما وُجِد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما متمكِّنًا فيهما، فكلمة ﴿مَا﴾ أعمُّ وأشمل من (مَن)، وهي لتغليب غير العقلاء على العقلاء، وخاصَّة أنَّ الآية التي قبلها تتحدَّث عن الافتداء بالمال ﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾، وفي هذا تقريرٌ لكمالِ قدرته سبحانه على جميع الأشياء، وبيانٌ لاندراج الكلِّ تحت ملكوته يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا، وإثابة وعقابًا[4].

جميعُ الأشياء تندرجُ تحت ملكوتِه سبحانه يتصرَّفُ فيها كيفما يشاء

توجيهُ المتشابه اللفظي:

جاء التَّشابه اللفظي بين قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وقوله تعالى بعد عشر آيات: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

اللهُ مالكُ كلِّ شيءٍ، وما سواه فملكه مجازيٌّ افتراضيٌّ مؤقَّت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.

﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [يونس: 66] فعبَّر القرآن في الآية الأولى بـ﴿مَا﴾ وفي الثانية بـ﴿مَن﴾؛ وسبيل الكشف عن ذلك السياقِ، لاسيَّما السابق، فالآية الأولى جاءتْ بعد قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: 54]، وكان المعنى: أنَّ النَّفس الظالمة إذا رأتْ عذابَ اللّه تعالى لو ملكتْ جميع ما في الأرض؛ لبذلته في فداء نفسها، وهي تحرصُ على اليسير من حطامها في ظلمِ أهلها، فأتْبعَ ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أي: إنَّ النَّفس الظالمة لا تملكُ ما في الأرض لتفتديَ به، ولو ملكته لَمَا قُبِل في فدائها، وكيف يكونُ لها ذلك، واللّه تعالى مالكُ ما في السّماوات والأرض، وليس للعبدِ ذلك، ولا محلُّه هنالك؟ فناسب لهذا الموضع: ﴿مَا﴾ التي هي أعمُّ وأشمل من ﴿مَن﴾ إذ ﴿مَا﴾ تُستعمل لصفاتِ العقلاء، وذواتِ غير العاقل بخلاف ﴿مَن﴾، فهي تُستعمل لذواتِ العقلاء، وأولي العلم فقط.

وهذا في حملِها على التغليب، أي: تغليب ما لا يعقل على ما يعقل، أمّا إذا حملناها على خصوص ما لا يعقل؛ فيكون المقصود بيانَ أنَّ هذه الأنفس الظّالمة ليس لها أن تملك أصحاب العقول، لا في الدُّنيا، ولا على سبيل الفرض في الآخرة.

وأمّا الموضع الذي ذُكر فيه ﴿مَن﴾؛ فلا يصحُّ فيها غيرها؛ لأنَّ قبله هو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾ [يونس: 65]، والمعنى: لا يحزنك ما يتوعَّدك به الكفّار من القتل وأنواع المكروه؛ فإنَّ العزة للّه تعالى، ولا يمنحُ الكفّار قدرة على ما يريدونه منك، بل يعطيك القدرة والغلبة عليهم، فإنَّه يملك من في السّماوات ومن في الأرض، ولا قوَّة لهم إلّا به، ولا قدرة لهم إلّا من عنده، فاقتضى هذا الموضع اختيارَ لفظ: ﴿مَن﴾[1].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِي﴾:

عبَّرتِ الآيةُ بحرفِ الظرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ للإشارة إلى تغلغلِ ملكه وسلطانه في كلِّ السّماوات والأرض، فلهُ الملك كلُّه، ما ظهر منه وما بطن، وذكر حرفَ الظَّرفيَّة للتَّنبيه على ملكه للظّاهر بالخفيِّ، فإنَّ ما في السّماوات والأرض لا يظهر،

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/743 - 745، والكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 141، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 248.

كما هو الذي على الأرض، فنبَّه بما خفي فيها على الظّاهر فوقها؛ لبيانِ قدرته ﷻ على الحكم على مملوكاته كلِّها.

التّنبيهُ على ملكه سبحانه بالخفيِّ على الظّاهر لبيانِ التّمكُّن والاقتدار

غرضُ تقديمِ السّماوات على الأرض:

قدَّم البيان الإلهيُّ السّماوات على الأرض في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لأمور:

البدءُ بالأسبقِ وجودًا والأعظم حالًا والأعلى حسًّا

الأول: مراعاة السَّبق الوجوديِّ؛ إذ السّماوات خُلقت قبل الأرض.

الثّاني: علو السّماوات معنًى وحسًّا وعظمتها[1]، فتقديمها أنسبُ في سياق كمال ملكه سبحانه.

الثالث: لكونِ ملكه سبحانه لِما في السماء أعجبَ وأدلَّ على كمالِ قدرته سبحانه، فإنَّ "الآيات في السّماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسعتها، وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوِّها، واستغنائها عن عمد تقلُّها، أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها، وما فيها كقطرة في سعتها؛ ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع النّاظر فيها البصرَ كرَّةً بعد كرَّةٍ، ويتأمَّل استواءَها، واتِّساقها، وبراءتها من الخلل، والفطور، فالآيةُ فيها أعظمُ من الأرض"[2].

نكتةُ عطفِ الأرضِ على السّماوات بدون إعادة الاسم الموصول:

لما كانَ المقامُ للغنى عن الظُّلم لم يُحوَجِ الحالُ إلى التأكيد

لم يكرِّر البيان الإلهيُّ الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ اكتفاءً بذكرها في الآية التي قبلها: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦٓۗ﴾[3]، أي: أغنى لفظها عن إعادتها مع العلم بالمعنى[4]، وللإشارة إلى أنَّ المالكَ الحقيقيَّ لما في الأرضِ على الدّاومِ هو خالقُها ﷻ، دون من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.

(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/74.

(3) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 103، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/248.

(4) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 205.

يُعبد من الشُّركاءِ، ولبيانِ أنَّ ملكَ السَّماوات مساوٍ لملكِ الأرضِ سواءً بسواء.

وأمّا حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ فلم يُعِدْه البيانُ القرآنيُّ؛ لعدم الحاجة إلى التأكيد؛ لأنَّه "لَمّا كان المقام للغنى عن الظلم لم يُحْوَجِ الحالُ إلى تأكيدٍ بإعادة الجار"[1]؛ إذ لا يَظلمُ إلّا ناقصُ الملك، وأمّا من له الملك كلُّه؛ فهو الحكم العدل.

معنى التَّعريفِ في: ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

لا شـيءَ في الأرضِ خارجٌ عن ملكه سبحانه

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تفيدُ العموم، أي: تشمل جنس الأرض، "أي: من جَوهرٍ وعَرَضٍ صامتٍ وناطقٍ، فلا شيءَ خارج عن ملكه يحوجه إلى ظلمٍ، أو إخلافِ وعد"[2].

نكتةُ إعادةِ حرف التَّنبيه:

إعلامٌ من الله حول القضيَّة الكبرى والحقيقةِ الثابتة قضيَّة البعث

أعادَ البيانُ القرآنيُّ حرف التنبيه ﴿أَلَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ قضيَّة أخرى وكبرى؛ لتمييزها بهذا التَّنبيه عن سابقتها، لأنَّها مقصودة بذاتها: إذ إنَّ المشركين كانوا يظنّون أنَّ ما وعدهم به الرسول ﷺ هو من باب الترغيب والترهيب، وليس من باب الحقائق الثابتة[3]، فنبَّههم إلى أنَّه إذا وعدَ اللّٰه على لسان رسوله؛ فلا رادَّ لِما وعدَ به؛ لأنَّه منزَّه عن أنْ يخلفَ الميعاد؛ لأنَّ عناصر كلِّ الأحداث من الفاعل والمفعول، والزمان والمكان، والسَّبب تخضع لمشيئته سبحانه ولا تتأبّى عليه؛ ولذا فوعدهُ حقٌّ وثابت[4].

بلاغةُ التَّوكيد في: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾:

مَـنْ شـكَّ في البعثِ؛ شكَّ في أنَّ الله مالكُ كلِّ شيءٍ

أعاد البيان القرآنيُّ تأكيد الخبر بحرف ﴿إِنَّ﴾ بعد حرف

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/141.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5995.

التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ للاهتمامِ به، ولردِّ إنكار منكري بعضه، والذين هم بمنزلة المنكرين بعضه الآخر[1]، وللتَّأكيدِ هنا موقعٌ أخّاذ بعد تأكيد أنَّ للّه ملك السّماوات والأرض، وهو بيان أنَّ قضية ملك السّماوات والأرض توازي قضيَّة البعث في عقل المشرك، فكلتاهما احتاجت إلى تأكيد، وهو تأكيدٌ يُنبئ عن إيضاحِ حقيقةِ البعث بعد إيضاح حقيقةِ الملك، فمن شكَّ في إحداهما؛ كان في الأخرى شاكًّا.

بلاغة التذييل في الآية:

مَنْ كانت هذه شؤونه سبحانه لا يَعجزُ عن تحقيقِ ما أخبرَ بوقوعه

في الآية تذييلُ إنهاءٍ للكلام المتعلِّق بصدق الرسول والقرآن، وما جاء به من الوعيد، وترقُّب يوم البعث، ويوم نزول العذاب بالمشركين، فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وقد اشتمل هذا التذييل على مجمل تفصيل ذلك الغرض، وعلى تعليله بأنَّ مَنْ هذه شؤونه لا يعجزُ عن تحقيق ما أخبر بوقوعه، وافتتح هذا التَّذييل بحرف التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾، وأُعيد فيه حرف التنبيه؛ للتأكيد على استماعه، وللتنبيه على أنَّه كلامٌ جامعٌ هو محصِّلةُ الغرض الذي سمعوا تفصيله آنفًا[2].

فائدةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

الوعدُ من العظيم سبحانه وعدٌ عظيمٌ

في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ إظهارُ اسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ دون الإتيان بضميره، فلم يقلْ: (إلا إنَّ وعده حق)؛ وذلك لتفخيم شأن الوعد، والإشعار بعلَّة الحكم[3]، ولتكون الجملة مستقلَّة؛ لتجري مجرى المثل، والكلام الجامع[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/198 - 199.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/198 - 199.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الواو بين العاطفة والاستئنافيَّة والحاليَّة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ تحتمل ثلاثة أوجه ممّا أدّى إلى ثراء المعنى، وهذه الأوجه هي: عاطفة، عطفتْ جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ على جملة: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[1]، واستئنافيَّة[2]، أتتْ جملة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مستقلَّة، لتجري مجرى المثل، والكلام الجامع[3]، وحاليَّة[4]، والمعنى: إنَّ وعد اللّه حقٌّ، والحال إنَّ أكثرهم لا يعلمون.

بلاغةُ استعمالِ الاستدراكِ في: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

علَّة الشَّكِّ انتفاءُ العلمِ، فمن عَلِمَ؛ استيقنَ وفَهِم

وقع الاستدراك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لمخالفة المخالفين بعد تأكُّد الخبر من فَمِ الأمين الصادق، ومن اللّه تعالى، وذلك يوجِبُ التصديقَ والإذعان والإيمان[5]، ولأنَّ الجملتين اللتين قبلها أُريد بهما الرَّدُّ على معتقدي خلافهما، فصارتا في قوَّة نفي الشَّكِّ عن مضمونهما، فكأنَّه قيل: لا شكَّ يحقُّ في ذلك، ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون، فلذلك يشكون[6]، فعلَّةُ الشَّكِّ هي انتفاءُ العلم.

سرُّ ذكرِ الأكثريَّة: ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

الكفّارُ بين جاهلٍ بالحقِّ - وهم الأكثرية - وبين عالمٍ بالحقِّ جاحد له

قيَّد النَّظمُ الإلهيُّ نفي العلم بالأكثر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ولم يقلْ: (ولكنَّهم لا يعلمون)؛ لأمرين:

الأول: إشارة إلى أنَّ منهم من يعلم ذلك، ولكنَّه يجحده مكابرةً، كما في الآية السابقة: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ﴾ وقوله سبحانه:

---

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/272.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/262.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/199.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/262.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3593.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200.

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦٓ﴾ [يونس: 40]، فضمير ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ للمتحدَّث عنهم من الفريقين فيما تقدَّم[1].

الثاني: إنصاف القلَّة المؤمنة التي علمت الحقَّ؛ فاتَّبعته وصدَّقته، ووقفتْ إلى جانب الرسول ﷺ تؤيِّده، وتفتدي دعوته بالنَّفس والمال، هذا إنْ كان الضَّمير (هم) عائدًا على عموم النّاس[2].

ويحتمل أنْ يكونَ المراد بذكر الأكثر الجميع؛ لأنَّ عِظَم الشيء يقومُ مقامَ جميعه، فذِكْرُ الأكثر كذكر الجميع[3].

نكتةُ إيثارِ نفي العلمِ على إثباتِ الجهل: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾:

نفيُ العلمِ وإثباتُ الجهل مضمون متقارب وأثر متباعد

آثر البيانُ الإلهيُّ التعبيرَ بنفي العلم عنهم في قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ على أنْ يثبتَ لهم الجهل، فلم يقل: (ولكن أكثرهم جاهلون)؛ لأنَّ نفي العلم يحتمل دلالات عدَّة، فهو أوسع دلالةً من إثبات الجهل، فيحتمل أنْ يكون لمعنى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، عدّة أوجه: أوّلًا: لا ينتفعون بعلمهم، فهم محرومون، فنفى عنهم العلم، وإنْ علموا؛ لَمّا لم ينتفعوا به، وثانيًا: لم يكتسبوا سببَ العلم - وهو التأويل والنظر في آياته وحججه - لغفلتهم وقصور أنظارهم، وثالثًا: نفي العلم عنهم لما أُعطوا أسباب العلم، فلم يعلموا، فإن كان على هذا؛ فيكونون معذورين، وإن كان على الوجهين قبله؛ فلا عذر لهم في ذلك[4]، ورابعًا: لا يصدِّقون، فهم من أجل جهلهم به مكذِّبون[5].

وكذلك في نفي العلم عنهم نوعٌ من استمالتهم، ففرقٌ بين أن يكون الخطابُ في إثبات الجهل لهم، وبين نفي العلم عنهم، فكلاهما حقٌّ، والمضمون متقارب، لكن لمّا كان في اختيارِ الأسلوبِ الألطفِ نوع من الاستمالة؛ كان أدنى للقبولِ، وتحريك الأذهان للتفكير.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/87.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 13/164.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/53.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٥٦﴾ [يونس: 56]

مَنْ خلق وملَكَ بالحقِّ؛ أحيا، وأهلك بالحقِّ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ قرَّر سبحانه أنَّه لا شيءَ خارج عن ملكه، وأنَّه تامُّ القدرة - لأنَّه لا منجيَ من عذابه - شاملُ العلم لقضائه بالعدل، صادقُ الوعد؛ لأنَّه لا حامل له على غيره؛ أثبتَ تفرُّده بأنَّه يحيي ويميت، وأنَّه قادرٌ على الإعادة، كما قدرَ على الابتداء، وأنَّ الرَّدَّ لا يكون إلّا إليه، فنَبَّه على ذلك بقوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

الـذي يُحيي ويُميت سبحانه في دنياه يُحيي ليُعيد في أُخراه

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ اللّه هو المحيي المميت، لا يتعذَّر عليه فعلُ ما أرادَ فعله من إحياء الموتى، ومنهم هؤلاء المشركون إذا أراد إحياءهم بعد مماتهم، ولا إماتتهم إذا أراد ذلك، وهم إليه يصيرون بعد مماتهم، فيعاينون ما كانوا به مكذِّبين من وعيدِ اللّه وعقابه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة الفصلِ في: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

استئنافٌ بيانيٌّ دلَّ على كمالِ قدرتِه ونفاذِ وعده

جاءت هذه الآية: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بيانًا مستأنفًا لِما قبلها بالإيجاز[2]؛ لذا لم يذكر البيانُ الإلهيُّ العاطف بينها وبين الآية السابقة: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ بين الجملتين شبهَ كمالِ اتصال؛ وذلك بعد أنْ قرَّر سبحانه أنَّه لا شيءَ خارج عن ملكه، وأنَّ وعدَه بيوم القيامة حقٌّ، كأنَّ سائلًا سأل: ما الدليلُ على ذلك؟ فجاء الجواب في قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: إنَّه قادرٌ على الإعادة، كما أنَّه قادرٌ على الابتداء.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/143.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/327.

غرضُ تقديمِ المسند إليه ومجيء المسند فعلًا:

أصلُ الكلام فيما تقتضيه صنعةُ الكلامِ لا بيانه وبلاغته: يحيي هو ويميت، ولكنَّ البيان الإلهيَّ عَدَلَ عن ذلك في قوله: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، وابْتَدأ بالمسند إليه ﴿هُوَ﴾ فقدَّم الضمير ﴿هُوَ﴾ ليحوِّل الجملةَ من فعليَّةٍ إلى اسميَّة، خبرُها فعلٌ مضارع، فأفاد ذلك أمرين:

الأوّل: الاختصاص: إذ إنَّه بتقديم الضمير ﴿هُوَ﴾ وتكريره على تقدير فاعل ﴿يُحْيِۦ﴾ صارَ المعنى حَصْر الإحياءِ والإماتة باللّه، وأنَّ ذلك مُحقَّقٌ مؤكَّدٌ، والمعنى: اللّه وَحدَه هو المتصَرِّفُ بالإحياء والإماتة، فلا يتعذَّرُ عليه إحياءُ المشركين وغيرهم، ولا إماتَتُهم؛ إذا أراد ذلك[1].

اللـه وَحـده هـو المـتـصَـرِّفُ بـالإحـيـاءِ والإماتةِ، وفعلُه مـتـجـدِّدٌ غيرُ منقطعٍ

الآخر: الاستمرار التجدُّدي؛ لمجيء الخبر ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بصيغة المضارع، والمعنى: إحياءُ اللّه لخلقه، وإماتَتُه لهم أمرٌ متجدِّد غير منقطع.

نكتةُ إيثار الفعل المضارعِ على الاسم: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

آثر القرآنُ التَّعبيرَ بالمضارع على الاسم في قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ولم يقلْ: (هو المحيي والمميت)؛ لأمرين:

صورةٌ متجدِّدةٌ لخـلْـقِ المـوتِ والحياةِ تبعثُ في النَّفس الخـوفَ منه سبحانه والرَّجاء

الأول: النَّصُّ على تجدُّد الإحياء والإماتة واستمرارهما، أي: الإحياء والإماتة متجدِّدة مستمرَّةٌ منه سبحانه، وليس مجرَّد ثبوتهما كما لو عبَّر بالاسم (المحيي والمميت)، وكان الخبر في الجملة الاسميَّة اسمًا.

الآخر: إفادة حكاية حال الإحياء والإماتة، أي: يثير في المخيَّلة صورةً مستمرَّة متجدِّدة لخَلْق الحياة والموت، بما يُظهر عظمةَ قدرةِ اللّه وكمالَها، ويكون دليلًا مستمرًّا على ذلك.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193.

دلالةُ الواو في: ﴿وَيُمِيتُ﴾:

الإحياءُ والإماتةُ من أفعالِ الله المتقابلة في ذواتِها المترابطة في مآلاتها

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيُمِيتُ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوف عليه ﴿يُحْيِۦ﴾، والمعنى العام الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه هو أنَّ كليهما من الأفعال التي اختصَّ بها الله، ولا يقدرُ عليها أحدٌ سواه، قال تعالى مبيِّنًا عجزَ الآلهة المزعومةِ عن الإحياء والإماتة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٠﴾ [الروم: 40]، فهما من المعاني المتقابلة، وإنْ كان الإحياءُ يختلفُ عن الإماتة؛ فالإحياءُ لا يكون إلّا للّه تعالى، أمّا الإماتة؛ فهي له وحده، لكنَّها قد تصدر عن غيرِه سبحانه بعد إذنه، فعلى التَّحقيق مردُّها إليه.

نكتةُ تقديم الإحياءِ على الإماتة في: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

تقديمُ الإحياءِ باعتبارِ ما يشهده النّاس في عالم الشَّهادةِ

كما أنَّ عطفَ الإماتة على الإحياءِ باعتبارِ أنَّ الإحياءَ كان ممّا يشهدُه النّاس أوَّلًا، ثم تكونُ الإماتةُ، فتقديمُ الإحياءِ باعتبارِ الشُّهود في عالم الشَّهادةِ، فهو من بابِ الامتنانِ على العبادِ بما يشهدونه، وإلّا فإنَّ الموت سابقٌ للإحياءِ كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٨﴾ [البقرة: 28]، فأرادَ في هذه الآية الإحياءَ بعد أن كان النّاس أمواتًا، وأرادَ بالإماتة التي تكون بعد الإحياءِ الأوَّل.

بلاغةُ الطِّباقِ في: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾:

تقابُلُ الإحياءِ مع الإماتةِ يزيدُ الكلامَ حُسنًا ويدلُّ على كمال القدرة

جمع البيان القرآنيُّ بين لفظين متضادَّين، هما: ﴿يُحْيِۦ﴾ و﴿وَيُمِيتُ﴾ ممّا زادَ الكلام حُسنًا وطرافة، ودلَّ على كمال قدرته سبحانه التي تشمل الأشياءَ كلَّها وإنِ اختلفتْ؛ لأنَّ الفعل الصادر من العالم المختار يكون على أحوالٍ متضادَّةٍ، بخلاف الفعلِ المتولِّد عن سببٍ طَبْعيٍّ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/388.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عاطفةٌ؛ والمعطوف عليه ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، والمعنى العام الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه: هو أنَّ الذي بيده الإحياء والإماتة بيده رجْعُ النّاس وحسابهم، وإن كان لكلٍّ منهما ما خصَّه اللّه به، وميَّزه عن الآخر، فهو يحيي ويميت في الدُّنيا امتحانًا واختبارًا، وإليه ترجعون للحساب في الآخرة.

من بيدِهِ الإحياءُ والإمـاتـةُ بيده رجْـعُ الـنّـاس وحسابهم

بلاغةُ التَّرتيبِ:

بدأ البيان القرآنيُّ في قوله: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بالإحياءِ قبل الإماتةِ؛ لشرف الحياةِ، أي: شرف الحيِّ على الميِّت[1]، ولكون الإحياء أعجبَ وأكثرَ دلالةً على كمال القدرة، وخاصةً أنَّ السياق هو الاستدلال على ألوهيَّته سبحانه وقدرته.

الأسبابُ مقدَّمةٌ عـلى الـنَّـتـائـجِ والـعـلـلُ على مظاهرِها

وبدأ بالإحياء والإماتة، ثمَّ ذكر الرُّجوعَ؛ لأنَّ الإحياءَ والإماتةَ هما مقدِّمةُ الرُّجوع ودليلٌ عليه، فهي من باب تقديم العلَّة على النتيجة، ومن تقديم السَّبب على المسبَّب، والدَّليل على المدلول.

دلالةُ استعمالِ حرف (إلى):

(إلى) حرف جرٍّ، ومعناه في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ انتهاءُ الغاية الزمانيَّة والمكانيَّة، وقد عُدّي بالفعل ﴿تُرۡجَعُونَ﴾؛ لإفادة معنى الانتهاء في الرجوع إلى اللّه، أي: يرجع منتهيًا في رجوعه إلى اللّه؛ فلا مفرَّ ولا مهربَ منه إلا إليه سبحانه، وفي استعمالِ هذا الحرف براعةٌ لا تتحقَّق إلّا في كتابِ اللّه تعالى، وهي أنَّ ذكر حرف الانتهاءِ دلَّ على المبدأ، وهو الإحياءُ والإماتةُ، فلمّا ذكرَ مبدأَ الأمرِ بالإحياءِ والإماتةِ معًا؛ عطفَ عليهما الرُّجوعَ، وجعل ذلك بهذا الحرفِ الدّالِّ

الـحـيـاةُ مبدأ الـرُّجـوعِ والـحـسـابُ منتهاه

(1) السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن: 1/131.

على استجماعِ أمر الحياةِ والممات لغايةٍ واحدةٍ وهي الرُّجوع إلى الله تعالى دون سواه.

غرض تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

الرجوعُ إليه سبحانه حتمًا، وإليه دون سواه قهرًا

قدَّم القرآن الجارَّ والمجرور ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على الفعلِ ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لأمرين:

الأول: الاختصاص وقصر الرجوع إليه، أي: إليه وَحْدَه مَصيرُكم لا إلى غيره[1]؛ لأنَّه وعد بذلك في قوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ﴾ [يونس: 4]، وفي قوله: ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: 46] وفي قوله: ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ [يونس: 53][2].

الثاني: مراعاة للفواصل[3]، بما يحقِّق إحكامَ اللَّفظ وإحكامَ المعنى؛ أمّا إحكامُ اللفظ؛ ففي راحة النَّفس بإعطائها نغمًا متناسقًا مع ما سبقها من فواصل خُتِمت بالواو والنون، والواو من حروف المدِّ التي هي من الحروف الطبيعيَّة في الموسيقى نفسها، وأمّا إحكام المعنى؛ ففي تحقيق قصر الرجوع إليه، بتقديم شبه الجملة ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على الفاصلة ﴿تُرۡجَعُونَ﴾. ورعاية الفاصلةِ تابعٌ لرعاية المعنى لا العكس، فتقرير المعاني هو مقصودُ النَّظمِ، وأمّا الألفاظُ؛ فهي روادفُ الدِّلالاتِ وتوابعُها.

نكتةُ بناءِ الفعل للمفعولِ في: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

مقصودُ السّياق هو الاعتبار بما سيكون بعد مفارقةِ الدّار

آثَرَ البيانُ الإلهيُّ التَّعبيرَ بالمبني للمفعول على المبني للفاعل في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ لأمرين اثنين:

الأوَّل: التركيز على الحدث، وهو الرُّجوع إلى الله تعالى، وحصر الوعي فيه، الإشارة إلى أنَّ الرجوع إلى الله بعد الموت في الآخرة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/143.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/143.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/143.

بالبعث والحشر هو بيد اللّه وحده، ولا فاعل غيره سبحانه، وليس للإنسان أدنى إرادةٍ في ذلك.

الآخر: الاعتناءُ بذكر مجملِ هذا الأمر دون التَّفاصيل، فإنَّ العنايةَ بالتَّفاصيل تقودُ الذِّهنَ إلى الانشغالِ بها، عن المقصود الحقيقيِّ، وهو الاعتبار بما سيكون بعد مفارقة الدّار.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّجوعُ والعَوْدَةُ:

الرُّجوعُ انصرافٌ وانتقالٌ إلى المكان الأصلي، والعودةُ تكرارُ الرُّجوع بعد البدء

عند إمعان النَّظر في استعمال القرآن للّفظين نلحظ أنَّ كلًّا منهما قد اختصَّ بملمحٍ دلالي يميِّزه عن غيره.

فأمّا الرجوع في اللغة، فهو العَوْدُ إلى ما كان منه البدء، وتقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله، فالرُّجوع: العَوْد، والرَّجْعُ: الإعادة[1]، الرُّجوع: نقيضُ الذهاب، ورَجَعَ الشيءُ عن الشيءِ ورجع إليه: صَرَفَه ورَدَّه[2]، والرُّجوع أيضًا: تحوُّلٌ عن الاتِّجاه، أو الحال إلى عكسه، وكلُّ ما في القرآن من التركيب؛ فهو بمعنى العود[3].

وأمّا العَودُ فأصلٌ يدلُّ على تثنية في الأمر، هو تثنية الأمر عَودًا بعد بِدء، تقول: بَدَأ ثمَّ عاد[4]، والعودة: الرُّجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذات، أو بالقول والعزيمة[5]. عاد عَودًا وعَودة: رَجَعَ وارتدَّ، يقال: رَجَعَ عَودًا على بَدْء، ورجع عَوده على بِدئه: أي: لم يقطع ذهابه حَتّى وصله برُجوعِه، والمعاودة: الرجوع إلى الأمر الأول، والمُعاوِد: المواظِب على أمرٍ، وفيه معنى التجدُّد والتكرُّر[6].

(1) الراغب، المفردات، ص: 342.
(2) الفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رجع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عود).
(5) الراغب، المفردات، ص: 593.
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عود).

إذًا: يتميَّز الرجوع: بأنَّ فيه معنى الانصراف والتحوُّل عن الاتجاه، أو الحال إلى عكسه، سواء أتمَّ الفعل أم لم يتمَّهُ، وفيه معنى الانتقال إلى المكان الأصلي.

وتتميَّز العَودة: بأنَّ فيها معنى تكرار الفعل، أي: لم يقطع ذهابه حتى يوصله برجوعه، كما أنَّ فيها معنى الرجوع إلى سابق عهده، ومكان بدئه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من تمامِ دلائلِ ألوهيَّته سبحانه إنـزالُ خيرِ كتبهِ على خاتمِ رسلهِ رحمةً بخلقه

في مناسبة الآية لما قبلها ثلاثةُ أوجه:

الأول: لَمّا ذكر تعالى الأدلَّة على الألوهيَّة والوحدانيَّة والقدرة بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾... ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ ذكر الدلائل الدّالَّة على صحَّة النُّبوَّة والطَّريقَ المؤدّي إليها وهو القُرْآنُ المتَّصف بهذه الأوصاف الشَّريفة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

الثاني: بعد أنْ ذكر سبحانه الأدلَّة على أسس الدين الثَّلاثة، وهي: الوحدانيَّة والرسالة والبعث؛ قفّى على ذلك بذكر التشريع العملي، وهو القرآن الكريم، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع في أمور أربعة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

الثالث: بعد أن حذَّر الله المشركين من غوائل الضَّلال بما تلا عليهم من القوارع بقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ﴾.... ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾؛ رجع إلى استمالتهم نحو الحقِّ، واستنزالهم إلى قبوله بذِكر أنَّ جميع ذلك مسوقٌ لمصالحهم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/74.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/122.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/131.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾: الواو والعين والظاء كلمة واحدة، فالوَعْظ: التخويف، والعِظَة الاسم منه، والموعظة: النُّصح والتذكير بالعواقب[1]، وقيل: الوَعْظُ: التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب[2]، وقيل: الوعظ: زجرٌ مقترنٌ بتخويف، وَعَظَهُ يَعِظُهُ: ذكَّرَهُ بما يُلين قلبه من الثواب والعقاب، والاتِّعاظ: قبول الموعظة[3]، وكأنَّ الواعظَ يذكِّر، وينبِّه غيرَهُ إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقدم عليه ليتوقَّف عنه، ويظهر، وأنَّ الأصل في الوعظ أنَّه خاصٌّ بالزجر عمّا له عواقب سيئة، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثواب[4].

والمراد بـ ﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ في الآية: ذكرى تذكُّركم عقاب اللّه وتخوُّفكم وعيده[5]، أو وصيَّة بالحقِّ والخير، واجتناب الباطل والشرِّ، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرقُّ لها القلب، فتبعث على الفعل أو الترك[6].

2) ﴿وَشِفَآءٌ﴾: الشين والفاء والحرف المعتلّ يدلُّ على الإشراف على الشيء؛ يقال: أشفى على الشيء؛ إذا أشرفَ عليه، وسُمّي الشفاء شفاءً؛ لغلبته للمرض وإشفائه عليه[7]، والشفاءُ: معروف، وهو البرءُ من السَّقم، وتخلُّص البدنِ من المرض، وشفى اللّه المريض: عافاه، وأبرأه، وأشفاهُ: وهبَ له شفاءً من الدّاء، واستشفى فلانٌ: طلبَ الشفاء[8].

ومعنى ﴿وَشِفَآءٌ﴾ في الآية: عامٌّ يشملُ الشفاء من مرضِ البدن، وأمراض العقيدة والنَّفس، وعمى القلب، فالقرآن فيه دواء وكشفٌ، وإزالةٌ لكلِّ ما يصيب الصدور من الأسقام العارضة من جهل، وحسد، وحقد، وتباغض، ووساوس الشيطان، وغيرها من الأسقام[9].

---

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(2) الراغب، المفردات، ص: 876.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعظ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/104.
(6) المراغي، تفسير المراغي: 11/122.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفي).
(8) الخليل، العين، والفيومي، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (شفي).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/105، والبغوي، معالم التنزيل: 4/138، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3595.

القرآنُ داعٍ إلى كلِّ خيرٍ وصلاحٍ وهو نعمةٌ لمن انتفعَ به من المؤمنين

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يوجِّه اللّه سبحانه نداءً إلى النّاس كافَّة، فيقول: يا أيُّها النّاس، قد أتاكم من ربِّكم قرآنٌ داعٍ إلى كلِّ خير وصلاح؛ يأمركم ويزجركم، ويرقِّق قلوبكم، وهو دواء للقلوب من الشَّهوات والشُّبهات، يشفي من جميع الأمراض، ومنها الجهل، والشكُّ، والنفاق، والغيُّ، وهو هدايةٌ ورشدٌ لمن اتَّبعه من الخلق، فينجيه من الهلاك، وهو رحمةٌ ونعمةٌ يحصل به الخير والإحسان والثواب للمؤمنين؛ لأنَّهم هم الذين انتفعوا بالقرآن دون غيرهم الذين حَرموا أنفسهم من الانتفاع بموعظة القرآن[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

غرضُ النِّداءِ وحرفِ التَّنبيه في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

النـداءُ بـأداةِ البعيد مراعاةٌ لمقامِ الرُّبوبيَّة وإشـارةٌ لبُعد المـشـركين الغافلين

نادى اللّه النّاس بأداةِ النداء التي تُستعمل للمنادى البعيد (يا) في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لغرضين:

الأوَّل: مراعاة مقام الرُّبوبيَّة الرفيع، في الأمر والنهي والتوجيه؛ إذْ هو سبحانه العليُّ الأعلى، وهذا يُلحظ في خطاب اللّه لعباده في القرآن أنَّه يُنزِّلُهُم مَنْزِلَةَ البعيدين عنه، فيناديهم بحرف النّداء (يا)، مع أنَّه أقربُ إليهم من حبلِ الوريد[2].

الآخر: الإشارة إلى غفلتهم وانشغالهم بالدنيا، وبُعْدِهم عن الرَّحمة، والتوفيق والهداية، وتشديدِ التَّهديد والمبالغةِ في الوعيد، فهم بمنزلةِ البعيد الذي يحتاج إلى أداة النِّداء التي يُنادى بها البعيد، وعليهم أنْ يُصغوا لما يُنادى به عليهم، هذا إذا كان المقصود من النّاس في الآية المشركين بناءً على الأكثر في خطاب القرآن بـ يا أيُّها النّاس.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/193، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448.

(2) حسن، بلاغة اللغة: 1/245.

كما أنَّ النداء بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ يشتمل على: (أيّ) وهي وصلةٌ إلى نداء ما فيه (أل)[1]، وهي نكرةٌ مقصودة، تفيدُ التدرُّجَ من الإبهام إلى التوضيح؛ تشويقًا لما سيُلقى من مضمون الكلام، وهو هنا الموعظة العظيمة.

ويشتمل على: (ها) حرفِ تَنبيهٍ، وهو لازمٌ لأداة (أيّ)، ويفصل بـ(ها) بين (أيّ) في النداء، وبين المنادى المرفوع بعده، ويفيدُ هنا المشاركةَ مع (يا) و(أي) في التَّنبيهِ والتأكيد على أهمِّيَّة المنادى به، وهي الموعظة الجامعة لكلِّ أوصاف الكمال.

دلالةُ استعمالِ لفظِ النّاس: ﴿ٱلنَّاس﴾:

خطابٌ تعريفيٌّ لجميعِ النّاس بشأنِ القرآن أو ترغيبٌ وترهيبٌ للمشركين

لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: جميع النّاس، وتكون (أل) التعريف في لفظ النّاس جنسيَّةً، والخطاب يشمل جميع النّاس[2]، وبناء على ذلك تكون الآية استئنافًا أو اعتراضًا، ويجوز أنْ يكونَ لابتداءِ غرضٍ جديدٍ، وهو خطابُ جميع النّاس بالتَّعريف بشأن القرآن وهديه، بعد أنْ كان الكلام في جدال المشركين والاحتجاج عليهم بإعجاز القرآن على أنَّه من عند الله، وأنَّ الآتي به صادق فيما جاء به من تهديدهم وتخويفهم من عاقبة تكذيب الأمم رسلها، وما ذيَّل به ذلك من الوعيد وتحقيق ما توعَّدوا به، وممّا يؤكِّد كون الخطاب لجميع النّاس أنَّه لم يأتِ فيه ما يقتضي توجيهه لخصوص المشركين من ضمائر تعود إليهم، أو أوصاف لهم، أو صلات موصول، والمعنى: أنَّ القرآنَ موعظةٌ لجميع النّاس، وإنَّما انتفعَ بموعظته المؤمنون، فاهتدوا، وكان لهم رحمة.

الآخر: المشركون، وتكون (أل) التعريف عهديَّةً، ووَجْهُ هذا

(1) لأنَّ (يا) لا تدخل عليها في غير يا الله إلا شذوذًا.

(2) عدَّهُ الخازن هو الأصحُّ، وذكر أنَّه اختيار الطبري، ينظر: الخازن، لباب التأويل: 3/194.

القول: هو ملاحظةُ ارتباط الآية بما قبلها؛ إذ بعضه في بيان أحوال قريش[1]، وكون الأكثر في خطاب القرآن بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هو للمشركين، وبناء على ذلك يكون ذكر الثناء على القرآن بأنَّه هدًى ورحمةٌ للمؤمنين إدماجًا[2] وتسجيلًا على المشركين بأنَّهم حَرموا أنفسهم الانتفاعَ بموعظة القرآن وشفائه لِما في الصدور، فانتفع المؤمنون بذلك[3].

نكتةُ استعمالِ حرفِ التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾:

أصـولُ كـمـالِ القرآن محقَّقةٌ لا ريبَ فيها

افتتح البيانُ الإلهيُّ الكلام بـ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ﴾ لتأكيده؛ لأنَّ في المخاطبين كثيرًا ممَّن ينكرُ هذه الأوصاف للقرآن، والتي تُعدُّ أصولَ كمالِه وخصائصه، وهي: أنَّه موعظةٌ، وأنَّه شفاءٌ لما في الصدور، وأنَّه هدًى، وأنَّه رحمة للمؤمنين[4].

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ المجيء: ﴿جَآءَتۡكُم﴾:

المجيءُ محقَّقٌ بعيدٌ عن عوامل النقص والتعبيرُ به أنسبُ لمقامِ القرآن العظيم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ ﴿جَآءَتۡكُم﴾ دون الإتيان في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ﴾؛ لأمور منها:

الأوَّل: كون المجيء أعمَّ وأوسع دلالةً من الإتيان، فهو تمام الإتيان؛ فإنَّ الإتيان إذا اكتمل وبلغ مقصده من مكان أو زمان، أو شخص أصبح مجيئًا، وكلُّ مجيءٍ إتيانٌ، وليس كلُّ إتيانٍ مجيئًا.

الثّاني: كون المجيء يُستعمل فيما ثَقُلَ وعَظُمَ شأنه، أمّا الإتيان؛ فهو مجيءٌ بسهولة[5]، ويعبَّر به عن سهولة الفعل وسرعته، فتناسبَ التعبير هنا بالفعل ﴿جَآءَتۡكُم﴾ مع عِظَم القرآن وما جاء به.

الثّالث: كون المجيء أنسبَ للسياق؛ إذ المجيء يُقال اعتبارًا

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/495.
(2) الإدماج: أن يُضمَّن كلامٌ سِيق لمعنى آخر.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200 - 201.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/201.
(5) الراغب، المفردات: (أتى).

بالحصول، أمّا الإتيان؛ فقد يُقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول[1]، والسياق سياقُ تحقُّق؛ فالقرآن قد نزل على رسوله ﷺ، وكونه موعظةً وشفاءً وهدى ورحمة للمؤمنين أمرٌ واقعٌ بعيد عن عوامل النقص، والمجيء هو محقَّقٌ بعيدٌ عن عواملِ النقص من نفيٍ أو شرطٍ أو عمومٍ بلا تفاصيل، أو استفهامٍ، أو رجاءٍ، أو احتمالٍ أو غير ذلك.

الرّابع: السّياقُ الواردُ فيه المجيءُ هو سياقُ خطابٍ وحوار، ولذا عُبِّرَ بالمجيء الذي لم يأتِ في القرآن إلا بصيغة الماضي بما يفيد الحدوث الفعلي، وتحقُّق الوقوع.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في: ﴿جَآءَتۡكُم﴾:

سماعُ الموعظةِ محقَّقٌ ودليلُه مجيئُها

في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ﴾ شبَّهتِ الآيةُ سماعَ الموعظةِ بمجيئِها، فإنَّ الموعظةَ تُسمع، وصرَّح بالمشبَّه به، وهو المجيءُ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لأنَّها تجعل السَّماعَ أمرًا متحقِّقًا للمخاطَبين، وليس مجرَّد صوتٍ عابرٍ قد يفوت الكثيرين؛ ففيه إقامةٌ للحجَّةِ، وتسجيلٌ للبرهانِ، في كونِ من وصلتهم الموعظة هم في عدادِ المدعوِّين.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة في: ﴿مَّوۡعِظَةٌ﴾:

الموعظةُ كائنٌ متحرِّكٌ مؤثِّرٌ فيمَن تجيئه

شبَّه البيانُ الإلهيُّ الموعظة في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ﴾ بشخصٍ يجيء، فحذف (المشبَّه به)، وأبقى شيئًا من لوازمه وهو المجيء، فالاستعارةُ مكنيَّةٌ أصليَّة.

إذ من الممكن أن يقول: (قد جاءكم الرسول بموعظة)، ولكنه ترك ذلك؛ لأنَّ في تعبيره بالاستعارة تصويرًا للموعظة، وكأنَّها قد تجسَّدت، وصار لها مجيء، رغم أنَّ الموعظة هي كلمات، وأراد الله

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

تعالى بذلك أن يعطي للموعظة صورةَ الحركة التي تؤثِّر، وتحضُّ على الإيمان[1]، فالاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لما فيها من تجسيد المعاني وتصويرِ المشهد.

سرُّ اختيارِ الموعظةِ بدلًا من الهدايةِ:

من كمالِ بلاغةِ الخطابِ أن يجمع بين تخويفٍ وترقيقٍ يحملان على الامتثال

عبَّر القرآنُ بلفظ الموعظة بدلًا من لفظ الهداية أو الوصيَّة في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ﴾، رغم أنَّها تشترك في معنى النُّصح وإرادة الخير بالطرف الآخر؛ لِما تتميَّز به مفردة الموعظة من الزجر المقترن بالتخويف، والتذكير من سوء عاقبة من لم يعمل بها، بينما الهداية تكون بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وإلى الغاية المرجوَّة.

أي: آثر البيان القرآنيُّ الموعظةَ؛ لكونها أوسعَ دلالةً على المطلوب، فهي تجمع بين "تخويف وترقيق يحملان على الامتثال"[2].

إضافة إلى أنَّ لفظَ الهدى المذكورَ في الآيةِ قد اشتملَ على معنى الهداية، فلا حاجة إلى تكرار ذكرِه بدون فائدة.

وكذلك عبَّر بالموعظة دون الوصيَّة؛ لأنَّ الموعظة هي وصيَّة بالخير، والبعد عن الشرِّ بلفظ مؤثِّر، أي: هي أوسع دلالة من الوصيَّة التي قد تكون بلفظ مؤثِّر، وقد تكون بلفظ غير مؤثِّر، وقد تكون قصيرة، وقد تكون طويلة، أمّا الموعظة؛ فلا تكون إلّا بكلام مؤثِّر، وتكون بعيون المسائل، وفيها إشارة إلى شروط المتحدِّث بها، فهي ثقيلة على الموعوظ، ولا تُتقبَّل إلا ممَّن يُجيد التأثير بجمال الكلمة وصدق الأداء[3].

نكتةُ توالي الألفاظ على صيغة التَّنكيرِ في الآية:

التنكير في المفردات القرآنيَّة التي وردت في الآية وهي: ﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/5999.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/108.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.

عطاءاتُ القرآنِ عظيمةٌ في كتابٍ عظيمٍ من ربٍ عظيمٍ سبحانه

و﴿وَشِفَآءٌ﴾ و﴿وَهُدًى﴾ و﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ يفيدُ التعظيم والتفخيمَ[1] والتكثير، فالموعظة والشفاء والهداية والرحمة من مالكِ أمر النّاس، ومربّيهم هي عظيمةٌ لا يُحَدُّ حدُّها، ولا يُقدَّر قدرُها، ففضلُها كبيرٌ، وأثرُها عظيمٌ، وخيرُها لا ينقطعُ، وكذلك أفاد التَّنكير العمومَ؛ إذ إنَّ موعظةَ القرآنِ عامَّةٌ في كلِّ ما يحتاجُه النّاس في دينِهم، وكذلك شفاءُ القرآن وهداه ورحمته، فهي تعمُّ كلَّ الأحوال، ولو عرَّف، فقال: (قد جاءتكم الموعظة)؛ لبُحث عن المقصودِ بها، وأنَّها موعظةٌ لها دلالةٌ خاصَّة، وهذا غير مرادٍ.

غرض التَّعبير بالمصدر الميمي ﴿مَّوۡعِظَةٌ﴾:

المصدرُ الميمي أقوى دلالةً وآكدُ من المصدر القياسي

عبَّر القرآن بالمصدر الميمي ﴿مَّوۡعِظَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ﴾ دون المصدر القياسي الأصلي (وَعْظ)؛ زيادةً في التأكيد؛ لقوَّة دلالة المصدر الميمي على الحدث، وهو مجيءُ الموعظة التي هي القرآن الكريم وتأكيدها، ولذا كَثُر استخدام المصدر الميمي في الذكر الحكيم.

معنى حرفِ ﴿مِّن﴾:

ابتداءُ الموعظةِ من الرَّبِّ وانتهاؤها إلى قلب العبد

حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يحتمل معنيين:

الأول: ابتدائيَّة، إذا كانت متعلِّقة بـ﴿جَآءَتۡكُم﴾، وهو الأليق بسياق الآيةِ، لاسيَّما في دلالتها على العموم، فهي موعظةٌ نازلةٌ ابتداءً من عند الله تعالى، انتهاءً إلى قلوبِكم، ففي هذا المعنى قيمةٌ هدائيَّة تربطُ بين العبد ومولاه.

الآخر: تبعيضيَّة؛ إذا كانت متعلِّقة بمحذوف وقع صفة لموعظة، والكلام على حذف مضاف أي: جاءتكم موعظةٌ من مواعظ ربِّكم[2]،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/155.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/131.

وجَعْلُ ﴿مِّن﴾ للتبعيض لا ينافي أنَّ القرآن كلَّه موعظة وشفاء وهدًى ورحمة؛ فالتبعيض في طريقة مجيء المواعظ والشفاء والهدى والرحمة؛ إذ القرآن لم ينزل دفعةً واحدة، وخاصَّة أنَّ الآية مكية.

وسواء كانت تبعيضيَّة أم ابتدائيَّة، فإنَّ فيها مزيدَ ترغيبٍ إلى التمسُّك بهذه الموعظة، فهي من الربِّ سبحانه[1].

بلاغةُ التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة وإضافته: ﴿رَّبِّكُمۡ﴾:

الموعظةُ تربيةٌ ربّانيَّةٌ ورعايةٌ صمدانيَّةٌ وعنايةٌ رحمانيَّةٌ

في التعبير بالرُّبوبيَّة وإضافته إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تعرضٌ لعنوان الرُّبوبيَّة، وهو حَسَنُ الموقع هنا؛ ففيه تبيينٌ لوجوب الاتِّعاظ بها إيمانًا وتسليمًا؛ لأنَّها من مالك أمر النّاس، ومربّيهم بفضله ورحمته، وعلمه وحكمته[2]، ولذا خصَّها في الآية بأنَّها من الرَّبِّ، لا من الإله؛ لأنَّ الإله يريدك عابدًا، لكنَّ الرَّبَّ هو المربّي والكفيل لك، وإنْ كفرتَ به[3]، وفي هذا تلطُّفٌ في الخطاب، لاستمالتهم نحو الحقِّ، واستنزالهم إلى قبوله، وأنَّ جميع ذلك مسوق لمصالحهم.

إذًا: فالموعظة هي نوع من التربية جاءت من ربِّكم المربّي لكم؛ لأنَّه هو الذي خلق من عَدَم، وأمدَّ من عُدْم، ولم يختصَّ بنعمة الرُّبوبيَّة المؤمنين فقط، بل شملتْ نعمته كلَّ الخلق، فالموعظة تجيء ممَّن يعطي، ولا ينتظر منك شيئًا، فهو سبحانه منزَّه عن الغرض؛ لأنَّه لن ينالَ شيئًا منك، فأنت لا تقدر على شيء مع قدرته سبحانه[4].

العطفُ بالواو وسرُّ ترتيب المعطوفات:

الموعظةُ والشِّفاء توطئةٌ للهدى والرحمة

هذه الأوصاف الأَربعة (الموعظة والشفاء والهدى والرحمة) كلُّها شيءٌ واحد، وهو القرآن، وقد نزلت لتغايرها وصفًا منزلة تغاير الذوات، فساغ العطف بالواو، كما شهر أَنَّ العطف يقتضي التغاير غالبًا.

---

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/495.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/328.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6000.

ويكمنُ سرُّ ترتيب المعطوفات في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في أمرين:

أحدهما: أنَّ ذلك من باب تقديم العام، وهو خطاب النّاس كافَّة ﴿مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ على الخاصّ، وهو خطاب المؤمنين ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

الآخر: أنَّ بينها تلازمًا في الجملة؛ إذ هي أوصافٌ للقرآن الكريم باعتبار كونه سببًا وآلة وأثرًا لها، فالقرآن سببٌ للاتّعاظ والشفاء والهداية والرحمة.

والبدء بالموعظة القادمة بالمنهج من الرَّبِّ سبحانه لكونها وصيَّة بالخير فيها عيون الحكمة مع تخويفٍ وترقيقٍ يحملان على الامتثال تخصُّ العقلاء الراشدين، وحركة العاقل الراشد تمرُّ على عقله أوَّلًا ليختار بين البدائل، ثمَّ أَتبعَ بالشِّفاء لِما في الصدور لأهمّيَّته؛ ذلك أنَّ الهوى الذي يَنشأ ممّا في النَّفس والقلب يُفسد حركة اختيار العاقل الذي تخاطبه هذه الموعظة، أي: إنَّه سبحانه قد أنزل عليكم ما يشفي صدوركم من غلٍّ يؤثِّر في أحكامكم، وحقد، وحسد، ومكر، وينقّي باطن الإنسان؛ لأنَّ أيَّ حركة من حركات الإنسان لها نبعٌ وجدانيٌّ، ولا بدَّ أن يُشفى النَّبعُ الوجداني، ويصحَّ حتى تخرج الحركات من الجوارح نابعةً من وجدانٍ طاهرٍ مصفًّى وسليم؛ وبذلك تكون الحركات الصادرة من الإنسان سليمة، إذًا: موعظةُ القرآن تُعالج جذور المرض قبل ظواهره.

ثمّ أتبعَ الشفاء لِما في الصدور بالهدى؛ لكونِ الوجدان الطاهر السليم سببًا لاتِّباع طُرُقِ الهداية والرشد، وهذا كلُّه سببٌ للتحقُّق برحمة اللّه الَّتي جعلها للمؤمنين الذين انتفعوا بالموعظة والشفاء والهداية[1].

بلاغةُ ذكرِ قيدِ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ مع الموعظة:

قيَّد البيان الإلهيُّ ﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾ بقيدِ ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ لأمور: منها: تنبيهٌ على أنَّ هذه الموعظة بالغةٌ غايةَ كمالِ أمثالها[2]، وتذكيرٌ بما يزيدها تعظيمًا؛ فالموعظةُ من أحدٍ ما يمكن أن تسمعها، أو ترفضها، ولكن لَمّا تكون الموعظة قادمةً من الرَّبِّ سبحانه؛ فهذا

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6001.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/201.

أدعى إلى تعظيمها، والاستماع إليها، والعمل بها ممَّنْ له عقل، فهي من كمالات التربية.

القرآنُ موعظةٌ بلغتْ غايةَ الكمالِ وهي عامَّةٌ حتى لمنْ لم يتَّعظْ بها

ولتكون الموعظةُ عامَّةً لمنْ خوطب بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، ذلك أنَّ كون القرآن موعظةً وصفٌ ذاتيٌّ له؛ لأنَّ الموعظة هي الكلام المحذِّر من الضَّرِّ، أي: القرآن موعظةٌ حتى لمنْ لم يتَّعظ بها[1].

الغرضُ من التَّعبير بالاستعارةِ في ﴿وَشِفَآءٌ﴾:

شفاءُ القرآنِ هو شفاءٌ تامٌّ متكاملٌ لا وَصَبَ فيه ولا ألم

الاستعارةُ في استعمال لفظِ ﴿وَشِفَآءٌ﴾ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ؛ إذ إنَّ البيانَ الإلهيَّ شبَّه في قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ إبطاله العقائد الضالَّة بالشفاء من المضارِّ فحذف (المشبَّه)، وصرَّح بـ (المشبه به) وهو الشفاء، بجامع أنَّ كلًّا مزيلٌ للضَّرر، وفي هذه الاستعارة مبالغةٌ في إبرازِ أثرِ القرآنِ في إصلاحِ النُّفوس والمجتمعات من أمراضها.

الغرضُ من الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

جاءَ القرآنُ لشفاءِ الأمراضِ السَّقيمةِ وتثبيت الأدوية القويمةِ رحمةً بالأمَّةِ الحكيمة

يبيِّن ابن عاشور أثر وصف القرآن بهذا اللَّفظ المستعار ﴿وَشِفَآءٌ﴾ وعلاقته ببقيَّة الألفاظ المستعارة في الآية ﴿مَّوۡعِظَةٌ﴾، ﴿وَهُدٗى﴾، ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بأنَّ هذا الوصف يومئ إلى تمثيل حالِ النفوس بالنسبة إلى القرآن، وإلى ما جاء به بحال المُعتلِّ السَّقيم الَّذي تَغيَّرَ نظامُ مزاجه عن حالة الاستقامة، فأصبح مُضْطرِبَ الأحوال خائِرَ القوى، فهو يترقَّبُ الطبيب الذي يُدَبِّرُ له بالشفاء، ولا بدَّ للطبيب من موعظةٍ يحذِّر المريض بها ممّا هو سبب نشوء علَّته ودوامها، ثمَّ ينعتُ له الدواء الذي به شفاؤه، ثمَّ يصفُ له النِّظام الذي ينبغي له سلوكه لتدومَ له

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.

الصحَّة، فإنْ هو انتصحَ بنصائح الطبيب؛ أصبحَ معافًى سليمًا لا يَعْتَوِرُهُ ألمٌ، ولا يشتكي وَصَبًا.

وقد كان هذا التمثيل لكماله قابلًا لتفريق تَشبيهِ أجزاء الهيئة المُشَبَّهَةِ بأجزاء الهيئة المُشَبَّهِ بها، فزواجر القرآن ومواعظه يُشَبَّهُ بنصح الطبيب على وجه المكنيَّةِ؛ وإبطاله العقائد الضالَّة يُشَبَّهُ بنعت الدواء للشفاء من المضار على وجه التَّصريحية، وتعاليمه الدينيَّة وآدابه تُشَبَّهُ بقواعد حفظ الصحَّة على وجه المكنيَّةِ، وعبَّر عنها بالهدى، ورحمتُه للعالمين تُشَبَّهُ بالعيشِ في سلامةٍ على وجه المكنيَّةِ، ثمَّ إنَّ ذلك يتضمَّن تَشبيهَ شأنِ باعث القرآن بالطبيب العليم بالأدواء وأدويتها، ويقوم من ذلك تَشْبيهُ هيئة تَلَقِّي النّاس للقرآن وانتفاعهم به، ومعالجة الرسول ﷺ إيّاهم بتكرير النُّصحِ والإرشاد بهيئة المرضى بين يدي الطبيب، وهو يصفُ لهم ما فيه برؤهم، وصلاحُ أمزجتهم، فمنهم القابل المنتفع، ومنهم المتعاصي الممتنع[1].

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿وَشِفَآءٌ﴾:

الـقـرآن عـينُ الشفاء لا أداته

لفظُ الشِّفاء مصدرُ قوله: شفاه الله من مرضه شفاءً، وقد عبَّر به البيان الإلهيُّ؛ للدَّلالة على المبالغة التي يقتضيها التعبير بالمصدريَّة، بحيث كأنَّه الشِّفاءُ كلُّه.

بلاغةُ استعمال حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿فِى﴾:

تخليةُ الصُّدورِ مـن أمراضِـهـا مـقـدَّمـةٌ على تحليتِها بالإيمانِ

عبَّر القرآن بالظرفيَّة ﴿فِى﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ دون أنْ يقول: (للصدور)؛ للإشارة إلى أنَّ هذه الأمراض القلبيَّة، والوساوس والشكوك منتشرةٌ في جميع أنحاءِ صدورهم ومنغمسة متغلغلة فيها، وأنَّ القرآنَ جاء شفاءً لتلك الأمراضِ، فإذا شُفيتِ الأمراضُ؛ عولجت الصُّدور، فإنَّ علاجَ الأسبابِ هو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.

أصلُ الشِّفاء، وفيه إشارةٌ إلى تخلية تلك الصُّدورِ من أمراضِها، قبل تحليتها بالإيمانِ.

دلالةُ التَّعريف في: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

(أل) التعريف في كلمة ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، ومعلوم أنَّ الجمع المعرَّف بأل الجنسيَّة الاستغراقيَّة يفيد العموم[1]، والمعنى: شفاءٌ لجميع أسقام الصدور من النّاس جميعًا مؤمنين وغير مؤمنين، ومن جميع الأمراض؛ أمراض القلب مثل: الأخلاق الذميمة، والعقائد الفاسدة، والجهالات المهلكة، وتعلُّقات القلوب بما سوى اللّه تعالى، أو غيرها من الوساوس، والشكوك، وكذا الأمراض البدنيَّة من الضيق وغيره.

القـرآنُ شفاءٌ لجميعِ صدورِ النّاس من جميعِ الأمراضِ

فائدةُ تخصيصِ الصدورِ بالذكر: ﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

خصَّ البيانُ القرآنيُّ الصَّدرَ بالذكر دون القلب فقال تعالى ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأمور:

الأوَّل: أنَّه أعزُّ موضعٍ في بدنِ الإنسان لمكانِ القلب فيه[2].

الثّاني: أنَّه موضعُ القلبِ وغيره[3]، والتعبير به دون التعبير بالقلب أوسع دلالةً؛ لأنَّه يشمل القلب وغيره من الأعضاء الأخرى التي تشارك القلب في حصول ضيق الصدر، أو انشراحه، وكذا الأمراض البدنيَّة المتعلِّقة بالصدر[4]، إذ لو عبَّر بالقلب؛ لاقتصر على أمراض القلوب فقط، ولذلك كان من عادة القرآن أنَّه ينسبُ الشفاء للصدور لا للقلوب[5].

القـرآنُ شفاءٌ عامٌّ تامٌّ لكلِّ ما في الصدور من جميع الأدواء القلبية والبدنية

الثّالث: أنَّه لم يردْ في القرآن نسبة مرض القلوب لعموم النّاس،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.

(2) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448، والخطيب الشربيني، تفسير الشربيني: 2/25.

(3) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/448، والخطيب الشربيني، تفسير الشربيني: 2/25.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/35.

(5) مثلاً: ﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ [النّاس: 5]، ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٍ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤﴾ [التوبة: 14].

وإنَّما لقلوب الكافرين والمنافقين، وعليه فقد عبَّر هنا بشفاء الصُّدور لا القلوب؛ مراعاةً لكون الخطاب لعموم النّاس لا للكافرين والمنافقين وفق القولِ الأقرب للصَّواب.

لعظمةِ أثرِ هدايةِ القرآن وُصف بأنَّه عينُ الهدى

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿وَهُدَى﴾:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ عن أحدِ أصول كمال القرآن وخصائصه بالمصدر ﴿وَهُدَى﴾؛ للدَّلالة على المبالغة التي يقتضيها التَّعبير بالمصدرية، بحيث كأنَّه الهدى نفسه، ويكون بذلك المراد بهذا الوصف حصول الهدى به بالفعل[1].

ولأهمية هذا الوصف ﴿وَهُدَى﴾ ورد لفظه وما اشتق منه في (305) موضعًا في اثنتين وستين سورة من سور القرآن الكريم، ذكر فيها علماء الوجوه والنظائر ثمانية وعشرين وجهًا.

القرآنُ هدًى ورحمةٌ لمن اتَّعظَ بموعظتهِ واستشفى بدوائهِ لا لمن أعرض عنه وحاربه

براعةُ العدولِ عن النّاس إلى المؤمنين في الفاصلةِ في: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾:

عدلَ القرآن في فاصلة هذه الآية عن التَّعبير بـ(النّاس) مع أنَّ الخطاب ابتدأ في الآية بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، فلم يقلْ: (لكم، أو للناس، أو للعباد)؛ لأمورٍ:

الأوَّل: تعليق قوله تعالى: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بلا شبهة، وقد خصَّه به جمهور المفسِّرين، ومن المحقِّقين من جعلَهُ قيدًا لـ (هدى ورحمة) ناظرًا إلى قوله تعالى: ﴿هُدَى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]، فإنَّه لم يجعلْهُ هدًى لغير المتَّقين، والمتَّقون هم المؤمنون[2]، وهو الأظهر عند ابن عاشور حيث قال: "فالأظهر أنَّ قَيْد ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ راجعٌ إلى ﴿وَهُدَى وَرَحْمَةٌ﴾ معًا على قاعدة القيْد الوارد بعد مفردات"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/202.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/203.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/202.

الثّاني: الإدماجُ في التقييد بالمؤمنين، وهذا لم يكنْ ليتحقَّق لو كان التعبير بـ (النّاس أو لكم أو العباد) التي تدلُّ على عموم الخطاب، أي: إنَّ المشركين حَرموا أنفسهم الانتفاعَ بموعظة القرآن التي انتفعَ بها المؤمنون[1].

الثالث: مراعاة فواصل السورة الكريمة التي انتهتْ معظمها بالواو والنون أوبالياء والنون، بما يحقِّق إحكامًا في اللفظ والمعنى لهذه الفواصل، من خلال الأثر الصوتي لحروف المدِّ الليِّنة الهوائيَّة التي تتناسب مع سياق الموعظة التي تحمل رقَّةً وتأثيرًا في نفوس المخاطبين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الموعظةُ والهدايةُ:

الموعظةُ مقترنةٌ بزجرٍ وتخويفٍ من سوء العاقبة، والهدايةُ بيانٌ ودلالةٌ بلطف

الموعظة والهداية كلاهما يشتركان في معنى النُّصح وإرادة الخير بالطرف الآخر، إلا أنَّ هناك فرقًا بينهما، ويظهر ذلك من خلال الرجوع إلى المعنى اللغوي، وإلى الاستعمال القرآنيِّ لكلٍّ منهما:

فالموعظة في اللغة: التخويف والنُّصح والتَّذكيرُ بالعواقب[2]، وقيل: زجْرٌ مقترن بتخويف[3]، وكأنَّ الواعظ يذكِّر وينبِّه غيره إلى عواقب ما يفعله، أو ما هو مُقدم عليه ليتوقَّف عنه، ويظهر، وكأنَّ الوعظ خاصٌّ بالزجر عمّا له عواقب سيِّئة، ثمَّ عُمِّم في الحضِّ على ما له ثواب[4].

أمّا الهدايةُ؛ فهي: الإرشاد والدِّلالة بلطف إلى ما يوصل إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/200 - 201.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (وعظ).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (وعظ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وعظ).

المطلوب، هَداهُ الطريق: أرشده وعرَّفه، وهَداهُ لهُ: دلَّه عليه، وبيَّنه له، فالهُدى: البيان، وهو ضدُّ الضلال[1]، والهدى والهداية في اللُّغة واحد، لكن قد خصَّ اللّه لفظة الهدى بما تولّاه، وأعطاه، واختصَّ هو به دون ما هو إلى الإنسان، نحو قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]، والاهتداء يختصُّ بما يتحرّاه الإنسان على طريق الاختيار، إمّا في الأمور الدنيويَّة، أو الأخرويَّة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: 97][2].

إذًا: تتميَّز الموعظة بالزَّجر المقترن بالتخويف، والتذكير من سوء عاقبة ما هو مُقدِم عليه ليتوقَّف عنه، بينما تتميَّز الهداية: بالإرشاد والبيان، والدَّلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب، وإلى الغاية المرجوَّة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (هدى).

(2) الراغب، المفردات، ص: 839.

﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: 58]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من بيانِ أوصافِ القرآنِ إلى الواجب تجاهها

لما نبَّه اللّه تعالى في الآية السابقة على الأسرار العالية الإلهيَّة للقرآن الكريم بما يكون سبب فرح للمؤمن من كون القرآن موعظةً تطهِّر ظواهر الخلق عمّا لا ينبغي، وشفاءً يطهِّر الأرواحَ عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة، وهدًى ينير القلوب بنور الحقِّ، ورحمةً تحقِّق الكمال والإشراق؛ أعقبَ ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾[1]، فالمناسبةُ بين الآيتين، في كون الأولى بيانًا لأوصاف القرآن، واللاحقة تنبيهًا على الانتفاع بتلك الأوصافِ، وأنَّ الانتفاعَ بها هو سببُ الفرحِ المحمود، وما سواه فسبب الفرح المذموم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾: الفَرَحُ: نقيضُ الحزن، وهو السرور والابتهاج والرضا، فيجدُ الإنسان في قلبه خفَّة، ويتخلَّص ممّا يُثقل، ويُغمُّ، ولذَّةُ القلب بنيلِ ما يشتهي[2]، والفرح: انشراحُ الصَّدر بلذَّةٍ عاجلة، وأكثرُ ما يكون ذلك في اللَّذات البدنيَّة الدنيويَّة[3]، والفرحُ: أيضًا الأَشَرُ والبَطَرُ[4]، وذلك عندما يكون سببهُ غيرَ مشروع، أو يؤدّي إلى التجاوز بغيًا وطغيانًا أو ما هو إليه، وقد جاء النهيُ عن هذا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/269.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فرح).
(3) الراغب، المفردات، ص: 628.
(4) الفيومي، المصباح المنير: (فرح).

النوع من الفرح وذمُّه[1]، والمراد بالفرح في الآية: الفرحُ المنبعثُ عن انشراح الصدر، وشدَّة السرور بفضل اللّه ورحمته[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تمامُ النِّعمةِ وكمالُ الرَّحمةِ هو الفرح المقترن بالفرج

ينبِّه اللّه سبحانه أنَّ كونَ القرآن هدًى ورحمةً للمؤمنين هو فضلٌ من اللّه عليهم، ورحمةٌ بهم يجب عليهم أنْ يفرحوا بهما تعظيمًا، ومحبَّةً، وإيثارًا على غيرهما، وأنْ يعلموا أنَّها نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المال التي حُرم منها أكثرُ المؤمنين، ومُنحها أكثرُ المشركين، فيقول على لسان صاحب الرسالة ﷺ: افرحوا بكلِّ فضلٍ من اللّه ورحمة، وخاصَّةً العلمَ والإيمان والقرآن واتِّباع الرسول، لا بمتاع الدنيا، وأموالها الزائلة؛ فذلك خيرٌ ممّا يجمعه النّاس من حطامها الفاني[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الانتقالِ من خطابِ الجميع إلى خطابِ المفرد:

كثرةُ الدَّلالات ووفرةُ المعاني دليل ثراءِ النَّظم وقوَّة الرَّصف

انتقلَ البيان الإلهيُّ من خطاب الجمع ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى خطاب الفرد ﴿قُلۡ﴾، وذلك لأمور:

الأوَّل: تلوين الخطاب، فإنَّ الجمع بين لونين من الخطابِ أكثر ثراءً وأبلغ دلالةً.

الثّاني: توجيه رسول اللّه ﷺ ليأمرَ النّاس بأنْ يغتنموا ما في القرآن العظيم من الفضل والرحمة[4].

الثّالث: التَّنويه بمضمون المقول بحيث يُؤمر الرسول أمرًا خاصًّا بأنْ يقولها، وإنْ كان جميع ما ينزَّل عليه من القرآن مأمورًا بأنْ يقوله[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فرح).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6355.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

الرّابع: الإشارةُ إلى علوِّ مقامِ الرسالة والرَّسول، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو الوحيد المكلَّف بإبلاغهم وتوجيههم، وأنَّ طاعته من طاعة اللّه ﷻ.

الخامس: بيانٌ للمرجعية الحقيقيَّة التي يجب أن يرجع إليها النّاس في معرفة الموعظة والشفاء والهدى والرحمة.

نكتةُ حذفِ متعلَّق فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

دعـوةُ القـرآنِ عـالميَّةٌ مـا بقي الـزَّمـان ومـا تعاقب الملَوان

حذفَ البيانُ الإلهيُّ متعلَّق الفعل ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، فلم يقل: (قل لهم بفضل اللّه)؛ وذلك لإفادة تعميم المعنى المناسب له؛ ذلك أنَّ الفعل وما هو معناه متى قُيِّد بشيء؛ تقيَّد بهِ، فإذا أطلقه اللّه تعالى، وحذف المتعلَّق؛ كان القصد من ذلك التعميم، ويكون الحذف هنا أحسنَ من ذكر المتعلِّقات، وأجمع للمعاني النافعة؛ إذ إنَّ الرسول ﷺ رسولٌ للعالمين، ورسالته هي الرسالة الخاتمة، فيترتَّب عن ذلك أنْ يكون خطابُه عامًّا موجَّهًا للجميع غير مقيَّد، وقد جرت عادة القرآن على حذف متعلَّق الفعل ﴿قُلۡ﴾، إلا في مواضع قليلةٍ ذكر متعلَّقها لأسبابٍ خاصةٍ بهذه المواضع، فالآيةُ تخاطبُ النَّبيَّ ﷺ بأن يقولَ مضمونها دون تقييدِه بزمنٍ، أو مكانٍ، أو طائفة، أو قبيلة، أو قرية، بل هو عامٌّ صالحٌ للجميع إلى يوم الدّين، ففيه بيان أنَّ من خصائص القرآن أنَّه دعوةٌ عالميَّةٌ، غير محصورةٍ بأحدٍ، فإذا ما أعرض قومٌ؛ أقبل أقوام، وإذا ما أدبر زمانٌ؛ أقبل آخر، فدعوة القرآنِ باقيةٌ ما بقي الزَّمان، وما تعاقب الملوان.

معنى الباءِ في: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾:

البـاءُ جمعـتْ بـين الإلـصـاقِ والسببيَّة بإيجاز لفظٍ وثراء معنى

الباء في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ متعلِّقة بأحد فعلين:

إمّا بالفعل (جاءَ) مقدَّرًا، دلَّ عليه المذكور بقوله تعالى: ﴿جَآءَتۡكُم﴾، والتقدير: جاءتكم المذكورات بفضل اللّه وبرحمته، وإمّا بالفعلِ (يفرح) مقدَّرًا؛ دلَّ عليه المذكور بقوله تعالى: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، والتقدير: قل ليفرحوا بفضل اللّه وبرحمته.

وعلى كلا القولين فإنَّ الباء تحتمل وجهين:

أحدهما: الإلصاق، ليكون المعنى على التَّقدير الأول: جاءتكم المذكورات من الموعظة والشفاء والهدى والرحمة ملتصقةً بفضل اللّه ورحمته، لا تنفكُّ عنها.

وعلى التقدير الثاني: قلْ ليفرحوا ملتصقين بفضل اللّه ورحمته.

والآخر: السببيَّة، ليكون المعنى على التقدير الأول: جاءتكم الموعظة والشفاء والهدى والرحمة بسبب فضله ورحمته سبحانه.

وعلى التقدير الثاني: قلْ ليفرحوا بسبب تفضُّل اللّه عليهم ورحمته بهم.

وقد جمع أبو حيان بين الإلصاق والسببيَّة في تفسيره للآية بناءً على تعليقه الباء بالفعل (يفرح) بعبارة جميلة إذ يقول: "فالمؤمنون يُقال لهم: فليفرحوا وهم متلبِّسون بعلَّة الفرح وسببه، ومخلِصون لفضل اللّه منتظرون لرحمته"[1].

غرضُ دخول الباء على كلٍّ من الفضل والرحمة:

الفضلُ والرحمةُ كلٌّ منهما مستقلٌّ بالفرح به أو متعلِّقٌ بأوصافِ القرآنِ المذكورة

في قوله تعالى: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ يتمثَّل غرض دخول الباء على كلٍّ من الفضل والرحمة بأحد أمرين؛ إمّا للدَّلالة على "استقلالِ كلٍّ منهما بالفرح به"[2]، فكلٌّ منهما سببٌ للفرحِ، أو الفرحُ مُلتصقٌ بكلِّ واحد منهما.

وإمّا للدَّلالة على استقلال كلٍّ منهما بملازمتها والتصاقها بالمذكورات من الموعظة والشفاء والهدى والرحمة، أو بكونها سببها؛ لمجيئها من اللّه سبحانه.

غرض تقديم الجارِّ والمجرورِ:

أخَّر البيان الإلهيُّ فعل الأمر ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، وقدَّم عليه متعلَّقه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/75.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/333.

قصرُ الفرحِ على فضلِ الله ورحمته تعريضٌ باعتقادات المشركين

وهو الجار والمجرور ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ للاهتمام به، ولإفادة القصر، أي: بفضل الله وبرحمته دون ما سواه ممّا دلَّ عليه قوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، فهو قصْرُ قلبٍ تعريضيٌّ بالرَّدِّ على المشركين الذين ابتهجوا بعرض المال، فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: 35][1]، كأنَّه قال: إنْ كان في الدنيا شيءٌ يستحقُّ أنْ يُفرحَ به؛ فهو فضلُ الله ورحمته[2].

نكتةُ إضافة الفضل إلى لفظِ الجلالةِ في: ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾:

فضلُ الله ورحمته تعمُّ المؤمنين وتخصُّ المحسنين

أضافَ البيانُ القرآنيُّ الفضلَ إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ الدالِّ على الألوهيَّة في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾، ولم يقل: (قل بفضل ربِّكم وبرحمته) وذلك للطائف عدَّة:

أوَّلًا: مناسبة السياق، ففي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أتى بالرُّبوبيَّة؛ لأنَّه خطابٌ عامٌّ يشمل كلَّ مربوب، أمّا في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ فهو خطاب خاصٌّ بالمؤمنين، لذلك أتى بلفظ الألوهيَّة دون الرُّبوبيَّة التي هي أعمُّ وأشمل من الألوهيَّة، فعطاء الرُّبوبيَّة يشمل كلَّ النّاس مؤمنهم وكافرهم، أمّا عطاء الألوهيَّة؛ فهو خاصٌّ بالمؤمنين الذين يتَّبعون منهجه سبحانه[3].

ثانيًا: تأكيدُ عظمة الفضل الذي أعدَّه الله للمؤمنين؛ فاسم الله الجليل يدلُّ على الكمال والعظمة؛ وعليه فإنَّ الفضلَ المضاف إلى الإله العظيم لا بدَّ أنْ يكون عظيمًا.

ثالثًا: تربية المهابة والعظمة في قلوب المؤمنين، فهم يؤمنون بالله إلهًا عظيمًا معطيًا، ممّا يزيدهم أملًا وثقةً بفضله سبحانه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/334.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/218، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 9/5277.

الفاءُ بين التفريعِ الذي يتمِّم الكلام ويكمِّله وبين إفادةِ معنى الشرط

معنى الفاءِ في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾، و ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾:

يحتمل معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ وفي قولِه: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون الكلام تفريعًا عمّا سبق، فتكون (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ تفريعيَّة اُفتتِحت بها الجملة؛ لأنَّه تفرَّع عن كونِ القرآن هدًى ورحمة للمؤمنين تنبيهُهُم إلى أنَّ ذلك فضلٌ من اللّه عليهم، ورحمةٌ بهم يحقُّ لهم أن يفرحوا بهما، وأن يقدروا قدرَ نعمتها، وأن يعلموا أنَّها نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المال التي حُرِم منها أكثرُ المؤمنين، ومُنِحها أكثرُ المشركين، وتقديرُ نظم الكلام: قل لهم فليفرحوا بفضل اللّه وبرحمته بذلك ليفرحوا[1].

وأمّا (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾؛ فإنَّ القرآن لَمّا قصدَ توكيد الجملة كلِّها - بما فيها من صيغة القصر - قرنَ اسمَ الإشارة بها؛ تأكيدًا لفاء التفريع التي في ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾؛ لأنَّه لما قُدِّم على متعلَّقه؛ قُرن بالفاء لإظهارِ التفريع في ابتداء الجملة[2].

ثانيها: أن يكون الكلام استئنافًا ناشئًا ممّا تقدَّم من النعمة على المؤمنين بالقرآن، فتكون (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ رابطةً لجواب الشرط، والفاء في ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ مؤكِّدة للربط؛ لأنَّه لّما قدَّم المجرور - وهو ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ - حصل بتقديمه معنى الشرط؛ فقُرنت الجملة بعده بالفاء التي تربط الجواب لقصد إفادة معنى الشرط[3]، والمعنى: إنْ علموا ذلك؛ فبذلك فليفرحوا.

ثالثها: أن تكون الفاءُ تفريعيَّةً في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ فصيحةً في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، والتَّقدير: قل لهم بفضل

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/205. وهذا كثير في الاستعمال، كقوله: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26].

اللّه وبرحمته، فافرحوا، فبذلك الفرحُ إن تحقَّق، فليفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون.

معنى الباءِ في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ تحمل معنيين:

الالتصاقُ بفضل اللّه ورحمته سببُ الفرحِ العظيم

أحدهما: الإلصاق، والمعنى: فليفرحوا ملتصقين متلبِّسين متمسِّكين بالقرآن الذي هو فضلُ اللّه ورحمته، والآخر: السّببية، والمعنى: فليفرحوا بسبب فضل اللّه ورحمته، وهو القرآن الكريم، فهو سببُ كلِّ فرحٍ.

والمعنيان يجتمعان في الآيةِ، فالالتصاقُ بفضل اللّه ورحمته سببٌ للفرح العظيم.

نكتة إظهار اسم الإشارة ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

الإشعار بعلوِّ شأنِ الفضل والرحمة وتجسيدهما

اسم الإشارة (ذلك) اسم ظاهرٌ وُضع موضِع المضمر، فلم يقل: (فبهما فليفرحوا)؛ وفائدة هذا الإظهار هو الإشعارُ بعلوِّ شأْن الفضل والرحمة بالتَّنصيصِ عليهما إشارةً، وإبرازِهما بالتَّشخيص والتَّجسيد.

الغرضُ من التعبير باسم الإشارةِ للبعيد في: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾:

الفرحُ البهيجُ لا يكون إلّا بعد الاجتهادِ والمثابرة

الإشارة في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ للمذكور، وهو مجموعُ الفضلِ والرحمةِ، واختير للتعبير عنه اسمُ الإشارة (ذلك) الذي يُستخدم للبعيد؛ لأمورٍ:

الأوَّل: لِما فيه من الدَّلالة على التَّنويه بفضل اللّه ورحمته، وتعظيمهما، وبيان بُعْدِ درجتهما[1]، مع زيادة التمييز[2].

الثّاني: مقتضى الإشارةِ للبعيدِ دعوةُ المخاطَبين للحرصِ على نيل الفضل والرحمة، وبذل الجهد لذلك، فإنَّ اسم الإشارةِ للبعيدِ يومئ إلى الاجتهادِ والصَّبر لتحصيل ذلك الفرح البهيج.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

الثّالث: بيان أنَّ هذا الفرح لا يناله الكسالى ولا البطّالون من النّاس؛ إذ هو بمنزلةٍ سامقةٍ.

بلاغةُ الحذف والإطناب:

الجمعُ بين وجازةِ اللّفظِ وإطنابِ المؤكّدات جزالةٌ وفخامةٌ

في قوله تعالى ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ حذفَ البيانُ الإلهيُّ الفعل (ليفرحوا) المقدَّر وهو ما تتعلّق به الباء؛ لدلالة المذكور عليه؛ إذ أصلُ الكلام من حيث الصَّنعة: (بفضل اللّه وبرحمته فليفرحوا، فبذلك فليفرحوا)[1]، فصار مفيدًا مفادَ جملتين متماثلتين مع إيجازٍ بديعٍ[2].

وبالمقابل أطنبَ البيانُ الإلهيُّ بذكر: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾؛ إذ الظاهر أنَّ قوله: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ جملتان، حذف في الأولى ما تتعلَّق به الباء ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، والتقدير: (قل بفضل اللّه وبرحمته ليفرحوا)، ثمَّ عُطفت الجملة الثانية على الأولى ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ على سبيل التوكيد. قال الزمخشري: "والتكريرُ للتقرير والتَّأكيد، وإيجابِ اختصاصِ الفضل والرَّحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا"[3]، وتقدير معنى الكلام: قل فليفرحوا بفضل اللّه وبرحمته لا سواهما فليفرحوا بذلك لا سواه[4]، ولا يخفى أنَّ هذه التَّقديرات مبنيَّةٌ على صنعةِ الكلام، وإلّا فنظم الآيةِ جاءَ بديعًا في معناه وفحواه، وهو لا يحتاجُ إلى تلك التَّقديرات؛ لأنَّها تنقله من مقام الإعجازِ إلى مقامٍ آخر، ومن تأمَّل النَّظم؛ عَلِمَ ما فيه من بديع الرَّصفِ وجليلِ الوصفِ.

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾:

الأمرُ بقصد الإلهابِ والتَّهييج

(اللام) في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ هي لام الأمر، والأصل أنَّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/30.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/353، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/75.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/204.

اللام في فعل الأمر للمخاطَب والغائب، إلا أنَّ العرب حذفوا اللام في فعل المأمور المخاطَب؛ لكثرة الاستعمال، وحذفوا التاء أيضًا، وأدخلوا ألف الوصل، فأصبحت (افرحوا)، وبقي الأمر باللام في الغائب على الأصل (ليفرحوا)، وغرضُ الأمر التَّحريضُ والإلهاب والتَّهييجُ على إتيانِ أسبابِ الفضل والرَّحمة، أي: إن كان من شيءٍ يُفرحُ به؛ فافرحوا بهذين الأصلين العظيمين.

دلالةُ الإتيانِ بمفردةِ الفرحِ: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾:

فرحٌ يُشعرُ بسرعةِ خيرٍ يجدُه المؤمنون وسوءِ بَطَرٍ يعيشهُ المشركون

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ بمفردة الفرح دون السرور، رغم أنَّهما - من حيث المعنى اللُّغوي - متقاربان دلاليًّا؛ إذ يشتركان في أنَّهما خلاف الحزن، وبهما يحصلُ الشُّعور بانشراح الصدر وارتياح القلب؛ وذلك لِما في معنى الفرح من مَلۡمَحٍ دلالي يُميّزه عن السُّرور، وهو ارتباطه باللَّذة العاجلة، والتخلُّص العاجل من الثقل والغمِّ، وظهور آثاره وعلاماته على ظاهر الإنسان، ولذا كان استخدامه في سياق الحديث عن أحوال المشركين، وما سيلاقونه من حسْرةٍ وندامةٍ بسبب انشغالهم، وفرحهم المذموم بمتاع الدنيا، وتعلُّقهم بأسبابها، وإعراضهم عن خالق الأسباب والمسبِّبات، فكان استخدام الفرح أنسبَ عند الحديث عن حال المؤمنين بما يشير إلى سرعة الخير الذي يجدونه في الدُّنيا قبل الآخرة، وإلى سوء الفرح، وهو البطر الذي عليه المشركون بما يجمعونه من حطام الدنيا؛ إذ بضدِّها تتميَّز الأشياء، كما أنَّ التعبير بمفردة الفرح في الآية الكريمة دون مفردة الاستبشار هو الملائم؛ لأنَّ الفرحَ بالمحبوب يكونُ بعد حصوله، والاستبشار يكون به قبل حصوله؛ إذا كان على ثقةٍ من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ [آل عمران: 170]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ فضل الله ورحمته

قد حصل في حياة المؤمنين تعظيمًا ومحبَّةً وإيثارًا؛ فالفرحُ بالعلم والإيمان والقرآن دليلٌ على تعظيمه عند صاحبه، ومحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيره، فإنَّ فرحَ العبدِ بالشيء عند حصوله له يكون على قدرِ محبَّته لهُ ورغبته فيه، فمَنْ ليس له رغبة في الشيء لا يُفرحه حصولُه له، ولا يُحزنه فواته، فالفرحُ تابعٌ للمحبَّة والرغبة(1).

سرُّ العدولِ عن خطابِ المقولِ لهم إلى الغيبةِ في: ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾:

الفرحُ بفضلِ الله ورحمته للمؤمنين جميعًا إلى قيامِ الساعة

التفتَ البيانُ الإلهيُّ من الخطابِ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى﴾ إلى الغَيبة بقوله تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾، ولم يقل: (فافرحوا)، وذلك لاختزالِ المعاني، والمعنى: قل لهم بفضل اللّه وبرحمته فافرحوا، فبذلك إن تحقَّق؛ فليفرحوا، وهذا على جعل الفاء فصيحةً، فجاءَ قولُه تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ سادًّا مسدَّ الأمر بالفرح، مع تعليله، مع ما في ذلك من تجديد الانتباه له والتأمُّل فيه، وتغيُّرِ الخطابِ من العام إلى الخاص، فالخطاب أوَّلًا كان مع النّاس جميعهم مؤمنهم وكافرهم، والخطابُ بالغيبة ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ للمؤمنين، فعدلَ عن الخطاب إلى الغيبة، لينبِّه على ذلك، وليدخلَ في الخطاب من لم يكن وقت نزول الآية من المؤمنين، فيشملَ بذلك عموم المؤمنين إلى يوم القيامة، ويؤكِّد ذلك حذف متعلَّق ﴿قُلۡ﴾ لقصد التعميم.

الغرض من التعبير بالجملةِ الاسميَّة في: ﴿هُوَ خَيۡرٞ﴾:

فضلُ الله ورحمته نعمةٌ لا توازيها أموالُ الدنيا وهو حكمٌ إلهي ثابتٌ

جاءت الجملة اسميَّةً، وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ لأمرين:

الأول: بيَّنتِ المقصودَ من القصْر المستفاد من تقديم المجرورين في قوله تعالى: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾(2)، وهو الفرحُ بفضلِ وبرحمته دون ما سواه من حطامِ الدنيا، والأموال التي

(1) ابن القيم، مدارج السالكين:/148.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/205.

تتباهى بها قريش، أي: إنْ كان شيءٌ يستحقُّ الفرح؛ فهو فضلُ اللّه ورحمته؛ فهما نعمةٌ تفوقُ نعمةَ المالِ التي حُرِم منها أكثر المؤمنين، ومُنِحَها أكثرُ المشركين بالظُّلم والتسلُّط على أموال المسلمين.

الآخر: أعطتْ هذا المعنى ثباتًا ودوامًا، فهو حكمٌ إلهيٌّ ثابتٌ لا يتبدَّل، ولا يتغيَّر، وأشارت إلى أنَّ السعادات الروحانية أفضلُ من السعادات الجسمانيَّة التي ليست غير دفعِ الآلام، ولا تنفكُّ عنها المكاره، ومتاعها لا يدوم، وتبعاتها حسرات[1].

معنى حرفِ (من) في: ﴿مِّمَّا﴾:

فضلُ اللّه ورحمته خيرٌ من كلِّ متاعِ الدنيا ابتداءً وانتهاءً

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ هي ابتدائيَّةٌ؛ ففضلُ اللّه ورحمتُه خيرٌ ممّا يجمعه النّاس، وهذه الخيريَّة شاملةٌ لكلِّ ما يجمعونه، إذ تبدأ ممّا يجمعه النّاس، وتنتهي بآخره، فهي أفادت الشُّمولَ، فخيريَّة فضل اللّه ورحمته أعلى من كلِّ الذي يجمعه النّاس من متاع الدُّنيا وزينتها وكلِّ ما فيها.

معنى (ما) في: ﴿مِّمَّا﴾:

عمومُ كون ما يجمعُه النّاس ماديًّا ومعنويًّا دون فضلِ الله ورحمته

(ما) في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ اسم موصول يفيد العمومَ، والمعنى: عطاءاتُ القرآن من الموعظة والشفاء الهدى والرحمة هي خيرٌ من كلِّ ما يجمعونه من الدُّنيا ماديًّا كان أو معنويًّا.

كما أنَّ في (ما) إجمالًا لم يُفصَّل، وذلك في وجه تفضيل الفضل والرحمة ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ على ما يجمعونه؛ لقصدِ إعمال النظرِ في وجوه تفضيله، فإنَّها كثيرةٌ، منها واضحٌ ومنها خفيٌّ[2]، ولتفخيم هذه الوجوه.

وقد أفاد مجيءُ العموم والإجمال في (ما) في سياق الآية؛ ليفيد المبالغة في تعظيمِ تفضيلِ عطاءات القرآن على ما يجمعونه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/269، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.

من حُطام الدنيا، فكلُّ ما يجمعونه لا يُداني هذه العطاءات العظيمة الكثيرة.

نكتة الإضافة في: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، والإسناد في: ﴿يَجۡمَعُونَ﴾:

العطاءُ المضافُ إلى الباقي سبحانه باقٍ، والعطاءُ المضافُ إلى الفاني فانٍ

أضافَ البيانُ الإلهيُّ الفضلَ والرحمة إلى اللّه بقوله: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، وأسندَ فعل يجمعون إلى ضمير النّاس بقوله: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾؛ ليُظهر البونَ الشاسع في الخيريَّة بينهما، فشتّان بين ما أُضيف إلى اللّه العظيم الباقي، وما أُسند إلى الضعيف الفاني؛ إذ لا مقارنة بينهما، فما أُضيف إلى العظيم الباقي؛ يكون عظيمًا لا يَحدُّه شيء، ولا يُقدَّر قدره، ولا حدَّ لزواله، فيشملُ الفضلَ والرحمة في الدنيا والآخرة، أمّا الأخروي؛ فظاهرٌ، وأمّا الدنيوي؛ فلأنَّ كمالَ النَّفس، وصحَّة الاعتقاد وتطلُّعَ النَّفس إلى الكمالات، وإقبالها على الأعمال الصالحة تكسَبُ الراحة في الدنيا والعيشة الهنيئة[1]، وما أُضيف إلى الضعيف الفاني فانٍ لا قيمةَ له ولا وزنَ له.

بلاغةُ التَّعبير بالفعلِ المضارع في: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾:

كلَّما تجدَّدَ الجمعُ للدنيا؛ زادتْ خيريَّةُ القرآن

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالمضارع في قوله: ﴿يَجۡمَعُونَ﴾ بدلًا من أنْ يقول: (جمعهم)؛ للدَّلالة على تجدُّد جمعِ المال وتكرُّرِهِ من طلّابه في كلِّ زمان ومكان، وذلك يقتضي عنايتهم بجمع الأموال، والمعنى: أنَّ فضل اللّه ورحمته خيرٌ ممّا يجمعه الكفار، ويستمرّون في جمعه؛ لأنَّهم وإنْ حصَّلوا ما به بعض الرّاحة في الدنيا؛ فهم شرارُ النُّفوس خساسُ المدارك[2].

كما أنَّ التعبير بصيغة المضارع يشير إلى بقاء خيريَّة القرآن متجدِّدةً بتجدُّد جمعهم للمال إلى قيام الساعة، أي: كلَّما تجدَّد جمعهم للمال؛ تجدَّدت خيريَّةُ القرآن على ما يجمعون.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.

توبيخُ الجامعين بـهـذا الـوصـفِ الغريبِ

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَجۡمَعُونَ﴾:

حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿يَجۡمَعُونَ﴾؛ فلم يقل: (هو خير مما يجمعونه)؛ لأمورٍ:

الأوّل: إفادة العموم، فيعمُّ كلَّ ما يجمعه النّاس من متاعِ الحياةِ الدُّنيا وزينتها في كلِّ زمانٍ ومكان، وهذا أبلغُ من ذكرِ المفعول به؛ لأنَّه يؤدّي إلى تخصيص بعضِ ما يجمعه النّاس دون بعض.

والإشارة إلى العموم فيما يجمعه النّاس من أعراض الدنيا يدلُّ على عِظَم فضلِ اللّه ورحمته؛ فإنَّهما خيرٌ وأبقى من كلِّ هذا المجموع مهما بلغ، ولذا فهما أولى بالطلب والتَّحصيل والفرح، فمَنْ فرحَ بهما؛ فقد فرحَ بأجلِّ مفروح به، لا بما يجمعُ أهلُ الدُّنيا منها، فإنَّه ليس بموضعٍ للفرح؛ لأنَّه عرضةٌ للآفات، ووشيكُ الزوال، ووخيمُ العاقبة[1].

الثّاني: إفادة الإبهام، قال الصاوي: "يجمعون، أي: من الدنيا وزخارفها، وأَبْهَمَها؛ إشارةً إلى أنَّها خسيسةٌ لا تساوي جناحَ بعوضة"[2].

الثّالث: معاملة المتعدّي معاملةَ اللّازم، ففيه توبيخٌ لهم، بجعل صفتهم اللّازمة هي الجمع، كأنَّه وَصَفَهم بالجامعين، وهو وصفٌ غريب عجيبٌ، سببه غرابةُ عنايتهم بالدُّنيا وزخرفها.

تـقـريـرُ خـيـريَّـةِ الـفـرحِ بالله عـلى الـفـرح بـحـطامِ الدنيا تثبيتٌ للمؤمنين وتـوبـيـخٌ للكافرين

توجيهُ القراءات القرآنيَّة في: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ قراءتان متواترتان هما:

الأولى: قراءةُ الجمهور بالياء ﴿يَجۡمَعُونَ﴾[3]، والضَّمير (الواو) عائدٌ على معلوم من الكلام، والمعنى: ليفرح المؤمنون أنْ جعلهم اللّه من أهل الفضل والرحمة، هو خيرٌ ممّا يجمعه الكفّار من الأموال[4].

(1) ابن القيم، مدراج السالكين: 3/149.
(2) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 807.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.
(4) البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن: 2/423، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.

الثانية: قراءةُ ابن عامر، وأبي جعفر، ورويس عن يعقوب بالتاء (تجْمَعونَ) بتاء الخطاب[1]، واخْتُلِفَ في توجيه هذه القراءة على أقوال:

الأول: أنَّ الخطاب للمشركين الذين شملهم الخطاب في أوَّل الآية بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، والمعنى: "فليفرَحِ المؤمنون هو خير ممّا تجمعون أيُّها المخاطَبون"[2]، فإنَّه بعد أنْ عمَّم الخطاب؛ خصَّ المؤمنين بالذكر وبالجدارة بالفرح، فبقي الخطاب لمن عدا المسلمين، وهم المشركون إذ ليس ثَمَّ غيرُ هذين الفريقين من النّاس هنالك، ولا يناسب جعْلُ الخطاب للمسلمين؛ إذ ليس ذلك أي جمعُ المالِ من شأنهم - كما تقدَّم آنفًا - بل إنَّهم ضحّوا به في سبيل الحقِّ، ويؤيِّد ذلك حالهم زمن نزول الآيات، ولأنَّه لا يظهر منه معنى التفضيل إلا بالاعتبار؛ لأنَّ المسلمين قد نالوا الفضل والرحمة، فإذا نالوا معهما المال لم ينقص ذلك من كمالهم بالفضل والرحمة[3].

وبناءً على ذلك يكون في الآية التفاتٌ من الغائب إلى المخاطَب، وهو في المعنى كقراءة الجماعة[4]، وغرضُ هذا الالتفات - مع الحمل على الانتباه والتفكير في المعنى ودفع السأمة والملل - هو التوبيخُ بالتصدّي والمواجهة الذي هو أشدُّ على النَّفس من التهديد بالغَيبة، وكذلك الإيماء بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

الثاني: أنَّه عنى المخاطَبين والغُيَّب جميعًا، إلّا أنَّه غلَّب المخاطَب على الغائب، كما يُغلِّب التذكير على التأنيث، وكأنَّه أراد المؤمنين وغيرهم[5]، وعلى هذا المعنى يكون غرض الآية التَّنبيه والتحذيرَ من حطام الدنيا للناس جميعًا مؤمنين وكافرين؛ تحذيرٌ للكافرين مع توبيخ وتعنيف، وتنبيهٌ للمؤمنين حمايةً ووقايةً لهم بعد المدحِ والثناء.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَحُ والسُّرورُ:

قد يُسمّى الفرح سرورًا، وعكسه[6]، إلا أنَّه عند الرجوع إلى المعنى اللُّغوي،

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/117، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/206.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/226.
(5) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع: 4/282، والواحدي، التفسير البسيط: 11/234.
(6) الزبيدي، تاج العروس: (فرح).

الـفـرحُ خـفَّـةٌ فـــي الـقـلـب بـلـذَّةٍ عاجلة، والسرورُ انشراحٌ خفيٌّ في القلب بلذَّةٍ حقيقيَّة

والاستعمال القرآنيِّ لكلٍّ منهما نلاحظ فروقًا دقيقة بينهما، وتوضيح ذلك:

الفرح في اللغة: نقيضُ الحزن، وهو السُّرور والابتهاج، وهو أنْ يجدَ في قلبه خفَّةً، ويتخلَّصَ ممّا يُثقل ويُغمُّ، والفرح: أيضًا الأَشَرُ والبَطَر[1]، وعرَّف الراغب الفرح بأنَّه: "انشراحُ الصَّدر بلذَّةٍ عاجلة، وأكثر ما يكون ذلك في اللَّذّات البدنيَّة الدنيويَّة"[2].

والسُّرور في اللُّغة: من سَرَّ، وأصل مادة (سرر): الخفاء، والسِّرُّ: خالصُ الشيء، ومنه السُّرور؛ لأنَّه أمرٌ خالٍ من الحزن[3]، والسُّرور: الفرح وهو خلاف الحزن[4]، والسُّرورُ: ما ينكتم من الفرح[5]، والسُّرور: ارتياحٌ في القلب عند حُصول نفعٍ، أَو توقُّعه، أَو اندفاع ضَرَر، وانشراح الصدر بلذَّة فيها طمأنينة الصدر عاجلًا وآجلًا، وقيل: حقيقةُ السُّرور انشراحٌ يحصل في القلب فقط، من غير حصولِ أثره في الظاهر[6]. يتبيَّن من خلال المعنى اللُّغوي للفرح والسُّرور أنَّهما يتقاربان دلاليًّا؛ إذ يشتركان في أنَّهما خلاف الحزن، ويحصل فيهما شعورٌ بانشراح الصدر وارتياح القلب.

وتظهر بعض الملامح الدلاليَّة التي تميِّز كلًّا منهما عن الآخر:

فالفرح: أكثر ما يرتبط باللَّذة العاجلة التي أكثر ما تكون في اللَّذات البدنيَّة الدنيويَّة، فيشعر صاحبه بخفَّةٍ في قلبه، ويتخلَّص ممّا يثقل ويُغمُّ، كما أنَّ الفرح قد يصاحبه بطرٌ، فيكون مذمومًا، وأكثر استعمال الفرح في القرآن أتى في معرض الذَّمِّ.

(1) الفيومي، المصباح المنير، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (فرح).
(2) الراغب، المفردات، ص: 628.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(5) الراغب، المفردات، ص: 404.
(6) الزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سرر).

وأما السُّرور؛ فإنَّه لا يكون مذمومًا، ولم يردْ في معرض الذَّمِّ، ويرتبط "بما هو نفع أو لذَّة على الحقيقة"[1]، ولم يرد السُّرور في القرآن إلا في اللَّذة الأخرويَّة[2]، كما أنَّه يتميَّز بالخفاء، ويختصُّ بالقلوب، فلا تظهر علاماته على ظاهر الإنسان، فالسُّرور هو ما ينكتم من الفرح.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 278.

(2) المواضع التي ورد فيها هي قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١﴾[الإنسان: 11]، وقوله: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾[الانشقاق: 9]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾[الانشقاق: 13].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ٥٩﴾ [يونس: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها ثلاثةُ أوجهٍ:

صنائعُ الصَّنائع يُنادي بعضُها على بعضٍ

الأوَّل: لَمّا ذكر الله تعالى سابقًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وكان المراد بذلك كتاب الله المشتمل على التحليل والتحريم، وذكر في الآية بعدها وجوب العمل والفرح بما تضمَّنه كتابه فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أعقبَ ذلك ببيان فسادِ شرائعهم، وأحكامهم من الحلال والحرام من غير مستندٍ في ذلك إلى وحي، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[1].

الثاني: لَمّا تحدَّثت الآيات السابقة عن اضطراب تصوُّر المشركين للألوهيَّة، وتكذيبهم بالبعث والقرآن، وعن إبطالِ دعاويهم بأوضح حجَّة أعقبت الآيات ذلك بإظهار خَطَلِ عقولهم واختلال تكذيبهم، فقد ارتَبَكوا في دينهم بما يلزمهم منه مماثلة الحالة التي أنكروها، فقال سبحانه مقيمًا الحجَّة عليهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[2].

الثالث: لَمّا ختم الله الآية السابقة بقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ – أي: فضل الله ورحمته خيرٌ من أموال المشركين التي يجمعونها – أعقبَ ذلك تعنيفًا لهم في تحكيمهم؛ إذ بيَّن في هذه الآية أنَّ هذه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/77.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207 - 208.

الأموال هي التي رزقهم الله إيّاها، فجعلوا منها حلالًا، ومنها حرامًا افتراءً على الله، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[1].

فالمناسبة بين الآيتين: هي بيانُ أنَّ هؤلاءِ الجامعين لمتاعِ الحياةِ الدُّنيا قادهم هوسُهم في الجمعِ إلى استحلال الحرامِ، والافتراء عليه، فهو من ترتيب شنائعِ الأعمال على غيرها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتُم﴾: الراء والهمزة والياء أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة، والرَّأْيُ: ما يراه الإنسان في الأمر[2]، والرُّؤية بالضم: إدراكُ المرئيِّ، وذلك أضرب؛ الأول: النظر بالعين التي هي الحاسَّة وما يجري مجراها، والثاني: بالوهم والتخيُّل، والثالث: بالتفكُّر، والرابع: بالقلب، أي: بالعقل[3]، والرُّؤْية: النظرُ بالعين والقلب، والرُّؤْية بالعين يتعدّى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم يتعدّى إلى مفعولين، وإذا عُدّي رأيت بـ (إلى)؛ اقتضى معنى النَّظر المؤدّي إلى الاعتبار، و﴿أَرَءَيْتُم﴾: من رأى العِلميَّة[4].

والمراد في الآية: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ رأى العِلميَّة، والمعنى: أخبروني أنتم وأعلموني[5].

2) ﴿أَذِنَ﴾: الهمزة والذال والنّون أصلان متقاربان في المعنى، متباعدان في اللفظ، أحدهما أُذُنُ كلِّ ذي أُذُنٍ (الجارحة)، والآخر العِلْم والإعلام، تقولُ العرب: قد أَذِنْتُ بهذا الأمر: أي: عَلِمتُ، وآذَنَني فلان: أعلمني[6]، والأَذانُ: الإعلام، وأَذِنْتُ له في كذا: أَطْلَقْتُ له فعله[7]، والإِذْنُ في الشيء: إعلامٌ بإجازته والرخصة فيه، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذن[8]، والإذْنُ يأتي بمعنى الإباحةِ، أو القبولِ والتَّمكين، مع العلم بقدرِ ما مُكِّن فيه[9].

والمراد في الآية بـ ﴿أَذِنَ لَكُمْۖ﴾ موافق للمعنى اللغويِّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207 - 208.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(3) الراغب، المفردات، ص: 374.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رأي).
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/28، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 6/3620.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(7) الجوهري، الصحاح، والفيومي، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (أذن).
(8) الراغب، المفردات، ص: 71.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أذن).

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يأمرُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ أنْ يقول للمشركين: أخبروني، وأعلموني هذا الرزق الذي خلقه اللّه تعالى لكم، وأفاضه عليكم، وجعله حلالًا لكم لتنتفعوا به، فحرَّمتم بعضَه على أنفسكم، وأحللتم بعضه، وقل لهم: هل أباحَ اللّه لكم، ورخَّص تحريم ما حرَّمتم، وتحليل ما أحللتم، أم أنَّكم بهذا التحريم والتحليل تختلقون على اللّه الكذب؟ وفي هذا إنكارٌ وتعنيفٌ لهم على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم، وإظهارٌ لكذبهم فيما نسبوه إلى اللّه.

التَّـحـلـيـلُ والتَّـحـريـم عن غيرِ إذنِ الشَّرعِ افـتـراءٌ على الله عظيم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ الافتتاح بفعلِ الأمر في: ﴿قُلۡ﴾ وتكرارِه:

افتتحَ البيانُ الإلهيُّ الآية بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾، وهو أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم﴾؛ لأغراضٍ عدَّة منها:

خـطـابٌ يُظهرُ أهـمـيَّـةَ المقولِ ومـقـامَ الـنَّـبـيِّ الرَّسول

الأول: قصدُ توجيهِ الأسماعِ إلى مضمون ما سيُلقى عليهم[1]، أي: لبيانِ أهمية المقول.

الثاني: الإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ مجرَّدُ مبلِّغٍ ورسولٍ أمينٍ لا يغيِّر، ولا يبدِّلُ حرفًا من عنده، وأنَّه هو الوحيد المكلَّف بإبلاغهم وإنذارهم، بما يدلُّ على علوِّ مقامه ﷺ.

الثالث: يحتمل أنْ يكون الأمر ﴿قُلۡ﴾ خطابًا للجميع، فأمرَ كلَّ واحدٍ بأنْ يقول ذلك[2]، وفي هذا دعوةٌ إلى الحوار وإقامة الحجَّة.

أمّا ﴿قُلۡ﴾ الثانية ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾ فهي تأكيدٌ لـ ﴿قُلۡ﴾ الأولى، أي: تأكيدُ الأمرِ بالاستخبار؛ لزيادة إشرافِ الأسماع عليه[3]،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/354، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/77، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.

والاهتمامِ بمضمونه، وهو تقريعُهم وتعنيفُهم على ما ابتدعوه من التَّحليل والتَّحريم، وإظهار كذبهم فيما نسبوه إلى الشَّرع.

تقريرُ الوحيِ وإلزامُ المنكرين لهُ من المشركين بالدَّليلِ العقلي

الغرضُ من الاستفهامِ في: ﴿أَرَءَيْتُم﴾، و ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ﴾:

قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ﴾ متعلّق بقوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾، ولذا فإنَّ الاستفهام في ﴿أَرَءَيْتُم﴾ تقريريٌّ، باعتبار إلزامهم بأحد الأمرين؛ إمّا أنْ يكون اللّه أذن لهم، أو أنْ يكونوا مفترين على اللّه، وقد شِيب التقريرُ في ذلك بالإنكار على الوجهين(1).

التهديدُ والوعيدُ خِطابًا أوقعُ منه غيبةً

نكتةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى الخطابِ في: ﴿أَرَءَيْتُم﴾:

التفتَ البيانُ الإلهيُّ من الغَيبة بقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ - التي فيها إشارة إلى مقْتِه للمشركين، وتبعيدهم - إلى الخطاب بقوله: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم﴾؛ وذلك لِما في الخطاب، - أي: مخاطبتهم - من التَّنبيه الشديد، والإيقاظ بالوعيد؛ لبيان ضلالهم، وما اقترفوه من قلب الحقائق، وحرمان أنفسهم من نِعَم اللّه، وعلى رأس تلك النِّعم ما في القرآن من الموعظة والشفاء؛ إذ التَّهديدُ والتَّعنيف والتَّقريع خطابًا أشدُّ منه غَيبةً، وللإيماء بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

(مـا) إمّا موصوليَّة تفيدُ العمومَ، وإمّا استفهاميَّة تفيدُ التَّنبيه

معنى ﴿مَّآ﴾:

﴿مَّآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ تحتمل وجهين:

الأول: اسم موصول بمعنى الذي، والعائد محذوف، أي: ما أنزله، وهو في موضع نصب بـ أرأيتم، وهو المَفعول الأول، وجملة ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ﴾ هي المفعول الثاني، وغرض ﴿مَّآ﴾ في الآية العمومُ والتفخيم لنعمِ اللّه العظيمة التي لا تُحصى، فهي منزَّلةٌ من العظيم سبحانه.

الثاني: اسم استفهام قُدِّم لصدارته، وهو في موضع نصب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.

بـ﴿أَنزَلَ﴾[1]، وهي مُعَلِّقَةٌ لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ فتكون ﴿مَّآ﴾ بمعنى أي، والتقدير: أخبروني أيَّ شيء أنزل الله لكم. أو في محلِّ رفع بالابتداء، والجملةُ من قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾ خبره، والعائدُ محذوفٌ، والتقدير: أخبروني أيُّ شيء أَذِن لكم فيه؟ وهذه الجملةُ الاستفهاميّةُ معلِّقَةٌ لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾[2]، وغرض ﴿مَّآ﴾ في الآية: هو التنبيهُ على عِظم هذا الرزق الحلال الذي خلقه الله للانتفاع به، فإذا بِهم يُحرِّمون بعضَه حمقًا وضلالًا.

سرُّ التَّعبير بالماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

أعظمُ الافتراءِ أن يكون في النِّعمِ الثّابتة والأرزاق المتحقِّقة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن إنزالِ الرزق بصيغة الماضي ﴿أَنزَلَ﴾ دون المضارع، مع أنَّ الرِّزقَ ينزل عليهم بتجدُّدٍ واستمرارٍ؟ وذلك لأمرين؛ وهما: الدَّلالة على تحقُّق وقوع إنزال الرزق، فهم قد عاينوه، ويتقلَّبون في آثاره، والآخر: مناسبة قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ التي تعني: أخبروني، وأعلموني، والإخبار يكون عن شيء حدث، وانقضى.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإنزالِ ﴿أَنزَلَ﴾:

الـرِّزقُ والشَّـرع نـــازلان مـن السَّماءِ فالأوَّل قـوت الأبـــدانِ والآخـــر قـوت الأرواح

معنى أنزل، أي: خلق وأنشأ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [الزمر: 6]، وقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25][3]، وقد عبَّر البيانُ الإلهيُّ عن الخلق بالإنزال؛ لأمور:

الأول: التنبيه على أنَّ الرِّزق مقدَّرٌ في السماء محصَّلٌ منها.

الثّاني: بيان أنَّ ما يتوقَّف على وجود الرِّزق أو بقائه يكون بأسباب سماويةٍ من المطر والكواكبِ في الإنضاج والتلوين[4].

(1) النحاس، إعراب القرآن: 2/151.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/226.

(3) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/487.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.

الثالث: الإشارة إلى أنَّه لا يمكن للمشركين ادِّعاؤه لأصنامهم؛ لنزولِ أسبابه من موضع لا تعلُّق لهم به بوجهٍ[1].

الرابع: الإيماءُ إلى أنَّ هذا الرِّزق رحمةٌ نازلةٌ من اللّه[2]، وهو لصالح الإنسان، لأنَّ معنى أنزل: أوجد وخلق من أعلى، وما دام كلُّ شيء قد وُجد بمشيئة من هو أعلى من كلِّ الوجود، فالإيجادُ إذًا لصالحك أيُّها الإنسان مباشرة أو بوسائط[3].

الخامس: الإشارةُ إلى نزول الشَّرائع، فكما أنَّ اللّه هو الذي أنزل الرِّزق؛ فهو الذي أنزل الشَّرع، فوجب على النّاس اتِّباعُ شرعه، وعدمُ انتهاك أمره، وشكر رزقه وعدم الافتراء فيه.

بلاغةُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾:

لـلـرِّزقِ هيبةٌ ومـحـبَّـةٌ في نفوسِ العبادِ سـرُّهـا لـفـظُ الجلالة

صرَّح البيانُ الإلهيُّ بالفاعل ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه، فلم يأتِ به مضمرًا فيقول: (أرأيتم ما أنزل لكم من رزق)، كما أنَّه عبَّر بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلًا من لفظ الرُّبوبيَّة (ربّكم) فلم يقل: (أريتم ما أنزل ربُّكم من رزق) ومن المعلوم أنَّ الرِّزقَ من مقتضيات توحيد الرُّبوبيَّة؛ وذلك لأمرين:

الأول: تأكيدُ عظمة الرزق المنزَّل من اللّه، فاسم (اللّه) يدلُّ على صفات الكمال والقدرة والعظمة للملك الأعلى المحيط بكلِّ شيء عظمة وعلمًا التي منها الغنى المطلق[4]، وعليه فالقادر العظيم سبحانه لا يخلقُ إلّا عظيمًا.

الآخر: أنَّ لفظ الألوهيَّة (اللّه) يدلُّ على التفرُّد بخلاف لفظ (الربِّ) الذي قد يُضاف للمخلوقين، فنقول: ربُّ الأسرة وربُّ العمل، وفي هذا إشارةٌ إلى تفرُّده سبحانه في إنزال الرزق.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3597.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6007.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/147.

غرضُ ذكرِ قيدِ ﴿لَكُم﴾ وتقديمه على ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾:

خطابُ (لكم) ترغيبٌ بالإيمان، وتخجيلٌ من الكفران

قيَّد البيانُ الإلهيُّ إنزالَ الرزق من اللّه بـ﴿لَكُم﴾، وقدَّمه على قوله: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ للامتنانِ على العبادِ، فإنَّ هذا الرِّزق أنزله اللّه لهم، فهم مقصودون بالإنزالِ، ففيه ترغيبٌ بالإيمان، وتخجيلٌ من الكفران، وللدَّلالة على أنَّ المرادَ بالرزق ما حلَّ لهم[1]، أي: رزقٌ خاصٌّ بهم[2]؛ لأنَّه بمعنى ما قُضي لانتفاعهم، والمقتضي لانتفاعهم هوَ الحلال، فيكون الرِّزق المذكور هنا قسمًا منه، وهو القسم الحلال، ولذلك وبَّخهم على جعلِ بعضه حرامًا[3].

معنى ﴿مِّن﴾:

تحتمل ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ وجهين:

مَن اعتدى على شرعِ الله في التَّحليل والتَّحريم؛ فقد أعظمَ الفرية

الأوَّل: بيانُ جنسِ الرزق، أي: بيَّنت أنَّ ما أنزله اللّه هو الرزق، والمعنى: أيَّ رزق كان[4]، وهذه تفيد عموم ما خلقه اللّه، وسخَّره لنا من سائر منافع الكون، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الأصلَ فيه الإباحةُ، إذ الأصل في الأشياء الإباحة[5].

الثاني: التَّبعيض، والمعنى: أنَّ ما أنزلهُ اللّه هو بعضِ الرزق، وقد ضعَّف ابن عرفة ذلك، ورجَّح كونها لبيان الجنس[6].

وعلى القول بأنَّها بيانيَّة ففيها بيانُ أنَّ المشركين عندهم قابليَّة الاعتداءِ على التَّشريعات، فهم يعتدون على أيِّ رزقٍ كان، فيجعلونه حلالًا وحرامًا، وهذا وإن لم يستوعب الأرزاق فعلًا، لكنَّه قد

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(3) الشهاب الخفاجي، عنايه القاضي: 5/41، والقونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/503.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/336.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/345.

استوعبه قوَّةً، فمن اعتدى على حقِّ اللّه في التَّشريعِ في رزقٍ واحدٍ؛ فقد اعتدى على سائر الأرزاق، وفي الآيةِ تلويحٌ لمن يحرِّم، ويحلِّل من دون اللّه تعالى في سائر الزَّمان.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَجَعَلْتُم﴾:

المسارعةُ في الاعتداء على حقِّ اللّه في شرعه كفرانُ نعمةٍ ونكرانُ إحسان

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ عاطفة، والمعطوف عليه جملة صلة الموصول (أنزل لكم)، وهذه الفاء العاطفة تفريعيَّةٌ، أي: (أرأيتم الذي أنزل اللّه لكم فجعلتم منه)[1]،وهي تفيدُ التعقيب الذي يُشير إلى مسارعتهم في مقابلة رزق اللّه ونعمه بالافتراء والشِّرك والاعتداء على حقِّ اللّه وحده في تشريعِ التحريم والتَّحليل الديني، وهذا في غاية النُّكران، كما أنَّها تحمل في طيّاتها معنى التَّعجُّب والإنكار؛ إذ إنَّ من يُرزق الرزق يقابله بالشُّكر والإحسان، لا الاعتداء والنكران، وهم قد قابلوا إحسانَ اللّه لهم بالاعتداء على حقِّه في التَّشريعِ، وهذا في غاية الكفران.

فائدةُ ذكرِ (من):

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى؛ فأوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

عبَّرَ القرآن بحرف الجرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾، ولم يقلْ: (فجعلتموه)؛ للدَّلالة على معنى التَّبعيض، كما هو فعلهم؛ إذ إنَّ (من) تبعيضيَّة، والمعنى: أخبروني عمّا أنزل اللّه من رزق حلالٍ لكم للانتفاعِ به، فجزَّأتموه، أو بعَّضتموه، أي: جعلتم بعضه حرامًا وبعضه حلالًا، وقلتم: هذا حلال، وهذا حرام بزعمكم افتراءً على اللّه[2].

وهذا التَّعبير يومئُ إلى أنَّهم حرَّموا، وحلَّلوا بناءً على تفصيلاتٍ يرونها، أي: إنَّهم لم يُشرِّعوا في التَّحليل والتَّحريم إلّا ولهم سابق نظرٍ في ذلك، فدلَّ هذا الحرف على التَّقسيم، أي: جعلتهم منه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156، والزحيلي، التفسير المنير: 11/204.

حرامًا باعتباراتٍ، وجعلتم منه حلالًا باعتباراتٍ أخرى، وهذا يدلُّ على أنَّ ما يطرأ على العقل قد يقضي على صاحبه باقترافِ الذُّنوبِ العظيمة، وأنَّ على الإنسان ألّا يعتدي على الشَّرع بحجَّة ما يراه صوابًا ومصلحةً، فإنَّ المصلحة هي في حكم اللّٰه تعالى لا في حكم سواه.

نكتةُ حذفِ (منه) في: ﴿وَحَلَٰلًا﴾:

إذا تساوى الإثبات والحذفُ؛ فالحذفُ أبلغ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ لفظة (منه) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾، فلم يقلْ: (فجعلتم منه حرامًا ومنه حلالًا) رغم أنَّ الأصل أنْ يُعاد؛ إلا أنَّه لم يُعِدْهُ اختصارًا؛ إذ دلَّ عليه دليلٌ، ولم يَتأثَّرِ المعنى بحذْفِه، فكان الإيجازُ أبلغَ.

بلاغة الطباق في: ﴿حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾:

شمولُ افترائهم للتحليل والتحريمِ دليلٌ على كمالِ قبحِ صنيعهم وبشاعةِ فعلهم

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: الحرام والحلال؛ للدَّلالة على بشاعة فعلهم وكمالِ قبحه؛ إذ جمعوا بين تحريم الحلال وتحليل الحرام، فهم أتوا على الطّامتين، ولم يكتفوا بإحداهما عن الأخرى، وهذا دليل الاستقصاء، فهم لم يحرِّموا فحسب، أو العكس، بل أتوا بالأمرين معًا، ولم يكتفِ النَّظم بالإشارةِ إلى الآخر بذكر أحدهما، كأن يقول: (فجعلتم منه حرامًا)؛ للنَّصِّ على أنَّهم صنعوا العظيمتين، وارتكبوا الحماقتين.

الغرض من تقديم ﴿حَرَامٗا﴾ على ﴿وَحَلَٰلٗا﴾:

التَّشدُّدُ في الدِّين منهجُ الجاهلين الأوَّلين

قدَّم البيان الإلهيُّ لفظة ﴿حَرَامٗا﴾ على لفظة ﴿وَحَلَٰلٗا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾؛ وذلك لأمورٍ:

الأوَّل: لأنَّه خلافُ الأصل، فالرِّزقُ حلالٌ في الأصل، فأوَّل ما يظهر أثرُ الجعلِ - وهو التصيير - فيما حُرِّم، أي: صيَّرتم منه حرامًا على أنفسِكم، ولم يكن كذلك بل كان حلالًا بمقتضى أنَّ اللّٰه لم يحرِّمه.

الثّاني: لدورانِ التوبيخِ على تحريم الحلال أكثر[1]؛ إذ إنَّه يشير إلى زيادةِ انطماسِ البصيرة عندهم، حيث إنَّ تحليل الحرام فيه طلبٌ للذَّة دنيويَّةٍ محرَّمة تطلبها النَّفس، أمّا تحريم الحلال؛ ففيه منعٌ للذَّةٍ فُطرت النَّفس على طلبها.

الثّالث: الإشارةُ إلى أنَّ تحريمهم هو تشديدٌ على أنفسِهم كما قال تعالى في حقِّ النَّصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: 27]، فهم يُسارعون إلى التَّشديدِ على أنفسهم؛ لظنِّهم أنَّ التَّشديدَ هو ما يُقنع النّاسَ بهم؛ ليظهروا بمظهر الحرص على الدّين.

الرّابع: الإيماءُ إلى أنَّ هناك مصلحة خفيَّةً لدى من يُحرِّم، فهو يمنع النّاس من بعض الحلال؛ لينتفع هو به، وهذا شائعٌ في خَدَمة الآلهة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: 138 - 139].

غرضُ الاستفهامِ في: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ﴾:

من تعدّى شرعَ الله؛ وُبِّخ بعد إقـراره بباطلِه وأُنكِر عليه

يحتمل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وجهين:

الأول: تقريريٌّ، وهذا على عدِّ ﴿أَمْ﴾ متَّصلة معادلة للهمزة، والمعنى: (أخبروني الله أذن لكم في التَّحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذِّبون على الله في نسبة ذلك إليه)"[2]، "فهو استفهامٌ لطلبِ التعيينِ وهو الأَوْلى"[3]، وفي هذا استهزاءٌ بهم وتوبيخٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/354.
(3) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 807.

لهم توبيخًا هو في أحكَمِ مواضعه، وقد ساقه على طريق السؤال بحيث إنَّهم لا يقدرون على الجواب أصلًا بغير الإقرار بالافتراء[1].

الثاني: إنكاري؛ باعتبار ﴿أَمۡ﴾ منقطعة تفيد معنى الإضراب الانتقالي من التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تُفيده همزتُها من التَّوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريرِه[2]، أي: الاستفهام الإنكاري هنا إنكارٌ للواقع، فهو بمعنى التَّوبيخ[3]، قال الجرجاني: "واعلم أنَّ الهمزة فيما ذكرنا تقريرٌ بفعلٍ قد كان، وإنكارٌ له لِما كان، وتوبيخٌ لفاعله عليه"[4]،وكفى بهذا زجرًا بليغًا عن التجوُّز فيما يُسأل عنه من الأحكام، وباعثًا على وجوب الاحتياط فيه، وألّا يقولَ أحدٌ في شيء: جائزٌ أو غير جائزٍ إلّا بعد إيقانٍ وإتقان، ومن لم يوقن؛ فليتَّق اللّه، وليصمتْ، وإلّا فهو مفترٍ على اللّه[5].

الغرضُ من تقديمِ المسند إليه: ﴿ٱللَّهُ﴾:

الإذنُ في التَّشريعِ متوقِّفٌ على إذنِ اللّه تعالى وما كان بدونه فباطلٌ

قدَّم البيانُ القرآنيُّ المسند إليه، وهو الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ على المسند الفعلي ﴿أَذِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾، ولم يقل: (قل أأذن اللّه لكم؟)؛ لثلاثة أمور:

الأول: زيادةُ التعظيم، فإنَّ ذكْرَ لفظ الجلالةِ فيه تعظيمٌ؛ فإذا قُدِّم؛ زاد التَّعظيمُ، وذلك لزيادة تربية المهابة في القلوب، وإدخال الروعة فيها؛ تحذيرًا وتخويفًا لهم من الكذبِ والافتراء على اللّه بادِّعائهم أنَّه قد أذن لهم في تحريم ما أحلَّ، وتحليل ما حرَّم؛ فالافتراءُ على العظيم أمرٌ عظيم.

الثاني: مناسبةُ السياق الذي هو تعظيم اللّه تعالى في مواجهة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/147.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3597.
(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/114.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/354.

اعتدائهم على حقِّ اللّه تعالى؛ وهو تشريع التَّحريم والتَّحليل الدينيّ الذي ليس لأحدٍ سواه حقٌّ في تشريعهما.

الثالث: الاختصاص؛ ليكون المعنى: أنَّ الإذن والشَّرع مختصٌّ باللّه وحده سبحانه، فلا يكون إلّا منه، فلمّا أنكر أن يكون اللّه قد أذن لهم، فهذا يُفيد أنَّه لا أحد له أن يأذن سواه.

كثرةُ المعاني للَّفظ في سياقِه سعةٌ تناسبُ سعةَ رزقِ الله

دلالةُ اختيارِ: ﴿أَذِنَ﴾:

عبَّر القرآنَ بمفردة ﴿أَذِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ﴾؛ لاتِّساع دلالتها لمعانٍ عدَّة مجتمعة؛ فقد جاءت في الآية موافقةً لمعانيها اللُّغوية من الإباحة، والقبول، والتَّمكين مع العلم بقدر ما مُكِّن فيه، والإطلاق، والرخصة في الأمر، والإعلام، والإجازة بالشيء؛ فأعطتْ بذلك ثراءً في المعنى، وهذه المعاني مجتمعة تدلُّ على أنَّ الإنكارَ على القوم كان لجميعِها، فهو يُنكر عليهم ادِّعاء إباحة التَّحليل والتَّحريم، وقبوله بعد ذلك، والتَّمكين في ذلك، والتَّرخُّص فيه، وأنَّ اللّه أعلمهم به.

ادِّعاءُ التبليغ عن الله اعترافٌ بالوحي الذي ينكرونه

معنى اللّامِ في: ﴿أَذِنَ لَكُمْۖ﴾:

(اللام) في قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لَكُمْۖ﴾ حرف جرٍّ يفيدُ التبليغ؛ لدخولها على السامعِ لقولٍ، أو ما في معناه، وهو الإذن هنا، والمعنى: هل اللّه هو الذي بلَّغكُم ذلك التحليل والتحريم بوحيٍ من عنده؟

المشركون يدورون في رحى الباطل ولا مخرج لهم إلّا بالاعتراف

بلاغةُ استعمال ﴿أَمْ﴾ حجاجيًّا:

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: متَّصلة عاطفة، وهي معادلة لهمزة الاستفهام، والتقدير: أخبروني: اللّه أَذِنَ لكم في التَّحليلِ والتَّحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكْذِبون على اللّه في نسبةِ ذلك إليه؟

الآخر: منقطعة، ويكون الاستفهام للإنكار، ومعنى (بل) فيها الإضرابُ والانتقال من التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تفيده همزتُها من التوبيخ على الافتراء وتقريرِه[1]، والتقدير: بل أتفترون على اللّه؟ وذلك تقريرٌ لافترائهم.

والظاهر هو الأول؛ إذ المعادلةُ بين هاتين الجملتين اللَّتين بمعنى المفردين واضحةٌ، إذ التقدير: أيُّ الأمرينِ وَقَعَ: إذْنُ اللّه لكم في ذلك، أم افتراؤكم عليه؟[2]، أي: أنتم أهل حقٍّ أم أهل باطل، ومقصودُ هذه المعادلة التَّوصُّل إلى الحقِّ بالاعترافِ بما اقترفته أيديهم؛ لأنَّهم إن اعترفوا بالافتراء، فهذا دليل صارخٌ على باطلِهم، وإن ادَّعوا الإذن فعليهم بالدَّليل، فأحاط بهم الكذب، فظهر باطلهم على الوجهين، وهذا وجه استعمال (أم) في هذا الحجاج.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

الافـــتراءُ على العظيمِ برهانُ الـجـرأةِ على الـحـقِّ وأمـارةُ تجاوز الصِّدق

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفعل ﴿تَفْتَرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وهما متعلِّقان به؛ لأمور:

الأول: الإشارةُ إلى زيادةِ التشنيع عليهم من حيث إنَّهم يدَّعون أنَّهم أشدُّ النَّاس تبرُّؤًا من الكذب، وقد خصّوا اللّه بتعمُّد الكذبِ عليه[3].

الثاني: الدَّلالة على كمالِ قبحِ افترائِهم؛ إذ الافتراءُ على العظيمِ سبحانه جرمٌ عظيم.

الثالث: تأكيدُ تبكيتهم بالحجَّة وإسكاتهم؛ إذ إنَّه هو سبحانه الذي يفترون عليه المتفرِّد بالعظمة الذي لا يعجزه كيدهم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/227.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.

الرابع: مراعاةُ فواصلِ السورة[1] التي تنتهي معظمها بالواو والنّون، والتي تتناسب مع طريقة عرضِ سورة يونس في إيقاع رخيٍّ، ونبضٍ هادئ، وسلاسةٍ وديعة.

الخامس: إفادة القصر، كأنَّه قيل: بل أ على اللّه تعالى خاصّةً تفترون؟ على اعتبار (أم) منقطعة[2]، وهذا فيه إشارةٌ إلى فساد تفكيرهم، فأيُّ فسادٍ في التفكير أن يكون افتراؤهم على اللّه خالقِهم وخالق الوجود كلّه، وأنَّهم يعترفون بالخالق، وهو الذي لا شريك له في خلقه، ولكنَّهم يعبدون الأحجار لتكون شافعة عنده، فكانوا سخفاء في شركهم وفي تسويغهِ[3].

سرُّ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ: ﴿ٱللَّهِ﴾:

كلّما عَظُمَ مقامُ المُفْترى عليه؛ عَظُمَ قبحُ الافتراء

أظهر البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ولم يضمره، أي: لم يقل: (أم عليه تفترون)؛ للدَّلالة على كمالِ الافتراء[4]، فكلَّما عَظُم مقامُ المفْتَرى عليه؛ عَظُم قبحُ الافتراء، فكيف إذا كان الافتراء على اللّه العظيم الملكِ الأعلى صاحبِ صفات الكمال المطلق، وكذلك في إظهار الاسم الجليل تربيةُ المهابةِ، وإدخالِ الروعة والتخويف من الافتراء على اللّه، فالمفترى عليه هو اللّه تعالى، لا أحدٌ سواه، فليحذر المفترون الاستمرار فيما هم فيه.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَفْتَرُونَ﴾:

الافتراءُ سلوكٌ قائمٌ بذاته عند من يريدُ تحقيقَ لذّاته

يحتمل حذفُ المفعول به في قوله تعالى: ﴿تَفْتَرُونَ﴾ أحدَ وجهين:

الأول: إمّا أنَّه لم يذكره لتعلُّق قصدِ المتكلِّم سبحانه بالإعلام بمجرَّد إيقاع الفعل للفاعل، فاقتُصر عليهما، ولم يَذكر المفعول، ولم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156، والشوكاني، فتح القدير: 2/518.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3598.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518.

يَنْوِه، إذ المَنْوِيُّ كالثابت، ولا يُسمّى حينئذٍ محذوفًا؛ لأنَّ الفعل نُزِّل منزلة ما لا مفعول له، فهو كالفعل اللازم غير المتعدّي، والمعنى: أم على اللّه تفعلون الافتراء عليه.

الثاني: حُذف اختصارًا؛ لقيام الدَّليلِ عليه من سياق الكلام، وهو الإذن من اللّه بهذا التغيير، والمعنى أم على اللّه تفترون إذنه لكم بالتَّحريم والتَّحليل.

دلالةُ الآية على صحَّة السَّبر والتَّقسيم:

صورةٌ بديعةٌ من صورِ الاستدلالِ وإقامةِ الحجَّة على المشركين

في الآية الكريمة: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ﴾ دلالةٌ على صحَّة الاستدلال بالسبر والتقسيم، وهو حصرُ الأقسام وإبطالها سوى المدَّعى عليه؛ إذ المعنى: إنَّكم أيُّها الكفّار حرَّمتم بعض ما رُزقتموه، فلا يخلو تحريمكم لذلك إمّا أنْ يكون بإذنٍ شرعي، أو افتراءٍ منكم، والأوَّل باطل؛ لأنَّ الشرع خصمكم، وهو ينكر الإذنَ لكم فتعيَّن الثاني، وهو أنَّكم حرَّمتموه افتراءً على اللّه وكذبًا عليه، وما كان كذلك لا يُلتفتُ إليه(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافْتِراءُ والكَذِبُ:

الافـتراءُ كـذبٌ عظيمٌ مختلقٌ متعمَّدٌ بقصدِ الإفـسـاد، والـكـذبُ إخبارٌ بخلافِ الواقع

يوجد تقارب دلاليٌّ بين لفظي الافتراء والكذب؛ حيث يشتركان في أنَّهما نقيضُ الصدق، ولكنْ بالرجوع إلى معنى كلٍّ منهما في اللغة، وفي الاستعمال يتبيَّن أنَّ:

الافتراء: أصل الفَرْي: قطعُ الشيء وشقُّه لإفساده أو لإصلاحه، فَرَيْتُ الشيء: قَطَعته وشَقَقْته، وفَرَيْتُه: أصلحته، والتَّفرّي: التَّشَقُّقُ، وفَرى فلانٌ الكذب: إذا اختلقه وابْتَكره من عند نفسِه، والفِرية:

(1) الطوفي، الإشارات الإلهيّة إلى المباحث الأصولية، ص: 329.

الكذب والقَذف، والفَرِيُّ: الأمر العظيم، وفلانٌ يَفْرِي الفَرْيَ؛ إذا كان يأتي بالعجب[1]، وقيل: فَرَى للإفساد، وأفرى للإصلاح[2]، وقد استعمل القرآن الفري والافتراء في الكذب والشرك والظلم[3].

والكذب: خلاف الصدق[4]، وكَذَبَ: أخبرَ بخلاف ما هو عليه في الواقع[5].

إذًا: يتميَّز الافتراء بأنَّه: اختلاقُ ما لا حقيقة له، ومنه اختلاق الكذب، وفيه معنى: الشيء العجيب النادر والعظيم، ويكون بقصد الإفساد، ويمكن القول بأنَّ الافتراء "هو الاختلاق والكذب المتعمَّد"[6]، فهو كذبٌ عظيمٌ مختلقٌ متعمَّدٌ بقصد الإفساد، وأمّا: الكذب؛ فهو الإخبار بخلاف الواقع، ولو لم يتعمَّد الكذب.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فري).

(2) الزبيدي، تاج العروس: (فرى).

(3) المفردات، الراغب، ص: 634.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كذب).

(5) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).

(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3961.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس: 60]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتِقالُ من ذكرِ أسبابِ الافتراءِ إلى التَّنبيه على مآلها يومَ القيامةِ

لَمّا ذكر اللّه تعالى فَضْلَهُ عَلى النّاس ورحمته بهم، وذكر بعدها أحوال الَّذينَ يتخرَّصونَ على اللّه الكَذِبَ، فيضيفون إليه تحريمَ ما لم يُحَرِّمهُ عليهم من الأرزاق والأقوات، وتحليلَ من الحرام؛ جاءت هذه الآية لتتوعَّدهم بما سيفعل اللّه بهم يومَ القيامةِ بسببِ كَذِبهم وفريَتِهم عليه، ولتُذَكِّرَهم بفضله عليهم أنَّه سبحانه لم يَستعجلْهم في العذابِ، ولم يمنعْهم نِعَمَهُ ورِزقه[1]، فمناسبةُ الآية لما سَبَقَ هي الانتقالُ من ذكرِ أسبابِ الافتراء إلى التَّنبيه على ما سيكونُ للمفترينَ يوم القيامة.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ظَنُّ﴾: الظّاء والنّون أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنيينِ مختلفَيْن: يقينٍ وشكٍّ[2]، والظَّنُّ: إدراك الذِّهن الشيء مع ترجيحه، وَقد يكون مع اليقين[3]، وأَصْلُ الظَّنِّ اسمٌ لِما يَحْصُلُ عن أَمارَةٍ، ومتى قَوِيَتْ؛ أَدَّتْ إلى العلم، ومتى ضعفت جدًّا؛ لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم[4]، والظَّنّينُ: المُعادي، والظَّنّينُ أيضًا: المُتَّهَمُ، والظِّنَّة: التُّهَمَة، والظُّنونُ: الرجل السَّيِّئُ الظَّنِّ بكلِّ أحَدٍ[5]. وذكر المفسِّرون أنَّ الظَّنَّ في القرآن على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/203، والبقاعي، نظم الدرر: 9/148، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6010.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظن).

(3) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (ظن).

(4) الراغب، المفردات، ص: 539.

(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (ظن).

خمسة أوجهٍ: الشَّكُّ، اليقين، التُّهمة، الحُسْبان، الكذب[1] و﴿ظَنُّ﴾ في الآية: التوقُّع والحسبان، والمعنى: أيحسبون، أو يتوقَّعون أنَّ اللّه لا يؤاخذهم، ولا يعاقبهم على افترائهم يوم القيامة[2].

2) ﴿فَضْلٍ﴾: الفاءُ والضّادُ واللّامُ: أَصلٌ صَحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ، من ذلك الفَضْلُ: الزِّيادَةُ والخير، والإفضال: الإحسان[3]، وفَضَلَ الشيء فَضْلًا: زاد عن الحاجة، فالفضل: الزيادة حسِّيَّةً أو معنويَّة، وأَفْضَلَ عليه: أحسنَ إليه، والفَضْلُ: الإحسانُ ابتداءً بلا علَّة[4]، وكلُّ عطيَّةٍ لا تلزم من يعطي؛ يقال لها: فَضْلٌ[5].

ومعنى ﴿فَضْلٍ﴾ في الآية: موافق للمعنى اللغوي، فالفضلُ من اللّه تفضُّلٌ من غير إلزام، وفيها معنى الإحسان والمنِّ والعفو والتَّجاوز.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

إمـهـالُ الـلـه المُفْتَرِينَ في الدُّنيا استدراجٌ والموعدُ القيامة

توعَّد اللّه المفترين الذين تدخَّلوا في تحريم بَعضِ الحلالِ، وتحليلِ بعضٍ من الحرام من غير دليلٍ أو إِذْنٍ من اللّه سبحانه بِسوءِ المَصيرِ على جُرأتِهم وكَذِبهم وافترائهم، فقال عنهم: وما يَظُنُّ هؤلاء الذين يَكْذِبونَ على اللّه، أنَّ اللّه فاعِلٌ بهم يوم القيامة بكَذِبهم وعظيم فريتهم عليه؟ أيحسبون أنَّه سيتركُهم بدون عقابٍ؟ كلّا، إنَّ عقابَه لشديدٌ وإنَّ عذابه لعظيم، وتاللّه إنَّ اللّه لذو فَضلٍ على خَلْقِه بنِعَمِه الكثيرةِ، ومنها إمهالُه العاصينَ وعدمُ مُعاجلتهم بالعقوبة، وإنظارُهم وتركُهم، وإبقاءُ الرِّزقِ والنِّعم في أيديهم، وعدمُ سلبها منهم، ومع كلِّ هذا فإنَّ أَكثَرَ النّاس لا يشكرونَ اللّه على نعمه وآلائه.

(1) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 426، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 3/545.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/203، والبغوي، معالم التنزيل: 4/139، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فضل).
(5) الراغب، المفردات، ص: 639.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَمَا﴾:

عطفُ حُسبانِ المُفترين على افترائهم لبيان قبيح اجتراحهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوف عليه هو قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾، وهو عطفُ جملةٍ على جملةٍ[1]، وليس عطفًا على مقول قول سابق، فلم يأمر اللّه نبيَّه محمدًا ﷺ أن يقول لهم: ﴿وَمَا ظَنُّ﴾ إنَّما بعد هذا الافتراء في نسبة الحلالِ والحرامِ إلى اللّه بُهْتانًا وزوْرًا من غير علم أو بيِّنة أوإذنٍ من اللّه، جاءت هذه الآيةُ تهديدًا ووعيدًا لهم بالعذاب الشديد يوم القيامة، أي: جاء العطف هنا إتمامًا للمعنى العام المشترك الذي يجمع المعطوف والمعطوف عليه، وهو أنَّ كلتا الجملتين حديثٌ عن المفترين على اللّه بصيغة التهديد، إلا أنَّ الأولى حديثٌ عن أحوالهم وماهية افترائهم، والثانية حديثٌ عن عقوبةِ هذا الافتراء.

الغَرضُ من التعبير بالاستفهام في: ﴿وَمَا﴾:

إبهامُ تفصيلِ الجزاءِ يُظهرُ عظيمَ الوعيدِ وعجيبَ التَّهديدِ

أتى البيان القرآنيُّ بأداة الاستفهام ﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾؛ لغرضين:

الأوَّل: تَعْظيمُ وَعيدِ مَنْ يفتري على اللّه ﷻ[2]؛ لِما يتضمَّنه الاستفهام من الإبهام، أي: أبهمَ الأمرَ، فلم يوضِّحْ جزاءَهم على سبيل الوعيد والتَّهديد العظيم يوم يكونُ الجزاءُ بالإحسان والإساءة[3]، وكَأَنَّ معنى هذا الاستفهام: إِنَّ اللّه لذو فضلٍ على النّاس؛ من تأخير العذاب، وفتح باب التوبة، وبيان طريق الهداية، وتمايز الحقِّ من الباطل، ووضوح طريق الخير وطريق الشرِّ وغير ذلك الكثير، فكيف يفترون على اللّه الكذبَ مع تضافُرِ نعمه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/78.

هذه عليهم؟[1] الآخر: التعجُّبُ من حالهِم والتعريضُ بالمشركين؛ ليستفيقوا من غَفلتِهم، ويُحاسِبوا أنفسَهم[2].

سرُّ التَّعبير بالموصول في: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المفترونَ في التَّحريم والتَّحليل هم المفترون في الظُّنون والأوهام

مقتضى الظاهرِ أن يستمرَّ الكلام عن المفترين الذين يحرِّمون، ويحلِّلون وينسِبون ذلك إلى الله زورًا وافتراءً، وأنْ تكونَ الإشارةُ إليهم بالضَّمير، سواءٌ أكان ضميرَ الخطابِ أم ضميرَ الغيبةِ، فيقالُ مثلًا: (وما ظنُّكم أو وما ظنُّهم)، لكنَّ النَّصَ القرآني عَدَلَ عن مقتضى الظاهرِ إلى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأمور:

الأول: إيذانٌ بعلَّةِ التَّعجيبِ من ظنِّهم بأَنفسهم يوم القيامة؛ إذ إنَّ الإتيان بالاسم الموصول بالصلة المختصَّة بهم ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ عيَّنَ أنَّهم مفترون، وأنَّ الافتراء قد صار حالهم المختصَّ بهم، بعد بيانِ التَّرديد في الآية السّابقة بين أن يَكونَ الله أذن لهم فيما حَرَّموهُ، وبين أَنْ يكونوا مُفْتَرِينَ عليه قد انْحَصَرَ في القسم الثّاني، وهو كَوْنُهُم مُفْتَرِينَ؛ إِذْ لا مساغ لهم في ادِّعاء أَنَّهُ أَذِنَ لهم، فَإِذا تَعَيَّنَ أَنَّهم مُفْتَرونَ؛ فقد صار الافتراء حالَهُمُ المختصَّ بهم.

الثاني: الدَّلالة على العموم، فالتعبيرُ بِهِ يشْمَلُ كلَّ مَنْ ثبتت له هذه الصلةُ (الافتراء)، والمعنى: كلُّ من افترى سينالُ جزاءَهَ يومَ القيامةِ.

الثالث: الإيماء بأنَّ سببَ خَسارتِهم وحسرتِهم إنَّما هو الافتراءُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَفۡتَرُونَ﴾:

افتراءُ المشركين سلوكٌ قائمٌ وخلقٌ دائمٌ وكذبٌ جاثمٌ

عبَّرَ القرآنُ بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ﴾؛ للدَّلالة على استمرار افتراءاتهم وتَجدُّدِها وتكرارِها، ولبيان أنَّ افتراءهم هو سلوكٌ قائمٌ بهم لا ينفكُّ عنهم بحال، فهم يكرِّرونَه ليلًا نهارًا، فصارَ الافتراءُ صِفَةً مستمرَّةً فيهم وملازمة

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/249.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.

لهم في جميع أحوالهم، كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغة المضارع يفيدُ حكايةَ حالهم الماضيةِ في الافتراء، ليثيرَ في المُخيِّلةِ صورةً لافتراءاتهم المستمرَّة والمتجدِّدة، بما يُظْهِرُ لهم قُبحَ جريمتهم.

الغَرضُ من تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

بالافتراءِ على الله دون سواه نالَ المشركين كاملُ الغمِّ، وواسعُ الذَّمِّ

قدَّمتِ الآية الجارَّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، على مفعولِ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ وهو ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾؛ لإفادةِ عِظَمِ الافتراءِ والإجرام الذي صَدَرَ من المُشركين، فهو ليسَ افتراءً على أَحَدٍ من الخلقِ أو على مَنْ يَسْتَحِقُّ الكلام عليه، بل هو افتراءٌ على الذي خلقهم ورزقهم، ويَعْلَمُ سرَّهم وعلانيتهم ويحاسبهم ويجازيهم على صنيعِهم، وفي هذا التقديم تهديدٌ وتخويفٌ ووعيدٌ وتنبيهٌ؛ لأنَّ المفترى عليه هو اللّه تعالى الذي سيعودون إليه.

كما أنَّ في التَّقديم دلالةَ اختصاصٍ، أي: إنَّ هذا الافتراءَ هو على اللّه سبحانه لا على أحدٍ سواه، وبه نال أولئك كاملَ الغمِّ، واسعَ الذَّمِّ.

معنى التَّعريف في ﴿ٱلْكَذِبَ﴾:

الكذبُ عَلَمٌ على المستقبحِ في العقول

لفظُ ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ مفعولٌ لفعل ﴿يَفْتَرُونَ﴾، ويصحُّ أن يكون مفعولًا مطلقًا، واللام فيه لتعريف الجنس، كأنَّه قيل كذبًا، ولكنَّه عُرِّف لتفظيعِ أمرِه، أي: هو الكذبُ المعروفُ عند النّاس المستقبحُ في العقول[1].

بَلاغةُ تعلُّق يوم القيامَة بالظَّنِّ:

الظُّنون الفاسدةُ نتائجُ القلوب البالية والعقول الخالية

في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ هو المصدرُ ﴿ظَنُّ﴾، والمصدرُ مُضافٌ إلى فاعله، وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ولا يَصِحُّ تعلُّق ﴿يَوْمَ﴾ بكلمة ﴿يَفْتَرُونَ﴾ لفساد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/210.

المعنى؛ لأنَّهُ يدلُّ على أنَّهم يفترون يومَ القيامَةِ على اللّه الكذِبَ، وهذا محالٌ، ومعنى الكلام: (وما ظنُّ المفترين يوم القيامة)، لكنَّه أتى بهذا النَّظم لبيانِ نكاته السّابقِ ذِكرُها، من ذكرِ الاسم الموصول وصلته، والجارِّ والمجرورِ، والتَّصريح بالمفترى وهو الكذب.

واعتُرِض على تعلُّق ﴿يَوۡمَ﴾ بـ ﴿ظَنُّ﴾؛ لأنَّ يومَ القيامةِ لا ظَنَّ فيه، إنَّما فيه اليقينُ، ولذا عدَّ بعض العلماء العاملَ محذوفًا، والتقدير: ما حالهم يوم القيامة؟[1] لكنَّ جمهور المفسِّرين على صحَّة تعلُّق الظَّنِّ بيومِ القيامةِ مع انكشافِ الأَمرِ فيه، ورأَوا في ذلك حِكَمًا:

الأولى: توبيخٌ لهم وتهكُّمٌ بهم على الظَّنِّ الذي اختاروه لأنفسهم سبيلًا بدل أَنْ يتحرَّوا مستيقنين[2].

الثاني: لفرطِ دَهشتِهم وحَيرتِهم كما يَحْلِفون، ويقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23] مع علمهم بأنَّه لا يَنْفَعُ.

الثالث: يَجوزُ أَنْ يقالَ ههنا: هذا الظَّنُّ منهم ابتداءَ الأمرِ قبل انكشاف الحال، وظهورِ ما هو المآلُ[3].

بلاغةُ ذكرِ لفظِ الكذبِ في: ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾:

بيانُ كمالِ قُبحِ المفترين بتسجيلِ افترائِهم عليهم

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بذكر لفظة الكذب بعد لفظة الافتراء في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، والافتراء لا يكون إلّا كذبًا، بل هو أشدُّ الكذب، ولو قال: (وما ظنُّ الذين يفترون على اللّه يوم القيامة)؛ لصحَّ المعنى، لكنَّه ذكر الكذب وهو مفعول ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ أو مفعول مطلق؛ لإظهار كمال قبحِ ما افتعلوا، وكونه كذبًا في اعتقادهم أيضًا[4]، ولتسجيل شنيعِ أفعالِهم عليهم.

(1) أبو العباس البسيلي، نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد: 1/133.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/505.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.

أبـلـغُ الـتَّـذيـيـلِ ما اتَّسع لمعاني الـسّـيـاقِ ووفّـى بتراكيب النَّظمِ

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية:

النّاظر في قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يرى أنَّ فيه تذييلًا لأكثرَ من موضعٍ:

الأول: تذييلٌ للكلامِ المفتتَحِ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: 57]، وفيه قطعٌ لعذرِ المشركين، وتسجيلٌ عليهم بالتمرُّدِ بأنَّ اللّه تَفَضَّلَ عليهم بالرِّزقِ والموعظةِ والإرشادِ، فقابلوا ذلك بالكفر دون الشكر، وجعلوا رزقهم أنَّهم يكذبون، في حين قابله المؤمنون بالفرح والشكر، فانتفعوا به في الدُّنيا والآخرة[1].

الثاني: تذييلٌ لبداية الآية نفسِها: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ مع أنَّ الآية فيها تهديدٌ لكنَّ المقصودَ: إنَّ اللّه لذو فضلٍ على النّاس حيث أَنعمَ عليهم بالعقلِ والوحي والهدايةِ وتأخيرِ العذابِ وفتح باب التوبة، فكيف يفترون عليه الكذبَ مع توافر نعمه عليهم[2].

الثالثُ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعودُ إلى الآية التي قبلُ، وهي قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ وهذا يعني: أنَّ اللّه لذو فضل عظيم على النّاس في كلِّ ما خلقه لهم من الرزق، وكلِّ ما شرعه لهم من الدّين، ومنه أنَّه جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرِّزق الإباحة، وجعل حقَّ التحريم والتحليل له وحده ﷻ لكيلا يتحكَّمَ فيهم أمثالهم من عبادِه، وهو لم يحرِّم عليهم إلا ما هو ضارٌّ بهم، ولهذا أباح لهم ما حرَّمه عليهم إذا اضطرّوا إليه، وكان تركُه أضرَّ من تناولِه[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.

(2) أبو بكر الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل، ص: 188.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/337.

الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ يعودُ على يوم القيامة، وأنَّ اللّه من فضلِه على النّاس أنْ يُؤخِّر القيامةَ لعلَّ النّاس يرعوون، وإلّا لفاجَأَهُم سبحانه من أوَّل تكذيبٍ، وهذا يبيِّن أنَّ اللّه تعالى يُمهل الخلق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان، ومن أمثلة ذلك أنَّ المؤمنين برسول اللّه لم يأتوا جميعًا مرَّةً واحدة في وقت واحد، إنَّما على فتراتٍ زمنيَّةٍ واسعةٍ، ولا ضيرَ أنْ نقول: إنَّ التذييلَ يصلحُ للمواضع كلِّها، فخطابُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ناسبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وجرمُ المفترين وكذبُهم لا يُبْعِدُهُم عن فضل اللّه وعطائِهِ، وكذلكَ من فضل اللّه أنَّ الحلالَ والحرامَ بيده، وأنَّه أخَّرَ يومَ القيامة ليتفضَّل سبحانه بالتوبة على العاصين، وليزدادَ الذين آمنوا إيمانًا.

بلاغة اجتماع المؤكِّداتِ:

فضلُ الله كثيرٌ عـظيـمٌ ثـابـتٌ لجميعِ النّـاس لا ينفكُّ عن أحدٍ منْهُم

أكَّد ﷻ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بمؤكِّدات عدَّة:

الأول: البدء بحرف ﴿إِنَّ﴾ الذي يفيد التأكيد، والذي تبدأ به العرب كلامها؛ إذا أرادتْ أنْ تقولَ كلاماً مُؤَكَّدًا.

الثاني: الجملةُ الاسميَّة؛ لأنَّها تَدُلُّ على الثباتِ وقوَّةِ الحُكْم وبَقائِهِ، ولِأَنَّ الخِطابَ بالجملة الاسميَّة وحدَها آكدُ من الخطاب بالجملة الفعليَّة.

الثالثُ: دخولُ اللام على الخبر، وهي تفيد تأكيدَ مضمونِ الجملةِ، ولهذا زحلقوها في باب ﴿إِنَّ﴾ عن صدر الجملة؛ كراهية ابتداء الكلام بالمُؤَكِّدَين، ولأَنَّها تدلُّ بجهة التأكيد، و﴿إِنَّ﴾ تدلُّ بجهتي العمل والتأكيد، والدّالُّ بجهتين مقدَّمٌ على الدالِّ بجهة، وإذا جاءتْ معَ ﴿إِنَّ﴾ كانتْ بمنزلة تكرار الجملة ثلاثَ مراتٍ؛ لأنَّ ﴿إِنَّ﴾ أفادت التكريرَ مرَّتين، فإذا دخلتِ اللامُ؛ صارت ثلاثًا[1] كلُّ هذه المؤكِّداتِ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/408.

مجتمعةً مع ما تضمَّنته مفردات الآية من تفخيم الفضل وتعظيمه واستيعابه وشموله أفادتِ المبالغةَ في تأكيدِ فضلِ اللّٰه على النّاس كلِّ النّاس لا ينفكُّ عن أحدٍ منْهُم، فهو كثيرٌ عظيمٌ ثابت لا ينقطع.

الغرض من وضع المظهر في موضع المضمر:

جاء الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ مظهرًا، لا مضمرًا، فلم يقلْ سبحانه: (إنّه لذو فضل عظيم)؛ وذلك للأمور الآتية:

في مواضع الإفضال يفضل لفظ الجلالة بإظهارِه والتَّحلِّي بسماعِه

الأول: الزيادة في الإيضاح بأنَّهُ سبحانه لا يشاركه مع هذا الاسم أحدٌ، فانتسبَ الفضلُ إليه وحدَهُ دونَ سواهُ.

الثاني: التَّعريض بقبح افترائهم على اللّٰه المشرِّع صاحب الفضل العظيم، فإنَّهم مع فضله العظيم عليهم افتروا عليه الكذب، وبالمقابل مع افترائهم الكذب عليه لم يقطعْ فضلَه عنهم.

الثالث: تربية النفوس على مهابة اللّٰه، بذِكر الاسم الأعظم الجامع لكلِّ صفات الجلال والجمال، والكمال، كما أنَّ السياق هو سياقُ مَهابةٍ وتعظيم، وانتصارٍ للحقِّ وحُججه.

الرّابع: لتجري هذه الجملة مجرى الأمثال السّائرة، والكلمات الجامعة، ولو أضمر؛ لما كان في حسن الإظهارِ، وهذا توجيهٌ تداوليٌّ لا في أصل النَّظم.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿عَلَى﴾:

معنى حرف الجر ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الاستعلاءُ، وقد أفادَ عظمةَ صاحب الفضل، وتمكُّنَ فضله سبحانه في النّاس واستيعابَه وشمولَه.

غرض تنكير ﴿فَضۡلٍ﴾:

نكَّر البيان الإلهيُّ لفظَ ﴿فَضۡلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو

فضلٌ عظيمٌ لا يُكتنه كُنْهه ولا يوقفُ على حقيقةِ حسنه

﴿فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في سياق الامتنان بعد إقامة الحجَّة؛ لإفادةِ معنى التكثير والتفخيم والتعظيم[1] لشأنِ هذا الفضل الذي "لا يكتنه كنهه"[2]، ولإفادة معنى التعظيم لحِلْم المتفضِّل؛ ففضلُه كثير وعظيمٌ، ومنه إمهال الكافرين ليتوبوا رغم افتراءاتهم.

معنى (أل) في: ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

كمالُ الفضلِ وتمامُ النِّعمة أنْ يكونَ عامًّا للمؤمنين والكافرين

(ألْ) التعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسِ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ؛ تفيدُ العمومَ، أي: على النّاس جميعًا حيث أنعم عليهم بالعقل المميَّز بين الحقِّ والباطلِ، والحسَنِ والقبيحِ، ورحِمهم بإنزال الكتبِ، وإرسالِ الرسلِ، وبيَّن لهم الأسرارَ التي لا تستقلُّ العقولُ في إدراكها، وأرشدهم إلى ما يُهمُّهم من أمر المعاشِ والمعاد[3]، وبما ساقَ إلى النّاس كلِّهم مِن الرِّزق، كافرهم ومؤمنهم، وبما أخَّر عنهم العذابَ، من غير أنْ تكون منهم سابقةُ صنعٍ يستوجبون به ذلك[4].

فائدةُ الاستدراك:

فضلُ الله تعالى قد يُلاقي بحميدِ الشكرِ أو بكثيرِ الكفرِ

﴿وَلَٰكِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ حرف استدراكٍ، يأتي للاستدراكِ ممّا تَضَمَّنَهُ الكلام الذي قبلَه، فهي تَنسِبُ لما بَعدها حكمًا مخالفًا لحكم ما قبلَها، فلا بدَّ من أنْ يتقدَّمَها كلامٌ مخالفٌ لِما بعدَها أو مناقضٌ له[5]، وفائدتها في الآية الدَّلالة على قلَّة الشاكرين[6].

والتقدير هنا: إنَّ اللّه لذو فضلٍ كثيرٍ على النّاس بنِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصى، فيجب عليهم أنْ يشكروا تَفَضُّلَهُ وإحسانَهُ، لكنَّ أكثرَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 20/28.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.
(4) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 8/90.
(5) نحو: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: 102].
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 2/564.

غيرُ شاكرين فضلَه تعالى كما ينبغي؛ أمّا الكفارُ؛ فلم يشكروا أصلًا، وأمّا المؤمنون؛ فلم يبلغوا غايةَ شُكْرِه، أو أنَّ المقصود بأكثر النّاس هم الكافرون ليتناسب مع قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13][1]، ويؤيّده أنَّ المقامَ مقامُ ذمٍّ للكافرين، وتمييزِ المؤمنين الذين فرحوا بفضل اللّه ورحمته عليهم.

غرضُ ذكرِ الأكثريَّة:

عدلُ اللهِ حاضرٌ في جميعِ خلقِه وفي بديعِ نظمه

أطنب البيان الإلهي بلفظ الأكثريَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾، ولم يقلْ: (ولكنهم) رغم أنَّه أخصرُ لفظًا؛ إنصافًا للقلَّة الشاكرة منهم، ومديحًا لهم على استقامتهم وقوَّة إيمانهم، فهم علموا الحقَّ، واتّبعوه، وصدَّقوا به، ووقفوا إلى جانب الرسول ﷺ يؤيّدونه ويفدون دعوته بالنَّفس والمال، ولم يحرِّموا، أو يحلِّلوا من عندهم، وكانوا ملازمين لشكر اللّه تعالى في السرّاء والضرّاء، والعسر واليسر[2]ولو جاء التعبير القرآني بقوله: (ولكنَّهم) لشملَ كلَّ النّاس، وعليه يدخلُ في وصفِ عدم الشكر المؤمنُ وغيرُ المؤمن، والصابرُ مع النَّبيِّ ﷺ وغيرُ الصابر، وليس هذا من روح القرآن الذي يقومُ على جبر الخواطر، وإعطاءِ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

وقد ورد أنَّ المؤمن يشكر اللّه تعالى على نعمه عليه وعلى غيره من خلقه، كما جاء عن قتادة وهو أحد التابعين في تفسير ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أنَّه قال: (إنَّ المؤمن لَيشكر نِعَمَ اللّه عليه وعلى خلقِه)[3].

توجيهُ المتشابه اللفظي:

الإظهارُ والإضمارُ يتناسبُ مع السياقِ في المعنى وفي تكرارِ اللفظ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بإضمار (النّاس) في حين أظهرها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/553.
(2) الطنطاوي، التفسير الوسيط: 1/559.
(3) ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 2/459.

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾ [غافر: 61]؛ وذلك لأنَّه في سورة غافر أظهر لفظ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وكرَّره في قوله تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾ [غافر: 59]، ومقصوده تحريك الخلق للاعتبار والتَّذكير بما نصبَ سبحانه من الدلائل والآيات؛ فاقتضى ذلك تكرار الظاهر، فناسبَ إظهاره في هذه الآية [61] للمشاكلة في الألفاظ.

أمّا في يونس؛ فقد أضمر لفظة (النّاس)، وكرَّر ضمائرَها قبل ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فناسب إضمارها لِما ذكرناه من المشاكلة[1]، ولأنَّه لم يتقدَّم تكريرٌ للفظة (النّاس) يُطلب بمناسبة؛ فلذلك ورد الكلام على ما هو الأصل من الإتيان بالضمير؛ ليحصل به ربطُ الكلام، فجاء كلٌّ من الموضعين على ما يقتضيه ما قبله؛ مراعاةً لتناسب الكلام[2].

نكتةُ التَّعبير بالمضارع: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

نفي الشُّكر يومئ إلى النِّعم العديدة التي تُمنحُ للنُّفوسِ العنيدة

في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ عبَّر القرآن عن عدم شكر أكثر النّاس بصيغة المضارع؛ إشارةً إلى تجدُّد النعم، فمقتضى تجدُّدها تجدُّدُ شكرها، لكن لمّا كان الصّادرُ عنهم نقيضَ مقتضى الشُّكر: وهو الكفر؛ فُهِمَ أنَّ كُفرَ النِّعمة هو المتجدِّد، فعُبِّر عنه بنفي الشُّكر تنبيهًا على وجود النِّعم، فاكتسى النَّظم اختزالًا بديعًا، ثمَّ إنَّ الشُّكرَ إذا ظهر منهم؛ فإنَّه لا يستمرُّ، وأنَّ الدائم منهم هو عدم الشكر وتكرُّر الجحود وتجدُّده آنًا بعد آنٍ[3]؛ فهم

(1) ابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 323.
(2) أبو جعفر الغرناطي، ملاك التأويل: 1/246.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3599.

يخبطون خَبْطَ عشواءَ، ولا يتَّبعون رسله ولا كتبه، ويفعلون ما يغضبهُ سبحانه ولا يصرفون مشاعرهم إلى ما خُلقتْ له، وكان ينبغي أنْ يشكروا اللّه على نعمِهِ الواصلة إليهم منه سبحانه في كلِّ وقتٍ من الأوقات وطرفةٍ من الطَّرفات[1]وجاءت صيغة الجمع مناسبةً لحالهم؛ فقد اجتمع أكثر النّاس على عدم الشكر، وتواطؤوا على ذلك، أو سكتوا راضينَ به غيرَ منكرِين، ولا ناصحين بعضهم بعضًا بشكر اللّه تعالى[2].

الغرضُ من حذفِ المفعولِ به لـ: ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

عدمُ شكرِهم لنعمِ الله الكثيرة دليلٌ على عِظَمِ انحرافهم وعِظَمِ حلمِ المنعمِ سبحانه

حذفَ البيانُ القرآنيُّ مفعول ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ لثلاثة أغراض:

الأولُ: إفادةُ العموم، أيّ: لا يشكرون كلَّ ما يجبُ أنْ يُشكرَ اللّه تعالى عليه؛ لأَنَّهُ لَمّا كانَ فضلُ اللّه كبيرًا وكثيرًا ومتنوعًا؛ كان لزامًا أنْ يكونَ الشكر كثيرًا ومتنوِّعًا، فحَذَفَ المفعولَ ليعمَّ الشكرُ كلَّ النعمِ، وكلَّ أفضالِ اللّه تعالى، وهذا أبلغُ من ذكر المفعول به؛ لأنَّه يؤدّي إلى تخصيص كفرهم ببعض النِّعم.

الثاني: مراعاةُ الفاصلةِ في السورة بما يحقّق إحكامَ اللَّفظِ، أي: التطريب وراحة النَّفس بنغمها؛ إذ خُتمت معظمها بالواو والنون، والواو من الحروفِ المدّيَّة الهوائية، وبما يحقِّقُ إحكامَ المعنى وإكمالَه؛ ففرحُهم برحمةِ اللّه وفضلِه يستلزمُ أنْ يكونوا من الشّاكرين، فارتبطَ اللفظُ مع المعنى.

الثالثُ: الإيجازُ؛ لشهرتِه وظهورِه، فهو المستحقُّ للشكر فعليًّا في هذا الكونِ؛ إذ هو المنعمُ الحقيقي سبحانه الذي ليس قبله منعمٌ، وهو مصدرُ كلِّ فضلٍ وكلِّ خيرٍ وكلِّ عَطاءٍ.

---

(1) محمد صديق خان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 6/86.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/149.

الـشُّـكـر ثـمـرةُ الإيــمــانِ وهـو الـمـقـصـودُ بـهـذا السّياق

سرُّ التَّعبيرِ بالشُّكرِ: ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾:

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظةِ الشُّكر ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ دونَ لفظة الإيمان، فلم يقل: (لا يؤمنون)؛ مناسبةً لسياق الكلام؛ إذ إنَّه سبحانه بعد أنْ ذَكَرَ نِعَمَهُ وآلاءَهُ على خلقه، وبيَّنَ أَنَّهُ سبحانه ذو فضلٍ على النّاس؛ ناسبَ هذا أن يأتي بالشكر، والشُّكر من نتائج الإيمان، فذِكْرُه يتضمَّنُ ذكرَ الإيمان، لهذا حينَ يقرأ أحدنا قوله تعالى: ﴿لَا يَشۡكُرُونَ﴾ يَعْلَمُ أنَّ الأمرَ الذي هو بصدده في مقاييس العقلِ والفِطْرةِ السليمة يستحقُّ الشكرَ[1]، وكذلكَ في ذكرِ الشُّكر تحريضٌ ودعوةٌ إلى أَنْ يَشْكُرَ الخلقُ الخالقَ على نِعَمِهِ وفضله، فإنْ شكروا حقَّ الشُّكْرِ؛ استحقّوا مزيدًا من فضله وعطائه، وبالشكر تدومُ، وتكثرُ النِّعَمُ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/135، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6953.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ [يونس: 61]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبة الآية وجهان:

بَـعـدَ وعـيـدِ المفترين تحسُن تـسـلـيـةُ سـيّـد المرسلين

الأول: بعد أنْ ذَكَرَ اللّه تعالى جُملةً من أحوال المُفْتَرِينَ ومذاهبهم، والردَّ عليهم، ومُحاوَرَةَ الرَّسولِ ﷺ لهم، وذكر فضْلَهُ تعالى على النّاسِ، وأَنَّ أكثر النّاس لا يشكرون؛ جاءت هذه الآية ليحصل بها تمامُ السُّلوان والسُّرور للنَّبيِّ ﷺ وللمُطيعين، وتمامُ الخوف للمذنبين، وهو كونه تعالى عالمًا بعملِ كلِّ واحدٍ، وما في قلبه من الدَّواعي والصَّوارف[1].

الثاني: لَمّا ذكّر اللّه تعالى عبادَه بفضله، وما يجبُ عليهم مِن شُكرِه، وبيَّن أنَّ أكثرهم لا يشكرون؛ عطفَ على ذلك تذكيرهُ لهم بإحاطةِ علمه بشؤونهم وأعمالهم كلِّها؛ صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، وبكلِّ ما في العوالم علويِّها وسفليِّها؛ ليحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته فقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَأۡنٖ﴾: الشِّينُ والهمزة والنّون أصل واحِدٌ يَدُلُّ على ابتغاء

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/78، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/362.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/338.

وطلب[1]، والشَّأْنُ: الخَطْب والأمر[2] والشأن: الحال والمنزلة والقدر، يقال: رجلٌ من ذَوي الشَّأْن والخَطْبِ، وجمعُه شُؤونٌ[3]. والشّأْنُ لا يقال إلا فيما يعظم من الأحوالِ والأمور، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: 29][4].

والمراد بـ﴿شَأۡنٖ﴾ هنا عمل من الأعمال، أو الأمر والحال العظيم[5].

2) ﴿تُفِيضُونَ﴾: الفاء والياء والضّاد أَصْلٌ صَحِيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جريان الشَّيْءِ بِسُهولَةٍ، يُقال: أفاض إناءه: إذا ملأه حتى فاض، وأفاض القوم من عرفة: إذا رجعوا ودفعوا، وأَفاضَ القَوْمُ في الحديث: أخذوا فيه، واندفعوا فيه، والفيضُ: الكثير[6]، وأفاضوا في الحديث: خاضوا فيه، وحديث مُسْتَفِيضٌ: منتشر[7]. ومعنى ﴿تُفِيضُونَ﴾ في الآية موافق للمعنى اللغوي، أي: الدخول في العمل، فتفعلونه، وتخوضون فيه، وتندفعون فيه، وتنشرون القول، وتأخذون فيه، وتتكلمون[8].

3) ﴿يَعۡزُبُ﴾: عزب: العين والزّاي والباء أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على تباعد وتنحٍّ، والعَزَبُ: الذي لا أهلَ له، يقال: عَزَبَ حِلْمُ فلانٍ، أي: ذهب، وكلُّ شيءٍ يَفوتُك حتى لا تقدرَ عليه، فقد عَزَبَ عنك، ولا يَعْزُبُ عن الله شيءٌ[9]، وعَزَب يَعْزُبُ ويَعْزِبُ: غابَ وبَعُدَ، والعُزوبُ: الغَيْبَةُ، والذهاب، والعُزّابُ: الَّذِينَ لا أزواجَ لهم[10]، والعازِبُ: المتباعدُ في طلب الكلأ عن أهله[11]. والمراد بـ﴿يَعۡزُبُ﴾ في الآية موافق للمعنى اللغوي، والمعنى: لا يغيب، ولا يخفى عن علم الله شيء، ولا يبعد عنه، ولا يفوته شيء[12].

4) ﴿مِّثۡقَالِ﴾: (ثقل): الثّاءُ والقاف واللّامُ أصلٌ واحدٌ يَتَفَرَّعُ مِنْهُ كلماتٌ مُتقارِبَةٌ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شأن).
(2) الخليل، العين، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (شأن).
(3) ابن منظور، لسان العرب، ومجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (شأن).
(4) الراغب، المفردات، ص: 470.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 15/114، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فيض).
(7) الراغب، المفردات، ص: 648.
(8) البغوي، معالم التنزيل: 2/424، والقرطبي، أحكام القرآن: 8/356، وأبو حيان، البحر المحيط: 5/172.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).
(10) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزب).
(11) الراغب، المفردات، ص: 564.
(12) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/128، والبقاعي، نظم الدرر: 3/460.

وهو ضِدُّ الخِفَّةِ[1]، والتَّثْقِيلُ: ضِدُّ التَّخْفِيفِ، والثِّقْلُ: واحدُ الأثقال[2]، والأثقال: الأحمال الثقيلة، ومِثْقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ من مِثْلِه، وقوله تعالى: ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي: زنةِ ذرَّة[3]، والمِثْقال: ما يوزن به، وأصله في الأجسام، ثم يُقال في المعاني[4]، وكُلُّ شيءٍ له قدر ووزنٌ يُنافَسُ فيه؛ فهو ثِقْلٌ[5].

والمراد بـ﴿مِّثْقَالِ﴾ في الآية: الوزن[6]، ومعنى قوله تعالى: ﴿مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: زنةِ نَملةٍ صَغيرةٍ، أي: ما يساوي في الثِّقل نملة صغيرة أو هباء[7]، على تفسير الذرَّة بأنَّها أَصغرُ النَّملِ، ويضرب بها المثل في الصغر، وتُطلقُ الذرَّة كذلك على الدقيقة من الغبار الذي يُرى في ضوء الشمس[8].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

اللّه تعالى رقيبٌ على العبادِ ومحيطٌ بكلِّ شيءٍ علمًا ورعايةً

يقول اللّه تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: وما تكون في أيِّ حالٍ من أحوالك الخاصة بك أو العامة التي تدعو فيها إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن ينزل عليك، ولا تعملون - أيُّها الناس - مِنْ عَمَلٍ صغير أو كبير تندفعون فيه بسرعة وخفَّة إلّا كُنّا عليكم شُهودًا فيه، فلا يخفى علينا أصغرُ الأشياء، وإنْ خفَّ في الوزن كلَّ الخِفَّة، ولا أكبرها وإنْ عَظُمَ، وثَقُلَ وزنه؛ إذ هو معلومٌ ومُحصًى في كتابٍ مرقوم عظيم الشأن تامِّ البيان، وسنجازيكم عليه، فليكنْ عملكم - أيُّها النّاس - فيما يُرضي ربَّكم عنكم[9].

(1) ابن فارس مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (ثقل).
(2) زين الدين الرازي، مختار الصحاح: (ثقل).
(3) الجوهري، الصحاح: (ثقل)، والزَّبيدي، تاج العروس: (ثقل).
(4) الراغب، المفردات، ص: 175.
(5) الكفوي، الكليات، ص: 323.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/128.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(8) المراغي، تفسير المراغي: 11/127.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 15/117، والحجازي، التفسير الواضح: 2/73 - 74.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَمَا﴾:

تحتملُ الواو معنيين هما:

الأوَّل: أن تكون الواو للعطف، وهو من عطف الجملة على الجملة، والغرض على الغرض، فبَعْدَ أنِ انتهى النَّصُّ القرآني مِن ذكرِ المفترين وتوعُّدِهم على افترائهم وعدم شكرهم لنعم اللّه في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ جاء الغرضُ الثاني: وهو الوعدُ بالثّواب للرسول على ما هو قائمٌ به من تبليغ أمر اللّه، وتدبير شؤون المسلمين، وتأييد دين الإسلام، وبالثواب للمسلمين على اتِّباعهم الرسولَ فيما دعاهم إليه[1].

شــأنُ الـنَّـبـيِّ عظيم إذ يأتي ذكـــرُه بـلـسمًا شافيًا بعد ذكر من سواه

الآخر: أن تكون الواو استئنافيَّة[2]، أي: إنَّها جاءتْ لتستأنف كلامًا جديدًا يُخاطَب به النبيُّ ﷺ وتُعْلِمُه أنَّ اللّه يعلمُ كلَّ شأْنٍ فيه، وفيمن معه.

معنى ﴿وَمَا﴾:

﴿وَمَا﴾ في الموضعين: ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ و﴿وَمَا تَتۡلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ نافية[3]، ودلَّ عليها ما بعدها، ولذلك عَطَفَ بإعادة (لا) النافية، وأَوْجب بـ (إلا) بعد الأفعال لكونها منفيَّةً[4]، وفائدةُ كونها نافيةً: هو توكيدُ خطابِ اللّه لنبيِّه ﷺ وللمؤمنين، أي: لستَ في شأْنٍ، يعني من عبادةٍ أو غيرها، ولست تتلو من قرآن، وما تعملون أنت ومن معك جميعًا أيَّ عملٍ إلّا وربُّك مطَّلعٌ عليكم، كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ [المجادلة: 7] أي: إلّا هوَ شاهدهم[5].

كــلُّ شــؤونــه ﷺ وأَحْـوالـه هي بعلم الله ومَعيَّتِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.

(2) الدعاس، إعراب القرآن الكريم: 2/33.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/354، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/78، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/211.

(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/228، وابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب: 10/362.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 8/356، والفراء، معاني القرآن: 1/470.

نكتةُ استعمالِ: ﴿تَكُونُ﴾ مع: ﴿شَأۡنٖ﴾:

في كلِّ أحوالِه وشؤونه عينُ الله تراهُ ومعيَّتِه ترعاه

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿تَكُونُ﴾، وهو فعلُ كونٍ، واستعمل لفظة ﴿شَأۡنٖ﴾ وهي مصدر (شَأَنَ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾، والمراد به الأحوال العظيمة، ومعلوم أنَّ المصدر هو اللفظ الدالُّ على حدث الفعل المجرد من الزمان، متضمِّنًا أحرف فعله، فهو يدلُّ على الحدث من حيث تعلُّقه بفاعله، ولكن على وجه العموم والإبهام، غير مقيَّد بزمن، وقال ابن جني: "وهذا طريق المصدر لّما كان جنسًا لفعله، ألا ترى أنَّه إذا قام قومةً واحدة؛ فقد كان منه قيام، وإذا قام قومتين؛ فقد كان منه قيام، وإذا قام مائة قومةٍ؛ فقد كان منه قيام"[1].

إذًا المقصودُ من التعبير التركيزُ على جنس الشأن، وهي أحوال النبيِّ ﷺ العظيمة، وأنَّها أحوالٌ دائمةٌ منه لا تنفكُّ عنه في الماضي والحاضر والمستقبل، يقول الراغب: "وما استعمل منه - أي فعل الكون - في جنس الشيء متعلِّقًا بوصفٍ له هو موجود فيه؛ فتنبيه على أنَّ ذلك الوصف لازمٌ له، قليلُ الانفكاك منه"[2].

كما أنَّ مجيء هذا المعنى في قالب الجملة الاسميَّة التي تفيد الثبات والرسوخ، ومجيء ﴿تَكُونُ﴾ بصيغة المضارع الذي تفيد الدوام والاستمرار؛ أفادَ ذلك، وهو ملازمةُ هذه الأحوال العظيمة ومصاحبتها للنبيِّ ﷺ في كلِّ وقتٍ وعلى كلِّ حال، وأنَّ أيَّ أمرٍ من النَّبيِّ ﷺ، قلَّ أو كَثُرَ، فإنَّما هو في عينِ الله ومشاهدته سبحانه.

دلالة صيغة المضارعِ في: ﴿تَكُونُ﴾:

الله مع نبيِّه على الدَّوام في كلِّ شؤونِه وأموره

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ بصيغة المضارع في ﴿تَكُونُ﴾؛ لأمرين:

---

(1) ابن جني، الخصائص: 1/25.

(2) الراغب، المفردات، ص: 730.

الأول: ليتمَّ الترابط الأكمل بين حال النبيِّ ﷺ، وكلِّ شأنه وبين شهادةِ اللّٰه ومعيَّته له، فالمضارع في ﴿تَكُونُ﴾ أعطى معنى الاستمرار والتجدُّد والدوام، وقوله: ﴿كُنَّا﴾ تفيد معنى الأزليَّة(1)، أي: علمه بحال النبيِّ ﷺ وشؤونه علمُ إحاطةٍ، ومع شمول علم اللّٰه تعالى شمول الرعاية، ثمَّ شمول الرقابة.

الثاني: لإفادةِ استحضار الحال العظيم من شأن النَّبيِّ ﷺ ومن قراءته القرآن، والدعوة إلى اللّٰه، وتصوير هذا المشهد العظيم، ولذلك سُبقتْ ﴿تَكُونُ﴾ بحرف النفي ﴿وَمَا﴾ الذي "أصله أنْ يخلِّص المضارع للحال(2).

ومعنًى ثالثٌ لطيفٌ: وهو أنَّ ما يكون للنَّبيِّ ﷺ فهو بتكوينه ﷻ، فاللّٰه معه في كلِّ تكوينٍ وحركةٍ وسكونٍ، وهذا المعنى حاصلٌ لجميعِ المخلوقين، لكنَّ النَّصَّ عليه تشريفٌ لسيِّد العالمين.

النَّـبـيُّ ﷺ والحقُّ متلازمان في جـمـيـع الأحوال

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

حرفُ ﴿فِي﴾ يأتي للظرفيَّةِ المكانيَّة والزمانيَّة، وربما تأتي حقيقيَّة أو مجازيَّة، وهي هنا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ ظرفيَّة مجازيَّة؛ إمّا فيها أو في مدخولها ﴿شَأْنٍ﴾(3).وقد جاءتْ لتفيد معنى شدَّة التلبُّس(4) والمصاحبة والملازمة، أي: إنَّ النبيَّ ﷺ كان متلبِّسًا متمسِّكًا بما يدعو إليه من عبادة اللّٰه والإيمان بكتابه، وغير ذلك من جميع شؤونه وأحواله في مجال الدعوة والرسالة.

شأنُه ﷺ شأنُ الأمَّةِ كلِّها

نكتةُ التَّعبيرِ بالشَّأن في: ﴿شَأْنٍ﴾:

عبَّر البيانُ القرآني في خطابه لرسول اللّٰه ﷺ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ بالشأن وهو الأمر العظيم أو ذو البال؛ ليدلَّ على أنَّ جميع

(1) لكونها في حقِّ اللّٰه تعالى، الراغب، المفردات، ص: 730.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(3) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 9/506.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.

أموره وأعماله ﷺ كانتْ عظيمة حتى العادات منها؛ لأنَّه كان قدوةً صالحة فيها[1]، وأنَّه يترتَّب عليها أفعالٌ جسيمةٌ في حياة الأمَّة، فهي رسالةٌ للمؤمنين بأنَّ شأنَ النَّبيِّ ﷺ هو شأنٌ لكم في قابلِ الأيّام.

غرض تنكيرِ ﴿شَأۡنٖ﴾:

شأنُ النَّبيِّ ﷺ خَيرٌ عظيمٌ ونفعٌ عميم

كلمة ﴿شَأۡنٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ جاءتْ نكرة في سياق النفي، فأفادت عمومَ شؤونِ النَّبيِّ ﷺ العامَّة والخاصَّة، وجميع أعمالِه ﷺ حتى العادات منها.

وأفاد التَّنكير كذلك التَّعظيم، أيْ: كلُّ شأنِ النبيِّ ﷺ مهما كان صغيرًا، فهو عظيم عند الله؛ لأنَّه لَمّا كان الله مشاهِدًا شؤونَ النَّبيِّ ﷺ كلَّها، وعطف عليه أعظم شأنه وحاله، وهو تلاوة القرآن الكريم؛ دلَّ على أنَّ أيَّ شأنٍ للنَّبي ﷺ هو عظيم عند الله تعالى[2].

فائدةُ عطفِ ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾:

عطفُ خصوص التِّلاوة على عمومِ الشَّأنِ لمزيَّة ذلك الخاصِّ

كلمة ﴿شَأۡنٖ﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ لفظٌ عامٌّ، فيشمل كلَّ شؤونِ النبيِّ ﷺ الدينيَّة والدنيويَّة، فيكون داخلًا فيها تلاوة النَّبيِّ ﷺ للقرآن الكريم، لكن خُصَّ بالذكرِ دونَ سائرِ الأعمالِ، من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ، كما في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]؛ وذلك لأمرين:

الأول: مكانةُ القرآن وأهمّيَّة تلاوته، والمعنى: "وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآنٍ أنزل عليك تعبُّدًا به، أو تبليغًا له"[3].

الثاني: الإيماءُ إلى وجوبِ زيادة الاهتمام والعناية به[4].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/136، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.

سرُّ التَّعبيرِ بالتِّلاوةِ في: ﴿وَمَا تَتۡلُواْ﴾:

تلاوةُ القرآنِ قراءةٌ وعلمٌ وحفظٌ وعملٌ ودعوةٌ

اختارَ البيانُ القرآنيُّ التعبير بلفظة التلاوة دون القراءة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾؛ لكون التلاوة أنسبَ مع ذكر القرآن؛ ولكثرةِ الفوائدِ التي يتضمَّنها لفظ التلاوة[1]، فالتِّلاوةُ أوسع دلالةً من القراءة، ويتَّضح ذلك في معاني التلاوة، وهي:

الأوَّل: الاتباعُ والامتثالُ لِما في القرآن الكريم من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ؛ لأنَّ من اتَّبع غيرَه يقال: تلاه فعلًا، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ٢﴾ [الشمس: 2][2]، كما أنَّ من قَوَّمَ لفظَه، ولم يتَّبعْهُ في العِلمِ والعملِ ليسَ بتالٍ، وإنْ قرعَ دماغَه، ومنْ تَبِعَهُ في العلمِ والعملِ؛ تالٍ، وإنْ لم يتلفظْ به[3].

الثاني: التتابع، فالتلاوة هي القراءة المتتابعة[4]، ممّا يؤدي إلى أنْ يُقيموا ألفاظَه من غير تحريفٍ ولا لحنٍ، ويتدبَّروا معانيه.

فلو عبَّر بالقراءة لَما شملت التتابع والاتِّباع الذي هو أصل التلاوة، فالتلاوةُ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءة المتتابعة، مع المتابعة بالعلم والعمل، ولهذا تختصُّ التلاوة باتِّباع كتبِ اللّه المنزَّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لِما فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ[5].

الثالث: أنَّ (تلا) لا تستعمل إلّا للقراءة من مكتوب بصوتٍ[6]، وفي هذا إلماحٌ إلى تبليغ النَّبيِّ ﷺ للقرآن وقراءته على أصحابه، وليس مجرَّد قراءته لنفسه ﷺ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/593.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/30.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: 1/268.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27.
(5) الراغب، المفردات، ص: 167.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).

تعيينُ مرجعِ الضَّمير ﴿مِنۡهُ﴾:

إِضْمارُ القرآنِ قبلَ ذكرِه إشارةٌ إلى عظيمِ شأنِه

اختلفَ المفسِّرون في الضمير: ﴿مِنۡهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ﴾ إلى ماذا يعود؟ وذكروا فيه ثلاثةَ أوجه:

الأوَّل: راجعٌ إلى القرآن الكريم؛ لدلالة ما بعده عليه، والتقدير: "وما تتلو من القرآن قرآنًا"[(1)]، ذلك أنَّ اسمَ القرآنِ يطلَقُ على مجموعِه كلِّه، كذلكَ يُطلَقُ على كلِّ جزءٍ من أجزاءِ القرآنِ، وأشار البقاعي إلى ما يُرجِّح ذلك بقوله: "أي: من القرآن المحدَّث عنه في جميع هذه السورة، الذي تقدَّم أنَّهم كذَّبوا به من غير شبهة لهم"[(2)] وعلى هذا الوجه فالضَّمير يعودُ إلى مذكورٍ متراخٍ عنه، ونكتةُ ذلك؛ "تحصيل التشويق إليه حتى يتمكَّن في نفس السامع"[(3)]، وللدَّلالة على عظمةِ هذا القرآنِ، وعادة العرب إذا أضمرت، ثم أظهرت؛ فإنَّما تقصد من ذلك التعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: 14][(4)].

الثاني: راجعٌ إلى الشأنِ؛ "على تقديرِ حَذْفِ مضافٍ تقديرُه: وما تتلو من أجل الشأن، أي: يحدث لك شأنٌ، فتتلو القرآنَ من أجله"[(5)].

الثالث: راجعٌ إلى الاسم الجليل (اللّه)، ويكون التقدير: وما تتلو من قرآن من اللّه، أي: نازل من عند اللّه[(6)]، قال ابن جزيٍّ: "والأحسن أنْ يعود على اللّه تعالى لتقدُّم ذكره قبلُ"[(7)].

معنى: (مِن):

توجيه معنى (مِـن) يُـظـهـرُ إيجازَ القرآنِ في اللَّفظِ وثراءَه في المعنى

في معنى (مِن) الأولى ﴿مِنۡهُ﴾ والثانية: ﴿مِن قُرۡءَانٍ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ﴾ أوجهٌ عِدَّةٌ:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/150.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/228.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/272، وحاشية الطيبي على الكشاف: 7/516، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/482.

فعلى الاحتمال الأوّل بأنَّ الهاء تعودُ على القرآنِ، فالأولى: ابتدائيَّة، والثانية: للتبعيض، والتقدير: وما تتلو ابتداءً من القرآن بعضَه، أو أن تكون الأولى تبعيضيَّة والثّانية بيانيَّة، والمعنى: وما تتلو من القرآنِ قرآنًا.

وعلى الاحتمال الثاني: بأنَّ الهاء تعود على الشأن، فالأولى ﴿مِنۡهُ﴾ ابتدائيَّة، والثّانية للتبعيض[1]، أي: وما تتلو من أجل الشأن شيئًا من القرآن، أو لتأكيد النفي واستغراقه، وتكون كلمة ﴿قُرۡءَانٖ﴾ بعدها مفعولًا به مصرَّحًا به، أي: وما تتلو من أجل الشَّأن قرآنًا.

وعلى الاحتمال الثالث بأنَّ الهاء تعود على الله تعالى، فالأولى: ابتدائيَّة، والثانية: لتأكيد النفي، والتقدير: وما تتلو من عند الله قرآنًا[2].

وقد جعل القونوي ﴿مِن﴾ الثانية ﴿مِن قُرۡءَانٖ﴾ اسمًا بمعنى (بعض)، لا حرفَ جرٍّ، وبيَّن أنَّه يمكن كذلك أنْ تأتي حرف جر؛ فيكون المفعول محذوفًا، وليس مُصرَّحًا به، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾[3].

ممّا سبق يتبيَّن أنَّ حرفَ الجر ﴿مِن﴾ الأولى والثانية يحمل معاني كثيرة من البيان والتبعيض والتأكيد، وابتداء الغاية، وهي سمة إعجازيَّة في القرآن، وهي إيجازٌ في اللفظ وثراءٌ في المعنى، وهذه الكثرة من الاحتمالات تتعانق معانيها، ولاتتعاند، وكلُّها مرادةٌ، ولو أراد القرآن أن يحسم المعنى المراد؛ لأتى بنظم صريح لا يقبل هذه المعاني كلّها، والأقرب لدائرة القبول تصحيح الجميع بنوع تأويل، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ يتلو عند ابتدائه من القرآنِ بعضه، ويقرأ من القرآن لأجل شؤونه، ويقرأ القرآن النّازل من عند اللّه تعالى بعضه، فلا مانع من اجتماع هذه المعاني بنوعِ تأويلٍ من غير اعتسافٍ أو ارتجاف.

غرضُ تنكيرِ ﴿قُرۡءَانٖ﴾:

في تنكير لفظة ﴿قُرۡءَانٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ غرضان:

أولًا: التفخيم، أي: قرآنٌ عظيمٌ، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقدَّر قدرُه، ولا يكتنه كُنهه، ولا تنقضي عجائبه الكثيرة.

(1) الإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 2/143.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/117، والآلوسي، روح المعاني: 6/135.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/507.

ثانياً: العموم، لكون لفظة ﴿قُرۡءَانٍ﴾ نكرة في سياق النفي، فسواء كانتِ التلاوة لكلِّ القرآن أو لسورةٍ أو آيةٍ أو بعضِ آية منه، فإنَّها داخلةٌ تحتَ هذا العمومِ، "أي: لقليلٍ أو كثيرٍ"[1] وجاءتْ ﴿مِن﴾ قبل ﴿قُرۡءَانٍ﴾ لتؤكِّد هذا العموم وترسِّخه[2].

القرآنُ عظيمٌ خيرُه في كلِّ حرفٍ وكلمةٍ وجملة

بلاغةُ الالتفات:

انتقلَ البيانُ الإلهي من خطابِ المفرد: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ إلى خطاب الجميع: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾، وذلك لأمور:

الرَّسول أصلُ الأمَّة في أعمالِها ومعيارُ الأخلاقِ في إعمالها

الأوّل: الإشارة إلى أنَّ الإحاطة التامَّة الإلهيَّة ليست خاصَّةً بشأن النبيِّ ﷺ فحسب، وإنَّما تشمل كلَّ الناس، وكلَّ ما يعملونه، فهي واقعة على الأعمال شهادةً وعلمًا على أتمِّ ما يكون من كلِّ جهة من غير أنْ يستثني منه نبيًّا ولا مؤمنًا ولا مشركًا، أو يغفل عن عملٍ من الأعمال، فلا يتوهَّمنَّ أحدٌ أنَّ اللّه يخفى عليه شيء من أمره، فلا يحاسبه عليه يوم القيامة، وليكنْ هذا هو ظنَّه بربِّه يوم القيامة، وليأخذ حذره، وفي هذا إنذارٌ للكافرين وتبشيرٌ للمؤمنين[3].

الثاني: مراعاة ما يليق بكلٍّ من المقامين؛ إذ قصدُ التفخيم والإجلال والتكريم والتعظيم لمقام النبيِّ ﷺ الشريف بتعميم الخطاب إثر تخصيصه بمقتضى الكل؛ ليشمل الجميع بالخطاب، وأوَّلهم رسول اللّه ﷺ[4].

الثالث: التفنُّن في الفصاحة، والتنويع في الكلام بإخراجه على أساليب عدَّة بما يَلفتُ الانتباه ويشوِّق النَّفس للاستماع؛ إذ بدأ الكلامُ بشؤون النبيِّ ﷺ التي منها ما هو من خواصِّه كقيام الليل،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/150.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/150، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3600.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/157.

ثمَّ بما هو من شؤونه بالنِّسبة إلى النّاس، وهو تلاوة القرآن على النّاس، ثم ثلَّث بما هو من شؤون الأمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾[1].

الرابع: الانتقال بالسامعين للقرآن، والمبلِّغ إليهم هذا المنهج إلى العمل الجماعي التكليفي نيَّةً وقولًا وفعلًا ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الذي يكون بنشاطٍ وشوقٍ ولهفةٍ وحسنِ استقبال، وإخلاصِ أداء ﴿تُفِيضُونَ﴾ ومراقبةٍ لمَنْ لا تخفى عنه خافية[2].

الخامس: الدِّلالة على أنَّ الأمَّة داخلة مع النَّبيِّ ﷺ فيما خوطب به قبلُ[3]، أو جُمعَ تعظيمًا للنَّبيِّ ﷺ[4]، وهذا على رأي من يرى أنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ للنبيِّ ﷺ.

سرُّ المغايرة في حرف النفي ﴿وَلَا﴾، و ﴿وَمَا﴾:

علـم الله يستوعبُ الأزمنةَ كلَّها بماضيها وحاضرها ومستقبلها

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ تكرَّر النَّفي من بداية الآية إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ ثلاث مرات، جاء مرتين بحرف ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ﴾ وعدلَ في المرَّة الثالثة ليعبِّر بـ ﴿وَلَا﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يقل: (وما تعملون)، ويكمن سرُّ ذلك في أنَّ النّاظر في معاني هذه الأحرف يرى أنَّ ﴿وَمَا﴾ تخلِّص المضارع للحال، وأنَّ ﴿وَلَا﴾ تخلِّص المضارع للمستقبل، فأراد البيان الكريم استحضار الحال العظيم من شأن النَّبيِّ ﷺ ومن قراءته للقرآن، ثم أراد أن يبيِّن استمرارَ حالِ عملِ الأمَّة في المستقبل على ما كان عليه النَّبيُّ ﷺ ليشمل الأزمنة كلَّها، واجتمعتْ معها قرينة العموم في الأفعال الثلاثة بواسطة النكرات الثلاث المتعلِّقة بتلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/212.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.
(3) الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه: 4/257.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، ص: 250.

الأفعال، والواقعة في سياق النفي، ليُعلم أنَّ ما يحصل في الحال، وما يحصل في المستقبل من تلك الأفعال سواء، وهذا من بديع الإيجاز والإعجاز[1].

دلالة التَّعبير بصيغةِ المضارعِ في: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

أعمالُ العبادِ المستمرَّة في مراقبةٍ مستمرَّةٍ

عبَّر البيان القرآني بصيغة المضارع ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾؛ لبيانِ أنَّ أعمالَ المخاطَبين هي على الدَّوام في مراقبةٍ؛ لأنَّ شهادة الله تعالى على خلقه لا تنقطعُ، ولا تغيبُ، فهو معهم في جميعِ أعمالِهم يحصيها عليهم، فأعمالهم المستمرَّة في مراقبةٍ مستمرة.

دلالةُ ﴿مِن﴾:

العبدُ الفطنُ فطنٌ لأعماله لعلمِه بالمراقبةِ ومن بعدها المحاسبة

حرف الجر ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ عَمَلٍ﴾ لتأكيد الإغراق في النفي[2]؛ ليعمَّ العمل كلَّه صغيرَه وكبيرَه، شريفَه وحقيرَه، أي: ولا تعملون عملًا مَهما قلَّ إلّا كنّا شهودًا عليكم، فدلَّ هذا الحرفُ على ضرورةِ اليَقَظة لجميعِ الأعمالِ، وأنَّه لا يليق بالعبدِ الفطنِ التَّهاون في أعمالِه مَهْما دقَّت أو صغرت.

غرضُ تنكير: ﴿عَمَلٍ﴾:

مهما قلَّت الأعمالُ فإنَّ الله مطَّلعٌ عليها ومجازٍ بها

نكَّر البيان الإلهي مفردة ﴿عَمَلٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾؛ لإفادة العموم، لكونها جاءتْ نكرةً في سياق النفي، فشملتْ كلَّ الأعمالِ أدَقِّها وأحقرِها، وهو في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 7 - 8][3]، وسواء كان العملُ قولًا أو فعلًا أو نيَّة، خيرًا أم شرًّا، نافعًا أو ضارًّا، ظاهرًا أو باطنًا؛ لأنَّ العمل يشمل مجموع الأحداث التي تصدر عن الإنسان، فإذا كان العمل باللِّسان صار قولًا، وإذا

(1) ابن عاشور: التحرير والتنوير: 11/212 - 213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/459.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.

كان من الجوارح؛ صار فعلًا، فاختيارُ كلمة عمل، ومجيئها نكرة، أفاد العمومَ، وأنَّ كلَّ ما يصدر من الإنسان بعلم اللّه ومشاهدته، ومما زاد قطعيَّة العموم التي لا تحتمل تخصيصًا ولا استثناءً مجيءُ حرف ﴿مِن﴾ قبل كلمة ﴿عَمَلٍ﴾[1]؛ لأنَّ العلماء لمّا قالوا: إنَّ النكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ ليس على الإطلاق، فقد يأتي ما يخصِّصها، لهذا قالوا: ما من عامٍّ إلّا وقد خصَّ بعض أفراده، ورأي جمهور علماء الأصول: أنَّ دلالة العام المطلق دلالةٌ ظنيَّة، فمجيء حرف ﴿مِن﴾ نفى احتمال التخصيص، فصارت دلالته قطعيَّة[2].

بلاغةُ الاستثناءِ في: ﴿إِلَّا﴾:

لا يكون حالٌ من أحـوال الخلق إلا والله مطَّلعٌ عليه حافظٌ له

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ استثناءٌ مفرَّغ من عموم أحوالِ المخاطَبين بالأفعال الثلاثة: (عموم الشأن، عموم التلاوة، عموم العمل)، أي: ما تلابسون بشيء منها في حال من الأحوال إلّا حالَ كوننا رقباءَ مطَّلعين عليه حافظين له[3]؛ إذ جملة ﴿كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ في موضع الحال، ووجود حرف الاستثناء أغنى عن اتِّصال جملة الحال بالحرف (قد)؛ لأنَّ الربط ظاهرٌ بحرف الاستثناء ﴿إِلَّا﴾، وقد تقدَّمها قبلُ فعلٌ، وهذا جائز[4].

دلالةُ استعمالِ الكون الماضي المضافِ في: ﴿كُنَّا﴾:

علـمُ الله أزليٌّ وشـهـودُه على خلقه مستمرٌّ لا ينقطع

آثرَ البيانُ الإلهيُّ استعمالَ فعل ﴿كُنَّا﴾ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾؛ للدَّلالة على تأكيد مراقبة اللّه، وأزليَّة علمه ﷻ؛ لأنَّ فعل الكون في حقِّ اللّه يدلُّ على الأزليَّة، ومجيئه ماضيًا رغم أنَّ الأفعال التي سبقته جاءتْ كلُّها بصيغة المضارع ﴿وَمَا تَكُونُ﴾...

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(2) رشيد رضا، المنار: 11/339، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/136، والسمين الحلبي، الدر المصون: 6/229.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/229، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3601.

﴿وَمَا تَتۡلُواْ﴾... ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ يفيد تحقُّق الوقوع، ولأنَّ باستعماله أصبحتِ الجملة اسميَّة تفيد توكيد إحاطة علمه ومراقبته لخلقه بما تدلُّ عليه الجملة الاسميَّة من الاستمرار والثبوت.

بلاغة طريق الاحتباك:

تقديرُ الاحتباكِ في الصيغِ كتقديرِه في الجمل

يَرِدُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ احتباكٌ بديع يظهر من خلال الجمع بين صيغة الماضي في الفعل الواقع في موضع الحال ﴿إِلَّا كُنَّا﴾، وصيغ المضارع في الأفعال ﴿تَكُونُ﴾، و﴿تَتۡلُواْ﴾، و﴿تَعۡمَلُونَ﴾ ليُفيدَ التَّنبيه على أنَّ ما حصل، ويحصل، وسيحصل سواء في علم اللّه تعالى على طريقة الاحتباك، كأنَّه قيل: (وما كنتم وتكونون وهكذا، إلّا كنّا ونكون عليكم شهودًا)[1]، أي: إنَّ الاحتباك هاهنا في الصيغ، فقد ذكر في الجملة الأولى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ صيغ المضارعِ، وذكر في الثّانية: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ صيغة الماضي، وتقدير الكلام: وما كنتم وتكونون وستكونون، إلّا كنّا ونكون وسنكون عليكم شهودًا، وتقدير المستقبل مأخوذٌ من معنى الحاليَّة في خطابِ الجميعِ ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾.

نكتةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تربيةُ العبادِ على الانتباه والحذر رحمةٌ وحكمةٌ

قدَّمتِ الآيةُ الجارَّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على ﴿شُهُودًا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾؛ لإفادة الاختصاص، والاهتمام بتخويف من أُريد تخويفه من المخاطَبين، وحتى يطرقَ أسماعهم، ويلفتَ انتباههم، فالكلام لكم أيُّها المخاطَبون، وجاءت كاف الخطاب ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، والتَّعبير بضمير العظمة قبلها ﴿كُنَّا﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213.

وبكلمة الجمع ﴿شُهُودًا﴾ لتزيد ذلك التنبيه والاهتمام بما يُخاطب به، وكأنَّه يقول: عليكم شهود، وليس على غيركم، فانتبهوا، واستعدّوا، وراقبوا أعمالكم[1].

نكتةُ استعمالِ جمعِ فعول: ﴿شُهُودًا﴾:

للمبالغةِ شأنٌ في إيراد المعاني على النُّفوس والحقائق على القلوب

آثر البيان القرآني استعمال لفظة ﴿شُهُودًا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ دون (شاهدين) مع أنَّ كليهما جمعٌ لاسم الفاعل (شاهد)، إلا أنَّ لفظ (شهود) هو مصدرٌ سماعي على وزن (فُعول) للفعل (شَهِدَ)، وكلُّ مصدر على وزن (فُعول) يجوز أنْ يُجعل جمعًا لفاعل[2]، وبهذا فإنَّ لفظ (شهود) جمع بين المصدريَّة وبين اسم الفاعل، ممّا أعطى للمعنى المزيدَ من المبالغة والثبوت والدوام للشهادة التي تعني المراقبة والإحصاء والتتبُّع والاستقراء؛ إذ المصدر يفيد المبالغة، واسم الفاعل يفيد الثبوت والدوام، وهذا المعنى لا يؤدّيه لفظ (شاهدين) فيما لو عُبِّر به، وإضافة إلى ذلك فقد أفادت صيغة ﴿شُهُودًا﴾ المبالغة في الإخبار عن كثرة الشهود، فإنَّ لله شهودًا على أعمال النّاس من الملائكة، والله من ورائهم محيطٌ، والإخبار عن تعدُّد الشهادة بعدد حوادثها، فالله تعالى يعلم علم المشاهدة والمعاينة لكلِّ واقعة، وكأنَّه شاهد عليها، وبتعدُّد الحوادث يتعدَّد العلم بالمشاهدة، وكأنَّ علمَه سبحانه - وله المثل الأعلى - علمُ شهود[3].

معنى ﴿إِذۡ﴾:

ظـرفٌ دخـل على المضارع فاستوعبَ الزمن السّابق كلَّه

لَمّا كان المراد بالأفعال السابقة ﴿تَكُونُ﴾ و﴿تَتۡلُواْ﴾ و﴿تَعۡمَلُونَ﴾ الحالةَ المستمرَّة الدّائمةَ المقارنة للزمان الماضي، ناسب أنْ تأتي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/131، وابن يعيش، شرح المفصل: 3/299.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3601.

﴿إِذْ﴾ وهي ظرف للوقت الماضي من الزمان، وتُخلِّص المضارع لمعنى الماضي، كأنَّه قال: إذ أفضتم في تلك الأعمال، وللسبب نفسه أوثر في الاستثناء صيغةُ الماضي ﴿كُنَّا﴾[1]، والتقدير: وما كنت في شأنٍ، وما تلوتَ من قرآن، ولا عملتم من عملٍ إلّا كنّا عليكم شهودًا؛ إذ أفضتم فيه[2] وإنَّما عبَّر بالمضارع استحضارًا للحالة الماضية.

براعةُ استعمالِ ﴿تُفِيضُونَ﴾ مع حرفِ الظَّرفيَّة: ﴿إِذْ﴾:

الأعـمـال المسـتوعـبـةُ لعنايةِ الإنسان أرضٌ خصبةٌ للغفلةِ عن الرَّقابة

أصلُ الإفاضة الاندفاعُ في العمل بكثرة وبقوة واهتمام[3]، والإفاضة في العمل أخصُّ من إتيانه مطلقًا، و(في) الظرفية تفيد معنى التغلغل في العمل الذي يفيضون فيه، والتمكُّن منه، وتتمثَّل حكمةُ تخصيصِ الإفاضة بالذِّكرِ دونَ اللفظِ الأعمِّ منها، وتعديتها بحرف الظرف (في) بالأمورِ الآتية:

الأول: أنَّ ﴿تُفِيضُونَ﴾ تتَّسع دلالتها لمعانٍ لغوية تناسب السياق، وتعطي غزارة في المعنى المراد، وهي: "تخوضون، أو تنشرون، أو تدفعون، أو تنهضون، أو تأخذون، أو تنقلون، أو تتكلمون، أو تسعون، أقوال متقاربة"[4]، وتنوُّع هذه المعاني تعطي صورًا متعدِّدة لحالة العمل الذي يعملونه.

الثّاني: أنَّه ينبغي أنْ يُقبِلَ المؤمن على العمل التكليفي باهتمامٍ وسرعة ونشاطٍ وحيويةٍ وشوقٍ ولهفةٍ وحُسْنِ استقبالٍ وإخلاصِ أداءٍ بما يدلُّ على حُسْنِ الاستجابة للمنهج فور العلم به، كما يفيض ماء الإناء؛ إذا امتلأ لينزل، ومثله قولُ الحق سبحانه: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ [البقرة: 198]، أي: شَرَعْتُم في الذَّهاب مسرعين؛ لأنَّكم أدَّيتم نُسُكًا أخذتم منه طاقة، وتُقبِلون بها على نُسُك ثانٍ[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والسمين الحلبي، الدر المصون: 6/229.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/213.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.

الثّالث: أنَّ ما يفيض فيه الإنسان من عمل مهتمًّا به مندفعًا فيه، متقنًا له، جديرٌ بألّا يَنسى أو يَغفل عن مراقبة ربِّه فيه[1].

فتحصَّل من استعمال هذا الفعل أنَّ الإنسانَ إذا عمل عملًا، وأفاض فيه بسعةٍ وعنايةٍ واهتمام، فأصبح غارقًا فيه، متلاشيةً جوارحه عن كلِّ شيءٍ إلا عن هذا العمل، كان عليه أن يتيقَّظ وأن ينتبه وأن يحذر؛ فإنَّ رقابةَ اللّه فوق كلِّ رقابة، وشهادته فوق كلِّ شهادة.

معنى الواو ودلالتها:

إيـــرادُ الأدلَّـــةِ بـعـد الـدَّعـاوى أمكنُ في تثبيتِها وأرسخُ في بقائِها

تحمل الواو في قوله: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أحدَ المعنيين الآتيين:

الأوَّل: أنَّها حرف عطف، وقد عُطفت هذه الجملةُ على جملة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾، وأفاد هذا العطفُ تعميم تعلُّق علم اللّه تعالى بجميع الموجودات بعد أن بيَّنت الآية تعلُّقَ علم اللّه بعمل النَّبي ﷺ وشأنه، وعمل النّاس وأحوالهم، فكانت الجملة بمنزلة تذييلٍ لِما سبق[2].

الثّاني: أنَّ الواو استئنافيَّة[3]، ويكون الكلام قد انتهى عند قوله تعالى: ﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾، ثم استأنف الحديث عن علم اللّه تعالى وأنَّ علمه بكلِّ صغير وكبير في الأرض، أو في السماء محفوظ ومحصًى في كتاب مبين، ولا يغيب عنه شيء.

فدلالةُ هذه الجملة - سواء بجعل الواو للعطف أو الاستئنافِ - محمولةٌ على إيرادِ الدَّليل بعد الدَّعوى؛ فإنَّ اللّه يراقب أعمالَ العبادِ، ودليلُ ذلك أنَّه لا يبعدُ عنه شيءٌ من أحوالهم.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿يَعۡزُبُ﴾، دون مرادفاتها:

انـتـقـاءُ ألـفـاظِ القرآنِ قائمٌ على خـصـوصـيـتـهـا الـمـعـجـمـيَّـةِ وارتـبـاطـهـا السّياقي

فلم يقل سبحانه: (وما يبعد أو يغيب أو يخفى أو يفوت)؛ لأمور:

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، المراغي، تفسير المراغي: 11/128.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.

(3) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/302.

الأوّل: أنَّها أوسعُ دلالةً؛ فهي تتضمَّنُ معنى باقي مرادفاتها من البعد والغياب والخفاء والفوات[1].

الآخر: مراعاةً للسياق؛ فـ"نفي عزوب الشيء عن الربِّ تعالى أخصُّ وأبلغُ من نفي الغيبة أو الخفاء عنه"[2]؛ إذ الفعل هنا ﴿يَعۡزُبُ﴾ قد نُسب إلى اللّه ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ الذي لا يغيب عنه، ولا يبعد، ويخفى عليه، ولا يفوته شيء ﷻ، فالَّذي يغيب عنّا، ولا نشاهده هو في مشاهدة اللّه سبحانه[3]، كما في قوله تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: 59]، كذلك المصدر ﴿شُهُودًا﴾ أفاد المبالغة في شمول علمه ورقابته ورعايته، وكذلك قوله: ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ الذي جاء تأكيدًا لذلك، وبيانًا لإحاطة علمه بكل شيءٍ، فلا يعزب عنه سبحانه "لا أصغرَ من الذرة ممّا لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه، ولا أكبر من ذلك، وإن عظم مقداره كعرشه تعالى إلّا وهو معلوم له، ومحصًى عنده في كتابٍ عظيم الشأن"[4].

نكتةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة: ﴿رَّبِّكَ﴾:

شـهـودُ الـربِّ وعـلـمه المحيط بعباده هو رحمةٌ ولـطـفٌ وعـدلٌ وعطاء

اختيار البيانِ القرآني التعبير بلفظ الربوبيَّة ﴿رَّبِّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ لفتةٌ مهمَّة وتعبيرٌ بليغ؛ إذْ إنَّ الربوبيَّة فيها معنى الرَّحمة والتَّربية "والإشعار باللطف ما لا يخفى"[5]، وفيها معنى الإحسان والعطاء، فاللّه المربي لكلِّ مخلوق بعامِّ أفضاله وللنَّبي ﷺ بخاصِّ نعمه وأشرف نواله[6]، ومن منطلق الربوبيَّة، فإنَّ علمه سبحانه ورقابته سببُ رحمة ولطف وعدل في الدنيا والآخرة؛

(1) الخازن، لباب التأويل: 2/450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 11/128.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 11/128.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/151، والطّيبي، حاشيته على الكشاف: 14/198.

إذ لا يُظلم في ملكوته أحد، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: 7 - 8] وفي هذا تطمينٌ بأنَّ "كلَّ خاطرة من خواطر الإنسان إنَّما يشهدها الله، ويعلمها، وهو المجازي عليها"[1]. كذلك فإنَّ الربَّ منْ يتولَّى تربية الشيء إلى ما يعطيه مناطُ الكمال، ولا يقتصر ذلك على الدُّنيا فقط، ولكنَّه ينطبق على الدُّنيا والآخرة[2].

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿رَّبِّكَ﴾:

تشريفُ النبيِّ ﷺ وتعظيمُه تشريفٌ لأُمَّته

نسبَ البيان القرآني الرُّبوبية إلى كاف خطاب النبي ﷺ، فقال: ﴿عَن رَّبِّكَ﴾، ولم يقل: (عَنْ ربِّهم)؛ للأمور الآتية:

الأوَّل: عودةٌ بالخطاب إلى النَّبي ﷺ كما بدأ في أول الآية، تنبيهًا على ما يريده بالنَّبي ﷺ من التشريف والتعظيم والإكرام والشأن العظيم، فناسب ذكر الربوبيَّة مضافًا إلى أحبِّ خلقه إليه، وهنا المقام مقام إيراد أمر يناسب العظمة[3]، وكأنَّ النَّبيَّ هو سبب الرحمة واللطف بهم.

الثَّاني: إظهار اللطف به ﷺ والشَّفقة عليه، وخاصَّة أنَّ الآيات الَّتي قبلُ تتحدَّث عن المفترين والمكذِّبين لدعوته[4] ﷺ.

الثَّالث: بيان أنَّ الله هو المربّي لكلِّ مخلوق بعامِّ أفضاله، وللنَّبيِّ ﷺ بخاصِّ نعمه وأشرف نواله[5]، وبهذا فإنَّ المربَّى يبلغ القمَّة في التربية إنْ كان مَنْ ربّاه عظيمًا[6].

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6018.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 13/7759.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والآلوسي، روح المعاني: 1/230.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/176، والآلوسي، روح المعاني: 6/136.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 3/460.
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 17/10643.

دلالةُ استعمال ﴿مِن﴾:

الأصل أنَّ ﴿مِّثۡقَالِ﴾ فاعل لـ ﴿يَعۡزُبُ﴾، وجاءت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ قبل الفاعل؛ لتأكيدِ الإغراقِ في النَّفي[1]، وتأكيد العموم، فالنَّكرة في سياق النفي تفيد العموم، ودخول ﴿مِن﴾ عليها يزيدها في التَّعميم، ويمنعها من التَّخصيص، ورأي جمهور علماء الأصول: أنَّ دلالة العام المطلق دلالة ظنيَّة، ومجيء حرف ﴿مِن﴾ نفى احتمال التخصيص، فصارت دلالته قطعية[2]، والمعنى: وما يعزُب عن علم ربِّك مثقالُ ذرَّة.

كلُّ شيءٍ مهما كانَ صغيرًا؛ فهو في علمِ الله ومشاهدته

بلاغةُ استعمالِ المثقال لوزنِ الذَّرة في: ﴿مِّثۡقَالِ﴾:

كنايةٌ عن إحاطةِ علم الله تعالى بكلِّ شيء

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾، والمعنى: وزن ذرَّة، وأصلُ المثقال من الثِّقَل الذي هو ضدُّ الخفَّة، والشيء الثقيل: ضدُّ الخفيف، وأتى به على وزن مِفْعال، فهو اسم للآلة التي يُعرف بها مقدار ثقل الشيء، وبالمقابل جاء بلفظ ﴿ذَرَّةٖ﴾ التي لا وزن لها، والأصل فيها ألا توزن[3]، ولا تكاد تُرى بالعين المجرَّدة، والتي يُضرب بها المثل في الخفَّة وعدم الوزن وعدم القيمة؛ إذ يُطلق الذَّرُّ إمّا على صغار النَّمل؛ إذ هي أحقر وأصغر ما نشاهده، أو على الدقيقة من الهباء، وهو الغبار الذي لا يرُى إلا في ضوء الشمس، وجعل لها وزنًا وثقلًا وقدرًا، وتوزن بمثقال، وفي هذا مبالغة أيَّما مبالغة، ليدلَّ على عِظم إحاطة علم الله سبحانه إذ لا يغيب عنه أدقُّ الأعمال وأصغرها وأحقرها، ولا يضيع عنده أجر أي عملٍ مهما كان صغيرًا، حتى وإن لم يُرَ، كالنيَّة الخفيَّة مثلًا، يقول ابن عاشور: "المبالغةُ في الصغر والدِّقة للكناية

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/460.

(2) رشيد رضا، المنار: 11/339، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6015.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذرر).

بذلك عن إحاطة العلم بكل شيء، فإنَّ ما هو أعظم من الذرَّة يكون أولى بالحكم"[1].

فائدة التقييد بلفظ الأرض والسماء:

تقريبُ المعاني للعقولِ أدعى لفهم معانيها وإشاراتها

قيَّد البيانُ الإلهيُّ عدمَ عزوب علمه سبحانه بالسماء والأرض: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾مع أنَّه سبحانه لا يغيب عنه شيءٌ، لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما، ولكنَّه قيَّده في الأرض والسماء؛ تقريبًا لعقول العامَّة؛ لأنَّ النّاس لا يشاهدون سواهما، وسوى ما فيهما من المخلوقات[2].

توجيه المتشابه اللفظي بين آيتي سورة يونس وسبأ:

من بلاغةِ البيانِ القرآني تقديمُ الأنسبِ للغرضِ الذي فيه الكلام

قدَّم البيان القرآني الأرضَ على السَّماء في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، ومقتضى الظّاهر وعموم الاستعمال تقديمُ السَّماء على الأرض؛ إذ هي أعظمُ وأعلى معنًى وحسًّا؛ إلا أنَّه هنا قدَّم الأرضَ مناسبةً للسياق؛ لأنَّ الحديث عن أهل الأرض وشهادته سبحانه على شؤونهم وأحوالهم وأعمالهم، أي: فيها تعلُّقٌ بالغرض الذي فيه الكلام، وذلك أنَّه قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وهو أعمال الناس، فإنَّهم من أهل الأرض[3]، وكذا لَمّا كان المثقال في موزون أهل الأرض؛ كان تقديمها أولى[4].

وللسَّببِ ذاته وهو مناسبة المتقدِّم لسياق الكلام؛ قدَّم سبحانه السَّماء على الأرض في سورة سبأ في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/82.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/355، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، ومثله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم: 38].

(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/151.

﴿تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: 3]؛ فإنَّه لَمّا كان السِّياق حديثًا عن السّاعة، وعلم السّاعة في السماءِ؛ لاءَمَ ذلك أنْ قُدِّمت السَّماء على الأرض[1]، ولأنَّها في سياق ثنائه تعالى على نفسه، ووصفه بإحاطة علمه، فناسبَ تقديم السماء؛ لأنَّها أعظم[2].

فائدةُ ذكر حرفِ النَّفي والظَّرفيَّة: ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

ما لا يتصوَّرُه الإنسانُ يحتاجُ إلى مزيدِ بيانٍ وتوكيد

أطنبَ البيان القرآني بذكر حرفِ النَّفي والظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ولم يكتفِ بالمتقدِّم، أي: لم يقل: (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض والسماء)؛ زيادةً في تأكيدِ عدم عزوب أيِّ شيءٍ عن علم اللّه في السماء كما في الأرض، فإنَّ المخاطَبين قد يستبعدون تصوَّر السَّماء على الحقيقةِ؛ فجاء ذكرُها بهذا النَّفي لتأكيد إحاطةِ علمه بكلِّ شيءٍ ممّا يتصوَّره الإنسانُ، وما لا يتصوَّرُه، كما أنَّ في إعادة قراءتها وسماعها استشعارًا بعظمة علمِ اللّه ومراقبته سبحانه.

دلالةُ أفعل التَّفضيل:

الصغيرُ مهما تناهى في صغره والكبيرُ مهما تناهى في كبره فهو في علمِ الله

أتى البيان القرآني بلفظ: ﴿أَصۡغَرَ﴾ و﴿أَكۡبَرَ﴾ بصيغة أفعل التفضيل في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، ولفظ أصغر يقابله صغير، ولا يوجد أصغر إلّا إنْ وُجد صغير، وقوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ عائد على الذرَّة، إذًا: فهناك ذرَّة، وهناك أصغر من الذرَّة[3]، وقد اكتشف العلم مؤخَّرًا ما هو أصغر من الذرَّة، فمجيء أفعل التفضيل ﴿أَصۡغَرَ﴾؛ أدخل كلَّ ما يُمكن أنْ يوجد، ويكونُ أصغرَ من الذرَّة، إذ فعل التفضيل ليس له حدٌّ ولا حصر، وأمّا لفظ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/214، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/3021.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/339، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: 68]، لأنَّ الساعة تبدأ هناك.

(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 4/2247.

﴿أَكۡبَرَ﴾؛ فهو واضح؛ إذ يدخلُ تحته كلُّ شيء أكبر من الذرَّة مهما بلغ، وفي هذا إفادةٌ لعظمِ علم اللّه، وإحاطته بكلِّ شيء، وأنَّه لا يعزبُ عنه شيءٌ مهما صغر أو كبر.

دلالة أسلوب الطباق:

طباقٌ قادَ الذِّهنَ إلى تصوُّر الموجوداتِ كلِّها

جمع البيانُ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: ﴿أَصۡغَرَ﴾ و﴿أَكۡبَرَ﴾ في قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، ويُعرَفُ بالطِّباق وهو من المحسِّنات البديعيَّة؛ إذ إنَّ تقابل المعنيين ممّا يزيد الكلام حسنًا وطرافة، ويدلُّ على كمال سعةِ علم اللّه التي تشمل كل شيء؛ صغيرًا، مهما بلغ في صغره، وكبيرًا، مهما بلغ في كبره، وهذا الطباق ترك للخيال أنْ يتصوَّرَ تناهي صغر الأشياء وتعاظم كبرها.

سرُّ عطف لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾ على ﴿أَصۡغَرَ﴾:

تتميمُ الكلامِ وتكميلُ المعاني سمةُ الكلامِ الفصيح والنظم الصحيح

عطفَ البيانُ القرآني لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾ على ﴿أَصۡغَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ ولم يَكتفِ بالأصغر، مع أنَّ من علمَ بالأصغر لا بدَّ وأنْ يعلمَ بالأكبر، وذلك لإفادة إحاطة علمه سبحانه بجميع الأشياء، ومعلوم أنَّ من علم أدقَّ الأشياء وأخفاها؛ كان علمه متعلِّقًا بأكبر الأشياء وأظهرها، وكون الأكبر لا يكبر عليه؛ كما أنَّ الأصغر لا يعزب عنه[1]، وكما أنَّ المرادَ من الكلام بيانُ إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصرَ على الأصغر؛ لتوهَّمَ متوهِّمٌ أنَّه يثبتُ الصغائر؛ لكونها محلَّ النسيان، وأمّا الأكبر؛ فلا يُنسى، فلا حاجةَ إلى إثباته، فبيَّن أنَّ الإثبات في الكتاب ليس كذلك، فإنَّ الأكبرَ مكتوبٌ فيه أيضًا[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/340.
(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 23/186.

فنُّ الاكتفاء:

إذا تساوى الإثباتُ والحذفُ فالحذفُ أبلغ

في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ اكتفى البيانُ القرآني بدلالة ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، ولم يذكرها مع لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾، فلم يقل: (ولا أكبر منه، أو: ولا أكبر من ذلك)؛ لكون السياق قد دلَّ عليه، فأغنتْ ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ عن تكرار ذكرها مع لفظ ﴿أَكۡبَرَ﴾، وذلك كان إيجازًا واختصارًا؛ لأنَّه إذا دلَّ على المحذوف دليلٌ، ولم يَتأثَّرِ المعنى بحذْفِه؛ كان الإيجاز أبلغ، ومعنى الكلام: ولا أصغر من ذلك ولا أكبر من ذلك، وهذا فنٌّ من فنون بلاغة القرآن الكريم وهو الاكتفاء، ويُسمّيه بعضهم بالاستغناءِ، وهو الحذف لوجود الدَّليل اللَّفظيِّ على المحذوف المقدَّر[1].

توجيه القراءات:

العطفُ والاستئنافُ يلتقيان في إثباتِ إحاطةِ العلم للموجودات

قرأ الجمهور قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾ بفتح الراء فيهما[2]، ووُجِّه على أنَّهما عطف على ذرَّة أو على مثقال على اللفظ[3]. فهما مجروران، وجرهما بالفتحة نيابةً عن الكسرة؛ لأنَّهما ممنوعان من الصرف؛ للوصفية ووزن أفعل.

وقرأ حمزة وخلف ويعقوب: برفع الراء فيهما (ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ)[4]، ووُجِّه على أنَّهما عطفٌ على موضع مثقال؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ صلة فهو مرفوع بـ ﴿يَعۡزُبُ﴾[5]، وتكون ﴿وَلَآ﴾ مقحمة لتأكيد النفي؛ قال الزمخشري: "والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء، يكون كلامًا مبتدأ"[6]. فتكون لا نافية للجنس، تعمل

(1) الحذف: إسقاط كلمةٍ للاجتزاء فيها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. يُنظر: الجرجاني، دَرْجُ الدُّرر: 2/35.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/29.

(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/285.

(5) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 12/29.

(6) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215.

عمل ليس، وأصغر: اسم (لا) مبني على الفتح، ويكون بذلك عطفَ جملةً على جملة.

نكتة تقديم الأصغر على الأكبر:

من كان علمُه محيطًا بأدقِّ الأشياء وأخفاها بدهيٌّ أنْ يعلم أكبرها وأظهرها

قدَّم البيان القرآني قوله: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ على قوله: ﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾؛ فقال: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، لأنَّه "لّما ذكر تعالى أنَّه لا يغيب عن علمه أدقُّ الأشياء التي نشاهدها؛ ناسب تقديم ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾، ثمَّ أتى بقوله: ﴿وَلَآ أَكۡبَرَ﴾، على سبيل إحاطة علمه بجميع الأشياء، ومعلومٌ أنَّ من علم أدقَّ الأشياء وأخفاها؛ كان علمه متعلِّقًا بأكبر الأشياء وأظهرها"[1].

معنى الاستثناء في: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾:

استثناءٌ أكَّد عدم عزوب شيءٍ عن علم الله فكلُّه في كتاب تام البيان

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ منقطع بمعنى (لكن) عند جمهور المفسرين والتقدير: (لا يعزب عن ربك شيءٌ ما لكن جميع الأشياء في كتاب مبين، فكيف يعزب عنه شيء منها)؛ ذلك لأنَّ في جعلِه استثناءً متصلًا، إشكالًا؛ لفساد معناه؛ إذ التقدير (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض، ولا في السَّماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، إلّا في كتاب، فيعزب عنه)[2].

وأجاز بعض المفسرين أن يكون متصلًا إمّا بجعل ﴿يَعۡزُبُ﴾ بمعنى: يَبين، وينفصل، ويصدر، والمعنى: لا يصدر عنه تعالى شيء إلا وهو في كتاب مبين، أي: اللوح المحفوظ[3]. أو أن يكون من تأكيد الشيء بما يشبه ضدَّه، والمعنى: لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلّا في حال كونه في كتاب مبين، أي: إلّا معلومًا مكتوبًا، ويعلم السامع أنَّ المكتوب في كتاب مبين لا يمكن أن يعزب، فيكون انتفاء عزوبه حاصلًا بطريق برهاني[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/79.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215، والصاوي، حاشية الصاوي على الجلالين، ص: 809، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215.

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾:

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ كناية عن علم اللّه المحقَّق وشموله[1] وضبطه وحفظه، وثباته واستقراره، والمعنى: أنَّ علمه سبحانه ثابت لا تغيير فيه ولا تبديل، فهو عالم بكل شيء علمًا ثابتًا كالمكتوب البيِّن المسجل في كتاب واضح، لا يخفى منه خافية[2]، وقد جعله ابن عاشور من الاستعارة؛ إذ قال: "الكتاب: علم اللّه، استعير له الكتاب؛ لأنَّه ثابت لا يخالف الحق بزيادة ولا نقصان"، والكناية أصحُّ وأدقُّ مسلكًا لاسيما فيما يتعلَّق بصفات اللّه تعالى، وقد فسَّر بعض المفسرين الكتاب في الآية باللوح المحفوظ المشتمل على علم اللّه تعالى المكنونِ في الغيب، أي: لم يروا فيه كناية[3].

علم اللّه محفوظ مضبوط ثابتٌ لا تغيير فيه ولا تبديل

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلاوة والقراءة:

التلاوةُ والقراءة متقاربتان في المعنى؛ إذ كلاهما يُضاف إلى القرآن، فيقال: تلاوة القرآن، وقراءة القرآن، إلا أنَّه بالرجوع إلى المعنى اللغوي والاستعمال، يتَّضح أنَّ بينهما ملامحَ دلاليَّة فارقة:

التِّلاوةُ تكونُ بالتتابع والمتابعةِ ولا بدَّ أنْ تكونَ بصوت، والقراءةُ لا يشترطُ فيها ذلك

أصل التلاوة في اللغة: التاء واللام والواو أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع، يُقال: تلوتُه؛ إذا تبعتُه، ومنه تلاوة القرآن؛ لأنَّه يتبع آية بعد آية، وتلا الشيءَ: تَبِعَه تُلُوًّا[4]، والتلاوة: اتِّباع الشيء ما يسبقه لحوقًا به من خلفه[5].

وأصلُ القراءة: القاف والراء والحرف المعتلّ أصلٌ صحيح يدلُّ على جمعٍ واجتماعٍ، ومنه القرآن[6]، كأنَّه سُمّي بذلك لجمعه ما فيه

(1) دروزة، التفسير الحديث: 4/265.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2525.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 5/2525.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قري).

من الأحكام والقصص وغير ذلك، وقرأتُ الشَّيءَ: جمعته، وضممتُ بعضَهُ إلى بعضٍ[1]، فقراءةُ الكلام تعني: ضمَّ حروفه إلى بعضها والتلفُّظ بها مجموعة.

وقد ذكر العلماء فروقًا عدَّة بينهما منها:

التلاوة تختصُّ باتِّباع كتبِ الله المنزَّلة تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لِما فيه من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتوهَّم فيه ذلك، وهو أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوة قراءة، وليس كلُّ قراءة تلاوةً، فلا يُقال: تلوتُ رقعتكَ، وإنَّما يُقال في القرآن في شيء إذا قرأته؛ وجب عليك اتِّباعه[2].

التلاوةُ لا تكونُ في الكلمة الواحدة، والقراءة تكونُ فيها، تقول: قرأ فلانٌ اسمهُ، ولا تقول: تلا اسمه؛ لأنَّ أصلَ التلاوة: التتابعُ، فإذا لم تكنِ الكلمةُ تتبعُ أختها؛ لم تُستعمل فيها التلاوة، وتُستعمل فيها القراءة[3].

(قرأ) الكتاب قراءة: تتبَّع كلماتِهِ نظرًا، ونطقَ بها، وتتبَّع كلماتِهِ، ولم ينطقْ بها[4]، أي: تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ ومن غير مكتوبٍ، بصوتٍ وبغير صوتٍ، وأمّا (تلا)؛ فهي تُستعمل للقراءة من مكتوبٍ وبصوتٍ، ويُتسامح فيها، فتكون من غير مكتوبٍ لكن بصوتٍ، فإذا عُدّيا بـ (على) فهما بصوتٍ ولا بدَّ[5]، والخلاصة: أنَّ التلاوةَ هي قراءةٌ على وجهٍ مخصوصٍ، وتعني: القراءة المتتابعة، مع المتابعة بالعلم والعمل، ولابدَّ أنْ تكونَ بصوت، أمّا القراءة؛ فلا تقتضي التَّتابع ولا المتابعة، ولا يشترط أنْ تكونَ بصوت.

العَزْبُ والبُعْد:

العَزْب: العين والزاي والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ، والعَزَبُ: الذي لا أهلَ له، يُقال: عَزَبَ حِلْمُ فلانٍ، أي: ذَهَبَ، وكلُّ شيءٍ يَفوتُك حتى لا تقدرَ عليه، فقد عَزَبَ عنك، ولا يَعْزُبُ عن الله شيءٌ[6]، وعَزَب يَعْزُبُ ويَعْزِبُ: غابَ وبَعُدَ، والعُزوبُ: الغَيْبَةُ،

(1) الجوهري، الصحاح: (قرأ).
(2) الراغب، المفردات، ص: 167.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 27.
(4) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (قرأ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (تلو).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزب).

العزْبُ بعدٌ ملازمٌ للغيابِ أو الذهابِ أو الانفرادِ، والبُعدُ خلافُ القرب

والذهاب، والعُزّابُ: الَّذِينَ لا أَزواجَ لهم[1]، والعازِبُ: المتباعدُ في طلب الكلأَ عن أهله[2]، والعَزْب: ابتعادٌ عن المقرِّ الأصليِّ إلى مستقرٍّ بعيد دون انقطاع عنه، واستعمال العَزْب في الغياب لازمٌ للبعد[3].

والبُعْد: خلاف القرب، بَعُد الرَّجُلُ، أي: تباعد، وهو بعيد، وبَعِدَ بَعَدًا، وبَعُد: هَلَكَ أَو اغْتَرَبَ، والبُعْدُ والبَعَدُ: الهَلاكُ، والأَباعد: خِلافُ الأقارب[4]، والأَبْعَدُ: الخائن، البُعْد: الموت[5]، والبُعد والقُرب ليس لهما حدٌّ محدود، وإنَّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، يُقال ذلك في المحسوس، وهو الأكثر، وفي المعقول، والبُعد أكثرُ ما يُقال في الهلاك[6].

نلاحظ من المعاني اللغوية للفظين: أنَّ بينهما تقاربًا دلاليًّا؛ إذ يشتركان في معنى البُعد الذي هو ضدُّ القرب، ويتميَّز البُعدُ بأنَّه يُطلقُ على الهلاك والموت والخائن، بينما يتميَّز العَزْبُ بأنَّه بُعدٌ ملازمٌ لمعنى الغيابِ أو الذهابِ أو الانفرادِ.

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (عزب).
(2) الراغب، المفردات، ص: 564.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عزب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بعد).
(5) الجوهري، الصحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).
(6) الراغب، المفردات، ص: 133.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾ [يونس: 62 - 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

بيانُ أحوالِ أولياءِ الله وأوصافِهم، بعد ذكرِ إحاطتِه بالكونِ قاطبةً

لَمَّا بيَّن سُبحانه إحاطتَه بجميعِ الأشياءِ، وكان في ذلك تقويةٌ لقلوب المُطيعين، وكسرٌ لقلوب العاصين؛ أتْبَعه سُبحانه بشرح أحوالِ أوليائه المُخلَصِين[1]، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ شرحًا على وجه التَّبشير والوعْد[2]، ثمَّ ذكَر وصْفَهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، فهم "لا خوفٌ عليهم ممَّا يستقبلونَه مِن أهوالِ الآخرةِ، ولا يَحزنون على ما خلَّفوه وراءَهم في الدُّنيا"[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: مصدرُه الوَلْيُ، وهو القُرْب، وأصلُه المطرُ الذي يأتِي بعد المطر، والاسمُ: الوَليُّ، يُقالُ: تباعد بعد وَلْيٍ، أي: قُربٍ، وجلس ممَّا يَليني، أي: يُقاربُني[4]، وتقول: على الولاء، أي: الشَّيء بعدَ الشَّيء. فمعنى الوليِّ: الشَّيءُ القريبُ التَّالي دون فاصلٍ ماديٍّ أو زمانيٍّ، فهو ليس التصاقًا، وجميعُ الاستعمالات تدورُ حول هذا المعنى، ويُقال: أولَى، أي: أحقُّ، وذلك لقُربه[5]، سواء أكان القربُ معنويًّا أم ماديًّا، والوَليُّ على وزنِ (فعيلٍ) بمعنى (فاعل)، والمقصودُ في الآية: المؤمنون الَّذين والوه بالطَّاعة والعبادة.

(1) الشَّوكاني، فتح القدير: 2/519، والآلوسي، روح المعاني: 6/138، والهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/290.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/158.
(3) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 427.
(4) الخليل، العين: (ولي).
(5) الأنباريّ، الأضداد، ص: 46.

2) ﴿لَا خَوۡفٌ﴾: أصلُ الخَوف: الذُّعرُ والفَزَع، خافَه يَخَافُه خَوْفًا وخِيفةً، كأنَّ الذي يخاف منخوبُ الفُؤاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43][1]، والتَّخويفُ والإخافَةُ: الإفزاعُ والإرهابُ[2]، وضِدُّه: الأمنُ، وأصلُه: النَّقْصُ، يُقال: تَخَوَّفْناهُم، أي: تَنقَّصْناهُم، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ [النحل: 47]، وناقةٌ خَوْفاءُ، أي: ناقصةٌ بها داءٌ[3]، والمقصودُ في الآية: نفيُ الذُّعر والفَزَع عنِ المؤمنين عند الفَزَعِ الأكبر.

3) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: أصلُ الحُزْنِ الدّلالَةُ على خُشونة الشَّيءِ وشِدَّتِه[4]، والحُزْنُ: الغَمُّ الحاصِلُ لوقوعِ مَكْرُوهٍ أو فَواتِ مَحْبوبٍ في الماضي، ويُضادُّه: الفرحُ والسُّرورُ. يُقال: حَزَنَه، يَحْزُنُه، وحَزِنَ، يَحْزَنُ، فهو حَزِينٌ[5]، فمجملُ هذه المادَّة تدلُّ على جفافٍ وخشونةٍ تُخالِطُ باطنَ الشَّيء أو تمتدُّ فيه، فيغلظُ ويخشنُ. والمقصودُ في الآية: نفيُ الغمِّ والأسى عنهم. ولعلَّ هذا هو المعنى المُحرَّرُ للحُزن، أعني: الشُّعورَ بقسوة الأمر وشِدَّته وخشونته.

4) ﴿ءَامَنُواْ﴾: مِنَ (الإيمان): وهو إقرارٌ بالشَّيء عن تصديقٍ به، وضِدّه: الكُفرُ، يُقال: آمن به إيمانًا: صدَّقه. ويُستعملُ تارةً اسمًا للشَّريعة الَّتي جاء بها محمَّدٌ ﷺ، وعلى ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: 69]، ويُوصفُ به كلُّ مَن دخل في شريعته مُقرًّا باللّٰه وبنبوَّته ﷺ. ويُستعمل تارةً أُخرى على سبيل المدح، ويُراد به إذعانُ النَّفس للحقِّ على سبيل التَّصديق، وذلك باجتماع ثلاثةِ أشياء: تحقيقٌ بالقلب، وإقرارٌ باللِّسان، وعملٌ بالجوارح[6]، قال الزَّبيديُّ: "وقد يُطلق الإيمانُ على الإقرار باللِّسان فقط، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: 3]، أي آمنوا باللِّسان، وكفروا بالجَنان"[7].

5) ﴿يَتَّقُونَ﴾: أصلُ الوِقاية دفعُ شيءٍ عن شيءٍ بِغيره، يُقال: وَقَى نَفْسَهُ مِنَ العَدُوِّ بسلاحه، أي: دفعَهُ به، وفُلانٌ ما له مِن واقٍ، أي: مِن دافعٍ. والوِقايَةُ: مَا يَقِي الشَّيْءَ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خوف، خيف).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (خوف).
(5) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 139، والزّبيديّ، تاج العروس: (حزن).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمن).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (أمن).

وَاتَّقِ اللَّه: تَوَقَّهُ، أي اجعل بينكَ وبينهُ وِقايَةِ. قالَ النَّبيُّ ﷺ: «اتّقُوا النّار ولو بِشِقِّ تمرةٍ»[1]، وكأنّهُ أراد: اجعلوها وِقايةً بينكُم وبينها[2]، والتّقوى: اتِّخاذُ الوِقايةِ والحِمايةِ مِن الشّيء، والتّوقِّي: الحذرُ، وتأتي الوِقايةُ بمعنى الحِفظِ مِن الأذى والضَّرر[3]، والمقصودُ في الآية: الَّذين يتحرَّزون مِنَ المهالك في الدُّنيا[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كُــلُّ مــن كــان مُؤمنًا تقيًّا، كان - لا محالةَ - لِلّه وليًّا

ألمحتِ الآيةُ إلى مضمون الخطابِ؛ وهو أنَّ مَن تولَّى اللّه تعالى، واقتربَ ممَّا يُرضيه، وابتعدَ عمَّا يُغضبُه، فلا خوفَ يجتَليه، ولا أحزانَ تعتَليه، وقد تولَّى السِّياقُ بيانَ صفاتِ أولئك الأولياء؛ بأنَّهم أصحابُ الإيمانِ الثَّابِتِ، والتَّقوى المتجدِّدةِ، وهي صفاتٌ تعليليَّةٌ لأولئك الأولياءِ، فجمع السِّياقُ التَّعريفَ بالأولياءِ بالمآلِ والحال، حُكمًا وتعليلًا، ووليُّ اللّه هو المحبُّ للّه بحقٍّ، المطيعُ لأوامره بصدقٍ، المجتنبُ لنواهيه دون تقاعسٍ، ويكونُ اللّه تعالى في قلبه دائمًا، لَا يتحرَّك إلَّا في حبِّ اللّه؛ رجاءَ رضاه أوَّلًا، ورحمتِه ثانيًا، واتِّقاء عذابه ثالثًا[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في: ﴿أَلَآ إِنَّ﴾:

التَّصريحُ بِبشارة أولــيــاء الــلــه تــعــالى بــالأمــان والــسّــعــادة في الدّارين

﴿أَلَآ إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، استئنافٌ للتَّصريح بوعد المؤمنين المُعرَّضِ به في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا

(1) رواه أحمد في مسنده، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه، رقم الحديث: (18253).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وقى).
(3) السَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقى)، والمناوي، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 340.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وقى)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/432، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 106.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/602.

﴿عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ [يونس: 61] الآية، وبتسلية النَّبيِّ ﷺ عمَّا يُلاقيه مِنَ الكفَّار مِن أذى وتهديدٍ، إذ أعلن الله للنَّبيِّ والمؤمنين بالأمن مِن مخافة أعدائهم، ومِنَ الحزن مِن جرَّاء ذلك[1]، والمعنى: لَا خوفٌ عليهم مِن عذاب يترقَّبونه، ولا هم يحزنون لخير فاتَهم، وقد نفى الحزنَ عنهم؛ لأنَّ قلوبَهم عامرةٌ بالله تعالى[2]، فبعد أن خوَّف المفتريَ مغبَّةَ عُقباه، ورجَّى المُطيعَ سعادةَ مثْواه، كان المتوقَّعُ أن يُقال: ليت شعري! ماذا يكون تفصيلُ حال الفريقين في الدَّارين على الجزم؟ فيكونُ الجواب: بأنَّ أولياءَ الله فائزون، وأنَّ أعداءَه هالكون، ليُشَمِّر المطيعُ عن ساعِد جِدِّه، ويبذلَ غايةَ جَهده، في اللَّحاق بالمُخلَصين[3]؛ وليعلم المناوِئون والكافرون أنَّهم لا يُعجزون الله؛ لأنَّ علمه محيطٌ بما في السَّماوات والأرض، وأنَّ فظيع أعمالهم مُثْبَتٌ مُستنسَخٌ في كتاب مُبينٍ؛ ليدرك المُفترون على الله تعالى يومَ القيامةِ ما سيعْتَريهم مِن هَولٍ، وما سيصيبُهم مِن عذابٍ[4]، وهذا على سبيل التَّلميح لا التَّصريح، كما أنَّ هذه الآيةَ جاءت لتُنَوِّه بالَّذين استجابوا لهذه الرِّسالةِ وتولَّوا الله ورسولَه[5]، فَحَسُن الفصلُ بينها وبين ما سبقَها.

السِّرُّ في افتتاح الكلامِ بأداة التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾:

الإيماءُ إلى أهميَّةِ شأنِ الكلامِ المُدرجِ والاعتناءِ به

في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ استفتاحٌ وتنبيهٌ بأداة التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾[6]، مُركَّبَةٌ مِنَ الهمزة ولا النَّافية، مُغيَّرةٌ عن معناها الأوَّل إلى التَّنبيه، وهي حرفُ تنبيهٍ يُستفتح به الكلام[7]، ليتنبَّه السَّامع لما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/215.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/603.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/153.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/158.
(5) محمد عزة دروزة، التفسير الحديث: 3/483.
(6) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/253.
(7) محيي الدين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/270.

بعدها، ويعتنيَ بها لعظَمِ الخطاب المُفتَتح بها، ومُفادُ المعنى: انتبهوا أيُّها المُخاطَبون إلى أنَّ أولياء اللّه همُ الّذين يتولَّونه بإخلاص العبادةِ له وحدَه، والتَّوكّلِ عليه، ولا يتَّخذون له أندادًا يحبُّونهم كحبِّه، ولا يتَّخذون من دونه وليًّا ولا شفيعًا يُقرِّبهم إليه زُلفى[1]، وقد كان افتتاحُ الكلامِ بأداة التَّنبيه إيماءً إلى أهميَّة شأنه، ولذلك أُكِّدتِ الجملةُ بالحرف المُؤكِّد ﴿إِنَّ﴾ بعد أداة التَّنبيه[2]، وقد جاء هذا التَّنبيه حَذرًا من مغالاة بعض المُلحدين في الوليِّ[3].

دلالةُ ﴿إِنَّ﴾ على التَّوكيد:

تنبيهُ النَّاسِ إلى وجوب الاقتداءِ الحقِّ بأولياء الله الصَّالحين

افتُتحتِ الآيةُ الكريمةُ بالتّنبيه ﴿أَلَآ﴾ المؤكَّد بأداة التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ لتنبيه النَّاسِ إلى وجوب الاقتداءِ بهم، حتَّى ينالوا ما نَاله أولئك الأولياءُ الصَّالحون من سعادةٍ دُنيويَّة وأُخرويَّة[4]، والتَّوكيدُ قوَّةٌ في الدَّلالة، وتعبيرٌ جازمٌ بحصول المعنى على جِهةِ اليَقينِ، بحيث إنَّ أولياءَ اللّه لا خوفٌ عليهم في الدَّارين مِن لُحوق مكروهٍ يقينًا، وَلا هم يحزنون مِن فواتِ مطلوبٍ صدقًا[5].

دَلالةُ لفظِ (الأولياء) بين الحقيقةِ والمجاز:

الدَّلالةُ على معنى القُرب والدُّنوِّ لعلاقة الوليِّ بالقُرب من الله

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: الوليُّ: المُوالي، أي: المُحالفُ والنَّاصر، وهو في الأصل ضِدُّ العدوِّ، والأولياء سُمُّوا بذلك لأنَّهم همُ المنصورون باللّه، المُعزَّزونَ به، وكلُّها ترجعُ إلى معنى الوَلْيِ (بسكون اللَّام)، وهو القُرْبُ، وهو قُربٌ مَجازيٌّ يُستعارُ للقُرب من حيث المكانُ، ومن حيث النِّسبةُ، ومن حيث الدِّينُ، ومن

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرَّيحان: 12/290.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/216.
(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/128.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/94.
(5) الجاوي، مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: 1/490.

حيث الصَّداقةُ والنُّصرةُ والاعتقاد[1]، بطريق الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، وجاز هُنا كونُه بمعنى الفاعل، أي الَّذين يتولّونه بالطَّاعة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة: 56]، فالوليُّ على هذا المعنى على وزن فعيل، مبالغةٌ مِنَ الفاعل، وهو مَن توالت طاعاته من غير أن يتخللها عصيانٌ[2]، ويجوزُ أن يكون (فعيل) بمعنى مفعول، كجريح وقتيل، بمعنى مجروح ومقتول، فيكون الوليُّ من يَتَوَالى عليه إحسانُ اللّه وأفضالُه، ويكون بمعنى كونِه محفوظًا في عامَّة أحوالِه مِنَ المحن، وهو الَّذي يتولّاه ربُّه بالإكرام، كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: 257][3]، فهو قربٌ مِنَ الجانبين[4]، ولذلك فَسَّروه هُنا بأنَّه الَّذي يتولَّى اللّه بالطَّاعة ويتولَّاه اللّه بالكرامة[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالغيبةِ: ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّـهِ﴾:

الإشـعـارُ بـأنَّ الـحُـكـمَ يشملُ المَـوصـوفـين، لـكـونِـهـم مِـن أولياءِ الله

في التَّعبير بـ ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾: دونَ أن يُؤتَى بضمير الخِطاب الّذي يقتضيه قولُه تعالى في الآية السابقة: ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾، إيذانٌ بأنَّ المخاطَبين قد حُقَّ لهم أنَّهم مِن أولياء اللّه، مع إفادةِ حُكمٍ عامٍّ شَمِلَهُم، وسوف يشملُ مَن يأتي على طريقتِهم[6].

دَلالةُ الإضافةِ في: ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّـهِ﴾:

لـفـظُ الـجـلالـةِ في الـسّـيـاقِ، تشريفٌ وتكريمٌ وعظَمةٌ

إضافةُ الأولياءِ إلى الاسم الجليلِ ﴿أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: دليلٌ على التَّشريف والتَّكريم المُؤْذِنِ بِرفعتهم

(1) المظهريّ، التَّفسير المظهريّ: 5/38.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/104.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/104، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/37.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/511.
(5) الزَّمخشري، الكشَّاف: 2/355، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/81، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/218.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/216.

وتأهُّلِهم إلى مقاماتِ القُربِ مِن حَضرَة القدسِ التي يكون بها الأُنسُ؛ لأنَّهم بإضافتهم إلى الله نالوا قُربَه، وحازوا رضاه، وهم بذلك القربِ النَّضير، والأُنس الكبيرِ لا خَوفٌ عليهم من لُحوق مكروهٍ، ولا هم يحزنونَ بفواتِ مَأمولٍ[1].

سرُّ أسلوبِ النَّفيِ:

بيانُ الجزاءِ الأوفَى للأولياءِ الصَّالحين، بنجاتِهم في الدّارَين

قولُه تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، يُحتملُ أن يكون في الآخرة، أي: لا يهتمُّون بهمِّها، ولا يخافون عذابًا ولا عقابًا، ولا يَحزنون لذلك، ويُحتملُ أن يكون ذلك في الدُّنيا، أي: لا يخافون أحدًا مِن أهل الدُّنيا، ولا مِن أعراضِها، ولا يَحزنون على ما فاتَهم منها، والأوَّل أظهَرُ، والعمومُ في ذلك صحيحٌ؛ فهُم لا يخافون في الآخرة جملةً، ولا في الدُّنيا الخوفَ الدُّنيويَّ الَّذي هو في فَوتِ آمالِها، وزوالِ منازلها، وكذلك القولُ في الحزن[2].

نُكتةُ تَعْديةِ الخوف بحرف الجرِّ (على):

نفيُ خوفِ غيرِهم عليهم، مع نفيِ استمرارِ خَوفِهم ضمانٌ لهم

قولُه تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: حالُهم حالُ مَن لا ينبغي أن يخاف، ولذلك لا يَخافُ عليهم أولياؤُهم؛ لأنَّهم يَأمَنونَ عليهم مِن عاقبة ما يتوجَّسون منه خيفةً، فالخوف الذي هو مصدرٌ في الآية، يُقدَّرُ مضافًا إلى فاعله، وهو غيرُهم لا مَحالةَ، أي: لا خوفٌ يخافه خائفٌ عليهم، وهم أنفسهم إذا اعتراهم الخوفُ، لا يلبث أن ينقشع عنهم وتحلَّ السَّكينةُ مَحَلَّه[3]، والخوفُ قد يكون عارضًا يستولي على النَّفس مِنَ التّوجُّس مِن شيء يطرأُ، ويقعُ منه ضررٌ أو ألم أو حرمانٌ، وقد يكون مِن مَنظورٍ آخرَ مُرتبطًا بمَن يخاف عليه بشعور يولِّد لديه الإحساسَ بالخوف عليه، "وفي تعْديةِ الخوف بحرف الجرِّ

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/284.

(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/128.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/217.

(على) إشارةٌ إلى أنَّ الخوف إنَّما يكونُ مِن توقُّعات المستقبل، فهو مقبلٌ لا مدبرٌ.. ويكون المعنى: لا خوفٌ مقبلٌ عليهم.."[1].

سرُّ استعمالِ الجملةِ الاسميَّةِ:

نفيُ حُصولِ الخوفِ المتمكِّن، تمكينٌ لهم

نلاحظُ في الآية الكريمة إيثارَ الجملةِ الاسميَّة ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ عِوَضَ الجملة الفعليَّةِ (لا يخافون)، وذلك لتأكيد معنَى الاستمراريَّة والثَّباتِ، في حال الأمان الّذي لا خوفَ يخالِطُه، وهو ملمحٌ لِبثِّ الطُّمأنينة في قلوب أوليائه المتَّقين، وقولُه: ﴿لَا خَوۡفٌ﴾ أي: ثابتٌ عالٍ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: من شيء يَستقبلُهم[2]، فالمعنى: لا يحصلُ لهم خوفٌ مُتمكِّنٌ ثابتٌ يبقى فيهم ولا يجدون تَخَلُّصًا منه[3].

نُكتةُ الاختلافِ بين الجُملتَين في الاسميَّة والفعليَّة:

اختلافُ شيوعِ كلِّ وصفٍ منهما بحسب طبيعتِه ووجودِه

قولُه: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، اختلافُ شأنِ الخوف والحزن بشيوع وصفِ الحزن بعدم الثَّبات، كما قيل: (فَلا حُزْنٌ يَدُومُ ولا سُرور)[4]؛ دون الأوَّل وهو الخوفُ، ولذا ناسبَ أن يُعبِّر بالاسم في الأوَّل وبالفعل المفيدِ للحُدوث والتَّجدُّدِ في الثَّاني[5]، لتتقابلَ الجُملتان فتؤدِّيا المعنى بتكاملٍ واستيعابٍ لكلِّ دلالةٍ في موقعها وظروفِها وملابساتِها.

نُكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه:

لا حزنَ مع الإيمان، ولا سعادةَ مع الكُفران

تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾، على الخبر الفعليِّ ﴿يَحۡزَنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لتَقوية الحُكم الحاصلِ بالخبر الفعليِّ، أي: لا يحصلُ لهم خوفٌ مُتمكِّنٌ ثابتٌ يبقى فيهم، ولا يجدون

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/40.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/153.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/217.
(4) هذا شطر من بيت للإمام الشافعي، وهو من بحر الوافر، وتكملته: (وَلا بُؤسٌ عَلَيكَ وَلا رَخاءُ). يُنظر: الشافعي، ديوان الإمام الشافعي، ص: 10.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/138.

تَخَلُّصًا منه(1). فالمعنى: أنَّهم لا يحزنون ولكن الذي يُصيبه الحزنُ هو غيرُهم منَ الكفرة، فهم أصحابُ الحُزْنِ، فأثبتَ الحزنَ للكفَّار، ونفاه عن أولياء اللّه الأبرارِ، فالتَّقديمُ أفاد الحصْرَ، كقول القائل: (ما أنا فعلتُ هذا)، يعني فعلَه غيري، فأثبتَه لغيرِه مِن حيث إنَّه قد نفاه عن نفسه.

سِرُّ استعمالِ الفعل ﴿يَحْزَنُونَ﴾:

نَفيُ تجدُّدِ الحُزن ونفيُ دوامِه، من رحمةِ الله بالمؤمنين

قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، أي: لا يتجدَّدُ لهم حزنٌ على فائتٍ؛ لأنَّ قلوبهم معلَّقةٌ باللّه سبحانه، فلا يُؤَثِّرُ فيهم لذلك خوفٌ ولا حزنٌ أثرًا يقطعُ قلوبَهم، كما يعرِضُ لغيرهم(2). فجعلَ الحزنَ بالفعل وأسندَ إليه، بقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ فلو قال: (لا خوف عليهم ولا حزن) لَم يصحَّ المعنى؛ لأنَّ معنى (لا حُزْنَ عَلَيْهم) لا يحزنُ عليهم أحدٌ، فيُنفَى الحزنُ عن غيرهم، ولا يُنْفَى عنهم، أي: أنَّهم قد يحزنون، لكن لا يحزنُ عليهم أحدٌ، وهذا قد يكون ذمًّا، كما قال ربُّنا: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧﴾ [النَّحل: 127]، يعني لا يَستحقُّون أن تحزنَ عليهم. إذن لو قال: (لا خوف عليهم ولا حزن) ما استقامَ المعنى، وقد يكون ذمًّا، وليس فيه فائدةٌ ولا ينفعُهم.

دَلالةُ الاستئنافِ:

بيانٌ مَسوقٌ لتوضيحِ حقيقةِ أولياءِ الله

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ بيانٌ لِتوليّهم إيّاه(3)، وهو استئنافٌ بيانيٌّ مبنيٌّ على تقدير سؤالٍ مُفترَضٍ، مُفادُه: (من هم أولياء اللّه؟) فكان الجوابُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. ففسَّرهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أوجدوا هذا الوصْفَ المُصحِّحَ للأعمال،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/217.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/153.
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/118.

وبه كمالُ القوَّةِ العِلميَّة[1]، فهو استئنافٌ مَسوقٌ لتوضيح حقيقتِهم[2]، مع الإشارةِ إلى ما به نالوا ما نالوا[3].

بَلاغةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ودَلالتُه:

تفصيلُ الوصْفِ المُنوَّهِ بمن جمعَ بينَ الإيمانَ والتَّقوَى

محلُّ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، وتقديرُ الكلام: (هم الّذين جمعوا بين الإيمان والتَّقوى) المُفضِيَيْن إلى كلِّ خيرٍ، المُنْجِيَين من كلِّ شَرٍّ، وقيل: محلُّه النَّصبُ أوِ الرَّفعُ على المدح أو على أنَّه وصفٌ مادحٌ للأولياء، ولا يقدحُ في ذلك توسُّطُ الخبر[4].

ولا جَرَم أنَّ الذين لَبِسوا هذه الصِّفةَ مِنَ الإيمان السَّابغ، والتَّقوى المُفضيةِ إلى القُرب والانسلاك في نهج أولياء اللّٰه، آمنوا باللّٰه حقَّ الإيمان يعبدونه كأنَّهم يرونه، وأحسنوا، كما قال ﷺ: «اعْبُدِ اللّٰه كأنَّك تَراهُ فإن لم تَكُن تَراه فإنّه يَراك»[5].

سرُّ التَّعبيرِ عنِ الإيمان بالماضي، وعنِ التَّقوى بالمضارع:

الإشارةُ إلى أنَّ الإيمانَ سابقٌ، وأنَّ الاتِّقاءَ مُفضٍ للإيمان

في التَّعبيرِ عنِ الإيمان بالماضي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وعنِ التَّقوى بالمستقبل ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان يسبقُ التَّقوى، الّتي تقومُ على اتِّقاء محارم اللّٰه؛ لأنَّ هذا الاتِّقاء هو من مُعطَيات الإيمان باللّٰه[6]، ففي قوله تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾ إشارةٌ إلى كمال حالِ القوَّة النَّظريَّة، وقولِه: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ إشارةٌ إلى كمال حالِ القوَّة العمليَّة، وفيه قيامٌ آخرُ؛ وهو أن يُحملَ الإيمانُ على مجموع الاعتقادِ والعملِ[7].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/153.
(2) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/95.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/139.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/159، والبروسويّ، روح البيان: 4/59.
(5) هذا الحديث جزء من حديث جبريل عليه السلام الشّهير، متّفق عليه، من رواية البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (48)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (10)، كتاب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه، ويُنظر: محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/602.
(6) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/40.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/275.

الإيمانُ لا تُزلزِلُه الشُّكوكُ، ولا تُؤثِّرُ فيه الشُّبهاتُ

نُكتةُ إيراد الفعْلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عبَّرَ عن إيمانهم بالفعل الماضي، للإشارةِ إلى أنَّه إيمانٌ ثابتٌ راسخٌ لا تُؤَثِّر فيه الشُّبهاتُ[1]، ولبيانِ أنَّه كان كاملًا باليقين، لم يُزلزِلْه شَكٌّ ولم يحصلْ بالتَّدريجِ[2].

التَّقوَى سرٌّ قلبيٌّ يتجدَّدُ باطِّرادٍ ولا يتبدَّدُ

دَلالةُ التَّعبيرِ عن تقواهُم بالفعل المضارع:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن تقواهُم بالفعل الدَّالِّ على الحالِ والاستقبالِ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ اتِّقاءَهم وابتعادَهم عن كلِّ ما يُغضبُ اللهُ مِنَ الأقوال والأفعالِ يتجدَّدُ ويَستمرُّ دون أن يصرفَهم عن تقواهُم وخوفِهم منه سُبحانه ترغيبٌ أو ترهيبٌ[3]؛ لأنَّ التَّقوى تَتجدَّدُ دائمًا بحسب مُتعلَّقاتها: مِن كسب وحربٍ، وشهوة وغضَبٍ[4]؛ فهذه صفةُ الأولياء؛ آمنوا في الحال، واتَّقوا الشِّركَ في المآل[5].

بيانُ أنَّ التَّقوَى مـلازِمـةٌ لهم، حتَّى صارت لهم جِبِلَّةً وخُلُقًا

دَلالةُ توسُّطِ ﴿وَكَانُواْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: جاء الفعل ﴿وَكَانُواْ﴾ متوسطا ليفيد أنَّه (كونٌ) صار لهم جِبِلَّةً وخُلُقًا[6]؛ ودلَّ قولُه: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾، على أنَّ التَّقوى ملازِمةٌ لهم أخذًا من صيغة (كَانُوا)[7]، وقد دخل فعلُ التَّقوى في حيِّز الفعلِ الماضي (كان) ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فكانتِ التَّقوى أيضًا ممَّا حدث مِن هؤلاء المتَّقين، كما حدث منهمُ الإيمانُ مِن قبلُ، وإلَّا ما استحقّوا صفةَ الأولياء، أولياءِ اللهِ؛ فالإيمانُ ثُمَّ التَّقوى ثُمَّ الولايةُ، يجيءُ بعضُها إثْرَ بعض[8].

---

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/95.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/416.
(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/95.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/416.
(5) القشيري، لطائف الإشارات: 2/105.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/153.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/218.
(8) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1039.

دَلالةُ عطفِ التَّقوَى على الإيمان:

الولايةُ متَّصلةٌ بالتَّقوَى، والتَّقوى أثَرٌ من آثار الإيمانِ

قولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾: فيه إشعارٌ بأنَّ ولايةَ اللّه للعبد، وولايةَ العبد للّه لا تكونُ بالإيمان وحدَه، بل لا بُدَّ من اقترانه بالتَّقوى؛ الَّتي هي فعلُ المأموراتِ على اختلاف أنواعِها، وتركُ المَنهيّات بجميع صُنوفِها، وألوانِها(1)، فلا ولايةَ بغير الإيمان باللّه؛ إذِ الولاء حُبٌّ وطاعة وعبادةٌ(2)، وكلُّ مَن كان تقيًّا كان للّه وليًّا(3). وقد تكرَّر ذكرُ التَّقوى بعد الإيمان في كثيرٍ من آيِ القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧﴾ [يوسف: 57]، وقولِه: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٣﴾ [النَّمل: 53]، وقولِه: ﴿وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨﴾ [فصّلت: 18]، وجمعُ الإيمان مع التَّقوى في كثيرٍ مِنَ الآيات القرآنيَّة جديرٌ بالتَّنبيه والتَّنويه، مِن حيث كونُ الإيمان أمرًا قلْبيًّا وغيبيًّا، وكونُ التَّقوى بُرهانًا عليه، يعني التزامَ كلِّ ما أمر اللّه ورسولُه به، وكلِّ ما نَهيا عنه لينال المؤمنُ رضا اللّه تعالى، ويتفادى غضبَه، ولا يمكنُ أن تَصِحَّ دعوى الإيمان إلَّا به، مِن حيث إنَّ التَّقوى هي أعظمُ مظاهرِه(4).

المتشابه اللَّفظيُّ:

نَفْيُ الخوفِ والحُزنِ الثَّابتِ والمُتجدِّدِ من حياة أولياءِ الله

قولُه تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، هذه العبارةُ تكرَّرت في أربعة عشرَ موضعًا مِنَ القرآن الكريم، منها ستَّةٌ في سورة البقرة وحدَها، والخوفُ والحزنُ في قوله تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ يَعكسان حالتَين نفسيَّتين؛ يكونُ الخوفُ فيها مِن أجل مكروه يُتوقَّع حصولُه، إذِ الخوفُ: تألُّمُ القلبِ واحتراقُه بسببِ توقُّعِ مكروهٍ في المستقبلِ(5)، والحُزنُ: ما يحصلُ لوقوع مكروهٍ،

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/340.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1039.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/242.
(4) محمّد عزّة دروزة، التَّفسير الحديث: 3/483.
(5) الغزاليّ، إحياء علوم الدّين: 4/155.

أو فواتِ محبوبٍ في الماضي[1]، فمعنى ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، لا يُخشى عليهم خطرٌ، فقد يكونُ الشَّخصُ خائفًا مِن شيءٍ غيرِ مُخيف ولا خطرَ عليه فيه، فلا يكونُ عليه خوفٌ، سواء أكان خائفًا أم كان غيرَ خائفٍ ممَّا يتوقَّعُه، لذا لم يقل: (لا يخافون)، لأنَّ واقعَ الأمر أنَّهم يخافون، فأمَّنهم اللّه بقوله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا هو المُهِمُّ، وكذلك القولُ في الحزن، فحُزنهم إنْ كانوا يحزنون لما يصيبُهم من أمور في الدُّنيا، كقول النَّبيّ ﷺ: «وَإنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[2]، فذلك حزنٌ وِجدانيّ لا يَسْتَقِرُّ، بل يزول بالصَّبر، ولكنَّهم لا يلحقهم الحزنُ الدَّائمُ، وهو حُزْنُ المذلَّة وغلبةِ العدوِّ عليهم وزوال دينِهم وسلطانِهم[3]، ففي هذا التَّركيب نَفْيُ الخوف والحُزنِ الثَّابتِ والمُتجدِّد، وذلك لأنَّ نفيَ الحزن المتجدِّد يَنفي الخوفَ المتجدِّدَ، لأنَّ المرءَ يخافُ فيحزنُ، فنفيُ الخوفِ الثَّابتِ يَنفي الحزنَ الثَّابت؛ لأنَّ نفيَ الحزن المتجدِّدِ يَقتضي نفيَ الخوفِ المتجدِّدِ، لأنَّ الأمرَ قبلَ أن يقع مَخُوفٌ منه، فإذا وقع حزِنْتَ عليه، فكلٌّ منهما مُرتبطٌ بالآخر.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخوفُ والخشيةُ:

الخَشيةُ خوفٌ خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ، وهي أثرٌ مِن آثارِ الخوف

الخوفُ: توقُّعُ حلولِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ[4]، والخَشيةُ: تألُّمُ القلب لتوقُّع المكروه مُستقبلًا[5]، وهما متقاربان في اللُّغة؛ أمَّا ما كان منهما مِنَ العبد في حقِّ ربِّه فإنَّ الخوفَ تألُّمُ النَّفسِ مِنَ العقاب

(1) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 86.

(2) أخرجه البخاريّ، كتاب الجنائز، بابُ قولِ النَّبيِّ ﷺ: «إنّا بِك لمحزُونُون»، الحديث رقم: (1303)، ومسلم في الفضائل باب رحمته الصِّبيان والعيال وتواضُعِهِ وفضلِ ذلِك، الحديث رقم: (2315).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/217.

(4) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 101.

(5) المناويّ، التَّوقيف على مهمّات التَّعاريف، ص: 155.

المتوقَّع، بسبب ارتكابِ المنهيَّات، والتَّقصيرِ في الطَّاعات، وهو يحصلُ لأكثر الخلْقِ، وإن كانت مراتبُه مُتفاوتةً جدًّا، والمرتبةُ العُليا منه لا تحصل إلَّا للقليل(1). والخَشيةُ: حالةٌ تحصلُ عند الشُّعور بمعرفة جلال اللّه وهيبتِه(2)، وخوفِ الحجْبِ عنه، وهذه حالةٌ لا تحصلُ إلَّا لمن عَلِمَ وذاق لذَّة القُرب، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، فالخوفُ مِن شرط الإيمان، والخَشيةُ مِن شرط العلم(3)، فالخَشيةُ: خوفٌ خاصٌّ يَشوبُه تعظيمٌ(4)، ويؤيِّدُ هذا قولُه تعالى واصفًا المؤمنين ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرَّعد: 21]، حيث ذكر الخشيةَ في جانبه سبحانه، والخوفَ في جانب الحساب.

الحزنُ والكربُ:

الحزن انفعال وألم عند وقوع خطب ما، والكرب شدَّة الحزن وقُوَّته

الحُزن: تكاثفُ الغَمِّ وغِلَظُه، ويحصلُ لوقوع مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ في الماضي(5)، مأخُوذٌ مِنَ الأرضِ الحَزَن، وهي: الغَليظةُ الصُّلْبةُ، والكربُ: تكاثفُ الغَمِّ مع ضِيق الصَّدر، والكُرْبَة: أشدُّ مِنَ الحُزن والغَمِّ، ويُقَال: هو الحُزن الَّذي يُذيب القلبَ، أي: يُحيِّره ويُخرجه عن أعمال الأعضَاء، وربَّما أهلك النَّفسَ(6). قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]، ولهذا يُقَال لليوم الحَارِّ: يَوْمٌ كَرْب، أي: كَرَبَ مَن فيه، وقد كَرَبَ الرّجلُ وهو مَكْروبٌ، وقد كَرَبَه إذا غمَّه وضَيَّقَ صَدرَه(7).

(1) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 218.
(2) الجرجانيُّ، التَّعريفات، ص: 98، والمناوي، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 155.
(3) البعلي، المُطْلِع على ألفاظ المقنع، ص: 239.
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (خشي).
(5) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 86.
(6) الكفويّ، الكلّيّات، فصل الكاف، ص: 772.
(7) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 267.

﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإفصاح عن ثواب الأولياء الكبير، بعد بيان حالِهم الأثير

لَمَّا نفى اللّه ﷻ عن أوليائه الخوفَ والحُزنَ، زادهم فقال مُبَيِّنًا لتولّيه لهم بعد أن شرح تولّيهم له: فقال: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾[1]، فذكر سُبحانه ما ينالُ أولياءَ اللّه تعالى مِن خير في الدُّنيا والآخرة[2]، وسوف "يتحقَّق وعدُ اللّه، ولا خُلفَ لما وَعَد اللّه به، وهذا الَّذي بُشِّروا به في الدُّنيا، وظَفروا به في الآخرة هو الفوزُ العظيمُ"[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: أصلُ البِشْر - بالكسر - الطَّلاقةُ والبَشاشةُ وبَسطُ الوجه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصّافات: 101]، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 57]، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [البقرة: 119][4]، والبُشْرى: ما يُعْطَاه المُبشَّر مِنَ الأمر، والجمعُ: بُشَر[5]، وهو الخبرُ الَّذي يُغيِّر البَشَرةَ مِن حُزنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكونُ إلَّا بالخبر الأوَّل[6]، فيُقالُ: أَبْشَرْتُ الرَّجُلَ، وبَشَّرْتُه، أي: أَخْبَرْتُه بأمرٍ سارٍّ[7]، وسُمِّيَتْ بذلك مِنَ البِشْرِ، وهو السُّرورُ؛ لأنَّها

(1) البقاعي، نظم الدّرر في تناسب الآيات والسّور: 9/154.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3605.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم: 1/297.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بشر).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1/238، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (بشر).
(6) النَّووي، تحرير ألفاظ التّنبيه، ص: 267، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/184.
(7) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/128، والعَوْتَبيّ، الإبانة في اللّغة العربيّة: 2/280.

تُظْهِرُ طَلاقَةَ وَجْهِ الإنسانِ وفرَحَهُ، والمقصودُ بالبشرى في الآية: الخبرُ السَّارُّ المُفرِحُ الَّذي يُظهرُ البشاشةَ على الوجه.

2) ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾: التَّبديلُ: مصدرُ بدَّل، وأصلُه قيَامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذَّاهِب. يُقالُ: هذا بدلُ الشَّيءِ وبَدِيلُهُ[1]، وحقيقتُه: أن تُغيَّر الصُّورةُ إلى صُورة أُخرى، والتَّبديل قد يُقال للتَّغيير مُطلقًا، وإن لم يؤتَ ببدَله، قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: 59]، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: 55] وقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: 70]، قيل: أن يعمَلوا أعمالًا صالحةً تُبطلُ ما قدَّموه مِنَ الإساءة، وقيل: هو أن يعفوَ تعالى عن سيئاتِهم ويَحتسِبَ بحسناتِهم[2]، والمقصودُ في الآية: هو انتفاءُ جنس التَّبديل.

3) ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾: الكلمةُ: الواحدة مِنَ الكَلِم والكَلام، كلَّمته تكليمًا، وتكلَّمتُ تكلُّمًا. وذكر أبو زيدٍ أنَّ العرب تقول: الرَّجلان لا يَتَكالَمانِ، في معنى لا يتكلَّمان[3]، وأصلُ اشتقاقِ الكلام مِنَ الكَلِم، وهو التَّأثير المُدرَكُ بإحدى الحاسَّتين، فالكلامُ: مُدرَكٌ بحاسَّة السَّمع، والكَلْمُ: بحاسَّة البَصَر[4]، وكَلَمتُه: جرحتُه جِراحةً بَانَ تأثيرُها، و﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النَّمل: 82]، أي: تَسِمُهم[5]، والكَلِمَةُ تَقَعُ على الحرف الواحد مِن حروفِ الهجَاءِ، وتقعُ على لفظةٍ مُؤلَّفة مِن جماعةِ حُروفٍ ذاتِ مَعْنًى، وتقعُ على قَصيدةٍ بكمالِها وخُطبةٍ بأسرها[6]، والمقصودُ بـ ﴿لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في الآية: الأقوالُ الَّتي أوحَى اللَّه تعالى بها إلى الرَّسُولِ ﷺ في الوَعْدِ المُشَارِ إليه في الآية.

4) ﴿ٱلْفَوْزُ﴾: أصلُ الفَوْزِ هو النَّجاةُ ممَّا يُحذَرُ، والظَّفَرُ بما يُؤمَّلُ مع حُصُول السَّلامة[7]، يُقال: فَازَ يَفُوزُ، إذا نَجا، وهو فائزٌ. وفاز بالأمرِ، إذا ذَهبَ بِهِ وخَلَصَ[8]، ويُقالُ لِمَنْ ظفرَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل)، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/460.
(2) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(3) ابن دريد الأزدي، جمهرة اللّغة: (كلم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كلم)، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 1/73، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعريف، ص: 283.
(5) ابن سلَّام، تفسير يحيى بن سلَّام: 2/568، وابن جنّي، المحتسب: 2/189 بلا نسبة.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (كلم)، والنّوويّ، تهذيب الأسماء: 4/118.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/454.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوز).

بخيرٍ وذهب بهِ. قال اللّه تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]. وسُمِّيَتِ الأرضُ القَفْرُ البَعيدَةُ المَخُوفُ مِنَ الهلاكِ فيها مَفازةً على سبيل التَّفاؤُل؛ لأنَّ مَن قطَعها فازَ[1]، والمقصودُ بالفوزِ في الآية: النَّجاةُ وما يلزمُها منَ التَّنعم بنِعَم الجنَّةِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ضمانُ اللّه تعالى لأوليائِه ألَّا يَحلَّ بهم خوفٌ مُحدِقٌ، ولا حُزنٌ مُقلِقٌ

أخبرتِ الآيةُ عن تحقُّقِ البُشرى في وجوه أولياءِ اللّه ﷻ، في زمانَيْن اثنين؛ الأوَّلُ: في الدُّنيا وذلك بما يكون لهم مِنَ الصَّفاء والبهاء والتَّعلُّقِ باللّه تعالى، وبما يوفَّقون إليه منَ الطَّاعات والأعمالِ الصَّالحاتِ، وهذه البشرى مقدِّمةٌ للبُشرى الثّانيةِ بُشرى الآخرةِ، وذلك بدخول الجنَّة، وهذا الوعدُ لا تبديلَ له؛ فإنَّه وعدٌ كريمٌ من ربٍّ كريم، فإذا نال المسلمُ الولايةَ، وكان عبدًا مطيعًا للّه تعالى، عاملًا بما أوجب عليه، فإنَّه مشمولٌ بهذا الوعدِ الأكيدِ، ثمَّ أصدرتِ الآيةُ حُكمًا ترغيبيًّا تحفيزيًّا لِمَنْ كان هذا حالُه، بالاتِّصاف بالفوز العظيم؛ لتحصل الطُّمأنينةَ، ويسكنَ القلبُ إلى مولاه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ في: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

بيانُ ما أعطَى اللّه أولياءَه من خيراتٍ، وما حَباهُم من أمنٍ وثباتٍ

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: بيانٌ لِما أوْلاهُم مِن خيرات الدَّارَين، بعد بيان إنْجَائِهم مِن شرور الخوف والحُزْنِ ومكارهِهما، والجملةُ مُستأنفةٌ كأنَّه قيل: هل لهم وراءَ ذلك من نعمةٍ وكرامةٍ؟ فقيل: لهم ما يَسُرُّهم في الدَّارين مِنَ البشرى[2]؛ وهو مع ذلك استئنافٌ جيءَ به في موضع التَّعليلِ لنفْي حُزنهم والخوفِ عليهم[3].

(1) الميدانيّ، مجمع الأمثال: 2/390، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/454.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/160، والبروسويّ، روح البيان: 4/60.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/142.

سرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

﴿لَهُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾: بمعنى خاصَّةً[1]، والضَّميرُ يعودُ على أولياء اللّه، والبُشرى هي التَّبشيرُ بما يُلقي السُّرورَ في أنفسهم، وقد حكمَ اللّه تعالى لهم بالبُشرى في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة، وذلك وَعْدٌ حَقٌّ، ولذا قال سُبحانه: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾[2]، فقولُه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ جاء على سبيل الحصْرِ والتَّخصيص[3]، وكلُّ وليٍّ تقرَّبَ إلى اللّه تنالُه البشارةُ المنوَّهُ بها في هذه الآية؛ باجتهادِه في النَّوافل والصَّلواتِ، ومبادرتِه إلى الخيرات والمبرَّاتِ، رغبةً في الأجر، وطمعًا في الجنَّة، "وهذا معناه أنَّ مثلَ هذا العبد قد دخلَ في مقام الوُدِّ مع اللّه تعالى، وهنا يُفيضُ اللّه ﷻ عليه بما يشاء"[4]، وسوف ينالُ مِن رضوان اللّه الأكبرِ، وعطائه الأوفرِ، ما يكون له قرَّةَ عينٍ في مثواه عند اللّه.

تخصيصُهم بالبشارة المُتحقِّقةِ في العاجلةِ والآجلةِ

فائدةُ اصطفاءِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ ودَلالتُه:

اصطفى النَّظمُ الكريمُ كلمةَ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ زيادةً في التَّكريم والتَّشريف لهم، والبُشرى والبِشارةُ: الخَبَرُ السَّارّ، وهو أخَصُّ مِنَ الخبر، وسُمِّي بذلك لأنَّ أثرَه يظهرُ على البَشَرَةِ، وهي ظاهر جِلدِ الإنسان، فيجعلُه مُتهلِّلَ الوجه، مُنبسطَ الأسارير، مُبتهجَ النَّفس، أي: لهم ما يسرُّهم ويُسعدُهم في الدُّنيا مِن حياةٍ آمنةٍ طيِّبةٍ، ولهم أيضًا في الآخرة ما يَسُرُّهم مِن فوزٍ برضوان اللّه، ومِن دخول جنَّته[5].

مَلمحُ التَّشريفِ والتَّكريمِ بالخبرِ السَّارِّ السَّعيدِ لأوليائِه

غرَضُ الإبهامِ والإجمالِ في: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

إيثارُ الإبهامِ والإجمالِ في لفظة ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ

لفظُ البشرَى بين الإجمالِ في هذه الآيةِ، والتَّفصيلِ في غيرِها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/154.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3605.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/277.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/69.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/96.

﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ للإيذان بكونِها وراءَ البيان والتَّفصيلِ[1]، أو لكونِها مُبَيَّنَةً في مواضِعَ مِن كتابِ اللّه تعالى[2]؛ فالبشارةُ في الدُّنيا، هي: الثَّناءُ الحسنُ، والمودَّةُ في قلوب المؤمنين، والرُّؤيا الصَّالحةُ، وما يراه العبدُ من لُطفِ اللّه به، وتيسيرِه لأحسن الآمالِ والأخلاق، وصرْفِه عن مساوئ الأخلاقِ، وأمَّا في الآخرة، فأوَّلُها، البِشارةُ عند قبض أرواحِهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فُصِّلت: 30]، وفي القبر، ما يُبَشَّر به من رضا اللّه تعالى، والنَّعيم المقيم، وفي الآخرة تمامُ البُشرى، بدخول جنَّات النَّعيم، والنَّجاةِ مِنَ العذاب الأليمِ[3].

دَلالةُ تعريفِ بـ (أل) في: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

إطلاقُ (البُشرى) على ما يشملُ خيرَي الدُّنيا والآخرة

﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: الكاملةُ[4]، وتعريف بُشرى تعريفُ الجنس، فهو صادقٌ ببشاراتٍ كثيرةٍ[5]؛ وقد يُرادُ بها متعَلَّقُها الَّذي يُبَشَّرون به، ولم يُذكر هنا؛ ليشملَ كلَّ ما بُشِّروا به في كتابِ اللّه تعالى، وعلى لسانِ رَسولِه ﷺ، فأمَّا البُشرَى في الحياةِ الدُّنيا، فأهمُّها البِشارةُ بالنَّصرِ، وبحُسنِ العاقبةِ في كلِّ أمرٍ، وباستخلافِهم في الأرضِ ما أقاموا شَرعَ اللّه وسُنَنَه، ونَصَروا دينَه، وأعلَوا كَلِمتَه، وأمَّا في الآخرةِ فمن أكمَلِها وأجمَعِها لمعاني الآيةِ لأكمَلِهم قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فصّلت: 30][6]. وكلمةُ البُشْرى مصدرٌ إمَّا باقٍ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/160.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/342.
(3) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 420.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/154.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/218.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/342.

على مصدريَّته، والمُبَشَّرُ به محذوفٌ، أي لهمُ البشارةُ فيهما، وإنَّما حُذِفَ للعلمِ به من آياتٍ أُخرَ كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ إلى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١﴾ [التَّوبة: 20 - 21]، وإمّا مُرادٌ به المبشَّرُ به، وتعريفُه للعهد؛ كقوله سُبحانه: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۖ بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢﴾ [الحديد: 12][1].

بديعُ مُقابلةِ الحزن بالبُشرى:

إثباتُ البُشرى في الدَّارَين، يُحقِّقُ نفْيَ الخوفِ والحُزْنِ

ومُقابلةُ ﴿يَحۡزَنُونَ﴾ بـ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وقولِه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ من مُحسِّنات الطِّباق[2]؛ لأنَّ البُشرى يُرادُ بها أمران: أحدُهما بشارةُ المُخْبِرِ، وهذا يدفعُ الخوفَ، والثَّاني سرورُ المُخْبَرِ، وهو يدفعُ حُزنه[3]، فتكونُ البُشرى في الدَّارَين بما يُحقِّقُ نفْيَ الخوف والحُزْنِ كائنًا ما كان[4].

دَلالةُ ذكْرِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ قبل ذكْرِ ظرْفِها:

الغرَضُ مِن تولِّي اللهِ أولياءَه بالكرامة والبُشرَى التّعجيلُ بالمسرَّة

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، قدَّم السِّياقُ ذكرَ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ على ظرفِها، والمعنى: أنَّهم يُبشَّرون بخيراتٍ قبل حصولِها في الدُّنيا، بما يتكرَّرُ مِنَ البشاراتِ الواردةِ في كلام اللّه تعالى وكلامِ رسوله ﷺ، وفي الآخرة بما يَتلقَّونه مِنَ الملائكة، وما يسمعونَه مِن أمْرِ اللّه بهم إلى النَّعيم المقيم، كقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ [البقرة: 25][5]، وفي الآخرة بتلقِّي الملائكةِ إيَّاهم مُسلِّمين مُبشِّرين بالفوز والكرامة، تعجيلًا

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/37.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/219.
(3) ابن القيم، مدارج السَّالكين: 3/151.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/143.
(5) ابن عاشور التَّحرير والتَّنوير: 11/219.

لمسرَّتهم وبيانًا لتولّيه لهم[1]، ففي هذا التَّقديم بيانٌ لتلك المِنَنِ العظيمةِ التي امتنَّ اللّه بها على أوليائه، فجعلَ البُشرياتِ المُسْعِدةَ برضا اللّه ورضوانه، تتنزَّلُ عليهم، بما يكشفُ لهم منازلَهم عند اللّه، وما سَيَلقَون في نعيم جنَّاته، مِن كرامة وتكريمٍ، والبُشرياتُ التي يُبَشَّر بها أولياءُ اللّه في الدُّنيا كثيرةٌ، ففي كُلِّ مرحلة مِن مراحل هذه الرِّحلةِ المُسْعِدَةِ، تطلعُ عليهمُ البُشرياتُ التي تَزُفُّهم إلى الجنَّة، كما تُزَفُّ العروسُ في موكبٍ مِن الفرح والبهجة[2].

أثرُ الموقعِ النَّحويِّ للجارِّ والمَجرور:

إفـادةُ معنى الحاليَّةِ في البُشرَى والمُبَشَّرِ

قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾: شِبْهُ الجملة - الجارُّ والمَجرور - في موقع الحالِ مِن ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، والعاملُ ما في الخبرِ مِن معنى الاستقرار، أي: لهمُ البُشرى حالَ كونِها في الحياة الدُّنيا، وحالَ كونِها في الآخرة، أي: عاجلةً وآجلةً أو مِنَ الضَّمير المجرور، أي: حالَ كونِهم في الحياة، وحالَ كونِهم في الآخرة، بناءً على أنَّها بشارةٌ ناجزةٌ مقصودةٌ بالذَّات، وقيل: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ مصدرٌ، وشِبْهُ الجملة - الجارُّ والمَجرور - مُتَعلّق به[3].

دَلالةُ الاستئناف في: ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾:

تحقيقُ المُبَشَّر به وتعظيمُ شأنِه، مِن بلاغة هذه الجملةِ

في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لا تغييرَ لأقواله، ولا إخلافَ لمواعيده، ومنها تبشيرُ المؤمنين بالجنَّة[4]، وهذه الجملةُ اعتراضٌ لتحقيق المُبَشَّر به وتعظيم شأنه[5]. فلمَّا ذَكرَ النَّظمُ الكريمُ صفةَ أولياء اللّه، وشَرَحَ أحوالَهم، قال تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ والمرادُ أنَّه لا خُلْفَ فيها، والكلمةُ والقولُ سواءٌ، ونظيرُه قولُه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ [ق: 29]، وهذا أحَدُ ما يُقَوّي أنَّ المرادَ بالبشرى

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/118.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1041.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/160، وإسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/60.
(4) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 11/212.
(5) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/118.

وعدُ اللّه بالثَّواب والكرامة لمن أطاعه، بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ﴾[1]، فلا خُلْفَ لمواعيده، وذلك لأنَّ مواعيدَه بكلماتِه[2].

غرضُ جملةِ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

بيانُ كونِ الكلماتِ مُؤكِّدةً للوعْدِ السَّابقِ واللّاحقِ كليْهما

قولُه تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾، أي: لا تغييرَ لأقواله التي مِن جُملتها مواعيدُه الواردةُ بِشارةً للمؤمنين المتَّقين، فتدخُلُ فيها البشاراتُ الواردةُ هاهنا دخولًا أوَّليًّا، ويَثبُتُ امتناعُ الإخلاف فيها لُطفًا وكرَمًا ثبوتًا قطعيًّا[3]، فهي جملةٌ مُبَيِّنَةٌ لمعنى تأكيدِ الوعد الذي تضمَّنه قولُه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، وفيها تذكيرٌ لهم بأنَّ ما وعدَهمُ اللّه به مِنَ البشائر مثلِ النَّصرِ وحسنِ العاقبة أمرٌ ثابتٌ لا يتَخَلَّفُ؛ لأنَّه من كلمات اللّه[4]، فتلك البُشْرى كانت بكلمات اللّه، وكلماتُ اللّه لا تتبدَّلُ[5].

دَلالةُ صيغةِ التَّبديلِ ونفْيِها:

عمومُ نفْيِ جنْسِ التَّبديلِ والتَّغييرِ، يُؤكِّدُ عظَمةَ أمْرِ الله وخلودَه

كلماتُ اللّه في قوله تعالى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾: هي الأقوالُ التي أوحى بها إلى الرَّسول ﷺ في الوعد المُشارِ إليه، ويُؤْخَذُ مِن عموم كلمات اللّه وعموم نفْيِ التَّبديلِ أنَّ كُلَّ ما هو تبديلٌ مَنفيٌّ مِن أَصلِه[6]، وأُكِّد بنفي الجنس لأنَّ الجبابرةَ يُنكرون ذلك؛ فـ﴿لَا تَبۡدِيلَ﴾ أي بوجه مِنَ الوُجوه[7]، فنفَى النَّظمُ الكريم التَّبديلَ بصيغة التَّبرئةِ الدَّالّةِ على انتفاء جنسِ التَّبديل، والتَّبديلُ: التَّغييرُ والإبطالُ؛ لأنَّ إبطالَ الشَّيءِ يستلزمُ إيجادَ نقيضِه[8].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/277.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/358.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/143.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/219.
(5) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 2/487.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(7) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/154_155.
(8) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.

تقديمُ التَّخليةِ على التَّحليةِ ضمانٌ، وما فيه من تعجيل المَسَرَّة اطمئنانٌ

نُكتةُ تقديم ذِكْرِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، فيه تقديمُ بُشرى الدُّنيا لكونِ التَّخليةِ سابقةً على التَّحليةِ، مع ما فيه من مُراعاة حقِّ المُقابلةِ بين حُسنِ حالِ المؤمنينَ، وسوءِ حالِ المفْترينَ، وتعجيلِ إدخالِ المَسرَّة بتبشير الخلاصِ عن الأهوال[1]؛ وهذه كُلُّها تَظهرُ في مُبشِّرات الدُّنيا تقويةً لقلوب المؤمنين بالنَّصر والتَّمكين، مع تَشوُّفِهم للبُشرى الكُبرى في الآخرة بالرِّضا والنَّعيم المُقيمِ.

تأكيدُ الجملةِ السَّابقةِ مع تقريرِ مَضمونِها، من فصيحِ البيانِ

دَلالةُ الاعتراضِ والتّذييلِ:

جملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ مُؤكِّدةٌ لجملة ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، ومُقرِّرةٌ لمضمونها في تحقيق المُبَشَّر به، وتعظيم شأنه؛ فلذلك فُصِلَت[2]، وهذه الجملةُ اعتراضٌ ثانٍ[3]، وهو مبنيٌّ على جواز تَعدُّدِ الاعتراض، وعلى أنَّه يجوزُ أن يكون في آخر الكلام، ولذا قال العلَّامةُ الطِّيبي: "لو جُعلتِ الأُولى معترضةً، والثَّانيةُ تذييلًا للمعترضِ والمعترَضِ فيه"[4]؛ أي الأولى اعتراضيَّةٌ، والثَّانيةُ تذييليَّةٌ[5].

بيانُ أنَّ اسمَ الإشارة فيه كمالُ تَمييزٍ لما ذُكِرَ مِنْ قبلُ، وزيادةُ تقريرِ لمعناه

سِرُّ ورودِ اسْمِ الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، أي: ذلك الأمرُ العالي الرُّتبةِ الَّذي ذُكِرَ مِنَ البُشرى بسعادة الدَّارَين هو الفوز العظيمُ الَّذي لا يَعلوه فوزٌ، والَّذي لا يفوقُه نجاحٌ أو فضلٌ[6]؛ وإنَّما هو ثمرةُ الإيمان الحقِّ، والتَّقوى العامَّةِ في حقوق اللّٰه وحُقوق الخَلْقِ[7]؛ فاسمُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ يعودُ إلى ما ذُكر

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/160، والبروسويّ، روح البيان: 4/60.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/118.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/144.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرّيحان: 12/293.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/155، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/96.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/417.

مِنَ البُشرى في الدَّارَين، أو لانتفاء الخوفِ والحُزنِ عنهم، مع ما بُشِّروا به(1). والظَّاهرُ أنَّ الإشارة بذلك إلى المذكورِ من مَضمون الجُملِ الثَّلاثِ المُتقدِّمةِ، واختير اسم الإشارة؛ لأنَّه أجمعُ لما ذُكِرَ، وفيه كمالُ تمييزٍ له لزيادة تقرير معناه(2)، فجاء اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي يُفيدُ البُعدَ، إشارةً إلى بُعدِ منزلةِ المُشارِ إليه، وسُموِّ رُتْبتِه في الكمال.

دَلالةُ ضَميرِ الفصْلِ بعدَ اسمِ الإشارةِ:

الإشارةُ تأكيدٌ للبُشرى، وإفادةٌ لحقيقة نَيلِهم للفوز الحقيقيِّ

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ذُكِرَ ضميرُ الفصلِ بعد اسم الإشارةِ لزيادة التَّأكيدِ ولإفادة القَصرِ، أي: هو الفوز العظيمُ لا غيرُه ممَّا يتقلَّب فيه المشركون في الحياة الدُّنيا مِن رزقٍ ومَنَعَة وقوَّة، لأنَّ ذلك لا يُعَدُّ فوزًا؛ إذ عاقبته المذلَّةُ والإهانةُ في الدُّنيا، وبعدَه العذابُ الخالدُ في الآخرة، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 196 _ 197](3).

سرُّ تَوالي المُؤكِّداتِ في وصْفِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾:

تحقيقُ كونِ البُشرَى في نفسِها فوزًا عظيمًا

ذُيِّلتِ الآيةُ الكريمةُ بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ تذييلًا جامعًا، فاسمُ الإشارةِ جامعٌ لصفاتِ تلك ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، وأُكِّدَ بضميرِ الفَصلِ، وبالجُملةِ الاسميَّةِ، والوَصفِ بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ المفيدِ للأهميَّة، بما يجعل ذلكَ كأنَّه نَفسُ الفوزِ العظيم(4).

دَلالةُ وصْفِ ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ بصفةِ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ وحصْرِه عليه:

مقدارُ هذا الفوزِ اللَّائقِ بأولياءِ الله الصَّالحين، كرمُ العطاءِ الثّمينِ

جاء وصْفُ الفوز بأنّه عظيمٌ، والجنَّةُ دارُ الفائزين، والفوزُ يجمعُ السَّلامةَ مِنَ الشَّرِّ، والظَّفَرَ بالخيرِ، ومَن فاز بالجنَّة وما فيها مِنَ

(1) ابن عطية، المُحَرَّرُ الوجيز: 3/129، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/172.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 2/607 - 610.

النَّعيم المُقيم الَّذي منه رضوانُ الرَّحمن ورؤيتُه، فقد فاز بأعلى ما يطمحُ إليه إنسانٌ مِن جزاءٍ، وحقَّق أعظمَ فوزٍ يخطر ببالٍ؛ لأنَّه ظَفِر بخلودٍ أبديٍّ فيما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعَت، ولا خطرَ على قلب بشرٍ، فلا يُكدِّره حزنٌ، ولا يُنغِّصه موتٌ، فحقيقٌ أن يُسمَّى هذا الفوزُ فوزًا عظيمًا، وكبيرًا، ومُبينًا، وأن يُوصفَ أصحابُه بأنَّهم فائزون ومُفلحون، فكيف إذا جَمَعَ مع هذا بُشْرَيات الدُّنيا مِن تثبيت قلوبِهم على الدِّين، وتقويةِ إلهام الحقِّ والخيرِ فيهم، والنَّصرِ على الأعداء، واستخلافِهم في الأرض، وبحسن العاقبة في كلِّ أمر[1]، فقَولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ اشتمَلَ على النَّجاةِ من كلِّ محذورٍ، والظَّفَرِ بكلِّ مَطلوبٍ مَحبوبٍ، وحُصِرَ الفَوزُ فيه؛ لأنَّه لا فوزَ لمن لا إيمان يَمنعُهم، ولا تقوى تَردعُهم[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البِشارةُ والخبَرُ:

البِشارةُ إخبارُ المُخبَرِ به بما يسرُّه، مع كونِه سابقًا لكلِّ خبرٍ سواه

البِشارةُ: الإخبار بما يُسرُّ به المُخبرُ به، إذا كان سابقًا لكلِّ خبرٍ سواه[3]، والأمرُ الذي بشَّرك به يسمَّى: بِشارةً، وسُمِّيت بذلك مِنَ البِشر، وهو السُّرورُ؛ لأنَّها تُظهرُ طلاقةَ وجه الإنسان[4]، وهم يتباشرون بذلك الأمرِ، أي: يُبشِّرُ بعضُهم بعضًا، والبِشارةُ إذا أُطلقت فهي للبشارة بخيرٍ[5]، هذا هو الأصلُ، ويجوزُ استعمالُها مقيَّدةً في الشَّرّ، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21]، وقد ورد في القرآن في مواضعَ كثيرةٍ، كقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصَّافات: 101] وقال سبحانه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/417، والمراغي، تفسير المراغي: 11/130.
(2) السّعدي، تيسير الكريم المنّان، ص: 368.
(3) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 100.
(4) الرّاغب، المفردات: (بشر)، وابن الأثير، النِّهاية: 1/129.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).

إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: 71] بخلاف الخبرِ فإنّه يكونُ للأمرين حالَ الإطلاق، والبشارةُ تكونُ مِنَ المُخبِرِ الأوَّلِ[1] بخلاف الخبرِ، فإنَّه قد يكون مِنَ الأوَّل والثَّاني والثَّالث وكُلُّهم مُخبِرون، أمَّا البشارةُ فهي مِنَ المُخبِرِ الأوَّل، فإذا جاء واحد وكرَّرها فلا تكونُ بشارةً، وكذلك الخبرُ قد يكون صادقًا أو كاذبًا، أمَّا البشارةُ فإنَّها تختصُّ بالخبر الصَّادقِ السَّارِّ غالبًا.

(1) النَّوويّ، تحرير ألفاظ التَّنبيه، ص: 267، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/184.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٥﴾

[يونس: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العطْفُ بتسليةِ سيِّدِ المرسلين، بعدَ البُشرَى لعمومِ الأولياءِ الصَّالحين

لَمَّا تقدَّمتِ البُشرى بنفْيِ الخوفِ والحزنِ معًا عنِ الأولياءِ الصَّالحين، عُلِمَ أنَّ المعنى: هذه البُشرى للأولياء، وأنت يا محمَّدُ رأسُهم، فلا تخف ولا تحزنْ، فعطَف بتسلية الرَّسول الأكرم، عمَّا لقيَه مِن أعدائه من أذى بقوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾[1]؛ لأنَّه لَمَّا ذكرَ النَّظمُ الكريمُ شُبهاتِ الكفَّار المتقدِّمةَ، وأجاب عنها؛ عدَلوا إلى طريقٍ آخَرَ، وهو أنَّهم هدَّدوه، وخوَّفوه بأنَّهم أصحابُ أموالٍ وأتباعٍ، فنسعَى في قَهرِك وفي إبطالِ أمْرِك، فأجاب تعالى عن هذا الطَّريق[2] وإذا كان النَّبيّ ﷺ وليَّ الله وهو أوَّلُ الأولياء وهاديهم، فلا يُلتفتُ إلى قول الّذين يناوئونه؛ لأنَّه وليُّ السَّميع العَليم[3]، كما أنَّه ﷻ كما أزال عنِ الرَّسول ﷺ حُزنَ الآخرة، في قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، فكذلك أزال حزنَ الدُّنيا، بقوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ﴾: أصلُ الحزنِ الدّلالةُ على خُشُونَةِ الشَّيْءِ وشِدَّتِه، يُقال: حَزَنَه، يَحْزُنُه، وحَزِنَ، يَحْزَنُ، فهو حَزِينٌ، ومنه الْحَزْنُ، وهو ما غَلُظَ مِنَ الأرض، ومنه كذلك الحُزَنُ: الجبالُ الغِلاظُ. وكذلك هو الغَمُّ الحاصلُ لِوُقُوعِ مَكْروهٍ أو فَواتِ مَحْبُوب. فعمومُ هذه المادَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّر: 9/155، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 7/97.
(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/368.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3606.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/278.

تدلُّ على جفافٍ وخشونةٍ تخالطُ باطنَ الشَّيء أو تمتدُّ فيه فيغلظُ ويخشنُ، والمقصودُ في الآية: الغمُّ والابتئاسُ الحاصلُ من قولهم.

2) ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾: العِزُّ في الأصل: القوَّة والشِّدَّةُ والغَلَبَةُ والرِّفعة والامتنَاعُ، خِلافُ الذُلِّ[1]، يُقال: عزَّ فلانٌ، أي: صار عزيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وأعزَّه الله. وهو يعتزُّ بفلان[2]، ورجلٌ عَزِيزٌ: منيعٌ، لا يُغلب، ولا يُقهر. وعَزَّ الشَّيء: إذا لم يُقدر عليه، وعَزَّ الشَّخص: قَوِيَ وبَرِئَ مِنَ الذُّلّ[3]. فهذه المادَّةُ في كلام العرب لا تَخرجُ عن معانٍ ثلاثةٍ: أحدُها: الغَلَبَة، يقولون: مَن عَزَّ بَزَّ. أي: من غَلَبَ سَلَب، والثَّاني: الشِّدَّة والقوَّة، ومنه: عَزَّ يَعَزُّ. والثَّالث: نَفَاسَة القَدْر، يقال منه: عَزَّ يَعِزُّ. والمقصودُ في الآية: المعاني الثَّلاثة، قال الفرَّاء: "فإنَّها أي: ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾ للّه جميعًا، أي: كلُّ وجهٍ مِنَ العزَّة فلله"[4]، ووجهُ ذلك أنَّ العِزَّة الَّتي للّه تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين هي الدَّائمةُ الباقيةُ التي هي العِزَّةُ الحقيقيَّةُ، والعِزَّةُ الَّتي هي للكافرين هي التَّعَزُّزُ، وهو في الحقيقة ذلٌّ، وعلى هذا قولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١﴾ [مريم: 81]، أي: ليتمنَّعوا بها مِنَ العذاب[5].

3) ﴿جَمِيعًاۚ﴾: الجيمُ والـميمُ والعينُ أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على تَضامِّ الشَّيء، يُقالُ جمعتُ الشَّيءَ جمعًا[6]، وجميعٌ وأجمعُ وأجمعَونَ تُستعملُ لتأكيدِ الاجتماع على الأمر، فأمَّا أجمعون فتوصفُ به المعرفةُ، ولا يصحُّ نصبُه على الحال نحوَ قولِه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٣٠﴾ [الحجر: 30]، ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾ [يوسف: 93]، فأمَّا جميع فإنَّه قد يُنصب على الحال فيؤكَّدُ به من حيث المعنى، نحو: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ﴾ [البقرة: 38][7]، والمقصود في الآية: لفظٌ لوصفِ ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾.

4) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: الأصلُ في السَّمع: قوَّةٌ في الأُذن تُدرَكُ بها المسموعاتُ، وفِعلُه يُقال له السَّمْعُ أيضًا، وقد سَمِع سَمعًا، وهو من أبنية المبالغة في الوصْفِ بالسَّمع، يُعبَّرُ تارةً بالسَّمع

(1) ابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عزز).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/367.
(5) الرّاغب، المفردات: (عزَّ)، وابن الجوزيّ، زاد المسير في علم التَّفسير: 1/113، بتصرف.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جمع).
(7) الرّاغب، المفردات، والطِّيبي، فتوح الغيب: 11/159.

عنِ الأذن نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة: 7]، وتارةً عن فِعله كَالسَّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ٢١٢﴾ [الشّعراء: 212]، وتارةً عنِ الفهم، وتارةً عنِ الطَّاعة، تقول: اسمَعْ ما أقول لك، ولم تَسمَع ما قلتُ، وتعني لم تفهم[1]، والاستِمَاعُ: الإصغاءُ، نحوَ: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء: 47]، فإذا وصفتَ اللّه تعالى بِالسَّمعِ فالمرادُ به عِلمُه بِالمسمُوعَاتِ، وتحرِّيه بالمجازاة، وهذا المعنى هو المقصودُ في الآية[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ مُسلِّيًا له عمَّا لقيَه مِن أعدائِه من أذى، فيقولُ له: ولا يحزُنْك قَولُ المُشرِكينَ، في جانب الرُّبوبيَّةِ، أو في جانبك بالطَّعن والشَّتم والتَّهديدِ، فالعاقبةُ لك بالنَّصر والعِزِّ، فإنَّ اللّه يُعِزُّ أولياءَه، فهو المُنفرِدُ بجميعِ العِزَّة في الدُّنيا والآخرة، فهو مانِعُك مِن أذى المُشرِكين، وهو السَّميعُ لأقوالهم، العليمُ بأفعالهم ونياتِهم، فالدَّاخلُ على اللّه منكورٌ، فكلُّ مَن رام الخصوصيَّة فلْيعوِّلْ على الطَّعن والإنكار، وليتسلَّ بما تسلَّى به النَّبيُّ المختارُ، ولينتظرِ العِزَّ والنَّصر مِنَ الواحد القهَّار[3]، لا مِن الحاسدين والمكذِّبين والكفَّارِ.

لله الغَلَبةُ والقوَّةُ والمَنَعةُ، وهو سُبحانه السَّميعُ العليمُ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالة العطْفِ بالواو:

تطمينُ الرَّسولِ وأولياءِ اللّه، بأنَّهم في كَنَفِه الحَصينِ

قولُه سُبحانه: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾، معطوفةٌ على جملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، عطْفَ الجُزئيِّ على

---

(1) الرّاغب، المفردات، السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سمع)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التعاريف، ص: 197، والمعجم الوسيط: 1/449.

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمع)، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/19.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/226، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/129، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/359، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/282، وابن عجيبة، البحر المديد: 2/485.

الكُلِّيِّ، لأنَّ الحُزن المذكورَ هُنا نوعٌ مِن أنواع الحُزن المنفيِّ في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، ولأنَّ الرَّسول ﷺ مِن أولياء اللّه الَّذين لا خوفٌ عليهم[1]. وفي هذه الجملة الكريمةِ تسليةٌ له ﷺ وتأنيسٌ لقلبِه، وإرشادٌ له إلى ما سيقعُ له مِن أعدائه مِن شرور، حتَّى لا يتأثَّرَ بها عند وقوعِها[2]، وتبشيرٌ له ﷺ، بأنَّه ﷻ ينصرُه ويُعِزُّه عليهم، إثْرَ بيانِ أنَّ له ولأتباعه أمنًا مِن كلِّ محذور، وفوزًا بكلِّ مطلوب[3].

دلالة العطْفِ بالواوِ:

إعطاءُ مضمونِ الجملةِ المعطوفةِ استقلالًا بالقصْدِ إليه

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾، في هذه الجملةِ كان مقتضى الظَّاهرِ أن يعطفَ بفاء التَّفريع؛ لأنَّ دفعَ هذا الحُزنِ يتفرَّعُ على ذلك النَّفي، ولكن عَدَلَ إلى العطْفِ بالواو؛ ليُعطيَ مضمونَ الجملةِ المعطوفةِ استقلالًا بالقصْدِ إليه، فيكونَ هذا ابتداءَ كلامٍ مع عدمِ فواتِ معنى التَّفريع، لظهوره مِنَ السِّياقِ[4].

دَلالةُ تخصيصِ النَّهيِ عنِ الحُزنِ:

بيانُ أنَّ حُزْنَ النَّبيِّ ﷺ كان لتكذيبِهم المقيتِ

تخصيصُ النَّهيِ عنِ الحُزْنِ بالإيراد في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾، مع شمولِ النَّفيِ السَّابقِ للخوف أيضًا، إذْ لم يكنْ عندَه ﷺ شائبةُ خوفٍ حتَّى يُنهَى عنه، ورُبَّما كان يعتَريه في بعض الأوقات نوعُ حُزْنٍ فسلَّاه عن ذلك[5]، والنَّهيُ عن الحُزن نهيٌ عنِ الاستسلام له والانشغالِ به، بل أمرَه اللّه أن يَستمرَّ في دعوته؛ لأنَّ اللّه عاصمُه مِنَ النَّاس، وقد علَّل ذلك النَّهيَ بما يُبيِّنُ أنَّ الغلَبَ في النِّهاية له، فقال ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾[6]، ولا يخفَى أنَّه إذا قُلنا إنَّ الخوفَ والحُزن مُتقاربان، فإذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، كان النَّهيُ عن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/220.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 3/129، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/97.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/161.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/221.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/161.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3606.

الحُزن نهيًا عنِ الخوف أيضًا، إلَّا أنَّ الأولى عدمُ اعتبار ما فيه تَوَهُّمُ نسبةِ الخوف إلى ساحته ﷺ، وإن لم يكن في ذلك نقصٌ، فقد جاء نهيُ الأنبياء عليهم السلام عنِ الخوف، كنهيِهم عنِ الحُزن، بل قد ثبت صريحًا نسبةُ ذلك إليهم، وهو ممَّا لا يُخلُّ بمرتبةِ النُّبوَّة؛ إذ ليس كلُّ خوفٍ نقصًا، ليُنَزِّهوا عنه كيف كان[1].

بَلاغةُ الكنايةِ في النّهيِ عنِ الحُزن:

الأمرُ بالانصرافِ عنِ الحُزن وقايةٌ لرسوله وتثبيت لقلبه

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ خطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، وظاهرُ صيغته أنَّه نهيٌ عن أن يُحزِنَه كلامُ المشركين، مع أنَّ شأن النَّهي أن يتوجَّه الخطابُ به إلى مَن فعل الفعلَ المنهيَّ عنه، ولكنَّ المقصودَ مِن مثل هذا التَّركيب نهيُ النَّبيِّ ﷺ عن أن يتأثَّرَ بما شأنُه أن يُحزن النَّاسَ مِن أقوالهم، أي: لا تحزنْ لقولهم فيُحزنكَ، وإنَّما وجَّه النَّهيَ إلى قولهم للمُبالغة في نهيه ﷺ عنِ الحُزن، إذ إنّ النَّهي عنِ التَّأثير نهيٌ عنِ التَّأثُّر بأصله[2]، فلمَّا وجَّه الخطابَ إليه بالنَّهي عن عملٍ هو مِن عمل غيره، تعيَّن أنَّ المُرادَ بذلك الكنايةُ عن نهيه هو، عن حصول ذلك الحُزن في نفسِه، بأن يصرفَ عن نفسِه أسبابَه وملزوماتِه، فيؤولُ إلى معنى: (لا تترك أقوالهم تُحْزنكَ)، وهذا كما يقولون: (لا أرَيَنَّكَ تفعل كذا)، و(لا أعرفنَّك تفعل كذا)، فالمُتكلِّمُ ينهَى المُخاطَبَ عن أن يراه المتكلِّمُ فاعلًا كذا، والمرادُ نهيُه عن فعل ذلك، حتّى لا يراه المُتكلِّمُ، فهو من إطلاق الملزوم وإرادة اللَّازم، والنَّهيُ عنِ الحُزن، وهو أمرٌ نفسيٌّ لا اختيارَ للإنسان فيه، المرادُ به هُنا النَّهيُ عن لوازمه، كالإكثار مِن مُحاولة تجديد شأن المصائبِ، وتعظيمِ أمرها، وبذلك تتجدَّد الآلامُ، ويَصعبُ النِّسيانُ[3].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/144.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/144، والبروسويّ، روح البيان: 4/63.

(3) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/97، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/221.

أثرُ اختلافِ القراءةِ القرآنيَّةِ في ﴿يَحْزُنكَ﴾:

إفادةُ المبالغةِ في المنعِ عنِ الحزن، وفي الثَّبات على هذا المنعِ

قرأ نافعٌ بضمِّ الياء وكسر الزَّاي، مِن: أَحزَنه يُحزِنه، وقرأ الباقون بفتح الياء وضمِّ الزَّاي[1]، وهما لغتان وكلاهما بمعنًى؛ لكنَّ قراءةَ نافعٍ تُفيدُ المبالغةَ في المنع عنِ الحُزن، وفي التَّحضيض على زيادة الوثوق والثَّبات عليه[2]، فكأنَّه قيل: لا تحزن بقولهم ولا تبالِ بكلِّ ما يَتفوَّهون به في شأنك ممَّا لا خيرَ فيه[3].

سِرُّ حذْفِ مَقولِ القولِ:

تفصيلُ أقوالِ المشركين فيما سبقَ مِنَ السُّورة، علَّةٌ في الحذفِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، فيها وقفٌ تامٌّ[4]، والمعنى ولا يحزنْك يا محمَّدُ ويُهمَّك قولُهم، أي: قولُ كفَّار قريش، ولفظةُ القول تعمُّ جُحودَهم واستِهْزاءَهم وخِداعَهم وغيرَ ذلك[5]، وفيه: نهاه عنِ الحُزن والغمِّ مِن قولهم الَّذي يقولونَه في تكذيبه الَّذي تقدَّم مُفَصَّلًا في هذه السُّورة، فحذَفَ مقولَ القول للعِلم به[6].

دَلالةُ عوْدِ الضَّميرِ المتَّصلِ في: ﴿قَوْلُهُمْ﴾:

تحقيرُ شأنِهم وشأنِ مقالتِهم، إبانةٌ عنِ المرادِ

الضَّميرُ في: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يعودُ على المكذِّبين القائلين الأقوالَ التي يتوصَّلون بها إلى القَدْحِ فيه، وعبَّر عنهم بالضَّمير تحقيرًا لشأنِهم وشأنِ أقوالهم، وما يُحزِنُ النَّبيَّ ﷺ هو ما يمسُّ دعوتَه، أو تُنتَهكُ فيه حُرماتُ اللهِ وشرعُه، فقد كان لا يغضبُ لنفسه، ولكنَّه كان لا يقومُ لغضبِه شيءٌ إذا تُعرِّض للحقِّ بشيءٍ حتَّى ينتصرَ له، وكذلك حُزنُه لم يكن على نفسِه، ولكن على دعوتِه ودينِ ربِّه الَّذي كلَّفَه ببلاغه.

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 219، وابن الجزريِّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/244.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/514.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/144.
(4) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/394.
(5) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/129.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/452.

دَلالةُ تخصيصِ النَّهيِ عنِ الحُزن من الأقوالِ:

بيانُ أنَّ غالبَ أذيَّتهم وأكثرَها كانت أقوالًا

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾، يعني لفظُ ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾: إشراكَهم وتكذيبَهم وتهديدَهم، وقِيل: المُرادُ ادِّعاؤهمُ العزَّةَ لأنفسهم بدليل ما بعدَه مِنَ الكلام[1]، ولفظةُ القول تَعُمُّ جُحودَهم واستهزاءَهم وخداعَهم وغيرَ ذلك[2]، وقد أشار إلى ذلك النَّسفيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ فقال: "أي: تكذيبُهم وتهديدُهم وتشاورُهم في تدبير هلاكِك وإبطالِ أمرك"[3]، فالحُزن المذكورُ هو الحُزنُ النَّاشئُ عن إيذاء المشركين محمَّدًا ﷺ، بأقوالهم البذيئةِ وتهديداتِهم، ووَجْهُ الاقتصارِ على دحضِه أنَّ النَّبيّ ﷺ لم يكن يَلقى مِنَ المشركين مَحْزَنًا إلَّا أذى القَول البَذيءِ[4]، فيكونُ من إطلاق العامِّ وإرادةِ الخاصِّ، وإمَّا أن يكون ممَّا حُذِفت منه الصِّفةُ المخصِّصةُ، أي: قولُهم الدَّالُّ على تكذيبك ومُعاندتِك[5].

سرُّ الفصْل في: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ﴾:

من مقاصدِ المعنى النَّهيُ السَّابقُ وتثبيتُ النَّبيِّ، وطمأنةُ قلبِه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، تعليلٌ للنَّهي على طريقة الاستئنافِ، فَكأنَّه ﷺ قد قال: كيف لا أحزنُ والمشركون يتطاولون علينا ويتوعَّدونَنا وهم أهلُ عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ؟ فكان الجوابُ: بأنَّ عِزتهم كالعدم؛ لأنَّها محدودةٌ وزائلةٌ، والعزَّةُ الحقُّ للّٰه الَّذي أرسلك، فالغلبةُ كلُّها، والقوَّةُ كلُّها للّٰه وحدَه لا لغيره، فهو ناصرُك ومُعينُك ومانعُك[6]، وهو سُبحانه القديرُ على أن يغلِبَهم ويقهرَهم ويعصمَك منهم[7]، فهو استئنافٌ بمعنى التَّعليلِ لدفع الحُزن عنه، ولذلك

(1) الجرجانيُّ، درج الدُّرر: 1/825.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/129.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 2/31.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/221.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/82.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/359.
(7) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/97، والزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357.

فُصِلت عن جملة النَّهي[1]، حيث تمَّ الكلامُ عند جملةِ النَّهي، أي لا يحزنك افتراؤهم وتكذيبُهم لك، ثُمَّ ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾، أي القوَّة الكاملةُ والغلبةُ الشَّاملةُ والقدرةُ التَّامّةُ للّه وحدَه، فهو ناصرُك ومُعينُك ومانعُك[2]، وفي هذا التَّعليل تثبيتٌ للنَّبيِّ، وطمأنينةٌ لقلبه، وأنَّ خلافَ قومِه عليه لا يَضُرُّه، لأنَّه مُؤَيَّدٌ من ربِّه، ربِّ العزَّة التي يَذِلُّ لها الجبابرةُ[3].

دَلالةُ افتتاحِ الجملةِ بالتَّوكيدِ بالحرفِ، واسميَّةِ الجُملةِ:

الاهــتــمــامُ بمدلولِ الجملةِ وتقويَةِ حُكمِها

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ افتُتحتِ الجملةُ بحرف التَّأكيد للاهتمام بها، ولأنَّه يُفيدُ مُفاد لام التَّعليل، وفاءِ التَّفريع، في مثلِ هذا المقام الذي لا يُقصَدُ فيه دفعُ إنكارٍ مِنَ الُمخاطَب[4]، وفي هذا التَّوكيد جوابٌ لسؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيل: (هل العزَّةُ للّه جميعًا فيقهرُ المشركين وينصرُ المؤمنين؟)، ولَمَّا كان السُّؤالُ عن سبب خاصٍّ، أُكِّدَ بلفظة ﴿إِنَّ﴾، مع إيراد الجُملةِ اسميَّةً[5].

دَلالةُ كسرِ همزة ﴿إِنَّ﴾:

دفعُ تَوَهُّم كوْنِ (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) من قولِهم، وهو لا يستقيمُ

كُسِرَتْ ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾؛ للاستئناف بالتَّذكيرِ لما ينفي الحُزْنَ، لا لأنَّها بعدَ القول، لأنَّها ليست حكايةً عنهم[6]. فلا يجوزُ أن تكون كُسِرَتْ لأنَّها وقعت بعد القول؛ لأنَّه يصيرُ حكايةً عنهم، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ يحزنُ لذلك وهذا كُفْرٌ[7]، وعليه يحسنُ الوقفُ على كلمة ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ لكيلا يَتَوَهَّمَ بعضُ مَن يسمعُ جملةَ ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ فيَحسَبَه مقولًا لقولهم فيَتَطَلَّبَ سؤالًا يقعُ في

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/221.
(2) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/359.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1043.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/222.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/514.
(6) النَّيسابوريّ، إيجاز البيان: 1/401.
(7) المجاشعيّ، النُّكت في القرآن الكريم، ص: 242.

الذِّهن، لماذا يكون هذا القولُ سببًا لحزن الرَّسول ﷺ؟ وهو ممَّا يَسُرُّه، لا العكس! فكيف يحزن الرَّسولُ مِن قول ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ﴾، وإن كان في المقام ما يهدي السَّامعَ سريعًا إلى المقصود[1]، ولتعيين هذه الأداةِ المؤكِّدةِ، وإبرازِ الجملة الاستئنافيَّة التي تبتدئ بها، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، وقد "جاء العلماءُ بالوقفِ هنا لندقِّقَ القراءةَ ونُحْسِنَ الفهمَ. ولذلك علينا أن نقرأ ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، ثمّ نتوقَّف قبل أن نتابعَ القراءةَ ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾؛ وبهذا نفهمُ المعنى: (يجب ألَّا تحزنَ يا محمَّد؛ لأنّ أقوالَهم لن تُغيِّرَ في مجرى حتميَّة انتصارِك عليهم)"[2].

دَلالةُ التَّقييدِ بالحالِ، وغرضُ تذكيرِها في: ﴿جَمِيعًاۚ﴾:

التّأكيد بأنَّ العِزَّة لله، تَسليَة لقلب نبيِّه ومُصطفاه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، أي: حالَ كونِها جميعًا، فسيذلُّهم ويُعزُّ دينه، فالحالُ موكِّدةٌ مضمونَ الجملة قبلها، المفيدَ لاختصاصه تعالى، بجميع جنس العزَّة؛ لدفع احتمالِ إرادةِ المبالغة في مِلكِ ذلك الجنس[3]، والمرادُ بذلك التَّسليةُ عن قولهم الذي يُؤذونه به[4]؛ وهو حالٌ مِنَ الضَّمير في الخبر، ولم يُؤنَّث؛ لأنَّ (فعيلًا) مِن صيغ المصدر، وهو يصلحُ بلفظ واحدٍ لكلِّ ما أُريد به، ولو كان هُنَا وصفًا أو توكيدًا لقيلَ: (إنّ العزَّة جميعَها للّه)[5].

دَلالةُ (أل) في: ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾:

العزَّة بُرمَّتها للّه تعالى، ولا عِزَّةَ لغيره مهما أُوتي من بأسٍ

التَّعريف في ﴿ٱلۡعِزَّةَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ تعريفٌ للجنس المُفيدِ للاستغراق بقرينة السِّياق[6]، والعزَّةُ: هي الغلبةُ والسُّلطانُ، وجميعُها للّه تعالى، فلا عزَّة لغيره مهما كان له مِنَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/222.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6044.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/222.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/155.
(5) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/275.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/222.

القوَّة، وهم لا يَنالونَ من رسولِه، مهما كان ما يُظهرون مِن استكبارٍ، وما يُبدونه مِن علوٍّ وطُغيانٍ، والعزَّةُ المنسوبةُ للّه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، قد محَّضتِ العزَّة للّه تعالى، ولم يُذكر الرَّسول ﷺ؛ لأنَّ عزَّة اللّه سبحانه هي عزّة لنبيّه، وهو ناصرُه ووليُّه[1].

فائدةُ اللَّامِ في: ﴿لِلَّـهِ﴾:

العِزَّة لله، ثابتةٌ له جلَّ في علاه، ولا معنى لعزَّة مَن سِواه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، أي: في مملكتِه وسُلطانِه لا يملكُ أحدٌ شيئًا منها أصلًا، لا هم ولا غيرُهم[2]. فاللَّام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلْك، وقد أفادَ جعْلُ جنس العِزَّة مُلكًا للّه أنَّ جميع أنواعها ثابتٌ له، فيُفيدُ أنَّ له أقوى أنواعِها وأقصاها، وبذلك يُفيدُ أنّ غيرَ اللّه لا يملكُ منها إلَّا أنواعًا قليلةً، فلذلك لا يكونُ لِما يملكُه غيرُ اللّه مِنَ العزَّة تأثيرٌ، إذا صادم عِزَّةَ اللّه تعالى، ولا يكونُ لعزّة بشرٍ تأثيرٌ إلَّا إذا أمهلَه اللّه، فكلُّ عزَّة يستخدمُها صاحبُها في مناوأة مَن أراد اللّه نصْرَه، فهي مدحوضةٌ مغلوبةٌ، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21][3]، فالعزَّةُ كُلُّها للّه، وما سواه ذليلٌ مهينٌ[4].

سرُّ إثباتِ العِزَّة لله وحده في: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّـهِ جَمِيعًاۚ﴾:

كلُّ عِـزَّةٍ لغير الله مُستمَدَّةٌ مِن عِزَّته

لا تَعارُضَ بين قوله سُبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ وقولِه في آية أخرى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]؛ لأنَّ كُلَّ عِزَّة لغيره سُبحانه مُستمَدَّةٌ مِن عِزَّته، وكُلَّ قوّة من تأييده وعونِه، والرَّسولُ ﷺ والمؤمنون إنَّما صاروا أعزّاءَ بفضل رُكونِهم إلى عِزَّةِ اللّه تعالى، وإلى الاعتمادِ عليه، وقد أظهرَها سُبحانه على أيديهم تكريمًا لهم[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3606.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/161، والبروسويّ، روح البيان: 4/63.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/223.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1043.
(5) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/97.

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ وتأكيدُ وعْدِه له بالنَّصر

دَلالةُ الاستئنافِ في: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

جملةُ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا آخرَ في تقرير مضمون الأوَّل، وهو تسليتُه ﷺ، وتأكيدُ وعدِه بالعِزَّة ووعيدِ تكذيبِه[1]، حيث إنَّه السَّميعُ لما يقولونه، العليمُ بما يفعلونه، وسيحميك منهم، ويُجازيهم عليه جزاءً وِفاقًا، فلا يَشْغَلَنَّكَ أمرُهم، وفي هذا تثبيتٌ لفؤاد النَّبيِّ ﷺ، وتأكيدٌ لوعده بالنَّصر[2].

تقويةُ التَّعليل الأوَّل بآخرَ يُقرِّرُ مضمونَه في نفس المُخاطَبِ

سِرُّ إجراءِ هذا الخبرِ على الضَّميرِ العائدِ على اسمِ الجلالةِ:

الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ يعودُ إلى لفظ الجلالة، "وإجراءُ هذا الخبرِ على اسم الجلالةِ الواقعِ رُكنًا في الجملة التَّعليليَّةِ، يَجُرُّ معنى التَّعليلِ إلى هذه الجملةِ، فتفيدُ الجملةُ تعليلًا آخرَ أو تكملةً للتَّعليل الأوَّل، لأنَّه إذا تذَكَّر المُخاطَبُ أنَّ صاحبَ العِزَّة يعلمُ أقوالَهم وأحوالَهم، زاد ذلك قوَّةً في دَفْعِ الحُزْنِ مِن أقوالِهم عن نفسه، لأنَّ الذي نهاه عنِ الحُزْنِ مِن أقوالِهم وتَطاوُلِهم، أشدُّ منهم قوَّةً، ومحيطٌ عِلْمُهُ بما يقولونه، وعليمٌ بأحوالِهم، فهو إذْ نهاك عنِ الحُزن مِن أقوالِهم، ما نهاك إلَّا وقد ضَمِنَ لك السَّلامةَ منهم، مع ضعفِك وقوَّتِهم، لأنَّه يمدُّك بقوَّته، وهو أعلمُ بتكوين أسباب نصرِكَ عليهم"[3].

تأكيدُ عِزَّةِ الله وإنذارِ المُكذِّبين المُستهزئين بعاقبةِ ما يقولون

سِرُّ تخصيصِ التَّذييلِ بوصْفَيِ السَّمع والعِلْم:

قولُه سبحانه: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ أي لِمَا يقول هؤلاء المشركون من زورٍ وبهتانٍ، ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما تموجُ به صدورُهم من شِركٍ وضَلالٍ، وسيجْزيهم بما كَسَبوا[4]، وهذان وصفانِ، يُؤكِّدان عِزَّةَ اللّٰه تعالى، وأنَّه وحدَه هو العزيزُ الغالبُ؛ لأنَّه سميع، أي: عالمٌ علمَ مَن يسمعُ، عليمٌ بكلِّ أحوالِهم ما خفي منها وما ظَهَرَ، ومَن كان كذلك فهو

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/452.

(2) حجازيّ، التَّفسير الواضح: 2/76.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/223.

(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1044، والآلوسي، روح المعاني: 6/144.

العزيزُ وحدَه، وفي التَّذييل بهذين الوصفين، إنذارٌ لهؤلاء المُستهزئين بعاقبة ما يقولون؛ لأنَّه يُحاسبُهم على ما يقولون ويستهزئون، واللَّه هو الوليُّ وهو النَّاصرُ القادرُ على كلِّ شيء(1).

دَلالةُ السِّياقِ على تقريرِ قضايا الدِّينِ الأساس:

اللّه تعالى ناصرٌ دينَه ورسولَه، بعزٍّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذليلٍ

ما زال السِّياقُ يقرِّرُ قضايا الدِّين الثَّلاث؛ التَّوحيدِ والنُّبوَّة والبعثِ، حيث قال تعالى مخاطبًا رسولَه محمَّدًا ﷺ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾، أي لا يجعلْك قولُ المشركين المُفترين: لَسْتَ مُرْسَلًا وإنَّك لشاعرٌ مجنونٌ تحزنُ؛ فإنَّ قولَهم هذا لا يُنتج لهم إلَّا سوءَ العاقبة والهزيمةَ الحَتميَّة، لأنَّ ﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فربُّك القويُّ القادر، سيهزمهم وينصرُك عليهم، إذًا فاصبر على ما يقولون ولا تَأسَ ولا تحزنْ، إنَّه تعالى هو السَّميع لأقوال عباده، العليمُ بأعمالهم وأحوالِهم، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أمرهم(2).

❁ المتشابهُ اللَّفظيُّ:

التَّشابهُ اللَّفظيُّ بين آيتَيْ يونس، ويس:

نهيٌ عنِ الحُزن والجَزعِ، وتقريرٌ بأنَّ العزَّةَ والتَّمكينَ لربِّ العالمين

التَّشابه اللَّفظيُّ بين قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [يس: 76] وبينهما تشابهٌ في الوَقف على ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في السُّورتين؛ لأنَّ الوقفَ عليه لازمٌ، و﴿إِنَّ﴾ فيهمَا مكسورةٌ بالابتداءِ بالكتابة، ومحكيُّ القَول محذوفٌ ولا يجوز الوَصلُ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ مُنزَّهٌ عَنْ أن يُخَاطَبَ بذلك(3)، والخطابُ في الآيتين كلتيهما مُوجَّهٌ إلى مقام النُّبوَّة الجليلِ، وقد وردتا في فترة الأحزان والامتحان، حيث يُرادُ بهذا الأسلوب الرَّقيقِ التَّسريَةُ عنِ النَّبيِّ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3606.
(2) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 2/489.
(3) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 212.

والمؤمنين، حينما ضاقت عليهمُ الأرضُ بما رَحُبَت، وكان التَّقولُ بالأباطيل، والإرْجافُ بالأكاذيب، والسُّخريةُ مِنَ المُرسَل والرِّسالة في أوْجِها، فكان الخِطابُ توجيهيًّا بليغًا، مُفاده أن يُعرِض النَّبيُّ عن كلِّ ذلك، وأن يتوجَّه إلى اللّه تعالى، حيث الأمانُ والحمايةُ والمَنَعةُ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العِزَّةُ والقوَّةُ:

العِزَّةُ تدلُّ على الشِّدَّةِ والتَّمكُّنِ في القدرة، والقوَّةُ مُطلقُ القُدرة

العِزَّةُ تدلُّ اشتقاقاتُهَا على شدَّةٍ وقُوَّةٍ وما شاكَلَهُما مِنَ الغَلَبةِ والقهْرِ[1]، ومنه قولُهم: رجلٌ عزيزٌ، أي: مُمْتنعٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهر[2]، والعِزَّةُ: حَالٌ مانعةٌ للمرء مِن أن يُغلبَ، وتارةً تقعُ وصْفَ مدْحٍ، وتارةً تكُون وصْفَ ذمٍّ، فأمَّا ما يُذمُّ بها فعزَّةُ الكفَّارِ، قال اللّه سُبحانَهُ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾ [ص: 2]، وذلك أنَّ العزَّةَ للّه تعالى ولرسوله، هي العِزَّةُ الحقيقيَّةُ، وهي الدَّائمةُ الباقيةُ، بخلاف العِزَّةِ التي للكُفَّار، فإنَّما هي تَعَزُّزٌ، وهي في حقيقتها ذُلٌّ؛ لكونها تَشَبُّعًا بما لم يُعْطَوْا[3]، واسمُ اللّه تعالى العزيز؛ معناه: القويُّ الذي لا يُغلبُ[4]. ولفظُ القوَّة وُضع أوَّلًا لما به يتمكَّنُ الحيوانُ مِن أفعالٍ شاقَّةٍ[5]، ثمَّ نُقل إلى مبدئِه وهي القدرةُ، وهي صفةٌ بها يتمكَّن الحيوانُ من الفعل والتَّرك، والقُوَّةُ تكونُ في البدن نحو: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصِّلت: 15] وفي القلب: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ [مريم: 12] وفي المُعاوِنِ من خارج نحوَ: ﴿قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ [النَّمل: 33]، وفي القُدرةِ الإلهيَّة نحوَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: 25]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذَّاريات: 58][6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عز).
(2) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عز).
(3) السَّمين الحلبيّ، بصائر ذوي التَّمييز: 4/61.
(4) ابن الأثير، النِّهاية: (عز).
(5) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 179.
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 718، والتَّهانويّ، كشَّاف اصطلاحات الفنون: 2/1302.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾ [يونس: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين حصْرِ العزَّة في الله وحدَه، وسيطَرتِه على الكونِ ومَن فيه

لَمَّا ذكرَ الله تعالى أنَّ العِزَّةَ له، وهي القَهرُ والغلبةُ، ذكرَ ما يُناسبُ القهرَ، وهو كونُ المخلوقاتِ مُلكًا له تعالى، فهو الرزاق ذو القوّة المتينُ[1]؛ فهم مِلكُه، يتصرَّفُ فيهم كيف يشاءُ[2]، فلمَّا خُتِمَتِ الآية السَّابقةُ بعموم سمْعِه وعلْمِه بعد قصرِ العِزَّة عليه، كان كأنَّه قيل: إنَّ العِزَّةَ لا تتمُّ إلَّا بالقُدْرَة، فأثبتَ اختصاصَه بالملك الذي لا يكونُ إلَّا بها[3]؛ فأقام بذلك الدَّليلَ على كوْنِ العِزَّة للّه جميعًا، وكوْنِ الجزاءِ بيده[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّبِعُ﴾: أتبعَ القومَ: سبقوه فلحقَهم. يقال: تبعتُهم فأتبعتُهم، أي تلوتُهم فلحقتُهم. وقيل: أتبعَه إذا تبعَه يريدُ به شرًّا، كما أتبع فرعونُ موسى، وهو تابعُه وتبيعُه، وهو له تبَعٌ، وهم له تبعٌ، لأنَّه مصدرٌ وهم أتباعُه وتباعُه[5]. والاتِّباعُ: أصلٌ واحدٌ لا يشذُّ عنه مِنَ الباب شيءٌ، هو التُّلُوُّ والقَفْو، يُقال تبعتُ فلانًا إذا تلوته واتَّبعته، وأتبعتُه إذا لحقتُه[6]، ويأتي بمعنى الاقتداء، وأصلُه: اقتفاءُ أثرِ الماشي، والمشيُ خلفَه، ثمَّ استُعملَ في العمل بعمل غيرِه[7]، ومِن معانيه أيضًا: الائتمارُ والامتثالُ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/83.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/360، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 368.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/156.
(4) المراغي، تفسير المراغيّ: 11/132.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/89.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تبع).
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/427.

2) ﴿يَدۡعُونَ﴾: أصْلُ الدُّعاء: النِّداءُ، وهو إمالَةُ الشَّيءِ إليك بصوتٍ وكلام يكونُ منك، تقول: دعوتُ فلاناً، دعاءً ودعوةً، أي: ناديْتَه. والدَّعوةُ: المرَّةُ الواحدة مِن الدُّعاء[1]، ويأْتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللّه، أدْعُوهُ، أي: سألْتُهُ، ومنه سُمِّيَت الرَّغبةُ إلى اللّه ﷻ دُعاءً[2]. ويُطلَقُ على الحثِّ على الشَّيءِ والتَّرغيبِ فيه، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ، أي: حثَّهُم ورَغَّبَهُم، والدُّعاء: العبادةُ، ويدلُّ عليه قولُه ﷺ: «الدُّعَاءُ هو الْعِبَادَةُ»، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60][3]، وهذا ما عليه معنى ﴿يَدۡعُونَ﴾ في الآية الكريمة.

3) ﴿شُرَكَآءَۚ﴾: أصلُ (شرك): الشِّرْكَةُ، وهو أن يكُونَ الشَّيءُ بين اثنَينِ لا يَنفرِدُ به أحدُهُما. ويُقالُ: شارَكتُ فلانًا في الشَّيء، إذا صرتَ شَريكَهُ. وَأشركتُ فلانًا، إذَا جعلتَه شَريكًا لك[4]، "وجمعُ الشَّرِيكِ شُرَكاءُ"[5]، والشِّركُ: يأتي بمعنى المُشارَكة، وهي الانضمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّريكين، يُقال: شركتُه في الأمر وشارَكتُه: إذا انْضَمَمتُ إليه وخالَطتُهُ، وصِرتُ شَريكًا لَهُ[6]، ويُطلَقُ على الكُفرِ، والشِّركُ باللّه تعالى ضربان: ضربٌ يُجعلُ للّه فيه شريكٌ. وهذا - والعياذُ باللّه منه - وصفَه تعالى بأنَّه ظُلْمٌ عظيمٌ، والثَّاني الشِّركُ الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ اللّه في بعض الأمور، وذلك كالرِّياء، والمقصودُ بالشُّركاء في الآية: همُ النُّظراءُ والأندادُ، أي: أنَّهم أشركوا عبادةَ غيرِ اللّه مع اللّه تعالى[7].

4) ﴿ٱلظَّنَّ﴾: أصلُ الظَّنِّ هو اسمٌ لما يَحصلُ عن أمَارةٍ، ومتى قَويتْ أدَّت إلى العلمِ واليَقين[8]، يُقال: ظننتُ ظنًّا، أي: عَلمتُ وأيقَنتُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨﴾

---

(1) الجوهريّ، الصَّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (دعا - دعو).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/118، وابن سيده، المحكم: (دعو).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/266، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دعو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرك).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شرك).
(6) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيّوميّ، المصباح المنير: (شرك).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شرك).
(8) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ظن)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: 3/545، والمناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 231.

[القيامة: 28]، أي: عَلِم وأيقن(1)، وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: 24]، أي: علم. ومتى ضعفت جدًّا لم يتجاوز حدَّ التَّوهُّم، فيكون معناها الشَّكَّ والتَّردُّدَ، يُقال: ظننت الشَّيءَ: إذا شَكَكْتَ فيه ولم تَتَيَقَّنْهُ(2)، ويأتي الظَّن بمعنى الاتِّهام، والظِّنَّةُ: التُّهمة. وجمْعُه: ظُنونٌ. والمُرَادُ بِالظَّنِّ هنا العلمُ المُخطِئُ.

5) ﴿يَخۡرُصُونَ﴾: أَصْلُ الخَرْصِ: حَزْرُ الشَّيءِ وَتَقْدِيرُهُ(3)، يُقَالُ: خَرَصتُ النَّخْلَ أَخْرِصُهُ خَرْصًا إِذَا حَزَرْت ثَمَرَهُ وَقَدَّرْتُهُ(4)، وَبَاعَهُ خَرْصًا، أي: تَقْدِيرًا مِن غَيرِ وَزنٍ. والخَرصُ الكَذبُ، يقال: خَرَصَ وتَخَرَّص واختَرَص، أي: افترى الكذبَ(5)، ودليله قولُه تعالى: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠﴾ [الزُّخرف: 20]، أي: يكذبون، وحقيقةُ ذلك: أنَّ كلَّ قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ يُقال فيه: خَرْصٌ، سواء أكان مُطابقًا للشَّيء أم كان مُخالفًا له، من حيث إنَّ صاحبَه لم يقله عن عِلمٍ ولا غلَبةِ ظنٍّ ولا سماعٍ، بلِ اعتمد فيه على الظَّنِّ والتَّخمين، كفِعلِ الخارصِ في خَرْصِه، والمقصودُ في الآية: يُقدِّرونه جُزافًا بالظَّن والتَّخمين، كمن ينظرُ إلى شيءٍ فيُقدِّرُ كيلَه أو وزنَه بالنَّظر إليه دون معيارٍ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

العِزَّةُ والمُلكُ للهِ، ومَنِ ادَّعاهما سِواه، فباطلةٌ دَعواه

الآيةُ الكريمة تعرِض بعضَ مظاهر سُلطان اللّه وقدرته، وأنَّه سبحانه له مُلْك السَّماوات والأرض ومَن فيهنَّ، فهو وحدَه الجديرُ بأن يُمجَّد ويُعبَد، وأمَّا الذين يتَّبعُهمُ المشركون ويدعونَهم آلهةً مِن دون اللّه، ويجعلونَهم شركاءَ له، فإنَّما ذلك مِن باطلِهم وضلالِهم،

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 22/170، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/295.
(2) ابن السّكّيت، إصلاح المنطق، ص: 62، وابن سيده، المخصّص: 3/223.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم: (خرص - وحزر).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خرص).
(5) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (ظنّ)، والمناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 231.

ومِن حصائلِ ظُنونِهم وأوهامِهم؛ فهذا المعتقدُ الَّذي يعتقدونه في معبوداتِهم، وتلك المشاعرُ الَّتي تشدُّهم إليها، إنَّما هي ممَّا يولِّدُه الجهلُ، ويصوِّرُه الضَّلالُ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ:

تيئيسُ المشركين من الانتصار على النَّبيِّ والمؤمنين

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾، أي: الذي له الملكُ والإحاطةُ الكاملةُ[2]؛ فالمقصودُ بتوجيه هذا الكلام همُ المشركون، لتيئيسهم مِن كلِّ احتمالٍ لانتصارهم على النَّبيِّ ﷺ والمسلمين، فإنَّ كثيرًا منهم حين يفهمُ ما في الآيات الخَمْسِ السَّابقةِ مِن قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ﴾ [يونس: 61] الآية، إلى هُنا، منَ التَّصريح بهوانِ شأنِهم عندَ اللّه وعندَ رسولِه، ومِنَ التَّعريض باقتراب حُلولِ الغَلَبة عليهم، يُخامرُهم بعضُ الشَّكِّ في صدْق الرَّسولِ، وأنَّ ما توعَّدَهم به حقٌّ، ثُمَّ يُغالطون أنفسَهم، ويُسَلُّون قلوبَهم بأنَّه إن تَحقَّق ذلك سيجدون مِن آلهتهم وساطةً في دفع الضُّرِّ عنهم، ويقولون في أنفسهم: لمثل هذا عبدْناهم، وللشَّفاعة عندَ اللّه أعددْناهم، فَسِيقَ هذا الكلامُ لقطع رَجائِهم منهم بالاستدلال على أنَّهم دونَ ما يُظَنُّ بهم، فالجملةُ مستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا[3].

فائدةُ وقوعِ الاستئنافِ عَقِبَ: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾:

دَحْضُ أقوالِ المُتقوِّلين، بتعليلِ ما سبق مِنَ الحُكم وتأكيدِه

مُناسبةُ وقوعِ هذه الجملةِ عقبَ جملةِ ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، أنَّ أقوالَهم دُحضت بمضمونِ هذه الجملةِ، وأمَّا وقوعُها عقبَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾، فلأنَّها حُجَّةٌ على أنَّ العِزَّة للّه، لأنَّ الّذي له

(1) البروسويّ، روح البيان: 4/63، والزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/218، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.
(2) الثَّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/256، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/156.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/224.

مَن في السَّماوات ومَن في الأرض، تكونُ له العِزَّةُ الحقَّةُ[1]، فهو تعليلٌ ثانٍ لقوله: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡ﴾ أو للتَّفرُّد بالعِزَّة[2].

سِرُّ افتتاحِ الجملةِ بحرفِ التَّنبيهِ: ﴿أَلَآ﴾:

إظهارُ أهميَّةِ العلْمِ بمضمونِ الجملةِ وتحقيقِه

﴿أَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ كلمةُ تنبيهٍ، ومعناهُ أنَّه لا مُلكَ لأحدٍ في السَّماوات ولا في الأرض إلَّا للّه ﷻ[3]؛ وافتتاحُ الجملةِ بحرف التَّنبيهِ، مقصودٌ منه إظهارُ أهميَّة العلْم بمضمونِها وتحقيقه[4].

دَلالةُ التَّعقيبِ بحرفِ التَّأكيدِ ﴿إِنَّ﴾:

تأكيدُ ما سَبقَ زيادةٌ في تَسليَةِ النَّبيِّ ﷺ

﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ تعقيبٌ بحرفِ التَّأكيد، بعدَ التَّنبيه ﴿أَلَآ﴾، وفيه تأكيدٌ لما سَبَقَ مِن اختصاص العِزَّة به تعالى، لتزيدَ سَلْوَتُه ﷺ، وبرهانٌ على بُطلان ظُنونِهم وأقوالِهم المَبْنيَّةِ عليها[5]، فقامَ الدَّليلُ على كونِ العِزَّة للّه جميعًا، وكونِ الجزاء بِيَدِه[6] والجملةُ مع ما فيها مِنَ التَّأكيد لِمَا سَبقَ، مِن اختصاص العِزَّة به جَلَّ شأنُه المُوجِبِ لسلْوته عليه السلام، وعدمِ مُبالاته بمقالات المشركين، تمهيدٌ لما لَحِقَ من قوله سُبحانه[7].

نكتةُ تقديمِ المسند على المسند إليه:

قصْرُ المُلْكِ على اللّه تعالى وحدَه، من بَدهيَّاتِ الاعتقادِ

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي أنَّ مُلكَ السَّماوات والأرضِ مُخَصَّصٌ ومَقْصورٌ على اللّه، فهو مَالكُ السَّماوات والأرض وما بينَهما ومَن فيهما، لا مُلْكَ لأحدٍ فيهما سِواه، فهو وحدَهُ صاحبُ السُّلطانِ المُطلق والتَّصرُّفِ الشَّاملِ[8]، فأكَّدَ النَّظمُ الكريمُ معنى

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/224.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/157.
(3) الخازن، تفسير الخازن: 2/453.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/224.
(5) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/46، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2092.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/132، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/294.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(8) الزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 2/989.

الاختصاصِ بتقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾؛ الذي يُفيدُ الحصرَ، فهي للّه خَلْقًا ومُلْكًا[1]، لا لغيرِه أصلًا لا استقلالًا ولا اشتراكًا.

دَلالةُ لامِ المِلْكِ في: ﴿لِلَّـهِ﴾:

إفادةُ المُلْكِ التَّامِّ الكاملِ، يقينٌ لا ريْبَ فيه

اللَّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ تُفيدُ المِلكَ[2]؛ فالمُلْكُ الحقيقيُّ كاملٌ للّه لجميع مَن في السَّماوات ومَن في الأرض، وما بينهما مِن الملائكة والجِنِّ والإنس، فهم جميعًا مملوكون للّه تعالى، ومقهورون بسُلطانه، عبيدٌ له، وكذلك جميعُ الكائنات فهي أيضًا تحت سُلطانه وقهْرِه[3]، فهو المُنشئُ الخالقُ، وصِفَةُ المُلْكِ تدلُّ على القدرةِ الباهرةِ[4]، فالخلقُ كلُّهم عبيدُه وإماؤه، وهو خالقُهم ورازقُهم، وحُكمُه نافذٌ فيهم[5].

دَلالةُ التَّعبير بـ ﴿مَن﴾:

بيانُ أنَّ نفيَ المُلْكِ مع الله عن العُقلاءِ نفْيٌ عن غيرِهم من باب أَوْلى

قَولُ اللّه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾، عبَّرَ فيه بـ لفظ ﴿مَن﴾ المُوصولةِ التي للعقلاء، والمرادُ كلُّ ما في الكونِ؛ لأنَّ السِّياقَ لِنَفيِ العِزَّة عن غيرِه، والعقلاءُ بها أجدَرُ، فنفيُها عنهم نفيٌ عن غيرِهم بطريقِ الأَوْلى[6] فإذا كان هؤلاء الذين هم أشرفُ المُمكنات عبيدًا، لا يَصلُحُ أحدٌ منهم للرُّبوبيَّة فما لا يعقلُ منها أحَقُّ ألَّا يكونَ له ندًّا أو شريكًا[7]؛ فجاء التَّعبيرُ القرآنيُّ هُنا بلفظِ ﴿مَن﴾ الشَّائع في العقلاء؛ للإيذانِ بعدمِ الحاجةِ إلى التَّصريح بغيرِهم؛ لأنَّهم إذا كانوا مع شرفِهم وعُلُوِّ منزلتِهم مملوكين للّه تعالى كان غيرُهم ممَّن لا يَعقلُ أولى بذلك[8].

---

(1) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 1/165، والقونويُّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/494.
(2) الشِّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/79.
(3) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 11/2092.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/750.
(5) الماورديُّ، النّكت والعيون: 1/360.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/157.
(7) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/118.
(8) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/98.

فذِكْرُ ﴿مَن﴾ إمَّا تغليبٌ للعاقل، أو لأنَّ العاقلَ أشرفُ، فإذا مَلَكَهُ فأحرى أن يَملِك غيرَه، فهو تنبيهٌ على الأعلى بالأدنى(1).

سِرُّ تخصيصِ العُقلاءِ:

تخصيصُ العُقلاءِ تغليبٌ لشَرَفِهم، ولاعتقادِهم أنَّ الآلهةَ عُقلاءُ

خصَّ النَّظمُ الكريمُ العُقَلاءَ المُميِّزين، وهم الملائكةُ والثَّقلان (الإنس والجنُّ)، في قوله: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لِيُؤذِنَ أنَّ هؤلاء إذا كانوا له وفي مُلكِه فهُم عَبيدٌ كُلُّهم، وهو ﷻ ربُّهم، ولا يَصلُحُ أحدٌ مِنهم للرُّبوبيَّة(2)، فلفظُ ﴿مَن﴾ الموصولة، شأنُها أن تُطلَقَ على العقلاء، وجيءَ بها هُنا مع أنَّ المَقْصِدَ الأوَّلَ إثباتُ أنَّ آلهتَهم مِلكٌ لله تعالى، وهي جماداتٌ غيرُ عاقلةٍ، تغليبًا لشَرَفِهم على غيرِهم(3)، ولاعتقادِهم تلك الآلهةَ عُقلاءَ، وهذا مِن مُجاراة الخَصْم في المُناظرة، لإلزامه بنهوض الحُجَّةِ عليه، حتَّى على لازم اعتقادِه(4)، فخصَّصَ ذوي العقول، إمَّا للتَّغليب، وإمَّا لأنَّ الآية سِيقت لبيان فسادِ عقائدِ أهلِ الشِّرك(5).

دَلالةُ الابتداءِ بِذِكْرِ السَّماوات:

بيانُ عِظَمِ السَّماوات، وكونِها أشرفَ مِنَ الأرض وأعلى

في قولِه تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ابتدأ النَّظمُ الكريمُ بالسَّماوات؛ لأنَّ مُلْكَها يدُلُّ على مُلْكِ الأرض بطَريقِ الأولى(6)، وأيضًا لعظَمِها، ولأنَّها أشرفُ مِنَ الأرضِ وأعلَى(7)، فهو الخالقُ للسَّماوات وما فيها، مِن بديع المخلوقاتِ، وجميلِ المصنوعاتِ، وقد أوجدَها مِن عدمٍ بقُدرتِه، وأمدَّها مِن عدمٍ بقيُّوميَّتِه مِن غير أن يحتاجَ إلى أحدٍ مِن خلقِه؛ لأنَّه غنيٌّ بذاته عن كلِّ شيءٍ، وما في

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/348.
(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357، وأبو حيَّا، البحر المحيط: 6/83 - 84.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/157.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.
(5) حسن بن محمّد نظام الأعرج، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/598.
(6) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/156.
(7) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 251، وابن عثيمين، تفسير العثيمين: (الحجرات - الحديد)، ص: 363.

الأرض شيءٌ يسيرٌ لا يُقارَنُ بما في السَّماوات، وقد قدَّم الاستدلالَ بها لعظمة خلْقِها، وتقديمُ الأعظمِ على العظيمِ منهجٌ في الاستدلالِ، واضحٌ في الإبانة والمثالِ.

دَلالةُ ذِكْرِ السَّماوات والأرض:

السَّماواتُ والأرضُ أعظمُ ما يُرى مِنَ المخلوقاتِ

في قولِه تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ ذكرَ النَّظمُ الكريمُ السَّماواتِ والأرضَ لاستيعاب أمكنةِ الموجوداتِ، ممَّا يراه النَّاسُ فكأنَّه قيل: ألا إنَّ للّه جميعَ المَوجوداتِ[1]، فخَصَّ السَّماواتِ والأرضَ بالذِّكر، مِن بين المخلوقات؛ لأنَّها أعظمُ مَا يُرَى مِنَ المخلوقاتِ[2]، ولأنَّ السَّماواتِ والأرضَ تحويان ضمنَهما مِن بديعِ المخلوقات، وغرائبِ الموجودات، ما لا يستطيع عقلٌ أن يُحصيَه، ولا بشرٌ أن يستوعبَه، فهي أي السَّماواتُ والأرضُ معجزةٌ في خلقِها إجمالًا، ومُعجزةٌ في مُكوِّناتِها تفصيلًا، وذِكرُ المجملِ يُغني عنِ التَّفصيل، لأنَّ الثَّانيَ مُنْطَوٍ تحتَ الأوَّل، الذي يدلُّ عليه بإجمالِه، فيؤكِّدُ إعجازَه وروعةَ إيجادِه.

دَلالةُ تَوالي المُؤكِّداتِ:

سلْبُ صلاحيَّةِ كلِّ آلهةٍ سوى اللهِ، لمنْعِ اتِّخاذِها آلهةً مع الله

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أُتْبِعَ التَّنبيهُ السَّابقُ بحرف التَّأكيدِ، وزِيدَ ذلك تأكيدًا بتقديم الخبرِ، في قوله: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وباجتلاب لام المُلك[3]، وهي مؤكِّداتٌ مُتواليةٌ، تُؤكِّدُ سلْبَ صلاحيَّةِ الملائكةِ والأصنام والمسيحِ وغيرِهم، عنِ اتِّخاذها آلهةً، ولا اتِّخاذها وُسَطاءَ أو شُفعاءَ أو وسائلَ للّه، كما هو شأنُ حُكَّام الدُّنيا والملوكِ الظَّالمين الذين لا يصلُ إليهم إلَّا الوسطاءُ، فجميعُ مَن في السَّماوات والأرض مملوكٌ للّه تعالى[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.
(2) أبو حيّان، البَحْرُ المُحيطُ: 2/750.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/224.
(4) الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 11/216.

دَلالةُ العطْفِ في: ﴿وَمَا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وهو كالنَّتيجة للجملة الأولى؛ إذِ المعنى أنَّ جميعَ الموجودات مِلكٌ لله، واتِّباعُ المشركين أصنامَهم اتِّباعٌ خاطئٌ باطلٌ[1]؛ فكأنَّ سائلًا سأل: لَمَّا كان مُلكُ جميعِ ما في السَّماوات والأرض لله وحدَه، فماذا ينبني على هذا الحُكم؟ فجاء الجوابُ بأنَّ اتِّباعَ المشركين لأصنامِهم اتِّباعٌ باطلٌ؛ لأنَّ أصنامَهم ومَعْبُوداتِهم مَمْلوكةٌ لا مَالِكةٌ، فلذا وُصِلَتْ هذه الجُملةُ بما سَبَقَها، لِشِبْهِ كمال الاتِّصال بينهما.

تُعَدُّ هذه الجُملةُ كالنَّتيجةِ للجملةِ السَّابقةِ

سِرُّ الاختلافِ في معنى (ما):

نفَى النَّظمُ الكريمُ أن يكونَ لله في الخَلْق والمُلكِ شريكٌ، بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ عاطفًا على ما تقديرُه: فما له شريكٌ ممَّا ادَّعاه المشركون منهما، أو مِن إحداهما[2]، والمعنى: ما يتَّبعون شركاءَ على الحقيقة، وإن كانوا يسمُّونَهم شركاء؛ لأنَّ إشْراك الله في الرُّبوبيَّة مُحالٌ؛ إن يتَّبعون إلَّا ظنَّهم أنَّها شركاءُ[3].

استحالةُ الشَّراكةِ في ربوبيَّةِ الخلْقِ والمُلْكِ مع الله

دَلالةُ الجملةِ منَ الآيةِ على صيغة الاستفهامِ:

وعلى القولِ بأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ في مَعْنَى الاستفهام، يكونُ المعنى: أيَّ شيءٍ يتَّبعُ الذين يدعونَهم شُركاءَ مِنَ الملائكة والنَّبيّين؟ يعني أنَّهم لا يتَّبعون إلَّا اللهَ ولا يعبدون غيرَه، فما لكم لا تتَّبعونَهم، وفيه توبيخٌ للمُشركين على عدَمِ اقتدائِهم بهم في ذلك[4]، فيكونُ إلزامًا بعد برهانٍ وما بعده مصروفٌ عن خطابِهم

إنْكارُ عدمِ تقليدِ المشركينَ معبوديهم في خضوعِهم لله

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.
(2) البقاعيّ، نَظمُ الدُّرر: 9/157.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّر المصون: 4/50، والعُليميُّ، فتح الرَّحمن: 3/297.
(4) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357، والسَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 6/236، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/130.

لبيان سندِهم، ومنشأِ رأيهم[1]، والمقصودُ تقبيحُ فعْلِهم يعني أنَّهم ليسوا على شيءٍ[2].

دَلالةُ ﴿وَمَا﴾، وتَوجيهُ معناها:

إثبـاتُ كـونِ الشُّركاءِ ضُعفاءَ مملوكين لله الحقِّ

وقد تكونُ ﴿وَمَا﴾ موصولةً بمعنى (الّذي) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾، ويتفرَّع معناها على هذا الرَّأي على وجهين: الأوَّل أن تكونَ ﴿وَمَا﴾ موصولةً، عُطِفَت عَطْفَ نَسَقٍ على ﴿مَن﴾، في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، كأنَّه قيل: (ولله الشّركاءُ الذين يُدعَوْنَ من دون الله)، أي (وله شركاؤهم)، والثَّاني أن تكونَ ﴿وَمَا﴾ هذه الموصولةُ في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والخبرُ محذوفٌ تقديرُه: (والّذي يَتَّبِعُه المشركون باطلٌ)، تحقيرًا لشأنِهم[3].

دَلالةُ الاسْمِ الموصولِ وصِلَتُه:

تقريرُ كونِهم مُتَّبعين للَّه تعالى مُطيعين له

المرادُ مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ - على قولٍ - الملائكةُ والمسيحُ وعزيرٌ عليهم الصَّلاة والسَّلام، فكأنَّه قيل: أيّ شيء يتَّبعُ الذين تَدعونَهم حالَ كونِهم شُرَكاءَ في زعمكم مِن الملائكة والنَّبيِّينَ تقريرًا لكونهم مُتَّبعين لله تعالى مُطيعين له، وتوبيخًا لهم على عدم اقتدائِهم بهم في ذلك، كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: 57]، وحَاصِلُه أنَّ الذين تَعبدونَهم يَعبدون الله تعالى، ولا يَعبدون غيرَه، فما لكم لا تقتدون بهم، ولا تتَّبعونَهم في ذلك[4].

معنى الجارِّ والمجرور ﴿مِن دُونِ﴾ وتقديمُهما:

التَّقصيرُ عن الغايةِ في الألوهيَّة مِن كلِّ أحدٍ سوى الله معلومٌ

في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: لفظُ ﴿دُونِ﴾: نقيضُ فوق، وهو ظرفٌ

(1) المظهري، التَّفسير المظهري: 5/44.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/279.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/357، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/83، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/50، والبقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 9/157.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.

يدلُّ على التَّقصير عنِ الغاية[1]، وَصَفوا به ما ليس برفيع[2]، فقالوا: رجلٌ دونٌ، وثوبٌ دُونٌ، وهذا دُونَك في التَّحْقير، ويُقالُ: دُونَك زَيْدٌ في المنزلة والقُرْبِ[3]؛ ولمَّا لم يكن لأحدٍ أن يجوز كلَّ ما دون رُتبته سُبحانه، أثبت الجارَّ فقال: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي المَلِك الذي له الأمر كُلُّه[4].

دَلالةُ دعاءِ المشركين من دون الله:

عبادةُ غيرِ اللهِ بالتَّقرُّب بالأصنام زُلفَى استعانةً بواسطةٍ، لا ترْكُ عبادته بالكلّيّة

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾، أي له في ربوبيَّته ومُلْكِه، أي أنَّ هؤلاء المُشركين الَّذين يعبدون غيرَ اللَّه بدعائِهم في الشَّدائد، واستغاثتِهم في النَّوازل، والتّقرُّب إليهم بالنُّذور والقرابين والوسائلِ، لا يتَّبعون شُركاءَ له في تدبير أمور عبادِه[5]، وإن كانوا يُسمّونهم شركاءَ، لأنَّ إشْراكَ اللَّه في الرُّبوبيَّة مُحالٌ[6].

وقيل: إنَّها على الحقيقة؛ لأنَّهم يعبدونَها على ظَنِّ أنَّهم شُركاءُ، فيشفعون لهم وليس الأمرُ على ما يَظُنُّون[7].

فائدةُ تقديرِ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ موصولةً:

صرفُ الخطابِ إلى المشركين إيضاحٌ لمَنشأ ضلالِهم، وتعليلِ ما وُصِفوا به

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، صُرِفَ الخطاب إلى المشركين في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾، وهذا على تقدير أنَّ ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ موصولةٌ، والمعنى حينئذ: إن يَتَّبِعُ هؤلاء إلّا الظَّنَّ ولا يتّبعون ما يتَّبِعُهُ الملائكةُ والنَّبيُّون ﷺ منَ الحقِّ[8]، فما بعدَه مصروفٌ عن خطابهم لبيان سَنَدِهم ومنشأ رأيِهم[9]؛ وهو اتِّباعُ المشركين للظَّنِّ الباطلِ،

(1) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دون).
(2) ابن سيده، المخصَّص: 4/234.
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (دون).
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/35.
(5) المراغي، تفسير المَراغي: 11/132، ورشيد رضا، تفسير المنار: 11/453.
(6) محيي الدِّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/272.
(7) البغويُّ، تفسير البغويِّ: 2/427.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(9) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/44.

والرَّأي الفاسدِ، وقد بيَّن الله سببَ ضلالهم وإضلالِهم: بأنَّهم ما يعتقدون ويدينون إلّا عقائدَ ضالَّةً، وأديانًا سخيفةً، ظنُّوها حقًّا، لأنَّهم لم يَستفرغوا مقدرةَ عقولِهم في تَرَسُّم أدلَّةِ الحقِّ.

تحديدُ اتِّباعِهم وتديُّنِهم في الظَّنِّ الباطلِ، تحقيرًا لعقولهم

دَلالةُ أسلوبِ القصْرِ:

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، فيه أسلوبُ قصْرٍ بـ ﴿إِن﴾ النَّافية، والاستثناءِ بـ ﴿إِلَّآ﴾ المفيدةِ للاستثناء والحصر[1]، والمعنى ما يتَّبعون في عقائدِهم وآدابهم وأعمالِهم إلَّا الظَّنَّ[2]، وهو قصرٌ إضافيٌّ قُصِرَتْ فيه صفةُ اتِّباعهم على الظُّنون والأوهامِ التي توهَّمتْها عقولُهم.

استمرارُ المشركين في أهوائِهم، مع تجدُّدِها في قلوبهم دومًا

دَلالةُ الفعل المضارعِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾:

وجِيءَ بالمضارعِ في ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّهم سيستمرُّون على اتِّباع الظَّنِّ، وذلك يَدُلُّ على أنَّهم اتَّبعوا ذلك مِن قبلُ، بدلالة لحْنِ القول أو فَحْواه، كما جِيء بالمضارع مجموعًا هُنا ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ ليكونَ المُرادُ عامَّةَ الكفَّارِ، كأنَّهُ قال: إن يتَّبعُ الكافرون إلَّا الظَّنَّ[3].

ثُمَّ زاد ذلك توكيدًا، بقوله: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، أي وما هم في اتِّباع هذا الظِّن الذي لا يُغني مِنَ الحقِّ شيئًا إلَّا مُتخرِّصون قائلون بغيرِ علمٍ بما يَقولون[4].

تأكيدُ (الاتِّباع) مبالغةٌ في بُطلانِ اتِّباعِهم، وفسادِ ظنونِهم

سِرُّ إفادةِ تَكرارِ الفِعْلِ (يتَّبع):

جملة: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ توكيدٌ لفظيٌّ لجملة ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾، وأُعيد مضمونُها قضاءً لحقِّ الفصاحة، حيث حصل مِنَ البعدِ بين المُستثنى والمُستثنى منه، بسبب الصِّلَة الطَّويلةِ ما يُشبه

(1) إعراب القرآن الكريم عبد الله بن ناصح العلوان: 2/963، والصّافي، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه: 11/159.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/14.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 28/251.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 11/132.

التَّعقيدَ اللَّفظيَّ، وذلك لا يليقُ بأفصح كلامٍ مع إفادة تلك الإعادة مُفادَ التَّأكيد؛ لأنَّ المقامَ يقتضي الإمعانَ في إثبات الغرَضِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلظَّنَّ﴾ ووقوعِ مفعوليَّتِه:

أثرُ الأوهام والهواجسِ في عقولِهم، وتمكُّنِها من نفوسِهم

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾: ليس الظَّنُّ هُنا هو العلمُ الرَّاجحُ وإنَّما هو الأوهامُ والهواجسُ، تَتوهَّمُها عقولُهم، ثُمَّ تَلِجُ فيها وتَستولي عليها بحُكم التَّزيين، حتَّى تكونَ كالظَّنِّ، بل حتَّى تكونَ كالعلم في عقولِهم التي عشَّشت فيها الأوهامُ، وأيقنَتْ بها[2]، فهم يتَّبعون الظُّنونَ الضَّعيفةَ التي لا يصحُّ عقلًا الاحتجاجُ بها، ولا الاعتمادُ عليها، في قضايا العقائدِ الإيمانيَّةِ، والمصالحِ الخاصَّةِ من متاعات الحياة الدُّنيا؛ لأنَّهم لم يتقيَّدوا بمنهج الإسلام في العملِ بالظُّنونِ الرَّاجحة، حينما لا يتوافرُ اليقينُ بالأدلَّة القاطعةِ، أوِ البراهين السَّاطعة، و﴿ٱلظَّنَّ﴾ جاء مفعولًا للفعلين ﴿يَتَّبِعُ﴾، و﴿يَتَّبِعُونَ﴾، فإنَّهما كفعل واحد، وليس هذا مِنَ التَّنازُع؛ لأنَّ فعلَ التَّوكيد اللَّفظيِّ لا يطلب عَمَلًا، لأنَّ المقصودَ منه تكريرُ اللَّفظ دون العمل، فالتَّقديرُ: وما يتَّبعُ المشركون إلَّا الظَّنَّ، وإن هم إلَّا يخرصون[3].

دَلالةُ التَّذييلِ بالقصْرِ:

استحالةُ الجمعِ بين التَّحقيقِ والظَّنِّ

قولُه تعالى: ﴿وَإِنۡ﴾ أي: ما، و﴿هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، أي: يَكذِبون في ذلك، فقد نفَى عنهمُ الهدايةَ المُنبثقةَ عن نورِ الحقيقةِ والعلم، وأثبت لهم أنَّهم ينطلقون وراءَ الخيالِ والجهلِ، وهو قصرٌ لصفة الخرْصِ - وهو التَّخمينُ - عليهم؛ لأنَّ التَّخمين لا يجتمع معه التَّحقيقُ والصِّدقُ، فالصِّفةُ المُثبَتةُ مُنافيةٌ للصِّفة المَنفيَّة، لأنَّه لا يُتصوَّر اجتماعُهما في آنٍ واحدٍ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3608.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/225.

ذمُّ الاستدلالِ بالخرْصِ؛ لأنَّه حَزْرٌ وتخمينٌ لا ينْضبطُ

دَلالةُ استعمالِ: ﴿يَخۡرُصُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾: لفظ ﴿يَخۡرُصُونَ﴾، معناه يَحدِسون ويُخمِّنون لا يقولون بقياسٍ ولا نظرٍ[1]، وخَرْصُ الشَّيءِ تقديرُه جُزافًا بالظَّنِّ والتَّخمين، كمن يَنْظُرُ إلى شيءٍ فيُقدِّرُ كيلَه أو وزنَه بالنَّظر إليه دونَ معيارٍ[2]. فلفظُ ﴿يَخۡرُصُونَ﴾ أي يتَّبِعُون الظَّنَّ الذي تُرجِّحُهُ لَهُم أهْواؤُهم، كما يَخرُصُ أهلُ الحرثِ ثمراتِ النَّخيل والأعناب وغيرِها، ويُقدِّرُون ما تأتي به مِنَ التَّمر والزَّبيب، فلا شيءَ منها مبنيٌّ على علمٍ صحيح ثابتٍ، ولا هُو مَنوطٌ بدلائلَ تنتهي إلى اليقين[3].

وأصلُ الخرص: الحزرُ والتَّقديرُ للشَّيء على سبيل الظَّنِّ لا على سبيل الحقيقةِ، وحقيقةُ ذلك أنَّ كُلَّ قولٍ مقولٍ عن ظَنٍّ وتخمين، يُقال له خرصٌ، سواء أكان مُطابقًا للشَّيء أم كان مخالفًا له، من حيث إنَّ صاحبَه لم يقلْه عن علم ولا غلبةِ ظنٍّ ولا سماعٍ، بلِ اعتمد فيه على الظَّنِّ والتَّخمين، كفعلِ الخارِصِ في خَرصه[4].

واستُعمل الخَرصُ في مَوضِع الكذب على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ لأنَّ الخَرصَ يجري على غير تَحقيقٍ، فَشُبِّه بالكذبِ، واستُعملَ في مَوْضِعه[5]، وإطلاقُ الخرصِ على ظنونهمُ الباطلةِ، في غاية الرَّشاقةِ؛ لأنَّها ظُنونٌ لا دليلَ عليها غيرُ ما حسُنَ لظانِّيها؛ فالسِّياق اقتضى ذمَّ الاستدلال بالخَرص، لأنَّه حَزرٌ وتخمينٌ لا ينضبطُ.

بيانُ كونِها أخصَّ مِنَ الآيةِ السَّابقةِ

السِّرُّ في تَكرارِ ﴿مَن﴾:

إن قيل: لِمَ كُرِّرت ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، ولم تُكرَّرْ في الَّتي قبلها؟ فالجواب: أنَّه لمَّا كانت الأولى

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/130.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1040.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/15.
(4) الرّاغب، المفردات: (خرص)، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/98.
(5) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 214، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/271.

أعمَّ مِنَ الثَّانية، أغنى ذلك العمومُ عن تَكرارِها[1]، أمَّا في هذه الآيةِ فقد نَسب ما يدلُّ على العقلاءِ إلى الأجناسِ العاقلةِ المخصوصةِ، إذ "إنَّ للّه كلَّ مَن في السماواتِ والأرضِ عبيدًا مملُوكِين لَه، لا مَالِكَ لشيءٍ مِن ذلكِ سِواه، فكيف يكون إلهًا معبودًا ما يعبُدُه هؤلاءِ المشركون مِنَ الأوثانِ والأصنامِ، والعبادةُ للمالكِ دون المملوكِ، وللرَّب دونَ المَربُوبِ"[2].

التَّشابهُ اللَّفظيُّ:

وردَ في سورة يونس قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾ [يونس: 55]، وفي الموضع الآخَر، جِيء بلفظ ﴿مَن﴾ بدل ﴿مَا﴾، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، والفرقُ بينهما راجعٌ إلى مُناسبة السِّياق، فالمُناسبةُ اقتضت لفظَ ﴿مَا﴾ في الأولى، فقد ورد قبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ [يونس: 54]، والمقصود بذلك المآل والمأخذُ، فلفظُ ﴿مَا﴾ لغير العقلاء، أمَّا الآية الأُخرى فجاء التَّعبيرُ فيها بلفظ ﴿مَن﴾، والآيةُ نزلت في قوم آذَوا رسولَ اللّه، فنزلت فيهم: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: 65]، فأنَّسَه رَبُّه وثبَّته، فهم لن يضروه بشيء ممَّا يَتوعَّدُونه مِنَ القتل، وأنواعِ المكروه، ثُمَّ أخبره أنَّ العِزَّة للّه وحدَه، وأنَّه يُعِزُّ عباده المؤمنين بعِزِّه، فالمُلك له وحدَه سُبحانه، له مَن في السَّماوات ومَن في الأرض، وعلى هذا جاء لفظُ ﴿مَن﴾؛ لأنَّ المُرادَ العقلاءُ الذين يُعزِّون دينَهم وينصرون نَبيَّهم[3]؛ ولبعض المفسرين تعليلٌ آخرُ للآية الثَّانية التي ورد فيها التَّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾ يتمثّل في أنَّ المقصودَ بهم العقلاءُ المميِّزون؛ وهمُ الملائكة والثَّقلان، وإنَّما خَصَّهم ليُؤذِن أنَّ هؤلاء إذا كانوا له وفي مِلكه فهم عبيدٌ كلُّهم، وهو سبحانه وتعالى ربُّهم، ولا يَصلُحُ أحدٌ منهم للرُّبوبيَّة، ولا أن يكونَ شريكًا له فيها، فما وراءَهم ممَّا لا يَعْقِلُ أحقُّ ألَّا يكونَ له ندًّا وشريكًا[4]، فهذه حكمةُ ذِكْرِ ﴿مَن﴾ هُنا لا (ما)؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ أنَّ

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/348.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/132.

(3) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل: 2/743 - 746، وابن الزّبير الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/243، والكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 141.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/357، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/279، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/83.

الأقوياءَ كالضُّعفاء كُلُّهم في مِلك يَدِهِ سواءٌ، فالسِّياقُ جارٍ فيها مَجراه، وهذا أكثرُ وضوحًا مِن التَّوجيهِ السَّابقِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظَّنُّ والشَّكُّ:

الشَّكُّ استواءُ طرفَيِ المشكوكِ فيه، والظَّنُّ رُجحانُ أحدِهما وتقويتُه

الظَّنُّ: هو الاعتقادُ الرَّاجحُ مع احتمال النَّقيض، ويُستعملُ في اليقين والشَّكِّ، وقيل: الظَّنُّ: أحدُ طرفَيِ الشَّكِّ بصفةِ الرُّجحانِ[1]، فيكونُ الظَّنُّ يَقينًا ويكونُ شكًّا، وهو مِن الأضداد، كالرَّجاءِ يكونُ أمنًا وخوفًا[2]، أمَّا الشَّكُّ فهو اجتماعُ شيئَين في الضَّمير، فهو استواءُ طرفَيِ التَّجويز، وأصلُ الشَّكِّ في العربيَّة مِن قولك: شَككتُ الشَّيءَ إذا جمعتَه بشيءٍ تُدخِلُه فيه، بخلاف الظَّنِّ، فإنَّه رُجحَانُ أحدِ طرفَيِ التَّجويز، والشَّاكُّ يُجوِّزُ كونَ مَا شكَّ فيهِ على إحدَى الصِّفتَين؛ لأنَّه لا دليلَ هناك ولا أمارَةَ، فالظَّنُّ فيه قُوَّةُ المعنى في النَّفس، وليس كذلك الشَّكُّ الذي هو وقُوفٌ بَين النَّقيضَيْن مِن غير تقويةِ أحدِهما على الآخرِ[3].

(يخرص) و(يكذب):

الكذبُ أعمُّ مِن الخرصِ، ويُشَبَّهُ به الخرصُ في جَريانِه على غيرِ التَّحقُّقِ

الكَذِبُ نقيضُ الصِّدق، وهو الإخبارُ عنِ الشَّيءِ بخلاف ما هو، سواء فيه العمدُ والخطأ[4]؛ والمذمومُ منه شرعًا ما كان مع العلْم به وَقَصْدِ الحقيقة[5]. وأمَّا الخرصُ فما يُحزَرُ مِنَ الشَّيءِ، يُقال: كم خِرْصُ نخلك؟ أي: كم يَجيءُ مِن ثمرته؟ وإنَّما استُعملَ الخرصُ في موضع الكذب؛ لأنَّ الخرصَ يجري على غيرِ تحقيقٍ، فشُبِّه بالكذب، واستُعملَ في موضعه[6].

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/386، والجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 144.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 593.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 98 - 99.
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/528.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 768، وابن منظور، لسان العرب، والرّازي، مختار الصِّحاح: (كذب).
(6) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 214.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٧﴾ [يونس: 67]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين عظَمةِ الله وسَعةِ علْمِه، وبين أفعالِه الدَّالّةِ على آياته

لَمَّا نَصَّ النَّظمُ الكريمُ على عظَمة الله تعالى في الآية المتقدِّمةِ عقَّب ذلك في هذه بالتَّنبيه على أفعالِه لِتُبَيِّنَ العظمةَ المحكومَ بها قَبْلُ[1]، فهذه الآيةُ استدلالٌ على مضمون ما قبْلَها، مِن نفي وجودِ شركاءَ له في الخلقِ والتَّقديرِ، ولا الشّفاعَة عنده في التَّصرّف والتَّدبير؛ فهو الذي جعل لكم الوقتَ قسمين، بمقتضى علْمِه ومشيئتِه بدون مساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمحضِ الحِكمة البالغةِ، والرَّحمةِ الشَّاملةِ؛ أحدُهما: اللّيلُ، جعله مظلمًا لأجل أن تسكنوا فيه بعدَ طولِ الحركةِ والتَّقلُّبِ في الأرض، تستريحون مِنَ التَّعب في طلبِ الرّزق، والآخَرُ: النَّهارُ، جعلَه مُضيئًا ذا إبصارٍ لتنتشروا في الأرض، وتقوموا بجميع أعمالِ العمرانِ والكسبِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلَ﴾: بمعنى صنعَ، إلا أنَّ جَعَلَ أعمُّ، يقال: جعلَ يفعلُ كذا، ولا يقال: صنع يفعلُ كذا[3]، و﴿جَعَلَ﴾ لفظٌ عامٌّ في الأفعال كُلِّها، وهو أعمُّ مِن فَعَلَ وصَنَعَ، وسائرِ أخواتها. يأتي لمعانٍ: جَعَلَ الشَّيءَ جَعلاً: وَضَعَهُ، جَعَلَ بَعْضَه فوقَ بعضٍ: ألقاهُ. جَعَلَ القَبيحَ حَسَنًا: صيَّرهُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [الأعراف: 27]، أي: صيّرْناهمْ، وقولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾ [مريم: 30]، أي:

(1) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/130.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/371.
(3) الحميريّ، شمس العلوم: (جعل).

صَيَّرني. جَعَلَ البَصرة بغدادَ: ظنَّها إيَّاها. جَعَلَ له كذا على كذا: شارَطَهُ بِه عليه، ومنه الجَعالَةُ[1].

2) ﴿لِتَسْكُنُواْ﴾: أصْلُ مفردةِ (سكن) يَدُلُّ على خِلَافِ الاضْطِرابِ والحركةِ[2]، والسَّكْنُ: الأهلُ الَّذين يَسكنونَ الدَّارَ[3]، والسَّكينةُ: الطُّمأنينة والاستقرارُ والرَّزانة والوقارُ[4]، قال ابن القيِّم: "هي الطُّمأنينة والوقارُ والسُّكونُ، الَّذي يُنزِله الله في قلب عبدِهِ عندَ اضطرابه مِن شدَّة المخاوف، فلا ينزعجُ بعد ذلك لِمَا يردُ عليه، ويُوجبُ له زيادةَ الإيمان، وقوَّةَ اليقين والثَّبات"[5]، وقال الجُرجاني: السَّكِينَة: "ما يجدُه القلبُ مِنَ الطُّمَأنِينة عند تنزُّل الغيب، وهي نورٌ في القلب يَسْكُنُ إلى شاهده ويطمئنُّ"[6]، والمقصودُ في الآية: زوالُ اضطراب عناء النَّهار بالرُّكون للرَّاحة والطُّمأنينة.

3) ﴿مُبْصِرًاۚ﴾: أصلُ مفردةِ (البصر): وضوحُ الشَّيءِ، وبَصُرَ الطَّريقُ أي: اسْتَبانَ وَوَضُحَ، وَالبَصيرَةُ: البُرهانُ[7]، ويُطلَقُ البَصرُ على حاسَّةِ العَينِ، والجَمعُ: أبْصارٌ[8]، والإبصار: الرُّؤيةُ والنَّظرُ بالعينِ[9]، والبَصيرُ والمُبصِرُ: النّاظِرُ لِغَيْرِهِ، وضدُّهُ الأعْمَى. ويأتي البَصرُ أيضًا بِمَعْنَى: العِلمِ والإدراك، وهي الرُّؤيةُ بالقلب، كقولك: بَصُرْتُ بِالشَّيءِ إِذَا عَلِمْتَهُ وَأَدْرَكْتَهُ، والبَصيرَةُ: قُوَّةُ الإدراكِ والفِطْنَةُ والعِلْمُ، والجَمعُ: بَصائِرُ[10]، والمُرادُ بـ ﴿مُبْصِرًاۚ﴾ في الآيةِ: مُضيئًا يُوضِّحُ الأشياءَ ويُجلّيها؛ لأنَّ الإبصار ينشأُ عنه التَّصرّفُ بالمصالحِ، والإظلامُ ينشأُ عنه السُّكونُ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخاطبُ الله تعالى النَّاسَ مُبيِّنًا بعضَ مظاهرِ نِعمِه عليهم، وآثارِ رحمتِه في عِباده،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحُفَّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (جعل)، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/225.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(4) مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: 1/440.
(5) ابن قيّم الجوزيّة، مدارج السَّالكين: 2/503.
(6) الجرجانيّ، التَّعريفات، ص: 159.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بصر).
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(9) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247.
(10) ابن منظور، لسان العرب: (بصر)، وإبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: 1/59.

وليس لِما يعبدُ المشركون مِن آلهةٍ - صوَّرتْها لهم الظُّنونُ والأوهام - شيءٌ مِن هذا الذي خلَقَه اللّه، وما أفاض به على عباده من نِعم. فهو سُبحانه الذي جعل اللَّيل سَكنًا، يُؤْوي الكائناتِ الحيَّةَ، ويهيئ لها فرصةً للرَّاحة مِن سعْيِها في النَّهار، حتَّى تُجدِّدَ نشاطَها، وتستعيدَ قوَّتَها، لتستقبل السَّعيَ والعملَ في يومٍ جديدٍ، بنشاطٍ مُتجدِّدٍ[1].

فائدةُ جعْلِه اللَّيلَ والنَّهارَ للسَّكن والحركةِ بالعشيِّ والإبكارِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ استدلالٌ على المضمون قَبْلَها، مِن نفي وجود شُركاءَ له في الخلق والتَّقدير، ولا في الشَّفاعة عنده في التَّصرّف والتَّدبير، أي: هو الذي جعلَ لكمُ الوقتَ قسمين بمقتضى عِلْمِه ومشيئتِه بدون مُساعدٍ ولا شفيعٍ، بل بمحْضِ الحكمةِ البالغةِ والرَّحمةِ الشَّاملةِ[2]، فهو استئنافٌ لتقريرِ ما سلف مِن كونِ جميعِ المَوجودات المُمكنةِ تحت قُدرتِه ومُلكِه المُفصِحِ عنِ اختصاصِ العزَّة به سُبحانه[3]، والجُملةُ الكريمةُ بيانٌ لمظاهرِ رحمة اللّه تعالى بعباده، بعدَ بيان سَعةِ علمِه، ونفاذِ قدرتِه، وشمولِها لكلِّ شيءٍ في هذا الكون[4]، ولأجل هذا تُرِك العطفُ.

تقريرٌ بأنَّ جميعَ المـوجـوداتِ المُمكنةِ تحت قُدْرَةِ اللـه وهيمنَتِه

دَلالةُ الافتتاحِ بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، افتُتِحت الجملةُ بالضَّميرِ المنفصلِ ﴿هُوَ﴾، أي: هو وحدَه[5]، وفيه تنبيهٌ على

التَّنبيهُ على عظيمِ قُدرةِ اللـه، وشُمولِ نعمتِه لعبادِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/227، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/282، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/228، والخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/454.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/100.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/158.

تفرُّده تعالى بالقُدرةِ الكاملةِ والنِّعمةِ الشَّاملةِ؛ لِيَدُلَّهم على توحُّده سبحانه باستحقاق العبادةِ(1).

الاستدلالُ على انفرادِه تعالى بخصائصِ الإلهيَّة

دَلالةُ القصْرِ الحقيقيِّ:

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ﴾ طريقٌ مِن طُرقِ القصْرِ، وهو تعريفُ المُسنِدِ والمسنَدِ إليه؛ وهو هُنا قَصْرٌ حقيقيٌّ وليس إضافيًّا كما توهَّمَه بعضُ الكاتبين؛ إذ جعلَه قَصْرَ تعيينٍ(2)، وهم معترفون به لا يستطيعون دفعَ هذا الاستدلالِ، فالمقصودُ الاستدلالُ على انفراده تعالى بخصائص الإلهيَّةِ الّتي منها الخَلقُ والتَّقديرُ، وأنّ آلهتهم انتفت عنها خصائصُ الإلهيَّة، وقد حصَلَ مع الاستدلالِ امتنانٌ على النَّاس بجعْلِ اللَّيل والنَّهار على هذا النِّظامِ(3).

الاكتفاءُ بالمذكورِ عنِ المتروكِ، من بلاغةِ السِّياقِ

دَلالةُ الاحتباكِ:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، في هذه الآية احتباكٌ؛ حيث حَذَفَ مِن كلِّ نظيرٍ ما أثبتَه في الآخر، فَحَذَف مِن الأوَّل وصفَ اللَّيل بالإظلام، وذكر حكمتَه، وحذَف مِنَ الثَّاني الحكمةَ وذكر وصْفَه(4)، والتَّقديرُ: جعل اللَّيلَ مُظلمًا لتسكنوا فيه، والنَّهارَ مُبصرًا لتتحرّكوا لمصالحِكم، فحذَف مِن كلٍّ مِن الجانبين ما ذكرَ في الآخر، اكتفاءً بالمذكورِ عنِ المتروكِ(5)؛ وذلك أنَّه ذَكَرَ عِلَّةَ جعْلِ اللَّيل لباسًا، وهي قوله: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ وحذفَها مِن جعلِ النَّهار، وذكرَ صفةَ النَّهار، وهي قوله: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ وحذفَها من ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ لدلالة المقابلِ عليه، وهذا أفصحُ كلامٍ(6)، ونُلاحظ أنَّ

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/118، والآلوسي، روح المعاني: 6/145.

(2) ذهب الى هذا الشّهاب الخفاجيّ وتبعه في ذلك الآلوسي، يُنظر: الشِّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/80، والآلوسي، روح المعاني: 6/145.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/227.

(4) أحمد الصَّاوي، حاشية الصَّاوي على الجلالين: 2/110.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/84، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 6/47.

(6) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 4/51.

في هذه الألفاظ إيجازًا وإحالةً إلى ذهن السَّامع؛ لأنَّ العبرةَ في أنَّ اللَّيل مظلمٌ أنّه يُسكن فيه، والنَّهار مُبصرٌ، يُتصرَّف فيه، فذكرَ طرفًا مِن هذا، وطرفًا من الجهة الثَّانية[1].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ:

المُبالغةُ في حصولِ الإبصارِ في النَّهار، مُعجزةُ الخالقِ القهَّارِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾: ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾: اسمُ فاعل من الفعل أبْصَرَ بمعنى رأى، ووَصْفُ النَّهار بأنَّه مبصر مِن قبيل المجاز العقليِّ؛ لأنَّ نور النَّهار سببُ الإبصارِ، فأضافَ الإبصارَ إليه؛ لأنّ السّامِعَ قد فهِمَ المقصود؛ إذِ النَّهار لا يُبْصِرُ، وإنَّما هو ظرفٌ يُفْعَلُ فيه غيرُه[2]، فَوَصْفُ النَّهار بلفظ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ مجازٌ عقليٌّ، للمُبالغة في حصولِ الإبصار فيه، حتَّى جعل النَّهارَ هو المُبصر[3].

سرُّ استعمالِ الفعْلِ مع اللَّيلِ، والاسْمِ مع النَّهارِ:

التَّفرقةُ بين الظَّرفِ المجرورِ، والظَّرفِ الذي هو سببٌ

قوله تعالى: ﴿ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ مع اللَّيل ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، والاسمَ مع النَّهار ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾، ولم يُسوِّ بينهما، فلم يقل: ساكنًا ومُبصرًا، ولا لتسكنوا فيه، ولتبصروا فيه، مع أنَّ الاستعمالَ الحقيقيَّ هو: (لتُبْصِرُوا فيه)، وذلك أنَّه جمعَ الحقيقةَ والمجازَ في تعبيرٍ واحدٍ، ولو جعلَهما بصورة تعبيريَّةٍ واحدةٍ، لفاتت هذه المزيَّةُ الفنيَّةُ، فإنَّه ذكرَ نعمةَ اللّٰه علينا في اللَّيل، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾، ولو قال: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ سَاكِناً"، لم يكنْ فيه دلالةُ نعمةٍ على الخلْق مِن ناحيةٍ، ولكانت ﴿لَكُمُ﴾ هنا زائدةً ليس لها فائدةٌ، فجيءَ بـ ﴿لَكُمُ﴾ وبالصِّيغة الفعليَّة للدَّلالةِ على قصْدِ النِّعمة والتَّفضُّلِ علينا، ولَمَّا تقرَّرت دلالةُ النِّعمة في صدرِ الآية[4]، كان

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 3/256.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/340.
(3) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/215.
(4) محمّد بن يوسف أطفيش، تيسير التّفسير: 6/277.

العُدولُ إلى التَّعبيرِ المجازيِّ بعد ذلك، فعدلَ مِنَ الفعلِ إلى الاسم، ومِنَ الحقيقةِ إلى المجازِ العقليِّ، فقال: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾، وذلك أنَّ النَّهارَ لا يُبصِرُ، بل يُبصِرُ مَن فيه، والعدولُ عن (لِتُبۡصِرُوا فِيهِ) الذي يَقتضيه ما قبلُ إلى ما في النَّظم الجليل، للتَّفرقة بين الظَّرف المجرور والظَّرف الذي هو سببٌ يتوقَّف عليه في الجملة[1]، فلم يقل لِتُبصروا فيه، ليُوافقَ ما قبْلَه تفرقةً بين الظَّرفين؛ إذِ الظَّرفُ الأوَّل ليس سببًا للسُّكون والدَّعة، بخلاف الثَّاني فإنَّه ظرفٌ للإبصار، وسببٌ له أيضًا، فجمعَ بين التَّعبيرِ الحقيقيِّ والمجازيِّ، ودلَّ على المقصدِ الأوَّل مِنَ الآية، وهو الدَّلالةُ على النِّعمة، بأقربِ طريق، فأكْسبَ المعنى جمالًا ودقَّة وروعةً[2].

دَلالةُ الاستعارةِ في ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾:

المُـبـالـغـةُ في تصويرِ حُصولِ الإبـصـار والـوضـوحِ في النَّهارِ آيةُ الله في الخلْقِ

في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾: يجوزُ أن يجريَ ﴿مُبۡصِرًاۚ﴾ على أنَّه استعارةٌ مكنيَّةٌ، إذا قصدَ التَّشبيهَ حيث شبَّه النَّظمُ الكريمُ النَّهارَ بالإنسان، وذكرَ صفةً مِن صفاتِهِ وهي الإبصارُ؛ لأنَّ النَّاسَ يُبصرون فيه، فكأنَّ ذلك صفةُ الشَّيء، بما هو سببٌ له، أي للإبصار على طريق المُبالَغةِ[3]، كقولهم: نهارُه صائمٌ، وليلُه قائمٌ[4].

سرُّ وَصْفِ النَّهار بوصْفِ العُقلاء:

كونُ آيةِ النَّهارِ مكشوفةَ القِناعِ بيِّنةَ الإبصار

قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾: مِن لطائفِ المُناسبة أنَّ النُّورَ الذي هو كيفيَّةُ زمنِ النَّهار، شيءٌ وجوديٌّ، فكان زمانُه حقيقًا، بأن يُوصفَ بأوصافِ العُقلاء، بخلاف اللَّيل، فإنَّ ظُلمتَه عدميَّةٌ، فاقتصرَ في العبرةِ به على ذكرِ الفائدةِ الحاصلةِ فيه، وهي أن يسكنوا فيه[5]؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/145.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 17/88، والشِّهاب الخفاجيّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 5/80.

(3) محيي الدِّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/273.

(4) السَّمين الحلبي، الدُّرُّ المصون: 4/51.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/227.

فجعل اللّه تعالى آيةَ النَّهارِ مكشوفةَ القناعِ، بيِّنةَ الإبصار، على خلاف آيةِ اللَّيل، إذ جُعِلَتْ مُشرجةَ الغلافِ، بهيمة الأطرافِ[1]. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ضوءَ النَّهار، هو الذي يُعطي العيونَ قُدرتَها على الإبصارِ، ولولا هذا الضَّوءُ لما كانت العُيونُ مُبصرةً، فهو إذنِ المُبصر لا العيونُ، لأنَّه هو سببٌ أوَّلُ، وهي سببٌ ثانٍ، فكان أولى بالذِّكر منها في هذا المقام[2].

دَلالةُ التَّعليلِ في: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾:

إيضاحُ مُقتضَى الحكمةِ ودلائلِ الرَّحمةِ لا حصرُها في السُّكون

قد يُقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يدلُّ على أنَّه تعالى ما خلَقَ اللَّيلَ إلَّا لهذا الوجهِ، وقولَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾، يدلُّ على أنَّه تعالى أراد بخَلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ أنواعًا كثيرةً مِنَ الدَّلائلِ، فالجوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ لا يدلُّ على أنّ الحكمةَ هنا مجرّد السّكون فحسْب، بل ذلك يقتضي حصولَ تلك الحكمةِ[3].

سِرُّ الامتنانِ بـ (اللَّيل والنَّهار):

التَّعريضُ في الاستدلالِ بالامتنانِ، بجمْعِهم بين المخالفةِ والكُفرانِ

وهذا الامتنانُ مُستفادٌ مِن قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾، ومن تعليل خلْق اللَّيل بعلَّة سكونِ النَّاسِ فيه، وخلْق النَّهار بعلَّة إبصارِ النَّاس، وكلُّ النَّاسِ يعلمون ما في سكونِ اللَّيلِ مِن نعمةٍ، وما في إبصارِهم بالنَّهار مِن نعمةٍ كذلك، فإنَّ في العمل بالنَّهار نِعَمًا جمَّةً، مِن تحصيلِ رغباتٍ، ومشاهدةِ محبوباتٍ، وتحصيلِ أموالٍ وأقواتٍ، وأنَّ في السُّكون باللَّيل نعمًا جمَّةً أيضًا، مِن استجمامِ القُوى المُنْهَكَة، والإخلادِ إلى مُحادثةِ الأهلِ والأولاد، على أنَّ في اختلافِ الأحوالِ ما يدفعُ عنِ المرءِ الملالَ[4].

وفي إدماجِ الاستدلالِ بالامتنان تعريضٌ بأنَّ الذين جعلوا

(1) الشَّريف الرَّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 199.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/227.

للّه شركاءَ جمعوا وصَمَتين هما: وصَمةُ مخالفةِ الحقِّ، ووصَمةُ كُفرانِ النِّعمةِ[1].

دَلالةُ الاستئنافِ:

من سمِعَ بيقينٍ، اهتدَى إلى الحقّ المبين

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾، جملةٌ مُستأنفةٌ؛ لتقريرِ أنَّ الآياتِ دالَّةٌ على وَحدانيَّة اللّه تعالى بالإلهيَّة، وأنَّ النِّظامَ الذي نشأ عنه اللَّيلُ والنَّهارُ مشتملٌ على دقائقَ كثيرةٍ مِنَ العلم والحكمةِ، والقدرةِ وإتقانِ الصُّنعِ[2]، وقولُه: ﴿لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أي: ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ هذه الآياتِ المتلُوَّةَ ونظائرَها المنبّهةَ، على تلك الآياتِ الكونيّةِ الآمرةِ بالتَّأمُّل فيها، على أن يكون السَّماعُ واعيًا مُفضيًا إلى تأمُّل الظَّواهر، واستنباطِ الدَّلائل الموصِلةِ إلى اليقين[3].

نُكتة الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإيـذانُ ببُعدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه وعُلوِّ رُتْبتِه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرِ العظيم[4]، ففي اسم الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من معنى البُعدِ ما يفيد بُعدَ مَنزلةِ المُشارِ إليه وعُلوِّ رُتبتِه[5]، والمعنى المشارُ إليه بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾، يُفيدُ أنَّ ذلك الجعْلَ المذكورَ؛ لدلائلَ واضحاتٍ لقوم يسمعون ما يُتلى عليهم سماعَ تدبُّرٍ وتعقُّلٍ، يدلُّ على سَعةِ رحمة اللّه تعالى بعباده، وتَفَضُّلِه عليهم بالنِّعم التي لا تُحصى[6]، وذلك المُشار إليه يَحملُ ملامحَ العظمةِ التي تُنوِّه بها الآيةُ ضمنًا.

دَلالةُ السَّمعِ، وغرضُ تخصيصِه:

تلميحٌ إلى فضيلة التَّأمّلِ والادّكارِ في الانتفاعِ بالآيات

قولُه تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أي: سماعَ تأمُّلٍ وادِّكار، ولكنَّه حذف (يبصرون)؛ لدلالةِ ﴿مُبۡصِرًا﴾ عليه، ويَزيدُ ذلك وضوحًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/227.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/227.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/162.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/158.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 4/162.
(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/100.

وحُسنًا، كونُ السِّياق لنفي الشُّركاء، فهو إشارةٌ إلى أنَّها لا تَسمعُ ولا تُبصرُ أصلًا، فكيف بالاعتبار والافتكار؟ فالذين عبدوهم أكملُ حالًا منهم[1]، وتخصيصُ الآياتِ بالذين يَسمَعون، معَ أنَّها منصوبةٌ لِمَصلحةِ الكلِّ؛ لأنَّهمُ المُنتَفِعون بها[2].

نُكتةُ أسلوبِ التَّعريضِ في وصْفِ القومِ بالسَّماعِ:

الإشـارةُ إلى أنَّ الذين لم يَهتَدوا بالآيات بمنزلةِ الصُّمِّ

في قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ وَصْفُ القوم بأنَّهم يسمعون إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ والدَّلائلَ تنهضُ دَلالتُها للعقول بالتَّأمّلِ فيها، وأنَّ تُوجُّهَ التَّفكير إلى دلائلِها غيرُ محتاجٍ إلَّا إلى التَّنبيه عليها ولفْتِ النَّظرِ إليها، فلمَّا كان سَماعُ تذكيرِ اللّٰه بها هو الأصلُ الأصيلُ في استخراج دلالتِها، وتَفريع مدلولاتِها على تفاوُتِ الأذهان في الفطنةِ وترتيبِ الأدلَّة، جعلَ آياتِ دلالتِها حاصلةً للَّذين يسمعون، ويجوزُ أن يكونَ المُرادُ يسمعون تفاصيلَ تلك الدَّلائلِ، في تضاعيفِ سُوَرِ القرآن، وعلى كلا الاحتمالين فالوصفُ بالسَّمع تعريضٌ بأنَّ الّذين لم يَهتدوا بها ولا تَفطَّنوا لدلالتِها بمنزلةِ الصُّمِّ، كقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ [الزّخرف: 40][3]، فهذا بعضُ السِّرِّ في أن جاءت فاصلةُ الآية: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾، بدلًا مِمَّا يقتَضيه ظاهرُ النَّظم، وهو أن تكونَ الفاصلةُ هكذا: (لقوْمٍ يُبْصِرُونَ)، وذلك أنَّ كلماتِ اللّٰه إنَّما يتلقَّاها المتلقُّون عن طريقِ السَّمعِ[4].

دَلالةُ ورودِ الصِّفةِ جملةً فعليَّةً ﴿يَسۡمَعُونَ﴾:

الانتفاعُ بالآيات يـكـونُ بالـنَّظر المُتجدِّدِ الفَيْنةَ بعد الفَيْنةِ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾: في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع إلفاتٌ إلى تَكرار النَّظرِ المرَّةَ بعد المرَّةِ في تلك الظَّواهرِ المُتجلِّيةِ من قُدرةِ اللّٰه سُبحانه، وأنَّها آياتٌ دالَّةٌ على قدرةِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل: 4/162.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/228.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.

اللّه، وعلى تفرُّدِه بالوجود، وأنَّه لن يرى هذه الآياتِ، ولن يتعرّفَ على ما فيها من دلائلَ على قدرةِ اللّه، إلّا مَن ألقى سمْعَه إلى كلمات اللّه، ووعَى ما تُرشده إليه مِن آياتِ اللّه المبثوثةِ في هذا الكون الرَّحيب[1].

دَلالةُ جملةِ الاعتراضِ بين الآيتَيْن:

الاستدلالُ على فسادِ الظّنِّ والكُفرانِ، بشواهدِ خلْقِ اللَّيلِ والنَّهارِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾، جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ جملةً معترِضةً بين جُملةِ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وجملةِ: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾، مجيءَ الاستدلالِ على فساد ظنِّهم وخَرْصِهمْ بشواهد خلْقِ اللَّيل والنَّهار المشاهَدِ، في كلِّ يوم مِنَ العمر مرَّتين، بُكرةً وعشيًّا، وهم في غفلةٍ عن دلالتِه، وهو خلْقُ نظامِ النَّهار واللَّيل[2].

المُتشابهُ اللَّفظيُّ:

آيةُ يونسَ مَسوقةٌ للاستدلال والامتنان، وآيةُ النَّملِ للتَّعجيبِ والتَّوبيخِ

جاء في سورة النَّمل قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٨٦﴾ [النَّمل: 86]، لكوْنِ الإيمان مقصودًا به أنَّه مرجوٌّ منهم، وجيءَ فيه بصيغة المُضارع؛ إذ ليس المقصودُ أنَّ في ذلك آياتٍ للَّذين آمنوا؛ لأنَّ ذلك حاصلٌ بالفحوى والأولويَّةِ، فصار المعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ للمؤمنين ولمن يُرجَى منهمُ الإيمانُ عندَ النَّظر في الأدلَّةِ، ولهذا خُولفَ بين ما هُنا وبين ما في سورة يونسَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّ آية يونسَ مسوقةٌ مساقَ الاستدلال والامتنانِ، فخاطب بها جميعَ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، فجاءت بصيغة الخطابِ، وجُعلت دلالتُها لكلِّ مَن يسمعُ أدلَّةَ القرآن، فمنهم مُهتدٍ وضالٌّ، ولذلك جيء فيها بالفعلِ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ المُؤذنُ بالامتثال والإقبالِ على طلب الهُدى، وأمَّا آيةُ النَّمل فمسوقةٌ مساقَ التَّعجيبِ والتَّوبيخ، فجُعلَ ما فيها

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1045.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/226.

آياتٍ لمن شأنُهمُ الإيمانُ، ليفيدَ بمفهومِه أنَّه لا تحصلُ منه دلالةٌ لمن ليس من شأنِهمُ الإنصافُ والاعترافُ، ولذلك أُوثرَ فيه الفعلُ ﴿يُؤۡمِنُونَ ٨٦﴾[1] [النَّمل: 86].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإبصارُ والرُّؤيةُ والنَّظرُ:

الإبصارُ يتميَّزُ بالوضوحِ، والرُّؤيةُ تتميَّزُ بالعلمِ، والنَّظرُ بالتَّأمّلِ

النَّظرُ عِبارةٌ عن تقليب العينِ نحوَ المَرئيِّ التماسًا لرؤيتِه، وأصلُ (نَظَرَ) في اللُّغة: تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعاينتُه، فهو طلبُ ظهورِ الشَّيء، ويكونُ النَّاظرُ الطَّالبَ لظهور الشَّيءِ بإدراكِه مِن جهة حاسَّةِ بصره، أو غيرِها مِن حواسِّه، والنَّظرُ بالقلب مِن جهة التَّفكُّر، والنَّظرُ أيضًا هو الفكرُ والتَّأمُّلُ لأحوال الأشياء[2]، والرُّؤيةُ هي إدراكُ المَرئيِّ، ولذلك قد ينظرُ ولا يراه ولمَّا كانتِ الرُّؤيةُ مِن توابع النَّظرِ ولوازمِه غالبًا، أُجْرِيَ لفظُ النَّظرِ على الرُّؤية على سبيل إطلاقِ اسمِ السَّببِ على المسبَّبِ[3]، كما ورد في حكايةٍ عن طلبِ موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 143]؛ فكان الرّدُّ: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: 143]، وأيضًا فإنَّه قد يطلُبُ جماعةٌ الهلالَ فيراه جماعةٌ منهم ولا يستطيع الآخرون رؤيتَه مع أنَّهم جميعًا ناظرون[4]؛ فالفرقُ بينهما أنَّ الرُّؤية هي: إدراكُ المرئيِّ، والنَّظر: الإقبالُ بالبصر نحو المَرئيِّ، أمَّا البصرُ فهو إدراكُ العين، ويُطلقُ على القوَّة الباصرة، التي مِن شأنِها إدراكُ أشباحِ الصُّوَرِ[5]، وأصلُ (الإبصار) في اللُّغة وضوحُ الشّيء، والعينُ هي أداة الإبصار، قال تعالى ﴿أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ﴾ [الأعراف: 195]، وقد يُطلقُ البصرُ ليدلَّ على العلمِ القويِّ المُضاهي لإدراك الرُّؤية،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 20/44.
(2) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/457.
(4) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 543.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 247، والتَّهانويُّ، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/938.

فيُقال: بَصُرَ بالشَّيء: عَلِمَهُ عن عَيانٍ، فهو بَصيرٌ به[1]، قال تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]، وحينَها يكونُ الفرقُ بين النَّظر والبصر، كالفرق بين النَّظرِ والرُّؤية؛ قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٨﴾ [الأعراف: 198]. وخُلاصةُ القول في الفرقِ بينها: أنَّ الإبصارَ يتميَّزُ بالوضوح، والرُّؤية تتميَّزُ بالعلم، والنَّظرَ يُميِّزه التَّأمُّلُ، وهذا واضحٌ في استعمالات القرآن لهذه الألفاظ.

(1) الحميريّ، شمس العلوم: 1/544.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾ [يونس: 68]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين دلائلِ الخلْقِ المُعجزِ، وتفنيدِ أباطيلِ المشركين

ما زال السِّياقُ يُشير إلى تحقيق التَّوحيدِ وتقريرِه بإبطال الشِّرك وشُبَهِه، قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾؛ أي: قال المُشركون: إنَّ الملائكة بناتُ الله، وهو قولٌ مُؤسِفٌ مُحزنٌ للرَّسول ﷺ[1]، وهو الّذي أشار إليه من قبْلُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، فهو شروعٌ في ذكرِ ضَرْبٍ آخرَ من أباطيل المشركين، وبيانِ بُطلانه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذَ﴾: الأخذُ: حَوْزُ الشَّيءِ وجَبْيُهُ وجَمعُهُ، قال الخليل: هو خِلافُ العَطاءِ، وهو التَّناوُلُ[3]، والأمر منه خُذ، وأصلُه أُؤْخُذْ إلَّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين فحذفوهما تخفيفاً[4]، وهو من الأضداد: يقال: أخذَ الشَّيءَ عَنْوَةً، إذا أخذه غَصْباً وغَلَبَة، وأخذه عنوةً إذا أخذه بمحبَّة ورضًا مِنَ المأْخوذِ منه[5]، وعليه فالاتِّخاذُ في الآية، يَصدقُ على أَخْذِ شيءٍ موجُودٍ للاستئثارِ به، ويَصدُقُ على تكوينِ شيءٍ للانتفاعِ به، وهو هنا صالحٌ للمَعْنَيَيْن؛ لأنَّ منهم مَن يَعتقدُ تولُّدَ الولَدِ عنِ الله تعالى، ومنهم مَن يَعتقدُ أنَّ الله تبنَّى بعضَ مَخلُوقاتِهِ[6].

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/491.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/124، والآلوسي، روح المعاني: 66/146.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (أخذ).
(5) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 79.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/229.

2) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾: التَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّقديسُ والتَّبرئَةُ، يُقال: سَبَّحْتُ اللّه، وسَبَّحت لَهُ، أُسبِّحُهُ تَسْبيحاً وسُبحاناً، أي: نَزَّهتُهُ وبَرَّأْتُه من كُلِّ سوءٍ ونَقص[1]، ويأتي بِمعنى: سُبْحانَ اللّه، فيُقال: سَبَّحَ الرَّجُلُ، أي: قال: سُبحانَ اللّه. ويُطلَقُ التَّسبيحُ أيضاً على التَّنفُّلِ والتَّطوُّعِ بِالعبادَةِ، "والتَّسبيحُ يكون في معنى الصّلاة، وبه يُفسَّر قولُه ﷻ: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الرّوم: 17]، والآيةُ تأمر بالصَّلاة في أوقاتها، قال الأعشى:

وَسَبِّحْ عَلَى حِينِ العَشِيَّاتِ وَالضُّحَى *** وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللّه فَاعْبُدَا[2]

والمقصودُ في الآية: التَّنزيهُ والتَّبرئةُ، لأنْ يكونَ للّه ﷻ صاحبةٌ أو ولدٌ.

3) ﴿ٱلۡغَنِيُّۖ﴾: أصلُ الغنَى: عَدمُ الحاجَةِ لِلغَيرِ، يُقال: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى، والغَنَاءُ بفتح الغين مع المَدِّ: الْكِفَايَةُ[3]، وضِدُّه: الفَقْرُ. والغَنِيُّ هو الموصوفُ بالغِنَى، سواءٌ أكانَ ذلك في المالِ، أو في القُوَّةِ، أو العِلْم، أو غَيْرِ ذلك، فَعِيلٌ للمُبالغةِ، وغِنَى اللّه هو الغِنَى المُطلَقُ، الَّذي لا يَحْتاجُ إلى أحدٍ في شَيْءٍ، وكُلُّ أحَدٍ مُحْتاجٌ إلَيْه، وهذا المَعنى هو المَقصودُ في الآية.

4) ﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾: السُّلطانُ: الحجَّة والبُرهانُ، ولا يُجمعُ لأنَّ مَجراه مَجرى المصدرِ، قال محمَّد بن يزيد: هو مِنَ السَّليط. وقال الزَّجّاجُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦﴾ [هود: 96]، أي: وحُجَّة بيِّنَةٍ. والسُّلطان إنّما سمِّي سلطانًا لأنَّه حُجَّةُ اللّه في أرضه[4]، والسُّلطانُ في معنى الحُجَّة، قال تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29]، أي: حُجَّتي. والسُّلطان: قُدرةُ الملك، وقُدرةُ من جُعِلَ ذلك له، وإن لم يكن مَلِكاً[5]، سُمِّيَ سُلطانًا، لأنَّهُ يُكسِبُ المُستدلَّ به سُلطةً على مُخالفه ومُجادِله[6]، والمقصودُ في الآية: القُوَّة والقهرُ.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

بيَّنَ اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ مُشرِكي العرَبِ زَعَموا أنَّ للّه ولدًا، تنزَّه سُبحانَه عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(2) البيت من الطويل، وهو للأعشى، يُنظر: الخليل، العين: (سبح).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غنى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(5) الخليل، العين: (سلط).
(6) الخليل، العين: (سلط)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/232.

الحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها، ظاهِرةٌ على الباطِلِ، قاهِرةٌ له

ذلك، هو الغنيُّ عنِ الزَّوجةِ والوَلَد، وعن جميعِ خَلْقِه، له جميعُ ما في السَّمَاواتِ وما في الأرضِ، فكيف يكونُ له ولدٌ ممَّن خلَقَ، وكلُّ شَيءٍ مملوكٌ له؟ وليس عند هؤلاء المُشرِكينَ دليلٌ على أنَّ اللهَ اتَّخذَ ولدًا مِن خَلْقِه، أيقولونَ على اللهِ ما لا يعلمونَ حَقيقتَه وصِحَّتَه؟(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاستئنافِ بين البيانِ والإدماجِ:

الإفصاحُ عن ضربٍ مِنَ الكُفرِ، وهو قولُهم (اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا)

يَحتملُ قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ أن يكونَ شروعًا في ذِكر ضَرْبٍ آخرَ مِن أباطيلِ المشركين وبيانِ بُطلانِه(2)، وهو الَّذي أشار إليه قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾، وكأنَّه بهذا إجابةٌ عن سؤالٍ أو تساؤلٍ، هو: ما هذا القولُ الذي يقولُه المشركون فيُحزِنُ النَّبيّ ﷺ؟ فكان الجوابُ: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾، وقد تأخَّر الجوابُ عن هذا السُّؤال، فجاء بعد تلك الآياتِ التي عرضَت بعضَ مظاهرِ قدرةِ اللّه، وأنَّه سبحانه له العِزَّةُ جميعًا، وأنَّه جَلَّ شأنه، له ملك السَّماوات والأرض، ومَن فيهن، وأنَّه سُبحانه هو الذي أقام هذا الوجودَ على ذلك النِّظامِ المُحكَم البديعِ، فجعلَ اللَّيلَ سكنًا، وجعل النَّهارَ مُبصرًا، وكان هذا العرضُ هو الرَّدَّ الذي سبق هذه الدَّعوى الباطلةَ، ليدحضَها قبْلَ أن تتلفَّظَ بها الأفواهُ، ولِيقتلَها في مهدها قبْلَ أن ترى وجْهَ الحياة، وهكذا الباطلُ إنَّه شيءٌ منكرٌ، يجبُ أن يموتَ بين يَدَي أهلِه، حتَّى لا يقعَ المكروهُ منه على أحدٍ غيرِهم، فمِنَ الحكمةِ أن يُدْفَعَ الشَّرُّ قبلَ وقوعِه؛ لأنَّ ذلك أهونُ وأيسرُ في الخلاص مِن بَلواه، فإذا وقع كان مُنكرًا، يجبُ على المؤمنين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/229، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/131، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/361، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/282، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 369.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/146.

دَفْعُهُ بكلِّ قوَّةٍ مُمكنةٍ لديهم[1]؛ فيكونُ الاستئنافُ على هذا المعنى استئنافًا بيانيًّا. وقد يكون هذا الاستئنافُ بيانًا لجملة ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ إلى آخرها، وفي هذا البيانِ إدماجٌ بحكايةِ فَنٍّ مِن فنون كُفرِهم مُغايرٍ لادِّعاء شُركاءَ لله، لأنَّ هذا كفرٌ خَفيٌّ من دينِهم، ولأنَّ الاستدلالَ على إبطالِه مُغايرٌ للاستدلال على إبْطال الشُّركاء[2]، ومَساقُ البيان لقوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، وهذا صالحٌ لأنْ يكونَ تعجيبًا مِمَّن ادَّعى في الملائكة أو عُزيرٍ أو المسيحِ وغيرِهم[3].

دَلالةُ عَوْدِ الضَّميرِ المتّصلِ بالفعلِ ﴿قَالُواْ﴾:

الضَّـميرُ عائدٌ علـى المشركين المُصَرَّحِ بهم من قَبْلُ

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾: الضَّميرُ في ﴿قَالُواْ﴾ عائدٌ على من نسبَ إلى اللهِ الولدَ، مِمَّن قال: الملائكةُ بناتُ اللهِ، أو عُزيرٌ ابن اللهِ، أوِ المسيحُ ابنُ اللهِ[4]، فهو عائدٌ على المشركين المُصَرَّحِ بهم من قبلُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ [يونس: 66]، وليس المُرادُ مِنَ الضَّمير غيرَهم مِنَ النَّصارى؛ لأنَّ السُّورة مكيَّةٌ والقرآنُ المكيُّ لم يَتَصَدَّ لإبطال زيْغِ عقائدِ أهلِ الكتاب، ذلك أنَّ كثيرًا منهم كانوا يَزعمون أنَّ للهِ بناتٍ همُ الملائكةُ، وهم بناتُه من سرواتِ نساءِ الجنِّ، ولذلك عبَدَت فِرقٌ مِنَ العرب الجنَّ، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ: 40، 41][5].

دَلالةُ الفعلِ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وسِرُّ اصطفائِه دونَ سِواه:

فسادُ اعتقادِ نسبةِ الولدِ إليه، إذْ ذلك باطلٌ وزورٌ

الاتِّخاذُ: جعلُ شيءٍ لفائدةِ الجاعلِ، وهو مُشْتَقٌّ مِنَ الأخذ؛ لأنَّ

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/85.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.

المُتَّخِذَ يأخذُ الشَّيءَ الذي يصطفيه، وكما في قوله تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ [الأنعام: 74]، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146]، فالاتِّخاذُ يَصْدقُ على أخذ شيءٍ موجودٍ للاستئثار به، ويَصدقُ على تكوين شيءٍ للانتفاعِ به، وهو هُنا صالحٌ للمعنيَيْن؛ لأنَّ منهم من يعتقدُ تَوَلُّدَ الولدِ عنِ اللّه تعالى، ومنهم مَنْ يعتقدُ أنَّ اللّه تبنَّى بعضَ مخلوقاتِه[1]، والاتِّخاذُ صريحٌ في التَّبنِّي، وظاهرُ الآيةِ يدلُّ على أنَّ ذلك قولُ كلِّ المشركين، وإذا ثبت أنَّ منهم مَن يقولُ بالولادة والتَّقديرِ حقيقةً، كان ما هُنا قولَ البعض، ولْيُنْظرْ هل يجري فيه احتمالُ إسنادِ ما للبعض للكلِّ؛ لتحقُّق شرطِه أم لا يجري لفقْدِ ذلك؟[2]. وفي كلا المعنيَيْن تبشيعٌ وتشنيعٌ لقولِهمُ الأحمقِ الغريبِ الذي يمَسُّون به الذَّاتَ العليَّةَ فيَحسبون أنَّ اللّه يحتاجُ إلى الولد كما يحتاجُ البشرُ، ولذا قال سُبحانه ردًّا لقولِهم: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾[3].

دَلالةُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّـهُ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ﴾: لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ أي المُسَمَّى بهذا الاسمِ الذي تقتضي تسميتُهُ به أن يكون له الكمالُ كُلُّه، فلا يكون مُحتاجًا إلى شيءٍ بوجْهٍ[4]. والسِّياقُ جاء تعجُّبًا مِن قولِهمُ الأحمقِ بأنَّ له ولدًا، ومجرَّدُ أن يكون اسمُه (اللّه) ووصْفُه أنَّه (إله)، يقتضي أنّه لا "مناسبةَ بينه وبين ما يزعمونَه ولدًا، فإنَّ الولد يكونُ من جنس الوالدِ، أو يقال إنّما يطلبُ الولدَ ضعيفٌ يتقوَّى به، أو فقيرٌ ليستعينَ به، أو ذليلٌ ليتشرّف به، أو من يموتُ لبقاء جنْسِه، والكلُّ أمارةُ الحاجةِ"[5]، واللّه ليس مُحتاجًا إلى شيءٍ من ذلك على الإطلاق.

مَن كان له الكمالُ مِن جميعِ الوجوه، كان غَنيًّا عن كُلِّ أحدٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.
(2) الآلوسي، روح المعانيّ: 6/146.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3610.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(5) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 5/45.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإفراد في: ﴿وَلَدٗاۗ﴾:

بيانُ كونِه منَ التّعبيرِ بالمصدرِ الّذي يشملُ المفردَ والجمعَ

قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾: الولدُ: اسمٌ مَصوغٌ على وزن (فَعَلٌ)، مثل: عَمَد، وعَرَب، وأمَل، وهو مأخوذٌ من الولادة، أي النِّتاج، يُقال: ولدتِ المرأةُ والنَّاقةُ، ولعلَّ أصلَ الولد مصدرٌ مُمَات على وزن (فَعَلٌ)، مثل: الفَرَح، ومن أجل ذلك أُطلقَ على الواحد والجمعِ، كما يُوصف بالمصدر، يُقال: هؤلاء ولدُ فلانٍ[1]، وفي الحديث «أنا سيّدُ ولدِ آدم»[2]، والمُراد هنا الجمعُ، لأنَّهم قالوا: الملائكةُ بناتُ اللّه، استولَدَها من سَرَوات الجنِّ، قال تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ [النَّحل: 57][3].

سِرُّ الفصْلِ في: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾:

إنشاءُ تنزيهٍ لله تعالى، وتمجيدٍ له للرّدِّ عليهم

قولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزيهٌ للّه تعالى، وتمجيدٌ له، واستبعادٌ لأن يكون له صاحبةٌ أو ولدٌ، إذ لا يَطلبُ المرءُ الصَّاحبَ أوِ الولدَ إلّا ليُكَمِّلَ نقصًا فيه، واللّه ﷻ، هو الكمالُ المطلقُ، فكيف يكونُ له ولدٌ، أو تكونُ له صاحبةٌ؟[4]، فلمَّا عَجِبَ منهم في ذلك لمُنافاته بما يدلُّ عليه منَ النَّقص لِما ثبتَ للّه تعالى منَ الكمال، كما مَرَّ، نَزَّه نفسَه الشَّريفةَ عنه فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ أي تنزّه عن كلِّ شائبةِ نقْصٍ[5]، فالجملة جوابٌ لذلك المَقال، ولذلك فُصِلَتْ عنِ الّتي قبْلَها، فهو تنزيهٌ وتقديسٌ له عمَّا نَسَبوا إليه، وتعجُّبٌ مِن كَلِمَتِهم الحمقاءِ[6].

دَلالةُ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ بين الحقيقةِ والمجازِ:

الحملُ على معنى التَّنزيهِ والتَّعَجُّبِ، من بلاغةِ البيانِ هنا

قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾: أي تَنَزَّه ربُّنا عمَّا لا يليقُ بربوبيَّته

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.
(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، بابُ تَفْضِيلِ نَبِيِّنَا ﷺ على جميع الْخَلائِقِ، الحديث رقم: (2278).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/229.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/119، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/163.

وألوهيَّتِه، ويمكنُ أن يكون المعنى (عجيب أن تصدر منهم تلك الكلمةُ الحمقاءُ)[1]، فهو إمَّا أنَّه تنزيهٌ تقديرُه: أُسبّحه تسبيحًا أي أنزّهُه تنزيهًا، وإمَّا أنَّه تعجُّبٌ، فيقال في مقام التَّعجُّب: سبحان اللّه، واستعمالُ اللَّفظ في الأوَّل حقيقيٌّ، وفي الثَّاني مجازيٌّ، فإن قيل: لفظٌ واحدٌ في معنيَين حقيقيٍّ ومجازيٍّ ممنوعٌ، قيلَ: لا يلزمُ أن يكونَ استفادةُ معنى التَّعجُّب منه باستعمال اللَّفظ فيه، بل هي من المَعاني الثَّواني، كما يُقال لكلِّ أعجوبةٍ (سبحان اللّه)، ووجْهُ إطلاق هذه الكلمةِ عند التَّعجب، هو أنَّ الإنسان عند مشاهدةِ الأمرِ العجيبِ، الخارجِ عن حَدِّ أمثالِه، يَستبعدُ وقوعَه، وتنفعلُ نفسُه منه، فيقول: (سبحان اللّه) تنزيهًا للّه تعالى عنِ العجز عن خَلْقِ أمرٍ عجيب، يُستبعَدُ وقوعُه، لتيقُّنِه بأنَّه تعالى على كلِّ شيء قديرٌ[2].

دَلالةُ الحصْرِ بتعريفِ المسنَدِ والمسنَدِ إليه:

إثباتُ أنَّ الغِنى التَّامَّ مُنْحَصِرٌ فيه لا يُشاركُه فيه أحدٌ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ أي: الغِنى منحصرٌ فيه، وأنواعُ الغِنى مُستغرقةٌ فيه، فهو الغنيُّ، الّذي له الغِنى التَّامُّ، بكلِّ وجهٍ واعتبارٍ، من جميع الوجوه، فإذا كان غنيًّا من كلِّ وجه، فلأيّ شيءٍ يتَّخذُ الولدَ؟ ألِحاجةٍ منه إلى الولدِ؟!، فهذا منافٍ لغِناه، فلا يتَّخذُ أحدٌ ولدًا إلّا لنقْصٍ في غناه[3]؛ لأنَّه إلهٌ، والإلهُ لا يحتاجُ إلى مكمِّل نقْصٍ في الذَّاتِ أوِ الأفعال.

سِرُّ الموقعِ البيانِّي لجملة: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾:

تعليلُ التَّنزيهِ السَّابِقِ في السِّياقِ، باستعمالِ لفظِ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾: علَّةٌ لِنَفْيِ الولَدِ؛ لأنّ علّة طلبِ الولدِ - إجمالًا - الحاجةُ، فمَنِ الحاجةُ منتفيةٌ عنه، كان الولَدُ عنه مُنتفيًا[4]، فاللّه هو الغنيّ عنِ اتّخاذ الولد؛ لأنَّ الإلهيَّةَ تقتضي الغِنى المطلقَ عن

(1) المراغي، تفسير المراغي: 11/135.
(2) البروسويّ، روح البيان: 4/64.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 421.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/358، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/85.

كلِّ احتياج إلى مكمِّلِ نقْصٍ في الذَّاتِ أوِ الأفعال، واتّخاذُ الولد إمَّا أن يَنشأ عنِ اندفاعٍ طبيعيٍّ لقضاء الشَّهوةِ عن غيرِ قصْدِ التَّوليد، وكونُ ذلك نقصًا غيرُ خفيٍّ، وإمَّا أن ينشأ عنِ القصدِ والتَّفكيرِ في إيجاد الولدِ، وذلك لا يكونُ إلّا لسدِّ ثُلْمةِ نقْصٍ من حاجةٍ إلى معنى في الحياة، أو خلَفٍ بعد الممات، وكلُّ ذلك مُنافٍ للإلهيَّة التّي تقتضي الاتّصافَ بغاية الكمالِ في الذَّات والصّفاتِ والأفعالِ[1]، فالجملةُ عِلَّةٌ لتنزيهِه، وإيذانٌ بأنَّ اتّخاذَ الولدِ من أحكام الحاجةِ، إمَّا للتَّقوّي به، أو لبقاءِ نوْعِه[2].

دَلائلُ استحالةِ أن يكونَ لله تعالى ولدٌ:

مَنِ استغنَى عنِ العونِ والولدِ، تقدَّسَ أن يكونَ له ولدٌ

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، ذكْرُ كونِه تعالى غنيًّا مالكًا لكلِّ ما في السَّماوات والأرض، يدلُّ على أنَّه يستحيلُ أن يكونَ له ولدٌ، وبيانُ ذلك من وجوه: أحدها: أنّه تعالى فردٌ مُنزَّهٌ عنِ الأجزاء والأبعاضِ، وكُلُّ من كان كذلك امتنعَ أن ينفصلَ عنه جزءٌ من أجزائه، والولدُ انفصالُ جزءٍ من أجزاء الإنسان، ثُمَّ يتولَّدُ عن ذلك الجزءِ مثلُه. وثانيها: أنَّه تعالى قديمٌ أزليٌّ باقٍ سرمديٌّ، وكُلُّ من كان كذلك، امتنَعَ عليه الانقراضُ والانقضاءُ، ممّا يدلُّ على أنَّه يمتنعُ أن يكونَ له ولدٌ. وثالثها: أنَّه تعالى يمتنعُ أن يكونَ موصوفًا بالشَّهوة واللَّذة، وإذا امتنَعَ ذلك امتنعَ أن يكونَ له صاحبةٌ وولدٌ[3]. ورابعها: أنَّه تعالى لا يحتاجُ أن يكون له ولدٌ؛ لأنَّ اتّخاذَ الولد إنَّما يكونُ في حقّ من يكونُ مُحتاجًا؛ حتَّى يعينَه ولدُه على المصالح الحاصلةِ والمتوقَّعةِ، والله غنيٌّ عنِ المعونة، ولا حاجةَ له إلى شيء منَ المنافع، فهو مُستغنٍ أزلًا وأبدًا[4].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 11/230.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/146، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/47.
(3) حسن نظام الأعرج، غرائب القرآن: 3/598، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/280.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/135.

وخامسها: الولدُ يكون ولدًا، إذا كان مساويًا لوالده في الطَّبيعةِ والحقيقةِ، ويكونُ ابتداء وجودِه وتكوُّنِه منه، وهذا في حقِّ اللّه تعالى مُحالٌ؛ لأنَّه تعالى غَنيٌّ مُطلقًا، ولا ولدَ له. والوجه السّادس: أنَّه تعالى امتنعَ أن يكونَ له أبٌ وأمٌّ، وكُلُّ من تقدَّس عن الوالدين، وجبَ أن يكون مُقدَّسًا عنِ الأولاد[1].

دَلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡغَنِيُّۖ﴾:

المبالغةُ في الوصْفِ بالغنَى المطلقِ، تدلُّ على الامتناعِ منَ الافتقارِ

﴿ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾: أيِ: الموصوفُ بالغنى، وهو على وزن فعيل للمبالغة في فعْلِ: غَنِيَ عن كذا إذا؛ كان غيرَ محتاجٍ، وغِنَى اللّه هو الغنَى المُطلَقُ[2].

دَلالةُ الاستئنافِ:

تقريرُ المعنَى الآنفِ، في تنزيهِ اللهِ وبيانِ مظاهرِ غناه

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ التَّنزيهَ السَّابقَ للّه تعالى بقوله: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾، ثُمَّ بَيَّن بعضَ مظاهرِ غِناه، بقوله: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فاللّه غنِيٌّ عن خلْقه جميعًا، فإنَّ كُلَّ ما في الوجود منَ العالَم العلويِّ والسُّفليِّ مُلْكٌ له ولا حاجةَ له إلى شيءٍ منه، وجميعُه في حاجةٍ إليه، ولا يُجانسُه شيءٌ منه[3]، فجملةُ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، مُقَرِّرةٌ لوصْفِ الغِنى، بأنَّ ما في السَّماوات وما في الأرض ملكه، فهو يُسَخِّر كُلَّ موجود لِمَا خلقَه لأجلِه، وهذا مُساوٍ للاستدلال على نفْيِ الشَّريكِ في قولِه آنِفًا: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [يونس: 66][4].

دَلالةُ (اللَّامِ) في ﴿لَهُۥ﴾:

إبرازُ كمالِ مُلْكِ اللهِ للموجوداتِ، وتنزيهُه عنِ اتِّخاذِ الولدِ

قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: أي بالمُلْكِ

(1) حسن نظام الأعرج، غرائب القرآن: 3/598، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/280.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/230.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/135.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/119، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/231.

والإحاطةِ والخلْق[1]؛ لأنَّ المالكَ لجميع الكائناتِ هو الغنيُّ، وما عداه فقيرٌ، وقيل: هو عِلَّةٌ أخرى لتَنَزُّهِه عنِ التَّبنِّي لأنَّه يُنافي المالكيَّةَ[2]؛ لأنَّ الذي له ملكُ السَّماوات والأرض وملكُ ما فيهما، وكلُّهم عبيدُه وإماؤه - لا حاجةَ تقعُ له إلى الولد[3].

وجملةُ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، مُقرِّرةٌ لوصْفِ الغِنى بأنَّ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ مِلكُه[4].

سِرُّ تَكرارِ ﴿مَا﴾:

تأكيدُ غنَى الله عن جميعِ مخلوقاتِه، سماويّةً كانت أو أرضيَّةً

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: لَمَّا كان سياقُ الاستدلالِ يَقتَضي التَّأكيدَ، أعاد ﴿مَا﴾ فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فهو غنيٌّ بالمُلك عن أن يكون شيءٌ منه ولدًا له؛ لأنَّ الولدَ لا يملكُ، وعدَمُ ملكِه نقصٌ منافٍ للغنى[5]، كما أنَّ أكثر معبودات المشركين الباطلةِ، معبوداتٌ أرضيَّةٌ من حجارةٍ وحيواناتٍ وبَشرٍ، فذِكْرُ ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، دليلُ كونِها مملوكةً ضعيفةً، لا مالكةً مُستغنيةً.

دَلالةُ الفصْلِ: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾:

مجيءُ الجوابِ الثَّاني على بُطلانِ زعمِهم اتِّخاذَ الله للوَلَدِ

قولُه تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ جوابٌ ثانٍ لقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾، وفُصلت هذه الجملةُ كما فُصلت جملةُ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾، فبعد أنِ استدلَّ على إبطال قولهم، سَجَّل عليهم أنَّهم لا حُجَّةَ لهم في قولهم ذلك[6]، فلمّا نزّه اللّه ﷻ نفسَه عنِ اتّخاذ الولدِ أتبعَه بالإنكار والتَّوبيخِ والتَّقريع فقال ﷻ: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾، يعني أنَّه لا حجّةَ عندكم على هذا القول البتّة[7]، ولمّا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/131.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/146.
(3) أبو منصور الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 6/64.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/231.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/159.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/231.
(7) الخازن، تفسير الخازن: 2/454.

بَيَّن بالبرهانِ القاطعِ، والدَّليلِ الباهرِ السَّاطعِ، امتناعَ أن يكون له ولد، بكَّتهم بنفْيِ أن يكونَ لهم بذلك نوعُ حُجَّةٍ، فقال: ﴿إِنۡ﴾[1].

دَلالةُ النَّفْيِ بـ ﴿إِنۡ﴾ وتأكيدُه:

المبالغةُ في تحقيقِ بُطلانِ قولِهم، باستغراقِ نفْيِ جميعِ أنواعِ الحُججِ

قوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾: ﴿إِنۡ﴾ حرف نَفْيٍ، و﴿مِّن﴾ مزيدةٌ، لتأكيد النَّفيِ بالاستغراق، أي استغراق نفيِ جميع أنواعِ الحُجَّة قويِّها وضعيفِها، عَقليِّها وشرعيِّها[2]، فهو نفيٌ لِمعارِض ما أقامه منَ البرهان مُبالغةً في تجهيلِهم وتحقيقًا لبُطلانِ قولِهم، "و﴿إِنۡ﴾ تأتي للنّفيِ في مثل قولِ الحقّ سبحانه: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ [المجادلة: 2]، وفي قول الحقِّ سُبحانه هنا: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ [يونس: 68]، أي: ليس عندكم حُجَّةٌ تدلُّ على أنّ اللّه تعالى اتّخذ ولدًا[3].

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿عِندَكُم﴾:

جمالُ السِّياقِ، وانتقاءُ الألفاظِ، تجليةٌ للمعنى المُؤَثِّرِ

قوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾، فيه لفظُ (عند) اسمٌ لمكان الحضورِ، وهي في الأصل تَدُلُّ على المكان المختصِّ بالذي أضيفَ إليه لفظُها، فهي ممَّا يُناسبُ الخفاءَ، واستُعملت هُنا مجازًا من قَبيل الاستعارةِ التّصريحيّةِ، حيث شَبَّه وجودَ الحُجَّة لِلمُحتجِّ، بالكوْنِ في مكانه، ولقد شاعَ استعمالُها في المعنى المجازيِّ حتَّى صارت كالحقيقةِ، والمعنى: لا حُجَّةَ لكم[4].

سِرُّ اصْطفاءِ لفظِ (السُّلطان):

الحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها بالأدلّةِ، ظاهِرةٌ على الدّعاوَى المُضلّةِ

قولُه تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾: السُّلطانُ هو الحُجَّةُ، والقرآنُ الكريمُ يَستعملُ كلمةَ السُّلطان في معنى الحُجَّة؛ لأنَّ الحُجَّة الباهرةَ توجدُ بسلطان منَ الحقِّ على الباطل، وسلطةُ الحَقِّ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/160.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/231.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6077.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/231.

أقوى وأبعدُ من سلطةِ الطُّغاةِ الظَّالمين، وإن كان ذلك الاستعمالُ مجازًا من أبلغ الكلام[1]، بطريق الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ في تشبيه الحُجَّةِ بالسُّلطان، في القوَّة والإلزام، فسمّى الله تعالى الحُجَّةَ العِلميَّةَ سُلطانًا؛ لأنَّها تُوجِبُ تسَلُّطَ صاحِبِها واقتدارَه، فله بها سُلطانٌ على الجاهلينَ، بل سُلطانُ العِلمِ أعظَمُ مِن سُلطانِ اليَدِ، ولهذا ينقادُ النَّاسُ للحُجَّة ما لا ينقادونَ لليَدِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ تنقاد لها القلوبُ، وأمَّا اليدُ فإنَّما ينقادُ لها البدنُ، فالحجَّةُ تأسِرُ القلبَ وتقودُه، وتُذِلُّ المُخالِفَ، وإن أظهَرَ العِنادَ والمكابرةَ، فقَلبُه خاضِعٌ لها ذليلٌ، مقهورٌ تحت سُلطانِها، بل سلطانُ الجاهِ إن لم يكُن معه عِلمٌ يُساسُ به، فهو بمَنزلةِ سُلطانِ السِّباعِ والأُسودِ ونحوِها، قُدرةٌ بلا عِلمٍ ولا رحمةٍ، بخلافِ سُلطانِ الحُجَّة، فإنَّه قُدرةٌ بعِلمٍ ورحمةٍ وحِكمةٍ، ومَن لم يكن له اقتدارٌ في عِلمِه، فهو إمَّا لِضَعفِ حُجَّته وسُلطانِه، وإمَّا لِقَهرِ سُلطانِ اليَدِ والسَّيفِ له، وإلَّا فالحُجَّةُ ناصرةٌ نَفسَها، ظاهِرةٌ على الباطِلِ، قاهِرةٌ له[2].

دَلالةُ حرفِ الجَرِّ الدَّاخلِ على اسمِ الإشارة: ﴿بِهَٰذَآۚ﴾:

بطلانٌ لقولهمُ المُفترى وتقويضٌ لدعاواهم بين الورَى

﴿بِهَٰذَآۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾: الباءُ للملابسة، و﴿بِهَٰذَآۚ﴾ في موضع صفة لـ﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾، أي: سلطانٍ مُلابسٍ لهذا[3]، وقوله ﴿بِهَٰذَآۚ﴾، أي بما ذُكِرَ مِن القول الباطل؛ وفي هذه الإشارة توضيحٌ لبُطلانه، وتوهينٌ لأركانه، وهدمٌ لبُنيانه، بتحقيق سلامةِ ما أقيم مِنَ البرهان السَّاطع، عنِ المعارض والمُنافي[4].

سِرُّ الفصْلِ في: ﴿أَتَقُولُونَ﴾:

التَّوبيخ والتَّشنيعُ على المشركين بسبب جُرأتِهم على الله

قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾: هذا جوابٌ ثالثٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3610.
(2) ابن قيّم الجوزيّة، مفتاح دار السّعادة: 1/58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/232.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/146.

ناشئٌ عنِ الجوابَيْن السَّابقَيْن؛ لأنَّهم لمّا أبطل الله قولَهم بالحجَّة، ونفى أن تكونَ لهم على قولهم حُجَّةٌ كانوا أحرِياءَ بالتَّوبيخ والتَّشنيعِ بأنَّهم يجترِئون على جَنابِ الله، فيَصفون الله بما لا يعلمون، أي بما لا يُوقِنون به، ولكوْنِها جوابًا فُصلت، فالاستفهام مُستعملٌ في التَّوبيخ؛ لأنَّ المذكور بعدَه شيءٌ ذميمٌ، واجتراءٌ عظيمٌ، وجهلٌ كبيرٌ مركّبٌ[1].

دَلالةُ الاستفهامِ في الآية:

المبالغةُ في إنكار مقالتِهم الشّنيعةِ، تحقيقٌ للمُحاجّةِ الفاصلةِ

قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: يجوزُ أن يكون ذلك على سبيل الاستفهامِ الإنكاريِّ، والتَّقديرُ: إن عندكم من سلطانٍ بهذا؟ أتقولون على الله ما لا تعلمون؟ ويجوزُ أن يكون أسلوبًا خبريًّا، وتكونَ (إنْ) نافيةً، والتَّقديرُ: ما عندكم من سلطانٍ بهذا[2]، حيث بالغَ في الإنكارِ عليهم أن يقولوا قولًا لا يعلمون حقيقتَه وصحَّتَه، ويُضيفون إليه ما لا تجوزُ إضافتُه إليه، جهلًا منهم بما يقولون[3]، وعلى كلا الاحتمالين، فهو توبيخٌ وتقريعٌ على اختلاقِهمُ الكذبَ وجهلِهم، وفيه دليلٌ على أنَّ كلَّ قولٍ لا دليلَ عليه فهو جهالةٌ، وأنَّ العقائد لا بدَّ لها من دليلٍ قاطعٍ، وأنَّ التَّقليدَ فيها غيرُ سائغٍ[4].

سِرُّ التَّذْييل بالاستفهامِ الانكاريِّ:

الإيماءُ إلى أنّ العقائدَ لا بُدَّ فيها من دليلٍ قاطعٍ، يَنفي الجهالةَ

قولُه تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، أي أتقولون على الله قولًا لا تعلمون حقيقتَه، وتَنسبون إليه تعالى، ما لا يجوزُ إضافتُه إليه، لا سيّما بعد مجيء ما يَنقضُه منَ الأدلّةِ العقليّةِ والوحي الإلهيِّ، وفي الآية إيماءٌ إلى أنّ كلَّ قولٍ لا دليلَ عليه جهالةٌ[5]؛ فلمَّا نفَى عنهمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/232.
(2) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1046.
(3) الخازن، تفسير الخازن: 2/454.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 3/119.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/135.

البرهانَ بما سَبَقَ جعلَهم غيرَ عالِمين، فدلَّ على أنَّ كُلَّ قولٍ لا برهانَ عليه لقائلِه جهلٌ[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأخذُ والاتِّخاذُ:

الأخذُ حوزُ الشَّيءِ وجمْعُه، والاتِّخاذُ جَعْلُ الشَّيءِ لأمرٍ والاستمرارُ عليه

وهذان الفعلان بمعنى واحدٍ، وقيل: بل هما في الأصل مِن مادَّةٍ واحدةٍ، فقد ذهب فريقٌ مِنَ اللُّغويّين إلى أنَّ (اتّخذَ) مبنيٌّ مِن (أخذ)، جاء في (لسان العرب): "والاتِّخاذُ افتعالٌ أيضًا مِنَ الأخذ إلَّا أنَّه أُدغم بعد تلْيين الهمزة وإبدالِ التَّاء، ثمَّ لمَّا كَثر استعمالُه على لفظ الافتعال، تَوهَّموا أنَّ التَّاء أصليَّةٌ فبنوا منه: فَعِلَ يَفْعَلُ، قالوا: تَخِذَ يَتْخَذُ، وقُرِئَ: (لَتَخِذْتَ عليه أجرًا). وذهب آخرون إلى أنَّهما مادَّتان مختلفتان، قال السَّامرَّائيُّ: ويبدو لي أنَّ الرَّأيَ الأوَّلَ أرجحُ، وله نظائرُ في اللُّغة"[2]، والأخذُ مَصْدرُ أخَذْتُ بيديَّ، ويُستعارُ فيقال: أخذه بلسانِه، إذا تَكلَّمَ فيه بمكروه، وجاء بمعنى العَذابِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102]، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73]، وأصلُه في العربيَّة حَوْزُ الشَّيء وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ[3]؛ والاتّخاذُ أخذُ الشَّيء لأمرٍ يَسْتَمِرُّ فيه، فيُستعملُ بمعنى جَعَلَ[4] مثل الدَّار يتَّخذُها مَسكنًا، ويكونُ الاتّخاذُ في التَّسميَةِ والحُكْم؛ وهو على صيغة الافتعالِ، وهي دالَّةٌ على التَّكلُّف للمبالغة في تحصيل الفعل؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: 3]، أي سمَّوها بذلك وحكَموا لها به[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشَّاف: 2/358.
(2) فاضل صالح السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، ص: 331، والفيوميُّ، المصباح المنير: 1/7.
(5) العسكريُّ، معجم الفروق اللُّغويَّة، ص: 29.

البرهانُ والسُّلطانُ:

البُرهانُ الحُجَّةُ الفاصلةُ البيِّنةُ، والسُّلطانُ أعمُّ منه وأشملُ

البُرهانُ: الحُجَّةُ الفاصلةُ البيِّنةُ، يقال: بَرهَن يُبَرهِنُ بَرهَنةً، إذا جاء بحُجَّةٍ قاطعة لِدفع الخَصم، فهو مُبَرهِنٌ[1] فيُبَرهن بمعنى يُبَيِّنُ، وقد بَرهَنَ عليه: أقام الحُجَّةَ. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١١١﴾ [البقرة: 111]، وفي الحديث: (الصَّدقة برهانٌ)[2]، أي: هي دَليلٌ على صحَّة إيمان صاحبِها لطيب نَفسِه بإخراجها، وذلك لِعَلاقةِ ما بين النَّفس والمال[3]، أمَّا السُّلطان عند العرب فيُطلَق على الحُجَّة، ويُذكَّرُ ويُؤنَّث، فمن ذكَّر السُّلطانَ ذَهبَ به إلى معنى الرَّجل، ومن أنَّثه ذَهبَ به إلى معنى الحُجَّة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ۝٩٦﴾ [هود: 96] أي: وحُجَّةٍ بيِّنةٍ، والسُّلطان: الحاكمُ، إنَّما سُمِّيَ سُلطانًا لأنَّه حُجَّةُ الله في أرضه، أو هكذا ينبغي أن يكون[4] وقولُه تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقّة: 29] معناه: ذهبت عنّي حُجّتي[5]؛ فالسُّلطان أعمُّ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (برهن).

(2) رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعريّ، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، الحديث رقم: (223).

(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (برهن).

(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/217.

(5) الثَّعلبي، الكشف والبيان: 10/31، وابن جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/407.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾ [يونس: 69 - 70]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبْلَهما:

ربط أقاويل المُفترين، بما تستحقُّه من الوعيد بالعذابِ الشَّديدِ

لَمَّا بيَّن الله تعالى بالدَّليل القاهرِ أنَّ إثباتَ الولد لله تعالى قولٌ باطلٌ، ثمَّ بيَّن أنَّه ليس لهذا القائل دليلٌ على صحَّة قولِه؛ إذ ظهر أنَّ ذلك المذهبَ افتراءٌ على الله، ونسبةٌ لما لا يليقُ به إليه؛ وبكَّتهم عليه مواجهةً - أتْبعَه بما يشيرُ أنَّ مَن هذا حالُه، فإنَّه لا يُفلحُ البتَّةَ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفْتَرُونَ﴾: أصلُ الفَرْيِ: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثرُ[2] والفِرْيَةُ الكذِبُ، فَرَى كَذِبًا فَرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنْزيلِ العزيزِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [يونس: 38]؛ أي اخْتَلَقَهُ[3] قال السَّجستانيّ: "الافتراء: العظِيم من الكذِب، يُقَال لمن عمل عملًا، فَبالغ فيهِ إنَّه ليفري الفريَ يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العجيبَ"[4]. والمرادُ في الآية: كلُّ هذه المعاني مجتمعةً.

2) ﴿مَتَٰعٌ﴾: أصلُ المتع: الامتدادُ والارتفاعُ[5]، والمُتُوع هو امتدادُ الشَّيء مع قوَّته وكمالِ حاله: كتلك الموصوفات، حيث يُلحظُ فيها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/282، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 9/160.
(2) الرّاغب، المفردات: (فرى).
(3) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فرى).
(4) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 154.
(5) الرّاغب، المفردات: (متع).

الامتدادُ طولًا أو بقاءً مع جَوْدةٍ وكمالِ حالٍ؛ ولذا استُعملَ فيما يبلُغ به الشَّيءُ ذلك مِن قوَّة باطنةٍ وزادٍ وأسْبابِهما. والتَّركيب مُستعملٌ في معنى الإبقاء دهرًا مع الزَّاد ومُستلزماتِ المعيشة، قال تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [هود: 3]، أي: يُبْقيكم بقاءً في عافية إلى وقت وفاتِكم، ولا يستأصلُكم بالعذاب، ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98][1]، والمتاعُ: ما يَستمتعُ به الإنسانُ في حوائجه مِن أمتعة البيتِ ونحوِه من كلِّ شيءٍ. والدُّنيا متاعُ الغُرور، وكلُّ شيءٍ تمتّعْتَ به فهو متاع، تقول: إنَّما العيشُ متاعُ أيَّام ثمَّ يزولُ[2]، والمقصودُ في الآية: نفعٌ فانٍ غارٌّ ولو طال.

3) ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾: أصلُ الرُّجُوعِ: "العودُ إلى مكانٍ منه البدوُّ، سواءٌ أكان مكانًا أو قولًا أو فعلًا، وسواء أكان العَودُ بذاته أو بجُزءٍ مِن أجزائه أو بفعْلٍ مِن أفعاله"[3] تَقُولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إذَا عادَ[4]. والمرجِعُ: مَصدَرٌ مِيميٌّ بمعْنَى الرُّجوعِ، وهو العَودُ إلَى الشَّيْءِ، ومعْنَى الرُّجُوعِ إلى الله: الرُّجوعُ إلى وَقْتِ نَفاذِ حُكْمِهِ المُباشِرِ فِيهِم، ويجوزُ أن يكونَ المَرجِعُ كنايةً عنِ الموتِ[5]، والمقصودُ في الآية: معادُكم إلى الله تعالى.

4) ﴿نُذِيقُهُمُ﴾: الذَّوقُ أصلٌ واحدٌ، وهو "اختبارُ الشَّيءِ مِن جِهَةِ تَطعُّم، ثمَّ يُشتقُّ منهُ مجازًا يُقال: ذُقْتُ المأكولَ، أذوقُهُ، ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عند فُلانٍ: إذا اختَبرتَه"[6]، وذَوَّقَهُ الطَّعامَ: جَعَلَهُ يَخْتَبِرُ طَعْمَهُ بِلِسانِه. والذَّوق وجودُ الطَّعم بالفم، واستُعملَ في العذاب بكثرة، قال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدّخان: 49]، واستُعملَ في الرَّحمة أيضًا، قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ [هود: 10]. فإن كان التَّذوّقُ للنِّعْمَة زيادةً في التَّنعُّم، فالتَّذوُّق للعذاب زيادةٌ في الألم، وهذا هو المرادُ منَ الآية.

المَعْنى الإجماليُّ:

وجَّه ﷻ الخطابَ إلى نبيِّه ﷺ، فقال: قلْ يا محمَّدُ: إنَّ الذينَ يَختَلِقونَ على الله

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (متع).
(2) الخليل، العين: (متع).
(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحفَّاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رجع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رجع).
(5) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 11/257، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/223.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).

الكَذِبَ لا يَفوزونَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، لهم في الدُّنيا متاعٌ قليلٌ، ثمَّ إلينا مَصيرُهم، ثمَّ نُذيقُهم في النَّارِ العذابَ المُوجِعَ؛ بسبَبِ كُفرِهم باللّه[1].

مَنِ افترَى على اللهِ الكذِبَ، خسِرَ الدُّنيا والآخرةَ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ أسلوبِ الاستئنافِ:

تهديدُ المُفترين ببيانِ سوءِ عاقبتِهم، ردْعًا لهم ولغيرِهم

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾، استئنافٌ افتُتِح بأمْرِ النَّبيِّ ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين على سبيل الإنذارِ والتَّهديدِ: إنَّ الذين يفترون على اللّه الكذبَ، بنسبةِ الولدِ إليه، والشَّريكِ له، لا يفلحون ولا يفوزون بمطلوبٍ[2]، وفيه تلوينٌ للخِطاب، وتوجيهٌ له إلى سيِّد المُخاطَبين ﷺ، ليُبَيِّنَ سوءَ مغبَّتِهم ووخامةَ عاقبتِهم، وفي ذلك إنذارُهم عنِ الاستمرارِ على ما هم فيه، ولغيرِهم عنِ الوقوع في مثلِه[3].

سِرُّ الأمْرِ بالفعلِ ﴿قُلۡ﴾:

تنبيهُ السَّامِعين إلى الوعْيِ بما يَرِدُ، بعد الأمرِ بالقَوْلِ

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾، تنبيهٌ للسَّامعين إلى وعْيِ ما يَرِدُ بعد الأمر بالقَوْلِ، بأنَّه أمرٌ مُهِمٌّ، بحيث يُطلبُ تبليغُه، وذلك أنَّ المقول قضيَّةٌ عامَّةٌ، يحصلُ منها وعيدٌ للّذين قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾، على مقالتِهم تلك، وعلى أمثالِها كقولهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ [الأنعام: 139] وقولِهم: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ٩٠﴾ [الإسراء: 90]، وأمثالِ ذلك، فذلك كلُّه افتراءٌ على اللّه؛ لأنَّهم يقولونَه على أنَّه دينٌ، وماهيَّةُ الدِّين أنَّه وَضْعٌ إلهيٌّ، فهو منسوبٌ إليه، ويحصلُ من تلك القضيَّة وعيدٌ لأمثال المشركين من كلِّ مَن يفتري على اللّه ما لم يقُلْه، فالمقولُ لهم ابتداءً

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/230، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/361، والبغويّ، معالم التّنزيل: 2/428، والخازن، لباب التّأويل: 2/454.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/101.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/163، والآلوسي، روح المعاني: 6/147.

همُ المشركون[1]، فلا يختصُّ هذا الوعيدُ بالصُّورة المذكورة، بل كلُّ مَن قال في ذات اللّه تعالى، وفي صفاته قولًا بغير علْمٍ وبغير حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ؛ كان داخلًا في هذا الوعيدِ[2].

دَلالةُ ﴿إِنَّ﴾ بعدَ الأمرِ:

أهمِّيَّةُ تقْوِيةِ المعنى وترسيخِه في ذهن السَّامعِ

بيَّن ربُّنا ﷻ في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أنَّ مَن هذا حالُه في الافتراء واختلاقِ الكذب، فإنَّه لا يُفلحُ البتَّةَ[3]، فأكَّدَ سبحانه عدمَ فلاحِهم بكلمة ﴿إِنَّ﴾[4]؛ تقويةً لهذا المعنى السَّديدِ وترسيخًا للوعيدِ الشَّديدِ.

أثرُ الاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

إيضاحُ حالِ المُفترين ومن شابَهَهُم، وشارَكَهُم في حُكم الوعيدِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ عامٌّ يشملُ مَن نسَبَ إلى اللّه الولدَ، ومن قال في اللّه وفي صفاته قولًا بغير عِلْمٍ، وهو داخلٌ في الوعيد بانتفاءِ الإفلاحِ[5]، فالمرادُ بالموصول ما يَعُمُّ أولئك المخاطَبين وغيرَهم مِمَّن تكون هذه صفتَهم كائنًا مَنْ كانوا[6].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الافتراء):

إيضاحُ أنَّ الافتراء، هو ارتكابُ ما لا يَصْلُحُ قولًا وفِعْلًا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾: الافتراءُ: افتعالٌ مِنَ الفَرْيِ، وهو أقبحُ الكَذِبِ وأعظمُه، ويكونُ في القول والفعل، فيُقَال لِمَن عَمِلَ عملًا، فَبَالَغ فِيهِ إنَّه لَيَفْرِي الفَرْيَ، يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العَجِيبَ[7]، وأصلُ الافتراء مِنَ الفَري، وهو القَطْعُ ولكوْنِ قطْع الشَّيءِ مَفْسدةً له - غالبًا - غلبَ على الإفساد، واستُعمِلَ في القرآن بمعنى الكذبِ والشِّرك والظُّلمِ، فهو ارتكابُ ما لا يصلحُ أن يكونَ قَوْلًا أو فِعْلًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/232.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 134/17.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 134/17.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3612.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/85.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/147.
(7) السِّجِسْتانيُّ، غَرِيبُ القُرْآنِ، ص: 103.

وهو الأليَقُ بوصف المُشْرِكِ، فيقعُ على اختلاقِ الكذِبِ، وارتكابِ الإثم، وهو المُراد هُنا، فالمرادُ معنًى عامٌّ وهو ارتكابُ ما لا يصلحُ[1]، وإنَّما جعلَ اللّه تعالى المشركَ مفتريًا؛ لأنَّه قال زُورًا وإفكًا بِجُحودِهِ وَحدانيَّةَ اللّه، وإقرارِه بأنَّ للّه شَريكًا مِنْ خَلْقِه وصاحبةً أو ولدًا؛ فَقائلُ ذلك مُفترٍ، وكذلك كلُّ كاذب، فهو مُفْتَرٍ في كَذِبِهِ مُختلِقٌ له[2].

بيانُ أنَّ الافتراءَ مع عِظَمِ الجُرمِ فيه، يعظُمُ بحسبِ المُفترَى عليه

دَلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّـهِ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: قُدّمت كلمة ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، على كلمة ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ لبيان شناعةِ الافتراء، وأنّه على ربّ الوجودِ ومُنشئِه وبارئِه[3]؛ فالافتراءُ يكبرُ ويعظُمُ بحسبِ المُفترَى عليه، وهؤلاء افتَرَوا على خالق الوجودِ، وهو اللّه ﷻ[4]؛ فافتِراؤهم أعظمُ افتراءٍ، واجتراؤهم أعظمُ اجتراءٍ.

تأكيدُ عِظَمِ فِريتِهم باختلاقِهم الكذب قولًا وعملًا

نُكتةُ اجتماعِ الافتراءِ والكذبِ:

قوله تعالى: ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: الافتراءُ كَذِبٌ واختِلَاقٌ، يُقال: فَرى فلانٌ الكَذِبَ يفْرِيه، إذا اخْتَلقه، وافترى فلانٌ على فلان: إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قَذَفَ أبوَيْه، وأصْلُ الفَرْي: قَطْعُ الشَّيْءِ؛ و(الافتراء) الاختلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِنَ الكَذِبِ، وكذلك استُعمِلَ في القُرآن في الكذِب والشِّرك والظُّلْم[5]، والافتراء كما يُطلقُ على القول يُطلقُ على الفعل[6]؛ فذِكْرُ الكذبِ مع الافتراء للتَّأكيد[7]، وللدَّلالة على قُبحِ فعلِهم، وعاقبتِهم السيِّئة.

(1) الآلوسي، روحُ المعاني: 53/5.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 451/8.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3611.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3611.
(5) الأزهريُّ، تهذيبُ اللُّغةِ: (ر ف ا)، والرّاغب، المُفرداتُ: (فرى)، وابنُ قُتيبة الدّينوريُّ، غريبُ القُرآنِ، ص: 31، 128، 280، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 154.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 7/192.
(7) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/261.

سِرُّ التَّعبِير بالمضارع:

التَّـدليـلُ على عـدمِ فـلاحِ المُفترين حالًا ومآلًا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾: التَّعبيرُ بالمضارع في كلمة ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ يدلُّ على الاستمرار؛ فَمِن شأنِ الكاذبِ على الله تعالى ألَّا يُفۡلِحَ[1]؛ حالًا ومآلًا، فهم " لا يفوزون بما يُؤمِّلون مِنَ النَّجاة مِن عذاب الآخرة، والتَّمتُّع بنعيمها، بشفاعة الولدِ أوِ الشُّركاءِ الذين اتَّخذوهم له تعالى، أو فِدَائِهم لهم مِن عذاب النّار"[2].

سِرُّ إيثارِ لفظِ: ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾:

وَعيدُ المُفترين بعدمِ النَّجاة مِنَ المكاره، وعدَمِ الفوزِ بالمَطالبِ

﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾: الفلاحُ: حصولُ ما قصدَهُ العاملُ مِن عملِه بدونِ انتقاضٍ ولا عاقبةِ سوءٍ، فنفْيُ الفلاحِ هنا نفيٌ لحصولِ مَقصودِهم مِنَ تَكذيبِ محمَّدٍ ﷺ[3]؛ وفي نفْيِ الفلاحِ عنهم توعُّدٌ لهم، بأنَّهم لا يَظفرون بِبُغيَةٍ ولا يَبقون في نعمةٍ[4]، ولا ينجون مِن مكروهٍ، ولا يفوزون بمطلوب أصلًا، ويندرجُ في ذلك عدمُ النَّجاة مِنَ النَّار، وعدمُ الفوز بالجنَّة، لذا اقتصرَ عليه في مقامِ المبالغةِ في الزَّجرِ عنِ الافتراء عليه سُبحانه[5].

دَلالةُ الاستئنافِ البيانِّي:

متاعُ الدُّنيا إلى زوالٍ، ومتاعُ الآخرةِ ضمانٌ لحُسْنِ المآلِ

في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ القضاءَ عليه بعدمِ الفلاحِ يتوجَّهُ عليه أن نقول: نحن نراهُم في عزَّة وقُدرةٍ على أذى المسلمين، وصدِّ النَّاسِ عنِ اتِّباعِ الرَّسول ﷺ! فهو جوابٌ على تقدير سؤالٍ، مُفاده أنَّ قائلًا قال: (كيف لا يفلحون وهم في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3611.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 373/11.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/233.
(4) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/131.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/147.

الدُّنيا مُفلحون بأنواعِ ما يتلذَّذون به؟! فيُجابُ السَّائلُ بأنَّ ذلك متاعٌ في الدُّنيا لا يُعبأُ به، أو لهم متاعٌ في الدُّنيا زائلٌ لا بقاءَ له، ثمَّ يَلقَون الشَّقاءَ المؤبَّدَ في الآخرة، وإنَّما عدمُ الفلاح مَظهرُه الآخرةُ[1].

نُكتةُ بيانِ المحذوفِ في: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾، وأثرُه في المعنى:

اعتبارُ افترائِهم مِن جُملةِ مَتاعِهم

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: متاعٌ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو، أو ذلك متاعٌ أو يكونُ ﴿مَتَٰعٞ﴾ مبتدأً خبرُه محذوفٌ أي: لهم تمتُّعٌ في الدُّنيا، وساغَ الابتداءُ به لوصفِه[2]. وما ذُكِرَ مِن كوْنِ ﴿مَتَٰعٞ﴾ خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ هو الذي ذهب إليه غيرُ واحدٍ مِنَ المُعْربين، غير أنَّهم قدَّروا المبتدأ (حياتُهم أو تقلُّبُهم أوِ افتراؤهم)، واعتُرِض على تقدير الأخير (افتراؤهم) بأنَّ المتاعَ إنَّما يُطلقُ على ما يكونُ مَطبوعًا عند النَّفس، مرغوبًا فيه في نفسه، يُتَمتَّعُ به ويُنتفعُ، وإنَّما عُدمَ الاعتدادُ به لسرعة زوالِه، ونفسُ الافتراء عليه سُبحانه أقبحُ القبائح عند النَّفس، فضلًا عن أن يكون مطبوعًا عندَها، وأُجيبَ بأنَّ إطلاقَ المتاعِ على ذلك باعتبار أنَّه مطبوعٌ عند نفوسِهمُ الخبيثةِ، وفيه انتفاعٌ لهم به، حَسبَما يرونَه انتفاعًا، وإن كان من أقبح القبائح، وكانَ غيرَ مُنتفعٍ به في الأمر نفسِه، أي: افتراؤهم متاعٌ في الدُّنيا يقيمون به رئاستَهم في الكفر أو حياتِهم، ولا يخفى أنَّ الوجه الأوَّلَ مع هذا أوجَهُ[3].

دَلالةُ التَّنكير في: ﴿مَتَٰعٞ﴾:

كونُ المتاعِ زائلًا، يَقْتضي التَّحقيرَ والتَّصغيرَ والتَّهوينَ

التَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: للتَّحقيرِ والتَّقليلِ[4]، أي: ما يقعُ لهم في هذه الدُّنيا مِن زُخرفِها ومتاعِها، هو متاعٌ قليلٌ،

(1) أبو حيّان: 85/6، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 233/11.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/119، ومحيي الدِّين درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/275.
(3) البروسويّ، روح البيان: 4/64.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 6/147.

وظِلٌّ زائلٌ[1]، فهؤلاء لهم متاعٌ في الدُّنيا حقيرٌ يتلهَّون به في حياة قصيرةٍ، هي الحياةُ الدُّنيا؛ إذ مهما يبلغُ هذا المتاعُ مِنَ العظَمةِ ككثرة مالٍ أو عِظَمِ جاهٍ، فهو قليلٌ بالنِّسبة إلى ما عند اللّه في الآخرة للصَّادقين المُتَّقين[2].

دَلالةُ تقْييدِ المتاعِ: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾:

مـتـاعُ الـدّنـيـا يحملُ أوصافَها، زَوالًا وتـقـلُّـبًـا ودناءةً

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾: المتاعُ: المنفعةُ القليلةُ في الدُّنيا، إذ يُقيمون بكذبِهم سيادتَهم وعزَّتَهم بين قومهم ثمَّ يزولُ ذلك، وكلمةُ ﴿مَتَٰعٞ﴾ مُؤذِنةٌ بأنَّه غيرُ دائم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤﴾ [الأعراف: 24]، وتنكيرُه مُؤْذِنٌ بتقليلِه، وتقييدُه بأنَّه في الدُّنيا مُؤكِّدٌ للزَّوالِ وللتَّقليلِ[3]. وفي هذا دلالةٌ واضحةٌ على الخسارةِ المُحقَّقةِ للكافرين، فإنَّ ما يتوهَّمون أنَّه نجاحٌ في الدُّنيا بالحصولِ على المنافع المادّيَّةِ والمعنويَّةِ، لا قيمةَ له أصلًا في مقابَلةِ ما فاتَهُم في الآخرة، مِن ثواب عظيم، ونعيمٍ مُقيمٍ في جِنان الخُلدِ، فإنَّ الدُّنيا لا تُساوي عند اللّه جناحَ بعوضةٍ[4].

دَلالةُ ﴿ثُمَّ﴾:

مـرجـعُ الـبـشـرِ إلى الله، حيث تتلاشى الآمالُ، وتبقَى الأعمالُ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي الرُّتَبيّ؛ لأنَّ مضمونَه محقّقٌ أنَّهم لا يفلحون، فهو أهمُّ مرتبةٍ من مضمون لا يفلحون[5]؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ في موضعها مِنَ التَّرتيب والتَّراخي، والتَّراخي زمنيٌّ ومعنويٌّ، أمَّا الزَّمنيُّ فخلافُ الرُّجوع إلى اللّه بعد البعثِ والنُّشورِ وقيامِ السَّاعة، وأمَّا المعنويُّ فما بين مُتعةِ الدُّنيا الفانيةِ، وعذابِ الآخرة الباقي[6].

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1047.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/136.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/11.
(4) الزّحيليّ، التَّفسير المنير: 11/222.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 233/11.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3612.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور: ﴿إِلَيۡنَا﴾:

الوعيدُ بانتفاءِ الخلاصِ، يُؤكِّدُ للمُفترين أنْ لا مناصَ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ فيه تقديمُ كلمةِ ﴿إِلَيۡنَا﴾، على (مرجع)، وفي ذلك معنى الاختصاصِ، ووراءَه الإنذارُ الشّديدُ، أي: إلينا وحدَنا لا إلى غيرنا رجوعُكم، وقدِ افتريتُمُ الكذبَ، وعبدتُمَ غيرَ اللّه، فلا بدَّ أن تنالوا الجزاءَ الوفاقَ على ما قدّمتُمَ مِن قولٍ باطلٍ، وعقيدةٍ فاسدةٍ، وشِركٍ بيِّنٍ[1]، فنحاسبُهم حسابًا عَسيرًا على أقوالِهم الذَّميمة، وأفعالِهم القبيحةِ[2]، فهو توعُّدٌ بِحَقٍّ[3]، فتقديمُ ﴿إِلَيۡنَا﴾ على مُتعلَّقه، وهو المرجعُ للاهتمام بالتَّذكير به واستحضارِه، ويجوزُ أن يكونَ المرجعُ كنايةً عنِ الموت[4]، فأشيرَ إلى انتفاء النّجاة عنِ المكروه أيضًا بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾[5].

دَلالةُ تَكرارِ حرف العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

مـهـمـا طـالَ العُـمرُ وطـابَ، فإلى الله المآبُ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾: الحرفُ ﴿ثُمَّ﴾ هذا مؤكِّدٌ لنظيره الذي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، على أنَّ المرادَ بالمرجعِ الحصولُ في نفاذ حُكْمِ اللّه، ثمَّ يُرجعون إلى ربِّهم بالبعث بعد الموت، وما فيه مِنَ أهوال الحشْرِ والحسابِ، فيُذيقُهمُ العذابَ الشَّديدَ، بسببِ كُفرهم بآياتِه، والافتراءِ عليه، وتكذيبِ رُسله بعد أن قامت عليهمُ الحُجَّةُ[6].

دَلالةُ الاستعارةِ المَكنيَّةِ التَّبعيَّةِ:

إضافةُ العذابِ النّفسيِّ إلى العذابِ الحِسّي، عذابٌ فوقَ العذابِ

قولُه تعالى: ﴿نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾: استُعْمِلَ التَّجوُّزُ هنا بلفظِ ﴿نُذِيقُهُمُ﴾ عنِ الابتلاء، وملابسةِ العذاب الشَّديدِ، إذ إنَّ الأصلَ في الإذاقةِ أن تكونَ بالفم عن طريق اللِّسانِ، فعبَّرَ عنه بطريق

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3612.

(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/101.

(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/131.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/233.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/147.

(6) المراغي، تفسير المراغي: 11/136.

الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّبعيَّةِ، حيث شبَّه تعذيبَ هؤلاء بالإذاقة، وحذفَ آلة الذَّوقِ وذكرَ صفةً مِن صفاته؛ وإذاقةُ العذاب إيصالُه إلى الإحساس، فأطلقَ عليه الإذاقةَ لتشبيهِه بإحساسِ الذَّوقِ في التَّمكُّن مِن أقوى أعضاءِ الجسم حاسّيَّةً، وهو اللِّسانُ[1]، فبُنِيت هذه الاستعارةُ على تشبيه المحسوسِ حسًّا بالمُدرَك معنًى، وصَوَّرت هذه الاستعارةُ ما يُصيب مشاعرَهم وأحاسيسَهم، يشعرون به، وكلَّما نضجت جلودُهم بدَّلهمُ اللّه تعالى جلودًا غيرَها[2].

دَلالةُ التَّرقّي في التَّرتيبِ الزَّمنيّ: (المتاعِ، المرجعِ، الجزاءِ):

سَوقُ الكلامِ في غايةِ الجَزالةِ، مُفْضٍ إلى مقصدِ الدِّلالةِ

قوله تعالى: ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾: جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ واصفةً أحوالَ المُفترين، في تمتُّعِهم القليلِ في حياتِهم الدُّنيا، ثُمَّ موتِهم ثُمَّ محاسبتِهم، وجاءت هذه العبارةُ على سبيل التَّرقّي والتَّرتيب الزَّمنيِّ، فإنَّ ذلك المقصودَ الخسيسَ متاعٌ قليلٌ في الدُّنيا، ثمَّ لا بُدَّ مِنَ الموت، وعند الموت لا بُدَّ مِنَ الرُّجوع إلى اللّه، وعند هذا الرُّجوع، لا بدَّ من أن يذيقَه العذابَ الشَّديدَ، بسبب ذلك الكُفرِ المُتقدِّم، وهذا كلامٌ في غاية الانتظام، ونهايةِ الحُسنِ والجَزالةِ[3].

نُكتةُ تجاوُرِ الفعلين الماضي والمضارع:

الكُفرُ المستمرُّ، مُوجبٌ للعذابِ الدَّائمِ المستمرِّ

﴿كَانُواْ﴾، و﴿يَكۡفُرُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ يُؤذِنُ بِتَكَرُّرِ ذلك منهم وتجدُّده بأنواع الكفرِ[4]؛ فيَبقون في الشَّقاء المؤبَّدِ بسببِ كُفرِهم المُستمرِّ في الدُّنيا[5]، حيث يدلُّ الفعلُ الماضي والمضارعُ هنا على الاستمرار على كُفرِهم يجدّدونَه آنًا بعد آنٍ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/234.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3612.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/282.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 234/11.
(5) البروسويّ، روح البيان: 4/64.
(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3613.

المُتشابهُ اللَّفظيُّ:

توصيفٌ لمتاعِ الدّنيا القليلِ، وأنّ إلى ربِّنا في الآخرةِ المُنتهَى

ملاحظةُ التَّشابهِ بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النّحل: 117]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾، ففي سورة النَّحل، ذكرَ اللّه ﷻ أنَّ الذين يفترون عليه الكذبَ - أي يختلقونه عليه - كدعواهُم أنَّه حرَّم هذا، وهو لم يحرِّمْه، ونسبتِهم الشّريكَ والولدَ إليه تعالى - لا يفلحون؛ لأنَّهم في الدُّنيا لا يَنالون إلَّا متاعًا قليلًا لا أهميَّةَ له، وفي الآخرة يُعذَّبون العذابَ العظيمَ الشَّديدَ المؤلمَ؛ وأوضحَ هذا المعنى في آية يونس، فقولُه: متاع قليلٌ، بيَّن اللّه تعالى مَحَلَّه في سورة يونس، بأنّه كائنٌ في الدُّنيا، أي: متاعُهم في الدُّنيا متاعٌ قليلٌ(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراءُ والكذبُ:

الافتراءُ أخصُّ منَ الكذِبِ؛ وهو أقبحُ الكذبِ وأعْظَمُهُ

فالكذبُ عَدَمُ مُطابقةِ الخبرِ للواقعِ(2)، والافتراءُ: افتعالٌ مِنَ الفَرْيِ، وهو أقبحُ الكَذِبِ وأعظمُه، ويكونُ في القولِ والفعلِ فيُقَال لِمَن عَمِلَ عملًا فَبَالغ فِيهِ إنَّه لَيَفْري الفَرْيَ، يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العَجيبَ(3)، قَال جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ [المُمْتَحِنَة: 13] وقولُه: ﴿قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧﴾ [مريم: 27] قيل: معناه عظيمًا وقيل عجيبًا، ووقعَ الافتراءُ في القرآن والمُرادُ به الكذبُ نحوَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ [المائدة: 103]، والشِّرْكُ نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: 48]، والشَّيءُ العَظيمُ، كُلُّ ذلك بِحَسَبِ المقاماتِ الواردةِ في الكتاب(4).

(1) محمّد الأمين الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/463.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 449.
(3) السّجستانيُّ، غريبُ القرآن، ص: 103.
(4) الرّاغب، المُفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ، والزّبيدي، تاج العروس: (فرى).

فالافتراءُ: أخصُّ منَ الكذب مِن باب الأقوال؛ لأنَّ الافتراءَ كذبٌ في حقِّ الآخَر بما لا يَرْتَضيه، بخلافِ الكذبِ فإنَّه قد يكونُ في حقِّ المتكلِّم نَفْسِه، ولذا يُقَالُ لمن قال: فَعَلْتُ كذا ولم أفعل كذا، مع عدم صدْقِه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقالُ: هو مُفْتَرٍ، وكذا مَن مَدَحَ أحَدًا بما ليس فيه، يقال: إنَّهُ كاذبٌ في وصْفِه، ولا يُقال: هو مفترٍ؛ لأنَّ في ذلك ممَّا يرتضيه المقولُ فيه غالبًا. وقد ذكرَ اللّه قولَ الكفَّارِ: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 93]؛ لِزَعْمِهِمْ أنَّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّه سُبحانَه مع نِسْبَتِه إليه[1]، ولذا يُطلِقُ الفُقهاءُ الفرية والافتراءَ على القَذْفِ، وهو رَمْيُ المُحْصَنِ بالزِّنى مِن غير دليلٍ، ومنه قيل: افترى فُلانٌ على فلان، إذا قَذَفَهُ بما ليس فيه، أو قذفَ أبوَيْه[2].

المتاعُ والمنفعةُ:

المتاعُ كلُّ ما يُنتفَع ويُتبلَّغُ به، والمَنْفعة ما يُستَعانُ به في الوُصولِ إِلَى الخَيْرِ

المتاعُ ما يُتمتَّعُ به، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: 20]، ومتَّعه: مِنَ المتاع، قال اللّه تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا﴾ [لقمان: 24]، ومتَّعَ المطلَّقةَ: أعطاها شيئًا تتمتَّعُ به، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236][3]، والمَنْفعة تَكونُ حَسَنَةً، وهي ما يُسْتَعانُ به في الوُصولِ إِلَى الخَيْرِ، وتكونُ قبيحةً، أمَّا النِّعمةُ فهي ما قُصِدَ به الإِحْسَانُ ولا تكونُ إلَّا حَسَنَةً[4]. أمَّا المتاعُ فيدلُّ على منفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ وقوَّةٍ وكمالِ حالٍ[5]. والمُتُوعُ: الامتدادُ والارتفاعُ، يقال: مَتَعَ النَّهارُ، ومَتَعَ النَّباتُ: إذا ارتفعَ في أوَّلِ النَّبات، فالمَتاعُ: انتفاعٌ مُمتدُّ الوقت؛ يقال: مَتَّعَهُ اللّه بكذا، وأمْتَعَه، وتَمَتَّعَ به، قال تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 450.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن قتيبة الدّينوريّ، غريب القرآن، ص: 31.

(3) الحميريّ، شمس العلوم: 6215/9.

(4) العسكريّ، الفروق اللُّغَويّة، ص: 196، والزّبيدي، تاج العروس: (نفع).

(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (متع)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (متع).

﴿٩٨﴾ [يونس: 98] ومُتْعَةُ الحَجِّ: ضمُّ العمرةِ إليه، نحوَ قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196][1]، والمتاعُ في الأصل: كلُّ شَيْءٍ يُنتفَعُ به ويُتبلَّغُ به ويُتزوَّدُ[2]، والأمتعةُ في قول الله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾ [النساء: 102] هي ما بها البلاغُ في الأسفارِ[3].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ممتع).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (متع).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 162/9.

﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: 71]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ الرّدودِ القاطِعةِ على المُفترينَ تُروَى قصّةُ نوحٍ أوّلِ المُرسَلينَ

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا ذَكَرَ "الدّلائلَ على وحدانيّتِهِ، وذكرَ ما جرى بينَ الرّسولِ وبين الكفّارِ، ذَكَر قَصَصًا مِن قَصَصِ الأنبياءِ، وما جَرى لهم مع قومِهِم مِنَ الخِلافِ؛ وذلك تسلية للرّسولِ ﷺ، ولِيَتأسَّى بمَن قبلَهُ منَ الأنبياءِ، فَيَخِفَّ عليهِ مَا يَلقَى منهُم مِنَ التّكذيبِ وقلّةِ الأتْباعِ، ولِيَعلَمَ المَتلُوُّ عليهم هذا القَصَصُ عاقبةَ مَن كَذَّبَ الأنبياءَ"[1]. "ويبدأُ تعالى بقصّةِ نوحٍ عليه السلام فيقول تعالى: أخبرْ يا مُحمّدُ كفّارَ مكّةَ الّذينَ يُكذِّبونَكَ، خبرَ نوحٍ مع قومِهِ الّذين كذّبُوهُ، كيفَ أهلكَهُمُ اللّه، ودمّرَهُم بالغرقِ أجمعين، ولِيحذرْ هؤلاء أن يصيبَهُم مِنَ البلاءِ والهلاكِ والدّمارِ ما أصابَ أولئكَ"[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱتۡلُ﴾: (تلو) أصلٌ يدلُّ على الاتِّبَاعِ. يُقالُ: تَلَوْتُهُ إذا تَبِعتَهُ، وتقولُ: توالَت عليَّ الأوالي، ولِلتّوالي عليّ تَوَالي. وهو تِلوُ فلانٍ؛ أي: تاليه. وفلانٌ يُصلِّي ويُتَلِّي، إذا أتبَعَ المكتوبةَ النّافِلَةَ. قالَ البَعِيثُ:

عَلَى مَتن عَادِيٍّ كأنَّ أرُومَهُ *** رجالٌ يُتَلُّونَ الصَّلاةَ خُشُوعُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/86، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/282، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/161 - 162.

(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1436.

أي: يُتبِعونَ الصّلاةَ الصّلاةَ لا يَفْتُرونَ[1]، ومنهُ: تلاوةُ القرآنِ؛ لأنّه يُتبِعُ آيةً بعدَ آيةٍ[2]. وتَلا يَتلُو تِلاوَةً؛ يَعني: قرأ قِرَاءَةً، وقَولُهُ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]؛ مَعناهُ: يَتَّبعونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِه، وَيَعمَلُونَ بِه حَقَّ عَمَلِه[3]، وقَولُهُ ﷻ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ [البقرة: 102]؛ "قالَ عَطاءٌ: على مَا تُحَدِّثُ وتَقُصُّ، وَقِيلَ: مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ؛ كَقَولِكَ: فُلَانٌ يَتلُو كِتَابَ اللّه؛ أي: يَقرَؤُهُ ويَتَكَلَّمُ بِهِ"[4].

2) ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾: كَبُرَ عليه الأمرُ، ككَرُمَ: شقَّ واشتدَّ وثَقُلَ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، وقولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ [الإسراء: 51][5]، و(كَبَرَ) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ[6]، والكَبِيرُ والصّغيرُ يُستعمَلان في الكَمّيَّةِ المُتّصِلَةِ كالأجسامِ، وفي الكَمّيَّةِ المُنفَصلةِ كالعددِ، وأصلُ ذلكَ أن يُستعمَلَ في الأعيانِ، ثمّ استُعيرَ لِلمعاني، وتُستعمَلُ الكبيرةُ فيما يَشُقُّ ويَصعُبُ، نحو: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: 45]، وقالَ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ﴾ [الشّورى: 13]؛ ففيه تنبيهٌ على عِظَمِ ذلك[7].

3) ﴿مَّقَامِي﴾: وهو مِنَ (المقام)؛ بمعنى: الإقامة، "فقد يكونُ بمعنى مَوضِعِ القيامِ؛ لأنَّك إذا جعلتَهُ مِن (قامَ يقومُ) فمفتوحٌ، وإنْ جعلتَهُ مِن (أقامَ يُقيمُ) فمضمومٌ. وقولُهُ تعالى: ﴿لَا مَقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: 13]؛ أي: لا مَوضِعَ لَكُم، وقُرِئَ: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب: 13] بالضّمِّ؛ أي: لا إقامةَ لَكُم، وقولُهُ تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: 76]؛ أي: مَوضِعًا"[8]، وفي المثل: (لكلِّ مَقامٍ مَقالٌ)، يقولُ الحطيئةُ:

تَحَنَّنْ عَليَّ هَدَاكَ المَلِيكُ *** فَإنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالَا[9]

والمَقامُ يكونُ مَصدرًا، واسمَ مكانِ القيامِ وزمانِهِ، نحو: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (تلو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(3) الخليل، العين: (تلو).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (تلا).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (كبر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(7) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(8) الرّازي، مختار الصّحاح: (قوم).
(9) أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/104.

مَّقَامِي﴾، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14]، ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ﴾ [البقرة: 125][1].

4) ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾: الذِّكرُ تارةً يُقالُ ويُرادُ به: هَيئة للنَّفسِ بها يُمكِنُ للإنسانِ أن يَحفَظَ ما يَقتَنيهِ منَ المَعرفةِ، وهُو كالحِفظِ؛ إلّا أنّ الحِفظَ يُقالُ اعتبارًا بإحرَازِه، والذِّكْرُ يُقالُ اعتبارًا باستحضَارِه، وتارةً يُقالُ لِحضورِ الشّيءِ القَلبَ أو القَولَ، ولذلكَ قِيلَ: الذّكرُ ذِكران: ذِكرٌ بالقلبِ، وذِكرٌ باللّسانِ، قالَ تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ﴾ [إبراهيم: 5][2]. والتّذكيرُ يصلحُ لِما هو ضدُّ النّسيانِ، ولمعنى الوعظِ؛ لأنّهُ إذا تذكَّرَ قد يُزْدَجَرُ[3].

5) ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾: الإجماعُ: الإعدادُ والعزيمةُ على الأمرِ، والإحكامُ، تقولُ: أجمعتُ الخُرُوجَ وأجمعتُ على الخُرُوجِ، وإحكامُ النّيّةِ والعَزيمةِ، أجمَعتُ الرّأيَ وعزَمتُ عليه بمعنًى، وأجمَعَ أمرَهُ؛ أي: جعلَهُ جَميعًا بعدَ ما كانَ مُتفرِّقًا[4]، والجَمعُ: ضمُّ الشّيءِ بتقريبِ بعضِهِ من بعضٍ، وأجمَعتُ كذا أكثرُ مَا يُقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتَوَصَّلُ إليه بالفكرَةِ، نحو: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ [طه: 64][5].

6) ﴿غُمَّةٗ﴾: (غَمَّ) أصلٌ يَدُلُّ على تَغطِيَةٍ وإطبَاقٍ؛ تَقولُ: غَممتُ الشَّيءَ أغُمُّهُ؛ أي: غَطَّيتُه، وغَمَّهُ الأمرُ يَغُمُّهُ غَمًّا، وَهُوَ شَيءٌ يَغشَى القَلبَ[6]. والغَمُّ: سَتْرُ الشَّيءِ، ومنه: الغَمَامُ؛ لكونهِ ساترًا لضَوءِ الشّمسِ. وغُمَّةُ الأمرِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾؛ أي: كُرْبةً، يُقالُ: غَمٌّ وغُمَّةٌ؛ أي: كَربٌ وكُربَةٌ[7]، ومجازُها: ظُلْمَةٌ وضيقٌ وهَمٌّ، وقيل: أي: مُغَطًّى مَستُورًا[8] مُبهمًا، مِن قولِهِمُ: غُمّ عَلَينا الهِلَالُ؛ فَهُوَ مَغمُومٌ: إذا التَبَسَ[9]، قالَ الشّاعرُ طَرَفة بن العَبد:

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(2) الرّاغب، المفردات: (ذكر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ذكر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (جمع).
(5) الرّاغب، المفردات: (جمع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غمم).
(7) الرّاغب، المفردات: (غمم).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (غمم).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غمم).

لَعَمرُكَ ما أمري عَلَيَّ بِغُمَّةٍ *** نَهاري ولَا لَيلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ[1]

وقِيل: "أمرٌ غمّةٌ؛ أي: مُبهَمٌ مُلتبسٌ. قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، قال أبو عبيد: مجازُها؛ ظلمةٌ وضيقٌ وهَمٌّ"[2].

7) ﴿ٱقْضُوٓاْ﴾: القَضَاءُ في اللّغةِ على وجوهٍ، مرجعُها إلى انقطاعِ الشّيءِ وتمامِه. وكلُّ ما أُحكِمَ عملُه أو أُتِمَّ أو خُتِمَ أو أُدِّيَ أداءً أو أُوجِبَ أو أُعلِمَ أو أُنفِذَ أو أُمضِيَ فقد قُضِيَ[3]. وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ ثمّ افعلُوا ما تريدون؛ معناه: ثمّ امضوا إليّ[4]. والقَضَاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كانَ ذلكَ أو فعلًا، وكلُّ واحدٍ منهما على وجهين: إلهيٍّ وبَشَريٍّ؛ فمِنَ القولِ الإلهيِّ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ أي: أمرَ بذلك، ومِنَ الفعلِ البَشَريِّ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: افرَغُوا مِن أمرِكُم[5].

8) ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾: (نظر) أصلٌ يَرجِعُ فُرُوعُهُ إِلَى مَعنًى واحِدٍ، وهو تَأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُهُ، يَقولونَ: نَظَرتُهُ؛ أي: انتَظَرتُهُ. وهو ذَلِكَ القِيَاسُ، كأنَّهُ يَنظُرُ إلى الوَقتِ الَّذي يَأتِي فِيهِ[6]، والنَّظَرُ: الانتِظَارُ، يُقالُ: نَظَرْتُهُ وانتَظَرْتُهُ وأنظرتُهُ؛ أي: أَخَّرتُهُ، قال تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: 122][7]، "وقالَ أبو إسحاق: هذا مثلُ قولِهِ في هود: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: 55]؛ يقول: اجهدوا جهدَكُم في مُكايدتي والتّألُّبِ عليَّ، ولا تُنظِرون؛ أي: ولا تُمهلُوني؛ قالَ: وهذا مِن أقوى آياتِ النُّبوَّةِ أن يقولَ النّبيُّ لِقومِهِ - وهُم مُتعاونونَ عليهِ -: افعلُوا بي ما شئتُم"[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّه تعالى تسليَةً للنّبيِّ ﷺ، بأنّ "ما ينزلُ بكَ مِن قومِكَ، قد نزلَ بمَن سبقَكَ مِنَ الأنبياءِ، واقرأْ أيُّها الرّسولُ على النّاسِ - فيما يُنزلُهُ عليك ربُّكَ مِنَ القرآنِ - قصّة

(1) طَرَفَة بن العَبْد، ديوان طَرَفَة بن العَبد، ص: 29.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (غمم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قضي).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قضى).
(5) الرّاغب، المفردات: (قضى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(7) الرّاغب، المفردات: (نظر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (نظر).

نوحٍ رسول اللّه، لمّا أحسَّ كراهيةَ قومِهِ وعَداءَهُم لرسالتِهِ، فقالَ لَهُم: يا قوم إنْ كانَ وجودي فيكُم لتبليغِ الرّسالةِ، قد أصبحَ شديدًا عليكم، فإنّي مُستمِرٌّ مُثابِرٌ على دعوتي، مُتوكِّلٌ على اللّه في أمري، فاحزمُوا أمرَكُم ومعكم شركاؤكم في التّدبيرِ، ولا يكنْ في عدائِكُم لي أيَّ خفاءٍ، ولا تُمهلوني بما تريدونَ لي مِن سوءٍ، إنْ كنتُم تقدرونَ على إيذائي، فإنّ ربّي يَرعاني"[1]. ومعنى الآية: أنّ نوحًا عليه السلام صرّحَ لقومِهِ، داعيًا لهم منجزاته: إنْ شقَّ عليكم دعائي لَكُم إلى اللّه ومَوعظتي، فاصنعوا بي ما تريدونَ، فإنّي لا أبالي بكم لِتوكُّلي على اللّه، وثقتي به سبحانَهُ[2].

التّسريةُ على النّبيِّ في معاناتِهِ مع المُشركينَ، بما عاناهُ نوحٌ مع الأوّلينَ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الواو) في ﴿وَٱتۡلُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾، ابتدأ بالواو الاستئنافيَّة؛ للانتقالِ مِنَ الاحتجاجِ إلى التّعريضِ، فانتقلَ بالحديثِ مِن "مُقارعةِ المُشركين بالحُجَجِ السّاطعةِ على بُطلانِ دينِهم، وبالدّلائلِ الواضِحةِ على تفنيدِ أكاذيبِهم وتكذيبِهم، وما تخلَّلَ ذلك مِنَ المَوعظةِ والوَعيدِ بالعذابِ العاجلِ والآجِلِ والإرهابِ، إلى التّعريضِ لَهُم بذكرِ ما حلَّ بالأممِ المُماثِلَةِ أحوالُها لأحوالِهم"[3].

الانتقالُ مِنَ الاحتجاجِ إلى التّعريضِ بتصويرِ ما حلَّ بالأممِ السّابقةِ

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَٱتۡلُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعلِ (اتْلُ)؛ للدّلالةِ على أنّ المطلوبَ أن تقرأ هذه القصّةَ كثيرًا؛ أي: "اقرأ قراءةً مُتتابعةً مُستَعلِيَةً"[4]، والأمرُ بالتّلاوةِ جاءَ هنا في غايةِ الحُسنِ؛ إذ إنّ المقصودَ من هذه القصّةِ إبرازُ

ما نزلَ وحيًا مِنَ السّماءِ يقتضي أن يُتلَى بقداسةٍ وتدبُّرٍ

(1) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 298.
(2) ابن جُزَيّ، التّسهيل: 1/360.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/234 - 235.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/162.

أقوالِ نوحٍ عليه السلام الدّالّةِ على غايةِ الإيمانِ واليقينِ؛ تعليمًا لفريقِ المؤمنينَ ذلك، ومُؤانَسةً للنّبيِّ ﷺ، كما أنّ في تلاوةِ هذه القصّةِ إدامةً للتّعريضِ والتّهديدِ للمُشركينَ بحالِ قومِ نوحٍ.

دلالةُ حذفِ الفاعلِ في قولِه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ حُذِفَ فاعلُ الفعلِ (اتْلُ)؛ وإنّما يُحْذفُ فاعل فعلِ الأمرِ؛ اكتفاءً بالعلم به مِن توجيهِ الخطابِ إليه؛ إيجازًا في التّعبيرِ، واقتصادًا في المباني. ومِن أوجهِ حذفِ الفاعلِ أن يُحذَفَ مع فعلِ الأمرِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: 42]، وإذا ذُكِرَ ضميرٌ بارزٌ بعدَ فعلِ أمرٍ فاعلُهُ مُستَترٌ أُعرِبَ الضّميرُ توكيدًا للمَحذوفِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، والمُخاطَبُ هنا مَعلومٌ، وهو صاحبُ الرّسالةِ الخاتمُ، وهو الّذي طُلِبَ منهُ أن يتلوَ نبأ نوحٍ.

الأمرُ بالتِّلاوةِ إشارةٌ إلى صحّةِ ما يُتلَى على أسماعِ النّاسِ

نكتةُ التَّقديمِ في ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ قدَّمَ شبهَ الجملةِ مِنَ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿نَبَأَ﴾، فلم يَقُلْ: (واتْلُ نَبأَ نُوحٍ عليهِمْ)؛ اهتمامًا بالمتلوِّ عليهم؛ إذِ الغايةُ ليسَت أن يَرْويَ قصّةَ نوحٍ، بل أن يَتْلُوَ عليهم ما مِن شأنِه أن يَعِظَهُم، ويُحدِثَ لهم ذِكرًا، وهذا يتحقَّقُ بأيِّ قصّةٍ مِن قَصصِ الأنبياءِ الّذين لم تُصدَّقْ رسالتُهم؛ فلذا كانَ الأهمُّ أن يُقدَّمَ ذكرُ المتلوِّ عليهم تنويهًا بذلك.

تلاوةُ قصّةِ نوحٍ عِظةٌ ظاهِرةٌ، وحِكمٌ باهِرةٌ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ النَّبأِ في: ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ أن يُعَبِّرَ بالنَّبأ دونَ غيرِه كالخبرِ؛ لأنّ النّبأ هو الخبرُ العظيمُ، جليل الشّأنِ، فقولُه تعالى: ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾؛ "أي: خَبَرَهُ العظيمَ؛ مُذَكِّرًا بأوَّلِ كَونِ الفُلكِ، وأنّهُ كانَ إذْ ذاكَ آيةً غريبةً خارقةً لِلعادةِ عَجيبةً،

اعتبارُ صراعِ نوحٍ مع قومِه خبرًا عظيمًا يَستحقُّ أن يُتّعَظَ به

وأنّ قومَ نوحٍ لم ينفعْهُم ذلك، ولا أغْنى عنهُم افتراؤُهم وعِنادُهم مع تَطاولِ الأمَدِ وتَباعُدِ المُدَدِ؛ بل صارَ أمرُهم إلى زَوالٍ، وأخذٍ عنيفٍ ونَكالٍ ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 45]، مع نَجاةِ رسولِهم، وخَيبةِ مَأمولِهم، قد لَبِثَ فيهم ما لم يَلبَثْهُ نبيٌّ في قومِهِ، ولا رسولٌ في أمّتِه"[1].

سرُّ الإضافة في ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾:

ما يُنسَبُ إلى العظيمِ عظيمٌ، والنُّبوَّةُ عَظمَةٌ وسُؤدُدٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ أضافَ النّبأ إلى نوحٍ، وليسَ إلى قومِهِ، فلم يقُلْ: (نبأ قوم نوحٍ)؛ لأنّ شأنَ النّبأ نالَ أهمّيّتَهُ بتعلُّقِهِ بنوحٍ، وما لاقى في سبيلِ دعوتِهِ وصبرِهِ على قومِهِ الزّمن المتطاول، فالخبرُ خبرُهُ والشّأنُ شأنُهُ؛ وذلك تفخيمٌ لِلخبرِ المَتْلُوِّ، بقصدِ مُؤانسةِ النّبيِّ ﷺ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾:

لم تكُنْ لقومِ نوحٍ خاصيّةٌ إلّا تكذيبَ نوحٍ ومُشاكستهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ أضافَ القومَ إلى نوحٍ عليه السلام، فعرَّفَهُم به، ولم يقُلْ: (نبأ قوم نوح)؛ "إذ ليسَ ثمّةَ طريق لِتَعريفِهم غيرُ ذلكَ، إذْ لم يكُنْ لتلكَ الأمّةِ اسمٌ تُعرَفُ به؛ فإنّهم كانُوا أمّةً واحدةً في الأرضِ، فلم يَحصُلْ داعٍ إلى تسميَتِهم باسمِ جَدٍّ أو أرضٍ، إذْ لَم يكُنْ ما يَدعُو إلى تَمييزِهِم، إذ ليسَ ثمّةَ غيرُهُم، ألَا تَرَى إلى حكايةِ اللّه عن هودٍ في قولِهِ لقومِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69]، ولَمّا حَكَى عن صالحٍ إذ قالَ لقومِهِ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]"[2].

دلالةُ قصّةِ نوحٍ، وغرضُ الأمرِ بتلاوتِها عليهم:

قصّةُ نوحٍ تُمثِّلُ العِنادَ وبؤسَه، والتّاريخُ مع قريشٍ يُعيدُ نفسَه

قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ بيانٌ لقصّةِ نوحٍ عليه السلام؛ والغرضُ مِن إيرادِ قصّةِ نوحٍ التّعريضُ بأهلِ مَكّةَ والمُشركينَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/162.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/236.

ففي القصّةِ "توعُّدٌ لِلكُفّارِ بمُحمّدٍ ﷺ، وضربُ مثالٍ لَهُم في أنّهم بحالِ هؤلاء منَ التّكذيبِ، فسيكون حالُهم كحالِهم في التّعذيب"(1)، فالغرضُ التّعريضُ بالمشركينَ، بذكرِ ما حلَّ بالأممِ المُماثلةِ أحوالُها لأحوالِهم؛ استقصاءً لطرائقِ الحجاجِ على أصحابِ اللّجاجِ. وفي القصّةِ - هنا - وجهان منَ الفائدة: "الأوّل: أنّ قومَ نوحٍ عليه السلام لمّا أصَرُّوا على الكُفرِ والجَحدِ، عَجَّلَ اللّه هلاكَهُم بالغرَقِ، فذكرَ اللّه تعالى قصّتَهُم؛ لِتصيرَ تلكَ القصّةُ عِبرَةً لهؤلاءِ الكفّارِ، وداعيةً إلى مُفارَقةِ الجَحدِ بالتّوحيدِ والنُّبوّةِ. والثّاني: أنّ كفّارَ مكّةَ كانوا يَستعجلونَ العذابَ الّذي يذكرُهُ الرّسولُ عليه السلام لَهُم، وكانُوا يقولونَ لهُ كذَبتَ، فإنَّهُ مَا جاءَنا هذا العذابُ، فاللّه تعالى ذكرَ لهم قصّةَ نوحٍ عليه السلام؛ لأنّه عليه السلام كان يُخَوِّفُهم بهذا العذابِ، وكانوا يُكذِّبونَهُ فيه، ثُمّ بالآخرةِ وقَعَ كما أخبَرَ، فَكذا هَاهنا"(2).

دلالةُ تقييدِ النّبأ بالظّرفِ في ﴿إِذۡ قَالَ﴾:

الكفرُ ملّةٌ واحدةٌ، وإن تنوَّعَ العُرْفُ، وتغيّرَ الظّرفُ

في قولِه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾، قيّدَ النّظمُ الكريمُ النّبأَ بزمانِ قولِ نوحٍ عليه السلام: "إيماءً إلى أنّ محاورتَه قومَهُ وإصرارَهُم على الإعراضِ، هو مَحَلُّ العبرةِ؛ لأنّه وَجهُ الشّبَهِ بينَ المُشركينَ وبينَ قومِ نوحٍ عليه السلام في صَمِّ آذانِهم عن دعوةِ رسولِهم، وقولُهُ ذلك لَهم إنّما كانَ بعدَ أن كرَّرَ دُعاءَهُم زَمنًا طَويلًا، فكانَ ذلكَ آخرَ جَدَلٍ بينَهُ وبينَهُم، والنّبيُّ ﷺ قد دعا أهلَ مكّةَ سِنينَ وقتَ نُزُولِ هذه السّورةِ، ثمّ حاورَهُم وجادَلَهُم، ولأنّ ذلك الزّمنَ هو أعظمُ مَوقِفٍ وقفَهُ نوحٌ عليه السلام مع قومِه، وكانَ هوَ المَوقفُ الفاصِلُ الّذي أعقبَهُ العذابُ بالغَرَقِ"(3).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/89، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/235.

دلالةُ ﴿إِذۡ﴾ وإعرابُها:

أهمّيّةُ الظّرفِ مُرتبطةٌ بالمضمونِ الدّعويِّ المُزجَى فيه

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾، عبّرَ النّظمُ الكريمُ بظرفِ الزّمانِ ﴿إِذۡ﴾؛ لبيانِ ما سيتلو عليهم، فهو "اسمٌ للزّمنِ الماضي، وهو هُنا بَدَلُ اشتمالٍ مِن ﴿نَبَأَ﴾، أو مِن ﴿نُوحٍ﴾"[1]، فنَبَأُ نوحٍ المأمور بتلاوتِهِ على المُشركينَ، هو ما قالَهُ نُوحٌ لِقومِه، وما ردُّوا عليهِ بالإعراضِ عنهُ وتكذيبِه؛ فالمحاورةُ بينَهُم جزءٌ مِنَ القصّةِ، وليسَت كلَّ القصّةِ؛ وإنّما أبدلَهُ اهتمامًا بالمحاورةِ، وما قالَهُ النّبيُّ لقومِهِ، وما ردّوا عليه بالتّكذيبِ، وما لاقَوْهُ مِنَ الإغراقِ بعدَ دوامِ الإعراضِ.

دلالةُ الفعلِ ﴿قَالَ﴾:

رسالةُ نوحٍ قولٌ ناصحٌ سديدٌ، وحوارٌ عقديٌّ مديدٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾، افتتحَ النّظمُ الكريمُ قصّةَ نوحٍ عليه السلام بفعلِ القولِ؛ إيماءً إلى أنّ المرادَ مِنَ القصّةِ إبرازُ أقوالِهِ الّتي خاطبَ بها قومَهُ، وهي أقوالٌ جديرةٌ بأن تفردَ لها قصّة؛ لِمَا تضمَّنَتْهُ مِن إعلانِ الافتقارِ إلى اللّه تعالى، والتّوكُّلِ عليه، وإعلانِ انتفاءِ الخوفِ مِن كلِّ أحدٍ إلّا مِنَ اللّه تعالى، وأنّهُ ليس بصددِ مُطالبةٍ بالأجرِ والمالِ، وما لحِقَهُ مِن أغراضِ الدّنيا، ففي ذلك كلّه بيانٌ لغايةِ الرّسالةِ، وتزكيةٌ لدعوةِ الأنبياءِ؛ لتترفَّعَ عن مَثالِبِ الأطماعِ الدُّنيويَّة.

نكتةُ (لام) التّبليغ في ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾:

حين يَبلُغُ المُنذَرين الخبرُ، فقد أُعذِرَ مَن أُنذِرَ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ تعدَّى فعل القولِ باللّامِ الّتي تدلُّ على التّبليغ[2]؛ تأكيدًا لبلوغِ ذلك القولِ إلى المَقولِ لَهُم، وأنّهُ قد قالَهُ لَهم وبلَّغَهُم، ولم يقُلْ: (إذ قالَ يا قوم)؛ لأنّ التّعبيرَ بذلك يحتملُ أنّهُ قالَهُ مِن غيرِ أن يكونَ بلغَهُم، فلمّا قالَ: ﴿إِذۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/235.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

﴿قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ﴾ كانَ قاطعًا بأنّهُ قالَ ذلكَ على وجهِ الإعلانِ، وأنّ كلامَهُ بلَغَ قومَهُ، فهو نصٌّ ببلوغِهِ لَهم، وتصريحٌ بالمواجهةِ معَهُم بذلك الخطابِ.

الغرضُ من النِّداءِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

في النّداءِ تنبيهٌ على أهمِّيَّةِ المَقولِ في تنويرِ العقولِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ افتُتِحَ الخطابُ بالنِّداءِ؛ لِما في النّداءِ مِن تنبيهٍ على أهمّيّةِ المَقولِ؛ "لأنّ النّداءَ طلبُ الإقبالِ، ولمّا كانَ هُنا ليسَ لِطَلَبِ إقبالِ قومِهِ إليهِ؛ لأنّهُ ما ابتدأ خطابَهُم إلّا في مَجمَعِهِم، تَعَيَّنَ أنّ النّداءَ مُستعمَلٌ مَجازًا في طلبِ الإقبالِ المَجازيِّ، وهو تَوجيهُ أذهانِهِم إلى فهمِ ما سَيَقُولُهُ"[1].

دلالةُ التّعبيرِ في ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

اختيارُ الرّسولِ مُبلِّغًا لقومِهِ ضمانٌ للتّفاعلِ الإيجابيِّ معَهُ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾ بيَّنَ النّظمُ الكريمُ أنّ نبيَّهُم عليه السلام أحسنَ خطابَهُم؛ إذ أضافَهُم إلى نفسِهِ، فقالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ "أي: يا مَن يَعِزُّ عَلَيَّ خِلافُهم، ويَشُقُّ عليَّ ما يَسُوؤُهم"[2]. وفيه لطفٌ بهم بخطابِهِم، وعطفٌ لمودَّتِهِم. كما أنّ فيه إشارةً إلى أنّه يمحضُهُم النّصحَ، وأنّه حريصٌ عليهم لأنّهم قومُهُ، وهو لا يَغُشُّهُم، ولم يكُنْ لِيكذبَ عليهم، وقد وَرَدَ عنِ النّبيِّ ﷺ في دعوتِهِ قومَهُ، قولُهُ لَهُم: «إنّ الرّائدَ لا يَكذِبُ أهلَهُ، واللّه لو كَذَبْتُ النّاسَ جميعًا ما كَذَبتُكُم، ولو غرَرْتُ النّاسَ جميعًا ما غرَرْتُكُم، واللّه الّذي لا إله إلّا هو، إنّي لرسولُ اللّه إليكم خاصّةً، وإلى النّاسِ كافّةً»[3].

بلاغةُ حذفِ ياءِ المتكلِّمِ في ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

التّلميحُ إلى هضمِ النّفسِ، وهو لونٌ مِنَ التّواضعِ والتّودُّدِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ مِنَ المَشهورِ في لغةِ العربِ حَذفُ ياءِ المتكلِّمِ، "مِنَ المنادى المُضافِ إليها، على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/236.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/162.
(3) الحلبيّ، السّيرة الحلبيّة: 1/405.

الاستعمالِ المَشهورِ في نداءِ المضافِ إلى ياءِ المُتكلِّم"[1]. ولعلَّ حذفَ ياءِ المتكلِّم في سياقِ النُّصحِ والدّعوة، فيه إشارةٌ إلى هضم النّفسِ، وإلماحٌ لغيابِ الغرضِ النّفسيِّ، كما أنّ فيه إعلاءً للقوم على النّفس. ويؤيّدُ إرادةُ ذلك أنّه أظهرَ الياءَ عندَ إضافةِ المَقام إليه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، فَحَذَفَ مع القومِ، وأثبتَ مع المَقامِ.

سرُّ الخطابِ بلفظِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

العـصـبـيّـةُ للقومِ مُصطلَحٌ قـديـمٌ انـحـرفَ عـن مـفـهـومِـهِ الإيجابيِّ

في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يذكرَ خطابَهُ إيّاهُم بلفظِ القوم دونَ غيره؛ لَمَا في لفظِ القومِ مِن دلالةٍ على الشّدّةِ والبأسِ والقُوّة، وعلى التَّودُّدِ والمُلاطفةِ وخفضِ الجناح؛ لأنّ القومَ في كلِّ الأعرافِ يَنصرونَ مَن ينتمي إليهم، ويُؤيّدونَهُ، وقد شاعَت هذه المناصرةُ غير المشروطة عندَ العربِ في الجاهليّةِ، وكانَ الرّجلُ يَستجيرُ بقومِه فيهبّونَ لِنصرتِه هبّةَ رجلٍ واحدٍ؛ لشيوعِ نزعةِ القوميّةِ لديهم على مفهوم العدلِ والحقِّ، فينصرونَ أخاهُم وإن كانَ ظالمًا، وهو ما عبّرَ عنهُ الشّاعرُ الجاهليُّ مُفتخِرًا بقومِهِ وعصبيّتِهم القبليّة، وهذا مِنَ الصّورِ المُجمَلَةِ الّتي عليها طابعُ الابتكارِ وروعةُ الجمالِ، وهو من بليغِ الاستعارة، حيث قالَ:

قَومٌ إذَا الشَّرُّ أبدَى نَاجِذَيهِ لَهُم *** طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانَا
لَا يَسألُونَ أخَاهُم حِينَ يَندُبُهُم *** في النَّائِبَاتِ عَلَى ما قَالَ بُرهَانَا[2]

وفي قولِه ﴿يَٰقَوۡمِ﴾: "ناداهم نوحٌ عليه السلام بما يقرّبُهُ إليهم، وهو أنّهُم قومُهُ الّذي نشأ بينَهُم، وتربّى فيهم، وكان الأولى بهم أن يَستجيبوا له، بدلَ أن يُناوئوه ويكونوا حَربًا عليه"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/236.
(2) البيتان من قصيدة للشّاعر الجاهليّ قريط بن أنيف العنبريّ، مذكور في حماسة أبي تمام: 1/4، والزّبيديّ، تاج العروس: (زرف)، وذكره ابن قتيبة الدّينوريّ، عيون الأخبار: 1/285، والبغداديّ، خزانة الأدب: 7/441، والبرقوقيّ، الذّخائر والعبقريّات: 2/285.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3615.

على قدرِ العنادِ والمُكابرة، كانَتِ المداراةُ والمُصابَرَة

دلالةُ أسلوبِ الشّرطِ في الآية:

في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾، عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن ثباتِ نوحٍ ﷺ على دعوتِه، وانتفاءِ مُبالاتِه بكفرِ قومِه به بأسلوبِ الشّرطِ، فجعلَ تحمُّلَهُ تبعاتِ دعوتِه وتوحيدِه اللّه تعالى، مُتعلِّقًا بامتعاضِ قومِه من دعوتِه؛ تأكيدًا لمُضيّه في الدّعوة، وبيانًا لقوّةِ ثباتِه، وفيه إعلامٌ لَهُم بأنّهُ لا ينقطعُ عن دعوتِه، مهما لاقى في سبيلِها، فأجرى ذلك مَجرَى العقدِ، فإذا تحقَّقَ ضجرُهُم من مَقامِه وتذكيرِه، فإنّه سيتحقَّقُ على التّأكيدِ صبرُهُ على ما يريدونَ أن يَفعلوا به.

نكتةُ التَّعبيرِ في ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾:

ليسَ في القرآنِ لفظٌ زائدٌ للتّزيين؛ بل لكلِّ لفظٍ مَعنى في سياقِهِ

في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ عَبَّرَ بـ (كان) في فعلِ الشّرطِ؛ للدّلالةِ على الحالةِ الّتي بنى عليها استعدادَهُ لمواجهةِ ما يجمعونَ عليه، فجاءَ اسمُ كان ضمير الشّأنِ، والمعنى: (إنْ كانَ الشّأنُ والحالُ أنّه شُقَّ وثُقِلَ عليكم أمرُ دعوتي فافعلُوا ما شئتُم، فإنّي توكّلْتُ على اللّه تعالى)، ويكونُ خبرُ الفعلِ النّاقصِ هو الجملةَ الفعليّةَ في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾، في محلّ نصبِ خبر كان[1]، ونُجِلُّ أسلوبَ القرآنِ الكريم عنِ ادّعاءِ مجيءِ (كان) زائدًا لمُجرَّدِ التّزيين، فليسَ القولُ: (إنْ كانَ كَبُرَ) بمعنى: (إنْ كبر)، والفرقُ بينَ التّعبيرين؛ أنّ الجملةَ: (إن كَبُرَ) تدلُّ على أنّ فعلَ الشّرطِ هو حدوثُ العِظَمِ والكِبَر، أمّا الجملةُ: (إنْ كانَ كَبُرَ) فإنّ فعلَ الشّرطِ هو حالةٌ تدلُّ على رسوخِ المعنى، وأنّه قد صارَ شأنًا معروفًا وحالةً ظاهرةً، وليسَ مُجرَّدَ حدثٍ، وعليه فإنّ التّعبيرَ بـ (كان) في فعلِ الشّرطِ أبلغُ في الدّلالةِ على مَضمونِ الشّرط.

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/166 - 167.

بلاغةُ المجازِ في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾:

مقامُ النُّبوَّةِ الطّاهرة أسمى مِنَ التّطاولِ والمُكابرة

في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ فقد أسندَ الكِبَرَ إلى المقام، والمقامُ لا يَكْبُرُ، ولكن يَكْبرُ الحالُ فيه، فالمرادُ أنّ نفسَهُ كَبُرَت عليهم، ذَكَرَ كِبرَ المكانِ، وأرادَ كبرَ مَن حلَّ فيه، فالعلاقةُ بينَ المعنيين المكانيّةُ.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ ﴿مَّقَامِي﴾:

مقامُ النُّبوَّةِ مَسنودٌ بالله، ومَن يتوكَّلْ عليه حماه

في قولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ عبّرَ بالمَقام، وأرادَ نفسَهُ ومَكانتَهُ؛ فهو مُستعمَلٌ في الآيةِ في معنى شأنِ المرءِ وحالِه، كما في قولِه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرّحمن: 46]، فهو من قبيلِ الكنايةِ؛ لأنّ مكانَ المرءِ ومَقامَهُ من لوازمِ ذاتِه، وفيهما مظاهرُ أحوالِه[1]، ولكونِه مُؤيَّدًا مِنَ اللّه، فإنّ مَقامَهُ محفوظٌ مِنَ اللّه، وهو مَسنودٌ بلطفِه، مدعومٌ برعايتِه وفضلِه، فلا يخافُ دركًا ولا يَخشَى، "والمَقامُ هو مَقامُ الرّسالةِ الّذي كرّمَهُ اللّه تعالى بِه، وعظم عن أن تُدرِكَ عقولُهم تذكيرَهُ بآياتِ اللّه، فإنّه بهم لَا يبالي، فقد توكَّلَ على اللّه تعالى، ولم يَعُدّ يحزنُه قولهم"[2].

سرُّ العدولِ في ﴿مَّقَامِي﴾:

المَقامُ يَحملُ معنى مَوضِعِ القيامِ وزمانِه، وهو أشملُ دلالةً

ذكرَ أئمّةُ التّفسيرِ أنّ المَقامَ هنا يحتملُ الدّلالةَ على الحقيقةِ، فهو بمعنى القيامِ والوقوفِ؛ " لأنّهم كانوا إذا وعظُوا الجماعةَ قامُوا على أرجلِهم يعظونهم؛ ليكونَ مكانُهم بيّنًا وكلامُهم مَسموعًا"[3]، وإنّما عَدَلَ عنِ المصدرِ (قيام) إلى المصدرِ الميميِّ (مَقام)، وخصَّ ذكرُهُ دونَ القيامِ؛ "لصلاحيّتِه لِمَوضعِ القيامِ وزمانِه، فيكونُ الإخبارُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/237، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3615.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359.

بكراهتِهِ لأجلِ ما وقعَ فيهِ مِنَ القيامِ أدلَّ على كراهةِ القيامِ"[1]، فمَشقَّةُ قيامِهِ عليهم لِما وقعَ في قيامِهِ مِنَ الوعظِ والتّذكيرِ، وليس مُجرَّدَ القيامِ. وقيلَ: المقامُ بالفتحِ المنزلةُ والمكانةُ، قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرّحمن: 46]، والمقامُ بالضّمِّ الإقامةُ والقيامُ على الدّعوةِ خلالَ مُدّةِ اللّبثِ؛ لأنّه مَكَثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلّا خمسينَ عامًا[2].

علّةُ التخصيصِ في ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾:

التّذكيرُ مهمّةُ البلاغِ الأمينِ الّتي تَشقُّ على المشركينَ

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في هذا السّياقِ، ذكرَ بعضَ ما يشقُّ عليهم مِن أحوالِهِ، ومِن أحوالِهِ الّتي تَشقُّ عليهم نبذُهُ آلهتَهم، وتوحيدُه اللّه تعالى وغيرها، وإنّما خصَّ بالذّكرِ منها تذكيرَه إيّاهُم باللّه تعالى وآياتِهِ؛ "لأنّ ذلك مِن أهمِّ شؤونِهِ مع قومِهِ، فَعَطفُهُ مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ، فمعنى: ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي﴾: سَئِمتُم أحوالي مَعَكم، وخاصّةً تذكيري بآياتِ اللّه"[3]، وهذا مصداقٌ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا﴾ [نوح: 5]، وقولِهِ: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: 8 - 9].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾:

التّذكيرُ دعوةٌ وعِظةٌ بآياتِ اللهِ، وحُجَجِهِ، وبراهينِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أضافَ التّذكيرَ إلى ضميرِ المُتكلِّمِ، مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعلِهِ[4]، والمعنى: "وتذكيري إيّاكُم بآياتِهِ الدّالةِ على وحدانيّتِهِ، ووجوبِ عبادتِهِ، فإنّني وقد وكلتُ أمري إلى اللّه الّذي أرسلَني، واعتمدتُ عليه وحدَهُ، بعد أن أدّيتُ رسالتَهُ بقدرِ طاقتي"[5]، فهو تذكيرٌ خاصٌّ بهِ، لهُ شأنٌ مَعروفٌ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/162 - 163.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/276.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/237.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/237.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 11/137.

وهو استمرارُهُ زمانًا طويلًا، وتنوُّعٌ بكيفيّاتٍ عديدةٍ، يوجزُها قولُه جلّ شأنُهُ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: 13 - 20].

دلالةُ التقييد في: ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

التّذكيرُ بالآياتِ يُفضي إلى الإقناعِ واليقينِ، إلّا مَن أبى ذلك

قولُه تعالى: ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فيه قيّدَ النّظمُ الكريمُ تذكيرَ نوحٍ عليه السلام بأنّه مُلابِسٌ لآياتِ اللّه تعالى، ولم يكُنْ تذكيرًا مُطلَقًا؛ فبيّنَ أنّ تذكيرَهُ كان مُقيَّدًا بحُججٍ وبراهينَ جديرةٍ بالبيانِ وإظهارِ الحقِّ؛ لأنّها آياتُ اللّه المبثوثةُ في الكونِ، فتذكيره لهم لم يكنْ مُنقطِعًا عن ما تشاهدُهُ عيونُهم؛ إيماءً إلى جدارتِه بالإقناعِ وإقامةِ البرهانِ.

دلالةُ (الباءِ) على التّعديةِ في ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

مَن تقبّلَ التّذكيرَ بآياتِ اللهِ، لم يخشَ إلّا مِنَ اللهِ

في قولِه تعالى: ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جاءَ المصدرُ ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ عاملًا عَمَلَ فعلِه، وقد أُضيفَ إلى فاعلِه، وأمّا الباءُ في مُتعلِّقِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فهي باءُ التّعديةِ، فتعدَّى التّذكير إلى المفعولِ الثّاني بالباء؛ وذلك "لتأكيدِ تَعدِيَةِ المصدرِ إلى مَفعولِه الثّاني، والمَفعولُ الأوّلُ مَحذوفٌ، والتّقديرُ: تَذكيري إيّاكُم، و﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مَفعولٌ ثانٍ لِلتّذكيرِ، يُقالُ: ذكّرتُهُ أمرًا نَسِيَهُ، فَتَعدِيَتُهُ بالباءِ لتأكيدِ التَّعدِيَةِ"(1).

سرُّ الإضافةِ في ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

ما كانَ مِن وحيِ اللهِ الأثيرِ، كانَ له تأثيرٌ في التّذكيرِ

في قولِه تعالى: ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أضافَ النّظمُ الكريمُ الآياتِ إلى لفظِ الجلالةِ؛ فهي آياتُ اللّه "الّذي له الجلالُ والإكرامُ"(2)، وليسَت آياتٍ مُطلَقةً، بل هي مَنسوبةٌ إلى اللّه تعالى،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/237.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163.

فلذا لم يقُلْ: (وتذكيري بالآياتِ)، وفي ذلك تعظيمٌ لها وتفخيمٌ لشأنِها، وأنّها بمكانٍ بحيث لا يصحُّ أن يتأتَّى منكُم المشقّة مِن سماعِها، والملالة من قائلِها، وأنّها جديرةٌ بأن تُحدِثَ لكم ذكرًا، وتُؤثِّرَ فيكم عِظةً وإيمانًا.

بلاغةُ جوابِ الشّرطِ ﴿فَعَلَى ٱللَّـهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

مَن رعَتْهُ عينُ اللهِ لم يضرَّهُ كيدُ أعداءِ اللهِ

قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ تضمَّنَ أداةَ الشّرطِ وفِعْلَ الشّرطِ، أمّا جوابُ الشّرطِ فقد ذكرَ أئمّةُ التّفسيرِ فيه ثلاثةَ أقوالٍ: الأوّل: قولُهُ: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾؛ لأنّه عبارةٌ عن عدمِ مُبالاتِهِ والتفاتِهِ إلى استثقالِهم، أو هو قائمٌ مَقامَهُ؛ والثّاني: قولُهُ: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟﴾، ويكون قولُهُ: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ اعتراضًا بينَ الشّرطِ وجزائِه؛ والثّالث: أنّ جوابَ الشّرطِ مَحذوفٌ، وتقديرُهُ: فافعلوا[1]، ويكون قولُهُ: ﴿فَعَلَى ٱللَّـهِ تَوَكَّلْتُ﴾ دليلَ الجوابِ؛ لأنّ توكُّلَهُ عليه السلام كائنٌ في كُلِّ وقتٍ، وليسَ مُتعلِّقًا بوقتِ خطابِهِم بما خاطبَهُم بِه، فهو مُتوكِّلٌ على اللّه دائمًا[2]. أمّا مَن ذَهَبَ إلى أنّ الجوابَ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ فبيَّنُوا أنّهُ مُتعلِّقٌ بالشّرطِ "باعتبارِ أنّ ذلك الشّرطَ تضمّنَ أنّ إنكارَهُ عليهم قد بَلَغَ مِن نفوسِهِم ما لا طاقةَ لَهُم بحملِهِ، وأنّهُم مُتَهَيِّئُونَ لِمُدافعتِهِ، فَأنبَأهُم أنّ احتمالَ صُدورِ الدّفاعِ مِنهم، وهُم في كَثرةٍ ومَنَعَةٍ، وهو في قلَّةٍ وضَعفٍ، لا يَصُدُّهُ عنِ استمرارِ الدّعوةِ، وأنّهُ وإنْ كانَ بينَهُم وحيدًا، فَذَلكَ يُوهِنُهُ؛ لأنّهُ مُتوكِّلٌ على اللّه"[3].

الغرضُ مِنَ تقديم ﴿فَعَلَى ٱللَّـهِ تَوَكَّلْتُ﴾:

مَـن يـتـوكَّـلْ علـى اللـهِ فهو حسبُهُ، ويجعل له مِن أمرِهِ يُسرًا

في قولِه تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ قدَّمَ شبهَ الجملةِ على الفعلِ، فلم يقُلْ: (توكَّلتُ على اللّه)؛ حصرًا لكونِ توكُّلِه كائنًا على اللّه

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/87، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/283 - 284.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/238، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

تعالى دونَ غيرِهِ؛ أي: "دمتُ على تخصيصِ التَّوكُّلِ به تعالى، ويجوزُ أن يُرادَ بهِ إحداثُ مَرتبَةٍ مَخصُوصةٍ مِن مَراتبِ التَّوكُّلِ"(1).

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في الآيةِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عبَّرَ النّظمُ الكريمُ عنِ انتفاءِ خوفِهِ بالتَّوكُّلِ، وهو مِن إطلاقِ السَّببِ، وهو هنا التَّوكُّلُ على المُسَبَّبِ، وهو انتفاءُ الخوفِ، وذلك مَجازٌ مُرسَلٌ، وفائدتُهُ إعلامُهُم بعظمةِ اللهِ تعالى، وحَقارتِهِم بأنّ النّبيَّ المُرسَلَ لا يخافُ كيدَهُم ومكرَهُم(2).

مَن كانَت بعظمةِ اللهِ عصمتُهُ فلا يخشى أحدًا مِن خلقِهِ

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في الآيةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يضعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضمَرِ، فلم يقُلْ: (فعليه توكَّلتُ)؛ لأنّ إظهارَ لفظِ الجلالةِ في سياقِ التَّوكُّلِ عليه أبلغُ مِنَ الإضمارِ؛ إشارةً لما للاسمِ الجليلِ مِن عظمةٍ وكمالٍ، وإعلامًا لَهُم بأنّهُ قد توكَّلَ على مَن لا يخيبُ المحتمي بحماه؛ "أي: الّذي لهُ العِزّةُ كُلُّها وحدَهُ"(3).

لفظُ (الله) عَلَمٌ على واجبِ الوجودِ بكلِّ معاني الكمالِ فيه

نكتةُ تقديمِ توكُّلِهِ على اللهِ:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ قدَّمَ ذِكْرَ توكُّلِهِ على اللهِ تعالى، الّذي يعتصمُ به، ويلجأُ إليه، قبلَ أن يدعوهُم إلى لقائِهِ ومُواجهتِهِ بما يجتمعُ عليه رأيُهم فيه؛ لأنّ اللُّجوءَ إلى التَّوكُّلِ قبلَ مُواجهةِ الخصومِ مِن بابِ الأخذِ بالأسبابِ والاستعدادِ لما يأتي، وإنّ على المرءِ أن يلجأَ إلى كنفِ مَولاهُ، قبلَ أن يعرِّضَ نفسَهُ لخطوبِ الزّمانِ.

اللّجوءُ إلى اللهِ، والأخذُ بالأسبابِ، فرضٌ على المؤمنين

دلالةُ العطفِ بالفاءِ في ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ معطوفٌ على قولِهِ

مَن توكَّلَ على اللهِ لا يُعجِزُهُ أن يتحدَّى كلَّ مَن سواهُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163.

جلَّ شأنُه: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، بالفاءِ الدّالّةِ على التّرتيب والتّفريع؛ لترتيبِ الأمرِ بالإجماعِ على التَّوكُّلِ[1]. فالجملةُ المُفَرَّعَةُ لها "حُكمُ جوابِ الشّرطِ؛ لأنّها مُفرَّعَةٌ على جملةِ الجواب، ألَا تَرَى أنّهُ لولا قَصدُهُ المُبادرَةَ بإعلامِهم أنّهُ غيرُ مُكترِثٍ بِمُناوَأتِهم، لكانَ مُقتَضى ظاهرِ الكلامِ أن يقولَ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِى﴾ الآية، فأجمِعُوا أمرَكُم، فإنّي على اللّه توكَّلْتُ"[2].

دلالةُ لفظِ ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ﴾:

قُوّةُ اللهِ لا تُغالَبُ، مهما حَزَمَ المبطلونَ تدبيرَهُمُ اللَّئيمَ

في قولِه تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ عبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن العزمِ والإعدادِ لفعلِ الأمرِ بلفظِ الإجماعِ[3]، وجَمْعُ الأمرِ؛ يعني: جعلَهُ مَجموعًا، بعدَ ما كانَ مُتفرِّقًا، ويعني "العزمَ على الفعلِ بعدَ التَّردُّدِ بينَ فعلِهِ وفعلِ ضِدَّهُ، وهو مَأخُوذٌ مِنَ الجمعِ الّذي هو ضِدُّ التّفريقِ؛ لأنَّ المُتَردِّدَ في ماذا يَعمَلُهُ تكونُ عندَهُ أشياءُ مُتفرِّقَةٌ، فَهو يَتدبَّرُ ويَتأمَّلُ، فَإذا استقرَّ رَأيُهُ على شيءٍ منها، فقد جَمَعَ ما كانَ مُتفرِّقًا"[4].

نكتةُ إيثارِ قولِه: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾:

تعديةُ الفعلِ بنفسِهِ أقوى مِن تعديتِهِ بحرفِ الجرِّ وأفصحُ

قولُه تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ آثرَ فيه النّظمُ الكريمُ تعديةَ الفعلِ بلا حرفٍ على الوجهِ الأفصحِ في العربيّةِ، فأجمَعتُ الأمرَ: أفصحُ مِن أجمعتُ عليهِ[5]، وتسليطُ فعلِ الإجماعِ على الأمرِ بلا حرفٍ؛ يعني: "جعلَهُ مَجمُوعًا بعدَ ما كانَ مُتفرِّقًا، وتَفَرُّقُهُ أنّه يقولُ مَرَّةً: أفعَلُ كذا وأخرى أفعَلُ كذا، وإذا عَزَمَ على أمرٍ واحدٍ فقد جَمَعَهُ؛ أي: جعلَهُ جميعًا"[6]، فمعنى (أَجْمِعُوا الأمر) غير معنى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/238.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/284.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/238، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/87، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/87.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

(أجْمِعُوا عَلَى الأمْرِ)، فالأولى تعني العزمَ بعدَ التَّردُّدِ، والتَّوحُّدَ بعدَ الشّتاتِ، أمّا الثّانيةُ فتعني إجماعَ مجموعةٍ على فعلِ أمرٍ، والمرادُ في الآيةِ أن يُتركوا لِلتَّردُّدِ، ويُباشروهُ بما يريدونَ إضرارَهُ به. فلمّا دلَّ الإجماعُ على العزم "وُصِلَ بـ (على)، فَقِيلَ: أجمعتُ على الأمرِ؛ أي: عزمتُ عليهِ، والأصلُ أجمعتُ الأمرَ"[1].

حرفُ المعنى ذو أثرٍ في سَوْقِ الدّلالةِ وبلورتِها

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ جاءَ لفظُ الشّركاءِ مَنصوبًا، فتكون الواوِ لِلمَعيّةِ، وهي بمعنى (مع)، والمعنى: فأجمعُوا أمرَكُم مع شركائِكُم، ونظيرُهُ قولُهُم: (لو خَلَّيْتَ نفسَكَ والأسدَ لأكَلَكَ)[2]، وفائدةُ واوِ المعيّةِ هنا، أنّها تدلُّ "على أنّه لا يخافُهُم وإن كانُوا شركاءَهُم أحياءً، كَائِنِينَ مَن كانوا، وكانَت كَلِمَتُهم واحدةً لا فُرقةَ فيها بوجهٍ"[3]، "وهناكَ مَن نصبَها بتقديرِ فعلٍ؛ أي: (فأجمعُوا أمرَكُم، واجْمَعُوا شُرَكَاءَكُم)، وقِيلَ: التّقدير: (وَادعُوا شُرَكَاءَكُم)، والنّصبُ على تقديرِ الفعلِ، مثل قولِ الشّاعرِ:

إذَا ما الغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَومًا *** وزَجَّجْنَ الحَوَاجِبَ والعُيُونَا

وتقديرُهُ: وَكَحَّلْنَ العُيُونَ؛ لأنَّ العُيُونَ لَا تُزَجَّجُ". وهناك مَن رفعَها "عطفًا على ضميرِ (فَأجْمِعُوا) المرفوعِ، لوجودِ الفصلِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ، وهو (أمْرَكُمْ)؛ لأنّ الفصلَ يتنزَّلُ مَنزلةَ التّوكيدِ، كقولِهِ تعالى: ﴿مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ [يونس: 28]"[4].

الشّركاءُ وَهْمٌ وظُنُونٌ، يتخيَّلُها الكَفَرَةُ والمُشركُونَ

دلالةُ إضافةِ لفظِ (الشّركاء) إلى الضّميرِ العائدِ في قولِهِ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أضافَ الشُّركاءَ إلى الضّميرِ العائدِ لهم، والمرادُ بهم: "الأندادُ مِن دونِ اللّه، فأضافَهُم

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/87، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/284.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163.
(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/225.

إليهم؛ إذ يَجعلُونَهُم شركاءَ بِزعمِهِم"[1]؛ إيماءً إلى كونِهِم شركاءَ ليسَ على الحقيقةِ، بل باعتبارِ ظنِّهِم ومُعتقدِهِم الضَّالِّ.

أسلوبُ التّهكُّمِ مَسلكٌ في البلاغةِ، يُظهِرُ مَثالِبَ التّصرُّفاتِ النَّزِقةِ

نكتةُ إسنادٍ في ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ عبَّرَ فيه النّظمُ الكريمُ على سبيلِ التَّهكُّمِ بهم، بإجماعِ الشّركاءِ معَهُم[2]، والتّهكُّمُ مَبنيٌّ على مَعنى الشُّركاءِ، فإنْ "كانَ المرادُ بهم مَن على دينِهِم فظاهرٌ، وإن أُريدَ بهم الأصنامُ فتهكُّمٌ بهم"[3]، فالأصنامُ بُنِيَت من حجارةٍ، وقد علموا أنّها بحيث لا يمكنُ أن تجمعَ أمرًا ولا تحرّكَ ساكنًا، وإنّما طلبَ منهُم ذلك تهكُّمًا بهم، وإظهارًا لضلالِهِم، وقِيلَ: إنّ المعنى دعوتُهُم للاجتماعِ على رأيٍ مُوحَّدٍ، يسهرونَ على تنفيذِهِ هُم وشركاؤهم، وقد جاءَ في قالبِ النُّصحِ، رغمَ أنّ بينَهُ وبينَهُم عداوةً، وما كانَ لهُ أن يطلبَ وحدتَهُم بل فرقتَهُم، ولكنّ اعتمادَهُ على اللّه، وثقتَهُ المُطلَقةُ فيه، جعلَتهُ يُوقِنُ برسوخِ أنّه لا يسلمه، ولا يتخلَّى عنه؛ فلذلك طلبَ مِنهُم ذلك، على اعتبارِ أنّه منهم بمنجًى، وعنهم بمنأًى، ولن يمكّنَهُم اللّه أبدًا، مِنَ الانتصارِ على دعوةِ الحقِّ المُبينِ، وسوف يُهلِكونَ أنفسَهُم في مُواجهةِ الرّسالةِ وصاحبِها المعصومِ مِنَ النّاسِ بلا ريبٍ[4].

تحدّي الكفرةِ بأن يُظهروا قوّتَهُم ظاهرةً غيرَ مُستترَةٍ

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ على التّراخي الزّمانِّي:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ بـ (ثمّ) الدّالّةِ على التّراخي، والتّراخي في الآيةِ المرادُ به التّراخي الزّمانيّ[5]؛ أي: لا يكنْ حالُكُم

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/132.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/47.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6098.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.

بعدَ التّأنّي وطولِ الزّمانِ غُمَّةً، فالتّعبيرُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ يُشيرُ "إلى التّأنّي وإتقانِ الأمرِ لِلأمانِ من مُعارضتِهِ بشيءٍ مِن حَولٍ منهُ أو قُوَّة"[(1)]، "هذا أمرٌ على سبيلِ التّعجيزِ، أخبرَ اللّه تعالى عن نوحٍ أنّهُ كانَ واثقًا بنصرِ اللّه، غيرَ خائفٍ مِن كيدِ قومِه، علمًا منه بأنّهم وآلهتهم، لا يملكونَ نفعًا ولا ضرًّا إلّا ما شاءَ اللّه"[(2)].

انتقاءُ عناصرِ الجملةِ الفعليّةِ ظهورًا وإضمارًا، هو لبُّ البيانِ

بلاغةُ وضعِ الظّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ في الآية:

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ قد وَضَعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضمَرِ، فلم يَقُلْ: (ثُمَّ لَا يَكُنۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً) بالإضمارِ؛ بل عبَّرَ عنه بالاسمِ الظّاهرِ؛ "لِزيادةِ تقريرٍ يَقتضيها مَقامُ الأمرِ بالإظهارِ الّذي يستلزمُهُ النَّهيُ عَنِ التَّستُّرِ والإسرارِ"[(3)]، فلمّا دعاهُم إلى مُكاشفتِهِ، بنَهيِهم عنِ الدّوامِ في الغمّةِ وإظهارِ مَكنونِ مَكرِهِم بِهِ؛ ناسبَهُ إظهارُ لفظِ الأمرِ؛ ليكونَ السّياقُ اللّغويُّ والمعنى المرادُ مُتناسِقَين في الإظهارِ والانكشافِ.

كلُّ لفظٍ في القرآنِ لهُ دلالةٌ تُميّزُهُ في إفرادِ ذكرِهِ أو تَكرارِهِ

نكتةُ تَكرارِ لفظ ﴿أَمۡرَكُمۡ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ﴾ لمّا وَضَعَ الظّاهرَ مَوضِعَ المُضمَرِ صارَ اللّفظُ مُكرَّرًا مرّتين؛ أمرهم الّذي يجمعونَهُ، وأمرهم الّذي لا يكونُ عليهم غمّةً، وفي هذا التَّكرارِ اتّساعٌ في المعنى، ففي اللّفظِ المُكرَّرِ "وجهان؛ أحدهما: أن يُرادَ مُصاحَبَتُهم له، وما كانُوا فيه معهُ مِنَ الحالِ الشّديدةِ عليهم المكروهة عندَهُم؛ يعني: ثمّ أهلكُوني؛ لِئلّا يكونَ عيشُكُم بسببي غصّةً، وحالُكُم عليكم غُمّةً... والثّاني: أن يُرادَ به ما أُريدَ بالأمرِ الأوّلِ"[(4)]، وأفادَ تكرارُهُ التّأكيدَ على العزمِ، وحثُّهُم على إنفاذِ ما يُحيكونَ، وما يَشاؤونَ في شأنِهِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/163 - 164.
(2) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 9/163 - 164.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/359 - 360.

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ التّصريحيّةِ في الآية:

الحيرةُ العقائديّةُ تجعلُ أمرَ صاحبِها عليه غمَّةً

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ لتشبيهِ حالِهم في التّردُّدِ والحيرةِ بالغُمَّةِ، "والغُمّةُ: اسمُ مَصدرٍ للغَمِّ، وهو السِّترُ، والمرادُ بها في مثلِ هذا التّركيبِ السِّترُ المَجازيُّ، وهُوَ انبهامُ الحالِ، وعَدَمُ تبيُّنِ السَّدادِ فيه"[1]، فشبَّهَ عدمَ تبيُّنِ الحالِ بالغُمَّةِ الّتي يَنعدِمُ فيها النّظرُ، فَحَذَفَ المشبّهَ وأبقى المشبّهَ به، والجامعُ بينَهُما الحيرةُ والبهمةُ، وهي استعارةٌ تصريحيّةٌ.

نكتةُ العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾:

مراعاةُ الرّتبةِ في عطفِ الجملِ مِن بلاغةِ السّياقِ الحكيم

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ العطفَ بـ (ثمَّ)؛ للدّلالةِ على التّراخي في الرُّتبةِ[2]، "فإنّ رُتبةَ إنفاذِ الرّأيِ بما يُزمِعونَ عليهِ من أذاهُ أقوى مِن تدبيرِ ذلك، ومِن رُتبةِ إجماعِ الرّأيِ عليه، فهوَ ارتقاءٌ مِنَ الشّيءِ إلى أعلى منهُ، فعطفَ بـ (ثمّ) الّتي تُفيدُ التّراخي في الرُّتبةِ في عطفِها الجُملَ"[3].

الغرضُ مِنَ الاستعارةِ المكنيّةِ في الآية:

استعمالُ الصّورةِ البيانيّةِ في الإيضاحِ غايةٌ في التّعبيرِ والإفصاحِ

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ دلَّ قضاءُ الأمرِ على الأداءِ؛ "أي: أدُّوا إليّ؛ أي: أحكِمُوا ذلكَ الأمرَ الّذي تُريدونَ بي ولا تُمهلُوني"[4]، ففيهِ استعارةٌ مكنيّةٌ؛ أي: نفِّذُوا ذلك الأمرَ أو أدُّوا إليّ ذلكَ الأمرَ، فشبّهَ الأمرَ المحذوفَ بالدَّينِ، ثمّ حَذَفَ المشبّهَ به، وأخذَ شيئًا من خصائصِه، وهو القضاءُ، يُقالُ قضى فلانٌ دَيْنَهُ؛ أي: أدَّاهُ.

سرُّ تعديةِ الفعلِ ﴿ٱقْضُوٓاْ﴾ بـ ﴿إِلَيَّ﴾:

اختيارُ حرفِ المعنى دونَ بديلِه دقّةٌ وبيانٌ

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ تعدَّى الفعلُ (قضى) بحرفِ الجرِّ (إلى)، ولم يقُلْ: (اقضُوا عَلَيَّ)؛ "لأنّه ضُمِّنَ معنى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/239.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164 - 165.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/240.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.

الإبلاغِ والإيصالِ؛ تَنصيصًا على مَعنى التَّنفيذِ بالفعلِ؛ لأنّ القَضاءَ يكونُ بالقولِ، فَيَعقُبُهُ التّنفيذُ أو الإرجاءُ أو العفوُ، ويكُونُ بالفعلِ؛ فهو قَضاءٌ بتنفيذٍ، ويُسَمَّى عندَ الفُقَهاءِ بالقَضاءِ الفِعليِّ"[1].

بلاغةُ الإيجازِ في: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ فيه إيجازٌ بحذفِ المفعولِ به، فلم يَقُلْ: (اقْضُوا إلَيَّ ذَلكَ أمْرَكُمْ)؛ أي: "أنفِذُوا قضاءَكُم نَحوي، ومَفعولُ اقضُوا مَحذوفٌ؛ أي: اقضُوا إليَّ ذلكَ الأمرَ، وامضُوا ما في أنفُسِكُم، واقطَعُوا ما بَيني وبَينَكُم"[2]، فحذفَهُ اتّكاءً على ظهورِهِ في السّياقِ، وطلبًا للإيجازِ بالاستغناءِ عن ذكرِ ما قد عُلِمَ.

مِن خصائصِ القرآنِ الإيجازُ، وهو لُبُّ البيانِ والإعجازِ

دلالةُ النّهي في قولِهِ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾، فيه نهيٌ عنِ التّأخيرِ في تنفيذِ أمرِهم به، وقضائِهم إليه، فقولُهُ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾؛ أي: لا تُؤَخِّرونَ، والنَّظرةُ تعني التّأخيرَ[3]؛ "وإنّما خاطبَهُم ﷺ بذلك؛ إظهارًا لعدمِ المُبالاةِ بهم، وأنّهم لم يَجِدُوا إليه سبيلًا، وثقةً باللهِ سبحانَهُ، وبما وَعدَهُ من عِصمتِهِ وكَلاءَتِه"[4]، فالنّهيُ جاءَ للتّحدّي، وإثباتِ صدقِهِ واتّكالِهِ على اللهِ وحدَهُ، ولمّا أمرَهُم بالقضاءِ، بقولِهِ: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أعقبَهُ بالنّهي عنِ التّأخيرِ في ذلك القضاءِ؛ مُبالغةً في طلبِ مُواجهتِهِم، وتدليلًا على شدّةِ ثقتِهِ بربِّهِ، وبيانًا على شدّةِ صدقِهِ.

لا مَبالاةَ بتهديداتِ الكافرين ممَّن اعتصمَ بربِّ العالمَين

بلاغةُ الإيجازِ في خطابِ نوحٍ قومَهُ:

قولُهُ تعالى: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ مُجملُ خطابِ نوحٍ عليه السلام،

سياقُ القرآنِ يَستوعِبُ الأحداثَ الجِسامَ في بلاغةٍ وانسجامٍ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/240.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/89.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/132.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/164.

وهو خطابٌ مُكوَّنٌ مِن جملةِ شرطٍ وجزاءٍ، ففي الشّرطِ أمران: كِبرُ المقامِ، والتّذكيرُ بالآياتِ، وفي الجزاءِ خمسةُ أمورٍ: (توكّلُه، وطلبُ إجماعِ أمرِهم، وبلا غُمّةٍ، وأن يَقضوا، ولا يُنظِرونَه)، وهذا السّياقُ المُوجَزُ في عباراتٍ مَعدوداتٍ، يُلخِّصُ قرابةَ عشرةِ قرونٍ منَ الصّراعِ المُحتدمِ، والمواجهةِ السّافرةِ بينَ الحقِّ والباطلِ، انتهَت بجأرِ نوحٍ إلى ربِّهِ؛ بأنَّهُ يَئِسَ مِن هؤلاءِ القومِ الّذين ما آمَنَ معهُ منهُم إلّا قليلٌ، بعدَ أن لَبِثَ فيهم داعيًا ومُذكِّرًا، ألفَ سنةٍ إلّا خمسينَ عامًا، فطلبَ منهُم في آخرِ المَطافِ أن يَجمعُوا أمرَهُم، ويَقضوا إليهِ، وألّا ينظروه، فنجّاهُ اللّه وأهلَكَهُم بالطّوفانِ المُغرِقِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التّلاوةُ، والتّرتيلُ:

التّلاوةُ أعمُّ مِنَ التّرتيلِ الّذي هو كيفيّةٌ في القراءةِ أمرَ بها القرآنُ

"التّلاوةُ تختصُّ باتّباعِ كتبِ اللّه المُنزَّلةِ تارةً بالقراءةِ، وتارةً بالارتسَامِ لِمَا فيها مِن أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، وهي أخصُّ مِنَ القراءةِ؛ فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليسَ كلُّ قراءةٍ تلاوةً"[1]. أمّا التّرتيلُ فمِنَ الرَّتَلِ، وهو اتّساقُ الشّيءِ وانتِظامُهُ على استقامَةٍ، يُقالُ: رجلٌ رَتَلُ الأسنانِ، والتَّرْتيلُ: إرسالُ الكلمةِ مِنَ الفمِ بسُهولةٍ واستقامَةٍ. قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزّمّل: 4][2]. والتَّرتيلُ في القراءةِ: التَّرَسُّلُ فيها والتَّبيينُ بغيرِ بغيٍ، وكلامٌ رَتِلٌ بالتّحريكِ؛ أي: مُرَتَّلٌ[3]. وبهذا فإنّ التّرتيلَ كيفيّةٌ مِن كيفيّاتِ القراءةِ، تختصُّ بالاسترسالِ والاتّساقِ والسُّهولةِ، أمّا التّلاوةُ فهي أوسعُ مِنَ التّرتيلِ؛ إذ تدلُّ على الاتّباعِ العمليِّ، كما أنّها تُؤدَّى بالقراءةِ والتّرتيلِ بقراءةِ آياتِ القرآنِ آيةً تلوَ آيةٍ.

(1) الرّاغب، المفردات: (تلو).
(2) الرّاغب، المفردات: (رتل).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (رتل).

(غُمّة) و(تشابهَ علينا):

الغُمّةُ مِن (غَمَّ)، والأصلُ يدُلُّ على تَغطِيَةٍ وإطبَاقٍ. تَقُولُ: غَمَمتُ الشَّيءَ أَغُمُّهُ؛ أي: غَطَّيتُه، وَغَمَّهُ الأمرُ يَغُمُّهُ غَمًّا، وهو شَيءٌ يَغشَى القَلبَ[1]. أمّا الشّبهةُ والاشتباهُ فأصلُهُ يَدُلُّ على تَشَابُهِ الشَّيءِ وتَشَاكُلِه لَونًا ووَصفًا. والمُشَبِّهَاتُ مِنَ الأمُورِ: المُشكِلَاتُ. واشتَبَهَ الأمرَانِ؛ إِذَا أشكَلا[2]. الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ: حقيقتُها في المُماثَلةِ من جهةِ الكيفيّةِ؛ كاللّونِ والطّعمِ، وكالعدالةِ والظُّلم. والشُّبْهَةُ: هو أنْ لا يتميَّزَ أحدُ الشّيئينِ مِنَ الآخرِ؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّشابُهِ عَينًا كانَ أو مَعنًى، قالَ: ﴿إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا﴾ [البقرة: 70]، وقالَ: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ﴾ [آل عمران: 7]، والمُتَشابهُ مِنَ القرآنِ: مَا أشكلَ تَفسيرهُ لِمُشابَهَتِهِ بغيرِه، إمّا من حيثُ اللّفظُ، أو مِن حيثُ المعنى[3]. فالغُمّةُ تدلُّ على خفاءِ الأمرِ لذاتِه؛ لانتفاءِ الرّؤيةِ الواضحةِ فيه، أمّا اشتباهُ الأمرِ فإنّه يكونُ لوجودِ مُشابهٍ. وفي قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ لم يكن ثَمّ أمرانِ؛ بل طلبَ منهم ألّا يكونوا مُتردّدين في شأنِه، بل يُجاهرونَهُ ويكشفونَ عن خبيءِ قلوبِهم، فكانَ الأنسبُ لذلك التّعبيرَ بالغُمّةِ لا بالاشتباهِ.

الغُمّةُ تُطلَقُ على الخفيِّ لذاتِهِ، والاشتباه على الخفيِّ بوجودِ شبيهٍ له

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غمم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(3) الرّاغب، المفردات: (شبه).

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ عدمِ الاكتراثِ بشرِّهِم، وعدمِ الطّمعِ في خيرِهِم ونوالِهِم

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا حكى عن نوحٍ ﵇ "أنّهُ لا يخافُ منهُم بوجهٍ مِنَ الوجوهِ؛ وذلكَ لأنّ الخوفَ إنّما يَحصُلُ بأحدِ شَيئَين؛ إمّا بإيصالِ الشَّرِّ أو بِقَطعِ المَنافِعِ، فَبَيَّنَ فيما تقدَّمَ أنّهُ لا يخافُ شَرَّهُم، وبيَّنَ بهذه الآيةِ أنّهُ لا يخافُ منهُم بِسَببِ أن يَقطعُوا عنهُ خَيرًا"[1]؛ لأنَّه لم يقمْ بدعوتِهِ؛ لِيتقاضى مُقابلَها أجرًا مادّيًّا مُغرِيًا، فهو يَخشَى عليه الضّياعَ؛ بسببِ إعراضِ الأغلبيّةِ الغالبةِ مِن قومِهِ عنه وعن دعوتِهِ، إنّما يَطلبُ أجرَهُ عليها مِنَ اللّه - وحدَهُ - وقد أمرَهُ أن يكونَ مُسَلِّمًا إليه جميعَ أمرِهِ، بلا تأخُّرٍ ولا تردُّدٍ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: (التّولّي) يكونُ بمعنى: الإعراضِ، ويكونُ بمعنى: الاتّباعِ؛ قالَ اللّه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد ﷺ: 38]؛ أي: تُعرِضوا عنِ الإسلامِ.

وأمّا قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: 51]؛ فمعناهُ: مَن يتّبعهم وينصرهم[3]، و(وَلَيَ) أصلٌ يدُلُّ عَلَى قُربٍ؛ يُقالُ: تَباعَدَ بَعدَ وَلْيٍ؛ أيْ: قُربٍ[4]. وتَوَلَّى إذا عُدِّيَ بنفسِهِ اقتَضى معنى الوَلايَةِ، وحُصُولُهُ في أقربِ المَواضِعِ منه، يُقالُ: وَلَّيتُ سَمعي كذا، ووَلَّيتُ عيني كذا، ووَلَّيتُ وجهي كذا: أقبَلتُ بِهِ عليهِ، قالَ اللّه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/285.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 289.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 15/315.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).

ﷺ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ [البقرة: 144]، وإذا عُدِّيَ بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتَضى معنى الإعراضِ وتَركِ قُربِه، كقولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [آل عمران: 63][1].

2) ﴿أَجۡرٍۖ﴾: الأجرُ: جزاءُ العملِ... أجرَ يَأۡجُرُ، والمفعولُ: مَأجورٌ. والأجيرُ: المُستأجِرُ. والإجارةُ: ما أُعطيتَ مِن أجرٍ في عَمَلٍ. وآجرتُ مَمْلوكي إيجارًا فهو مُؤجَرٌ[2]، ويُستعمَلُ الأجرُ بمعنى الإجارةِ، وبمعنى الأجرةِ، وجمعُهُ: أجورٌ[3]، و(أجَرَ) أصلٌ هو الكِرَاءُ عَلَى العَمَلِ[4]، الأجرُ والأجرةُ: ما يعودُ من ثوابِ العملِ دُنيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27]، والأُجرَةُ في الثّوابِ الدُّنيَويِّ، وجَمعُ الأجرِ أُجُورٌ[5]. والأجْرُ: الثّوابُ. تقولُ: أجَرَهُ اللّه يَأۡجِرُهُ ويَأۡجُرُهُ أجرًا[6].

المَعْنى الإجْماليّ:

تفويضُ نوحٍ أمرَهُ لربِّ العالمين، تجسيدٌ لأسمى درجاتِ اليقين

يخبرُ اللّه تعالى عن خطابِ نوحٍ لقومِه، أنّه قالَ لهم: "فإنْ دامَ تَوَلِّيكم عَمّا جِئتُ به إليكُم مِن توحيدِ اللّه ورفضِ آلهتِكم، فلستُ أبالي بكُم؛ لأنّ تَوَلِّيَكم لا يَضُرُّني في خاصَّتِي، ولا قَطَعَ عنّي صِلَةً منكم، إذ ما دعوتُكم إليهِ وذَكَّرتُكُم بهِ ووعَظتُكم، لَم أسألْكُم عليهِ أجرًا، إنّما يُثيبُني عليهِ اللّه تعالى؛ أي: ما نَصَحتُكم إلّا لوجهِ اللّه تعالى، لا لغرضٍ مِن أغراضِ الدُّنيا، ثمّ أخبَرَ أنّه أمَرَهُ أن يكونَ مِنَ المُسلمينَ، مِنَ المُنقادينَ لأمرِ اللّه الطّائِعينَ لهُ"[7].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(2) الخليل، العين: (أجر).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أجر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(5) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (أجر).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/89.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الفاء) في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾:

التَّوكُّلُ على اللهِ تعالى يُفضي إلى التَّجرُّدِ والتّسليمِ له

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾، دلّتِ الفاءُ على تفريعِ الكلامِ اللّاحقِ على السّابقِ، فالشّرطُ في قولِهِ: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾، "مُرتَّبٌ على الجزاءِ قَبلَهُ؛ أي: إن بقيتُم على إعراضِكُم عن تذكيري بعدَ أمري لَكُم، وعدم مُبالاتي بما أنتُم عليه، فلا ضَيرَ عليَّ"(1)، فالفاءُ لترتيبِ التَّوَلّي على ما سَبَقَ ذِكرُهُ؛ أي: إنْ أعرضْتُم عن تذكيري بعدما شاهدْتُم صحّةَ دعوتي، فإنّي غيرُ مُبالٍ بكُم، وبما يأتي منكُم(2).

دلالةُ التّعبيرِ في ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾:

اتّباعُ الحقِّ يُسْرٌ ونفعٌ، والتَّولِّي عنه مَشقّةٌ وكلفةٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾، عبَّرَ النّظمُ الكريمُ بصيغةِ التَّفعُّلِ دونَ التّفعيلِ، فلم يَقُلْ: (فإن وُلِّيتُم) للدّلالةِ على الكلفةِ، بالتَّولِّي عنِ الحقّ؛ أي: "كَلَّفتُم أنفسَكُم الإعراضَ عن الحقِّ، بعدَ عجزِكُم عن إهلاكي"(3)؛ إيماءً إلى أنّهم قد عَلِمُوا أنّهُ حقٌّ، واتّباعُ الحقِّ لا يُحوِجُ إلى التَّكلُّفِ، أمّا الإعراضُ عنه فإنّه لا يكونُ إلّا بكلفةٍ ومُعاناةٍ.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم﴾:

مهمّةُ الرّسولِ البلاغُ بالحُجّةِ، وسَوْقُ مرادِ اللهِ على ما يحبُّ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾، أدخلَ النّظمُ الكريمُ الفاءَ في صدرِ الجملةِ؛ لأنّها واقعةٌ جوابًا للشّرطِ مُفتتحة بالنّفي، فلابدَّ مِنَ الفاءِ الرّابطةِ لبيانِ أنّ انتفاءَ سؤالِهِ الأجر ينفي أن تكونَ هناك أسبابٌ جديرةٌ لتوليهم عنه، وفي ذلك تزكيةٌ لدعوتِهِ، وإلزامٌ لهم بالحُجّةِ، فليسَ الدّاعي لدعوتِكُم كسبَ الأجرِ؛ بل محض

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.

النّصحِ والوعظِ، وطلب النّجاةِ لكم، "فلم يكُنْ تَوَلِّيكم عن تفريطٍ منِّي؛ لأنّي سُقتُ الأمرَ على ما يُحِبُّ"[1].

دلالةُ الشّرطِ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾، عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بأسلوبِ الشّرطِ عن تبرئةِ دعوتِهِ من أسبابٍ جديرةٍ تحملُهُم على التَّولِّي عن قبولِها؛ أي: إن أعرضتُم عن تذكيري ونصيحتي، "فما كانَ عندي ما ينفّرُكُم عني وتتّهموني لأجلِهِ، مِن طَمَعٍ في أموالِكُم وطلبِ أجرٍ على عظتِكُم"[2]، فزكّى دعوتَهُ بأنّها خاليةٌ مِنَ الأغراضِ الّتي يطلبُها مَن يبغي الانتفاعَ، فلمّا ظهرَ لكُم ذلكَ، كانَ ينبغي أن لا تَتولَّوا لظهورِ صدقي في دعوتي، لِتجرُّدي عن طلبِ الانتفاعِ؛ "والمعنى: فإنْ كنتُم قد تَولَّيتُم فقد عَلِمتُم أنّي ما سألتُكُم أجرًا فتتَّهِمُوني برغبةٍ في نَفعٍ يَنجَرُّ لي مِن دعوتِكُم، حتّى تُعرِضوا عنها شُحًّا بأموالِكُم، أو اتِّهامًا بِتكذيبي، وهذا إلزامٌ لَهُم، بأنّ تَوَلِّيَهم لم يكُنْ فيه احتمالُ تُهمَتِهِم إيّاهُ، بِتَطلُّبِ نَفعٍ لنفسِهِ. وبذَلكَ برّأ نفسَهُ مِن أن يكونَ سببًا لِتَوَلِّيهِم، وبهذا تَعَيَّنَ أنَّ المُعَلَّقَ بهذا الشّرطِ هو التَّحقُّقُ بينَ مَضمونِ جملةِ الشّرطِ، وجُملةِ الجزاءِ لا وُقوعُ جُملةِ الجزاءِ عندَ وُقُوعِ جُملةِ الشّرطِ"[3].

صِدقُ دعوةِ الرّسولِ مُتجسِّدٌ في تجرُّدِهِ عن طلبِ الانتفاعِ الذّاتيّ

دلالةُ التَّولِّي في قولِهِ: ﴿تَوَلَّيۡتُمۡ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾، مجيءُ فعلِ التَّولِّي في فعلِ الشّرطِ في الآيةِ يُرادُ منهُ التَّولِّي الّذي قد حَصَلَ واستمرَّ، وليسَ أنّه تولٍّ سيكونُ لاحقًا، فلمّا "كانَ تَوَلِّيهم عن دعوتِهِ قد وَقَعَ واستمرَّ، تَعَيَّنَ أنَّ جَعْلَ التَّولِّي في جملةِ الشّرطِ مُرادٌ به

التَّولِّي إعراضٌ عن حقٍّ قامَتِ الأدلّةُ على صحّتِهِ إلى ما يُناقضُهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/340 - 241.

ما كانَ حَصَلَ لِيُرتّبَ عليه جوابَ الشّرطِ الّذي هو شيءٌ قد وَقَعَ أيضًا"[1]، وهذا مَلمَحٌ مِنَ الحوارِ الطّويلِ الّذي خلّدَهُ اللّه في القرآن؛ حيث إنّهم كذّبوا واستمرُّوا في كذبِهم، فرأينا نوحًا عليه السلام قالَ لَهُم: "﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن ما دعوتُكُم إليه، فلا مُوجِبَ لِتولّيكُم؛ لأنّهُ تبيَّنَ أنّكُم لا تُولّون عن باطلٍ إلى حقٍّ؛ وإنّما تُولّون عن حقٍّ قامَتِ الأدلّةُ على صحّتِه، إلى باطلٍ قامَتِ الأدلّةُ على فسادِهِ"[2].

دلالةُ النفي بلفظِ (ما):

قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾، ساقَ لَهم صدقَ دعوتِه، بنفي طلبِ الأجرِ، فإنّ نفيَ طلبِ ما يطلبُهُ النّاسُ في العادةِ يُثيرُ الانتباهَ إلى المطلوبِ بدلًا عن ذلك؛ فكان نفيُ سؤالِ الأجرِ، يتضمَّنُ دعوةً لهم إلى التّفكيرِ بشأنِهِ، وبصدقِ دعوتِه؛ لأنّ عملَهُ إنّما هو لمحضِ رضوانِ اللّه؛ ولذلكَ قالَ: "﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾ على دعوتي، وعلى إجابتِكم، فتقولوا: هذا جاءَنا ليأخذَ أموالَنا، فتمتنعونَ لأجلِ ذلك"[3].

يكون عطاءُ الرّسولِ مَبرورًا، حين لا يريدُ جزاءً ولا شُكورًا

نكتةُ ورودِ حرفِ الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾، أدخلَ النّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ الزّائدِ (من) في سياقِ النّفي للدّلالةِ على الاستغراقِ في النّفي[4]؛ قطعًا لأسبابِ الاتّهامِ والنّفورِ عنِ الدّعوةِ، وتأكيدًا لتزكيَةِ دعوتِهِ عنِ المنافعِ الزّائلةِ الّتي يبتغيها أهلُ الدّنيا، والسّياقُ يحتملُ وجهين: "أحدُهما: فما سألتُكُم من أجرٍ تستثقلونَهُ، فتمتنعون مِنَ الإجابةِ لأجلِه... والثّاني: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾، إنِ انقطعَ عنّي ثَقُلَ عليّ، ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، وقد حَصَلَ بالدّعاءِ لكُم، إنْ أجبتُم أو أبيتُم[5].

لا يطمحُ الرّسولُ للأجرِ الفاني، وإنّما يتوقُ لأجرِ اللهِ الباقي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/240.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 11/240.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 11/240.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/240.

دلالةُ التّنكيرِ في لفظِ ﴿أَجۡرٍۖ﴾:

مَن تعلَّقت همّتُهُ بما عندَ الله، زَهَدَ فيما عندَ مَن سِواه

قولُهُ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عنِ الأجرِ، بصيغةِ التّنكيرِ؛ استغراقًا لكلِّ ما يُطلَقُ عليه أجرٌ، مهما قلَّ، فالتّنكيرُ هنا للتّقليلِ والتّهوينِ؛ أي: ما سألْتُكم أيَّ أجرٍ كان، قليلًا أو كثيرًا. وعلّةُ عدم أخذِهِ أيَّ لونٍ مِنَ الأجرِ، مهما قلَّ؛ "لأنّهُ أرادَ الأجرَ الأعلى، فلو أخذَ منهُم؛ فلسوفَ يأخذُ على قدرِ إمكاناتِهِم، ولكنَّ الأجرَ مِنَ اللّه تعالى، هو على قدرِ إمكاناتِ اللّه ﷻ، وفارقٌ بينَ إمكاناتِ المحدودِ العطاء وهو البشرُ، ومَن له قدرةُ عطاءٍ لا نهايةَ لها، وهو اللّه ﷻ"[1].

المَوقعُ البيانُّي للجملةِ المُستأنَفةِ في الآيةِ:

غايةُ دعوةِ النّبيّين تحصيلُ ما عندَ اللهِ يومَ الدّين

قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، جملةٌ مُستأنَفةٌ للتّعليلِ؛ إذ إنّ العاقلَ لا يُقدِمُ على فعلٍ ما بلا غايةٍ، فاستأنفَ إثرَ نفيه طلبَ الأجرِ منهم؛ لبيانِ غرضِه، فهو "تعليلٌ لاستغنائِه ﷺ عنهم؛ أي: ما ثَوابي على العِظةِ والتّذكيرِ إلّا عليه تعالى يُثيبُني به آمَنتُم أو تَولَّيتُم"[2].

سرُّ إيثارِ النّفي بـ ﴿إِنۡ﴾:

انتقاءُ أداةِ النّفي الأكثرِ تأكيدًا يُظهِرُ بلاغةَ التّركيبِ ودقّتَهُ

آثرَ النّظمُ الكريمُ حرفَ النّفي ﴿إِنۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، ولم يأتِ النّفي بـ (ما)؛ لأنّ النّفيَ بأداةِ النّفي (إن) أبلغُ وأكثرُ تأكيدًا؛ وأغلبُ استعمالاتِها في القرآنِ الكريمِ أنّها تقترنُ مع (إلّا)، والقصرُ بها مع إلّا يكونُ أكثرَ تأكيدًا، أمّا (ما) فتأتي مع الحصرِ لكن ليسَ هو الغالبَ عليها، ويُلاحَظُ أنّ هناك تجانسًا في افتتاحِ الحرفين (إنْ) و(إلّا)، فكلاهما افْتتحَ بالهمزةِ المكسورةِ، وهذا يعطي إضافةً للقوّةِ في التّعبيرِ بهذين الحرفين معًا؛ وعليه فإنّ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6103.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164.

قولَهُ جلَّ شأنُه: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، قد سِيقَ على وجهِ التّأكيدِ؛ بيانًا لاكتفائِهِ بالأجرِ المُستَحَقِّ لهُ على وعدِ اللّه تعالى له.

الغرضُ مِن أسلوبِ القصرِ في الآية:

حصرُ الأجرِ على اللهِ عطاءٌ ويقينٌ بأنّه مَصدرُ كلِّ نعمةٍ

عبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، بأسلوبِ القصرِ على تأكيدِ نفي طلبِهِ الأجرَ منهم، وحصر ما يبتغيه مِن أجرٍ، بأنّه كائنٌ مِنَ اللّه تعالى، فهو "تعميمٌ لنفي تَطَلُّبِهِ أجرًا على دعوتِهم، سواءٌ منهم أم مِن غيرِهم. فالقصرُ حقيقيٌّ، وبهِ يحصُلُ تأكيدُ جملةِ: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾ مع زيادةِ التّعميم. وطَريقُ جزمِهِ بأنّ اللّه يُؤجِرُهُ على ذلكَ، هو وَعدُ اللّه إيّاهُ به بِما أوحَى إليه"[1].

دلالةُ استعمالِ الحرفِ ﴿عَلَى﴾:

وعدُ اللهِ مُحقَّقٌ مُنجَزٌ، وأجرُهُ مُميَّزٌ مُعجزٌ

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ على ثباتِ الأجرِ واستحقاقِهِ لنوحٍ بحرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾، ويدلُّ حرفُ الاستعلاءِ على تمكُّنِ الاستحقاقِ؛ وذلك لأنّ وعدَ اللّه مُؤكَّدٌ، فقولُهُ: ﴿عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ تأكيدٌ لَهُم، بأنّ أجرَهُ ثابتٌ مُحقَّقٌ لا يزولُ ولا يُنسَخُ، وهذا يبيّنُ علّةَ النّفي في قولِهِ: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ﴾؛ لأنّ مَن وُعِدَ بالأجرِ مِنَ الوهّابِ الكريمِ، فأيُّ أجرٍ آخرَ يبتغيه؟!، ولهذا لم يقُلْ: (من اللّه)؛ إذ لم يُرِدْ أن يبيّنَ ابتداءَ الأجرِ بأنّه كائنٌ مِنَ اللّه تعالى، بل أرادَ أن يُبيّنَ الاستحقاقَ الثّابتَ على اللّه تعالى؛ إذ إنّ ما يَعِدُ اللّه تعالى به فهو حقٌّ مُحقَّقٌ، لا مريةَ فيه.

دلالةُ نفيِ الأجرِ مِنَ النّاسِ وطلبِهِ مِنَ الله تعالى في الآية:

ما عندَ النّاسِ يَنْفَدُ، وما عندَ اللهِ باقٍ

قولُهُ تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، نفى نوحٌ عليه السلام سؤالَهُ الأجرَ منهم، وأثبتَهُ مِنَ اللّه تعالى؛ لأنّه لمّا عَلِمَ أنّ عطاءَ البشرِ محدودٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/241.

على قدرِ الجَهْدِ، وأنّ الأجرَ مِنَ اللّه تعالى لا ينفدُ ولا ينقطعُ، جعلَ طلبَهُ الأجرَ مُتعلِّقًا بكمالِ العطاءِ الّذي يكونُ مِنَ الخالقِ ﷻ.

دلالةُ التّعميمِ لعبارةِ ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾:

الـرُّسـلُ أبـنـاءُ عَـلّاتٍ، أبوهُم واحدٌ وأمّهاتُهم شتَّى

تكرَّرَ في النّظمِ الكريمِ مثلُ قولِهِ تعالى: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾، على لسانِ كثيرٍ مِنَ الرُّسلِ ﷺ على مرِّ العصورِ؛ لأنّ غايتَهُم واحدةٌ، ومصدرَهُم واحدٌ، ومآلَهُم ذاتُه، ومطلبَهُم عينُه، وهو رضوانُ اللّه تعالى، والإخلاصُ له بالدّعوةِ، بلا أجرٍ مِنَ النّاسِ، فهُم يمحّضونَ النّاسَ النّصحَ والدّعوةَ لإخراجِهِم إلى نورِ التّوحيدِ والإيمانِ.

دلالةُ الواوِ العاطفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ﴾:

الرّسولُ مَأمورٌ بالإسلامِ، ولو كانَ وحدَهُ دونَ الأنامِ

الجملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ معطوفةٌ على الجملةِ في جوابِ الشّرطِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍ﴾، فلمّا نفى طلبَ الأجرِ "عَطَفَ عليه غرضًا آخرَ، وهو اتِّباعُ الأمرِ خَوفًا من حُصُولِ الضُّرِّ"[1]، والتّقديرُ "فإنْ تَولَّيتُم فَأُمِرتُ أن أكونَ مِنَ المسلمينَ؛ أي: أمَرَني اللّه أنْ أتَّبِعَ الدِّينَ الحقَّ، ولو كنتُ وحدِي. وهذا تَأييسٌ لَهُم بأنّ إجماعَهُم على التَّوَلِّي عنهُ لا يَفُلُّ حَدَّهُ، ولا يَصُدُّهُ عن مُخالفةِ دينِهِمُ الضّلّالِ"[2].

نكتةُ التّعبيرِ بـ ﴿وَأُمِرۡتُ﴾:

حـضـورُ المعنى في الأذهـــانِ، يغني عنِ الذّكرِ باللّسانِ

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، أن يُعبِّرَ بالفعلِ الماضي المبنيِّ للمفعولِ؛ لأنّه لا يخفى أنّ الآمرَ بالإسلامِ هو اللّه تعالى، فعدمُ التّصريحِ بِهِ اكتفاءً بدلالةِ السّياقِ طلبًا للإيجازِ، ولا سيّما أنّ ذكرَهُ وردَ قريبًا: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ﴾، فلو قالَ: (إلّا على اللّه وأمرَني اللّه) لكانَ أبعدَ عنِ البلاغةِ بتكرارِ اللّفظِ المذكورِ قريبًا بلا غرضٍ. كما أنّ بناءَ الفعلِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/164 - 165.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/241.

لِلمَفعولِ يُصيِّرُ المصدرَ في قولِهِ: ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾ نائبَ الفاعلِ، وفي ذلك تنبيهٌ على الاهتمام بهذه الكينونةِ المأمورِ بها؛ ترغيبًا لها بأن جعلَهُ عُمدةً في الكلامِ، بإقامتِهِ مَقامَ الفاعلِ، وأصلُهُ فُضلة[1].

سرُّ التّعبير بكونِهِ مِنَ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

الاعتبارُ بصفةِ الجماعةِ أبلغُ منه بصفةِ الفردِ

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ عنِ الأمرِ بأن يكونَ واحدًا مِنَ المُسلمينَ، لا بأن يكونَ مُسلِمًا؛ لأنّ الأمرَ بذلك أبلغُ في الدّلالةِ على الاتّصافِ بالمأمورِ بهِ، فهو يدلُّ على أنّ هناك فئةً قد شُهِرَت بهذا الوصفِ، فالأمرُ بأن يكونَ منهم دليلٌ على أنّه قد بَلَغَ أن يكونَ مُتَّصِفًا بذلك، والأمرُ به يدلُّ على الأمرِ بشدّةِ الاتّصافِ به بحيث يكونُ واحدًا منهُم، وذلك بأن يُحقّقَ الصّفةَ على الوجهِ الأكملِ ليكونَ منهُم.

دلالةُ الأمرِ بالكينونةِ في ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

الإسلامُ إيمانٌ بالوجدان، وإقرارٌ باللّسان، وعَمَلٌ بالأركان

قولُهُ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ جاءَ الأمرُ بالكينونة، ولم يقُلْ: (وأُمِرتُ بالإسلام)؛ للدّلالةِ على الاتّصافِ بأقصى ما يمكنُ مِنَ الاستسلامِ؛ أي: ﴿أَنۡ أَكُونَ﴾ "كَونًا أتخلّقُ بِهِ فلا أنفَكُّ عنهُ"[2]، فيكون مُتَّصفًا بهذه الصّفةِ وجوديًّا، فيكون الوصفُ راسِخًا به كرسوخِ مَن يأتي للوجودِ بصفةٍ لا تَنفكُّ عنهُ، وفي ذلكَ مُبالغةٌ في الاستسلامِ.

دلالةُ التّعريفِ بـ (اللّام) في ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

دعوةُ نوحٍ أن يكونَ مِنَ المُسلمينَ دليلٌ على عظمةِ الإسلامِ للهِ

في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ عَرَّفَ المُسلمينَ بالألفِ واللّامِ، والمرادُ به تعريفُ الجنسِ هنا؛ أي: أمرَني أن أكونَ مِن هذا الجنسِ، وليسَت لِلعهدِ؛ إذ لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، وكونه كان أوّلَ الرّسلِ، فلم يُوجَدْ قبلَهُ فئةٌ يُقالُ لها: إنّهُم مُسلمونَ مع رسولٍ أُرسِلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.

إليهم، وقد وَرَدَ أنّ نوحًا ﵇ هو أوّلُ الرُّسلِ، والظّاهرُ أنّه قبلَ نوحٍ لم يُبعَثْ رسولٌ، ومِن هنا ألمحَ بعضُ الدّارسينَ إلى خطأ المؤرّخينَ الّذين قالوا: إنّ إدريسَ ﵇ كانَ قبلَ نوحٍ، والقرآنُ يقولُ: ﴿۞إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [النّساء: 163]، وقد جاءَ في حديثِ الشّفاعةِ الطّويلِ عندَ البخاريّ قولُ أهلِ المَوقِفِ لنوحٍ ﵇: «يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهلِ الأَرضِ؛ وسَمَّاكَ اللّه عَبدًا شَكُورًا»"[1].

مُناسبةُ ختامِ الآيةِ:

تقدُّمُ الانقيادُ يناسبُهُ الختمُ بوصفِ الإسلامِ

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ أن يختمَ الآيةَ بصفةِ الاستسلامِ دونَ الإيمانِ وغيرِه؛ للدّلالة على أنّه مَأمورٌ بالاستسلامِ الّذي يُناسِبُ قولَهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[2]، فلمّا طلبَ منهُم أن يَجمعُوا أمرَهُم ويَقضُوا بهِ إليه، ذَكرَ عَقِبَ ذلك أنّهُ مأمورٌ بأن يُسلِمَ وينقادَ لذلك، فناسبَ آخرُ الآيةِ أوّلَها، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ أي: "الّذين لا يأخذونَ على تعليمِ الدّينِ شيئًا، ولا يطلبونَ به دنيا، وهذا مُقتضَى الإسلامِ، والّذي كلُّ مُسلمٍ مَأمورٌ بهِ"[3].

المتشابِهُ اللّفظيّ:

تناسبُ الأولى معَ إسلامِ نوحٍ بأمرِ اللهِ، والثّانيةِ مع الرّدِّ على المُشكِّكينَ في الإيمانِ

التّشابهُ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

(1) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري شرح صحيح البخاريّ: 6/372.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/285، والخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.
(3) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/72.

[يونس: 104]. وقد خصّ النّظمُ الكريمُ كلَّ آيةٍ بخاتمةٍ، حيث خُتِمَت الآيةُ الأولى بقولِه تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وخُتِمَت الآيةُ الثّانيةُ بقولِه جلّ شأنُهُ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والسِّرُّ في ذلك أنّ الآيةَ الأولى بدأت بقولِه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾، فلمّا كانَ التَّوَلّي مُسبِّبًا عن عدمِ انقيادِهم وإسلامِهم للّٰه تعالى؛ ناسبَ أن يُعلِنَ نوحٌ عليه السلام إسلامَهُ وانقيادَهُ للّٰه تعالى فقالَ: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، أمّا الآيةُ الثّانيةُ فبدأت بذكرِ الشّكِّ، ونقيضُ الشّكِّ هو الإيمانُ، فكانَ مِنَ الأنسبِ أن يَختمَ بما يُناقِضُ الشّكَّ بإعلانِ إيمانِه.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الأجرُ، والجزاءُ:

الأجـرُ خـاصٌّ بـثـوابِ العمل النّافعِ، والجزاءُ مُماثَلَةٌ لِلعملِ بمثلِهِ

(أجر) أصل هو الكِرَاءُ عَلَى العَمَلِ[1]، الأجرُ والأجرةُ: ما يَعُودُ مِن ثوابِ العملِ دُنيَوِيًّا كانَ أو أُخرَوِيًّا، نحو قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾[2]، والجزاءُ: قِيَامُ الشَّيءِ مَقَامَ غَيرِه ومُكَافَأتُه إيَّاه. يُقَالُ: جَزَيتُ فُلانًا أجزيهِ جَزَاءً، وجَازَيتُهُ مُجَازَاةً. وَهَذَا رَجُلٌ جَازِيك مِن رَجُلٍ؛ أي: حَسبُكَ. ومَعنَاهُ: أنَّهُ يَنُوبُ مَنابَ كُلِّ أحَدٍ[3]. والجَزَاءُ: الغناءُ والكفايةُ، وهو أيضًا: ما فيهِ الكفايةُ مِنَ المقابلةِ، إنْ خيرًا فَخَيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ. يُقالُ: جَزَيتُهُ كذا وبكذا، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: 76][4]. فالأجرُ يُقالُ في النّفعِ دونَ الضُّرِّ، بخلافِ الجزاءِ، والجزاءُ فيه مُقابلةُ الخيرِ بالخيرِ والشَّرِّ بالشَّرِّ، وأمّا الأجرُ فهو النّفعُ الموضوعُ على عملٍ يُقدَّمُ ويُقامُ به.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزي).
(4) الرّاغب، المفردات: (جزا).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ٧٣﴾ [يونس: 73]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ورودُ العقوبةِ بعدَ البيانِ تسريةٌ لِلصّالحين، ووعيدٌ لِلكافرين

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا "حَكى الكلماتِ الّتي جرَت بينَ نوحٍ وبينَ أولئكَ الكُفّارِ، ذَكَرَ ما إليهِ رَجَعَت عَاقِبةُ تلكَ الوَاقِعَةِ، أمّا في حقِّ نُوحٍ وأصحابِهِ فأمرانِ؛ أحدُهُما: أنّه تعالى نجّاهُم مِنَ الكُفّارِ. الثّاني: أنّهُ جعلَهُم خلائفَ؛ بمعنى: أنّهُم يَخلُفُونَ مَن هَلَكَ بالغَرَقِ، وأمّا في حقِّ الكُفّارِ فهو أنّهُ تعالى أغرَقَهُم وأهلَكَهُم"(1)، وقَد ذَكَرَ السّياقُ هنا قصّةَ نوحٍ، وهي نموذجٌ مِن قَصصِ الأنبياءِ السّابقين؛ تسليةً للرّسولِ الخاتمِ، عمّا يَتعرَّضُ لهُ مِنَ الشّدائدِ والمكائدِ، وتذكيرًا بعاقبةِ المُكذِّبينَ للرُّسلِ عليهم السلام حتّى يَنزجرَ مَن يَحذو حذوَهُم(2).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾: (نجو): أصلُ النَّجَاءِ: الانفصَالُ مِنَ الشّيءِ، ومنه: نَجَا فلانٌ مِن فلانٍ وأنجيتُه ونَجَّيتُه، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النّمل: 53]، وقال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ [العنكبوت: 33]، والنَّجوَةُ والنَّجَاةُ: المكانُ المُرتفعُ المُنفصلُ بارتفاعِهِ عمّا حولَهُ، وقيلَ: سُمِّي لِكونِهِ نَاجيًا مِنَ السَّيلِ، وَنَجَّيتُه: تركتُهُ بنَجوَةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92](3).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/286.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 11/226.
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).

2) ﴿ٱلْفُلْكِ﴾: (فلك) أصلٌ يَدُلُّ على استِدَارَةٍ في شَيءٍ. مِن ذَلِكَ فَلكَةُ المِغزَلِ، سُمِّيَتْ لِاستِدَارَتِها، والفَلَكُ: قِطَعٌ مِنَ الأرضِ مُستَدِيرَةٌ مُرتَفِعَةٌ عَمَّا حَولَهَا. وأمَّا السَّفِينَةُ فَتُسَمَّى فُلْكًا. ويُقَالُ إنَّ الوَاحِدَ والجَمعَ في هَذا الاسمِ سَواءٌ، ولَعَلَّهَا تُسَمَّى فُلْكًا لأنَّها تُدارُ في المَاءِ[1]، والفَلَكُ: مَجرَى الكواكبِ، وتسميَّتُهُ بذلكَ لِكونِهِ كالفُلْكِ، قال: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40][2]، والفُلْكُ: بالضَّمِّ: السَّفِينَةُ، تُذَكَّرُ وَتُؤَنَّثُ، وتَقَعُ على الوَاحِدِ والاثنَينِ والجَمعِ[3].

3) ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: (الخلائفُ) جمعُ (خليفة)، ولِكونِه مذَّكر المعنى، جُمِعَ على (خلفاء) وإلّا فقياسُهُ (خلائف) كـ (كرائم) إذا (الفعيلة) بالتّاء لا تُجمَعُ على (فعلاء)[4]. خَلَفَ: أصلٌ يدلُّ على أن يَجِيءَ شَيءٌ بَعدَ شَيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[5]، والخِلافَةُ: النّيابَةُ عنِ الغَيرِ؛ إمّا لِغَيبةِ المَنوبِ عنهُ، وإمّا لِموتِهِ، وإمّا لِعَجزِه، وإمّا لتشريفِ المُستخلَفِ، وعلى هذا الوجه الأخيرِ استخلفَ اللّه أولياءَهُ في الأرضِ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39]، والخلائفُ: جمعُ خليفةٍ، وخُلفاءُ جمعُ خَليفٍ، قالَ تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: 26]، ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ [يونس: 73][6].

4) ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾: النّذيرُ: المُنذِرُ. والنّذيرُ: الإنذارُ، وأمّا قولُ ابن أحمر:

كَم دُونَ لَيلَى مِنْ تَنُوفيَّةٍ *** لَمَّاعَةٍ تُنذِرُ فيهَا النُّذُرْ

فيُقالُ: إنّه جمعُ نَذْرٍ، مثل: رَهْنٍ ورُهُنٍ، ويُقالُ: إنّه جمعُ نذيرٍ، بمعنى مَنذورٍ، مثل قتيلٍ وجديدٍ. وقد نذرتُ للّه كذا[7]، و(نذر) أصلٌ يدلُّ على تَخويفٍ أو تَخَوُّفٍ. منهُ الإنذَارُ: الإبلاغُ، ولَا يَكادُ يكونُ إلّا في التَّخويفِ[8]. فالإنذارُ: إخبارٌ فيه تَخويفٌ، كما أنّ التّبشيرَ إخبارٌ فيه سُرُورٌ، قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: 14][9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلك).
(2) الرّاغب، المفردات: (فلك).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(4) الكفويّ، الكلّيّات: (خلف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(6) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نذر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(9) الرّاغب، المفردات: (نذر).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّه تعالى عن حالِ قومِ نوحٍ ﵇ أنّهم "مع هذا المجهودِ وتلكَ المُثابرةِ الّتي بذلَها مِن أجلِ هدايتِهم، أصرّوا على أن يَستمرُّوا في تكذيبِه وعدائِه، فنجّاهُ اللّه ومَن معَهُ مِنَ المؤمنينَ بِه، الرّاكبينَ معَهُ في الفُلكِ، وجعلَهُم عُمَّارًا لِلأرضِ بعدَ هلاكِ الكافرينَ الّذين أغرقَهُمُ الطّوفانُ"(1). فالآيةُ إخبارٌ وتوعُّدٌ لِلمُشرِكينَ المُكذِّبينَ بالنّبيِّ مُحمّدٍ ﷺ "وضَربُ المثالِ لَهُم؛ أي: أنتُم بحالِ هؤلاءِ مِنَ التّكذيبِ، فَسَتكونونَ بحالِهم مِنَ النِّقمَةِ والتَّعذِيب"(2).

بيانُ استئصالِ المُكذِّبينَ وإغراقِهِم، ونجاة المؤمنينَ واستخلافهم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ حرفِ (الفاء) في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ الفاءَ الدّالّةَ على التّفريعِ؛ لتفريعِ تكذيبِهم على ما وجَّهَ لَهُم مِنَ الدّعوةِ؛ أي: "تفريع ذكرِ هذهِ الجُملِ على ذكرِ الجُملِ السّابقةِ؛ لأنّ الشّأنَ أن تكونَ لِما بعدَ الفاءِ مُناسَبَةٌ لِما قبلَها تقتضي أن يُذكَرَ بعدَها فيُؤتَى بالفاءِ، لِلإشارةِ إلى تلكَ المُناسَبَةِ، كقولِه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزّمر: 72]، وإلّا فإنّ تكذيبَ قومِ نُوحٍ حَصَلَ قَبلَ أن يقولَ لَهُم: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ [يونس: 71] الآية؛ لأنّه مَا قالَ لَهُم ذلكَ إلّا وقد رأى منهُم تجهُّمَ دَعوتِه"(3).

القَصصُ القرآنيُّ مَعرِضٌ للحروفِ والألفاظِ والمعاني

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ في قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ على استمرارِ تكذيبِهم وإصرارِهم عليه؛ أي: "فَأَصَرُّوا على مَا هُم عليهِ مِنَ التّكذيبِ، بعدَ ما ألزمَهُمُ الحُجَّةَ، وبيَّنَ لَهُم المَحجّةَ، وحَقَّقَ أنّ

مَن كذَّبَ بآياتِ اللهِ كذّابًا، كانَ الجزاءُ هوانًا عندَ ربِّهِ وعذابًا

(1) جماعة من العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/242.

تَوَلِّيَهم لَيسَ له سَببٌ غيرُ التَّمرُّدِ والعِنادِ، فلا جَرَمَ حَقَّت عليهم كلمةُ العَذابِ"[1]، فكانَ تكذيبُهُم مُتطاوِلًا مُستمرًّا غيرَ مُنقطِعٍ؛ وإنّما دلَّ التّكذيبُ هنا على الإصرارِ والاستمرارِ في العِنادِ؛ "لأنّ السّياقَ دالٌّ على تقدُّمِ تكذيبِهم لهُ، كما يدُلُّ عليهِ قولُهُ: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ﴾"[2].

استمرَّ تكذيبُهُم عنيدًا، حتّى بعدَ أن صارَ الإغراقُ أكيدًا

دلالةُ العطفِ في: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾ عطفَ النّظمُ الكريمُ نجاةَ نوحٍ ﷺ على تكذيبِهم بالفاءِ؛ لِلدّلالةِ على أنّ تكذيبَهُم قدِ استمرَّ إلى وقتِ الإغراقِ والنّجاةِ بعدَهُ، فلمّا كانَ تكذيبُهُم قد طالَ زمانُهُ فيكون الإغراقُ قد حَصَلَ، وتكذيبُهُم حاصلٌ كائنٌ، فالإغراقُ حَصَلَ بعدَ التّكذيبِ المُتجدِّدِ المُستمرِّ.

غَلقُ البشرِ أبوابَهُم بالتّكذيب، يَتلوهُ مِنَ اللهِ الفرجُ القريب

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وفي: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، دخلتِ الفاءُ على الفعلَين: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾، ودلَّتِ الأولى على التّفريعِ، والثّانيةُ على التّرتيبِ والتّعقيبِ، والفرقُ بينَ ذلكَ وذاكَ، أنّ التّفريعَ يدُلُّ على ترتيبِ الذّكرِ، فإنّ مَدخولَ الفاءِ التّفريعيّةِ ترتّبَ ذكرُهُ على ما ذُكِرَ قبلَها، أمّا مَدخولُ الفاءِ العاطفةِ الدّالّةِ على التّرتيبِ والتّعقيبِ، فإنّه يقتضي أنّه حَدَثَ زمانيًّا بعدَ المذكورِ سَابقًا، فهي ليسَت لِمُجرَّدِ ترتيبِ الذّكرِ، كما أنّ مَدخولَ الفاءِ يقتضي أنّهُ جاءَ عَقِبَ المذكورِ قبلَهُ بلا مُهلَةٍ.

ذِكرُ التّكذيبِ صَريحًا بعدَ التّعريضِ، يُفيدُ أنّهُ سُبحانَهُ يُمهِلُ ولا يُهمِلُ

الغرضُ مِن رَدِّ العَجُزِ عَلَى الصّدرِ:

قولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، ألمَحَ السّياقُ في قصّةِ نوحٍ ﷺ إلى التّكذيبِ دونَ تصريحٍ مِن قبلُ، ثمّ ذَكَرَ صريحًا هنا في قولِهِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، فَكانَ كَرَدِّ العَجُزِ على

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.

الصَّدرِ، وقد بَقِيَ التّكذيبُ ديدنَهُم إلى آخرِ مَشهَدٍ في القصّة؛ فَذَكَرَ التّكذيبَ هنا للتّصريحِ بهِ بعدَ أن أُشيرَ إليهِ ضِمنًا، ولعلَّهُ صرَّحَ بالتّكذيبِ هنا؛ لأنّه قَرَنَهُ بالنّجاةِ والإغراقِ، فصرَّحَ بعلّةِ الإغراقِ قطعًا؛ إظهارًا لعدلِه ﷻ.

نكتةُ تقديم ذكرِ الإنجاءِ على الإغراق:

سبقَت رحمتُهُ غضبَهُ، فعجَّلَ المَسَرَّةَ، وأخَّرَ العقوبةَ

في قولِه تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ...﴾، قدَّمَ هنا نجاةَ نوحٍ عليه السلام ومَن معَهُ، على هلاكِ المُكذِّبينَ خِلافًا لِلظّاهرِ الّذي يَقتضي أنْ يُذْكَرَ الهَلاكُ قبلَ النّجاة، فأخَّرَ ذكرَ الإغراقِ "عن ذكرِ الإنجاءِ والاستخلافِ - حَسبَما وَقَعَ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 94]، وفي غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ الكريمةِ - ؛ لإظهارِ كمالِ العنايةِ بشأنِ المُقدَّم، ولِتعجيلِ المَسَرَّةِ لِلسَّامِعينَ، ولِلإيذانِ بِسبقِ الرّحمةِ الّتي هي مِن مُقتَضَياتِ الرُّبوبيَّةِ على الغَضَبِ الّذي هو مِن مُستَتبعاتِ جرائمِ المُجرمينَ"[1].

دلالةُ الإسنادِ في ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾:

العذابُ العظيمُ تناسبُهُ التّنجيةُ العظيمةُ

في قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾، أسندَ الفعلَ إلى ضميرِ التّعظيمِ تعظيمًا للنّجاةِ، فقولُهُ تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾؛ "أي: تَنجيَةً عَظيمَةً بما لَنا مِنَ العَظمةِ الباهرةِ، بسببِ امتثالِه لأوامِرِنا وصِدقِ اعتمادِهِ عَلينا"[2]، والتّعظيمُ مُناسِبٌ لهذا المَوضِعِ؛ إذ إنّ العذابَ بالإغراقِ، كانَ عظيمًا، فلا بدَّ أن تكونَ النّجاةُ كذلكَ.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾:

مَن قيّضَهُمُ اللهُ لِصُحبةِ سعيدٍ، فإنّهُم سعداءُ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ على قولِه: ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ﴾؛ تشريكًا لِلتّنجيةِ؛ أي: أنجينا مَن كانَ معهُ مِنَ العُقلاءِ وغيرِهِم[3]، فلمّا عَبَّرَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165 - 166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/165.

بصيغةِ التّعظيمِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ بيّنَ أنّ وجهَ التّعظيم تعلُّقُ التّنجيةِ بكثيرٍ مِنَ النّاسِ ومَا حَمَلَ معهُ في الفُلكِ، فالتّعظيمُ كما كانَ مُناسِبًا لكونِ الإغراقِ عظيمًا، كثّرَ مَن أنجاهُم بالعطفِ؛ لبيانِ وجهٍ مِن وجوهِ التّعظيمِ في تلك التّنجيةِ.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾:

السَّفينةُ ما لها صاحبٌ مِنَ المَراكِبِ، والفُلكُ باعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ دَأبَ النّظمُ القرآنيُّ التّعبيرَ بالسَّفينةِ، عمّا له صاحب مِن تلك المَراكِبِ، أمَّا الفُلكُ فباعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ، فيُلاحَظُ في القرآنِ الكريمِ أنّ استعمالَ السّفينةِ، جاءَ لِما كانَ لها مالكٌ وصاحبٌ، كقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، أمّا استعمالُ الفُلكِ فهو باعتبارِ الوظيفةِ العامَّةِ، لا باعتبارِها مملوكةً لشخصٍ دونَ آخر، كقولِهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحجّ: 65]، وجاءَ الفُلكُ في مَواضِعِ الامتنانِ على العبادِ بتسخيرِهِ لَهُم؛ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164].

دلالةُ التّعبيرِ في ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾:

صيغةُ الجمعِ أنسبُ في مَقامِ الامتنانِ وذكرِ الإنعامِ

عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن معنى الاستخلافِ في الأرضِ بصيغةِ الجمعِ في قولِهِ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾؛ لأنّ مَن ركِبَ الفُلكَ مع نوح عليه السلام كانَتِ الأممُ من نسلِهِم، فالجمعُ باعتبارِ ذلك، كما لا يَخفى أنّ الجمعَ أنسبُ في مَقامِ الامتنانِ وذكرِ الإنعامِ، فالجمعُ "هنا باعتبارِ الّذين معهُ في الفُلكِ، تَفَرَّعَ على كُلِّ زَوجَينِ منهم أمّةٌ"(1).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/243.

بلاغةُ الإطنابِ بجعلِهم خلائفَ، وعدمُ الاكتفاءِ بالنّجاةِ:

نِعمُ اللهِ على المؤمنينَ في المُلِمّاتِ، تَتلاحقُ بالعطاءِ والرَّحمات

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ﴾ على ﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾؛ إظهارًا لمزيدِ الامتنانِ، وتصريحًا بعظمةِ الإنعامِ وسعتِهِ، فهو إنعامٌ على وجهِ الكمالِ، إذ لم يُنجِهِم وحسب، بل مكَّنَهُم وأنعمَ عليهم حتّى صاروا أُممًا. وهذا إطنابٌ بذكرِ مزيدِ الإنعامِ بعدَ الإنعامِ عليهم بالنّجاةِ مِنَ العذابِ، وكلُّ ذلك "لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بشأنِ المُقَدَّمِ، ولِتعجيلِ المَسَرَّةِ لِلسَّامِعينَ، ولِلإيذانِ بِسَبقِ الرَّحمةِ الّتي هي مِن مُقتضياتِ الرّبوبيّةِ على الغضبِ الّذي هُوَ مِن مُستَتبعاتِ جَرائمِ المُجرمينَ"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ التّعظيمِ في ﴿وَأَغۡرَقۡنَا﴾:

الغرقُ كانَ عذابًا مَهولًا، وذلك يَتناسَبُ مع عظمةِ اللهِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بضميرِ التّعظيمِ، فقال: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا﴾، ولم يقُلْ: (وأغرقْتُ)؛ لأنّه دلَّ على أنّه إغراقٌ ليسَ كأيِّ إغراقٍ، فإنّ اللّه تعالى العظيمَ هو الّذي أغرقَهُم، وليسَ إغراقًا كما يَحدثُ في العَادةِ، فالتّعبيرُ بنونِ التّعظيمِ يَخلعُ العظمةَ والجلالَ على مَضمونِ المَقولِ.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التّعبيرُ عنهُم بما يعرِّفُ علّةَ عذابِهِم؛ لإظهارِ عدلِ اللهِ في عقابِهِم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ عن قومِ نوحٍ بالاسمِ الموصولِ؛ إظهارًا لعلّةِ العذابِ المذكورةِ ضمنَ حيّزِ الصّلةِ؛ وذلك لِلتّدليلِ على أنّ الغرقَ كانَ جزاءً وِفاقًا، ولم تظلِمْهُمُ القُدرةُ الإلهيّةُ، بتسليطِ ذلكَ عليهم. وقد تأخَّرَ ذِكرُ الإغراقِ عن ذكرِ الإنجاءِ والاستخلافِ، حَسبَما وَقَعَ في هذه الآيةِ؛ " لأنّه هو الأهمُّ في سياقِ صدقِ الوعدِ والوعيدِ مِن وجهينِ؛ أوّلهما: تقديمُ مِصداقِ الوعدِ لِتسليةِ النّبيِّ ﷺ وتسريةِ حُزنِهِ على قومِهِ ومنهُم، وثانيهما: كونُهُ هو الأظهرُ في الحُجّةِ على أنّهما - أي: الوعد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.

والوعيد - منَ اللّه تعالى القادرِ على إيقاعِهما، على خلافِ ما يَعتقدُ المُشركونَ المُكذِّبونَ"[1].

دلالةُ الصّلةِ في قولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾:

رسوخُ الكذبِ في القلوبِ صفةٌ ثابتةٌ مُتأصِّلةٌ فيهم

قولُه تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾، دلَّت جملةُ الصّلةِ على رسوخِ الكذبِ بهم، حتّى إنّهُم عُرِفوا بهِ، بحيث إنّه يُطلَقُ عليهم بدلَ أن يُقالَ: قوم نوحٍ، فالكذبُ مُتأصِّلٌ فيهم، راسخٌ في نفوسِهم، كما يدلُّ على عراقتِهم بالإصرارِ على التّكذيبِ.

الغرضُ مِنَ التّعبيرِ بالأمرِ في ﴿فَٱنظُرۡ﴾:

مَن نَظَرَ في عاقبةِ مَن أنكَر، صَدَّقَ بالحقِّ، ولم يُنكِرْ

قولُه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، أمرَ تعالى بالنّظرِ إلى عاقبتِهم، والمرادُ منهُ تعظيمُ ما جرى لهم وتهويلُهُ، كما أنّ فيه تحذيرًا لِمَن أنذرَهُم رسولُ اللّه ﷺ عن نزولِ مثله بهم[2]، فالخطابُ بالأمرِ بالنّظرِ دعوةٌ لِلتَّدبُّرِ والنّظرِ والاعتبارِ، وهي كثيرةٌ في القرآنِ الكريمِ، وهي دعوةٌ عامّةٌ لكلِّ ناظرٍ، وإنّما أُريدَ الاعتبارُ دونَ النّظرِ بالعينِ؛ لأنّهُ لا يمكنُ أن يُنظَرَ إلى ذلك ولا إلى المُنذَرينَ، فهو تعظيمٌ لِمَا جَرَى عليهم، ودلالةٌ على شناعتِهِ[3]، فالغرضُ مِنَ الأمرِ الاعتبارُ.

المُخاطَبُ بالأمرِ ﴿فَٱنظُرۡ﴾، ودلالته:

الخطابُ مُوجَّهٌ لِلعالَمين مِن خلالِ مُخاطَبةِ النّبيِّ الأمين

المُخاطَبُ بفعلِ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، إذا كانَ خاصًّا بالرّسولِ الأكرم ﷺ فهو تعظيمٌ لهُ مِن جهةٍ، وتهديدٌ لمعاصريه، بأنّهُ سيصيبُهُم ما أصابَ قومَ نوحٍ. ويكونُ خطابًا عامًّا لكلِّ سَامِعٍ، فالآيةُ "مُخاطبةٌ لِلنَّبيِّ ﷺ يُشارِكُهُ في مَعناها جَميعُ الخَلقِ"[4].

(1) الحسيني، تفسير المنار: 11/378.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/360، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/89.

الغرضُ مِنَ الاستفهامِ بـ ﴿كَيۡفَ﴾:

عاقبةُ المُهلَكين في الدُّهورِ، صارَت مَوعظةً لكلِّ العصورِ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، جاءَ الأمرُ في النَّظم الكريم بالنَّظرِ إلى الكيفيّةِ لا إلى الفعلِ ذاتِه، فلم يقُل: (فانْظُرْ إلَى عَاقِبَةِ المُنْذَرِين)؛ إشارةً "إلى أنّهُ أهلٌ لِأنْ يُبحَثَ عَن شأنِه"[1]، فهي عاقبةٌ بالغةُ الشّدّةِ، وبقِيَ ذِكرُها خالدًا على مرِّ العصورِ، وفيها مِنَ الغرابةِ ما ليسَ في غيرِها.

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

السّياقُ في الآيتين يتلاءمُ مع حيثيّاتِهِ وتداعياتِهِ، بدقّةٍ ومَنطِقٍ

التّشابُهُ اللّفظيُّ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64]، فقد خصَّ النّظمُ الكريمُ كلَّ آيةٍ مِنَ الآيتين المُتشابهتين بخاتمةٍ؛ حيث خُتِمَتِ الأولى بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وخُتِمَتِ الثّانيةُ بقولِهِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾؛ وذلك أنّ الآيةَ في سورةِ يونس بدأت بقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلّقًا بالتّسريةِ عن رسولِ اللّهِ ﷺ ناسبَهُ الإقبالُ عليه بالخطابِ فقالَ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

أمّا الآيةُ في سورةِ الأعرافِ فقد بدأت بقولِهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾، فلمّا كانَ السّياقُ مُتعلّقًا بتصريفِ الآياتِ كما دلَّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58]، وكانَ قومُ نوحٍ قد عَمُوا عمّا آتاهُمُ اللّه تعالى مِنَ الآياتِ؛ ناسبَهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: 64].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/166.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤﴾ [يونس: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عهدُ اللهِ تعالى بإرسالِ الرُّسلِ، لا يَضرُّهُ تكذيبُ المُعتدِين

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لَمّا ذَكَرَ قصّةَ نوحٍ عليه السلام وتكذيبَ قومِهِ لهُ بعدَ أن بيّنَ لَهُم الآياتِ الدّالّةَ على الحقِّ، وما حلَّ بهم، بيّنَ أنّ بعْثَ اللّه الرّسلَ بالبيّناتِ إلى قومِهِم، استمرَّ كما أنّ تلك الأقوامَ تعاهدَت على الكفرِ والاعتداءِ، "ولمّا لم يكُنْ في قَصَصِ مَن بَينَهُ وبينَ مُوسى عليهما السلام ممّا يُناسِبُ مَقصودَ هذه السُّورةِ إلّا ما شَارَكُوا فيهِ قومَ نُوحٍ مِن أنّهُم لَم تَنفَعِ الآياتُ مَن أُريدَت شقاوتُهُ منهُم، ذَكَرَهُ سبحانَهُ طاوِيًا لِما عَداهُ"(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بَعَثۡنَا﴾: بعثَه، كمنعَه، يبعثُه بعثًا: أرسلَهُ وحدَهُ. وبعثَ بهِ: أرسلَهُ مع غيرِهِ، كابتعثَهُ ابتعاثًا فانبعثَ... والبعثُ في كلامِ العربِ على وجهين: أحدُهما: الإرسالُ، كقولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ﴾ [الأعراف: 103]؛ معناهُ: أرسلنا. والبعثُ: إثارةُ باركٍ أو قاعدٍ. والبعثُ أيضًا: الإحياءُ مِنَ اللّهِ لِلموتَى، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰكُم مِّنۢ بَعۡدِ مَوۡتِكُمۡ﴾ [البقرة: 56]؛ أي: أحييناكُم(2)، والبعثةُ في المفهومِ اللُّغويِّ تدلُّ على الإرسالِ والتّوجيهِ(3)، وعلى مستوى الاصطلاحِ البعثةُ: هي إرسالُ الأنبياءِ مِن قِبَلِ اللّه تعالى إلى سائرِ النّاسِ؛ لإبلاغِهِم مُراد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/166 - 167.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (بعث).
(3) الخليل، العين: 2/112، والجوهريّ، الصّحاح: 1/273.

اللّه منهم، ودعوتِهم إلى التّوحيدِ ونبذِ الشّركِ، والالتزام بالمنهجِ الأخلاقيِّ، في ترسُّمِ القيمِ، وشحذِ الهممِ مِن أجلِ تحقيقِ عبوديّةِ اللّه على الوجهِ الأكملِ.

2) ﴿نَطۡبَعُ﴾: الطّبعُ مِن قولِهم: طُبِعَ الرّجلُ على الشّيءِ طبعًا، إذا جُبِلَ عليه، والطّبيعةُ: الخليقةُ الّتي جُبِلَ عليها، وفَسَّرَ أبو عبيدة قولَهُ ﷻ: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: 87]؛ أي: غطّاها[1]، وقولهم: (قد طُبِعَ على قلبِ فُلانٍ)، قالَ أبو عبيدة: معناه: قد غُشِيَ على قلبِ فُلانٍ بالصّدأ والدّنَسِ والوسخِ، قالَ اللّه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: 59]، وجاءَ في الحديثِ: «تعوّذوا باللّه من طَمَعٍ يُدني إلى طَبَعٍ»[2]، وقالَ الشّاعرُ:

لَا تَطمَعَنْ طَمَعًا يُدنِي إلَى طَبَعٍ *** إنَّ المَطَامِعَ فَقْرٌ وَالغِنَى اليَاسُ[3]

۞ المَعنى الإجماليُّ:

رحمةُ اللهِ بإرسالِ الرُّسلِ، لا تتوقّفُ بكفرِ الكافرينَ عبرَ الزّمانِ

يخبرُ اللّه تعالى أنّهُ قد أرسلَ مِن بعدِ نوحٍ عليه السلام "رُسُلًا آخرين، داعينَ إلى التّوحيدِ، ومُبشّرينَ ومُنذِرينَ، ومُؤيَّدينَ بالمُعجزاتِ الدّالّةِ على صدقِهِم، فكذّبَت أقوامُهُم كما كذّبَ قومُ نوحٍ، فما كانَ مِن شأنِ الجاحدينَ منهُم أن يُذعنوا؛ لأنّ التّكذيبَ سَبَقَ التَّبصُّرَ والاعتبارَ، وبذلك طَبَعَ اللّه الباطلَ على قلوبِ الّذين مِن شأنِهِمُ الاعتداء على الحقائقِ وعلى البيّناتِ"[4]، والمرادُ مِن ذلك تحذيرُ الحاضرينَ في زمانِ النّبيِّ ﷺ؛ "أي: كَما حَلَّ بهؤلاءِ يَحِلُّ بِكُم"[5].

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (طبع).
(2) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/335، والحديثُ موجودٌ في غريبِ الحديث: 2/218، قال الحاكمُ: مستقيمُ الإسنادِ، وأقرَّهُ الذّهبيّ، لكن قالَ الهيتميّ: إنّ في رواية أحمد والطّبرانيّ عبدَ الله بن عامر الأسلميّ، وهو ضعيفٌ.
(3) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/335.
(4) جماعة من العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/133.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ بالحرفِ (ثمّ):

تـوالي الـرُّسـلِ مِـن بـعـدِ نـوحٍ إلى أقوامِهم؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ العطفَ بـ (ثمّ)؛ للدّلالةِ على أنّ ذلكَ قد وَقعَ بعدَ زمانٍ طويلٍ[1]، ويحتملُ المرادُ بـ (ثمّ) التّراخي الرُّتبيّ؛ "لأنّ بعثة رسلٍ كثيرينَ إلى أُمَمٍ تَلَقَّوْهم بمِثلِ ما تَلَقَّى به نُوحًا قومُهُ أعجَبُ مِن شَأنِ قَومِ نُوحٍ، حيثُ تَمالَأَتْ تِلكَ الأُمَمُ على طريقةٍ وَاحدةٍ مِنَ الكُفرِ"[2].

سرُّ إيثارِ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿بَعَثۡنَا﴾:

بَـعـثُ رسـالـةِ الـلـهِ على أيـدي الـرُّسـلِ تجديدٌ لِلبلاغِ على المَدَى

آثرَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ التّعبيرَ بالبعثِ دونَ الإرسالِ؛ لأنّ البعثَ أعمُّ؛ لأنّه "يجوزُ أن يُبعَثَ الرّجلُ إلى الآخرِ لحاجةٍ تخصُّهُ دونَكَ ودونَ المبعوثِ إليه، كالصَّبيِّ تبعثُهُ إلى المكتبِ، فتقول: بعثتُهُ، ولا تقولُ: أرسلتُهُ؛ لأنّ الإرسالَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجري مَجرَاها"[3]، فعَبَّرَ بالبعثِ؛ لأنّه لا يقتضي أن يتضمَّنَ رسالةً، بخلافِ الإرسالِ الّذي يقتضي أنّ المُرسَلَ معه رسالةٌ، فلمّا ذَكرتِ الآيةُ تتابعَ المُرسَلينَ إلى قومِهم، وكانَ بعضُهُم لا يحملُ رسالةً تتضمَّنُ شريعةً؛ كانَ التّعبيرُ بالبعثِ أنسبَ وأصلحَ. "كلمةُ البعثِ تُشعِرُكَ بوجودِ شيءٍ، ثمّ انتهاءِ الشّيءِ، ثمّ بعثِ ذلك الشّيءِ من جديدٍ... ولم يكُنْ مِنَ المعقولِ أن يَخلقَ اللّه سبحانَهُ البشرَ، ويجعلَ لهم الخلافةَ في الأرضِ، ثمّ يتركَهُم دونَ مَنهجٍ؛ وما دامَتِ الغفلةُ قد طرأت عليهم من بعدِ آدمَ عليه السلام جاءَ البعثُ لِلمَنهجِ على ألسنةِ الرُّسلِ المبلّغينَ عنِ اللّه تعالى[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/167.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/244.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6116.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ في ﴿بَعَثۡنَا﴾:

عظمةُ اللهِ تبعثُ ألطافًا تحيطُ بالمُرسَلِ والمُرسَلِ إليه

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ عَبَّرَ النّظمُ الجليلُ بضميرِ التّعظيمِ في البعثِ؛ لأنّه بعثٌ عظيمٌ، إذ إنّه صادرٌ عنِ المولى الجليلِ، يحملُ تعاليمَ تَحفظُ القيمَ السّاميةَ الّتي تحتاجُ إليها حياةُ النّاسِ، وتعرّفُهم بالمنهاجِ القويمِ، كما أنّ فيه دلالةً على أنّ مُقتضَى عظمتِهِ ﷻ، أن يُرسِلَ الرُّسلَ إلى أقوامِهم؛ ليعرّفوا النّاسَ بخالقِهِم العظيمِ، فكما يَظهَرُ فإنّ العَظمةَ تُحيطُ بهذا البعثِ، فكانَ مِن حُسنِ البلاغةِ أن يُعبَّرَ بضميرِ التَّعظيمِ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ مع الظَّرفِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾:

الإشارةُ إلى استيعابِ المُرسَلينَ لكلِّ مَراحلِ الزّمانِ بعدَ نوحٍ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا﴾ قَيَّدَ النّصُّ الكريمُ، أنّ البعثَ كائنٌ مِن بعدِهِ، ولم يقُلْ: (ثمّ بعثنا رسلًا)؛ لأنّ الظّرفَ (بعد) يدلُّ على زمانٍ مُطلَقٍ غيرِ مُقيَّدٍ، فلمّا أدخلَ حرفَ الجرِّ (مِن) الدّالَّ على الابتداءِ، بيّنَ أنّ ابتداءَ البعثِ بعدَ نوحٍ عليه السلام لم يَستغرِقْ زمانًا طويلًا، وهذا لا يَتعارَضُ مع دلالةِ (ثمّ)، إذِ الطّولُ والقِصرُ في الزّمانِ نسبيٌّ.

غرضُ تنكيرِ ﴿رُسُلًا﴾:

ثبوتُ الحُجّةِ على الخَلقِ بِتَعاقُبِ الرُّسلِ مِن عَدلِ اللهِ وحكمتِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بصيغةِ التّنكيرِ في لفظِ الرُّسلِ؛ "للتَّفخيمِ ذاتًا ووصفًا؛ أي: رُسُلًا كرامًا ذَوي عَدَدٍ كَثيرٍ"(1)، والتّنكيرُ فيه إبهامٌ في المذكورِ، والإبهامُ يزيدُ ذا الهَيبةِ هَيبةً وفَخامةً، كما أنّهُ يدلُّ على التّكثيرِ، فرُسُلُ اللهِ تعالى كثيرون، والتّنكيرُ أدلُّ على التّكثيرِ.

إبهامُ الرُّسلِ هنا، وذِكرُهُم في مَواضِعَ أخرى:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ أبهمَ النّظمُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.

الإيجازُ في التّعبيرِ اكتفاءٌ بتفصيلِ المُوجَزِ في سياقٍ آخرَ

الكريمُ ذِكرَ الرُّسلِ ولم يُسَمِّهِم، ومنهم هودٌ وصالحٌ وإبراهيمُ ولوطٌ وشعيبٌ ﷺ، فأخبرَ أنّه أرسلَهُم بالبيّناتِ، وأنّ أقوامَهُم جَرَوا على مِنهاجِ قومِ نوحٍ في التّكذيبِ، ولم يَزجُرْهُم مَا بلَّغَهُم مِن هلاكِهِم[1].

وإنّما أبهَمَ ذكرَهُم؛ لأنّ المرادَ بيانُ استمرارِ الأقوامِ بتكذيبِ أنبيائِهِم، فعبَّرَ عن ذلكَ بذكرِهِم بطريقةِ الإيجازِ، ثمّ أفضى إلى قصّةٍ أخرى مِن قَصصِ أولي العزم.

دلالةُ تخصيصِ كُلِّ أمّةٍ برسولٍ:

بَعثُ الرُّسلِ بالرِّسالاتِ على فتراتٍ، تجديدٌ لِلعهدِ مع اللهِ باطّرادٍ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ بيّنَ النّصُّ الجليلُ أنّ اللهَ تعالى خصَّ كلَّ قومٍ برسولٍ منهُم، فكلُّ رسولٍ يُرسَلُ إلى قومِهِ، وذلكَ لِمَا لِصلةِ القرابةِ مِن أثرٍ في الدّلالةِ على تأكيدِ أنّهُ ناصحٌ لهم، ومُشفِقٌ عليهم، فيكون أدعى لِتصديقِهِم لهُ؛ لأنّ النّاسَ اعتادوا على أن يَثِقوا بمَن هو منهُم، ولاسيّما في أهمِّ شأنٍ، وهو شأنُ الدّينِ والاعتقادِ، فكانَ لا بدَّ أن يكونَ الرّسولُ خاصًّا بالأمّة.

سرُّ الإضافةِ في ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾:

إرسالُ الرّسولِ على مبدأ صلةِ القرابةِ، أدعى إلى الشّفقةِ والتّصديقِ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ أضافَ النَّصُّ الجليلُ لفظَ القومِ إلى ضميرِ الرُّسلِ، والمرادُ أقوامُهُم " لكنْ لا بأنْ أرسَلنا كُلَّ رسولٍ منهُم إلى أقوامِ الكُلِّ، أو إلى قَومٍ مَا أيَّ قَومٍ كانوا، بل كُلَّ رسولٍ إلى قومِهِ خاصّةً"[2]، فكلُّ رسولٍ مِن أولئكَ الرُّسلِ الكرامِ ﷺ، أُرسِلَ إلى قومِهِ وحسب، وهذا يُستفادُ مِن إضافةِ القومِ إلى ضميرِهِم[3].

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَمَا كَانُواْ﴾:

لو لم يكُنْ بعثٌ بهدايةِ الإيمانِ، لَمَا ظَهَرَ طغيانُ الكفرانِ

قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ تدُلُّ الفاءُ على التّفريعِ، فترتَّبَ على إرسالِ الرُّسلِ، أنّ الأقوامَ لم يُؤمِنوا،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/286.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/48.

فانتفاءُ إيمانِهم ترتَّبَ على الإرسالِ، ولو لم يُرسلِ الرُّسلَ لَما ظهرَ كفرُ أقوامِهم، فمَا بعدَ الفاءِ مُترتِّبٌ ذكرًا ووجودًا على ما قبلَها، ومعنى السّببيّةِ ظاهرٌ فيها، لكن ليسَ على اعتبارِ أنّ البعثَ هو سببُ كفرِهم؛ ولكن على اعتبارِ أنّهُم لم يكونوا لِيُظهِروا هذا الكفرَ، لو لم يكُنْ بعثٌ؛ "أي: فَتَسَبَّبَ عن ذلك ضِدُّ ما أُمِرُوا بِه، وقامَت دَلائِلُهُ"(1).

دلالةُ النفي في قولِه: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾:

الكُفرُ قديمٌ مَبثوثٌ في الأقوامِ، وبَعثُ الرُّسلِ يُبرِزُهُ على الدَّوامِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ يدُلُّ النّظمُ القرآنيُّ على عدمِ توقُّعِ الإيمانِ منهم مُستقبَلًا، فالإمكانُ غيرُ مُتوقَّعٍ، ولو بقدرٍ يسيرٍ، "فما كانَ إيمانُهُم إلّا مُمَتنِعًا كالمحالِ لشدّةِ شكيمتِهم في الكُفرِ، وتصميمِهم عليهِ"(2).

دلالةُ النَّفي بصيغةِ الجُحودِ في الآية:

الجمودُ على الكُفرِ ظُلمٌ لِمَداركِ العقلِ والوجدانِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ جاءَ النّفيُ في الآيةِ بصيغةِ نفي الجحودِ؛ للدّلالةِ على المبالغةِ في النّفي؛ لأنّ "كانَ المنفيّة المقترنة بلامِ الجحودِ تدُلُّ على المبالغةِ في النّفي تقديرًا، وبذلك نفي الصّحةِ والاستقامة"(3)، فهذا النّفيُ يدُلُّ على أنّ إيمانَهُم لم يكُنْ لِيقعَ؛ لأنّهُ مَحكومٌ عليهِ بأنّهُ مُمَتنِعٌ مِنَ الوجودِ، فالآيةُ "بيانٌ لاستمرارِ عدمِ إيمانِهم في الزّمانِ الماضي، لا لِعدمِ استمرارِ إيمانِهم كما مَرَّ مِثلُهُ في هذه السُّورةِ الكريمةِ غيرَ مَرَّةٍ؛ أي: فما صَحَّ وما استقامَ لِقَومٍ من أولئكَ الأقوامِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ أن يُؤمِنُوا، بل كانَ ذلكَ مُمتَنِعًا منهُم، لِشدَّةِ شكيمَتِهِم في الكُفرِ والعِنادِ"(4).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/167.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 5/49.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/90.

دلالةُ تأصُّلِ الكُفرِ قبلَ مجيءِ الرُّسلِ وبعدَهُ:

مَن كذَّبَ بمَنهجِ اللهِ في الاعتقادِ لَزِمَ الإصرارَ، ولو خالَفَ كلَّ العبادِ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ دلَّ القَيْدُ ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾، بأنّ هناك تكذيبًا وَقَعَ قبلَهُ، وأنّ الأقوامَ "لم يُقلِعُوا عَن تَكذيبِهِمُ الّذي قابلُوا بِهِ الرُّسُلَ؛ لأنّ التّكذيبَ إنّما يكونُ لِخَبرِ مُخبرٍ، فَقولُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ مُؤذِنٌ بِحُصولِ التّكذيبِ، فلمّا كذَّبُوهُم (جاءُوهُم بالبَيِّنَاتِ) على صدقِهم، فاستَمَرُّوا على التّكذيبِ فما كانُوا ليؤمِنُوا بما كذَّبُوا بِهِ مِن قَبلُ"[1].

بلاغةُ إيجازِ الحذفِ في الآيةِ:

كلّما كانَ السّياقُ مُوجَزًا كانَ انقداحُ المعاني في الذّهنِ أكثرَ وأكبرَ

قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ حيث حَذَفَ جُملًا كثيرةً يقتضيها السّياقُ؛ قولُهُ: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ "يقتضي تَكرُّرَ الدَّعوةِ وتَكرُّرَ البَيّناتِ، وإلّا لَما كانَ لِقولِهِ: ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾ وَقعٌ؛ لأنّ التّكذيبَ الّذي حَصَلَ أوّلَ مَرّةٍ، إذا لَم يَطرَأ عليهِ ما مِن شأنِهِ أن يُقلِعَهُ، كانَ تكذيبًا واحدًا مَنسيًّا، وهذا من بلاغةِ معاني القرآنِ"[2]، فهو مُؤذِنٌ بِحُصُولِ التَّكذِيبِ، والتّقدير: (فَلَمَّا كذّبُوهُم جاؤُوهُم بِالبَيِّنَاتِ عَلَى صِدقِهِم فَاستَمَرُّوا عَلَى التَّكذِيبِ).

دلالةُ مَوقعِ الجملةِ البيانِّي في ختامِ الآيةِ:

تساؤلٌ عن دوامِ الطَّبعِ على القلوبِ، وتجدُّده في الأجيالِ اللّاحقةِ

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ فلمّا "قرَّرَ عدمَ انتفاعِهِم بالآياتِ، بَنى ما يَليهِ على سُؤالِهِ مَنْ لعلَّهُ يقولُ: هَلِ استمَرَّ الخَلقُ فِيمَن بعدَهُم؟ فَكَأنَّهُ قيلَ: نَعَم! ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مِثلَ مَا طَبعنا على قلوبِهِم هذا الطَّبعَ العَظيمَ ﴿نَطۡبَعُ﴾؛ أي: نُوجِدُ الطَّبعَ ونُجَدِّدُهُ متى شِئنا، بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ "[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/166.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

عِلَّةُ اختصاصِ (القلوب) بقولِهِ: ﴿قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾:

شناعةُ التَّكذيبِ مُتناسِبَةٌ مع فظاعةِ الطَّبعِ على القلبِ

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ذَكَرَ النّظمُ الكريمُ أنّ الله تعالى قد جَعَلَ الطّبعَ على القلوبِ جزاءً لَهُم؛ وإنّما جَعَلَ جزاءَهُم ذلك؛ لأنّ تكذيبَ الرّسالاتِ شنيعٌ وجرمٌ كبيرٌ، فناسبَهُ أن يكونَ الجزاءُ مُوافِقًا لِتلكَ البشاعةِ، فكانَ الطَّبعُ على قلوبِهِم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿نَطۡبَعُ﴾:

مَن طَبَعَ على قلبِهِ فلا أملَ لهُ في إيمانٍ ولا نجاةٍ

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عَبَّرَ بالفعلِ ﴿نَطۡبَعُ﴾؛ للدّلالةِ على الحيلولةِ دونَ تأثُّرِ قلوبِهم بالبيّناتِ، وتأثيرِها فيهِم، "فَإنَّ الطَّبعَ مُؤذِنٌ بأنَّ قُلُوبَهُم قد وَرَدَ عَلَيها ما لَوْ خَلَت عندَ وُرُودِهِ عَنِ الطَّبعِ عَلَيها لَكانَ شَأْنُهُ أن يَصلَ بِهِم إلى الإيمانِ"[1].

دلالةُ التَّمثيلِ والإشارةِ في ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾:

جُعِلَ طَبْعُ القُلُوبِ قديمًا يَتَشَابَهُ مع طبعِها حديثًا

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، عَبَّرَ باسمِ الإشارةِ؛ لِلإشارةِ إلى الطَّبعِ العظيمِ المُحكَمِ[2]، وقد جُعِلَ الطّبعُ الّذي وَقَعَ على قلوبِ هَؤلاءِ مَثلًا لِكَيفيّاتِ الطَّبعِ على قُلوبِ المُعتَدِينَ في كُلِّ أوانٍ، فقولُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ أي: مِثلَ هذا الطَّبعِ العَجيبِ نَطبَعُ على قلوبِ المُعتدِينَ، فَتَأمَّلُوهُ واعتَبِرُوا بِهِ[3].

سِرُّ إيثارِ اسمِ الإشارةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

طُبِعَ على قلوبِهِم طَبعًا بعيدَ المَنزلةِ في الإحكامِ

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ آثرَ النَّظمُ الكريمُ التّعبيرَ باسمِ الإشارةِ الدّالِّ على البُعدِ، ولم يقُلْ: (كهذا الطّبعِ)؛ إشارةً إلى أنّهُ طَبعٌ بعيدٌ في رُتبةِ المَنعِ والشِّدّةِ؛ تعظيمًا له، وإيماءً إلى أنّهُ طبعٌ بحيث لا يَزولُ، فهو طَبعٌ مُحكَمٌ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/361.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/245.

القلبُ القاسي لا تنفعُهُ الموعظةُ، كالأرضِ السَّبخةِ لا ينفعُها المطرُ

دلالةُ الاستعارةِ في الآية:

في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ استعارةٌ مَكنيَّةٌ، فاستعارَ الطّبعَ "لعدمِ دُخُولِ الإيمانِ قلوبَهُم"(1)، فشبَّهَ القلوبَ بالشَّيءِ الّذي يُختَمُ عليهِ، فلا يمكنُ أن يتطرَّقَ إليه التّغييرُ، ويمتنعَ دخولُ شيءٍ عليهِ، فكذلك قلوبُ هؤلاءِ امتنعَ دخولُ الإيمانِ عليها، فَحَذَفَ المشبّهَ بهِ، وأبقى الدّليلَ عليهِ، والجامعُ بينَهُما امتِناعُ الدُّخولِ.

الاعتداءُ يَنطبِقُ على كُلِّ وَصفٍ عُدوانيٍّ مَشينٍ في كُلِّ زمانٍ

دلالةُ (اللّامِ) في ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ أدخلَ النّظمُ الكريمُ الألفَ واللّامَ في قولِهِ: ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾؛ للدّلالةِ على جنسِ المُعتدينَ، فالطّبعُ كائنٌ لَهُم "في كُلِّ زَمَنٍ لِكُلِّ مَن تعمَّدَ العَدوَ فِيما لَا يَحِلُّ لَهُ"(2)، وليسَ المُرادُ قومًا مَعهودينَ بأعينِهِم، فالحُكمُ صالحٌ لكُلِّ زمانٍ، وهو جارٍ مَجرَى الحُكمِ والسُّنّةِ الماضيةِ.

الطَّبعُ على القلبِ يُناسِبُ يأسَ (المُعتَدِينَ) مِن أملِ الغُفرانِ

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾:

في قوله جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ عَبَّرَ النّظمُ الكريمُ بصيغةِ الافتعالِ دونَ الفعلِ، فلم يقُلْ: (العادِين)؛ وقد عَبَّرَ بهِ القرآنُ في دلالةٍ أخرى، حينَ قالَ: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ [المؤمنون: 7]. وسببُ إيثارِ لفظِ المُعتدِينَ على العادِين أنَّ الطّبعَ على القلوبِ مِن أشدِّ الجزاءِ، وهُو حُكمٌ لا يتغيَّرُ فيهم، فناسبَ أن يكونَ للّذينَ قدِ اعتادُوا الاعتداءَ وتكلَّفُوهُ، ولم يجعلْهُ (لِلعادِين)؛ لأنّ توبتَهُ تعالى مَفتوحةٌ لِكُلِّ مَن عدا على الحقِّ مرَّةً أو زادَ، أمّا مَنِ اعتادَ الأمرَ وتمرَّسَهُ، فقدِ استأهلَ أن يَطبعَ على قلبِهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/246.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

المُتشابِهُ اللّفظيُّ:

التّشابهُ بينَ قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، وقولِهِ تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: 101]. لقد خَصَّ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عَنِ الذّاتِ الجليلةِ بالضّميرِ مرّةً فقالَ: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾، وبالاسمِ الجليلِ مرّةً أخرى فقالَ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ﴾، كما أنّهُ خَصَّ كلَّ آيةٍ بخاتمة؛ حيث خُتِمَتِ الآيةُ الأولى بقولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، وخُتِمَتِ الآيةُ الثّانيةُ بقولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أمّا التّصريحُ بالاسمِ الجليلِ في الآيةِ الثّانيةِ دونَ الأولى فلأنَّ التّعبيرَ بالضّميرِ في الآيةِ في سورة يونس مُرتَبطٌ ومُناسِبٌ لِما بدأت به الآيةُ؛ حيثُ ابتدأت بقولِهِ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا﴾، فأسندَ الفعلَ إلى ضميرِ التّعظيمِ، فنَاسبَ أن يبنيَ عليه قولَهُ آخرًا: ﴿نَطۡبَعُ﴾ مُراعاةً للتّناظُرِ والتّقابُلِ[1]. وأمّا الختامُ فخُتِمَتِ الآيةُ الأولى بقولِهِ: ﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، والمُرادُ بِهِ المُشركونَ؛ لأنّ الشِّركَ ظلمٌ، وهو أشدُّ الاعتداءِ، فإنّهُم كذَّبُوا الرّسولَ ﷺ، فاعتَدَوا على الصّادِقينَ بِلَمزِهِم بالكذِبِ، وقولُهُ في سورةِ الأعرافِ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فَهَذا التّحالُفُ لِلتّفَنُّنِ في حكايةِ هَذهِ العِبرَةِ في المَوضِعَينِ[2]، كما أنّهُ يزيدُ مِن بيانِ صفاتِهِم، فبيَّنَ كلَّ مَوضِعٍ صفةً مِن صفاتِهِم، ولم يُكرِّرْ صفةً واحدةً.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/558.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/246.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٧٥﴾ [يونس: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أنْ طَبَعَ اللهُ على قلوبِ المُعتدِينَ، مَثَّلَ لِذلك بِقصّةِ مُوسى وفِرعونَ

مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها أنّ اللّه تعالى لمّا ذَكَرَ قصّةَ نوحٍ عليه السلام على التّفصيلِ، وقصصَ مَن بعدَهُ على الإجمالِ، أتبعَ ذلك قصّةَ موسى عليه السلام مع فرعونَ، ولمّا خَتَمَ الآيةَ السّابقةَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، بيّنَ أنّ "هذا كما أتى مُوسى عليه السلام إلى فِرعونَ فَدعَاهُ إلى اللّه فكذّبَهُ، فأخبرَهُ أنّ معَهُ آيةً تُصدِّقُهُ، فقَالَ لهُ: إنْ كنتَ جِئتَ بآيةٍ فأْتِ بها إنْ كنتَ مِنَ الصَّادِقينَ، فَلمَّا أتاهُ بها استمرَّ على تكذيبِه، وكانَ كلَّما رأى آيةً ازدادَ تَكذِيبًا، وكانَ فِرعونُ قد قَوِيَ مُلكُهُ، وعَظُمَ سُلطانُهُ، وعَلا في كبريائِه، وطَالَ تَجَبُّرُهُ على الضُّعفاءِ، فَطُمِسَت أموالُهُ وآثارُهُ، وبَقِيَت أحاديثُهُ وأخبارُهُ، ولِهذا أفصَحَ سُبحانَهُ بقصّتِه"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: الملأُ: جماعةٌ مِنَ النّاسِ يجتمعونَ لِيتشاورُوا ويَتحادثُوا، والجميعُ: الأَمْلاءُ[2]، والملأُ بالقصرِ والهمزِ: الرّؤساءُ والأشرافُ. واحتجَّ بقولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246][3]، ومَلأَ الشّيءَ يَملؤُه مَلأً، فَهُوَ مَملوءٌ، والمَلَأُ: الرُّؤَساءُ، سُمُّوا بذَلِكَ لأنّهُم مِلاءٌ بِمَا يُحتاجُ إلَيهِ. وهُم أشرافُ القَومِ ووجُوهُهم ورؤَساؤُهم ومُقدَّمُوهم، الَّذِينَ يُرجَعُ إِلَى قَولِهِم[4]. والمَلَأُ: جماعةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.
(2) الخليل، العين: (ملأ).
(3) ابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/161.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ملأ).

يَجتمعونَ على رأيٍ، فَيملَؤُونَ العُيُونَ رِوَاءً ومَنظَرًا، والنّفوسَ بهاءً وجلالًا، قالَ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246]، و﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 33][1].

2) ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: (كبر) الكَافُ والبَاءُ والرَّاءُ أصلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ[2]، والاستِكبارُ يُقالُ على وَجهينِ: أحدُهُما: أن يَتَحرَّى الإنسانُ ويَطلُبَ أن يَصيرَ كبيرًا، وذلك متى كانَ على ما يَجِبُ، وفي المكانِ الّذي يَجِبُ، وفي الوقتِ الّذي يَجِبُ فمحمُودٌ. والثّاني: أن يَتَشَبَّعَ فَيُظهِرَ مِن نفسِهِ مَا ليسَ لهُ، وهذا هُوَ المذمُومُ، وعلى هذا ما وَرَدَ في القرآنِ، وهُوَ ما قالَ تعالى: ﴿أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [البقرة: 34]، وقالَ تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ [البقرة: 87][3].

3) ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾: أصلُ الجَرْمِ: قَطعُ الثَّمَرَةِ عنِ الشَّجرِ، وأجرَمَ: صار ذا جَرمٍ، نحو: أثمَرَ وألبَنَ، واستُعيرَ ذلكَ لِكلِّ اكتسابٍ مَكرُوهٍ، ولا يكادُ يُقالُ في عامَّةِ كلامِهم لِلكَيِّسِ المَحمُودِ، فمِنَ الإجرَامِ قولُهُ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ [المطفّفين: 29][4]، والجُرْمُ: التَّعدِّي، والذَّنبُ، وَالجمعُ أجرامٌ وجُرُومٌ، وهُوَ الجَرِيمَةُ[5]. ويُقالُ: جَرَمَ أجرمَ، ﴿فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي﴾ [هود: 35]. وفلانٌ جريمةُ أهلِهِ؛ أي: كاسبُهُم، واجترمَ بمعنى: اكتسبَ. والجريمةُ: ما يكتسبُهُ الإنسانُ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ عظيمِ المُحاوراتِ بينَ الحقِّ والباطلِ قصّةُ مُوسى وهارونَ مع فِرعونَ

يخبرُ اللّه تعالى أنّه قد أرسلَ من بعدِ أولئكَ الرُّسلِ عليهم السلام "مُوسى

(1) الرّاغب، المفردات: (ملأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(3) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(4) الرّاغب، المفردات: (جرم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (جرم).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جرم).

وأخاه هارونَ إلى فِرعونَ ملك مصرَ، وإلى خاصّتِهِ، داعينَ إلى عبادةِ اللّه وحدَهُ، ومُؤيَّدينَ بالحُججِ الباهرةِ، فاستكبرَ فِرعونُ وقومُهُ عن مُتابعةِ مُوسى وهارونَ في دعوتِهما، وكانُوا بهذا الرّفضِ مُرتَكِبينَ جرمًا عَظيمًا، آثمينَ بهِ"(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطفِ في الآية:

القَصصُ القرآنيُّ تتكامَلُ، وتُقبَسُ كلُّها مِن مشكاةٍ واحدةٍ

قولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ معطوفٌ على قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾، فهو عطفُ قصّةٍ على قصّةٍ سابقةٍ(2)، وهو من عطفِ الخاصِّ، لِما في هذا الخاصِّ مِن عِبرٍ وعِظاتٍ، فاهتمَّ بهِ، وأفردَهُ بالتّفصيلِ دونَ الإجمالِ.

دلالةُ العطفِ بالحرفِ ﴿ثُمَّ﴾:

مُوسى وهارون مِن أعظمِ أنبياءِ بني إسرائيلَ قُدوةً وتأثيرًا

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ آثرَ النّظمُ الكريمُ العطفَ بحرفِ العطفِ (ثمّ)، الدّالِّ على التّراخي الرُّتبيِّ؛ "لأنّ بعثةَ مُوسى وهارونَ عليهما السلام كانَت أعظمَ مِن بعثةِ مَن سَبَقَهُما مِنَ الرُّسُلِ"(3)، ويُحتملُ أن يُرادَ به التّراخي الزّمنيّ، والمعنى: وبعثْنا مُوسى بعدَ زَمنٍ طويلٍ، مِن إهلاكِنا أولئك الأقوامِ(4).

دلالة ﴿بَعَثْنَا﴾:

واجهَ مُوسى وأخوه فِرعونَ باعتبارِهِ مَبعوثَ العنايةِ الإلهيّةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عَبَّرَ السّياقُ الكريمُ بالبعثِ الّذي لا يقتضي أن تكونَ هناك رسالةٌ؛ لأنّه لم يأتِ برسالةٍ إلى فِرعونَ، فكانَ مُجرَّدَ تبليغٍ لَهُم بالوحدانيّةِ، وبإبطالِ ادّعاءِ ألوهيَّةِ فِرعونَ، "وقد جاءَ مُوسى بآياتٍ؛ أي: جاءَ... بالبيّنةِ

(1) جماعة منَ العلماء، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 299.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/246.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

الدّالّةِ على رسالتِهِ، وجاءَ بالعصا الّتي ألقاها، فإذا هي حيَّةٌ تَسعَى، وكانَ قومُهُ على عِلمٍ بالسِّحرِ، فإذا عَرفوا أنّها ليسَت سِحرًا قامَت عليهم الحُجّةُ"[1].

معنى ضمير العَظمةِ في ﴿بَعَثۡنَا﴾:

عظمةُ البعثِ مِن عظمةِ الباعثِ، وقداستُهُ مِن قداسةِ المَضمونِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أسندَ الفعلَ إلى ضميرِ التّعظيمِ في البعثِ؛ لأنّهُ أشارَ إلى أنّهُ بَعثٌ عظيمٌ، اكتسبَ عظمتَهُ مِنَ المُرسِلِ المُعظَّم نفسِهِ بما يستحقُّهُ مِن تعظيمٍ وجلالٍ، كما اكتسبَ ذلك التّعظيمَ مِنَ الغايةِ الّتي حَصَلَ البعثُ لأجلِها، وهي هدايةُ النّاسِ وإقامَةُ التّوحيدِ.

دلالةُ الزّمنِ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهِم﴾:

رسالةُ مُوسى وهارون تجديدٌ لِلوصلِ بينَ السّماءِ والأرضِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أدخلَ حرفَ الجرِّ (مِن)؛ للدّلالةِ على عدمِ استغراقِ زَمَنِ البُعدِ[2]، والمعنى: أنّ بَعثَ مُوسى وهارونَ عليهما السلام تحقَّقَ بعدَ انتهاءِ مرحلةِ تلك الرُّسلِ، بحيثُ مرَّ زمانٌ بقدرٍ يُمكِنُ أن يُقالَ لهُ: إنّهُ مَرحلةٌ جديدةٌ كائِنةٌ بعدَ تلكَ الرّسالاتِ، ودخولُ (مِن) يدُلُّ على أنّ بَعثَ مُوسى عليه السلام كانَ في ذلكَ الوقتِ.

علّةُ التقديمِ في ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾:

مُوسى رسولٌ بدأ اللهُ به الدّعوةَ، ثمّ شدَّ عضدَهُ بأخيهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ قَدَّمَ النّظمُ الكريمُ ذِكرَ مُوسى قبلَ هارونَ عليهما السلام؛ لأنّهُ المبعوثُ أصالةً، وأمّا هارونُ فكانَ بعثُهُ استجابةً لطلبِ مُوسى، إذ أرادَهُ أن يكونَ مُعينًا لهُ ومُؤازرًا، فقدَّمَ المبعوثَ أصالةً؛ لأنّهُ الأجدرُ بالتّقديمِ. وقالَ اللّه لموسى عليه السلام: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ [طه: 13]، فالأصلُ إذن كانَت رسالةُ مُوسى عليه السلام ثمّ ضمَّ اللّه سبحانَهُ هارونَ إلى مُوسى؛ إجابةً لسؤالِ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3619.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/168.

مُوسى، قالَ تعالى: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: 29 - 32]، والدّليلُ على ذلك أنّ الآياتِ كلَّها المبعوثةَ في تلك الرّسالةِ كانَت بيدِ مُوسى، وحين يكونُ مُوسى هو الرّسولَ، وينضمُّ إليهِ هارونُ، لابدَّ إذن أن يُصبحَ هارونُ رسولًا. ولذلك نجدُ القرآنَ مُعبِّرًا عن هذا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: 47]؛ أي: أنّهما رسولان مِنَ اللّه. وفي آيةٍ أخرى يقولُ الحقُّ سبحانَه: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشّعراء: 16][1].

دلالةُ عطفِ الملأ على فِرعونَ في قولِه: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾:

بطانةُ فِرعونَ زيّنَت لهُ الباطلَ، فأُلحِقَت بهِ في الوصفِ والمصيرِ

قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عَطفُ الملأِ على فِرعونَ يُفصِحُ عن أنّ مُوسى لم يُبعَثْ إلى فِرعونَ وحسب، بل بُعِثَ إلى فِرعونَ وحاشيتِه، وأهلِ الحلِّ والعَقْدِ مِنَ النّاسِ، والمُرادُ بالملأ: "الأشرافُ مِن قومِه، فإنّ الأطرافَ تَبَعٌ لَهُم"[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى تأثيرِ هؤلاء في رأيِ جمهورِ النّاسِ، وأنّ فِرعونَ لم يكُنْ لِيفعلَ ما فَعَلَ لو كانَ وحدَهُ بلا هذهِ الحاشيةِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾:

الملأُ يُبالِغونَ في تصنُّعِهم، والنّاسُ على دينِ مُلوكِهم

قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أضافَ الملأَ إلى ضميرِ فِرعونَ؛ للدّلالةِ على أنّهُم مُختّصونَ بهِ، وأنّهُم تابعونَ لهُ، وليسَ لهم شأنٌ بمصالحِ النّاسِ، بل ديدنُهم ومُنتهى شأنهم الإخلاصُ إلى فِرعونَ، فهُم بطانتُهُ وحاشيتُهُ؛ لأنّهُم" هُم أشرافُ القوم، ووجوهُهُ وأعيانُهُ، والمقرَّبون مِن صاحبِ السّيادةِ العليا، ويُقالُ لَهُم: (ملأ)؛ لأنّهُم هُمُ الّذين يملؤونَ العيونَ؛ أي: لا ترى العيون غيرَهُم ... وكانَ الكهنةُ يؤكِّدُونَ أنّ الفرعونَ إلهٌ، ولكُلِّ فِرعونَ مَلأٌ يَصنعونَهُ"[3].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6122.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/169.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6124.

دلالةُ اختصاصِ ذكرِ فئةِ (الملأ):

خطابُ النُّخبةِ والسّراةِ يَنسحبُ على العامّةِ، كما يَنسحبُ على الذّواتِ

قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، خصَّ ذِكرَ الملأ من سائرِ النّاسِ؛ "لِأصالتِهم في إقامةِ المَصالحِ والمُهمَّات، ومُراجعةِ الكُلِّ إليهم في النَّوازلِ والمُلمّات"(1)، فالبعثُ وُجِّهَ إلى أشرافِ القوم والطّبقةِ العليا في الحُكم؛ لِما لهؤلاء من تأثيرٍ على النّاسِ وعلى فِرعونَ، وإلى مَلَئِه؛ أي: خاصّته وأشراف مملكتِه، وأركان دولتِه، ولذلك اقتصرَ عليهِم؛ لأنّ غيرَهُم كالتّابعِ لَهُم(2).

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

الاستكبارُ إعراضُ المُنذَرينَ عندَ بلوغِهم الحقَّ، وظهورِ البيانِ

في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ دلَّتِ الفاءُ على التّفريعِ؛ للدّلالةِ على تفريعِ استكبارِهم على البعثِ، فإنّ ذلك الاستكبارَ مُترتِّبٌ وجوديًّا على البعثِ، "وتفريعُ (فاستكبَروا) على جملة (بَعثنا) يدلُّ على أنّ كلَّ إعراضٍ منهُم وإنكارٍ في مُدَّةِ الدَّعوةِ والبَعثَةِ، هو استِكبارٌ"(3)، وليسَت لِلسّببيَّة؛ لأنّ البعثَ لا يكونُ سببًا لِلاستكبارِ، ويُمكنُ لمحُ السّببيّةِ على معنى أنّ البعثَ سَبَّبَ إظهارَ مكنونِ قلوبِهم مِنَ الكُفرِ والاستكبارِ، وليسَ هُوَ السّببَ الأصلَ في استكبارِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

الاستكبارُ تطلّبَ الكبرَ، بالتّعالي على شرعِ اللهِ في النّهي والأمرِ

قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ جاءَ الفعلُ الدّالُّ على تكبُّرِهم على الإيمانِ بصيغةِ الاستفعالِ؛ لِلدّلالةِ على المبالغةِ في التَّكبُّرِ، كما أنّ الصّيغةَ تدلُّ على الطّلبِ، فكأنَّهُم قد طلبُوا هذا الكِبرَ على قبولِ الآياتِ؛ تجسيدًا لِرغبتِهم في التّعالي على الإيمانِ، كما يدلُّ على أنّ ليسَ لديهم مُوجبات ذلك، فاستكبارُهُم إنّما هو ادّعاءٌ من غيرِ استحقاقٍ لذلك، "فاستكبَرُوا تعاظَموا عَن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/247.

قَبُولِها، وأعظمُ الكِبرِ أن يَتَعاظَمَ العَبيدُ عَن قَبُولِ رسالةِ ربِّهِم، بعدَ تَبيُّنِها واستِيضاحِها"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالاستكبارِ في ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

الإعــراضُ عـن الإيـمـانِ، ليسَ إلّا استكبارًا عن جـهـلٍ وسفاهةِ رأيٍ

قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ عَبَّرَ عن تكذيبِهِم بالاستكبارِ دلالةً على سُوءِ طويّتِهِم، فإنّ انبعاثَ كُفرِهِم ليسَ عن درايةٍ؛ بل عن تَكبُّرٍ واحتقارٍ لِلمُرسَلِ إليهِم، فالمرادُ "أنّهم تَكبَّرُوا عن تَلَقِّي الدَّعوةِ مِن مُوسى؛ لأنّهُم احتَقَرُوهُ، وأحالُوا أن يكونَ رَسُولًا مِنَ اللّه، وهُو مِن قومٍ مُستَعبَدِينَ، استَعبَدَهُم فِرعونُ وقومُهُ، وهذا وجهُ اختيارِ التّعبيرِ عن إعراضِهِم عن دَعوتِهِ بالاستكبارِ، كما حَكَى اللّه عنهُم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: 47]"[2].

الدّلالةُ في ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾:

مَنِ استكبرَ صَغُرَ غيرُهُ لديهِ، ومَن شَبَّ على شيءٍ شَابَ عليهِ

قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ عَبَّرَ عن اتِّصافِهِم بالإجرامِ بالفعلِ (كَانوا)؛ لِلدّلالةِ على أنّهُم مُتمرِّسُونَ في الإجرامِ، عريقونَ فيهِ، مِن قديمٍ؛ "أي: وقد كانَ الإجرامُ دَأبَهُم وخُلُقَهم فكانَ استِكبارُهُم على مُوسى مِن جُملةِ إجرامِهِم"[3].

دلالةُ ختمِ الآيةِ بقولِهِ: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾:

الاسـتـكـبـارُ مُـفـضٍ إلى الإجرامِ المُهلِكِ، والضّلالِ الفاتكِ

خَتَمَ النّظمُ الكريمُ الآيةَ بقولِهِ تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾؛ تقريرًا وتعليلًا لِما سَبَقَ، فهو "اعتراضٌ مُقَرِّرٌ لِمضمونِ ما قبلَهُ؛ أي: كانوا مُعتادِينَ لِارتكابِ الذُّنوبِ العِظامِ، فإنّ الإجرامَ مُؤذِنٌ بِعظَمِ الذَّنبِ، ومنهُ الجِرمُ؛ أي: الجُثّةُ، فلِذلِكَ اجتَرَؤُوا عَلى ما اجتَرَؤُوا عليهِ مِنَ الاستِهانةِ برسالةِ اللّه تعالى"[4]، فصفةُ الإجرامِ مُناسِبةٌ لِما تَقَدَّمَ مِن وصفِهِمُ الحقَّ بأنّه سِحرٌ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/90، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/247.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/247.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/167.

المحتويات